# سورة يوسف

**مكية إلا الآيات ١ و٢ و٣ و٧ فمدنية وآياتها: ١١١، نزلت بعد سورة هود**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾

وقد ذكرنا في أول سورة يونس تفسير: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] فقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسماة ﴿الٓر﴾ هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وهو القرآن، وإنما وصف القرآن بكونه مبينًا لوجوه: الأول: أن القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد ﷺ. والثاني: أنه بين فيه الهدى والرشد، والحلال والحرام، ولما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبينًا لهذه الأشياء. الثالث: أنه بينت فيه قصص الأولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين.

**ثم قال:** ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين، سلوا محمدًا لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن كيفية قصة يوسف، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وذكر فيها أنه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية، ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها. والتقدير: إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه قرآنا عربيًّا، وسمى بعض القرآن قرآنًا، لأن القرآن اسم جنس يقع على الكل والبعض.

**المسألة الثانية:** احتج الجبائي بهذه الآية على كون القرآن مخلوقًا من ثلاثة أوجه:

**الأول:** أن قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يدل عليه، فإن القديم لا يجوز تنزيله وإنزاله وتحويله من حال إلى حال.

**الثاني:** أنه تعالى وصفه بكونه عربيًّا والقديم لا يكون عربيًّا ولا فارسيًّا.

**الثالث:** أنه لما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ دل على أنه تعالى كان قادرًا على أن ينزله لا عربيًّا، وذلك يدل على حدوثه.

**الرابع:** أن قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يدل على أنه مركب من الآيات والكلمات، وكل ما كان مركبًا كان محدثًا.

والجواب عن هذه الوجوه بأسرها أن نقول: إنها تدل على أن المركب من الحروف والكلمات والألفاظ والعبارات محدث وذلك لا نزاع فيه، إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر فسقط هذا الاستدلال.

**المسألة الثالثة:** احتج الجبائي بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقال: كلمة (لعل) يجب حملها على الجزم، والتقدير: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لتعقلوا معانيه في أمر الدين، إذ لا يجوز أن يراد بلعلكم تعقلون؟ الشك لأنه على الله محال، فثبت أن المراد أنه أنزله لإرادة أن يعرفوا دلائله، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من كل العباد أن يعقلوا توحيده وأمر دينه، من عرف منهم، ومن لم يعرف، بخلاف قول المجبرة.

**والجواب:** هب أن الأمر ما ذكرتم إلا أنه يدل على أنه تعالى أنزل هذه السورة، وأراد منهم معرفة كيفية هذه القصة ولكن لم قلتم: إنها تدل على أنه تعالى أراد من الكل الإيمان والعمل الصالح.

**قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾**

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** روى سعيد بن جبير أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله ﷺ وكان يتلوه على قومه، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم، فقالوا: لو حدثتنا فنزل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ [الزمر: ٢٣]، فقالوا: لو ذكّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

**المسألة الثانية:** القصص إتباع الخبر بعضه بعضًا وأصله في اللغة: المتابعة قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي اتبعي أثره، وقال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي اتباعًا وإنما سميت الحكاية قصصًا؛ لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئًا فشيئًا كما يقال: تلا القرآن إذا قرأه لأنه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية والقصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى الاقتصاص يقال: قص الحديث يقصه قصًا وقصصًا إذا طرده وساقه كما يقال أرسله يرسله إرسالاً ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك: هذا قدرة الله تعالى أي مقدوره وهذا الكتاب علم فلان أي معلومه وهذا رجاؤنا أي مرجونا، فإن حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك أحسن الاقتصاص، وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان لا إلى القصة، والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئًا منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه

أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، فإن إحدى الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه.

**والفائدة الثانية:** دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان.

**والفائدة الثالثة:** أن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام، فإنه لما صبر فاز بمقصوده، وكذلك في حق يوسف عليه السلام.

**فأما قوله:** ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فالمعنى بوحينا إليك هذا القرآن، وهذا التقدير: إن جعلنا (ما) مع الفعل بمنزلة المصدر.

**ثم قال:** ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ يريد من قبل أن نوحي إليك ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ عن قصة يوسف وإخوته؛ لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحي، ومنهم من قال: المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** تقدير الآية: اذكر ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾ قال صاحب (الكشاف): الصحيح أنه اسم عبراني، لأنه لو كان عربيًا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف، وقرأ بعضهم (يوسِف) بكسر السين و(يوسَف) بفتحها. وأيضًا روى في يونس هذه اللغات الثلاث، وعن النبي ﷺ قال: «إِذَا قِيلَ مَنِ الْكَرِيمُ فَقُولُوا: الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السلام»(١).

**المسألة الثانية:** قرأ ابن عامر (يا أبتَ) بفتح التاء في جميع القرآن، والباقون بكسر التاء. أما الفتح فوجهه أنه كان في الأصل يا أبتاه على سبيل الندبة، فحذفت الألف والهاء. وأما الكسر فأصله يا أبي، فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فأدخلوا عليه الإضافة، وهذا قول ثعلب وابن الأنباري.

واعلم أن النحويين طولوا في هذه المسألة، ومن أراد كلامهم فليطالع (كتبهم).

**المسألة الثالثة:** أن يوسف عليه السلام رأى في المنام أن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر سجدت له، وكان له أحد عشر نفرًا من الإخوة، ففسر الكواكب بالإخوة، والشمس والقمر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢١٢) حديث رقم/ ٦٠٥، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٣٢) حديث رقم/ ٨٣٧٣، كلاهما من طريق محمد بن عمرو قال حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة... به.

بالأب والأم، والسجود بتواضعهم له ودخولهم تحت أمره، وإنما حملنا قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ على الرؤيا لوجهين: الأول: أن الكواكب لا تسجد في الحقيقة، فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا. والثاني: قول يعقوب عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥] وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فقوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾ لا يليق إلا بالعقلاء، والكواكب جمادات، فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات.

قلنا: إن جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية، وكذلك احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء. وقال الواحدي: إنه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل، فأخبر عنها كما يخبر عمن يعقل كما قال في صفة الأصنام ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] وكما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

السؤال الثاني: قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية، وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فما الفائدة في هذا التكرير؟

الجواب: قال القفال رحمه الله: ذكر الرؤية الأولى لتدلَّ على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له، وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فكأنه قيل له: كيف رأيت؟ فقال: رأيتهم لي ساجدين، وقال آخرون: يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤية، وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤيا وأيهما الرؤيا فذكر قولاً مجملاً غير مُبيَّن.

السؤال الثالث: لم أخر الشمس والقمر؟

قلنا: أخرهما لفضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨].

السؤال الرابع: المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما في قوله[1]:

تَرَى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ

قلنا: كلاهما محتمل، والأصل في الكلام حمله على حقيقته ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له.

السؤال الخامس: متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا؟

قلنا: لا شك أنه رآها حال الصغر، فأما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم إلا بالإخبار. قال وهب:

---

(١) هذا عجز بيت من البحر الطويل لزيد الخيل الطائي والبيت هكذا:

بِجَيْشٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَراتِهِ تَرى الأُكْمَ مِنْهُ سُجَّداً لِلحَوافِرِ

وأما زيد الخيل فقد تقدمت ترجمته.

رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصًا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال: لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيدًا. وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة وقيل: ثمانون سنة.

واعلم أن الحكماء يقولون: إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين. قالوا: والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضي أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدمًا على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم.

**السؤال السادس**: قال بعضهم: المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه؟

**قلنا**: إنما قالوا ذلك من حيث ورد في الخبر أن والدته توفيت وما دخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا: ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت؛ لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام لا بد وأن تكون وحيًا وهذه الحجة غير قوية لأن يوسف عليه السلام ما كان في ذلك الوقت من الأنبياء.

**السؤال السابع**: وما تلك الكواكب؟

**قلنا**: روى صاحب (الكشاف) أن يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت رسول الله ﷺ فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودي: «**إِنْ أَخْبَرْتُكَ هَلْ تُسْلِمُ**» قال: نعم قال: «**جَرْبَانُ وَالطَّارِقُ وَالذَّيَّالُ وَقَابِسٌ وَعَمُودَانُ وَالْفَلَيْقُ وَالْمُصْبِحُ وَالضَّرُوحُ وَالْفَرْغُ وَوَثَّابٌ وَذُو الْكَتِفَيْنِ رَآهَا يُوسُفُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ وَسَجَدَتْ لَهُ**» فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها. واعلم أن كثيرًا من هذه الأسماء غير مذكور في الكتب المصنفة في صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

**في الآية مسائل:**

**المسألة الأولى**: قرأ حفص ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياء والباقون بالكسر.

**المسألة الثانية**: أن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فقال: لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيدًا.

**المسألة الثالثة**: قال الواحدي: الرُّؤيا مصدر كالبُشْرى والسُّقْيا والشُّوْرى إلا أنه لما صار اسمًا لهذا المتخيل في المنام جرى مجرى الأسماء. قال صاحب (الكشاف): الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة فلا جرم فرق بينهما بحرفي التأنيث، كما قيل: القُرْبة والقُربى وقرئ (روياك) بقلب الهمزة واوًا وسمع الكسائي يقرأ رُيَّاك ورِيَّاك بالإدغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة.

**ثم قال تعالى**: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ وهو منصوب بإضمار أن، والمعنى إن قصصتها عليهم كادوك.

**فإن قيل**: فلم لم يقل فيكيدوك كما قال: ﴿فَكِيدُونِي﴾[هود: ٥٥].

**قلنا**: هذه اللام تأكيد للصلة كقوله ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[يوسف: ٤٣]، وكقولك: نصحتُك ونصحتُ لك وشكرتك وشكرتُ لك، وقيل: هي من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيدًا لك. قال أهل التحقيق: وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا وإلا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقدًا وغضبًا.

**ثم قال**: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ والسبب في هذا الكلام أنهم لو أقدموا على الكيد لكان ذلك مضافًا إلى الشيطان، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، ثم إن يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكروا أمورًا: أولها: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يعني وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شأن كذلك يجتبيك لأمور عظام. قال الزجاج: الاجتباء مشتق من جبيت الشيء إذا خلَّصْتَه لنفسك، ومنه جبيت الماء في الحوض، واختلفوا في المراد بهذا الاجتباء، فقال الحسن: يجتبيك ربك بالنبوة، وقال آخرون: المراد منه إعلاء الدرجة وتعظيم، المرتبة فأما تعيين النبوة فلا دلالة في اللفظ عليه. وثانيها: قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

**وفيه وجوه:**

**الأول**: المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلاً لأنه يئول أمره إلى ما رآه في المنام يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم. قالوا: إنه عليه السلام كان في علم التعبير غاية.

**والثاني**: تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ.

**والثالث**: الأحاديث جمع حديث، والحديث هو الحادث، وتأويلها مآلها، ومآل الحوادث إلى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته، والمراد من تأويل الأحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته، وثالثها: قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ .

واعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة هاهنا بالنبوة أيضًا وإلا لزم التكرار، بل يفسر إتمام النعمة هاهنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة. أما سعادات الدنيا فالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع في المال والجاه والحشم وإجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد. وأما سعادات الآخرة: فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى. وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية، فهاهنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمور:

**الأول**: أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان. وما ذاك في حق البشر إلا بالنبوة، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة، فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوة.

**والثاني**: قوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة.

واعلم أنا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء، وذلك لأنه قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب، فلما كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب أن لا يبقى معمولاً به في حق أولاده. وأيضًا إن يوسف عليه السلام قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وكان تأويله أحد عشر نفسًا لهم فضل وكمال ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الأرض، لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلاً.

**فإن قيل**: كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام؟

**قلنا**: ذاك وقع قبل النبوة، وعندنا العصمة إنما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ خلاصه من المحن، ويكون وجه التشبيه في ذلك بإبراهيم وإسحاق عليهما السلام هو إنعام الله تعالى على إبراهيم بإنجائه من النار وعلى ابنه إسحاق بتخليصه من الذبح.

والقول الثالث: أن إتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعم الآخرة بأن جعلهم في

الدنيا أنبياء وملوكًا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة.

واعلم أن القول الصحيح هو الأول، لأن النعمة التامة في حق البشر ليست إلا النبوة، وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها، ثم إنه عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث، لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية.

**فإن قيل:** هذه البشارات التي ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعًا بصحتها أم لا؟ فإن كان قاطعًا بصحتها، فكيف حزن على يوسف عليه السلام، وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله، وكيف خاف عليه من إخوته أن يهلكوه، وكيف قال لإخوته ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾ [يوسف: ١٣]، مع علمه بأن الله سبحانه سيجتبيه ويجعله رسولاً، فأما إذا قلنا: إنه عليه السلام ما كان عالمًا بصحة هذه الأحوال، فكيف قطع بها؟ وكيف حكم بوقوعها حكمًا جازمًا من غير تردد؟.

**قلنا:** لا يبعد أن يكون قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ مشروطًا بأن لا يكيدوه، لأن ذكر ذلك قد تقدم، وأيضًا فبتقدير أن يقال: إنه عليه السلام كان قاطعًا بأن يوسف عليه السلام سيصل إلى هذه المناصب إلا أنه لا يمتنع أن يقع في المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل إلى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب، ويكون معنى قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] الزجر عن التهاون في حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

**في هذه الآية مسائل:**

المسألة الأولى: ذكر صاحب (الكشاف) أسماء إخوة يوسف: يهودا، روبيل، شمعون لاوي، ربالون، يشجر، دينة، دان، نفتالي، جاد، آشر. ثم قال: السبعة الأولون من ليا بنت خالة يعقوب والأربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قرأ ابن كثير: (آيةٌ) بغير ألف حمله على شأن يوسف، والباقون ﴿ءَايَٰتٌ﴾ على الجمع لأن أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه.

المسألة الثالثة: ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وجوهًا:

**الأول:** قال ابن عباس: دخل حبر من اليهود على النبي ﷺ فسمع منه قراءة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع، فقالوا له

من علمك هذه القصة؟ فقال: الله علمني، فنزل: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وهذا الوجه عندي بعيد؛ لأن المفهوم من الآية أن في واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذي نقلناه ما كانت الآيات في قصة يوسف، بل كانت الآيات في أخبار محمد ﷺ عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر.

**والثاني:** أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبيَّن أن إخوة يوسف بالغوا في إيذائه لأجل الحسد وبالآخرة فإن الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته، ومثل هذه الواقعة إذا سمعها العاقل كانت زجرًا له عن الإقدام على الحسد، والثالث: أن يعقوب لما عبَّر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل في الوجود بعد ثمانين سنة، فكذلك أن الله تعالى لما وعد محمدًا عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الأعداء، فإذا تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذبًا فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه. الرابع: أن إخوة يوسف بالغوا في إبطال أمره، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الأمر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الأعداء، فكذلك واقعة محمد ﷺ فإن الله لما ضمن له إعلاء الدرجة لم يضره سعي الكفار في إبطال أمره. وأما قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها، وهو كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

**ثم قال تعالى:** ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى:** قوله: ﴿لَيُوسُفُ﴾ اللام لام الابتداء، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر لا شبهة فيه وأخوه هو بنيامين، وإنما قالوا: أخوه، وهم جميعًا إخوة؛ لأن أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعدًا، وقيل: إلى الأربعين سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور، ونقل عن علي عليه السلام أنه قرأ: (وَنَحْنُ عُصْبَةً) بالنصب قيل: معناه ونحن نجتمع عصبة.

**المسألة الثانية:** المراد منه بيان السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف، وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد في الحب وأنهم تأذوا منه لوجوه: الأول: أنهم كانوا أكبر سنًّا منهما. وثانيها: أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قيامًا بمصالح الأب منهما. وثالثها: أنهم قالوا: إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات. إذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه في هذه الفضائل، ثم إنه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم لا جرم قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني هذا حيف ظاهر وضلال بين. وهاهنا سؤالات:

**السؤال الأول**: إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد، ويورث الآفات، فلما كان يعقوب عليه السلام عالمًا بذلك فَلِمَ أقدم على هذا التفضيل وأيضًا الأسن والأعلم والأنفع أفضل، فَلِمَ قلب هذه القضية؟

**والجواب**: أنه عليه السلام ما فضلهما على سائر الأولاد إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورًا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم.

**السؤال الثاني**: أن أولاد يعقوب عليه السلام إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولاً حقًّا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه، وكيف زيفوا طريقته وطعنوا في فعله، وإن كانوا مكذبين لنبوته فهذا يوجب كفرهم.

**والجواب**: أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مُقرِّين بكونه رسولاً حقًّا من عند الله تعالى، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالاً مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد، وذلك لأنهم كانوا يقولون هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل. وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول: زيادة المحبة ليست في الوسع والطاقة، فليس لله علي فيه تكليف. وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه:

**أحدها**: أن أمهما ماتت وهما صغار. **وثانيها**: لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد، **وثالثها**: لعله عليه السلام وإن كان صغيرًا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخِدَم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الأولاد، والحاصل أن هذه المسألة كانت اجتهادية، وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة، فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه.

**السؤال الثالث**: أنهم نسبوا أباهم إلى الضلال المبين، وذلك مبالغة في الذم والطعن، ومن بالغ في الطعن في الرسول كفر، لا سيما إذا كان الطاعن ولدًا فإن حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم.

**والجواب**: المراد منه الضلال عن رعاية المصالح في الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب.

**السؤال الرابع**: أن قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ محض الحسد، والحسد من أمهات الكبائر، لا سيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد، وعلى تضييع ذلك الأخ الصالح وإلقائه في ذل العبودية وتبعيده عن الأب المشفق، وألقوا أباهم في الحزن الدائم والأسف العظيم، وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة في الشر والفساد إلا وقد أتوا بها، وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة.

والجواب: الأمر كما ذكرتم، إلا أن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام في وقت حصول النبوة. وأما قبلها فذلك غير واجب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝٩ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠ ﴾

واعلم أنه لما قوي الحسد وبلغ النهاية قالوا: لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه، وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين: القتل أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك، ثم ذكروا العلة فيه وهي قولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ والمعنى أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه، فإذا أفقده أقبل علينا بالميل والمحبة ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ وفيه وجوه:

**الأول:** أنهم علموا أن ذلك الذي عزموا عليه من الكبائر فقالوا: إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين.

**والثاني:** أنه ليس المقصود هاهنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محبًّا لكم مشتغلاً بشأنكم.

**الثالث:** المراد أنكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لإصلاح مهم، فإذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لإصلاح مهماتكم، واختلفوا في أن هذا القائل الذي أمر بالقتل من كان؟ على قولين:

**أحدهما:** أن بعض إخوته قال هذا.

**والثاني:** أنهم شاوروا أجنبيًّا فأشار عليهم بقتله، ولم يقل ذلك أحد من إخوته، فأما من قال بالأول فقد اختلفوا فقال وهب: إنه شمعون، وقال مقاتل: روبيل.

**فإن قيل:** كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء؟

**قلنا:** من الناس من أجاب عنه بأنهم كانوا في هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين، وهذا ضعيف؛ لأنه يبعد من مثل نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم إنسان عاقل يمنعهم من القبائح. وأيضًا أنهم قالوا: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ وهذا يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين، وذلك ينافي كونهم من الصبيان، ومنهم من أجاب بأن هذا من باب الصغائر، وهذا أيضًا بعيد لأن إيذاء الأب الذي هو نبي معصوم، والكذب معه والسعي في إهلاك الأخ الصغير كل واحد من ذلك من أمهات الكبائر، بل الجواب الصحيح أن يقال: إنهم ما كانوا أنبياء، وإن كانوا أنبياء إلا أن هذه الواقعة إنما أقدموا عليها قبل النبوة.

**ثم إنه تعالى حكى أن قائلاً قال:** ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ قيل: إنه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأيًا فيه فمنعهم عن القتل، وقيل: يهودا، وكان أقدمهم في الرأي والفضل والسن.

**ثم قال:** ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ .

**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ نافع (فِي غَيَابَاتِ الجُبِّ) على الجمع في الحرفين، هذا والذي بعده، والباقون ﴿غَيَـٰبَتِ﴾ على الواحد في الحرفين. أما وجه الغيابات فهو أن للجب أقطارًا ونواحي، فيكون فيها غيابات، ومن وَحَّد قال: المقصود موضع واحد من الجب يغيب فيه يوسف، فالتوحيد أخص وأدل على المعنى المطلوب. وقرأ الجحدري (فِي غَيبَةِ الجُبِّ) .

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: الغيابة: كل ما غيب شيئًا وستره، فغيابة الجب غوره، وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله. والجب: البئر التي ليست بمطوية سميت جبًّا، لأنها قطعت قطعًا ولم يحصل فيها غير القطع من طي أو ما أشبه ذلك، وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى إذ كان يحتمل أن يلقى في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين.

المسألة الثالثة: الألف واللام في الجب تقتضي المعهود السابق، اختلفوا في ذلك الجب فقال قتادة: هو بئر ببيت المقدس، وقال وهب: هو بأرض الأردن، وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وإنما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيرًا، وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب، لأن السيارة إذا جازوا وردوها، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الإنسان فيها، وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان إلقاؤه فيها أبعد عن الهلاك.

المسألة الرابعة: الالتقاط: تناول الشيء من الطريق، ومنه: اللقطة واللقيط، وقرأ الحسن (تلتقطه) بالتاء على المعنى، لأن بعض السيارة أيضًا سيارة، والسيارة الجماعة الذين يسيرون في الطريق للسفر. قال ابن عباس: يريد المارة وقوله: ﴿ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئًا من ذلك، وأما إن كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[النحل: ١٢٦] يعني الأولى أن لا تفعلوا ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول.

واعلم أنهم لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف وفي غاية الشفقة عليه، وكانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة إلى الرعي فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطييب قلب يوسف فاغتر بقولهم وأرسله معهم.

**وفي الآية مسائل:**

**المسألة الأولى:** قال صاحب (الكشاف): ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ قرئ بإظهار النونين وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، والمعنى لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به.

**المسألة الثانية:** في ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

**خمس قراءات:**

**القراءة الأولى:** قرأ ابن كثير: بالنون، وبكسر عين نَرتعِ من الارتعاء، ويلعب بالياء والارتعاء افتعال من رعيت، يقال: رعت الماشية الكلأ ترعاه رعيًا إذا أكلته، وقوله: (نرتع) الارتعاء للإبل والمواشي، وقد أضافوه إلى أنفسهم، لأن المعنى نرتع إبلنا، ثم نسبوه إلى أنفسهم لأنهم هم السبب في ذلك الرعي، والحاصل أنهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال إلى أنفسهم لأنهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب إلى يوسف لصغره.

**القراءة الثانية:** قرأ نافع: كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضاف الارتعاء إلى يوسف بمعنى أنه يباشر رعي الإبل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان.

**القراءة الثالثة:** قرأ أبو عمرو وابن عامر (نَرتعْ) بالنون وجزم العين ومثله (نَلْعَبْ). قال ابن الأعرابي: الرتع الأكل بشره، وقيل: إنه الخصب، وقيل: المراد من اللعب الإقدام على المباحات وهذا يوصف به الإنسان، وأما نلعب فروي أنه قيل لأبي عمرو: كيف يقولون نلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وأيضًا جاز أن يكون المراد من اللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر كما روي عن النبي ﷺ أنه قال لجابر: «فَهَلَّا بِكْرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ»[1] وأيضًا كان لعبهم الاستباق، والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار، والدليل عليه قولهم: إنا ذهبنا نستبق وإنما سموه لعبًا لأنه في صورته.

**القراءة الرابعة:** قرأ أهل الكوفة: كليهما بالياء وسكون العين، ومعناه إسناد الرتع واللعب إلى يوسف عليه السلام.

**القراءة الخامسة:** (يرتع) بالياء (ونلعب) بالنون وهذا بعيد، لأنهم إنما سألوا إرسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب، والله أعلم.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد) باب (استئذان الرجل الإمام) (٦/ ١٤١) حديث رقم/ ٢٩٦٧، من طريق المغيرة... به، ومسلم في كتاب (المساقاة) باب (بيع البعير واستثنار ركوبه) (٣/ ١١٠/ ١٢٢١)، من طريق المغيرة... به، كلاهما (المغيرة، سيار) عن الشعبي... به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾

اعلم أنهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين: أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثاني: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به. قيل: إنه رأى في النوم أن الذئب شد على يوسف، فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك، وكأنه لقنهم الحجة، وفي أمثالهم: البلاء موكل بالمنطق. وقيل: الذئاب كانت في أراضيهم كثيرة، وقرئ (الذئب) بالهمز على الأصل وبالتخفيف. وقيل: اشتقاقه من تذاءبت الريح: إذا أتت من كل جهة، فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: ما فائدة اللام في قوله: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

والجواب من وجهين: الأول: أن كلمة (إن) تفيد كون الشرط مستلزمًا للجزاء، أي إن وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون، فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام. الثاني: قال صاحب (الكشاف) هذه اللام تدل على إضمار القسم تقديره: والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين.

السؤال الثاني: ما فائدة الواو في قوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

الجواب: أنها واو الحال حلفوا لئن حصل ما خافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذًا لقوم خاسرون.

السؤال الثالث: ما المراد من قولهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

الجواب فيه وجوه: الأول: خاسرون أي هالكون ضعفًا وعجزًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] أي لعاجزون، الثاني: أنهم يكونون مستحقين لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار وأن يقال: خسرهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون. الثالث: المعنى أنا إن لم نقدر على حفظ أخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها. الرابع: أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم في خدمة أبيهم واجتهدوا في القيام بمهماته وإنما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا: لو قصرنا في هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الأعمال وخسرنا كل ما صدر منا من أنواع الخدمة.

السؤال الرابع: أن يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلِمَ أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟

والجواب: أن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول، وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

اعلم أنه لا بد من الإضمار في هذه الآية في موضعين:

**الأول:** أن تقدير الآية قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فأذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ .

**والثاني:** أنه لا بد لقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ من جواب إذ جواب (لما) غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها، وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلاً عليه وهاهنا كذلك. قال السدي: إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيمًا فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول: يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك، فقال يهودا: أليس قد أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب يُدْلُونَه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب، فقال لهم: ردوا علي قميصي لأتوارى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا لتؤنسك، ثم دلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن أن رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام، وروي أنه عليه السلام لَمَّا أُلْقِيَ فِي الْجُبِّ قَالَ يَا شَاهِدًا غَيْرَ غَائِبٍ. وَيَا قَرِيبًا غَيْرَ بَعِيدٍ. وَيَا غَالِبًا غَيْرَ مَغْلُوبٍ. اجْعَلْ لِي مِنْ أَمْرِي فَرَجًا وَمَخْرَجًا[1]، وروي أن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه إياه.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ قولان:

**أحدهما:** أن المراد منه الوحي والنبوة والرسالة، وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغًا أو كان صبيًا قال

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في (الفرج بعد الشدة) (١/ ٤١) حديث رقم/ ٤٠، من طريق الخطاب بن عثمان حدثنا محمد بن عمر عن رجل من أهل الكوفة أن جبريل عليه السلام. . . فذكره، وفي إسناده رجل لم يسم مع إرساله.

بعضهم: إنه كان في ذلك الوقت بالغًا وكان سنه سبع عشرة سنة، وقال آخرون: إنه كان صغيرًا إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحًا لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام.

والقول الثاني: إن المراد من هذا الوحي الإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] والأول أولى لأن الظاهر من الوحي ذلك.

فإن قيل: كيف يجعله نبيًّا في ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة؟

قلنا: لا يمتنع أن يشرفه بالوحي والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولان:

الأول: المراد أن الله تعالى أوحى إلى يوسف إنك لتخبرن إخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف، والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليًا عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته. وروي أنهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه في البئر وقلتم لأبيكم أكله الذئب. والثاني: أن المراد إنا أوحينا إلى يوسف عليه السلام في البئر بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال، وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحي عليه، والفائدة في إخفاء نزول ذلك الوحي عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله.

المسألة الثالثة: إذا حملنا قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ على التفسير الأول، كان هذا أمرًا من الله تعالى نحو يوسف في أن يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه، فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة، مع علمه بوجد أبيه به خوفًا من مخالفة أمر الله تعالى، وصبر على تجرع تلك المرارة، فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل إليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه إلى الله تعالى، وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل إلى درجة عالية في العبودية لا يمكن الوصول إليها إلا بتحمل المحن الشديدة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أنهم لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء باكين، ورواه ابن جني

عُشّى بضم العين والقصر وقال: عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال: هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا قال: فما فعل يوسف؟ قالوا: ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فبكى وصاح وقال: أين القميص؟ فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص، وروي أن امرأة تحاكمت إلى شريح فبكت فقال الشعبي: يا أبا أمية ما تراها تبكي؟ قال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق، واختلفوا في معنى الاستباق قال الزجاج: يسابق بعضهم بعضًا في الرمي، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لاَ سَبَقَ إلاَّ فِي خُفٍّ أَوْ نَصْلٍ أَوْ حَافِرٍ» يعني بالنصل: الرمي، وأصل السبق في الرمي بالسهم هو أن يرمي اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهمًا وأبعد غلوة، ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال: استبقا وتسابقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أسبق سهمًا، ويدل على صحة هذا التفسير ما روي أن في قراءة عبدالله (إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِلُ).

**والقول الثاني**: في تفسير الاستباق ما قاله السدي ومقاتل: (ذهبنا نَسْتَبِقُ) نشتد ونعدو ليتبين أينا أسرع عدوًا.

**فإن قيل**: كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان؟

**قلنا**: الاستباق منهم كان مثل الاستباق في الخيل وكانوا يجربون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو لأنه كالآلة لهم في محاربة العدو ومدافعة الذئب إذا اختلس الشاة وقوله: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قيل: أكل الذئب يوسف وقيل عرَّضوا وأرادوا أكل الذئب المتاع، والوجه هو الأول.

**ثم قالوا**: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لا يصدق من يعلم أنه صادق، بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لشدة محبتك إياه ولظننت أنا قد كذبنا، والحاصل إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدقنا لأنك تتهمنا. وقيل: المعنى: إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا.

**المسألة الثانية**: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإيمان في أصل اللغة عبارة عن التصديق، لأن المراد من قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدق، وإذا ثبت أن الأمر كذلك في أصل اللغة وجب أن يبقى في عرف الشرع كذلك، وقد سبق الاستقصاء فيه في أول سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

**ثم قال تعالى**: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: إنما جاءوا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالتهم.

قيل: ذبحوا جديًا ولطخوا ذلك القميص بدمه. قال القاضي: ولعل غرضهم في نزع قميصه عند إلقائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيدًا لصدقهم، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعًا في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يقرن بها الخذلان، فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الإيهام أقوى، فلما شاهد يعقوب القميص صحيحًا علم كذبهم.

**المسألة الثانية**: قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ أي وجاءوا فوق قميصه بدم كما يقال: جاءوا على جمالهم بأحمال.

**المسألة الثالثة**: قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الأنباري ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب فيه، إلا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذي كذب ولكنه جعل نفسه كذبًا للمبالغة قالوا: والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال: ماء سكب، أي مسكوب ودرهم ضرب الأمير وثوب نسج اليمن، والفاعل كقوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] ورجل عدل وصَوْم، ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمي المصدر أيضًا بهما فقالوا: للعقل المعقول، وللجلد المجلود، ومنه قوله تعالى ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦] وقوله: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ٧] قال الشعبي: قصة يوسف كلها في قميصه، وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه، ولما شهد الشاهد قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦] ولما أتي بقميصه إلى يعقوب عليه السلام فألقى على وجهه ارتد بصيرًا، ثم ذكر تعالى أن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

**قال ابن عباس**: معناه: بل زينت لكم أنفسكم أمرًا. والتسويل: تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه، قال الأزهري: كأن التسويل تفعيل من سؤال الإنسان، وهو أمنيته التي يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره. وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمز، وقال صاحب (الكشاف): ﴿سَوَّلَتْ﴾ سهلت من السول وهو الاسترخاء.

**إذا عرفت هذا فنقول**: قوله: ﴿بَلْ﴾ رد لقولهم: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ كأنه قال: ليس كما تقولون: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ في شأنه ﴿أَمْرًا﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمرًا غير ما تصفون، واختلفوا في السبب الذي به عرف كونهم كاذبين على وجوه: الأول: أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم. والثاني: أنه كان عالمًا بأنه حي لأنه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦] وذلك دليل قاطع على أنهم كاذبون في ذلك.

**القول الثالث**: قال سعيد بن جبير: لما جاءوا على قميصه بدم كذب، وما كان متخرقًا، قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه، وعن السدي أنه قال: إن يعقوب عليه السلام قال: إن هذا الذئب كان رحيمًا، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟ وقيل: إنه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم: بل قتله اللصوص، فقال: كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منه

إلى قتله؟ فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم. ثم قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: منهم من قال: إنه مرفوع بالابتداء، وخبره محذوف، والتقدير: فصبر جميل أولى من الجزع، ومنهم من أضمر المبتدأ، قال الخليل: الذي أفعله صبر جميل. وقال قطرب: معناه: فصبري صبر جميل. وقال الفراء: فهو صبر جميل.

**المسألة الثانية**: كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكوني؟ فقال: يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي. وروي عن عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك أنها قالت: والله لئن حلفت لا تصدقوني وإن اعتذرت لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فأنزل الله عز وجل في عذرها ما أنزل [1].

**المسألة الثالثة**: عن الحسن أنه سئل النبي ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فقال: «صَبْرٌ لاَ شَكْوَى فِيهِ فَمَنْ بَثَّ لَمْ يَصْبِرْ» [2] ويدل عليه من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وقال مجاهد: فصبر جميل، أي من غير جزع، وقال الثوري: من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك، وهاهنا بحث وهو أن الصبر على قضاء الله تعالى واجب فأما الصبر على ظلم الظالمين، ومكر الماكرين فغير واجب، بل الواجب إزالته لا سيما في الضرر العائد إلى الغير، وهاهنا أن إخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلِمَ صبر يعقوب على ذلك؟ ولِمَ لم يبالغ في التفتيش والبحث سعيًا منه في تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة إن كان في الأحياء وفي إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه، فثبت أن الصبر في هذا المقام مذموم. ومما يقوي هذا السؤال أنه عليه الصلاة والسلام كان عالمًا بأنه حي سليم لأنه قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦] والظاهر أنه إنما قال هذا الكلام من الوحي وإذا كان عالمًا بأنه حي سليم فكان من الواجب أن يسعى في طلبه. وأيضًا إن يعقوب عليه السلام كان رجلاً عظيم القدر في نفسه، وكان من بيت عظيم شريف، وأهل العلم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٦] (٣/ ١٢٣٩) حديث رقم/ ٣٢٠٨، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٣٦٧) حديث رقم/ ٢٧١١٥، كلاهما من طريق مسروق عن أم رويان عن عائشة... به.

(٢) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٨/ ٤٣٧) حديث رقم/ ١٢٧٥٢، من طريق عقبة عن عبد الرحمن بن زياد الأفريقي عن مسلم بن يسار ومع الحديث... تم ذكره، وفي إسناده عبد الرحمن الأفريقي وهو ضعيف، وأخرجه تمام في (فوائده) (٣/ ١٩) حديث رقم/ ١٠١٩، طريق سليمان بن عبد الرحمن حدثنا ثابت ابن عمرو حدثنا مقاتل بن حبان عن قيس بن سكن عن ابن مسعود... به، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٦٩٢)، وقال: ضعيف جدًا.

كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ في الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس فما السبب في أنه عليه السلام مع شدة رغبته في حضور يوسف عليه السلام، ونهاية حبه له لم يطلبه مع أن طلبه كان من الواجبات، فثبت أن هذا الصبر في هذا المقام مذموم عقلاً وشرعًا.

والجواب عنه: أن نقول: لا جواب عنه إلا أن يقال: إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديدًا للمحنة عليه، وتغليظًا للأمر عليه، وأيضًا لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص، وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على إيذائه وقتله، وأيضًا لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم بالآخرة، ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وإن انتقم فإنه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه، فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ يدل على أن الصبر على قسمين منه ما قد يكون جميلاً وما قد يكون غير جميل، فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى، ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعًا له من إظهار الشكاية.

والوجه الثاني: أنه يعلم أن منزل هذا البلاء حكيم لا يجهل، وعالم لا يغفل، عليم لا ينسى رحيم لا يطغى، وإذا كان كذلك، فكان كل ما صدر عنه حكمة وصوابًا، فعند ذلك يسكت ولا يعترض.

والوجه الثالث: أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق، فاستغراقه في شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء ولذلك قيل: المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء، لأنها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبًا بالذات بل بالعرض، فهذا هو الصبر الجميل. أما إذا كان الصبر لا لأجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الأغراض، فذلك الصبر لا يكون جميلاً، والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات أن كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسنًا وإلا فلا، وهاهنا يظهر صدق ما روي في الأثر «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَلَوْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ»[1] فليتأمل الرجل تأملاً شافيًا، أن

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٢٢٨) حديث رقم/ ١٧٩٢٤، قال: حدثنا يزيد بن هارون... به، وفي (٤/ ٢٢٨) قال: حدثنا عفان... به، والدارمي في كتاب (البيوع) باب (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)، (٢/ ١١٤) حديث رقم/ ٢٥٣٣، من طريق سليمان بن حرب... به، ثلاثتهم (يزيد، عفان، سليمان) قالوا: حدثنا حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب عن عبد الله بن مكرز... به.

الذي أتى به هل الحامل والباعث عليه طلب العبودية أم لا؟ فإن أهل العلم لو أفتونا بالشيء مع أنه لا يكون في نفسه كذلك لم يظهر منه نفع ألبتة. ولما ذكر يعقوب قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ والمعنى: أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين، فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة، فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى بيّن كيف سهل السبيل في خلاص يوسف من تلك المحنة، فقال: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ يعني رفقة تسير للسفر. قال ابن عباس: جاءت سيارة أي قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملحًا فعذب حين ألقي فيه يوسف عليه السلام فأرسلوا رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء، والوارد: الذي يرد الماء ليستقي القوم ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ ونقل الواحدي عن عامة أهل اللغة أنه يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر ودلاّها إذا نزعها من البئر يقال: أدلى يدلي إدلاء إذا أرسل ودلاً يدلو دلوًا إذا جذب وأخرج، والدلو معروف، والجمع دلاء ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ وهاهنا محذوف، والتقدير: فظهر يوسف قال المفسرون: لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد إليه ورأى حسنه نادى، فقال: يا بشرى.

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى:** قرأ عاصم وحمزة والكسائي (بشرى) بغير الألف وبسكون الياء، والباقون: (يا بُشْرَايَ) بالألف وفتح الياء على الإضافة.

**المسألة الثانية:** في قوله: ﴿يَا بُشْرَىٰ﴾ قولان:

**القول الأول:** أنها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم: يا عجبًا من كذا، وقوله: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] وعلى هذا القول ففي تفسير النداء وجهان: الأول: قال الزجاج: معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فإذا قلت: يا عجباه فكأنك قلت اعجبوا. الثاني: قال أبو علي: كأنه يقول: يا أيتها البشرى هذا الوقت وقتك، ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت الآن ولأمرت بالحضور.

واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلامًا في غاية الحسن وقالوا: نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سببًا لحصول الغنى.

**والقول الثاني**: وهو الذي ذكره السدي أن الذي نادى صاحبه وكان اسمه، فقال: يا بشرى كما تقول يا زيد. وعن الأعمش أنه قال: دعا امرأة اسمها بشرى (يَا بُشْرَى) قال أبو علي الفارسي: إن جعلنا البشرى اسمًا للبشارة، وهو الوجه جاز أن يكون في محل الرفع كما قيل: يا رجل لاختصاصه بالنداء، وجاز أن يكون في موضع النصب على تقدير: أنه جعل ذلك النداء شائعًا في جنس البشرى، ولم يخص كما تقول: يا رجلاً و﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠].

**وأما قوله تعالى**: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ .

**ففيه مسألتان:**

**المسألة الأولى**: الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ إلى من يعود؟

**فيه قولان:**

**الأول**: أنه عائد إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه في الجب، وذلك لأنهم قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه، وإن قلنا اشتريناه: سألونا الشركة، فالأصوب أن نقول: إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر.

**والثاني**: نقل عن ابن عباس أنه قال: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه، والمعنى: أنهم أخفوا كونه أخًا لهم، بل قالوا: إنه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية، والأول أولى؛ لأن قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ يدل على أن المراد أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف.

**المسألة الثانية**: البضاعة: القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم إذا قطعته. قال الزجاج: وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال: وأسروه حال ما جعلوه بضاعة.

**ثم قال تعالى**: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر في النوم سجدت له وذكر ذلك حسده إخوته عليه واحتالوا في إبطال ذلك الأمر عليه فأوقعوه في البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود، وأنه تعالى جعل وقوعه في ذلك البلاء سببًا إلى وصوله إلى مصر، ثم تمادت وقائعه وتتابع الأمر إلى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذي رآه في النوم فكان العمل الذي عمله الأعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سببًا لحصول ذلك المطلوب، فلهذا المعنى قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

**ثم قال تعالى**: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أما قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ .

**ففيه قولان:**

**القول الأول**: المراد من الشراء هو البيع، وعلى هذا التقدير ففي ذلك البائع قولان:

القول الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف في الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره، فلما لم يروه في الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم: فبيعوه منا فباعوه منهم، والمراد من قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي باعوه يقال: شريت الشيء إذا بعته، وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع، لأن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وفي قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ عائد إلى شيء واحد لكن الضمير في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ عائد إلى الإخوة فكذا في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يجب أن يكون عائدًا إلى الإخوة، وإذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع.

والقول الثاني: أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر، وقال محمد بن إسحاق: ربك أعلم أإخوته باعوه أم السيارة، وهاهنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال: المراد من الشراء نفس الشراء، والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين، لأنهم علموا بقرائن الحال أن إخوة يوسف كذابون في قولهم: إنه عبدنا، وربما عرفوا أيضًا أنه ولد يعقوب فكرهوا شراءه خوفًا من الله تعالى، ومن ظهور تلك الواقعة، إلا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لأنهم اشتروه بثمن قليل مع أنهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين، وغرضهم أن يتوصلوا بذلك إلى تقليل الثمن، ويحتمل أيضًا أن يقال إن الإخوة لما قالوا: إنه عبدنا أبق صار المشتري عديم الرغبة فيه. قال مجاهد: وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يأبق.

ثم اعلم أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث:

الصفة الأولى: كونه بخسًا. قال ابن عباس: يريد حرامًا لأن ثمن الحر حرام، وقال كل بخس في كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام، قال الواحدي: سموا الحرام بخسًا لأنه ناقص البركة، وقال قتادة: بخس: ظلم والظلم نقصان، يقال ظلمه أي نقصه، وقال عكرمة والشعبي: قليل، وقيل: ناقص عن القيمة نقصانًا ظاهرًا، وقيل كانت الدراهم زيوفًا ناقصة العيار. قال الواحدي رحمه الله تعالى: وعلى الأقوال كلها، فالبخس مصدر وضع موضع الاسم، والمعنى بثمن مبخوس.

الصفة الثانية: قوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قيل: تعد عدًا ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون إلا إذا بلغ أوقية، وهي الأربعون ويعدون ما دونها فقيل للقليل معدود، لأن الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهمًا، وعن السدي: اثنين وعشرين درهمًا. قالوا والإخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين إلا يهوذا لم يأخذ شيئًا.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه، وأصله القلة. يقال: رجل زهيد إذا كان قليل الطمع، وفيه وجوه: أحدها: أن إخوة يوسف باعوه، لأنهم كانوا فيه من الزاهدين. والثاني: أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين، لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بأي شيء يبيعه أو لأنهم خافوا

أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم، فلا جرم باعوه بأوكس الأثمان. والثالث: أن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين، وقد سبق توجيه هذه الأقوال فيما تقدم، والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يكون عائد إلى يوسف عليه السلام، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى الثمن البخس، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: اعلم أنه ثبت في الأخبار أن الذي اشتراه إما من الإخوة أو من الواردين على الماء ذهب به إلى مصر وباعه هناك. وقيل: إن الذي اشتراه قطفير أو إطفير وهو العزيز الذي كان يلي خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤] وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل اشتراه العزيز بعشرين دينارًا، وقيل أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه في الوزن من المسك والورق والحرير فابتاعه قطفير بذلك الثمن. وقالوا: اسم تلك المرأة زليخا، وقيل: راعيل.

واعلم أن شيئًا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن، ولم يثبت أيضًا في خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات، فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها.

**المسألة الثانية**: قوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي منزله ومقامه عندك من قولك: ثويت بالمكان إذا أقمت به، ومصدره الثواء، والمعنى: اجعلي منزله عندك كريمًا حسنًا مرضيًّا بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ وقال المحققون: أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه، يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم، وهو كما يقال: سلام الله على المجلس العالي، ولما أمرها بإكرام مثواه علل ذلك بأن قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي يقوم بإصلاح مهماتنا، أو نتخذه ولدًا، لأنه كان لا يولد له ولد، وكان حصورًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزيز، حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكنًا من الأمر والنهي في أرض مصر.

واعلم أن الكمالات الحقيقية ليست إلا القدرة والعلم وأنه سبحانه لما حاول إعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين، أما تكميله في صفة القدرة والمكنة فإليه الإشارة بقوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وأما تكميله في صفة العلم، فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ وقد تقدم تفسير هذه الكلمة.

واعلم أنا ذكرنا أنه عليه السلام لما ألقى في الجب قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٥] وذلك يدل ظاهرًا على أنه تعالى أوحى إليه في ذلك الوقت. وعندنا الإرهاص جائز، فلا يبعد أن يقال: إن ذلك الوحي إليه في ذلك الوقت ما كان لأجل بعثته إلى الخلق، بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام، ثم إنه تعالى قال هاهنا ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ والمراد منه إرساله إلى الخلق بتبليغ التكاليف، ودعوة الخلق إلى الدين الحق، ويحتمل أيضًا أن يقال: إن ذلك الوحي الأول كان لأجل الرسالة والنبوة، ويحمل قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ على أنه تعالى أوحى إليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالاً مما كان قبله، وقال ابن مسعود: أشد الناس فراسة ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا، والمرأة لما رأت موسى، فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر حين استخلف عمر.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

**وفيه وجهان:**

**الأول:** غالب على أمر نفسه؛ لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه.

**والثاني:** والله غالب على أمر يوسف، يعني أن انتظام أموره كان إلهيًا، وما كان بسعيه وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير، فكان كما أراد الله تعالى ودبر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله. واعلم أن من تأمل في أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله لله، وأن قضاء الله غالب.

## قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

**في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: وجه النظم أن يقال: بيّن تعالى أن إخوته لما أساءوا إليه، ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى في الأرض، ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم، والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن، ومن الناس من قال: إن النبوة جزاء على الأعمال الحسنة، ومنهم من قال: إن من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة. واحتجوا على صحة قولهم: بأنه

تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يدل على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف، فإن الله يعطيه تلك المناصب، وهذا بعيد لاتفاق العلماء على أن النبوة غير مكتسبة.

**واعلم أن من قال:** إن يوسف ما كان رسولاً ولا نبيًّا ألبتة، وإنما كان عبدًا أطاع الله تعالى فأحسن الله إليه، وهذا القول باطل بالإجماع. وقال الحسن: إنه كان نبيًّا من الوقت الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٥] وما كان رسولاً، ثم إنه صار رسولاً من هذا الوقت أعني قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] ومنهم من قال: إنه كان رسولاً من الوقت الذي ألقى في غيابة الجب.

**المسألة الثانية**: قال أبو عبيدة: تقول العرب: بلغ فلان أَشُدَّه إذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته قبل أن يأخذ في النقصان، وهذا اللفظ يستعمل في الواحد والجمع يقال: بلغ أشده وبلغوا أشدهم، وقد ذكرنا تفسير الأشد في سورة الأنعام عند قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وأما التفسير فروى ابن جرير عن مجاهد عن ابن عباس، ولما بلغ أشده قال: ثلاثًا وثلاثين سنة، وأقول هذه الرواية شديدة الانطباق على القوانين الطبية وذلك لأن الأطباء قالوا: إن الإنسان يحدث في أول الأمر ويتزايد كل يوم شيئًا فشيئًا إلى أن ينتهي إلى غاية الكمال، ثم يأخذ في التراجع والانتقاص إلى أن لا يبقى منه شيء، فكانت حالته شبيهة بحال القمر، فإنه يظهر هلالاً ضعيفًا ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بدرًا تامًّا، ثم يتراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق.

**إذا عرفت هذا فنقول:** مدة دور القمر ثمانية وعشرون يومًا وكسر فإذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام، كان كل قسم منها سبعة أيام، فلا جرم رتبوا أحوال الأبدان على الأسابيع فالإنسان إذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب إلى أن يتم له سبع سنين، ثم إذا دخل في السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة ثم لا يزال في الترقي إلى أن يتم له أربع عشرة سنة. فإذا دخل في السنة الخامسة عشرة دخل في الأسبوع الثالث. وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتتحرك فيه الشهوة، ثم لا يزال يرتقي على هذه الحالة إلى أن يتم السنة الحادية والعشرين، وهناك يتم الأسبوع الثالث ويدخل في السنة الثانية والعشرين، وهذا الأسبوع آخر أسابيع النشوء والنماء، فإذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشوء والنماء، وينتقل الإنسان منه إلى زمان الوقوف وهو الزمان الذي يبلغ الإنسان فيه أشده، وبتمام هذا الأسبوع الخامس يحصل للإنسان خمسة وثلاثون سنة، ثم إن هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان؛ فهذا الأسبوع الخامس الذي هو أسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين إلى الثالثة والثلاثين، وقد يمتد إلى الخامسة والثلاثين، فهذا هو الطريق المعقول في هذا الباب، والله أعلم بحقائق الأشياء.

المسألة الثالثة: في تفسير الحكم والعلم، وفيه أقوال:

القول الأول: أن الحُكْم والحِكْمة أصلهما حبس النفس عن هواها، ومنعها مما يشينها، فالمراد من الحكم الحكمة العملية، والمراد من العلم الحكمة النظرية. وإنما قدم الحكمة العملية هنا على النظرية، لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية. وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية فإنهم يصلون إلى الحكمة النظرية أولاً، ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية، وطريقة يوسف عليه السلام هو الأول، لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات، فلهذا السبب قال: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾.

القول الثاني: الحكم هو النبوة، لأن النبي يكون حاكمًا على الخلق، والعلم: علم الدين.

والقول الثالث: يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الأمارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الأنوار القدسية والأضواء الإلهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول في هذا الباب أن جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والأنوار العقلية، إلا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة ومنها حرة ونذلة ومنها شريفة وخسيسة، ومنها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة في الجسمانيات فهذه الأقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للأشد والأضعف والأكمل والأنقص فإذا اتفق أن كان جوهر النفس الناطقة جوهرًا مشرقًا شريفًا شديد الاستعداد لقبول الأضواء العقلية واللوائح الإلهية، فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الأحوال، لأن النفس الناطقة إنما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها، فإذا كبر الإنسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت، فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لأن تستعملها النفس الإنسانية وإذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم لمعان الأضواء فيها، فقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية، وقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ إشارة إلى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن، فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضًا إن زوجها كان عاجزًا يقال: راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول

كل واحد منهما الوطء والجماع ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حرامًا، ومع قيام الخوف الشديد، وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ أي أغلقتها، قال الواحدي: وأصل هذا من قولهم في كل شيء تشبث في شيء فلزمه: قد غَلِقَ يقال: غَلِقَ في الباطل وغَلِقَ في غضبه، ومنه غلق الرهن، ثم يعدى بالألف فيقال: أغلق الباب إذا جعله بحيث يعسر فتحه. قال المفسرون: وإنما جاء غلقت على التكثير؛ لأنها غلقت سبعة أبواب، ثم دعته إلى نفسها. ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: قال الواحدي: هيت لك اسم للفعل نحو: رويدًا، وصه، ومه. ومعناه هلم في قول جميع أهل اللغة، وقال الأخفش: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ مفتوحة الهاء والتاء، ويجوز أيضًا كسر التاء ورفعها. قال الواحدي: قال أبو الفضل المنذري: أفادني ابن التبريزي عن أبي زيد قال: هيت لك بالعبرانية هيا لح، أي تعال عربه القرآن، وقال الفراء: إنها لغة لأهل حوران سقطت إلى بكة فتكلموا بها. قال ابن الأنباري: وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم في (القسطاس) ولغة العرب والفرس في (السجيل) ولغة العرب والترك في (الغساق) ولغة العرب والحبشة في (ناشئة الليل).

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان (هِيتَ) بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ ابن كثير (هَيْتُ لك) مثل حَيثُ، وقرأ هشام بن عمار عن أبي عامر (هِئتُ لك) بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك، والباقون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، ثم إنه تعالى قال: إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ فقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذًا، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن والحديث ﴿رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي ربي وسيدي ومالكي أحسن مثواي حين قال لك: أكرمي مثواه، فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة، وقيل: أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضي وضع الشيء في غير موضعه

**وهاهنا سؤالات:**

**السؤال الأول**: أن يوسف عليه السلام كان حرًا وما كان عبدًا لأحد فقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يكون كذبًا وذلك ذنب وكبيرة.

والجواب: أنه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبدًا له وأيضًا أنه رباه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه ربًا له كونه مربيًا له، وهذا من باب المعاريض الحسنة، فإن أهل الظاهر يحملونه على كونه ربًا له وهو كان يعني به أنه كان مربيًا له ومنعمًا عليه.

**السؤال الثاني**: هل يدل قول يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ على صحة مذهبنا في القضاء والقدر.

**والجواب**: أنه يدل عليه دلالة ظاهرة لأن قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذًا، طلب من الله أن يعيذه من ذلك العمل، وتلك الإعاذة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل والآلة، وإزاحة الأعذار، وإزالة الموانع وفعل الألطاف، لأن كل ما كان في مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله، فيكون ذلك إما طلبًا لتحصيل الحاصل، أو طلبًا لتحصيل الممتنع وأنه محال فعلمنا أن تلك الإعاذة التي طلبها يوسف من الله تعالى لا معنى لها، إلا أن يخلق فيه داعية جازمة في جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية، وذلك هو المطلوب، والدليل على أن المراد ما ذكرناه ما نقل أن النبي ﷺ لما وقع بصره على زينب قال: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة، وإزالة داعية المعصية فكذا هاهنا، وكذا قوله عليه السلام: «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ» فالمراد من الأصبعين داعية الفعل، وداعية الترك وهاتان الداعيتان لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى، وإلا لافتقرت إلى داعية أخرى ولزم التسلسل فثبت أن قول يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ من أدل الدلائل على قولنا، والله أعلم.

**السؤال الثالث**: ذكر يوسف عليه السلام في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء:

**أحدها**: قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

**والثاني**: قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾.

**والثالث**: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض؟

**والجواب**: هذا الترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد فقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل، وأيضًا حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة، وأيضًا صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد، فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إشارة إليه، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب.

## قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

اعلم أن هذه الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها وفي هذه الآية مسائل:

**المسألة الأولى**: في أنه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا؟ وفي هذه المسألة قولان:

الأول: أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة. قال الواحدي في كتاب (البسيط) قال المفسرون:

الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم همَّ يوسف أيضًا بهذه المرأة همًّا صحيحًا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه. قال جعفر الصادق رضي الله عنه بإسناده عن علي عليه السلام أنه قال: طَمِعَتْ فِيهِ وَطَمِعَ فِيهَا فَكَانَ طَمَعُهُ فِيهَا أَنَّهُ هَمَّ أَنْ يَحِلَّ التِّكَّةَ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حَلَّ الْهِمْيَانَ وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الخَاتِنِ وعنه أيضًا أنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه، ثم إن الواحدي طَوَّل في كلمات عديمة الفائدة في هذا الباب، وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثًا صحيحًا يعول عليه في تصحيح هذه المقالة، وما أمعن النظر في تلك الكلمات العارية عن الفائدة روي أن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] قال له جبريل عليه السلام: ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]، ثم قال: والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا لهَمَّ عنه، فهذا خلاصة كلامه في هذا الباب.

**والقول الثاني**: أن يوسف عليه السلام كان بريئًا عن العمل الباطل، والهم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين، وبه نقول وعنه نذب.

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة، ولقد استقصيناها في سورة البقرة في قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها إلا أنا نزيد هاهنا وجوهًا:

**فالحجة الأولى**: أن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة في معرض الأمانة أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا الصبي إذا تربى في حجر إنسان وبقي مكفي المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال.

**إذا ثبت هذا فنقول**: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة. ثم إنه تعالى قال في غير هذه الواقعة: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤] وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه، ولا شك أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع المعاصي وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئًا من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء. وأيضًا فالآية تدل على قولنا من وجه آخر، وذلك لأنا نقول: هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية

عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم، فإن مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه، فإن ذلك يستنكر جدًّا فكذا هاهنا والله أعلم. الثالث: أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة، أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم هاهنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية. الرابع: أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة: يوسف عليه السلام، وتلك المرأة وزوجها، والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضًا عن المعصية، وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب. أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦] وقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وأيضا قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك، فهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩] وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦] وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات: أولها: قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

**والثاني:** قوله: ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء.

**والثالث:** قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

**والرابع:** قوله: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص. ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه، وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته، فلأنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فكان هذا إقرارًا من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى، وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى

يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ولعلهم يقولون كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة كما قال الخوارزمي:

وَكُنْتُ امْرَأً مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى ... بِيَ الدَّهْرُ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي[1]

فَلَوْ مَاتَ قَبْلِي كُنْتُ أُحْسِنُ بَعْدَهُ ... طَرَائِقَ فِسْقٍ لَيْسَ يُحْسِنُهَا بَعْدِي

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء عما يقوله هؤلاء الجهال.

**وإذا عرفت هذا فنقول:** الكلام على ظاهر هذه الآية يقع في مقامين:

**المقام الأول:** أن نقول لا نسلم أن يوسف عليه السلام هم بها. والدليل عليه: أنه تعالى قال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وجواب (لولا) هاهنا مقدم، وهو كما يقال: قد كنت من الهالكين لولا أن فلانًا خلصك، وطعن الزجاج في هذا الجواب من وجهين: الأول: أن تقديم جواب (لولا) شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح. الثاني: أن (لولا) يجاب جوابها باللام، فلو كان الأمر على ما ذكرتم لقال: ولقد همت ولهم بها لولا. وذكر غير الزجاج سؤالاً ثالثًا وهو أنه لو لم يوجد الهم لما كان لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة.

واعلم أن ما ذكره الزجاج بعيد، لأنا نسلم أن تأخير جواب (لولا) حسن جائز، إلا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب، وكيف ونقل عن سيبويه أنه قال: إنهم يقدمون الأهم فالأهم، والذي هم بشأنه أعنى، فكان الأمر في جواز التقديم والتأخير مربوطًا بشدة الاهتمام. وأما تعيين بعض الألفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة، وأيضًا ذكر جواب (لولا) باللام جائز. أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز، ثم إنا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج في هذين السؤالين، وهو قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

**وأما السؤال الثالث:** وهو أنه لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة. فنقول: بل فيه أعظم الفوائد، وهو بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته في النساء، وعدم قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل، ثم نقول: إن الذي يدل على أن جواب (لولا) ما ذكرناه أن (لولا) تستدعي جوابًا، وهذا المذكور يصلح جوابًا له، فوجب الحكم بكونه جوابًا له لا يقال إنا نضمر له جوابًا، وترك الجواب كثير في القرآن، لأنا نقول: لا نزاع أنه كثير في القرآن، إلا أن الأصل أن لا يكون محذوفًا. وأيضًا فالجواب إنما يحسن تركه

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر مُتَمم بن نُوَيرَة بن حمزة بن شداد اليربوعي التميمي أبو نهشل؟- ٣٠ هـ/ ؟- ٦٥٠ م، شاعر فحل، صحابي، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام، وكان قصيراً أعور، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك ومنه قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وحذفه إذا حصل في اللفظ ما يدل على تعينه، وهاهنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفًا فليس في اللفظ ما يدل على تعين ذلك الجواب، فإن هاهنا أنواعًا من الإضمارات يحسن إضمار كل واحد منها، وليس إضمار بعضها أولى من إضمار الباقي فظهر الفرق. والله أعلم.

**المقام الثاني:** في الكلام على هذه الآية أن نقول: سلمنا أن الهم قد حصل إلا أنا نقول: إن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لا يمكن حمله على ظاهره لأن تعليق الهم بذات المرأة محال لأن الهم من جنس القصد والقصد لا يتعلق بالذوات الباقية، فثبت أنه لا بد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو إيقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيئًا آخر يغاير ما ذكروه وبيانه من وجوه:

**الأول:** المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لأن الهم هو القصد، فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعيم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقال: هممت بفلان أي بضربه ودفعه.

**فإن قالوا:** فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة.

**قلنا:** بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين: الأول: أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله، فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صونًا للنفس عن الهلاك.

**والثاني:** أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به، فكان يتمزق ثوبه من قدام، وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن، ولو كان ثوبه ممزقًا من خلف لكانت المرأة هي الخائنة، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى، فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربًا عنها، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية.

**الوجه الثاني:** في الجواب أن يفسر الهم بالشهوة، وهذا مستعمل في اللغة الشائعة. يقول القائل فيما لا يشتهيه: مايهمني هذا، وفيما يشتهيه هذا أهم الأشياء إلي، فسمى الله تعالى شهوة يوسف عليه السلام همًّا، فمعنى الآية: ولقد اشتهته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل في الوجود. الثالث: أن يفسر الهم بحديث النفس، وذلك لأن المرأة الفائقة في الحسن والجمال إذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوي فلا بد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات، فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة. فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية، ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف، إذا رأى الجلاب المبرد بالمثلج فإن طبيعته تحمله على شربه، إلا أن دينه وهداه يمنعه منه، فهذا لا يدل على حصول

الذنب، بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة في القيام بلوازم العبودية أكمل، فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذي ذهبنا إليه ولم يبق في يد الواحدي إلا مجرد التصلف وتعديد أسماء المفسرين، ولو كان قد ذكر في تقرير ذلك القول شبهة لأجبنا عنها إلا أنه ما زاد على الرواية عن بعض المفسرين.

واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا كَذَبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلاَّ ثَلَاثَ كِذْبَاتٍ»[(١)] فقلت: الأولى أن لا نقبل مثل هذه الأخبار، فقال على طريق الاستنكار فإن لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له: يا مسكين إن قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب إبراهيم عليه السلام وإن رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولا شك أن صون إبراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب.

إذا عرفت هذا الأصل فنقول للواحدي: ومن الذي يضمن لنا أن الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين، والله أعلم.

**المسألة الثانية**: في أن المراد بذلك البرهان ما هو؟ أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه: الأول: أنه حجة الله تعالى في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب، والثاني: أن الله تعالى طهر نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة. بل نقول: إنه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الإقدام على المنكرات. والثالث: أنه رأى مكتوبًا في سقف البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والرابع: أنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، والدليل عليه أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنهم منعوا الناس عنها، ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] وأيضًا أن الله تعالى عيَّر اليهود بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وما يكون عيبًا في حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات.

وأما الذين نسبوا المعصية إلى يوسف عليه السلام فقد ذكروا في تفسير ذلك البرهان أمورًا:

**الأول**: قالوا: إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف: لم فعلت ذلك؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني على معصية، فقال يوسف: أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع، ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] (٣/ ١٢٢٥) حديث رقم/ ٣١٧٩، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٤٠/ ٢٣٧١)، من طريق أيوب السختياني عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة. . . به.

فوالله لا أفعل ذلك أبدًا قالوا: فهذا هو البرهان.

**الثاني:** نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاضًا على أصابعه ويقول له: أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء فاستحى منه. قال وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل وابن سيرين قال سعيد بن جبير: تمثل له يعقوب فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله.

**والثالث:** قالوا: إنه سمع في الهواء قائلاً يقول: يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فإذا زنا ذهب ريشه.

**والرابع:** نقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج، ولما نقل الواحدي هذه الروايات تصلف وقال: هذا الذي ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل فيقال له: إنك لا تأتينا ألبتة إلا بهذه التصلفات التي لا فائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل، وأيضًا فإن ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز، وأنه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعًا عن الزنا بحسب الدلائل الأصلية، فلما انضاف إليها هذه الزواجر قوي الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا أن جروًا دخل حجرة النبي ﷺ وبقي هناك بغير علمه قالوا: فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يومًا، وهاهنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبريل عليه السلام، والعجب أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام، ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلاً بفاحشة فإذا دخل عليه رجل على زي الصالحين استحيا منه وفر وترك ذلك العمل، وهاهنا أنه رأى يعقوب عليه السلام عض على أنامله فلم يلتفت إليه، ثم إن جبريل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضًا عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام إلى أن يركضه على ظهره فنسأل الله أن يصوننا عن الغي في الدين، والخذلان في طلب اليقين فهذا هو الكلام المخلص في هذه المسألة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: في الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه: الأول: أن السوء جناية اليد والفحشاء هو الزنا. الثاني: السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة، والفحشاء: هو الزنا. أما قوله: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِين) أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام أراد الذين خلصهم الله من الأسواء، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام الذي قال الله فيهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

المسألة الرابعة: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (الْمُخْلِصِين) بكسر اللام في جميع القرآن والباقون بفتح اللام.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها (همت) أتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه إلى نفسها، والاستباق طلب السبق إلى الشيء، ومعناه تبادرا إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف فتح الباب وخرج، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج، وقوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي استبقا إلى الباب كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي من قومه.

واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته، أي قطعته طولاً، وفي ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدي، وإنما لم يقل سيدهما لأن يوسف عليه السلام ما كان مملوكًا لذلك الرجل في الحقيقة، فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف بالفعل القبيح، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والمعنى ظاهر. وفي الآية لطائف: إحداها: أن (ما) يحتمل أن تكون نافية، أي ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أيضًا أن تكون استفهامية يعني أي شيء جزاؤه إلا أن يسجن كما تقول: من في الدار إلا زيد. وثانيها: أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع وذلك لأنها بدأت بذكر السجن، وأخرت ذكر العذاب، لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وأيضًا أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكرًا كليًا صونًا للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم، وأيضًا قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ والمراد أن يسجن يومًا أو أقل على سبيل التخفيف. فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وثالثها: أنها لما شاهدت

من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع أنه كان في عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة، عظم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول: إن يوسف عليه السلام قصدني بالسوء، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض، فانظر إلى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وأن هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح. ورابعها: أن يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه، وكان ذلك بالنسبة إليها جاريًا مجرى السوء فقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ﴾ جاريًا مجرى التعريض فلعلها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها وفي ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدني بما لا ينبغي.

واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾، وأن يوسف عليه السلام ما هتك سترها في أول الأمر إلا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الأمر.

واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق:

**فالأول:** أن يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبدًا لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

**والثاني:** أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدوًا شديدًا ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه.

**والثالث:** أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه، وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى.

**الرابع:** أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام في المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر، وذلك أيضًا مما يقوي الظن.

**الخامس:** أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلامًا مجملاً مبهمًا، وأما يوسف عليه السلام فإنه صرح بالأمر ولو أنه كان متهمًا لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فإن الخائن خائف.

**السادس:** قيل: إن زوج المرأة كان عاجزًا وآثار طلب الشهوة في حق المرأة كانت متكاملة فإلحاق هذه الفتنة بها أولى، فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلاً آخر يقوي تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه بريء عن الذنب وأن المرأة هي المذنبة، وهو قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ وفي هذا الشاهد ثلاثة أقوال:

**الأول:** أنه كان لها ابن عم وكان رجلاً حكيمًا، واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن

يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لا ندري أيكما قدام صاحبه، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه، قال ابن عمها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ أي من عملكن. ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه، وقال لها استغفري لذنبك، وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين.

**والثاني:** وهو أيضًا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك: إن ذلك الشاهد كان صبيًا أنطقه الله تعالى في المهد، فقال ابن عباس: تكلم في المهد أربعة صغار: شاهد يوسف، وابن ماشطة بنت فرعون، وعيسى بن مريم، وصاحب جريج الراهب، قال الجبائي: والقول الأول أولى لوجوه: **الأول:** أنه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله: إنها كاذبة كافيًا وبرهانًا قاطعًا، لأنه من البراهين القاطعة القاهرة، والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظني ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها إلى الدلالة الظنية لا يجوز. **الثاني:** أنه تعالى قال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ وإنما قال: ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ ليكون أولى بالقبول في حق المرأة لأن الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والإضرار، فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات إنما يصار إليها عند كون الدلالة ظنية، ولو كان هذا القول صادرًا عن الصبي الذي في المهد لكان قوله حجة قاطعة ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها، وبين أن لا يكون من أهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر. **والثالث:** أن لفظ الشاهد لا يقع في العرف إلا على من تقدمت له معرفة بالواقعة وإحاطة بها.

**والقول الثالث:** أن ذلك الشاهد هو القميص، قال مجاهد: الشاهد كون قميصه مشقوقًا من دبر، وهذا في غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب إلى الأهل. واعلم أن القول الأول عليه أيضًا إشكال وذلك لأن العلامة المذكورة لا تدل قطعًا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لأن من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبته لقصد أن تضربه ضربًا وجيعًا فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقًا من دبر مع أن المرأة تكون برية عن الذنب والرجل يكون مذنبًا.

**وجوابه:** أنا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا إليها هذه العلامة الأخرى لا لأجل أن يعولوا في الحكم عليها، بل لأجل أن يكون ذلك جاريًا مجرى المقويات والمرجحات.

**ثم إنه تعالى أخبر وقال:** ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾ وذلك يحتمل السيد الذي هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه، قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ أي أن قولك: ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا من كيدكن إن كيدكن عظيم.

**فإن قيل:** إنه تعالى لما خلق الإنسان ضعيفًا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم، وأيضًا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء.

**والجواب عن الأول:** أن خلقة الإنسان بالنسبة إلى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوان بالنسبة إلى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضًا فالنساء لهن في هذا الباب من المكر والحيل ما لا يكون للرجال ولأن كيدهن في هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال.

واعلم أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ فقيل: إن هذا من قول العزيز، وقيل: إنه من قول الشاهد، ومعناه: أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها، وكما أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ وظاهر ذلك طلب المغفرة، ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح، وعلى هذا التقدير فالأقرب أن قائل هذا القول هو الشاهد، ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله، لأن أولئك الأقوام كانوا يثبتون الصانع، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وعلى هذا التقدير: فيجوز أن يكون القائل هو الزوج. وقوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف في أول الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف، لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغي. وقال أبو بكر الأصم: إن ذلك لزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار. قال صاحب (الكشاف): وإنما قال: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ بلفظ التذكير، تغليبًا للذكور على الإناث، ويحتمل أن يقال: المراد إنك من نسل الخاطئين، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك. والله أعلم.

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

**وفي الآية مسائل:**

**المسألة الأولى:** لم لم يقل: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾

**قلنا لوجهين:**

**الأول:** أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث.

**الثاني:** قال الواحدي: تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع.

المسألة الثانية: قال الكلبي: هن أربع: امرأة ساقي العزيز. وامرأة خبازه وامرأة صاحب سجنه. وامرأة صاحب دوابه، وزاد مقاتل: وامرأة الحاجب. والأشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء. وامرأة العزيز هي هذه المرأة المعلومة ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أن الشغاف فيه وجوه: **الأول:** أن الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال: شغفت فلانًا إذا أصبت شغافه كما تقول: كبدته أي أصبت كبده فقوله: ﴿شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ أي دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب. **والثاني:** أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجابًا بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه. **والثالث:** قال الزجاج: الشغاف: حبة القلب وسويداء القلب. والمعنى: أنه وصل حبه إلى سويداء قلبها، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم.

المسألة الثانية: قرأ جماعة من الصحابة والتابعين (شَعَفَها) بالعين. قال ابن السكيت: يقال شعفه الهوى إذا بلغ إلى حد الاحتراق، وشعف الهناء البعير إذا بلغ منه الألم إلى حد الاحتراق، وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال: الشعف بالعين إحراق الحب القلب مع لذة يجدها، كما أن البعير إذا هُنئ بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح إليه. وقال ابن الأنباري: الشعف: رؤوس الجبال، ومعنى شعف بفلان إذا ارتفع حبه إلى أعلى المواضع من قلبه.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿حُبًّاۖ﴾ نصب على التمييز.

**ثم قال:** ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي في ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها إياه كقوله: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

**ثم قال تعالى:** ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾.

**وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: المراد من قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ أنها سمعت قولهن، وإنما سمي قولهن مكرًا لوجوه:

**الأول:** أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن.

**الثاني:** أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر، فلما أظهرن السر كان ذلك غدرًا ومكرًا.

**الثالث:** أنهن وقعن في غيبتها، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر.

**المسألة الثانية:** أنها لما سمعت أنهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ، وفي تفسيره وجوه: الأول: المتكأ: النمرق الذي يتكأ عليه. الثاني: أن المتكأ هو الطعام. قال العتبي والأصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة فسمي الطعام متكأ على الاستعارة، والثالث: متكأ أترجًّا، وهو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكهة في ذلك المجلس. والرابع: متكأ طعامًا يحتاج إلى أن يقطع بالسكين، لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتكأ عليه عند القطع. ثم نقول: حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلسًا معينًا وآتت كل واحدة منهن سكينًا أي لأجل أكل الفاكهة أو لأجل قطع اللحم ثم إنها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه عليه السلام ما قدر على مخالفتها خوفًا منها ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

**وهاهنا مسائل:**

**المسألة الأولى:** في (أكبرنه) قولان: الأول: أعظمنه. والثاني: (أكبرن) بمعنى حِضْن. قال الأزهري: والهاء للسكت يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر وفيه وجه آخر، وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فحاضت، فإن صح تفسير الإكبار بالحيض فالسبب فيه ما ذكرناه وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ كناية عن دهشتهن وحيرتهن، والسبب في حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها، أو يقال: إنها لما دهشت صارت بحيث لا تميز نصابها من حديدها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة في كفها.

**المسألة الثالثة:** اتفق الأكثرون على أنهن إنما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل: كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبي ﷺ قال: «مَرَرْتُ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ هَذَا يُوسُفُ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّه كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»(١) وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها، وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وهذا القول هو الذي اتفقوا عليه، وعندي أنه يحتمل وجهًا آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة، وآثار الخضوع والاحتشام، وشاهدن منها مهابة النبوة، وهيئة الملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن، وكان الجمال العظيم مقرونًا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه، ووقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن، وعندي أن حمل الآية على هذا الوجه أولى.

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٣٤٥)، من طريق الزهري عن ابن المسيب... به.

**فإن قيل:** فإذا كان الأمر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ وكيف تصير هذه الحالة عذرًا لها في قوة العشق وإفراط المحبة؟

**قلنا:** قد تقرر أن الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول إليه فلهذا السبب وقعت في المحبة، والحسرة، والأرق والقلق، وهذا الوجه في تأويل الآية أحسن والله أعلم.

**المسألة الثالثة:** قرأ أبو عمرو (وَقُلْنَ حَاشَا للَّه) بإثبات الألف بعد الشين وهي رواية الأصمعي عن نافع وهي الأصل لأنها من المحاشاة وهي التنحية والتبعيد، والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورها على الألسن اتباعًا للمصحف (وحاشا) كلمة تفيد معنى التنزيه، والمعنى هاهنا تنزيه الله تعالى من المعجز حيث قدر على خلق جميل مثله. أما قوله: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١] فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله.

**المسألة الرابعة:** قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

**فيه وجهان:**

**الوجه الأول:** وهو المشهور أن المقصود منه إثبات الحسن العظيم له قالوا: لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا حي أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا حي أقبح من الشيطان، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[الصافات: ٦٥] وذلك لما ذكرنا أنه تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا هاهنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهنه بالملك.

**والوجه الثاني:** وهو الأقرب عندي أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة، وجواذب الغضب، ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى، ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت إليهن ألبتة ورأين عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة، وسيما الطهارة قلن إنا ما رأينا فيه أثرًا من أثر الشهوة، ولا شيئًا من البشرية، ولا صفة من الإنسانية، فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة في البشر، وقد ترقى عن حد الإنسانية ودخل في الملكية.

**فإن قالوا:** فإن كان المراد ما ذكرتم فكيف يتمهد عذر تلك المرأة عند النسوة؟ فالجواب قد سبق. والله أعلم.

**المسألة الخامسة:** القائلون بأن الملك أفضل من البشر احتجوا بهذه الآية فقالوا: لا شك إنهن إنما ذكرن هذا الكلام في معرض تعظيم يوسف عليه السلام. فوجب أن يكون إخراجه من البشرية وإدخاله في الملكية سببًا لتعظيم شأنه وإعلاء مرتبته، وإنما يكون الأمر كذلك لو كان الملك أعلى حالاً من البشر، ثم نقول: لا يخلو إما أن يكون المقصود بيان كمال حاله في

الحسن الذي هو الخلق الظاهر، أو كمال حاله في الحسن الذي هو الخلق الباطن، والأول باطل لوجهين: الأول: أنهم وصفوه بكونه كريمًا، وإنما يكون كريمًا بسبب الأخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة، والثاني: أنا نعلم بالضرورة أن وجه الإنسان لا يشبه وجوه الملائكة ألبتة. أما كونه بعيدًا عن الشهوة والغضب معرضًا عن اللذات الجسمانية متوجهًا إلى عبودية الله تعالى مستغرق القلب، والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الإنسان الكامل وبين الملائكة.

**وإذا ثبت هذا فنقول:** تشبيه الإنسان بالملك في الأمر الذي حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه ألبتة، فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك في هذه الآية إنما وقع في الخلق الباطن، لا في الصورة الظاهرة، وثبت أنه متى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالاً من الإنسان في هذه الفضائل، فثبت أن الملك أفضل من البشر، والله أعلم.

**المسألة السادسة:** لغة أهل الحجاز إعمال (ما) عمل ليس وبها ورد قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ومنها قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢] ومن قرأ على لغة بني تميم. قرأ (مَا هَٰذَا بَشَرٌ) وهي قراءة ابن مسعود وقرئ (مَا هَٰذَا بِشِرى) أي ما هو بعبد مملوك للبشر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثم نقول: ما هذا بِشِرًا، أي حاصل بِشِرًا بمعنى هذا مشترى، وتقول: هذا لك بِشِرًا أم بِكِرًا، والقراءة المعتبرة هي الأولى لموافقتها المصحف، ولمقابلة البشر للملك.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أن النسوة لما قلن في امرأة العزيز قد شغفها حبًا إنا لنراها في ضلال مبين، عظم ذلك عليها فجمعتهن ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها.

**فإن قيل:** فلم قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ مع أن يوسف عليه السلام كان حاضرًا؟

**والجواب عنه من وجوه:** الأول: قال ابن الأنباري: أشارت بصيغة ذلكن إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس. والثاني: وهو الذي ذكره صاحب (الكشاف) وهو أحسن ما قيل: إن النسوة كن يقلن إنها عشقت عبدها الكنعاني، فلما رأينه ووقعن في تلك الدهشة قالت: هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني فيه يعني: أنكن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة.

واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾.

واعلم أن هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئًا عن تلك التهمة، وعن السدي أنه قال:

﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ بعد حل السراويل، وما الذي يحمله على إلحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب.

**ثم قال:** ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ والمراد أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام، وقوله: ﴿وَلَيَكُونٗا﴾ كان حمزة والكسائي يقفان على ﴿وَلَيَكُونٗا﴾ بالألف، وكذلك قوله: ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾ [العلق: ١٥] والله أعلم.

**قوله تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٤﴾

**واعلم أن المرأة لما قالت:** ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها وإلا وقعت في السجن وفي الصغار فعند ذلك اجتمع في حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة: أحدها: أن زليخا كانت في غاية الحسن. والثاني: أنها كانت ذات مال وثروة، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها. والثالث: أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر، ومكر النساء في هذا الباب شديد، والرابع: أنه عليه السلام كان خائفًا من شرها وإقدامها على قتله وإهلاكه، فاجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها، فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه.

واعلم أن القوة البشرية والطاقة الإنسانية لا تفي بحصول هذه العصمة القوية، فعند هذا التجأ إلى الله تعالى وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ وقرئ (السَّجْنُ) بالفتح على المصدر، وفيه سؤالان:

السؤال الأول: السجن في غاية المكروهية، وما دعونه إليه في غاية المطلوبية، فكيف قال: المشقة أحب إلي من اللذة؟

والجواب: أن تلك اللذة كانت تستعقب آلامًا عظيمة، وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة، وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة، فلهذا السبب قال: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

السؤال الثاني: أن حبسهم له معصية كما أن الزنا معصية، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية.

والجواب: تقدير الكلام أنه إذا كان لا بد من التزام أحد الأمرين أعني الزنا والسجن، فهذا

أولى، لأنه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شر فأخفهما أولاهما بالتحمل.

**ثم قال:** ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أصب إليهن: أمل إليهن يقال: صبا إلى اللهو يصبو صبوًا إذا مال، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإنسان لا ينصرف عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى عنها قالوا: لأن هذه الآية تدل على أنه تعالى إن لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه، وتقريره: أن القدرة والداعي إلى الفعل والترك إن استويا امتنع الفعل، لأن الفعل رجحان لأحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولهما حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال، وإن حصل الرجحان في أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد وإلا لذهبت المراتب إلى غير النهاية بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحًا لأنه متى صار مرجوحًا صار ممتنع الوقوع لأن الوقوع رجحان، فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان حال حصول المرجوحية، وهو يقتضي حصول الجمع بين النقيضين وهو محال، فثبت بهذا أن انصراف العبد عن القبيح ليس إلا من الله تعالى. ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر، وهو أنه كان قد حصل في حق يوسف عليه السلام جميع الأسباب المرغبة في تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل في الإعراض عنها جميع الأسباب المنفرة، ومتى كان الأمر كذلك، فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك، فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعًا من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية إذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية خاليًا عما يعارضه، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

**وفي الآية مسائل:**

**المسألة الأولى**: اعلم أن زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له، فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تَحْمِل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها، فلم يلتفت يوسف إليها، فلما أيست منه احتالت في طريق آخر وقالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني فضحني في الناس يقول لهم: إني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر وإما أن تحبسه كما حبستني، فعند ذلك وقع في قلب العزيز أن الأصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل

الفضيحة، فهذا هو المراد من قوله ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ لأن البداء عبارة عن تغير الرأي عما كان عليه في الأول، والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر، وخمش الوجه، وإلزام الحكم إياها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٨] وذكرنا أنه ظهرت هناك أنواع أخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعيًا في إخفاء الفضيحة.

**المسألة الثالثة**: قوله: ﴿بَدَا لَهُم﴾ فعل وفاعله في هذا الموضع قوله: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ وظاهر هذا الكلام يقتضي إسناد الفعل إلى فعل آخر، إلا أن النحويين اتفقوا على أن إسناد الفعل إلى الفعل لا يجوز، فإذا قلت خرج ضرب لم يفد ألبتة، فعند هذا قالوا: تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه، إلا أنه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم، وأقول: الذوق يشهد بأن جعل الفعل مخبر عنه لا يجوز وليس لأحد أن يقول الفعل خبرًا فجعل الخبر مخبرًا عنه لا يجوز، لأنا نقول: الاسم قد يكون خبرًا كقولك: زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلمنا أن كون الشيء خبرًا لا ينافي كونه مخبرًا عنه، بل نقول في هذا المقام شكوك، أحدها: أنا إذا قلنا: ضرب فعل فالمخبر عنه بأنه فعل هو ضرب، فالفعل صار مخبرًا عنه.

**فإن قالوا**: المخبر عنه هو هذه الصيغة وهي اسم فنقول: فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بأنه فعل اسم لا فعل وذلك كذب وباطل، بل نقول المخبر عنه بأنه فعل إن كان فعلاً فقد ثبت أن الفعل يصح الإخبار عنه وإن كان اسمًا كان معناه: أنا أخبرنا عن الاسم بأنه فعل ومعلوم أنه باطل، وفي هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها في (كتب المعقولات).

**المسألة الثالثة**: قال أهل اللغة: الحين: وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه، وعلى الطويل، وقال ابن عباس: يريد إلى انقطاع المقالة وما شاع في المدينة من الفاحشة، ثم قيل: الحين هاهنا خمس سنين، وقيل: بل سبع سنين، وقال مقاتل بن سليمان: حبس يوسف اثنتي عشر سنة، والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة، وإنما القدر المعلوم أنه بقي محبوسًا مدة طويلة لقوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

**أما قوله تعالى**: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ فهاهنا محذوف، والتقدير: لما أرادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ عليه قيل: هما غلامان كانا للملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه رفع إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن أن الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما بقي في الآية سؤالات:

**السؤال الأول**: كيف عرفا أنه عليه السلام عالم بالتعبير؟

**والجواب**: لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا: إنا رأينا في المنام هذه الرؤيا، ويحتمل أنهما رأياه وقد أظهر معرفته بأمور منها تعبير الرؤيا فعندها ذكرا له ذلك.

**السؤال الثاني**: كيف عرف أنهما كانا عبدين للملك؟

الجواب: لقوله: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١] أي مولاه، ولقوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

السؤال الثالث: كيف عرف أن أحدهما صاحب شراب الملك، والآخر صاحب طعامه؟

والجواب: رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لأن أحدهما رأى أنه يعصر الخمر، والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزًا.

السؤال الرابع: كيف وقعت رؤية المنام؟

والجواب: فيه قولان:

القول الأول: أن يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله: إني أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين، هلم فلنخبر هذا العبد العبراني برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا. قال ابن مسعود: ما كانا رأيا شيئًا وإنما تحالما ليختبرا علمه.

والقول الثاني: قال مجاهد: كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها، فقال الساقي: أيها العالم إني رأيت كأني في بستان فإذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكأن كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وقال صاحب الطعام: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز وألوان وأطعمه وإذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

السؤال الخامس: كيف عرف يوسف عليه السلام أن المراد من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ رؤيا المنام؟

الجواب: لوجوه: الأول: أنه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله: ﴿أَعْصِرُ﴾ يغنيه عن ذكر قوله ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ والثاني: دل عليه قوله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦].

السؤال السادس: كيف يعقل عصر الخمر؟

الجواب: فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون المعنى أعصر عنب خمر، أي العنب الذي يكون عصيره خمرًا فحذف المضاف. الثاني: أن العرب تسمي الشيء باسم ما يئول إليه إذا انكشف المعنى ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبسًا وهو يطبخ عصيرًا. والثالث: قال أبو صالح: أهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها، قال الضحاك: نزل القرآن بألسنة جميع العرب.

السؤال السابع: ما معنى التأويل في قوله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾.

الجواب: تأويل الشيء ما يرجع إليه وهو الذي يئول إليه آخر ذلك الأمر.

السؤال الثامن: ما المراد من قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الجواب من وجوه: الأول: معناه: إنا نراك تؤثر الإحسان وتأتي بمكارم الأخلاق وجميع

الأفعال الحميدة. قيل: إنه كان يعود مرضاهم، ويؤنس حزينهم فقالوا: إنك من المحسنين أي في حق الشركاء والأصحاب، وقيل: إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا: إنك من المحسنين في أمر الدين، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله في تعبير الرؤيا، وفي سائر الأمور، وقيل: المراد ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في علم التعبير، وذلك لأنه متى عبر لم يُخْطِ كما قال ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

السؤال التاسع: ما حقيقة علم التعبير؟

الجواب: القرآن والبرهان يدلان على صحته. أما القرآن فهو هذه الآية، وأما البرهان فهو أنه قد ثبت أنه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك، ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفي وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى على هذه المطالعة فإذا وقعت الروح على حالة من الأحوال تركت آثارًا مخصوصة مناسبة لذلك الإدراك الروحاني إلى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الإدراكات العقلية فهذا كلام مجمل، وتفصيله مذكور في «الْكُتُبِ الْعَقْلِيَّةِ»، والشريعة مؤكدة له روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: رُؤْيَا مَا يُحَدِّثُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَرُؤْيَا تَحْدُثُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا الَّتِي هِيَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ الحَقَّة»(١) وهذا تقسيم صحيح في العلوم العقلية وقال عليه السلام: «رُؤْيَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ ستة وأربعين جزءًا من النبوة»(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

**وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن المذكور في هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه فلا بد هاهنا من بيان الوجه الذي لأجله عدل عن ذكر الجواب إلى هذا الكلام، والعلماء ذكروا فيه وجوهًا: **الأول**: أنه لما

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (القيد في المنام)، (١٢/ ٤٢٢) حديث رقم/ ٧٠١٧، من طريق عوف... به، ومسلم في كتاب (الرؤيا) باب (في فاتحته) (٤/ ٢/ ١٧٧١)، من طريق يحيى بن سعيد... به، كلاهما (يحيى، عبد ربه) عن أبي سلمة... به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (الرؤية الصالحة جزء من تسع وتسعون جزءًا من النبوة) (١٢/ ٣٨٩) حديث رقم/ ٦٩٨٧، من طريق شعبة... به، ومسلم في كتاب (الرؤية) باب (الرؤية الصالحة) (٤/ ٧/ ١٧٧٤)، من طريق شعبة... به، جميعًا من طريق شعبة... به.

كان جواب أحد السائلين أنه يصلب، ولا شك أنه متى سمع ذلك عظم حزنه واشتدت نفرته عن سماع هذا الكلام، فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك ما يؤثر معه بعلمه وكلامه، حتى إذا جاء بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة. **الثاني:** لعله عليه السلام أراد أن يبين أن درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه، وذلك لأنهم طلبوا منه علم التعبير، ولا شك أن هذا العلم مبني على الظن والتخمين، فبيَّن لهما أنه يمكنه الإخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه، وإذا كان الأمر كذلك فبأن يكون فائقًا على كل الناس في علم التعبير كان أولى، فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقًا في علم التعبير واصلاً فيه إلى ما لم يصل غيره، **والثالث:** قال السدي: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في النوم بين ذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس بمقصور على شيء دون غيره، ولذلك قال: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾. **الرابع:** لعله عليه السلام لما علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله، فأورد عليهما ما دل على كونه رسولاً من عند الله تعالى، فإن الاشتغال بإصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا، **والخامس:** لعله عليه السلام لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد في أن يدخله في الإسلام حتى لا يموت على الكفر، ولا يستوجب العقاب الشديد ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. **والسادس:** قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ محمول على اليقظة، والمعنى: أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما أي طعام هو، وأي لون هو، وكم هو، وكيف يكون عاقبته؟ أي إذا أكله الإنسان فهو يفيد الصحة أو السقم، وفيه وجه آخر، قيل: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعامًا فأرسله إليه، فقال يوسف: لا يأتيكما طعام ألا أخبرتكما أن فيه سمًّا أم لا، هذا هو المراد من قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ وحاصله راجع إلى أنه ادعى الإخبار عن الغيب، وهو يجري مجرى قول عيسى عليه السلام، ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] فالوجوه الثلاثة الأول لتقرير كونه فائقًا في علم التعبير، والوجوه الثلاثة الأخر لتقرير كونه نبيًّا صادقًا من عند الله تعالى.

**فإن قيل:** كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع أنه لم يتقدم ادعاء للنبوة؟

**قلنا:** إنه وإن لم يذكر ذلك لكن يعلم أنه لا بد وأن يقال: إنه كان قد ذكره، وأيضًا ففي قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ وفي قوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ ما يدل على ذلك.

**ثم قال تعالى:** ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ أي لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم، وإنما أخبرتكما بوحي من الله وعلم حصل بتعليم الله.

**ثم قال:** ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** لقائل أن يقول: في قوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ توهم أنه عليه السلام كان في هذه الملة. فنقول جوابه من وجوه: **الأول:** أن الترك عبارة عن عدم التعرض

للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضًا فيه. **والثاني:** وهو الأصح أن يقال إنه عليه السلام كان عبدًا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفًا منهم على سبيل التقية، ثم إنه أظهره في هذا الوقت، فكان هذا جاريًا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر.

**المسألة الثانية:** تكرير لفظ (هم) في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ لبيان اختصاصهم بالكفر، ولعل إنكارهم للمعاد كان أشد من إنكارهم للمبدأ، فلأجل مبالغتهم في إنكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد.

**واعلم أن قوله:** ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إشارة إلى علم المبدأ. وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ إشارة إلى علم المعاد، ومن تأمل في القرآن المجيد وتفكر في كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام علم أن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ والمعاد، وأن ما وراء ذلك عبث.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

**وفيه سؤالات:**

**السؤال الأول:** ما الفائدة في ذكر هذا الكلام.

**الجواب:** أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة، وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله، فإن الإنسان متى ادعى حرفة أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه، وأيضًا فكما أن درجة إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب كان أمرًا مشهورًا في الدنيا، فإذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا إليه بعين الإجلال، فكان انقيادهم له أتم وأثر قلوبهم بكلامه أكمل.

**السؤال الثاني:** لما كان نبيًا فكيف قال: إني اتبعت ملة آبائي، والنبي لا بد وأن يكون مختصًا بشريعة نفسه. قلنا: لعل مراده التوحيد الذي لم يتغير، وأيضًا لعله كان رسولاً من عند الله، إلا أنه كان على شريعة إبراهيم عليه السلام.

**السؤال الثالث:** لم قال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وحال كل المكلفين كذلك؟

**والجواب:** ليس المراد بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أنه حرم ذلك عليهم، بل المراد أنه تعالى طهر آباءه عن الكفر، ونظيره قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥].

**السؤال الرابع:** ما الفائدة في قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾.

**الجواب:** أن أصناف الشرك كثيرة، فمنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد النار، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة، فقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق، وإرشاد إلى الدين الحق، وهو أنه لا موجد إلا الله ولا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله.

**ثم قال:** ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾

**وفيه مسألة:**

وهي أنه قال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ . ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عدم الإشراك، فهذا يدل على أن عدم الإشراك وحصول الإيمان من الله. ثم بيَّن أن الأمر كذلك في حقه بعينه، وفي حق الناس. ثم بيَّن أن أكثر الناس لا يشكرون، ويجب أن يكون المراد أنهم لا يشكرون الله على نعمة الإيمان، حكي أن واحدًا من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر، وقال: هل تشكر الله على الإيمان أم لا. فإن قلت: لا، فقد خالفت الإجماع، وإن شكرته فكيف تشكره على ما ليس فعلاً له، فقال له بشر: إنا نشكره على أنه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة، فيجب علينا أن نشكره على إعطاء القدرة والآلة، فأما أن نشكره على الإيمان مع أن الإيمان ليس فعلاً له، فذلك باطل، وصعب الكلام على بشر، فدخل عليهم ثمامة بن الأشرس وقال: إنا لا نشكر الله على الإيمان، بل الله يشكرنا عليه كما قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] فقال بشر: لما صعب الكلام سهل.

واعلم أن الذي ألزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية، وذلك لأنه تعالى بيَّن أن عدم الإشراك من فضل الله، ثم بيَّن أن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة، وإنما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على أنه يجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على نعمة الإيمان وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة. قال القاضي قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إن جعلناه إشارة إلى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى لأنه إنما حصل بألطافه وتسهيله، ويحتمل أن يكون إشارة إلى النبوة.

والجواب: أن ذلك إشارة إلى المذكور السابق، وذاك هو ترك الإشراك فوجب أن يكون ترك الإشراك من فضل الله تعالى، والقاضي يصرفه إلى الألطاف والتسهيل، فكان هذا تركًا للظاهر وأما صرفه إلى النبوة فبعيد، لأن اللفظ الدال على الإشارة يجب صرفه إلى أقرب المذكورات وهو هاهنا عدم الإشراك.

**قوله تعالى:** ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

**في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ يريد صاحبيَّ في السجن، ويحتمل أيضًا أنه لما

حصلت مرافقتهما في السجن مدة قليلة أضيفا إليه، وإذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحبًا فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بأن يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب.

المسألة الثانية: اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة في الآية الأولى وكان إثبات النبوة مبنيًّا على إثبات الإلهيات لا جرم شرع في هذه الآية في تقرير الإلهيات، ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الإله العالم القادر وإنما الشأن في أنهم يتخذون أصنامًا على صورة الأرواح الفلكية ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضر منها لا جرم كان سعي أكثر الأنبياء في المنع من عبادة الأوثان، فكان الأمر على هذا القانون في زمان يوسف عليه السلام، فلهذا السبب شرع هاهنا في ذكر ما يدل على فساد القول بعبادة الأصنام وذكر أنواعًا من الدلائل والحجج.

**الحجة الأولى:** قوله: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وتقرير هذه الحجة أن نقول: إن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل، وكون الإله واحدًا يقتضي حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات قال هاهنا: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار.

**والحجة الثانية:** أن هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة، فإن الإنسان إذا أراد كسرها وإبطالها قدر عليها فهي مقهورة لا تأثير لها، ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها وإله العالم فعَّال قهَّار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار، فقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ إشارة إلى الكثرة فجعل في مقابلته كونه تعالى واحدًا وقوله: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إشارة إلى كونها مختلفة في الكبر والصغر، واللون والشكل، وكل ذلك إنما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة وجعل في مقابلته كونه تعالى قهارًا فبهذا الطريق الذي شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين.

**والحجة الثالثة:** أن كونه تعالى واحدًا يوجب عبادته، لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا، فيقع الشك في أنا نعبد هذا أم ذاك، وفيه إشارة إلى ما يدل على فساد القول بعبادة الأوثان وذلك لأن بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة إلا أنها كثيرة فحينئذ لا نعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتهما ومعاونتهما، وحينئذ يقع الشك في أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك أما إذا كان المعبود واحدًا ارتفع هذا الشك وحصل اليقين في أنه لا يستحق للعبادة إلا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات إلا هو، فهذا أيضًا وجه لطيف مستنبط من هذه الآية.

**الحجة الرابعة:** أن بتقدير أن يساعد على أن هذه الأصنام تنفع وتضر على ما يقوله أصحاب الطلسمات إلا أنه لا نزاع في أنها تنفع في أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة، والإله

تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الإطلاق نافذ المشيئة والقدرة في كل الممكنات على الإطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى .

**الحجة الخامسة:** وهي شريفة عالية ، وذلك لأن شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهارًا لكل ما سواه وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكنًا لكان مقهورًا لا قاهرًا ويجب أن يكون واحدًا ، إذ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهرًا لكل ما سواه ، فالإله لا يكون قهارًا إلا إذا كان واجبًا لذاته وكان واحدًا ، وإذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضي أن يكون الإله شيئًا غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة وغير العقل والنفس . فأما من تمسك بالكواكب فهي أرباب متفرقون وهي ليست موصوفة بأنها قهارة ، وكذا القول في الطبائع والأرواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف في إثبات هذا التوحيد المطلق وأنه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقي فيها سؤالان :

**السؤال الأول** : لم سماها أربابًا وليست كذلك .

**والجواب** : لاعتقادهم فيها أنها كذلك ، وأيضًا الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير : والمعنى أنها إن كانت أربابًا فهي خير أم الله الواحد القهار .

**السؤال الثاني** : هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال : إنها خير أم الله الواحد القهار؟

**الجواب** : أنه خرج على سبيل الفرض ، والمعنى : لو سلمنا أنه حصل منها ما يوجب الخير فهي خير أم الله الواحد القهار .

**ثم قال:** ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ وفيه سؤال : وهو أنه تعالى قال فيما قبل هذه الآية : ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وذلك يدل على وجود هذه المسميات . ثم قال عقيب تلك الآية : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وهذا يدل على أن المسمى غير حاصل وبينهما تناقض .

**الجواب** : أن الذات موجودة حاصلة إلا أن المسمى بالإله غير حاصل وبيانه من وجهين : الأول : أن ذوات الأصنام وإن كانت موجودة إلا أنها غير موصوفة بصفات الإلهية ، وإذا كان كذلك كان الشيء الذي هو مسمى بالإله في الحقيقة غير موجود ولا حاصل ، الثاني : يروى أن عبدة الأوثان مشبهة فاعتقدوا أن الإله هو النور الأعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأوثان ومعبودهم في الحقيقة هو تلك الأنوار السماوية ، وهذا قول المشبهة فإنهم تصوروا جسمًا كبيرًا مستقرًا على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود ألبتة فصح أنهم لا يعبدون إلا مجرد الأسماء .

واعلم أن جماعة ممن يعبدون الأصنام قالوا : نحن لا نقول : إن هذه الأصنام آلهة للعالم بمعنى أنها هي التي خلقت العالم إلا أنا نطلق عليها اسم الإله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا أن الله

أمرنا بذلك، فأجاب الله تعالى عنه، فقال: أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل في حصول هذه التسمية حجة ولا برهانًا ولا دليلاً ولا سلطانًا، وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والأمر والتكليف ليس إلا له، ثم إنه أمر أن ألا تعبدوا إلا إياه، وذلك لأن العبادة نهاية التعظيم والإجلال فلا تليق إلا بمن حصل منه نهاية الإنعام وهو الإله تعالى لأن منه الخلق والإحياء والعقل والرزق والهداية، ونعم الله كثيرة وجهات إحسانه إلى الخلق غير متناهية ثم إنه تعالى لما بيَّن هذه الأشياء قال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتفسيره أن أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الأرضية إلى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لأجل أنه تقرر في العقول أن الحادث لا بد له من سبب فإذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم في الحر والبرد والفصول الأربعة، إنما يحصل عند تغير أحوال الشمس في أرباع الفلك ربطوا الفصول الأربعة بحركة الشمس، ثم لما شاهدوا أن أحوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الأربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الأربعة، فبهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث في هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب، ثم إنه تعالى إذا وفق إنسانًا حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها في ذواتها وصفاتها مفتقرة إلى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم، فذلك الشخص يكون في غاية الندرة، فلهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

## قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد إلى الجواب عن السؤال الذي ذكراه، والمعنى ظاهر، وذلك لأن الساقي لما قص رؤياه على يوسف، وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف: ما أحسن ما رأيت أما حسن العنبة فهو حسن حالك، وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيردك إلى عملك فتصير كما كنت بل أحسن، وقال للخباز: لما قص عليه بئسما رأيت السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك، ثم نقل في التفسير أنهما قالا ما رأينا شيئًا فقال: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ واختلف فيما لأجله قالا: ما رأينا شيئًا فقيل إنهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما ما رأيا شيئًا وقيل: إنهما لما كرها ذلك الجواب قالا ما رأينا شيئًا.

**فإن قيل:** هذا الجواب الذي ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحي من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير، والأول باطل لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نقل أنه إنما ذكره على سبيل التعبير، وأيضًا قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٢] ولو كان ذلك التعبير مبنيًا على الوحي لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين، والثاني: أيضًا

باطل لأن علم التعبير مبني على الظن والحسبان.

**الجواب**: لا يبعد أن يقال: إنهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فإن الله تعالى أوحى إليه أن عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص، فلما نزل الوحي بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع في الظن أنه ذكره على سبيل التعبير، ولا يبعد أيضًا أن يقال: إنه بنى ذلك الجواب على علم التعبير، وقوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ما عنى به أن الذي ذكره واقع لا محالة بل عنى به أنه حكمه في تعبير ما سألاه عنه ذلك الذي ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

**فيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: اختلفوا في أن الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجي فعلى الأول كان المعنى، وقال الرجل الذي ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيًا، وعلى هذا القول وجهان: الأول: أن تحمل هذا الظن على العلم واليقين، وهذا إذا قلنا بأنه عليه السلام إنما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحي. قال هذا القائل: وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير في القرآن. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] وقال: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] والثاني: أن تحمل هذا الظن على حقيقة الظن، وهذا إذا قلنا: إنه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحي، بل على الأصول المذكورة في ذلك العلم، وهي لا تفيد إلا الظن والحسبان.

والقول الثاني: أن هذا الظن صفة الناجي، فإن الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته، ولكنهما كانا حسني الاعتقاد فيه، فكان قوله لا يفيد في حقهما إلا مجرد الظن.

**المسألة الثانية**: قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذي حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع إلى خدمة الملك ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند الملك. والمعنى: اذكر عنده أنه مظلوم من جهة إخوته لما أخرجوه وباعوه، ثم إنه مظلوم في هذه الواقعة التي لأجلها حبس، فهذا هو المراد من الذكر.

**ثم قال تعالى**: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ . **وفيه قولان:**

**الأول**: أنه راجع إلى يوسف، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه، وعلى هذا القول ففيه وجهان:

**أحدهما**: أن تمسكه بغير الله كان مستدركًا عليه، وتقريره من وجوه:

**الأول**: أن مصلحته كانت في أن لا يرجع في تلك الواقعة إلى أحد من المخلوقين وأن لا يعرض حاجته على أحد سوى الله، وأن يقتدي بجده إبراهيم عليه السلام، فإنه حين وضع في

المنجنيق ليرمى إلى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال: هَلْ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا[١]، فلما رجع يوسف إلى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بأن الشيطان أنساه ذلك التفويض، وذلك التوحيد، ودعاه إلى عرض الحاجة إلى المخلوقين، ثم لما وصفه بذلك ذكر أنه بقي لذلك السبب في السجن بضع سنين، والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع إلى ربه إلى هذا المخلوق عوقب بأن لبث في السجن بضع سنين، وحاصل الأمر أن رجوع يوسف إلى المخلوق صار سببًا لأمرين: أحدهما: أنه صار سببًا لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه، الثاني: أنه صار سببًا لبقاء المحنة عليه مدة طويلة.

الوجه الثاني: أن يوسف عليه السلام قال في إبطال عبادة الأوثان ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ثم إنه هاهنا أثبت ربًا غيره حيث قال: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ومعاذ الله أن يقال إنه حكم عليه بكونه ربًّا بمعنى كونه إلهًا، بل حكم عليه بالربوبية كما يقال: رب الدار، ورب الثوب على أن إطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفي الأرباب.

الوجه الثالث: أنه قال في تلك الآية: ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، وذلك نفي للشرك على الإطلاق، وتفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى، فهاهنا الرجوع إلى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد.

واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فهذا وإن كان جائزًا لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب.

الوجه الثاني: في تأويل الآية أن يقال: هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقي أن يشرح حاله عند ذلك الملك، إلا أنه كان من الواجب عليه أن لا يخلي ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول إن شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك.

القول الثاني: أن يقال: إن قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ راجع إلى الناجي والمعنى: أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الأمر ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ

---

(١) إسناده ضعيف: البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٩) حديث رقم/ ١٠٧٧، من طريق علي بن عثام قال: قال بشر بن الحارث... به، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (١/ ٢٠)، من طريق إسحاق بن بشر قال: قال مقاتل وسعيد... فذكره، والطبري في (تفسيره) (١٧/ ٤٥)، من طريق الحسين قال حدثنا المعتمر بن سليمان التيمي عن بعض أصحابه... به، وكل هذا الإسناد مراسيل بل فيها معضل والصواب كما جاء عند البخاري في (صحيحه) (٤/ ١٦٦٢) حديث رقم/ ٤٢٨٧، من طريق أبي حصين عن أبي عن ابن عباس قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

أبي حصين عن أبي عن ابن عباس قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

بِضْعَ سِنِينَ﴾ بهذا السبب، ومن الناس من قال القول الأول أولى لما روي عنه عليه السلام قال: «رَحِمَ اللَّه يُوسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلِ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ»[1] وعن قتادة أن يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه إلى غير الله، وعن إبراهيم التيمي: أنه لما انتهى إلى باب السجن قال له صاحبه: ما حاجتك؟ قال: أن تذكرني عند رب سوى الرب الذي قال يوسف، وعن مالك لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قيل: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال: طول البلاء أنساني ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لإخوتي.

قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازي رحمه الله، والذي جربته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سببًا إلى البلاء والمحنة، والشدة والرزية، وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه ومن الناس من رجح القول الثاني لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل أولى من صرفها إلى يوسف الصديق، ولأن الاستعانة بالعباد في التخلص من الظلم جائزة.

واعلم أن الحق هو القول الأول، وما ذكره هذا القائل الثاني تمسك بظاهر الشريعة وما قرره القائل الأول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة، ومن كان له ذوق في مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرناه، وأيضًا ففي لفظ الآية ما يدل على أن هذا القول ضعيف، لأنه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره لربه.

**المسألة الثالثة**: الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة في الشريعة لا إنكار عليه إلا أنه لما كان ذلك مستدركًا من المحققين المتوغلين في بحار العبودية لا جرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذًا به، وعند هذا نقول: الذي يصير مؤاخذًا بهذا القدر لأن يصير مؤاخذًا بالإقدام على طلب الزنا ومكافأة الإحسان بالإساءة كان أولى فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر، ولم يؤاخذه في تلك القضية ألبتة، وما عابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية إليه.

**المسألة الرابعة**: الشيطان يمكنه إلقاء الوسوسة، وأما النسيان فلا، لأنه عبارة عن إزالة العلم عن القلب، والشيطان لا قدرة له عليه، وإلا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بني آدم.

**وجوابه**: أنه يمكنه من حيث إنه بوسوسته يدعو إلى سائر الأعمال واشتغال الإنسان بسائر الأعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة.

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن حبان في (صحيحه) (١٤/ ٨٦) حديث رقم/ ٦٢٠٦، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٨/ ٣٦٨) حديث رقم/ ١٢٤٨٧، كلاهما من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة... به.

**المسألة الخامسة**: قوله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ .

**فيه بحثان:**

**البحث الأول**: بحسب اللغة، قال الزجاج: اشتقاقه من بَضَعْتُ بمعنى قطعت، ومعناه القطعة من العدد، قال الفراء: ولا يذكر البضع إلا مع عشرة أو عشرين إلى التسعين، وذلك يقتضي أن يكون مخصوصًا بما بين الثلاثة إلى التسعة، وقال: هكذا رأيت العرب يقولون: وما رأيتهم يقولون بضع ومائة، وروى الشعبي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: «كَم الْبِضْعُ» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «مَا دُونَ الْعَشَرَةِ»(١) واتفق الأكثرون على أن المراد هاهنا ببضع سنين سبع سنين قالوا: إن يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ كان قد بقي في السجن خمس سنين ثم بقي بعد ذلك سبع سنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما تضرع يوسف عليه السلام إلى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين، وروي أن الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه: «رَحِمَ اللَّهُ يُوسُفَ لَوْلاَ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَالَهَا لَمَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ هَذِهِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ» ثم بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا أمر تضرعنا إلى الناس.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابًا، ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر في النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعًا أخر يابسات، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾ فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تأويلها وتعبيرها، فهذا ظاهر الكلام.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: قال الليث: العجف: ذهاب السمن والفعل عَجَف يَعْجُفُ والذكر أعجف والأنثى عجفاء والجمع عجاف في الذكران والإناث. وليس في كلام العرب أفعل وفعلاء جمعًا على فعال غير أعجف وعجاف وهي شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا: سمان وعجاف لأنهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير، والنقيض على النقيض، واللام في قوله: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل، وقال صاحب (الكشاف):

---

(١) **إسناده مرسل**: الشعبي، وهو عامر بن شراحيل ثقة فاضل من أواسط التابعين.

يجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول: كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكنًا منه وتعبرون خبرًا آخر أو حالاً، ويقال عبرت الرؤيا أَعْبُرُها وعبرتها تعبيرًا إذا فسرتها، وحكى الأزهري أن هذا مأخوذ من العبر، وهو جانب النهر، ومعنى عبرت النهر والطريق: قطعته إلى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر، لأنه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر، والأضغاث: جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤].

**إذا عرفت هذا فنقول:** الرؤيا إن كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث.

المسألة الثانية: أنه تعالى جعل تلك الرؤيا سببًا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن، وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببه، لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وأنه منذر بنوع من أنواع الشر، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه والشيء إذا صار معلومًا من وجه وبقي مجهولاً من وجه آخر عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة في إتمام الناقص لا سيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن واسع المملكة، وكان ذلك الشيء دالاً على الشر من بعض الوجوه فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا، ثم إنه تعالى أعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة وعماه عليهم ليصير ذلك سببًا لخلاص يوسف من تلك المحنة.

واعلم أن القوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير، بل قالوا: إن علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه منتسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالأضغاث والقوم قالوا: إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لا نهتدي إليها ولا يحيط عقلنا بها وفيها إيهام أن الكامل في هذا العلم والمتبحر فيه قد يهتدي إليها، فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف فإنه كان يعتقد فيه كونه متبحرًا في هذا العلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أن الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابي: إن في الحبس رجلاً فاضلاً صالحًا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكل وما أخطأ في حرف فإن أذنت مضيت إليه وجئتك بالجواب. فهذا هو قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾.

**وأما قوله:** ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ فنقول: سيجيء ادَّكَرَ في تفسير قوله تعالى: ﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١] في سورة القمر قال صاحب (الكشاف) ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال هو الفصيح عن الحسن (واذَّكر) بالذال أي تذكر، وأما الأمة ففيه وجوه: **الأول:** ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم، فالحين كان أمة من الأيام والساعات، **والثاني:** قرأ الأشهب العقيلي (بعد إِمَّةٍ) بكسر الهمزة، والإمة: النعمة قال عدي:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّةِ وَارَتْهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ(١)

والمعنى: بعدما أنعم عليه بالنجاة. الثالث: قرئ (بعد أَمَهٍ) أي بعد نسيان يقال أَمَهَ يَأْمَهُ أمهًا إذا نسي والصحيح أنها بفتح الميم وذكره أبو عبيدة بسكون الميم، وحاصل الكلام أنه إما أن يكون المراد وادكر بعد مضي الأوقات الكثيرة من الوقت الذي أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك، والمراد وادكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك أو المراد وادَّكر بعد النسيان.

**فإن قيل:** قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ يدل على أن الناسي هو الشرابي وأنتم تقولون الناسي هو يوسف عليه السلام.

**قلنا:** قال ابن الأنباري: ادَّكر بمعنى ذكر وأخبر، وهذا لا يدل على سبق النسيان فلعل الساقي إنما لم يذكره للملك خوفًا من أن يكون ذلك اذكارًا لذنبه الذي من أجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل أيضًا أن يقال: حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضًا لذلك الشرابي. وأما قوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ خطاب إما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم، أما قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ففيه محذوف، والتقدير: فأرسل وأتاه وقال أيها الصديق، والصديق هو البالغ في الصدق وصفه بهذه الصفة لأنه لم يجرب عليه كذبًا وقيل: لأنه صدق في تعبير رؤياه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئًا فإنه يجب عليه أن يعظمه، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال ثم إنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك ونعم ما فعل، فإن تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور في ذلك العلم.

**أما قوله تعالى:** ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فالمراد لعلي أرجع إلى الناس بفتواك لعلهم يعلمون فضلك وعلمك وإنما قال: لعلي أرجع إلى الناس بفتواك لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضًا عنها، فلهذا السبب قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾.

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الخفيف وهو هكذا.

ثُمَّ بَعدَ الفلاحِ وَالمُلكِ وَالنِعـ ـمة وارتهم هُناكَ القُبورُ

والشاعر هو عدي بن زيد تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ وهو خبر بمعنى الأمر، كقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾[البقرة: ٢٢٨] ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾[البقرة: ٢٣٣] وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر، ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ وقوله: ﴿دَأَبًا﴾ قال أهل اللغة: الدأب: استمرار الشيء على حالة واحدة وهو دائب بفعل كذا إذا استمر في فعله، وقد دَأَبَ يَدْأَبُ دأْبًا ودأبًا أي زراعة متوالية في هذه السنين. قال أبو علي الفارسي: الأكثر في دأب الإسكان ولعل الفتحة لغة، فيكون كشَمْع وشَمَع، ونَهْر ونَهَر. قال الزجاج: وانتصب دأبًا على معنى تدأبون دأبًا. وقيل: إنه مصدر وضع في موضع الحال، وتقديره تزرعون دائبين فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون كل ما أردتم أكله فدوسوه ودعوا الباقي في سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه، لأن إبقاء الحبة في سنبله يوجب بقاءها على الصلاح ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي سبع سنين مجدبات، والشداد: الصعاب التي تشتد على الناس، وقوله: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ هذا مجاز، فإن السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسندًا إلى السنين. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ الإحصان: الإحراز، وهو إلقاء الشيء في الحصن يقال: أحصنه إحصانًا إذا جعله في حرز، والمراد إلا قليلاً مما تحرزون أي تدخرون وكلها ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ قال المفسرون: السبعة المتقدمة سِنِو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهي معلومة من الرؤيا، وأما حال هذه السنة فما حصل في ذلك المنام شيء يدل عليه بل حصل ذلك من الوحي فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم، وعن قتادة زاده الله علم سنة.

**فإن قيل:** لما كانت العجاف سبعًا دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد، ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضًا من مدلولات المنام، فلم قلتم: إنه حصل بالوحي والإلهام؟

**قلنا:** هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام، أما تفصيل الحال فيه، وهو قوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ لا يعلم إلا بالوحي، قال ابن السكيت يقال: غاث الله البلاد يغيثها غيثًا إذا أنزل فيها الغيث وقد غيثت الأرض تغاث، وقوله: ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ معناه يمطرون، ويجوز أن يكون من قولهم: أغاثه الله إذا أنقذه من كرب أو غم، ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب،

وقوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي يعصرون السمسم دهنًا والعنب خمرًا والزيتون زيتًا، وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير، وقيل: يحلبون الضروع، وقرئ (يُعْصَرون) من عصره إذا نجاه، وقيل: معناه يمطرون من أعصرت السحابة إذا عصرت بالمطر، ومنه قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أنه لما رجع الشرابي إلى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال: ائتوني به، وهذا يدل على فضيلة العلم، فإنه سبحانه جعل علمه سببًا لخلاصه من المحنة الدنيوية، فكيف لا يكون العلم سببًا للخلاص من المحن الأخروية، فعاد الشرابي إلى يوسف عليه السلام قال: أجب الملك، فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه. وعن النبي ﷺ قال: «عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَكَرَمِهِ وَصَبْرِهِ واللَّه يَغْفِرُ لَهُ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْبَقَرَاتِ الْعِجَافِ وَالسِّمَانِ وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَمَا أَخْبَرْتُهُمْ حَتَّى اشْتَرَطْتُ أَنْ يخرجوني وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ وَلَبِثْتُ في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وَبَادَرْتُهُمْ إِلَى الْبَابِ وَلَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ذَا أَنَاةٍ»(١).

واعلم أن الذي فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل، وبيانه من وجوه: **الأول:** أنه لو خرج في الحال فربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثرها، فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه. **الثاني:** أن الإنسان الذي بقي في السجن اثنتي عشرة سنة إذا طلبه الملك وأمر بإخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج، فحيث لم يخرج عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات، وذلك يصير سببًا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذبًا وبهتانًا. **الثالث:** أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضًا على

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٦/ ١٣٦) حديث رقم/ ١٩٤٠٣، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٨/ ٣٨١) حديث رقم/ ١٢٥٣٨، كلاهما من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة... به، وهذا مرسل.

شدة طهارته إذ لو كان ملوثًا بوجه ما، لكان خائفًا أن يذكر ما سبق. **الرابع:** أنه حين قال للشرابي: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] فبقي بسبب هذه الكلمة في السجن بضع سنين وهاهنا طلبه الملك فلم يلتفت إليه ولم يقم لطلبه وزنًا، واشتغل بإظهار براءته عن التهمة، ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبقى في قلبه التفات إلى رد الملك وقبوله، وكان هذا العمل جاريًا مجرى التلافي لما صدر من التوسل إليه في قوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] ليظهر أيضًا هذا المعنى لذلك الشرابي، فإنه هو الذي كان واسطة في الحالتين معًا.

**أما قوله:** ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾.

**ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير والكسائي (فَسَلْهُ) بغير همز، والباقون (فاسأله) بالهمز، وقرأ عاصم برواية أبي بكر عنه (النُّسوة) بضم النون والباقون بكسر النون، وهما لغتان.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف: **أولها:** أن معنى الآية: فسل الملك يأن يسأل ما شأن تلك النسوة وما حالهن ليعلم براءتي عن تلك التهمة، إلا أنه اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل، **وثانيها:** أنه لم يذكر سيدته مع أنها هي التي سعت في إلقائه في السجن الطويل، بل اقتصر على ذكر سائر النسوة. **وثالثها:** أن الظاهر أن أولئك النسوة نسبنه إلى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك، فاقتصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وما شكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل. ثم قال يوسف بعد ذلك: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وفي المراد من قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وجهان:

**الأول:** أنه هو الله تعالى، لأنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور.

**والثاني:** أن المراد الملك وجعله ربًّا لنفسه لكونه مربيًا له وفيه إشارة إلى كون ذلك الملك عالمًا بكيدهن ومكرهن.

واعلم أن كيدهن في حقه يحتمل وجوهًا:

**أحدها:** أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه، فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه إلى القبيح. **وثانيها:** لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيدته على مرادها، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة في حق السيد المنعم لا تجوز، فأشار بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إلى مبالغتهن في الترغيب في تلك الخيانة. **وثالثها:** أنه استخرج منهن وجوهًا من المكر والحيل في تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذاك، ثم إنه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام أنه لما التمس ذلك، أمر الملك بإحضارهن وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

**وفيه وجهان:**

**الأول:** أن قوله: ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وإن كانت صيغة الجمع، فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

**والثاني:** أن المراد منه خطاب الجماعة. ثم ههنا وجهان: **الأول:** أن كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها. **والثاني:** أن كل واحدة منهن راودت يوسف لأجل امرأة العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه، وعند هذا السؤال ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وهذا كالتأكيد لما ذكرن في أول الأمر في حقه وهو قولهن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة، وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات إنما وقعت بسببها ولأجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهرًا عن جميع العيوب، وهاهنا دقيقة، وهي أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة ألبتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيمًا لجانبها وإخفاء للأمر عليها، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل، ورأيت في بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادعت عليه المهر، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة، فقال الزوج: لا حاجة إلى ذلك، فإني مقر بصدقها في دعواها، فقالت المرأة: لما أكرمتني إلى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك.

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ معناه: وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس من قولهم: حصحص البعير في بروكه: إذا تمكن واستقر في الأرض. قال الزجاج: اشتقاقه في اللغة من الحصة، أي بانت حصة الحق من حصة الباطل.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ كلام من؟

**وفيه أقوال:**

القول الأول: وهو قول الأكثرين: أنه قول يوسف عليه السلام. قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] وهذا كلام بلقيس. ثم إنه تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ

يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] وأيضًا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [آل عمران: ٩] كلام الداعي.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] بقي على هذا القول سؤالات:

**السؤال الأول:** قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الغائب، والمراد هاهنا: الإشارة إلى تلك الحادثة الحاضرة.

**والجواب:** أجبنا عنه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] وقيل: ذلك إشارة إلى ما فعله من رد الرسول كأنه يقول ذلك الذي فعلت من ردي الرسول إنما كان، ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب.

**السؤال الثاني:** متى قال يوسف عليه السلام هذا القول؟

**الجواب:** روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال ذلك ليعلم وإنما ذكره على لفظ الغيبة تعظيمًا للملك عن الخطاب والأولى أنه عليه السلام إنما قال ذلك عند عود الرسول إليه لأن ذكر هذا الكلام في حضرة الملك سوء أدب.

**السؤال الثالث:** هذه الخيانة وقعت في حق العزيز فكيف يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

**والجواب:** قيل المراد ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيبة، وقيل: إنه إذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه، وقيل: إن الشرابي لما رجع إلى يوسف عليه السلام وهو في السجن قال ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ولعل المراد منه أني لو كنت خائنًا لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة، وحيث خلصني منها ظهر أني كنت مبرأ عما نسبوني إليه.

**والقول الثاني:** أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ كلام امرأة العزيز، والمعنى: أني وإن أحلت الذنب عليه عند حضوره لكني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته، أي لم أقل فيه وهو في السجن خلاف الحق. ثم إنها بالغت في تأكيد الحق بهذا القول، وقالت: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ يعني أني لما أقدمت على الكيد والمكر لا جرم افتضحت وأنه لما كان بريئًا عن الذنب لا جرم طهره الله تعالى عنه. قال صاحب هذا القول: والذي يدل على صحته أن يوسف عليه السلام ما كان حاضرًا في ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ففي تلك الحالة يقول يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بل يحتاج فيه إلى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس إلى السجن ويذكر له تلك الحكاية، ثم إن يوسف يقول ابتداء ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ومثل هذا الوصل بين الكلامين الأجنبيين ما جاء ألبتة في نثر ولا نظم فعلمنا أن هذا من تمام كلام المرأة.

**المسألة الرابعة:** هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة:

التقديرين، أما إذا قلنا: إن هذا كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا: إنه عليه السلام لما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال جبريل عليه السلام: ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي بالزنا ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ أي عصم ربي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ للهم الذي هممت به ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي لو فعلته لتاب علي.

واعلم أن هذا الكلام ضعيف فإنا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته عن الذنب بقي أن يقال: فما جوابكم عن هذه الآية فنقول:

**فيه وجهان:**

الوجه الأول: أنه عليه السلام لما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كان ذلك جاريًا مجرى مدح النفس وتزكيتها، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] فاستدرك ذلك على نفسه بقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ﴾ والمعنى: وما أزكي نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ميالة إلى القبائح راغبة في المعصية.

والوجه الثاني: في الجواب أن الآية لا تدل ألبتة على شيء مما ذكروه، وذلك لأن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بيَّن أن ترك الخيانة ما كان لعدم الرغبة ولعدم ميل النفس والطبيعة، لأن النفس أمارة بالسوء والطبيعة تواقة إلى اللذات فبين بهذا الكلام أن الترك ما كان لعدم الرغبة، بل لقيام الخوف من الله تعالى. أما إذا قلنا: إن هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان: الأول: وما أبرئ نفسي عن مراودته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ﴾ [يوسف: ٢٦] الثاني: أنها لما قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] قالت وما أبرئ نفسي عن الخيانة مطلقًا فإني قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه وقلت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] وأودعته السجن؛ كأنها أرادت الاعتذار مما كان.

فإن قيل: جعل هذا الكلام كلامًا ليوسف أولى أم جعله كلامًا للمرأة؟

**قلنا:** جعله كلامًا ليوسف مشكل، لأن قوله: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١] كلام موصول بعضه ببعض إلى آخره، فالقول بأن بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد، وأيضًا جعله كلامًا للمرأة مشكل أيضًا، لأن قوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ كلام لا يحسن صدوره إلا ممن احترز عن المعاصي، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهدها في المعصية.

**المسألة الثانية:** قالوا: ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ بمعنى (من) والتقدير: إلا من رحم ربي، وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ﴾ [النور: ٤٥] وقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ استثناء

الأول: أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهمًا بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة، لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعيًا منه في فضيحة نفسه وفي تجديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك، وهب أنه وقع الشك لبعضهم في عصمته أو في نبوته إلا أنه لا شك أنه كان عاقلاً، والعاقل يمتنع أن يسعى في فضيحة نفسه وفي حمل الأعداء على أن يبالغوا في إظهار عيوبه. والثاني: أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وفي المرة الثانية حيث قلن: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ والثالث: أن امرأة العزيز أقرت في المرة الأولى بطهارته حيث قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وفي المرة الثانية في هذه الآية.

واعلم أن هذه الآية دالة على طهارته من وجوه: أولها: قول المرأة: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وثانيها: قولها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهو إشارة إلى أنه صادق في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦] وثالثها: قول يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام، قال جبريل عليه السلام: ولا حين هممت؟ وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد، بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيًا منهم في تحريف ظاهر القرآن. ورابعها: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يعني أن صاحب الخيانة لا بد وأن يفتضح، فلو كنت خائنًا لوجب أن افتضح وحيث لم افتضح وخلصني الله تعالى من هذه الورطة، فكل ذلك يدل على أني ما كنت من الخائنين، وهاهنا وجه آخر وهو أقوى من الكل، وهو أن في هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة، وتلك المحنة صارت منتهية، فإقدامه على قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة إقدام على وقاحة عظيمة، وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما، والإقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلاً لا يليق بأحد من العقلاء، فكيف يليق إسناده إلى سيد العقلاء، وقدوة الأصفياء؟ فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته مما يقوله الجهال والحشوية.

## قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

**وفي الآية مسائل:**

**المسألة الأولى:** اعلم أن تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لأنا إن قلنا إن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] كلام يوسف كان هذا أيضًا من كلام يوسف، وإن قلنا: إن ذلك من تمام كلام المرأة كان هذا أيضًا كذلك ونحن نفسر هذه الآية على كلا

متصل أو منقطع، فيه وجهان: الأول: أنه متصل، وفي تقريره وجهان: الأول: أن يكون قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ أي إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة. الثاني: إلا ما رحم ربي أي إلا وقت رحمة ربي يعني أنها أمّارة بالسوء في كل وقت إلا في وقت العصمة.

والقول الثاني: أنه استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾[يس: ٤٣-٤٤].

المسألة الثالثة: اختلف الحكماء في أن النفس الأمارة بالسوء ما هي؟ والمحققون قالوا إن النفس الإنسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة فإذا مالت إلى العالم الإلهي كانت نفسًا مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء، وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه، فذلك لا يحصل إلا نادرًا في حق الواحد، فالواحد وذلك الواحد فإنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره في الأوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسداني وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادرًا لا جرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هي النفس العقلية النطقية، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية، والكلام في تحقيق الحق في هذا الباب مذكور في المعقولات.

المسألة الرابعة: تمسك أصحابنا في أن الطاعة والإيمان لا يحصلان إلا من الله بقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ قالوا: دلت الآية على أن انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته؛ ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف. فنقول: لا يمكن تفسير هذه الرحمة بإعطاء العقل والقدرة والألطاف كما قاله القاضي لأن كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشيء آخر، وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد أثبتنا ذلك أيضًا بالبرهان القاطع وحينئذ يحصل منه المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾

**في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال: هو العزيز، ومنهم من قال: بل هو الريان الذي هو الملك الأكبر، وهذا هو الأظهر لوجهين: الأول: أن قول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يدل عليه. الثاني: أن قوله: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصًا له، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصًا للعزيز، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر.

**المسألة الثانية**: ذكروا أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو في الحبس وقال: «قُلِ اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي مِنْ عِنْدِكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا وَارْزُقْنِي مِنْ حَيْثُ لاَ أَحْتَسِبُ» فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب في تخليصه من السجن، وتقرير الكلام: أن الملك عظم اعتقاده في يوسف لوجوه: **أحدها**: أنه عظم اعتقاده في علمه، وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مال الطبع إليه. **وثانيها**: أنه عظم اعتقاده في صبره وثباته، وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولاً ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم. **وثالثها**: أنه عظم اعتقاده في حسن أدبه، وذلك لأنه اقتصر على قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها، وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الأدب العجيب. **ورابعها**: براءة حاله عن جميع أنواع التهم فإن الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم. **وخامسها**: أن الشرابي وصف له جده في الطاعات واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن. **وسادسها**: أنه بقي في السجن بضع سنين، وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد في الإنسان، فكيف مجموعها، فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله شيئًا جمع أسبابه وقواها.

**إذا عرفت هذا فنقول**: لما ظهر للملك هذه الأحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذه لنفسه فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ روي أن الرسول قال ليوسف عليه السلام: قم إلى الملك متنظفًا من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء، ولما دخل عليه قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية، والاستخلاص: طلب خلوص الشيء من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده وأنه لا يشاركه فيه غيره لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به.

روي أن الملك قال ليوسف عليه السلام: ما من شيء إلا وأحب أن تشركني فيه إلا في أهلي وفي أن لا تأكل معي فقال يوسف عليه السلام، أما ترى أن آكل معك، وأنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق الذبيح ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وفيه قولان: أحدهما: أن المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لأن في مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبتدئ بالكلام وإنما الذي يبتدئ به هو الملك، والثاني: أن المراد: فلما كلم يوسف الملك قيل: لما صار يوسف إلى الملك وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة، فلما رآه الملك حدثًا شابًا قال للشرابي: هذا هو الذي علم تأويل رؤياي مع أن السحرة والكهنة ماعلموها قال: نعم، فأقبل على يوسف وقال: إني أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاهًا، فأجاب بذلك الجواب

شفاهًا وشهد قلبه بصحته، فعند ذلك قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ يقال: فلان مكين عند فلان بيِّن المكانة أي المنزلة، وهي حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد. وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ أي قد عرفنا أمانتك وبراءتك مما نسبت إليه.

**واعلم أن قوله:** ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب، وذلك لأنه لا بد في كونه مكينًا من القدرة والعلم. أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة. وأما العلم فلأن كونه متمكنًا من أفعال الخير لا يحصل إلا به إذ لو لم يكن عالمًا بما ينبغي وبما لا ينبغي لا يمكنه تخصيص ما ينبغي بالفعل، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك، فثبت أن كونه مكينًا لا يحصل إلا بالقدرة والعلم. أما كونه أمينًا فهو عبارة عن كونه حكيمًا لا يفعل الفعل لداعي الشهوة بل إنما يفعله لداعي الحكمة، فثبت أن كونه مكينًا أمينًا يدل على كونه قادرًا، وعلى كونه عالمًا بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وعلى كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لا لداعية الشهوة، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة إثبات أنه تعالى لا يفعل القبيح قالوا إنه تعالى لا يفعل القبيح لأنه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيًّا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا: وإنما يكون غنيًّا عن القبيح إذا كان قادرًا، وإذا كان منزهًا عن داعية السفه فثبت أن وصفه بكونه مكينًا أمينًا نهاية ما يمكن ذكره في هذا الباب ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال في هذا المقام ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: قال المفسرون: لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بين يديه قال له الملك: فما ترى أيها الصديق قال: أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعًا كثيرًا وتبني الخزائن وتجمع فيها الطعام فإذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك: ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي على خزائن أرض مصر وأدخل الألف واللام على الأرض، والمراد منه المعهود السابق. روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيﷺ في هذه الآية أنه قال: «**رَحِمَ اللَّه أَخِي يُوسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلِ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ لَاسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ لَكِنَّهُ لَمَّا قَالَ ذَلِكَ أَخَّرَهُ عَنْهُ سَنَةً**»[1] وأقول هذا من العجائب لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه، ولما

---

(١) أورده الثعلبي في (الكشف والبيان) (٥/ ٢٣١)، وقال: روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس... فذكره، وجويبر متروك الحديث، وأورده الألباني في (الضعيفة) (١/ ٣٣١) حديث رقم/ ٣٢٩، وقال: قال الحافظ ابن حجر في (تخريج الكشاف) (٤/ ٩٠): أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه، وهذا إسناد ساقط ومن طريق الثعالبي رواه الواحدي في (تفسيره) (٩٣/ ١).

تسارع في ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: لم طلب يوسف الإمارة والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمرة: «لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ» (١) وأيضًا فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر، وأيضًا لِمَ لَمْ يصبر مدة ولِمَ أظهر الرغبة في طلب الإمارة في الحال، وأيضًا لم طلب أمر الخزائن في أول الأمر، مع أن هذا يورث نوع تهمة وأيضًا كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مع أنه تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] وأيضًا فما الفائدة في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وأيضًا لم ترك الاستثناء في هذا فإن الأحسن أن يقول: إني حفيظ عليم إن شاء الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها فنقول: الأصل في جواب هذه المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجبًا عليه، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجبًا عليه لوجوه: الأول: أنه كان رسولاً حقًّا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان، والثاني: وهو أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق، والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول.

**وإذا ثبت هذا فنقول:** إنه عليه السلام كان مكلفًا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فكان هذا الطريق واجبًا عليه ولما كان واجبًا سقطت الأسئلة بالكلية، وأما ترك الاستثناء فقال الواحدي: كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة وهي أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة، وأقول: لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء، وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه: الأول: لا نسلم أنه مدح نفسه لكنه بيَّن كونه موصوفًا بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالمًا بأنه يفي بهذا الأمر، ثم نقول هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذمومًا إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان) باب قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥] (١١/ ٥٢٥) حديث رقم/ ٦٦٢٢، من طريق محمد بن الفضل... به، ومسلم في كتاب (الأيمان) باب (من حلف يمينًا ثم رأى خيرًا منها) (٣/ ١٩/ ١٢٧٣) من طريق شيبان بن فروخ... به، كلاهما عن جرير بن حازم... به.

إلى غير ما يحل، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢] المراد منه تزكية النفس حال مايعلم كونها غير متزكية، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] أما إذا كان الإنسان عالمًا بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه، والله أعلم.

قوله ما الفائدة في وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم؟

**قلنا:** إنه جار مجرى أن يقول: حفيظ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال، عليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها، ويقال: حفيظ بجميع مصالح الناس، عليم بجهات حاجاتهم أو يقال: حفيظ لوجوه أياديك وكرمك، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع، وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾

**فيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** اعلم أن يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لم يحك الله عن الملك أنه قال: قد فعلت، بل الله سبحانه قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهاهنا المفسرون قالوا: في الكلام محذوف وتقديره: قال الملك قد فعلت، إلا أن تمكين الله له في الأرض يدل على أن الملك قد أجابه إلى ما سأل. وأقول: ما قالوه حسن، إلا أن هاهنا ما هو أحسن منه وهو أن إجابة الملك له سبب في عالم الظاهر وأما المؤثر الحقيقي: فليس إلا أنه تعالى مكنه في الأرض، وذلك لأن ذلك الملك كان متمكنًا من القبول ومن الرد، فنسبة قدرته إلى القبول وإلى الرد على التساوي، وما دام يبقى هذ التساوي امتنع حصول القبول، فلا بد وأن يترجح القبول على الرد في خاطر ذلك الملك، وذلك الترجح لا يكون إلا بمرجح يخلقه الله تعالى، إذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لا محالة، فالتمكين ليوسف في الأرض ليس إلا مِنْ خلق الله تعالى في قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولهما يجب حصول الأثر، فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر إجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الإلهي، لأن المؤثر الحقيقي ليس إلا هو.

**المسألة الثانية:** روي أن الملك تَوَّجَهُ وأخرج خاتم الملك وجعله في أصبعه وقلده سيفه ووضع له سريرًا من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، فقال يوسف عليه السلام: أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، وجلس على السرير ودانت له القوم، وعزل الملك قطفير زوج المرأة المعلومة ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته، فلما

دخل عليها قال: أليس هذا خيرًا مما طلبت، فوجدها عذراء فولدت له ولدين أفرايم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الأولى ثم بالحلي والجواهر في السنة الثانية ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم سنين فقالوا: والله ما رأينا ملكًا أعظم شأنًا من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيدًا له فلما سمع ذلك قال: إني أشهد الله أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع لأحد ممن يطلب الطعام أكثر من حمل البعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هكذا رواه صاحب (الكشاف) والله أعلم.

**المسألة الثالثة:** قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوبة بالتمكين، وذلك إشارة إلى ما تقدم يعني به: ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبنا إياه من قلب الملك وإنجائنا إياه من غم الحبس، وقوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أقدرناه على ما يريد برفع الموانع وقوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ يتبوأ في موضع نصب على الحال تقديره: مكناه مُتبوأ وقرأ ابن كثير: (نشاء) بالنون مضافًا إلى الله تعالى والباقون بالياء مضافًا إلى يوسف.

**واعلم أن قوله:** ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ يدل على أنه صار في الملك بحيث لا يدافعه أحد، ولا ينازعه منازع بل صار مستقلاً بكل ما شاء وأراد ثم بيَّن تعالى ما يؤكد أن ذلك من قِبَله فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾.

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أن ذلك التمكين كان من الله لا من أحد سواه وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم أكد ذلك ثانيًا بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾.

**وفيه فائدتان:**

**الفائدة الأولى:** أن هذا يدل على أن الكل من الله تعالى. قال القاضي: تلك المملكة لما لم تتم إلا بأمور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى.

**وجوابه:** أنا ندعي أن نفس تلك المملكة إنما حصلت من قبل الله تعالى، لأن لفظ القرآن يدل على قولنا، والبرهان القاطع الذي ذكرناه يقوي قولنا، فصرف هذا اللفظ إلى المجاز لا سبيل إليه.

**الفائدة الثانية:** أنه آتاه ذلك الملك بمحض المشيئة الإلهية والقدرة النافذة. قال القاضي: هذه الآية تدل على أنه تعالى يجري أمر نعمه على ما يقتضيه الصلاح.

**قلنا:** الآية تدل على أن الأمور معلقة بالمشيئة الإلهية والقدرة المحضة فأما رعاية قيد الصلاح، فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وذلك لأن إضاعة الأجر إما أن يكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع في حق الله تعالى، فكانت الإضاعة ممتنعة.

واعلم أن هذا شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق

القول بأنه جلس بين شعبها الأربع لامتنع أن يقال: إنه كان من المحسنين، فهاهنا لزم إما تكذيب الله في حكمه على يوسف بأنه كان من المحسنين وهو عين الكفر أو لزم تكذيب الحشوي فيما رواه وهو عين الإيمان والحق.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ .

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** في تفسير هذه الآية قولان:

**القول الأول:** المراد منه أن يوسف عليه السلام وإن كان قد وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا إلا أن الثواب الذي أعده الله له في الآخرة خير وأفضل وأكمل وجهات الترجيح قد ذكرناها في هذا الكتاب مرارًا وأطوارًا، وحاصل تلك الوجوه أن الخير المطلق هو الذي يكون نفعًا خالصًا دائمًا مقرونًا بالتعظيم، وكل هذه القيود الأربعة حاصلة في خيرات الآخرة ومفقودة في خيرات الدنيا.

**القول الثاني:** أن لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخيرين أفضل من الآخر كما يقال: الجلاب خير من الماء، وقد يستعمل لبيان كونه في نفسه خيرًا من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال: الثريد خير من الله يعني الثريد خير من الخيرات حصل بإحسان من الله.

**إذا ثبت هذا فقوله:** ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ إن حملناه على الوجه الأول لزم أن تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية أيضًا، وأما إن حملناه على الوجه الثاني لزم أن لا يقال: إن منافع الدنيا أيضًا خيرات بل لعله يفيد أن خير الآخرة هو الخير، وأما ما سواه فعبث.

**المسألة الثانية:** لا شك أن المراد من قوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق في حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهذا تنصيص من الله عز وجل. على أنه كان في الزمان السابق من المتقين، وليس هاهنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقت الذي قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾[يوسف: ٢٤] فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين، وأيضًا قوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان من المحسنين، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤] شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين، والجاهل الحشوي يقول: إنه كان من الأخسرين المذنبين، ولا شك أن من لم يقل بقول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الأخسرين.

**المسألة الثالثة:** قال القاضي: قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يدل على بطلان قول المرجئة: الذين يزعمون أن الثواب يحصل في الآخرة لمن لم يتق الكبائر.

**قلنا:** هذا ضعيف، لأنا إن حملنا لفظ خير على أفعل التفضيل لزم أن يكون الثواب الحاصل

للمتقين أفضل ولا يلزم أن لا يحصل لغيرهم أصلاً، وإن حملناه على أصل معنى الخيرية، فهذا يدل على حصول هذا الخير للمتقين ولا يدل على أن غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اعلم أنه لما عم القحط في البلاد، ووصل أيضًا إلى البلدة التي كان يسكنها يعقوب عليه السلام وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه: إن بمصر رجلاً صالحًا يمير الناس فاذهبوا إليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا إليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف عليه السلام مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله تعالى عنه في قوله ليوسف عليه السلام حال ما ألقوه في الجب ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وأخبر تعالى أن يوسف عرفهم وهم ما عرفوه ألبتة، أما أنه عرفهم فلأنه تعالى كان قد أخبره في قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ﴾ [يوسف: ١٥] بأنهم يصلون إليه ويدخلون عليه، وأيضًا الرؤيا التي رآها كانت دليلاً على أنهم يصلون إليه، فلهذا السبب كان يوسف عليه السلام مترصدًا لذلك الأمر، وكان كل من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة يتفحص عنهم ويتعرف أحوالهم ليعرف أن هؤلاء الواصلين هل هم إخوته أم لا فلما وصل إخوة يوسف إلى باب داره تفحص عن أحوالهم تفحصًا ظهر له أنهم إخوته، وأما أنهم ما عرفوه فلوجوه:

**الأول:** أنه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم إلا بالواسطة ومتى كان الأمر كذلك لا جرم أنهم لم يعرفوه لا سيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف، وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذي عنده يحصل العرفان.

**والثاني:** هو أنهم حين ألقوه في الجب كان صغيرًا. ثم إنهم رأوه بعد وفور اللحية، وتغير الزي والهيئة فإنهم رأوه جالسًا على سريره، وعليه ثياب الحرير، وفي عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج من ذهب، والقوم أيضًا نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة. فيقال: إن من وقت ما ألقوه في الجب إلى هذا الوقت كان قد مضى أربعون سنة، وكل واحد من هذه الأسباب يمنع من حصول المعرفة، لا سيما عند اجتماعها، والثالث: أن حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى، فلعله تعالى ما خلق ذلك العرفان والتذكير في قلوبهم تحقيقًا لما أخبره عنه بقوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ قال الليث: جهزت القوم تجهيزًا إذا تكلفت لهم جهازهم للسفر، وكذلك جهاز العروس والميت وهو ما يحتاج إليه في وجهه. قال: وسمعت أهل البصرة يقولون: الجِهَاز بالكسر. قال الأزهري: القراء كلهم على فتح الجيم، والكسر لغة ليست بجيدة، قال المفسرون: حمل لكل رجل منهم بعيرًا وأكرمهم أيضًا بالنزول وأعطاهم ما احتاجوا إليه في السفر، فذلك قوله: ﴿جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ ثم بيَّن تعالى أنه لما جهزهم بجهازهم قال: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ .

واعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببًا لسؤال يوسف عن حال أخيهم، وذكروا فيه وجوهًا:

**الوجه الأول:** وهو أحسنها إن عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا أزيد عليه ولا أنقص، وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة، فأعطاهم عشرة أحمال، فقالوا: إن لنا أبًا شيخًا كبيرًا وأخًا آخر بقي معه، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر، وأن أخاهم بقي في خدمة أبيه ولا بد لهما أيضًا من شيء من الطعام فجهز لهما أيضًا بعيرين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف: فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم، وهذا شيء عجيب لأنكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم دل هذا على أن ذلك أعجوبة في العقل، وفي الفضل والأدب فجيئوني به حتى أراه فهذا السبب محتمل مناسب.

**والوجه الثاني:** أنهم لما دخلوا عليه، عليه السلام وأعطاهم الطعام قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال: لعلكم جئتم عيونًا فقالوا معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبي اسمه يعقوب قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منا واحد وبقي واحد مع الأب يتسلى به عن ذلك الذي هلك، ونحن عشرة وقد جئناك قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخ لكم من أبيكم ليبلغ إلي رسالة أبيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأيا في يوسف فخلفوه عنده.

**والوجه الثالث:** لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف: فلم تركتموه وحيدًا فريدًا؟ قالوا: ما تركناه وحيدًا، بل بقي عنده واحد. فقال لهم: لم استخلصه لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لأجل نقص في جسده؟ فقالوا: لا. بل لأجل أنه يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد فعند هذا قال يوسف: لما ذكرتم أن أباكم رجل عالم حكيم بعيد عن المجازفة، ثم إنه خصه بمزيد المحبة وجب أن يكون زائدًا عليكم في الفضل، وصفات الكمال مع أني أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتاقت نفسي إلى رؤية ذلك الأخ فائتوني به، والسبب الثاني: ذكره المفسرون، والأول والثالث محتمل، والله أعلم.

**ثم إنه تعالى حكى عنه أنه قال:** ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتمه ولا أبخسه، وأزيدكم حمل

بعير آخر لأجل أخيكم، وأنا خير المنزلين، أي خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم. وأقول: هذا الكلام يضعف الوجه الثاني وهو الذي نقلناه عن المفسرين، لأن مدار ذلك الوجه على أنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس، ولو شافههم بذلك الكلام فلا يليق به أن يقوم لهم: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وأيضًا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقًا أن يقول لهم: أنتم جواسيس وعيون، مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة، لأن البهتان لا يليق بحال الصديق.

**ثم قال:** ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ .

واعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ جمع بين الترغيب والترهيب. أما الترغيب: فهو قوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وأما الترهيب: فهو قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده، فإذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف، ثم إنهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده، وإنا لفاعلون هذه المراودة، والغرض من التكرير التأكيد، ويحتمل أن يكون ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي نجيئك به، ويحتمل ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ كل ما في وسعنا من هذا الباب.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

**في الآية مسائل:**

**المسائل الأولى:** قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: (لفتيانه) بالألف والنون، والباقون (لفتيته) بالتاء من غير ألف، وهما لغتان كالصِّبيان والصِّبية، والإخوان، والإخوة قال أبو علي الفارسي الفتية جمع فتى في العدد القليل والفتيان للكثير، فوجه البناء الذي للعدد القليل أن الذين يحيطون بما يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلين لأن هذا من باب الأسرار فوجب صونه إلا عن العدد القليل ووجه الجمع الكثير أنه قال: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ والرحال تفيد العدد الكثير فوجب أن يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين.

**المسألة الثانية:** اتفق الأكثرون على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في

رحالهم، ومنهم من قال: إنهم كانوا عارفين به، وهو ضعيف لأن قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ يبطل ذلك ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجوه:

**الأول:** أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه، علموا أن ذلك كان كرمًا من يوسف وسخاء محضًا فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

**الثاني:** خاف أن لا يكون عند أبيه من الوَرِق ما يرجعون به مرة أخرى.

**الثالث:** أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط.

**الرابع:** رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

**الخامس:** قال الفراء: إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه.

**السادس:** أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

**السابع:** مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن.

**الثامن:** أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

**التاسع:** أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق، فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم.

**العاشر:** أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم.

ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم قالوا: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ وفيه قولان: الأول: أنهم لما طلبوا الطعام لأبيهم وللأخ الباقي عنده منعوا منه، فقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ إشارة إليه. والثاني: أنه منع الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ [يوسف: ٦٠] والدليل على أن المراد ذلك قولهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: (يكتل) بالياء، والباقون بالنون، والقراءة الأولى تقوى القول الأول، والقراءة الثانية تقوي القول الثاني ثم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ضمنوا كونهم حافظين له، فلما قالوا ذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ والمعنى أنكم ذكرتم قبل هذا الكلام في يوسف وضمنتم لي حفظه حيث قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] ثم هاهنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون هاهنا أماني إلا ما كان هناك يعني لما لم يحصل الأمان هناك فكذلك لا يحصل هاهنا.

**ثم قال:** ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي (حافِظاً) بالألف على التمييز والتفسير على تقدير: هو خير لكم حافظًا كقولهم: هو خيرهم رجلاً ولله دره فارسًا، وقيل: على الحال، والباقون: (حِفْظًا) بغير ألف على المصدر يعني خيركم حفظًا يعني حَفْظُ الله

لبنيامين خيرٌ من حفظكم، وقرأ الأعمش (فاللَّه خَيْرُ حَافِظٍ) وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه (خَيْرُ الْحَافِظِينَ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وقيل: معناه: وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين.

**فإن قيل:** لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد؟

**قلنا:** لوجوه: أحدها: أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح، وثانيها: أنه كان يشاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام، وثالثها: أن ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك، ورابعها: لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه.

**فإن قيل:** هل يدل قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ على أنه أذن في ذهاب ابنه بنيامين في ذلك الوقت.

**قلنا:** الأكثرون قالوا: يدل عليه. وقال آخرون: لا يدل عليه، وفيه وجهان: الأول: التقدير أنه لو أذن في خروجه معهم لكان في حفظ الله لا في حفظهم. الثاني: أنه لما ذكر يوسف قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي ليوسف لأنه كان يعلم أنه حي.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

اعلم أن المتاع ما يصلح لأن يستمتع به وهو عام في كل شيء، ويجوز أن يراد به هاهنا الطعام الذي حملوه، ويجوز أن يراد به أوعية الطعام.

**ثم قال:** ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ واختلف القراء في ﴿رُدَّتْ﴾ فالأكثرون بضم الراء، وقرأ علقمة بكسر الراء. قال صاحب (الكشاف): كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قِيل وبِيع. وحكى قطرب أنهم قالوا في قولنا: ضِرْب زَيْد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد. وأما قوله: ﴿مَا نَبْغِى﴾ ففي كلمة (ما) قولان:

**القول الأول:** أنها للنفي، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه: الأول: أنهم كانوا قد وصفوا يوسف بالكرم واللطف وقالوا: إنا قدمنا على رجل في غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب لمافعل ذلك، فقولهم: ﴿مَا نَبْغِى﴾ أي بهذا الوصف الذي ذكرناه كذبًا ولا ذكر شيء لم يكن. الثاني: أنه بلغ في الإكرام إلى غاية ما وراءها شيء آخر، فإنه بعد أن بالغ في إكرامنا أمر ببضاعتنا فردت إلينا. الثالث: المعنى أنه رد بضاعتنا إلينا، فنحن لا نبغي منك عند رجوعنا إليه بضاعة أخرى، فإن هذه التي معنا كافية لنا.

**والقول الثاني:** أن كلمة (ما) هاهنا للاستفهام، والمعنى: لما رأوا أنه رد إليهم بضاعتهم قالوا: ما نبغي بعد هذا، أي أعطانا الطعام، ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه، فأي

شيء نبغي وراء ذلك؟

واعلم أنا إذا حملنا «ما» على الاستفهام صار التقدير أي شيء نبغي فوق هذا الإكرام إن الرجل رد دراهمنا إلينا فإذا ذهبنا إليه نمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور أخينا. قال الأصمعي: يقال: مَارَه يَمِيرُه ميرًا إذا أتاه بميرة أي بطعام، ومنه يقال: ما عنده خير ولا مير، وقوله: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ معناه: أن يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل بعير فإذا حضر أخوه فلا بد وأن يزداد ذلك الحمل، وأما إذا حملنا كلمة «ما» على النفي كان المعنى: لا نبغي شيئًا آخر هذه بضاعتنا ردت إلينا فهي كافية لثمن الطعام في الذهاب الثاني، ثم نفعل كذا وكذا.

**وأما قوله:** ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

**ففيه وجوه:**

**الأول:** قال مقاتل: ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل وهو اختيار الزجاج.

**والثاني:** ذلك كيل يسير، أي قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير.

**والثالث:** أن يكون المراد ذلك الذي يدفع إلينا دون أخينا شيء يسير قليل فابعث أخانا معنا حتى نتبدل تلك القلة بالكثرة.

**قوله تعالى:** ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أن الموثق مصدر بمعنى الثقة، ومعناه: العهد الذي يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول: لن أرسله معكم حتى تعطوني عهدًا موثوقًا به وقوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي عهدًا موثوقًا به بسبب تأكده بإشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه، وقوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ دخلت اللام هاهنا لأجل أنا بينا أن المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره: حتى تحلفوا بالله لتأتنني به. وقوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

**فيه بحثان:**

**البحث الأول:** قال صاحب (الكشاف): هذا الاستثناء متصل. فقوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ مفعول له، والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ في تأويل المنفي، فكان المعنى: لا تمتنعون من الإتيان به لعلة من العلل إلا لعلة واحدة.

**البحث الثاني:** قال الواحدي: للمفسرين. **فيه قولان:**

**القول الأول**: أن قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ معناه الهلاك قال مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرًا عندي، والعرب تقول: أحيط بفلان إذا قرب هلاكه قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]أي أصابه ما أهلكه. وقال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] وأصله أن من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه، فقيل لكل من هلك: قد أحيط به.

**والقول الثاني**: ما ذكره قتادة: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تصيروا مغلوبين مقهورين، فلا تقدرون على الرجوع.

**ثم قال تعالى**: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يريد شهيد، لأن الشهيد وكيل بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد فإن وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات.

**قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج إلى مصر. وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

**وفيه قولان:**

**الأول**: وهو قول جمهور المفسرين أنه خاف من العين عليهم ولنا هاهنا مقامان.

**المقام الأول**: إثبات أن العين حق والذي يدل عليه وجوه:

**الأول**: إطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك.

**والثاني**: ما روي أن رسول الله ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ» وَيَقُولُ: هَكَذَا كَانَ يُعَوِّذُ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْهِمْ (١).

**والثالث**: ما روى عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار فرأيته

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (أحاديث الأنبياء) باب (رقم ١٠) (٦/ ٤٧٠) حديث رقم/ ٣٣٧١، وأبو داود في كتاب (السنة) باب (في القرآن) (٤/ ٢٠٢٣) حديث رقم/ ٤٧٣٧، والترمذي في كتاب (الطب) باب (رقم ١٨)، (١/ ٣٤٦) حديث رقم/ ٢٠٦٠، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الطب) باب (ما عوِّذ به النبي ﷺ وما عُوِّذ به) (٢/ ١١٦٤) حديث رقم/ ٣٥٢٥، والإمام أحمد في (مسنده) (١/ ٣٤٦)، جميعًا من طريق منصور . . . به.

شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى فقال: «إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي فَرَقَانِي فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ وَحَاسِدِ اللَّهُ يَشْفِيكَ»(١) قال: فأفقت.

**والرابع:** روي أن بني جعفر ابن أبي طالب كانوا غُلْمانًا بيضًا فقالت أسماء: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْعَيْنَ إِلَيْهِمْ سَرِيعَةٌ أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ مِنَ الْعَيْنِ فَقَالَ لَهَا نَعَمْ(٢).

**والخامس:** دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتَ أُمِّ سَلَمَةَ وَعِنْدَهَا صَبِيٌّ يَشْتَكِي فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَتْهُ الْعَيْنُ فَقَالَ أَفَلَا تَسْتَرْقُونَ لَهُ مِنَ الْعَيْنِ(٣).

**والسادس:** قوله عليه السلام: «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتِ الْعَيْنُ الْقَدَرَ»(٤).

**والسابع:** قالت عائشة رضي الله عنها: كان يَأْمُرُ الْعَائِنَ أَنْ يَتَوَضَّأَ ثُمَّ يَغْسِلَ مِنْهُ الْمَعِينُ الَّذِي أُصِيبَ بِالْعَيْنِ(٥).

---

(١) هذا الحديث رواه جماعة من أصحاب النبي ﷺ بألفاظ متقاربة منهم عبادة بن الصامت، وأبو سعيد الخدري أما حديث عباس، أخرجه ابن ماجه في كتاب (الطب) باب: (ما يعوذ به من الحمى) (٢/ ١١٦٥) حديث رقم/ ٣٥٢٧، من طريق ابن ثوبان عن عمير... به، وأحمد في مسنده(٥/ ٣٢٣) حديث رقم/ ٢٢٨١٢، من طريق زيد بن حباب... به، وابن حبان في (صحيحه) (٣/ ٢٣٤) حديث رقم/ ٩٥٣، من طريق زيد بن الحباب حدثنا ابن ثوبان... به، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٤٥٧) حديث رقم/ ٨٢٦٨، من طريق زيد بن الحباب حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان... به، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وابن أبي شيبة في مصنفة (٧/ ٤٠٥) حديث رقم/ ٢٤٠٣٩، من طريق جنادة عن عبادة... به، والبزار في مسنده (٧/ ١٣١) حديث رقم/ ٢٦٨٤، من طريق عمير بن هاني عن جنادة بن أمية عن عبادة بن الصامت... به، وإسناده حسن.

**وأما حديث أبو سعيد الخدري:** أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٧١٨/ ٢١٨٦)، والترمذي في (سننه) (٣/ ٣٠٣) حديث رقم/ ٩٧٢، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٢٤٩) حديث رقم/ ١٠٨٤٣، جميعًا من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أبي خضرة عن أبي سعيد... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٧٥) حديث رقم/ ١١٧٢٧، من طريق داود عن أبي نضرة عن أبي سعيد أو عن جابر بن عبد الله... به.

(٢) **إسناده صحيح:** أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٣٩٥) حديث رقم/ ٢٠٥٩، من طريق ابن عيينة... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في (سننه الكبرى) (٤/ ٣٦٥) حديث رقم/ ٧٥٣٧، من طريق عمرو بن دينار... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٤٣٨) حديث رقم/ ٢٧٥٨٠، قال حدثنا سفيان... به.

(٣) **صحيح:** أخرجه مالك في (الموطأ) (٢/ ٩٤٠) حديث رقم/ ١٦٨١، من طريق يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار بن عروة... فذكره، وأخرجه أبو يعلى في (مسنده موصولاً) (١٢/ ٣٠٣) حديث رقم/ ٦٨٧٩، والطبراني في (الكبير) (٢٣/ ٢٦٨) حديث رقم/ ٥٦، كلاهما من طريق أبي معاوية الضرير حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار عن عروة عن أم سلمة... به.

والرواية متفق عليها عند البخاري ومسلم: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٥/ ٢١٦٧) حديث رقم/ ٥٢٠٧، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٧٢٥/ ٢١٩٧)، كلاهما من طريق: الزهري عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة رضي الله عنها ثم أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة فقال استرقوا لها فإن بها النظرة وقال عقيل عن الزهري أخبرني عروة عن النبي ﷺ تابعه عبد الله بن سالم عن الزبيدي (واللفظ للبخاري).

(٤) تقدم تخريجه من قبل.

(٥) **صحيح:** أخرجه أبو داود في كتاب (الطب) باب (ما جاء في العين) (٤/ ١٦٧٠) حديث رقم/ ٣٨٨٠، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٩/ ٣٥١)، من طريق عثمان بن أبي شيبة... به.

**المقام الثاني:** في الكشف عن ماهيته فنقول: إن أبا علي الجبائي أنكر هذا المعنى إنكارًا بليغًا ولم يذكر في إنكاره شبهة فضلاً عن حجة، وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوهًا:

**الأول:** قال الحافظ: إنه يمتد من العين أجزاء فتتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسري فيه كتأثير اللسع والسم والنار، وإن كان مخالفًا في جهة التأثير لهذه الأشياء قال القاضي: وهذا ضعيف لأنه لو كان الأمر كما قال، لوجب أن يؤثر في الشخص الذي لا يستحسن كتأثيره في المستحسن واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف وذلك لأنه إذا استحسن شيئًا فقد يحب بقاءه كما إذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه، وقد يكره بقاءه أيضًا كما إذا أحس الحاسد بشيء حصل لعدوه، فإن كان الأول فإنه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح في داخل القلب فحينئذ يسخن القلب والروح جدًّا، ويحصل في الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة، وإن كان الثاني: فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه. والحزن أيضًا يوجب انحصار الروح في داخل القلب ويحصل فيه سخونة شديدة، فثبت أن عند الاستحسان القوي تسخن الروح جدًّا فيسخن شعاع العين بخلاف ما إذا لم يستحسن فإنه لا تحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين، ولهذا السبب أمر الرسول ﷺ العائن بالوضوء ومن أصابته العين بالاغتسال.

**الوجه الثاني:** قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي: إنه لا يمتنع أن تكون العين حقًّا، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحسانًا كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقًا به، فهذا المعنى غير ممتنع، ثم لا يبعد أيضًا أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربه تقية ذلك، فعنده تتعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لا جرم قيل: العين حق.

**الوجه الثالث:** وهو قول الحكماء قالوا: هذا الكلام مبني على مقدمة وهي أنه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانيًّا محضًا، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق، والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون قليل العرض إذا كان موضوعًا على الأرض، قدر الإنسان على المشي عليه ولو كان موضوعًا فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشي عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة، وأيضًا أن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذيًا له حصل في قلبه غضب، ويسخن مزاجه جدًّا فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفساني، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضًا أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان. فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان

وأيضًا جواهر النفوس مختلفة بالماهية فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه، فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شك.

وإذا ثبت هذا ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين كلام حق لا يمكن رده.

القول الثاني: وهو قول أبي علي الجبائي: أن أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم. فقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾ تلك المدينة ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ على ما أنتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال: لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم، واعلم أن هذا الوجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول قد بينا أنه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون أطبقوا عليه فوجب المصير إليه، ونقل عن الحسن أنه قال: خاف عليهم العين، فقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ ثم رجع إلى علمه وقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ وعرف أن العين ليست بشيء، وكان قتادة يفسر الآية بإصابة العين ويقول: ليس في قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إبطال له لأن العين وإن صح فالله قادر على دفع أثره.

القول الثالث: أنه عليه السلام كان عالمًا بأن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له في إظهار ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف في وقت الخلوة، وهذا قول إبراهيم النخعي، فأما قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فاعلم أن الإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم، ومأمور أيضًا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى وأن الحذر لا ينجي من القدر، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة، والأغذية الضارة، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازمًا بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله فقوله عليه السلام: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ فهو إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم، وقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى، وقول القائل: كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين، فهذا السؤال غير مختص به، وذلك لأنه لا نزاع في أنه لا بد من إقامة الطاعات، والاحتراز عن المعاصي والسيئات مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه، وأن الشقي من شقي في بطن أمه فكذا هاهنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى، فكذا هاهنا، فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام، بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة، وبعد ذلك السعي البليغ والجد الجهيد فإنه يعلم أن كل ما يدخل

في الوجود فلا بد وأن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى، فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ .

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا في القضاء والقدر، وذلك لأن الحكم عبارة عن الإلزام والمنع من النقيض وسميت حَكَمَةُ الدابة بهذا الاسم، لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم إنما سمي حكمًا لأنه يقتضي ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممتنع الحصول، فبيَّن تعالى أن الحكم بهذا التفسير ليس إلا لله سبحانه وتعالى، وذلك يدل على أن جميع الممكنات مستندة إلى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه، إما بغير واسطة وإما بواسطة ثم قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ومعناه أنه لما ثبت أن الكل من الله ثبت أنه لا توكل إلا على الله وأن الرغبة ليست إلا في رجحان وجود الممكنات على عدمها وذلك الرجحان المانع عن النقيض هو الحكم، وثبت بالبرهان أنه لا حكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله، ويوجب أنه لا توكل إلا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا إلى ما هو البرهان الحق فيه والشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله أطنب في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتاب: (إحياء علوم الدين) فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾

**قال المفسرون:** لما قال يعقوب: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧] صدقه الله في ذلك فقال: وما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء.

**وفيه بحثان:**

**البحث الأول:** قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمرًا قدره الله. وقال الزجاج: إن العين لو قدر أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون. وقال ابن الأنباري: لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم، وهذه الكلمات متقاربة، وحاصلها أن الحذر لا يدفع القدر.

**البحث الثاني:** قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية.

**أما الأول:** فهو كقوله: ما رأيت من أحد، والتقدير: ما رأيت أحدًا، فكذا هاهنا تقدير الآية: أن تفرقهم ما كان يغني من قضاء الله شيئًا، أي ذلك التفرق ما كان يخرج شيئًا من تحت قضاء الله تعالى.

**وأما الثاني:** فكقولك: ما جاءني من أحد، وتقديره ما جاءني أحد فكذا هاهنا، التقدير: ما كان يغني عنهم من الله شيء مع قضائه.

**أما قوله:** ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ فقال الزجاج: إنه استثناء منقطع، والمعنى: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، يعني أن الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة في نفس يعقوب قضاها، ثم ذكروا في تفسير تلك الحاجة وجوهًا:

**أحدها:** خوفه عليهم من إصابة العين.

**وثانيها:** خوفه عليهم من حسد أهل مصر.

**وثالثها:** خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر.

**ورابعها:** خوفه عليهم من أن لا يرجعوا إليه، وكل هذه الوجوه متقاربة.

**وأما قوله:** ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ فقال الواحدي: يحتمل أن تكون (ما) مصدرية والهاء عائدة إلى يعقوب، والتقدير: وإنه لذو علم من أجل تعليمنا إياه، ويمكن أن تكون (ما) بمعنى الذي والهاء عائدة إليها، والتأويل: وإنه لذو علم للشيء الذي علمناه، يعني أنا لما علمناه شيئًا حصل له العلم بذلك الشيء، وفي الآية قولان آخران:

**الأول:** أن المراد بالعلم الحفظ، أي إنه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له.

**والثاني:** لذو علم لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وهو إشارة إلى كونه عاملاً بما علمه، ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

**وفيه وجهان:**

**الأول:** ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب.

**والثاني:** لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم، والمراد بأكثر الناس المشركون، فإنهم لا يعلمون بأن الله كيف أرشد أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنهم لما أتوه بأخيه بنيامين أكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لأجلسني معه فقال يوسف: بقي أخوكم وحيدًا فأجلسه معه على مائدة ثم أمر أن ينزل منهم كل اثنين بيتًا وقال: هذا لا ثاني له فاتركوه

معي فآواه إليه، ولما رأى يوسف تأسفه على أخ له هلك قال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال: من يجد أخًا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه وقال: إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون.

**إذا عرفت هذا فنقول:** قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ فيه قولان: قال وهب: لم يرد أنه أخوه من النسب، ولكن أراد به إني أقوم لك مقام أخيك في الإيناس لئلا تستوحش بالتفرد. والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأنس، ولأن الأصل في الكلام الحقيقة، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة.

**وأما قوله:** ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ فقال أهل اللغة: تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس: اجتلاب الحزن والبؤس. وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

**فيه وجوه:**

**الأول:** المراد بما كانوا يعملون من إقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أبينا عنا.

**الثاني:** أن يوسف عليه السلام ما بقي في قلبه شيء من العداوة وصار صافيًا مع إخوته، فأراد أن يجعل قلب أخيه صافيًا معه أيضًا، فقال: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي لا تلتفت إلى ما صنعوه فيما تقدم، ولا تلتفت إلى أعمالهم المنكرة التي أقدموا عليها.

**الثالث:** أنهم إنما فعلوا بيوسف ما فعلوه، لأنهم حسدوه على إقبال الأب عليه وتخصيصه بمزيد الإكرام، فخاف بنيامين أن يحسدوه بسبب أن الملك خصه بمزيد الإكرام، فأمّنه منه وقال: لا تلتفت إلى ذلك فإن الله قد جمع بيني وبينك.

**الرابع:** روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف وأخاه بسبب أن جدهما أبا أمهما كان يعبد الأصنام، وأن أم يوسف أمرت يوسف فسرق جونة كانت لأبيها فيها أصنام رجاء أن يترك عبادتها إذا فقدها. فقال له: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي من التعيير لنا بما كان عليه جدنا. والله أعلم.

**ثم قال تعالى:** ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ وقد مضى الكلام في الجهاز والرحل، أما السقاية فقال صاحب (الكشاف): مشربة يسقي بها وهو الصواع قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعًا يكال به، وهو بعيد لأن الإناء الذي يشرب الملك الكبير منه لا يصلح أن يجعل صاعًا، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضًا وهذا أقرب، ثم قال: وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر، وهذا أيضًا بعيد لأن الآنية التي يسقى الدواب فيها لا تكون كذلك، والأولى أن يقال: كان ذلك الإناء شيئًا له قيمة، أما إلى هذا الحد الذي ذكروه فلا.

**ثم قال تعالى:** ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ يقال: أذنه أي أعلمه وفي الفرق بين أذّن

وبين آذن وجهان: قال ابن الأنباري: أذن معناه أعلم إعلامًا بعد إعلام لأنه فعل يوجب تكرير الفعل قال: ويجوز أن يكون إعلامًا واحدًا من قبيل أن العرب تجعل فعل بمعنى أفعل في كثير من المواضع، وقال سيبويه: أَذَّنْتُ وآذنت معناه أعلمت لا فرق بينهما، والتأذين معناه: النداء والتصويت بالإعلام.

**وأما قوله تعالى:** ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ قال أبو الهيثم: كل ما سير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير، وقول من قال: العير الإبل خاصة باطل، وقيل: العير: الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعير أي تذهب وتجيء، وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل قافلة عِيْر كأنها جمع عَيْر وجمعها فُعُل كسَقْف وسُقُف.

**إذا عرفت هذا فنقول:** ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ المراد أصحاب العير كقوله: يا خيل الله اركبي، وقرأ ابن مسعود: (وَجَعَلَ السِّقَايَةَ) على حذف جواب (لما) كأنه قيل فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾.

**فإن قيل:** هل كان ذلك النداء بأمر يوسف أو ما كان بأمره؟ فإن كان بأمره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقوامًا وينسبهم إلى السرقة كذبًا وبهتانًا، وإن كان الثاني وهو أنه ما كان ذلك بأمره فهلا أنكره وهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة.

**قلنا:** العلماء ذكروا في الجواب عنه وجوهًا: **الأول:** أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال له: إني أريد أن أحبسك هاهنا، ولا سبيل إليه إلا بهذه الحيلة فإن رضيت بها فالأمر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك، وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنبًا. **والثاني:** أن المراد: إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام والمعاريض لا تكون إلا كذلك. **والثالث:** أن ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام، وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذبًا. **الرابع:** ليس في القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام، والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لأنهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد إلا هم غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها ثم إن إخوة يوسف ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (تُفْقِدُون) من أفقدته إذا وجدته فقيدًا قالوا: تفقد صواع الملك. قال صاحب (الكشاف): قرئ صُوَاع وصَاع وصَوع وصُوع بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة. قال بعضهم: جمع صُوَاع صِيعَان، كغُرَاب وغِربَان، وجمع صَاع أَصْوَاع، كبَاب وأَبْوَاب. وقال آخرون: لا فرق بين الصَّاع والصُّواع، والدليل عليه قراءة أبي هريرة: (قالوا نَفْقِد صَاعَ المَلِكِ) وقال بعضهم: الصُّواع اسم، والسِّقَاية وصف، كقولهم: كوز وسقاء، فالكوز اسم والسقاء وصف.

**ثم قال:** ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ أي من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ قال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي أذن. وتفسير زعيم: كفيل. قال الكلبي: الزعيم: الكفيل بلسان أهل اليمن. وروى

أبو عبيدة عن الكسائي: زَعَمَتْ به تَزْعُم زَعْمًا وزَعامة. أي كفلت به، وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم، وقد حكم بها رسول الله ﷺ في قوله: «الزَّعِيمُ غَارِمٌ»(١).

**فإن قيل:** هذه كفالة بشيء مجهول؟

**قلنا:** حمل بعير من الطعام كان معلومًا عندهم، فصحت الكفالة به إلا أن هذه كفالة مال لرد سرقة، وهو كفالة بما لم يجب لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئًا على رد السرقة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

**قال البصريون:** الواو في (والله) بدل من التاء، والتاء بدل من الواو فضعفت عن التصرف في سائر الأسماء وجعلت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله عز وجل. قال المفسرون: حلفوا على أمرين: أحدهما: على أنهم ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض لأنه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف في أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بإرسال الدواب في مزارع الناس، حتى روي أنهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لئلا تعبث في زرع، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات، ومن كانت هذه صفته فالفساد في الأرض لا يليق به. والثاني: أنهم ما كانوا سارقين، وقد حصل لهم فيه شاهد قاطع، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم في رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها، والسارق لا يفعل ذلك ألبتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال أصحاب يوسف عليه السلام: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ فأجابوا وقالوا ﴿جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ قال ابن عباس كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا، والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق في رحله، أي ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم، والمعنى: أن استعباده هو جزاء ذلك الجرم، قال الزجاج: وفيه وجهان:

**أحدهما:** أن يقال جزاؤه مبتدأ ومن ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ خبره. والمعنى: جزاء السرقة هو الإنسان الذي وجد في رحله السرقة، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ زيادة في البيان كما تقول جزاء السارق القطع فهو جزاؤه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (البيوع) باب (في تضمين العور) (٣/ ١٥٤١) حديث رقم/ ٣٥٦٥، والترمذي في كتاب (الوصايا) باب (لا وصية لوارث) (٤/ ٣٧٦) حديث رقم/ ٢١٢٠، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الوصايا) باب (لا وصية لوارث) (٢/ ٩٠٥) حديث رقم/ ٢٧١٣، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٦٧)، والبيهقي في (سننه) (٦/ ٢٦٤). جميعًا من طريق إسماعيل بن عياش. . . به.

**الثاني:** أن يقال: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ جملة وهي في موضع خبر المبتدأ. والتقدير: كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، إلا أنه أقام المضمر للتأكيد والمبالغة في البيان وأنشد النحويون:

لاَ أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الموت شيء نغص الموت الْغِنَى وَالْفَقِيرَا[(١)]

**وأما قوله:** ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين يريد إذا سرق استرق ثم قيل: هذا من بقية كلام أخوة يوسف. وقيل: إنهم لما قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه، فقال أصحاب يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾

اعلم أن إخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يسترق قال لهم المؤذن: إنه لا بد من تفتيش أمتعتكم، فانصرف بهم إلى يوسف ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لإزالة التهمة والأوعية جمع الوعاء وهو كل ما إذا وضع فيه شيء أحاط به ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾، وقرأ الحسن (وُعَاء أخيه) بضم الواو وهي لغة، وقرأ سعيد بن جبير (إعاء أخيه) فقلب الواو همزة.

**فإن قيل:** لم ذَكَّر ضمير الصواع مرات ثم أنثه؟

**قلنا:** قالوا رجع ضمير المؤنث إلى السقاية وضمير المذكر إلى الصواع أو يقال: الصواع يؤنث ويذكر، فكان كل واحد منهما جائزًا أو يقال: لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعًا فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعًا، عن قتادة أنه قال: كان لا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تائبًا مما قذفهم به، حتى إنه لما لم يبق إلا أخوه قال: ما أرى هذا قد أخذ شيئًا، فقالوا: لا نذهب حتى تتفحص عن حاله أيضًا، فلما نظروا في متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق، فأخذوا برقبته وجروا به إلى دار يوسف.

**ثم قال تعالى:** ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾.

**وفيه بحثان:**

**الأول:** المعنى: ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف، وذلك إشارة إلى الحكم باسترقاق السارق، أي مثل هذا الحكم الذي ذكره إخوة يوسف حكمنا ليوسف.

**الثاني:** لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة، وذلك في حق الله تعالى محال إلا أنا ذكرنا قانونًا

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الخفيف للشاعر عدي بن زيد وتقدمت ترجمته.

معتبرًا في هذا الباب، وهو أن أمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض، وقررنا هذا الأصل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٦] فالكيد السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه ولا سبيل له إلى دفعه، فالكيد في حق الله تعالى محمول على هذا المعنى. ثم اختلفوا في المراد بالكيد هاهنا فقال بعضهم: المراد أن إخوة يوسف سعوا في إبطال أمر يوسف، والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره. وقال آخرون: المراد من هذا الكيد هو أنه تعالى ألقى في قلوب إخوته أن حكموا بأن جزاء السارق هو أن يسترق، لا جرم لما ظهر الصواع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق، وصار ذلك سببًا لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عند نفسه.

**ثم قال تعالى:** ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ والمعنى: أنه كان حكم الملك في السارق أن يضرب ويغرم ضعفي ما سرق، فما كان يوسف قادرًا على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه، إلا أنه تعالى كاد له ما جرى على لسان إخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا أن هذا الكلام توسل به إلى أخذ أخيه وحبسه عند نفسه، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

**وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ حمزة وعاصم والكسائي ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بالتنوين غير مضاف، والباقون بالإضافة.

المسألة الثانية: المراد من قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ هو أنه تعالى يريه وجوه الصواب في بلوغ المراد، ويخصه بأنواع العلوم، وأقسام الفضائل، والمراد هاهنا هو أنه تعالى رفع درجات يوسف على إخوته في كل شيء.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ وأيضًا وصف إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب ووصف هاهنا يوسف أيضًا بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ لما هداه إلى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ والمعنى أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء، إلا أن يوسف كان زائدًا عليهم في العلم.

واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى عالم بذاته لا بالعلم فقالوا: لو كان عالمًا بالعلم لكان ذا علم ولو كان كذلك، لحصل فوقه عليم تمسكًا بعموم هذه الآية وهذا باطل.

واعلم أن أصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على إثبات العلم لله تعالى وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١] وإذا وقع التعارض فنحن نحمل الآية التي تمسك الخصم بها على واقعة يوسف وإخوته خاصة غاية ما في الباب أنه يوجب تخصيص العموم، إلا أنه لا بد من المصير إليه لأن العالم مشتق من العلم، والمشتق مركب والمشتق منه مفرد، وحصول المركب بدون حصول المفرد محال في بديهة العقل فكان الترجيح من جانبنا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

اعلم أنه لما خرج الصواع من رحل أخي يوسف نكس إخوته رءوسهم وقالوا: هذه الواقعة عجيبة أن راحيل ولدت ولدين لصين، ثم قالوا: يا بني راحيل ما أكثر البلاء علينا منكم، فقال بنيامين: ماأكثر البلاء علينا منكم ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة، ثم تقولون لي هذا الكلام، قالوا له: فكيف خرج الصواع من رحلك، فقال: وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم.

واعلم أن ظاهر الآية يقتضي أنهم قالوا للملك: إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان أيضًا سارقًا، وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى، واختلفوا في السرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام على أقوال:

**الأول:** قال سعيد بن جبير: كان جده أبو أمه كافرًا يعبد الأوثان فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك، فهذا هو السرقة.

**والثاني:** أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء، وقيل سرق عناقًا من أبيه ودفعه إلى المسكين وقيل دجاجة.

**والثالث:** أن عمته كانت تحبه حبًّا شديدًا فأرادت أن تمسكه عند نفسها، وكان قد بقي عندها منطقة لاسحاق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت: بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها.

**والرابع:** أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغل ألبتة.

**ثم قال تعالى:** ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ إلى أي شيء يعود على قولين: قال الزجاج: فأسرها إضمار على شريطة التفسير، تفسيره: أنتم شر مكانًا وإنما أنث لأن قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جملة أو كلمة لأنهم يسمون الطائفة من الكلام كلمة كأنه قال: فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ

مَّكَانًاۖ﴾ وفي قراءة ابن مسعود (فَأَسَرَّهُ) بالتذكير يريد القول أو الكلام، وطعن أبو علي الفارسي في هذا الوجه فيما استدركه على الزجاج من وجهين:

**الوجه الأول:** قال الإضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين: **أحدهما:** أن يفسر بمفرد كقولنا: نعم رجلاً زيد ففي نعم ضمير فاعلها، ورجلاً تفسير لذلك الفاعل المضمر، والآخر أن يفسر بجملة وأصل هذا يقع في الابتداء كقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٧] ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١] والمعنى القصة شاخصة أبصار الذين كفروا والأمر الله أحد. ثم إن العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر تدخل عليه أيضًا نحو إن كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤] ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦]. إذا عرفت هذا فنقول: نفس المضمر على شريطة التفسير في كلا القسمين متصل بالجملة التي حصل منها الإضمار، ولا يكون خارجًا عن تلك الجملة ولا مباينًا لها. وهاهنا التفسير منفصل عن الجملة التي حصل منها الإضمار فوجب أن لا يحسن. **والثاني:** أنه تعالى قال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ﴾ وذلك يدل على أنه ذكر هذا الكلام، ولو قلنا: إنه عليه السلام أضمر هذا الكلام لكان قوله إنه قال ذلك كذبًا. واعلم أن هذا الطعن ضعيف لوجوه:

**أما الأول:** فلأنه لا يلزم من حسن القسمين الأولين قبح قسم ثالث. **وأما الثاني:** فلأنا نحمل ذلك على أنه عليه السلام قال ذلك على سبيل الخفية وبهذا التفسير يسقط هذا السؤال.

**والوجه الثاني:** وهو أن الضمير في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ عائد إلى الإجابة كأنهم قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾ فأسر يوسف إجابتهم في نفسه في ذلك الوقت ولم يبدها لهم في تلك الحالة إلى وقت ثان ويجوز أيضًا أن يكون إضمارًا للمقالة. والمعنى: أسر يوسف مقالتهم، والمراد من المقالة متعلق تلك المقالة كما يراد بالخلق المخلوق وبالعلم المعلوم يعني أسر يوسف في نفسه كيفية تلك السرقة، ولم يبين لهم أنها كيف وقعت وأنه ليس فيها ما يوجب الذم والطعن. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لأجل همه بها، عوقب بالحبس وبقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] عوقب بالحبس الطويل وبقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧] عوقب بقولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾ ثم حكى تعالى عن يوسف أنه قال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ﴾ أي أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه في الجب، ثم قلتم لأبيكم: إن الذئب أكله وأنتم كاذبون، ثم بعتموه بعشرين درهمًا، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد ما زال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يريد أن سرقة يوسف كانت رضًا لله، وبالجملة فهذه الوجوه المذكورة في سرقته لا يوجب شيء منها عود الذم واللوم إليه، والمعنى: والله أعلم بأن هذا الذي وصفتموه به هل يوجب عود مذمة إليه أم لا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى بيَّن أنهم بعد الذي ذكروه من قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [يوسف: ٧٧] أحبوا موافقته والعدول إلى طريقة الشفاعة فإنهم وإن كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى في السارق أن يستعبد، إلا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضًا جائزًا، فقالوا: يا أيها العزيز إن له أبًا شيخًا كبيرًا أي في السن، ويجوز أن يكون في القدر والدين، وإنما ذكروا ذلك لأن كونه ابنًا لرجل كبير القدر يوجب العفو والصفح.

ثم قالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ﴾ يحتمل أن يكون المراد على طريق الاستعباد ويحتمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء إليك. ثم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه وجوه:

**أحدها:** إنا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك.

**وثانيها:** إنا نراك من المحسنين إلينا حيث أكرمتنا وأعطيتنا البذل الكثير وحصلت لنا مطلوبنا على أحسن الوجوه ورددت إلينا ثمن الطعام.

**وثالثها:** نقل أنه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئًا يشترون به الطعام، وكانوا يبيعون أنفسهم منه فصار ذلك سببًا لصيرورة أكثر أهل مصر عبيدًا له ثم إنه أعتق الكل، فلعلهم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عامة الناس بالإعتاق فكن محسنًا أيضًا إلى هذا الإنسان بإعتاقه من هذه المحنة، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذًا أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، أي أعوذ بالله أن آخذ بريئًا بمذنب.

قال الزجاج: موضع (أن) نصب، والمعنى: أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره فلما سقطت كلمة (من) انتصب الفعل عليه وقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي لقد تعديت وظلمت إن آذيت إنسانًا بجرم صدر عن غيره.

**فإن قيل:** هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب، فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الإقدام على هذا التزوير والترويج وإيذاء الناس من غير سبب لا سيما ويعلم أنه إذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فإنه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه، فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير إلى هذا الحد؟

**والجواب:** لعله تعالى أمره بذلك تشديدًا للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

**في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أنهم لما قالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٨] وهو نهاية ما يمكنهم بذله فقال يوسف في جوابه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩] فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام في رده، فعند هذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ وهو مبالغة في يأسهم من رده ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] أي تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة أن المراد يتشاورون ويتحيلون الرأي فيما وقعوا فيه، لأنهم إنما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد المواثيق المؤكدة وبعد أن كانوا متهمين في حق يوسف فلو لم يعيدوه إلى أبيهم لحصلت محن كثيرة: أحدها: أنه لو لم يعودوا إلى أبيهم وكان شيخًا كبيرًا فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة. وثانيها: أن أهل بيتهم كانوا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة. وثالثها: أن يعقوب عليه السلام ربما كان يظن أن أولاده هلكوا بالكلية وذلك غم شديد ولو عادوا إلى أبيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم فإن ظاهر الأمر يوهم أنهم خانوه في هذا الابن كما أنهم خانوه في الابن الأول، ولكان يوهم أيضًا أنهم ما أقاموا لتلك المواثيق المؤكدة وزنا ولا شك أن هذا الموضع موضع فكرة وحيرة، وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلبًا للأصلح الأصوب فهذا هو المراد من قوله: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾.

المسألة الثانية: قال الواحدي: روي عن ابن كثير (اسْتَايَسُوا) و(حَتَّى إِذَا اسْتَايَسَ الرُّسُلُ) [يوسف: ١١٠] بغير همز وفي ييئس لغتان يَئِسَ ويَيأَس مثل حَسِب ويَحسَب ومن قال (اسْتَأْيَس) قلب العين إلى موضع الفاء فصار استَعْفَل وأصله استيأس ثم خففت الهمزة. قال صاحب (الكشاف): استيأسوا يئسوا، وزيادة السين والتاء للمبالغة كما في قوله: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقوله: ﴿خَلَصُوا۟﴾ قال الواحدي: يقال خلص الشيء يخلص خلوصًا إذا ذهب عنه الشائب من غيره، ثم فيه وجهان:

**الأول:** قال الزجاج: خلصوا أي انفردوا، وليس معهم أخوهم.

**والثاني:** قال الباقون: تميزوا عن الأجانب، وهذا هو الأظهر. وأما قوله: ﴿نَجِيًّا﴾ فقال صاحب (الكشاف): النجي على معنيين يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وبمعنى المصدر الذي هو التناجي كما قيل: النجوى بمعنى المتناجين، فعلى هذا معنى ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس

خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿نَجِيًّا﴾ أي مناجيًا. روي (نجوى) أي فوجًا ﴿نَجِيًّا﴾ أي مناجيًا لمناجاة بعضهم بعضًا، وأحسن الوجوه أن يقال: إنهم تمحضوا تناجيًا، لأن من كمل حصول أمر من الأمور فيه وصف بأنه صار غير ذلك الشيء، فلما أخذوا في التناجي على غاية الجد صاروا كأنهم في أنفسهم، صاروا نفس التناجي حقيقة.

**أما قوله تعالى:** ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ فقيل: المراد كبيرهم في السن وهو روبيل، وقيل: كبيرهم في العقل وهو يهودا، وهو الذي نهاهم عن قتل يوسف، ثم حكى تعالى عن هذا الكبير أنه قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ .

**وفيه مسألتان:**

**المسألة الأولى**: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩] غضب يهودا، وكان إذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل إلا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض إخوته: اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك، فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له: مِسَّه فمسَّه فذهب غضبه وهم أن يصيح فَرَكَلَ يوسف عليه السلام رجله على الأرض وأخذ بملابسه وجذبه فسقط فعنده قال: يا أيها العزيز، فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا: إن أبانا قد أخذ علينا موثقًا عظيمًا من الله. وأيضًا نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة؟

**المسألة الثانية**: لفظ (ما) في قوله: ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾ .

**فيها وجوه:**

**الأول:** أن يكون أصله من قبل هذا فرطتم في شأن يوسف عليه السلام، ولم تحفظوا عهد أبيكم.

**الثاني:** أن تكون مصدرية ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف، وهو من قبل. ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف.

**الثالث:** النصب عطفًا على مفعول ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ والتقدير: ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقكم وتفريطكم من قبل في يوسف.

**الرابع:** أن تكون موصولة بمعنى: ومن قبل هذا ما فرطتموه أي قدمتموه في حق يوسف من الخيانة العظيمة، ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين، ثم قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي في الانصراف إليه أو يحكم الله لي بالخروج منها أو بالانتصاف ممن أخذ أخي أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب وهو خير الحاكمين، لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق، وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياؤه وخجله من أبيه أو غيره قاله انقطاعًا إلى الله تعالى في إظهار عذره بوجه من الوجوه.

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

واعلم أنهم لما تفكروا في الأصوب ما هو ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع، وأن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت، والظاهر أن هذا القول قاله ذلك الكبير الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾[يوسف: ٨٠] قيل: إنه روبيل، وبقي هو في مصر وبعث سائر إخوته إلى الأب.

**فإن قيل:** كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة، لا سيما وهو قد أجاب بالجواب الشافي، فقال: الذي جعل الصواع في رحلي هو الذي جعل البضاعة في رحلكم.

**والجواب عنه من وجوه:**

**الوجه الأول:** أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعًا في موضع ما كان يدخله أحد إلا هم، فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو الذي أخذ الصواع، وأما قوله: وضع الصواع في رحلي مَنْ وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر، لأن هناك لما رجعوا بالبضاعة إليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها في رحالهم، وأما هذا الصواع فإن أحدًا لم يعترف بأنه هو الذي وضع الصواع في رحله فظهر الفرق فلهذا السبب غلب على ظنونهم أنه سرق، فشهدوا بناء على هذا الظن، ثم بيَّن أنهم غير قاطعين بهذا الأمر بقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾.

**والوجه الثاني:** في الجواب أن تقدير الكلام ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ في قول الملك وأصحابه ومثله كثير في القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود: ٨٧] أي عند نفسك، وقال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩] أي عند نفسك وأما عندنا فلا فكذا هاهنا.

**الوجه الثالث:** في الجواب: أن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشيء يسمى سرقة فإن إطلاق اسم أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز في القرآن قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠].

**الوجه الرابع:** أن القوم ما كانوا أنبياء في ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال: إنهم ذكروا هذا الكلام على سبيل المجازفة لا سيما وقد شاهدوا شيئًا يوهم ذلك.

**الوجه الخامس:** أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرأ (إنَّ ابنَكَ سُرِّقَ) بالتشديد، أي نسب إلى السرقة فهذه القراءة لا حاجة بها إلى التأويل لأن القوم نسبوه إلى السرقة، إلا أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن أمثال هذه القراءات لا تدفع السؤال، لأن الإشكال إنما يدفع إذا قلنا القراءة الأولى باطلة، والقراءة الحقة هي هذه. أما إذا سلمنا أن القراءة الأولى حقة كان الإشكال باقيًا

سواء صحت هذه القراءة الثانية أو لم تصح، فثبت أنه لا بد من الرجوع إلى أحد الوجوه المذكورة أما قوله: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ فمعناه ظاهر لأنه يدل على أن الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وذلك يقتضي كون الشهادة مغايرة للعلم ولأنه عليه السلام قال: إذا علمت مثل الشمس فاشهد، وذلك أيضًا يقتضي ما ذكرنا وليست الشهادة أيضًا عبارة عن قوله: أشهد لأن قوله أشهد إخبار عن الشهادة والإخبار عن الشهادة غير الشهادة.

**إذا ثبت هذا فنقول:** الشهادة عبارة عن الحكم الذهني وهو الذي يسميه المتكلمون بكلام النفس، وأما قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

**ففيه وجوه:**

**الأول:** أنا قد رأينا أنهم أخرجوا الصواع من رحله، وأما حقيقة الحال فغير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله.

**والثاني:** قال عكرمة معناه: لعل الصواع دس في متاعه بالليل، فإن الغيب اسم لليل على بعض اللغات.

**والثالث:** قال مجاهد والحسن وقتادة: وما كنا نعلم أن ابنك يسرق، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به إلى الملك وما أعطيناك موثقًا من الله في رده إليك.

**والرابع:** نقل أن يعقوب عليه السلام قال لهم: فهب أنه سرق ولكن كيف عرف الملك أن شرع بني إسرائيل أن من سرق يسترق، بل أنتم ذكرتموه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام: إنا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا في هذه الواقعة وما كنا نعلم أن هذه الواقعة نقع فيها فقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ إشارة إلى هذا المعنى.

**فإن قيل:** فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى في إخفاء حكم الله تعالى على هذا القول.

**قلنا:** لعله كان ذلك الحكم مخصوصًا بما إذا كان المسروق منه مسلمًا فلهذا أنكر ذكر هذا الحكم عند الملك الذي ظنه كافرًا.

**ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا:** ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾.

واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا في إزالة التهمة عن أنفسهم فقالوا: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ والأكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر وقال قوم: بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش.

**ثم فيه قولان:**

**الأول:** المراد: واسأل أهل القرية إلا أنه حذف المضاف للإيجاز والاختصار، وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب، قال أبو علي الفارسي: ودافع جواز هذا في اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات.

**والثاني:** قال أبو بكر الأنباري: المعنى: اسأل القرية والعير والجدار والحيطان فإنها تجيبك وتذكر لك صحة ما ذكرناه لأنك من أكابر أنبياء الله فلا يبعد أن ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تُخبَر بصحة ما ذكرناه، وفيه وجه ثالث: وهو أن الشيء إذا ظهر ظهورًا تامًا كاملاً فقد يقال فيه: سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه، والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي ما بقي للشك فيه مجال.

**أما قوله:** ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقال المفسرون: كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا: سلهم عن هذه الواقعة. ثم إنهم لما بالغوا في التأكيد والتقرير قالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ يعني سواء نسبتنا إلى التهمة أو لم تنسبنا إليها فنحن صادقون، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم لأن هذا يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه، بل الإنسان إذا قدَّم ذكر الدليل القاطع على صحة الشيء فقد يقول بعده: وأنا صادق في ذلك يعني فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما في واقعة يوسف فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فذكر هذا الكلام بعينه في هذه الواقعة إلا أنه قال في واقعة يوسف عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وقال هاهنا: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** قال بعضهم: إن قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ليس المراد منه هاهنا الكذب والاحتيال كما في قوله في واقعة يوسف عليه السلام حين قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ لكنه عنى سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عني والمصير به إلى مصر طلبًا للمنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألححتم عليَّ في إرساله معكم ولم تعلموا أن قضاء الله إنما جاء على خلاف تقديركم وقيل: بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمرًا: خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق.

**المسألة الثانية:** قيل: إن روبيل لما عزم على الإقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع إخوته فقال اتركوني وإلا صحت صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل إلا وتضع حملها فقال يوسف: دعوه ولما رجع القوم إلى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال: يا بني لا تخرجوا من عندي مرة إلا ونقص بعضكم، ذهبتم مرة فنقص يوسف، وفي الثانية نقص شمعون، وفي هذه الثالثة نقص روبيل وبنيامين، ثم بكى وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ وإنما حكم بهذا الحكم لوجوه:

**الأول:** أنه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنته علم أنه تعالى سيجعل له فرجًا ومخرجًا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن برحمة الله.

**والثاني:** لعله تعالى قد أخبره من بعد محنة يوسف أنه حي أو ظهرت له علامات ذلك وإنما قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثني عشر فضاع يوسف وبقي أحد عشر، ولما أرسلهم إلى مصر عادوا تسعة لأن بنيامين حبسه يوسف واحتبس ذلك الكبير الذي قال: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾[يوسف: ٨٠] فلما كان الغائبون ثلاثة لا جرم قال ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾.

**ثم قال:** ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يعني هو العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جدًا وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم.

**أما المقام الأول:** وهو أنه أعرض عنهم، وفر منهم فهو قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

**الوجه الأول:** أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع، وقال متمم بن نويرة:

وَقَدْ لاَمَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَا    رَفِيقِي لِتِذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ(١)

---

(١) هذه الأبيات ضمن قصيدة من البحر الطويل لمتمم بن نويرة رضي الله عنه هو: مُتَمِّم بن نُوَيْرَة بن حمزة بن شداد اليربوعي التميمي أبو نهشل، ؟- ٣٠هـ/ ؟- ٦٥٠ م، شاعر فحل، صحابي، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام، وكان قصيراً أعور، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك ومنه قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة    من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فَـقَـالَ أَتَـبْـكِـي كُـلَّ قَـبْـرٍ رَأَيْـتَـهُ   لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى وَالدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى   فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وذلك لأنه إذا رأى قبرًا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى. وقال آخر:

فَلَمْ تُنْسِنِي أوفي المصيبات بعده   ولكن نكاء الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ

والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث: أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفًا على الكل. الرابع: أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها. وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه، وأما السبب الحقيقي فما كان معلومًا له، وأيضًا أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء في الحياة وأما يوسف فما كان يعلم أنه حي أو ميت، فلهذه الأسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله.

المسألة الثانية: من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال: لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وأنه لا يجوز، والعلماء بينوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل، وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ ثم أمسك لسانه عن النياحة، وذكر مالا ينبغي، وهو المراد من قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ثم إنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فإنه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم. روي أن يوسف عليه السلام سأل جبريل: هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم قال: وكيف حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد ثم يموت. قال: فهل له فيه أجر؟ قال: نعم أجر مائة شهيد.

**فإن قيل:** روي عن محمد بن علي الباقر قال: مر بيعقوب شيخ كبير فقال له: أنت إبراهيم فقال: أنا ابن ابنه والهموم غيرتني وذهبت بحسني وقوتي، فأوحى الله تعالى إليه: **«حتى متى تشكوني إلى عبادي وعزتي وجلالي لو لم تشكني لأبدلتك لحمًا خيرًا من لحمك ودمًا خيرًا من دمك»** فكان من بعد يقول: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وعن النبي ﷺ أنه قال: **«كَانَ لِيَعْقُوبَ أَخٌ مُوَاخٍ»** فقال له: ما الذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك فقال: الذي أذهب بصري البكاء على يوسف وقوس ظهري الحزن على بنيامين، فأوحى الله تعالى إليه **«أَمَا تَسْتَحِي تَشْكُونِي إِلَى غَيْرِي»**

فقال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فقال: يا رب أما ترحم الشيخ الكبير قوست ظهري، وأذهبت بصري، فاردد عليَّ ريحانتي يوسف وبنيامين فأتاه جبريل عليه السلام بالبشرى وقال: لو كانا ميتين لنشرتهما لك فاصنع طعامًا للمساكين، فإن أحب عبادي إلي الأنبياء والمساكين[(١)]، وكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغداء نادى مناديه: من أراد الغداء فليتغد مع يعقوب، وإذا كان صائمًا نادى مثله عند الإفطار. وروي أنه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر، فقال له رجل: ما هذا الذي أراه بك، قال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله إليه «أَتَشْكُونِي يَا يَعْقُوبُ» فقال: يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي.

**قلنا:** إنا قد دللنا على أنه لم يأت إلا بالصبر والثبات وترك النياحة. وروي أن ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له: جئت لتقبضني قبل أن أرى حبيبي فقال: لا، ولكن جئت لأحزن لحزنك وأشجو لشجوك، وأما البكاء فليس من المعاصي. وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام: بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال: «**إِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ وَالْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَلاَ نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[(٢)] وأيضًا فاستيلاء الحزن على الإنسان ليس باختياره، فلا يكون ذلك داخلاً تحت التكليف وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه، وأما ما ورد في الروايات التي ذكرتم فالمعاتبة فيها إنما كانت لأجل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأيضًا ففيه دقيقة أخرى وهي أن الإنسان إذا كان في موضع التحير والتردد لا بد وأن يرجع إلى الله تعالى، فيعقوب عليه السلام ما كان يعلم أن يوسف بقي حيًا أم صار ميتًا، فكان متوقفًا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع إلى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى إلا في هذه الواقعة، وكانت أحواله في هذه الواقعة مختلفة، فربما صار في بعض الأوقات مستغرق الهم بذكر الله تعالى، فإن عَنَّ تذكر هذه الواقعة، فكان ذكرها كلا سواها، فلهذا السبب صارت هذا الواقعة بالنسبة إليه، جارية مجرى الإلقاء في النار

---

(١) **ضعيف**: قلت: رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٨) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن عبد الملك بن أبي غنية، عن حفص بن عمر ابن الزبير، عن أنس بنحوه، وقال الحاكم: (حفص بن عمر بن الزبير، وأظن الزبير وهما من الراوي فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري).

ورواه إسحاق بن راهويه ومن طريقه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٨) من طريق يحيى بن عبد الملك، عن أنس بن مالك مرسلا. ورواه ابن أبي الدنيا في (الفرج بعد الشدة) برقم (٤٧) من طريق بن سليمان عن يحي بن عبد الملك عن رجل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا. ورواه الطبراني في الأوسط برقم (١/ ٣٣٤) (مجمع البحرين) من طريق وهب بن بقية عن يحيى بن عبد المطلب عن حصين بن عمر الأحمسي عن أبي الزبير عن أنس مرفوعًا. وبهذا يتبين أن الحديث مضطرب.

وأورده ابن كثير في (تفسيره) (٤/ ٤٠٦)، وقال: وهذا حديث غريب وفيه نكارة.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز) باب (قول النبي: إنا بك لمحزونون)

(٣/ ٢٦) حديث رقم/ ١٣٠٣، ومسلم في كتاب (العيال) باب (رحمة النبي ﷺ بالصبية والعيال) (٤/ ١٨٠٧/ ٦٢)، كلاهما من طريق سليمان بن المغيرة... به.

للخليل عليه السلام ومجرى الذبح لابنه الذبيح .

**فإن قيل:** أليس أن الأولى عند نزول المصيبة الشديدة أن يقول : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] حتى يستوجب الثواب العظيم المذكور في قوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] .

**قلنا:** قال بعض المفسرين : إنه لم يعط الاسترجاع أمة إلا هذه الأمة فأكرمهم الله تعالى إذا أصابتهم مصيبة وهذا عندي ضعيف لأن قوله : ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إشارة إلى أنا مملوكون لله وهو الذي خلقنا وأوجدنا ، وقوله : ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إشارة إلى أنه لا بد من الحشر والقيامة ، ومن المحال أن أمة من الأمم لا يعرفون ذلك فمن عرف عند نزول بعض المصائب به أنه لا بد في العاقبة من رجوعه إلى الله تعالى ، فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة ، ومن المحال أن يكون المؤمن بالله غير عارف بذلك .

المسألة الثالثة : قوله : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ نداء الأسف وهو كقوله : «يا عَجَبًا» والتقدير كأنه ينادي الأسف ويقول : هذا وقت حصولك وأوان مجيئك وقد قررنا هذا المعنى في مواضع كثيرة منها في تفسير قوله : ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾[يوسف: ٣١] والأسف الحزن على ما فات . قال الليث : إذا جاءك أمر فحزنت له ولم تطقه فأنت أسيف أي حزين ومتأسف أيضًا . قال الزجاج : الأصل ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ إلا أن ياء الإضافة يجوز إبدالها بالألف لخفة الألف والفتحة .

**ثم قال تعالى:** ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ .

**وفيه وجهان:**

الوجه الأول : أنه لما قال : يا أسفى على يوسف غلبه البكاء ، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء وقوله : ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ كناية عن غلبة البكاء ، والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن في غلبة البكاء لا في حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسنًا ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل ، فكان ما ذكرناه أولى وهذا للتفسير مع الدليل رواه الواحدي في (البسيط) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والوجه الثاني : أن المراد هو العمى قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام وهو قوله : ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾[يوسف: ٩٣] قيل إن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام حينما كان في السجن فقال إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمي لم تلدني ولم أك حزنًا على أبي ، والقائلون بهذا التأويل قالوا : الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى ، فالحزن كان سببًا للعمى بهذه الواسطة ، وإنما كان البكاء الدائم يوجب العمى ، لأنه يورث كدورة في سوداء العين ، ومنهم من قال : ما عمي لكنه صار بحيث يدرك إدراكًا ضعيفًا . قيل : ما جفت عينا

يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام إلى حين لقائه، وتلك المدة ثمانون عامًا، وما كان على وجه الأرض عبدًا أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام.

**أما قوله تعالى:** ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ فاعلم أنه قرئ (من الحُزْن) بضم الحاء وسكون الزاي، وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاي. قال الواحدي: واختلفوا في الحزن والحزن فقال قوم: الحُزْن البُكَاء والحزن ضد الفرح، وقال قوم: هما لغتان يقال أصابه حزن شديد، وحزن شديد، وهو مذهب أكثر أهل اللغة، وروى يونس عن أبي عمرو قال: إذا كان في موضع النصب فتحوا الحاء والزاي كقوله: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾[التوبة: ٩٢] وإذا كان في موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ وقوله: ﴿أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال هو في موضع رفع بالابتداء.

**وأما قوله تعالى:** ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره، قال ابن قتيبة: ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم، ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدورُ من كظم السقاء إذا اشتد على ملئه، ويجوز أيضًا أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده.

واعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة، فبيَّن تعالى أنها كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولاً بقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذه مبالغة في وصف ذلك الغم.

**أما قوله تعالى:** ﴿قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ .

**ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال ابن السكيت يقال: ما زلت أفعله وما فتئت أفعله وما برحت أفعله ولا يتكلم بهن إلا مع الجحد. قال ابن قتيبة يقال: ما فتيت وما فتئت لغتان فتيا فتوًا إذا نسيته وانقطعت عنه، قال النحويون وحرف النفي هاهنا مضمر على معنى قالوا: ما تفتؤ ولا تفتؤ وجاز حذفه لأنه لو أريد الإثبات لكان باللام والنون نحو والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة لا مضمرة وأنشدوا قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا[١]

والمعنى: لا أبرح قاعدًا ومثله كثير. وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة لا تزال تذكره، وعن مجاهد لا تفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوء أخوين.

المسألة الثانية: حكى الواحدي عن أهل المعاني أن أصل الحرض فساد الجسم والعقل للحزن والحب، وقوله: حرَّضت فلانًا على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه، وقال تعالى:

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل وهو لامرئ القيس وتقدمت ترجمته.

﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

**إذا عرفت هذا فنقول:** وصف الرجل بأنه حَرَض إما أن يكون لإرادة أنه ذو حرض فحذف المضاف أو لإرادة أنه لما تناهى في الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض ونفس الفساد. وأما الحَرِض بكسر الراء فهو الصفة وجاءت القراءة بهما معًا.

**إذا عرفت هذا فنقول:** للمفسرين فيه عبارات: أحدها: الحَرَض والحارض هو الفاسد في جسمه وعقله. وثانيها: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الحرض فقال: الفاسد الدنف. وثالثها: أنه الذي يكون لا كالأحياء ولا كالأموات، وذكر أبو روق أن أنس بن مالك قرأ: (حتى تكون حُرْضًا) بضم الحاء وتسكين الراء قال يعني مثل عود الأشنان، وقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي من الأموات، ومعنى الآية أنهم قالوا لأبيهم: إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم كأنهم قالوا: أنت الآن في بلاء شديد ونخاف أن يحصل ما هو أزيد منه وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف.

**فإن قيل:** لِمَ حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعًا؟

**قلنا:** إنهم بنوا هذا الأمر على الظاهر.

**فإن قيل:** القائلون بهذا الكلام وهو قوله: ﴿تَاللَّهِ﴾ من هم؟

**قلنا:** الأظهر أن هؤلاء ليسوا هم الإخوة الذين قد تولى عنهم، بل الجماعة الذين كانوا في الدار من أولاد أولاده وخدمه.

ثم حكى تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ يعني أن هذا الذي أذكره لا أذكره معكم وإنما أذكره في حضرة الله تعالى، والإنسان إذا بث شكواه إلى الله تعالى كان في زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ غَضَبِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»[1] والله هو الموفق، والبث هو التفريق قال الله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] فالحزن إذا ستره الإنسان كان همًّا وإذا ذكره لغيره كان بثًّا وقالوا: البث أشد الحزن والحزن أشد الهم، وذلك لأنه متى أمكنه أن يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستوليًا عليه، وأما إذا عظم وعجز الإنسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (ما يقال في الركوع والسجود) (١/ ٢٢٢/ ٣٥٢) وفيه لفظ (فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أمامة... به. وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (في الدعاء في الركوع والسجود) (١/ ٢٣١) حديث رقم/ ٨٧٩ ولم يذكر أنها لمست قدميه. ومن طريق محمد بن سليمان الأنباري عن عبيدة... به. والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (ترك الوضوء من مس الرجل امرأته من غير شهوة)، (١/ ١٨٢) حديث رقم/ ١٦٩، وابن ماجه في كتاب (الدعاء) باب (ما تعوذ رسول الله ﷺ)، (٢/ ١٢٦٢) حديث رقم/ ٣٨٤١، من طريق أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة... به. كلاهما (أبو أسامة، وعبيدة) عن عبيد الله بن عمر... به.

أم أبى كان ذلك بثًا وذلك يدل على أن الإنسان صار عاجزًا عنه وهو قد استولى على الإنسان، فقوله: ﴿بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل إلا مع الله، وقرأ الحسن: (وحَزَني) بفتحتين و(حُزُني) بضمتين، قيل: دخل على يعقوب رجل وقال: يا يعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك وما بلغت سنًا عاليًا فقال الذي بي لكثرة غمومي، فأوحى الله إليه يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي، فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي فغفرها له، وكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وروي أنه أوحى الله إليه إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه، وإن أحب خلقي إليَّ الأنبياء والمساكين فاصنع طعامًا وادع إليه المساكين، وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت.

**ثم قال يعقوب عليه السلام:** ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون، وهو أنه تعالى يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب، فهو إشارة إلى أنه كان يتوقع وصول يوسف إليه. وذكروا لسبب هذا التوقع أمورًا:

**أحدها:** أن ملك الموت أتاه فقال له: يا ملك الموت هل قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا يا نبي الله ثم أشار إلى جانب مصر وقال: اطلبه هاهنا.

**وثانيها:** أنه علم أن رؤيا يوسف صادقة، لأن أمارات الرشد والكمال كانت ظاهرة في حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطئ.

**وثالثها:** لعله تعالى أوحى إليه أنه سيوصله إليه، ولكنه تعالى ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق.

**ورابعها:** قال السدي: لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله في أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف وقال: يبعد أن يظهر في الكفار مثله.

**وخامسها:** علم قطعًا أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وما ضربه فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة الكلام في المقام الأول.

**والمقام الثاني:** أنه رجع إلى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف وهو قوله: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

واعلم أنه عليه السلام لما طمع في وجدان يوسف بناء على الأمارات المذكورة قال لبنيه: تحسسوا من يوسف، والتحسس: طلب الشيء بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر، قال أبو بكر الأنباري يقال: تحسست عن فلان ولا يقال من فلان، وقيل هاهنا: من يوسف لأنه أقام (من) مقام (عن)، قال: ويجوز أن يقال: من للتبعيض، والمعنى تحسسوا خبرًا من أخبار يوسف، واستعلموا بعض أخبار يوسف فذكرت كلمة ﴿مِن﴾ لما فيها من الدلالة على التبعيض، وقرئ (تجسسوا) بالجيم كما قرىء بهما في الحجرات.

**ثم قال:** ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ قال الأصمعي: الروح: ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه وتركيب الراء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز، فكلُّ ما يهتز الإنسان له ويلتذ بوجوده فهو روح. وقال ابن عباس: لا تيئسوا من روح الله يريد من رحمة الله، وعن قتادة: من فضل الله، وقال ابن زيد: من فرج الله، وهذه الألفاظ متقاربة، وقرأ الحسن وقتادة: (من رُوح الله) بالضم أي من رحمته.

**ثم قال:** ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء.

واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا والله أعلم، وقد بقي من مباحث هذه الآية سؤالات:

**السؤال الأول:** أن بلوغ يعقوب في حب يوسف إلى هذا الحد العظيم لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله، فإن من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء سوى الله تعالى، وأيضًا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين، فلما كان قلبه مستغرقًا في حب ولده امتنع أن يقال: إنه كان مستغرقًا في حب الله تعالى.

**والسؤال الثاني:** أن عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب أن يشتغل بذكر الله تعالى، وبالتفويض إليه والتسليم لقضائه.

**وأما قوله:** ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلاً عن أكابر الأنبياء.

**والسؤال الثالث:** لا شك أن يعقوب كان من أكابر الأنبياء، وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الأنبياء المشهورين في جميع الدنيا، ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة في أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية، بل لا بد وأن يبلغ في الشهرة إلى حيث يعرفها كل أحد لا سيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقي يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم، وكان يوسف في مصر وكان يعقوب في بعض بلاد الشام قريبًا من مصر، فمع قرب المسافة يمتنع بقاء هذه الواقعة مخفية.

**السؤال الرابع:** لِمَ لم يبعث يوسف عليه السلام أحدًا إلى يعقوب ويعلمه أنه في الحياة وفي السلامة ولا يقال: إنه كان يخاف إخوته لأنه بعد أن صار ملكًا قاهرًا كان يمكنه إرسال الرسول إليه وإخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول.

**والسؤال الخامس:** كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يضع الصاع في وعاء أخيه ثم يستخرجه منه ويلصق به تهمة السرقة مع أنه كان بريئًا عنها.

**السؤال السادس:** كيف رغب في إلصاق هذه التهمة به وفي حبسه عند نفسه مع أنه كان يعلم

أنه يزداد حزن أبيه ويقوى؟

والجواب عن الأول: أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ما سواه من الخواطر. ثم إن صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع إلى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سببًا لكمال الاستغراق.

والجواب عن الثاني: أن الدواعي الإنسانية لا تزول في الحياة العاجلة فتارة كان يقول: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] وتارة كان يقول: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وأما بقية الأسئلة فالقاضي أجاب عنها بجواب كلي حسن، فقال هذه الوقائع التي نقلت إلينا إما يمكن تخريجها على الأحوال المعتادة أو لا يمكن فإن كان الأول فلا إشكال، وإن كان الثاني فنقول: كان ذلك الزمان زمان الأنبياء عليهم السلام وخرق العادة في هذا الزمان غير مستبعد، فلم يمتنع أن يقال: إن بلدة يعقوب عليه السلام مع أنها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام، ولكن لم يصل خبر أحدهما إلى الآخر على سبيل نقض العادة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

اعلم أن المفسرين اتفقوا على أن هاهنا محذوفًا والتقدير: أن يعقوب لما قال لبنيه: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾.

**فإن قيل:** إذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلماذا عدلوا إلى الشكوى وطلبوا إيفاء الكيل؟

**قلنا:** لأن المتحسسين يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا: نجربه في ذكر هذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا. فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة وقالوا ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ والعزيز هو الملك القادر المنيع ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾.

**وفيه أبحاث:**

البحث الأول: معنى الإزجاء في اللغة، الدفع قليلاً قليلاً ومثله التزجية يقال الريح تزجي

السحاب. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] وزجيت فلانًا بالقول دافعته، وفلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالحيلة.

**والبحث الثاني:** إنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لرداءتها أو لهما جميعًا والمفسرون ذكروا كل هذه الأقسام: قال الحسن: البضاعة المزجاة: القليلة، وقال آخرون: إنها كانت رديئة واختلفوا في تلك الرداءة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت دراهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام، وقيل: خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثة، وقيل: متاع الأعراب الصوف والسمن. وقيل: الحبة الخضراء، وقيل: الأقط، وقيل: النعال والأدم، وقيل: سويق المقل، وقيل: صوف المعز، وقيل: إن دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التي جاءوا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبولة عند الناس.

**البحث الثالث:** في بيان أنه لِمَ سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة؟ وفيه وجوه:

**الأول:** قال الزجاج: هي من قولهم: فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل، والمعنى إنا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان، وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الأيام.

**الثاني:** قال أبو عبيد: إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها، قال وهي من الإزجاء، والإزجاء عند العرب السوق والدفع.

**الثالث:** ببضاعة مزجاة أي مؤخرة مدفوعة عن الإنفاق لا ينفق مثلها إلا من اضطر واحتاج إليها لفقد غيرها مما هو أجود منها.

**الرابع:** قال الكلبي: مزجاة: لغة العجم، وقيل: هي من لغة القبط قال أبو بكر الأنباري: لا ينبغي أن يجعل لفظ عربي معروف الاشتقاق والتصريف منسوبًا إلى القبط.

**البحث الرابع:** قرأ حمزة والكسائي (مُزْجاة) بالإمالة، لأن أصله الياء، والباقون بالنصب والتفخيم.

واعلم أن حاصل الكلام في كون البضاعة مزجاة إما لقلتها أو لنقصانها أو لمجموعهما ولما وصفوا شدة حالهم ووصفوا بضاعتهم بأنها مزجاة قالوا له: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ والمراد أن يساهلهم إما بأن يقيم الناقص مقام الزائد أو يقيم الرديء مقام الجيد، ثم قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ والمراد المسامحة بما بين الثمنين وأن يسعر لهم بالرديء كما يسعر بالجيد، واختلف الناس في أنه هل كان ذلك طلبًا منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة: إن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد ﷺ بهذه الآية [1] وعلى هذا التقدير، كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة، وأنكر الباقون ذلك وقالوا حال الأنبياء وحال أولاد الأنبياء ينافي طلب الصدقة لأنهم يأنفون من

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٢٤٢) حديث رقم/ ١٩٧٨٦، من طريق القاسم قال: يحكى عن سفيان بن عيينة... فذكره بنحوه.

الخضوع للمخلوقين ويغلب عليهم الانقطاع إلى الله تعالى والاستغاثة به عمن سواه، وروي عن الحسن ومجاهد: أنهما كرها أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي، قالوا: لأن الله لا يتصدق إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، وإنما يقول: اللهم أعطني أو تفضل، فعلى هذا التصدق هو إعطاء الصدقة والمتصدق المعطي، وأجاز الليث أن يقال للسائل: متصدق، وأباه الأكثرون. وروي أنهم لما قالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ وتضرعوا إليه اغرورقت عيناه فعند ذلك ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وقيل: دفعوا إليه كتاب يعقوب فيه: من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر. أما بعد: فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي في النار ليحرق فنجاه الله وجعلها بردًا وسلامًا عليه، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخًا بالدم وقالوا: قد أكله الذئب فذهبت عيناي من البكاء عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به إليك ثم رجعوا وقالوا: إنه قد سرق وإنك حبسته عندك وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك. فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وعرفهم أنه يوسف.

ثم حكى تعالى عن يوسف عليه السلام في هذا المقام أنه قال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قيل إنه لما قرأ كتاب أبيه يعقوب ارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وكثر بكاؤه وصرح بأنه يوسف. وقيل: إنه لما رأى إخوته تضرعوا إليه ووصفوا ما هم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة أدركته الرقة فصرح حينئذ بأنه يوسف، وقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهام يفيد تعظيم الواقعة، ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه، وهو كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت؟

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وأما قوله: ﴿وَأَخِيهِ﴾ فالمراد ما فعلوا به من تعريضه للغم بسبب إفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وأيضًا كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك الإيذاء قالوا في حقه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] وأما قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ فهو يجري مجرى العذر كأنه قال: أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور، يعني والآن لستم كذلك، ونظيره ما يقال في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] قيل: إنما ذكر تعالى هذا الوصف المعين ليكون ذلك جاريًا مجرى الجواب وهو أن يقول العبد يا رب غرني كرمك فكذا هاهنا إنما ذكر ذلك الكلام إزالة للخجالة عنهم وتخفيفًا للأمر عليهم. ثم إن إخوته قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ قرأ ابن كثير (إنك) على لفظ الخبر، وقرأ نافع (أينك لانت يوسف) بفتح الألف غير ممدودة وبالياء، وأبو عمرو (آينك)

بمد الألف وهو رواية قالون عن نافع، والباقون (أئنك) بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام، وقرأ أبي (أَوَ أَنْتَ يوسف) فحصل من هذه القراءات أن من القراء من قرأ بالاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر.

أما الأولون فقالوا: إن يوسف لما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ وتبسم فأبصروا ثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف، فقالوا له استفهامًا ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ ويدل على صحة الاستفهام أنه ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ وإنما أجابهم عما استفهموا عنه. وأما من قرأ على الخبر فحجته ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان في فرقه علامة وكان ليعقوب وإسحاق مثلها شبه الشامة، فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة، فقالوا: (إنك لأنت يوسف) ويجوز أن يكون ابن كثير أراد الاستفهام ثم حذف حرف الاستفهام وقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾.

**فيه بحثان:**

البحث الأول: اللام لام الابتداء، وأنت مبتدأ ويوسف خبره، والجملة خبر إن.

البحث الثاني: أنه إنما صرح بالاسم تعظيمًا لما نزل به من ظلم إخوته وماعوضه الله من الظفر والنصر؛ فكأنه قال: أنا الذي ظلمتموني على أعظم الوجوه والله تعالى أوصلني إلى أعظم المناصب، أنا ذلك العاجز الذي قصدتم قتله وإلقاءه في البئر ثم صرت كما ترون، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾ مع أنهم كانوا يعرفونه لأن مقصوده أن يقول: وهذا أيضًا كان مظلومًا كما كنت ثم إنه صار منعمًا عليه من قبل الله تعالى كما ترون وقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: بكل عز في الدنيا والآخرة، وقال آخرون: بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ معناه: من يتق معاصي الله ويصبر على أذى الناس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى: إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين.

**وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: اعلم أن يوسف عليه السلام وصف نفسه في هذا المقام الشريف بكونه متقيًا ولو أنه قدم على ما يقوله الحشوية في حق زليخا لكان هذا القول كذبًا منه وذكر الكذب في مثل هذا المقام الذي يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصي لا يليق بالعقلاء.

المسألة الثانية: قال الواحدي: روي عن ابن كثير في طريق قنبل: (إِنَّه مَن يَتَّقِي) بإثبات الياء في الحالين ووجهه أن يجعل (من) بمنزلة الذي فلا يوجب الجزم ويجوز على هذا الوجه أن يكون قوله: ﴿وَيَصْبِرْ﴾ في موضع الرفع إلا أنه حذف الرفع طلبًا للتخفيف كما يخفف في عَضُد وشمع والباقون بحذف الياء في الحالين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام لما ذكر لإخوته أن الله تعالى منَّ عليه وأن من يتق المعاصي ويصبر على أذى الناس فإنه لا يضيعه الله صدقوه فيه، واعترفوا له بالفضل والمزية ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ قال الأصمعي: يقال: آثرك إيثارًا، أي فضلك الله، وفلان آثر عبد فلان، إذا كان يؤثره بفضله وصلته، والمعنى: لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن إخوته ما كانوا أنبياء، لأن جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة إليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول: لعل المراد كونه زائدًا عليهم في الملك وأحوال الدنيا وإن شاركوه في النبوة لأنا بينا أن أحوال الدنيا لا يعبأ بها في جنب منصب النبوة.

وأما قوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ قيل الخاطئ هو الذي أتى بالخطيئة عمدًا وفرق بين الخاطئ والمخطئ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الأحكام فلا يصيب إنه مخطئ، ولا يقال إنه خاطئ وأكثر المفسرين على أن الذي اعتذروا منه هو إقدامهم على إلقائه في الجب وبيعه وتبعيده عن البيت والأب، وقال أبو علي الجبائي: إنهم لم يعتذروا إليه من ذلك، لأن ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنبًا فلا يعتذر منه، وإنما اعتذروا من حيث إنهم أخطأوا بعد ذلك بأن لم يظهروا لأبيهم ما فعلوه، ليعلم أنه حي وأن الذئب لم يأكله وهذا الكلام ضعيف من وجوه:

الوجه الأول: أنا بينا أنه لا يجوز أن يقال: إنهم أقدموا على تلك الأعمال في زمن الصبا لأنه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعًا من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلاً عاقلاً يمنعهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي.

الوجه الثاني: هب أن الأمر على ما ذكره الجبائي إلا أنا نقول غاية ما في الباب أنه لا يجب الاعتذار عن ذلك إلا أنه يمكن أن يقال إنه يحسن الاعتذار عنه، والدليل عليه أن المذنب إذا تاب زال عقابه ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى، فعلمنا أن الإنسان أيضًا قد يتوب عندما لا تكون التوبة واجبة عليه.

واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

**وفيه بحثان:**

**البحث الأول**: التثريب: التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَضْرِبْهَا الْحَدَّ وَلاَ يُثَرِّبْهَا»(١) أي ولا يعيرها بالزنا، فقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ أي لا توبيخ ولا عيب وأصل التثريب: من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد، قال عطاء الخراساني: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لإخوته ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ وقوله يعقوب: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف: ٩٨].

**البحث الثاني**: إن قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ متعلق بماذا.

**وفيه قولان:**

**القول الأول**: إنه متعلق بقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ أي لا أُثَرِّبُكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الأيام، وفيه احتمال آخر وهو أني حكمت في هذا اليوم بأن لا تثريب مطلقًا لأن قوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ نفي للماهية ونفي الماهية يقتضي انتفاء جميع أفراد الماهية، فكان ذلك مفيدًا للنفي المتناول لكل الأوقات والأحوال فتقدير الكلام: اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الأوقات والأحوال ثم إنه لما بيّن لهم أنه أزال عنهم ملامة الدنيا طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ والمراد منه الدعاء.

**والقول الثاني**: أن قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ كأنه لما نفى التثريب مطلقًا بشرهم بأن الله غفر ذنبهم في هذا اليوم، وذلك لأنهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالله قَبِل توبتهم وغفر ذنبهم، فلذلك قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح، وقال لقريش: «مَا تَرَوْنِي فَاعِلاً بِكُمْ» فقالوا نظن خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال: «أَقُولُ مَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت رسول الله ﷺ فاتل عليه: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ففعل، فقال رسول الله ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِمَنْ عَلَّمَكَ»(٢) وروي أن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه إنك تحضرنا في مائدتك بكرة وعشيًا ونحن نستحي منك لما صدر منا من الإساءة إليك، فقال يوسف عليه السلام: إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرونني بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلّغ عبدًا بيع بعشرين درهمًا ما بلغ، ولقد شرفت الآن بإتيانكم وعظمت في العيون لما جئتم وعلم الناس أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه السلام.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (البيوع) باب (بيع العبد الزاني) (٤/ ٤٣٢) حديث رقم/ ٢١٥٢، ومسلم في كتاب (الحدود) باب (رجم اليهود أهل الذمة في الزنى) (٣/ ٣٠/ ١٣٢٨). من طريق أبي سعيد المقبري... به.

(٢) أورده الزيلعي في (تخريج أحاديث وآثار تفسير الكشاف) (٢/ ١٧٩)، وقال: غريب جدًا.

**ثم قال يوسف عليه السلام:** ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ قال المفسرون: لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه فقالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه، قال المحققون: إنما عرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك، لأن العقل لا يدل عليه ويمكن أن يقال: لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فإذا ألقى عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد، وذلك يقوي الروح ويزيل الضعف عن القوي، فحينئذ يقوى بصره، ويزول عنه ذلك النقصان، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى، وقوله: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يصير بصيرًا ويشهد له ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] ويقال: المراد يأت إلي وهو بصير، وإنما أفرده بالذكر تعظيمًا له، وقال في الباقين: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال الكلبي: كان أهله نحوًا من سبعين إنسانًا وقال مسروق: دخل قوم يوسف عليه السلام مصر. وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة، وروي أن يهودا حمل الكتاب وقال: أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته. وقيل: حمله وهو حاف وحاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

**يقال:** فصل فلان من عند فلان فصولاً إذا خرج من عنده. وفصل مني إليه كتابًا إذا أنفذ به إليه. وفصل يكون لازمًا ومتعديًا وإذا كان لازمًا فمصدره الفصول وإذا كان متعديًا فمصدره الفصل قال: لما خرجت العير من مصر متوجهة إلى كنعان قال يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ولم يكن هذا القول مع أولاده لأنهم كانوا غائبين بدليل أنه عليه السلام قال لهم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] واختلفوا في قدر المسافة فقيل: مسيرة ثمانية أيام، وقيل عشرة أيام، وقيل ثمانون فرسخًا. واختلفوا في كيفية وصول تلك الرائحة إليه، فقال مجاهد: هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فمن ثم قال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وروى الواحدي بإسناده عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: أما قوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟

بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] فإن نمروذ الجبار لما ألقى إبراهيم في النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص إسحاق وكساه إسحاق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله في قصبة من فضة وعلقها في عنقه فألقى في الجب والقميص في عنقه فذلك قوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ (١) والتحقيق أن يقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات لأن وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لأحدهما والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي، فظهر أن الأمر كما ذكر فكان معجزة له.
قال أهل المعاني: إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل، ومعنى: لأجد ريح يوسف أشم وعبر عنه بالوجود لأنه وجدان له بحاسة الشم، وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال أبو بكر ابن الأنباري: أفند الرجل إذا حزن وتغير عقله وفند إذا جهل ونسب ذلك إليه، وعن الأصمعي إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفند قال صاحب (الكشاف): يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي حتى تفند في كبرها فقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الخرف، ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ وفي الضلال هاهنا وجوه:

**الأول:** قال مقاتل: يعني بالضلال هاهنا الشقاء، يعني شقاء الدنيا والمعنى: إنك لفي شقائك القديم بما تكابد من الأحزان على يوسف، واحتج مقاتل بقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤] يعنون لفي شقاء دنيانا، وقال قتادة: لفي ضلالك القديم، أي لفي حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه وهو كقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨] ثم قال قتادة: قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبي الله، وقال الحسن: إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات وقد كان يعقوب في ولوعه بذكره ذاهبًا عن الرشد والصواب وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ في (أن) قولان: الأول: أنه لا موضع لها من الإعراب وقد تذكر تارة كما هاهنا، وقد تحذف كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ [هود: ٧٤] والمذهبان جميعًا موجودان في أشعار العرب.
والثاني: قال البصريون: هي مع (ما) في موضع رفع بالفعل المضمر تقديره: فلما ظهر أن جاء البشير، أي ظهر مجيء البشير فأضمر الرافع، قال جمهور المفسرين: البشير هو يهودا قال: أنا

---

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بدون إسناد.

ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت: إن يوسف أكله الذئب فأذهب اليوم بالقميص فأفرحه كما أحزنته قوله: ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو يقال: ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي رجع بصيرًا ومعنى الارتداد انقلاب الشيء إلى حالة قد كان عليها وقوله: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي صيره الله بصيرًا كما يقال: طالت النخلة والله تعالى أطالها واختلفوا فيه، فقال بعضهم: إنه كان قد عمي بالكلية فالله تعالى جعله بصيرًا في هذا الوقت. وقال آخرون: بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان، فلما ألقوا القميص على وجهه، وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه، فعند ذلك قوي بصره وزال النقصان عنه، فعند هذا قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا، لأن هذا المعنى هو الذي له تعلق بما تقدم، وهو إشارة إلى ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] روي أنه سأل البشير وقال: كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال: على دين الإسلام قال: الآن تمت النعمة، ثم إن أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وظاهر الكلام أنه لم يستغفر لهم في الحال، بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك، واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه:

**الأول:** قال ابن عباس رضي الله عنهما والأكثرون: أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر، لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابة.

**الثاني:** قال ابن عباس رضي الله عنهما: في رواية أخرى أخر الاستغفار إلى ليلة الجمعة، لأنها أوفق الأوقات للإجابة.

**الثالث:** أراد أن يعرف أنهم هل تابوا في الحقيقة أم لا، وهل حصلت توبتهم مقرونة بالإخلاص التام أم لا.

**الرابع:** استغفر لهم في الحال، وقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ معناه أني أداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل، فقد روي أنه كان يستغفر لهم في كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت فلما فرغ رفع يده إلى السماء وقال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَزَعِي عَلَى يُوسُفَ وَقِلَّةَ صَبْرِي عَلَيْهِ، وَاغْفِرْ لِأَوْلَادِي مَا فَعَلُوهُ فِي حَقِّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ**» فأوحى الله تعالى إليه: قد غفرت لك ولهم أجمعين. وروي أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء: ما يغني عنا إن لم يغفر لنا، فاستقبل الشيخ القبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا أنها الهلكة فنزل جبريل عليه السلام وقال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجَابَ دَعْوَتَكَ فِي وَلَدِكَ وَعَقَدَ مَوَاثِيقَهُمْ بَعْدَكَ عَلَى النُّبُوَّةِ**» وقد اختلف الناس في نبوتهم وهو مشهور.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

اعلم أنه روي أن يوسف عليه السلام وجه إلى أبيه جهازًا ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه وخرج يوسف عليه السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم تلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشي يتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهودا هذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك فقال يعقوب عليه السلام: السلام عليك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلًا سوى الصبيان والشيوخ.

**أما قوله:** ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾

**ففيه بحثان:**

البحث الأول: في المراد بقوله أبويه قولان: الأول: المراد أبوه وأمه، وعلى هذا القول فقيل إن أمه كانت باقية حية إلى ذلك الوقت، وقيل: إنها كانت قد ماتت، إلا أن الله تعالى أحياها وأنشرها من قبرها حتى سجدت له تحقيقًا لرؤيا يوسف عليه السلام.

والقول الثاني: أن المراد أبوه وخالته، لأن أمه ماتت في النفاس بأخيه بنيامين، وقيل: بنيامين بالعبرانية ابن الوجع، ولما ماتت أمه تزوج أبوه بخالته فسماها الله تعالى بأحد الأبوين، لأن الرابة تدعى، أمًّا لقيامها مقام الأم أو لأن الخالة أم كما أن العم أب، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

البحث الثاني: آوى إليه أبويه ضمهما إليهما واعتنقهما.

**فإن قيل:** ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟

**قلنا:** كأنه حين استقبلهم نزل بهم في بيت هناك أو خيمة فدخلوا عليه وضم إليه أبويه وقال لهم: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ ﴾ .

**أما قوله:** ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ .

**ففيه أبحاث:**

البحث الأول: قال السدي: إنه قال هذا القول قبل دخولهم مصر؛ لأنه كان قد استقبلهم

وهذا هو الذي قررناه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ أي أقيموا بها آمنين، سمى الإقامة دخولاً لاقتران أحدهما بالآخر.

البحث الثاني: الاستثناء وهو قول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾

**فيه قولان:**

**الأول:** أنه عائد إلى الأمن لا إلى الدخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقيل: إنه عائد إلى الدخول على القول الذي ذكرناه أنه قال لهم هذا الكلام قبل أن دخلوا مصر.

البحث الثالث: معنى قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ يعني على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحدًا، وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر وقيل: آمنين من القحط والشدة والفاقة، وقيل: آمنين من أن يضرهم يوسف بالجرم السالف.

**أما قوله:** ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال أهل اللغة: العرش: السرير الرفيع قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣] والمراد بالعرش هاهنا السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، وأما قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ ففيه إشكال، وذلك لأن يعقوب عليه السلام كان أبا يوسف وحق الأبوة عظيم قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] فقرن حق الوالدين بحق نفسه، وأيضًا أنه كان شيخًا، والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ.

والقول الثالث[1]: أنه كان من أكابر الأنبياء ويوسف وإن كان نبيًّا إلا أن يعقوب كان أعلى حالاً منه.

والقول الرابع: أن جد يعقوب واجتهاده في تكثير الطاعات أكثر من جد يوسف ولما اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب أن يبالغ يوسف في خدمة يعقوب فكيف استجاز يوسف أن يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: وهو قول ابن عباس في رواية عطاء أن المراد بهذه الآية أنهم خروا له أي لأجل وجدانه سجدًا لله تعالى، وحاصل الكلام: أن ذلك السجود كان سجودًا للشكر فالمسجود له هو الله، إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير، ثم سجدوا له، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل في التواضع.

**فإن قالوا:** فهذا التأويل لا يطابق قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ والمراد منه قوله: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

---

(١) القول الأول: كون يعقوب عليه السلام أبا يوسف والقول الثاني كونه شيخًا.

قلنا: بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] لأجلي أي أنها سجدت لله لطلب مصلحتي وللسعي في إعلاء منصبي، وإذا كان هذا محتملاً سقط السؤال. وعندي أن هذا التأويل متعين، لأنه لا يستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة.

والوجه الثاني: في الجواب أن يقال: إنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرًا لنعمة وجدانه. وهذا التأويل حسن فإنه يقال: صليت للكعبة كما يقال: صليت إلى الكعبة. قال حسان شعرًا:

مَا كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ مُنْصَرِفٌ ... عَنْ هَاشِمٍ ثُمَّ مِنْهَا عَنْ أَبِي حَسَنِ

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لِقِبْلَتِكُمْ ... وَأَعْرَفَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال فلان صلى للقبلة، وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبلة وقوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكرًا لنعمة وجدانه.

الوجه الثالث: في الجواب قد يسمى التواضع سجودًا كقوله:

تَرَى الْأُكْمَ فِيهَا سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ (١)

وكان المراد هاهنا التواضع إلا أن هذا مشكل، لأنه تعالى قال: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ والخرور إلى السجدة مشعر بالإتيان بالسجدة على أكمل الوجوه وأجيب عنه بأن الخرور قد يعنى به المرور فقط قال تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] يعني لم يمروا.

الوجه الرابع: في الجواب أن نقول: الضمير في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ غير عائد إلى الأبوين لا محالة، وإلا لقال: وخروا له ساجدين، بل الضمير عائد إلى إخوته، وإلى سائر من كان يدخل عليه لأجل التهنئة، والتقدير: ورفع أبويه على العرش مبالغة في تعظيمهما، وأما الإخوة وسائر الداخلين فخروا له ساجدين.

فإن قالوا: فهذا لا يلائم قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾.

قلنا: إن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقًا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر، تعبير عن تعظيم الأكابر من الناس له ولا شك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له، فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا فأما أن يكون التعبير مساويًا لأصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجبه أحد من العقلاء.

الوجه الخامس في الجواب: لعل الفعل الدال على التحية والإكرام في ذلك الوقت هو السجود، وكان مقصودهم من السجود تعظيمه، وهذا في غاية البعد لأن المبالغة في التعظيم كانت أليق بيوسف منها بيعقوب، فلو كان الأمر كما قلتم، لكان من الواجب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام.

---

(١) هذا البيت لزيد الخيل وتقدمت ترجمته.

والوجه السادس فيه: أن يقال: لعل إخوته حملتهم الأنفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع، وعلم يعقوب عليه السلام أنهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببًا لثوران الفتن ولظهور الأحقاد القديمة بعد كمونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الأبوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود، حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببًا لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى أن السلطان الكبير إذا نصب محتسبًا فإذا أراد ترتيبه مكنه في إقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببًا في أن لا يبقى في قلب أحد منازعة ذلك المحتسب في إقامة الحسبة فكذا هاهنا.

الوجه السابع: لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو، ويوسف ما كان راضيًا بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت.

ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ وفيه بحثان:

البحث الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه لما رأى سجود أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه، وقال ليعقوب: هذا تأويل رؤياي من قبل، وأقول: هذا يقوي الجواب السابع كأنه يقول: يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أمرت به وتكليف كلفت به، فإن رؤيا الأنبياء حق كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سببًا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببًا لوجوب ذلك السجود، فلهذا السبب حكى ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما رأى ذلك هاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيئًا، وأقول: لا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كأنه قيل له: إنك كنت دائم الرغبة في وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه، فإذا وجدته فاسجد له، فكان الأمر بذلك السجود من تمام التشديد. والله أعلم بحقائق الأمور.

البحث الثاني: اختلفوا في مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقيل ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقيل: أربعون، وهو قول الأكثرين، ولذلك يقولون: إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة، وقيل ثماني عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقي في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وبقي في العبودية والسجون ثمانين سنة، ثم وصل إلى أبيه وأقاربه، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله أعلم بحقائق الأمور.

ثم قال: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ أي إلي، يقال: أحسن بي وإليَّ. قال كثير:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةٌ ... لـديـنـا ولا مـقـلـيـة إن تـقـلـت(١)

(١) هذا البيت لكثير عزة وتقدمت ترجمته.

إذا أخرجني من السجن ولم يذكر إخراجه من البئر لوجوه:

**الأول:** أنه قال لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريبًا لهم فكان إهماله جاريًا مجري الكرم.

**الثاني:** أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكًا بل صيروه عبدًا، أما لما خرج من السجن صيروه ملكًا فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعامًا كاملاً.

**الثالث:** أنه لما أخرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب إلى المنفعة.

**الرابع:** قال الواحدي: النعمة في إخراجه من السجن أعظم لأن دخوله في السجن كان بسبب ذنب هم به، وهذا ينبغي أن يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس، وهذا وإن كان في محل العفو في حق غيره إلا أنه ربما كان سببًا للمؤاخذة في حقه لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

**ثم قال:** ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

**وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في الآية قولان:

القول الأول: جاء بكم من البدو أي من البادية، وقال الواحدي: البدو بسيط من الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوًا، ثم سمي المكان باسم المصدر فيقال: بدو وحضر، وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواشٍ وبرية.

والقول الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما كان يعقوب قد تحول إلى بدا وسكنها، ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها، قال ابن الأنباري: بدا اسم موضع معروف يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميعًا كثير فقال:

وأنت التي حببت شعبا إِلَى بَدَا إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِلَادٌ سِوَاهُمَا

فالبدو على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذي يقال: له بدا يقال بدا القوم يبدون بدوا إذا أتوا بدًا كما يقال: غار القوم غورًا إذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم من قصد بدا، وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لأن البدو لم يرد به البادية لكن عنى به قصد بدا إلى هاهنا كلام قاله الواحدي في (البسيط).

المسألة الثانية: تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى، لأن خروج العبد من السجن أضافه إلى نفسه بقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ومجيئهم من البدو وأضافه إلى نفسه سبحانه بقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ وهذا صريح في أن فعل العبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على أن المراد أن ذلك إنما حصل بإقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر.

**ثم قال:** ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ قال صاحب (الكشاف): (نَزَغَ) أفسد بيننا وأغوى وأصله من نزغ الراكض الدابة وحملها على الجري: يقال: نزغه ونسغه إذا نخسه.

واعلم أن الجبائي والكعبي والقاضي : احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا: لأنه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام أنه أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان، ولو كان ذلك أيضًا من الرحمن لوجب أن لا ينسب إلا إليه كما في النعم .

والجواب : أن إضافته هذا الفعل إلى الشيطان مجاز، لأن عندكم الشيطان لا يتمكن من الكلام الخفي وقد أخبر الله عنه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] فثبت أن ظاهر القرآن يقتضي إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مع أنه ليس كذلك . وأيضًا فإن كان إقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فإقدام الشيطان على المعصية إن كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وإن لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله في حق الإنسان، فثبت أن إقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس أيضًا بسبب نفسه لأن أحدًا لا يميل طبعه إلى اختيار الجهل والفسق الذي يوجب وقوعه في ذم الدنيا وعقاب الآخرة، ولما كان وقوعه في الكفر والفسق لا بد له من موقع، وقد بطل القسمان لم يبق إلا أن يقال ذلك من الله تعالى، ثم الذي يؤكد ذلك أن الآية المتقدمة على هذه الآية وهي قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ صريح في أن الكل من الله تعالى.

**ثم قال:** ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فإذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول .

**ثم قال:** ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أعني أن كونه لطيفًا في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها فيكون عالمًا بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك الصعب وحكيم أي محكم في فعله، حاكم في قضائه، حكيم في أفعاله مبرأ عن العبث والباطل والله أعلم .

## قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

**في الآية مسائل:**

المسألة الأولى : روي أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح، فلما أدخله مخازن القراطيس قال: يا بني ما أغفلك، عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل قال: نهاني جبريل عليه السلام عنه قال: سله عن السبب قال: أنت أبسط إليه فسأله فقال جبريل عليه

السلام: أمرني الله بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتني وروي أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعًا وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى إليه أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنة، فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت. وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر في دفنه كل أحد يحب أن يُدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن الأصلح أن يعملوا له صندوقًا من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه في النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل إلى مصر لتصل بركته إلى كل أحد، وولد له افرائيم وميشا، وولد لافرانيم نون ولنون يوشع فتى موسى، ثم دفن يوسف هناك إلى أن بعث الله موسى فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه.

المسألة الثانية: (من) في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ للتبعيض، لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل. قال الأصم: إنما قال من الملك، لأنه كان ذو ملك فوقه.

**واعلم أن مراتب الموجودات ثلاثة:** المؤثر الذي لا يتأثر وهو الإله تعالى وتقدس، والمتأثر الذي لا يؤثر وهو عالم الأجسام، فإنها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والأعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير في شيء أصلًا، وهذان القسمان متباعدان جدًا ويتوسطهما قسم ثالث، وهو الذي يؤثر ويتأثر، وهو عالم الأرواح، فخاصية جوهر الأرواح أنها تقبل الأثر والتصرف عن عالم نور جلال الله، ثم إنها إذا أقبلت على عالم الأجسام تصرفت فيه وأثرت فيه، فتعلق الروح بعالم الأجسام بالتصرف والتدبير فيه، وتعلقه بعالم الإلهيات بالعلم والمعرفة. وقوله تعالى: ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ إشارة إلى تعلق النفس بعالم الأجسام وقوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ إشارة إلى تعلقها بحضرة جلال الله، ولما كان لا نهاية لدرجات هذين النوعين في الكمال والنقصان والقوة والضعف والجلاء والخفاء، امتنع أن يحصل منهما للإنسان إلا مقدار متناه، فكان الحاصل في الحقيقة بعضًا من أبعاض الملك، وبعضًا من أبعاض العلم، فلهذا السبب ذكر فيه كلمة (من) لأنها دالة على التبعيض، ثم قال: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

**وفيه أبحاث:**

البحث الأول: في تفسير لفظ الفاطر بحسب اللغة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري معنى الفاطر حتى احتكم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها. قال أهل اللغة: أصل الفطر في اللغة الشق يقال: فطر ناب البعير إذ بدا وفطرت الشيء فانفطر، أي شققته فانشق، وتفطرت الأرض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت، هذا أصله في اللغة، ثم صار عبارة عن الإيجاد، لأن ذلك الشيء حال عدمه كأنه في ظلمة وخفاء فلما دخل في الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشيء منه.

البحث الثاني: أن لفظ (الفاطر) قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشيء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذي ذكرناه، إلا أن الحق أنه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه: أحدها: أنه قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] ثم بيَّن تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض. وثانيها: أنه قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب. قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] وثالثها: أن الشيء إنما يكون حاصلاً عند حصول مادته وصورته مثل الكوز، فإنه إنما يكون موجودًا إذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودًا، وبإيجاد تلك الصورة صار موجدًا لذلك الكوز فعلمنا أن كونه موجدًا للكوز لا يقتضي كونه موجدًا لمادة الكوز، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجدًا للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض، وإنما صار إلينا كونه موجدًا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن.

**واعلم أن قوله:** ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] يوهم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الأرض عند من يقول: الواو تفيد الترتيب، ثم العقل يؤكده أيضًا، وذلك لأن تعين المحيط يوجب تعين المركز وتعينه فإنه لا يوجب تعين المحيط، لأنه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لا نهاية لها، أما لا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد إلا مركز واحد بعينه. وأيضًا اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والأرض واحدة، ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

البحث الثالث: قال الزجاج: نصبه من وجهين: أحدهما: على الصفة لقوله: ﴿رَبِّ﴾ وهو نداء مضاف في موضع النصب. والثاني: يجوز أن ينصب على نداء ثان.

**ثم قال:** ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ والمعنى: أنت الذي تتولى إصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة فوصل الملك الفاني بالملك الباقي، وهذا يدل على أن الإيمان والطاعة كلمة من الله تعالى إذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولي لمصالحه هو هو، وحينئذ يبطل عموم قوله: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

**ثم قال:** ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** اعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**» فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلا بد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فهاهنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ونظيره ما فعله الخليل صلوات الله عليه في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] من هنا إلى قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٨٣] ثناء على الله ثم قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾ إلى آخر الكلام دعاء فكذا هاهنا.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ هل هو طلب منه للوفاة أم لا؟ فقال قتادة: سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله، وكثير من المفسرين على هذا القول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في رواية عطاء يريد إذا توفيتني فتوفني على دين الإسلام، فهذا طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام وليس فيه ما يدل على أنه طلب الوفاة.

واعلم أن اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد في الرجل العاقل إذا كمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها: أن كمال النفس الإنسانية على ما بيناه في أن يكون عالمًا بالإلهيات، وفي أن يكون ملكًا ومالكًا متصرفًا في الجسمانيات، وذكرنا أن مراتب التفاوت في هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس إلا لله وكل ما دون ذلك فهو ناقص والناقص إذا حصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقي في القلق وألم الطلب، وإذا كان الكمال المطلق ليس إلا لله، وما كان حصوله للإنسان ممتنعًا لزم أن يبقى الإنسان أبدًا في قلق الطلب وألم التعب فإذا عرف الإنسان هذه الحالة عرف أنه لا سبيل له إلى دفع هذا التعب عن النفس إلا بالموت، فحينئذ يتمنى الموت.

**والسبب الثاني:** لتمنى الموت أن الخطباء والبلغاء وإن أطنبوا في مذمة الدنيا إلا أن حاصل كلامهم يرجع إلى أمور ثلاثة: **أحدها:** أن هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها. **وثانيها:** أنها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات. **وثالثها:** أن الأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها بل ربما كان حصة الأراذل أعظم بكثير من حصة الأفاضل، فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات، ولما عرف العاقل أنه لا سبيل إلى تحصيل هذه اللذات إلا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لا جرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات.

**والسبب الثالث:** وهو الأقوى عند المحققين رحمهم الله أجمعين أن هذه اللذات الجسمانية لا حقيقة لها، وإنما حاصلها دفع الآلام، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع، ولذة الوقاع عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المني في أوعية المني. ولذة الإمارة والرياسة عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة وإذا كان حاصل هذه اللذات ليس إلا دفع الألم لا جرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الإنسان الموت ليتخلص عن الاحتياج إلى هذه الأحوال الخسيسة.

**والسبب الرابع:** أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة أنواع: لذة الأكل ولذة الوقاع ولذة

الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة. أما لذة الأكل ففيها عيوب:

**أحدها:** أن هذه اللذات ليست قوية فإن الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه أشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام.

**وثانيها:** أن هذه اللذة لا يمكن بقاؤها فإن الإنسان إذا أكل شبع وإذا شبع لم يبق شوقه للالتذاذ بالأكل فهذه اللذة ضعيفة، ومع ضعفها غير باقية.

**وثالثها:** أنها في نفسها خسيسة فإن الأكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولا شك أنه شيء منفر مستقذر ثم لما يصل إلى المعدة تظهر فيه الاستحالة إلى الفساد والنتن والعفونة، وذلك أيضًا منفر.

**ورابعها:** أن جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة فيها فإن الروث في مذاق الجعل كاللوزنيج في مذاق الإنسان وكما أن الإنسان يكره تناول غذاء الجعل، فكذلك الجعل يكره تناول غذاء الإنسان، وأما اللذة فمشتركة فيما بين الناس.

**وخامسها:** أن الأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة والحاجة نقص وافر.

**وسادسها:** أن الأكل يستحقر عند العقلاء. قيل: من كان همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه، فهذا هو الإشارة المختصرة في معايب الأكل، وأما لذة النكاح، فكل ما ذكرناه في الأكل حاصل هاهنا مع أشياء أخرى، وهي أن النكاح سبب لحصول الولد، وحينئذ تكثر الأشخاص فتكثر الحاجة إلى المال فيحتاج الإنسان بسببها إلى الاحتيال في طلب المال بطرق لا نهاية لها، وربما صار هالكًا سبب طلب المال، وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة والذي نذكره هاهنا سبب واحد وهو أن كل أحد يكره بالطبع أن يكون خادمًا مأمورًا ويحب أن يكون مخدومًا آمرًا، فإذا سعى الإنسان في أن يصير رئيسًا آمرًا كان ذلك دالاً على مخالفة كل ما سواه، فكأنه ينازع كل الخلق في ذلك، وهو يحاول تحصيل تلك الرياسة، وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون إبطاله ودفعه، ولا شك أن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر وإذا كان كذلك كان حصول هذه الرياسة كالمعتذر ولو حصل فإنه يكون على شرف الزوال في كل حين وأوان بكل سبب من الأسباب وكان صاحبها عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال وعند زوالها في الأسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال.

واعلم أن العاقل إذا تأمل هذه المعاني علم قطعًا أنه لا صلاح له في طلب هذه اللذات والسعي في هذه الخيرات ألبتة. ثم إن النفس خلقت مجبولة على طلبها، والعشق الشديد عليها، والرغبة التامة في الوصول إليها وحينئذ ينعقد هاهنا قياف، وهو أن الإنسان ما دام يكون في هذه الحياة الجسمانية فإنه يكون طالبًا لهذه اللذات وما دام يطلبها كان في عين الآفات وفي لجة الحسرات، وهذا اللازم مكروه فالملزوم أيضًا مكروه فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية والسبب في الأمور المرغبة في الموت أن موجبات هذه اللذة الجسمانية متكررة ولا

يمكن الزيادة عليها والتكرير يوجب الملالة أما سعادات الآخرة فهي أنواع كثيرة غير متناهية.

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمة الله عليه وهو مصنف هذا الكتاب أنار الله برهانه. أنا صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها، ولو فتحت الباب وبالغت في عيوب هذه اللذات الجسمانية فربما كتبت المجلدات وما وصلت إلى القليل منها فلهذا السبب صرت مواظبًا في أكثر الأوقات على ذكر هذا الذي ذكره يوسف عليه السلام وهو قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

المسألة الثالثة: تمسك أصحابنا في بيان أن الإيمان من الله تعالى بقوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ وتقريره أن تحصيل الإسلام وإبقاءه إذا كان من العبد كان طلبه من الله فاسدًا وتقريره كأنه يقول افعل يا من لا يفعل والمعتزلة أبدًا يشنعون علينا ويقولون: إذا كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقال للعبد افعل مع أنك لست فاعلاً، فنحن نقول هاهنا أيضًا إذا كان تحصيل الإيمان وإبقاؤه من العبد لا من الله تعالى، فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائي والكعبي معناه: اطلب اللطف لي في الإقامة على الإسلام إلى أن أموت عليه. فهذا الجواب ضعيف لأن السؤال وقع على الإسلام فحمله على اللطف عدول عن الظاهر وأيضًا كل ما في المقدور من الألطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالاً.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الإسلام، فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وأنه لا يجوز.

والجواب: أحسن ما قيل فيه إن كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الإسلام ويرضى بقضاء الله وقدره، ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب في هذا الباب، وهذه الحالة زائدة على الإسلام الذي هو ضد الكفر، فالمطلوب هاهنا هو الإسلام بهذا المعنى.

المسألة الخامسة: أن يوسف عليه السلام كان من أكابر الأنبياء عليهم السلام، والصلاح أول درجات المؤمنين، فالواصل إلى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين: يعني بآبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والمعنى: ألحقني بهم في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم، وهاهنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات، وهو أن النفوس المفارقة أذا أشرقت بالأنوار الإلهية واللوامع القدسية، فإذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذي في كل واحدة منها إلى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة، فتعظم تلك الأنوار وتقوى تلك الأضواء، ومثال تلك الأحوال المرآة الصقيلة الصافية إذا وضعت وضعًا متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها إلى الأخرى، فهناك يقوى الضوء ويكمل النور، وينتهي في الإشراق والبريق واللمعان إلى حد لا تطيقه العيون والأبصار الضعيفة، فكذا هاهنا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ و﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر ثان ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي ما كنت عند إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي عزموا على أمرهم وذكرنا الكلام في هذا اللفظ عند قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾[يونس: ٧١] وقوله: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي بيوسف، واعلم أن المقصد من هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزًا. بيان إنه إخبار عن الغيب أن محمدًا ﷺ ما طالع الكتب ولم يتلمذ لأحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فإتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم، ومن غير أن يقال: إنه كان حاضرًا معهم لا بد وأن يكون معجزًا وكيف يكون معجزًا وقد سبق تقرير هذه المقدمة في هذا الكتاب مرارًا، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي وما كنت هناك ذكر على سبيل التهكم بهم، لأن كل أحد يعلم أن محمدًا ﷺ ما كان معهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعنت، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها فربما آمنوا، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦] قال أبو بكر بن الأنباري: جواب (لو) محذوف، لأن جواب (لو) لا يكون مقدمًا عليها فلا يجوز أن يقال قمت لو قمت. وقال الفراء في (المصادر) يقال: حَرَص يَحْرِصُ حِرْصًا، ولغة أخرى شاذة: حَرِصَ يَحْرَصُ حَرِيصًا. ومعنى الحرص: طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد. وقوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ معناه ظاهر وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هو تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات، ومعناه: أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم مالاً ولا جعلاً، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا. وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يعني: أنه لا عجب إذا لم

يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها.

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لابد وأن تكون من أمور محسوسة، وهي إما الأجرام الفلكية وإما الأجرام العنصرية، أما الأجرام الفلكية: فهي قسمان: إما الأفلاك وإما الكواكب. أما الأفلاك: فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته، وقد يستدل بأحوال حركاتها إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات. وأما الأجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها أحيازها وحركاتها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور، وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية: فإما أن تكون مأخوذة من بسائط، وهي عجائب البر والبحر، وإما من المواليد وهي أقسام:

**أحدها:** الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح.

**وثانيها:** المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها.

**وثالثها:** النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة.

**ورابعها:** اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها.

**وخامسها:** تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الإنسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل. ومن هذا الباب أيضًا قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوي على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشري لا يفي بالإحاطة به فلهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الإبهام قال صاحب (الكشاف) قرئ (والأرضُ) بالرفع على أنه مبتدأ و﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ خبره وقرأ السدي (والأرضَ) بالنصب على تقدير أن يفسر قوله: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ بقولنا يطوفونها، وفي مصحف عبدالله (والأرض يمشون عليها) برفع الأرض.

**أما قوله:** ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فالمعنى: أنهم كانوا مقرين بوجود الإله بدليل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكًا في المعبودية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه أيضًا أنه قال: نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب لأنهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وعنه أيضًا أن أهل مكة قالوا: الله ربنا وحده لا شريك له

والملائكة بناته فلم يوحدوا، بل أشركوا، وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده.

وقالت اليهود: ربنا الله وحده وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله، وقال عبدة الشمس والقمر: ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا، وقال المهاجرون والأنصار: ربنا الله وحده ولا شريك معه، واحتجت الكرامية بهذه الآية على أن الإيمان عبارة عن الإقرار باللسان فقط، لأنه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع أنهم مشركون، وذلك يدل على أن الإيمان عبارة عن مجرد الإقرار باللسان، وجوابه معلوم، أما قوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ أي فجأة. وبغتة نصب على الحال يقال: بغتهم الأمر بغتًا وبغتة إذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ كالتأكيد لقوله: ﴿بَغۡتَةٗ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

**قال المفسرون:** قل يا محمد لهم هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها سبيلي وسنتي ومنهاجي، وسمي الدين سبيلاً لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥].

واعلم أن السبيل في أصل اللغة: الطريق، وشبهوا المعتقدات بها لما أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ وحجة وبرهان ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ إلى سيرتي وطريقتي وسيرة أتباعي الدعوة إلى الله، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال عليه الصلاة والسلام: «**الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللَّه مِنْ حَيْثُ يَحْفَظُونَ لِمَا تَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ**»(١).

وقيل أيضًا يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثم ابتدأ وقال: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.

وقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عطف على قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ أي قل: هذه سبيلي وقل سبحان الله تنزيهًا لله عما يشركون ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الذين اتخذوا مع الله ضدًا وندًا وكفؤًا وولدًا، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

---

(١) أخرجه القزويني في (التدوين) (٢/ ٤٤٥). من طريق إبراهيم بن رستم المروزي حديث أبو حفص الآبار عن إسماعيل بن سميع عن أنس. . . بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾

اعلم أنه قرأ حفص عن عاصم ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنون، والباقون بالياء (أفلا يعقلون) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، ورواية حفص عن عاصم: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، والباقون: بالياء على الغائب.

واعلم أن من جملة شِبَه منكري نبوته عليه الصلاة والسلام أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكًا، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ فلما كان الكل هكذا فكيف تعجبوا في حقك يا محمد والآية تدل على أن الله ما بعث رسولاً إلى الخلق من النسوان وأيضًا لم يبعث رسولاً من أهل البادية. قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ بَدَا جَفَا وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ»

**ثم قال:** ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة وقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ والمعنى دار الحالة الآخرة، لأن للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة، ومثله قوله صلاة الأولى أي صلاة الفريضة الأولى، وأما بيان أن الآخرة خير من الأولى فقد ذكرنا دلائله مرارًا.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

اعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف وكسر الذال، والباقون بالتشديد، ومعنى التخفيف من وجهين: أحدهما: أن الظن واقع بالقوم، أي حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر.

**فإن قيل:** لم يجر فيما سبق ذكر المرسل إليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير إليهم.

**قلنا:** ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم وإن شئت قلت أن ذكرهم جرى في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾[يوسف: ١٠٩] فيكون الضمير عائدًا إلى الذين من قبلهم من مكذبي الرسل والظن هاهنا بمعنى التوهم والحسبان.

والوجه الثاني: أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قالوا: وإنما كان الأمر كذلك لأجل ضعف البشرية إلا أنه بعيد، لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب، بل يخرج بذلك عن الإيمان فكيف يجوز مثله على الرسل، وأما قراءة التشديد ففيها وجهان: الأول: أن الظن بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيبًا لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك، فحينئذ دعوا عليهم

فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال، وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] أي يتيقنون ذلك. والثاني: أن يكون الظن بمعنى الحسبان، والتقدير حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم، وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية، روي أن ابن أبي مليكة نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: وظن الرسل أنهم كذبوا، لأنهم كانوا بشرًا ألا ترى إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] قال فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فأنكرته وقالت: ما وعد الله محمدًا ﷺ شيئًا إلا وقد علم أنه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالأنبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة.

وأما قوله: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي لما بلغ الحال إلى الحد المذكور ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ قرأ عاصم وابن عامر ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله، واختاره أبو عبيدة لأنه في المصحف بنون واحدة. وروي عن الكسائي: إدغام إحدى النونين في الأخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء، قال بعضهم: هذا خطأ لأن النون متحركة فلا تدغم في الساكن، ولا يجوز إدغام النون في الجيم، والباقون بنونين، وتخفيف الجيم وسكون الياء على معنى: ونحن نفعل بهم ذلك.

واعلم أن هذا حكاية حال، ألا ترى أن القصة فيما مضى، وإنما حكى فعل الحال كما أن قوله: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥] إشارة إلى الحاضر والقصة ماضية.

**قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، والمراد منه التأمل والتفكر، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور:

الأول: أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة، لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته.

الثاني: أن الإخبار عنه جار مجرى الإخبار عن الغيب، فيكون معجزة دالة على صدق محمد ﷺ، الثالث: أنه ذكر في أول السورة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] ثم ذكر في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تنبيهًا على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة. والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه

السلام وإخوته وأبيه، ومن الناس من قال: المراد قصص الرسل لأنه تقدم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل إلا أن الأولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام.

**فإن قيل:** لم قال: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مع أن قوم محمد ﷺ كانوا ذوي عقول وأحلام، وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك.

**قلنا:** إن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار، والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل، أو نقول: المراد من أولي الألباب الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها وانتفعوا بمعرفتها، لأن (أولى الألباب) لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق إلا بما ذكرناه، واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات.

الصفة الأولى: كونها ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقد سبق تقريره.

الصفة الثانية: قوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾.

**وفيه قولان:**

**الأول:** أن المراد الذي جاء به وهو محمد ﷺ لا يصح منه أن يفترى لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفتري هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت.

**والثاني:** أن المراد أنه ليس يكذب في نفسه، لأنه لا يصح الكذب منه، ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة وسائر الكتب الإلهية، ونصب تصديقًا على تقدير ولكن كان تصديق الذي بين يديه كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠] قاله الفراء والزجاج، ثم قال: ويجوز رفعه في قياس النحو على معنى: ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

**وفيه قولان:**

**الأول:** المراد وتفصيل كل شيء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته.

**والثاني:** أنه عائد إلى القرآن، كقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] فإن جعل هذا الوصف وصفًا لكل القرآن أليق من جعله وصفًا لقصة يوسف وحدها، ويكون المراد: ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين. قال الواحدي على التفسيرين جميعًا: فهو من العام الذي أريد به الخاص كقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] يريد: كل شيء يجوز أن يدخل فيها وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

الصفة الرابعة والخامسة: كونها هدى في الدنيا وسببًا لحصول الرحمة في القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كما قررناه في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والله

أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان، ختم بالخير والرضوان، سنة إحدى وستمائة، وقد كنت ضيق الصدر جدًّا بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران وخصه بدرجات الفضل والإحسان وذكرت هذه الأبيات في مرثيته على سبيل الإيجاز:

فَلَوْ كَانَتِ الأَقْدَارُ مُنْقَادَةً لَنَا ... فَدَيْنَاكَ مِنْ حِمَاكَ بِالرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وَلَوْ كَانَتِ الأَمْلاَكُ تأخذ رِشْوَةً ... خَضَعْنَا لَهَا بِالرِّقِّ فِي الْحُكْمِ وَالاِسْمِ
وَلَكِنَّهُ حُكْمٌ إِذَا حَانَ حِينُهُ ... سَرَى مِنْ مَقَرِّ الْعَرْشِ فِي لُجَّةِ الْيَمِّ
سَأَبْكِي عَلَيْكَ الْعُمْرَ بِالدَّمِ دَائِمًا ... وَلَمْ أَنْحَرِفْ عَنْ ذَاكَ فِي الْكَيْفِ وَالْكَمِّ
سَلاَمٌ عَلَى قَبْرٍ دُفِنْتَ بِتُرْبِهِ ... وَأَتْحَفَكَ الرَّحْمَنُ بِالْكَرَمِ الْجَمِّ
وَمَا صَدَّنِي عَنْ جَعْلِ جَفْنِي مَدْفَنًا ... لِجِسْمِكَ إِلاَّ أَنَّهُ أَبَدًا يَهْمِي
وَأُقْسِمُ إِنْ مَسُّوا رُفَاتِي وَرِمَّتِي ... أَحَسُّوا بِنَارِ الْحُزْنِ فِي مَكْمَنِ الْعَظْمِ
حَيَاتِي وَمَوْتِي وَاحِدٌ بَعْدَ بُعْدِكُمْ ... بَلِ الْمَوْتُ أَوْلَى مِنْ مُدَاوَمَةِ الْغَمِّ
رَضِيتُ بِمَا أَمْضَى الإِلَهُ بِحُكْمِهِ ... لِعِلْمِي بِأَنِّي لاَ يُجَاوِزُنِي حُكْمِي

وأنا أوصي من طالع كتابي واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية أن يخص ولدي ويخصني بقراءة الفاتحة، ويدعو لمن قد مات في غربة بعيدًا عن الإخوان والأب والأم بالرحمة والمغفرة فإني كنت أيضًا كثير الدعاء لمن فعل ذلك في حقي وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا آمين والحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# سورة يوسف عليه السلام

وهي مكيَّةٌ كلُّها. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا أربعَ آيات منها[١]. ورُويَ أنَّ اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فنزلت السُّورة، وسيأتي[٢].

وقال سعد بن أبي وقَّاص: أُنزِل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو قصَصْت علينا، فنزل: [﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إلى قوله:] ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو حدَّثْتنا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣][٣].

قال العلماء: وذكر الله أقاصيصَ الأنبياء في القرآن وكرَّرها بمعنًى واحدٍ في وجوهٍ مختلفة، بألفاظٍ متباينةٍ على درجاتِ البلاغة، وقد ذكر قصَّة يوسف ولم يكرِّرها، فلم يَقْدِر مخالفٌ على معارضة ما تكرَّر، ولا على معارضةِ غيرِ المتكرِّر، والإعجازُ لمن تأمَّل.

**قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾**

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ تقدَّم القولُ فيه[٤]، والتقدير هنا: «تلك آياتُ الكتاب» على

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥ .

(٢) ص٢٤٢ و٢٥٩ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه البزار (١١٥٢) و(١١٥٣)، وأبو يعلى (٧٤٠)، والطبري ١٣/ ٨ ، وابن حبان (٦٢٠٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٣ ، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٤) ١/ ٢٣٧ وما بعدها ، و ١٠/ ٤٤٥ - ٤٤٦ .

الابتداء والخبر[١]. وقيل: «الٓر» اسمُ السورة، أي: هذه السورةُ المسماة «الٓر».

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني بالكتاب المبين: القرآن المبين، أي: المبيَّن حلالُه وحرامه، وحدودُه وأحكامه، وهُداه وبركته[٢].

وقيل: أي: هذه تلك الآياتُ التي كنتم توعَدون بها في التّوراة[٣].

**قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾**

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يجوز أن يكون المعنى: إنَّا أنزلنا القرآن عربيًّا[٤]، نصب «قرآناً» على الحال، أي: مجموعاً، و«عربيًّا» نعتٌ لقوله «قرآناً». ويجوز أنْ يكون توطئةً للحال، كما تقول: مررتُ بزيدٍ رجلاً صالحاً، و«عربيًّا» على الحال، أي: يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب. [ومعنى] أَعْرَبَ: بَيَّنَ، ومنه: «الثَّيِّبُ تُعرِبُ عن نفسها»[٥].

﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعلموا معانيَه، وتفهموا ما فيه[٦]. وبعضُ العرب يأتي بأنْ مع «لعل» تشبيهاً بعسى. واللام في «لعل» زائدةٌ للتوكيد، كما قال الشاعر:

يـا أَبـتَـا عَـلَّـكَ أَوْ عَـسَـاكـا[٧]

وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي: لتكونوا على رجاءٍ من تَدَبُّره، فيعود معنى الشَّكِّ إليهم لا إلى الكتاب، ولا إلى الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٧ ، وللنحاس ٣/ ٣٩٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقوله: «الثيب تعرب...» قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٧٧٢٢)، وابن ماجه (١٨٧٢) من طريق عدي بن عدي الكندي عن أبيه.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٨ .

(٧) الرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص١٨١ ، والكتاب ٢/ ٣٧٥ ، والخزانة ٥/ ٣٦٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ ، والكلام منه.

وقيل: معنى «أَنْزَلْنَاهُ»، أي: أنزلنا خبر يوسف؛ قال النحاس[١]: وهذا أشبهُ بالمعنى؛ لأنه يُروى أنَّ اليهود قالوا: سَلُوه لِمَ انتقل آلُ يعقوبَ من الشَّام إلى مصر، وعن خبر يوسف. فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ هذا بمكة موافقاً لمَا في التوراة، وفيه زيادةٌ ليست عندهم. فكان هذا للنبيِّ ﷺ ـ إذْ أخبرهم ولم يكنْ يقرأ كتاباً قطُّ ولا هو في موضع كتاب ـ بمنزلةِ إحياءِ عيسى عليه السلام الميِّتَ، على ما يأتي فيه[٢].

**قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾**

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ابتداءٌ وخبر. ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ بمعنى المصدر، والتقدير: قصصاً[٣] أحسنَ القَصَص.

وأصلُ القَصَص: تتبُّع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي: تتبَّعي أثرَه، فالقاصُّ يتبع[٤] الآثار فيُخْبِرُ بها. والحُسْنُ يعود إلى القَصَص لا إلى القصَّة. يقال: فلانٌ حَسَنُ الاقتصاص للحديث؛ أي: جيِّدُ السِّيَاقةِ له. وقيل: القَصَص ليس مصدراً، بل هو في معنى الاسم، كما يقال: الله رجاؤنا، أي: مرجوُّنا، فالمعنى على هذا: نحن نخبرك بأحسن الأخبار[٥].

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: بوحينا، فـ«ما» مع الفعل بمنزلة المصدر. ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ نصب القرآن على أنَّه نعتٌ لـ«هذا»، أو بدلٌ منه، أو عطفُ بيان[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٦.

(٢) ص٢٥٩ من هذا الجزء.

(٣) في (د) و(ز) و(م): قصصنا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠، والكلام منه.

(٤) في (ظ): فالقصاص يتتبع.

(٥) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٨٥.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، وضعَّف ابن عطية كونه عطف بيان.

وأجاز الفراء الخفضَ؛ قال: على التكرير[١]. وهو عند البصريين على البدل من «ما»[٢]. وأجازَ أبو إسحاق[٣] الرفعَ على إضمارِ مبتدأ؛ كأنَّ سائلاً سأله عن الوحي فقيل له: هو هذا القرآن[٤]. ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: من الغافلين عمّا عرَّفْناكَه[٥].

**مسألة:** واختلف العلماء لِمَ سُمِّيتْ هذه السورة أحسنَ القَصَص من بين سائر الأقاصيص؟

فقيل: لأنَّه ليست قصةٌ في القرآن تتضمَّن من العِبر والحكم ما تتضمَّن هذه القصّة، وبيانُه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الآية: ١١١].

وقيل: سمَّاها أحسنَ القَصص لحُسْنِ مجازاةِ[٦] يوسفَ إخوتَه[٧]، وصَبْرِه على أذاهم، وعَفْوِه عنهم ـ بعد الالتقاء بهم ـ عن ذكر ما تعاطَوْه [معه]، وكرمِه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وقيل: لأنَّ فيها ذِكْرَ الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجنِّ والإنس، والأنعام والطير، وسيرَ الملوك والمماليك[٨] والتجّار، والعلماء والجُهّال،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ ، وقال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٨٨ : فيكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن. ولا تقرأنَّ بها.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٨٨ .

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): هو القرآن، وفي (ف) ومعاني القرآن للزجاج: هذا القرآن، والمثبت من (م).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ .

(٦) في النسخ الخطية: محاوزة، وفي (م): مجاوزة، والمثبت من عرائس المجالس ص١١٠ ، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) في (م): عن إخوته.

(٨) في (م): الممالك.

والرِّجال والنِّساء وحِيَلهنَّ ومَكْرهنَّ، وفيها ذكر التَّوحيد والفقه[١] والسِّيَر، وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجُمَل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقيل: لأنَّ فيها ذكرَ الحبيب والمحبوب وسِيَرِهما. وقيل: «أَحْسَنَ» هنا بمعنى: أعْجبَ.

وقال بعضُ أهل المعاني: إنَّما كانت أحسنَ القَصَص لأنَّ كلَّ مَن ذُكر فيها كان مآلُه السعادةَ؛ انظر إلى يوسفَ وأبيه وإخوته، وامرأةِ العزيز: قيل: والمَلِكُ أيضاً أسلمَ بيوسفَ وحَسُن إسلامه، ومُسْتعبِرُ الرؤيا الساقي، والشاهدُ فيما يقال[٢]، فما كان أمرُ الجميع إلَّا إلى خير.

**قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ «إِذْ» في موضع نصبٍ على الظرف، أي: اذكر لهم حين قال يوسف. وقراءةُ العامة بضمِّ السين. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «يُؤْسِف» بالهمز وكَسْرِ السين. وحكى أبو زيد: «يؤسَف» بالهمز وفتح السين. ولم ينصرف لأنَّه أعجميّ[٣]. وقيل: هو عربيّ[٤].

وسئل أبو الحسن الأقطعُ ـ وكان حكيماً ـ عن «يوسف» فقال: الأسفُ في اللغة الحزن؛ والأسِيفُ: العبد، وقد اجتمعا في يوسفَ؛ فلذلك سُمِّي يوسف[٥].

---

(١) في عرائس المجالس: والعفة.

(٢) وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف:٢٦].

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ ، وينظر القراءات الشاذة ص٦٢ .

(٤) ذكره الزمخشري ٢/ ٣٠١ وقال: وليس بصَحيح؛ لأنه لو كان عربيًّا لانصرف، لخُلُوِّه عن سببٍ آخَرَ سوى التعريف.

(٥) عرائس المجالس ص١١٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٩ .

﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاء، قراءةُ أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي[١]، وهي عند البصريين علامةُ التأنيث؛ أُدخلت على الأب في النداء خاصةً بدلاً من ياء الإضافة، وقد تدخل علامةُ التأنيث على المذكَّر فيقال: رجل نُكَحَة وهُزأة[٢]؛ قال النحاس[٣]: إذا قلت: «يَا أَبَتِ» بكسر التاء، فالتاءُ عند سيبويه[٤] بدلٌ من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقفُ إلَّا بالهاء، وله على قوله دلائلُ؛ منها: أنَّ قولك: «يا أبه» يؤدِّي عن معنى «يا أبي»، وأنَّه لا يقال: «يا أبه»[٥] إلَّا في المعرفة، ولا يقال: جاءني أبةٌ، ولا تستعمل العربُ هذا إلَّا في النداء خاصة، ولا يقال: «يا أبتي»؛ لأنَّ التاء بدلٌ من الياء فلا يُجمع بينهما.

وزعم الفراء[٦] أنَّه إذا قال: يَا أَبتِ ـ فكَسَر ـ وَقَفَ على التاء[٧] لا غير؛ لأنَّ الياء في النية. وزعم أبو إسحاق[٨] أنَّ هذا خطأٌ، والحقُّ ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: يا أبتي؟!

وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبدُ الله بن عامر: «يا أبَتَ» بفتح التاء[٩]؛ قال البصريون: أرادوا: يا أبتي بالياء، ثم أُبدلت الياءُ ألفاً فصارت: يا أبتا، فحُذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء[١٠].

---

(١) وقرأ بها أيضاً ابن كثير. السبعة ص٣٤٤، والتيسير ص٦٠ و ١٢٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٩ بنحوه.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠.

(٤) ينظر الكتاب ٢/ ٢١٠ - ٢١١.

(٥) في (م): يا أبت، وكذا اللفظة بعدها، والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٢.

(٧) في (م): دل على الياء.

(٨) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٨٩.

(٩) السبعة ص٣٤٤، والتيسير ص١٢٧ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن ابن عامر وأبي جعفر، وذكرها عنهم جميعاً النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠.

(١٠) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٠.

وقيل: الأصلُ الكسر، ثم أُبدل من الكسرة فتحةٌ، كما يُبدَل من الياء ألف؛ فيقال [في: يا غلامي أَقْبِل]: يا غلاماً أقبل[١]. وأجاز الفراء[٢]: «يا أبتُ» بضمِّ التاء.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ليس بين النحويين اختلافٌ أنَّه يقال: جاءني أحدَ عَشَرَ، ومررتُ بأحَدَ عَشَرَ، وكذلك ثلاثةَ عَشَرَ وتسعةَ عَشَرَ وما بينهما؛ جعلوا الاسمين اسماً واحداً وأعربوهما بأخفِّ الحركات[٣].

قال السُّهيليُّ[٤]: أسماءُ هذه الكواكب جاء ذِكْرُها مُسْنَداً؛ رواه الحارث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة[٥] ـ وهو رجلٌ من أهل الكتاب ـ فسأل النبيَّ ﷺ عن الأَحَدَ عَشَرَ كوكباً الذي رأى يوسفُ، فقال: «الحرثان وطارق والذيال وقابِس والنطح والطروح وذو الكنفان وذو الفرع والفَيلق ووَثَّاب والعَمُودَان، رآها يوسف عليه السلام تسجد له»[٦].

قال ابن عباس وقَتَادة وابن جريج[٧]: الكواكبُ إخوته، والشمس أُمُّه، والقمر أبوه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٢.

(٤) في التعريف والإعلام ص٧٩.

(٥) في النسخ الخطية: بستان، والمثبت من (م) وهو الموافق لبعض مصادر التخريج على ما يأتي، ووقع في التعريف والإعلام وبعض المصادر: بستاني.

(٦) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١١١ - تفسير)، والبزار (٢٢٢٠ - كشف)، والطبري ١٣/ ١٠، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢٥٠ - ٢٥١، والعقيلي في الضعفاء ١/ ٢٥٩، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٢٧٧، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٠) واختلفت أسماء الكواكب في المصادر اختلافاً كثيراً، وقد أثبتنا ما اتفقت عليه غالب نسخنا وكان موافقاً للتعريف والإعلام وبعض مصادر التخريج.

قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. وقال ابن حبان: هذا حديث لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ. قال العقيلي: لا يصح من هذا المتن عن النبي ﷺ شيء من وجه يثبت. وينظر الفوائد المجموعة ص٤٦٤.

(٧) قوله: وابن جريج، من (ظ)، وقد أخرج قولهم الطبري ١٣/ ١٢ - ١٣.

وقال قتادة أيضاً: الشمسُ خالته؛ لأنَّ أمَّه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه[(١)].

﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ توكيد. وقال: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» فجاء مذكَّراً، فالقولُ عند الخليل وسيبويه أنَّه لمَّا أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسّجود وهما من أفعال مَن يَعْقِلُ أخبر عنها كما يخبر عمَّن يعقل[(٢)]. وقد تقدَّم هذا المعنى في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٩٨]. والعربُ تَجمع ما لا يَعقِل جَمْعَ مَن يعقل إذا أنزلوه منزلتَه، وإنْ كان خارجاً عن الأصل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

**فيه إحدى عشرة مسألة:**

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ﴾ أي: يحتالوا في هلاكك؛ لأنَّ تأويلها ظاهر، فربما يحملهم الشيطان على قَصْدِكَ بسوءٍ حينئذٍ. واللامُ في «لك» تأكيدٌ، كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[(٣)].

**الثانية**: الرؤيا حالةٌ شريفة، ومنزلةٌ رفيعة؛ قال ﷺ: «لم يَبْقَ بعدي من المبشِّرات إلَّا الرؤيا الصالحةُ الصادقة يراها الرجلُ الصالح، أو تُرى له»[(٤)]. وقال «أَصْدَقُكم رؤيا أَصْدَقُكم حديثاً»[(٥)]. وحَكَم ﷺ بأنَّها: «جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوَّة»[(٦)].

---

(١) ذكره البغوي ٢/ ٤٠٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٣، وينظر البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٣.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ١٤ - ١٥. وينظر أيضاً ما سلف ص١١٩ من هذا الجزء.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٦٤٢)، ومسلم (٢٢٦٣): (٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) قطعة من الحديث الذي قبله. وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٠٣٧)، والبخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٦٩٧)، والبخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث عبادة ابن الصامت ﷺ وأخرجه البخاري (٦٩٨٨) عن أبي هريرة ﷺ، و(٦٩٨٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ. وينظر التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٨٠.

ورُوي: «من سبعين جزءاً من النبوَّة»[١]. ورُوي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة»[٢]. ومن حديث ابن عمرو[٣]: «جزءٌ من تسعةٍ وأربعين جزءاً». ومن حديث العباس: «جزءٌ من خمسين جزءاً من النبوَّة»[٤]. ومن حديث أنس: «من ستةٍ وعشرين»[٥] وعن عُبادة بن الصّامت: «من أربعةٍ وأربعين من النبوَّة»[٦].

والصحيحُ منها حديثُ الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديثُ السبعين؛ ولم يُخرِّج مسلمٌ في صحيحه غيرَ هذين الحديثين، أمَّا سائرُها فمِن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بَطَّال[٧].

قال أبو عبد الله المازَريُّ: والأكثر والأصحُّ عند أهل الحديث: «من ستة وأربعين»[٨].

قال الطَّبريّ: والصواب أنْ يقال: إنَّ عامَّةَ هذه الأحاديث أو أكثرَها صحاحٌ، ولكلِّ حديثٍ منها مخرجٌ معقول؛ فأمَّا قوله: «إنَّها جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوَّة»

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٢٨٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره عن ابن عباس القاضي عياض في إكمال المعلم ٧/ ٢١١ ، وأبو العباس في المفهم ٦/ ١٢ ، وابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٣ ، وعزاه ابن حجر للطبري ، وأخرجه أحمد (١٦١٨٣)، والترمذي (٢٢٧٨) وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٣ من حديث أبي رزين العُقَيلي ﷺ.

(٣) في النسخ: ابن عمر، والمثبت من إكمال المعلم ٧/ ٢١١ ، وكذلك أخرجه أحمد (٧٠٤٤)، والطبري ١٢/ ٢١٨ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مطولاً البزار (٢١٢٤ - كشف)، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨١ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٧٢ - ١٧٣ : فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٢ وقال: حسن الإسناد.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٢١٨ ، وضعَّف إسناده ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨١ .

(٧) ذكر قول ابن بطال أيضاً ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٥ .

(٨) المفهم ٦/ ١٢ ، وينظر المعلم للمازري ٣/ ١١٧ - ١١٨ .

فإنَّ ذلك قولٌ عامٌّ في كلِّ رؤيا صالحةٍ صادقة، ولكلِّ مسلمٍ رآها في منامه على أي أحواله كان. وأما قوله: إنَّها من أربعين أو ستةٍ وأربعين؛ فإنَّه يريد بذلك مَن كان صاحبُها بالحال التي ذُكِرت عن الصدِّيق ـ ﷺ ـ أنَّه كان بها؛ فَمَن كان من أهلِ إسباغِ الوضوء في السَّبَرات[1]، والصبرِ في الله على المكروهات، وانتظارِ الصَّلاة بعد الصَّلاة، فرؤياه الصالحةُ ـ إن شاء الله ـ جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة، ومَن كانت حالُه في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقةُ بين الجزءين؛ ما بين الأربعين إلى السِّتِّين[2]، لا تَنقصُ عن سبعين، وتزيد على الأربعين.

وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بنُ عبد البر[3] فقال: اختلافُ الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلافَ تضادٍّ وتدافُعٍ والله أعلم؛ لأنَّه يَحتمل أنْ تكون الرؤيا الصالحةُ من بعض مَن يراها على حَسَب ما يكون من صِدْقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، والدِّين المتين، وحُسْنِ اليقين؛ فعلى قَدْرِ اختلاف النَّاس فيما وَصَفْنا تكونُ الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خَلَصت[4] له نيَّته في عبادة ربِّه ويقينه وصدق حديثه، كانت رُؤْياه أصدق، وإلى النبوَّة أقرب، كما أنَّ الأنبياءَ يتفاضلون [والنبوة كذلك]؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

قلت: فهذا التأويل يجمعُ شتاتَ الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضِها دون بعض وطَرْحِه.

ذكر أبو سعيد الأسْفاقُسِي[5] عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله: «جزءٌ من ستةٍ

(١) جمع سَبْرة بسكون الباء، وهي شدة البرد. النهاية (سبر).

(٢) كذا وقع، ولعل الصواب: السبعين وقد نقل كلام الطبري بنحوه المازري في المعلم ٣/ ١١٨، وأبو العباس في المفهم ٦/ ١٥ - ١٦ وابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٥.

(٣) في التمهيد ١/ ٢٨٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(ظ) و(ف): حصلت.

(٥) ذكره ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٤ بلفظ: السفاقسي، ونقل كلامه عن ابن بطال، وما سيرد بين حاصرتين منه.

وأربعين جزءاً من النبوّة» فإنَّ الله تعالى أوحى إلى محمدٍ ﷺ [في المنام ستةَ أشهر، ثم أوحى إليه بعد ذلك] في النبوّة ثلاثةً وعشرين عاماً ـ فيما رواه عكرمةُ وعمرو بنُ دينار عن ابنِ عباس رضي الله تعالى عنهما[١] ـ فإذا نَسَبْنا ستةَ أشهرٍ من ثلاثةٍ وعشرين عاماً، وَجَدْنا ذلك جزءاً من ستةٍ وأربعين جزءاً.

وإلى هذا القول أشار المازَريُّ في كتابه «المعلم»[٢]، واختاره الغزنويّ[٣] في تفسيره من سورة يونس، عند قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية: ٦٤]. وهو فاسدٌ من وجهين:

أحدهما: ما رواه أبو سَلَمةَ عن ابن عباس وعائشةَ: بأنَّ مدَّة الوحي كانت عشرين سنة[٤]، وأنَّ النبيَّ ﷺ بُعِثَ على رأس أربعين، فأقام بمكَّةَ عَشْرَ سنين؛ وهو قول عروة والشعبيِّ وابنِ شهابٍ والحسن وعطاءِ الخراسانيِّ، وسعيد بن المسيِّب على اختلافٍ عنه، وهي روايةُ ربيعة وأبي غالب عن أنس[٥]، وإذا ثبت هذا الاختلافُ[٦] بطَل ذلك التأويل.

الثاني: أنَّ سائر الأحاديث في الأجزاءِ المختلفة تبقى بغير معنى.

**الثالثة**: إنَّما كانت الرؤيا جزءاً من النبوّة؛ لأنَّ فيها ما يُعجز ويَمتنع، كالطيران وقلبِ الأعيان، والاطِّلاع على شيءٍ من علم الغيب، كما قال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) رواية عكرمة عن ابن عباس عند أحمد (٢٢٤٢) والبخاري (٣٨٥١). ورواية عمرو بن دينار عن ابن عباس عند مسلم (٢٣٥١).

(٢) ٣/ ١١٧ .

(٣) في (م): القونوي، وفي (د): القرنوي، وفي (ظ): العزيزي، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٩٦)، والبخاري (٤٤٦٤ ، ٤٤٦٥) بلفظ: أنَّ النبيَّ ﷺ لبث بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً.

(٥) التمهيد ٣/ ١٦ ، ورواية ربيعة (وهو ابن أبي عبد الرحمن) عن أنس عند أحمد (١٣٥١٩)، والبخاري (٣٥٤٧) ومسلم (٢٣٤٧). ورواية أبي غالب عن أنس عند أحمد (١٢٥٢٩)، وينظر التمهيد ٣/ ٩-١٢ .

(٦) في (م): الحديث، وفي (د) و(ف): الخلاف.

«إنَّه لم يبقَ من مبشِّرات النبوَّة إلا الرؤيا الصَّادقةَ في النوم» الحديث[١]. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقةَ من الله، وإنَّها من النبوَّة؛ قال ﷺ: «الرؤيا من الله، والحُلُم من الشيطان»[٢]. وإنَّ التصديقَ بها حقٌّ، ولها التأويلُ الحَسَنُ، وربَّما أغنى بعضُها عن التأويل، وفيها من بديع [حكمة] الله ولُطْفِه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلافَ في هذا بين أهل الدين والحقِّ من أهل الرأي والأثر، ولا يُنكر الرؤيا إلَّا أهلُ الإلحاد، وشِرذمةٌ من المعتزلة[٣].

**الرابعة**: إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقةُ جزءاً من النبوَّة؛ فكيف يكون الكافر والكاذب والمُخلِّط أهلاً لها؟ وقد وقعت من بعض الكفَّار وغيرِهم ممن لا يُرضى دينُه مناماتٌ صحيحةٌ صادقة؛ كمنام رؤيا الملِك الذي رأى سبْعَ بقرات، ومنامِ الفَتَيَيْن في السجن، ورؤيا بُخْتنَصَّر، التي فسَّرها دانيال في ذهاب مُلكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبيِّ ﷺ[٤]، ومنامِ عاتكةَ عمَّةِ رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة[٥]. وقد ترجم البخاريُّ: باب رؤيا أهل السجن[٦].

فالجواب: أنَّ الكافرَ والفاجر والفاسق والكاذب، وإنْ صدقت رؤياهم في بعض الأوقات، لا تكون من الوحي ولا من النبوَّة؛ إذْ ليس كلُّ مَن صَدَقَ في حديث عن غيبٍ يكون خبرُه ذلك نبوَّةً؛ وقد تقدَّم في «الأنعام»[٧] أنَّ الكاهن وغيرَه قد يخبر

(١) سلف في المسألة الثانية.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٥٢٥)، والبخاري (٣٢٩٢)، ومسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة ﷺ.

(٣) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وينظر خبر هذه الرؤيا في تاريخ الطبري ٢/ ١٦٦ ، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٢٦-١٢٩ ، والبداية والنهاية ٣/ ٣٩٥ .

(٥) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وخبر رؤيا عاتكة في سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٧ عن ابن إسحاق قال: أخبرني مَن لا أتَّهم عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس. ويزيد بن رومان، عن عروة قال: وقد رأت عاتكة، وذكر الخبر مطولاً.

(٦) صحيح البخاري، قبل الحديث (٦٩٩٢) بلفظ: باب رؤيا أهل السجون والفساد والشرك.

(٧) ٨/ ٤٠٥ .

بكلمة الحقِّ فيَصْدُق، لكنَّ ذلك على النُّدور والقلَّة، فكذلك رؤيا هؤلاء[١].

قال المهلَّب: إنَّما ترجمَ البخاريُّ بهذا لجواز أنْ تكون رؤيا أهل الشِّرك رؤيا صادقةً، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنَّه لا يجوز أنْ تُضاف إلى النبوَّة إضافةَ رؤيا المؤمنِ إليها؛ إذ ليس كلُّ ما يصحُّ له تأويلٌ من الرؤيا حقيقةً يكون جزءاً من النبوَّة.

**الخامسة**: الرؤيا المضافةُ إلى الله تعالى هي التي خَلَصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلُها موافقاً لِمَا في اللوح المحفوظ. والتي هي من حَيِّز[٢] الأضغاث هي الحُلُم، وهي المضافةُ إلى الشيطان، وإنَّما سُمِّيت ضِغثاً لأنَّ فيها أشياءَ متضادَّة؛ قال معناه المهلَّب.

وقد قَسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساماً تغني عن قول كلِّ قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا ثلاثةٌ؛ منها أهاويلُ الشيطان ليُحزِن ابن آدم، ومنها ما يَهُمُّ[٣] به في يَقَظَتِه، فيراه في منامه، ومنها جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة». قال: قلتُ: سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! سمعتُه من رسول الله ﷺ[٤].

**السادسة**: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدرُ: رأى في المنام رؤيا، على وزن فُعلى، كالسُّقْيا والبُشْرى، وأَلِفُه للتأنيث؛ ولذلك لم ينصرف[٥].

وقد اختلفَ العلماءُ في حقيقة الرؤيا؛ فقيل: هي إدراكٌ في أجزاء لم تحلَّها آفةٌ،

---

(١) المفهم ٦/ ١٣ .

(٢) في النسخ عدا (ز): خبر، والمثبت من (ز).

(٣) في (ظ) و(م): يهتم، وفي (ف): هم، والمثبت من (د) و(ز) والمصادر على ما يأتي.

(٤) التمهيد ١/ ٢٨٥ - ٢٨٦ ، والحديث أخرجه ابن ماجه (٣٩٠٧)، وابن حبان (٦٠٤٢). والسائل في آخر الحديث هو مسلم بن مشكم، وهو الذي رواه عن عوف ﷺ.

(٥) المفهم ٦/ ٥ .

كالنوم المستغرق وغيره، ولهذا أكثرُ ما تكون الرؤيا في آخِر الليل؛ لقلَّة غَلَبةِ النوم، فيخلق الله تعالى للرائي عِلْماً ناشِئاً، ويخلقُ له الذي يراه على ما يراه ليصحَّ الإدراك.

قال ابن العربيّ[1]: ولا يَرى في المنام إلا ما يصحُّ إدراكُه في اليقظة؛ ولذلك لا يرى في المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال، وإنَّما يَرى الجائزاتِ [الخارقةَ للعادات، أو الأشياءَ] المعتادات.

وقيل: إنَّ لله مَلكاً يعرضُ المرئيَّات على المحلِّ المدرِك من النائم، فيمثِّل له صوراً محسوسة، فتارةً تكون تلك الصور أمثلةً مُوافِقةً لمَا يقعُ في الوُجُود، وتارةً تكون [أمثلة] لمعانٍ[2] معقولةٍ غيرِ محسوسة، وفي الحالتين تكون مُبشِّرة أو مُنذرة؛ قال ﷺ في «صحيح» مسلم وغيره: «رأيتُ سوداءَ ثائرةَ الرأسِ تَخرجُ من المدينة إلى مَهْيَعةَ، فأوَّلتُها الحُمَّى»[3]. و«رأيتُ سيفي قد انقطع صدرُه، وبَقَراً تُنْحَر. فأوَّلْتُهما: رجلٌ من أهل بيتي يُقتل، والبقرُ نَفَرٌ من أصحابي يُقتلون»[4]. و«رأيتُ أنِّي أَدْخَلتُ يدي في دِرعٍ حصِينة؛ فأوَّلتُها المدينة»[5]. و«رأيت في يدَيَّ سِوَارين؛ فأوَّلْتُهما كذَّابَيْن يَخرجان بعدي»[6]. إلى غير ذلك مما ضُربتْ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلاً[7]، ومنها

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦١، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في (د): المعاني، وفي (ز): معاني، وفي (ظ) و(ف) و(م): لمعاني، والمثبت من المفهم ٦/ ٧ والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٣) لم نقف عليه عند مسلم، وأخرجه أحمد (٥٨٤٩)، والبخاري (٧٠٣٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ومهيعة: اسم الجحفة، وهي ميقات أهل الشام. النهاية (مهيع).

(٤) ذكر المصنف لفظ هذا الحديث والذي قبله نقلاً عن ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٢ وقد أخرجه بمعناه البخاري (٣٦٢٢) ومسلم (٧٢٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ مطولاً. وأخرجه أحمد (١٣٨٢٥)، والبزار (٢١٣١ - كشف) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٧٨٧) من حديث جابر ﷺ.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢، وأخرجه مطولاً دون قوله: «أدخلت يدي» أحمد (٢٤٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و(١٤٧٨٧) من حديث جابر ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢، وأخرجه بأطول مما هنا البخاري (٣٦٢١)، ومسلم (٢٢٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) بعدها في النسخ عدا (ظ): فأولاً، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢، والكلام منه.

ما لا يظهر إلَّا بعد الفِكْر. وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقراً فأوَّلها يوسفُ السنين، ورأى أَحَدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ فأوَّلَها بإخوته وأبويه.

**السابعة**: إن قيل: إنَّ يوسف عليه السلام كان صغيراً وَقْتَ رؤياه، والصغيرُ لا حُكْمَ لفِعْلِه، فكيف تكون له رؤيا لها حُكْمٌ حتى يقول له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾؟

فالجواب: أنَّ الرؤيا إدراكُ حقيقةٍ على ما قدَّمناه، فتكونُ من الصغير كما يكون منه الإدراكُ الحقيقيُّ في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صُدِّق، فكذلك إذا أخبر عمَا يرى في المنام[١]. وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنَّها وُجدت كما رأى، فلا اعتراض. رُوي أنَّ يوسفَ عليه السلام كان ابن اثنتي عَشْرةَ سنة[٢].

**الثامنة**: هذه الآيةُ أصلٌ في ألَّا تُقَصَّ الرؤيا على غير شفيقٍ ولا ناصح، ولا على مَن لا يُحسِن التأويل فيها؛ روى أبو رَزِين العُقَيليُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الرؤيا جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة، والرؤيا معلَّقةٌ برِجْلِ طائرٍ ما لم يحدِّث بها صاحبُها، فإذا حدَّث بها وقعتْ، فلا تُحدِّثوا بها إلَّا عاقلاً أو مُحِبًّا أو ناصحاً» أخرجه الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح، وأبو رَزِين اسمُه لَقِيط بنُ عامر[٣].

وقيل لمالك: أيعبُر الرؤيا كلُّ أحد؟ فقال: أَبِالنبوَّةِ يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبُر الرؤيا إلَّا مَن يُحْسِنُها، فإنْ رأى خيراً أخبر به، وإنْ رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت. قيل: فهل يعبُرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول مَن قال: إنَّها على ما أُوِّلت[٤] عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزءٌ من النبوَّة فلا يُتَلاعب بالنبوَّة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ - ١٠٦٣ .

(٢) عرائس المجالس ص١١٢ عن ابن وهب.

(٣) سنن الترمذي (٢٢٧٨)، وأخرجه أحمد (١٦١٨٣)، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٣ واللفظ له.

(٤) في (د) و(ز) و(م): تأولت، وفي (ظ): تأول، وفي (ف): تويلت، والمثبت من التمهيد ١/ ٢٨٨ ، والكلام منه.

**التاسعة**: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ مباحاً[١] أنْ يُحذِّر المسلمُ أخاه المسلم ممن يَخافُه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغِيبة؛ لأنَّ يعقوبَ عليه السلام قد حذَّر يوسفَ أنْ يَقُصَّ رؤياه على إخوته فيَكيدوا له كيداً.

وفيها أيضاً ما يدلُّ على جوازِ تركِ إظهارِ النعمة عند مَن تُخشى غائلتُه حسداً وكيداً؛ وقال النبيُّ ﷺ: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود»[٢].

وفيها أيضاً دليلٌ واضحٌ على معرفة يعقوبَ عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنَّه عَلم من تأويلها أنَّه سيظهرُ عليهم، ولم يبالِ بذلك من نفسه؛ فإنَّ الرجل يودُّ أنْ يكون ولدُه خيراً منه، والأخُ لا يودُّ ذلك لأخيه[٣].

ويدلُّ أيضاً على أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان أحسَّ من بنيه حسدَ يوسف وبُغْضَتَه، فنهاه عن قَصَص الرؤيا عليهم خوفَ أنْ تَغِلَّ بذلك صدورُهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه، ومن هنا ومن فِعْلِهم بيوسف يدلُّ على أنَّهم كانوا غيرَ أنبياءَ في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبريِّ لابن زيد أنَّهم كانوا أنبياء، وهذا يردُّه القطعُ بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنياويِّ، وعن عقوق الآباء، وتعريضِ مؤمنٍ للهلاك، والتآمرِ في قتله[٤]، ولا التفاتَ لقولِ مَن قال: إنَّهم كانوا أنبياء، ولا يستحيلُ في العقل زلَّةُ نبيٍّ، إلَّا أنَّ هذه الزلَّة قد جمعت أنواعاً من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم

---

(١) في (ظ): على أنه يباح.

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٩، والحديث أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص١٨٧، والسهمي في تاريخ جرجان ص٢٢٣ من حديث أبي هريرة ﷺ. وروي الحديث أيضاً عن معاذ ﷺ كما في الضعفاء للعقيلي ٢/ ١٠٨، والكامل لابن عدي ٢/ ٧٧٠ - ٧٧١ و٣/ ١٢٤٠، وأخبار أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٢١٧ والموضوعات لابن الجوزي (٨٨٩) و(٨٩٠). وعن ابن عباس كما في المجروحين لابن حبان ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥، والموضوعات (٨٩١) و(٨٩٢). قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٠، وخبر ابن زيد في تفسير الطبري ١٣/ ١٣.

منها، وإنَّما اختلفوا في الصغائر على ما تقدَّم ويأتي[(١)].

**العاشرة**: روى البخاريّ[(٢)] عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لم يبقَ من النبوَّة إلا المبشِّرات» قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحةُ». وهذا الحديث بظاهره يدلُّ على أنَّ الرؤيا بشرى على الإطلاق، وليس كذلك؛ فإنَّ الرؤيا الصادقةَ قد تكون منذِرةً من قِبَل الله تعالى لا تَسُرُّ رائيها، وإنَّما يُريها الله تعالى المؤمنَ رفقاً به ورحمة، ليستعدَّ لنزول البلاء قبل وقوعه[(٣)]؛ فإنْ أدرك تأويلها بنفسه، وإلَّا سأل عنها مَن له أهليَّةُ ذلك. وقد رأى الشافعيُّ ﷺ وهو بمصرَ رؤيا لأحمدَ بن حَنْبل تدلُّ على مِحنته، فكتبَ إليه بذلك ليستعدَّ لذلك[(٤)].

وقد تقدَّم في «يونس» في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية: ٦٤] أنَّها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاريِّ مَخرجُه على الأغلب[(٥)]، والله أعلم.

**الحادية عشرة**: روى البخاريُّ[(٦)] عن أبي سَلَمة قال: لقد كنتُ أرى الرؤيا فتُمْرِضُني، حتى سمعتُ أبا قَتادة يقول: وأنا كنتُ لَأرى الرؤيا فتُمْرِضُني حتى سمعتُ رسول الله يقول: «الرؤيا الحسنةُ من الله؛ فإذا رأى أحدكم ما يحبُّ فلا يحدِّثْ به إلَّا مَن يحبُّ، وإذا رأى ما يكره فليتعوَّذ بالله من شرِّها، ولْيتفُلْ ثلاثاً[(٧)]، ولا يحدِّثْ بها أحداً، فإنَّها لن تَضُرَّه».

---

(١) تقدم ١/٤٥٩ - ٤٦٠ ، وسيأتي ص٢٦٥ من هذا الجزء.

(٢) في صحيحه (٦٩٩٠).

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٧٥ - ٣٧٦ نحو هذا الكلام عن المهلب.

(٤) روى الخبر مطولاً ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ص٥٥١ ، والمقدسي في محنة الإمام أحمد ص٨ - ١٠ .

(٥) أي أن التعبير بالمبشرات والبشرى خرج على الأغلب. ينظر الفتح ١٢/ ٣٧٥ .

(٦) في صحيحه (٧٠٤٤)، وهو عند أحمد (٢٢٦٤٤)، ومسلم (٢٢٦١): (٤).

(٧) في (م): ثلاث مرات.

قال علماؤنا: فجعل الله الاستعاذة منها ممَّا يرفع أذاها؛ ألا ترى قولَ أبي سلمة[١]: إنِّي كنت لَأَرى الرؤيا هي أثقلُ عليَّ من الجبل، فلمَّا سمعتُ بهذا الحديث كنت لا أَعُدُّها شيئاً. وزاد مسلم[٢] من حديث جابر عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يَكْرهُها فليَبْصُقْ عن يساره ثلاثاً، ولْيتعوَّذْ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحوَّلْ عن جنبه الذي كان عليه». وفي حديث أبي هُريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا رأى أحدُكم ما يكره فليقُم فلْيُصَلِّ»[٣].

قال علماؤنا: وهذا كلُّه ليس بمتعارِضٍ، وإنَّما هذا الأمر بالتحوُّل والصلاةِ زيادةٌ، فعَلَى الرَّائي أنْ يفعل الجميع، والقيامُ إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنَّه إذا صلى تضمَّن فعلُه للصَّلاة جميعَ تلك الأمور؛ لأنَّه إذا قام إلى الصلاة تحوَّل عن جنبه، وإذا تمضمض نفث[٤] وبَصَق، وإذا قام إلى الصَّلاة تعوَّذ ودَعَا وتضرَّع لله تعالى في أنْ يكفيَه شرَّها في حالٍ هي أقربُ الأحوال إجابةً، وذلك السَّحَر من الليل.

**قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ الكافُ في موضع نصب؛ لأنَّها نعتٌ لمصدرٍ محذوف، وكذلك الكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ و«ما» كافَّة[٥].

---

(١) في النسخ الخطية: قول قتادة، وفي (م): قول أبي قتادة، والمثبت من صحيح البخاري (٥٧٤٧) وصحيح مسلم (٢٢٦١): (٢).

(٢) برقم (٢٢٦٢)، وهو عند أحمد (١٤٧٨٠).

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٦٢٢)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٤) في (د) و(ظ) و(م): تفل، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ١٩ ، والكلام منه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٤ ، والتقدير في الكاف الأولى: ومِثْلَ ذلك الاجتباء العظيم يجتبيك. ويجوز فيها الرفع على خبر ابتداء مضمر، أي: الأمر كذلك. الدر المصون ٦/ ٤٤٠ .

وقيل: «وَكَذَٰلِكَ» أي: كما أكرمكَ بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويُحسن إليك بتحقيق الرؤيا. مقاتل: بالسجود لك. الحسن: بالنبوّة[١].

والاجتباء: اختيارُ معالي الأمورِ للمجْتَبَى، وأصلُه من جَبَيْتُ الشيء، أي: حصَّلتُه، ومنه: جَبَيْتُ الماء في الحوض؛ قاله النحاس[٢]. وهذا ثناءٌ من الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، وتعديدٌ فيما عدَّده عليه من النِّعم التي آتاه الله تعالى، من التمكين في الأرض، وتعليمِ تأويل الأحاديث؛ وأجمعوا أنَّ ذلك في تأويل الرؤيا[٣].

قال عبد الله بن شدَّاد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسفَ ﷺ بعدَ أربعين سنة، وذلك منتهى الرؤيا[٤].

وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناسُ في المنام، وهي معجزةٌ له؛ فإنَّه لم يَلْحَقْهُ فيها خطأ. وكان يوسف عليه السلام أعلَم الناس بتأويلها، وكان نبيُّنا ﷺ نحوَ ذلك، وكان الصدّيق ﷺ من أَعْبَر الناس لها، وحَصَل لابن سيرين فيها التقدُّم العظيم، والطبعُ والإحسان، ونحوُه أو قريبٌ منه كان سعيد بن المسيِّب فيما ذكروا[٥].

وقد قيل: في تأويل قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: أحاديث الأمم والكتب ودلائلِ التوحيد[٦]، فهو إشارةٌ إلى النبوَّة، وهو المقصودُ بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بالنبوّة. وقيل: بإحواج[٧] إخوتك إليك. وقيل: بإنجائك من كُلِّ مكروه.

---

(١) قول الحسن في النكت والعيون ٣/ ٨ . وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٨١ عن ابن عباس.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٨ .

(٣) التمهيد ١/ ٣١٣ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٨٢ ، والطبري ١٣/ ٣٥٨ .

(٥) التمهيد ١/ ٣١٤ .

(٦) ذكر نحوه الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٩٢ .

(٧) في (ظ) و(م): بإخراج، وهو موافق لما ورد في المطبوع من النكت والعيون ٣/ ٨ ، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في زاد المسير ٤/ ١٨١ وقد نقله ابن الجوزي عن الماوردي.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بالخَلَّة، وإنجائه من النار ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ بالنبوَّة. وقيل: إنجائه[1] من الذبح؛ قاله عِكرمة[2]. وأعلَمه الله تعالى بقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أنَّه سيعطي بني يعقوب كلَّهم النبوَّة؛ قاله جماعةٌ من المفسرين[3]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بما يعطيك ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعله بك.

**قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾**

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يعني: مَن سأل عن حديثهم. وقرأ أهلُ مكَّة: ﴿آيةٌ﴾ على التوحيد[4]؛ واختارَ أبو عبيد: «آياتٌ» على الجمع؛ قال: لأنَّها خيرٌ كثير. قال النحاس[5]: و«آيةٌ» هنا قراءةٌ حسنة، أي: لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسفَ آيةٌ فيما خُبِّروا به؛ لأنَّهم سألوا النبيَّ ﷺ وهو بمكَّة فقالوا: أخبِرْنا عن رجلٍ من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنُه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي ـ ولم يكن بمكَّة أحدٌ من أهل الكتاب، ولا مَن يعرفُ خبر الأنبياء؛ وإنما وجَّهَ اليهودُ إليه[6] من المدينة يسألونه عن هذا ـ فأنزل الله عزَّ وجلَّ سورة يوسف جملةً واحدة؛ فيها كلُّ ما في التوراة من خبرٍ وزيادةٌ. فكانَ ذلك آيةً للنبيِّ ﷺ؛ بمنزلةِ إحياءِ عيسى ابنِ مريم عليه السلام الميتَ.

---

(١) قوله: إنجائه، من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٦ . وقد سلف التنبيه ٢/ ٤٠٩ على أن الصحيح هو أن الذبيح إسماعيلُ عليه السلام.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢١ .

(٤) هي قراءة ابن كثير المكي والباقون على الجمع. السبعة ص٣٤٤ ، والتيسير ص١٢٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٤ ، وما قبله منه، إلا أنه وقع فيه: عبر كثيرة، بدل: خير كثير.

(٦) في (ز) و(ف) و(م): إليهم، وليست في (د)، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن.

«آية»[١]: موعظة. وقيل: عبرة. ورُويَ أنَّها في بعض المصاحف: «عبرة». وقيل: بصيرة[٢]. وقيل: عَجَب؛ تقول: فلانٌ آيةٌ في العلم والحُسْن؛ أي: عَجَب.

قال الثعلبيُّ في «تفسيره»: لمَّا بلغت الرؤيا إخوةَ يوسف حسدوه؛ قال ابن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أنْ يسجدَ له إخوتُه حتى يسجد له أبواه! فبغَوْه بالعداوة. وقد تقدَّم ردُّ هذا القول[٣].

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ وأسماؤهم: روبيل وهو أكبرُهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويشجر، وأمُّهم ليا بنت ليان، وهي بنتُ خال يعقوب، ووُلِد له من سُرِّيَّتين أربعةُ نفر؛ دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوَّجَ يعقوبُ أختَها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوبَ اثني عشر رجلاً[٤].

قال السّهيلي[٥]: وأمُّ يعقوب اسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب.

وقيل في اسم الأَمَتين: ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وَهَبَتاهُما ليعقوب[٦]، وكان يعقوبُ قد جمع بينهما، ولم يَحِلَّ لأحدٍ بعده[٧]؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وقد تقدَّم الردُّ على ما قاله ابن زيد[٨]، والحمد لله.

---

(١) في (م): آيات.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٢، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٩.

(٣) ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤١٠ - ٤١١، ووقع فيه: آشر، بدل: يشجر. وأشير، بدل: آشر.

(٥) في التعريف والإعلام ص٧٩ - ٨٠.

(٦) التعريف والإعلام ص٨٢.

(٧) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٥١، وقد ذكر أبو الليث أن يعقوب جمع بين راحيل وأختها ليا، قال: وكان الناس يجمعون بين الأختين إلى أن بعث الله موسى عليه السلام.

(٨) قوله: وقد تقدم الرد...، قد ذكره المصنف قبل، ولا محل له هنا.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ﴾ «يوسف» رفع بالابتداء؛ واللام للتأكيد، وهي التي يُتلقى بها القسم، أي: واللهِ لَيوسفُ. ﴿وَأَخُوهُ﴾ عطف عليه. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ خبرُه، ولا يثنَّى ولا يُجمع لأنَّه بمعنى الفعل[1]؛ وإنَّما قالوا هذا لأنَّ خبرَ المنام بلغهم فتآمروا في كيده.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، وكانوا عشرة. والعُصْبةُ ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر. وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة. ولا واحدَ لها من لَفْظِها، كالنَّفَر والرَّهْط[2].

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لم يريدوا ضلالَ الدِّين؛ إذ لو أرادوه لكانوا كفَّاراً، بل أرادوا: لفي ذهابٍ عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه. وقيل: لفي خطأ بيِّنٍ بإيثاره يوسفَ وأخاه علينا[3].

قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ في الكلام حذف، أي: قال قائلٌ منهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ليكون أحسمَ لمادة الأمر. ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: في أرض، فأسقطَ الخافض، وانتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه[4] فيما حذف منه «في»:

لَدْنٌ بهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ     فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[5]

قال النحاس[6]: إلَّا أنَّه في الآية حَسَنٌ كثير؛ لأنَّه يتعدَّى إلى مفعولين؛ أحدهما بحرف، فإذا حذفتَ الحرف تعدَّى الفعل إليه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٥.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤١١.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤١١. قال الألوسي ١٢/ ١٩٠: والذي ينبغي أن يعوَّل عليه أنه عليه السلام إنما أحبه أكثر منهم لمَّا رأى فيه من مخايل الخير ما لم يَرَ فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الأمارات عنده.

(٤) في الكتاب ١/ ٣٦ و ٢١٤.

(٥) أي: في الطريق، والبيت لساعدة بن جؤية، وهو في شرح ديوان الهذليين ٣/ ١١٢٠، وسلف ٩/ ١٧٢.

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٥، وما قبله منه.

والقائل قيل: هو شمعون؛ قاله وهبُ بن منبِّه. وقال كعبُ الأحبار: دان. وقال مقاتل: روبيل[١]. فالله أعلم. والمعنى: أرضاً تبعد عن أبيه. فلابدَّ من هذا الإضمار؛ لأنه كان عند أبيه في أرض[٢].

﴿يَخْلُ﴾ جزمٌ؛ لأنَّه جوابُ الأمر؛ معناه: يَخلص ويصفو ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيُقْبِلُ عليكم بكلِّيته ﴿وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد الذنب، وقيل: من بعد يوسف ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي: تائبين، أي: تُحدِثوا توبةً بعد ذلك فيقبلها الله منكم[٣]؛ وفي هذا دليلٌ على أنَّ توبةَ القاتل مقبولةٌ، لأنَّ الله تعالى لم يُنكر هذا القولَ منهم. وقيل: «صَالِحِينَ» أي: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أَثَرةٍ ولا تفضيل[٤].

## قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

**فيه ثلاثَ عَشْرَةَ مسألةً:**

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ القائلُ هو يهوذا، وهو أكبر وَلَدِ يعقوب؛ قاله ابن عباس[٥]. وقيل: روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية [يوسف: ٨٠]. وقيل: شمعون[٦].

﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البَصْرة وأهل الكوفة: ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾. وقرأ أهل المدينة: ﴿في غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾[٧] واختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه

---

(١) ذكر أقوالهم البغوي ٢/ ٤١١ .

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٣ ، وللنحاس ٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٣) الوسيط ٢/ ٦٠١ ، وقد ذكره الواحدي عن ابن عباس.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١١ .

(٥) ذكره ابن الجوزي ٤/ ١٨٤ من طريق أبي صالح عنه.

(٦) أخرج القولين الأخيرين الطبري ١٣/ ٢٠ - ٢١ ؛ الأول عن قتادة وابن إسحاق، والثاني عن مجاهد.

(٧) وهي قراءة نافع وأبي جعفر. السبعة ص٣٤٥ ، والتيسير ص١٢٧ ، والنشر ٢/ ٢٩٣ .

على موضعٍ واحد ألقَوْه فيه، وأنكر الجمعَ لهذا. قال النحاس[١]: وهذا تضييقٌ في اللغة، «وغيابات» على الجمع يجوز [من وجهين]: حكى سيبويه: سِيرَ عليه عُشَيَّاناتٍ وأُصَيْلاناتٍ، يريد: عَشِيَّةً وأَصيلاً، فجعل كلَّ وقتٍ منها عَشِيَّةً وأصيلاً[٢]. فكذا جُعل كلُّ موضعٍ مما يُغيِّب غيابة. والآخر: أن يكون في الجبِّ غياباتٌ جماعة. ويقال: غاب يَغيبُ[٣] غَيْباً وغَيابة وغَياباً؛ كما قال الشاعر:

أَلَا فـالـبَثَـا شـهـريـن أو نـصـفَ ثـالـثٍ ... إلـى ذَاكُـمَـا مـا[٤] غَـيَّـبَـتْـنـي غـيـابِـيَـا[٥]

قال الهرويّ[٦]: والغَيابة شبه لَجَفٍ[٧]، أو طاقٌ في البئر فُوَيْقَ الماء، يغيِّبُ الشيءَ عن العين. وقال ابن عُزَيْز[٨]: كلُّ شيء غيَّب عنك شيئاً فهو غَيابة. قلت: ومنه قيل: للقبر: غَيابة[٩]؛ قال الشاعر:

فـإنْ أنـا يـومـاً غَـيَّـبَـتْـنـي غَـيَـابَـتـي ... فَسِيروا بسَيْري في العَشِيرةِ والأهلِ[١٠]

والجُبُّ: الرَّكِيَّة التي لم تُطْوَ، فإذا طُويت فهي بئر[١١]؛ قال الأعشى[١٢]:

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٥ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) الكتاب ٣/ ٤٨٤ . قال سيبويه: قالوا: عُشيّانات، كأنهم سمَّوا كلَّ جزء منه عشية.

(٣) من قوله: غيابة والآخر...، إلى هذا الموضع من (م) وإعراب القرآن.

(٤) في (م): أنا ذاكما قد، وفي باقي النسخ: إلى ذاكما قد، والمثبت من إعراب القرآن وباقي المصادر على ما يأتي.

(٥) قائله ابن أحمر، كما في معاني القرآن للأخفش ١/ ١٨٧ ، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٣٧٧ وأمالي ابن الشجري ٣/ ٧٥ ، وهو بلا نسبة في المحتسب ٢/ ٢٢٧ ، والخزانة ١١/ ٧١ .
قال المرزقي: أراد بالغياب: الغَيابة؛ لذلك أنَّث. اهـ أي: أنَّث الفعل غيبتني.

(٦) في (ظ): المهدوي.

(٧) حفر في جانب البئر. القاموس (لجف).

(٨) في شرح غريب القرآن ص٣٤٣ .

(٩) ينظر الوسيط ٢/ ٦٠١ - ٦٠٢ ، واللسان (غيب).

(١٠) قائله المنخَّل بن سُبَيْع العنبري، كما في مجاز القرآن ١/ ٣٠٢ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٥ . وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٤ برواية: غيبتني منيتي.

(١١) تفسير الغريب لابن عزيز ص١٩٤ . والركيَّة: البئر. القاموس (ركو). وفي اللسان (طوي): طوى الركية طيًّا: عرشها بالحجارة والآجر.

(١٢) في ديوانه ص١٧٣ .

لئن كنتَ في جبٍّ ثمانين قامةً ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

وسمِّيت جُبًّا لأنها قُطِعت في الأرض قَطْعاً. وجمعُ الجبِّ: جِبَبَة وجِبَاب وأَجْباب[(١)].

وجَمَع بين الغَيابة والجُبِّ؛ لأنه أراد: أَلقُوه في موضعٍ مظلم من الجُبِّ حتى لا يَلحقه نظرُ الناظرين. قيل: هو بئرٌ ببيت المقدس[(٢)]. وقيل: هو بالأُرْدُنّ؛ قاله وَهْب بن مُنبِّه. مقاتل: هو على ثلاثةِ فراسخَ من منزل يعقوب[(٣)].

**الثانية**: قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ جزم على جواب الأمر. وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة: «تَلْتَقِطْهُ» بالتاء[(٤)]. وهذا محمولٌ على المعنى؛ لأنَّ بعض السّيارة سَيَّارة، وحكى سيبويه: سقطت بعضُ أصابعه، وأنشد:

وتَشْرَقَ بالقول الذي قد أذعْتَه كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ[(٥)]

وقال آخر:

أَرَى مَرَّ السِّنينَ أَخَذْنَ منِّي كما أَخَذَ السِّرَارُ من الهلالِ[(٦)]

ولم يقل: شَرِق ولا أَخَذَتْ.

والسيّارة: الجمعُ الذين يسيرون في الطريق للسَّفر؛ وإنَّما قال هذا القائلُ هذا

---

(١) تهذيب اللغة ١٠/ ٥١١ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣١٨ ، والطبري ١٣/ ٢١ - ٢٢ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٢ .

(٣) الوسيط ٢/ ٦٠٢ .

(٤) القراءات الشاذة ص٦٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٦ والكلام منه.

(٥) الكتاب ١/ ٥٢ ، والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٧٣ . وقوله: وتشرقَ، بالفتح، معطوف على ما قبله. يخاطب به يزيد بن مُسْهِر الشيباني فيقول: يعود عليك مكروهُ ما أذعتَ عنّي من القول، ونَسَبْتَه إليَّ من القبيح، والشَّرَق بالماء كالغصص بالطعام. والشاهد فيه تأنيث فعل الصدر وهو مذكَّر؛ لأنه مضاف إلى مؤنث. شرح الشواهد للشنتمري ص٨٠ .

(٦) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٥٤٦ برواية: رأت مرَّ السنين. قال شارح الديوان: أراد: رأت السنين، والسَّرار ليلتان تبقيان من الشهر إذا كان تامًّا، وإذا كان ناقصاً كان سراره ليلة. اهـ وفي اللسان (سرر): استسَرّ الهلال في آخر الشهر: خفي.

حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضعٍ بعيد، ويحصل المقصود؛ فإنَّ مَن التقطه من السيارة يحمله إلى موضعٍ بعيد، وكان هذا وجهاً في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربَّما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطَّلع على قَصْدهم.

**الثالثة**: وفي هذا ما يدلُّ على أنَّ إخوة يوسف ما كانوا أنبياء أوّلاً ولا آخِراً[1]؛ لأنَّ الأنبياء لا يدبِّرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصيةً ثم تابوا.

وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلَّةُ نبيٍّ، فكانت هذه زلَّةً منهم. وهذا يردُّه أنَّ الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدَّمناه[2]. وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبَّأهم الله[3]، وهذا أشبه، والله أعلم.

**الرابعة**: قال ابن وَهْب: قال مالك: طُرح يوسف في الجُبِّ وهو غلام. وكذلك روى ابن القاسم عنه، يعني أنَّه كان صغيراً، والدليل عليه قولُه تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ قال: ولا يُلتقَط إلَّا الصغير، وقولُه: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وذلك أمرٌ يختصُّ بالصغار[4]، وقولُهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

**الخامسة**: الالتقاطُ: تَناوُلُ الشيء من الطريق، ومنه اللَّقِيط واللُّقَطة، ونحن نذكر من أحكامها ما دلَّت عليه الآيةُ والسُّنة، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة.

قال ابن عرفة: الالتقاطُ وجود الشيء على غيرِ طَلَب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: يجده من غير أن يحتسبه.

---

(١) في (ف) و(م): لا أولاً ولا آخراً.

(٢) ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠ و ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٤١٢ عن أبي عمرو بن العلاء. قال ابن كثير عند تفسير الآية السابعة من هذه السورة: اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف... ومن الناس مَن يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدَّعي ذلك إلى دليل...الخ وينظر تتمة قوله هناك.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٥ - ١٠٦٦ .

وقد اختلف العلماء في اللَّقيط؛ فقيل: أصلُه الحريّة؛ لغَلَبة الأحرار على العبيد. ورُويَ عن الحسن بن عليٍّ أنّه قضى بأنَّ اللَّقِيط حُرٌّ، وتلا: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾. وإلى هذا ذهب أشهب صاحبُ مالك، وهو قولُ عمر بنِ الخطاب، وكذلك يُروى عن عليٍّ وجماعة. وقال إبراهيم النَّخَعي: إنْ نوى رِقَّه فهو مملوك، وإن نوى الحِسبةَ فهو حرّ[١].

وقال مالك في «موطَّئه»[٢]: الأمرُ عندنا في المنبوذ أنه حرٌّ، وأنَّ ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه. وبه قال الشافعيُّ؛ واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما الوَلَاءُ لمن أعتق»[٣] قال: فنفَى الوَلَاء عن غير المعتِق.

واتفق مالكٌ والشافعيُّ وأصحابهما على أنَّ اللَّقيطَ لا يُوالي أحداً، ولا يرثُه أحدٌ بالوَلَاء. وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللَّقيط يوالي مَن شاء، فَمَن والاه فهو يرثُه ويعقِلُ عنه. وعند أبي حنيفة: له أنْ ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقِل عنه الذي والاه، فإنْ عَقَلَ عنه جنايةً، لم يكن له أن ينتقلَ عنه بولائه أبداً[٤].

وذكر أبو بكر بنُ أبي شيبة[٥] عن عليٍّ ﷺ: المنبوذُ حرٌّ، فإن أحبَّ أن يواليَ الذي التقطه والاه، وإن أحبَّ أن يواليَ غيرَه والاه. ونحوه عن عطاء[٦]، وهو قولُ ابنِ شهابٍ وطائفةٍ من أهل المدينة[٧]، وهو حرّ.

قال ابن العربيّ[٨]: إنما كان أصل اللَّقيط الحرِّيةَ؛ لغَلَبةِ الأحرار على العبيد،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٦ عدا قول أشهب، وذكر قوله ابن عبد البر في الاستذكار ٢٢/ ١٥٦، وقول عمر أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٧٣٨، وقول علي سيرد قريباً.

(٢) ٢/ ٧٣٨.

(٣) الاستذكار ٢٢/ ١٥٨، والحديث سلف ٨/ ٢٤٧.

(٤) الاستذكار ٢٢/ ١٥٨.

(٥) في مصنفه ١١/ ٤٠٦.

(٦) المصنف ١١/ ٤٠٧.

(٧) الاستذكار ٢٢/ ١٥٩.

(٨) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٧ - ١٠٦٨.

فيقضَى[١] بالغالب، كما حُكم أنه مسلم أخذاً بالغالب؛ فإن كان في قريةٍ فيها نصارى ومسلمون؛ قال ابن القاسم: يُحكم بالأغلب، فإن وُجد عليه زِيُّ اليهود فهو يهوديٌّ، وإنْ وُجِد عليه زيُّ النصارى فهو نصرانيٌّ. وإلَّا فهو مسلم، إلَّا أنْ يكون أكثرُ أهل القرية على غير الإسلام[٢]. وقال غيره: لو لم يكن فيها إلا مسلمٌ واحد قُضي لِلَّقيط بالإسلام، تغليباً لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يُعلَى عليه[٣]، وهو مقتضَى قولِ أشهب؛ قال أشهب: هو مسلم أبداً؛ لأني أجعله مسلماً على كلِّ حال، كما أجعله حرًّا على كلِّ حال[٤].

واختلف الفقهاء في المنبوذ تشهد البيِّنة أنَّه عبد؛ فقالت طائفةٌ من أهل المدينة: لا يُقبل قولها في ذلك. وإلى هذا ذهب أشهب؛ لقول عمر: هو حرٌّ. ومَن قضى بحرِّيته[٥] لم يقبل البيّنةَ في أنه عبد. وقال ابن القاسم: تُقبل البيِّنةُ في ذلك. وهو قولُ الشافعيِّ والكوفيِّ[٦].

**السادسة**: قال مالك في اللقيط: إذا أنفق عليه الملتقِطُ، ثم أقام رجلٌ البيِّنةَ أنه ابنُه، فإنَّ الملتقِطَ يرجع على الأب إن كان طَرَحه متعمِّداً، وإن لم يكن طَرَحه ولكنه ضلَّ منه فلاشيءَ على الأب، والملتقِط متطوِّعٌ بالنفقة. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللَّقيط فهو متطوِّع، إلَّا أن يأمره الحاكم. وقال الأوزاعيُّ: كلُّ مَن أنفق على مَن لا تجب [له] عليه نفقةٌ؛ رَجَعَ بما أنفق[٧].

وقال الشافعيُّ: إن لم يكن للَّقيط مالٌ وجبت نفقتُه في بيت المال، فإن لم يكن

(١) في النسخ: فقضى والمثبت من أحكام القرآن.

(٢) الاستذكار ٢٢/١٥٧ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٦٨ .

(٤) الاستذكار ٢٢/١٥٧ .

(٥) في المطبوع من الاستذكار ٢٢/١٥٦ (والكلام منه): ومن قضى بحديثه.

(٦) في الاستذكار: والكوفيين.

(٧) التمهيد ٣/١٢٨ - ١٢٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

ففيه قولان: أحدهما: يُستقرض له في ذمَّته. والثاني: يقسَّط على المسلمين من غير عِوَض[١].

**السابعة**: وأمَّا اللُّقَطةُ والضَّوَالُّ فقد اختلف العلماء في حكمهما؛ فقالت طائفة من أهل العلم: اللُّقَطَةُ والضَّوالُّ سواءٌ في المعنى، والحكمُ فيهما سواءٌ. وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاويُّ، وأنكر قولَ أبي عُبيد القاسم بنِ سلَّام ـ إنَّ الضالَّة لا تكون إلا في الحيوان، واللُّقطة في غير الحيوان ـ وقال: هذا غلَط؛ واحتجَّ بقوله ﷺ في حديث الإفك للمسلمين: «إنّ أمّكم ضلَّت قِلادتَها» فأطلق ذلك على القِلادة[٢].

**الثامنة**: أجمع العلماء على أنَّ اللُّقَطةَ ما لم تكن تافهاً يسيراً، أو شيئاً لا بقاء له[٣]، فإنَّها تُعرَّف حولاً كاملاً. وأجمعوا أنَّ صاحبها إنْ جاء فهو أحقُّ بها من مُلتقِطِها إذا ثبت له أنه صاحبها. وأجمعوا أنَّ ملتقِطَها إنْ أكَلَها بعد الحول وأراد صاحبُها أن يضمِّنه فإنَّ ذلك له، وإن تصدَّق بها فصاحبُها مخيَّر بين التضمين، وبين أن ينزل على أجرها، فأيَّ ذلك تَخيَّر كان ذلك له بإجماع؛ ولا تنطلقُ يدُ ملتقطها عليها بصدقة، ولا تُصرَفُ قبل الحول. وأجمعوا أنَّ [آخِذ] ضالّة الغنم [في الموضع] المخوفِ عليها له أكلُها.

**التاسعة**: واختلف الفقهاء في الأفضل مِن تَرْكِها أو أخذها؛ فمِن ذلك أنَّ في الحديث دليلاً على إباحة التقاط اللُّقَطة وأَخْذِ الضالَّة ما لم تكن إبلاً. وقال في الشاة: «لكَ أو لأخيكَ أو للذئب» يحضُّه على أخذها، ولم يقل في شيء: دعوه حتى يضيع

(١) التنبيه للشيرازي ص١٣٤.

(٢) التمهيد ٣/ ١١١ - ١١٢، والاستذكار ٢٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤، وقول الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٣٩، والحديث بهذا اللفظ أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١١١. وحديث الإفك أخرجه مطولاً البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) دون اللفظ المذكور، وينظر ما ورد من أحاديث في قصة إضاعة عائشة رضي الله عنها قلادتها فيما سلف ٦/ ٣٥٤ - ٣٥٧.

(٣) في النسخ: لها، والمثبت من التمهيد ٣/ ١٠٧، والاستذكار ٢٢/ ٣٢٩، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منهما.

أو يأتيَه ربُّه. ولو كان تركُ اللُّقطة أفضلَ لأمر به رسول الله ﷺ كما قال في ضالَّة الإبل، والله أعلم(١).

وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سَعَة؛ إنْ شاء أَخَذَها، وإن شاء تركها؛ هذا قولُ إسماعيل بنِ إسحاق رحمه الله.

وقال المُزَنيُّ عن الشافعيِّ: لا أحبُّ لأحدٍ تَرْكَ لُقَطةٍ إنْ وجدها؛ إذا كان أميناً عليها، قال: وسواءٌ قليلُ اللُّقطة وكثيرُها(٢).

**العاشرة**: روى الأئمةُ؛ مالكٌ وغيره عن زيد بن خالد الجُهَنيِّ قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ، فسأله عن اللُّقطة، فقال: «اعْرِفْ عِفَاصَها ووِكَاءَها، ثم عَرِّفها سنةً، فإنْ جاء صاحبُها، وإلا فشأنَك بها». قال: فضالَّةُ الغنم يا رسول الله؟ قال: «لكَ أو لأخيكَ أو للذئب». قال: فضالةُ الإبل؟ قال: «ما لَكَ ولَها؟! معها سِقاؤُها وحِذاؤها، تَرِدُ الماءَ وتأكلُ الشجر حتى يلقاها ربُّها»(٣).

وفي حديث أُبيٍّ قال: «احفَظْ عَدَدها ووِعاءَها ووِكاءَها، فإنْ جاء صاحبُها، وإلَّا فاستمتِع بها». ففي هذا الحديثِ زيادةُ العدد؛ خرَّجه مسلم وغيره(٤).

وأجمع العلماء أنَّ عِفاص اللُّقَطة ووكاءَها من إحدى علاماتها وأدَلّها عليها(٥)، فإذا أتى صاحب اللُّقَطة بجميع أوصافها دُفعت له؛ قال ابن القاسم: يُجبَر على دفعها، فإن جاء مستحقٌّ يَستحقُّها ببيِّنة أنها كانت له، لم يَضْمَن الملتقطُ شيئاً(٦). وهل

(١) التمهيد ٣/ ١٠٨ ، وسيأتي حديث ضالة الإبل وضالة الغنم في المسألة التالية.

(٢) التمهيد ٣/ ١٠٩ و ١١٠ .

(٣) الموطأ ٢/ ٧٥٧ ، ومن طريق مالك أخرجه البخاري (٢٤٢٩)، ومسلم (١٧٢٢): (١)، وأخرجه بنحوه من غير طريق مالك أحمد (١٧٠٥٠). والعفاص: الوعاء الذي تكون فيه النفقة، من جلد أو خرقة أو غير ذلك. والوكاء: الخيط الذي تشد به الصرة والكيس. النهاية (عفص) و(وكا).

(٤) صحيح مسلم (١٧٢٣)، وهو عند أحمد (٢١١٦٦).

(٥) التمهيد ٣/ ١٠٧ .

(٦) التمهيد ٣/ ١٢٠ ، والاستذكار ٢٢/ ٣٣٩ .

يُحَلَّف مع الأوصاف أو لا؟ قولان: الأوّلُ لأشهب، والثاني لابن القاسم. ولا تلزمه بيِّنةٌ عند مالكٍ وأصحابه وأحمدَ بنِ حَنْبل وغيرهم[١].

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: لا تُدفع له إلَّا إذا أقام بينةً أنها له. وهو بخلاف نصِّ الحديث، ولو كانت البيِّنةُ شرطاً في الدفعِ لَمَا كان لذكرِ العِفاص والوِكاء والعَدد معنًى؛ فإنه يستحقُّها بالبينة على كلِّ حال، ولَمَا جاز سكوتُ النبيِّ ﷺ عن ذلك، فإنه تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة[٢]. والله أعلم.

**الحادية عشرة**: نَصَّ الحديث على الإبل والغنم وبيَّن حكمهما، وسكت عمَّا عداهما من الحيوان. وقد اختلف علماؤنا في البقر؛ هل تُلحَقُ بالإبل أو بالغنم؟ قولان. وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهرُ قولِ ابن القاسم أنَّها تلتقط، وقال أشهب وابن كنانة: لا تلتقط[٣]. وقول ابن القاسم أصحُّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «احفَظْ على أخيك المؤمنِ ضالَّته»[٤].

**الثانية عشرة**: واختلف العلماء في النفقة على الضَّوالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابنُ القاسم: إنْ أنفق الملتقِطُ على الدوابِّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواءٌ أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره، قال: وله أن يحبسَ بالنفقة ما أنفق عليه، ويكونُ أحقَّ به كالرهن. وقال الشافعيُّ: إذا أنفق على الضوالِّ مَن أخذها فهو متطوِّعٌ؛ حكاه عنه الرّبيع. وقال المُزنيُّ عنه: إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دَيْناً، وما ادَّعى قُبِل منه إذا كان مثلُه قَصْداً. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللُّقَطة والآبق[٥]

(١) المفهم ٥/ ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المفهم ٥/ ١٩٠ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والبيهقي ٤/ ١٥٣ . برواية: احبس، بدل: احفظ. قال الطحاوي: ففي هذا الحديث إباحة أخذ الضوال التي قد يُخاف عليها الضياع، وحبسها له (أي لصاحبها).

(٥) في (د) و(م): والإبل، وفي (ز) و(ظ) و(ف): والابن، والمثبت من مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٣٤٩ ، والتمهيد ٣/ ١٢٩ والكلام منه، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

بغير أمر القاضي فهو متطوِّع، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دَينٌ على صاحبها إذا جاء، وله أن يحبسها [بالنفقة] إذا حضر صاحبها، والنفقةُ عليها ثلاثةُ أيام ونحوها، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضي بالنفقة.

**الثالثة عشرة**: ليس في قوله ﷺ في اللّقطة بعد التعريف: «فاستَمتِعْ بها»[١] أو: «فشأنَكَ بها»[٢] أو: «فهي لك»[٣] أو: «فاستَنْفِقْها»[٤] أو: «ثم كُلْها»[٥] أو: «فهو مالُ الله يؤتيه مَن يشاء»[٦] على ما في «صحيح» مسلم وغيره، ما يدلُّ على التمليك وسقوطِ الضَّمان عن الملتقط إذا جاء ربُّها، فإنَّ في حديث زيد بن خالد الجُهَنيِّ عن النبيِّ ﷺ: «فإنْ لم تعرف، فاستَنْفِقْها ولْتَكُنْ وديعةً عندك، فإنْ جاء صاحبُها يوماً من الدهر فأدِّها إليه»[٧] في رواية: «ثم» كُلْها، فإن جاء صاحبُها فأدِّها إليه» خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٨].

وأجمع العلماء على أنَّ صاحبها متى جاء فهو أحقُّ بها، إلَّا ما ذهب إليه داود من أنَّ الملتَقِط يملك اللُّقطة بعد التعريف؛ لتلك الظواهر. ولا التفات لقوله؛ لمخالفة[٩] الناس، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «فأدِّها إليه»[١٠].

---

(١) سلف في المسألة العاشرة من حديث أبي ﷺ.

(٢) سلف في المسألة العاشرة من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٣) أخرج هذه الرواية أحمد (١٧٠٣٧)، ومسلم (١٧٢٢): (٦).

(٤) أخرجها أحمد (١٧٠٦٠)، والبخاري (٢٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٢): (٣) و(٥).

(٥) أخرجها أحمد (٢١٦٨٦)، ومسلم (١٧٢٢): (٧)، وجميع هذه الروايات من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٤٨١)، وأبو داود (١٧٠٩)، والنسائي في الكبرى (٥٧٧٦)، وابن ماجه (٢٥٠٥) من حديث عياض بن حمار.

(٧) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧٢٢): (٥)، وبنحوه البخاري (٢٤٢٨).

(٨) صحيح البخاري (٩١)، وصحيح مسلم (١٧٢٢): (٧)، وهو عند أحمد (٢١٦٨٦) وقد سلف تخريجه في بداية هذه المسألة، ووقع عند البخاري: استمتع بها، بدل: ثم كلها.

(٩) في (ظ): لمخالفته.

(١٠) المفهم ٥/١٨٧ - ١٨٨ .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيل للحسن: أيحسُد المؤمنُ؟ قال: ما أنساكَ ببني يعقوب[1]! ولهذا قيل: الأبُ جلَّاب، والأخُ سلَّاب[2].

فعند ذلك أجمعوا على التفريقِ بينه وبين ولدِه بضربٍ من الاحتيال، وقالوا ليعقوب: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. وقيل: لمَّا تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلِّمِ الثاني، عادوا إلى يعقوبَ عليه السلامُ وقالوا هذا القولَ. وفيه دليلٌ على أنَّهم سألوه قبلَ ذلك أن يَخرُج معهم يوسفُ فأَبى، على ما يأتي.

قرأ يزيدُ بنُ القَعْقَاع وعمرو بنُ عُبيد والزُّهريُّ: «لا تأمَنَّا» بالإدغام وبغير إشمامٍ، وهو القياسُ؛ لأنَّ سبيلَ ما يُدغَم أن يكونَ ساكناً.

وقرأ طلحةُ بن مُصَرِّف: «لَا تَأْمَنُنَا» بنونَيْنِ ظاهرتين على الأصلِ.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وأبو رَزِين ـ ورُوي عن الأعمش ـ: «لا تِيمَنَّا» بكسرِ التاء، وهي لغةُ تميم؛ يقولون: أنت تِضْرب؛ وقد تقدَّم[3].

وقرأ سائر الناسِ بالإدغام والإشمام، ليدلَّ على حالِ الحرفِ قبل إدغامِه[4].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾ أي: في حفظِه وحيطتِه حتى نَردَّه إليك[5]. قال مقاتل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخير، وذلك أنَّ إخوة يوسفَ قالوا لأبيهم: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾ الآية، فحينئذٍ قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ فقالُوا حينئذٍ جواباً لقوله: ﴿مَا لَكَ

(١) أخرجه هناد في الزهد (١٣٩٤)، وابن حبان في روضة العقلاء ص١٣٦.

(٢) عرائس المجالس ص١١٤.

(٣) ١/ ٢٢٦ و ٩/ ٢٩٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٤، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨، ومختصر شواذ القرآن ص٦٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٢٤.

لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الآية ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء[١] ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

«غداً» ظرفٌ، والأصلُ عند سيبويهِ: غَدْوٌ، وقد نُطِق به على الأصل[٢]؛ قال النَّضر بنُ شُميل: ما بينَ الفجرِ وصلاةِ الصبح يُقال له: غُدْوةٌ، وكذا بُكْرة[٣].

«نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ» بالنون وإسكان العين قراءةُ أهل البصرة، والمعروفُ من قراءةِ أهلِ مكة: «نَرْتَعِ» بالنون وكسر العين، وقراءةِ أهل الكوفة: «يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ» بالياء وإسكانِ العين. وقراءةِ أهلِ المدينة بالياء وكسرِ العين[٤]. القراءةُ الأولى من قولِ العرب: رَتَع الإنسانُ والبعير: إذا أكَلا كيف شاءا، والمعنى: نتسع في الخِصْب؛ وكلُّ مُخْصِب راتعٌ[٥]؛ قال:

فارعَيْ فزارةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعُ[٦]

وقال آخر:

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتى إذا ادَّكَرتْ ... فإنَّما هي إقبالٌ وإدبارُ[٧]

وقال آخر:

أكفراً بعد رَدِّ الموتِ عنِّي ... وبعد عَطائِكَ المئةَ الرِّتَاعَا[٨]

أي: الراتعة لكثرةِ المَرْعَى. وروى مَعْمر عن قَتَادة: «ترتع»: تسعى؛ قال النحاس: أخذه من قولِه: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» لأنَّ المعنى: نستبقُ في العَدْوِ إلى غايةٍ

(١) زاد المسير ٤/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٤ - ٢٥ ، والتيسير ص١٢٨ ، والسبعة ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٢ - ١٣ .

(٦) عجز بيت للفرزدق، وصدره: ومضت لمَسلَمَةَ الركابُ مودَّعاً، وهو في ديوانه ١/ ٤٠٨ .

(٧) البيت للخنساء في ديوانها ص٤٨ ، وسلف ٣/ ٥٤ .

(٨) البيت للقُطامي في ديوانه ص٣٧ ، وسلف ٥/ ١٠٥ .

بعينها؛ وكذا: «يرتع» بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحدَه ﷺ. و«يرتعِ» بكسر العين من رَعي الغنم، أي: ليتدربَ بذلك ويترجَّل؛ فمرةً يرتع، ومرةً يلعب لصغرِه. وقال القُتَبيُّ: «نرتع» نَتحارسُ ونَتَحافظُ، ويَرعى بعضُنا بعضاً؛ من قولِك: رعاكَ الله؛ أي: حفظَك. «ونلعب» من اللعب، وقيل لأبي عَمرو بنِ العلاء: كيف قالوا: «ونلعب» وهم أنبياءُ؟ فقال: لم يكونوا يومئذٍ أنبياء[١]. وقيل: المرادُ باللعبِ المباحُ من الانبساط، لا اللعبُ المحظور الذي هو ضدُّ الحقّ؛ ولذلك لم ينكر يعقوبُ قولَهم: «ونلعب»[٢]. ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «فهلَّا بِكْراً تُلاعبُها وتُلاعبك»[٣]. وقرأ مجاهد وقَتَادة: «يُرتِع»[٤]، على معنى يُرتِع مطيتَه، فحذف المفعول، «ويَلْعَبُ» بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى: هو ممَّن يلعبُ.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كلِّ ما تخافُ عليه. ثم يحتملُ أنَّهم كانوا يخرجون ركباناً، ويحتمل أنَّهم كانوا رجَّالة. وقد نُقِل أنَّهم حَملُوا يوسفَ على أكتافِهم ما دام يعقوبُ يراهم، ثم لمَّا غابوا عن عينِه طَرحوه؛ ليغدُو معهم إضراراً به[٥].

**قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ في موضع رفعٍ؛ أي: ذهابُكم

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢ - ١٣، وزاد المسير ٤/ ١٨٨.

(٣) أخرجه أحمد (١٤٣٠٦) والبخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥).

(٤) نسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٣٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٢٨٥ لأبي رجاء، وذكر ابن عطية وأبو حيان أنَّ قراءة مجاهد وقتادة نُرتع بضم النون وكسر التاء، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٨٧ لأنس وأبي رجاء.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٤١٣ - ٤١٤.

به[١]. أخبر عن حزنه لغَيبتِه .﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وذلك أنَّه رأى في منامِه أن الذئب شدَّ على يوسف، فلذلك خافَه عليه؛ قاله الكلبيُّ.

وقيل: إنه رأى في منامِه كأنه على ذِروة جبل، وكأنَّ يوسفَ في بطن الوادي، فإذا عَشَرةٌ من الذئاب قد احتَوشتْهُ تريدُ أكلَه، فدرأ عنه واحدٌ، ثم انشقَّتِ الأرض، فتوارَى يوسفُ فيها ثلاثةَ أيام، فكانتِ العشرةُ إخوتَه، لمَّا تَمالؤوا على قتله، والذي دافعَ عنه أخوه الأكبرُ يهوذا، وتَواريهِ في الأرضِ هو مُقامُه في الجبِّ ثلاثةَ أيام.

وقيل: إنَّما قال ذلك؛ لخوفِه منهم عليه، وأنَّه أرادَهم بالذئب، فخوفُه إنَّما كان من قتلِهم له، فكنَّى عنهم بالذئبِ مساترةً لهم، قال ابن عباس: فسمَّاهم ذئاباً. وقيل: ما خافَهم عليه، ولو خافَهم لَمَا أرسلَه معهم، وإنَّما خاف الذئبَ؛ لأنه أغلبُ ما يُخاف في الصَّحارَى[٢].

والذئبُ مأخوذٌ من تَذاءبتِ الريحُ: إذا جاءت من كلِّ وجهٍ؛ كذا قال أحمدُ بنُ يحيى؛ قال: والذئبُ مهموزٌ؛ لأنَّه يجيء من كل وجه.

وروى ورش عن نافع: «الذِّيبُ» بغيرِ همز؛ لما كانت الهمزةُ ساكنةً وقبلها كسرةٌ فخفَّفها؛ صارت ياء[٣].

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي: مشتغلون بالرعي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ نَرى الذئبَ ثم لا نَردُّه عنه[٤] ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: في حِفظِنا أغنامَنا. أي: إذا كنَّا لا نقدرُ على دفعِ الذئب عن أخينا، فنحنُ أعجزُ أن ندفعه عن أغنامِنا. وقيل: «لَخَاسِرُونَ»:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٨ - ١٨٩ ، وعرائس المجالس ص١١٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨ ، وقرأ: الذيب، بغير همز أيضاً أبو عمرو في رواية السوسي، والكسائي ووقفاً حمزة. السبعة ص٣٤٦ ، والتيسير ص١٢٨ .

(٤) الوسيط ٢/ ٦٠٢ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٨ .

لجاهلون بحقِّه. وقيل: لعاجزون[١].

**قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ﴾ «أنْ» في موضعِ نصب[٢]، أي: على أن يجعلوهُ في غَيابةِ الجُبِّ.

قيل في القصة: إنَّ يعقوبَ عليه السلام لمَّا أرسلَه معهم أخذَ عليهم ميثاقاً غليظاً لَيحفظُنَّه، وسلَّمه إلى روبيل وقال: يا روبيل، إنَّه صغير، وتَعلَم يا بنيَّ شَفقتي عليه؛ فإن جاعَ فأطعِمه، وإن عَطِش فاسقِه، وإن أعيا فاحمِلْه، ثم عَجِّل بردِّه إليَّ[٣]. قال: فأخذوا يَحمِلونه على أكتافِهم، لا يضعُه واحدٌ إلا رَفعه آخر، ويعقوبُ يُشيِّعهم ميلاً ثم رجع، فلمَّا انقطعَ بصرُ أبيهم عنهم، رماهُ الذي كان يَحمِلُه إلى الأرضِ حتى كادَ ينكسر، فالتجأَ إلى آخر، فوجدَ عندَ كلِّ واحدٍ منهم أشدَّ ممَّا عند الآخرِ من الغيظِ والعَسْف، فاستغاثَ بروبيل وقال: أنتَ أكبرُ إخوتي، والخليفةُ من بعدِ والدي عليَّ، وأقربُ الإخوة إليَّ، فارحمني وارحمْ ضَعفي، فلطَمَه لطمةً شديدة وقال: لا قرابةَ بيني وبينك، فادعُ الأحدَ عشرَ كوكباً فلتُنجك منَّا؛ فَعلِم أنَّ حقدَهم من أجل رؤياه، فتعلَّق بأخيهِ يهوذا، وقال: يا أخي، ارحمْ ضَعفي وعَجزي وحداثةَ سني، وارحمْ قلبَ أبيكَ يعقوب، فما أسرعَ ما تَناسيتُم وصيتَه، ونَقَضتُم عهدَه؛ فَرَقَّ قلبُ يهوذا فقال: واللهِ لا يَصِلون إليك أبداً ما دمتُ حيًّا، ثم قال: يا إخوتاه، إنَّ قتلَ النفسِ التي حرم الله من أعظمِ الخطايا، فَرُدُّوا هذا الصبيَّ إلى أبيه، ونُعاهِدُه ألا يُحدِّث والدَه بشيءٍ مما جرى أبداً، فقال له إخوتُه: والله ما تريدُ إلا أن تكون لك المكانةُ عند يعقوب، والله لئنْ لم تَدعْهُ لنقتلنَّك معه، قال: فإنْ أبيتم إلَّا ذلك فهاهنا هذا

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٢٩، وتفسير الكشاف ٢/ ٣٠٦، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٨.

(٢) تفسير الكشاف ٢/ ٣٠٦.

(٣) ينظر عرائس المجالس ص١١٥.

الجبُّ الموحشُ القفر، الذي هو مأوى الحياتِ والهوام، فألقُوه فيه، فإنْ أُصيبَ بشيءٍ من ذلك فهو المرادُ، وقد استرحتم من دمِه، وإنِ انفَلتَ على أيدي سيَّارة يذهبون به إلى أرضٍ فهو المرادُ؛ فأجمع رأيُهم على ذلك[1]، فهو قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وجوابُ «لمَّا» محذوفٌ؛ أي: فلما ذهبوا به، وأجمعوا على طرحِه في الجبِّ عَظُمت فتنتُهم[2]. وقيل: جوابُ «لما» قولُهم: ﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧]. وقيل: التقديرُ: فلما ذهبوا به من عندِ أبيهم، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابةِ الجُبِّ جعلوه فيها، هذا على مذهب البصريين، وأمَّا على قولِ الكوفيين فالجوابُ: «أوحينا»[3] والواو مقحمةٌ، والواو عندهم تُزاد مع لما وحتى؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] أي: فتحت، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠] أي: فار. قال امرؤُ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحيِّ وانتَحَى[4]

أي: انتحى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٤] أي: ناديناه.

وفي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ دليلٌ على نبوَّته في ذلك الوقت. قال الحسنُ ومجاهدٌ والضَّحاك وقَتادة: أعطاهُ اللهُ النبوة وهو في الجُبِّ على حجرٍ مرتفعٍ عن الماء. وقال الكَلْبي: أُلقي في الجُبِّ وهو ابن ثماني عشرةَ سنة، فما كان صغيراً؛ ومَن قال: كان صغيراً فلا يبعدُ في العقلِ أن يتنبأ الصغيرُ ويُوحى إليه. وقيل: كان وحيَ إلهامٍ كقولِه:

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٣ - ٤١٤ ، والوسيط ٢/ ٦٠٣ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٩ .

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥ ، والكشاف ٢/ ٣٠٦ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩ .

(٣) وقال الطبري في التفسير ١٣/ ٣٠ : «وأجمعوا» هو الجواب.

(٤) وعجزه: بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل، والبيت في ديوانه ص١٥ . وانتحيت لفلان، أي: عرضت له. اللسان (نحي).

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]، وقيل: كان مناماً، والأوّلُ أظهرُ - والله أعلم - وأنَّ جبريل جاءه بالوحي[١].

قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه أوحَى إليه أنه سَيلقاهم ويُوبخُهم على ما صنعوا. فعلى هذا يكونُ الوحي بعدَ إلقائه في الجبِّ تقويةً لقلبه، وتبشيراً له بالسَّلامة.

الثاني: أنه أوحَى إليه بالذي يصنعونَ به؛ فعلى هذا يكون الوحيُ قبلَ إلقائه في الجُبِّ إنذاراً له. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّك يوسف، وذلك أنَّ الله تعالى أَمره لمَّا أفضى إليه الأمر بمصرَ ألَّا يُخبر أباه وإخوتَه بمكانِه. وقيل: بوحي الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابنُ عباس ومجاهد[٢]. وقيل: «الهاء» ليعقوب[٣]، أوحى الله تعالى إليهِ ما فعلُوه بيوسف، وأنَّه سَيُعرِّفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم.

ومما ذُكر من قصتِه إذ أُلقي في الجُبِّ ما ذَكره السُّدِّيُّ وغيرُه، أنَّ إخوتَه لمَّا جعلوا يُدلونَه في البئرِ، تعلَّق بشفير البئرِ، فربطوا يديه، ونَزعوا قميصَه، فقال: يا إخوتاهُ! رُدُّوا عليَّ قميصي أتوارى به في هذا الجُبِّ، فإنْ متُّ كان كفني، وإن عِشتُ أُواري به عورتي؛ فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والأحدَ عشر كوكباً فلتُؤنِسكَ وتَكسُكَ؛ فقال: إني لم أرَ شيئاً. فدلَّوه في البئرِ حتى إذا بلغَ نصفَها ألقَوْه إرادةَ أن يسقطَ فيموتَ، فكان في البئرِ ماءٌ، فسقطَ فيه، ثم آوى إلى صخرةٍ فقامَ عليها[٤].

وقيل: إنَّ شمعون هو الذي قطعَ الحبل إرادةَ أن يتفتتَ على الصخرة، وكان جبريلُ تحت ساق العرش، فأَوحى الله إليه أن أَدرِك عبدي؛ قال جبريل: فأسرعتُ

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣١ - ٣٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٤، والكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩، وزاد المسير ٤/ ١٩٠ - ١٩١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٤، وينظر زاد المسير ٤/ ١٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٠، وزاد المسير ٤/ ١٨٩ - ١٩٠.

وهبطتْ حتى عارَضْتُه بينَ الرمي والوقوعِ، فأقعدتُه على الصخرةِ سالماً، وكان ذلك الجبُّ مأوى الهوامِ، فقام على الصَّخرةِ وجعل يبكي، فنادَوه، فظنَّ أنها رحمةٌ عليه أدركَتْهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخُوه بالصخرةِ، فَمنعَهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيهِ بالطعام، فلما وقعَ عرياناً نزل جبريلُ إليه؛ وكان إبراهيمُ حين أُلقيَ في النار عُرياناً أتاه جبريلُ بقميصٍ من حريرِ الجنةِ، فألبسه إياه، فكان ذلك عندَ إبراهيم، ثم وَرِثَه إسحاق، ثم وَرِثَه يعقوبُ، فلما شَبَّ يوسفُ جعلَ يعقوبُ ذلك القميصَ في تعويذةٍ، وجعله في عنقِه، فكان لا يفارقه، فلما أُلقي في الجُبِّ عرياناً أخرجَ جبريلُ ذلك القميصَ فألبسه إياه[1].

قال وهب: فلمَّا قام على الصخرةِ قال: يا إخوتاه، إنَّ لكل ميتٍ وصيةً، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلُّكم فآنسَ بعضُكم بعضاً، فاذكُروا وَحشَتي، وإذا أكلتم، فاذكُروا جُوعي، وإذا شَرِبتُم، فاذكُروا عطشي، وإذ رأيتم غريباً، فاذكُروا غُربتي، وإذا رأيتم شابًّا، فاذكروا شبابي. فقال له جبريلُ: يا يوسفُ! كُفَّ عن هذا، واشتغل بالدعاءِ، فإنَّ الدعاءَ عند الله بمكان. ثم علَّمه فقال: قلِ: اللهمَّ يا مؤنسَ كلِّ غريب، ويا صاحبَ كلِّ وحيد، ويا ملجأ كلِّ خائف، ويا كاشفَ كلِّ كربة، ويا عالمَ كلِّ نجوى، ويا منتهى كلِّ شكوى، ويا حاضرَ كلِّ ملأ، يا حيُّ يا قيوم، أسألكَ أن تقذفَ رجاءك في قلبي، حتى لا يكونَ لي همٌّ ولا شغلٌ غيرَك، وأن تجعلَ لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شيءٍ قدير. فقالت الملائكة: إلهنا، نسمعُ صوتاً ودعاءً، الصوتُ صوتُ صبيٍّ، والدعاءُ دعاءُ نبيٍّ.

وقال الضَّحاكُ: نزلَ جبريلُ عليه السلام على يوسف وهو في الجبِّ فقال له: ألا أُعلمك كلماتٍ إذا أنت قُلتهنَّ عجَّل الله لك خروجَك من هذا الجبِّ؟ فقال: نَعم! فقال له: قل: يا صانعَ كلِّ مصنوع، ويا جابرَ كلِّ كَسِير، ويا شاهدَ كلِّ نَجْوى، ويا حاضرَ كلِّ ملأ، ويا مفرِّج كلِّ كُرْبة، ويا صاحبَ كلِّ غريب، ويا مؤنسَ كلِّ وحيد،

---

(١) عرائس المجالس ص١١٥ - ١١٦، وتفسير الكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩.

ايتني بالفرجِ والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجوَ أحداً سواك. فردَّدها يوسفُ في ليلته مراراً، فأخرجه الله في صَبيحةِ يومِه ذلك من الجُبِّ[١].

**قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾**

**فيه مسألتان:**

**الأولى:** قولُه تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾ أي: ليلاً، وهو ظرفٌ يكون في موضعِ الحال[٢]؛ وإنَّما جاؤوا عشاءً؛ ليكونوا أقدرَ على الاعتذارِ في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإنَّ الحياءَ في العينين، ولا تَعتذرْ بالنهارِ من ذنب فَتَتلجلج في الاعتذار[٣]، فروي أنَّ يعقوبَ عليه السلام لمَّا سمعَ بكاءَهم قال: ما بكم؟ أَجَرى في الغنمِ شيءٌ؟ قالوا: لا. قال: فأينَ يوسفُ؟ قالوا: ذَهبنا نستبقْ، فأكلَه الذئب، فبكى وصاحَ وقال: أينَ قميصُه؟ على ما يأتي بيانُه إن شاء الله[٤].

وقال السديُّ وابنُ حبَّان: إنَّه لمَّا قالوا: أكلَه الذئبُ خرَّ مغشيًّا عليه، فأفاضوا عليه الماءَ، فلم يتحرك، ونادَوه فلم يُجِب.

قال وهب: ولقد وَضَع يهوذا يده على مخارجِ نَفسِ يعقوب فلم يُحِسَّ بنَفَس، ولم يَتحرَّك له عِرقٌ، فقال لهم يهوذا: ويلٌ لنا من ديَّانِ يومِ الدِّين! ضيَّعنا أخانا، وقَتلنا أبانا، فلم يُفِق يعقوبُ إلا ببردِ السَّحَر[٥]، فأفاقَ ورأسُه في حِجْرِ روبيل، فقالَ: يا روبيل، أَلَم آتمِنْك على ولدي؟ ألم أَعهدْ إليك عهداً؟ فقال: يا أَبتِ! كُفَّ عنِّي بكاءَك أُخبِرْك، فكفَّ يعقوبُ بكاءَه فقالَ: يا أَبتِ ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾.

---

(١) عرائس المجالس ص١١٦، وزاد المسير ٤/ ١٩٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨.

(٣) عرائس المجالس ص١١٧، وينظر زاد المسير ٤/ ١٩١.

(٤) ينظر الوسيط ٢/ ٦٠٣، والكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير الرازي ١٨/ ١٠١.

(٥) ينظر عرائس المجالس ص١١٧.

**الثانية**: قال علماؤنا: هذه الآيةُ دليلٌ على أن بكاءَ المرء لا يدلُّ على صدقِ مقاله، لاحتمالِ أن يكونَ تَصنُّعاً؛ فمن الخلقِ مَن يقدرُ على ذلك، ومنهم مَن لا يقدر. وقد قيل: إن الدمعَ المصنوعَ لا يخفى؛ كما قال حكيم:

إذا اشتبكتْ دموعٌ في خُدودٍ      تبيَّنَ مَنْ بَكى مِمَّنْ تَباكى[١]

**قوله تعالى**: ﴿قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

**فيه سبعُ مسائل**:

**الأولى**: قولُه تعالى: «نَسْتَبِقُ» نفتعل، من المسابقة. وقيل: أي: نَنْتَضِل، وكذا في قراءةِ عبدِ الله: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِل»، وهو نوعٌ من المسابقة؛ قاله الزَّجاج[٢]. وقال الأزهريّ[٣]: النِّضالُ في السِّهام، والرِّهانُ في الخيل، والمسابقةُ تجمعُهما. قال القُشيريُّ أبو نصر: «نَسْتَبِقُ» أي: في الرَّمي، أو على الفرس، أو على الأقدام. والغرضُ من المسابقة على الأقدام تدريبُ النفسِ على العَدْوِ؛ لأنَّه الآلةُ في قتال العدوِّ، ودفعِ الذئبِ عن الأغنام[٤]. وقال السُّدِّيُّ وابنُ حيان[٥]: «نَسْتَبِقُ»: نَشتدُّ جرياً؛ لنرى أيُّنا أسبق[٦].

قال ابنُ العربي[٧]: المسابقةُ شِرْعةٌ في الشَّريعة، وخَصْلةٌ بديعةٌ، وعَونٌ على

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٣ ، والبيت سلف ١٠/ ٣٣٦ .

(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٩٥ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٠١ .

(٣) في الزاهر ص٥٣٦ .

(٤) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ١٠١ .

(٥) في (ظ): أبو حيان.

(٦) زاد المسير ٤/ ١٩١ - ١٩٢ ، عن السدي.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٣ - ١٠٦٤ .

الحرب؛ وقد فَعلها[(١)] ﷺ بنفسِه وبخَيْله، وسابقَ عائشةَ رضي الله عنها على قدميهِ، فسبقَها؛ فلما كَبِر رسولُ الله ﷺ سابقَها فَسبقته، فقال لها: «هذهِ بتلك»[(٢)].

قلتُ: وسابقَ سَلَمةُ بنُ الأكوعِ رجلاً لمَّا رجعوا من ذي قَرَد إلى المدينةِ، فسبقه سَلَمةُ. خرَّجه مسلمٌ[(٣)].

**الثانية**: وروى مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ سابقَ بينَ الخيل التي قد أُضمِرت من الحَفْيَاء، وكان أَمَدُها ثَنِيَّةَ الوداع، وسابقَ بينَ الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّةِ إلى مسجدِ بني زُرَيق، وأنَّ عبدَ الله بنَ عمر كان ممَّن سابقَ بها[(٤)].

وهذا الحديثُ مع صحتِه في هذا الباب تَضمَّن ثلاثةَ شروطٍ، فلا تجوزُ المسابقةُ بدونها، وهي: أنَّ المسافةَ لابدَّ أن تكونَ معلومةً. الثاني: أن تكونَ الخيلُ متساويةَ الأحوال. الثالث: ألَّا يُسابقَ المضمَّرُ مع غيرِ المضمَّر في أمدٍ واحدٍ وغايةٍ واحدة. والخيلُ التي يجبُ أن تَضمَّر ويُسابَق عليها وتقامَ هذه السُّنَّةُ فيها: هي الخيلُ المعدَّة لجهادِ العدوِّ لا لقتالِ المسلمين في الفتن[(٥)].

**الثالثة**: وأمَّا المسابقةُ بالنِّصال والإبل، فروى مسلمٌ[(٦)] عن عبدِ الله بنِ عمرو قال: سَافرنا مع رسولِ الله ﷺ، فَنزلنا منزِلاً، فمِنَّا مَن يُصلِحُ خباءَه، ومنَّا مَن يَنْتضِل. وذكرَ الحديث.

---

(١) في النسخ الخطية وأحكام القرآن: فعله.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١١٨)، والنسائي في الكبرى (٨٨٩٤)، وابن ماجه (١٩٧٩).

(٣) في صحيحه برقم (١٨٠٧)، وهو عند أحمد (١٦٥٣٩) وذو قَرَد: ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر. معجم البلدان ٤/ ٣٢١.

(٤) في الموطأ ٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨، وهو عند البخاري (٢٨٦٩)، ومسلم (١٨٧٠). والحفياء: موضع قرب المدينة أجرى منه رسول الله ﷺ الخيل في السباق. معجم البلدان ٢/ ٢٧٦.

وتضمير الخيل: هو أن يُظاهِر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لاتعلف إلا قوتاً لتخف. النهاية في غريب الحديث (خمر).

(٥) التمهيد ١٤/ ٨١ - ٨٢، والاستذكار ١٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٦) في صحيحه (١٨٤٤).

وخرَّج النسائيُّ(١) عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا سَبَقَ إلا في نَصْلٍ أو خُفٍّ أو حافرٍ». وثبتَ ذكرُ النَّصلِ من حديث ابن أبي ذئب، عن نافع بن أبي نافع، عن أبي هريرة. ذكره النَّسائي؛ وبه يقولُ فقهاءُ الحجازِ والعراق(٢).

وروى البخاريُّ(٣) عن أنس قال: كانَ للنبي ﷺ ناقةٌ تُسمَّى العَضْباءَ لا تُسبَق - قال حُمَيد: أو لا تكادُ تُسبَق - فجاءَ أعرابيٌّ على قَعُود، فَسبقها، فشقَّ ذلك على المسلمين حتى عَرَفه، فقال: «حقٌّ على اللهِ ألَّا يرتفعَ شيءٌ من الدنيا إلَّا وضعه».

**الرابعة**: أجمعَ المسلمون على أنَّ السَّبَق لا يجوزُ على وجهِ الرِّهانِ إلا في الخُفِّ والحافرِ والنَّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثةِ فالسَّبَقُ فيها قِمار.

وقد زادَ أبو البَخْتَرِيِّ القاضي في حديثِ الخُفِّ والحافر والنَّصل: «أو جَناح»، وهي لفظةٌ وضعَها للرشيدِ، فترك العلماءُ حديثَه لذلك ولغيرِه من موضوعاتِه، فلا يَكتُب العلماءُ حديثَه بحالٍ(٤). وقد رُوي عن مالكٍ أنه قال: لا سَبَقَ إلا في الخيلِ والرمي؛ لأنه قوَّة على أهلِ الحرب؛ قال: وسَبَقُ الخيلِ أَحبُّ إلينا من سَبَق الرمي(٥). وظاهرُ الحديثِ يُسوِّي بينَ السَّبَق على النُّجُب(٦) والسَّبَقِ على الخيل. وقد منعَ بعضُ العلماء الرِّهانَ في كلِّ شيءٍ إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادةُ العرب المراهنةَ عليها. ورُوي عن عطاء أنَّ المراهنةَ في كل شيءٍ جائز(٧). وقد تُؤُوِّل عليه(٨)؛ لأنَّ

(١) في الكبرى (٤٤١٠)، والمجتبى ٦/ ٢٢٦.

(٢) التمهيد ١٤/ ٩٤.

(٣) في صحيحه (٢٨٧٢).

(٤) التمهيد ١٤/ ٨٨ و ٩٤، وينظر تاريخ بغداد ١٣/ ٤٥٥. وأبو البختري هو: وهب بن وهب بن كثير القاضي القرشي. قال أحمد: كان يضع الحديث وضعاً. ميزان الاعتدال ٤/ ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٥) التمهيد ١٤/ ٨٤، والاستذكار ١٤/ ٣١٠.

(٦) جمع نجيبة، وهي من الإبل.

(٧) في (م): جائزة.

(٨) في (م): قوله.

حملَه على العمومِ في كلِّ شيءٍ يُؤدِّي إلى إجازة القمار، وهو محرَّمٌ باتفاق[١].

**الخامسة**: لا يجوزُ السَّبَقُ في الخيل والإبل إلا في غايةٍ معلومةٍ وأمدٍ معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرميُ لا يجوزُ السَّبَقُ فيه إلا بغايةٍ معلومة ورَشْقٍ معلوم، ونوعٍ من الإصابةِ مشترط خَسْقاً[٢]، أو إصابة بغيرِ شرط.

والأسباقُ ثلاثةٌ: سَبَقٌ يعطيه الوالي ـ أو الرجلُ غيرُ الوالي ـ من ماله متطوِّعاً، فيَجعلُ للسابقِ شيئاً معلوماً، فمَن سبقَ أخذه. وسَبَقٌ يُخرجُه أحدُ المتسابقَين دون صاحبِه، فإن سَبَقه صاحبُه أخذه، وإن سَبَق هو صاحبَه أَخذه، وحَسُنَ أن يمضيَه في الوجهِ الذي أخرجه له، ولا يَرجِع إلى مالِه، وهذا ممَّا لا خلافَ فيه.

والسَّبقُ الثالث: اختُلِف فيه، وهو أن يُخرِج كلُّ واحد منهما شيئاً مثل ما يُخرِجُه صاحبُه، فأيُّهما سَبَق، أَحرزَ سبقَه وسَبَقَ صاحبِه. وهذا الوجهُ لا يجوزُ حتى يُدخِلا بينهما مُحلِّلاً لا يأمنا أن يَسبِقَهما، فإن سَبَقَ المحلِّلُ أَحرزَ السَّبَقين جميعاً وأخذهما وحدَه، وإن سبقَ أحدُ المتسابقَين، أحرزَ سبَقه وأخذَ سبَق صاحبه، ولا شيءَ للمحلِّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبقَ الثاني منهما الثالثَ كان كمَن لم يسبقْ واحدٌ منهما.

وقال أبو علي بن خيران من أصحابِ الشافعي: وحكمُ الفرس المُحلِّل أن يكونَ مجهولاً جريُه؛ وسمي محلِّلاً؛ لأنه يُحلِّل السَّبَقَ للمتسابقَين أوْ لَهُ. واتفقَ العلماءُ على أنَّه إن لم يكن بينهما محلِّلٌ، واشترطَ كلُّ واحدٍ من المتسابقَين أنَّه إن سبقَ أخذَ سبقَه وسبَق صاحبِه: أنَّه قمارٌ ولا يجوزُ[٣].

وفي «سنن» أبي داود[٤]، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن أدخلَ فرساً بينَ

---

(١) المفهم ٣/ ٧٠١.

(٢) خَسَق السهمُ الهدفَ خَسْقاً: إذا لم ينفُذ نفاذاً شديداً. وقال ابن فارس: إذا ثبت فيه وتعلق. وقال ابن القطاع: إذا نفذ من الرَّميَّة. المصباح المنير (خسق).

(٣) التمهيد ١٤/ ٨٥ - ٨٧، والاستذكار ١٤/ ٣١١ - ٣١٢، والمفهم ٣/ ٧٠١ - ٧٠٢، وإكمال المعلم ٦/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٤) برقم (٢٥٧٩) و(٢٥٨٠)، وهو عند أحمد (١٠٥٥٧).

فَرَسَيْن وهو لا يأمنُ أن يَسبِق؛ فليسَ بقِمار، ومَن أدخلَه وهو يأمنُ أن يَسبِقَ؛ فهو قِمار».

وفي «الموطأ»[1] عن سعيد بنِ المسيب قال: ليسَ برِهانِ الخيل بأسٌ إذا دخلَ فيها محلِّلٌ، فإن سبقَ أخذَ السَّبَقَ، وإن سُبِق لم يكن عليه شيءٌ.

وبهذا قال الشافعيُّ وجمهورُ أهلِ العلم. واختَلَف في ذلك قولُ مالك، فقال مرةً: لا يجبُ المحلِّلُ في الخيل، ولا نأخذُ فيه بقولِ سعيد، ثم قال: لا يجوزُ إلَّا بالمحلِّل، وهو الأجودُ من قوله[2].

**السادسة**: ولا يُحمَلُ على الخيل والإبل في المسابقة إلا مُحتلِمٌ، ولو رَكِبَها أربابُها كان أولى؛ وقد رُويَ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ أنه قال: لا يَركبِ الخيلَ في السباق إلا أربابُها. وقال الشافعي: وأقلُّ السَّبَقِ أن يسبقَ بالهادي أو بعضِه، أو بالكَفَلِ أو بعضِه. والسَّبَق بين[3] الرماةِ على هذا النحوِ عنده، وقولُ محمد بنِ الحسن في هذا الباب نحوُ قولِ الشافعي[4].

**السابعة**: رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سابقَ أبا بكر وعمرَ رضي الله عنهما، فسبقَ رسولُ الله ﷺ، وصلَّى أبو بكر، وثَلَّثَ عمرُ[5]. ومعنى: وصَلَّى أبو بكر. يعني أنَّ رأسَ فرسِه كان عندَ صَلَوي[6] فرسِ رسولِ الله ﷺ، والصَّلَوَان: موضعُ العَجُز.

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: عند ثيابِنا وأقمشتِنا حارساً

---

(١) ٢/٤٦٨ .

(٢) الاستذكار ١٤/٣١١ ، والمفهم ٣/٧٠١ - ٧٠٢ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): من، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد ١٤/٨٦ .

(٤) التمهيد ١٤/٧٩ - ٨٠ و ٨٦ . والهادي: العُنق. والكفلُ: العَجُز، أو رِدفُه، أو القَطَن. القاموس (هدي) و(كفل).

(٥) سلف ١/٢٥٩ .

(٦) في (م): صلا.

لها[١]. ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أنَّهم لمَّا سَمِعوا أباهم يقول: «وأخافُ أن يأكلَه الذئبُ» أخذوا ذلك من فيهِ، فَتحرَّموا[٢] به؛ لأنَّه كان أظهرَ المخاوفَ عليه. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدِّق[٣]. ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ أي: وإنْ كنَّا؛ قاله المبردُ[٤] وابنُ إسحاق[٥]. ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في قولِنا، ولم يُصدِّقهم يعقوبُ؛ لِما ظهرَ له منهم من قوَّةِ التّهمةِ وكثرةِ الأدلةِ على خلافِ ما قالوه؛ على ما يأتي بيانُه. وقيل: «ولو كنا صادِقِين» أي: ولو كنَّا عندَك من أهلِ الثقةِ والصدقِ، ما صَدَّقتنا، ولاتَّهمتنا في هذه القضيةِ، لشدةِ محبتِك في يوسف؛ قال معناهُ الطبريُّ والزَّجاجُ وغيرُهما[٦].

**قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾

**فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى**: قوله تعالى: «بِدَم كَذِب» قال مجاهد: كان دمَ سَخلةٍ أو جَدْيٍ ذبحوه. وقال قتادة: كان دمَ ظبية[٧]، أي: جاؤوا على قميصه بدمٍ مكذوبٍ فيه، فوصفَ الدم بالمصدر، فصار تقديره: بدمٍ ذي كذب، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ والفاعل والمفعول قد يُسمَّيان بالمصدر، يقال: هذا ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبُه، وماءٌ سَكْبٌ، أي:

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤ .

(٢) أي: تمنَّعوا. القاموس (حرم).

(٣) الكشاف ٢/ ٣٠٨ ، وزاد المسير ٤/ ١٩٢ .

(٤) في الكامل ١/ ٣٦١ ، ونقله عنه المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥ ، وزاد المسير ٤/ ١٩٢ .

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦ ، وزاد المسير ٤/ ١٩٢ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٥ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ٣٥ .

مسكوب، وماءٌ غَوْرٌ، أي: غائر، ورجلٌ عَدْلٌ، أي: عادل[١].

وقرأ الحسن وعائشة: «بِدَمٍ كَدِبٍ»، بالدَّال غير المعجمة[٢]، أي: بدم طرِيٍّ، يقال للدَّم الطريّ: الكَدِب. وحُكِيَ أنه المُتغيِّر، قاله الشعبي[٣]. والكَدِبُ أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث. فيجوز أن يكون شَبَّه الدَّم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظُّفْر من جهة اختلاف اللَّوْنَيْن[٤].

**الثانية**: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لمَّا أرادوا أن يجعلوا الدَّمَ علامةً على صِدقهم؛ قَرن الله بهذه العلامة علامةً تُعارضُها، وهي سلامةُ القميص من التَّنيِيب[٥]، إذ لا يمكن افتراسُ الذئب ليوسف وهو لابسٌ القميص ويَسلم القميص من التخريق[٦]. ولما تأمَّل يعقوب عليه السلام القميصَ، فلم يَجِدْ فيه خَرْقاً ولا أثراً؛ استدلَّ بذلك على كذبهم وقال لهم: متى كان هذا الذئب حليماً[٧] يأكل يوسفَ ولا يُخرِّق القميص؟! قاله ابن عباس وغيره[٨].

روى إسرائيل، عن سِمَاك بن حرب، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: كان الدمُ دمَ سَخْلةٍ. وروى سفيان عن سِماك، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: لمَّا نظر إليه قال: كذبتم، لو كان الذئب أكلَه لخرق القميص[٩].

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٨/ ١٠٢ .

(٢) القراءات الشاذة ص٦٢ - ٦٣ عن الحسن، والمحتسب ١/ ٣٣٥ عن الحسن وابن عباس رضي الله عنهما. وعن عائشة رضي الله عنها ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٢٨٩ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٥ .

(٤) ينظر المحتسب ١/ ٣٣٥ .

(٥) في (ظ): التخريق.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٥ .

(٧) في (ظ) و(م): حكيماً.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ . وأخرج هذا الأثر الطبري ١٣/ ٣٦ - ٣٧ .

(٩) أخرجهما الطبري ١٣/ ٣٦ - ٣٨ ، والأثر الثاني عنده من طريق سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وحكى الماورديّ أن في القميص ثلاثَ آيات: حين جاؤوا عليه بدمٍ كذب، وحين قُدَّ قميصُه من دُبُر، وحين أُلْقِيَ على وجه أبيه فارتدَّ بصيراً[١].

قلت: وهذا مردودٌ، فإن القميصَ الذي جاؤوا عليه بالدم غيرُ القميص الذي قُدَّ، وغيرُ القميص الذي أتاه البَشير به. وقد قيل: إنَّ القميص الذي قُدَّ هو الذي أُتيَ به فارتدَّ بصيراً، على ما يأتي بيانُه آخرَ السورة إن شاء الله تعالى[٢].

ورُويَ أنهم قالوا له: بل اللصوص قتلوه. فاختلف قولهم، فاتَّهمهم، فقال لهم يعقوب: تزعُمون أن الذئبَ أكله، ولو أكله لَشَقَّ قميصَه قبل أن يُفضيَ إلى جِلده، وما أرى بالقميص مِن شَقٍّ، وتزعُمون أنَّ اللصوصَ قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصَه، هل يريدون إلَّا ثيابَه؟! فقالوا عند ذلك: وما أنت بِمؤمِنٍ لنا ولو كنا صادِقِين؛ عن الحسن وغيره. أي: لو كنا موصوفين بالصِّدق لاتَّهمتنا[٣].

**الثالثة**: استدلَّ الفقهاءُ بهذه الآية في إعمال الأَمَارات في مسائلَ من الفقه، كالقَسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوبَ عليه السلام استدلَّ على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أنْ يلحَظَ الأماراتِ والعلاماتِ إذا تعارضَتْ، فما ترجَّح منها قضَى بجانب الترجيح، وهي قوة التُّهمَة، ولا خلاف بالحكم بها؛ قاله ابن العربي[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

**فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى**: رُويَ أن يعقوب لما قالوا له: «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ» قال لهم: ألم يترك الذئبُ له عضواً فتأتوني به أستأنس به؟! ألم يترك لي ثوباً أَشَمُّ فيه رائحتَه؟! قالوا: بلى، هذا

(١) النكت والعيون ٣/ ١٥ . وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٥ .

(٢) الآية (٩٣).

(٣) ذكره المصنف قبل هذه الآية ونسبه للطبري والزجاج، وينظر مجمع البيان للطبرسي ١٢/ ٢٨ - ٢٩ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ .

قميصُه ملطوخٌ بدمه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾. فبكى يعقوبُ عند ذلك وقال لبنيه: أَروني قميصَه، فأَرَوْه فشمَّه وقبَّله، ثم جعل يُقَلِّبه فلا يرى فيه شَقًّا ولا تمزيقاً، فقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما رأيتُ كاليوم ذئباً أحلمَ[1] منه، أكل ابني واختلسه من قميصه ولم يُمزِّقه عليه. وعَلِمَ أنَّ الأمرَ ليس كما قالوا، وأن الذئبَ لم يأكله، فأعرض عنهم كالمُغضَب باكياً حزيناً، وقال: يا معشرَ ولدي، دُلُّوني على ولدي، فإنْ كان حيًّا رددتُه إليَّ، وإنْ كان ميتاً كفَّنتُه ودفنتُه. فقيل: قالوا حينئذ: ألم تَروا إلى أبينا كيف يُكذِّبنا في مَقالتنا؟! تعالَوْا نُخرجه من الجُبِّ ونقطعه عضواً عضواً، ونأتِ أبانا بأحدِ أعضائه، فيصدقنا في مقالتنا ويقطع يأسه، فقال يهوذا: والله، لئن فعلتُم لأكوننَّ لكم عدوًّا ما بقيتُ، ولأُخبرنَّ أباكم بسوء صنيعكم، قالوا: فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئباً، قال: فاصطادوا ذئباً ولطَّخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاؤوا به يعقوبُ وقالوا: يا أبانا، إن هذا الذئب الذي يَحُلُّ بأغنامنا ويفترسها، ولعلَّه الذي أفجعنا بأخينا، لا نشكُّ فيه، وهذا دمه عليه، فقال يعقوب: أطلقوه، فأطلقوه، وتَبَصْبَصَ له الذئب، فأقبل يدنو منه ويعقوب يقول له: اُدنُ، اُدنُ، حتى ألصق خدَّه بخدِّهِ فقال له يعقوب: أيها الذئب، لِمَ فجعتَني بولدي وأورثتني حزناً طويلاً؟! ثم قال: اللهمَّ أَنْطِقْهُ، فأنطقه الله تعالى: فقال: والذي اصطفاك نبيًّا، ما أكلتُ لحمه، ولا مزَّقت جلدَه، ولا نتفتُ شعرةً من شعراته، ووالله ما لي بولدك عهدٌ، وإنما أنا ذئبٌ غريبٌ أقبلتُ من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقِدَ، فلا أدري أحيٌّ هو أم ميتٌ، فاصطادني أولادُك وأوثقوني، وإنَّ لحومَ الأنبياء حُرِّمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله، لا أقمتُ في بلاد يكذب فيها أولادُ الأنبياء على الوحوش. فأطلقه يعقوب وقال: والله، لقد أتيتُم بالحُجَّة على أنفسكم، هذا ذئبٌ بهيمٌ خرج يتبع ذِمَام أخيه، وأنتم ضيَّعتم أخاكم، وقد علمت

(١) في (م): أحكم.

أن الذئب بريء مما جئتم به[١].

﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زيَّنت .﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غيرَ ما تصفون وتذكرون. ثم قال توطئةً لنفسه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهي:

**الثانية**: قال الزجّاج[٢]: أي فشأني ـ أو الذي أعتقده ـ صبرٌ جميلٌ. وقال قُطْرُب: أي: فصبري صبرٌ جميلٌ. وقيل: أي: فصبرٌ جميلٌ أولى بي، فهو مبتدأ، وخبره محذوفٌ. ويُروى أن النبيَّ ﷺ سُئل عن الصبر الجميل فقال: «هو الذي لا شكوى معه»[٣]. وسيأتي له مَزيد بيان آخرَ السورة إن شاء الله.

قال أبو حاتم: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهلُ بن يوسف[٤]: «فصبراً جميلاً» قال: وكذا قرأ الأشهبُ العُقَيْلي، قال: وكذا في مصحف أنس وأبي صالح[٥]. قال المبرِّد: «فصبرٌ جميلٌ» بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى: قال: ربِّ عندي صبرٌ جميل، قال[٦]: وإنما النصب على المصدر، أي: فلأَصْبِرنَّ صبراً جميلاً، قال:

شكا إليَّ جَمَلي طُولَ السُّرَى صَبْراً جميلاً فكِلانا مُبْتَلَى[٧]

والصبرُ الجميل هو الذي لا جَزَعَ فيه ولا شكوى. وقيل: المعنى: لا أُعاشركم على كآبة الوجه وعُبوس الجبين، بل أُعاشركم على ما كنت عليه معكم، وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مُؤاخذتهم. وعن حبيب بن أبي ثابت، أن يعقوبَ كان قد سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بخرقة، فقيل له: ما هذا؟ قال: طول الزمان وكثرةُ

---

(١) ينظر عرائس المجالس ص١١٧ - ١١٨ . وهذه القصة من الإسرائيليات.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٨ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤١ عن حبان بن أبي جبلة مرسلاً.

(٤) لعله سهل بن يوسف الأنماطي البصري، أبو عبد الرحمن. توفي سنة (١٩٠هـ). تهذيب الكمال ١٢/ ٢١٣ .

(٥) كذا في النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨ (والكلام منه): أبي صالح، ولعل الصواب أُبَيّ، كما في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ ، والبحر المحيط ٥/ ٢٨٩ .

(٦) يعني أبا جعفر النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٢/ ٣١٨ ، وما قبله منه، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص٦٣ .

(٧) سلف ٣/ ٢٥٠ .

الأحزان، فأوحى الله إليه: أتشكوني يا يعقوب؟! قال: يا ربّ، خطيئةٌ أخطأتُها فاغْفِر لي(١).

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ ابتداء وخبر ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على احتمال ما تَصِفون من الكذب.

**الثالثة**: قال ابن أبي رفاعة(٢): ينبغي لأهل الرأي أن يتَّهموا رأيهم عند ظنّ يعقوب ﷺ وهو نبيّ، حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأصاب هنا، ثم قالوا له: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فلم يُصِبْ.

**قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: رُفقةٌ مارَّةٌ يسيرون من الشام إلى مصر فأخطؤوا الطريقَ، وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجُبّ، وكان الجبُّ في قَفْرةٍ بعيدةٍ من العُمران، إنما هو للرُّعاة والمُجتاز، وكان ماؤه مِلحاً، فَعَذُبَ حين أُلقيَ فيه يوسف(٣). ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ فذكَّر على المعنى، ولو قال: فأرسلَتْ واردَها لكان على اللَّفظ(٤)، مثل «وجاءت». والواردُ الذي يَرِدُ الماء يستقي للقوم، وكان اسمه ـ فيما ذكر المفسرون ـ مالك بن دُعْر(٥)، من العرب العاربة(٦).

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٢ .

(٢) لم نعرفه، ولم نقف على قوله.

(٣) عرائس المجالس ص١١٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩ .

(٥) في النسخ: ذعر، بالذال، وذكر الفيروز آبادي أنه تصحيف، وأن الصواب دعر، بالدال المهملة. القاموس (دعر) و(ذعر).

(٦) ينظر عرائس المجالس ص١١٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥ .

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسله، يقال: أَدلى دلوَه: إذا أَرسلها لِيملأها، ودَلَاها أي: أخرجها. عن الأصمعي وغيره[١]. ودَلا من ذوات الواو، يدلو دَلْواً، أي: جذب وأخرج، وكذلك أَدلى: إذا أرسل، فلما ثقل رَدُّوه إلى الياء، لأنها أخفُّ من الواو، قاله الكوفيون. وقال الخليل وسيبويه: لمَّا جاوز ثلاثةَ أحرف رَجَعَ إلى الياء، اتباعاً للمستقبل. وجمع دَلْو في أقل العدد: أَدْلٍ، فإذا كثُرت قلت: دُلِيّ ودِلِيّ؛ فقلبت الواو ياءً، لأنَّ[٢] الجمعَ بابه التغيير، وليفرَّق بين الواحد والجمع، ودِلاء أيضاً.

فتعلَّق يوسف بالحبل، فلمَّا خرج إذا غلامٌ كالقمر ليلةَ البدر؛ أحسنُ ما يكون من الغلمان. قال ﷺ في حديث الإسراء من «صحيح» مسلم: «فإذا أنا بيوسفَ إذا هو قد أُعطِيَ شَطْرَ الحُسن»[٣]. وقال كعب الأحبار: كان يوسفُ حَسَنَ الوجه، جَعْدَ الشعر، ضخمَ العينين، مُستوي الخَلْق، أبيضَ اللون، غليظَ الساعدين والعَضُدين، خَميصَ البطن، صغيرَ السُّرة، إذا ابتسم رأيتَ النور من ضواحكه، وإذا تكلَّم رأيتَ في كلامه شعاع الشمس من ثناياه، لا يستطيع أحدٌ وَصْفَه، وكان حُسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يُشبه آدمَ عليه السلام يوم خلقَه اللهُ ونفخ فيه من روحه قبل أن يُصيبَ المعصية. وقيل: إنه ورث ذلك الجمال من جدَّته سارة، وكانت قد أُعطيتْ سُدس الحُسن[٤].

فلما رآه مالك بن دُعر قال: ﴿يا بُشْرَايَ هذا غُلَامٌ﴾ هذه قراءةُ أهل المدينة وأهل البصرة[٥]، إلَّا ابن أبي إسحاق فإنه قرأ: «يَا بُشْرَيَّ هذا غُلَامٌ»[٦] فقلب الألف ياءً، لأن هذه الياء يُكسر ما قبلها، فلمَّا لم يَجُزْ كسرُ الألف كان قلبُها عوضاً. وقرأ أهل

---

(١) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٥.

(٢) في النسخ: إلا أن، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩، والكلام منه.

(٣) صحيح مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٢٥٠٥).

(٤) الوسيط ٢/ ٦٠٤، وينظر عرائس المجالس ص١١١ - ١١٢.

(٥) هي قراءة نافع المدني، وأبي عمرو البصري، وابن كثير المكي، وابن عامر الشامي. السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٢، والمحتسب ١/ ٣٣٦.

الكوفة: «يا بُشْرَى»[١] غير مضاف.

وفي معناه قولان: أحدهما: اسمُ الغلام، والثاني: معناه: يا أيتها البُشرى، هذا حِينُك وأوانُك. قال قتادة والسُّدِّيّ: لمَّا أدلى المُدلي دلوه تعلَّق بها يوسف فقال: يا بُشرايَ[٢] هذا غلام. قال قتادة: بشَّر أصحابه بأنه وجد عبداً. وقال السُّديّ: نادى رجلاً اسمه بُشرى.

قال النحاس[٣]: قول قتادة أولى؛ لأنه لم يأتِ في القرآن تسميةُ أحد إلا يسيراً، وإنما يأتي بالكناية كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان:٢٧]، وهو عُقبة بن أبي مُعيط، وبعده ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨]، وهو أميةُ ابن خَلَف. قال النحاس[٤]: والمعنى في نداء البُشرى: التبشير لمن حضر، وهو أوكدُ من قولك: تبشَّرت، كما تقول: يا عجباه! أي: يا عجبُ هذا من أيامك ومن آياتك فاحضُرْ، وهذا مذهب سيبويه[٥]، وكذا قال السُّهيلي[٦]. وقيل: هو كما تقول: واسروراه! وأنَّ البشرى مصدر من الاستبشار. وهذا أصحُّ؛ لأنه لو كان اسماً علَماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلِّم؛ وعلى هذا يكون «بُشْرَايَ» في موضع نصب؛ لأنه نداءُ مضاف، ومعنى النداء هاهنا التنبيه، أي: انتبهوا لفرحتي وسروري، وعلى قول السُّدِّيّ يكون في موضع رفع كما تقول: يا زيدُ، هذا غلام. ويجوز أن يكونَ محلُّه نصباً كقولك: يا رجلاً، وقولِه: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠]، ولكنه لم يُنون «بُشْرَى» لأنه لا ينصرف[٧].

---

(١) السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣.

(٢) في (م): بشرى.

(٣) في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩، وما قبله منه، والأقوال السالفة أخرجها الطبري ١٣/ ٤٣ - ٤٤.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٦.

(٥) الكتاب ٢/ ٢١٧، وينظر ما سلف ٨/ ٣٥٨.

(٦) في التعريف والإعلام ص٨٠، وما بعده منه.

(٧) ينظر الكشف عن وجوه القراءات لمكي ٢/ ٧، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ الهاء كنايةٌ عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكنايةٌ عن إخوته. وقيل: عن التجار الذين اشتَرَوْه[١]، وقيل: عن الوارد وأصحابه[٢]. «بِضَاعَةً» نصبٌ على الحال. قال مجاهد: أسرَّه مالك بن دُعْر وأصحابُه من التجار الذين معهم في الرُّفقة، وقالوا لهم: هو بضاعةٌ استبضعناها بعضَ أهل الشام، أو أهل هذا الماء إلى مصر، وإنما قالوا هذا خِيفةَ الشركة[٣]. وقال ابن عباس: أسرَّه إخوةُ يوسف بضاعةً لمَّا استُخرج من الجبِّ، وذلك أنهم جاؤوا فقالوا: بئس ما صنعتُم؛ هذا عبدٌ لنا أَبِق، وقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تُقرَّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك، فقال: أنا أُقِرُّ لكم بالعبودية، فأقرَّ لهم فباعوه منهم[٤].

وقيل: إن يهوذا وصَّى أخاه يوسفَ بلسانهم أن اعترِفْ لإخوتك بالعبودية، فإني أَخشى إنْ لم تفعل قتلوك، فلعل الله أن يجعلَ لك مخرجاً، وتنجوَ من القتل، فكتَم يوسفُ شأنَه مخافةَ أن يقتله إخوته، فقال مالك: والله، ما هذه سِمة العبيد، قالوا: هو تَربَّى في حُجورنا، وتخلَّق بأخلاقنا، وتأدَّب بآدابنا، فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا، تربَّيت في حُجورهم، وتخلَّقت بأخلاقهم، فقال مالك: إنْ بعتموه مني اشتريتُه منكم، فباعوه منه[٥]، فذلك:

## قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾

**فيه ستُّ مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يقال: شَريتُ بمعنى اشتريتُ، وشَريت بمعنى

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٦ - ٤٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٦ - ٤٧، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤١٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٩ مختصراً.

(٥) عرائس المجالس ص١١٨ - ١١٩ بنحوه.

بِعتُ لغةً[١]، قال الشاعر:

وشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَني مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ[٢]

أي: بِعتُ. وقال آخر:

فلمَّا شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً وفي الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ[٣]

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: نقصٍ، وهو هنا مصدرٌ وُضِعَ موضع الاسم، أي: باعوه بثمنٍ مبخوس، أي: منقوص. ولم يكن قصدُ إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدُهم ما يستفيدونه من خُلوِّ وجه أبيهم عنه[٤].

وقيل: إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسفَ أُخرج من الجبِّ، فأخبر إخوته فجاؤوا وباعوه من الواردة. وقيل: لا، بل عادوا بعد ثلاثٍ إلى البئر يتعرَّفون الخبر، فرأوا أثَرَ السيارة فاتَّبعوهم وقالوا: هذا عبدُنا أَبَقَ منَّا، فباعوه منهم[٥].

وقال قتادة: «بَخْس»: ظلم. وقال الضَّحَّاك ومقاتل والسّدِّيّ وابن عطاء: «بَخْس»: حرام[٦].

وقال ابن العربي[٧]: ولا وجهَ له، وإنما الإشارةُ فيه إلى أنه لم يُستوفَ ثمنُه

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٢) قائله يزيد بن مُفَرِّغ الحميري، وسلف ٣/ ٣٩١ ، وبرد: اسم غلام ندم على بيعه. المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠ . والهامة: من طيور الليل، كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يُدرَك بثأره تصير هامة فتزقُو عند قبره، تقول: اسقوني، اسقوني، فإذا أدرك بثأره طارت. الصحاح (هيم).

(٣) قائله الشمَّاخ بن ضرار، وهو في ديوانه ص١٩٠ ، وفيه: الوجد، بدل: اللوم. والحزَّاز: ما حزَّ في القلب. والحَمَازة: الشِّدَّة، وقد حَمُزَ الرجل، بالضم، فهو حميز الفؤاد وحامز. الصحاح (حزز) و(حمز).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٥) ينظر عرائس المجالس ص١١٨ - ١١٩ .

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٥٤ - ٥٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٧ .

بالقيمة؛ لأن إخوته إنْ كانوا باعوه فلم يكن قصدُهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدُهم ما يستفيدون من خُلوّ وجه أبيهم عنه، وإنْ كان الذين باعوه الواردةَ، فإنهم أخفَوْه مقتطَعاً، أو قالوا لأصحابهم: أُرسلَ معنا بضاعةً، فرأوا أنهم لم يُعطُوا عنه ثمناً، وأنّ ما أخذوا فيه ربحٌ كلّه.

قلت: قوله: وإنما الإشارةُ فيه إلى أنه لم يُستوفَ ثمنُه بالقيمة؛ يدلُّ على أنهم لو أخذوا القيمةَ فيه كاملةً كان ذلك جائزاً. وليس كذلك، فدلَّ على صحة ما قاله السُّديّ وغيره؛ لأنهم أوقعوا البيعَ على نفس لا يجوز بيعُها، فلذلك كان لا يحلُّ لهم ثمنُه.

وقال عِكرمة والشّعبي: قليل[1]. وقال ابن حيَّان: زَيْف[2]. وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهماً، أخذَ كلُّ واحد من إخوته درهمين، وكانوا عشرةً، وقاله قتادة والسُّدِّيّ. وقال أبو العالية ومقاتل: اثنين وعشرين درهماً، وكانوا أحدَ عشرَ، أخذَ كلُّ واحدٍ درهمين، وقاله مجاهد. وقال عِكرمة: أربعين درهماً[3]. وما رُويَ عن الصحابة أولى. و«بخسٍ» من نعت «ثمن».

﴿دَرَٰهِمَ﴾ على البدل والتفسير له. ويقال: دراهيم على أنه جمع دِرهام، وقد يكون اسماً للجمع عند سيبويه، ويكون أيضاً عنده على أنه مدَّ الكسرة فصارت ياءً، وليس هذا مثل مدِّ المقصور؛ لأن مدَّ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره. وأنشد النحويون:

تَنْفي يداها الحَصَى في كلِّ هاجِرةٍ نَفْيَ الدّراهِيمِ تَنْقادُ الصَّيَارِيفِ[4]

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٥.

(٢) أورده البغوي ٢/ ٤١٦ عن ابن عباس وابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٥٦ - ٥٩، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦، وزاد المسير ٤/ ١٩٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠، والبيت للفرزدق، وهو في الكتاب ١/ ٢٨، والكامل للمبرد ١/ ٣٢٩، والخزانة ٤/ ٤٢٦. ويصف فيه ناقته بسرعة السير في الهاجرة، فيقول: إن يديها لشدة وقعها في الحصى ينفيانه، فيقرع بعضه بعضاً، ويُسمع له صليل كصليل الدنانير إذ انتقدها الصَّيرفي، فنفى رديئَها عن جيِّدها. وخصَّ الهاجرة لتعذر السير فيها. الخزانة.

﴿مَعْدُودَةٍ﴾ نعت، وهذا يدل على أن الأثمانَ كانت تجري عندهم عدًّا لا وزناً بوزن. وقيل: هو عبارةٌ عن قِلَّة الثمن؛ لأنها دراهمُ لم تبلغ أنْ تُوزن لِقلَّتها، وذلك أنهم كانوا لا يَزِنون ما كان دون الأُوقِيَّة، وهي أربعون درهماً[١].

**الثانية**: قال القاضي ابن العربي[٢]: وأصلُ النقدين الوزن، قال ﷺ: «لا تبيعوا الذَّهبَ بالذهبِ، ولا الفضةَ بالفضة، إلا وزناً بوزن، مَن زادَ أو ازدادَ فقد أَرْبى»[٣]. والزِّنة لا فائدةَ فيها إلَّا المقدار، فأما عينُها فلا منفعةَ فيه، ولكن جرى فيها العدُّ تخفيفاً عن الخَلْق لِكَثْرة المُعاملة، فيشقُّ الوزن، حتى لو ضُرب مثاقيلُ أو دراهمُ لجاز بيعُ بعضها ببعض عدًّا إذا لم يكن بها نُقصان ولا رُجحان، فإن نقصَتْ عاد الأمرُ إلى الوزن، ولأجل ذلك كان كسرُها أو قَرْضُها من الفساد في الأرض حَسَبَ ما تقدَّم[٤].

**الثالثة**: واختلف العلماءُ في الدراهم والدنانير هل تتعيَّن أم لا؟ وقد اختلفت الروايةُ في ذلك عن مالك؛ فذهب أشهبُ إلى أن ذلك لا يتعيَّن، وهو الظاهرُ من قول مالك، وبه قال أبو حنيفة. وذهبَ ابن القاسم إلى أنها تتعيَّن، وحُكي عن الكَرْخيّ، وبه قال الشافعي. وفائدة الخلاف أنَّا إذا قلنا: لا تتعيَّن؛ فإذا قال: بعتك هذه الدنانير بهذه الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها، ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها.

**الرابعة**: رُويَ عن الحسن بن علي رضيَ الله عنهما أنه قضى في اللَّقيط أنه حرّ، وقرأ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وقد مضى القولُ فيه[٥].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٨ - ١٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٧ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٢٩)، ومسلم (١٥٨٧) بنحوه مطولاً من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١٠٠٦)، والبخاري (٢١٧٦)، ومسلم (١٥٨٤)، وعن أبي بكرة ﷺ عند أحمد (٢٠٣٩٥) والبخاري (٢١٧٥) ومسلم (١٥٩٠). وعن أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٥٨)، ومسلم (١٥٨٨).

(٤) ٣/ ٣٨٧ ، ص١٩٥-١٩٧ من هذا الجزء.

(٥) ص٢٦٦ من هذا الجزء، وسلف قول الحسن ثمة.

**الخامسة**: قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ قيل: المراد إخوته. وقيل: السيَّارة. وقيل: الواردة، وعلى أيّ تقدير فلم يكن عندهم غَبيطاً، لا عند الإخوة؛ لأن المقصدَ زوالُه عن أبيه لا ماله. ولا عند السيَّارة؛ لقول الإخوة: إنه عبد أبَق منا؛ والزهد قِلَّة الرَّغبة. ولا عند الواردة؛ لأنهم خافوا اشتراكَ أصحابهم معهم، ورأَوْا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى[(١)].

**السادسة**: في هذه الآية دليلٌ واضحٌ على جواز شراء الشيء الخَطير بالثمن اليَسير، ويكون البيعُ لازماً، ولهذا قال مالك: لو باع دُرَّةً ذاتَ خطرٍ عظيمٍ بدرهمٍ ثم قال: لم أعلمْ أنها دُرَّةٌ وحَسِبتُها مَخْشَلَبَةً[(٢)] لزمه البيع، ولم يُلتفت إلى قوله. وقيل: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: في حُسنه؛ لأن الله تعالى وإنْ أعطى يوسفَ شَطْر الحُسن؛ صرف عنه دواعيَ نفوس القوم إليه إكراماً له. وقيل: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لم يعلموا منزلتَه عند الله تعالى[(٣)]. وحكى سيبويه والكسائي: زَهِدتُ وزَهَدتُ؛ بكسر الهاء وفتحها[(٤)].

**قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ قيل: الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، إذْ لم يكن ذلك عقداً، مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]. وقيل: إنهم ظنُّوه في ظاهر الحال اشتراءً، فجرى هذا اللفظ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٢) المَخْشَلبة: كلمة عراقية، ليس على بنائها شيء من العربية، وهي تُتَّخذ من الليف والخرز، أمثالَ الحليّ. اللسان (شخلب). ولم نقف على قول مالك المذكور.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١ عن الضحاك وابن جريج.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠ .

على ظاهر الظنّ. قال الضَّحَّاك: هذا الذي اشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز. السُّهيلي[(١)]: واسمه قطفير. وقال ابن إسحاق: إطفير بن رويحب[(٢)]؛ اشتراه لامرأته راعيل؛ ذكره الماورديّ[(٣)]. وقيل: كان اسمها زَلِيخَاء، وكان اللهُ ألقى محبةَ يوسفَ على قلب العزيز، فأوصى به أهلَه، ذكره القُشيريّ. وقد ذكر القولين في اسمها الثّعلبيّ[(٤)] وغيره.

وقال ابن عباس: إنما اشتراه قطفير وزيرُ ملك مصر، وهو الريَّان بن الوليد. وقيل: الوليد بن الريَّان، وهو رجلٌ من العمالقة[(٥)]. وقيل: هو فرعون موسى[(٦)]، لقول موسى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وأنه عاشَ أربعَ مئة سنة. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتي في «غافر» بيانه[(٧)].

وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسفَ على خزائن الملك، واشترى يوسفَ من مالك بن دُعْر بعشرين ديناراً، وزاده حُلَّةً ونعلين[(٨)]. وقيل: اشتراه من أهل الرُّفقة. وقيل: تزايدوا في ثمنهِ فبلغ أضعافَ وَزْنه مِسْكاً وعنبراً وحريراً ووَرِقاً وذهباً ولآلئ وجواهرَ لا يعلم قيمتَها إلّا الله، فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن، قاله وهب بن منبِّه[(٩)].

---

(١) التعريف والإعلام ص٨٠ .

(٢) في تفسير الطبري ١٣/ ٦١ ، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٥ : روحيب.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٩ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦١ - ٦٢ .

(٤) ذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٠ أن اسمها راعيل، أو بكا بنت فيوش. وذكر الاسمين اللذين أوردهما المصنف رحمه الله ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣١ ، والبغوي في تفسيره ٢/ ٤١٦ .

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٦١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠ ، قال ابن عطية: وهذا ضعيف.

(٧) في تفسير الآية (٣٤)، وينظر تفسير الرازي ١٨/ ١٠٨ .

(٨) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩ .

(٩) عرائس المجالس ص١٢٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦ .

وقال وهب أيضاً وغيره: ولمَّا اشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً: هذا ما اشترى مالك بن دُعر من بني يعقوب، وهم فلان وفلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً، وقد شرطوا له أنه آبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيَّداً مسلسلاً، وأعطاهم على ذلك عهد الله. قال: فودَّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حَفِظكم الله وإنْ ضيَّعتموني، نَصَركم الله وإنْ خَذَلتموني، رَحِمكم الله وإن لم ترحموني. قالوا: فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عَبِيطاً لشدّة هذا التوديع، وحملوه على قَتَبٍ بغير غطاء ولا وِطاء، مقيَّداً مكبَّلاً مُسلسلاً، فمرَّ على مقبرة آل كنعان، فرأى قبرَ أُمّه، وقد كان وُكّلَ به أسودُ يحرُسه، فَغَفَل الأسود، فألقى يوسفُ نفسَه على قبر أمّه، فجعل يتمرَّغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول: يا أماه، ارفعي رأسَك تَرَيْ ولدك مكبَّلاً مقيَّداً مسلسلاً مغلولاً، فرّقوا بيني وبين والدي، فاسألي اللهَ أن يجمع بيننا في مستقرّ رحمته، إنه أرحمُ الراحمين، فتفقَّده الأسودُ على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياضٍ على قبر، فتأمَّله، فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرَّغه وضربه ضرباً وجيعاً، فقال له: لا تفعل، والله ما هربتُ ولا أَبَقتُ، وإنما مررتُ بقبر أمي فأحببتُ أنْ أُودِّعَها، ولن أرجع إلى ما تكرهون، فقال الأسود: واللهِ إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرةً وأُمَّك أخرى! فهلَّا كان هذا عند مواليك، فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنْ كانت لي عندك خطيئةٌ أخلقت بها وجهي، فأسألك بحقّ آبائي إبراهيم وإسحاقَ ويعقوبَ أن تغفرَ لي وترحمني. فضجَّت الملائكةُ في السماء، ونزل جبريلُ فقال له: يا يوسف، غُضَّ صوتَك، فلقد أبكيتَ ملائكةَ السماء، أفتريدُ أن أقلِبَ الأرض فأجعلَ عاليَها سافلَها؟ قال: تثبَّت يا جبريل، فإنَّ الله حليمٌ لا يعجَل، فضرب الأرضَ بجناحه فأظلمت، وارتفع الغبار، وكَسَفَت الشمس، وبقيت القافلةُ لا يعرِفُ بعضُها بعضاً، فقال رئيسُ القافلة: مَن أحدثَ منكم حدثاً؟ فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثلُ هذا، فقال الأسود: أنا لطمتُ ذلك الغلامَ العبرانيّ، فرفع يدَه إلى السماء وتكلَّم بكلامٍ لا أعرفه، ولا أشكُّ أنه دعا علينا، فقال له: ما أردتَ

إلا هلاكَنا! ايتِنا به، فأتاه به، فقال له: يا غلام، لقد لطمك هذا العبد[١]، فجاءنا ما رأيت، فإنْ كنتَ تقتصّ فاقتصَّ ممن شئت، وإنْ كنت تعفو فهو الظنّ بك، قال: قد عفوتُ رجاءَ أن يعفوَ الله عني، فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارقُ الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعَشيّ ويُكرمه، حتى وصل إلى مصر، فاغتسل في نيلها، وأذهب اللهُ عنه كآبةَ السفر، وردَّ عليه جمالَه، ودخل به البلد نهاراً، فسطعَ نورُه على الجُدران، وأوقفوه للبيع[٢]، فاشتراه قطفير وزيرُ الملك؛ قاله ابن عباس على ما تقدَّم[٣].

وقيل: إن هذا المَلِك لم يَمُتْ حتى آمنَ واتَّبع يوسفَ على دينه، ثم مات الملك ويوسفُ يومئذ على خزائن الأرض، فملك بعده قابوس وكان كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى[٤].

﴿أَكْرِمِي مَثْوَنهُ﴾ أي: منزلَه ومُقامَه بطيب المَطْعم واللِّباس الحَسَن، وهو مأخوذ من ثوى بالمكان، أي: أقام به[٥]، وقد تقدَّم في «آل عمران»[٦] وغيره.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: يكفيَنا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾. قال ابن عباس: كان حَصُوراً لا يُولَد له، وكذا قال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولَد له[٧]. فإن قيل: كيف قال: «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» وهو مِلكه، والوَلَدية مع

---

(١) قوله: هذا العبد، من (ظ).

(٢) الخبر من الإسرائيليات، وينظر عرائس المجالس للثعلبي ص١١٩ - ١٢٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٥.

(٣) ص٢٩٩ من هذا الجزء.

(٤) تفسير الرازي ١٨/ ١٠٨.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ١٠٩.

(٦) ٥/ ٣٥٧.

(٧) قول ابن عباس ﷺ ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٥، والرازي في تفسيره ١٨/ ١٠٩ دون نسبة. وقول ابن إسحاق أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣.

العَبْديّة[١] تتناقض؟ قيل له: يُعْتِقُه ثم يتَّخذه ولداً بالتَّبنّي، وكان التَّبنّي في الأُمَم معلوماً عندهم، وكذلك كان في أوّل الإسلام، على ما يأتي بيانه في «الأحزاب»[٢] إن شاء الله تعالى.

وقال عبد الله بن مسعود: أحسنُ الناس فِراسةً ثلاثة، العزيزُ حين تفرَّس في يوسف، فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وبنتُ شُعيب حين قالت لأبيها في موسى: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، وأبو بكر حين استخلفَ عمرَ[٣].

قال ابن العربي[٤]: عجباً للمفسرين في اتِّفاقهم على جلب هذا الخبر! والفِراسةُ هي علم غيب[٥]، على ما يأتي بيانه في سورة الحجر[٦]، وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأن الصدِّيق إنما ولَّى عمرَ بالتجربة في الأعمال والمواظبة على الصُّحبة وطُولها، والاطِّلاع على ما شاهد منه من العلم والمِنَّة، وليس ذلك من طريق الفِراسة، وأما بنتُ شعيب؛ فكانت معها العلامةُ البينة على ما يأتي بيانُه في «القَصَص»[٧]. وأما أمرُ العزيز فيمكن أن يُجعلَ فِراسةً؛ لأنه لم يكن معه علامةٌ ظاهرةٌ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الكاف في موضع نصب، أي: وكما أنقذناه من إخوته ومن الجُبِّ؛ فكذلك مكنَّا له، أي: عطَّفنا عليه قلبَ الملك الذي اشتراه حتى تمكَّن من الأمر والنهي في البلد الذي الملِكُ مستولٍ عليه[٨].

---

(١) في (ظ): والوالدية مع العبودية.

(٢) في تفسير الآيتين (٤) و(٣٧).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٨ ، وقول ابن مسعود ﷺ السالف فيه.

(٥) في (م): غريب، وفي أحكام القرآن لابن العربي: غريبٌ حدُّه.

(٦) في تفسير الآية (٧٥).

(٧) في تفسير الآية (٢٦).

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠ .

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: فعلنا ذلك تصديقاً لقول يعقوب: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦]. وقيل: المعنى مكنّاه لِنُوحيَ إليه بكلام منّا، ونعلّمه تأويلَه وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتمَّ الكلام(١).

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الهاء راجعةٌ إلى الله تعالى، أي: لا يغلِبُ اللهَ شيءٌ، بل هو الغالبُ على أمر نفسه فيما يُريده أن يقول له: كُنْ، فَيَكُونُ. وقيل: ترجع إلى يوسف، أي: الله غالبٌ على أمر يوسف يُدبِّره ويَحوطه ولا يَكِلُه إلى غيره، حتى لا يصِلَ إليه كَيْدُ كائد(٢).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يطَّلعون على غَيبِه. وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأن أحداً لا يعلم الغيب. وقيل: هو مُجرى على ظاهره، إذْ قد يُطلِعُ من يُريد على بعض غَيبه. وقيل: المعنى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله غالبٌ على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقَدَر(٣).

وقالت الحكماء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ حيث أمره يعقوبُ ألَّا يقصَّ رؤياه على إخوته، فغلب أمرُ الله حتى قَصَّ، ثم أراد إخوته قتلَه، فغلبَ أمرُ الله حتى صار مَلِكاً وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أنْ يَخْلُوَ لهم وجهُ أبيهم، فغلب أمرُ الله حتى ضاق عليهم قلبُ أبيهم وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، ثم تدبَّروا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، أي: تائبين، فغلب أمرُ الله حتى نسوا الذنبَ وأصرُّوا عليه حتى أقرّوا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: إنَّا كُنَّا خاطِئِينَ، ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص، فغلب أمرُ الله، فلم ينخدع، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:٨٣]، ثم احتالوا في أنْ تزولَ محبته من قلب أبيهم، فغلب أمرُ الله

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤١٧، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٠.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٦.

فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دَبَّرت امرأةُ العزيز أنها إن ابتدرتْه بالكلام غلبته، فغلب أمرُ الله حتى قال العزيز: «اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِك إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» [يوسف:٢٩]، ثم دَبَّر يوسف أن يتخلّص من السجن بذكر الساقي، فغلب أمرُ الله فَنَسِيَ الساقي، ولَبِثَ يوسفُ في السجن بِضع سنين[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ «أَشُدَّه» عند سيبويه جمع، واحده شِدَّة. وقال الكسائي: واحده شَدٌّ، كما قال الشاعر:

عَـهْـدِي بـه شَـدَّ الـنَّـهـارِ كـأنَّـمَـا خُضِبَ البَنانُ[٢] ورأسُه بالعِظْلِمِ[٣]

وزعم أبو عُبيدة[٤] أنه لا واحدَ له من لفظه عند العرب، ومعناه استكمال القوّة، ثم يكون النقصان بعد. وقال مجاهد وقتادة: الأَشُدُّ ثلاثٌ وثلاثون سنة. وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس: الأَشُدُّ بلوغ الحُلُم[٥]، وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و«الأنعام» مستوفًى[٦].

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ قيل: جعلناه المُستوليَ على الحُكْم، فكان يحكم في سلطان الملك، أي: وآتيناه عِلماً بالحُكْم[٧]. وقال مجاهد: العقل والفهم والنبوّة[٨].

---

(١) الكلام بنحوه في زاد المسير ٤/ ١٩٩ .

(٢) في (م): اللَّبان، وهي رواية كما في الخزانة ٩/ ٤٩٢ ، واللَّبان: الصدر.

(٣) قائله عنترة العبسي، وهو في ديوانه ص٢٧ ، وفيه: مدَّ النهار، بدل: شدَّ النهار ـ وهما روايتان كما في الخزانة ـ وقد أورد البيت بلفظ المصنف النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢١ ، والكلام منه، والعظلم: صبغ أحمر. اللسان (عظلم).

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): أبو عبيد، والمثبت من (ف) وإعراب القرآن للنحاس، وقول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣٠٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١ ، والأقوال السالفة أخرجها الطبري ١٣/ ٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١١٨ -٢١١٩ .

(٦) ٦/ ٦٠ - ٦١ (النساء) و ٩/ ١١١ - ١١٢ (الأنعام).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨ وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١١٩ ، بلفظ: العقل والعلم قبل النبوة.

وقيل: الحُكْم النبوّة[1]، والعِلم عِلم الدين، وقيل: علم الرؤيا[2]، ومن قال: أوتي النبوَّة صبيًا قال: لمَّا بلغ أَشُدَّه زِدْناه فهماً وعلماً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنين. وقيل: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف، قاله الضحاك[3]. وقال الطبريّ[4]: هذا وإن كان مخرجُه ظاهراً على كل مُحسِن؛ فالمراد به محمد ﷺ، يقول الله تعالى: كما فعلتُ هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيتُه ما أعطيتُه، كذلك أُنجيك من مُشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأُمكّن لك في الأرض.

**قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهي امرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها. وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين. والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ؛ وقيل: هي من رُويد؛ يقال: فلان يمشي رُوَيْداً، أي: برفق؛ فالمراودة: الرفق في الطلب؛ يقال في الرجل: راوَدَها عن نفسها، وفي المرأة: راوَدَتْه عن نفسه. والرَّوْد: التأنّي؛ يقال: أَرْوَدَني: أمهلني.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ غلّق للتكثير، ولا يقال: غلَقَ البابَ، وأغلقَ يقع للكثير والقليل، كما قال الفَرَزْدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلتُ أُغلقُ أبواباً وأفتحُها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارِ[5]

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٢٠ عن السدي.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢١، وزاد المسير ٤/ ٢٠١.

(٣) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٠١ دون نسبة.

(٤) في تفسيره ١٣/ ٦٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١، والبيت في أدب الكاتب ص٤٦١، والبيان والتبيين ١/ ٣٢١ وهو =

يقال: إنَّها كانت سبعةَ أبواب غلَّقَتْها ثم دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هَلُمَّ وأقْبِلْ وتَعالَ، ولا مصدرَ له ولا تصريف[١].

قال النحاس[٢]: فيها سبعُ قراءات، فمِن أجلِّ ما فيها وأصحِّه إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائِل قال: سمعتُ عبدَ الله بن مسعود يقرأ: «هَيْتَ لَكَ» قال: فقلت: إنَّ قوماً يقرؤونها: «هِيتُ لك»، فقال: «إنَّما أقرأُ كما عُلِّمت»[٣].

قال أبو جعفر[٤]: وبعضهم يقول: عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ، ولا يبعُدُ ذلك؛ لأنَّ قوله: إنَّما أقرأ كما علِّمت، يدلُّ على أنه مرفوع. وهذه القراءةُ بفتح التاء والهاء هي الصحيحةُ من قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة. وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصمٌ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيّ[٥].

قال عبد الله بن مسعود: لا تَنَطَّعوا[٦] في القرآن؛ فإنما هو مِثْلُ قول أحدِكم: هَلمَّ وتَعالَ[٧].

وقرأ ابن أبي إسحاق النَّحويُّ: «وقَالَتْ هَيْتِ لَكَ»؛ بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ

---

= فيهما برواية: ما زلت أفتح أبواباً وأغلقها. وقد يأتي غلَّق مع المفرد، فيقال: غلَّقْتُ الباب، وذلك إذا أغلقت باباً واحداً مراراً، أو أحكمت إغلاق باب. مفردات الراغب (غلق).

(١) الوسيط ٢/ ٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢ .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٠٤) و(٤٠٠٥)، وقد قيد صاحب بذل المجهود ١٦/ ٣٣٢ «هيت» الثانية في إحدى الروايتين بكسر الهاء وسكون الياء وضم التاء، والرواية الثانية مثلها ولكن بهمزة بدل الياء، أي: «هِئْتُ». وقد أخرجه مختصراً البخاري (٤٦٩٢).

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢ .

(٥) السبعة ص٣٤٧ ، والتيسير ص١٢٨ عن أبي عمرو وحمزة وعاصم والكسائي.

(٦) في (د) و(م): تقطعوا.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢١٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٠ ، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٨٨ ، والطبري ١٣/ ٧٧ . قال ابن الأثير في النهاية (نطع): أراد النهي عن الملاحاة في القراءات المختلفة، وأنَّ مرجعها إلى وجه واحد من الصواب، كما أن هلم بمعنى تعال.

أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وابن كثير: «هَيْتُ لَكَ»؛ بفتح الهاء وضمِّ التاء[1]؛ قال طَرَفة:

لـيـس قـومـي بـالأبْـعَـدِيـنَ إذا مـا ... قـال داعٍ مـن الـعَـشـيـرة هَـيْـتُ[2]

فهذه ثلاثُ قراءاتٍ الهاءُ فيهنَّ مفتوحة.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ: «وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ» بكسر الهاء وفتح التاء[3].

وقرأ يحيى بن وثَّاب: «وَقَالَت هِيتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها ياءٌ ساكنة والتاءُ مضمومة. ورُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ وابن عباس ومجاهد وعكرمة: «وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة[4].

وعن ابن عامر وأهلِ الشام: «وَقَالَتْ هِئْتَ» بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء[5].

قال أبو جعفر[6]: «هيتَ لَكَ» بفتح التاء لالتقاء الساكنين؛ لأنه صوتٌ نحو: مَهْ وصَهْ، يجب ألَّا يُعْرَب، والفتح خفيف[7]؛ لأنَّ قبلَ التاء ياءً مثل: أيْنَ وكيفَ. ومَن كَسَر التاء فإنَّما كَسَرها لأنَّ الأصل الكسر؛ لأنَّ الساكن إذا حرِّك حرِّك إلى الكسر، ومَن ضمَّ فلِأنَّ فيه معنى الغاية، أي: قالت: دعائي لك، فلما حُذفت الإضافة بُني على الضم، مثل: حيثُ وبعدُ.

وقراءة أهل المدينة فيها قولان: أحدهما: أن يكون الفتحُ لالتقاء الساكنين كما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٢، وقراءة ابن كثير في السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، وقراءة ابن أبي إسحاق في المحتسب ١/ ٣٣٧.

(٢) ديوان طرفة ص١٤٣.

(٣) السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن نافع وأبي جعفر وابن ذكوان راوي ابن عامر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١، وقراءة علي وابن عباس ـ ﷺ ـ في المحتسب ١/ ٣٣٧.

(٥) السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨ وهي من رواية هشام عن ابن عامر.

(٦) هو النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢، وما قبله منه.

(٧) إلى هذا الموضع كلام النحاس، وما بعده من معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٠.

مرَّ. والآخَر: أن يكون فعلاً من: هَاءَ يَهِيء، مثل: جاء يجيء. فيكون المعنى في «هِيتَ» أي: حَسُنَتْ هَيئتُك [وخفف الهمزة]، ويكون «لَكَ» من كلامٍ آخر، كما تقول: لكَ أعني[1].

ومَن هَمَزَ وضمَّ التاء فهو فِعْلٌ بمعنى: تهيَّأتُ لك، وكذلك مَن قرأ: «هِيتُ لَكَ». وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى[2]: سئل أبو عمرو عن قراءةِ مَن قرأ بكَسْر الهاء وضمِّ التاء مهموزاً، فقال أبو عمرو: باطل، جَعَلَها مِن تهيَّأتُ، اذهب فاستَعْرِض العربَ حتى تنتهيَ إلى اليمن؛ هل تعرفُ أحداً يقول هذا؟ وقال الكسائيُّ أيضاً: لم تُحكَ «هِئتُ» عن العرب. قال عِكرمة: «هِئتُ لَكَ» أي: تَهيَّأتُ لك وتَزيَّنْتُ وتحسَّنْتُ[3]، وهي قراءةٌ غيرُ مَرْضِيَّة؛ لأنَّها لم تُسمع في العربية.

قال النحاس[4]: وهي جيِّدة عند البَصْريِّين؛ لأنه يقال: هَاءَ الرجلُ يَهاءُ ويَهِيءُ هَيْئَةً، فهاء يَهيء مثلُ جاء يجيء، وهِئتُ مثل: جئت.

وكَسْرُ الهاء في «هِيت» لغةٌ لقوم يُؤْثِرون كَسْرَ الهاء على فَتْحِها.

قال الزجَّاج[5]: أجودُ القراءات: «هَيْتَ» بفتح الهاء والتاء. قال طَرَفَة:

لـيـس قـومـي بـالأبْـعـدِيـنَ إذا مـا ... قـال داعٍ مـن الـعـشـيـرة هَـيْـتُ[6]

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وكذلك القول في «هئتَ» التي بالهمز وفتح التاء. الدر المصون ٦/ ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٣) قول عكرمة وقول الكسائي أخرجهما الطبري ١٣/ ٧٥ و ٧٦ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤١٠ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٠٠ .

(٦) سلف هذا البيت قريباً، ووقع بعده في (م): بفتح الهاء والتاء. ولكن ذكر هذا البيت في هذا الموضع وهم من المصنف رحمه الله، فقد ذكر الزجاج في هذا الموضع البيتين اللذين سيردان بعده في علي ﷺ، ثم قال: وحكى قطرب أنه أنشده بعض أهل الحجاز لطرفة...، شاهداً على قراءة «هيتُ» بضم التاء، ويدل على ذلك أنه قرن به بيتاً آخر من نفس القصيدة والتي هي بضم التاء في القافية.

وقال الشاعر في علي بن أبي طالب ﷺ:

أبلغْ أميرَ المؤمنـ ـينَ أخا العراقِ إذا أتيتا
أنَّ العراقَ وأهلَهُ سِلْمٌ إليك فَهَيْتَ هَيْتَا[١]

قال ابن عباس والحسن: «هيت» كلمة بالسريانية؛ تَدْعوه إلى نفسها[٢]. وقال السُّدِّيُّ: معناها بالقبطية: هلمّ لك[٣].

قال أبو عبيد: كان الكسائيُّ يقول: هي لغةٌ لأهل حَوْران وقعت إلى أهل الحجاز، معناه: تعالَ. قال أبو عبيد: فسألت شيخاً عالماً من حَوْرَان، فذَكَر أنها لغتهم[٤]. وبه قال عِكْرِمة[٥].

وقال مجاهد وغيره: هي لغةٌ عربيةٌ تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمةُ حثٍّ وإقبالٍ على الأشياء[٦].

قال الجوهريّ[٧]: يقال: هَوَّتَ به وهَيَّتَ به: إذا صاح به ودعاه. قال:

قد رَابَني أنَّ الكَرِيَّ أَسْكَتَا لو كان مَعْنِيًّا بها لَهَيَّتَا[٨]

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٠٥ ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٠ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٧٠ ، والحجة للفارسي ٤/ ٤١٧ ، والصحاح (هيت)، ونسبه الطبري في التاريخ ٤/ ٥٦٤ لرجل من أهل العراق، وروايته في المصادر: عُنُق، بدل: سلم. ومعنى عُنُق، أي: أقبلوا إليك بجماعتهم، وقيل: هم مائلون إليك ومنتظرون. اللسان (عنق)، والبيتان فيه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٣ ، وزاد المسير ٤/ ٢٠٣ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٢ ، جميعهم عن الحسن، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٤ .

(٥) علقه البخاري قبل الحديث (٤٦٩٢)، ووصله الطبري ١٣/ ٧٢ من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤١٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣ .

(٧) في الصحاح (هيت).

(٨) الحجة للفارسي ٤/ ٤١٨ ، والصحاح (هيت)، والفائق ٢/ ٣١٥ . ونسبه الفارسي لبعض البغداديين.

أي: صاحَ. وقال آخر:

يَـحْـدو بـهـا كـلُّ فـتًـى هَـيَّـاتِ[(١)]

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه، وهو مصدر، أي: أعوذ بالله مَعاذاً، فيُحذف المفعول[(٢)] وينتصِبُ المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول، كما تقول: مررتُ بزيد مرورَ عمرو، أي: كمروري بعمرو.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يعني زوجَها، أي: هو سيِّدي، أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحاق والسُّدّيّ[(٣)]. وقال الزجَّاج: أي إنَّ الله ربِّي تَوَلَّاني بلُطْفِه؛ فلا أركب ما حرَّمه[(٤)]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وفي الخبر أنها قالت له: يا يوسفُ، ما أَحْسَنَ صورةَ وَجْهِكَ! قال: في الرَّحِم صوَّرني ربِّي. قالت: يا يوسفُ، ما أحسَنَ شَعْرك! قال: هو أولُ شيء يَبْلَى منِّي في قبري. قالت: يا يوسف، ما أَحْسَنَ عَيْنَيْك! قال: بهما أنظر إلى ربِّي. قالت: يا يوسف، ارفع بصرك فانظر في وجهي، قال: إنِّي أخاف العَمَى في آخِرتي. قالت: يا يوسف، أدنو منكَ وتتباعَدُ منِّي؟! قال: أريد بذلك القربَ من ربِّي. قالت: يا يوسف، القَيْطَون فرشتُه لك فادخل معي، قال: القَيْطُونُ لا يسترني من ربِّي. قالت: يا يوسف، فراش الحرير قد فرشتُه لك، قم فاقضِ حاجتي، قال: إذاً يذهب من الجنة نصيبي. إلى غير ذلك من كلامها وهو يُراجعها إلى أنْ همَّ بها[(٥)].

---

(١) هو في الصحاح (هيت)، وأساس البلاغة (هيت).

(٢) في (ظ): فيحذف الفعل.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣، وأخرج قولهم الطبري ١٣/ ٧٨ - ٧٩. قال البغوي ٢/ ٤١٨: هذا قول أكثر المفسرين.

(٤) كذا ذكر المصنف وكذلك نقل الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٣ عن الزجاج، والذي في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠١: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ أي: إن العزيز صاحبي... فيكون هذا القول كالذي قبله.

(٥) نوادر الأصول ص٢٤٩، والوسيط ٢/ ٦٠٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٨٠ مختصراً عن السدي. =

وقد ذكر بعضُهم: ما زال النساء يَمِلْنَ إلى يوسف مَيْلَ شهوةٍ حتى نبَّأه الله، فألقى عليه هيبةَ النبوَّة، فشَغَلت هيبتُه كلَّ مَن رآه عن حُسْنه.

واختلف العلماء في همِّه، ولا خلافَ أنَّ همَّها كان المعصيةَ، وأمَّا يوسفُ فهمَّ بها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولكنْ لمَّا رأى البرهانَ ما همّ؛ وهذا لوجوبِ العصمةِ للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإذاً في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه همَّ بها(١).

قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريبَ القرآن على أبي عبيدة، فلما أتيتُ على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير. كأنه أراد: ولقد همَّت به، ولولا أنْ رأى برهان ربِّه لهمَّ بها [أي: لم يهمَّ بها](٢).

وقال أحمد بن يحيى: أي: همَّت زليخاء بالمعصية وكانت مُصِرَّةً، وهمَّ يوسف ولم يواقِعْ ما همَّ به؛ فبينَ الْهَمَّيْنِ فرق(٣)، ذكر هذين القولين الهَرَويُّ في كتابه. قال جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثَينةَ لو بَدَا ... شَفيتُ غلَيلاتِ الهوَى من فُؤاديَا(٤)

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني ... تَركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُهْ(٥)

---

= والقيطون: المخدع بلغة أهل مصر. الصحاح (قطن). وقوله آخر الخبر: همَّ بها، لا يلتفت إليه، لأن الله تعالى قال: ﴿وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾. فامتنع الهمُّ لوجود البرهان، كما سيرد.

(١) إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري ٢/ ٧٢١، والأضداد له ص٤١٢، والمكتفى في الوقف والابتداء للداني ص٣٢٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٨. قال ابن الأنباري: فالوقف في هذا المذهب على: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾.

(٢) القطع والائتناف للنحاس ١/ ٣٣١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) تهذيب اللغة ٥/ ٣٨٢، والوسيط ٢/ ٦٠٨، وأحمد بن يحيى هو ثعلب.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٤.

(٥) قائله ضابئ بن الحارث البُرْجُميُّ، كما في الأضداد لأبي بكر الأنباري ص٤١١، وطبقات فحول الشعراء ١/ ١٧٤، والخزانة ٩/ ٣٢٣. وكان قد هم بقتل عثمان ﷺ، فأُعلم بذلك، فضربه وحبسه وفي ذلك قال الأبيات التي منها هذا البيت الخزانة ٩/ ٣٢٦.

فهذا كلُّه حديثُ نفسٍ من غير عَزم.

وقيل: همَّ بها: تمنَّى زَوْجيَّتها[(١)].

وقيل: همَّ بها، أي: بضَرْبها ودَفْعِها عن نفسه، والبرهانُ كفُّه عن الضَّرْب؛ إذ لو ضَرَبها لأَوْهَم أنه قَصَدَها بالحرام، فامتنعت، فضَرَبها[(٢)].

وقيل: إنَّ همَّ يوسفَ كان معصيةً، وأنه جلس منها مجلسَ الرجل من امرأته. وإلى هذا القول ذهب معظَمُ المفسِّرين وعامَّتُهم، فيما ذكر القُشيريُّ أبو نصر، وابنُ الأنباريِّ والنحاسُ والماورديُّ وغيرهم[(٣)]؛ قال ابن عباس: حلَّ الهِمْيَان وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد ابن جُبير: أطلق تِكَّةَ سراويله. وقال مجاهد: حلَّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلسَ الرجل من امرأته[(٤)].

قال ابن عباس: ولمَّا قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين هَمَمْتَ بها يا يوسف؟ فقال عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾[(٥)]. قالوا: والانكفافُ

(١) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الأضداد لابن الأنباري ص٤١١ .

(٣) الأضداد ص٤١٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥ .

(٤) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٨٢ - ٨٥ وكلها من الإسرائيليات المكذوبة. قال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٥ : طوَّل المفسرون في تفسير هذين الهمَّين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفسَّاق، والذي أختاره أن يوسف لم يقع منه هم البتة، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفتَ لولا أن عصمك الله... وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة، والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب؛ لأنهم قدَّروا جواب «لولا» محذوفاً ولا يدل عليه دليل... إلى آخر كلامه. وذكر الألوسي في روح المعاني ١٢/ ٢١٥ عن الطيبيِّ قوله: وجلُّ هذه الروايات بل كلها مأخوذ من مسألة أهل الكتاب.

(٥) أخرجه الحارث (٧١٦) (بغية الباحث)، والطبري ١٣/ ٢١٠ ، والبيهقي في الشعب (٧٢٩٠). قال الحارث: لا يصح، والأنبياء معصومون قبل البعثة وبعدها. اهـ. ثم إن سياق الآية يردُّ الخبر فإن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾... ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾... مما حكاه الله تعالى عن امرأة العزيز وليس هو من كلام يوسف، إذ لم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك. ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره.

في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص، وأعظمُ للثواب.

قلت: وهذا كان سببَ ثناء الله تعالى على ذي الكِفل، حَسْبَ ما يأتي بيانه في (ص) إن شاء الله تعالى[(١)].

وجوابُ «لولا» على هذا محذوف، أي: لولا أنْ رأى برهان ربِّه لَأمضَى ما همَّ به[(٢)]، ومثله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] وجوابُه: لم تتنافسوا.

قال ابن عطية[(٣)]: رويَ هذا القول عن ابن عباس وجماعةٍ من السَّلَف، وقالوا: الحكمةُ في ذلك أن يكون مَثَلاً للمذنبين ليروا أن توبتَهم ترجع [بهم] إلى عفو الله تعالى، كما رجعت بمن[(٤)] هو خيرٌ منهم، ولم يُوْبِقْه القُرْبُ من الذنب، وهذا كلُّه على أنَّ همَّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقةُ إلى أنْ جلس بين رجلَيْ زليخاء، وأخذ في حلِّ ثيابه وتِكَّته ونحو ذلك، وهي قد استَلْقَتْ له. حكاه الطبريّ[(٥)].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: وابنُ عباس ومَن دونَه لا يختلفون في أنه همَّ بها، وهُمْ أعلمُ بالله وبتأويل كتابه، وأشدُّ تعظيماً للأنبياء من أن يتكلَّموا فيهم بغير علم. وقال الحسن: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يذكر معاصيَ الأنبياء ليعيِّرهم بها، ولكنَّه ذَكَرها لكيلا تيأسوا من التوبة[(٦)].

قال الغَزْنَويُّ: مع أنَّ لزلَّة الأنبياء حِكَماً: زيادةَ الوَجَل، وشدَّةَ الحياء بالخجل، والتخلِّيَ عن عُجْبِ العمل، والتلذُّذَ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونَهم أئمةَ رجاءِ أهل الزلل.

---

(١) لم يذكر المصنف في قصته شيئاً في (ص)، وذكرها في تفسير سورة الأنبياء، الآية (٨٥).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠١ .

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ) و(ف): من، وفي باقي النسخ: ممن، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٨٠ - ٨٦ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ - ٤١٤ ، وكلام أبي عبيد، يمكن أن يسلّم به؛ فيما لو صحت تلك الروايات، وهيهات هيهات!

قال القُشيريُّ أبو نصر: وقال قوم: جرى من يوسفَ همٌّ، وكان ذلك الهمُّ حركةَ طَبْعٍ من غير تصميمٍ للعَقْد على الفعل، وما كان من هذا القَبِيل لا يؤاخَذ[١] به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائمٌ شربَ الماء البارد، وتناولَ الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمِّم عَزْمَه على الأكل والشرب، لا يؤاخذ بما هَجَس في النفس، والبرهانُ صَرَفَه عن هذا الهمِّ حتى لم يَصِرْ عَزْماً مصمماً.

قُلت: هذا قولٌ حسن. وممَّن قال به الحسن.

قال ابن عطية[٢]: الذي أقول به في هذه الآية: إنَّ كونَ يوسفَ نبيًّا في وقتِ هذه النازلة لم يصحّ، ولا تظاهرت به روايةٌ، وإذا كان كذلك، فهو مؤمنٌ قد أوتيَ حُكماً وعلماً، ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادةُ الشيء دون مُواقَعتِه، وأن يستصحب الخاطرَ الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيًّا في ذلك الوقت، فلا يجوز عليه عندي إلَّا الهمُّ الذي هو خاطر، ولا يصحُّ عليه شيءٌ مما ذُكر من حلِّ تِكَّته ونحوِه؛ لأنَّ العصمة مع النبوَّة. وما روي من أنَّه قيل له: تكونُ في ديوان الأنبياء وتَفْعَلُ فِعْلَ السفهاء؟![٣] فإنما معناه العِدَةُ بالنبوَّة فيما بعد.

قلت: ما ذكره من التفصيل صحيح، لكنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ يدلُّ على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قولُ جماعة من العلماء، وإذا كان نبيًّا فلم يَبْقَ إلَّا أن يكون الهمُّ الذي همَّ به ما يَخْطُر في النفس ولا يَثْبُتُ في الصدر، وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذةَ عن الخلق؛ إذ لا قدرةَ للمكلَّف على دَفْعِه، ويكون قولُه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ ـ إنْ كان من قول يوسفَ ـ أي: مِن هذا الهمّ، أو يكون ذلك منه على طريق التواضعُ والاعتراف بمخالفة[٤] النفس لِمَا زكّي به قبلُ وبُرِّئ؛ وقد أخبر الله تعالى

---

(١) في (م): يؤخذ.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٨٩ - ٩٠ عن قتادة، وأخرجه الثعلبي في العرائس ص١٢٢ عن ابن عباس مطولاً، وسيذكره المصنف قريباً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

(٤) في النسخ: لمخالفة، والمثبت من الشفا للقاضي عياض ٢/ ٣٧٥، والكلام منه.

عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] على ما تقدَّم بيانه، وخَبَرُ الله تعالى صِدْقٌ، ووَصْفُه صحيح، وكلامُه حقٌّ، فقد عمل يوسف بما علَّمه الله من تحريم الزِّنى ومقدِّماته، وخيانةِ السيد والجار والأجنبي في أهله، فما تعرَّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المُراودة، بل أدبر عنها وفرَّ منها؛ حكمةً خُصَّ بها، وعملاً بمقتضى ما علَّمه الله[(١)].

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هُريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكةُ: ربِّ ذاك عبدُك يريد أن يعمل سيئةً، وهو أَبْصَرُ به، فقال: ارقُبُوه، فإنْ عَمِلَها فاكتبوها له بمِثْلِها، وإنْ تَرَكَها فاكتبوها له حَسَنةً؛ إنَّما تَرَكَها من جَرَّاي»[(٢)].

وقال عليه الصلاة والسلام مُخبِراً عن ربِّه: «إذا هَمَّ عبدي بسيئةٍ فلمْ يَعْمَلْها، كُتبتْ حسنة»[(٣)] فإنْ كان ما يَهُمُّ به العبد من السيئة يُكتب له بتَرْكها حسنة؛ فلا ذنب. وفي الصحيح: «إنَّ الله تَجاوَزَ لأمتي عما حدَّثتْ به أَنْفُسَها ما لم تَعْمَل أو تَكلَّمْ به» وقد تقدَّم[(٤)].

قال ابن العربي[(٥)]: كان بمدينة السلام إمامٌ من أئمة الصوفية ـ وأيُّ إمام ـ يُعرف بابن عطاء، تكلَّم يوماً على يوسفَ وأخبارِه حتى ذكر تَبْرِئته مما نُسب إليه من مكروه،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٠ . وقال أيضاً: وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس، والغَفَلة من العلماء في نسبتهم إليه ما لا يليق به، وأقل ما اقتحموا من ذلك أنه هتك السراويل، وهم بالفتك فيما رأوه من تأويل، وحاش لله ما علمت عليه من سوء، بل أبرِّئه مما برَّأه الله منه... فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثاً، ويقولون: فعل وفعل، والله إنما قال: همَّ بها. اهـ. وقد استفاض الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره ١٨/ ١١٥ - ١٢٠ في الكلام على هذه المسألة، وفي إثبات العصمة ليوسف عليه السلام مما نسب إليه، وذكر أن أصحاب هذه المقالة ما ذكروا آية يحتج بها، ولا حديثاً صحيحاً يعوَّل عليه في تصحيح مقالتهم.

(٢) صحيح مسلم (١٢٩)، وهو عند أحمد (٨٢١٩). قوله: «من جرَّاي» أي: من أجلي. المفهم ١/ ٣٤٢ .

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٢٩٦)، والبخاري (٧٥٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ٤/ ٤٨٧ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٠ - ١٠٧١ .

فقام رجلٌ من آخِر مجلسه ـ وهو مشحونٌ بالخليقة من كلِّ طائفةٍ ـ فقال: يا شيخ، يا سيدنا، فإذاً يوسفُ همَّ وما تَمَّ؟ قال: نعم، لأنَّ العناية مِن ثَمَّ. فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلِّم، وانظر إلى فِطْنة العاميِّ في سؤاله، وجوابِ العالم في اختصاره واستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إنَّ فائدة قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ إنَّما أعطاه ذلك إبَّان غَلَبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة.

قلت: وإذا تقرَّرتْ عصمتُه وبراءتُه بثناءِ الله تعالى عليه، فلا يصحُّ ما قال مُصْعَب ابن عثمان: إنَّ سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فاشتاقته امرأة، فسَامَتْه نَفْسَها، فامتنع عليها وذكَّرها، فقالت: إن لم تفعل لأُشهِّرنَّك. فخرج وتركها، فرأى في منامه يوسفَ الصّديقَ عليه السلام جالساً فقال: أنت يوسف؟ فقال: أنا يوسف الذي هممتُ، وأنت سليمانُ الذي لم تَهمّ[١]. فإنَّ هذا يقتضي أن تكون درجةُ الولاية أرفعَ من درجة النبوَّة، وهو مُحال؛ ولو قدَّرنا يوسف غيرَ نبيٍّ فدرجتُه الولاية، فيكون محفوظاً كهو، ولو غلِّقت على سليمان الأبوابُ، وروجع في المقال والخطاب، والكلامِ والجواب، مع طول الصُّحبة، لخِيفَ عليه الفتنةُ وعظيمُ المحنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ «أن» في موضعِ رفع؛ أي: لولا رؤيةُ برهانِ ربِّه، والجوابُ محذوفٌ لعِلْمِ السامع[٢]، أي: لكان ما كان. وهذا البرهانُ غيرُ مذكور في القرآن؛ فرُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنَّ زليخاء قامت إلى صنمٍ مكلَّلٍ بالدُّرِّ والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أَوْلَى أن أستحي من الله[٣].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٩٠ - ١٩١ ، والبيهقي في الشعب (٧١١١) و(٧٢٨٠)، وإسناده منقطع كما ذكر الذهبي في السير ٤/ ٤٤٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣ .

(٣) أخرجه عن علي ﷺ أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٨١ . وأخرجه الثعلبي في العرائس ص١٢٣ عن علي بن الحسين، وكذا ذكره البغوي في التفسير ٢/ ٤٢٠ - ٤٢١ ، عن علي بن الحسين.

وهذا أحسن ما قيل فيه؛ لأنَّ فيه إقامةَ الدليل.

وقيل: رأى مكتوباً في سقف البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢][(١)].

وقال ابن عباس: بَدَتْ كفٌّ مكتوبٌ عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠][(٢)].

وقال قوم: تذكَّرَ عهدَ الله وميثاقَه.

وقيل: نودي يا يوسف! أنت مكتوبٌ في ديوان الأنبياء، وتعملُ عملَ السفهاء؟![(٣)]

وقيل: رأى صورةَ يعقوبَ على الجدران[(٤)] عاضًا على أُنملته يتوعَّدُه، فسكن، وخرجت شهوتُه من أنامله. قاله قَتادةُ ومجاهد والحسن والضَّحاك وأبو صالح وسعيد ابن جُبير[(٥)].

وروى الأعمش عن مجاهد قال: حلَّ سراويلَه، فتَمثَّل له يعقوبُ فقال له: يا يوسف! فولَّى هارباً. وروى سفيان، عن أبي حصين، عن سعيد بن جُبير قال: مَثَلَ له يعقوبُ، فضرب صدره، فخرجت شهوته من أنامله[(٦)]. قال مجاهد: فولد لكلِّ واحدٍ من أولاد يعقوبَ اثنا عشر ذكراً، إلَّا يوسفَ لم يولد له إلَّا غلامان، ونقص بتلك

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٩٨ عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) أخرجه مطولاً الثعلبي في العرائس ص١٢٢ ، والواحدي في الوسيط ٢/٦٠٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سلف ص٣١٤ من هذا الجزء عن ابن عباس وقتادة.

(٤) في (ز) و(ظ): الجدار.

(٥) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٩٠ - ٩٧ .

(٦) ذكر الخبرين النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤١٢ ، وخبر سعيد بن جبير أخرجه الطبري ١٣/ ٩١ و ٩٢ . قال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٥ : والبرهان الذي رآه يوسف هو ما آتاه الله من العلم الدال على تحريم ما حرمه الله.

الشهوة ولده[١].

وقيل غير هذا. وبالجملة: فذلك البرهانُ آيةٌ من آيات الله، أراها اللهُ يوسفَ حتى قويَ إيمانه، وامتنع عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ الكاف من «كَذَٰلِكَ» يجوز أن تكون رفعاً، بأن يكون خبرَ ابتداءٍ محذوف، التقدير: [أَمْرُ] البراهين كذلك، و[يجوز أن] يكون نعتاً لمصدر محذوف؛ أي: أريناه البراهين رؤيةً كذلك[٢].

والسوء: الشَّهوة، والفحشاءُ: المباشرة. وقيل: السوء: الثناء القبيح، والفحشاءُ: الزنى. وقيل: السوءُ: خيانةُ صاحبه، والفحشاء: ركوبُ الفاحشة. وقيل: السوء: عقوبةُ الملك العزيز[٣].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ٱلۡمُخۡلِصِينَ﴾ بكسر اللام، وتأويلُها: الذين أَخْلَصوا طاعةَ الله. وقرأ الباقون بفتح اللام، وتأويلُها: الذين أَخْلَصهم اللهُ لرسالته، وقد كان يوسف ﷺ بهاتين الصفتين؛ لأنه كان مخلِصاً في طاعة الله تعالى، مُسْتَخلَصاً لرسالة الله تعالى[٤].

**قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾.

**فيه مسألتان:**

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٦ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٨٥ ، وبنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٣) تنظر هذه الأقوال في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٢ ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٦ ، والقراءتان في السبعة ص٣٤٨ ، والتيسير ص١٢٨ .

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قال العلماء: وهذا من اختصار القرآن المعجِز الذي يجتمع فيه المعاني؛ وذلك أنه لمَّا رأى برهان ربِّه؛ هرب منها، فتَعادَيا؛ هي لتردَّه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فأدركته قبل أن يخرج، فقَدَّتْ قميصَه من دُبُرٍ ـ أي: من خَلْفه ـ قبضت في أعلى قميصِه فتخرَّق القميص عند طَوْقه، ونزل التَّخريقُ إلى أسفلِ القميص[١]. والاستباقُ: طَلَبُ السَّبْق إلى الشيء، ومنه السِّباق. والقَدُّ: القطع، وأكثرُ ما يستعمل فيما كان طولاً؛ قال النابغة:

تَقُدُّ السَّلُوقيَّ المُضاعَفَ نَسْجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ[٢]

والقَطُّ: بالطاء يُستعمل فيما كان عَرْضاً[٣].

وقال المفضَّل بن حرب: قرأتُ في مصحف: «فَلَمَّا رأى قميصَهُ عُطَّ من دُبُرٍ»[٤] أي: شُقَّ. قال يعقوب[٥]: العَطُّ: الشَّقُّ في الجلد الصحيح والثوبِ الصحيح.

وحذفت الألف من «اسْتَبَقَا» في اللفظ؛ لسكونها وسكونِ اللام بعدها، كما يقال: جاءني عبدَ الله؛ في التثنية، ومِن العرب مَن يقول: جاءني عبدا الله؛ بإثبات الألف بغير همزٍ، يَجمع بين ساكنين؛ لأنَّ الثاني مُدْغَم، والأوّل حرف مدٍّ ولين. ومنهم مَن يقول: عبدا ألله بإثبات الألف والهمز، كما تقول في الوقف[٦].

**الثانية**: في الآية دليلٌ على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة؛ لمَا ذُكر

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١١، وسلف ص٢١٨ من هذا الجزء برواية: تَجُذُّ السَّلوقيَّ...

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥.

(٤) ذكرها الزمخشري في أساس البلاغة (عطط)، والصَّغَاني في العباب الزاخر (عطط) عن المفضل، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ دون نسبة. قال الصغاني: لم أعلم أحداً من أهل الشَّوَاذِّ قرأ بها. اهـ. ولم نقف على المفضل بن حرب.

(٥) هو ابن السكيت، وكلامه في تهذيب الألفاظ ١/ ١٠٤ مختصر بلفظ: العط: الشق، وينظر تهذيب اللغة ١/ ٨٦.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

من قدِّ القميص مُقْبِلاً ومُدْبِراً، وهذا أمرٌ انفرد به المالكية في كتبهم، وذلك أنَّ القميص إذا جُبِذ من خلف، تمزَّق من تلك الجهة، وإذا جُبِذ من قدَّام، تمزَّق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ أي: وجدا العزيزَ عند الباب، وعُنيَ بالسيِّد الزوجُ، والقبطُ يسمُّون الزوجَ سيِّداً(٢). يقال: ألْفاه وصادفه ووارَطَه ووالَطَه ولاطَه، كلُّه بمعنًى واحد. فلمَّا رأت زوجها طلبت وجهاً للحيلة وكادت، فـ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: زنًى ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تقول: يُضرب ضرباً وجيعاً.

و«ما جَزَاءُ» ابتداء، وخبرُه: «أنْ يُسْجَنَ». «أَوْ عَذَابٌ» عطف على موضعِ «أنْ يُسْجَنَ»؛ لأنَّ المعنى: إلَّا السجنُ. ويجوز: أو عذاباً أليماً، بمعنى: أو يعذَّب عذاباً أليماً؛ قاله الكسائيّ(٣).

**قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

**فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى:** قال العلماء: لمَّا برَّأت نفسها، ولم تكن صادقةً في حبِّه ـ لأنَّ من شأن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧١ و ١٠٧٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٤، وقرأ: «أو عذاباً أليماً» زيد بن علي، كما في البحر ٥/ ٢٩٧.

المحبِّ إيثارَ المحبوب ـ قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ نطق يوسفُ بالحقِّ في مقابلةِ بَهْتِها وكذبها عليه. قال نوفٌ الشاميُّ وغيره: كان يوسف عليه السلام لم يَبِنْ عن[1] كشف القضية، فلما بَغَت غضب فقال الحق[2].

**الثانية:** ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ لأنَّهما لمَّا تَعارَضا في القول، احتاج الملك إلى شاهدٍ ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهدٌ من أهلها، أي: حَكَم حاكمٌ من أهلها؛ لأنَّه حُكْمٌ منه، وليس بشهادة[3].

وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة:

الأوّل: أنه طفلٌ في المهد تكلَّم. قال السُّهيلي: وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبيِّ ﷺ؛ وهو قوله: «لم يتكلَّمْ في المهد إلا ثلاثةٌ» وذكر فيهم شاهدَ يوسف[4]. وقال القُشيريُّ أبو نصر: قيل: كان صبيًّا في المهد في الدار وهو ابن خالتها. وروى سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار» فذكر منهم شاهدَ يوسف[5]، فهذا قول.

الثاني: أنَّ الشاهد قَدُّ القميص؛ رواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد[6]. وهو مَجازٌ صحيح من جهة اللغة؛ فإنَّ لسان الحال أبلغُ من لسان المقال. وقد تضيف العرب الكلامَ إلى الجمادات، وتُخبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثيرٌ في أشعارها وكلامها، ومن أحلاه قولُ بعضهم: قال الحائط للوتد: لِمَ تَشقُّني؟ قال له: سَلْ مَن يَدقُّني. إلَّا أن قول الله تعالى بعدُ: ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ يُبْطِلُ أن يكون القميص[7].

---

(١) في (د) والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ (والكلام منه): على.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٠٤ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٧ - ٢٨.

(٤) التعريف والإعلام ص٨٠ - ٨١، والحديث سلف ٥/ ١٣٩.

(٥) أخرجه أحمد (٢٨٢٢)، والبزار (٥٤ - كشف)، والطبري ١٣/ ١٠٦، والحاكم ٢/ ٤٩٦ - ٤٩٧ مرفوعاً، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٨٢١) موقوفاً.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١١١.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٢، ووقع فيه: ومن أجلاه، بدل: ومن أحلاه.

الثالث: أنه خَلْقٌ مِن خَلْقِ الله تعالى ليس بإنسيٍّ ولا بجنيٍّ. قاله مجاهدٌ أيضاً[١]. وهذا يردُّه قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

الرابع: أنه رجلٌ حكيم ذو عقل، كان الوزير يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعتُ الاستِبْدارَ[٢] والجَلَبة من وراء الباب، وشَقَّ القميص، فلا يُدرى أيُّكما كان قدَّامَ صاحبه؛ فإن كان شقّ القميص من قدَّامه فأنتِ صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوقٌ من خلف. هذا قول الحسن وعِكرمة وقتادةَ والضَّحَّاك ومجاهد أيضاً والسدّي. قال السدّي: كان ابنَ عمها. وروي عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب. والله أعلم.

وروي عن ابن عباس ـ رواه عنه إسرائيل، عن سِماك، عن عِكرمة ـ قال: كان رجلاً ذا لحية. وقال سفيان، عن جابر، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصَّة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبيٍّ، ولكن كان رجلاً حكيماً. وروى سفيان عن منصور، عن مجاهد قال: كان رجلاً[٣].

قال أبو جعفر النحاس[٤]: والأشبهُ بالمعنى ـ والله أعلم ـ أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك، فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف ﷺ تُغني عن أن يأتيَ بدليل من العادة؛ لأنَّ كلام الطفل آيةٌ معجزة، فكانت أوضحَ من الاستدلال بالعادة، وليس هذا بمخالفٍ للحديث: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار» منهم صاحب يوسف. يكون المعنى: صغيراً ليس بشيخ، وفي هذا دليلٌ آخَرُ، وهو أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبيِّ ﷺ، وقد تَواترت الروايةُ عنه أنَّ صاحب يوسفَ ليس بصبيّ.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٢٨ (١١٥٠٦). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا قول غريب.

(٢) في (ظ): الاستباق، ووقع في الوسيط ٢/ ٦٠٩ ، وزاد المسير ٤/ ٢١١ : الاشتداد.

(٣) أخرج جميع ما سلف من أخبار في القول الرابع الطبري ١٣/ ١٠٧ - ١١٠ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٤ .

قلت: قد رُوي عن ابن عباس وأبي هُريرة وابنِ جُبير وهلال بن يَساف والضّحاك أنه كان صبيًّا في المهد(١). إلَّا أنه لو كان صبيًّا تكلَّم، لكان الدليلُ نفسَ كلامه، دون أن يحتاج إلى استدلالٍ بالقميص، وكان يكون ذلك خرقَ عادة، ونوعَ معجزة. والله أعلم. وسيأتي مَن تكلَّم في المهد من الصبيان في سورة البروج(٢) إن شاء الله.

**الثالثة**: إذا تَنزَّلْنا على أنْ يكون الشاهد طفلاً صغيراً، فلا يكون فيه دلالةٌ على العمل بالأمارات كما ذكرنا، وإذا كان رجلاً، فيصِحُّ أن يكون حجةً بالحُكم بالعلامة في اللُّقَطة وكثير من المواضع، حتى قال مالك في اللصوص: إذا وُجدت معهم أمتعة، فجاء قوم فادَّعَوْها وليست لهم بيِّنة، فإنَّ السلطان يَتَلَوَّم لهم في ذلك، فإن لم يأت غيرُهم دفعها إليهم(٣). وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إنَّ ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل(٤). وكان شُرَيح وإياس بنُ معاوية يعملان على العلامات في الحكومات، وأصل ذلك هذه الآية(٥). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ «كان» في موضع جزمٍ بالشرط، وفيه من النَّحو ما يُشْكِل؛ لأنَّ حروف الشرط تَردُّ الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في «كان»؛ فقال المبرِّد محمد بنُ يزيد: هذا لقوَّةِ «كان»، وأنه يعبَّر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجَّاج(٦): المعنى: إن يكن، أي: إن يُعلَم، والعلم لم يقع، وكذا الكونُ؛ لأنَّه يؤدِّي عن العلم. «قُدَّ مِنْ قُبُلٍ» فخبَّر عن «كان» بالفعل الماضي، كما قال زهير:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ ، وأخرج قولهم الطبري ١٣/ ١٠٥ - ١٠٧ .

(٢) عند تفسير الآيات (٤ - ٧) منها.

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣١ . والتلوُّم: الانتظار والتمكُّث. الصحاح (لوم).

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧١ ، ومحمد هو ابن الحسن الشيباني.

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣١ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٠٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٤ وما قبله منه.

وكان طَوَى كَشْحاً على مُسْتَكِنَّةٍ فلا هو أبداهَا ولم يَتقدَّمِ[١]

وقرأ يحيى بن يعمر وابنُ أبي إسحاق: «مِن قُبُلُ» بضم القاف والباء واللام، وكذا «دُبُرُ»[٢]؛ قال الزجاج[٣]: يجعلهما غايتين كقَبْلُ وبَعْدُ، كأنه قال: من قُبُلِه ومن دُبُرِه، فلما حذف المضاف إليه ـ وهو مرادٌ ـ صار المضافُ غايةَ نفسه بعد أن كان المضاف إليه غايةً له.

ويجوز: «من قُبُلَ» و«من دُبُرَ» بفتح الراء واللام تشبيهاً بما لا ينصرف؛ لأنَّه معرفةٌ ومزالٌ عن بابه[٤].

وروى محبوبٌ عن أبي عمرو: «من قُبْلٍ» و«من دُبْرٍ» مخفَّفان مجروران[٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ قيل: قال لها ذلك العزيزُ عند قولها: «ما جَزَاءُ مَن أَرَادَ بأَهْلِكَ سُوءاً»[٦]. وقيل: قاله لها الشاهد. والكيد: المكر والحيلة. وقد تقدَّم في «الأنفال»[٧]. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وإنَّما قال: «عَظِيمٌ» لِعظَم فتنتهنَّ واحتيالهنَّ في التخلُّص من ورطتهنّ.

وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ كيدَ النساء أعظمُ من كيد الشيطان؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾»[٨].

---

(١) ديوان زهير ص٢٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ (والكلام منه)، والخزانة ٣/ ١٤ ، و ٤/ ٣ . قال البغدادي: يقال: طوى كشحه على فعلة: إذا أضمرها في نفسه. والمستكنَّة: المستترة، أي: أضمر على غدْرة مستترة. والكشح: الجنب، وقيل: الخاصرة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ ، والقراءات الشاذة ص٦٣ ، والمحتسب ١/ ٣٣٨ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٠٣ ، وذكره أيضاً النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٥ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ .

(٥) ذكرها عن أبي عمرو ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ ، وهي في القراءات الشاذة ص٦٣ عن الحسن.

(٦) كذا قال المصنف رحمه الله، وقد ذكر الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٠٣ أن المعنى: إن قولك: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً...، من كيدكن .

(٧) ٩/ ٤٧٩ .

(٨) لم نقف عليه. وإسناده في غاية الضعف، مقاتل ـ وهو ابن سليمان ـ كذبوه وهجروه ورُمي بالتجسيم، =

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ القائلُ هذا هو الشاهد. و«يوسف» نداءٌ مفرَد، أي: يا يوسف. فحذف. «أعرِضْ عن هذا» أي: لا تَذْكُره لأحدٍ واكْتُمْه. ثم أقبل عليها فقال: وأنتِ استغفري لذنبكِ يقول: استغفري زوجَك من ذنبك؛ لا يعاقبك.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل: من الخاطئات؛ لأنَّه قَصَدَ الإخبار عن المذكَّر والمؤنَّث، فغلَّب المذكَّر، والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣] ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢][١].

وقيل: إنَّ القائلَ ليوسف: أعرض، ولها: استغفري، زوجُها الملك؛ وفيه قولان: أحدهما: أنه لم يكن غَيُوراً؛ فلذلك كان ساكتاً. وعدمُ الغَيرة في كثير من أهل مصرَ موجود. الثاني: أنَّ الله تعالى سَلبَه الغَيرةَ، وكان فيه لطفٌ بيوسف حتى كُفي بادِرتَه وحَلُم عنها[٢].

**قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ويقال: «نُسوة» بضمِّ النون، وهي قراءةُ

---

= كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب، ثم إن يحيى بن أبي كثير لا يروي عن الصحابة.

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٢.

(٢) في (د) و(ز) و(م): وعفا عنها، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ٢٩، والكلام منه عدا قوله: وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود، وما كان ينبغي للمصنف رحمه الله أن يقول هذا!

الأعمش والمفضَّل والسُّلَميّ، والجمعُ الكثير: نساء[١]. ويجوز: وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل: قالت الأعراب وقال الأعراب.

وذلك أنَّ القصة انتشرت في أهل مصر، فتحدَّث النساء. قيل: امرأة ساقي العزيز، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب دوابِّه، وامرأة صاحب سجنه. وقيل: امرأة الحاجب. عن ابن عباس وغيره[٢].

﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ الفتى في كلام العرب: الشابّ، والمرأة فتاة. ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ قيل: شَغَفَها: غَلَبها[٣]. وقيل: دخل حبُّه في شَغافها. عن مجاهد[٤] وغيره. وروى عمرو بن دينار، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: دخل تحت شَغافها[٥]. وقال الحسن: الشَّغاف[٦]: باطن القلب. السُّدِّيُّ وأبو عبيدة[٧]: شَغافُ القلب: غِلافُه؛ وهو جلدةٌ عليه. وقيل: هو وَسَطُ القلب[٨]. والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى: وصل حبُّه إلى شَغَافها، فغلب عليه[٩]؛ قال النابغة:

وقد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ   دخولَ الشَّغافِ تبتغيه الأصابع[١٠]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥، دون ذكر القراءة، وذكرها العكبري في الإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٣٠ دون نسبة.

(٢) ينظر عرائس المجالس ص١٢٣ - ١٢٤، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٥٩، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٢، وزاد المسير ٤/ ٢١٤، وتفسير الرازي ١٨/ ١٢٦.

(٣) أخرج الطبري ١٣/ ١١٦ هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ١١٦.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٨، وأخرجه الطبري ١٣/ ١١٥ من طريق عمرو عن عكرمة قوله.

(٦) في النسخ: الشغف، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٣٠، ومفردات الراغب (شغف)، وفيهما قول الحسن.

(٧) في (د) و(م): وأبو عبيد. وكلام أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣٠٨، وذكره عن السدي الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٣٠.

(٨) مفردات الراغب (شغف).

(٩) في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩ (والكلام منه): فغلب على قلبها.

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩، وللزجاج ٣/ ١٠٥، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٧٩ =

وقد قيل: إنَّ الشَّغاف داء. وأنشد الأصمعيُّ للراجز:

يتبعها وهي له شَغافُ[١]

وقرأ جعفر[٢] بن محمد وابن محيصن والحسن: «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة[٣]. قال ابن الأعرابي: معناه أحرق حبُّه قلبها. قال: وعلى الأوّل العمل[٤].

قال الجوهريّ[٥]: وشَعَفَه الحبُّ: أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أَمْرَضَه. وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف. وقرأ الحسن: «قَدْ شَعَفَهَا» قال: بَطَنَها حبًّا.

قال النحاس[٦]: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كلَّ مذهب؛ لأنَّ شِعَاف الجبال أعاليها، وقد شُغِف بذلك شَغْفاً بإسكان الغين[٧]: إذا أُولع به، إلا أن أبا عبيد[٨] أنشد بيت امرئ القيس:

أيقتلني[٩] وقد شَعَفْتُ فؤادَها كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرّجلُ الطَّالي[١٠]

---

= برواية: شاغلٌ مكان، بدل: داخل دخول. وذكره البغدادي في الخزانة ٢/ ٤٥٦ وقال: تبتغيه الأصابع: أي تلتمسه أصابع المتطبِّبين؛ هل انحدر نحو الطحال فيُتوقع على صاحبه الموت؟.

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩ .

(٢) في (ف) و(م): أبو جعفر، وهو خطأ.

(٣) المحتسب ١/ ٣٣٩ .

(٤) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٢٧٤ دون نسبة.

(٥) في الصحاح (شعف).

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٧) في (ز) و(ف) ومطبوع معاني القرآن: شعف بذلك شعفاً بإسكان العين، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في اللسان وتاج العروس (شغف).

(٨) في النسخ عدا (د): أبا عبيدة، والمثبت من (د) ومعاني القرآن.

(٩) في (م): لتقتلني، وفي (د) و(ز): ليقتلني، وفي (ظ): فتقتلني، والمثبت من (ف) والمصادر على ما يأتي.

(١٠) أمالي القالي ١/ ٢٠٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ ، وهو في الديوان برواية: شغفت... كما شغف، بالمعجمة، وقال شارح الديوان: ويروى: شَعَفْتُ، بالعين غير المعجمة، والمعنى: بلغتُ الغاية حتى غَلَبْتُها على فؤادها، كما يبلغ القطران من الناقة المهنوءة، وهي المَطْلِيَّةُ بالقطران، وهي تستلذُّه حتى تكاد يغشى عليها.

قال: فشبِّهت لوعةُ الحبّ وجَوَاه بذلك. ورُوي عن الشَّعْبيِّ أنه قال: الشَّغف بالغين المعجمَة حُبٌّ، والشَّعف بالعين غيرِ المعجمة جنونٌ[(١)].

قال النحاس[(٢)]: وحُكي: «قد شَغِفَها» بكسر الغين، ولا يُعرف في كلام العرب إلا «شَغَفها» بفتح الغين، وكذا «شَعَفها»، أي: تركها مشعوفة.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن الحسن: الشَّغاف حجاب القلب[(٣)]، والشَّعاف سويداء القلب، فلو وصل الحبُّ إلى الشَّعاف لماتت. وقال الحسن: ويقال: إنَّ الشَّغاف الجلدةُ اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهي الجلدةُ البيضاء[(٤)]، فلصق حبُّه بقلبها كلُصُوق الجلدة بالقلب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في هذا الفعل. وقال قَتَادة: «فَتَاهَا» وهو فتى زوجها؛ لأنَّ يوسف كان عندهم في حكم المماليك، وكان يَنْفُذ أمرُها فيه. وقال مقاتلٌ، عن أبي عثمان النَّهْديِّ، عن سلمان الفارسيِّ قال: إنَّ امرأة العزيز استوهبت زوجها يوسف، فوهبه لها وقال: ما تصنعين به؟ قالت: أتَّخذه ولداً، قال: هو لك، فربَّته حتى أَيْفَعَ وفي نفسها منه ما في نفسها، فكانت تنكشف له وتتزيَّن وتدعوه من وجه اللطف، فعصمه الله[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بغيبتهنَّ إياها، واحتيالهنَّ في ذمها. وقيل: إنها أطلعتهنَّ واستكْتَمتهنَّ[(٦)] فأفشَيْنَ سرَّها، فسمِّي ذلك مكراً.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣١، وأخرجه الطبري ١٣/ ١١٦ - ١١٧.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣١ (١١٥٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولم نقف عليه عن الحسن، فقد سلف قول الحسن: الشغاف باطن القلب.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠ عن السدي وسفيان بنحوه، ولم نقف عليه عن الحسن.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) في (م): استأمنتهن، وفي (د): استمكنتهن، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠، والكلام منه.

وقوله: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ في الكلام حذف، أي: أرسلت إليهن تدعوهنَّ إلى وَليمةٍ لتُوقِعَهنَّ فيما وقعت فيه[١]؛ فقال مجاهد عن ابن عباس: إنَّ امرأة العزيز قالت لزوجها: إني أريد أن أتَّخذ طعاماً فأدعوَ هؤلاء النِّسوة. فقال لها: افعلي. فاتخذت طعاماً، ثم نَجَّدت لهنَّ البيوت ـ نَجَّدت، أي: زيَّنت، والنَّجْد: ما يُنجَّد به البيت من المتاع، أي: يُزيَّن، والجمعُ: نُجود؛ عن أبي عُبيد، والتَّنجيد: التزيين[٢] ـ وأرسلت إليهنَّ أن يحضُرن طعامَها، ولا تتخلَّفْ منكنَّ امرأةٌ ممن سمَّيتُ.

قال وهب بن مُنَبِّه: إنهنَّ كنَّ أربعين امرأة[٣]، فجئن على كُرْهٍ منهنّ، وقد قال فيهنَ أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت:

حتَّى إذا جئنَها قسراً ومهَّدت لهنّ أنضاداً وكبابا[٤]

ويُروى: أنماطاً.

قال وهب: فجئن وأخذنَ مجالسهنّ. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: هيَّأت لهنَّ مجالسَ يتَّكِئْنَ عليها. قال ابن جُبير: في كلِّ مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجٌّ وسكِّين حادّ.

وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير: «مُتْكاً» مخفَّفاً غيرَ مهموز[٥]، والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط. وكذلك فسره مجاهد؛ روى سفيان، عن منصور، عن مجاهد قال: المُتَّكأ مثقَّلاً: الطعام، والمُتْك مخفَّفاً: الأتْرُجّ[٦]؛ وقال الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ .

(٢) الصحاح (نجد).

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٤٢٣ .

(٤) كذا في النسخ، ولم نقف عليه. وأنضاداً جمع نَضَد، وهو ما نُضِد من متاع، أو خياره. ونَضَدْتُ المتاع ونضَّدْتُه: ضممت بعضه إلى بعض متَّسِقاً أو مركوماً. ينظر أساس البلاغة والقاموس (نضد).

(٥) عرائس المجالس ص١٢٤ عن مجاهد، وذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٣٩ عن ابن عباس وابن عمر وقتادة وغيرهم.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٢٧ . والأترج: من فصيلة الحمضيات، يسمى بالشام الكُبَّاد، واحدته أُتْرُجَّة. معجم متن اللغة (ترج).

نَشْرَبُ الإِثْمَ بالصُّواعِ جِهاراً وتَرَى المُتْكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَارَا[١]

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءة: الأُترجَّة: المُتْكَة.

قال الجوهريُّ: المُتْكُ: ما تُبقيه الخاتنة، وأصل المُتْك: الزُّماوَرْد. والمَتْكَاء من النّساء: التي لم تُخْفَض. قال الفرّاء: حدثني شيخ من ثقات أهل البصرة أنَّ المُتْك مخفَّفاً: الزُّماوَرْد. وقال بعضهم: إنه الأترجّ. حكاه الأخفش[٢]. ابن زيد: أترجًا وعسلاً يؤكل به[٣]؛ قال الشاعر:

فَظَلِلْنا[٤] بنعمةٍ واتَّكَأنا وشَرِبْنا الحلالَ من قُلَلِه[٥]

أي: أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: «وَأَعْتَدَتْ» من العَتَاد، وهو كلُّ ما جعلته عُدَّة لشيء. «مُتَّكَأً» أصح ما قيل فيه، ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: مجلساً. وأمَّا قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام، فيجوز على تقدير: طعامَ متكأ، مثل: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ودلَّ على هذا الحذف: «وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّيناً»؛ لأنَّ حضور النساء معهنَّ سكاكينُ إنَّما هو لطعامٍ يُقطع بالسكاكين. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن»[٦] له.

---

(١) سلف ٩/ ٢١١ .

(٢) الصحاح (متك)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢ . قوله: الزُّمَاوَرْد، هو طعام من البيض واللحم، معرب. اللسان (ورد). وقوله: لم تخفض، الخفض: ختان الجارية. اللسان (خفض).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ١٢٩ .

(٤) في (م): فظلنا.

(٥) قائله جميل بثينة، وهو في ديوانه ص١٨٩ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٤٥٧ ، والخزانة ١٠/ ٢١ . قوله: الحلال، ذكر البغدادي عن الشيرازي أنه قال: هو النبيذ، وسماه حلالاً على وجه الخلاعة. قال البغدادي: ولا يَخْفَى أنَّ حَمْلَه على ظاهره أَنْسب؛ لأن قائله مؤمن، وكان في عرفة في موسم الحج. والقلل جمع قلة، وهو إناء للعرب كالجرة.

(٦) ٢/ ٣٢٦ .

وقال في كتاب «معاني القرآن»[١]: وروى مَعْمَر عن قَتَادة قال: «المتَّكأ»: الطعام. وقيل: «المتكأ»: كلُّ ما اتُّكِئَ عليه عند طعامٍ أو شرابٍ أو حديث، وهذا هو المعروفُ عند أهل اللغة، إلَّا أنَّ الروايات قد صحت بذلك. وحكى القُتبيّ[٢] أنه يقال: اتكأنا عند فلان، أي: أكلنا.

والأصل في «متكأ»: موتكأ، ومثله: مُتَّزن ومُتَّعد؛ لأنه من وَزَنْتُ ووَعَدْتُ ووَكأْتُ، ويقال: اتَّكأ يَتَّكِئ اتِّكاءً[٣].

﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ مفعولان. وحكى الكسائيُّ والفراء أنَّ السِّكِّين يذكَّر ويؤنَّث؛ وأنشد الفراء:

فَعَيَّثَ في السَّنَامِ غَدَاةَ قُرٍّ ... بِسكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصَابِ[٤]

الجوهريُّ: والغالبُ عليه التذكير؛ وقال:

يُرى ناصحاً فيما بَدَا فإذا خَلَا ... فذلك سكِّينٌ على الحَلْقِ حَاذقُ[٥]

الأصمعي لا يَعْرِفُ في السكِّين إلا التذكير[٦].

قوله تعالى: ﴿وقالتُ اخرج عليهن﴾ بضمِّ التاء لالتقاء الساكنين؛ لأنَّ الكسرة تَثْقلُ إذا كان بعدها ضمة، وكَسْرُ[٧] التاء على الأصل[٨].

---

(١) ٣/ ٤٢١.

(٢) في تفسير الغريب ص٢١٦، وتأويل المشكل ص١٣٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦.

(٤) المذكر والمؤنث للفراء ص٢٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ (والكلام منه)، والمذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٨٨، ومجالس العلماء للزجاجي ص١٠١، والمخصص لابن سيده ١٧/ ١٦، واللسان (عيث) و(سكن)، وقال ابن منظور: عيَّث في السنام بالسكين: أثَّر.

(٥) الصحاح (سكن)، والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥١. وقال شارح الديوان. ويروى: على الحلق حالق.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦، وينظر المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٨٩.

(٧) في (م): وكسرت.

(٨) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر التاء، والباقون من السبعة بضمها. السبعة ص٣٤٨ والتيسير ص٧٨.

قيل: إنَّها قالت لهنَّ: لا تقطعنَ ولا تأكلن حتى أُعلِمَكُنّ، ثم قالت لخادمها: إذا قلت لك: ادعُ لي إيلا، فادعُ يوسف. وإيل: صنمٌ كانوا يعبدونه. وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين، وقد شدَّ مِئزره وحسَرَ عن ذراعيه، فقالت للخادم: ادعُ لي إيلا، أي: ادعُ لي الربَّ، وإيل بالعبرانية: الربُّ. قال: فعَجِبَت النسوة وقلن: كيف يجيء؟! فصعدت الخادمُ فدعت يوسفَ، فلمَّا انحدر قالت لهنّ: اقطَعْنَ ما معكنّ. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالمُدَى، حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب ابن مُنَبِّه.

سعيد بن جُبير: لم يخرج عليهنَّ حتى زيَّنته، فخرج عليهم فجأةً فدهشن فيه، وتحيَّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه، فجعلن يقطِّعْنَ أيديهنّ، ويحسبن أنَّهن يقطِّعن الأُترجّ.

واختلف في معنى: «أَكْبَرْنَهُ»؛ فروى جُوَيبر، عن الضَّحاك، عن ابن عباس: أَعْظَمْنَه وهِبْنَه[1].

وعنه أيضاً: أَمْنَيْنَ وَأَمْذَين من الدَّهَش؛ وقال الشاعر:

إذا ما رأيـن الـفـحـلَ مـن فـوق قـارَةٍ صَـهَـلْـنَ وأَكْـبَـرْنَ الـمـنـيَّ الـمـدفَّـقَـا[2]

وقال ابن سمعان عن عِدَّةٍ من أصحابه أنهم قالوا: أَمْذَيْن عشقاً.

وَهْب بن مُنبّه: عشقنَه حتى مات منهنّ عشرةٌ في ذلك المجلس دَهَشاً وحيرة ووَجْداً بيوسف[3].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٣١ - ١٣٢ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٥ (١١٥٥٣) من طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ : هذا قول الجمهور.

(٢) أخرج الشعر والقول قبله أبو الشيخ عن الكميت، كما في الدر المنثور ٤/ ١٦ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس. والقارة: الجُبَيْل الصغير المنقطع عن الجبال، أو الصخرة العظيمة. القاموس (قار).

(٣) عرائس المجالس ص١٢٤ .

وقيل: معناه: حِضْن من الدَّهش؛ قَاله قتادة ومقاتل والسُّديّ[(١)]. قال الشاعر:

نـأتـي الـنّـسـاءَ عـلـى أطـهـارهـنّ ولا نـأتـي الـنّـسـاءَ إذا أَكْـبَـرنَ إِكْـبـارَا[(٢)]

وأنكر ذلك أبو عبيدة[(٣)] وغيره، وقالوا: ليس ذلك في كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكنّ حِضْنَ من شدَّة إعظامهنَّ له، وقد تفزع المرأة، فتُسقط ولدها أو تَحِيض.

قال الزجاج[(٤)]: يقال: أكبرنه، ولا يقال: حِضْنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض.

وأجاب الأزهري[(٥)] فقال: يجوز أَكْبَرَتْ بمعنى حاضت؛ لأنَّ المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر، قال: والهاءُ في «أَكْبَرْنَهُ» يجوز أن تكون هاءَ الوقف لا هاءَ الكناية.

وهذا مزيَّف؛ لأن هاء الوقف تسقط في الوصل، وأَمْثَلُ منه قولُ ابن الأنباريِّ: إنَّ الهاء كنايةٌ عن مصدرِ الفعل، أي: أكبرن إكباراً، بمعنى حِضْن حَيْضاً. وعلى قول ابن عباس الأولِ تعود الهاء إلى يوسف؛ أي: أعظمن يوسف وأجْلَلْنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ قال مجاهد: قطَّعنها حتى ألقينها[(٦)]. وقيل: خَدَشْنها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حزًّا بالسكِّين؛ قال النحاس[(٧)]: يريد

---

(١) لم نقف عليه عنهم، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٣١ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٥ (١١٥٥١) و(١١٥٥٢) من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده ابن عباس. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ : هذا قول ضعيف من معناه منكور، وليس عبد الصمد من رواة العلم رحمه الله. اهـ وينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٢١٢ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٦ ، وتفسير الطبري ١٣/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ . قال الطبري: لا أحسب له أصلاً؛ لأنه ليس بالمعروف عند الرواة. وقال ابن عطية: البيت مصنوع مختلق.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٠٩ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٥) في تهذيب اللغة ١٠/ ٢١١ - ٢١٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ وأخرجه الطبري ١٣/ ١٣٥ . قال ابن عطية: فظاهِرُ هذا أنه بانت الأيدي، وذلك ضعيف من معناه.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٤٢٢ ، وما قبله منه، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٣/ ١٣٣ .

مجاهدٌ أنه ليس قطعاً تَبِينُ منه اليد، إنَّما هو خَدْشٌ وحزّ، وذلك معروفٌ في اللغة أنْ يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه: قطع يده.

وقال عِكرمة: «أَيْدِيَهُنّ»: أكمامَهنّ، وفيه بُعْد. وقيل: أناملَهنّ، أي: ما وجدن ألمَاً في القطع والجرح، أي: لشغلِ قلوبهنَّ بيوسف.

والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى أنَّ كلَّ واحدةٍ[١] جرحت يدها في مواضع، ويمكن أن يرجع إلى عددهنّ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذَ الله. وروى الأصمعيُّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿وقُلْنَ حاشا لله﴾ بإثبات الألف وهو الأصل[٢]، ومَن حَذَفها جعل اللام في (لله) عوضاً منها. وفيها أربع لغات، يقال: حَاشَاكَ، وحَاشَا لَكَ، وحاشَ لَكَ، وحَشَا لَكَ. ويقال: حَاشَا زيدٍ وحاشا زيداً؛ قال النحاس[٣]: وسمعت عليَّ بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: النَّصْبُ أَوْلى؛ لأنه قد صحَّ أنها فعلٌ؛ لقولهم: حاشَ لزيد، والحرفُ لا يُحذف منه[٤]، وقد قال النابغة:

وَلَا أُحاشِي مِن الأقوامِ مِن أَحَدِ[٥]

وقال بعضهم: حاشَ حرفٌ، وأُحاشي فعل. ويدلُّ على كون حاشا فعلاً وقوعُ حرف الجرِّ بعدها[٦]. وحكى أبو زيد عن أعرابيٍّ: اللهمَّ اغفر لي ولمن يَسمع، حاشا

(١) في (م): أن يرجع الكثرة إلى واحدة، وفي (د) و(ز) و(ظ): إلى كل واحدة، والمثبت من (ف).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ ، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص٣٤٨ ، والتيسير ص١٢٨ ، ورواية الأصمعي عن نافع أخرجها ابن مجاهد في السبعة ص٣٤٨ ، وليست هي المشهورة عنه.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٦ ، وما قبله منه.

(٤) يعني حذف الألف من «حاشا»، والحذف إنما يكون في الفعل. أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص١٩١ .

(٥) وصدره: ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه، وهو في ديوان النابغة ص٣٣ ، والخزانة ٣/ ٤٠٣ . قال البغدادي: قوله: ولا أحاشي، أي: لا أستثني أحداً ممن يفعل الخير. والشاهد فيه: تصرُّف الفعل حاشا، والتصرُّف من خصائص الأفعال. أسرار العربية ص١٩١ .

(٦) ينظر أسرار العربية ص١٩٠ - ١٩٢ . وقال أبو البركات: وحرف الجر إنما يتعلق بالفعل؛ لأن الحرف لا يتعلق بالحرف.

الشيطانَ وأبا الأصبغ، فنَصَبَ بها[١].

وقرأ الحسن: «وَقُلْنَ حَاشْ لِلهِ» بإسكان الشين، وعنه أيضاً: «حاشَ الإلهِ». ابن مسعود وأُبَيٌّ: «حَاشَى[٢] اللهِ» بغير لام، ومنه قول الشاعر:

حَاشَا أبِي ثَوْبَانَ إنَّ بِهِ ضَنًّا عنِ المَلْحَاةِ والشَّتْمِ[٣]

قال الزجَّاج: وأصلُ الكلمة من الحاشية، والحَشَا بمعنى الناحية، تقول: كنت في حَشَا فلانٍ، أي: في ناحيته، فقولك: حاشا لزيدٍ، أي: تَنَحَّى زيدٌ من هذا وتَباعَدَ عنه، والاستثناء إخراجٌ وتنحيةٌ عن جملة المذكورين[٤].

وقال أبو عليٍّ: هو «فاعَلَ» من المحاشاة؛ أي: حاشا يوسفُ وصار في حاشيةٍ وناحيةٍ مما قُرِف به[٥]، أو مِن أن يكون بشراً؛ فحاشا وحاشَ في الاستثناء حرفُ جرٍّ عند سيبويه[٦]، وعلى ما قال المبرِّد وأبو عليٍّ فعل.

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: «ما» بمنزلة ليس؛ تقول: ليس زيدٌ قائماً، و﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ و﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢]. وقال الكوفيون: لمَّا

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٢، وشرح المفصل ٢/ ٨٥، والمغني ص١٦٥.

(٢) في (د) و(ز) و(م): حاش، وكذلك وقعت في القراءات الشاذة ص٦٣، والمثبت موافق لما في المحتسب ١/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٣، والدر المصون ٦/ ٤٨٦. وينظر ما سلف من القراءات في هذه المصادر.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣١٠، والحجة للفارسي ٤/ ٤٢٢، والمحتسب ١/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠. وهو في المفضليات ص٣٦٧، والأصمعيات ص٢١٨، منسوب للجميح الأسدي برواية:

حَاشَا أبَا ثَوْبَانَ إنَّ أبَا ثَوْبَانَ لَيْسَ بِبُكْمَةٍ فَدْمِ
عَمْرو بنَ عبدِ اللهِ إنَّ بهِ ضَنًّا عنِ المَلْحَاةِ والشَّتْمِ

(٤) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٧.

(٥) بنحوه في الحجة للفارسي ٤/ ٤٢٢ - ٤٢٣، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٨٦، وتقدير الكلام على ما ذكر في هذين المصدرين: «حاش لله» أي: بَعُد يوسف عن هذا الذي رمي به لله، أي: لخوفه اللهَ ومراقبته له. وسيذكر المصنف نحوه عن أبي نصر القشيري.

(٦) الكتاب ٢/ ٣٤٩.

حذفت الباء نصبت، وشرحُ هذا ـ فيما قاله أحمد بن يحيى ـ أنك إذا قلت: ما زيدٌ بمنطلق، فموضعُ الباء موضعُ نصب، وهكذا سائرُ حروف الخفض، فلما حذفت الباء نصبت لتدلَّ على محلِّها، قال: وهذا قولُ الفرّاء، قال: ولم تعمل «ما» شيئاً، فألزمهم البصريون أن يقولوا: زيدٌ القمرَ؛ لأنَّ المعنى: كالقمر. فردَّ أحمد بن يحيى بأن قال: الباء أدْخَلُ في حروف الخفض من الكاف؛ لأنَّ الكاف تكون اسماً.

قال النحاس[1]: لا يصحُّ إلّا قولُ البصريين، وهذا القول يتناقض؛ لأنَّ الفرَّاء أجاز نصًّا: ما بمنطلقٍ زيدٌ، وأنشد:

أَمَـا والـلـهِ أَنْ لـو كـنـتَ حُـرًّا ... ومـا بـالـحُـرِّ أنـتَ ولا الـعَـتِـيـقِ[2]

ومَنَعَ نصًّا النصبَ، ولا نعلم بين النَّحْويين اختلافاً أنه جائزٌ: ما فيك براغبٍ زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون. وحكى البصريون والكوفيون: ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغةُ تَميم، وأنشدوا:

أَتَـيـمـاً تَـجـعـلـون إلـيَّ نِـدًّا ... ومـا تَـيْـمٌ لِـذِي حَـسَـبٍ نَـدِيـدُ[3]

النِّدُّ والنَّديد والنَّدِيدةُ: المِثْلُ والنَّظير[4]. وحكى الكسائي أنها لغةُ تِهامةَ ونَجْد. وزعم الفرَّاء أنَّ الرفع أقوى الوجهين. قال أبو إسحاق: وهذا غلط؛ كتابُ الله عزَّ وجلَّ ولغةُ رسول الله ﷺ أقوى وأولى[5].

قلت: وفي مصحف حَفصةَ رضي الله عنها: «مَا هَذَا بِبَشَرٍ» ذكره الغَزْنويّ.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨ ، وينظر قول سيبويه في الكتاب ١/ ٥٧ - ٦٩ و ١٢٢ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٤ ، والخزانة ٤/ ١٤١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ ، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣١ ، والخزانة ٣/ ٢٧ ، ورواية الديوان: أتيمٌ، بدل: أتيماً.

(٤) الصحاح (ندد).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢ ، وكلام أبي إسحاق وهو الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ١٠٨ .

قال القُشَيريُّ أبو نصر: وذكرت النِّسوة أنَّ يوسفَ أحسنُ من صورة البشر، بل هو في صورة مَلَك، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] والجمعُ بين الآيتين أنَّ قولهنّ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تبرئةٌ ليوسف[1] عمَّا رمته به امرأة العزيز من المراودة، أي: بَعُدَ يوسف عن هذا، وقولهنّ: (لله) أي: لخوفه، أي براءةٌ لله من هذا، أي: قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء، والمعنى: أنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقُض.

وقيل: المرادُ تنزيهُه عن مُشابَهة البشر في الصورة؛ لفَرْطِ جماله، وقولُه: ﴿لِلَّهِ﴾ تأكيدٌ لهذا المعنى، فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظنًّا منهنَّ أنَّ صورةَ المَلَك أحسن، وما بلغهنَّ قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فإنه من كتابنا. وقد ظنَّ بعضُ الضَّعَفَةِ أنَّ هذا القولَ لو كان ظنًّا باطلاً منهنّ، لوَجَبَ على الله أن يردَّ عليهنّ، ويبيِّن كذبهنّ، وهذا باطلٌ؛ إذ لا وجوبَ على الله تعالى، وليس كلُّ ما يخبر به الله سبحانه من كُفْر الكافرين وكذبِ الكاذبين يجب عليه أن يَقْرُنَ به الردَّ عليه، وأيضاً أهلُ العرف قد يقولون في القبيح: كأنَّه شيطان، وفي الحَسَن: كأنه مَلَك، أي: لم يُرَ مِثْلُه؛ لأنَّ الناس لا يَرَوْن الملائكة، فهو بناءٌ على ظنٍّ في أنَّ صورة الملَك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبُعْدِه عن التُّهَم.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي: ما هذا إلا مَلَك، وقال الشاعر:

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلأَكٍ تنزَّلَ من جَوِّ السماءِ يَصُوبُ[2]

وروي عن الحسن: «ما هذا بِشِرًى»؛ بكسر الباء والشين، أي: ما هذا عبداً مُشترًى، أي: ما ينبغي لِمثْلِ هذا أن يُباع، فوضع المصدر موضعَ اسم المفعول، كما قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦] أي: مَصِيدُه، وشِبْهُه كثير. ويجوز أن يكون المعنى: ما هذا بثمن، أي: مثلُه لا يثمنُ ولا يقوَّم، فيراد بالشراء على هذا:

---

(١) في (ظ): أن قوله حاش لله تنزيه ليوسف.

(٢) سلف ١/ ٣٩٣.

الثَّمنُ المشتَرَى به، كقولك: ما هذا بألفٍ، إذا نفيتَ قولَ القائل: هذا بألف. فالباءُ على هذا متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو الخبر(١)، كأنه قال: ما هذا مقدَّراً بشراء.

وقراءة العامة أشبهُ؛ لأنَّ بعده: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ مبالغةً في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه، ولأنَّ مثلَ «بِشِرًى» يُكتب في المصحف بالياء(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ لمَّا رأت افْتِتَانَهنَّ بيوسف أظهرت عُذْرَ نفسها بقولها: «لُمْتُنَّني فِيهِ» أي: في حبِّه.

و«ذلك» بمعنى «هذا»، وهو اختيارُ الطَّبريّ(٣). وقيل: الهاء للحُب، و«ذلك» على بابه(٤)، والمعنى: ذلكنَّ الحُبُّ الذي لُمتنَّني فيه، أي: حبُّ هذا هو ذلك الحبّ. واللومُ: الوصف بالقبيح. ثم أقرَّت وقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع.

وسمِّيت العصمةُ عصمةً لأنَّها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل: «استعصم» أي: استعصى(٥)، والمعنى واحد.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ عاودَتْه المراودةَ بمحضَرٍ منهنّ، وهتكتْ جِلبابَ الحياء، ووعدتْ بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخشَ لَوْماً ولا مقالاً، خلافَ أوّلِ أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها.

﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الأذِلَّاء. وخطُّ المصحف: «وليكوناً» بالألف، وتقرأ بنون مخفَّفة للتأكيد، ونونُ التأكيد تثقَّل وتخفَّف، والوقفُ على قوله: «لَيُسْجَنَنَّ» بالنون لأنها مثقَّلة، وعلى «ليكوناً» بالألف لأنها مخفَّفة، وهي تشبه نون الإعراب في

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٣، وينظر النكت والعيون ٣/ ٣٣.

(٣) في تفسيره ١٣/ ١٤١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤١، وقوله: على بابه، أي: في الإشارة إلى غائب، كما ذكر ابن عطية.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ١٤٢ عن قتادة. ووقع في (ظ): استعف، بدل: استعصى.

قولك: رأيت رجلاً، وزيداً، وعمراً، ومثله قوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥] ونحوها، الوقفُ[١] عليها بالألف، كقول الأعشى:

وَلَا تَعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدا[٢]

أراد: فاعبداً[٣]، فلمّا وقف عليه كان الوَقفُ بالألف.

**قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي: دخولُ السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزَّجَّاج والنحَّاس[٤]. «أَحَبُّ إليَّ» أي: أسهلُ عليَّ وأهونُ من الوقوع في المعصية، لا أنَّ دخول السجن مما يُحَبُّ على التحقيق.

وحُكي أنَّ يوسف عليه السلام لمَّا قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أوحى الله إليه: «يا يوسف! أنت حَبَسْتَ نفسك حيث قلتَ: السجنُ أحبُّ إليَّ، ولو قلتَ: العافيةُ أحبُّ إليَّ، لعُوفيتَ»[٥].

وحكى أبو حاتم أنَّ عثمان بن عفان ﷺ قرأ: «السَّجْن» بفتح السين، وحكى أنَّ ذلك قراءةُ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن الأعرجِ ويعقوبَ، وهو مصدرُ: سَجَنه سَجْناً[٦].

---

(١) في (ظ): والوقف. والمثبت من باقي النسخ. وتفسير الطبري ١٣/ ١٤٢ - ١٤٣ ، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ١٤٣ ، وصدره عنده: وصلِّ على حين العشيَّات والضحى، وهو في الديوان ص١٨٧ برواية:

وذا النُّصُب المنصوب لا تنسكنَّه ... ولا تعبد الشيطان...

(٣) في تفسير الطبري: فاعبُدَنْ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٧٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٩٥ ، وهو من العشرة.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي: كيدَ النّسوان. وقيل: كيدَ النّسوة اللاتي رأينه؛ فإنهنَّ أَمَرْنه بمطاوعةِ امرأةِ العزيز، وقلن له: هي مظلومةٌ، وقد ظلمتَها. وقيل: طلبت كلُّ واحدةٍ أن تخلوَ به للنصيحة في امرأة العزيز، والقصدُ بذلك أن تَعذِلَه في حقِّها، وتأمرَه بمساعدتها، فلعلَّه يُجيب، فصارت كلُّ واحدةٍ تخلو به على حِدَةٍ فتقول له: يا يوسف، اقضِ لي حاجتي فأنا خيرٌ لك من سيدتك. تدعوه كلُّ واحدةٍ لنفسها وتُراودُه، فقال: يا ربّ كانت واحدةً فصِرْنَ جماعة.

وقيل: كيد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة، وكَنَى عنها بخطاب الجمع؛ إمَّا تعظيماً لشأنها[1] في الخطاب، وإمَّا ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والكيدُ: الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سمِّيت الحربُ كيداً؛ لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لَجَأ:

نَـراءتْ كَـيْ تـكـيـدَكَ أمُّ بِـشْـرٍ وكـيـدٌ بـالـتَّـبَـرُّجِ مَـا تَـكـيـدُ[2]

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ جواب الشرط، أي: أَمِلْ إليهنَّ؛ من صبا يصبو: إذا مال واشتاق، صُبُوًّا وصَبْوة[3]؛ قال:

إلـى هـنـدٍ صَـبَـا قَـلْـبـي وهِـنْـدٌ مِـثْـلُـهـا يُـصْـبِـي[4]

أي: إن لم تَلْطُف بي في اجتناب المعصية وقعتُ فيها[5]. ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: ممن يرتكب الإثمَ ويستحقُّ الذَّمّ، أو ممن يعمل عَمَلَ الجُهَّال؛ ودلَّ هذا على أنَّ

---

(١) في (د) و(ز) و(م): لتعظيم شأنها، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ٣٤، والكلام منه.

(٢) الموشَّى لأبي الطيب الوشَّاء ص١١٢ برواية: ... أم عمرو وكيدك...، ومنتهى الطلب ٧/ ٢٩٩ برواية:
بـدتْ فـتـبـرَّجَـتْ لـك أمُّ بـدرٍ وكـيـداً بـالـتـبـرج...

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٤.

(٤) قائله يزيد بن ضبة، كما في مجاز القرآن ١/ ٣١١، والأغاني ٧/ ١٠٢، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ١٤٥ دون نسبة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨.

أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلَّا بعون الله؛ ودلَّ أيضاً على قُبْحِ الجهل والذمِّ لصاحبه.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ لمَّا قال: «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ»؛ تعرَّض للدعاء، وكأنه قال: اللهمَّ اصرِفْ عنِّي كيدهنّ؛ فاستجاب له دعاءَه، ولَطَفَ به، وعصمه عن الوقوع في الزنى. «كَيْدَهُنَّ» قيل: لأنهنَّ جمعٌ قد راودنَه عن نفسه. وقيل: يعني كيدَ النساء. وقيل: يعني كيدَ امرأة العزيز، على ما ذُكر في الآية قبلُ، والعموم أولى.

**قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾**

**فيه أربع مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأهلِ مَشُورته ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: علامات براءة يوسف ـ من قَدِّ القميص من دُبُر، وشهادةِ الشاهد، وحَزِّ الأيدي، وقلةِ صبرهنّ عن لقاء يوسف ـ أن يسجنوه كتماناً للقصة ألَّا تشيع في العامَّة، وللحيلولة بينه وبينها. وقيل: هي البركاتُ التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم. والأول أصحّ.

قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ قال: [قَدُّ] القميص من الآيات، وشهادةُ الشاهد من الآيات، وقطعُ الأيدي من الآيات، وإعظامُ النساء إياه من الآيات[1].

وقيل: ألجأها الخجلُ من الناس، والوجلُ من اليأس، إلى أنْ رضيت بالحجاب مكانَ خَوْفِ الذهاب، لتشتفيَ إذا مُنعت من نظره؛ قال:

وما صَبابةُ مشتاقٍ على أمَلٍ مِنَ اللِّقاءِ كمشتاقٍ بلا أمَلِ[2]

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢١، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٩ (١١٥٨٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ: من الآيات: قد القميص، وأثر السكين.

(٢) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ص٣٣٦.

أو كادته رجاء أن يَمَلَّ حَبْسَه فيبذلَ نفسه.

**الثانية**: قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ «يَسْجُنُنَّهُ» في موضع الفاعل، أي: ظهر لهم أن يسجنوه. هذا قول سيبويه. قال المبرِّد: وهذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملةً، ولكن الفاعل ما دلَّ عليه «بَدَا»، وهو مصدر، أي: بدا لهم بَدَاءٌ؛ فحذف [الفاعل] لأنَّ الفعل يدلُّ عليه، كما قال الشاعر:

وحُـقَّ لـمـن أبـو مـوسـى أبـوهُ يُـوَفِّـقـه الـذي نَـصـبَ الـجـبـالَا[1]

أي: وحقَّ الحقُّ، فحذف.

وقيل: المعنى: ثم بدا لهم رأيٌ لم يكونوا يعرفونه، وحُذف هذا لأنَّ في الكلام دليلاً عليه، وحذف أيضاً القول، أي: قالوا: لَيَسْجننه[2]. واللامُ جوابٌ ليمينٍ مضمَر. قاله الفرّاء[3]، وهو فعل مذكَّر لا فعل مؤنَّث، ولو كان فعلاً مؤنَّثاً لكان: لَيَسْجُنَّانِهِ، ويدلُّ على هذا قوله: ﴿لَهُم﴾ ولم يقل: لهنّ، فكأنَّه أخبر عن النسوة وأعوانهنَّ، فغلَّب المذكَّر. قاله أبو عليّ.

وقال السُّدِّيّ: كان سببُ حَبْس يوسفَ أنَّ امرأة العزيز شَكَتْ إليه أنه شَهَّرها ونَشَر خبرها[4]، فالضمير على هذا في «لَهُمْ» للملك.

**الثالثة**: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى مدَّةٍ غيرِ معلومة. قاله كثير من المفسِّرين[5]. وقال ابن عباس: إلى انقطاعِ ما شاع في المدينة[6]. وقال سعيد بن

---

(١) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٩ ، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٩ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٥ .

(٦) ذكره الرازي ١٨/ ١٣٣ ، وأورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٢ ، والبغوي ٢/ ٤٢٥ عن عطاء.

جُبَير: إلى ستة أشهر(١). وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثةَ عَشَر شهراً(٢). عِكْرمة: سبع سنين(٣). الكَلْبيُّ: خمس سنين(٤). مقاتل: [اثنتي عشرة سنة](٥). وقد مضى في «البقرة»(٦) القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام. وقال وهب: أقام في السجن اثنتي عشرة سنة(٧). و«حتى» بمعنى إلى، كقوله: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

وجعل الله الحبسَ تطهيراً ليوسف ﷺ من هَمِّه بالمرأة. وكأنَّ العزيز ـ وإن عرف براءةَ يوسف ـ أطاع المرأة في سَجْن يوسف. قال ابن عباس: عَثَر يوسفُ ثلاثَ عثرات، حين هَمَّ بها فسُجِن، وحين قال للفتى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضعَ سنين، وحين قال لإخوته: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾(٨).

**الرابعة**: أُكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام [فيه] خمسة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريفِ قَدْره، ولو أُكره رجلٌ بالسجن على الزِّنى ما جاز له [ذلك] إجماعاً. فإن أكره بالضرب، فقد اختلف فيه العلماء؛ والصحيح أنه إذا كان فادحاً فإنه يَسقط عنه إثمُ الزنى وحدُّه. وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحدّ، وهو ضعيف؛ فإنَّ الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤١ (١١٥٩١) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٤ .

(٢) كذا في النسخ، والذي في أحكام القرآن للكيا ٣/ ٢٣٧ : ثلاث عشرة سنة.

(٣) في (د) و(ز) و(م): تسع سنين، والمثبت من باقي النسخ والمصادر، وقد أخرجه الطبري ١٣/ ١٥١ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤١ (١١٥٩٢)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٦١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٥ .

(٥) قوله: اثنتي عشرة سنة، سقط من النسخ الخطية، والمثبت من الوسيط ٢/ ٦١٣ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٣٣ .

(٦) ١/ ٤٧٨ - ٤٨٠ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢٣ بلفظ: لبث يوسف في السجن سبع سنين، وكذا ذكر الجصاص في احكام القرآن ٣/ ١٧٣ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ١٤٩ . والحاكم ٢/ ٣٤٦ . وقال الذهبي في تلخيصه: وهو خبر منكر.

ولا يُصرِّفه بين بلاءين؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين(١)، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. وسيأتي بيانُ هذا في «النحل» إن شاء الله(٢). وصبرَ يوسفُ [على السجن]، واستعاذ به من الكيد(٣)، فاستجاب له على ما تقدّم.

**قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ «فتيان» تثنيةُ فتى، وهو من ذوات الياء، وقولهم: الفُتُوَّة، شاذ(٤). قال وَهْب وغيره: حُمل يوسف إلى السجن مقيَّداً على حمار، وطِيف به: هذا جزاءُ من يَعْصي سيدته(٥)، وهو يقول: هذا أيسرُ من مُقَطَّعات النِّيران، وسرابيلِ القَطِران، وشرابِ الحميم، وأَكْلِ الزَّقوم.

فلمَّا انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم، واشتدَّ بلاؤهم، فجعل يقول لهم: اصبروا وأبشروا تُؤجروا، فقالوا له: يا فتى، ما أحسن حديثك!

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٤، وما سلف بين حاصريتن منه، إلا أنه وقع فيه. وأقام فيه سبعة أعوام، بدل: خمسة أعوام.

(٢) عند تفسير الآية (١٠٦) منها.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨، ووقع في (م): الفتو، بدل: الفتوة. والفُتُوُّ - على فُعول - جمع فتى. قال سيبويه: أبدلوا الواو في الجمع والمصدر بدلاً شاذاً. الصحاح (فتا).

(٥) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٢ عن ابن عباس نحوه، إلا أن فيه: ونودي عليه في أسواق مصر: إن يوسف العبراني أراد سيدته، فهذا جزاؤه أن يسجن.

لقد بورك لنا في جوارك، مَن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفيِّ الله يعقوبَ، ابنِ ذبيحِ الله إسحاق، ابنِ خليل الله إبراهيم[1].

وقال ابن عباس: لمَّا قالت المرأة لزوجها: إن هذا العبد العبرانيَّ قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن، فكان يُعزِّي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلِّي الليل كلَّه، ويبكي حتى تبكي معه جُدُر البيوت وسقفُها والأبواب، وطَهُر به السجن، واستأنس به أهل السجن، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف، وأحبَّه صاحبُ السجن فوسَّع عليه فيه، ثم قال له: يا يوسف! لقد أحببتك حبًّا لم أحبَّ شيئاً حبَّك، فقال: أعوذ بالله من حبِّك! قال: ولِمَ ذلك؟ فقال: أحبَّني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبَّتني سيدتي فنزل بي ما ترى. فكان في حبسه حتى غضب الملك على خَبَّازه وصاحبِ شرابه، وذلك أنَّ الملك عُمِّر فيهم فملُّوه، فدسُّوا إلى خَبَّازه وصاحبِ شرابه أن يَسُمَّاه جميعاً، فأجاب الخبَّاز وأبى صاحب الشّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾.

وقد قيل: إن الخبَّاز وضع السمَّ في الطعام، فلما حضر الطعام قال السَّاقي: أيها الملك! لا تأكل فإنَّ الطعام مسموم. وقال الخبَّاز: أيها الملك لا تشرب! فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشربْ. فشرب فلم يضرَّه، وقال للخباز: كُلْ. فأبى، فجرَّب الطعام على حيوان فنفقَ مكانَه، فحبسهما سنة، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف[2].

واسم الساقي منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبيُّ عن كعب. وقال النقاش:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٧ - ١٥٨ عن قتادة مطولاً، وفي هذا الخبر نظر، فالذبيح هو إسماعيل على الصحيح.

(٢) ينظر عرائس المجالس ص١٢٤ - ١٢٦، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٣، وزاد المسير ٤/ ٢٢٢.

اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّبريُّ: الذي رأى أنه يعصر خمراً هو نبو، قال السُّهيليُّ: وذَكَر اسمَ الآخَرِ ولم أقيِّده[١].

وقال «فَتَيان» لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمَّى فتى، صغيراً كان أو كبيراً؛ ذكره الماورديّ[٢].

وقال القُشيريّ: ولعلَّ الفتى كان اسماً للعبد في عُرْفهم؛ ولهذا قال: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾. ويحتمِل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً، ويمكن أن يكون حَبْسُهما مع حَبْس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً. كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبرُ الأحلام، فقال أحد الفتَيَين لصاحبه: تعال حتى نجرِّب هذا العبد العبرانيّ، فسألاه من غير أن يكونا رَأيا شيئاً. قاله ابن مسعود[٣].

وحكى الطّبريّ[٤]: أنهما سألاه عن علمه، فقال: إنِّي أعبُرُ الرؤيا، فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدقٍ رَأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صَدَق تأويلها[٥]. وفي الصحيح عن أبي هُريرة عن النبيِّ ﷺ: «أصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً»[٦].

---

(١) التعريف والإعلام ص٨١، وعنه نقل المصنف قول الطبري والنقاش. وقول الطبري في تفسيره ١٣/ ١٥١ - ١٥٢؛ أخرجه عن ابن إسحاق، وذكر فيه أن اسم الآخَر: مجلث.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٣ و ١٦٧ - ١٦٨.

(٤) في تفسيره ١٣/ ١٥٢ - ١٥٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٦، إلا أنه وقع فيه: ابن إسحاق، بدل: ابن عباس، وكذلك أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٣ - ١٥٤ عن مجاهد وابن إسحاق.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٦٤٢)، ومسلم (٢٢٦٣) عن أبي هريرة ﷺ.

وقيل: إنَّها كانت رؤيا كذبٍ سألاه عنها تجريباً، وهذا قولُ ابن مسعود والسُّدي[(١)].

وقيل: إنَّ المصلوب منهما كان كاذباً، والآخَر صادقاً. قاله أبو مِجْلَز[(٢)].

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن تَحلَّمَ كاذباً؛ كُلِّف يومَ القيامة أن يَعقِد بين شَعِيرتين [ولن يَعقِد بينهما]». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[(٣)].

وعن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن كَذَبَ في حُلْمه؛ كُلِّف يومَ القيامة عَقْد شَعِيرة». قال: حديث حسن[(٤)].

قال ابن عباس: لمَّا رأيا رؤياهما أصبحا مَكْروبَيْن، فقال لهما يوسف: ما لي أراكما مكروبَين؟ قالا: يا سيدنا، إنَّا رأينا ما كَرِهْنا، قال: فقُصَّا عليَّ، فقَصَّا عليه، قالا: نبِّئنا بتأويل ما رأينا. وهذا يدلُّ على أنها كانت رؤيا منام[(٥)].

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإحسانُه أنَّه كان يَعود المرضى ويُداويهم، ويُعزِّي الحَزَانَى[(٦)]. قال الضّحاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسَّع له، وإذا احتاج جَمَع له، وسأل له[(٧)].

وقيل: «مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أي: العالِمِين الذين أحسنوا العلم؛ قاله الفرَّاء[(٨)].

---

(١) أخرجه عن السدي الطبري ١٣/ ١٥٣ ، وسلف عن ابن مسعود.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٦ .

(٣) سنن الترمذي (٢٢٨٣)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨٦٦)، والبخاري (٧٠٤٢). وأخرجه أحمد (١٠٥٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) سنن الترمذي (٢٢٨١)، وهو عند أحمد (٥٦٨).

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٢٣ من طريق أبي صالح عن ابن عباس.

(٦) ذكره ابن الجوزي ٤/ ٢٢٣ من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٧) عرائس المجالس ص١٢٥ - ١٢٦ ، وفيه: وسأله ربه، بدل: وسأل له، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٥٦-١٥٧ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٤٥ .

وقال ابن إسحاق: مِن الْمُحْسِنِينَ لنا إن فَسَّرته[١]، كما تقول: افعل كذا وأنت مُحْسِن.

قال: فما رأيتما؟ قال الخبَّاز: رأيت كأني اختَبَزْتُ في ثلاثة تنانيرَ، وجعلته في ثلاث سِلالٍ، فوضعتُه على رأسي، فجاء الطير فأكل منه. وقال الآخر: رأيتُ كأنِّي أخذت ثلاثةَ عناقيدَ من عنبٍ أبيضَ، فعصرتُهن في ثلاث أوانٍ، ثم صفَّيته فسقيتُ الملك كعادتي فيما مضى[٢]، فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنباً، بلغة عُمان؛ قاله الضَّحاك[٣]. وقرأ ابن مسعود: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَباً»[٤]. وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيًا ومعه عنبٌ فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وقيل: معنى «أَعْصِرُ خَمْراً» أي: عنبَ خمرٍ، فحذف المضاف[٥]. ويقال: خَمْرةٌ وخَمْر وخُمُور، مثل تمرةٍ وتمرٍ وتُمور[٦].

﴿قَالَ﴾ لهما يوسف: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ يعني لا يجيئكما غداً طعامٌ من منزلكما ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ لتعلما أنِّي أعلم تأويلَ رؤياكما، فقالا: افعل! فقال لهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال، وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف. وبيَّن أنَّ الله خصَّه بهذا العلم؛ لأنه تركَ ملَّة قومٍ لا يؤمنون بالله، يعني دين الملك.

ومعنى الكلام عندي: العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما، والعلم بدين الله، فاسمعوا أوّلاً ما يتعلَّق بالدين لتهتدوا، ولهذا لم يعبِّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٨، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٧.
(٢) عرائس المجالس ص١٢٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٥، وزاد المسير ٤/ ٢٢٣.
(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٥.
(٤) المحتسب ١/ ٣٤٣.
(٥) الوسيط ٢/ ٦١٣، وخبر الأصمعي عن المعتمر ذكره أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٣.
(٦) الصحاح (خمر).

﴿ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الآية كلّها، على ما يأتي.

وقيل: علم أنَّ أحدهما مقتولٌ، فدعاهما إلى الإسلام ليَسْعَدا به.

وقيل: إنَّ يوسف كره أن يعبِّر لهما ما سألاه؛ لِمَا عَلِمه من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في النوم ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ بتفسيره في اليقظة؛ قاله السُّديّ[1]. فقالا له: هذا من فِعْل العَرَّافين والكَهَنة! فقال لهما يوسف عليه السلام: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك مما علَّمنيه ربِّي[2]، إنِّي لا أخبركما به تكهُّناً وتنجيماً، بل هو بوحيٍ من الله عزَّ وجلَّ.

وقال ابن جُرَيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معروفاً، فأرسل به إليه، فالمعنى: لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا: «تُرْزَقَانِهِ»، أي: يجري عليكما من جهة الملك أو غيره[3]. ويحتمل: يرزقكما الله. قال الحسن: كان يخبرهما بما غاب، كعيسى عليه السلام[4]. وقيل: إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التي يستدلّان بها إخبارَهما بالغيوب.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ لأنَّهم أنبياءُ على الحقّ ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي ﴿لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ «مِنْ» للتأكيد، كقولك: ما جاءني من أحد. وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إشارةٌ إلى عصمته من الزنى ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك.

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إذ جعلنا أنبياء، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلنا الرسلَ إليهم .﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ على نعمه بالتوحيد[5] والإيمان.

---

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٤ .

(٢) عرائس المجالس ص١٢٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٦ .

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٧ .

(٥) في (م): على نعمة التوحيد.

**قوله تعالى:** ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي: يا ساكنَي السجن، وذَكَر الصُّحبة لطول مُقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار[1]. ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي: في الصغر والكبر والتوسُّط، أو متفرّقون في العدد. ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ وقيل: الخطاب لهما ولأهل السِّجن، وكان بين أيديهم أصنامٌ يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاماً للحجة، أي: آلهةٌ شتَّى لا تضرُّ ولا تنفع «خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهَّارُ» الذي قهر كلَّ شيء، نظيره: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]. وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدَّد الإله، لتفرَّقوا في الإرادة ولَعَلَا بعضُهم على بعض، وبيَّن أنها إذا تفرَّقت لم تكن آلهة.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ بيَّن عجزَ الأصنام وضعفَها، فقال: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِه» أي: من دون الله، إلا ذواتَ أسماءٍ لا معانيَ لها. ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ من تلقاء أنفسكم. وقيل: عنى بالأسماء المسمَّيات، أي: ما تعبدون إلا أصناماً ليس لها من الإلهية شيءٌ إلَّا الاسم؛ لأنها جمادات.

وقال: «مَا تَعْبُدُونَ» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين؛ لأنه قَصَدَ جميعَ من هو على مِثْلِ حالهما من الشِّرك[2].

﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ فحذف المفعول الثاني للدلالة، والمعنى: سمَّيتموها آلهةً من عند أنفسكم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ذلك في كتاب. قال سعيد بن جُبير:

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٥.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٧.

﴿مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: من حجة[١]. ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي هو خالقُ الكلّ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾. أي: القويم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

**فيه مسألتان:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: قال للسَّاقي: إنك تُردُّ على عملك الذي كنت عليه مِن سَقْي الملك بعد ثلاثة أيام، وقال للآخر: وأمَّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام، فتصلبُ فتأكل الطيرُ من رأسك، قال: والله ما رأيتُ شيئاً؛ قال: رأيتَ أوْ لم تَرَ ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾[٢].

وحكى أهل اللغة أنَّ سَقَى وأسْقَى لغتان بمعنًى واحد، كما قال الشاعر:

سقَى قومي بَني مَجدٍ وأسْقَى نُمَيراً والقبائلَ من هلالِ[٣]

قال النحاس[٤]: الذي عليه أكثرُ أهل اللغة أنَّ معنى سقاه: ناولَه فشرب، أو صبَّ الماء في حَلْقِه. ومعنى أسقاه: جَعَل له سُقْيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ [المرسلات: ٢٧].

**الثانية:** قال علماؤنا[٥]: إن قيل: مَن كَذَبَ في رؤياه ففسَّرها العابِرُ له، أيلزمه حُكْمُها؟ قلنا: لا يلزمه، وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبيّ، وتعبيرُ النبيِّ حُكم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا، فأوْجَدَ اللهُ تعالى ما أخْبَر كما قال، تحقيقاً لنبوَّته.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٠.

(٢) أخرج هذا الكلام بنحوه الطبري ١٣/ ١٦٧ - ١٦٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ وغيره.

(٣) قائله لبيد، وقد سلف البيت ٢/ ١٣٥.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٠، وما قبله منه.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٥.

فإن قيل: فقد رَوى عبد الرزاق[١]، عن مَعْمَر، عن قَتَادة قال: جاء رجل إلى عمر ابنِ الخطاب فقال: إنّي رأيتُ كأنّي أعْشَبْتُ، ثم أجْدبتُ، ثم أعْشَبْتُ، ثم أجْدبتُ، فقال له عمر: أنت رجلٌ تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافراً؛ فقال الرجل: ما رأيت شيئاً! فقال له عمر: قد قُضي لك ما قُضي لصاحب يوسف.

قلنا: ليست لأحدٍ بعد عمر؛ لأن عمر كان محَدَّثاً، وكان إذا ظنَّ ظنًّا كان، وإذا تكلَّم به وقع، على ما ورد في أخباره، وهي كثيرة؛ منها: أنه دخل عليه رجلٌ، فقال له: أظنُّك كاهناً، فكان كما ظنّ. خرَّجه البخاريّ[٢].

ومنها: أنه سأل رجلاً عن اسمه، فقال له فيه أسماءَ النار كلَّها[٣]، فقال له: أَدْرِكْ أهلَك فقد احترقوا، فكان كما قال. خرَّجه «الموطأ»[٤]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيان في سورة الحجر[٥] إن شاء الله تعالى.

**قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾**

**فيه خمسُ مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيْقَن، في قول أكثرِ المفسرين. وفسَّره قتادة على الظنِّ الذي هو خلافُ اليقين؛ قال: إنما ظنَّ يوسفُ نجاتَه؛ لأنَّ العابِرَ يظنُّ ظنًّا، وربُّك يخلق ما يشاء. والأوّل أصحُّ، وأشبهُ بحال

---

(١) في مصنفه (٢٠٣٦٢).

(٢) في صحيحه (٣٨٦٦) مطولاً.

(٣) في أحكام القرآن: فقال له أسماء فيها النار كلها.

(٤) ٢/ ٩٧٣ عن يحيى بن سعيد عن عمر، وهو منقطع، وأخرجه عبد الرزاق (١٩٨٦٤) عن معمر، عن رجل، عن ابن المسيب. وعزاه ابن حجر في الإصابة ٢/ ١٢٨ لعبد الرزاق ولكنه قال: عن الزهري، عن ابن المسيب. وأخرجه أبو القاسم بن بشران من طريق موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما كما في الإصابة ٢/ ١٢٨ .

(٥) عند تفسير الآية (٧٥) منها.

الأنبياء، وأنَّ ما قاله للفَتَيَيْن في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظنًّا في حكم الناس، وأما في حقِّ الأنبياء فإنَّ حكمهم حقٌّ كيفما وقع[١].

**الثانية**: قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: سيِّدِك، وذلك معروفٌ في اللغة أن يقال للسيِّد: ربّ؛ قال الأعشى:

رَبِّي كريمٌ لا يُكدِّرُ نعمةً … وإذا تُنوشِد بالمَهارِق أنشدا[٢]

أي: اذكر ما رأيتَه، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملِك، وأخبره أنِّي مظلومٌ محبوسٌ بلا ذنب.

وفي «صحيح» مسلم وغيرِه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَقُلْ أحدُكم: اسقِ ربَّك، أطعم ربَّك، وضِّئ ربَّك، ولا يقل أحدُكم: ربِّي، ولْيقل: سيِّدي، مولاي، ولا يقل أحدُكم: عبدي أمتي، وليقل: فتايَ فتاتي غلامي»[٣].

وفي القرآن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: صاحبي، يعني العزيز. ويقال لكلِّ مَن قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه: قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ له[٤].

قال العلماء: قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا يَقُلْ أحدُكم» «ولْيقلْ» من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأَوْلى، لا أنَّ إطلاق ذلك الاسم محرَّم؛ ولأنه قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام: «أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا»[٥] أي: مالكَها وسيِّدَها، وهذا موافقٌ

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ١٧١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٦ - ٢٤٧ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٣/ ١٧١ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨ ، والبيت في ديوان الأعشى ص٢٧٩ برواية: يناشَد. ووقع في (ظ) و(م): في المهارق، وكذا ذكره ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٥٤٧ وقال: في بمعنى الباء، وقال في شرحه: لا يكدِّر نعمة بالمنّ، وإذا ناشدوه بالمهارق ـ وهي كتب الأنبياء ـ أنشدهم، أي: أجابهم.

(٣) صحيح مسلم (٢٢٤٩): (١٥)، وأخرجه أحمد (٨١٩٧) والبخاري (٢٥٥٢)، وسلف ٥/ ١٨٨ مختصراً.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ١٧٧ ، وإكمال المعلم ٧/ ١٨٨ .

(٥) قطعة من حديث جبريل الطويل، أخرجه أحمد (٩٥٠١)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩): (٥) عن أبي هريرة ﷺ، وسلف ١/ ٢١١ برواية: ربتها.

للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ، فكان محلُّ النَّهي في هذا الباب ألَّا نتَّخذَ هذه الأسماءَ عادةً فنترك الأولى والأحسن.

وقد قيل: إنَّ قول الرجل: عبدي وأمتي، يجمع معنيين:

أحدهما: أنَّ العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى، ففي قول الواحد من الناس لمملوكه: عبدي وأمتي، تعظيمٌ عليه، وإضافةٌ له إلى نفسه بما أضافه اللهُ تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غيرُ جائز.

والثاني: أنَّ المملوك يدخله من ذلك شيءٌ في استصغاره بتلك التسمية، فيَحْمِلُه ذلك على سوء الطاعة.

وقال ابن شعبان في «الزاهي»: لا يقل السيِّد: عبدي وأَمتي، ولا يقل المملوك: ربِّي ولا ربَّتي(١). وهذا محمولٌ على ما ذكرناه.

وقيل: إنما قال النبيُّ ﷺ: «لا يقل العبدُ: ربِّي، وليقل: سيِّدي»؛ لأنَّ الربَّ من أسماء الله تعالى المستعملةِ بالاتفاق، واختُلف في السيِّد؛ هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا: ليس من أسماء الله، فالفرقُ واضح؛ إذ لا التباسَ ولا إشكال [يلزم من إطلاقه]. وإذا قلنا: إنه من أسمائه، فليس في الشُّهرة والاستعمال كلفظ الربِّ، فيحصل الفرق(٢).

وقال ابن العربي(٣): يحتمل أن يكون ذلك جائزاً في شرع يوسفَ عليه السلام.

**الثالثة**: قوله تعالى: ﴿فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ الضمير في «فَأَنْسَاهُ» فيه

---

(١) إكمال المعلم ٧/ ١٨٧ ، وقال القاضي عياض بعد أن ذكر قول ابن شعبان: وذكر حديثاً في ذلك، وهو نحوٌ مما في كتاب مسلم. اهـ وابن شعبان هو محمد بن القاسم بن شعبان العمَّاري المصري، أبو إسحاق، شيخ المالكية، من ولد عمار بن ياسر، ويعرف بابن القُرْطي نسبة إلى بيع القرط. توفي سنة (٣٥٥هـ). السير ١٦/ ٧٨ .

(٢) المفهم ٥/ ٥٥٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٧ .

قولان:

أحدهما: أنه عائدٌ إلى يوسف عليه السلام، أي: أنساه الشيطان ذِكرَ الله عزَّ وجلَّ؛ وذلك أنه لمَّا قال يوسف لساقي الملك ـ حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك ـ: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نسيَ في ذلك الوقتِ أن يشكوَ إلى الله ويستغيثَ به، وجَنَحَ إلى الاعتصام بمخلوق[1]؛ فعوقب باللَّبث.

قال عبد العزيز بنُ عُمير الكِنديُّ[2]: دخل جبريل على يوسف النبيِّ عليه السلام في السجن، فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذِرين! ما لي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهِرَ الطَّاهِرين[3]! يُقرئك السلامَ ربُّ العالمين ويقول: أمَا استَحَيْتَ إذ استغثْتَ بالآدميِّين؟! وعزَّتي لأُلبثنَّك في السجن بِضْعَ سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عنِّي راضٍ؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة[4].

ورُوي أنَّ جبريل عليه السلام جاءه فعاتَبَه عن الله تعالى في ذلك وطوَّل سَجْنَه، وقال له: يا يوسف! مَن خلَّصك من القتل من أيدي إخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجُبّ؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عَصَمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صَرَفَ عنك كيدَ النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وَثِقْتَ بمخلوقٍ وتركت ربَّك فلم تسأله؟! قال: يا ربِّ، كلمةٌ زلَّت مني، أسألك يا إلهَ إبراهيمَ وإسحاق والشيخِ يعقوبَ عليهم السلام أن ترحَمَني؛ فقال له جبريل: فإنَّ عقوبتك أن تلبثَ في السجن بِضْعَ سنين[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧.

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤/ ٢٣٤ في الطبقة السادسة من أهل الشام، وقال: أصله من خُراسان، لكنه سكن دمشق.

(٣) في (م): ابن الطاهرين.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٣، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧، والواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٤ دون نسبة. وذكره البغوي ٢/ ٤٢٨ عن الحسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٩ - ٢١٥٠ (١١٦٤٢) عن أنس ﷺ بنحوه، وذكره بنحوه أيضاً مختصراً الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧.

وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله يوسف، لولا الكلمةُ التي قال: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن بضعَ سنين»[١].

وقال ابن عباس: عوقب يوسفُ بطول الحبس بضع سنين لمَّا قال للذي نجا منهما: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، ولو ذَكَر يوسفُ ربَّه لخلَّصه[٢].

وروى إسماعيل بنُ إبراهيم، عن يونس، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمةُ يوسفَ ـ يعني قولَه: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ـ ما لبث في السجن ما لبث» قال: ثم يبكي الحسنُ ويقول: نحن يَنزل بنا الأمرُ فنشكو إلى الناس[٣].

وقيل: إنَّ الهاء تعود على النَّاجي، فهو الناسي، أي: أنسى الشيطانُ الساقيَ أن يذكرَ يوسفَ لربِّه، أي: لسيِّده. وفيه حذف، أي: أنساه الشيطانُ ذِكْرَه لربه[٤]. وقد رجَّح بعض العلماء هذا القولَ فقال: لولا أنَّ الشيطان أنسى يوسف ذِكْرَ الله لَمَا استحقَّ العقابَ باللَّبث في السجن؛ إذ الناسي غيرُ مؤاخَذ.

وأجاب أهل القول الأوَّلِ: بأنَّ النسيان قد يكون بمعنى التَّرْك، فلمَّا ترك ذِكْرَ الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب.

ردَّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، فدلَّ على أنَّ الناسيَ هو الساقي لا يوسفُ، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، فكيف يصحُّ أن يضاف نسيانُه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة؟!

قيل: أمَّا النسيان فلا عصمةَ للأنبياء عنه إلا في وجهٍ واحد، وهو الخبرُ عن الله

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٦)، وابن أبي حاتم ٧/٢١٤٨ (١١٦٣٤).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٠ (١١٦٤٣) دون قوله: ولو ذكر يوسف ربه لخلصه.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص١٠٣ ، والطبري ١٣/ ١٧٣ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٨ .

تعالى فيما يبلِّغونه، فإنهم معصومون فيه، وإذا وقع منهم النسيانُ حيث يجوز وقوعه؛ فإنه يُنسَب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم [أو يخبرون به عن أنفسهم]، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم(١)؛ قال ﷺ: «نَسِيَ آدمُ، فنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُه». وقال: «إنَّما أنا بشرٌ أنسى كما تَنْسَوْن». وقد تقدَّم(٢).

**الرابعة**: قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البِضعُ: قطعةٌ من الدَّهر مختلَفٌ فيها؛ قال يعقوبُ عن أبي زيد: يقال: بَضْع وبِضْع، بفتح الباء وكسرِها(٣)، قال أكثرهم: ولا يقال: بضعٌ ومئة، وإنما هو إلى التسعين(٤).

وقال الهَرَويُّ: العرب تستعمل البِضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبِضعُ والبِضْعةُ واحد، ومعناهما: القطعة من العدد.

وحَكَى عن أبي عبيدة أنه قال(٥): البضع ما دون نصفِ العَقد. يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء.

وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصدِّيق ﷺ: «وكم البِضعُ؟» فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: «اذهبْ فزايِدْ في الخَطَر»(٦).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٦ - ١٠٧٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) تقدم الحديث الأول ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤، والحديث الثاني ٨/ ٤٢١.

(٣) بنحوه في إصلاح المنطق ص٣٦، وتهذيب اللغة ١/ ٤٨٨.

(٤) هو في تفسير الطبري بنحوه ١٣/ ١٧٧.

(٥) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: وحكى أبو عبيدة أنه قال، وينظر تهذيب اللغة ١/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧.

(٦) الخَطَر: الذي يوضع في النضال والرهان، فمن سبق أخذه. تهذيب اللغة ٧/ ٢٢٤. وقال ذلك رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ عند مراهنته المشركين في غَلْب الروم لفارس. وقد أخرجه الطبري ١٨/ ٤٥٥-٤٥٦ من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «اذهب فزايدهم وازدد سنتين» وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير أول آيات سورة الروم من حديث البراء بن عازب ﷺ بلفظ: «تعرَّضْ لهم وأَعْظِم الخطر...». وأخرجه بنحوه أحمد (٢٤٩٥)، والترمذي (٣١٩١) و(٣١٩٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه بنحوه =

وعلى هذا أكثرُ المفسرين، أنَّ البضع سبع؛ حكاه الثعلبيّ[١]. قال الماورديُّ: وهو قولُ أبي بكر الصديق ﷺ وقُطْرُب.

وقال مجاهد: من ثلاثٍ إلى تسع. وقاله الأصمعيّ. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة[٢]. وحكى الزَّجّاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفرّاء: والبِضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المئة[٣].

وفي المدة التي لبث فيها يوسفُ مسجوناً ثلاثةُ أقاويل:

أحدها: سبع سنين؛ قاله ابنُ جُرَيج وقتادةُ ووهب بنُ مُنَبِّه؛ قال وهب: أقام أيوبُ في البلاء سبعَ سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

الثاني: اثنتا عَشْرَةَ سنةً؛ قاله ابن عباس.

الثالث: أربعَ عَشْرةَ سنة؛ قاله الضحَّاك[٤].

وقال مقاتل، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: مكثَ يوسف في السجن خمساً وبِضْعاً. واشتقاقُه من بضعتُ الشيء، أي: قطعته، فهو قطعةٌ من العدد، فعاقب الله يوسفَ بأن حُبِس سبعَ سنين، أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضعُ مدَّةُ العقوبة، لا مدَّةُ الحبس كلِّه[٥].

---

= أيضاً الترمذي (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي، وقال: صحيح حسن غريب. ولم يقع في أيٍّ من هذه الروايات أن البضع من الثلاث إلى السبع، وإنما وقع في بعضها أنه من الثلاث إلى التسع، وفي بعضها أنه مادون العشر.وكذا استدل به ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧ على أن البضع من الثلاث إلى التسع.

(١) في عرائس المجالس ص١٢٧ ، وكذلك حكى الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٤ ، والبغوي ٢/ ٤٢٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ١٧٦ ، وأخرج عن ابن عباس أن البضع ما دون العشرة، وكذا ذكره عنه البغوي ٢/ ٤٢٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠ ، وكلام الزجاج في معانيه ٣/ ١١٢ ، وقد رجح فيه قول مجاهد والأصمعي.

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠ - ٤١ ، عدا قول وهب بن منبه، وسيأتي تخريج خبره.

(٥) ذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧ نحوه عن الكلبي.

قال وهْب بن مُنَبِّه: حُبس يوسف في السجن سبعَ سنين، ومكث أيوبُ في البلاء سبعَ سنين، وعُذِّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبعَ سنين(١).

وقال عبد الله بن راشد البصريُّ(٢) عن سعيد بن أبي عَرُوبة: إنَّ البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرةَ سنةً.

**الخامسة**: في هذه الآيةِ دليلٌ على جواز التعلُّق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلاً، فإنَّ الأمور بيد مُسبِّبها، ولكنَّه جعلَها سلسلة، وركَّبَ بعضها على بعض، فتحريكُها سُنَّة، والتعويلُ على المنتهى يقين. والذي يدلُّ على جواز ذلك نسبةُ ما جرى من النسيان إلى الشيطان، كما جرى لموسى في لُقيا الخَضِر؛ وهذا بيِّنٌ فتأمَّلوه(٣).

**قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ لمَّا دنا فَرَجُ يوسف عليه السلام، رأى الملكُ رؤياه، فنزل جبريل، فسلَّم على يوسف، وبشَّره بالفرَج وقال: إنَّ الله مُخْرِجُك من سجنك، ومُمكِّنٌ لك في الأرض، يَذِلُّ لك ملوكُها، ويطيعك جبابرتُها، ومُعطيك الكلمةَ العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كَيْتَ وكيت، وتأويلُها كذا وكذا. فما لبث في السجن أكثرَ مما رأى الملكُ الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أوَّلاً ليوسف بلاءً وشدَّة، وجَعَلَها آخِراً بشرى ورحمة.

وذلك أنَّ الملك الأكبر الريَّان بنَ الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهرٍ يابسٍ سبعُ بقراتٍ سِمَان، في أثرهنَّ سبعٌ عِجاف ـ أي: مهازيل ـ وقد أقبلت العِجَاف على

(١) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٢٣، والطبري ١٣/ ١٧٥، ووقع عند عبد الرزاق: وعذب بختنصر حُوِّل في السباع سبع سنين، وعند الطبري مثله إلا أنه قال: يجول، بدل: حوِّل.

(٢) لم نقف على ترجمته.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٧.

السِّمان، فأخذن بآذانهنَّ فأكَلْنَهنّ، إلَّا القَرنين، ورأى سبعَ سنبلاتٍ خُضْرٍ قد أقبل عليهن سبعٌ يابِساتٌ، فأكلنهنَّ حتى أتين عليهنّ، فلم يبقَ منهنَّ شيءٌ وهنَّ يابسات، وكذلك البقرُ كنَّ عِجافاً، فلم يزد فيهنّ شيءٌ من أَكْلِهنَّ السِّمان، فهالَتْه الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبَصَرِ بالكَهَانة والنِّجَامة والعَرَافة والسِّحر، وأشرافِ قومه، فقال: «ياأَيُّهَا المَلأ أَفْتُونِي في رُؤْيَايَ»، فقصَّ عليهم، فقال القوم: أَضْغَاثُ أَحْلَام»[١].

قال ابن جريج: قال لي عطاء: إنَّ أضغاث الأحلام: الكاذبةُ المخطئةُ من الرؤيا. وقال جُوَيبر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس قال: إن الرؤيا: منها حقّ، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة[٢].

وقال الهَرَويّ: قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط أحلام[٣]. والضِّغث في اللغة: الحُزْمة من الشيء، كالبَقْل والكلأ وما أشْبَهما، أي: قالوا: ليست رؤياك ببيِّنة، والأحلام: الرؤيا المختلطة[٤].

وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا: أهاويلُها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث: ما لا تأويلَ له من الرؤيا[٥].

قوله تعالى: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقاً بين المذكَّر والمؤنث. «سِمَانٍ» مِن نَعْتِ البقرات، ويجوز في غير القرآن: سبعَ بقراتٍ سِماناً،

---

(١) بنحوه في عرائس المجالس ص١٢٧، والوسيط ٢/ ٦١٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٨.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرج الطبري ١٣/ ١٨٠، من طريق جويبر وغيره نحوه عن الضحاك قوله.

(٣) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١ هذا القول عن معمر وقتادة.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١، وتهذيب اللغة ٨/ ٤ - ٦.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٢، وقول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣١٢. وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٢٦/١٦.

نعتٌ للسبع، وكذا خُضراً؛ قال الفرَّاء: ومثلُه: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٣][(١)]. وقد مضى في سورة البقرة اشتقاقُها ومعناها[(٢)].

وقال عليّ بنُ أبي طالب ﷺ: المَعز والبقر إذا دخلت المدينة، فإن كانت سِماناً فهي سِنيٌّ رخاءٍ، وإن كانت عِجافاً كانت شِداداً، وإن كانت المدينة مدينةَ بحرٍ وإبَّانَ سفر، قدمت سفنٌ على عددها وحالها، وإلَّا كانت فِتَناً مُترادِفةً، كأنها وجوهُ البقر ـ كما في الخبر: «يُشبه بعضُها بعضاً»[(٣)]. وفي خبر آخرَ في الفتن: «كأنَّها صَيَاصِيُّ البقر»[(٤)]. يريد: لتَشَابُهِها ـ إلَّا أنْ تكون صُفْراً كلُّها، فإنها أمراضٌ تدخل على الناس، وإن كانت مختلفةَ الألوان، شنيعةَ القرون، وكان الناس ينفرون منها، أو كان النار والدخان يخرج من أفواهها، فإنَّه عسكر أو غارة، أو عدوٌّ يضرب عليهم وينزل بساحتهم[(٥)].

وقد تدلُّ البقرة على الزوجة والخادم والغلَّة والسَّنَة؛ لمَا يكون فيها من الولد والغلَّة والنبات.

﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ من عَجُف يَعجُف؛ على وزن: عَظُم يَعظُم، وروي: عَجِف يَعجَف؛ على وزن: حَمِد يَحمَد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ جَمْعُ الرؤيا: رُؤًى، أي: أخبروني بحُكْم هذه الرؤيا. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ العبارةُ مشتقَّةٌ من عُبور النهر، فمعنى عَبَرتُ النهر: بلغت شاطئه، فعابِرُ الرؤيا يَعْبُر بما يؤول إليه أمرُها. واللام في «للرؤيا»

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣١، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٧.

(٢) ٢/ ١٧٨.

(٣) قطعة من حديث حذيفة ﷺ أخرجه أحمد (٢٣٣٢٨) بلفظ: «فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً، تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر». وقد سلف بنحوه ٢/ ١٨٨.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٠٤) من حديث عبد الله بن حوالة ﷺ. وصياصي البقر: قرونها. اللسان (صيص).

(٥) ذُكر هذا الكلام في كتاب تفسير الأحلام المنسوب لابن سيرين ص٢١٤ دون نسبة.

للتَّبيين، أي: إن كنتم تَعبُرون، ثم بَيَّن فقال: للرؤيا؛ قاله الزجَّاج[١].

**قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾**

**فيه مسألتان:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ قال الفرَّاء: ويجوز: أضغاثَ أحلام[٢]؛ قال النحاس: النصبُ بعيد؛ لأنَّ المعنى: لم ترَ شيئاً له تأويلٌ، إنما هي أضغاثُ أحلام[٣]، أي: أخلاط. وواحد الأضغاث ضِغث، يقال لكلِّ مختلِطٍ من بَقْلٍ أو حشيشٍ أو غيرهما: ضِغث[٤]؛ قال الشاعر:

كضِغثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حالِمُهْ[٥]

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ قال الزجَّاج: المعنى: بتأويل الأحلام المختلِطة[٦]. نَفَوا عن أنفسهم علمَ ما لا تأويلَ له، لا أنَّهم نفَوْا عن أنفسهم علمَ التأويل.

وقيل: نفَوا عن أنفسهم علمَ التعبير. والأضغاثُ على هذا: الجماعاتُ من الرؤيا التي منها صحيحةٌ ومنها باطلة، ولهذا قال الساقي: «أنا أُنَبِّئُكم بتأويله»، فعَلِم أنَّ القوم عجزوا عن التأويل، لا أنهم ادَّعَوا ألَّا تأويل لها.

وقيل: إنهم لم يقصِدوا تفسيراً، وإنما أرادوا مَحْوَها من صدر الملِك حتى لا تَشْغَلَ باله[٧]، وعلى هذا أيضاً فعندهم علم.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ١١٢ . قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٢٣ : وعَبَرت الرؤيا ـ بالتخفيف ـ هو الذي اعتمده الأثبات.

(٢) يعني في اللغة، لا في القراءة، أي: رأيتَ أضغاثَ أحلام. معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣١ .

(٣) إعراب القرآن ٢/ ٣٣١ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١ .

(٥) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣١ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٨ .

و«الأَحْلَامُ» جمع حُلْم، والحُلْم بالضمِّ: ما يراه النائم؛ تقول منه: حَلَم بالفتح واحْتَلَم، وتقول: حَلَمتُ بكذا وحَلَمته، قال:

فحلمتُها وبنو رُفَيْدَةَ دونَها لا يَبْعَدَنَّ خيالُها المحلومُ[(١)]

وأصله: الأناة، ومنه الحِلْم ضدُّ الطَّيش؛ فقيل لِمَا يُرى في النوم: حُلْم؛ لأنَّ النوم حالةُ أناةٍ وسكونٍ وَدَعة[(٢)].

**الثانية**: في الآية دليلٌ على بُطْلان قولِ مَن يقول: إن الرؤيا على أوَّل ما تُعْبَر[(٣)]؛ لأنَّ القوم قالوا: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسَّرها على سِنيِّ الجَدْب والخِصب، فكان كما عبَر، وفيها دليلٌ على فساد [الرواية] أنَّ الرؤيا على رِجلِ طائر، فإذا عُبِرَتْ وقعت[(٤)].

**قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ يعني ساقيَ الملك. ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد

---

(١) الصحاح (حلم)، والبيت للأخطل، وهو في ديوانه ص٨٨ . ورفيدة: أبو حي من العرب يقال لهم: الرفيدات. اللسان (رفد).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢ .

(٣) أخرج ابن ماجه (٣٩١٥) عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «... والرؤيا لأول عابر». قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٤٣٢ : وهو حديث ضعيف فيه يزيد الرقاشي، ولكن له شاهد أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه بسند حسن وصححه الحاكم عن أبي رزين العقيلي...، وينظر هذا الشاهد في التعليق الذي سيأتي.

(٤) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٢٣٢ ، ونقله الكيا عن أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٣ ، وما سلف بين حاصرتين منهما: وقوله: الرؤيا على رجل طائر... هو حديث مرفوع أخرجه أحمد (١٦١٨٢) وأبو داود (٥٠٢٠) والترمذي (٢٢٧٩) وابن ماجه (٣٩١٤) من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. قال السندي في شرح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٥١ : قوله: «رجل طائر» بكسر الراء، كأنها معلقة بطائر، قيل: هذا مَثَل، والمراد أنها لا يستقر قرارها ما لم تعبَر.

حين؛ عن ابن عباس وغيره[١]، ومنه ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ [هود:٨] وأصلُه: الجملةُ من الحين.

وقال ابن دَرَستويه[٢]: والأُمَّةُ لا تكون الحينَ إلَّا على حذفِ مضاف، وإقامةِ المضاف إليه مقامَه، كأنه قال ـ والله أعلم ـ: وادَّكر بعد حينِ أمَّةٍ، أو بعد زمنِ أُمَّة، وما أَشْبَهَ ذلك، والأُمَّةُ: الجماعةُ الكثيرة من الناس.

قال الأخفش: هو في اللفظ واحدٌ، وفي المعنى جمعٌ. وكلُّ جنسٍ من الحيوان أمَّة؛ وفي الحديث: «لولا أنَّ الكلاب أمَّةٌ من الأمم لأمرتُ بقَتْلِها»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي: تذكَّر حاجةَ يوسف، وهي قوله: «اذْكُرْني عند رَبِّكَ». وقرأ ابن عباس فيما روى عفَّان، عن همَّام، عن قتادة، عن عِكرمة، عنه: «وادَّكر بعدَ أَمَهٍ»؛ النحاس[٤]: والمعروف من قراءة ابنِ عباس وعِكرمة والضَّحاك[٥]: «وادَّكَر بعدَ أَمَهٍ»، بفتح الهمزة وتخفيف الميم، أي: بعد نسيان؛ قال الشاعر:

أَمِهْتُ وكنتُ لا أَنسى حديثاً ... كذاك الدهرُ يُودِي بالعقولِ[٦]

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي[٧]: «بعد أَمْهٍ» بفتح الألف وإسكان الميم وهاءٍ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٨١ - ١٨٤ .

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان، أبو محمد الفارسي النحوي، تلميذ المبرد، وكان ناصراً لنحو البصريين، توفي سنة (٣٤٧هـ). السير ١٥/ ٥٣١ .

(٣) الصحاح (أمم). والحديث أخرجه أحمد (١٦٧٨٨) وأبو داود (٢٨٤٥) والترمذي (١٤٨٦) والنسائي ٧/ ١٨٥ وابن ماجه (٣٢٠٥) من حديث عبد الله بن مغفل المزني ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٢ ، وما قبله منه، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٤ .

(٥) قوله: والضحاك، ليس في معاني القرآن، وأخرج القراءة عنه وعن ابن عباس وعكرمة وغيرهم الطبري ١٣/ ١٨٤ - ١٨٦ .

(٦) الصحاح (أمه).

(٧) اضطرب الاسم في النسخ الخطية، والمثبت من (م) وهو الصواب، قال الحافظ في التقريب: شُبَيْل ـ بالتصغير ـ بن عَزْرة بفتح المهملة بعدها زاي ساكنة ثم راء، أبو عمرو البصري النحوي، وقال في التهذيب ٢/ ١٥٢ : روى عن أنس وغيره، وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل البصرة وقُرَّائهم. اهـ. والقراءة ـ التي ستأتي ـ ذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٩ . وأخرجها الطبري ١٣/ ١٨٦ عن مجاهد.

خالصة. وهو مثل الأَمَه، وهما لغتان، ومعناهما: النِّسيان. ويقال: أَمِهَ يأمَهُ أَمَهاً: إذا نَسيَ؛ فعلى هذا: «وادَّكَرَ بعدَ أَمَهٍ»؛ ذكره النحاس[1]. ورجلٌ أَمِهٌ[2]: ذاهِبُ العقل.

قال الجوهريُّ: وأمَّا ما في حديث الزُّهريِّ: «أَمِهَ» بمعنى: أقَرَّ واعترف، فهي لغةٌ غيرُ مشهورة[3].

وقرأ الأشهب العُقَيليُّ: «بَعْدَ إِمَّةٍ»، أي: بعد نعمة، أي: بعد أن أنعم اللهُ عليه بالنَّجاة[4].

ثم قيل: نسي الفتى يوسفَ؛ لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مُدة. وقيل: ما نسي، ولكنه خاف أن يذكِّرَ الملكَ الذنبَ الذي بسببه حُبس هو والخبَّاز، فقوله: «وادَّكَرَ» أي: ذَكَر وأخبر.

قال النحاس[5]: أصل ادَّكَر: اذْتكر، والذالُ قريبةُ المَخرج من التاء، ولم يَجُز إدغامُها فيها؛ لأنَّ الذال مجهورةٌ، والتاء مهموسةٌ، فلو أدغموا ذهب الجهر، فأبدلوا من موضع التاء حرفاً مجهوراً، وهو الدال، وكان أَوْلى من الطاء؛ لأنَّ الطاء مُطْبَقة، فصار: اذْدَكَر، فأدغموا الذال في الدال [فصار: ادَّكر. وحكى الخليل وسيبويه أنَّ من العرب مَن يقول: اذَّكر، فيدغم الدال في الذال] لرخاوة الذَّال[6] ولِيْنِها.

ثم قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أنا أخبركم. وقرأ الحسن: «أنا آتيكم

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣١، وقال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٠٨: يقال: أمِه يأمَه أَمَهاً وأَمْهاً بفتح الميم وسكونها.

(٢) بعدها في (د) و(ف): ووامه، وفي (ز): وأمة، وفي (ظ): وأمَّة، والمثبت من (م). وجاء في تهذيب اللغة ٦/ ٤٧٥ عن الفراء: أَمِه الرجل فهو مأموه، وهو الذي ليس له عقل.

(٣) الصحاح (أمه). وحديث الزهري هو: من امتُحن في حدٍّ فأَمِهَ ثم تبرَّأ، فليست عليه عقوبة: غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٤٧٧.

(٤) المحتسب ١/ ٣٤٤، وهي أيضاً في القراءات الشاذة ص٦٤.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣١، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في النسخ: الدال، والمثبت من إعراب القرآن، وهو الصواب لأن الدال من الحروف الشديدة.

بتأويلِه»، وقال: كيف ينبِّئهم العِلْج؟! قال النحاس[١]: ومعنى: «أنبِّئُكُم» صحيحٌ حسن، أي: أنا أُخبركم إذا سألتُ.

﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ خاطَبَ الملكَ ولكنْ بلفظ التعظيم، أو خاطب الملك وأهلَ مجلسه.

﴿يُوسُفُ﴾ نداءٌ مفرَد، وكذا ﴿الصِّدِّيقُ﴾ أي: الكثيرُ الصِّدق[٢]. ﴿أَفْتِنَا﴾ أي: فأرسَلوه، فجاء إلى يوسف فقال: أيها الصِّدِّيق، وسأله عن رؤيا الملك. ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملك وأصحابه. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ التعبير، أو «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» مكانَك من الفضل والعلم فتخرج. ويحتمل أن يريدَ بالناس الملكَ وحده تعظيماً له.

**قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾**

**فيه مسألتان:**

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ﴾ لمَّا أعلمه بالرؤيا جعل يفسِّرها له، فقال: السبعُ من البقرات السِّمان والسُّنبلاتِ الخضر سبعُ سنين مُخْصِبات، وأمَّا البقرات العِجافُ والسُّنبلاتُ اليابساتُ فسبعُ سنين مُجْدِبات، فذلك قوله: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أي: متواليةً متتابعة، وهو مصدرٌ على غير المصدر[٣]؛ لأنَّ معنى «تَزْرَعُونَ»: تدأبون[٤] كعادتكم في الزراعة سبعَ سنين. وقيل: هو حال، أي: دائبين. وقيل: صفةٌ لسبع سنين، أي: دائبةً.

وحكى أبو حاتم عن يعقوبَ: «دَأَباً» بتحريك الهمزة، وكذا روى حفصٌ عن

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٣ ، وما قبله منه، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣١ .

(٣) في (د) و(ز): الصدر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ . وهذا القول ذكره السمين في الدر المصون ٦/ ٥١٠ عن المبرد، وأنه من باب. قعدت القرفصاء. قال السمين: وفيه نظر؛ لأنه ليس نوعاً خاصاً به، بخلاف القرفصاء مع القعود. وذَكر عن سيبويه: أنه منصوب بفعل مقدَّر، تقديره: تدأبون.

عاصم، وهما لغتان، وفيه قولان: قولُ أبي حاتم: أنه من دَئِب. قال النحاس[١]: ولا يَعرف أهلُ اللغة إلا دَأَب. والقول الآخر: أنه حُرِّك لأنَّ فيه حرفاً من حروف الحَلْق؛ قاله الفرَّاء، قال[٢]: وكذلك كلُّ حرفٍ فُتح أوَّله وسكِّن ثانيه، فتثقيلُه جائزٌ إذا كان ثانيه همزةً، أو هاء، أو عيناً، أو غيناً، أو حاء، أو خاء، وأصلُه العادة؛ قال:

كـدأبـكَ مِـن أُمِّ الـحُـوَيـرث قَـبْـلَـهـا

وقد مضى في «آل عمران» القولُ فيه[٣].

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ قيل: لئلا يتسوَّس، وليكونَ أبقى؛ وهكذا الأمرُ في ديار مصر. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: استخرِجوا ما تحتاجون إليه بقَدْرِ الحاجة؛ وهذا القولُ منه أمر، والأولُ خبر. ويَحْتَمِل أن يكون الأولُ أيضاً أمراً وإن كان الأظهرُ منه الخبر؛ فيكون معنى: «تَزْرَعُونَ»، أي: ازرعوا[٤].

**الثانية**: هذه الآيةُ أصلٌ في القول بالمصالح الشرعية؛ التي هي: حِفظُ الأديان، والنفوس، والعقول، والأنساب، والأموال، فكلُّ ما تَضَمَّن تحصيلَ شيءٍ من هذه الأمور فهو مصلحة، وكلُّ ما يُفوِّت شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعُه مصلحة، ولا خلافَ أنَّ مقصود الشرائع إرشادُ الناس إلى مصالحهم الدُّنيويَّة؛ ليحصُلَ لهم التمكُّنُ من معرفة الله تعالى وعبادته الموصِلتَيْن إلى السعادة الأُخْرَوِيَّة، ومراعاةُ ذلك فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ ورحمةٌ رَحِمَ بها عبادَه، من غير وجوبٍ عليه ولا استحقاق؛ هذا مذهبُ كافَّةِ المحقِّقين من أهل السُّنَّة أجمعين؛ وبسطُه في أصول الفقه.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٢، وما قبله منه. وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٢٩، وقراءة حفص في السبعة ص٣٤٩، والتيسير ص١٢٩.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٧.

(٣) ٥/ ٣٥، وسلف البيت ثَمَّ، وهو لامرئ القيس، وعجزه: وجارتِها أم الرباب بمأسل، وهو في ديوانه ص٩ برواية: كدِينك، بدل: كدأبك.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٢٥، وقال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٠٩: ولا مدخل لأمره لهم بالزراعة؛ لأنهم يزرعون على عادتهم، أَمَرهم أو لم يأمرهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيه مسألتان:

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني السِّنينَ المُجْدِبَات. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مَجاز، والمعنى: يأكل أهلُهنّ. ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: ما ادَّخرتم لأَجْلِهنّ[1]؛ ونحوُه قولُ القائل:

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ وليلُكَ نومٌ والرَّدَى لكَ لازمُ[2]

والنهارُ لا يَسهو، والليل لا ينام؛ وإنما يُسهى في النهار، ويُنام في الليل.

وحكى زيد بنُ أَسْلَمَ عن أبيه: أنَّ يوسف كان يضع طعام اثنين، فيقرِّبُه إلى رجلٍ واحدٍ، فيأكل بعضَه، حتى إذا كان يومٌ قرَّبه له فأكله كلَّه، فقال يوسف: هذا أوَّلُ يومٍ من السَّبع الشِّداد[3].

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء. ﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: ممَّا تَحبسون لتزرعوا[4]؛ لأن في استبقاء البَذْر تحصينَ الأقوات. وقال أبو عبيدة: تُحْرِزون[5]. وقال قتادة: «تُحْصِنُونَ»: تدَّخرون[6]. والمعنى واحد، وهو يدلُّ على جواز احتكارِ الطعام إلى وقت الحاجة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢.

(٢) نسبه ابن رشيق في العمدة ١/ ٣٧، والعاملي في الكشكول ٢/ ٣٨٢ لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى. وجاء في الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص٣٣١، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٢٤-١٢٥ أن عمر كان يتمثل به. وهو في تفسير الطبري ١٣/ ١٩٠ - ١٩١ دون نسبة.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣١٣، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٩٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩١ - ١٩٢.

**الثانية**: هذه الآية أصلٌ في صحَّة رؤيا الكافر، وأنها تُخرَّج على حَسَب ما رأى، لا سيَّما إذا تعلَّقتْ بمؤمن، فكيف إذا كانت آيةً لنبيٍّ، ومعجزةً لرسول، وتصديقاً لمصطفًى للتبليغ، وحجَّةً للواسطة بين الله جلَّ جلالُه وبين عبادِه[(١)]؟

**قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾**

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبرٌ من يوسف عليه السلام عمَّا لم يكن في رؤيا الملك، ولكنه مِن علم الغيب الذي آتاه الله؛ قال قَتَادة: زاده الله عِلمَ سَنَةٍ لم يسألوه عنها[(٢)]، إظهاراً لفضله، وإعلاماً بمكانه من العلم ومعرفته.

﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غَوَّثَ الرجل، قال: واغَوْثاه، والاسم: الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث، واستغاثني فلانٌ فأغثته، والاسم: الغِياث؛ صارت الواو ياءً لكسرةِ ما قَبْلَها. والغيث: المطر، وقد غاث الغيثُ الأرضَ، أي: أصابها؛ وغاث اللهُ البلادَ يَغِيثها غَيْثاً، وغِيثَتِ الأرضُ تُغاث غَيْثاً، فهي أرضٌ مَغِيثة ومَغْيوثة[(٣)]. فمعنى: «يُغَاثُ النَّاسُ»: يُمطَرون.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعصرون الأعناب والدُّهن؛ ذكره البخاريّ[(٤)].

وروى حجَّاجٌ عن ابن جُرَيج قال: [قال ابن عباس:] يعصرون العنب خمراً، والسِّمسِمَ دُهناً، والزيتون زيتاً[(٥)].

وقيل: أراد حلبَ الألبان لكثرتها[(٦)]؛ ويدلُّ ذلك على كثرة النبات.

وقيل: «يَعْصِرُونَ» أي: يَنجُون، وهو من العُصْرة، وهي المَنْجاة؛ قاله

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٣ ، وما بعده من كلام ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٨ .

(٣) الصحاح (غوث) و(غيث).

(٤) قبل الحديث (٦٩٩٢)، ووصله الطبري ١٣/ ١٩٤.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: فيه يحلبون.

أبو عبيدة(١). والعَصَر بالتحريك: المَلْجأ والمَنْجاة، وكذلك العُصْرة؛ قال أبو زُبَيد(٢):

صادِياً يَستغِيثُ غيرَ مُغاثٍ ولقد كانَ عُصْرَةَ المَنْجودِ

والمَنْجود: الفَزِع(٣). واعتصرتُ بفلان وتَعصَّرتُ، أي: التجأت إليه. قال أبو الغوث: «يَعْصِرُونَ»: يَسْتَغِلُّونَ؛ وهو من عَصْر العنب. واعتصرت مالَه، أي: استخرجته من يده(٤).

وقرأ عيسى: «تُعْصَرُونَ» بضمِّ التاء وفتح الصاد(٥)، ومعناه: تُمطَرون؛ من قول الله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، وكذلك معنى «تُعصِرون» بضمِّ التاء وكسر الصاد، فيمَن قرأه كذلك(٦).

**قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾**

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ أي: فذهب الرسولُ فأخبر الملك، فقال:

---

(١) في (د) و(م): قال أبو عبيدة، والمثبت من باقي النسخ، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (عصر) وما بعده منه. وقد ردَّه الطبري ١٣/ ٢٠٥ وقال: يكفي من الشهادة على خطئه خلافُه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين.

(٢) حرملة بن منذر الطائي، ويقال: المنذر بن حرملة. كان نصرانياً واختلف في إسلامه. وهو أحد المعمَّرين، يقال عاش مئة وخمسين سنة. الإصابة ١١/ ١٥٤. والبيت في تفسير الطبري ١٣/ ١٩٧، وأمالي اليزيدي ص٨، والصحاح (عصر)، والاقتضاب ص٣٩٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥.

(٤) الصحاح (عصر)، وأبو الغوث الأعرابي ممن سمع منهم الجوهري، وقد ورد ذكره في الصحاح في غير موضع.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٣١٦، وذكر عن عيسى أيضاً أنه قرأ: «يُعصَرون» بضم الياء وفتح الصاد، وكذلك ذكرها عنه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٤.

(٦) لم نقف على هذه القراءة.

ائتوني به ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: يأمره بالخروج، قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أي: حال النسوة ﴿ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. فأبى أن يَخرجَ إلَّا أن تصحَّ براءتُه عند الملك مما قُذِف به، وأنه حُبس بلا جُرْم[١].

وروى الترمذيُّ عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بن إبراهيم». قال: «ولو لبِثتُ في السِّجن ما لَبِث، ثم جاءني الرسولُ، أَجبْتُ»، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ قال: «ورحمةُ الله على لوطٍ، لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شديد إذ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فما بَعثَ اللهُ من بعده نبيًّا إلَّا في ذِرْوةٍ من قومه»[٢].

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرْحمُ اللهُ لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثتُ في السِّجن ما لَبِثَ يوسفُ لأَجبْتُ الدَّاعي، ونحن أحقُّ من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠][٣]».

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي يوسفَ، لقد كان صابراً حليماً، ولو لبثتُ في السجن ما لَبِثَه؛ أجبتُ الداعيَ ولم ألتمس العُذْر»[٤]. ورُوي نحوُ هذا الحديثِ من طريق عبد الرحمن بنِ القاسم صاحبِ مالك، في كتاب التفسير من «صحيح» البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيرُه[٥]. وفي رواية الطَّبريِّ[٦]:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٩.

(٢) سنن الترمذي (٣١١٦)، وهو عند أحمد (٨٣٩١). وقد سلفت القطعة الأخيرة منه ص١٨١ من هذا الجزء. والعبارة الأولى أخرجها أحمد (٨٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجها أيضاً (٥٧١٢)، والبخاري (٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٩٤)، وهو عند أحمد (٨٣٢٨ - ٨٣٢٩)، ومسلم (١٥١). وسلف ٤/ ٣١٠.

(٤) أخرج نحوه أحمد (٨٥٥٤)، والطبري ١٣/ ٢٠٠ - ٢٠١، والحاكم ٢/ ٣٤٦. من حديث أبي هريرة ﷺ. وكلام المصنف في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢، والحديث المشار إليه عند البخاري هو حديث أبي هريرة السالف.

(٦) في تفسيره ١٣/ ٢٠٠.

«يرحم الله يوسفَ، لو كنت أنا المحبوسَ ثم أُرسل إليَّ، لخرجتُ سريعاً، إنْ كان لحليماً ذا أناة».

وقال ﷺ: «لقد عجبتُ من يوسف وصبرِه وكرمه، واللهُ يغفر له حين سئل عن البقرات، لو كنت مكانَه لَمَا أخبرتُهم حتى أَشْتَرِطَ أن يُخْرِجوني، ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسولُ، ولو كنتُ مكانَه لبادَرْتُهم الباب»[1].

قال ابن عطية[2]: كان هذا الفعلُ من يوسفَ عليه السلام أناةً وصبراً، وطَلَباً لبراءة الساحة، وذلك أنه ـ فيما روي ـ خشي أن يخرج وينالَ من الملك مرتبةً، ويسكت عن أمرِ ذنبه صفحاً، فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون: هذا الذي راود امرأةَ مولاه، فأراد يوسف عليه السلام أن يبيِّن براءته، ويحقِّق منزلته[3] من العِفَّة والخير، وحينئذٍ يخرج للإحظاء والمنزلة؛ فلهذا قال للرسول: ارجع إلى ربِّك وقل له: ما بالُ النسوة؟ ومقصدُ يوسفَ عليه السلام إنما كان: وقل له: يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري، هل سُجنت بحقٍّ أو بظلم. ونَكَب عن [ذِكْر] امرأة العزيز حُسنَ عِشرةٍ، ورعايةً لِذمام الملك العزيزِ له.

فإن قيل: كيف مَدَح النبيُّ ﷺ يوسفَ بالصبر والأناة وتركِ المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالةٍ قد مَدح بها غيره؟

فالوجه في ذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما أخذ لنفسه وجهاً آخَرَ من الرأي، له جهةٌ أيضاً من الجودة، يقول: لو كنتُ أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيانَ عذري بعد ذلك. وذلك أنَّ هذه القصصَ والنوازل [إنما] هي معرَّضةٌ لأنْ يقتديَ الناسُ بها إلى يوم القيامة، فأراد رسول الله ﷺ حَمْلَ الناس على الأَحْزَمِ من الأمور؛ وذلك أنَّ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٠٢ ، والطبراني (١١٦٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٩ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في المحرر الوجيز: أن تبين براءته، وتتحقق منزلته.

المُتَعمِّق(١) في مثل هذه النازلة، التاركَ فرصةَ الخروجِ من مثلِ ذلك السجن، ربما نَتَج له [من ذلك] البقاءُ في سجنه، وانصرفت نفسُ مُخْرِجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أَمِن من ذلك بعلمه من الله؛ فغيرُه من الناس لا يأمن ذلك، فالحالةُ التي ذهب النبيُّ ﷺ بنفسه إليها حالةُ حزمٍ [ومدح]، وما فَعَلَه يوسفُ عليه السلام صبرٌ عظيمٌ وجَلَدٌ.

قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ذَكرَ النِّساءَ جملةً ليدخل فيهنَّ امرأة العزيز، مدخلَ العمومِ بالتلويح، حتى لا يقعَ عليها تصريح؛ وذلك حُسنُ عِشرةٍ وأدب، وفي الكلام محذوف، أي: فاسأله أن يتعرَّفَ ما بالُ النِّسوة.

قال ابن عباس: فأرسل الملكُ إلى النسوة وإلى امرأة العزيز ـ وكان قد مات العزيز ـ فدعاهنَّ فَـ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: ما شأنكنّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وذلك أنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ كلَّمت يوسف في حقِّ نفسها، على ما تقدَّم(٢)، أو أراد قولَ كلٍّ واحدة: قد ظلمتَ امرأةَ العزيز، فكان ذلك مراودةً منهنّ. ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: زِنَى. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ لمَّا رأت إقرارَهنَّ ببراءة يوسف، وخافت أن يَشهدنَ عليها إن أنكرت، أقرَّت هي أيضاً، وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف.

و«حَصْحَصَ الْحَقُّ» أي: تبيَّن وظَهَر، وأصله: حَصَصَ، فقيل: حَصْحَصَ، كما قال: كُبْكِبُوا، في كُبِبوا، وكَفْكَف في كَفَفَ؛ قاله الزجَّاج وغيره(٣).

وأصل الحَصِّ: استئصال الشيء؛ يقال: حصَّ شعرَه: إذا استأصله جَزًّا(٤)؛ قال

---

(١) في النسخ: وذلك أن ترك الحزم في مثل، والمثبت من المحرر الوجيز، ويعني بالمتعمِّق: المبالغ في الأمر المتشدِّد فيه.

(٢) ص٣٤٠ من هذا الجزء.

(٣) ذكره عن الزجاج الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧ ، وقاله أيضاً النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨٩ ، والطبري ١٣/ ٢٠٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٦ .

أبو قيس بنُ الأَسْلَت[١]:

قد حَصَّت البيضةُ رأسي فما أطعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ

وسَنَةٌ حصَّاء، أي: جرداءُ لا خيرَ فيها؛ قال جَرير:

يأوي إليكم بلا مَنٍّ ولا جَحَدٍ مَن ساقَه السَّنةُ الحصَّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول: والضَّبعُ، وهي السنة المُجْدِبة؛ فوضع الذئب موضعَه لأجل القافية[٢]؛ فمعنى «حَصْحَصَ الْحَقُّ»، أي: انقطع عن الباطل بظهوره وثباته؛ قال:

أَلَا مُبْلِغٌ عنِّي خِدَاشاً فإنَّهُ كَذوبٌ إذا ما حَصحصَ الحقُّ ظالمُ[٣]

وقيل: هو مشتقٌّ من الحِصَّة؛ فالمعنى: بانت حِصَّةُ الحقِّ من حِصَّة الباطل[٤]. وأصله[٥] مأخوذٌ من قولهم: حَصَّ شَعْرَه: إذا استأصل قطعةً [فظهرت مواضعه]، ومنه: الحِصَّة من الأرض: إذا قُطعت منها. والحِصْحِص بالكسر: التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري[٦].

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا القولُ منها ـ وإن لم يكن سأل عنه ـ إظهارٌ لتوبتها، وتحقيقٌ لصدق يوسف وكرامته؛ لأنَّ إقرار المُقِرِّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه، فجمع اللهُ تعالى ليوسف لإظهار صدقِه الشهادةَ والإقرار، حتى لا يخامرَ نفساً ظنٌّ، ولا يخالطَها شكٌّ[٧].

---

(١) الأوسي، مختلف في اسمه، فقيل: صيفي، وقيل: الحارث، وقيل: عبد الله، وقيل صِرْمة. واختلف في إسلامه. الإصابة ١١/٣٠٩. والبيت في المفضليات ص٢٨٤، والكامل ١/٢٣٥، والصحاح (حصص)، والخزانة ٣/٤١١.

(٢) الصحاح (حصص)، والبيت في ديوان جرير ١/٣٤٩ (بشرح ابن حبيب).

(٣) النكت والعيون ٣/٤٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/١١٥، وزاد المسير ٤/٢٣٧.

(٥) وقع قبلها في النسخ قوله: وقال مجاهد وقتادة، وهو وهم، والكلام في النكت والعيون ٣/٤٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في الصحاح (حصص).

(٧) النكت والعيون ٣/٤٧.

وشُدِّدت النون في «خَطْبُكُنَّ» و«رَاوَدْتُنَّ» لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكَّر[١].

**قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ اختُلف فيمن قاله، فقيل: هو مِن قول امرأة العزيز، وهو متَّصل بقولها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[٢] أي: أقررتُ بالصدق ليعلمَ أني لم أخنه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي[٣]: بالكذب عليه، ولم أذكره بسوءٍ وهو غائب، بل صدقتُ وحِدت عن الخيانة، ثم قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ بل أنا راودته، وعلى هذا هي كانت مُقِرَّةً بالصانع، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقيل: هو من قول يوسف، أي: قال يوسف: ذلك الأمر الذي فعلتُه من ردِّ الرسول «لِيَعْلَمَ» العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. قاله الحسن وقَتادة وغيرهما[٤].

ومعنى «بالغيب»: وهو غائب. وإنما قال يوسف ذلك بحضرة المَلِك، وقال: «لِيَعْلَمَ» على الغائب؛ توقيراً للملك. وقيل: قاله إذ عاد إليه الرسولُ وهو في السجن بعدُ، قال ابن عباس: جاء الرسولُ إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه، فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لم أَخُن سيِّدي بالغيب؛ فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف، ولا حين حَلَلْت الإزارَ، وجلستَ مجلسَ الرجلِ من المرأة؟! فقال يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ الآية[٥]. وقال السّديُّ: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حَلَلْت سراويلك يا يوسف؟! فقال

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٤ .

(٣) قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾، أي، من (م).

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، والنكت العيون ٣/ ٤٧ .

(٥) سلف في الصفحة ٣١٢ من هذا الجزء، وينظر ما ذكرنا ثمة من ردود العلماء على هذا الخبر وما شابهه من الأخبار التي تنافي عصمة الأنبياء.

يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾[(١)].

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ من قول العزيز، أي: ذلك ليعلم يوسفُ أني لم أَخُنه بالغيب، وأني لم أغفُل عن مُجازاته على أمانته[(٢)]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ معناه: أنَّ الله لا يهدي الخائنين بكيدهم[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ قيل: هو من قول المرأة. وقال القُشَيريُّ: فالظاهر أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ من قول يوسف.

قلت: إذا احتمل أن يكون من قول المرأة؛ فالقولُ به أولى حتى نبرِّئ يوسفَ من حَلِّ الإزار والسَّراويل، وإذا قدَّرناه من قول يوسف؛ فيكون مما خطر بقلبه، على ما قدَّمناه من القول المختار في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [الآية: ٢٤].

قال أبو بكر الأنباريُّ[(٤)]: من الناس مَن يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ من كلام امرأة العزيز، لأنه متصل بقولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا مذهبُ الذين يَنفون الهمَّ عن يوسف عليه السلام، فَمَن بنى على قولهم قال: من قوله: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كلامٌ متصلٌ بعضُه ببعض، ولا يكون فيه وقفٌ تامٌّ على حقيقة، ولسنا نختار هذا القولَ ولا نذهب إليه.

وقال الحسن: لمَّا قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ كره نبيُّ الله أن يكون قد زكَّى نفسَه فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾[(٥)] لأن تزكيةَ النفس مذمومةٌ، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢]، وقد بيَّناه في «النساء»[(٦)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٧.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٢٤ - ٧٢٥.

(٥) زاد المسير ٤/ ٢٤١.

(٦) ٦/ ٤٠٧ وما بعدها.

وقيل: هو من قول العزيز، أي: وما أُبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف[١].

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: مُشتهيةٌ له. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ في موضع نصب بالاستثناء[٢]، و«ما» بمعنى مَنْ، أي: إلا مَن رَحِمَ ربي فعصمه، و«ما» بمعنى مِن كثير، قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]. وهو استثناءٌ منقطع؛ لأنه استثناء المرحوم بالعصمة مِن النفس الأمارة بالسوء[٣]. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما تقولون في صاحبٍ لكم؛ إنْ أنتم أكرمتُموه وأطعمتُموه وكسوتُموه أفضى بكم إلى شرِّ غاية، وإنْ أهنتُموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية» قالوا: يا رسولَ الله، هذا شرُّ صاحب في الأرض. قال: «فوالذي نفسي بيده، إنها لَنفوسكم التي بين جُنوبكم»[٤].

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ لمَّا ثبت للملِك براءتُه مما نُسب إليه، وتحقَّق في القصة أمانتَه، وفهِمَ أيضاً صبرَه وجَلَده؛ عظُمت منزلتُه عنده، وتيقَّن حسنَ خِلاله قال: «ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي». فانظر إلى قول الملك أولاً ـ حين تحقق عِلمَه ـ: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ [يوسف: ٥٠] فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾[٥].

ورُوي عن وهب بن مُنَبِّه قال: لما دُعي يوسف وقف بالباب، فقال: حسبي ربِّي من خَلقه، عزَّ جارُه، وجلَّ ثناؤه، ولا إلهَ غيرُه. ثم دخل، فلمَّا نظر إليه الملِك نزل

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٤، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١، وتفسير الرازي ١٨/ ١٥٧.

(٤) لم نقف عليه، والله أعلم بصحته.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٥.

عن سريره فخرَّ له ساجداً، ثم أقعده الملك معه على سريره فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. ﴿قَالَ﴾ له يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للخزائن ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه تصرفاتها[١]. وقيل: حافظٌ للحساب، عليمٌ بالألسن[٢].

وفي الخبر: «يرحَم اللهُ أخي يوسفَ، لو لم يَقُلْ: اجعَلْني على خزائن الأرض لاستعملَه مِن ساعته، ولكن أخَّر ذلك سنة»[٣].

وقيل: إنما تأخَّر تمليكه إلى سنة؛ لأنه لم يقل: إن شاء اللهُ[٤].

وقد قيل في هذه القصة: إنَّ يوسفَ عليه السلام لمَا دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ غيره، ثم سلَّم على الملك بالعربية، فقال: ما هذا اللسان؟! قال: هذا لسان عَمِّي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟! قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكان الملك يتكلَّم بسبعين لساناً، فكلَّما كلَّم يوسفَ[٥] بلسانٍ أجابه يوسفُ بذلك اللسان، فأعجب الملكَ أمرُه، وكان يوسفُ إذ ذاك ابنَ ثلاثين سنة، ثم أجلسه على سريره وقال: أُحبُّ أن أسمع منك رؤيايَ، قال يوسف: نعم أيها الملك، رأيتَ سبعَ بقرات سِمانٍ شُهْباً غُرًّا حِساناً[٦]، كشف لك عنهن النِّيلُ، فطلعن عليك من شاطئه تَشخَب أخلافُها لبناً، فبينا أنت تنظر إليهنَّ وتتعجب من حسنهنَّ إذ نَضَب النِّيلُ، فغار ماؤه،

(١) عرائس المجالس ص١٢٨ - ١٢٩، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٢١٩، وزاد المسير ٤/ ٢٤٣.

(٣) أخرجه الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٩ - ١٣٠ من طريق إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، ومن طريق الثعلبي أخرجه الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٨، قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٩٠: وهذا إسناد ساقط.

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٥) في (م): فكلَّما تكلَّم الملك، والمثبت موافق لعرائس المجالس ص١٢٩، وهذه القصة بطولها فيه وفي تفسير البغوي ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢، وهي التي تكلم في إسنادها الحافظ ابن حجر كما سلف.

(٦) كذا في النسخ: شهباً غرًّا حساناً، وفي عرائس المجالس وتفسير البغوي: شهب غرٌّ حسان.

وبدا أُسُّه، فخرج من حَمَئه وَوَحَله سبعُ بقرات عِجافٍ شُعْثٍ غُبْرٍ مُقَلَّصات البطون، ليس لهنَّ ضروعٌ ولا أخلاف، لهنَّ أنيابٌ وأضراس، وأكفٌّ كأكُفِّ الكلاب، وخراطيمُ كخراطيم السِّباع، فاختلطْنَ بالسِّمان، فافترسنهنّ افتراسَ السِّباع، فأكلن لحومَهنَّ، ومزَّقن جلودَهنَّ، وحطَّمن عظامَهنَّ، ومَشَّشْنَ[(١)] مُخَّهنَّ، فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غَلَبْنهنَّ وهنَّ مهازيل، ثم لم يظهر فيهنّ[(٢)] سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبعِ سنابلَ خُضرٍ طَريات ناعماتٍ ممتلئات حبًّا وماءً، وإلى جانبهنَّ سبعٌ يابسات ليس فيهنَّ ماءٌ ولا خُضرة في مَنْبِتٍ واحد، عروقُهنَّ في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أيُّ شيء هذا؟! هؤلاء خضرٌ مُثمرات، وهؤلاء سودٌ يابسات، والمَنْبِتُ واحد، وأصولُهنَّ في الماء، إذْ هبَّت ريحٌ فذَرت الأوراقَ من اليابسات السود على الخُضر المُثمرات، فأشعلَتْ فيهن النارَ، فأحرقتهنَّ، فَصِرْنَ سوداً مُغبَّراتٍ، فانتبهتَ مذعوراً أيها الملك، فقال الملك: واللهِ، ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجباً بأعجبَ مما سمعتُ منك! فما ترى في رؤياي أيها الصدِّيق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعامَ، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المُخصِبة، فإنك لو زَرَعْتَ على حَجر أو مَدَر لَنبت، وأظهر اللهُ فيه النَّماءَ والبركة، ثم ترفع الزرع بقصبه وسنبله، وتبني له المخازنَ العِظام، فيكون القصب والسُّنبل عَلَفاً للدوابّ، وحبُّه للناس، وتأمر الناسَ فيرفعون من طعامهم إلى أهْرَائك[(٣)] الخُمْسَ، فَيكفيك من الطعام الذي جمعتَه لأهل مصر ومَن حولها، ويأتيك الخَلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبلَك، فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعتُ أهلَ مصر جميعاً ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أُمناء، فقال يوسف عليه السلام عند ذلك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: على خزائن أرضك، وهي جمعُ خِزانة،

(١) التمشيش: استخراج المُخّ. القاموس المحيط (مشش).

(٢) في (ز) و(ف) و(م): منهن.

(٣) الأهراء، جمع: هُرْي، وهو بيت كبير يُجمع فيه طعام السلطان. القاموس المحيط (هرو).

ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة، كقول النابغة:

لهم شِيمَةٌ لم يُعْطِهَا اللهُ غَيْرَهُمْ مِنَ الجُودِ والأَحْلَامُ غيرُ كَوَاذِبِ[١]

قوله تعالى: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ جزم لأنه جواب الأمر[٢]؛ وهذا يدلُّ على أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ جَرَى في السِّجن. ويَحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ تأكيداً ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي: أجعله خالصاً لنفسي، أفوّض إليه أمرَ مملكتي، فذهبوا فجاؤوا به، ودلَّ على هذا: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: كلَّم الملكُ يوسفَ، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف، فـ ﴿قَالَ﴾ الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: متمكِّنٌ نافذُ القول، «أَمِينٌ» لا تخاف غدراً[٣].

**قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾**

**فيه أربعُ مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن منصور: سمعت مالكَ بن أنس يقول: مصرُ خِزَانةُ الأرض، أما سمعت إلى قوله: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[٤] أي: على حِفظها، فحذف المضاف. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما وُلِّيت ﴿عَلِيمٌ﴾ بأمره[٥]. وفي التفسير: إني حاسبٌ كاتب، وأنه أوّل من كتب في القراطيس[٦]. وقيل: «حَفِيظٌ» لتقدير الأقوات، «عَلِيمٌ» بسِني المجاعات[٧]. قال

---

(١) ديوان النابغة ص١٢، وفيه: عوازب، بدل: كواذب، وسلف البيت ٤/ ١٧١ وقوله: الأحلام: جمع حِلم، وهو الأناة والعقل. اللسان (حلم).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) لم نقف عليه عند سعيد بن منصور، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ عن مالك.

(٥) الوسيط ٢/ ٦١٨.

(٦) ذكره العسكري في الأوائل ٢/ ٢٠٢.

(٧) عرائس المجالس ص١٢٩.

جُويبر، عن الضّحاك، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أخي يوسفَ لو لم يقل: اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، ولكن أَخَّر ذلك عنه سنةً»[1].

قال ابن عباس: لمَّا انصرفت[2] السَّنةُ من يوم سأل الإمارة؛ دعاه المَلِك، فتَوجَّه ورَدَّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب، مُكلَّلاً بالدُّرِّ والياقوت، وضرب عليه حُلَّة من إِسْتَبرق، وكان طولُ السرير ثلاثين ذراعاً وعرضُه عشرةَ أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مِرْفَقة[3]، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوَّجاً، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظرُ وجهَه في[4] صفاء لون وجهه، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، ودخل الملكُ بيته مع نسائه، وفوَّض إليه أمرَ مِصر، وعزل قطفيرَ عما كان عليه، وجعل يوسفَ مكانه[5].

قال ابن زيد: كان لفرعون ملكِ مصر خزائنُ كثيرةٌ غير الطعام، فسلَّم سلطانه كلَّه إليه[6]، وهلك قطفير تلك الليالي، فزوَّج الملكُ يوسفَ راعيلَ امرأةَ العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟! فقالت: أيها الصدِّيق، لا تَلُمني، فإني كنت امرأةً حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعَلَك اللهُ مِن الحُسن، فغَلبتني نفسي. فوجدَها يوسفُ عذراءَ، فأصابها، فولدت له رجلين: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف[7].

---

(١) سلف ص٣٧٨ من هذا الجزء. وسلف ذكر قول الحافظ ابن حجر فيه: إن إسناده ساقط.

(٢) في (م): انصرمت.

(٣) المرفقة: المخدَّة. القاموس المحيط (رفق).

(٤) في (د) و(ف) و(م): من.

(٥) عرائس المجالس ص١٣٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢١٨.

(٧) عرائس المجالس ص١٣٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٣.

وقال وَهْب بنُ مُنَبِّه: إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتَي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسفُ في السجن، وذهب مالُها وعَمِيَ بصرُها بكاءً على يوسف، فصارت تَتَكَفَّف الناسَ، فمنهم مَن يرحمها ومنهم مَن لا يرحمها، وكان يوسف يركب في كلِّ أسبوع مرةً في موكب زُهَاء مئة ألف من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرَّضْتِ له لعله كان يُسعفك بشيء، ثم قيل لها: لا تفعلي، فربما ذكر بعضَ ما كان منك من المُراودة والسجن فَيُسيء إليكِ، فقالت: أنا أعلم بخُلُق حبيبي منكم. ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه؛ قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان مَن جعل الملوكَ عبيداً بمعصيتهم، وجعل العبيدَ ملوكاً بطاعتهم، فقال يوسف: ما هذه؟ فأَتَوْا بها، فقالت: أنا التي كنتُ أخدُمك على صدور قدميَّ[1]، وأُرَجِّل جُمَّتك بيديَّ، وتربَّيْتَ في بيتي، وأكرمتُ مثواك، لكن فرطَ ما فرطَ من جهلي وعُتوّي، فذقتُ وبالَ أمري، فذهبَ مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلِّي، وعَميَ بصري، وبعد ما كنت مغبوطةَ أهل مصر؛ صِرت مرحومتَهم، أتكفَّفُ الناسَ، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين. فبكى يوسف بكاء شديداً، ثم قال لها: هل بقيتِ تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً؟ فقالت: واللهِ لنظرة إلى وجهك أحبُّ إليّ من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدرَ سوطك. فناولها فوضعته على صدرها، فوجدَ للسوط في يده اضطراباً وارتعاشاً من خَفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله، فأرسل إليها رسولاً: إن كنتِ أَيِّماً تزوّجناك، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك، فقالت للرسول: أعوذ بالله من أن يستهزئ بي الملك، لم يُرِدْني أيامَ شبابي وغناي ومالي وعزّي، أفيريدُني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسولُ بمقالتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرَّضت له، فقال لها: ألم يُبلغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرةً واحدة إلى وجهك أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها. فأمر بها، فأصلح من شأنها وهُيئت، ثم زُفَّت إليه، فقام يوسف يصلِّي ويدعو اللهَ، وقامت وراءه،

---

(١) في (ظ): كنت أقدمك على صدور قومي، وفي (ز) و(ف): أنا الذي كنت أخدمك على صدور قومي.

فسأل اللهَ تعالى أن يعيدَ إليها شبابها وجمالَها وبصرَها، فردَّ اللهُ عليها شبابها وجمالها وبصرَها حتى عادت أحسنَ ما كانت يوم راودته، إكراماً ليوسف عليه السلام لمَّا عَفَّ عن محارم الله، فأصابها، فإذا هي عذراء[١]، فسألها، فقالت: يا نبيَّ الله، إن زوجي كان عِنِّيناً لا يأتي النساء، وكنتَ أنت من الحُسن والجمال بما لا يُوصف، قال: فعاشا في خَفْضِ عيشٍ، في كل يوم يُجدِّد اللهُ لهما خيراً، وولدت له ولدَين: إفراثيم ومنشا[٢].

وفيما روي أن اللهَ تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعافَ ما كان في قلبها، فقال لها: ما شأنُكِ لا تُحبينني كما كنتِ في أوّل مرةٍ؟ فقالت: لما ذقتُ محبةَ اللهِ تعالى شغلني ذلك عن كل شيء[٣].

**الثانية**: قال بعضُ أهل العلم: في هذه الآية ما يُبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطانِ الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعلٍ لا يُعارضه فيه[٤]، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره، فلا يجوز ذلك.

وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصةً، وهذا اليومَ غيرُ جائز. والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم.

قال الماورديُّ[٥]: فإن كان المُولِّي ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من

---

(١) قال العلامة الآلوسي في تفسيره ١٣/ ٥ : وشاع عند القُصَّاص أنها عادت شابَّة بكراً إكراماً له عليه السلام.. وهذا مما لا أصل له، وخبر تزوجها أيضاً مما لا يُعوَّل عليه عند المحدثين.

(٢) ذكر هذه القصة ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٣١٥ بنحوها، وذكر في آخرها أنها ولدت اثني عشر ولداً. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ قسماً منها، ثم قال: وروي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته ويطول الكلام بسوقه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): في فصل لا يعارض فيه، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ (والكلام منه): في فصل ما لا يعارض فيه، والمثبت من (د) و(م).

(٥) في النكت والعيون ٣/ ٥٠ ، وما بين حاصرتين الآتي منه.

قِبَله على قولين:

أحدهما: جوازها إذا عمل بالحقّ فيما تقلّده؛ لأن يوسفَ وُلِّي من قِبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقِّه بفعله؛ لا بفعل غيره.

الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولِّي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتنفيذ[1] أعمالهم، فأجاب من ذَهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قِبَل فرعون بجوابين:

أحدهما: أن فرعون يوسفَ كان صالحاً، وإنما الطاغي فرعونُ موسى.

الثاني: أنه نظر [له] في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبِعة فيه.

قال الماورديُّ[2]: والأصحُّ من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعلُه من غير اجتهادٍ في تنفيذه؛ كالصدقات والزكَوات، فيجوز تولِّيه من جهة الظالم، لأن النصّ على مستحقّه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرُّد أربابه به قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفرَّدوا به، ويلزم الاجتهادُ في مَصْرِفه، كأموال الفَيْء، فلا يجوز تولِّيه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حقٍّ، ويجتهد فيما لا يستحقّ.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه أهلُه[3]، وللاجتهاد فيه مدخل، كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد [فيه] محلول، فإن كان النظر تنفيذاً للحكم بين متراضِيَين، وتوسطاً بين مجبورين؛ جاز، وإنْ كان إلزامَ إجبارٍ لم يَجُزْ.

---

(١) في (م): بتقلّد.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٥١ .

(٣) في (م): لأهله، ووقع في (ف): ما لا يجوز أن يتولّاه لأهله.

**الثالثة**: ودلَّت الآيةُ أيضاً على جواز أن يَخطب الإنسانُ عملاً يكون له أهلاً[١]، فإن قيل: فقد روى مسلمٌ، عن عبد الرحمن بن سَمُرة، قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «يا عبدَ الرحمن، لا تسأل الإمارةَ؛ فإنك إنْ أُعطيتَها عن مَسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُعطيتَها عن غير مسألة أُعنتَ عليها»[٢].

وعن أبي بُرْدة، قال: قال أبو موسى: أقبلتُ إلى النبيِّ ﷺ ومعي رجلان من الأشعريِّين، أحدهما عن يميني، والآخرُ عن يساري، فكلاهما سأل العملَ، والنبيُّ ﷺ يَستاك، فقال: «ما تقول يا أبا موسى ـ أو يا عبد الله بن قيس ـ» قال: قلت: والذي بعثك بالحقِّ، ما أطلعاني على ما في أنفُسهما، وما شعرتُ أنهما يَطلبان العملَ، قال: وكأني أنظر إلى سِواكه تحتَ شفتِه وقد قَلَصت، فقال: «لن، أو: لا نَستعملُ على عملنا مَن أراده» وذكر الحديث، خرَّجه مسلمٌ أيضاً وغيره[٣].

فالجواب: أولاً: أنَّ يوسف عليه السلام إنما طلب الولايةَ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامَه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أنَّ ذلك فرضٌ متعيِّن عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكمُ اليومَ؛ لو عَلِمَ إنسان من نفسه أنه يقوم بالحقّ في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك مَن يصلح ولا يقوم مقامَه؛ لَتَعيَّن ذلك عليه، ووجب أن يتولَّاها ويسألَ ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقُّها به مِن العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأمَّا لو كان هناك من يقوم بها ويَصلح لها، وعَلِمَ بذلك فالأولى ألَّا يطلب؛ لقوله عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن: «لا تسأل الإمارة». وأيضاً، فإنَّ في سؤالها والحرصِ عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبةِ التخلُّص منها دليلٌ على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومَن كان هكذا يُوشك أن تغلبَ عليه نفسُه فيهلِكَ، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «وُكِل إليها»، ومَن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفِه من التقصير في حقوقها [و] فَرَّ منها، ثم إن

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٠.

(٢) صحيح مسلم (١٦٥٢)، وهو عند أحمد (٢٠٦١٨)، والبخاري (٦٦٢٢).

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٦ (١٧٣٣): (١٥)، وهو عند أحمد (١٩٦٦٦)، والبخاري (٢٢٦١).

ابتُلي بها، فيُرجى له التخلصُ منها، وهو معنى قوله: «أَعِينَ عليها»[١].

الثاني: أنه لم يَقل: إني حسيبٌ كريم، وإن كان كما قال النبيُّ ﷺ: «الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاق بنِ إبراهيم»[٢] ولا قال: إني جميلٌ مَليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فسألها بالحفظِ والعلم، لا بالنسب والجمال.

الثالث: إنما قال ذلك عند مَن لا يعرفه فأراد تعريفَ نفسِه، وصار ذلك مستثنًى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ﴾ [النجم: ٣٢].

الرابع: أنه رأى ذلك فرضاً مُتعيِّناً عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره[٣]، وهو الأظهر، واللهُ أعلم.

**الرابعة**: ودلَّت الآيةُ أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصفَ نفسَه بما فيه من علمٍ وفضل، قال الماورديُّ[٤]: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوصٌ فيما اقترن بوصله، أو تعلَّق بظاهرٍ من مَكْسب، وممنوعٌ منه فيما سواه؛ لِما فيه من تزكيةٍ ومُراءاة، ولو تنزَّه[٥] الفاضلُ عنه لكان أليقَ بفضله، فإنَّ يوسفَ دعته الضرورةُ إليه لِما سبق من حاله، ولِما يَرجو من الظَّفر بأهله.

**قوله تعالى**: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ أي: ومثل

(١) المفهم ٤/ ١٦، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سلف ص٣٧١ من هذا الجزء.

(٣) القول الثاني والثالث والرابع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٠ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٥٢، والقول الرابع الذي قبله منه.

(٥) في النسخ: ميزه، والمثبت من النكت والعيون.

هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب المَلِك، وإنجائه من السجن؛ مكَّنا له في الأرض، أي: أَقدرناه على ما يُريد[١].

وقال الكِيَا الطَّبَرِيُّ، قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دليلٌ على إجازة الحيلة في التوصُّل إلى المباح، وما فيه الغِبطةُ والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قولُه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، وحديثُ أبي سعيد الخُدْرِيّ في عامل خَيْبر، والذي أدَّاه من التَّمْر إلى رسول الله ﷺ، وما قاله[٢].

قلت: وهذا مردودٌ على ما يأتي[٣]. يقال: مَكَّنَّاه ومكَّنَّا له، قال اللهُ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

قال الطَّبريُّ[٤]: استخلف المَلِكُ الأكبرُ الوليدُ بن الريَّان يوسفَ على عمل إطفير وعَزَله، قال مجاهد: وأسلم على يديه[٥]. قال ابن عباس: ملَّكه بعد سنة ونصف[٦]. وروى مقاتل أن النبيَّ ﷺ قال: «لو أن يوسف قال: إني حفيظٌ عليم إن شاء اللهُ لَمُلِّك في وقته ذلك»[٧].

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٦١٩.

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣، لكن الذي فيه أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [الآية: ٧٦] هي دليل إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح.. وسيأتي ص٤١٧ من هذا الجزء. وحديث عامل خيبر أخرجه البخاري (٢٢٠١) و(٢٢٠٢)، ومسلم (١٥٩٣) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، ولفظه: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جَنيب، فقال رسول الله ﷺ: «أَكُلُّ تمر خيبر هكذا؟» قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، بِعِ الجَمْعَ بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جَنيباً». وهو بنحوه عند أحمد (١١٤١٢). والجَنيب: نوع جيد معروف من أنواع التمر، والجَمْع: نوع مختلط من أنواع متفرقة ليس مرغوباً فيه. النهاية (جنب) و(جمع).

(٣) ص٤١٦-٤١٧ من هذا الجزء.

(٤) في تفسيره ١٣/ ٢٢٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٢، والأقوال التي بعده منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٢.

(٦) زاد المسير ٤/ ٢٤٤.

(٧) لم نقف عليه، وهو هكذا مرسل، وقد سلف نحوه ص٣٧٨ من هذا الجزء، وهو ضعيف أيضاً.

ثم مات إطفير فزوَّجه الوليدُ بزوجة إطفير راعيل، فدخل بها يوسفُ، فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفراثيمَ ومنشا ابني يوسف. ومَن زَعم أنها زَلِيخَاء قال: لم يتزوَّجها يوسف، وإنها لمَّا رأته في موكبه بَكَت، ثم قالت: الحمدُ للهِ الذي جعَل الملوكَ عبيداً بالمعصية، والحمدُ للهِ الذي جعل العبيدَ بالطاعة ملوكاً، فضمَّها إليه، فكانت من عياله حتى ماتَتْ عنده، ولم يتزوَّجها، ذكره الماورديُّ، وهو خلاف ما تقدَّم عن وهب(١)، وذكره الثعلبيُّ، فالله أعلم.

ولما فوَّض الملِكُ أمرَ مصر إلى يوسف تلطَّف بالناس، وجعل يَدْعُوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدلَ، فأحبَّه الرجالُ والنساء.

قال وهب والسُّدِّيُّ وابنُ عباس وغيرُهم: ثم دخلت السنون المُخصِبةُ، فأمر يوسفُ بإصلاح المزارع، وأمرَهم أن يتوسَّعوا في الزراعة، فلمَّا أدركت الغَلَّة؛ أمر بها فَجُمعت، ثم بنى لها الأَهْرَاءَ، فجمعت فيها في تلك السنة غَلَّة ضاقت عنها المخازنُ لِكَثرتها، ثم جمع عليه غلَّةُ كلِّ سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبعُ المُخصبة وجاءت السنون المُجدبة نزَل جبريل وقال: يا أهلَ مصر، جوعوا، فإنَّ اللهَ سلَّط عليكم الجوعَ سبع سنين.

وقال بعضُ أهل الحكمة: للجوع والقحط علامتان: إحداهما: أن النفسَ تحب الطعامَ أكثَر من العادة، ويُسرع إليها الجوعُ خلافَ ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوقَ الكفاية. والثانية: أن يُفقد الطعام فلا يوجد رأساً ويعزَّ إلى الغاية.

فاجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجالُ والنساء والصبيان ينادون: الجوع الجوع، ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادي: الجوع الجوع، قال: فدعا له يوسف فأبرَأه اللهُ من ذلك، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلِّها: معاشرَ الناس، لا يزرع أحدٌ زرعاً فيضيع البذر ولا يطلع شيء. وجاءت تلك السنون بهولٍ عظيم لا يُوصف.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٢ ، وسلفت القصة مطولة ص٣٨٢-٣٨٣ من هذا الجزء، وينظر ما نقلناه عن الآلوسي ثمة.

قال ابن عباس: لمَّا كان ابتداء القحط، بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوعُ في نصف الليل، فهتف الملك: يا يوسف، الجوع الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط، فلمّا دخلت أوّلُ سنة من سِني القحط؛ هلَك فيها كلُّ شيءٍ أعدُّوه في السنين المُخصِبة، فجعل أهلُ مصر يَبتاعون الطعامَ من يوسف، فباعهم أولَ سنة بالنقود، حتى لم يبقَ بمصر دينار ولا درهم إلا قَبَضه، وباعهم في السنة الثانية بالحُليّ والجواهر، حتى لم يبقَ في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدوابِّ، حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى احتوى على الكلِّ، وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضِّياع، حتى ملَكها كلَّها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقَّهم جميعاً، وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبقَ[1] بمصر حرٌّ ولا عبدٌ إلا صار عبداً له، فقال الناسُ: والله، ما رأينا مَلِكاً أجلَّ ولا أعظمَ من هذا، فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيتَ صُنعَ ربي فيما خوَّلني، والآن كلُّ هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال: فوَّضتُ إليك الأمرَ، فافعل ما شئتَ، وإنما نحن لك تبعٌ، وما أنا بالذي يَستنكفُ عن عبادتك وطاعتك، ولا أنا إلا من بعض مماليكك، وخَوَلٌ مِن خَوَلِك، فقال يوسفُ عليه السلام: فإني لم أُعتقهم من الجوع لأستعبدَهم، ولم أُجِرْهم من البلاء لأكون عليهم بلاءً، وإني أُشهِدُ اللهَ وأُشهدك أني أعتقتُ أهلَ مصر عن آخرهم، ورددتُ عليهم أموالَهم وأملاكهم، ورددتُ عليك مُلكَك بشرط أن تَسْتنَّ بسنتي.

ويُروى أن يوسفَ عليه السلام كان لا يشبعُ من طعامٍ في تلك السنين، فقيل له: أتَجوع وبيدك خزائنُ الأرض؟! فقال: إني أخاف إنْ شَبِعتُ أن أنسى الجائعَ. وأمر يوسفُ طبَّاخَ الملكِ أن يجعل غَدَاءه نصفَ النهار، حتى يذوقَ المَلِكُ طعمَ الجوع، فلا ينسى الجائعين، فمِن ثَمَّ جعل الملوكُ غَداءَهم نصفَ النهار[2].

(١) بعدها في (م): في السنة السابعة.

(٢) عرائس المجالس ص١٣٠ - ١٣١، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤.

قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: بإحساننا، والرحمةُ النعمةُ والإحسان[١]. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ثوابَهم. وقال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين[٢]؛ لصبره في الجُبِّ، وفي الرِّق، وفي السِّجن، وصبرِه عن محارم اللهِ عمَّا دعته إليه المرأة.

وقال الماورديُّ[٣]: واختلف فيما أُوتيَه يوسف من هذه الحال على قولين: أحدهما: أنه ثوابٌ من الله تعالى على ما ابتلاه. الثاني: أنه أَنعم[٤] عليه بذلك تفضُّلاً منه عليه، وثوابُه باقٍ على حاله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ما نُعطيه في الآخرة خيرٌ وأكثرُ مما أعطيناه في الدنيا، لأن أجرَ الآخرة دائمٌ، وأجرَ الدنيا ينقطع[٥]، وظاهرُ الآية العمومُ في كلِّ مؤمن متَّقٍ، وأنشدوا:

أَمَا في رسولِ اللهِ يوسفَ أُسوةٌ ... لمثلكَ محبوساً على الظُّلم والإِفْكِ
أقام جَميلَ الصَّبر في الحبس بُرهةً ... فآلَ به الصَّبرُ الجميلُ إلى الْمُلكِ[٦]

وكتب بعضُهم إلى صديقٍ له:

وراء مَضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ ... وأوّل مَفروحٍ به آخرُ الحزنِ
فلا تيأسنْ[٧] فاللهُ مَلَّكَ يوسفا ... خزائنَه بعد الخلاصِ من السِّجنِ[٨]

وأنشد بعضُهم:

---

(١) الرحمة صفة من صفات الله عز وجل ثابتة له، وأما إحسانه ونعمته فهي صفة أخرى له سبحانه وتعالى.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٣٣ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٥٣ .

(٤) في (م): أنعم الله.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٥٣ .

(٦) البيتان للبحتري، وهما في ديوانه ٣/ ١٥٦٤ ، وفيه: السجن، بدل الحبس.

(٧) في (د): فلا تبتئس.

(٨) البيتان في عرائس المجالس ص١٣٠ دون نسبة، ونسبهما الصفدي في الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٧ لزيد ابن محمد بن زيد العلوي.

إذا الحادثات بلغن النُّهى ... وكادت تذوبُ لهنَّ المُهَجْ
وحلَّ البلاءُ وقلَّ العزاء ... فعند التَّناهي يكونُ الفَرَجْ[(١)]

والشعر في هذا المعنى كثيرٌ.

**قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾**

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أي: جاؤوا إلى مصر لمَّا أصابهم القحطُ ليمتاروا. وهذا من اختصار القرآن المُعجِز[(٢)].

قال ابن عباس وغيرُه: لمَّا أصاب الناسَ القحطُ والشدَّةُ، ونزل ذلك بأرض كنعان بَعث يعقوبُ عليه السلام ولدَه للمِيرة، وذاع أمرُ يوسف عليه السلام في الآفاق، لِلِينه وقُربه ورحمته ورأفته وعدلِه وسيرتِه[(٣)]، وكان يوسفُ عليه السلام حين نزلت الشدَّة بالناس يجلِسُ للناس عند البيع بنفسه، فَيُعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وَسْقاً.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم خلَّفوه صبيًّا، ولم يتوهَّموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة[(٤)]، مع طول المدّة، وهي أربعون سنةً. وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه مِلِكٌ كافر: وقيل: رأوه لابس حرير، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاجٌ، وقد تزيّا بزِيِّ فرعون مصر، ويوسف رآهم على ما كان عَهِدهم في المَلْبس والحِلية. ويَحتمِل أنهم رأوْه وراء سترٍ فلم يعرفوه[(٥)]. وقيل: أنكروه لأمر خارقٍ امتحاناً امتحَن اللهُ به يعقوبَ.

---

(١) ذكرهما أبو علي التنوخي في الفرج بعد الشدة ٥/ ٢٣ دون نسبة، وابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٨٠ ونسبهما لمنصور الفقيه، وعندهما: المدى، بدل: النهى، وعند التنوخي: وجَلَّ، بدل: وحلَّ، وعند ابن عبد البر: الوفاء، بدل: العزاء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ .

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٥) الأقوال السالفة في عرائس المجالس ص١٣١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٤ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٦٦ .

**قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يقال: جَهَّزتُ القومَ تَجهيزاً، أي: تكلَّفت لهم بجَهازهم للسفر، وجَهاز العروس ما يُحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج، وجوّز بعض الكوفيين الجِهاز بكسر الجيم[(١)]، والجَهاز في هذه الآية الطعام الذي امتاروه من عنده[(٢)]. قال السُّديُّ: وكان مع أخوة يوسف أحدَ عشرَ بعيراً، وهم عشرةٌ، فقالوا ليوسف: إنَّ لنا أخاً تخلَّف عنا، وبعيرُه معنا، فسألهم: لِمَ تخلَّف؟ فقالوا: لحبِّ أبيه إياه، وذكروا له أنه كان له أخٌ أكبرُ منه، فخرج إلى البرِّيَّة فهلَكَ؛ فقال لهم: أردت أن أرَى أخاكم هذا الذي ذكرتم، لأعلمَ وجهَ محبةِ أبيكم إيَّاه، وأعلمَ صدقَكم، ويُروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينةً، حتى يأتوا بأخيه بنيامين[(٣)].

وقال ابن عباس: قال يوسف للتُّرجُمان: قل لهم: لغتكم مخالفةٌ للغتِنا، وزِيُّكم مخالفٌ لزِيِّنا، فلعلَّكم جواسيسُ، فقالوا: واللهِ، ما نحن بجواسيسَ، بل نحن بَنُو أبٍ واحدٍ، فهو شيخٌ صدِّيق. قال: فكم عِدَّتكم؟ قالوا: كنا اثني عشرَ، فذهب أخٌ لنا إلى البرِّيَّة، فهلَك فيها. قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا. قال: فمن يعلمُ صدقَكم؟ قالوا: لا يعرِفنا هاهنا أحدٌ، وقد عرَّفناك أنسابَنا، فبأيِّ شيءٍ تسكنُ نفسُك إلينا؟ فقال يوسف: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إن كنتم صادقين، فأنا أرضى بذلك ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أُتمُّه ولا أبخسه، وأزيدكم حِملَ بعيرٍ لأخيكم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ توعَّدهم ألَّا يبيعَهم الطعامَ إن لم يأتوا به[(٤)].

---

(١) تهذيب اللغة ٦/ ٣٥ - ٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ بنحوه.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥، وزاد المسير ٤/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ يَحتمِلُ وجهين: أحدهما: أنه رخَّص لهم في السعر، فصار زيادةً في الكيل.

والثاني: أنه كالَ لهم بمكيالٍ وافٍ.

﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: يعني[١] خير المضيفين؛ لأنه أحسنَ ضيافتَهم، قاله مجاهد. الثاني: وهو مُحتمِل، أي: خير مَن نَزلتم عليه من المأمونين. وهو على التأويل الأوّل مأخوذٌ من النُّزْل، وهو الطعام، وعلى الثاني من المنزل، وهو الدار[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ أي: فلا أَبيعكم شيئاً فيما بعد؛ لأنه قد وفَّاهم كيلَهم في هذه الحال. ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: لا أُنزلكم عندي منزلةَ القريب، ولم يُرِدْ أن[٣] يبعدوا منه ولا يعودوا إليه؛ لأنه على العَود حَثَّهم.

قال السُّدّيُّ: وطلب منهم رهينةً حتى يرجِعوا، فارتهن شمعونَ عنده. قال الكَلْبيُّ: إنما اختار شمعون منهم؛ لأنه كان يومَ الجُبِّ أجملَهم قولاً، وأحسنَهم رأياً[٤].

و«تَقْرَبُونِ» في موضع جزمٍ بالنهي، فلذلك حُذفت منه النون، وحُذفت الياء؛ لأنه رأسُ آية، ولو كان خبراً لكان «تقربونَ» بفتح النون[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنطلبه منه، ونسأله أن يُرسلَه معنا. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: لَضامنون المَجيء به[٦]، ومُحتالون في ذلك.

---

(١) في (م): أنه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٥٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٥.

(٣) في (د) و(ز) و(م): أنهم، وفي (ظ): أنه، وثمة سقط في هذا الموضع في (ف)، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٥٥، والكلام منه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٥٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤.

(٦) الوسيط ٢/ ٦٢٠.

**مسألة**: إن قيل: كيف استجاز يوسفُ إدخالَ الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل له: عن هذا أربعةُ أجوبة:

أحدها: يجوز أن يكون اللهُ عزَّ وجلَّ أَمَره بذلك ابتلاءً ليعقوب؛ لِيعظِم له الثواب، فاتَّبع أمرَه فيه.

الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن يُنبِّه يعقوبَ على حال يوسفَ عليهما السلام.

الثالث: لِتتضاعفَ المَسرَّة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

الرابع: ليقدم سرورَ أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته، لميلٍ كان منه إليه.

والأول أظهر[1]، والله أعلم.

**قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ هذه قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم[2]، وهو اختيارُ أبي حاتم والنحاس وغيرهما، وقرأ سائرُ الكوفيين: «لِفِتْيَانِهِ» وهو اختيار أبي عُبيد، وقال: هو في مصحف عبد اللهِ كذلك[3].

قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان، مثل الصِّبيان والصِّبية[4]. قال النحاس[5]: «لِفِتْيَانِهِ» مُخالفٌ للسواد الأعظم؛ لأنه في السَّواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يُترَك السوادُ المُجتمِع عليه لهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضاً فإن «فتيةً» أشبهُ من فتيان؛ لأن

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٥، وزاد المسير ٤/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) ووافقهم ابن كثير المكي وابن عامر الشامي، وقراءة عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٣٤٩، والتيسير ص١٢٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤ دون قوله: وهو اختيار أبي حاتم.

(٤) وهو قول البغوي في تفسيره ٢/ ٤٣٥.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٤.

«فتية» عند العرب لأقلِّ العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبهُ.

وكان هؤلاء الفتيةُ يُسوُّون جَهازهم، ولهذا أمكنهم جعلَ بضاعتهم في رحالهم. ويجوز أن يكونوا أحراراً، وكانوا أعواناً له.

وبضاعتهم أثمانُ ما اشترَوْه من الطعام. وقيل: كانت دراهمَ ودنانير. وقال ابن عباس: النِّعال والأَدَم ومتاعُ المسافر(١)، ويسمى رَحْلاً. قال ابن الأنباريّ(٢): يقال للوعاء: رَحْل، وللبيت: رَحْل.

وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لجواز ألَّا تسلم في الطريق. وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعامَ إلا بثمنه. قيل: ليستعينوا بذلك على الرُّجوع لشراء الطعام. وقيل: استقبحَ أن يأخذَ من أبيه وإخوته ثمنَ الطعام. وقيل: ليَروْا فضلَه، ويرغبوا في الرجوع إليه(٣).

**قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾(٤) وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم(٥)، وأن شمعونَ مُرتهَنٌ حتى يعلم صدقَ قولهم. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي: قالوا

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٢٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٥.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ٨١.

(٣) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٥٩، وزاد المسير ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤.

(٥) بعدها في (د) و(ز) و(م): إياه.

عند ذلك: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ والأصل: نكتال، فَحُذفت الضَّمة من اللام للجزم، وحُذفت الألفُ لالتقاء الساكنين.

وقراءةُ أهلِ الحرمين وأبي عمرو وعاصم: «نَكْتَلْ» بالنون[1]، وقرأ سائرُ الكوفيين: «يَكْتَل» بالياء، والأوّل اختيارُ أبي عُبيد، ليكونوا كلُّهم داخلين فيمن يَكتال. وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحدَه. قال النحاس[2]: وهذا لا يلزم؛ لأنه لا يخلو الكلامُ من أحد جِهتين: أن يكون المعنى: فأرسل أخانا يكتل معنا؛ فيكون للجميع، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير، فيكون في الكلام دليلٌ على الجميع، لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من أن يناله سوء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: قد فرَّطتم في يوسفَ فكيف آمَنُكم على أخيه؟!.

﴿فَاللهُ خَيْرٌ حِفْظاً﴾ نصب على البيان، وهذه قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم[3]. وقرأ سائرُ الكوفيين: «حَافِظاً» على الحال. وقال الزَّجاج: على البيان[4]؛ وفي هذا دليلٌ على أنه أجابَهم إلى إرساله معهم، ومعنى الآية: حِفْظُ اللهِ له خيرٌ من حِفظِكم إيَّاه.

قال كعب الأحبار: لمَّا قال يعقوب: «فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً» قال اللهُ تعالى: وعزَّتي وجلالي لَأَرُدَّنَّ عليك ابنَيك كِلَيهما بعدما توكلت عليَّ[5].

---

(١) ووافقهم ابن عامر الشامي. السبعة ص٣٤٩ - ٣٥٠ ، والتيسير ص١٢٩ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥ ، وما قبله منه.

(٣) ووافقهم ابن كثير المكي وابن عامر الشامي، وقراءة عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٣٥٠ ، والتيسير ص١٢٩ .

(٤) في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٨ ، وقد ذكر الزجاج أن «حافظاً» منصوب على الحال، ثم قال: ويجوز أن يكون منصوباً على البيان. وقد نقل المصنف قول الزجاج بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٢١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ الآية ليس فيها معنًى يُشكل. ﴿مَا نَبْغِى﴾ «ما» استفهامٌ في موضع نصب، والمعنى: أيُّ شيء نطلب وراءَ هذا؟! وفَّى لنا الكيل. وردَّ علينا الثمنَ؛ أرادوا بذلك أن يُطيِّبوا نفسَ أبيهم.

وقيل: هي نافية، أي: لا نَبغي منك دراهمَ ولا بضاعة، بل تكفينا بضاعتُنا هذه التي رُدَّت إلينا[١].

ورُويَ عن عَلْقَمة: «رِدَّتْ إِلَيْنَا» بكسر الراء؛ لأن الأصلَ رُدِدَتْ، فلما أُدغم قُلبت حركة الدال على الراء[٢]. وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نَجلِبُ لهم الطعامَ، قال الشاعر:

بَعَثْتُكَ مائِراً فمَكَثْتَ حَوْلاً مَتَى يأتِي غِيَاثُك مَن تُغِيثُ[٣]

وقرأ السُّلَميّ بضم النون[٤]، أي: نُعينهم على المِيرة. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، أي: حِمْل بعير لبنيامين.

**قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾**

**فيه مسألتان:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿تُؤْتُونِ﴾ أي: تُعطوني ﴿مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهداً يوثَق

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٥، وقراءة علقمة في المحتسب ١/ ٣٤٥.

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ١٣/ ٢٣٣، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠ دون نسبة. وذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٢٥٠، والزمخشري في المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٣ ونسباه لعائشة بنت سعد بن أبي وقاص ﷺ، وعندهما: بعثتك قابساً.. وهو الصواب فيما ذكره ابن منظور في اللسان (غوث).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠.

به(١)؛ قال السُّدِّيّ: حَلَفوا بالله ليَرُدُّنَّه إليه ولا يُسْلِمونه(٢)، واللامُ في ﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾ لامُ القسم(٣).

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال مجاهد: إلَّا أن تَهْلِكوا أو تموتوا. وقال قتادةُ: إلَّا أن تُغلَبوا عليه(٤). قال الزجَّاج: وهو في موضع نصب(٥). ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظٌ للحَلِف. وقيل: حفيظٌ للعهد، قائمٌ بالتدبير والعدل.

**الثانية**: هذه الآيةُ أصلٌ في جواز الحَمَالة(٦) بالعين والوثيقةِ بالنفس، وقد اختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالكٌ وجميعُ أصحابه وأكثرُ العلماء: هي جائزةٌ إذا كان المتحمَّل به مالاً. وقد ضعَّف الشافعيُّ الحَمَالةَ بالوجه في المال، وله قولٌ كقول مالك(٧). وقال عثمان البَتِّيّ: إذا تكفَّل بنفسٍ في قصاصٍ أو جراحٍ؛ فإنَّه إنْ لم يَجِيْ به لزمه الديةُ وأَرْشُ الجراح، وكانت له في مال الجاني، إذ لا قصاصَ على الكفيل(٨)، فهذه ثلاثةُ أقوال في الحَمالة بالوجه. والصوابُ تَفْرِقةُ مالكٍ في ذلك، وأنَّها تكون في المال، ولا تكون في حدٍّ أو تعزير، على ما يأتي بيانه(٩).

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٥٣ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٨ بلفظ: حلَّفهم بالله.

(٣) يعني: اللام الواقعة في جواب القسم، قال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٢١ : هذا جواب للقسم المضمر في قوله: «موثقاً»؛ لأنه في معنى: حتى تحلفوا لي لتأتنَّني به.

(٤) قولا مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري ١٣/ ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣١٧ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٩ ، وقال الزجاج: والمعنى: لتأتنَّني به إلا لإحاطةٍ بكم، وهذا يسمى مفعولاً له. وينظر الدر المصون ٦/ ٥٢١ .

(٦) الحمالة: الكَفالة. الزاهر للأزهري ص٣٣٠ ، وقال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٢/ ٢٧٥ : الكَفالة والحَمالة: هما لفظتان معناهما الضمان. وقال الجوهري في الصحاح (حمل): الحمالة: ما تتحمله عن القوم من الدية أو الغرامة.

(٧) الإشراف ١/ ١٢٥ ، وقال الأزهري في الزاهر ص٣٣١ : وأراد الشافعي رحمه الله بكفالة الوجه: الكفالة بالبدن. وقال الكاساني في بدائع الصنائع ٧/ ٣٩٩ : إذا أضاف الكفالة إلى جزء جامع كالرأس والوجه والرقبة ونحوها، جازت؛ لأن هذه الأشياء يعبر بها عن جملة البدن.

(٨) الاستذكار ٢٢/ ٢٧٧ .

(٩) ص٤٠٩-٤١١ من هذا الجزء، وينظر الإشراف ١/ ١٢٤ - ١٢٥ .

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

**فيه سبع مسائل:**

**الأولى:** لمَّا عزموا على الخروج خَشِيَ عليهم العينَ، فأمرهم ألَّا يدخلوا مصرَ من بابٍ واحد، وكانت مصرُ لها أربعةُ أبواب، وإنما خاف عليهم العينَ لكونهم أَحَدَ عَشَرَ رجلاً لرَجُلٍ[(١)] واحد، وكانوا أهلَ جَمالٍ وكمالٍ وبَسْطة؛ قاله ابن عباس والضَّحاك وقَتَادة وغيرهم[(٢)].

**الثانية:** وإذا كان هذا معنى الآيةِ؛ فيكون فيها دليلٌ على التحرُّز من العين، والعينُ حقٌّ، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العين لتُدْخِلُ الرجلَ القبرَ والجَمَلَ القِدْرَ»[(٣)]. وفي تعوُّذه عليه الصلاة والسلام: «أعوذُ بكلمات الله التامَّة من كلِّ شيطانٍ وهامَّة ومن كلِّ عينٍ لامَّة»[(٤)] ما يدلُّ على ذلك.

وروى مالك، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيْف، أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهلُ بنُ حُنيف بالخرَّار، فنزع جُبَّةً كانت عليه، وعامر بنُ ربيعة ينظر، قال: وكان سهلٌ رجلاً أبيضَ حَسَنَ الجِلْدِ، قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم، ولا جلدَ عَذْراءَ! فوُعِكَ سهلٌ مكانَه واشتدَّ وَعْكُه، فأُتيَ رسولُ الله ﷺ،

---

(١) في (ظ): كرجل.

(٢) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٩٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٥٧)، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٢٤٤ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٢١١٢)، والبخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه عند البخاري: كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق»: أعوذ بكلمات الله...»، وقوله: «وهامة» هي واحدةُ الهوامّ ذوات السموم، وقيل: المراد كل نسمة تهمُّ بسوء. الفتح ٦/ ٤١٠ . وقوله: «لامّة» أي: ذات لمم، واللمم طرف من الجنون يلم بالإنسان. النهاية (لمم).

فأُخبر أن سهلاً وُعِك، وأنه غيرُ رائحٍ معك يا رسول الله، فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهلٌ بالذي كان من شأن عامر، فقال رسول الله ﷺ: «عَلَامَ يقتلُ أحدُكم أخاه؟! ألَا بَرَّكْتَ؟! إنَّ العينَ حقٌّ، تَوضَّأْ له». فتوضَّأ له عامر، فراح سهلٌ مع رسول الله ﷺ ليس به بأس[(١)]. في رواية: «اغتسِلْ له»، فغَسَلَ عامر[(٢)] وجهَه ويديه ومِرْفَقَيْه وركبتيه وأطرافَ رجليه وداخِلَ إزارِه في قدحٍ، ثم صُبَّ عليه، فراح سهلٌ مع الناس[(٣)] ليس به بأس[(٤)].

وركب سعد بن أبي وَقَّاص يوماً، فنظرت إليه امرأةٌ فقالت: إنَّ أميركم هذا ليعلم أنه أَهْضَمُ الكَشْحَيْن، فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغَسَلَتْ له[(٥)].

ففي هذين الحديثين أنَّ العين حقٌّ، وأنَّها تقتل كما قال النبيُّ ﷺ[(٦)]. وهذا قولُ علماءِ الأمَّة، ومذهبُ أهلِ السُّنة، وقد أنكرته طوائفُ من المبتدِعة، وهم محجوجون بالسنَّة وإجماعِ علماءِ هذه الأمَّة، وبما يشاهَدُ من ذلك في الوجود، فكم من رجل أدخلته العينُ القبرَ، وكم من جَمَلٍ ظَهِيرٍ أدخلته القِدْر، لكنَّ ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢][(٧)].

قال الأصمعيُّ: رأيت رجلاً عَيُوناً سمع بقرةً تُحلَب، فأعجبه شخْبُها فقال: أيَّتهنَّ هذه؟ فقالوا: الفلانيةُ، لبقرةٍ أخرى يُوَرُّون عنها، فهَلَكَتا جميعاً، المُورَّى بها

---

(١) الموطأ ٢/ ٩٣٨ ، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٥٠٩)، والنسائي في الكبرى (٧٥٧٠). والخرار: ماء بالمدينة. معجم البلدان ٢/ ٣٥٠ .

(٢) في (م): اغتسل فغسل له عامر، والمثبت من النسخ الخطية والمصادر.

(٣) في (م): فراح سهل مع رسول الله ﷺ، والمثبت من النسخ الخطية والمصادر.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٣٩ ، وهو عند أحمد (١٥٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٧٥٧٢).

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ١١٣ ، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٢٤١ . وأهضم الكشحين، أي: دقيق الخصرين. النهاية (كشح).

(٦) التمهيد ٦/ ٢٣٧ .

(٧) المفهم ٥/ ٥٦٥ .

والمورّى عنها. قال الأصمعيُّ: وسمعته يقول: إذا رأيتُ الشيء يُعجبني وجدتُ حرارةً تخرج من عيني[١].

**الثالثة**: واجبٌ على كلِّ مسلمٍ أعجبه شيءٌ أن يُبَرِّكَ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صُرِفَ المحذورُ لا محالةَ، ألَا ترى قولَه عليه الصلاة والسلام لعامر: «ألَا برَّكْتَ؟!». فدلَّ على أنَّ العين لا تَضُرُّ ولا تعدو إذا بَرَّك العائن، وأنَّها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك. والتبريكُ أن يقول: تبارك الله أحسنُ الخالقين! اللهمَّ بارِكْ فيه[٢].

**الرابعة**: العائنُ إذا أصاب بعينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُجبَر على ذلك إنْ أباه؛ لأنَّ الأمر على الوجوب، لا سيما هذا؛ فإنه قد يُخاف على المَعِين الهلاك، ولا ينبغي لأحدٍ أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يَضُرُّه هو، ولا سيما إذا كان بسببه، وكان الجاني عليه[٣].

**الخامسة**: مَن عُرِف بالإصابة بالعين مُنع من مداخلة الناس دفعاً لضرره، وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته، وإن كان فقيراً رَزَقَه ما يقوم به، ويَكُفّ أذاه عن الناس[٤]. وقد قيل: إنه يُنفَى. وحديثُ مالكٍ الذي ذكرناه يَردُّ هذه الأقوال، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر في عامر بحبسٍ ولا بنَفْي، بل قد يكون الرجل الصالح عائناً، وأنه لا يُقدح فيه ولا يُفسَّقُ به[٥]، ومَن قال: يُحبس ويُؤمر بلزوم بيته. فذلك احتياطٌ ودفعُ ضررٍ، والله أعلم.

**السادسة**: روى مالك عن حُمَيْد بن قيس المكّيِّ أنه قال: دُخِل على رسول الله ﷺ بابنَيْ جعفر بن أبي طالب، فقال لحاضِنَتِهما: «ما لي أراهما ضَارِعَيْنِ؟» فقالت حاضنتُهما: يا رسول الله! إنه تُسْرِعُ إليهما العين، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقِيَ لهما إلَّا أنَّا

---

(١) التمهيد ١٣/ ٧٠ ، والشخب: صوت اللبن عند الحلب. معجم متن اللغة (شخب).

(٢) التمهيد ٦/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٣) التمهيد ٦/ ٢٤١ .

(٤) المفهم ٥/ ٥٦٨ .

(٥) ينظر التمهيد ١٣/ ٦٩ .

لا ندري ما يُوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «اسْتَرْقُوا لهما، فإنه لو سَبَق شيءٌ القدَرَ سَبَقَتْه العين»(١). وهذا الحديثُ منقطِعٌ، ولكنَّه محفوظٌ لأسماءَ بنتِ عُمَيس الخَثْعميةِ عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ ثابتةٍ متَّصلةٍ صِحاح(٢)، وفيه أنَّ الرُّقَى مما يُستَدفع به البلاء، وأنَّ العين تؤثِّر في الإنسان وتَضْرَعه ـ أي: تُضْعِفُه وتُنْحِله ـ وذلك بقضاء الله تعالى وقَدَرِه(٣). ويقال: إنَّ العين أسرعُ إلى الصِّغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

**السابعة**: أمَر ﷺ في حديث أبي أُمامة العائنَ بالاغتسال للمَعِين، وأمَر هنا بالاسْتِرْقاء؛ قال علماؤنا: إنما يُسترقى من العين إذا لم يُعرف العائنُ، وأمَّا إذا عُرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء، على حديث أبي أمامة(٤)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغۡنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىۡءٍ﴾ أي: من شيءٍ أحْذَرُه عليكم(٥)، أي: لا ينفع الحذر مع القَدَر. ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي: الأمرُ والقضاء ﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: اعتمدتُ ووثِقت ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

**قوله تعالى**: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِى عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ أي: من أبوابٍ شتَّى ﴿مَّا

---

(١) الموطأ ٢/ ٩٣٩ - ٩٤٠ . قوله: «ضارعين»، أي: ضعيفين ضئيلين ناحِلَيْن. وحاضنتهما قد تكون أمهما أسماء بنت عميس، وجائز أن تكون حاضنتهما غيرها. ينظر التمهيد ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧ ، والاستذكار ٢٧/ ١٥ .

(٢) التمهيد ٢/ ٢٦٦ ، وأخرجه من حديث أسماء بنت عميس أحمد (٢٧٤٧٠)، والترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجه (٣٥١٠). وأخرجه أحمد (١٤٥٧٣)، ومسلم (٢١٩٨) من حديث جابر ﷺ.

(٣) التمهيد ٢/ ٢٦٩ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) النكت و العيون ٣/ ٥٩ ، وقال الماوردي: فأشار عليهم في الأول، وفوَّض إلى الله في الآخِر.

كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إن أراد إيقاعَ مكروهٍ بهم ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ ليس من الأول[(١)] ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي: خاطِر خَطَرَ بقلبه، وهو وصيَّته أن يتفرَّقوا، قال مجاهد: خشيةَ العين[(٢)]، وقد تقدَّم القول فيه.

وقيل: لئلَّا يرى الملكُ عددهم وقوَّتهم، فيبطشَ بهم حسداً أو حذراً؛ قاله بعضُ المتأخِّرين[(٣)]، واختاره النحاس[(٤)]، وقال: ولا معنى للعين هاهنا.

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المسلم يجب عليه أن يُحذِّر أخاه ممَّا يخاف عليه، ويُرشدَه إلى ما فيه طريقُ السلامة والنجاة، فإنَّ الدِّينَ النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: بأمر دينه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما يعلم يعقوبُ عليه السلام من أمر دينه. وقيل: «لَذُو عِلْمٍ» أي: عمل[(٥)]، فإنَّ العلم أوَّلُ أسباب العمل، فسُمِّي بما هو بسببه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قال قتادةُ: ضمَّه إليه، وأنزله معه[(٦)]. وقيل: أمر أن ينزل كلُّ اثنين في منزل، فبقي أخوه منفرداً، فضمَّه إليه وقال: أشفقتُ عليه من الوَحدة، وقال له سِرًّا من إخوته: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٧)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ لمَّا عرف بنيامين أنه يوسفُ قال له: لا تَردَّني إليهم. فقال: قد علمتَ اغتمامَ يعقوبَ بي، فيزداد غمُّه!

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٣٩، وهو تفسير مجاهد ١/ ٣١٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٥٩.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٦.

(٥) أخرج هذا القول الطبري ١٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ عن قتادة وسفيان.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٦٠، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٤٢.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٤١ - ٢٤٢ عن السدي وابن إسحاق مطولاً.

فأبى بنيامين الخروجَ، فقال يوسف: لا يمكن حبسُك إلّا بعد أن أَنْسِبكَ إلى ما لا يَجْمُل بك. فقال: لا أبالي![(١)] فدسَّ الصاع في رَحْلِه؛ إمَّا بنفسه من حيث لم يطَّلع عليه أحد، أو أَمَر بعضَ خواصِّه بذلك. والتَّجهيزُ: التسريح[(٢)] وتنجيزُ الأمر، ومنه: جَهَز على الجريح، أي: قتله[(٣)] ونجز أمره. والسِّقايةُ والصُّوَاعُ شيءٌ واحد: إناءٌ له رأسان في وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويُكال الطعامُ بالرأس الآخَر؛ قاله النقاش عن ابن عباس[(٤)]، وكلُّ شيء يُشرب به فهو صُواع[(٥)]، وأنشد:

نَشربُ الخمرَ بالصُّواع جِهَارًا[(٦)]

واختُلف في جنسه؛ فروى شعبةُ، عن أبي بِشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: صُواع[(٧)] الملك: شيءٌ من فضة يشبه الْمَكُّوك، من [ذهبٍ و] فضة مرصعٌ بالجوهر، يُجعل على الرأس، وكان للعباس واحدٌ في الجاهلية[(٨)]. وسأله نافع بن الأزرق: ما الصُّواعُ؟ قال: الإناء؛ قال فيه الأعشى:

لـه دَرْمَـكٌ فـي رأسـه ومَـشـارِبٌ ... وقِـدْرٌ وطَـبَّـاخٌ وصـاعٌ ودَيْـسَـقُ[(٩)]

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٣٨، وعرائس المجالس ص١٣٤ عن كعب.

(٢) في (ظ): التسرع.

(٣) وأجهز كذلك. مجمل اللغة ١/ ٢٠١، واللسان (جهز).

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦١ عن ابن عباس. ووقع في (ظ): وكل إناء يشرب به...

(٦) سلف ٩/ ٢١١ برواية: نشرب الإثم.

(٧) قبلها في (د) و(م): كان.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٢٤٩-٢٥١.

(٩) أخرجه ابن الأنباري في الوقف والابتداء ١/ ٨٦ مطولاً، وهو في ديوان الأعشى ص٢٦٧ مجموع بيتين في وصف حصن بناه ـ على قول الشاعر ـ سليمان عليه السلام، قال شارح الديوان: المعنى: في أعلاه غرف الشراب فرشت بالطنافس، وخدم وطباخ وأقداح وخِوان. اهـ والديسق: خِوان من فضة. اللسان (دسق).

وقال عِكرمة: كان من فضة. وقال عبد الرحمن بن زيد: كان من ذهب، وبه كالَ طعامهم مبالغةً في إكرامهم[(١)]. وقيل: إنما كان يُكال به لعزَّةِ الطعام[(٢)].

والصاع يُذكَّر ويؤنَّث، فَمَن أنَّثه قال: أَصْوُع، مثل أَدْوُر، ومَن ذكَّره قال: أَصْوَاع، مثل أثواب[(٣)].

وقال مجاهد وأبو صالح: الصاعُ: الطِّرْجِهَالة بلغة حِمْيَر[(٤)].

وفيه قراءات: «صُوَاع» قراءةُ العامَّة، و«صُوْغ» بالغين المعجمة، وهي قراءةُ يحيى ابن يَعمر[(٥)]؛ قال: وكان إناءً صِيْغَ[(٦)] من ذهب. «وصَوْع» بالعين غير المعجمة قراءةُ أبي رجاء[(٧)]. «وصُوْع» بصادٍ مضمومةٍ وواوٍ ساكنة وعينٍ غيرِ معجمةٍ قراءةُ أُبيّ[(٨)]. «وصيَاع» بياء بين الصَّاد والألف، قراءةُ سعيد بن جُبير[(٩)]. «وصاع» بألف بين الصَّاد والعين، وهي قراءة أبي هريرة[(١٠)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٦١، وخبرا عكرمة وابن زيد أخرجهما الطبري ١٣/ ٢٤٦، ٢٥٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٤.

(٣) في (د): أبواب، وكذا في تهذيب اللغة ٣/ ٨٢، والكلام منه.

(٤) أخرجه عن مجاهد ابن الأنباري في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان كما في الإتقان للسيوطي ١/ ٤١٨. قال الجوهري في الصحاح (طرجهل): الطرجهالة: كالفنجانة، معروفة.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٦، إلا أن ابن جني قيدها بفتح الصاد، ولم يقيدها ابن خالويه، وذكرها الطبري ١٣/ ٢٤٩ وقال: كأنه وجَّهه إلى أنه مصدر من قولهم: صاغ يصوغ صَوْغاً. وقال أبو حيان في البحر ٥/ ٣٣٠: وقرأ الحسن وابن جبير: «صُواغ» بالغين المعجمة على وزن: غُراب، وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنه يحذف الألف ويسكِّن الواو. وينظر الدر المصون ٦/ ٥٢٧.

(٦) في (د) و(م): أصيغ.

(٧) وهي بفتح الصاد كما قيدها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٦، وهي في القراءات الشاذة ص٦٤.

(٨) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٦، وأبو حيان في البحر ٥/ ٣٣٠ عن عبد الله بن عون بن أبي أرطبان.

(٩) أخرجها عنه ابن الأنباري كما في الدر المنثور ٤/ ٢٧.

(١٠) القراءات الشاذة ص٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٦.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أي: نادى منادٍ وأعْلَمَ، و«أذَّنَ» للتكثير، فكأنه نادى مراراً: «أَيَّتُهَا العِيرُ». والعِير: ما امْتِيرَ عليه من الحمِير والإبل والبغال[١]. قال مجاهد: كان عِيرُهم حَمِيراً[٢]. قال أبو عبيدة: العِيرُ: الإبلُ المَرْحولَةُ المركوبة[٣]. والمعنى: يا أصحابَ العير. كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٤] [يوسف:٨٢]، و: يا خيلَ الله اركبي، أي: يا أصحابَ خيلِ الله، وسيأتي.

وهنا اعتراضان: الأوّل: إن قيل: كيف رضيَ بنيامينُ بالقعود طَوْعاً، وفيه عقوقُ الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نَسَب يوسفُ السرقةَ إلى إخوته وهم بَرَاء، وهو الثاني.

فالجواب عن الأوّل: أنَّ الحزن كان قد غَلَبَ على يعقوبَ بحيث لا يؤثِّر فيه فَقْدُ بنيامين كلَّ التأثير، أوَلا تَراه لمَّا فَقَدَه قال: «يا أسَفا على يُوسُف»، ولم يعرِّج على بنيامين؟ ولعل يوسفَ إنَّما وافقه على القعود بوَحْيٍ، فلا اعتراض.

وأمَّا نسبةُ يوسفَ السرقةَ إلى إخوته؛ فالجواب: أنَّ القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فألْقَوْه في الجُبِّ، ثم باعوه، فاستحقُّوا هذا الاسمَ بذلك الفِعْل، فصَدَقَ إطلاقُ ذلك عليهم.

جوابٌ آخَرُ: وهو أنه أراد: أيتها العيرُ حالُكم حالُ السُّرَّاق، والمعنى: إنَّ شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملكِ ولا عِلْمِه.

جوابٌ آخر: وهو أنَّ ذلك كان حيلةً لاجتماعِ شَمْلِه بأخيه، وفَصْلِه عنهم إليه[٥]، وهذا بناء على أنَّ بنيامين لم يعلم بدَسِّ الصاع في رَحْله، ولا أخبره بنفسه.

---

(١) تهذيب اللغة ٣/ ١٦٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٤٨.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٥٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٠.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٢ - ١٠٨٣.

وقد قيل: إنَّ معنى الكلامِ الاستفهامُ، أي: أوَإنَّكم لسارقون[١]؟ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي: أوَتلك نعمةٌ تمنُّها عليَّ؟ والغرض ألَّا يُعزَى إلى يوسف ﷺ الكذبُ.

**قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾**

**فيه سبع مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ البعير هنا الجملُ في قول أكثر المفسرين[٢]. وقيل: إنه الحمار، وهي لغةٌ لبعض العرب؛ قاله مجاهدٌ واختاره[٣]. وقال مجاهد: الزعيم هو المؤذِّنُ الذي قال: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ»[٤]. والزعيمُ والكَفيل والحَمِيل والضَّمين والقَبِيل سواءٌ، والزعيم: الرئيس.

قال امرؤ القيس[٥]:

وإنِّي زَعيمٌ إنْ رَجعتُ مُمَلَّكاً ... بِسَيْرٍ تَرَى مِنهُ الفُرانِقَ أزْوَرا[٦]

وقالت ليلى الأخْيَلِيةُ ترثي أخاها[٧]:

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٣/ ٩٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٦٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٥٢ - ٢٥٣، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣١٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٥٣، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣١٨.

(٥) قوله: امرؤ القيس، من (ظ).

(٦) ديوان امرئ القيس ص٦٦. والفُرانق: الأسد، أو سَبُع يصيح بين يديه وهو شبيه بابن آوى وهو معرَّبُ «بروانك». معجم متن اللغة (فرنق). وأزور: مائل، أو الذي يُقْبل على شِقٍّ إذا اشتد السير. القاموس (زور).

(٧) كذا ذكر المصنف، والذي ذكره أبو إسحاق الوطواط في غرر الخصائص الواضحة ص٢٣ أنها قالت هذه الأبيات في توبة الحميري. وهو الصواب، وقصة توبة بن الحميِّر مع ليلى الأخيلية مشهورة. ينظر الأغاني ١١/ ٢٠٣ - ٢٥٠.

ومُخَرَّقٍ عنهُ القميصُ تَخالُهُ وسطَ البيوت من الحياءِ سَقِيمَا[١]
حتَّى إذا رُفِعَ اللِّواءُ رأيتَهُ يومَ الهِيَاجِ على الخَمِيسِ زَعِيمَا[٢]

**الثانية**: إن قيل: كيف ضَمِنَ حِمْلَ البعيرِ وهو مجهول، وضمانُ المجهولِ لا يصحّ؟ قيل له: حِمْلُ البعير كان معيَّناً معلوماً عندهم كالوَسْق، فصحَّ ضمانه[٣]. غير أنَّه كان بَدَلَ مالٍ للسارق، ولا يَحلُّ للسَّارِق ذلك، فلعله كان يصحُّ في شَرْعهم. أو كان هذا جِعالةً وبَذْلَ مالٍ لمن[٤] يفتِّش ويطلب.

**الثالثة**: قال بعض العلماء: في هذه الآية دليلان: أحدهما: جوازُ الجُعْل، وقد أُجيز للضرورة؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره[٥]. فإذا قال الرجل: مَن فَعَل كذا فله كذا، صحّ. وشأنُ الجُعْل أن يكون أحدُ الطرفين معلوماً، والآخَرُ مجهولاً للضرورة إليه، بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدَّر فيها العِوَضُ والمُعَوَّضُ من الجهتين[٦]. وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فَسْخُه، إلَّا أنَّ المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده إذا رضِيَ بإسقاط حقِّه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شَرَع المجعولُ له في العمل[٧]. ولا يُشترط في عقد الجُعْل حضورُ المتعاقدين كسائر العقود؛ لقوله: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾. وبهذا كلِّه قال الشافعي[٨].

---

(١) في النسخ: يوم اللقاء، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) الشعر والشعراء ٢/ ٧٠٤ ، وأمالي القالي ١/ ٢٤٨ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٦٠٩ ، وذكر القالي عن الأصمعي أنه كان يرويها لحميد بن ثور، وهما في ديوان حميد ص١٣١ . ووقع في هذه المصادر: تحت اللواء، بدل: يوم الهياج. والخميس يعني الجيش. تهذيب اللغة ٧/ ١٩٣ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٦٢ .

(٤) بعدها في (م): كان.

(٥) ينظر النكت والعيون ٣/ ٦٣ .

(٦) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٤ - ١٠٨٥ .

(٧) ينظر المنتقى ٥/ ١١١ .

(٨) المهذب ١/ ٤١٨ - ٤١٩ ، إلا أن الشيرازي ذكر أنه يجوز فسخُ الجاعلِ العقدَ بعد الشروع في العمل، ويلزمه أجرة المثل لما عُمِل.

**الرابعة**: متى قال الإنسان: مَن جاء بعبدي الآبقِ فله دينارٌ، لزمه ما جَعَلَه فيه إذا جاء به، فلو جاء به من غير ضمانٍ، لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن جاء بآبِقٍ فله أربعونَ درهماً»(١) ولم يَفْصِل بين مَن جاء به مِن عقدِ ضمانٍ أو غيرِ عقد. قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: ولهذا قال أصحابنا: إنَّ مَن فَعَلَ بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجرُ مثلِه إنْ كان ممن يفعل ذلك بالأجر(٢).

قلت: وخالَفَنا في هذا كلِّه الشافعيُّ(٣).

**الخامسة**: الدليل الثاني: جوازُ الكفالة على الرجل؛ لأنَّ المؤذِّن الضامنَ هو غيرُ يوسفَ عليه السلام، قال علماؤنا: إذا قال الرجل: تحمَّلتُ، أو تكفَّلتُ، أو ضمنتُ، أو أنا حَميلٌ لك، أو زعيم، أو كَفيل، أو ضامن، أو قَبيل، أو هو لك عندي، أو عليَّ، أو إليَّ، أو قِبَلي، فذلك كلُّه حَمَالةٌ لازمة(٤).

وقد اختلف الفقهاء فيمَن تكفَّل بالنفس أو بالوجه؛ هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: مَن تكفَّل بنَفْسِ رجلٍ لم يلزمه الحقُّ الذي على المطلوب إن مات، وهو أحدُ قولي الشافعيِّ في المشهور عنه. وقال مالك والليث والأوزاعيُّ: إذا تكفَّل بنفسه وعليه مالٌ، فإنَّه إنْ لم يأتِ به غَرِمَ المال، ويَرْجِعُ به على المطلوب، فإن اشتَرط ضمانَ نفسه أو وجهه وقال: لا أضمن المالَ، فلا شيءَ عليه من المال.

والحجةُ لمن أوجب غُرْمَ المال: أنَّ الكفيل قد علم أنَّ المضمونَ وَجْهُه لا يُطلب

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه محمد بن الحسن في الحجة ٢/ ٧٣٤ - ٧٤١ ، والبيهقي ٦/ ٢٠٠ عن ابن مسعود ﷺ موقوفاً. وأخرجه ابن أبي شيبة كما في نصب الراية ٣/ ٤٧٠ عن عمر ﷺ موقوفاً أيضاً. وينظر المحلى ٨/ ٢٠٨ .

(٢) ينظر عقد الجواهر الثمينة ٣/ ٥ .

(٣) ينظر المهذب ١/ ٤١٩ ، والتنبيه ص١٢٦ .

(٤) عقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٥٧ .

بدم، وإنما يُطلب بمال، فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوَّته عليه، وعزَّه[١] منه؛ فلذلك لزمه المال. واحتجَّ الطَّحَاويُّ للكوفيين فقال: أمَّا ضمانُ المال بموت المكفول به فلا معنى له؛ لأنه إنما تكفَّلَ بالنفس ولم يتكفَّل بالمال، فمحالٌ أن يلزمه ما لم يتكفَّل به[٢].

**السادسة**: واختلف العلماء إذا تكفَّلَ رجلٌ عن رجلٍ بمال؛ هل للطالب أن يأخذ مَن شاء منهما؟ فقال الثوريُّ والكوفيُّون والأوزاعيُّ والشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ: يأخذ مَن شاء منهما[٣] حتى يستوفيَ حقَّه، وهذا كان قولَ مالكٍ، ثم رجع عنه فقال: لا يؤخذ الكفيلُ إلَّا أن يُفلِسَ الغريمُ أو يغيب؛ لأنَّ التَّبْدِيَةَ بالذي عليه الحقُّ أولى، إلَّا أنْ يكون مُعْدَماً؛ فإنه يؤخذ من الحميل؛ لأنه معذور في أَخْذه في هذه الحالة. وهذا قولٌ حسن. والقياسُ: أنَّ للرجل مطالبةَ أيِّ الرجلين شاء.

وقال ابن أبي ليلى: إذا ضمن الرجلُ عن صاحبه مالاً تحوَّلَ على الكفيل، وبرِئَ صاحبُ الأصل، إلَّا أن يشترط المكفولُ له عليهما أن يأخذ أيَّهما شاء. واحتجَّ ببراءة الميت من الدَّين بضمان أبي قتادة، وبنحوه قال أبو ثور[٤].

**السابعة**: الزعامةُ لا تكون إلَّا في الحقوق التي تجوز النيابةُ فيها، مما يتعلَّق بالذمَّة من الأموال، وكان ثابتاً مستقرًّا، فلا تصحُّ الحَمالةُ بالكتابة؛ لأنَّها ليست بدينٍ ثابتٍ مستقرٍّ؛ لأنَّ العبد إن عجز؛ رَقَّ وانفسخت الكتابة، وأمَّا كلُّ حقٍّ لا يقوم به أحدٌ

---

(١) في (د) و(ظ): وغره.

(٢) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٥ ، واختلاف الفقهاء للطبري ص٢٠٨ - ٢١١ .

(٣) قوله: منهما، من (ظ).

(٤) ينظر مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٢٥٥ - ٢٥٨ ، والإشراف لابن المنذر ١/ ١١٨ - ١١٩ ، والاستذكار ٢٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦ . والحديث أخرجه أحمد (١٦٥١٠)، والبخاري (٢٢٩٥) عن سلمة بن الأكوع ﷺ أن النبي ﷺ أتي بجنازة ليصلي عليها... فقال: «هل عليه من دين؟» قالوا: نعم، قال: «صلُّوا على صاحبكم» قال أبو قتادة: عليَّ دينُه يا رسول الله. فصلى عليه. وأخرجه أحمد (١٤١٥٩) من حديث جابر ﷺ، و(٢٢٥٤٣) من حديث أبي قتادة ﷺ.

عن أحد كالحدود؛ فلا كفالةَ فيه[١]، ويُسجَن المُدَّعى عليه الحدُّ حتى يُنظر في أمره.

وشذَّ أبو يوسف ومحمدٌ فأجازا الكَفالةَ في الحدود والقِصاص، وقالا: إذا قال المقذوف أو المُدَّعِي القِصاصَ: بيِّنتي حاضرةٌ، كَفِلَه ثلاثةَ أيام[٢]، واحتجَّ لهم الطَّحَاويُّ بما رواه حمزةُ بن عمرو عن عمر[٣]. وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكَفالة بالنفس بمحضَر الصحابة[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحدٍ ظلماً، ولا يَرْعَونَ زَرْعَ أحد، وأنهم جعلوا[٥] على أفواه إبلهم الأكِمَّة[٦]؛ لئلَّا تعيث في زروع الناس. ثم قال[٧]: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ يُروى أنهم ردُّوا البضاعة التي كانت في رِحالهم؛ أي: فَمَن رَدَّ ما وَجَد؛ فكيف يكون سارقاً؟![٨].

(١) ينظر الإشراف ١/ ١٢٤ - ١٢٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٤، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٥٥.

(٢) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٣٢٧، وينظر مختصر اختلاف الفقهاء للطبري ص٢١٤.

(٣) الخبر في مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٢٥٤، وشرح معاني الآثار ٣/ ١٤٧ مطول، وأخرجه مختصراً البخاري (٢٢٩٠) عن حمزة بن عمرو الأسلمي: أن عمر ﷺ بعثه مصدِّقاً، فوقع رجل على جاريةِ امرأته، فأخذ حمزةُ من الرجل كفيلاً حتى قدم على عمر، وكان عمر قد جلده مئة جلدة، فصدَّقهم وعَذَره بالجهالة.

(٤) ذكره البخاري إثر خبر حمزة بن عمرو معلقاً مختصراً، ووصله البيهقي مطولاً ١٠/ ١٦٩، وذكره الطحاوي مطولاً كذلك، كما في مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٥) في (د) و(ز) و(م): جمعوا.

(٦) جمع كمامة، وهي ما يُكَمُّ به فم البعير. الصحاح (كمم).

(٧) في (ظ): قالوا.

(٨) ذكر هذا الخبر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٣٤، والبغوي ٢/ ٤٣٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٥، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٦٠ لأبي صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ المعنى: فما جزاءُ الفاعلِ إنْ بانَ كذبُكم؟ فأجاب إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: يُسْتعبَدُ ويُسْتَرقُّ. «فَجَزَاؤُهُ» مبتدأ، و«مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ» خبرُه، والتقدير: جزاؤه استعبادُ مَن وُجِد في رَحْله، فهو كنايةٌ عن الاستعباد. وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاءُ مَن سرق القطعُ فهذا جزاؤه[1].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُسترَقُّوا، وكان هذا من دين يعقوبَ عليه السلام وحُكْمِه. وقولُهم هذا قولُ مَن لم يَسْتَرِبْ بنفسه[2]؛ لأنهم التزموا استرقاقَ مَن وُجد في رَحْله، وكان حُكْم السارق عند أهل مصر أن يُغرَّمَ ضِعْفَي ما أخذ؛ قاله الحسن والسُدِّي وغيرُهما[3].

**مسألة**: قد تقدَّم في سورة المائدة أنَّ القطع في السرقة ناسخٌ لِمَا تقدَّم من الشرائع، أو لِمَا كان في شرع يعقوبَ من استرقاقِ السارق[4]، والله أعلم.

**قوله تعالى**: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ إنما بدأ يوسفُ برحالهم لنَفْي التهمة والرِّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه. والوِعاءُ؛ يقال بضمِّ الواو وكسرها، لغتان[5]، وهو ما يُحفظ فيه المتاع ويصونه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٨.

(٢) في (م): نفسه.

(٣) لم نقف عليه عن الحسن والسدي، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٦ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٤ عن الضحاك.

(٤) ينظر ٧/ ٤٤٩ وما بعدها.

(٥) وضم الواو قراءة الحسن. ينظر المحتسب ١/ ٣٤٨.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ يعني بنيامين، أي: استخرج السِّقاية، أو الصُّواعَ؛ عند مَن يؤنِّث[1]، وقال: «ولِمَنْ جاء به»؛ فذكَّر.

فلمَّا رأى ذلك إخوتُه نكسوا رؤوسهم، وظنُّوا الظنون كلَّها، وأقبلوا عليه وقالوا: ويلك يا بنيامين، ما رأينا كاليوم قطُّ، ولدت أمُّك راحيل أخوين لِصَّين! قال لهم أخوهم: والله ما سرقتُه، ولا عِلْمَ لي بمَن وضعه في متاعي. ويروى أنهم قالوا له: يا بنيامين، أسرقت؟ قال: لا والله! قالوا: فَمَن جَعَل الصُّواعَ في رَحْلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم.

ويقال: إنَّ المفتِّش كان إذا فرغ من رَحْلِ رجلٍ استغفر الله عزَّ وجلَّ تائباً مِن فِعْله ذلك. وظاهِرُ كلامِ قَتَادةَ وغيرِه أنَّ المستغفر كان يوسفَ؛ لأنه كان يفتِّشهم ويعلم أين الصُّواعُ، حتى فرغ منهم وانتهى إلى رَحْل بنيامين فقال: ما أظنُّ هذا الفتى رضيَ بهذا ولا أَخَذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا نبرح[2] حتى تُفتِّشَهُ، فهو أطيبُ لنفسك ونفوسنا، ففتَّش، فأخرج السِّقاية، وهذا التفتيشُ من يوسف يقتضي أنَّ المؤذِّن سَرَّقهم برأيه. فيقال: إنَّ جميع ذلك كان بأمرٍ من الله تعالى، ويقوِّي ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾[3].

**قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: «كِدْنَا» معناه: صَنَعْنا؛ عن ابن عباس[4]. القُتَبيُّ: دبَّرنا[5].

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٩.

(٢) في (د): لا تبرح.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٦، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٢٥ - ٣٢٦، والطبري ١٣/ ٢٥٩-٢٦٠. وينظر عرائس المجالس ص١٣٥.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٦١، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤، عن الضحاك والسدي وابن جريج.

(٥) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٤ هذا القول عن ابن عيسى، ولفظ ابن قتيبة في تفسير الغريب ص٢٢٠: «كدنا ليوسف» أي: احتلنا، والكيد: الحيلة.

ابن الأنباريّ[١]: أردنا؛ قال الشاعر:

كـادتْ وكِـدْتُ وتِـلـك خـيـرُ إرادةٍ      لو عاد مِن عهد الصِّبَا ما قد مَضَى[٢]

وفيه جوازُ التوصُّلِ إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تُخالفْ شريعةً، ولا هَدَمت أصلاً، خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل، وإن خالفت الأصول، وخَرَمت التحليل[٣].

**الثانية**: أجمع العلماء على أنَّ للرجل قبل حلول الحَوْل التصرُّف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينوِ الفرارَ من الصدقة، وأجمعوا على أنه إذا حال الحَوْل وأظلَّ الساعي أنه لا يَحِلُّ له التحيُّل ولا النقصان، ولا أن يفرِّق بين مجتَمِعٍ، ولا أن يَجْمَع بين متفرِّق. وقال مالك: إذا فوَّت من ماله شيئاً ينوي به الفرارَ من الزكاة قبل الحول بشهرٍ أو نحوه، لزمته الزكاةُ عند الحول، أخذاً منه بقوله عليه الصلاة والسلام: «خشيةَ الصَّدقة». وقال أبو حنيفة: إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرُّه؛ لأنَّ الزكاة لا تلزم إلَّا بتمام الحول، ولا يتوجَّه إليه معنى قوله: «خَشْيَةَ الصَّدَقة» إلا حينئذ[٤].

قال ابن العربي[٥]: سمعت أبا بكر محمد بنَ الوليد الفِهْريَّ وغيرَه يقول: كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بنُ عليٍّ الدَّامَغاني[٦] صاحب عشرة آلاف

---

(١) في الأضداد ص٩٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٣٩ ، والأضداد لابن الأنباري ص٩٧ ، وهو فيهما برواية: لو عاد من لهو الصبابة ما مضى.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٨ .

(٤) الكلام من بداية المسألة قاله ابن بطال كما في فتح الباري ١٢/ ٣٣١ . وقوله: «خشية الصدقة» سيأتي تخريجه عن أنس ـ ﷺ ـ في حديث كتاب أبي بكر ﷺ الذي كتبه له في فريضة الصدقة.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٨٨ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) الحنفي، مفتي العراق، ولد بدامَغان، وتفقَّه بخراسان، وقدم بغداد شابًّا، ودام في القضاء ثلاثين سنة، وفي أولاده أئمة وقضاة، توفي سنة (٤٧٨هـ). السير ١٨/ ٤٨٥ .

دينار من المال[١]، فكان إذا جاء رأسُ الحول دعا بنيه فقال لهم: كَبِرَتْ سِنِّي، وضَعُفت قوَّتي، وهذا مالٌ لا أحتاجه فهو لكم. ثم يُخرجه، فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دُورِ بنيه، فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمرٍ قالوا: يا أبانا إنما أمَلْنا حياتُك، وأما المال فأيُّ رغبةٍ لنا فيه ما دمتَ حياً، أنت ومالك لنا، فخذه إليك. ويسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيردُّه إلى موضعه. يريد بتبديل الملكِ إسقاطَ الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرِّق، وهذا خَطْبٌ عظيم، وقد صنَّف البخاريّ ﷺ [عليه] في جامعه كتاباً مقصوداً فقال: كتاب الحِيَل[٢].

قلت: وترجم فيه أبواباً منها: باب الزكاة وألَّا يفرَّق بين مجتَمِعٍ ولا يُجمع بين متفرِّق خشيةَ الصدقة. وأدخل فيه حديثَ أنس بن مالك، وأنَّ أبا بكر كتب له فريضةَ الصدقة[٣]...، وحديثَ طلحةَ بنِ عبيد الله أنَّ أعرابيًّا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائرَ الرأس، الحديثَ، وفي آخره: «أَفْلَحَ إنْ صَدَقَ» أو: «دَخَل الجنةَ إنْ صَدَقَ». وقال بعض الناس: في عشرين ومئةِ بعيرٍ حِقَّتان، فإنْ أهلكها متعمِّداً، أو وَهَبَها، أو احتال فيها فِراراً من الزكاة، فلا شيءَ عليه[٤]. ثم أردف بحديث أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون كنزُ أحدِكم يومَ القيامة شجاعاً أَقْرَعَ له زبيبتان، ويقولُ: أنا كنزك» الحديث[٥].

قال المهلَّب[٦]: إنما قَصَدَ البخاريُّ في هذا الباب أنْ يُعرِّفكَ أنَّ كلَّ حِيلةٍ يتحيَّلُ بها أحدٌ في إسقاط الزكاة فإنَّ إثْمَ ذلك عليه؛ لأن النبيَّ ﷺ لمَّا مَنَعَ من جمع الغَنَم

(١) في (م): عشرات.

(٢) صحيح البخاري طبعة فتح الباري ١٢/ ٣٢٦ .

(٣) صحيح البخاري (٦٩٥٥)، وأخرجه مطولاً أحمد (٧٢).

(٤) صحيح البخاري (٦٩٥٦)، وحديث طلحة أخرجه أيضاً أحمد (١٣٩٠)، ومسلم (١١).

(٥) صحيح البخاري (٦٩٥٧)، وسلف ٥/ ٤٣٨ .

(٦) كلامه بنحوه في فتح الباري ١٢/ ٣٣١

وتفريقِها خشيةَ الصدقة، فُهِم منه هذا المعنى، وفُهِم من قوله: «أَفْلَحَ إنْ صَدَق» أنَّ مَن رامَ أن ينقُضَ[١] شيئاً من فرائض الله بحيلةٍ يحتالُها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عُذْرُه عند الله، وما أجازه الفقهاءُ من تصرُّفِ صاحبِ المال في ماله قُرْبَ حلولِ الحَوْلِ إنما هو ما لم يُرِدْ بذلك الهربَ من الزكاة، ومَن نوى ذلك فالإثمُ عنه غيرُ ساقط، واللهُ حَسِيبُه، وهو كَمَن فرَّ من[٢] صيام رمضانَ قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفراً لا يحتاج إليه رغبةً عن فَرْضِ الله الذي كتبه الله على المؤمنين، فالوعيدُ متوجِّهٌ عليه، أَلَا ترى عقوبةَ مَن مَنَعَ الزكاة يوم القيامة بأيِّ وجهٍ متعمِّداً كيف تَطَؤه الإبل[٣]، ويمثَّلُ له مالُه شجاعاً أقرع؟! وهذا يدلُّ على أنَّ الفرار من الزكاة لا يَحِلُّ، وهو مُطالَبٌ بذلك في الآخرة.

**الثالثة**: قال ابن العربيِّ[٤]: قال بعض علماء الشافعية: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[٥] دليلٌ على وجه الحيلة إلى المباح[٦] واستخراج الحقوق. وهذا وهمٌ عظيم. وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قيل فيه: كما[٧] مكَّنا ليوسفَ مِلك نفسه عن امرأة العزيز مكَّنَّا له مِلْكَ الأرض عن العزيز. أو مِثْلُه مما لا يُشْبِه[٨] ما ذَكَره.

---

(١) في (د) وفتح الباري: ينقص.

(٢) في (د) والفتح: عن.

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٥٦٣)، ومسلم (٩٨٧)، ومختصراً البخاري (٦٩٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٨٨ .

(٥) في (د) و(ز) وأحكام القرآن: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض، وفي (م): وكذلك مكنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣ ، وعنه نقل ابن العربي، وإياه عنى بقوله: قال بعض علماء الشافعية. وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٦ . وقد سلف كلام الكيا الطبري ص٣٨٧ من هذا الجزء.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي والكيا الطبري: دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح.

(٧) في النسخ الخطية: لما، والمثبت من (م) وأحكام القرآن لابن العربي.

(٨) في النسخ الخطية: إذ مثله لا يشبه.

قال الشَّفْعَوي[١]: ومثلُه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص:٤٤]، وهذا ليس حيلةً، إنما هو حَمْلٌ لليمين على الألفاظ أو على المقاصد.

قال الشفعويُّ: ومثلُه حديث أبي سعيد الخدريِّ في عاملِ خيبر، أنه أتى النبيَّ ﷺ بتمرٍ جَنِيب، الحديثَ. ومقصودُ الشافعية من هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أمره أن يبيع جمعاً ويبتاع جَنِيباً من الذي باع منه الجمع أو من غيره[٢].

وقالت المالكية: معناه: مِن غيره؛ لئلَّا يكون جَنِيباً بجمعٍ والدارهمُ رباً، كما قال ابن عباس: جريرةٌ بجريرة والدراهمُ رباً[٣].

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: سلطانِه؛ عن ابن عباس[٤]. ابن عيسى: عادَتِه[٥]، أي: يظلم بلا حجة. مجاهد: في حكمه[٦]، وهو استرقاق السُّرَّاق. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلَّا بأن يشاء الله أنْ يجعل السِّقاية في رَحْله تَعِلَّةً وعذراً له. وقال قتادة: بل كان حكم الملك الضربُ والغُرْم ضعفين، ولكن شاء الله أن يُجريَ على ألسنتهم حكمَ بني إسرائيل، على ما تقدَّم[٧].

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: بالعلم والإيمان. وقُرئ: ﴿نَرفَعُ درجاتٍ من نَّشَاءُ﴾ بمعنى: نرفع مَن نشاءُ درجاتٍ، وقد مضى في «الأنعام»[٨].

---

(١) نسبة إلى الإمام الشافعي رحمه الله، والكلام في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٨ وعنه نقل المصنف.

(٢) قوله: أو من غيره، من (م) وأحكام القرآن لابن العربي، وسلف الكلام وتخريج الحديث ص٣٨٧ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٩ ، وخبر ابن عباس سلف نحوه ٢/ ٢٩٧ بلفظ: نهى ابن عباس عن دراهم بدراهم بينهما حريرة.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٤ .

(٥) في (م): عاداته، والمثبت من النسخ الخطية موافق لما في النكت والعيون ٣/ ٦٤ ، والكلام منه.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٤ - ٢٦٦ عن قتادة والسدي وغيرهما.

(٧) ص٤١٢ من هذا الجزء، وخبر قتادة ذكره الواحدي عنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الوسيط ٢/ ٦٢٤ .

(٨) ٨/ ٤٤٥ ، وقرأ بالتنوين عاصم وحمزة والكسائي. السبعة ص٢٦١ ، والتيسير ص١٠٤ .

وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ روى إسرائيلُ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرمةَ، عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلمَ مِن ذا، وذا أعلم من ذا، والله فوقَ كلِّ عالم[١].

وروى سفيان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جُبير قال: كنا عند ابن عباس رحمه الله، فتحدَّث بحديث فتعجَّبَ منه رجل فقال: سبحان الله! وفوقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ، فقال ابن عباس: بئسَ ما قلت! الله العليم وهو فوقَ كلِّ عالم[٢].

**قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾ المعنى: أي: اقتَدَى بأخيه، ولو اقتَدَى بنا ما سَرَق، وإنَّما قالوا ذلك ليَبْرؤوا[٣] من فعله؛ لأنه ليس من أُمِّهم، وأنه إن سرق فقد جذَبَه عِرْقُ أخيه السَّارق؛ لأنَّ الاشتراكَ في الأنساب يُشاكِلُ في الأخلاق.

وقد اختلفوا في السَّرقة التي نَسَبُوا إلى يوسف: فرُوي عن مجاهد وغيره أنَّ عمةَ يوسف بنتَ إسحاق كانت أكبرَ من يعقوب، وكانت صارت إليها مِنْطقةُ إسحاقَ لسنِّها؛ لأنَّهم كانوا يتوارثون بالسِّنِّ، وهذا مما نُسِخَ حكمُه بشرعنا، وكان مَن سَرَق استُعبِد، وكانت عمةُ يوسف حَضَنته وأحبَّته حبًّا شديداً، فلمَّا ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب: سَلِّمي يوسفَ إليَّ، فلستُ أقدِرُ أن يغيب عنِّي ساعةً، فولِعَتْ به، وأشفقَتْ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٢٦٨ - ٢٦٩، وابن أبي حاتم ٧/٢١٧٧ (١١٨٣٠)، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، ووقع عند الطبري: سالم، بدل: سماك.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/٣٢٦، والطبري ١٣/٢٦٨، وفيهما: الحمد لله، بدل: سبحان الله.

(٣) في (ظ): ليتبروا.

من فِراقه، فقالت له: دَعْهُ عندي أياماً أنْظُرْ إليه، فلما خرج من عندها يعقوبُ عَمَدَت إلى مِنطَقة إسحاق فحزمَتْها على يوسفَ من تحت ثيابِه، ثم قالت: لقد فقدت مِنطقة إسحاق، فانظروا مَن أخذَها ومَن أصابها، فالتُمِسَتْ، ثم قالت: اكشفوا أهلَ البيت، فكشفوا فوُجِدَت مع يوسف، فقالت: إنَّه والله لي سَلَمٌ أصنعُ فيه ما شئتُ، ثم أتاها يعقوبُ فأخبرته الخبرَ، فقال لها: أنتِ وذلك، إن كان فعلَ ذلك فهو سَلَمٌ لكِ، فأمسكَتْه حتى ماتت، فبذلك عيَّره إخوتُه في قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[١]، ومن هاهنا تعلَّم يوسفُ وضعَ السِّقاية في رَحْلِ أخيه كما عمِلَتْ به عمتُه[٢].

وقال سعيد بنُ جُبير: إنما أمرته [أُمُّه] أن يسرِقَ صنماً كان لجدِّه أبي أُمِّه، فسرقه وكسَرَه وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر، فرمَوه بالسَّرقة وعيَّروه بها، وقاله قتادة. وفي كتاب الزجَّاج: أنه كان صنم ذهبٍ[٣].

وقال عطية العَوْفيُّ: إنه كان مع إخوته على طعامٍ، فنظر إلى عَرْقٍ[٤] فخبَّأه، فعيَّروه بذلك.

وقيل: إنه كان يسرِقُ من طعامِ المائدةِ للمساكين؛ حكاه ابنُ عيسى.

وقيل: إنهم كَذَبوا عليه فيما نَسَبوه إليه؛ قاله الحسن[٥].

قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: أسرَّ في نفسه قولَهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ قاله ابنُ شجرة وابنُ عيسى. وقيل: إنه أسرَّ في نفسه قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ثم جهر فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٧٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٧ .

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) العَرْق بفتح العين وسكون الراء: العظم إذا أُخذ عنه معظم اللحم. النهاية: (عرق)، وهذا القول في النكت والعيون ٣/ ٦٥ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٦٥ .

تَصِفُونَ﴾[١]. قاله ابن عباس[٢]، أي: أنتم شرٌّ مكاناً ممَّن نسبتُموه إلى هذه السرقة.

ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: الله أعلمُ أنَّ ما قلتُم كذبٌ، وإن كانت لله رضاً. وقد قيل: إنَّ إخوةَ يوسفَ في ذلك الوقتِ ما كانوا أنبياء.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ خاطَبوه باسم العزيز؛ إذ كان في تلك اللحظة بِعَزْلِ الأولِ أو موته. وقولهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ أي: كبيرَ القدر، ولم يريدوا كِبَرَ السنِّ؛ لأنَّ ذلك معروفٌ من حال الشَّيخ[٣].

﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ أي: عبداً بَدَلَه، وقد قيل: إنَّ هذا مجازٌ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصحُّ أخذُ حرٍّ يُستَرقُّ بدَلَ مَن قد أحكمت السُّنةُ عندهم رِقَّه، وإنما هذا كما تقولُ لمن تَكره فعلَه: اقتُلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنتَ لا تريدُ أن يقتُلَكَ، ولكنَّك مبالِغٌ في استنزالِهِ. ويحتَمِلُ أن يكون قولُهم: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ حقيقةً، وبعيدٌ عليهم وهم أنبياءُ أن يَرَوا استرقاقَ حُرٍّ، فلم يبقَ إلا أن يريدوا بذلك طريقَ الحَمَالة؛ أي: خُذْ أحدنا مكانَه حتى ينصرِفَ إليك صاحبُك، ومقصِدُهم بذلك أن يصل بنيامينُ إلى أبيه، ويعرف يعقوب جليَّةَ الأمر، فمنع يوسفُ عليه السلام من ذلك؛ إذ الحَمَالةُ في الحدود ونحوِها ـ بمعنى إحضارِ المضمون فقط ـ جائزةٌ مع التراضي، غيرُ لازمةٍ إذا أَبَى الطالبُ، وأما الحَمالة في مثل هذا على أن يَلزم الحَميلَ ما كان يلزمُ المضمونَ من عقوبةٍ، فلا يجوز إجماعاً. وفي «الواضحة»: إن الحَمالة في الوجهِ فقط في جميعِ الحدود جائزةٌ، إلا في النَّفْس[٤]. وجمهورُ الفقهاء على جواز الكَفَالة في النَّفْس. واختُلِف فيها عن الشافعي فمرَّةً ضعَّفها، ومرَّةً أجازها [على المال][٥].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٢٧٦ دون قوله: ثم جهر فقال.

(٣) النكت والعيون ٣/٦٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/٢٦٨ .

(٥) ينظر الاستذكار ٢٢/٢٧٧ . وما بين حاصرتين منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يَحتمِلُ أن يريدوا وصفَهُ بما رأوا من إحسانه في جميع أفعالِه معهم، ويحتمِلُ أن يُريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسدَيْتَها إلينا، وهذا تأويلُ ابن إسحاق(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ في موضع نصبٍ، أي: من أن نأخُذَ ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا﴾ في موضع نصبٍ بـ «نأخُذَ» ﴿مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: مَعَاذ الله أن نأخذَ البريءَ بالمُجرم، ونُخالف ما تعاقَدْنا عليه. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي: إن نأخذ غيرَه.

**قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يَئِسوا، مثل عَجِبَ واستعجَبَ، وسَخِرَ واستسخَرَ. ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي: انفردوا، وليس هو معهم. ﴿نَجِيًّا ۖ﴾ نصبٌ على الحال من المُضمَر في «خَلَصُوا»، وهو واحد يؤدِّي عن جمعٍ، كما في هذه الآية، ويقعُ على الواحد كقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وجمعُه أنجِيَة، قال الشاعر:

إنِّي إذا ما القومُ كانوا أنجِيَهْ ... واضطَربَ القومُ اضطِرابَ الأرْشِيَهْ
هناكِ أوصيني ولا تُوصي بِيَهْ(٢)

وقرأ ابنُ كثير: «استايَسُوا»، «ولا تايَسُوا» «إنه لا يايَسُ» [٨٧] «أفلم يايَس» [الرعد: ٣١] بألفٍ من غير همزٍ على القلب(٣)، قُدِّمت الهمزةُ وأُخِّرت الياءُ، ثم قُلِبت

(١) المحرر الوجيز ٣/٢٦٩ .

(٢) الرجز نسبه في اللسان: (نجا) إلى سُحَيم بن وَثِيل اليَرْبُوعيّ، وذكر أن هناكِ بكسر الكاف بخط علي بن حمزة، وبخطه أيضاً: أَوْصيني ولا توصي، بإثبات الياء؛ لأنه يخاطب مؤنثاً. وهي في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٤ من غير نسبة. والأرشية، جمع رِشاء: وهو الحبل. القاموس (رشا). وقيل في معنى الرجز: إنه ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم، وقيل غير ذلك. اللسان (نجا).

(٣) هي قراءة ابن كثير في رواية البزي بخُلْف عنه، وكذلك قول: «استايس» [الآية: ١١٠] والوجه الثاني للبزي كالجماعة. السبعة ص٣٥ ، والتيسير ص١٢٩ .

الهمزة ألفاً؛ لأنها ساكنةٌ قبلَها فتحة، والأصلُ قراءةُ الجماعة؛ لأنَّ المصدرَ ما جاءَ إلا على تقديم الياء: يَأساً، والإياسُ ليس بمصدرِ أَيِسَ، بل هو مصدرُ أُسْتُهُ أَوْساً وإِياساً، أي: أعطيتُه[١]. وقال قوم: أَيِسَ ويَئِسَ لغتان.

أي: فلما يَئِسُوا من رَدِّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يُخالِطُهم غيرُهم من الناس، يتناجون فيما عَرَضَ لهم. والنَّجِيُّ: فعيلٌ بمعنى المُناجي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قال قتادة: هو روبيل، كان أكبرَهم في السِّنِّ. مجاهد: هو شمْعون، كان أكبرَهم في الرأي. وقال الكلبيُّ: يهوذا، وكان أعقلَهم[٢]. وقال محمد بنُ كعب وابنُ إسحاق: هو لاوي، وهو أبو الأنبياء.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهداً من الله في حفظِ ابنه وردِّه إليه. ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ «ما» في محلِّ نصبِ عطفاً على «أنَّ» والمعنى: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، وتعلموا تفريطَكم في يوسف، ذكره النحَّاس[٣] وغيرُه. و«من» في قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ متعلِّقةٌ بـ «تعلموا». ويجوز أن تكون «ما» زائدةً، فيتعلَّق الظَّرفان اللذان هما «من قبلُ» و«في يوسف» بالفعل وهو «فرَّطتُم». ويجوز أن تكون «ما» والفعلُ مصدراً، و«من قبلُ» متعلِّقاً بفعلٍ مضمَرٍ، التقدير: تفريطُكم في يوسف وقع[٤] من قبلُ، فـ «ما» والفعلُ في موضع رفع بالابتداء، والخبرُ هو الفعل المضمَر الذي يتعلق به «من قبلُ»[٥].

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾[٦] أي: ألزَمُها، ولا أبرحُ مقيماً فيها، يقال: بَرِحَ بَراحاً

---

(١) الحجة للفارسي ٤/ ٤٣٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٢.

(٣) إعراب القرآن ٢/ ٣٤١.

(٤) في النسخ: واقع، وكلاهما صحيح، والمثبت أنسب لسياق الكلام. ينظر الدر المصون ٦/ ٥٣٩.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٠ - ٣٤١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٤ - ١٢٥.

(٦) بعدها في (ظ): أي من الأرض.

وبُرُوحاً، أي: زال، فإذا دخل النفيُ صار مثبتاً. ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بالرجوع؛ فإني أستحي منه. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالمسير[1] مع أخي فأمضي معه إلى أبي. وقيل: المعنى: أو يحكم الله لي بالسَّيف فأُحارِبَ وآخُذَ أخي، أو أعجَزَ فأنصرف بعُذرٍ، وذلك أنَّ يعقوب قال: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ ومن حارب وعَجَز فقد أُحيط به. قال ابن عباس: وكان يهوذا إذا غضِبَ وأخَذَ السَّيف فلا يردُّ وجهَه مئة ألف، يقومُ شعرُه في صدره مثل المَسَالِّ فتنفُذُ من ثيابه.

وجاء في الخبر: أنَّ يهوذا قال لإخوته ـ وكان أشدَّهم غضباً ـ: إما أن تكفُوني الملِكَ ومَن معه، أكْفِكم أهلَ مصر، وإما أن تكفوني أهلَ مصر، أكفِكم الملِكَ ومَن معه، قالوا: بل اكفِنا الملكَ ومَن معه، نكفِكَ أهلَ مصر، فبعث واحداً مِن إخوته فعدُّوا أسواقَ مصر، فوجدوا فيها تسعةَ أسواقٍ، فأخَذَ كلُّ واحدٍ منهم سوقاً، ثم إنَّ يَهوذا دخل على يوسفَ وقال: أيُّها الملك، لئن لم تُخَلِّ معنا أخانا لأصيحنَّ صيحةً لا تبقى في مدينتك حامل[2] إلا أسقطتْ ما في بطنها؛ وكان ذلك خاصًّا[3] فيهم عند الغضب؛ فأغضَبَه يوسفُ وأسمعَه كلمةً، فغضب يَهوذا واشتدَّ غضبُه، وانتفجَتْ شعراتُه؛ وكذا كان كلُّ واحدٍ من بني يعقوبَ؛ كان إذا غضب، اقشعرَّ جلدُه، وانتفَخَ جسدُه، وظهرت شعراتُ ظهرِه من تحت الثوب، حتى تقطُر من كلِّ شعرةٍ قطرةُ دمٍ؛ وإذا ضرب الأرضَ برجله، تزلزلت وتهدَّم البنيانُ، وإن صاح صيحةً، لم تسمعْه حاملٌ من النساء والبهائمِ والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماماً أو غيرَ تمام، فلا يَهدأُ غضبُه إلا أن يَسفك دماً، أو تُمسِكه يدٌ مِن نَسْل يعقوب؛ فلما عَلم يوسفُ أنَّ غَضَبَ أخيه يهوذا قد تمَّ وكَمُلَ، كَلَّم ولداً له صغيراً بالقبطيَّة، وأمَره أن يَضع يدَه بين كَتِفَي يهوذا مِن حيث لا يراه؛ ففَعَل، فسكن غضبُه، وألقى السيفَ، فالتفتَ يميناً

---

(١) في (د) و(م): بالممر.

(٢) في (م): حاملاً.

(٣) في (م): خاصة.

وشمالاً لعله يَرى أحداً مِن إخوتِه، فلم يَرَهُ؛ فخرج مسرعاً إلى إخوتِه وقال: هل حضَرني منكم أحدٌ؟ قالوا: لا! قال: فأين ذَهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل، فخرج فلَقِيَه وقد احتمل صخرةً عظيمةً، قال: ما تَصنع بهذه؟ قال: أذهبُ إلى السوق الذي وقع في نَصيبي أشدخ بها رؤوسَ كلِّ مَن فيه، قال: فارجِع فرُدَّها، أو ألقها في البحر، ولا تُحدثنَّ حَدَثاً، فوالذي اتخذَ إبراهيمَ خليلاً، لقد مَسَّني كَفٌّ مِن نَسْل يعقوبَ! ثم دخلوا على يوسفَ، وكان يوسفُ أشدَّهم بطشاً، فقال: يا معشرَ العِبْرانيين! أتظنون أنَّه ليس أحدٌ أشدَّ منكم قوَّة؟ ثم عَمد إلى حَجَرٍ عظيم مِن حجارة الطاحونة، فرَكَلة برِجْله، فَدَحا به مِن خَلْفِ الجدار ـ الرَّكْلُ: الضَّرْبُ بالرِّجْل الواحدة، وقد رَكَله يَرْكُلُه؛ قاله الجوهري[١] ـ ثم أمسكَ يَهوذا بإحدى يدَيْه، فصَرَعه لجنبه، وقال: هاتِ الحدَّادين[٢] أقطعُ أيديَهم وأرجلَهم، وأضْرِب أعناقَهم، ثم صعد على سريرِه، وجلس على فراشه، وأمَرَ بصُواعِه، فوُضِعَ بين يدَيْه، ثم نَقَره نقرةً، فخرج طنينه، فالتفتَ إليهم وقال: أتردّونَ ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنَّه يقول: إنه ليس على قلبِ أبي هؤلاء همٌّ ولا غَمٌّ ولا كَرْبٌ إلا بسببِهم، ثم نَقَر نقرةً ثانية وقال: إنَّه يخبرني أنَّ هؤلاء أخذوا أخاً لهم صغيراً، فحسدوه ونَزعوه مِن أبيهم، ثم أتلفوه. فقالوا: أيُّها العزيز! استر علينا، ستَر اللهُ عليكَ، وامنُن علينا، منَّ اللهُ عليك، فنقَره نقرةً ثالثة وقال: إنَّه يقول: إنَّ هؤلاءِ طَرَحوا صغيرَهم في الجُبِّ، ثم باعوه بيعَ العبيدِ بثمن بَخْسٍ، وزعموا لأبيهم أنَّ الذئبَ أكَلَه، ثم نقره رابعةً وقال: إنَّه يُخبِرني أنَّكم أذنبتُم ذَنْباً منذ ثمانينَ سنةً، لم تَستغفروا اللهَ منه، ولم تتوبوا إليه، ثم نقَره خامسةً وقال: إنَّه يقول: إنَّ أخاهم الذي زعموا أنَّه هَلَكَ لن تَذهبَ الأيَّامُ حتى يرجعَ فيخبرَ الناسَ بما صَنعوا، ثم نقَره سادسةً وقال: إنَّه يقول: لو كنتم أنبياءَ أو بني أنبياء، ما كذبتم، ولا عَقَقْتم والدَكم، لأجعلنَّكم نَكالاً للعالمين، ايتوني بالحدَّادين[٣] أقطع

(١) قوله: الركل الضرب، إلى هذا الموضع، ليس في (ظ)، وينظر الصحاح (ركل).
(٢) في (د): الجدادين، وفي (ظ): الجلادين.
(٣) في (ظ): بالجلادين.

أيديَهم وأرجلَهم، فتضرَّعوا وبَكَوْا، وأظهروا التوبةَ وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسفَ إذ هو حيٌّ لنكوننَّ طوعَ يدِه، وتراباً يَطَأُ علينا برِجْله؛ فلما رأى ذلك يوسفُ مِن إخوته، بكى، وقال لهم: اخرجُوا عنِّي، قد خلَّيت سبيلَكم إكراماً لأبيكم، ولولا هو لجعلتُكم نكالاً[1].

**قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ قاله الذي قال: «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ». ﴿فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرأ ابنُ عباس والضَّحَّاك وأبو رزين: «إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ»[2]. النحَّاس[3]: وحدثني محمد بنُ أحمد بنِ عمر قال: حدّثنا ابنُ شَاذَان، قال: حدّثنا أحمدُ بنُ أبي سُرَيج البغداديُّ قال: سمعتُ الكسائيَّ يقرأ: «يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ» بضمِّ السينِ وتشديدِ الرَّاء مكسورةً؛ على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ أي: نُسب إلى السرقةِ ورُمي بها، مثل خوَّنته وفسَّقته وفجَّرته: إذا نسبته إلى هذه الخِلال.

وقال الزجَّاج[4]: «سُرِّقَ» يحتمل معنيين: أحدهما: عُلم منه السَّرَق، والآخر: اتُّهم بالسَّرَق. قال الجوهري[5]: والسَّرِق والسَّرِقة ـ بكسر الراء فيهما ـ هو اسم الشيء المسروق، والمصدر: سَرَق يَسْرِق سَرَقاً، بالفتح.

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري في التفسير ١٣/ ٢٧٧ - ٢٧٩ ، وفي تاريخه ١/ ٣٥٥ - ٣٥٦ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٧٩ (١١٨٣٨)، عن السُّدِّي، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٢ ، وعرائس المجالس للثعلبي ص١٣٥ - ١٣٦ ، والنكت والعيون ٣/ ٦٥ - ٦٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤١ - ٤٤٢ ، وزاد المسير ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ ، وجاء في المصادر أن الداخل على الملك هو روبيل، وليس يهوذا.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٠ .

(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٥٢ ، وإعراب القرآن ٢/ ٣٤١ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٢٥ .

(٥) في الصحاح (سرق).

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

**فيه أربع مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا» يريدون ما شهدنا قطُّ إلا بما عَلمنا، وأما الآن فقد شَهدنا بالظاهر وما نعلمُ الغيبَ؛ كأنَّهم وقعتْ لهم تُهمةٌ مِن قول بنيامين: دَسَّ هذا في رحلي مَن دَسَّ بضاعَتكم في رحالكم؛ قال معناه ابنُ إسحاق.

وقيل: المعنى: ما شَهدنا عند يوسفَ بأنَّ السارقَ يُسْتَرَقُّ إلا بما عَلمنا مِن دِيْنك؛ قاله ابنُ زيد[1].

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لم نعلم وقتَ أخَذْناه منكَ أنه يَسْرِق، فلا نأخذه[2]. وقال مجاهد وقتادة: ما كنَّا نَعلم أنَّ ابنكَ يُسترقُّ ويَصير أمرُنا إلى هذا، وإنَّما قلنا: نَحفظُ أخانا فيما نُطيق[3]. وقال ابنُ عباس: يَعنون أنه سَرَق ليلاً وهم نيام. والغيبُ هو الليلُ بلغة حِمْيَر[4]؛ وعنه: ما كنَّا نَعلم ما يَصنع في ليلِه ونهارِه وذهابِه وإيابِه[5]. وقيل: ما دام بمرأى منَّا، لم يَجْرِ خَلَلٌ، فلما غاب عنَّا خَفيت عنَّا حالاته. وقيل معناه: قد أُخِذت السَّرِقةُ مِن رَحْله، ونحن أَخرجناها وننظرُ إليها، ولا عِلْمَ لنا بالغيب، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرِقْ.

**الثانية:** تضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ الشهادة بأيِّ وجهٍ حصل العِلْمُ بها؛ فإنَّ الشهادةَ مرتبطةٌ بالعِلْم عقلاً وشرعاً، فلا تُسمع إلا ممَّن عَلِم، ولا تُقبَل إلا منهم[6]، وهذا هو الأصلُ في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابُنا: شهادةُ الأعمى جائزةٌ، وشهادةُ المستمِع جائزةٌ، وشهادةُ الأخرس ـ إذا فُهمت إشارتُه ـ جائزةٌ، وكذلك الشهادةُ على الخطِّ

---

(١) ذكر خبر ابن زيد الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٨، وأخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) ينظر الوسيط ٢/ ١٧٣.

(٣) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/ ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٠.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٢٦، والبغوي ٢/ ٤٤٣.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٠.

ـ إذا تيقَّن أنَّه خطُّه أو خطُّ فلانٍ ـ صحيحةٌ، فكلُّ مَن حصل له العِلْم بشيءٍ جاز أن يَشهد به وإن لم يُشهِده المشهودُ عليه؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] وقال رسول الله ﷺ: «ألَا أُخبركم بخيرِ الشهداء، خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادتِه قَبْلَ أن يُسْألها» وقد مضى في «البقرة»[١].

**الثالثة**: اختلف قولُ مالكٍ في شهادةِ المرور، وهو أن يقولَ: مررتُ بفلانٍ فسمعتُه يقول كذا، فإن استوعبَ القولَ شَهِدَ، في أحد قوليه، وفي القول الآخر: لا يَشهدُ حتى يُشهِداه. والصحيحُ أداءُ الشهادةِ عند الاستيعابِ، وبه قال جماعةُ العلماء، وهو الحقُّ؛ لأنَّه قد حصل المطلوبُ، وتعيَّن عليه أداءُ العِلْم؛ فكان خيرَ الشهداء إذا أعلم المشهودَ له، وشَرَّ الشهداءِ إذا كَتَمها، والله أعلم[٢].

**الرابعة**: إذا ادّعى رجلٌ شهادةً لا يَحتملها عمره، ردَّت؛ لأنَّه ادَّعى باطلاً، فأكذبه العِيَان ظاهراً[٣].

**قوله تعالى**: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

**فيه مسألتان**:

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ حقَّقوا بها شهادتَهم عنده، ورَفَعوا التُّهمةَ عن أنفسهم؛ لئلا يتَّهمهم. فقولهم: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» أي: أهلَها؛ فحذف. ويريدون بالقرية مصر[٤]. وقيل: قريةٌ مِن قراها نزلوا بها وامتاروا منها. وقيل: المعنى: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» وإن كانت جماداً، فأنت نبيُّ الله، وهو يُنطق الجماد لك، وعلى هذا فلا حاجةَ إلى إضمارٍ[٥]. قال سيبويه: ولا يَجوز كَلِّم هِنداً، وأنت

---

(١) ٤/ ٤٥٤ وما بعدها، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٠ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩١ وأخرجه عن قتادة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ينظر النكت والعيون ٣/ ٦٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧١ ، وزاد المسير ٤/ ٢٦٨ .

تريد غلامَ هندٍ؛ لأنَّ هذا يُشكل[١].

والقول في العِير كالقول في القرية سواء. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في قولنا.

**الثانية**: في هذه الآيةِ مِن الفقه أنَّ كلَّ مَن كان على حقٍّ وعَلِمَ أنَّه قد يُظنَّ به أنَّه على خلافِ ما هو عليه، أو يُتوهَّم، أن يرفعَ التُّهمةَ وكلَّ رِيْبة عن نفسه، ويُصرِّح بالحقِّ الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحدٍ مُتكلَّم. وقد فعل هذا نبيُّنا محمد ﷺ بقوله للرجلَيْن اللذين مرَّا، وهو قد خرج مع صفيَّة يَقْلِبُها مِن المسجد: «على رِسْلِكُما إنَّما هي صفيَّة بنتُ حُيَيٍّ» فقالا: سبحانَ الله! وكَبُر عليهما، فقال النبي ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يَبلغُ من الإنسان مَبْلَغَ الدَّمِ، وإنِّي خَشِيتُ أن يَقذِفَ في قلوبكما شيئاً» رواه البخاري ومسلم[٢].

**قوله تعالى**: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

**فيه مسألتان**:

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زَيَّنَتْ ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أنَّ ابني سَرَق، وما سَرَق، وإنَّما ذلك لأمرٍ يريدُه الله. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فشأني صبرٌ جميلٌ، أو صبرٌ جميل أَولى بي، على ما تقدَّم أوَّل السُّورة[٣].

**الثانية**: الواجبُ على كلِّ مسلم إذا أُصيب بمكروهٍ في نفسِه أو ولدِه أو مالِه أن يتلقَّى ذلك بالصبرِ الجميل، والرضا والتسليمِ لمُجْرِيه عليه وهو العليمُ الحكيم، ويَقتدِي بنبيِّ الله يعقوبَ وسائرِ النبيين، صلواتُ الله عليهم أجمعين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤١.

(٢) صحيح البخاري (٢٠٣٥)، وصحيح مسلم (٢١٧٥) من حديث صفية رضي الله عنها. ويقلبها، أي: يصحبها إلى بيتها. النهاية (قلب).

(٣) عند الآية (١٨).

وقال سعيدُ بنُ أبي عَرُوبة، عن قَتَادة، عن الحسن قال: ما مِن جَرْعتين يتجرَّعهما العبدُ أحبُّ إلى الله مِن جَرْعةِ مُصيبةٍ يتجرَّعها العبدُ بحُسنِ صبرٍ وحُسْنِ عَزاءٍ، وجَرْعةِ غيظٍ يتجرَّعها العبدُ بحِلْمٍ وعَفْوٍ[1].

وقال ابنُ جُريج عن مجاهد في قوله تعالى: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» أي: لا أشكو ذلك إلى أحدٍ.

وروى مقاتلُ بنُ سليمان، عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن أبي هريرة، عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ بَثَّ، لم يَصْبِر»[2]. وقد تقدَّم في «البقرة»[3] أن الصَّبر عند أوَّل الصَّدمةِ، وثوابُ مَن ذَكَرَ مصيبته واسترْجَعَ وإن تقادَم عهدُها.

وقال جُوَيبر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس، قال: إنَّ يعقوبَ أُعطيَ على يوسفَ أَجْرَ مئةِ شهيدٍ[4]. وكذلك مَن احْتَسب مِن هذه الأمَّة في مصيبتِه، فله مثل أَجْرِ يعقوبَ عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنَّه كان عنده أنَّ يوسفَ ﷺ لم يَمُتْ، وإنما غابَ عنه خبرُه؛ لأنَّ يوسفَ حُمِلَ وهو عبدٌ لا يَملكُ لنفسه شيئاً، ثم اشتراه الملكُ، فكان في دارِه لا يَظهر للناس، ثم حُبِسَ، فلما تمكَّن، احتال في أن يَعلم أبوه خبرَه؛ ولم يُوجِّه برسولٍ؛ لأنَّه كَرِهَ من إخوته أنْ يعرفوا ذلك، فلا يَدَعُوا الرسولَ يَصلُ إليه.

وقال: «بهم» لأنَّهم ثلاثةٌ؛ يوسفُ وأخوه، والمتخلِّف مِن أجلِ أخيهِ[5]، وهو

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٧٢)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٥١ عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧ - ٣٢٨، والطبري في التفسير ١٣/ ٣١٣ من حديث مسلم بن يسار رفعه إلى النبي ﷺ. وهو مرسل.

(٣) ٢/ ١٧٤ وما بعدها.

(٤) لم نقف عليه من قول ابن عباس، وأخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٠٩، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٦ (١١٨٨٤) عن ليث بن أبي سليم.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٢.

القائل: «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ». ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يقضي.

**قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾**

**فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أعْرض عنهم؛ وذلك أنَّ يعقوبَ لمَّا بلغه خبرُ بنيامين تَتامَّ حزنُه، وبَلَغَ جهدَه، وجدَّد اللهُ مصيبتَه له في يوسف، فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ونَسيَ ابنَه بنيامين فلم يَذكره؛ عن ابنِ عباس[١]. وقال سعيدُ بنُ جُبير: لم يكن عندَ يعقوبَ ما في كتابنا مِن الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال: «يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ»[٢].

قال قَتادةُ والحسنُ: والمعنى: يا حزناه[٣]!. وقال مجاهدٌ والضَّحَّاك: يا جَزَعاه[٤]!؛ قال كُثَيِّر:

فيا أَسفاً للقلبِ كيف انصرافُهُ ... وللنَّفْسِ لمَّا سُلِّيَتْ فَتسلَّتِ[٥]

والأَسَفُ: شدَّةُ الحُزن على ما فات. والنداء على معنى: تعالَ يا أَسَف فإنَّه من أوقاتِك[٦]. وقال الزجَّاج[٧]: الأصل: يا أسفِي؛ فأُبدل مِن الياء ألفٌ؛ لخفَّة الفتحة.

---

(١) الوسيط ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٣ عن ابن إسحاق.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٣ ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢٧ ، والطبري ١٣/ ٢٩٥ ، بنحوه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧ ، والطبري ١٣/ ٢٩٤ عن قتادة، ولم نقف عليه من قول الحسن.

(٤) أخرجه عن مجاهد الطبري ١٣/ ٢٩٤ . وأخرج قول الضحاك بلفظ: يا حَزَناه.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٦٩ ، وهو في الديوان ص٧٧ برواية:

فإن سأل الواشون فيم صَرَمْتَها ... فقل نفسُ حرٍّ سُلِّيت فتسلَّتِ

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٢ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٩٥ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٢٥ .

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ قيل: لم يُبصِر بهما ستَّ سنين، وأنَّه عَمِيَ؛ قاله مقاتل[1].

وقيل: قد تبيضُّ العينُ ويَبقى شيءٌ مِن الرؤية، والله أعلم بحالِ يعقوبَ، وإنما ابيضَّت عيناه مِن البكاء، ولكنَّ سببَ البكاءِ الحزنُ، فلهذا قال: «مِنَ الْحُزْنِ».

وقيل: إنَّ يعقوبَ كان يُصلِّي، ويوسف نائماً معترضاً بين يديه، فَغطَّ في نومه، فالتفتَ يعقوبُ إليه، ثم غَطَّ ثانيةً، فالتفتَ إليه، ثم غَطَّ ثالثة، فالتفتَ إليه، سروراً به وبغطيطه؛ فأوحى اللهُ تعالى إلى ملائكته: انظروا إلى صَفيِّي وابنِ خليلي، قائماً في مناجاتي، يلتفتُ إلى غيري، وعِزَّتي وجَلَالي! لأنزعنَّ الحدقتَيْن اللتين التفتَ بهما، ولأفرقنَّ بينه وبين مَن التفتَ إليه ثمانينَ سنةً؛ ليعلم العاملون أن مَن قام بين يديَّ يَجبُ عليه مراقبةُ نظري.

**الثانية**: هذا يدلُّ على أنَّ الالتفاتَ في الصلاة ـ وإن لم يُبطِل ـ يدلُّ على العقوبة عليها، والنقصِ فيها، وقد رَوى البخاريُّ[2] عن عائشة قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الالتفاتِ في الصلاة فقال: «هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد» وسيأتي ما للعلماء في هذا، في أوَّل سورةِ «المؤمنون» موعباً إن شاء الله تعالى.

**الثالثة**: قال النَّحاس[3]: فإنْ سأل قومٌ عن معنى شدَّة حُزْنِ يعقوبَ ـ صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ـ فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة:

منها: أنَّ يعقوبَ ﷺ لما عَلِمَ أنَّ يوسفَ ﷺ حيٌّ خاف على دِينه، فاشتدَّ حزنُه لذلك.

وقيل: إنَّما حَزِنَ؛ لأنَّه سلَّمه إليهم صغيراً، فندم على ذلك.

---

(١) الوسيط ٢/ ٦٢٧، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٤، وتفسير الرازي ١٨/ ١٩٥.

(٢) في صحيحه (٧٥١).

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٢.

والجواب الثالث ـ وهو أبْيَنُها ـ: هو أنَّ الحزنَ ليس بمحظورٍ، وإنَّما المحظورُ الوَلْولة وشَقُّ الثياب، والكلامُ بما لا ينبغي. وقال النبيُّ ﷺ: «تدمعُ العينُ، ويَحزنُ القلبُ، ولا نقولُ ما يُسخِط الرَّبَّ»[(١)]. وقد بيَّن اللهُ جلَّ وعزَّ ذلك بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكظومٌ، مملوءٌ مِن الحزن، ممسِك عليه لا يبُثُّه؛ ومنه كَظْمُ الغيظِ وهو إخفاؤه، فالمكظومُ: المسدودُ عليه طريقُ حزنِه؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] أي: مملوءٌ كَرْباً. ويجوز أن يكون المكظُوم بمعنى الكاظمِ، وهو المشتملُ على حزنِه.

وعن ابن عباس: كظيمٌ: مغمومٌ[(٢)]؛ قال الشاعر:

فإنْ أَكُ كاظِماً لِمُصابِ شاسٍ ... فإني اليومَ مُنطلقٌ لساني[(٣)]

وقال ابن جُريج، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: ذهبتْ عيناه مِن الحزنِ «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو مكروبٌ[(٤)].

وقال مقاتلُ بنُ سليمان، عن عطاءٍ، عن ابن عباس، في قوله: «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو كَمِدٌ[(٥)]؛ يقول: يَعلَم أنَّ يوسفَ حيٌّ، وأنَّه لا يَدري أين هو، فهو كَمِدٌ من ذلك. قال الجوهريُّ[(٦)]: الكَمَد: الحزنُ المكتومُ؛ تقول منه: كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ. النحَّاس[(٧)]: يقال: فلانٌ كَظِيمٌ وكاظِمٌ، أي: حزينٌ لا يَشكو حزنَه؛ قال الشاعر:

فَحَضَضْتُ قَوْمي واحتسبتُ قِتالَهم ... والقومُ مِن خوفِ المَنايا كُظَّم[(٨)]

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٥٨٩) من حديث أسماء بنت يزيد، وهو عند البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ بنحوه.

(٢) الوسيط ٢/ ٦٢٧ .

(٣) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ ولم ينسبه.

(٤) الوسيط ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٧ عن عطاء الخراساني.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٧ عن الضحاك، وكذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ .

(٦) في الصحاح (كمد).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٤٥٣ .

(٨) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ ولم ينسبه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: قال له ولدُه: «تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ» قال الكسائيُّ: فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك، أي: ما زلتُ. وزعم الفرَّاء أنَّ «لا» مضمرة؛ أي: لا تفتأ[1]، وأنشد:

فـقـلـتُ يـمـيـنَ الـلـهِ أبـرحُ قـاعـداً ولو قَطَّعُوا رأسِي لدَيكِ وأوصَالِي[2]

أي: لا أبرحُ؛ قال النَّحاس: والذي قال، حسنٌ صحيحٌ. وزعم الخليلُ وسيبويه أنَّ «لا» تضمر في القسَم؛ لأنَّه ليس فيه إشكال، ولو كان واجباً لكان باللام والنون[3].

وإنَّما قالوا له ذلك؛ لأنَّهم عَلموا باليقين أنَّه يُداوِم على ذلك؛ يقال: ما زال يفعلُ كذا، وما فَتِئَ وَفَتَأَ، فهما لغتان، ولا يُستعملان إلا مع الجَحْد[4]؛ قال الشاعر:

فـمـا فَـتِـئـتْ حـتَّـى كـأنَّ غُـبـارَهـا سُـرَادِقُ يـومٍ ذي ريـاحٍ تُـرفَّـعُ[5]

أي: ما برحتْ، فتفتأ: تَبرحُ. وقال ابنُ عباس: [لا] تزال[6].

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: تالفاً. وقال ابن عباس ومجاهد: دَنِفاً مِن المرض، وهو ما دونَ الموت[7]؛ قال الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٣٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٣ ، وينظر الكتاب لسيبويه ٣/ ١٠٥ .

(٤) الصحاح (فتأ).

(٥) قائله أوس بن حجر التميمي، وهو في ديوانه ص٥٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٩ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٧ (١١٨٩١)، وما بين حاصرتين منهما.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٧٠ .

سَرَى هَـمِّـي فـأمـرضَـنـي وقِـدْمـاً زادنـي مَـرَضـاً
كـذاكَ الـحـبُّ قـبـلَ الـيـو مِ مـمَّـا يُـورِثُ الـحَـرَضَـا[١]

وقال قَتَادة: هرِماً[٢]. الضَّحَّاك: باليِاً داثِراً[٣]. محمد بن إسحاق: فاسداً لا عَقْلَ لك[٤]. الفرَّاء[٥]: الحارضُ الفاسدُ الجسمِ والعقلِ، وكذا الحَرَض. ابنُ زيدٍ: الحَرَض الذي قد رُدَّ إلى أرذلِ العمر[٦]. الربيعُ بنُ أنس: يابس الجِلْد على العظم[٧]. المؤرِّج: ذائباً من الْهمِّ. وقال الأخفش: ذاهباً. ابن الأنباريِّ: هالكاً، وكلُّها متقاربةٌ.

وأصل الحَرَض: الفسادُ في الجسم أو العقلِ من الحزن أو العشقِ أو الهَرَم، عن أبي عُبيدة وغيرِه[٨]؛ وقال العَرْجِيُّ[٩]:

إِنِّي امرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فأحْرَضَنِي حتَّى بَلِيتُ وحتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ

قال النحَّاس[١٠]: يقال: حَرَض حَرَضاً، وحَرُض حُرُوضاً وحُرُوضة: إذا بَلِيَ وسَقِمَ، ورجل حارِضٌ وحَرَضٌ، إلا أن حَرَضاً لا يثنَّى ولا يُجمَع، ومثله قَمِن وحَرِيٌّ لا يثنيان ولا يجمعان.

الثَّعلبيُّ: ومن العرب مَن يقول: حارِض، للمذكَّر، والمؤنثة: حارِضة، فإذا وصف بهذا اللفظ، ثَنَّى وجَمع وأنَّث. ويقال: حَرِض يَحرَض حَرَاضَةً، فهو حَرِيض

---

(١) لم نقف عليهما.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧ ، والطبري ١٣/ ٣٠٣ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٣ – ٣٠٤ .

(٥) معاني القرآن ٢/ ٥٤ .

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٤ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٤ .

(٨) ذكره الطبري ١٣/ ٣٠١ ، والبغوي ٢/ ٤٤٤ دون نسبة.

(٩) ديوانه ص٥ ، والعَرْجي هو: عبد الله بن عمر بن عبد الله.

(١٠) إعراب القرآن ٢/ ٣٤٣ .

وحَرِضٌ. ويقال: رجل مُحْرَضٌ[١]، ويُنْشَد:

طَلَبَتْهُ الخيلُ يوماً كاملاً ولَوَ ٱلْفَتْهُ لَأضحى مُحْرَضا[٢]

وقال امرؤ القيس[٣]:

أرَى المرءَ ذا الأذْوَادِ يُصبِحُ مُحْرَضاً كإحْرَاضِ بِكْرٍ في الدِّيارِ مَرِيضِ

قال النحَّاس[٤]: وحكى أهلُ اللغة: أحرضه الهمُّ: إذا أسقمه، ورجلٌ حارض، أي: أحمق.

وقرأ أنسٌ: «حُرْضاً» بضمِّ الحاء وسكون الراء، أي: مثل عُود الأُشْنان[٥]. وقرأ الحسن: بضمِّ الحاء والراء[٦]. قال الجوهريُّ[٧]: الحُرُض والحُرْض: الأُشْنَان.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي: الميِّتين، وهو قول الجميع[٨]؛ وغرضُهم مَنْعُ يعقوبَ من البكاء والحزن شفقةً عليه، وإن كانوا السببَ في ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي﴾ حقيقةُ البَثّ في اللغة: ما يَرِدُ على الإنسانِ من الأشياء المهلكة التي لا يتهيَّأ له أن يُخفيها؛ وهو مِن بثثْتُه، أي: فرَّقتُه، فسمِّيت المصيبةُ بَثًّا مجازاً[٩]. قال ذو الرُّمّة[١٠]:

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٤، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٠١.

(٢) أورده الطبري ١٣/ ٣٠١ ولم ينسبه.

(٣) ديوانه ص٧٧.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٣.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ١٩٧، والأشنان: شجر ينبت في الأرض الرملية، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي. المعجم الوسيط.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٥، والكشاف ٢/ ٣٣٩.

(٧) الصحاح (حرض).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٧٠.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٣.

(١٠) ديوانه ٢/ ٨٢١.

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتي فما زِلْتُ أَبْكي عِنْدَه وأُخَاطِبُهْ
وأَسْقِيه حتى كاد مما أَبثُّهُ تُكَلِّمُني أحجارُهُ ومَلَاعِبُهْ

وقال ابن عباس: «بَثِّي» هَمِّي(١). الحسن: حاجتي(٢). وقيل: أشدُّ الحزنِ(٣)، وحقيقته ما ذكرناه.

﴿وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ عليه، أعادَه بغير لفظه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أنَّ رؤيا يوسفَ صادقةٌ، وأنِّي سأسجد له. قاله ابنُ عباس(٤). قتادة: إني أعلم من إحسانِ الله تعالى إليَّ ما يُوجِب حسن ظنِّي به(٥). وقيل: قال يعقوب لملَك الموت: هل قبضتَ رُوحَ يوسفَ؟ قال: لا، فأكَّد هذا رجاءه(٦). وقال السُّدِّي: أَعلِم أنَّ يوسف حيٌّ، وذلك أنَّه لما أخبره ولدُه بسيرة الملك وعَدْله وخُلُقه وقولِه، أحسَّت نَفْسُ يعقوبَ أنَّه ولدُه، فطمع وقال: لعلَّه يوسف. وقال: لا يكون في الأرض صِدِّيقٌ إلا نَبِيٌّ(٧). وقيل: أعلم مِن إجابة دعاءِ المضطرين ما لا تَعلمون.

**قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا يدلُّ على أنَّه تيقَّن

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٦، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٩ (١١٩٠٣).

(٣) أورده أبو الليث ٢/ ١٧٤ وعزاه إلى القتبي، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٣ وعزاه إلى أبي عبيدة، وهو في مجاز القرآن ص٣١٧.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٧، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٩ (١١٩٠٨).

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٧، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٩ (١١٩٠٦).

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٤، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٥، وزاد المسير ٤/ ٢٧٥ وعزاه ابن الجوزي إلى ابن السائب.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٧.

حياتَه؛ إما بالرؤيا، وإما بإنطاقِ الله تعالى الذئبَ، كما في أوَّل القصَّة، وإما بإخبارِ مَلَكِ الموت إيَّاه بأنَّه لم يَقْبِض رُوحه؛ وهو أظهر.

والتَّحسُّس: طلبُ الشيء بالحواسِّ؛ فهو تفعُّل من الحِسِّ[١]، أي: اذهبوا إلى هذا الذي طَلب منكم أخاكم، واحتالَ عليكم في أَخْذِه، فاسألوا عنه وعن مذهبِه. ويُروى أنَّ مَلَكَ الموتِ قال له: اطْلُبه مِن هاهنا! وأشار إلى ناحيةِ مصر[٢].

وقيل: إنَّ يعقوبَ تنبَّه على يوسفَ بردِّ البضاعة، واحتباسِ أخيه، وإظهارِ الكرامة؛ فلذلك وجَّههم إلى جهةِ مصر دون غيرها[٣].

﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تقنطوا مِن فَرَج الله؛ قاله ابنُ زيد[٤]؛ يريد: أنَّ المؤمنَ يَرجو فَرَجَ الله، والكافر يَقنُط في الشِّدَّة. وقال قَتَادةُ والضَّحَّاك: مِن رحمةِ الله[٥]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ القنوطَ مِن الكبائر، وهو اليأسُ، وسيأتي في «الزُّمَر»[٦] بيانُه إن شاء الله تعالى.

**قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الممتنع. ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ هذه المرَّة الثالثة من عَوْدِهم إلى مصر؛ وفي الكلام حذفٌ، أي: فخرجوا إلى مصرَ، فلما دخلوا على يوسفَ قالوا: «مَسَّنَا» أي: أصابَنا «وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» أي: الجوعُ والحاجةُ. وفي هذا دليلٌ على جواز الشكوى عند الضُّرِّ، أي: الجوع، بل واجبٌ

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣١٤، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٦.

(٢) تفسير الرازي ١٨/ ١٩٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٥.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٣/ ٣١٤ - ٣١٥.

(٦) عند الآية (٥٣).

عليه إذا خاف على نفسِه الضُّرَّ من الفقر وغيرِه أن يُبدِي حالتَه إلى مَن يرجو منه النفعَ، كما هو واجبٌ عليه أن يشكو ما به مِن الألم إلى الطبيب ليعالجَه، ولا يكون ذلك قَدْحاً في التوكُّل، وهذا ما لم يكن التشكِّي على سبيل التَّسخُّط؛ والصبرُ والتَّجلُّد في النّوائب أحسنُ، والتَّعفُّف عن المسألة أفضلُ، وأحسنُ الكلام في الشكوى سؤالُ المولى زوالَ البَلوى؛ وذلك قولُ يعقوبَ: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أي: مِن جميل صُنعه، وغريبِ لُطْفه، وعائدته على عبادِه. فأمَّا الشكوى على غيرِ مُشْكٍ فهو السَّفَه، إلا أن يكون على وَجْهِ البثِّ والتَسلِّي، كما قال ابنُ دُرَيْد:

لَا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنِّي ضارعٌ ... لِنَكْبةٍ تَعْرِقُنِي عَرْقَ الْمُدَى
مَارَسْت مَنْ لَوْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ ... جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
لكنَّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا ... جَاشَ لُغَامٌ مِن نَوَاحِيها عمى[(١)]

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ﴾ البضاعةُ: القِطْعة من المال يُقصَد بها شراءُ شيءٍ[(٢)]؛ تقول: أَبضعتُ الشيءَ، واستبضعتُه، أي: جعلتُه بضاعةً، وفي المَثَل: كمستبضعِ التمرِ إلى هَجَر[(٣)].

قوله تعالى: ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ صفةٌ لبضاعة؛ والإزجاءُ: السَّوْق بدَفع[(٤)]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور:٤٣] والمعنى أنَّها بضاعةٌ تُدفَع؛ ولا يَقبلها كلُّ أحدٍ. قال ثعلب: البضاعةُ المزجاةُ: الناقصةُ غيرُ التَّامَّة.

---

(١) مقصورة ابن دريد ص ٣٩ - ٤٣ بشرح التبريزي، واللُّغام: ما يخرج من فم البعير. وعمى: رمى، يقال: عمى البعيرُ بلعابه: إذا رمى به، ووقع في (م): غما، وكذا في إحدى النسخ الخطية للمقصورة، كما ذكر ذلك محقق شرح المقصورة لابن هشام اللخمي ص٧٧.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٥.

(٣) الصحاح (بضع)، والمثل في المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ٢٣٣.

(٤) الوسيط ٢/ ٦٣٠، والنكت والعيون ٣/ ٧٢.

اختلف في تعيينها هنا؛ فقيل: كانت قَدِيداً وحَيْساً؛ ذكره الواقديُّ عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ.

وقيل: خَلَقُ الغَرَائر والحِبال؛ روي عن ابنِ عباس[١].

وقيل: متاعُ الأعراب صوفٌ وسمنٌ؛ قاله عبدُ الله بنُ الحارث[٢].

وقيل: الحبَّة الخضراء، والصَّنَوبر ـ وهو البُطْم: حبُّ شجرٍ بالشام، يُؤكَل ويُعصَر الزيتُ منه لعمل الصابون ـ قاله أبو صالح[٣]؛ فباعوها بدراهمَ لا تَنفُق في الطعام، وتَنْفُق فيما بين الناس؛ فقالوا: خُذها منا بحسابِ جيادٍ تَنفُق في الطعام.

وقيل: دراهم رديئة؛ قاله ابنُ عباس أيضاً[٤].

وقيل: ليس عليها صورةُ يوسفَ، وكانت دراهمُ مصرَ عليها صورةُ يوسف.

وقال الضَّحَّاك: النعالُ والأدَم. وعنه: كانت سوِيقاً منخلاً[٥]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾.

**فيه أربعُ مسائل:**

**الأولى**: قوله تعالى: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» يريدون كما تبيعُ بالدراهمِ الجياد لا تَنْقُصْنا بمكان دراهمنا؛ هذا قولُ أكثرِ المفسرين.

وقال ابنُ جريج: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» يريدون الكيلَ الذي كان قد كَالَه لأخيهم[٦]. «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» أي: تفضَّل علينا بما بين سِعْرِ الجِياد والرديئة. قاله سعيدُ بنُ جُبير

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٨ ، والغرائر: جمع الغِرارة: وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه. المعجم الوسيط (غرر).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٩ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢٠).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٢٠ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢١).

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٧ - ٣١٨ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢٢).

(٥) عرائس المجالس ص١٣٨ - ١٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٢٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٧٣ .

والسُّدِّيُّ والحسن، لأنَّ الصدقةَ تَحرُم على الأنبياء. وقيل المعنى: «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» بالزيادة على حقِّنا؛ قاله سفيانُ بنُ عُيَيْنة. قال مجاهد: ولم تَحرُم الصدقةُ إلا على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ. وقال ابن جُريج: المعنى «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» بردِّ أخينا إلينا. وقال ابنُ شجرة: «تَصَدَّق عَلَيْنَا» تَجوَّز عنا؛ واستشهد بقولِ الشاعر:

تَصدَّقْ علينا يا ابنَ عَفَّان واحْتَسِبْ وأَمِّـرْ عـلـيـنـا الأشـعـريَّ لَـيَـالِـيَـا[1]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يعني في الآخرة؛ يقال: هذا مِن مَعَاريضِ الكلام؛ لأنَّه لم يكن عندهم أنَّه على دينهم، فلذلك لم يقولوا: إنَّ اللهَ يَجزِيك بصدقتِك، فقالوا لفظاً يُوهمه أنَّهم أرادوه، وهم يصحُّ لهم إخراجُه بالتأويل؛ قاله النقَّاش[2]، وفي الحديث: «إن في المَعَاريض لمندوحةً عن الكذب»[3].

**الثانية**: استدلَّ مالكٌ وغيرُه مِن العلماء على أنَّ أجرةَ الكيَّال على البائع[4]؛ قال ابنُ القاسم وابنُ نافع: قال مالكٌ: قالوا ليوسف: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» فكان يوسفُ هو الذي يَكيل، وكذلك الوزَّان والعدَّاد وغيرهم؛ لأنَّ الرجل إذا باع عِدَّة معلومةً من طعامه، وأوجبَ العقدَ عليه، وجب عليه أن يُبرِزها ويميِّز حقَّ المشتري مِن حقِّه، إلا أنْ يبيعَ منه مُعيَّناً - صُبْرةً أو ما لا حقَّ تَوفيةٍ فيه - فخلَّى ما بينه وبينه، فما جرى على المبيعِ فهو على المبتاع؛ وليس كذلك ما فيه حقُّ تَوفية مِن كيل أو وزن، ألا ترى أنَّه لا يَستحِق البائعُ الثمنَ إلا بعد التوفية، وإن تلف، فهو منه قبلَ التوفية[5].

**الثالثة**: وأما أجرةُ النقد، فعلى البائع أيضاً؛ لأنَّ المبتاعَ الدافعَ لدراهمِه يقول:

---

(١) ذكر الشعر مع ما سبقه من أقوال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٦.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩٦٣، والبيهقي ١٠/ ١٩٩ عن عمران ابن حصين مرفوعاً، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧)، والبيهقي ١٠/ ١٩٩ عن عمران بن حصين موقوفاً، قال البيهقي عقبه: هذا هو الصحيح الموقوف. وينظر كشف الخفاء ١/ ٢٧٠ - ٢٧١.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٧ وللكيا الهراسي ص٢٣٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٦.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٣.

إنَّها طَيِّبة، فأنت الذي تدَّعي الرداءةَ، فانظر لنفسك(١)؛ وأيضاً فإنَّ النفعَ يقع له، فصار الأَجْرُ عليه، وكذلك لا يجب على الذي يجب عليه القصاصُ؛ لأنَّه لا يجب عليه أن يقطعَ يَدَ نفسِه، إلا أن يُمكِّن من ذلك طائعاً؛ ألا ترى أنَّ فرضاً عليه أن يَفدي يدَه، ويُصالِح عليه إذا طَلَب المقتصُّ ذلك منه، فأجْرُ القَطَّاع على المقتصّ. وقال الشافعيُّ في المشهور عنه: إنَّها على المقتصِّ منه، كالبائع(٢).

**الرابعة**: يُكرَه للرجل أن يقول في دعائه: اللهمَّ تصدَّق عليَّ؛ لأنَّ الصدقةَ إنَّما تكون ممن يبتغي الثوابَ، والله تعالى متفضِّل بالثواب بجميعِ النِّعَم لا ربَّ غيرُه؛ وسمع الحسنُ رجلاً يقول: اللهمَّ تصدَّق عليَّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إنَّ اللهَ لا يتصدَّق إنما يتصدَّق مَن يبتغي الثوابَ؛ أما سمعتَ قولَ الله تعالى: «إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» قل: اللهمَّ أعطني وتفضَّلْ عليَّ(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهامٌ بمعنى التذكير والتوبيخ(٤)، وهو الذي قال الله: «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا» الآية. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ دليل على أنَّهم كانوا صغاراً في وقت أَخْذِهم ليوسف، غيرَ أنبياء؛ لأنَّه لا يُوصف

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٣.

(٢) ينظر مغني المحتاج ٢/ ٣٣٧.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٢. وذكر خبر الحسن أيضاً البغوي ٢/ ٤٤٦.

(٤) الوسيط ٢/ ٦٣٠.

بالجهل إلا مَن كانت هذه صفته؛ ويدلُّ على أنَّه حَسُنت حالُهم الآن؛ أي: فعلتم ذلك إذ أنتم صغارٌ جُهَّال؛ قال معناه ابنُ عباس والحسنُ[١]؛ ويكون قولهم: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» على هذا؛ لأنَّهم كَبِروا ولم يُخبِروا أباهم بما فعلوا؛ حياءً وخوفاً منه. وقيل: جاهلون بما تؤولُ إليه العاقبةُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ لما دخلوا عليهِ فقالوا: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» فخضعوا له وتَواضعوا، رقَّ لهم، وعرَّفهم بنفسه، فقال: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ» فتنبهوا فقالوا: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ» قاله ابنُ إسحاق[٢].

وقيل: إنَّ يوسفَ تبسَّم، فشبَّهوه بيوسفَ واستفهموا. قال ابنُ عباس: لما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» الآية، ثم تبسَّم يوسف ـ وكان إذا تبسَّم كأنَّ ثناياه اللؤلؤَ المنظومَ ـ فشبَّهوه بيوسفَ، فقالوا له على جهةِ الاستفهام: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ». وعن ابنِ عباس أيضاً: أنَّ إخوتَه لم يَعرفوه حتى وضَع التاجَ عنه، وكان في قَرْنه علامةٌ، وكان ليعقوبَ مثلُها، شِبْه الشَّامَة، فلمَّا قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» رفَع التاجَ عنه، فعَرفوه، فقالوا: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ»[٣].

وقال ابنُ عباس: كتب يعقوبُ إليه يَطلُب ردَّ ابنِه، وفي الكتاب: مِن يعقوبَ صفيِّ اللهِ ابنِ إسحاق ذبيحِ اللهِ ابنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ إلى عزيزِ مصرَ ـ أمَّا بعد ـ: فإنَّا أهلُ بيتِ بلاءٍ ومِحَنٍ، ابتلى اللهُ جدِّي إبراهيمَ بنمرود ونارِه، ثم ابتلى أبي إسحاقَ بالذَّبْح، ثم ابتلاني بولدٍ كان لي أحبَّ أولادي إليَّ حتى كُفَّ بصري مِن البكاء، وإنِّي لم أَسرق ولم أَلِدْ سارقاً، والسلام. فلما قَرأَ يوسفُ الكتابَ ارتعدت مفاصلُه، واقشعرَّ جِلْدُه، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيلَ صبرُه، فباح بالسِّرِّ[٤].

---

(١) ذكر الخبرين الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٣٠، فقال: روي عن ابن عباس: إذ أنتم صبيان، وعن الحسن: شبان.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٧.

(٤) ذكره البغوي ٢/ ٤٤٥ بنحوه عن عبد الله بن زيد بن أبي فروة، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

وقرأ ابنُ كثِير: «إِنَّكَ» على الخبَر[١]، ويجوز أن تكون هذه القراءةُ استفهاماً كقوله: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ» [الشعراء: ٢٢].

﴿قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ﴾ أي: أنا المظلومُ والمرادُ قَتْلُه، ولم يقل: أنا هو؛ تعظيماً للقصَّة[٢]. ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: بالنجاة والمُلْك.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتَّقِ اللهَ ويَصبِر على المصائب وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الصابرينَ في بلائِه، القائمينَ بطاعتِه.

وقرأ ابنُ كثِير: «إِنَّه مَنْ يَتَّقِي» بإثباتِ الياء[٣]، والقراءةُ بها جائزةٌ على أَنْ تجعلَ «مَنْ» بمعنى الذي، وتدخل «يَتَّقِي» في الصِّلَة، فتُثبت الياءَ لا غير، وتَرفع «ويصبر». وقد يجوز أن تَجزِم «ويصبر»، على أن تَجعلَ «يتقي» في موضعِ جزم، و«مَن» للشرط، وتُثبت الياءَ، وتَجعل علامةَ الجَزْم حذفَ الضَّمَّة التي كانت في الياء على الأصل[٤]، كما قال:

ثم نادِي إذا دَخلتَ دِمَشْقاً يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيدِ[٥]

وقال آخر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِي بما لاقَتْ لَبُونُ بنِي زيادِ[٦]

وقراءةُ الجماعة ظاهرةٌ، والهاء في «إِنَّهُ» كنايةٌ عن الحديث، والجملة الخبر.

---

(١) السبعة ص٣٥١، والتيسير ص١٣٠.

(٢) أي: تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته. الوسيط ٢/ ٦٣١، ونسب هذا القول إلى ابن الأنباري.

(٣) السبعة ص٣٥١، والتيسير ص١٣١.

(٤) ينظر الحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٤٤٨، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٣٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٧.

(٥) نسب قريش للزبيري ص١٣٠، ونسبه إلى موسى شهوات.

(٦) القائل قيس بن زهير، كما في النوادر في اللغة لأبي زيد ص٢٠٣، والأغاني ١٧/ ١٩٨، وهو في الكتاب ٣/ ٣١٦، والمحتسب ١/ ٦٧ دون نسبة، ووقع في الأغاني: ألم يبلغك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الأصل همزتان، خُفِّفت الثانيةُ، ولا يجوز تحقيقُها، واسمُ الفاعل: مُؤْثِر، والمصدر: إيثار. ويقال: أَثَرْتُ الترابَ إثارةً، فأنا مُثِير؛ وهو أيضاً على أَفْعَل، ثم أُعِلَّ، والأصلُ أَثْيَر، نُقلت حركةُ الياء على الثاء، فانقلبت الياءُ ألفاً، ثم حُذفت لالتقاءِ الساكنين. وأَثَرْتُ الحديثَ على فَعَلْتُ، فأنا آثِرٌ[١]. والمعنى: لقد فضَّلك اللهُ علينا، واختاركَ بالعِلْم والحِلْم والحُكم والعقل والمِلك.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾ أي مذنبينَ، مِن خَطِئ يَخْطَأ: إذا أتى الخطيئةَ[٢]، وفي ضمن هذا سؤالُ العَفْو. وقيل لابنِ عباس: كيف قالوا: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» وقد تعمَّدوا لذلك؟ قال: وإن تعمَّدوا لذلك، فما تعمَّدوا حتى أَخطؤوا الحقَّ، وكذلك كلُّ مَن أتى ذنباً تَخطَّى المنهاجَ الذي عليه مِن الحقِّ، حتى يقعَ في الشبهة والمعصية.

قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قال يوسف ـ وكان حليماً موفَّقاً ـ: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» وتمَّ الكلامُ. ومعنى «اليوم»: الوقت. والتثريب: التَّعيير والتوبيخ، أي: لا تعييرَ ولا توبيخَ ولا لَوْمَ عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثوريُّ وغيرُه[٣]؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا زنت أَمَةُ أحدِكم، فليجلِدها الحدَّ، لا يُثرِّب عليها»[٤] أي: لا يعيِّرها، وقال بشر[٥]:

فعَفَوتُ عنهم عَفْوَ غيرِ مُثَرِّبٍ  وتركتهم لعقابِ يومٍ سَرْمَدِ

وقال الأَصمعيُّ: ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنًى، إذا قَبَّحتَ عليه فِعْلَه[٦]. وقال

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٣٠ .

(٤) سلف ٢/ ٤٨٩ .

(٥) هو بشر بن أبي خازم، والبيت في لسان العرب (ثرب)، وقيل: هو لتُبَّع .

(٦) الصحاح (ثرب).

الزجَّاج: المعنى: لا إفسادَ لما بيني وبينكم مِن الحرمة، وحقِّ الأُخوَّة، ولكم عندي العفو والصفحُ؛ وأصلُ التثريبِ: الإفسادُ، وهي لغةُ أهلِ الحجاز[1].

وعن ابنِ عباس أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخَذَ بعُضادَتَي الباب يومَ فَتْحِ مكَّة، وقد لَاذَ الناسُ بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صَدَقَ وَعْدَه، ونصرَ عبدَه، وهزم الأحزابَ وَحْدَه» ثم قال: «ماذا تَظنُّون يا معشرَ قريش؟» قالوا: خيراً، أَخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ، وقد قَدَرتَ. قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسفُ: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» فقال عمرُ ﷺ: ففِضْتُ عَرَقاً مِن الحياء مِن قولِ رسولِ الله ﷺ؛ ذلك أنِّي قد كنتُ قلتُ لهم حين دخلنا مكَّة: اليومَ ننتقمُ منكم ونفعلُ، فلما قال رسولُ الله ﷺ ما قال استحييتُ مِن قولي[2].

﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فعلٌ[3] مستقبلٌ فيه معنى الدُّعاء[4]؛ سأل اللهَ أن يسترَ عليهم ويرحمَهم.

وأجاز الأخفشُ[5] الوقفَ على «عَلَيْكُمُ»، والأوَّل هو المستعمل؛ فإنَّ في الوقف على «عليكم» والابتداء بـ «الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ» جَزْمٌ بالمغفرة في اليوم، وذلك لا يكون إلا عن وَحْيٍ، وهذا بَيِّنٌ.

وقال عطاء الخراسانيُّ: طَلَبُ الحوائج مِن الشباب أَسهلُ منه مِن الشيوخ؛ ألم تَرَ قولَ يوسف: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ» وقال يعقوب: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي»[6].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٧٥.

(٢) نوادر الأصول ص٩٣، وأخرجه بنحوه البيهقي في الدلائل ٥/ ٥٨، وفي السنن الكبرى ٩/ ١١٨ من حديث أبي هريرة ﷺ، دون قول عمر ﷺ.

(٣) ليست في (م).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٩٣.

(٦) عرائس المجالس ص١٤١، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٠٥.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا﴾ نعتٌ للقميص، والقميص مذكَّر، فأما قول الشاعر:

تَدْعو هَوَازِنُ والقَميصُ مُفَاضَةٌ فوق النِّطاقِ تُشَدُّ بالأزرارِ[١]

فتقديره: والقميص دِرْعٌ مُفاضةٌ. قاله النحَّاس[٢].

وقال ابنُ السُّدِّي، عن أبيه، عن مجاهد: قال لهم يوسف: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً» قال: كان يوسفُ أعلمَ بالله مِن أنْ يُعلم أن قميصَه يَرُدُّ على يعقوبَ بصرَه، ولكنَّ ذلك قميصُ إبراهيم الذي ألبسه اللهُ في النار مِن حرير الجنة، وكان كساه إسحاقَ، وكان إسحاق كساه يعقوبَ، وكان يعقوبُ أدرج ذلك القميصَ في قَصَبة مِن فضَّة، وعلَّقه في عُنُقِ يوسف، لِمَا كان يخافُ عليه مِن العين، وأخبره جبريلُ بأنْ أَرسل قميصَك، فإنَّ فيه ريحَ الجنَّة، وإن ريحَ الجنَّة لا يقع على سقيم ولا مُبتلًى إلا عُوفيَ[٣].

وقال الحسن: لولا أنَّ اللهَ تعالى أعلم يوسفَ بذلك، لم يَعلم أنَّه يَرجعُ إليه بصرُه. وكان الذي حمل قميصَه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملتُ إليه قميصَك بدمٍ كَذِبٍ فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسرَّه، وليعودَ إليه بصرُه، فحمَله؛ حكاه السُّدِّيُّ[٤].

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتتخذوا مصرَ داراً. قال مسروق: فكانوا ثلاثةً وتسعينَ، ما بين رجلٍ وامرأةٍ[٥]. وقد قيل: إنَّ القميصَ الذي بعثه هو القميصُ الذي

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤، والبيت لجرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٨٩٧ بلفظ:

تدعو ربيعةُ والقميص مفاضة تحت النجاد تشدُّ بالأزرار

وهو في لسان العرب (قمص) بنحوه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٤.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨.

(٤) عرائس المجالس ص١٤٠، والنكت والعيون ٣/ ٧٦.

(٥) الوسيط ٢/ ٦٣٢، والنكت والعيون ٣/ ٧٦، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٠٧.

قُدَّ مِن دُبُرِه[١]؛ ليعلمَ يعقوبُ أنه عُصِمَ من الزنى؛ والقول الأوَّل أصحُّ، وقد روي مرفوعاً مِن حديث أنسٍ عن النبيِّ ﷺ؛ ذكره القُشيريُّ، والله أعلم.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: خرجت منطلقةً مِن مصرَ إلى الشام[٢]، يقال: فَصَلَ فُصولاً، وفَصَلْته فَصْلاً، فهو لازمٍ ومتعدٍّ[٣]. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي: قال لمن حضَر مِن قرابته ممَّن لم يَخرج إلى مصرَ وهم ولدُ ولدِه[٤]: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. وقد يَحتمِل أن يكون خرج بعضُ بَنِيْه، فقال لمن بقيَ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[٥]. قال ابنُ عباس: هاجتْ ريحٌ فحمَلت ريحَ قميصِ يوسف إليه، وبينهما مسيرةُ ثمانِ ليالٍ[٦]. وقال الحسنُ: مسيرة عَشْر ليالٍ[٧]؛ وعنه أيضاً: مَسيرة شَهر[٨]. وقال مالكُ بنُ أنسٍ ﷺ: إنَّما أَوصل ريحَه من أوصل عَرْشَ بِلقيس قَبْلَ

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٧٦.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٧٦.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٧.

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩.

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٣، وفي تاريخه ١/ ٣٦٠، وابن أبي حاتم (١١٩٦١).

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٣، وفي تاريخه ١/ ٣٦٠.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩.

أن يرتدَّ إلى سليمانَ عليه السلام طَرْفُه[١]. وقال مجاهدٌ: هبَّت ريحٌ فصَفَقَت القميصَ، فراحت روائحُ الجنة في الدنيا واتَّصلت بيعقوبَ، فوجدَ ريحَ الجنَّة، فعلم أنَّه ليس في الدنيا من ريح الجنَّة إلا ما كان مِن ذلك القميص، فعند ذلك قال: «إِنِّي لَأَجِدُ»[٢] أي: أَشَمُّ؛ فهو وجود بحاسَّة الشَّمِّ[٣].

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابنُ عباس ومجاهد: لولا أن تُسفِّهون[٤]؛ ومنه قول النابغة[٥]:

إلَّا سُليمانَ إذ قال المليكُ لَهُ ... قُمْ في البرِيَّة فاحْدُدْها عنِ الفَنَدِ

أي: عن السَّفَه.

وقال سعيد بنُ جُبير والضَّحَّاك: لولا أن تكذِّبون[٦]. والفَنَد: الكذب. وقد أَفْنَد إِفْناداً: كَذَب[٧]؛ ومنه قولُ الشاعر:

هل في افتخار الكريم مِن أَوَدِ ... أَمْ هل لقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ[٨]

أي: مِن كذب.

وقيل: لولا أن تُقبِّحون؛ قاله أبو عمرو؛ والتَّفنيدُ: التقبيح، قال الشاعر:

يا صاحبيَّ دعا لومِي وتَفْنِيدِي ... فليس ما فاتَ مِن أمري بمردودِ[٩]

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) عرائس المجالس ص١٤٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٨.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٨.

(٤) أخرجه عن ابن عباس عبد الرزاق ١/ ٣٢٩، والطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٨، وعن مجاهد الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٧.

(٥) ديوانه ص٣٣.

(٦) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٧) الصحاح (فند).

(٨) هكذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٧ ولم ينسبه.

(٩) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ١/ ٥٤٣، ونسبه في مجاز القرآن لأبي عبيدة ص١/ ٣١٨ إلى =

وقال ابنُ الأعرابي: «لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» لولا أن تُضعِّفوا رَأْيي؛ وقاله ابنُ إسحاق. والفَنَد: ضَعْفُ الرأي من كِبرٍ[١].

وقولٌ رابع: تُضلِّلون، قاله أبو عبيدة[٢].

وقال الأخفشُ: تَلوموني. والتفنيدُ: اللَّوم وتَضعيف الرأي[٣].

وقال الحسن وقَتادة ومجاهد أيضاً: تُهرِّمون[٤]، وكلُّه متقاربُ المعنى، وهو راجعٌ إلى التعجيز وتضعيفِ الرأي.

يقال: فَنَّده تفنيداً: إذا أعجزه، كما قال:

أهـلـكـنـي بـالـلـوم والـتـفـنِـيـد[٥]

ويقال: أفند: إذا تكلم بالخطأ؛ والفَنَد: الخطأُ في الكلام والرأي، كما قال النابغة:

فـاحـدُدْهـا عـن الـفَـنَـدِ[٦]

أي: امنعها عن الفساد في العقل، ومن ذلك قيل: اللومُ تفنيدٌ؛ قال الشاعر:

يـا عـاذلـيَّ دَعَـا الـمَـلَامَ وأَقْـصِـرَا طـالَ الـهَـوَى وأطـلـتـمـا الـتَّـفْـنِـيـدا[٧]

= هانئ بن شكيم العدوي، وأورده الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٦، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٧ ولم ينسباه.

(١) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ١٣٨، والنكت والعيون ٣/ ٧٧.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨، وجاء في مجاز القرآن ص١/ ٣١٨: تسفِّهوني، وتُعجِّزوني، وتلوموني.

(٣) الصحاح (فند).

(٤) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٠ - ٣٤١، وعن مجاهد ابن أبي حاتم (١١٩٦٨).

(٥) رجز لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٣، وبعده:

هـل بـيـنـنـا لـلـوصـل مـن مـردود

(٦) سلف قريباً، وينظر جمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٢٩٠، ومعجم متن اللغة ٤/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٧) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٧، والكلام السابق من معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩.

ويقال: أَفْنَد فلاناً الدهرُ: إذا أَفسدَه؛ ومنه قولُ ابنِ مُقْبِل:

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ ما أرادَ فإنَّهُ ... إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناسِ أَفْنَدَا[١]

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: لفي ذهاب عن طريقِ الصواب. وقال ابنُ عباس وابنُ زيد: لفي خَطَئِك الماضي مِن حبِّ يوسفَ لا تنساه[٢]. وقال سعيد بن جُبير: لفي جنونِك القديم. قال الحسن: وهذا عقوقٌ[٣]. وقال قَتادة وسفيان: لفي محبَّتك القديمة[٤]. وقيل: إنَّما قالوا هذا؛ لأنَّ يوسفَ عندهم كان قد مات[٥]. وقيل: إن الذي قال له ذلك مَن بقيَ معه مِن ولده، ولم يكن عندهم الخبر[٦]. وقيل: قال له ذلك مَن كان معه مِن أهله وقرابتِه. وقيل: بنو بَنِيْه، وكانوا صغاراً[٧] فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: على عينيه ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ «أنْ» زائدة[٨]، والبشير، قيل: هو شمعون[٩]. وقيل: يَهوذا قال: أنا أذهبُ بالقميص اليومَ كما ذهبت به مُلَطَّخاً بالدَّم؛ قاله ابنُ عباس[١٠]. وعن السُّدِّي أنَّه قال

---

(١) ديوان ابن مقبل ص٦٠، والبيت فيه هكذا:

دَعَا الدهر يفعل ما أراد فإنه ... إذا كُلِّف الإفساد بالناس أفسدا

والكلام السابق في تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٦.

(٢) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣، وأخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٩٨ (١١٩٧٠).

(٣) أخرجه عنهما ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٨ (١١٩٧١) و(١١٩٧٢).

(٤) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٢، وأخرجه عن قتادة ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٨ - ٢١٩٩ (١١٩٧٣)، والكلام السابق من النكت والعيون ٣/ ٧٨.

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٣، وعزاه إلى الحسن، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٦.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٧٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٥.

(٩) النكت والعيون ٣/ ٧٨، وزاد المسير ٤/ ٢٨٦ ونسباه إلى الضحاك.

(١٠) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩، وزاد المسير ٤/ ٢٨٦.

لإخوتِه: قد عَلمتم أنّي ذهبت إليه بقميصِ التَّرْحة، فدعوني أذهب إليه بقميصِ الفَرْحة[١]. وقال يحيى بنُ يمان عن سفيان: لما جاء البشيرُ إلى يعقوبَ قال له: على أيِّ دِينٍ تركتَ يوسفَ؟ قال: على الإسلام؛ قال: الآن تمَّت النعمةُ[٢]. وقال الحسن: لما ورد البشيرُ على يعقوبَ لم يجد عنده شيئاً يُثِيْبه به؛ فقال: واللهِ ما أصبتُ عندنا شيئاً، وما خبزنا شيئاً منذ سَبْع ليالٍ، ولكن هوَّن اللهُ عليك سكراتِ الموت[٣].

قلت: وهذا الدعاءُ مِن أعظم ما يكون مِن الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلَّت هذه الآيةُ على جواز البذل والهِبات عند البشائر. وفي الباب حديثُ كعب بنِ مالك ـ الطويل ـ وفيه: فلما جاءني الذي سمعت صوتَه يبشِّرني، نزعت ثوبيَّ فكسوتُهما إيَّاه ببشارته، وذكر الحديث، وقد تقدَّم بكماله في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا[٤]، وكسوةُ كعبٍ ثوبَيْه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليلٌ على جواز مثلِ ذلك إذا ارتجى حصولَ ما يستبشر به، وهو دليل على جواز إظهارِ الفرح بعد زوال الغمِّ والتَّرَح. ومن هذا الباب جواز حذَاقة الصبيانِ[٥]، وإطعامِ الطعامِ فيها، وقد نَحَرَ عمرُ بعد حفظه سورةَ «البقرة» جَزُوراً[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكَّرهم قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٥، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٦ (١١٩٥٥).

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٣٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٩٩ (١١٩٧٩) عن لقمان الحنفي.

(٤) ١٠/ ٤١٣.

(٥) في النسخ الخطية: حذاق الصبيان، والمثبت من (م). وحَذَق الصبيُّ القرآنَ والعملَ، يَحْذِق حَذْقاً وحَذَاقة وحِذاقاً: إذا مَهَرَ فيه. ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن: هذا يوم حِذاقه. الصحاح (حذق)، ونقل ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٢٤١ عن ابن الصباغ في كتابه «الشامل» قوله: الحِذاق: الطعام الذي يتخذ عند حذق الصبي، وعن ابن الرفعة: هو الذي يصنع عند الختم، أي: ختم القرآن. اهـ

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٣١، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٤/ ٢٨٦.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ في الكلام حذفٌ، التقدير: فلما رَجَعوا مِن مصرَ قالوا: يا أبانا؛ وهذا يدلُّ على أنَّ الذي قال له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ بَنُو بَنِيْه أو غيرُهم مِن قرابتِه وأهلِه لا ولدُه؛ فإنَّهم كانوا غُيَّباً، وكان يكون ذلك زيادةً في العقوقِ. والله أعلم.

وإنَّما سألوه المغفرةَ؛ لأنَّهم أدخلوا عليه من أَلَم الحُزن ما لم يَسقط المأثمُ عنه إلا بإحلالِه[١].

قلت: وهذا الحكم ثابتٌ فيمن آذى مسلماً في نفسِه أو مالِه أو غيرِ ذلك، ظالماً له فإنَّه يَجب عليه أن يَتَحَلَّل له، ويُخبِره بالمَظْلِمة وقَدْرِها، وهل ينفعه التَّحليلُ المطلَق أم لا؟ فيه خلافٌ، والصحيحُ أنَّه لا يَنفع؛ فإنَّه لو أَخبره بمظلِمةٍ لها قَدْرٌ وبَالٌ ربَّما لم تَطِبْ نفسُ المظلوم في التَّحلُّل منها. والله أعلم.

وفي «صحيح البخاريِّ» وغيرِه عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن كانت له مَظْلِمَةٌ لأخيه مِن عِرْضِه أو شيءٍ، فَلْيَتحلَّلهُ منه اليوم قَبْلَ ألَّا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ، إن كان له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقَدْر مَظلِمته، وإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذَ مِن سيئات صاحبِه فحُمِل عليه»[٢] قال المهلَّب فقوله ﷺ: «أُخذ منه بقَدْر مَظْلِمته» يجب أن تكون المظلمةُ معلومةَ القَدْر، مشاراً إليها مبيَّنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ قال ابنُ عباس: أَخَّرَ دعاءَه إلى السَّحَر[٣]. وقال المُثَنَّى بنُ الصَّبَّاح عن طاوس قال: سَحَر ليلةِ الجمعةِ، ووافَق ذلك ليلةَ عاشوراء[٤]. وفي دعاء الحِفظِ ـ من كتاب الترمذيِّ ـ عن ابنِ عباس أنَّه قال: بينما نحن عند رسولِ الله ﷺ إذ جاءه عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ فقال: بأبي أنت وأمِّي،

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٧٩.

(٢) صحيح البخاري (٢٤٤٩)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٤١٩) بنحوه.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٥، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٤، وزاد المسير ٤/ ٢٨٧.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩، وزاد المسير ٤/ ٢٨٧، وينظر عرائس المجالس للثعلبي ص١٤١.

تَفَلَّتَ هذا القرآنُ مِن صدرِي، فما أَجِدُني أَقدِرُ عليه، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أفلا أُعلِّمك كلماتٍ يَنفعُكَ اللهُ بهنَّ، ويَنفعْ بهنَّ مَن عَلَّمته، ويُثَبِّتْ ما تَعلَّمتَ في صدرك» قال: أجل يا رسولَ الله، فَعلِّمني، قال: «إذا كان ليلةُ الجمعة، فإنِ استطعتَ أن تقومَ في ثلث الليلِ الآخِرِ فإنَّها ساعةٌ مشهودةٌ، والدعاءُ فيها مستجابٌ، وقد قال أخي يعقوب لبَنِيْه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ يقول: حتى تأتي ليلةُ الجمعة»[1] وذكر الحديث.

وقال أيوبُ بنُ أبي تَمِيمةَ السَّخْتِيَاني، عن سعيدِ بنِ جُبير، قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ في الليالِي البيض، في الثالثة عَشْرة، والرابعة عَشْرة، والخامسة عَشْرة، فإنَّ الدعاءَ فيها مستجابٌ[2]. وعن عامر الشَّعبيِّ قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ أي: أسألُ يوسفَ إن عفا عنكم استغفرتُ لكم ربي[3].

وذكر سُنَيد بنُ داود قال: حدَّثنا هُشيمٌ، قال: حدَّثنا عبدُ الرحمن بنُ إسحاق، عن محاربِ بنِ دِثَار، عن عَمِّه قال: كنت آتي المسجد في السَّحَر، فأَمُرُّ بدارِ ابنِ مسعودٍ فأَسمعه يقول: اللهمَّ إنَّك أمرتَني فأَطعتُ، ودعوتَني فأجبتُ، وهذا سَحَرٌ، فاغفِرْ لي، فلقيتُ ابنَ مسعودٍ فقلت: كلماتٍ أَسمعكَ تقولهنَّ في السَّحر؟ فقال: إنَّ يعقوبَ أَخَّرَ بَنِيْه إلى السَّحَر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: قَصْراً كان له هناك ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قيل: إنَّ يوسفَ بعثَ مع البشير مئتي راحلةٍ وجَهازاً، وسأل يعقوبَ أن يأتيه

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٧٠).

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩ .

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير ٥/ ٤١٠ (١١٤٤)، والطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٧ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٠ (١١٩٨٣)، والطبراني في الكبير ٩/ ١٠٤ (٨٥٤٨) من طرق، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن عمِّه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٥٥ : وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي، وهو ضعيف.

بأهلِه وولدِه جميعاً، فلما دخلوا عليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: ضَمَّ، ويعني بأبويه أباه وخالتَه، وكانت أمُّه قد ماتت في ولادةِ أخيه بنيامين[١]. وقيل: أحيا الله له أمَّه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدتْ له، قاله الحسنُ[٢]، وقد تقدَّم في «البقرة» أنَّ اللهَ تعالى أَحيا لنبيِّه عليه الصلاةالسلام أباه وأمَّه، فآمنا به[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ قال ابنُ جريج: أي: سوف أستغفرُ لكم ربِّي إنْ شاء الله، قال: وهذا مِن تقديمِ القرآن وتأخيرِه[٤]. قال النحَّاس[٥]: يَذهبُ ابنُ جُريج إلى أنَّهم قد دخلوا مصرَ، فكيف يقول: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾. وقيل: إنَّما قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تبرُّكاً وجزْماً. ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن القَحْطِ، أو مِن فرعونَ، وكانوا لا يَدخلونها إلا بجوازِه[٦].

**قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾**

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال قَتادة: يريد السَّرير[٧]، وقد تقدَّمت

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٢ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٠ - ٢٢٠١ (١١٩٨٦) ونسباه إلى السدي، وينظر زاد المسير ٤/ ٢٨٨ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٠ . والأظهر أن المراد بأبويه: أبوه وأمه، بحسب اللفظ، إلا إذا ثبت بسند أن أمه ماتت. المحرر الوجيز ٣/ ٢٨١ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٠ قال الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٥٧ : والظاهر أنه لم يثبت، ولو ثبت مثله لاشتهر.

(٣) ٢/ ٣٤٤ . وهذا حديث كذب، فيما نقلناه عن الذهبي ثمة.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥١ ، وينظر كلام الطبري حول هذا المعنى.

(٥) معاني القرآن ٣/ ٤٥٦ .

(٦) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٢٨٩ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١١ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٦ .

محَامله(١)، وقد يُعبَّر بالعرش عن المُلْكِ والمَلِك نفسِه، ومنه قولُ النابغة الذُّبْيَانيِّ:

عُـروشٌ تَـفـانَـوْا بـعـد عِـزٍّ وأَمْـنـةٍ(٢)

وقد تقدَّم(٣).

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾

**فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ الهاء في «خَرُّوا لَهُ» قيل: إنَّها تَعودُ على اللهِ تعالى، المعنى: وخَرُّوا شكراً لله سُجَّداً، ويوسف كالقِبْلة، لتحقيقِ رؤياه، ورُوي عن الحسن(٤)، قال النَّقاش: وهذا خطأ، والهاء راجعةٌ إلى يوسف، لقوله تعالى في أوّل السورة: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾. وكان تحيَّتُهم أن يسجدَ الوضِيْعُ للشريف(٥)، والصغيرُ للكبير؛ سجد يعقوبُ وخالتُه وإخوتُه ليوسف عليه السلام، فاقشعرَّ جِلْدُه وقال: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾(٦).

وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرونَ سنةً(٧). وقال سلمانُ الفارسيُّ وعبدُ الله بنُ شَدَّاد: أربعونَ سنةً(٨)؛ قال عبدُ الله بنُ شَدَّاد: وذلك آخِرُ ما تُبطئ

---

(١) ٩/ ٢٤٠.

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وأورده القرطبي في الأسنى ص١٨٦ ولم ينسبه، وتمامه:

هـووا بـعـدمـا رامـوا الـسـلامـة والـبـقـاء

(٣) لم يتقدم، بل الوارد سابقاً ٩/ ٢٤٠ قول زهير:

تـداركـتـمـا عـبـسـاً وقـد ثُـلَّ عـرشـهـا ... وذبـيـان إذ زلَّـت بـأقـدامـهـا الـنـعـل

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨١، وزاد المسير ٤/ ٢٩٠.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٧.

(٦) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢١٣ - ٢١٤.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٧، وزاد المسير ٤/ ٢٩٠، ونسباه إلى ابن عباس.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ١٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩ عنهما، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الرؤيا[١]. وقال قَتَادة: خمسٌ وثلاثون سنةً[٢]. وقال السُّدِّيُّ وسعيدُ بنُ جُبير وعِكرمةُ: ستٌّ وثلاثون سنةً[٣]. وقال الحسن وجَسْر بنُ فَرْقَد وفُضَيلُ بنُ عِيَاض: ثمانون سنةً[٤].

وقال وهب بنُ مُنَبِّه: أُلقيَ يوسفُ في الجُبِّ وهو ابنُ سبعَ عَشْرةَ سنةً، وغاب عن أبيه ثمانينَ سنةً، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثاً وعشرينَ سنةً، ومات وهو ابنُ مئة وعشرينَ سنةً. وفي التوراة مئةٌ وستٌّ وعشرون سنةً. وولد ليوسفَ مِن امرأةِ العزيز: إفراييم، ومنشا، ورحمة امرأة أيوب[٥]. وبين يوسف وموسى أربعُ مئةِ سنةٍ[٦].

وقيل: إنَّ يعقوبَ بَقيَ عند يوسفَ عشرينَ سنةً، ثم توفِّي ﷺ. وقيل: أقام عنده ثماني عَشْرة سنةً[٧]. وقال بعضُ المحدِّثين: بضعاً وأربعينَ سنةً. وكان بين يعقوبَ ويوسفَ ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً حتى جمعَهم اللهُ. وقال ابنُ إسحاق: ثماني عَشْرة سنةً، والله أعلم[٨].

**الثانية**: قال سعيدُ بنُ جُبير، عن قَتَادة، عن الحسن، في قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ قال: لم يكن سجوداً، لكنَّه سُنَّة كانت فيهم، يُؤمِئون برؤوسهم إيماءً، كذلك كانت تحيَّتهم[٩]. وقال الثَّوريُّ والضَّحَّاك وغيرُهما: كان سجوداً كالسجود المعهودِ عندنا، وهو كان تحيَّتهم. وقيل: كان انحناءً كالركوع، ولم يكن خُروراً على الأرض، وهكذا

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٩).

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ ، وأخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١ ولكن عزاه إلى الحسن، وفيه وفي المعارف لابن قتيبة ص٤١ أن في التوراة أنه عاش مئة وعشر سنين.

(٦) المعارف لابن قتيبة ص٤١ .

(٧) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٧٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥١ .

(٨) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦١ .

(٩) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨١ .

كان سلامُهم بالتَّكفِّي والانحناء، وقد نسَخ اللهُ ذلك كلَّه في شرعِنا، وجعَل الكلامَ بدلاً عن الانحناء.

وأَجمع المفسِّرون أنَّ ذلك السجود على أيِّ وجهٍ كان، فإنَّما كان تحيةً لا عبادةً. قال قَتَادة: هذه كانت تحيَّةَ الملوك عندهم، وأعطى اللهُ هذه الأمَّةَ السلامَ تحيَّةَ أهلِ الجنة[١].

قلت: هذا الانحناء والتَّكفِّي الذي نُسِخَ عنَّا، قد صار عادةً بالديار المصريَّة، وعند العَجَم، وكذلك قيامُ بعضِهم إلى بعض، حتى إنَّ أحدَهم إذا لم يُقَمْ له، وَجَدَ في نفسِه كأنَّه لا يُؤبَهُ به، وأنَّه لا قَدْرَ له، وكذلك إذا التقَوا، انحنى بعضُهم لبعض، عادةٌ مستمرَّة، ووراثةٌ مستقِرَّة، لا سيما عند التقاءِ الأُمراء والرؤساء. نَكَبوا عن السُّنَنِ، وأَعرضوا عن السُّنَن. وروى أنسُ بنُ مالكٍ قال: قلنا يا رسول الله، أينحني بعضُنا إلى بعضٍ إذا التقينا؟ قال: «لا»، قلنا: أَفيعتَنِقُ بعضُنا بعضاً؟ قال: «لا»، قلنا: أفيصافح بعضُنا بعضاً؟ قال: «نعم». خرَّجه أبو عمر في «التمهيد»[٢].

فإن قيل: فقد قال رسولُ الله ﷺ: «قوموا إلى سيِّدِكم وخَيْرِكم»[٣] - يعني: سعدَ ابنَ معاذٍ - قلنا: ذلك مخصوصٌ بسعدٍ؛ لما تقتضيه الحالُ المعيَّنة. وقد قيل: إنَّما كان قيامُهم لينزلوه عن الحمار. وأيضاً فإنَّه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثِّر ذلك في نفسِه، فإن أثَّر فيه، وأُعجب به، ورأى لنفسه حظًّا، لم يَجُزْ عَوْنه على ذلك؛ لقوله ﷺ: «مَن سرَّه أن يتمثَّل له الناسُ قياماً، فليتبوَّأ مقعدَه مِن النار»[٤]. وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنَّه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم مِن وَجْهِ رسولِ الله ﷺ، وما كانوا يقومون له إذا رَأَوْه؛ لما يعرفونَ مِن كراهتِه لذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٥، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٦).

(٢) ٢١/ ١٥، وأخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٠٠.

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٠٩٧) من حديث عائشة، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

الثالثة: فإن قيل: فما تقولُ في الإشارة بالإصبع؟ قيل له: ذلك جائزٌ إذا بَعُدَ عنك؛ لتعيِّن له به وقتَ السلام، فإن كان دانياً، فلا[١]. وقد قيل بالمنْع في القُرب والبعد؛ لما جاء عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «من تَشبَّه بغيرنا، فليس منا». وقال: «لا تُسلِّموا تسليمَ اليهودِ والنصارى، فإنَّ تسليمَ اليهود بالأكُفّ، والنَّصارى بالإشارة»[٢].

وإذا سَلَّم فإنَّه لا يَنحني، ولا أن يُقبِّلَ مع السَّلام يدَه، ولأنَّ الانحناءَ على معنى التواضع لا ينبغي إلا للهِ.

وأما تقبيلُ اليدِ فإنَّه مِن فِعْل الأعاجم، ولا يُتَّبعون على أفعالهم التي أحدثوها؛ تعظيماً منهم لِكُبَرائهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «لا تقوموا عند رأسي، كما تقوم الأعاجمُ عند رؤوس أكاسرتها»[٣] فهذا مثلُه.

ولا بأسَ بالمصافحة؛ فقد صافح النبيُّ ﷺ جعفرَ بنَ أبي طالب حين قَدِمَ من الحبشة، وأَمَرَ بها، ونَدَبَ إليها[٤]، وقال: «تصافحوا يذهبِ الغِلُّ»[٥] وروى غالب التَّمَّار عن الشَّعبيِّ أنَّ أصحابَ النبيِّ ﷺ كانوا إذا التقَوا تَصافحوا، وإذا قَدِموا مِن سفرٍ، تَعانقوا[٦].

فإن قيل: فقد كَرِه مالكٌ المصافحةَ؟ قلنا[٧]: روى ابنُ وهبٍ عن مالكٍ أنَّه كَرِهَ المصافحةَ والمعانقةَ، وذهب إلى هذا سُحْنون وغيرُه مِن أصحابنا. وقد روي عن

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٥ . والكلام منه: فلا بأس بالمصافحة. وسيذكر المصنف المصافحة فيما يأتي.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٩٥) والنسائي في الكبرى (١٠١٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩١١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الترمذي: هذا حديث إسناده ضعيف. اهـ

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، وابن ماجه (٣٨٣٦) عن أبي أمامة ﷺ بنحوه.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٥ ، والحديث أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٨ عن عطاء مرسلاً.

(٦) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ .

(٧) القائل ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٧ .

مالكٍ خلافُ ذلك مِن جوازِ المصافحة، وهو الذي يدلُّ عليه معنى ما في «الموطأ»، وعلى جواز المصافحةِ جماعةُ العلماء مِن السَّلَف والخَلَف.

قال ابن العربي[١]: إنَّما كَرِهَ مالكٌ المصافحةَ؛ لأنَّه لم يَرَها أمراً عامًّا في الدِّين، ولا منقولاً نَقْلَ السلام، ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت: قد جاء في المصافحةِ حديثٌ يدلُّ على الترغيب فيها، والدَّأب عليها والمحافظة، وهو ما رواه البَرَاءُ بنُ عازب قال: لقيتُ رسولَ الله ﷺ، فأخذ بيدي فقلت: يا رسولَ الله، إن كنتُ لأحسب أنَّ المصافحةَ للأعاجم؟ فقال: «نحن أحقُّ بالمصافحة منهم، ما من مسلمَين يلتقيان فيأخذ أحدُهما بيدِ صاحبِه مودةً بينهما ونصيحةً، إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل: من الجُبِّ؛ استعمالاً للكَرَم؛ لئلا يُذكِّر إخوتَه صنيعَهم بعد عَفْوه عنهم بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[٣] [يوسف: ٩٢].

قلت: وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذِكْرُ الجَفَا في وقتِ الصَّفَا جَفَا[٤]، وهو قولٌ صحيحٌ دَلَّ عليه الكتاب.

وقيل: لأنَّ في دخوله السجنَ كان باختياره بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وكان في الجبِّ بإرادة الله تعالى له. وقيل: لأنَّه كان في السجن مع اللصوص والعُصَاة، وفي الجبِّ مع الله تعالى؛ وأيضاً فإن المِنَّة في النَّجاة مِن السِّجن كانت أكبرَ؛ لأنَّه دخلَه بسبب أَمْرٍ هَمَّ به، وأيضاً دخلَه باختياره إذ قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ فكان الكَرْبُ فيه أكثرَ، وقال فيه أيضاً: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٣ .

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٩١ .

(٤) هذا من كلام الجنيد للسَّرِيِّ السَّقَطي، وهو في الرسالة القشيرية ٢/ ١١٨ .

[يوسف: ٤٢] فعُوقبَ فيه[١].

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ يُروى أنَّ مسكنَ يعقوبَ كان بأرضِ كنعان، وكانوا أهلَ مواشٍ وبَرِيَّة[٢]. وقيل: كان يعقوبُ تحوَّل إلى بادية وسَكَنها، وأنَّ اللهَ لم يبعث نبيًّا مِن أهل البادية. وقيل: إنَّه كان خرج إلى بَدَا، وهو موضعٌ؛ وإياه عنى جَمِيلٌ بقوله:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْباً إلى بَدَا  إليَّ وأوطانِي بلادٌ سِواهُما[٣]

وليعقوبَ بهذا الموضع مسجدٌ تحت جبل. يقال: بَدَا القومُ بَدْواً: إذا أَتَوا بَدَا، كما يقال: غَاروا غَوْراً، أي: أَتَوا الغَوْر، والمعنى: وجاء بكم مِن مكان بَدَا؛ ذكره القشيريُّ، وحكاه الماوَرْديُّ عن الضَّحَّاك عن ابنِ عباس[٤].

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله ابنُ عباس[٥]. وقيل: أفسد ما بيني وبين إخوتي[٦]؛ أَحال ذَنْبهم على الشيطان؛ تكرُّماً منه.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي: رفيقٌ بعباده. وقال الخَطَّابيُّ: اللطيفُ هو البَرُّ بعبادِه، الذي يَلْطُف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبِّب لهم مصالحَهم من حيث لا يَحتسبون؛ كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ [الشورى: ١٩]. وقيل: اللطيفُ: العالِم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرامُ والرِّفق.

قال قتادة: لطف بيوسفَ بإخراجه من السجن، وجاءَه بأهله من البَدْو، ونزعَ عن قلبِه نَزْغَ الشيطانِ[٧].

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٨٣، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥١، وزاد المسير ٤/ ٢٩١.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٦ ونسبه إلى قتادة، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٢.

(٣) ديوان جميل ص٢٠٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٤، وينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢١٥.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٨٤.

(٦) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ١/ ٣١٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٦٣.

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٤، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٣ (١٢٠٠٣).

ويُروى أنَّ يعقوبَ لما قَدِمَ بأهله وولدِه، وشَارَفَ أرضَ مصر، وبلَغ ذلك يوسف، استأذن فرعونَ ـ واسمه الرَّيَّان ـ أن يأذنَ له في تَلقِّي أبيه يعقوبَ، وأخبره بقدومِه، فأذن له، وأمر الملأ مِن أصحابه بالركوب معه، فخرج يوسفُ والمِلِكُ معه في أربعةِ آلافٍ من الأمراء مع كلِّ أميرٍ خَلْقٌ اللهُ أعلم بهم، وركب أهلُ مصرَ معهم يتلقَّون يعقوبَ، فكان يعقوبُ يمشي متكئاً على يدِ يهوذا، فنظر يعقوبُ إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا، هذا فرعونُ مصرَ؟ قال: لا، بل هذا ابنُك يوسف، فلما دنا كلٌّ واحد منهما من صاحبِه، ذهب يوسفُ ليبدأه بالسلام، فمُنع من ذلك، وكان يعقوبُ أحقَّ بذلك منه وأفضلَ، فابتدأ يعقوبُ بالسلام، فقال: السلامُ عليك يا مُذْهِب الأحزان(١)، وبكى وبكى معه يوسفُ، فبكى يعقوبُ فرحاً، وبكى يوسفُ، لِما رأى بأبيه من الحزن. قال ابنُ عباس(٢): فالبكاء أربعةٌ، بكاءٌ من الخوف، وبكاءٌ من الجَزَع، وبكاء من الفَرَح، وبكاءُ رِياءٍ. ثم قال يعقوبُ: الحمد لله الذي أقرَّ عيني بعد الهمومِ والأحزان.

ودخل مصرَ في اثنينِ وثمانينَ من أهل بيته، فلم يَخرجوا من مصرَ حتى بلغوا ستَّ مئةِ ألفٍ ونيفِ ألفٍ، وقطعوا البحرَ مع موسى عليه السلام، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عباس(٣). وحكى ابنُ مسعود أنَّهم دخلوا مصرَ وهم ثلاثة وتسعونَ إنساناً ما بين رجلٍ وامرأةٍ، وخرجوا مع موسى وهم ستُّ مئة ألف وسبعون ألفاً(٤). وقال الربيعُ بنُ خثيم: دخلوها وهم اثنانِ وسبعون ألفاً، وخرجوا مع موسى وهم ستُّ مئةِ ألفٍ.

وقال وهبُ بنُ منبِّه: دخل يعقوبُ وولدُه مصر وهم تسعون إنساناً ما بين رجلٍ

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٠، وتاريخ الطبري ١/ ٣٦٢، وعرائس المجالس ص١٤١ - ١٤٢، والنكت والعيون ٣/ ٨١.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٢، وأخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٣ بنحوه، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٦، وفيه أنهم كانوا حين دخولهم ثلاثة وسبعين إنساناً.

وامرأةٍ وصغيرٍ، وخرجوا منها مع موسى فِراراً من فرعون وهم ستُّ مئةِ ألفٍ وخمسُ مئةٍ وبضعٌ وسبعونَ رجلاً مقاتلين، سوى الذُّرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذُّرِّية ألفَ ألفٍ ومئتي ألفٍ سوى المقاتلة[1].

وقال أهلُ التواريخ: أقام يعقوبُ بمصر أربعاً وعشرين سنةً في أغبط حالٍ ونعمةٍ، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنِه يوسفَ أن يَحمل جسدَه حتى يدفنَه عند أبيه إسحاق بالشام، ففعل، ثم انصرفَ إلى مصر[2]. قال سعيدُ بنُ جُبير: نُقل يعقوبُ ﷺ في تابوت من ساجٍ إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يومَ مات عِيصُو، فدُفنا في قبر واحد؛ فمن ثَمَّ تَنقُل اليهودُ موتاهم إلى بيتِ المقدس، مَن فَعَل ذلك منهم؛ ووُلد يعقوب وعِيصُو في بطنٍ واحد، ودُفنا في قبر واحد، وكان عمرُهما جميعاً مئةً وسبعاً وأربعينَ سنةً[3].

**قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال قَتادة: لم يَتمنَّ الموتَ أحدٌ، نبيٌّ ولا غيره إلَّا يوسف عليه السلام؛ حينَ تكاملتْ عليه النِّعمُ، وجُمِع له الشَّملُ اشتاقَ إلى لقاءِ ربه عزَّ وجلَّ[4]. وقيل: إنَّ يوسفَ لم يَتمنَّ الموتَ، وإنما تمنَّى الوفاةَ على الإسلامِ، أي: إذا جاءَ أجَلي تَوَفَّني مسلماً[5]، وهذا قولُ الجمهور.

وقال سهلُ بنُ عبد الله التُّستَريُّ: لا يتمنى الموتَ إلا ثلاثٌ: رجلٌ جاهل بما بعدَ الموت، أو رجلٌ يَفِرُّ من أقدارِ الله تعالى عليه، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاءِ الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) ينظر عرائس المجالس ص١٤٢، والكشاف ٢/ ٣٤٤.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١، وينظر تاريخ الطبري ١/ ٣٦٤، والوسيط ٢/ ٦٣٦، والكشاف ٢/ ٣٤٥.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١. وينظر عرائس المجالس ص١٤٣، والمعارف لابن قتيبة ص٣٩ وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٣، والكشاف ٢/ ٣٤٥.

وثبتَ في الصحيحِ عن أنسٍ قال: قالَ رسول الله ﷺ: «لا يَتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزلَ به، فإن كان لابدّ مُتمنِّياً، فليقل: اللهمَّ أَحيِني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتَوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي». رواهُ مسلم[١] وفيه[٢]: عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنَّى أحدُكم الموتَ، ولا يَدْعُ به من قبلِ أن يأتيَه، إنه إذا ماتَ أحدُكم انقطَع عملُه، وإنَّه لا يزيدُ المؤمِنَ عُمُره إلا خيراً». وإذا ثبتَ هذا، فكيفَ يقال: إنَّ يوسفَ عليه السلام تمنى الموتَ، والخروجَ من الدنيا، وقَطْعَ العملِ؟ هذا بعيدٌ! إلا أن يقال: إنَّ ذلك كان جائزاً في شرعِه، أَمَا إنه يجوزُ تمني الموت والدعاءُ به عندَ ظهورِ الفتن وغلبتها وخوف ذهابِ الدين، على ما بينَّاه في كتابِ «التذكرة»[٣].

و«مِنَ» من[٤] قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ للتبعيض، وكذلك قولُه: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ لأن مُلْكَ مصرَ ما كان كلَّ الْمُلك، وعلمَ التَّعبير ما كان كلَّ العلوم. وقيل: «مِنَ» للجنس كقولِه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقيل: للتأكيدِ. أي: آتيتني الملكَ، وعَلمتني تأويلَ الأحاديث[٥].

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نُصِبَ على النعتِ للنداء، وهو «ربِّ»، وهو نداءٌ مضافٌ، والتقديرُ: يا ربِّ. ويجوزُ أن يكونَ نداءً ثانياً[٦]. والفاطرُ الخالقُ، فهو سبحانه فاطرُ الموجوداتِ، أي: خالقُها ومُبدِئها، ومُنشِئها ومخترعُها على الإطلاق من غير شيء[٧]، ولا مثالٍ سبق؛ وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[٨]

---

(١) في صحيحه (٢٦٨٠)، وهو عند البخاري (٦٣٥١).

(٢) في صحيح مسلم (٢٦٨٢).

(٣) ص٦.

(٤) في (ظ): في.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٩، والكشاف ٢/ ٣٤٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٥، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٠، والكشاف ٢/ ٣٤٥.

(٧) في (ظ): شبه.

(٨) ٢/ ٣٣٥.

مستوفًى عند قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آية:١١٧] وزدناه بياناً في الكتابِ «الأسنى في شرحِ أسماءِ الله الحسنى»[١].

﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ أي: ناصري ومتولِّي أموري في الدنيا والآخرة. ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يريدُ آباءَه الثلاثةَ: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتوفَّاه الله طاهراً طيباً ﷺ، بمصرَ، ودُفِن في النيلِ في صندوقٍ من رخامٍ؛ وذلك أنَّه لمَّا ماتَ تَشاحَّ الناسُ عليه، كلٌّ يحبُّ أن يُدفَن في مَحلَّتهم، لِما يَرجون من بركتِه؛ واجتمعوا على ذلك حتى همُّوا بالقتال، فرأَوا أن يَدفِنُوه في النِّيل من حيثُ مَفرِقُ الماءِ بمصر، فيَمُرَّ عليه الماءُ، ثم يتفرَّق في جميعِ مصر، فيكونوا فيه شَرَعاً[٢]، ففعلوا، فلمَّا خرجَ موسى ببني إسرائيل أخرجَه من النيل، ونقلَ تابوتَه بعدَ أربع مئةِ سنةٍ إلى بيت المقدس، فدفنوه مع آبائِه لدعوته: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وكان عُمره مائةَ عامٍ وسبعة أعوامٍ[٣].

وعن الحسنِ قال: أُلقي يوسفُ في الجبِّ وهو ابنُ سبعَ عَشْرةَ سنة، وكان في العبوديةِ والسِّجنِ والملك ثمانينَ سنة، ثم جُمِع له شملُه فعاشَ بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة؛ وكان له من الولدِ إفرائيمُ، ومنشا، ورحمةُ زوجةُ أيوب؛ في قولِ ابن لَهِيعة.

قال الزُّهري: وُوُلد لإفرائيم بنِ يوسف نونُ بنُ إفرائيم، ووُلِد لنون يوشَعُ، فهو يُوشَعُ بنُ نون[٤]، وهو فتى موسى الذي كانَ معه صاحب أمرِه، ونَبَّأه الله في زمنِ موسى عليه السلام، فكان بعده نبيًّا، وهو الذي افتتَح أرِيحا، وقَتل مَن كان بها من

(١) ص٣٢٦ - ٣٢٨.
(٢) أي: سواء. الصحاح (شرع)، وفي (ظ): شركاء، وهما بمعنى.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٨٥، والوسيط ٢/ ٦٣٦، وتفسير السمرقندي ٢/ ١٧٨، وزاد المسير ٤/ ٢٩٢، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٦، وعرائس المجالس ص١٤٤.
(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١، وزاد المسير ٤/ ٢٩٢، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٦. وينظر عرائس المجالس ص١٤٥.

الجبابرةِ، واستُوقِفت له الشمسُ حسبَ ما تقدَّم في «المائدة»[١]. ووُلِد لمنشا بنِ يوسف موسى بنُ منشا، قبلَ موسى بنِ عمران، وأهلُ التوراةِ يزعُمون أنَّه هو الذي طلبَ العالمَ ليتعلمَ منه حتى أدركه، والعالمُ هو الذي خَرقَ السفينةَ، وقتل الغُلامَ، وبنَى الجدارَ، وموسى بنُ منشا معه حتى بلغَ معه حيثُ بلغ، وكان ابنُ عباس يُنكرُ ذلك[٢]؛ والحقُّ الذي قالَه ابنُ عباس، وكذلك في القرآن، ثم كانَ بين يوسفَ وموسى أُممٌ وقرون، وكان فيما بينَهما شعيبٌ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

**قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾**

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبرٌ ثانٍ. قال الزَّجاجُ[٣]: ويجوز أن يكون «ذَٰلِكَ» بمعنى الذي، و«نُوحِيهِ إِلَيْكَ» خبرُه، أي: الذي من أنباءِ الغيب نوحيه إليك. يعني: هو الذي قَصصنا عليك يا محمدُ من أمرِ يوسفَ من أخبار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» أي: نُعلمك بوحي هذا إليك.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: مع إخوةِ يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ في إلقاءِ يوسفَ في الجبِّ. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: بيوسف في إلقائِه في الجبِّ. وقيل: «يَمْكُرُونَ» بيعقوبَ حين جاؤوه بالقميصِ مُلطَّخاً بالدم[٤]، أي: ما شاهدتَ تلك الأحوالَ، ولكنَّ الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ظنَّ أن العربَ لمَّا سألته عن هذه القصةِ وأخبرَهم يؤمنون، فلم يؤمنوا، فنزلتِ الآيةُ تسليةً للنبي ﷺ[٥]. أي:

---

(١) ٧/ ٤٠٤ .

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ٣٢٦ - ٣٢٩ ، وينظر عرائس المجالس ص١٤٥ .

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٣٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٥ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٤ ، وزاد المسير ٤/ ٢٩٣ .

ليس تقدرُ على هدايةِ مَن أردتَ هدايته[١]، تقول: حَرَص يَحرِص، مثل: ضَرَبَ يَضرِب. وفي لغةٍ ضعيفةٍ: حَرِص يَحرَص، مثل حَمِد يَحمَد[٢]. والحِرْصُ طلبُ الشيء باجتهاد[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ «مِنْ» صلةٌ، أي: ما تَسألهم جُعْلاً. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو، يعني: القرآن والوحي. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: عِظةٌ وتذكرةٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾[٤].

**قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال الخليلُ وسيبويه[٥]: هي «أيٌّ» دخلَ عليها كافُ التشبيه[٦]، فصار في الكلام معنى كَمْ. وقد مضى في «آل عمران»[٧] القولُ فيها مستوفًى. ومضى القولُ في آية «السَّماوَاتِ والأَرْضِ» في «البقرة»[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٩ .

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٢٣٩ .

(٣) في النسخ: باختيار، ولم نقف على هذا المعنى، والمثبت من تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٣ ، ولسان العرب (حرص).

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧١ .

(٥) في الكتاب ٢/ ١٧٠ - ١٧١ . ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤١٠ و ٢/ ٣٤٦ ، والكلام منه.

(٦) بعدها في (م): وبُنيت معها.

(٧) ٥/ ٣٤٩ وما بعدها.

(٨) ٢/ ٤٩٠ .

وقيل: الآياتُ آثار عقوباتِ الأمم السالفة، أي: هم غافلونَ مُعرِضون عن تأمُّلها.

وقرأ عِكرمةُ وعَمرو بنُ فائد: «وَالْأَرْضُ» رفعاً ابتداء، وخبرُه: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾. وقرأ السُّدِّي «وَالْأَرْضَ» نصباً بإضمارِ فعل، والوقفُ على هاتين القراءتين على «السماوات». وقرأ ابنُ مسعود: «يمشون عليها»[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ نزلت في قومٍ أقرُّوا بالله خالقِهم وخالقِ الأشياءِ كلِّها، وهم يعبدون الأوثانَ؛ قاله الحسنُ ومجاهدٌ، وعامر الشعبي[2] وأكثرُ المفسرين. وقال عِكرمةُ: هو قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] ثم يصفونه بغيرِ صفته، ويجعلون له أنداداً. وعن الحسن أيضاً: أنَّهم أهلُ كتابٍ معهم شِرْكٌ وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمدٍ ﷺ، فلا يصحُّ إيمانُهم؛ حكاه ابنُ الأنباري.

وقال ابنُ عباس: نزلتْ في تلبيةِ مشركي العرب: لبيكَ لا شريكَ لك إلا شريكاً هو لك تَملِكُه وما مَلك. وعنه أيضاً: أنَّهم النصارى. وعنه أيضاً: أنهم المشبِّهةُ، آمنوا مجملاً، وأشركوا مُفَصَّلاً. وقيل: نزلت في المنافقين؛ المعنى: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ» أي: باللسان إلا وهو كافرٌ بقلبه؛ ذكره الماورديُّ[3] عن الحسن أيضاً. وقال عطاء: هذا في الدعاءِ، وذلك أنَّ الكفار يَنْسَون ربَّهم في الرَّخاء، فإذا أَصابهمُ البلاءُ أَخلصوا في الدعاء؛ بيانه[4]: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] الآية. وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ [يونس:١٢] الآية. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ

---

(١) المحتسب ١/٣٤٩ - ٣٥٠ ، ومختصر في شواذ القرآن ص٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤ .

(٢) في (م): والشعبي.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٨٧ ، وتنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٢ - ٣٧٦ ، والنكت والعيون ٣/ ٨٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٩٤ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤ .

(٤) في (ظ): نياتهم، وقول عطاء في تفسير البغوي ٢/ ٤٥٢ .

ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]. وقيل: معناها: أنَّهم يدعونَ الله ينجيهم من الهَلَكَةِ، فإذا أنجاهم قال قائلُهم: لولا فلانٌ ما نَجَوْنا، ولولا الكلبُ لدخلَ علينا اللصُّ، ونحوَ هذا، فيجعلون نعمةَ الله منسوبةً إلى فلان، ووقايتَه منسوبةً إلى الكلبِ(١).

قلت: وقد يقعُ في هذا القول والذي قبلَه كثيرٌ من عوامِّ المسلمين، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

وقيل: نزلت هذه الآيةُ في قصةِ الدُّخَان؛ وذلك أنَّ أهلَ مكة لمَّا غَشِيَهم الدُّخَانُ في سِنيِّ القَحطِ قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] فذلك إيمانُهم، وشِركُهم عَودُهم إلى الكفر بعدَ كشفِ العذاب؛ بيانُه قولُه: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، والعَودُ لا يكون إلا بعدَ ابتداء، فيكونُ معنى: ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي: إلا وهم عائدون إلى الشركِ، والله أعلم.

قولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال ابنُ عباس: مُجلِّلة. وقال مجاهد: عذابٌ يغشاهم. نظيرُه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وقال قَتادة: وقيعةٌ تقعُ لهم. وقال الضحاكُ: يعني الصَّواعق والقَوارِع(٢). ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني: القيامة. ﴿بَغْتَةً﴾ نُصِبَ على الحال، وأصلُه المصدرُ. وقال المبردُ: جاءَ عن العربِ حالٌ بعد نكرة، وهو قولُهم: وقعَ أمرٌ بغتةً وفجأة. قال النحاسُ(٣): ومعنى: بَغتَه: أصابَه(٤) من حيثُ لم يَتوقَّع.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو توكيد(٥). وقوله: «بَغْتَةً» قال ابن عباس: تَصيح الصيحةُ بالناس وهم في أسواقِهم ومواضعهم(٦)، كما قال: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٨٧.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٧ - ٣٧٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣.
(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٦ - ٣٤٧، وما قبله منه، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣١.
(٤) في النسخ: بغتة: إصابة، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.
(٥) تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤.
(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٣.

[يس:٤٩] على ما يأتي.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ ابتداءٌ وخبر[١]، أي: قل يا محمدُ، هذه طريقي وسُنَّتي ومِنْهَاجي؛ قاله ابنُ زيد. وقال الربيع: دعوتي. مقاتل: ديني[٢]، والمعنى واحد، أي: الذي أنا عليه وأدعو إليه يُؤدِّي إلى الجنةِ[٣]. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على يقين وحقٍّ؛ ومنه: فلانٌ مستبصرٌ بهذا. ﴿أَنَا۠﴾ توكيدٌ. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ عطفٌ على المضمرِ[٤]. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: وسبحانَ اللهِ. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذونَ من دون الله أنداداً[٥].

**قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾**

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ هذا ردٌّ على القائلين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، أي: أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأةٌ ولا جِنِّيٌّ ولا مَلَك؛ وهذا يردُّ ما يُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ في النِّساء أربعَ نبيَّاتٍ: حوّاء وآسية، وأمّ موسى ومريم»[٦]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٧] شيءٌ من هذا.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٩، والنكت والعيون ٣/ ٨٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣، والوسيط ٢/ ٦٣٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥.

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٥.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) ٥/ ١٢٦ - ١٢٩.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يريدُ المدائنَ، ولم يبعثِ الله نبيًّا من أهلِ البادية؛ لغلبةِ الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأنَّ أهلَ الأمصار أعقلُ وأحلمُ، وأفضلُ وأعلمُ. قال الحسنُ: لم يبعثِ الله نبيًّا من أهلِ البادية قطُّ، ولا من النِّساء، ولا من الجنِّ. وقال قتادة: «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أي: من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلمُ وأحلم[١].

وقال العلماءُ: مِن شرطِ الرسول أن يكون رجلاً آدميًّا مدنيًّا[٢]؛ وإنما قالوا: آدميًّا تَحرزاً من قولِه: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦]. والله أعلم.

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ إلى مصارعِ الأمم المكذِّبةِ لأنبيائهم فيعتبروا .﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ابتداءٌ وخبرُه. وزعم الفرَّاء[٣] أنَّ الدار هي الآخرة، وأضيفَ الشيءُ إلى نفسِه لاختلافِ اللفظ، كيومِ الخميس، وبارحةِ الأولى؛ قال الشاعر:

ولـو أقْـوَتْ عـلـيـكَ دِيـارُ عَـبْـسٍ عَـرَفْـتَ الـذُّلَّ عِـرْفَـانَ الـيَـقـيـنِ[٤]

أي: عِرْفَاناً ويقيناً، واحتجَّ الكسائيُّ بقولهم: صلاةُ الأولى، واحتجَّ الأخفشُ بـ: مسجدِ الجامعِ. قال النحاسُ: إضافةُ الشيءِ إلى نفسِه مُحالٌ؛ لأنه إنَّما يُضاف الشيءُ إلى غيره ليتعرَّف به، والأجودُ الصَّلاةُ الأولى، ومَن قال: صلاةُ الأولى فمعناه: عندَ صلاةِ الفريضة الأولى، وإنَّما سُمِّيتِ الأولى؛ لأنها أوَّلُ ما صُلِّي حين فُرضت الصَّلاة، وأوَّلُ ما أُظهِر، فلذلك قيلَ لها أيضاً: الظهر. والتقديرُ: ولدارُ الحال الآخِرة خيرٌ. وهذا قولُ البصريين[٥]، والمرادُ بهذه الدارِ الجنةُ؛ أي: هي خيرٌ للمتقين.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣ ، والوسيط ٢/ ٦٣٨ ، والنكت والعيون ٣/ ٨٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٦ ، وزاد المسير ٤/ ٢٩٥ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٦ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٥٥ - ٥٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٧ ، وما قبله منه.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٢ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦ ، دون نسبة لقائل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧ ، وينظر البحر المحيط ٥/ ٣٥٣ .

وقُرئ: «وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ»[١]. وقرأ نافعٌ وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبرِ[٢].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ تقدَّم القراءةُ فيه ومعناه[٣]. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ وهذه الآيةُ فيها تنزيهُ الأنبياءِ وعصمتُهم عمَّا لا يليقُ بهم. وهذا البابُ عظيم، وخطرُه جسيم، ينبغي الوقوفُ عليه؛ لئلا يزِلَّ الإنسانُ فيكونَ في سواءِ الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلَك يا محمد إلا رجالاً، ثم لم نعاقب أمَمهم بالعذاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: يَئِسوا من إيمانِ قومِهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ بالتشديد؛ أي: أيقنوا أن قومَهم كَذَّبوهم[٤]. وقيل: المعنى: حَسِبوا أنَّ مَن آمن بهم مِن قومهم كَذَّبوهم[٥]، لا أنَّ الْقَوْم كَذَّبوا، ولكنَّ الأنبياء ظَنُّوا وحسِبوا أنهم يُكذِّبونهم؛ أي: خافوا أن يدخلَ قلوبَ أتباعِهم شكٌّ، فيكون «وَظَنُّوا» على بابِه في هذا التأويل[٦].

وقرأ ابنُ عباس وابنُ مسعود، وأبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وأبو جعفر بن القَعْقَاع، والحسن وقَتَادة، وأبو رَجَاء العُطَارِديُّ وعاصم، وحمزة والكسائي، ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وخَلَف: «كُذِبُوا» بالتخفيف[٧]؛ أي: ظَنَّ القومُ أنَّ الرسل كَذَبوهم فيما

---

(١) قال البنا في إتحاف فضلاء البشر ص٢٦٢ : ولا خلاف في حرف يوسف أنه بلام واحدة لاتفاق الرسوم عليه.

(٢) السبعة ص٢٥٦ ، والتيسير ص١٣٠ .

(٣) عند الآية ٨٠ في هذه السورة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢ ، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧-٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٤ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨ .

(٧) ينظر السبعة ص٣٥٢ ، والتيسير ص١٣٠ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٨٣ - ٣٩٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ ، والبغوي ٢/ ٤٥٤ ، والوسيط ٢/ ٦٣٨ .

أَخبَروا به من العذابِ، ولم يَصدقُوا.

وقيل: المعنى ظنَّ الأممُ أنَّ الرسلَ قد كَذَبوا فيما وَعدوا به مِن نصرهم(١). وفي رواية عن ابنِ عباس: ظنَّ الرسلُ أنَّ الله أخلف ما وَعدهم. وقيل: لم تصحَّ هذه الروايةُ؛ لأنه لا يُظَنُّ بالرسلِ هذا الظنُّ، ومَن ظنَّ هذا الظنَّ لا يَستحِقُّ النَّصر، فكيفَ قال: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾(٢)؟!.

قال القُشَيريُّ أبو نصر: ولا يَبعدُ إن صحَّتِ الروايةُ أنَّ المرادَ خَطَرَ بقلوبِ الرسلِ هذا من غيرِ أن يتحقَّقوه في نفوسِهم؛ وفي الخبر: «إنَّ الله تعالى تجاوزَ لأمّتي عمَّا حدَّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به»(٣). ويجوزُ أن يُقال: قَرُبوا من ذلك الظنِّ؛ كقولِك: بَلغتُ المنزلَ، أي قَرُبت منه(٤).

وذكر الثعلبيُّ والنحاسُ(٥) عن ابنِ عباس قال: كانوا بشراً فضَعُفوا من طولِ البلاء، ونَسُوا وظنُّوا أنَّهم أُخلِفوا، ثم تلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤](٦). وقال الترمذيُّ الحكيم: وجهُه عندنا أنَّ الرسلَ كانت تخافُ بعد ما وعدَ اللهُ النصرَ، لا من تهمةٍ لوعدِ الله، ولكن لتهمةِ النفوس أن تكونَ قد أحدثت حَدَثاً يَنْقُض ذلك الشرطَ والعهدَ الذي عهدَ إليهم، فكانت إذا طالت عليهم المدَّة دخلَهم الإياس والظنونُ من هذا الوجه.

وقال المهدويُّ، عن ابنِ عباس: ظنَّت الرُّسلُ أنهم قد أُخلِفُوا، على ما يلحقُ البشرَ، واستشهدَ بقولِ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، والنكت والعيون ٣/ ٨٩، وبحر العلوم ٢/ ١٨٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٩٣ - ٣٩٤، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢، والكشاف ٢/ ٣٤٧.

(٣) سلف ١٠/ ٣٠٩.

(٤) قال مثل قول القشيري أبو منصور الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٦٣.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٣٩٣، وفيه: «يئسوا» بدل «نسوا».

[البقرة: ٢٦٠] الآية. والقراءةُ الأُولى أولى.

وقرأ مجاهد وحميد: «قَدْ كَذَبوا» بفتح الكاف والذال مُخَفَّفاً[(١)]، على معنى: وظنَّ قومُ الرسلِ أنَّ الرسل قد كَذَبوا، لِمَا رأوا من تفضُّل الله عزَّ وجلَّ في تأخيرِ العذاب[(٢)].

ويجوزُ أن يكون المعنى: ولمَّا أيقنَ الرسلُ أن قومَهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم، جاءَ الرسلَ نصرُنا. وفي البخاريِّ[(٣)]، عن عروةَ، عن عائشةَ قالت له وهو يسألُها عن قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أكُذِبُوا أم كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقدِ استيقَنوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجَلْ لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا، قالت: معاذَ الله! لم تكنِ الرسلُ تظنُّ ذلك بربها. قلت: فما هذه الآيةُ؟ قالت: هم أتباعُ الرسلِ [الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم، فطالَ عليهم البلاءُ، واستأخرَ عنهم النصرُ حتى إذا استيأس الرسلُ] ممن كذَّبهم من قومِهم، وظنَّت الرسلُ أن أتباعهم قد كذَّبوهم جاءهم نصر الله[(٤)] عندَ ذلك.

وفي قوله تعالى: «جَاءَهُمْ نَصْرُنَا» قولان: أحدُهما: جاء الرسلَ نصرُ الله؛ قاله مجاهد[(٥)]. الثاني: جاء قومَهم عذابُ الله؛ قاله ابنُ عباس[(٦)]. ﴿فَنُنۡجِي مَن نَّشَآءُ﴾ قيل: الأنبياء ومَن آمنَ معهم[(٧)]. ورُوي عن عاصم ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ بنونٍ واحدةٍ

(١) القراءات الشاذة ص٦٥، والمحتسب ١/ ٣٥٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، ومعاني القرآن له ٣/ ٤٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨، والوسيط ٢/ ٦٣٨.

(٣) برقم (٤٦٩٥)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ: نصرنا، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٦) النكت العيون ٣/ ٨٩.

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠١.

مفتوحة الياء، و«مَنْ» في موضع رفعِ اسمِ ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ واختار أبو عبيد هذه القراءةَ؛ لأنَّها في مصحف عثمان، وسائرُ مصاحفِ البلدان بنونٍ واحدة[١]. وقرأ ابن مُحَيْصن: «فَنَجَا» فعل ماض. و«مَنْ» في موضع رفع؛ لأنه الفاعل[٢]، وعلى قراءةِ الباقين نصباً على المفعول. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا. ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين المشركين[٣].

**قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قصة يوسفَ وأبيه وإخوته[٤]، أو في قَصص الأمم[٥]. ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي: فكرةٌ وتذكرةٌ وعظة. ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: العقول.

وقال محمد بنُ إسحاق، عن الزهري، عن محمد بنِ إبراهيم بن الحارث التَّيْميّ: إنَّ يعقوب عاشَ مئة سنة وسبعاً وأربعين سنة، وتُوفِّي أخوه عِيصُو معه في يومٍ واحد، وقُبِرا في قبر واحد[٦]؛ فذلك قولُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى آخر السورةِ. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي ما كان القرآنُ حديثاً يفترى، أو ما كانت هذه القصةُ حديثاً يُفترى[٧]. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكن كان تصديقَ،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٥، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٠٠.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠١.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٩ - ٩٠، والكشاف ٢/ ٣٤٨.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٨.

(٦) ينظر تاريخ الطبري ١/ ٣٣٠، والمعارف ص٣٩ - ٤٠. وسلف هذا الكلام ص٤٦٠ من هذا الجزء.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٩٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٩، والكشاف ٢/ ٣٤٨، وزاد المسير ٤/ ٢٩٧.

ويجوزُ الرفعُ بمعنى: لكن هو تصديقُ الذي بين يديه[1] أي: ما كان قبلَه من التوراة والإنجيل وسائِر كتبِ الله تعالى، وهذا تأويلُ مَن زعم أنه القرآن[2]. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممَّا يحتاجُ العباد إليه من الحلالِ والحرامِ، والشرائعِ والأحكام[3]. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

**تم الجزء الحادي عشر من تفسير القرطبي، ويليه الجزء الثاني عشر ويبدأ بسورة الرعد**

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٨.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠٣، والنكت والعيون ٣/ ٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٣، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦ - ٥٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٩، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٤.

## تفسير سورة يوسف

[وهى مكية][(١)].

روى الثعلبى وغيره، من طريق سَلاّم بن سلم ـ ويقال: سليم ـ المدائنى، وهو متروك، عن هارون بن كثير ـ وقد نصّ على جهالته أبو حاتم ـ عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى أمامة، عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها، أو علمها أهله، أو ما[(٢)] ملكت يمينه، هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه من القوة ألا يحسد مسلما»[(٣)].

وهذا من هذا الوجه لا يصح، لضعف إسناده بالكلية. وقد ساق له[(٤)] الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير، به ـ ومن طريق شَبَابة، عن مخلد بن عبد الواحد البصرى[(٥)]، عن على بن زيد بن جدعان ـ وعن عطاء بن أبى ميمونة، عن زر بن حُبَيش، عن أُبى ابن كعب، عن النبى ﷺ ـ فذكر نحوه[(٦)]. وهو منكر من سائر طرقه.

وروى البيهقى فى «الدلائل» أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم. وهو من رواية الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة «البقرة».

وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أى: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ﴿الْمُبِينِ﴾ أى: الواضح الجلى، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها[(٧)].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزلَ أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة[(٨)] أشرف الملائكة، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله فى أشرف

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت: «وما».
(٣) تفسير الثعلبى (٧/ل ٦١ «المحمودية») وأورده الزيلعى فى تخريج الكشاف (٢/ ١٧٩) من رواية الثعلبى فى تفسيره، ورواه الواحدى فى الوسيط (٢/ ٥٩٩) من طريق إبراهيم بن شريف عن أحمد بن يونس عن سلام بن سليم به.
(٤) فى جميع النسخ: «وقد ساقه» وهذا التعبير غير صحيح.
(٥) جميع النسخ: «محمد بن عبد الواحد النضرى»، وفى أ، ت: «مخلد بن عبد الواحد النضرى» والصواب ما أثبتناه.
(٦) نقله الزيلعى فى تخريج الكشاف (٢/ ١٨٠) عن المؤلف.
(٧) فى ت: «وتفسيرها وتبينها».
(٨) فى ت: «كسفارة».

شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**﴾، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد وَرَدَ فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير:

حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأَوْدِى[(١)]، حدثنا حكام الرازى، عن أيوب، عن عمرو ـ هو ابن قيس الملائى ـ عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾[(٢)].

ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلا.

وقال أيضا: حدثنا محمد بن سعيد[(٣)] العطار[(٤)]، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا خَلَّاد الصفار، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة[(٥)]، عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزل على النبى ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصتَ علينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ إلى قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[(٦)]. ثم تلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث.

ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن رَاهَوَيه، عن عمرو بن محمد القَرشى العَنْقَزى، به[(٧)].

وروى ابن جرير بسنده[(٨)]، عن المسعودى، عن عَوْن بن عبد الله قال: مَلَّ أصحابُ رسول الله ﷺ مَلَّةَ، فقالوا: يا رسول الله، حَدِّثنا. [فأنزل الله: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**﴾، ثم مَلّوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا][(٩)] فوق الحديث ودون القرآن ـ يعنون القصص ـ فأنزل الله: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾، فأرادوا الحديث، فدلَّهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص[(١٠)].

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما قال الإمام أحمد:

حدثنا سُرَيْج بن النعمان، أخبرنا هُشَيْم، أنبأنا مجالد، عن الشعبى، عن جابر بن عبد الله؛ أن

---

(١) فى ت: «الأوذى».

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٥٢).

(٣) فى أ: «سعد». (٤) فى ت، أ: «القطان». (٥) فى ت، أ: «قرة».

(٦) فى ت: « ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآية».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٥٣) والمستدرك (٢/ ٣٤٥) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى، وحسنه الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية برقم (٣٦٥٢).

(٨) فى ت: «بسند». (٩) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٥٢).

عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبى ﷺ فغضب وقال: «أمُتَهوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذّبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده، لو أن موسى كان حياً، لما [١]وسعه إلا أن يتبعنى»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبى، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى مررت بأخ لى من قريظة، فكتب لى جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه[٣] رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا. قال: فسُرِّى عن النبى[٤] ﷺ وقال: «والذى نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، إنكم حَظِّى من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»[٥].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا على بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عُرْفَطة قال: كنت جالسا عند عمر، إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس، قال: نعم. فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ [أَحْسَنَ الْقَصَصِ][٦] ﴾ إلى قوله: ﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾، فقرأها[٧] ثلاثا، وضربه ثلاثا، فقال له الرجل: ما لى يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذى نسخت كتاب دانيال! قال: مرنى بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه[٨] ولا تُقرئه أحدا من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنّك عقوبة، ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب، ثم جئت به فى أديم، فقال لى رسول الله ﷺ: «ما هذا فى يدك يا عمر؟». قال: قلت: يا رسول الله، كتاب نسخته لنزداد[٩] به علما إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّت وجنتاه، ثم نودى بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح. فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: «يأيها الناس، إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختُصِر لى اختصارا، ولقد أتيتكم بها

(١) فى ت: «ما».
(٢) المسند (٣/ ٣٧٨).
(٣) فى ت: «ما توجه».
(٤) فى أ: «رسول الله».
(٥) المسند (٣/ ٣٦٥).
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت، أ: «فقرأها عليه».
(٨) فى ت: «لا يقرأه».
(٩) فى ت: «ليزداد».

بيضاء نقية فلا تَتهوَّكوا، ولا يغرنكم المتهوِّكون». قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا، وبك رسولا. ثم نزل رسول الله ﷺ[١].

وقد رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره مختصرا، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيْبَةَ[٢] الواسطى، وقد ضعفوه وشيخه. قال البخارى: لا يصح حديثه.

قلت: وقد روى له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلى: أخبرنى الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى، حدثنى عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعرى، عن الزبيدى، حدثنا سليم بن عامر: أن جُبَير بن نُفَير حَدّثهم: أن رجلين كانا بحمص فى خلافة عمر، رضى الله عنه، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتتبا من اليهود صلاصفة[٣] فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة. وإن نهانا عنها رفضناها، فلما قدما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكتابين، وإنا نسمع منهم كلاما تقشعر منه جلودنا، أفنأخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئا. قالا[٤]: لا. قال: سأحدثكما، انطلقت فى حياة رسول الله[٥] ﷺ حتى أتيت خيبر، فوجدت يهوديا يقول قولا أعجبنى، فقلت: هل أنت مكتبى ما تقول؟ قال: نعم. فأتيت بأديم، فأخذ يملى على، حتى كتبت فى الأكرُع. فلما رجعت قلت: يا نبى الله، وأخبرته، قال: «ائتنى به». فانطلقت أرغب عن المشى رجاء أن أكون أتيت[٦] رسول الله ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس اقرأ علىّ». فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو يتلوّن، فتحيرت من الفَرَق، فما استطعت أجيز[٧] منه حرفا، فلما رأى الذى بى دَفَعه[٨]، ثم جعل يتبعه رسما رسما فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هَوَكوا وتَهَوَّكوا»، حتى محا آخره حرفاً حرفا. قال عمر، رضى الله عنه: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة! قالا: والله ما نكتب منه شيئاً أبدا. فخرجا بصلاصفتهما[٩]، فحفرا لها[١٠] فلم يألُوا أن يعمِّقا، ودفناها

---

(١) لم أعثر عليه فى المطبوع من مسند أبى يعلى، وأورده الهيثمى فى المجمع (١/ ١٨٢) وقال: «رواه أبو يعلى، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى، ضعفه أحمد وجماعة». ورواه المقدسى فى المختارة برقم (١١٥) من طريق أبى يعلى وقال: «عبد الرحمن بن إسحاق أخرج له مسلم وابن حبان». يقصد عبد الرحمن بن إسحاق المدنى وهو أثبت من الواسطى وفترتهما متقاربة، لكن المزنى ذكر على بن مسهر من الرواة عن الواسطى الضعيف، وقد رجح المؤلف هنا أنه الواسطى. وكذا فى مسند عمر بن الخطاب (٢/ ٥٩١) وقال: «وزعم الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه «المختارة» أنه الذى روى له مسلم كما (أظن صوابه كذا) قال: وأما شيخه خليفة بن قيس فقال فيه أبو حاتم الرازى: شيخ ليس بالمعروف. وقال البخارى: لم يصح حديثه».

(٢) فى ت: «ابن شيبة». (٣) فى هـ: «ملاصق» بدون نقط، والمثبت من ت، أ. (٤) فى ت، أ: «فقالا».

(٥) فى ت: «النبى». (٦) فى ت: «جئت». (٧) فى ت: «أحبر»

(٨) فى ت: «دفعته». (٩) فى هـ، ت: «بصفيهما» والمثبت من أ.

(١٠) فى ت: «فحفراها».

فكان آخر العهد منها[١].

وكذا روى الثورى، عن جابر بن يزيد الجُعْفى، عن الشعبى، عن عبد الله بن ثابت الأنصارى، عن عمر بن الخطاب، بنحوه[٢]. وروى أبو داود فى المراسيل، من حديث أبى قِلاَبَة، عن عمر نحوه[٣]. والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾.

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد فى قَصَصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب، عليه السلام، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه[٤] عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصمد به[٥]. وقال البخارى أيضاً:

حدثنا محمد، أخبرنا عبدة، عن عُبَيْد الله، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله، ابن نبى الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقِهوا». ثم قال: تابعه أبو أسامة، عن عبيد الله[٦].

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحى.

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا [سواه][٧]، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. رُوى هذا عن ابن عباس، والضحاك،

---

(١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٣٦) عن الطبرانى، عن عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصى، عن أبيه، عن عمرو بن الحارث به.

(٢) سبق تخريجه فى المسند.

(٣) المراسيل برقم (٤٥٥).

(٤) فى أ: «ورواه».

(٥) المسند (٢/ ٩٦) وصحيح البخارى برقم (٤٦٨٨).

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٩).

(٧) زيادة من ت.

وقتادة، وسفيان الثورى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد جاء فى حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبا ـ فقال الإمام أبو جعفر بن جرير.

حدثنى على بن سعيد الكِنْدى، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السُّدِّى، عن عبد الرحمن بن سابط، [عن جابر][١] قال: أتى النبى ﷺ رجل من يهود يقال له: «بستانة اليهودى»، فقال له: يا محمد، أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبى ﷺ ساعة فلم يجبه بشىء، ونزل [عليه][٢] جبريل، عليه السلام، فأخبره بأسمائها. قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال: «خرتان[٣]، والطارقُ، والذَّيَّال[٤]، وذو الكَنَفَات، وقابس، ووثَّاب، وعَمُودَان، والْفَيْلَقُ، والْمُصَبِّحُ، والضَّرُوحُ، وذو الفرغ، والضِّيَاءُ، والنُّور»، فقال اليهودى: إىْ والله، إنها لأسماؤها[٥].

ورواه البيهقى فى «الدلائل»، من حديث سعيد[٦] بن منصور، عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلى وأبو بكر البزار فى مسنديهما، وابن أبى حاتم فى تفسيره[٧]، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير، به وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف قَصّها على أبيه يعقوب، فقال له أبوه: هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد؛ قال: والشمس أبوه، والقمر أمه».

تفرد به الحكم بن ظهير الفزارى[٨]، وقد ضَعَّفه الأئمة، وتركه الأكثرون، وقال الجوزجانى: ساقط، وهو صاحب حديث حُسْن يوسف.

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

---

(١، ٢) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٣) فى هـ: «حرثان» وفى ت، أ: «جربان» والمثبت من ميزان الاعتدال ١/ ٥٧٢ . مستفاد من ط. الشعب.

(٤) فى ت: «والدثال».

(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٥٥).

(٦) فى ت: «سعد».

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٦/ ٢٧٧) ومسند البزار برقم (٢٢٢٠) «كشف الأستار». وقد وقع اختلاف فى أسماء الكواكب فى هذه المصادر وليست بالمهمة، والحديث حكم عليه ابن الجوزى بالوضع.

(٨) لم يتفرد به بل توبع، فرواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٩٦) من طريق طلحة عن أسباط بن نصر، عن السدى، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» قال الزيلعي: «وسند الحاكم وارد على البزار فى قوله: لا نعلم له طريقاً غيره، وعلى البيهقى فى قوله: تفرد به الحكم بن ظهير ولهما عذرهما» تخريج الكشاف (٢/ ١٦١).

يقول تعالى مخبراً عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قَصّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التى تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيما زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالا وإكراما واحتراما[١]، فخشى يعقوب، عليه السلام، أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه[٢] على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أى: يحتالوا لك حيلةً يُرْدُونَك فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحوَّل إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره»[٣]. وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبِرَتْ وقعت»[٤]. ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد فى حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذى نعمة محسود»[٥].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك[٦] ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أى: يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: قال مجاهد وغير واحد: يعنى تعبير الرؤيا.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾أى: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الخليل، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده، وهو الذبيح فى قول، وليس بالرجيح، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: [هو][٧] أعلم حيث يجعل رسالاته، كما قال فى الآية الأخرى.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ

---

(١) فى ت، أ: «واحتراماً وإكراماً». (٢) فى ت: «فيحسدونه».

(٣) جاء من حديث جابر، وأم سلمة، وأبى قتادة: أما حديث جابر، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٦٢)، وأما حديث أم سلمة، فرواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٧٤١)، وأما حديث أبى قتادة، فرواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٩٦) وهذا لفظه.

(٤) لم أعثر عليه من حديث معاوية، وإنما من حديث لقيط بن عامر رضى الله عنه، رواه أحمد فى المسند (٤/ ١٠) وأبو داود فى السنن برقم (٥٠٢٠) والترمذى فى السنن برقم (٢٢٧٨) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩١٤).

(٥) رواه العقيلى فى الضعفاء (٢/ ١٠٩) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٤٠٤) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٩٦) من طريق سعيد بن سالم العطار عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان عن معاذ به مرفوعاً، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات (٢/ ١٦٥) وقال أبو حاتم فى العلل (٢/ ٢٥٨): «حديث منكر». وآفته سعيد بن سلام العطار فهو كذاب.

(٦) فى ت: «اختار». (٧) زيادة من ت.

**أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾.**

يقول تعالى: لقد كان فى قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أى: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه، ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ أى: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه - ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؛ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، يعنون فى تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفى هذا نظر. ويحتاج مُدّعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يقولون: هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه فى أرض من الأراضى - تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من [1]بعد إعدامه قوماً صالحين. فأضمروا التوبة قبل الذنب.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾: قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدى: الذى قال ذلك يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أى: لاتَصلوا [2] فى عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم [3] سبيلٌ إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لابدّ من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب، وهو أسفله.

قال قتادة: وهى بئر بيت المقدس.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أى: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولاحاجة إلى قتله.

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى: إن كنتم عازمين على ما تقولون.

قال محمد بن إسحاق بن يَسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق

---

(١) فى أ: «وتكونوا من بعده، أى من بعد». (٢) فى أ: «لا تغلوا». (٣) فى ت: «له».

الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع الذى لاذنب له، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه [1] وحبيبه، على كبر سنه، ورقَّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلا صغيرا، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرا عظيما.

رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل، عنه.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾.

لما تواطؤوا على أخذه وطَرْحه فى البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير رُوبيل، جاؤوا أباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، وهذه توطئة وسلف ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أى: ابعثه معنا، ﴿غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسُّدِّى، وغيرهم.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن نبيه [2] يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾أى: يشق على مفارقتُهُ مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفَرْط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال فى الخَلْق والخُلُق، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورَعْيتكم [3] فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها فى الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذاً لهالكون عاجزون.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾.

---

(١) فى ت: «أبيه».
(٢) فى ت، أ: «عن نبى الله».
(٣) فى ت: «ورعيكم».

يقول تعالى: فلما ذهبت [١] به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك، ﴿ **وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ** ﴾، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكراما له، وبسطا وشرحاً لصدره، وإدخالا للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب [٢]، عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبّله ودعا له.

قال [٣] السدى وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضَرْب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشَتَمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط فى الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون فى وسطه، يقال لها: «الراغوفة» [٤]، فقام فوقها.

قال الله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾: يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته [٥] وإنزاله اليسر فى حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق، تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما [٦] أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم [٧] بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

وقوله: ﴿ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ ـ قال [مجاهد و] [٨] قتادة: ﴿ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ بإيحاء الله إليه.

وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا فى حقك، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير:

حدثنى الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة بن عُبادة الأسدى، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصّواع، فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرنى هذا الجام: أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له «يوسف»، يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب ـ قال: ثم نقره فطنّ ـ فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كَذب ـ قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس، رضى الله عنهما: لا نرى [٩] هذه الآية نزلت إلا فيهم: ﴿ **لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [١٠].

﴿ **وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**

(١) فى ت، أ: «ذهب».
(٢) فى ت، أ: «يوسف».
(٣) فى ت: «فذكر».
(٤) فى أ: «الراغوف».
(٥) فى ت: «وعائد به».
(٦) فى ت، أ: «فيما».
(٧) فى ت، أ: «وسيجزيهم».
(٨) زيادة من ت.
(٩) فى ت: «فلايرى»، وفى أ: «فلانرى».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٧٦).

**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾.**

يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب: أنهم [١] رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أى: نترامى، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أى: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، وهو الذى كان [قد] [٢]جزع منه، وحذر عليه.

وقولهم: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: تلطّفٌ عظيم فى تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ـ والحالة هذه ـ لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور فى تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أى: مكذوب مفترى. وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلة ـ فيما ذكره مجاهد، والسدى، وغير واحد ـ فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى: فسأصبر صبراً جميلا على هذا الأمر الذى قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾أى: على ما تذكرون من الكذب والمحال .

وقال الثورى، عن سِمَاك، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبى، والحسن، وقتادة، وغير واحد.

وقال مجاهد: الصبر الجميل: الذى لا جزع فيه.

وروى هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حبَّان بن أبى جَبَلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، فقال: «صبر لا شكوى [٣] فيه» وهذا مرسل[٤].

وقال عبد الرزاق: قال الثورى عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكى نفسك[٥].

وذكر البخارى هاهنا حديث عائشة، رضى الله عنها، فى الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف[٦]، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٧].

---

(١) فى ت، أ: «ثم». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «لاقوى».
(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٨٥).
(٥) تفسير عبد الرزاق(١/ ٢٧٧).
(٦) فى ت: «إلا يعقوب» وفى أ: «إلا أبا يوسف إذ قال».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٠).

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف، عليه السلام، حين ألقاه إخوته، وتركوه فى ذلك الجب فريدا وحيداً، فمكث فى البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش(١).

وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يُصنع به، فساق الله له سيَّارة، فنزلوا قريباً من تلك(٢) البئر، وأرسلوا واردهم ـ وهو الذى يتطلب لهم الماء ـ فلما جاء تلك(٣) البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف، عليه السلام، فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿ يَا بُشْرَايَ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾.

وقرأ بعض القراء: ﴿ يَا بُشْرَىٰ ﴾، فزعم السدى أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذى أدلى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدى غريب؛ لأنه لم يُسبَق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا فى رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: «يا نفسُ اصبرى»، و«ياغلام أقبل»، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿ يَا بُشْرَايَ ﴾، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ أى: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضّعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدى، وابن جرير. هذا قول.

وقال العوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعنى: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ يباع، فباعه إخوته.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقَدرَ سابق، فترك ذلك ليمضى ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

وفى هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ(٤)، وإعلام له بأننى عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنى سأملى لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

---

(١) فى ت: «ابن عباس». (٢، ٣) فى ت: «ذلك».
(٤) فى ت: «صلوات الله عليه» وفى أ: «صلوات الله عليه وسلامه».

وقوله: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾، يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعِكْرِمة.

والبخس: هو النقص، كما[1] قال تعالى: ﴿ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴾ [الجن: ١٣] أى: اعتاض عنه إخوته بثمن دُونٍ قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أى: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه[2] بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير فى قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾عائد على إخوة يوسف.

وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة.

والأول أقوى؛ لأن قوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾، إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيرجح من هذا أن الضمير فى ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ إنما هو لإخوته.

وقيل: المراد بقوله: ﴿ بَخْسٍ ﴾ : الحرام. وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبى ابن نبى، ابن نبى، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم. وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أى: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان؛ ولهذا قال: ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾، فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهما، وكذا قال ابن عباس، ونَوْف البكَالى، والسُّدِّى، وقتادة، وعطية العَوْفى وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً.

وقال محمد بن إسحاق وعِكْرِمة: أربعون درهماً.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾: وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر، فقال: من يبتاعنى وليبشرَ؟ فاشتراه الملك، وكان مسلماً.

**﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾.**

(١) فى ت: «وكما».

(٢) فى أ: «لو سئلوا».

يخبر تعالى بألطافه بيوسف، عليه السلام، أنه قيض له الذى اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وكان الذى اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. [قال] (١) العوفى، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير.

وقال محمد بن إسحاق: اسمه إطفير (٢) بن روحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريَّان بن الوليد، رجل من العماليق قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل.

وقال غيره: اسمها زليخا.

وقال محمد بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبى صالح، عن ابن عباس: كان الذى باعه بمصر مالك ابن دعر بن بُويب (٣) بن عنقا بن مديان بن إبراهيم، فالله أعلم.

وقال أبو إسحاق، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التى قالت لأبيها [عن موسى](٤): ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما(٥).

يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿كَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾يعنى: بلاد مصر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدى: هو تعبير الرؤيا، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أى(٦): إذا أراد شيئا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه.

قال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أى: فعال لما يشاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يقول: لايدرون حكمته فى خلقه، وتلطفه لما يريد(٧).

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أى: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أى: استكمل عقله(٨)، وتم خلقه. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعنى: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: إنه كان محسناً فى عمله، عاملا بطاعة ربه تعالى.

وقد اختُلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدى: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبير: ثمانى عشرة سنة. وقال الإمام مالك، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبى: الأشد الحلم. وقيل غير ذلك،

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «إظفير». (٣) فى ت: «نويب».
(٤) زيادة من أ.
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ١٩).
(٦) فى أ: «فهو». (٧) فى ت، أ: «يريده». (٨) فى أ: «خلقه».

والله[١] أعلم.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه [﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا]﴾[٢] ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ أى: حاولته على[٣] نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي[أَحْسَنَ مَثْوَايَ][٤]﴾ وكانوا يطلقون «الرب»[٥] على السيد والكبير، أى: إن بعلك ربى أحسن[٦] مثواى أى: منزلى وأحسن إلى، فلا أقابله بالفاحشة فى أهله، ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقد اختلف القراء فى قراءة: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: معناه: أنها تدعوه إلى نفسها. وقال على بن أبى طلحة، والعوفى، عن ابن عباس: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هلم لك. وكذا قال زِرّ بن حبيش، وعِكْرِمة، والحسن وقتادة.

قال عمرو بن عُبَيد، عن الحسن: وهى كلمة بالسريانية، أى: عليك.

وقال السدى: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ أى: هلم لك، وهى بالقبطية.

وقال مجاهد: هى لغة عربية[٧] تدعوه بها.

وقال البخارى: وقال عكرمة: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾: هَلُم لك بالحَوْرَانية.

هكذا ذكره معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن سُهَيْل الواسطى، حدثنا قُرَّة بن قيسى، حدثنا النضر بن عربى الجَزَرى[٨]، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك. قال: هى بالحورانية.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائى يحكى[٩] هذه القراءة ـ يعنى: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ ـ ويقول: هى لغة، لأهل حَوْران، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال. وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

---

(١) فى ت: «فالله».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «عن».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت، أ: «ذلك».
(٦) فى ت، أ: «أكرم».
(٧) فى ت: «غربية».
(٨) فى ت: «غربى الحورى».
(٩) فى ت، أ: «يحب».

واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول [١] الشاعر لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه:

أَبْلغْ أَميرَ المؤمنين ... أخـا العِرَاقِ إذَا أَتينَـا
إنَّ العِـراقَ وأَهْلَـهُ ... عُنُقٌ إليكَ فَهيتَ هَيْتا

يقول: فتعال واقترب[٢].

وقرأ ذلك آخرون: «هِئتَ لك» بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، من قول القائل: هئت للأمر أهِى هيْئَةً وممن روى عنه هذه القراءة ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمى، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك.

قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائى ينكران هذه القراءة. وقرأ عبد الله بن إسحاق [٣]: «هيت»، بفتح الهاء وكسر التاء: وهى غريبة.

وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة «هَيْتُ» بفتح الهاء، وضم التاء، وأنشد [٤] قول الشاعر[٥]:

لَيسَ قَومِى بالأَبْعَدِين إِذَا مَا ... قَالَ دَاعٍ منَ العَشيرَةِ: هَيتُ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثورى، عن الأعمش، عن أبى وائل قال: قال ابن مسعود: قد سمعت القَرَأة فسمعتهم متقاربين، فاقرؤوا كما عُلِّمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، فإنما هو كقول أحدكم: «هلم» و«تعال» ثم قرأ عبد الله: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناسا يقرؤونها: «هَيْتُ [لك] [٦]»؟ فقال عبد الله: إنى أقرأها كما عُلِّمت، أحبّ إلى[٧].

وقال ابن جرير: حدثنى ابن وَكيع، حدثنا ابن عُيَيْنة، عن منصور، عن أبى وائل قال: قال عبد الله: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾. فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها: «هَيْتُ لَكَ»؟ فقال: دعونى، فإنى أقرأ كما أقْرِئتُ، أحب إلى[٨].

وقال أيضاً: حدثنى المثنى، حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: ﴿ هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا بهمز.

---

(١) فى ت: «قول».
(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٥).
(٣) فى ت: «عبد الله بن أبى إسحاق».
(٤) فى ت، أ: «وأنشدوا».
(٥) هو طرفة بن العبد، والبيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٣٠).
(٦) زيادة من أ.
(٧) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٧٩).
(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٣١).

وقال[١] آخرون: «هِيْتُ لَكَ»، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء.

قال أبو عُبَيدة معمر بن المثنى: «هيت» لا تثنى ولا تجمع ولاتؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيتَ لكَ، وهيتَ لكِ، وهيتَ لكما، وهيتَ لكم، وهيتَ لهن[٢].

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾.

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم فى هذا المقام، وقد روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطائفة من السلف فى ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم.

وقال بعضهم: المراد بهمه بها هَمّ خَطَرات حديث[٣] النفس. حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد[٤] البغوى هاهنا حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هَمّ عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرّائى، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»[٥].

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[٦]، وله ألفاظ كثيرة، هذا منها.

وقيل: هم بضربها. وقيل: تمناها زوجة. وقيل: ﴿هَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾أى: فلم يهم بها.

وفى هذا القول نظر من حيث العربية، ذكره ابن جرير وغيره[٧].

وأما البرهان الذى رآه ففيه أقوال أيضاً: فعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، وأبى صالح، والضحاك، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب، عليه السلام، عاضاً على أصبعه بفمه[٨].

وقيل عنه فى رواية: فضرب فى صدر يوسف.

وقال العوفى، عن ابن عباس: رأى خيال[٩] الملك، يعنى: سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق،

---

(١) فى ت: «وقرأ».

(٢) فى أ: «لهم». (٣) فى ت، أ: «وحديث». (٤) فى أ: «وأورد».

(٥) معالم التنزيل (٤/ ٢٣١).

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٥٠١) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥).

(٧) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٨، ٣٩) وما ذكره الحافظ هنا فى معنى الهمّ غير مسلم به، والراجح هو ما اختاره أبو حيان فى تفسيره ونقله عنه العلامة الشنقيطى فى «أضواء البيان» (٣/ ٦٠) وقال: «والجواب الثانى ـ وهو الذى اختاره أبو حيان ـ أن يوسف لم يقع منه همٌّ أصلاً، بل هو منفى عنه لوجود البرهان. . .» وانظر بقية كلامه هناك.

(٨) فى ت، أ: «يعظه». (٩) فى ت، أ: «تمثال».

فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سيده، حين دنا من الباب[١].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكِيع، عن أبى مودود[٢]، سمعت من محمد بن كعب القُرَظى قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب فى حائط البيت: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وكذا رواه أبو مَعْشَر المدنى، عن محمد بن كعب.

وقال عبد الله بن وهب، أخبرنى نافع بن يزيد، عن أبى صخر قال: سمعت القرظى يقول فى: «البرهان» الذى رأى يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله﴿ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ الآية[الانفطار: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية: [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظى، وزاد آية رابعة ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال الأوزاعى: رأى آية من كتاب الله فى الجدار تنهاه[٣] عن ذلك.

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون [صورة][٤] الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبا من الزجر عن ذلك. ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى.

قال: وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾أى: كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء فى جميع أموره.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى: المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

**﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ**

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى الفتاوى (١٠/٢٩٧): «وما ينقل من أنه حل سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده وأمثال ذلك، فهو مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك، فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء، وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً». وانظر: الإسرائيليات فى كتب التفسير لمحمد أبو شهبة (ص٢٢٠ ـ ٢٢٥).

(٢) فى ت: «مردود». (٣) فى ت، أ: «والجدار نهاه». (٤) زيادة من ت، أ.

**عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾.**

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته فى أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه [من ورائه](١) فَقَدَّته (٢) قداً فظيعا، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هاربا ذاهبا، وهى فى إثره، فألفيا سيدها ـ وهو زوجها ـ عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿**مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا**﴾ أى(٣): فاحشة، ﴿**إِلاَّ أَن يُسْجَنَ**﴾ أى: يحبس، ﴿**أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ أى: يضرب ضربا شديداً موجعا. فعند ذلك انتصر يوسف، عليه السلام، بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال بارا صادقا(٤): ﴿**هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي**﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه، ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ**﴾ أى: من قدامه، ﴿**فَصَدَقَتْ**﴾ أى: فى قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته فى صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت: ﴿**وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ ، وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لتردّه إليها، فقدت قميصه من ورائه.

وقد اختلفوا فى هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف، فقال عبد الرزاق:

أخبرنا إسرائيل، عن سِماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا**﴾ قال: ذو لحية.

وقال الثورى، عن جابر، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى، ومحمد بن إسحاق: إنه كان رجلا.

وقال زيد بن أسلم، والسدى: كان ابن عمها.

وقال ابن عباس: كان من خاصة الملك.

وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا**﴾ قال: كان صبيا فى المهد. وكذا رُوى عن أبى هريرة، وهلال بن يَسَاف، والحسن، وسعيد بن جبير والضحاك بن مُزاحم: أنه كان صبيا فى الدار. واختاره ابن جرير.

وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ أخبرنى عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «فقدت». (٣) فى ت، أ: «تعنى».
(٤) فى ت: «صادقاً باراً».

ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار»، فذكر فيهم شاهد يوسف[١].

ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس؛ أنه قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُرَيْج، وعيسى ابن مريم[٢].

وقال ليث ابن أبى سليم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسيا. وهذا قول غريب.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أى: فلما تحقق زوجها صدقَ يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، ﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أى: إن هذا البهت واللَّطخ الذى لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال آمرا ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أى: اضرب عن هذا [الأمر][٣] صفحا، فلا تذكره لأحد، ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾، يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ أى: الذى[٤] وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قَذْفه بما هو برىء منه، استغفرى من هذا الذى وقع منك، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾.

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة، وهى مصر، حتى تحدث الناس به، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراء [و][٥] الكبراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعبن ذلك عليها: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ أى: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٥) ورواه أحمد فى المسند (١/ ٣١٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٩٦) من طريق حماد بن سلمة به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٢) رواه العلاء بن عبد الجبار عن حماد موقوفاً أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٤).

(٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، أ: «للذى». (٥) زيادة من ت، أ.

نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أى: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها. وهو غلافه.

قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغَف: الحب القاتل، والشَّغَف دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب.

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: فى صنيعها هذا من حبها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: قال بعضهم: بقولهن. وقال محمد بن إسحاق: بل[1] بَلَغَهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أى: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾.

قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن، والسدى، وغيرهم: هو المجلس المعد، فيه مفارش ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج[2] ونحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن فى احتيالهن على رؤيته، ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، وذلك أنها كانت قد خبأته فى مكان آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و ﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أى: أعظمن شأنه، وأجللن قدره؛ وجعلن يقطعن أيديهم دَهَشا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج[3] بالسكاكين، والمراد: أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد.

وعن مجاهد، وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله[4] أعلم.

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجا[5]، وآتت كل واحدة منهن سكينا: هل لكن فى النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم. فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن[6]، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلا ومدبرا، وهن يحززن فى أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هكذا، فكيف ألام أنا؟ فقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذى رأينا، لأنهن لم يرين فى البشر شبْهه ولا قريبا منه، فإنه، صلوات الله عليه وسلم[7]، كان قد أعطى شطر الحسن، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فى حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بيوسف، عليه السلام، فى السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أعطى شطر الحسن»[8].

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطى يوسف وأمه شطر

---

(١) فى ت، أ: «قيل». (٢) فى ت، أ: «أترنج». (٣) فى ت: «الأترنج».
(٤) فى أ: «والله». (٥) فى أ: «أترنجا». (٦) فى أ: «عليهن».
(٧) فى ت، أ: «وسلامه».
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه.

الحسن»[١]. وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطى يوسف وأمه ثلث الحسن.

وقال أبو إسحاق أيضا، عن أبى الأحْوَص، عن عبد الله قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غَطّى وجهه مخافة أن تفتتن به.

ورواه الحسن البصرى مرسلا، عن النبى ﷺ أنه قال: «أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا، وأعطى الناس الثلثين ـ أو قال: أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث»[٢].

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجُرَشى قال: قسم الحسن نصفين، فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن. والنصف الآخر بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلى: معناه: أن يوسف كان على النصف من حسن آدم، عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن فى ذريته من يوازيه فى جماله، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه.

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ وقرأ بعضهم: «ما هذا بِشِرًى» أى: بمشترى.

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾: تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحبّ لجماله وكماله.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أى: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن، وهى[٣] العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعد[٤]: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف، عليه السلام، من شرهن وكيدهن، وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أى: من الفاحشة، ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أى: إن وكلتنى إلى نفسى، فليس لى من نفسى قدرة، ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلنى إلى نفسى.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وذلك أن يوسف، عليه السلام، عَصَمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٧٠) وابن عدى فى الكامل (٥/ ٣٨٥) من طريق عفان عن حماد بن سلمة به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». قال ابن عدى: «وهذا الحديث ما أعلم رفعه أحد غير عفان، وغيره أوقفه عن حماد بن سلمة، وعفان أشهر وأوثق وأصدق من أن يقال فيه شىء مما ينسب إلى الضعف».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٠).

(٣) فى ت: «عليهن وهو». (٤) فى ت، أ: «تتوعده».

على ذلك، وهذا فى غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهى امرأة عزيز مصر، وهى مع هذا فى[1] غاية الجمال والمال ،والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله[2]، ورجل قلبه معلق بالمسجد[3]، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا[4] عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إنى أخاف الله»[5].

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾.

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين،أى: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات ـ وهى الأدلة ـ على صدقه فى عفته ونزاهته. فكأنهم ـ والله أعلم ـ إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما[6] أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نَقِىّ العرض، صلوات الله عليه وسلامه.

وذكر السُّدِّى: أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها[7] فى حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾.

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه.

قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذى على الشراب «نبوا»، والآخر «مجلث».

قال السدى: وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه فى طعامه وشرابه.

وكان[8] يوسف، عليه السلام، قد اشتهر فى السجن بالجود[9] والأمانة وصدق الحديث، وحسن السَّمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة

---

(١) فى ت: «إلى».
(٢) فى ت: «فى طاعة الله عز وجل».
(٣) فى ت، أ: «فى المسجد».
(٤) فى ت، أ: «وتفرقا».
(٥) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «اتهاماً».
(٧) فى أ: «منهما».
(٨) فى ت: «فكان».
(٩) فى أ: «بالجودة».

مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان[١] الفتيان إلى السجن، تآلفا به وأحباه حبا شديدا، وقالا له: والله لقد أحببناك حبا زائدا. قال[٢]: بارك الله فيكما، إنه ما أحبنى أحد إلا دخل عليّ من محبته ضرر، أحبتنى عمتى فدخل على الضرر بسببها، وأحبنى أبى فأوذيت بسببه، وأحبتنى امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناما، فرأى الساقى أنه يعصر خمرا ـ يعنى عنبا ـ وكذلك هى فى قراءة عبد الله بن مسعود: «إنى أرانى أعصر عنبا». ورواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن سِنَان، عن يزيد بن هارون، عن شَرِيك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود: أنه قرأها: «أعصر عنبا».

وقال الضحاك فى قوله: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ يعنى: عنبا. قال: وأهل عمان يسمُّون العنب خمرا.

وقال عكرمة: رأيت[٣] فيما يرى النائم أنى غرست حَبَلَة من عنب، فنبتت. فخرج فيه عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك. قال[٤]: تمكث فى السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمراً.

وقال الآخر ـ وهو الخباز ـ: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئا، إنما كانا تحالما ليجربا عليه.

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾.

يخبرهما يوسف، عليه السلام، أنهما[٥] مهما رأيا فى نومهما من حلم، فإنه عارف[٦] بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ .

---

(١) فى ت: «هذا». (٢) فى ت، أ: «فقال».
(٣) فى ت: «وقال عكرمة: قال له رأيت».
(٤) فى ت، أ: «فقال». (٥) فى ت: «أنه».
(٦) فى أ: «عالم».

قال مجاهد: يقول: ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ [فى نومكما](١)، ﴿إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بتَأْوِيله قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السدى.

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد ابن يزيد ـ شيخ له ـ حدثنا رشدين، عن الحسن بن ثوبان، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف، عليه السلام، كان يعتاف وهو كذلك، لأنى أجد فى كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بتَأْوِيله﴾ قال: إذا جاء الطعام حلوا أو مرا اعتاف عند ذلك. ثم قال ابن عباس: إنما علم فعلم. وهذا أثر(٢) غريب.

ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياى؛ لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد. ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين(٣) فإنه يهدى قلبه ويعلّمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماما يقتدى(٤) به فى الخير، وداعيا إلى سبيل الرشاد.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ : هذا التوحيد ـ وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أى: أوحاه إلينا، وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ(٥)﴾ أى: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أنه كان يجعل الجد أبا، ويقول: والله فمن(٦) شاء لاعناه عند الحجْر، ما ذكر الله جدا ولا جدة، قال الله تعالى ـ يعنى إخبارا عن يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾.

ثم إن يوسف ، عليه السلام، أقبل على الفتيين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وَخَلْع ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما، فقال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «أمر». (٣) فى ت، أ: «الضالين».
(٤) فى ت: «يهتدى». (٥) فى أ: «لا يعلمون» (٦) فى ت، أ: «لمن».

﴿الْقَهَّارُ﴾ [أى][١]: الذى وَلِى[٢] كُلَّ شىء بِعزّ جلاله، وعظمة[٣] سلطانه.

ثم بين لهما أنَّ التى يعبدونها ويسمّونها آلهة، إنما هو جَهْلٌ[٤] منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خَلَفهم عن سَلَفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أى: حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كلّه لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم أى: هذا الذى أدعوكم إليه من تَوحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذى أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا كان أكثرهم مشركين. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقد قال ابن جرير: إنما عَدَلَ بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عَرَف أنها ضارّة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعاودوه، فأعاد عليهم الموعظة[٥].

وفى هذا الذى قاله نظر؛ لأنه قد وَعَدَهما أولا بتعبيرها[٦]، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلةً وسببا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع فى تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾.

يقول لهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾، وهو الذى رأى أنه يعصر خمرا، ولكنه لم يعيِّنه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه فى قوله: ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾، وهو فى نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً.

ثم أعلمهما أن هذا قد فُرِغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر، فإذا عُبِّرت وَقَعت.

وقال الثورى، عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا، وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئا. فقال: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «دل». (٣) فى ت، أ: «وعظيم».

(٤) فى ت، أ: «جعل».

(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ١٠٢).

(٦) فى أ: «بتعبيرهما».

ورواه محمد بن فضيل[١]، عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به، وكذا فسره مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وحاصله أن من تحلّم بباطل وفسّره، فإنه يُلزَم بتأويله، والله أعلم، وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حَيْدَة، عن النبى ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر[٢] فإذا عُبِّرت وقعت»[٣].

وفى مسند أبى يَعْلَى، من طريق يزيد الرَّقاشى، عن أنس مرفوعا: «الرؤيا لأول عابر»[٤].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)﴾.

لما ظن[٥] يوسف، عليه السلام، نجاة أحدهما ـ وهو الساقى ـ قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، يقول: اذكر قصتى عند ربك[٦] ـ وهو الملك ـ فنسى ذلك الموصَى أن يُذَكِّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبى الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجى، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف، عليه السلام، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، ومجاهد أيضا، وعِكْرِمة، وغيرهم. وأسند ابن جرير ها هنا حديثا فقال:

حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا عَمْرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد[٧]، عن عمرو بن دينار، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «لو لم يقل ـ يعنى: يوسف ـ الكلمة التى قال: ما لبث فى السجن طول ما لبث. حيث يبتغى الفرج من عند غير الله»[٨].

وهذا الحديث ضعيف جدا؛ لأن سفيان بن وَكِيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد ـ هو الخُوزى ـ أضعف منه أيضا. وقد رُوى عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما، وهذه المرسَلات ها هنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو فى غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما «البضع»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن مُنَبِّه: مكث

---

(١) فى ت: «فضل». (٢) فى ت: «يعبر».

(٣) سبق تخريجه عند تفسير الآية: «٥» من هذه السورة.

(٤) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٩١٥) من طريق عبد الله بن نمير، عن الأعمش، عن يزيد الرقاشى، عن أنس موقوفاً، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢١٦): «هذا إسناد فيه يزيد وهو ضعيف».

(٥) فى ت، أ: «علم». (٦) فى ت، أ: «الملك». (٧) فى ت: «عن يزيد».

(٨) تفسير الطبرى (١٦/١١٢).

أيوب فى البلاء سبعاً ويوسف فى السجن سبعاً، وعذاب[(١)] بختنصر سبعاً.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: فلبث فى السجن بضع سنين قال: ثنتا[(٢)] عشرة سنة. وقال الضحاك: أربع عشرة سنة.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾.

هذه الرؤيا من مَلك مصر مما قَدّر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسفَ، عليه السلام، من السجن مُعززاً مكرما، وذلك أن المَلك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتَعجَّب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحُزَاة وكبراء دولته وأمراءه وقَصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾ أى: أخلاط اقتضت رؤياك هذه[(٣)]، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾ أى: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تَذَكَّرَ ذلك الذى نجا من ذينك الفتيين اللذين[(٤)] كانا فى السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصّاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى: مدة ـ وقرأ بعضهم: «بعد أَمَة» أى: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ أى: بتأويل هذا المنام، ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أى: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا[(٥)]. فجاء. فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾، وذكر المنام الذى رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى فى نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أى[(٦)]: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التى تُستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات

(١) فى ت، أ: «وعذب». (٢) فى ت، أ: «ثنتى». (٣) فى ت، أ: «رؤيا فى هذا».
(٤) فى ت: «الذى». (٥) فى ت: «فبعثوه». (٦) فى ت: «إذ».

الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدون عليه فى تلك السنين فقال: ﴿**فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ**﴾ أى: مهما استغللتم[(١)] فى هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه فى سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذى تأكلونه، وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا فى السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحْل التى تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السِّمان؛ لأن سنى[(٢)] الجَدْب يؤكل فيها ما جَمَعوه فى سنى[(٣)] الخصب، وهن السنبلات اليابسات.

وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شىء؛ ولهذا قال: ﴿ **يأكلن مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ**﴾.

ثم بشرهم بعد الجَدْب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿**عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ**﴾ أى: يأتيهم الغيث، وهو المطرُ، وتُغل البلاد، ويَعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل[(٤)] فيه حلب اللبن أيضاً.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ﴿ **وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾: يحلبون.

﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)** ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التى كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه [وحسن اطلاعه على رؤياه][(٥)]، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال ﴿ **ائْتُونِي بِهِ** ﴾ أى: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلما وعدوانا، قال: ﴿ **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعُلُوّ قدره وصبره، صلوات الله

---

(١) فى ت، أ: «استغليتم».
(٢، ٣) فى ت، أ: «سنين».
(٤) فى ت، أ: «ويدخل».
(٥) زيادة من ت، أ.

وسلامه عليه، ففى المسند والصحيحين من حديث الزهرى، عن سعيد وأبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾** [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى»(١).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله: **﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾** فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر»(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو بن دينار، عن عكْرِمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سُئِل عن البقرات العجاف والسِّمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم البابَ، ولكنه أراد أن يكون له العذر». هذا حديث مرسل(٣).

وقوله تعالى: **﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾**: إخبار عن الملك حين جمع النّسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبا لهن كلهن ـ وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيزـ: **﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾** أى: شأنكن وخبركن **﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾** يعنى: يوم الضيافة؟ **﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾** أى: قالت النسوة جوابا للملك: حاش لله أن يكون يوسف متَّهمًا، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك **﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾**.

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحق وظهر وبرز.

**﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** أى: فى قوله: **﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾**. **﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾** . تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسى، ذلك ليعلم زوجى أن لم أخنه فى نفس الأمرِ، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفتُ ليعلم أنى بريئة، **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾** ، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث(٤) وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء، **﴿إِلَّا مَا(٥) رَحِمَ رَبِّي﴾** أى: إلا من عصمه الله تعالى، **﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ(٦) رَّحِيمٌ﴾**.

---

(١) المسند (٢/٣٢٦) وصحيح البخارى برقم (٤٦٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٥١).

(٢) المسند (٢/٣٤٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٤٠): «وفيه محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨١، ٢٨٢) وقد وصله إسحاق بن راهويه فى مسنده ومن طريقه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٢٤٩) من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزى عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً بنحوه. وفيه إبراهيم بن يزيد وهو متروك.

(٤) فى ت، أ: «تحدث». (٥) فى ت، أ: «من» وهو خطأ. (٦) فى ت: «الغفور» وهو خطأ.

وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام. وقد حكاه الماوردى فى تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تَيميَّة، رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة[(١)].

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، من قوله: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ فى زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الآيتين أى: إنما رَدَدْتُ الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [الآية][(٢)]، وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكْرِمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قال يوسف: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ [وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ][(٣)]﴾، قال: فقال له جبريل، عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به. فقال: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[(٤)].

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة، وابن أبى الهُذَيل، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، عليه السلام، ونزاهة عِرْضه مما نسب إليه، قال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أى: أجعله من خاصّتى وأهل مشورتى﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أى: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال قال له الملك: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف، عليه السلام: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أى: خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ ﴾ ذو علم وبصَر بما يتولاه[(٥)].

قال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتنى، عليم بِسِنِىِّ الجَدْب. رواه ابن أبى حاتم.

وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فى ذلك من المصالح للناس[(٦)]، وإنما سأل أن يُجْعَل على

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/٢٩٨). (٢، ٣) زيادة من ت، أ.

(٤) تفسير الطبرى (١٦/١٤٣).

(٥) فى ت: «نتولاه». (٦) فى ت: «مصالح الناس».

خزائن[١] الأرض، وهى الأهرام التى[٢] يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبةً فيه، وتكرمةً له؛ ولهذا قال تعالى:

**﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾.**

يقول تعالى: **﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾** أى: أرض مصر، **﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾**.

قال السُّدِّى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلا حيث يشاء[٣]، بعد الضيق والحبس والإسار. **﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾** أى: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد، **﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾**، يخبر تعالى أن ما ادخره[٤] الله لنبيه يوسف، عليه السلام، فى الدار الآخرة أعظم وأكثر[٥] وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا كما قال تعالى فى حق سليمان، عليه السلام: **﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾** [ص: ٣٩، ٤٠].

والغرض أن يوسف، عليه السلام، ولاَّه مَلك مصر الريانُ بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته، وأسلم الملك على يدى يوسف، عليه السلام. قاله مجاهد.

وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك: **﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾**، قال الملك: قد فعلت. فولاه فيما ذكروا عمل إطفير[٦]، وعزل إطفير[٧] عما كان عليه، يقول الله عز وجل: **﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾** فذكر لى ـ والله أعلم ـ أن إطفير[٨] هَلك فى تلك الليالى، وأن الملك الريان بن الوليد زوَّج يوسف امرأة إطفير[٩]: راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمنى، فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة، ناعمة فى ملك ودنيا، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك[١٠] على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف، وميشا بن

---

(١) فى ت: «خزان».
(٢) فى ت: «الذى».
(٣) فى ت: «شاء».
(٤) فى ت: «ذخره».
(٥) فى ت: «واكبر».
(٦ ـ ٩) فى ت: «إظفير».
(١٠) فى ت: «وهيبتك».

يوسف[١]. وولد لأفرائيم نون، والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب، عليه السلام.

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مرّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكا بطاعته، والملوك عبيدا بمعصيته.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾.

ذكر السُّدِّى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذى أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف، عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها سنينُ الجدب، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهى التى فيها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس فى غلاتهم، وجمعها أحسن[٢] جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهْراءَ متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة. وكان، عليه السلام، لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة فى وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما فى أيديهم مدة السبع سنين. وكان رحمة من الله على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم فى السنة الأولى بالأموال، وفى الثانية بالمتاع، وفى الثالثة بكذا، وفى الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تَملَّك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم وردّ عليهم أموالهم كلها، الله[٣] أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب.

والغرض أنه كان فى جملة من ورد للميرة إخوةُ يوسف، عن أمر أبيهم لهم فى ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب، عليه السلام، عنده بنيامين شقيق يوسف، عليهما[٤] السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس فى أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه[٥] للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم.

---

(١) وهذا مما لم يرد به الكتاب ولا السنة، فمثله لا يعتمد فيه على رواية ابن إسحاق رحمه الله.

(٢) فى ت: «أتم».

(٣) فى ت: «والله».

(٤) فى ت: «عليه».

(٥) فى ت: «وباعوه».

فذكر السدى وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادى؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبى الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثنى عشر، فذهب أصغرنا، هلك فى البرِيَّة، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقى شقيقة فاحتبسه [(١)] أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أى: وفَّاهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: ائتونى بأخيكم هذا الذى ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه، ثم رهَّبهم فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴾ أى: إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية، فليس لكم عندى ميرة، ﴿ وَلا تَقْرَبُونِ. قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أى: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وذكر السدى: أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم. وفى هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرا، وهذا لحرصه [(٢)] على رجوعهم.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أى: غلمانه ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾، وهى التى قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أى: فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾بها.

قيل: خشى يوسف، عليه السلام، ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تحرجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم[(٣)] والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾.

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل.

وقرأ بعضهم: [يكتل] [(٤)] بالياء، أى يكتل هو، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أى: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك. وهذا كما قالوا له فى يوسف: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ[(٥)] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ؛ ولهذا قال لهم: ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عنى، وتحولون بينى وبينه؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿حَافِظًا﴾،

---

(١) فى ت: «فاحبسوه».
(٢) فى ت: «ولهذا بحرصه» وفى أ: «ولهذا يحرضهم».
(٣) فى ت، أ: «منهم ذلك».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت، أ: «نرتع ونلعب».

﴿ وهو أرحم الرّاحمين ﴾ أى: هو أرحم الراحمين بى، وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى، وأرجو من الله أن يرده على، ويجمع شملى به، إنه أرحم الراحمين.

**﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾.**

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم، وهى التى كان أمر يوسف فتيانه بوضعها فى رحالهم، فلما وجدوها فى متاعهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾؟ أى: ماذا نريد؟ ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة. ما نبغى وراء هذا[1]؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل.

﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾أى: إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطى كل رجل حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمار. وقد يسمى فى بعض اللغات بعيرا، كذا قال.

﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾: هذا من تمام الكلام وتحسينه، أى: إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى: تحلفون[2] بالعهود والمواثيق، ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولاتقدرون على تخليصه.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم فقال: ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة، التى لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

**﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾.**

(١) فى أ: «هذه». (٢) فى ت: «تحلفوا».

يقول تعالى، إخبارا عن يعقوب، عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي: إنه خشى عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه.

وروى ابن أبى حاتم، عن إبراهيم النَّخَعى فى قوله: ﴿ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته فى بعض الأبواب.

وقوله: ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه[1]؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع[2]، ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قالوا: هى دفع إصابة العين لهم، ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾: قال قتادة والثورى: لذو عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

**﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾.**

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعَرّفه أنه أخوه، وقال له: «لاتبتئس» أى: لا تأسف على ما صنعوا بى، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، مُعززًا مكرما معظما.

**﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾.**

لما جَهَّزهم وحَمَّل لهم أبعرتهم طعاما، أمر بعض فتيانه أن يضع «السقاية»، وهى: إناء من فضة فى قول الأكثرين. وقيل: من ذهب ـ قاله ابن زيد ـ كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزَّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال: كان من

---

(١) فى ت: «قضاء الله وقدره».
(٢) فى ت: «لا يمانع ولا يخالف».

فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله فى الجاهلية، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فالتفتوا إلى المنادى وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أى: صاعه الذى يكيل به، ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وهذا من باب الجُعَالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾.

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أى: لقد تحققتم وعلمتم منذ [١] عرفتمونا، لأنهم [٢] شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنَّا ما جئنا للفساد فى الأرض، وما كنا سارقين، أى: ليست سجايانا تقتضى هذه الصفة، فقال [٣] لهم الفتيان: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أى: السارق، إن كان فيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أى: أى شىء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه[٤]؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذى أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أى: فتشها قبله، تورية، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾أى: لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره.

وإنما قيض الله له أن [٥] التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: قال الحسن البصرى: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهى إلى الله عز وجل. وكذا رَوَى عبد الرزاق، عن سفيان الثورى، عن عبد الأعلى الثعلبى، عن سعيد بن جبير

---

(١) فى ت: «مذ». (٢) فى ت: «لا لأنهم». (٣) فى أ: «فقالت».
(٤) فى أ: «فيهم من أخذها». (٥) فى ت: «أنه».

قال: كنا عند ابن عباس فتحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [فقال ابن عباس: بئس ما قلت، الله العليم، وهو فوق كل عالم][(١)]، وكذا روى سماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم. وهكذا [(٢)] قال عكرمة.

وقال قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بُدئ وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفى قراءة عبد الله «وَفَوْقَ كُلِّ عالم عليم».

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾.

وقال [(٣)] إخوة يوسف لما رأوا الصّواع قد أخرج من متاع بنيامين: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾، يتنصلون إلى العزيز من التشبه [(٤)] به، ويذكرون أن هذا فَعَل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف، عليه السلام.

قال سعيد بن جبير، عن قتادة[(٥)]: كان يوسف قد سرق صنما لجده، أبى أمه، فكسره.

وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نَجِيح، عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء، فيما بلغنى، أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختباها [(٦)] ممن وليها كان له سَلَما لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء [(٧)] .وكان يعقوب حين وُلد له يوسف قد حضنته عمته، فكان منها وإليها، فلم يُحَب أحدٌ شيئا من الأشياء حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات وقعت نفس يعقوب عليه فأتاها، فقال: يا أخيَّة[(٨)]، سلّمى إلىّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة. قالت: فوالله ما أنا بتاركته. ثم قالت: فدعه عندى أياما أنظر إليه وأسكن عنه، لعل ذلك يسلّينى عنه ـ أو كما قالت. فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق، عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسف. فقالت: والله إنه لى لسَلَمٌ، أصنع فيه ماشئت. فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر. فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سَلَم لك ما أستطيع غير ذلك. فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت. قال: فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾[(٩)].

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت، أ: «وكذا».
(٣) فى ت، أ: «فقال».
(٤) فى أ: «الشبه».
(٥) فى ت، أ: «وقتادة».
(٦) فى أ: «اختانها».
(٧) فى ت، أ: «ما شاء».
(٨) فى ت، أ: «يا أخته».
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/١٩٦).

وقوله: ﴿ فَأَسَرَّهَا[1] يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ يعنى: الكلمة التى بعدها، وهى قوله: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ[2] ﴾ أى: تذكرون. قال هذا فى نفسه، ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر[3]:

جَزَى بَنُوه أبا الغيلان عن كبَرٍ  وحُسْن فعل[4] كما يُجزَى سنمّار

وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة، فى منثورها وأخبارها وأشعارها.

قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ قال: أسر فى نفسه: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُون ﴾.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾.

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، فـ ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعنون: وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذى فقده، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أى: بدله، يكون عندك عوضاً عنه، ﴿ إِنَّا نَرَاكَ[5] مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: من العادلين المنصفين القابلين للخير. ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ أى: كما قلتم واعترفتم، ﴿ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [أى][6] إن أخذنا بريئا بسقيم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى: انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم.

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو رُوبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما همّوا

---

(١) فى ت: «فأسر هذا». (٢) فى ت: «يصفون».

(٣) هو سليط بن سعد، والبيت من شواهد ابن عقيل فى شرحه على الألفية لابن مالك برقم (١٥٣).

(٤) فى ت، أ: «ظن». (٥) فى أ: «لنراك» وهو خطأ. (٦) زيادة من ت، أ.

بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ لتردنَّه إليه، فقد رأيتم كيف تعذّر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ أى: لن أفارق هذه البلدة، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فى الرجوع إليه راضياً عنى، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، قيل: بالسيف. وقيل: بأن يمكننى من أخذ أخى، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[١]﴾ .

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرا لهم عنده ويتنصلوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما [كنا] [٢] نعلم أن ابنك سرق[٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا فى الغيب أنه يسرق [٤] له شيئا، إنما سألنا [٥] ما جزاء السارق؟

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أى: التى رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

**﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ .**

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف ﴿قَالَ[٦] بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم[٧] هذا مرتباً على فعلهم الأول، سُحِب [٨] حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

ثم ترجى [٩] من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبيل الذى أقام بديار

---

(١) فى ت، أ: «أحكم الحاكمين» وهو خطأ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «يسرق».
(٤) فى ت، أ: «سرق». (٥) فى ت، أ: «سألناه». (٦) فى ت، أ: «فقال» وهو خطأ.
(٧) فى ت: «صبرنا». (٨) فى ت: «اسحب»، وفى أ: «استحب».
(٩) فى ت: «يرجى».

مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أى: العليم بحالى، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أفعاله وقضائه وقدره.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أى: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزْنَ يوسف القديم الأول: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ،جَدَّد له حزنُ الابنين [(١)] الحزن الدفين.

قال عبد الرزاق، أخبرنا الثورى، عن سفيان العُصْفُرىّ، عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يعط أحد غيرَ هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب، عليه السلام: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق [(٢)] . قاله قتادة وغيره.

وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: كميد حزين.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا حماد بن سلمة [حدثنا أبو موسى]، عن على بن زيد[(٣)]، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، أن النبى ﷺ قال: «إن داود، عليه السلام، قال: يارب، إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلنى لهم رابعاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يا داود، إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن إسحاق بذل مهجة [(٤)] دمه فى سببى فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه حتى ابيضت عيناه من الحزن، فصبر، وتلك بلية لم تنلك».

وهذا مرسل، وفيه نكارة[(٥)] ؛فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، ولكن على بن زيد بن جُدْعَان له مناكير وغرائب كثيرة، والله أعلم.

وأقرب ما فى هذا أن يكون قد حكاه الأحنف بن قيس، رحمه الله، عن بنى[(٦)] إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له فى رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلى بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، فى حديث طويل لا يصح، والله أعلم، فعند ذلك رق له بنوه، وقالو له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أى: لا تفارق تَذَكُّر يوسف، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى: ضعيف الجسم، ضعيف القوة، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾

---

(١) فى ت: «الاثنين».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤) وروى موصولاً ولا يصح.

(٣) فى ت: «يزيد». (٤) فى ت: «مهجته».

(٥) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١١/ ٥٥٤) عن عفان، عن حماد بن سلمة به.

(٦) فى ت: «عن بعض بنى».

أى: همي وما أنا فيه ﴿ إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أرجو منه كل خير.

وعن ابن عباس: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [يعنى رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لابد أن يظهرها وينجزها. وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾][(١)]، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأنى سوف أسجد له.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبى غَنِيَّة، عن حفص ابن عمر بن أبى الزبير، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبى، عليه السلام، أخ مُؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذى أذهب بصرك وقَوّس ظهرك؟ قال: الذى[(٢)] أذهب بصرى البكاء[(٣)] على يوسف، وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا يعقوب، إن الله يُقرئك السلام ويقول لك: أما تستحى أن تشكونى إلى غيرى؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله. فقال جبريل، عليه السلام: الله أعلم بما تشكو»[(٤)].

وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن يعقوب، عليه السلام، أنه ندب بنيه على[(٥)] الذهاب فى الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين.

والتحسس[(٦)] يكون فى الخير، والتجسس يستعمل فى الشر.

ونَهّضهم وبشرهم وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله، أى: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه[(٧)]، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون[(٨)].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد[(٩)] مصر، ودخلوا على يوسف،

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «أما الذى». (٣) فى ت، أ: «فالبكاء».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٣٤٨) من طريق أبى بكر بن أبى شيبة، عن يحيى بن عبد الملك بن أبى غنية، عن حفص بن عمر ابن الزبير، عن أنس بنحوه، وقال الحاكم: «حفص بن عمر بن الزبير، وأظن الزبير وهماً من الراوى فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى». ورواه إسحاق بن راهويه ومن طريقه الحاكم فى المستدرك (٢/٣٤٨) من طريق يحيى بن عبد الملك، عن أنس بن مالك مرسلا. ورواه ابن أبى الدنيا فى «الفرج بعد الشدة» برقم (٤٧) من طريق زافر بن سليمان عن يحيى بن عبد الملك عن رجل، عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعاً. ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٣٤١) «مجمع البحرين» من طريق وهب بن بقية عن يحيى بن عبد المطلب عن حصين بن عمر الأحمسى عن أبى الزبير عن أنس مرفوعاً. وبهذا يتبين أن الحديث مضطرب.

(٥) فى أ: «إلى». (٦) فى ت: «والتجسس». (٧) فى ت، أ: «ويقصدون له».

(٨) فى ت: «الكافرين». (٩) فى أ: «بلاد».

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى: ومعنا ثمن الطعام الذى تمتاره، وهو ثمن قليل. قاله مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال ابن عباس: الردىء (١) لا يَنفُق، مثل خَلَق الغِرارة، والحبل، والشىء، وفى رواية عنه: الدراهم الرديئة التى لا تجوز إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسُّدى.

وقال سعيد بن جبير [وعكرمة](٢): هى الدراهم الفُسُول.

وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبة الخضراء.

وقال الضحاك: كاسدة لاتنفق.

وقال أبو صالح: جاؤوا بحَبِّ البُطْم الأخضر والصنوبر.

وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشىء، كما قال حاتم الطائى:

لِيَبْكِ عَلَى مِلْحَانَ ضَيفٌ مُدَفَّعٌ ... وَأرمَلَةٌ تُزْجى مَعَ الليل أرْمَلا(٣).

وقال أعشى بنى ثعلبة:

الوَاهبُ المائة الهجَان وعَبدها ... عُوذاً تُزَجِّى خَلْفَها أطْفَالَها(٤).

وقوله إخبارا عنهم: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أى: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك.

وقرأ ابن مسعود: «فأوقرْ ركابنا وتصدق علينا».

وقال ابن جُرَيْج: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بردِّ أخينا إلينا.

وقال سعيد بن جبير والسدى: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوز فيها.

وسئل سفيان بن عُيَيْنَة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث، عن القاسم، عنه(٥) (٦).

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهدا وسئل: هل يكره أن يقول الرجل فى دعائه: اللهم تصدق علَى؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغى الثواب.

---

(١) فى ت، أ: «الردى الذى لا».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٢٣٥).

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٢٣٥).

(٥) فى أ: «به».

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٤٢).

**﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾.**

يقول تعالى مخبرا عن يوسف، عليه السلام: أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجَدْب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، يقال[1]: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: **﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾**؟ يعني: كيف فرقوا بينه وبينه **﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾** أى: إنما حملكم على هذا[2] الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: **﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾** إلى قوله: **﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** [النحل: ١١٩].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له فى ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين[3] بأمر الله تعالى له فى ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فَرَّج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: **﴿ فَإِنَّ[4] مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾** [الشرح: ٥، ٦]، فعند ذلك قالوا: **﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾**؟

وقرأ أُبىّ بن كعب: «أو أنت[5] يُوسُفُ»، وقرأ ابن مُحَيْصِن: «إنَّك لأَنتَ[6] يُوسُفُ». والقراءة المشهورة هى الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أى: إنهم تَعجَّبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: **﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾**، **﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾** أى: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة، **﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾** يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخلق والخلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضا ـ على قول من لم يجعلهم أنبياء ـ وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطؤوا فى حقه.

**﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾** يقول: لا تأنيب عليكم ولا عَتْب عليكم اليوم، ولا أعيد[7] ذنبكم فى حقى بعد اليوم.

---

(١) فى ت، أ: «فيقال». (٢) فى أ: «ذلك». (٣) فى ت، أ: «الاولتين».
(٤) فى ت، أ: «إن» وهو خطأ. (٥) فى أ: «أو إنك». (٦) فى ت، أ: «وأنت».
(٧) فى ت، أ: «ولا أعيد عليكم».

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال السدى: اعتذروا إلى يوسف، فقال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم.

وقال ابن إسحاق والثورى: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم [الْيَوْمَ][(1)]﴾ أى: لا تأنيب عليكم اليوم عندى فيما صنعتم ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى: يستر الله عليكم فيما فعلتم، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾.

يقول: اذهبوا بهذا القميص، ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، وكان قد عَمِى من كثرة البكاء، ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: بجميع بنى يعقوب.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أى: خرجت من مصر، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعنى: يعقوب، عليه السلام، لمن بقى عنده من بنيه: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾: تنسبونى إلى الفَنَد والكِبَر.

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبى سِنَان، عن عبد الله بن أبى الهُذَيْل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ قال: لما خرجت العير، هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام[(2)].

وكذا رواه سفيان الثورى، وشعبة، وغيرهما عن أبى سِنَان، به.

وقال الحسن وابن جُرَيْج: كان بينهما ثمانون فرسخا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة.

وقوله: ﴿ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جُبَيْر: تُسَفِّهون.

وقال مجاهد أيضا، والحسن: تُهَرِّمون.

وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم.

وقال قتادة: أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظة، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبى الله ﷺ[(3)]. وكذا قال السدى، وغيره.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٦).

(٣) فى أ: «عليه السلام».

**لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)** ﴾.

قال ابن عباس والضحاك: ﴿**الْبَشِيرُ**﴾: البريد.

وقال مجاهد والسدى: كان يهوذا بن يعقوب.

قال السدى : إنما جاء به لأنه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كَذب، فأراد[1] أن يغسل ذاك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيرا.

وقال لبنيه عند ذلك: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ أى: أعلم أن الله سيرده إلىَّ، وقلت لكم: ﴿**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ**﴾؟. فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿**يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾أى: من تاب إليه تاب عليه.

قال ابن مسعود، وإبراهيم التَّيْمِىّ، وعمرو بن قيس، وابن جُرَيْج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السَّحَر.

وقال ابن جرير: حدثنى أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر، رضى الله عنه، يأتى المسجد فيسمع [2] إنسانا يقول: «اللهم دعوتنى فأجبت، وأمرتنى فأطعت، وهذا السَّحَرُ فاغفر لى». قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾[3].

وقد ورد فى فى الحديث أن ذلك كان ليلة جمعة، كما قال ابن جرير: أيضا: حدثنى المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو [4] أيوب الدمشقى، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جُرَيْج، عن عَطاء وعِكْرِمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾، يقول: حتى تأتى ليلة الجمعة، وهو قول أخى يعقوب لبنيه[5].

وهذا غريب من هذا الوجه، وفى رفعه نظر، والله أعلم.

---

(١) فى ت، أ: «فأحب». (٢) فى أ: «فسمع».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٦١).

(٤) فى ت: «بن».

(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٦٢) وهذا إسناد فيه ثلاث علل:

**الأولى:** عنعنه ابن جريج وهو مدلس لم يصرح بالسماع.

**الثانية:** الوليد بن مسلم القرشى كان يهم فى رفع الأحاديث ويدلس تدليس التسوية.

**الثالثة:** سليمان بن عبد الرحمن تكلم فيه من جهة حفظه وبمثل هذا السند روى حديث دعاء نسيان القرآن، وسبق الكلام عليه فى فضائل القرآن.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾.

يخبر تعالى عن ورود يعقوب، عليه السلام، على يوسف، عليه السلام، وقدومه بلاد (١) مصر، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد (٢) مصر، فلما أخبر يوسف، عليه السلام، باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر [الملك](٣) أمراءه وأكابر الناس بالخروج [مع يوسف] (٤) لتلقى نبى الله يعقوب، عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضا لتلقيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير (٥) من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش.

وقد رد ابن جرير هذا. وأجاد فى ذلك. ثم اختار ما حكاه عن السُّدِّى: أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.

وفى هذا نظر أيضا؛ لأن الإيواء إنما يكون فى المنزل، كقوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، وفى الحديث: «من آوى محدثا» وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، وضمَّنه: اسكنوا مصر﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ أى: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال ـ والله أعلم ـ: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التى دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف»، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان فى ذلك، فدعا لهم، فَرُعَ عنهم بقية ذلك ببركة دعائه، عليه السلام(٦).

وقوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾، قال السدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه (٧) وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديما.

وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان.

قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذى نصره

---

(١) فى أ: «على». (٢) فى ت، أ: «ديار». (٣، ٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «كثيرين».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٠٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٧) فى ت: «أبوه».

هو المنصور الذى يدل عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعنى السرير، أى: أجلسهما معه على سريره.

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أى: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلا، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أى: التى كان قصها على أبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى، عليه السلام، فحرم هذا فى هذه الملة، وجُعِل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى.

هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفى الحديث أن معاذا قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يارسول الله فقال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة (١) أن تسجد لزوجها من عِظم (٢) حقه عليها» (٣).

وفى حديث آخر: أن سلمان لقى النبى ﷺ فى بعض طُرُق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبى ﷺ، فقال: «لا تسجد لى يا سلمان، واسجد للحى الذى لا يموت» (٤).

والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم؛ ولهذا خروا له سُجَّداً، فعندها قال يوسف: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أى: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أى: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أى: صحيحة صدْقا، يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أى: البادية.

قال ابن جُرَيْج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية. وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبَات من أرض فلسطين، من غور الشام. قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمَى، وكانوا أصحاب بادية وشاء (٥) وإبل.

---

(١) فى ت، أ: «المرأة».
(٢) فى ت: «عظيم».
(٣) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٣٨١) وابن ماجه فى السنن برقم (١٨٥٣) من حديث معاذ رضى الله عنه، وصححه ابن حبان.
(٤) رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (٢/ ١٠٣) من طريق شهر بن حوشب، عن سلمان رضى الله عنه، وسيأتى عند تفسير الآية: ٥٨ من سورة الفرقان.
(٥) فى أ: «وماشية».

﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي [ثم قال][1] إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾أى: إذا أراد أمراً قيض له أسبابا ويسره وقدره، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

قال أبو عثمان النهدى، عن سلمان [2]: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة.

قال عبد الله بن شداد: وإليها [3] ينتهى أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير.

وقال أيضا: حدثنا عمرو بن على، حدثنا عبد الوهاب الثقفى، حدثنا هشام، عن الحسن قال: كان منذ [4] فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا، ثمانون سنة، لم يفارق فى الحزن قلبه، ودموعه تجرى على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب[5].

وقال هُشَيْم، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين [6] سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة.

وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة.

وقال محمد بن إسحاق: ذُكر ـ والله أعلم ـ أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانى عشرة سنة ـ قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين [7] سنة أو نحوها، وأن يعقوب، عليه السلام، بقى مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وستون إنسانا، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا.

وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة. والله [8] أعلم.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر. وهم ستة وثمانون إنسانا، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «عن سلمان قال».
(٣) فى ت: «وإليه».
(٤) فى ت: «مذ».
(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٧٣).
(٦) فى أ: «ثمانون».
(٧) فى أ: «أربعون».
(٨) فى ت، أ: «فالله».

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل، لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل، كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها عليه فى الآخرة، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه [عليه و] [١] عليهم أجمعين.

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم فى الرفيق الأعلى، اللهم فى الرفيق الأعلى، اللهم فى الرفيق الأعلى»[٢].

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعى لغيره: «أماتك الله على الإسلام». ويقول الداعى: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين».

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغا فى ملتهم، كما قال قتادة: قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ : لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور فى الدنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق[٣] إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبى قط الموت قبل يوسف، عليه السلام.

وكذا ذكر ابن جرير[٤]، والسدى عن ابن عباس: أنه أول نبى دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحا أول من قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨]، ويحتمل أنه أول من سأل نجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز[٥] فى شريعتنا.

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لابد[٦] متمنيا الموت فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى»[٧].

[ورواه البخارى ومسلم، وعندهما: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فيزداد، وإما مسيئا فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٤٣٧) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٤).
(٣) فى ت، أ: «واشتاق». (٤) فى ت، أ: «جريج». (٥) فى ت، أ: «لا يجوز هذا».
(٦) فى ت، أ: «كان ولابد».
(٧) المسند (٣/١٠١).

خيراً لى»[(١)]][(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَان بن رفاعة، حدثنى على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكَّرنا ورقَّقنا، فبكى سعد بن أبى وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتنى مت! فقال النبى ﷺ: «يا سعد أعندى تتمنى الموت؟» فردَّد ذلك [ثلاث][(٣)] مرات ثم قال: «يا سعد، إن كنت خلقت للجنة، فما طال[(٤)] عمرك، أو حَسُن من عملك، فهو خير لك»[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا أبو يونس ـ هو سُلَيم بن جُبير ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ؛ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعوَن[(٦)] به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وَثِق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره[(٧)] إلا خيراً» تفرد به أحمد[(٨)].

وهذا فيما إذا كان الضر خاصا به، أما إذا كان[(٩)] فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السخرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدَّدهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣]، لَمَا تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أولا بأن قالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجا ومخرجا، وأنطق الصبى فى المهد بأنه عبد الله ورسوله، وكان[(١٠)] آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه[(١١)]. وفى حديث معاذ، الذى رواه الإمام أحمد والترمذى، فى قصة المنام والدعاء الذى فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفنى إليك غير مفتون»[(١٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة، أنا عبد العزيز بن محمد، عن عمرو عن[(١٣)] عاصم عن[(١٤)] عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد؛ أن النبى ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم الموت، والموت خير

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٠).
(٢) زيادة من ت، أ. (٣) زيادة من ت، أ، والمسند. (٤) فى ت، أ: «فأطال».
(٥) المسند (٥/٢٦٦).
(٦) فى ت، أ: «لا يدعو». (٧) فى ت، أ: «عمله».
(٨) المسند (٢/ ٣٥٠).
(٩) فى أ: «كان فيه». (١٠) فى ت: «فكان». (١١) فى ت: «عليه وسلامه».
(١٢) المسند (٥/٢٤٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥). وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل البخارى عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».
(١٣، ١٤) فى ت: «ابن».

للمؤمن [من الفتنة][١] ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب»[٢].

فعند حُلول الفتن فى الدين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهمَّ، خذنى إليك، فقد سئمتهم وسئمونى.

وقال البخارى، رحمه الله، لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفنى إليك.

وفى الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر ـ أى فى زمان الدجال ـ فيقول: يا ليتنى مكانك»[٣]، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التى هى فتنة لكل مفتون.

قال أبو جعفر بن جرير: وذُكِرَ أن بنى يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

**[ذكر من قال ذلك][٤]:**

حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنى حجاج، عن صالح المرى، عن يزيد الرَّقاشى، عن أنس ابن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه[٥]، خلا ولدُه نجياً، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم، وما لقى منكم الشيخ، وما لقى منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغرّكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك فى أمر، لم نأتك فى مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله. حتى حَرَّكوه، والأنبياء، عليهم السلام، أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بَنىّ؟ قالوا: ألست قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى. قالوا: أو لستما قد عَفَوتما؟ قالا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئا، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بنى؟ قالوا: نُريدُ أن تدعوَ الله لنا، فإذا جاءك الوحى من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قُرّة عين فى الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلَّة خاشعين. قال: فدعا وأمَّن يوسف، فلم يُجبْ فيهم عشرين سنة ـ قال صالح المرى[٦]: يخيفهم ـ قال: حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل، عليه السلام، على يعقوب فقال: إن الله بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك، وأنه قد عفا عما

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٥/ ٤٢٧).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٥٧/ ٥٤) من حديث أبى هريرة بلفظ «والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتنى كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى هـ، ت، أ: «شمله بعينه» والمثبت من الطبرى.

(٦) فى ت: «المزى».

صنعوا، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة[١].

هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشى وصالح المرى[٢] ضعيفان جداً.

وذكر السدى: أن يعقوب، عليه السلام، لما حضره الموت، أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صَبَّره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما، عليهم[٣] السلام.

**﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾.**

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهدا لهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أى: على إلقائه فى الجب، ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحيا إليك، وإنزالا عليك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤]. إلى أن قال: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ص: ٦٩، ٧٠].

يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم فى دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أى: من جُعَالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحا لخلقه.

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به فى الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٨١).

(٢) فى ت: «المزى».

(٣) فى ت: «عليهما».

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾.

يخبر تعالى عن [غفلة][١] أكثر الناس عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله فى السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم فى الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوانات ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، فى الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذى الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾: قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد، وعطاء وعكرمة، والشعبى، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهكذا فى الصحيحين[٢]: أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وفى الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا: «لبيك لا شريك لك» يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ»، أى حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا[٣].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذى يعبد مع الله غيره، كما فى الصحيحين. عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أىّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلَقَك»[٤].

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك، يعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

وثمَّ شرك آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله، كما روى حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن عُرْوَة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى فى عضده سيراً فقطعه ـ أو: انتزعه ـ ثم قال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت، أ: «فى صحيح مسلم».

(٣) صحيح مسلم برقم (١١٨٥/ ٢٢).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

وفى الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك». رواه الترمذى وحسَّنه من رواية ابن عمر[(١)].

وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرُّقَى والتَّمائِم والتِّوَلة شرْك»[(٢)].

وفى لفظ لهما: «[الطِّيَرة شرك][(٣)] وما منَّا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»[(٤)].

ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن يحيى الجزار[(٥)]، عن ابن أخى، زينب [عن زينب][(٦)] امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح[(٧)] وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقينى من الحُمْرَة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبى، فرأى فى عنقى خيطا، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رُقِى لى فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياءٌ عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك». قالت، قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عينى تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذاك من الشيطان. كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها: إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سَقَمًا»[(٨)].

وفى حديث آخر رواه الإمام أحمد، عن وَكِيع، عن ابن أبى ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عُكَيْم[(٩)]، وهو مريض نعوده، فقيل له: تَعَلَّقتَ شيئا؟ فقال: أتعلق شيئا! وقد قال رسول الله ﷺ: «من تَعَلَّق شيئا وُكِلَ إليه»[(١٠)]. ورواه النسائى عن أبى هريرة[(١١)].

وفى مسند الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علَّق تميمة

---

(١) سنن الترمذى برقم (١٥٣٥).

(٢) المسند (١/ ٣٨١) وسنن أبى داود برقم (٣٨٨٣) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٥٣٠).

(٣) زيادة من ت، أ، والمسند وسنن أبى داود.

(٤) المسند (١/ ٣٨٩) وسنن أبى داود برقم (٣٩١٠).

(٥) فى ت، أ: «يحيى بن الجزار».

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٧) فى ت: «تنجيح».

(٨) المسند (١/ ٣٨١).

(٩) فى ت: «حكيم».

(١٠) المسند (٤/ ٣١٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٧٢) من طريق عبد الرحمن بن أبى ليلى به، وقال الترمذى: «وحديث عبدالله بن حكيم إنما نعرفه من حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى، وعبد الله بن حكيم لم يسمع النبى ﷺ، وكان فى زمن النبى ﷺ يقول: «كتب إلينا رسول الله ﷺ».

(١١) سنن النسائى (٧/ ١١٢).

فقد أشرك» وفى رواية: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تَعلَّق ودَعَةً فلا وَدَعَ الله له»[١].

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشِرْكه». رواه مسلم[٢].

وعن أبى سعيد بن أبى فَضَالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». رواه أحمد[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا لَيْث، عن يزيد ـ يعنى: ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخْوَف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[٤].

وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لَبِيد، به[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لَهِيعة، أنبأنا ابن هُبَيْرة، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من رَدّته الطِّيَرَةُ من حاجة، فقد أشرك». قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك[٦]، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان العَرْزَمى، عن أبى على ـ رجل من بنى كاهل ـ قال: خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دَبِيب النمل. فقام عبد الله بن حَزْن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن[٨] مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول

---

(١) المسند (٤/١٥٦) وقال المنذرى فى الترغيب (٤/٣٠٧): «رجاله ثقات».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٣) المسند (٤/٢١٥).

(٤) المسند (٥/٤٢٨) وحسنه الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام.

(٥) رواه البغوى فى شرح السنة (١٤/٣٣٣) من طريق على بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر به.

(٦) فى ت: « لا غير إلا غيرك».

(٧) المسند (٢/ ٢٢٠) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص٢٩٣) من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة به، فصح الحديث بحمد الله.

(٨) فى ت: «ليخرجنَّ».

الله ﷺ [ذات يوم][(١)] فقال: «أيها الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل». فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك [من][(٢)] أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»[(٣)].

وقد روى من وجه آخر، وفيه أن السائل فى ذلك هو الصدّيق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن لَيْث بن أبى سليم، عن أبى محمد، عن مَعْقِل بن يَسَار قال: شهدت النبى ﷺ ـ أو قال: حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلها آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل». ثم قال: «ألا أدلّك على ما يُذهب عنك صَغِير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم، أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[(٤)].

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوى، عن شيبان بن فَرُّوخ، عن يحيى بن كثير، عن الثورى، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم، عن أبى بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا». قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشىء إذا قلتَه برئتَ من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟». قال: بلى، يا رسول الله، قال: «قل: اللهم، إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[(٥)].

قال الدارقطنى: يحيى بن كثير هذا يقال له: «أبو النضر»، متروك الحديث.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه، والنسائى، من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم[(٦)]، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه: يارسول الله، علمنى شيئا أقوله إذا أصبحتُ، وإذا أمسيتُ، وإذا أخذت مضجعى. قال: «قل: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربّ كل شىء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى، ومن شر الشيطان وشركه»[(٧)].

وزاد أحمد فى رواية له من حديث ليث بن أبى سليم، [عن مجاهد][(٨)]، عن أبى بكر قال:

---

(١، ٢) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٣) المسند (٤/ ٤٠٣).

(٤) مسند أبى يعلى (١/ ٦٢) ورواه ابن جريج عن ليث، عن أبى محمد، عن حذيفة نحوه، وأخرجه أبو يعلى فى المسند (١/ ٦٠) وأبو محمد مجهول، وليث بن أبى سليم ضعيف.

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٧/ ١١٢) من طريق يحيى بن محمد البخترى، عن شيبان بن فروخ به نحوه، وقال: «تفرد به عن الثورى يحيى بن كثير».

(٦) فى هـ، أ: «عاص» والمثبت من ت والمسند.

(٧) المسند (١/ ٩) وسنن أبى داود برقم (٥٠٦٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٩٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٦٩١).

(٨) زيادة من ت،أ.

أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول. . . فذكر هذا الدعاء وزاد فى آخره: «وأن أقترف على نفسى سُوءاً أو أجُرّه إلى مسلم»[(١)].

وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أى: أفأمن هؤلاء المشركون [ بالله ][(٢)] أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥ـ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩].

**﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾.**

يقول [الله][(٣)] تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أى طريقه ومسلكه وسنته، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصِيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعى وعقلى.

وقوله: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى: وأنزّه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كلّه علوا كبيراً. ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

**﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾.**

يخبر تعالى أنه إنما أرسلَ رسُلَه من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بنى آدم وَحى تشريع.

وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة

---

(١) المسند (١/ ١٤).

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) زيادة من أ.

بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية [القصص: ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه فى أن هذا: هل يكفى فى الانتظام فى سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذى عليه [أئمة][1] أهل السنة والجماعة، وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى عنهم: أنه ليس فى النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريمَ بنت عمران حيث قال: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصدّيقية، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام، فهى صديقة بنص القرآن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي[2] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أى: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ الآية [الأحقاف: ٩].

وقوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾: المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادى، الذين هم أجفى الناس طباعا وأخلاقا. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعا، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩٧].

وقال قتادة فى قوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾: لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود.

وفى الحديث الآخر: أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضى، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ ألا أتَّهبَ هِبَةً إلا من قرشى، أو أنصارى، أو ثقفى، أو دَوْسِىّ»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «يوحى».

(٣) رواه أحمد فى المسند (١/ ٢٩٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال الأعمش: هو [ابن][١] عمر، عن النبى ﷺ أنه قال: «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[٢].

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ [يعنى: هؤلاء المكذبين لك يا محمد فى الأرض،][٣] ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا[٤] خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا[٥] ﴾ أى: وكما أنجينا المؤمنين فى الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة أيضا، وهى خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٠، ٥١].

وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ ﴾، كما يقال: «صلاة الأولى» و«مسجد الجامع» و«عام الأول» و«بارحة الأولى» و«يوم الخميس». قال الشاعر:

أَتَمْدَحُ فَقْعَساً وتَذُم[٦] عَبْساً ... ألاَ للهِ أُمّكَ مِنْ هَجِين
ولو أقْوتْ عَلَيك دِيارُ عَبْسٍ ... عَرَفْتَ الذّلّ عِرْفانَ اليَقِين[٧]

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾.

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى فى أحوج الأوقات إلى ذلك، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفى قوله: ﴿ كُذِبُوا ﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: «قد كُذّبوا»، وكذلك كانت عائشة، رضى الله عنها، تقرؤها، قال البخارى:

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال:

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٢) المسند (٢/ ٤٣).
(٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، أ: «استعملوا». (٥) فى ت، أ: «يتقون» وهو خطأ.
(٦) فى ت: «وتمدح».
(٧) البيتان فى تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩٥).

أخبرنى عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾، قال: قلت: أَكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمرى لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت[١]: معاذ الله، لم تكن[٢] الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك.

حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهرى قال: أخبرنا عُرْوَة، فقلت: لعلها قد كُذِبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره[٣].

وقال ابن جُرَيْج أخبرنى ابن أبى مُلَيْكَة: أن ابن عباس قرأها: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خفيفة ـ قال عبد الله هو ابن مُلَيْكَة: ثم قال لى ابن عباس: كانوا بشراً[٤]، وتلا ابن عباس: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال ابن جريج: وقال لى ابن أبى مليكة: وأخبرنى عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شىء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أنَّ من معهم من المؤمنين قد كذَّبوهم. قال ابن أبى مليكة فى حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا» مثقلة، للتكذيب.

وقال ابن أبى حاتم: أنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنا ابن وهب، أخبرنى سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظى يقول[٥] هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، فقال القاسم: أخبره عنى أنى سمعت عائشة زوج النبى ﷺ تقول: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، تقول: كذبتهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضا.

والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا فى تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم، وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضُّحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، مخففة، قال عبد الله: هو الذى تكره[٦].

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس، رضى الله عنهما، مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فروى الأعمش، عن مسلم، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذَّبوهم،

---

(١) فى ت، أ: «فقالت». (٢) فى ت: «يكن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٥، ٤٦٩٦).
(٤) فى أ: «بشروا». (٥) فى ت، أ: «يقرأ».
(٦) فى أ: «يكره».

جاءهم النصر على ذلك، ﴿ فَنُجِّيَ[١] مَن نَّشَاءُ ﴾.

وكذا روى عن سعيد بن جبير، وعمران بن الحارث السلمى، وعبد الرحمن بن معاوية وعلى بن أبى طلحة، والعوفى عن ابن عباس بمثله.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا عارم[٢] أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب[٣]، حدثنا إبراهيم بن أبى حُرة[٤] الجزرىّ قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحرف، فإنى إذا أتيت عليه تمنيت أنى لا أقرأ هذه السورة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَلُ إليهم أن الرسل كَذَبوا. فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكأ! لو رحلت فى هذه إلى اليمن كان قليلا.

ثم روى ابن جرير أيضا من وجه آخر: أن مسلم بن يَسَار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرَّج الله عنك كما فَرجت عنى.

وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك. وكذا فسرها مجاهد بن جَبْر، وغير واحد من السلف، حتى إن مجاهدا قرأها: «وظنوا أنهم قد كَذَبوا»، بفتح الذال. رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير فى قوله: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم، أى: وظن الكفار أن الرسل قد كَذَبوا ـ مخففة ـ فيما وعدوا به من النصر.

وأما ابن مسعود فقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضيل[٥]، عن جَحش[٦] بن زياد الضبى، عن تميم بن حَذْلَم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول فى هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم[٧]، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا، بالتخفيف[٨].

فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجَّه المشهور عن الجمهور، وزيف القول الآخر بالكلية، وردَّهُ وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم[٩].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾.

(١) فى ت: «فننجى». (٢) فى ت: «غارم». (٣) فى أ: «شعبة».
(٤) فى ت، أ: «أبى حمزة». (٥) فى أ: «فضل». (٦) فى ت، أ: «محسن».
(٧) فى ت، أ: «لهم». (٨) فى ت، أ: «مخففة».
(٩) انظر ما قالته عائشة فى: تفسير الطبرى (١٦/٣٠٧، ٣٠٨) ورد الطبرى لقول ابن عباس (١٦/٣٠٦).

يقول تعالى: لقد كان فى خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا[١] المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾، وهى العقول، ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أى: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أى: يكذب ويختلق؛ ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبْيَضَّة وجوههم الناضرة، ويرجع[٢] المسودَّة وجوهُهم بالصفقة الخاسرة.

**آخر تفسير سورة يوسف، ولله الحمد والمنة وبه المستعان وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل**

---

(١) فى ت، أ: «نجينا».

(٢) فى ت: «وترجع».

## سورة يوسف

مكّيّة، وهي مائة وإحدى عشرة آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾

﴿الٓر﴾ / الكلامُ فيه وفي محلّه وفيما أريدَ بالإشارة والآيات والكتاب في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عين ما سلَف في مطلع سورة يونس. [١٧٦ظ]

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ مِن أبانَ بمعنى بانَ، أي: الظاهرِ أمرُه في كونه مِن عند الله تعالى وفي إعجازه بنوعيه، لا سيّما الإخبار عن الغيب، أو الواضحِ معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه، ولا يلتبس لديهم دقائقُه؛ لنزوله على لغتهم، أو بمعنى بيّن، أي: المبيّنِ لِما فيه مِن الأحكام والشرائع وخفايا المُلك والمَلكوت وأسرار النشأتين في الدارين وغيرِ ذلك مِن الحِكَم والمعارف والقصص.

وعلى تقدير كون ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عبارةً عن السورة فإبانته إنباؤه عن قصّة يوسف، فإنّه قد رُوي أنّ أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين: سلوا محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم: لماذا انتقل آل يعقوب عليه السلام مِن الشام إلى مصر؟ وعن قصّة يوسف عليه السلام، ففعلوا ذلك.[١] فيكون وصف ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بالإبانة مِن قَبيل براعة الاستهلال لِما سيأتي.

ولمّا وُصِفَ الكتابُ بما يدلّ على الشرف الذاتي عُقِّب ذلك بما يدلّ على الشرف الإضافي فقيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ المنعوت بما ذُكر مِن النعوت الجليلة، فإن كان عبارةً عن الكلّ -وهو الأظهر الأنسب بقوله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾؛ إذ هو المشهور بهذا الاسم، المعروفُ بهذا النعت، المتسارعُ إلى الفهم

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٠/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٤/٣.

عند إطلاقهما- فالأمر ظاهر. وإن جُعل عبارةً عن السورة فتسميتها قرآنًا لِما عرفته فيما سلف. والسرّ في ذلك أنّه اسم جنس في الأصل يقع على الكلّ والبعض كالكتاب، أو لأنّه مصدر بمعنى المفعول، أي: أنزلناه حال كونه مقروءًا بلغتكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لِكي تفهموا معانيَه طُرًّا، وتحيطوا بما فيه مِن البدائع خُبرًا، وتطّلعوا على أنّه خارج عن طَوق البشر، مُنَزّلٌ مِن عند خلّاق القوى والقُدَر.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نخبرك ونحدّثك. واشتقاقه مِن "قصّ أثرَه" إذا اتّبعه؛ لأنّ مَن يَقُصّ الحديث يتبع ما حفِظ منه شيئًا فشيئًا، كما يقال: تَلا القرآن؛ لأنّه يتبع ما حفظ منه آيةً بعد آيةٍ.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أي: أحسن الاقتصاص، فنصبه على المصدريّة. وفيه مع بيان الواقع إيهام لِما في اقتصاص أهل الكتاب مِن القُبح والخَلل. وتركُ المفعول إمّا للاعتماد على انفهامه مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي: بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: هذه السورةَ، فإنّ كونها موحاةً منبئٌ عن كون ما في ضِمنها مقصوصًا. والتعرّض لعنوان قرآنيّتها لتحقيق أنّ الاقتصاص ليس بطريق الإلهام أو الوحي غيرِ المتلوّ. وإمّا لظهوره مِن سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود.

وأحسنيّتُه لأنّه قد اقتُصّ على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة، وأعجبِ الأساليب الفائقة اللائقة، كما لا يكاد يخفى على مَن طالع القصّة مِن كتب الأوّلين والآخِرين، وإن كان لا يميّز الغثَّ / مِن السمين، ولا يفرّق بين الشمال واليمين. [١٧٧و]

وفي كلمة ﴿هَٰذَا﴾ إيماء إلى مغايرة ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ لِما في قوله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[١] بأن يكون المراد بذلك المجموعَ، فتأمّل.

---

[١] في الآية السابقة.

أو نقصّ عليك أحسنَ ما يُقَصّ مِن الأنباءِ، وهو قصّة آل يعقوب عليه السلام، على أنّ ﴿ٱلْقَصَصِ﴾ "فَعَل" بمعنى المفعول، كالنبأ والخَبَر، أو مصدر سُمّي به المفعول، كالخَلق والصيد. ونصبُ ﴿أَحْسَنَ﴾ على المفعوليّة. وأحسنيّتها لتضمّنها مِن الحِكَم والعِبر ما لا يخفى كمالُ حُسنه.

﴿وَإِن كُنتَ﴾ ﴿إن﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الواقعُ اسمًا لها محذوف، واللام فارقة، والجملة خبر. والمعنى: وإنّ الشأن كنتَ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ مِن قبل إيحائنا إليك هذه السورة ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن هذه القصّة، لم تخطر ببالك، ولم تقرَع سمعَك قطّ. وهو تعليل لكونه موحًى. والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وإن غفِل عنه بعض الغافلين.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ نصب بإضمار "اذكر"،[1] وشروع في القصّة إنجازًا للوعد بأحسن الاقتصاص، أو بدل مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ -على تقدير كونه مفعولًا- بدل الاشتمال، فإنّ اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص مِن حيث اشتمالُه عليه اقتصاصٌ للمقصوص. و"يوسف" اسم عبري لا عربي، لخلوّه عن سبب آخرَ غيرِ التعريف. وفتحُ السين وكسرُها على بعض القراءات[2] بناء على التلقّب به، لا على أنّه مضارع بُنِيَ للمفعول أو الفاعل مِن "آسَف"، لشهادة المشهورة بعُجمته.

﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم عليهم السلام، وقد رُوي عنه عليه السلام: / «إنّ الكريم ابنَ[3] الكريم ابنِ[4] الكريم ابنِ[5] الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم».[6] [١٧٧ظ]

---

[1] وفي هامش م: وفي تذكير الوقت ما مرّ مرارًا مِن النكتة الرائعة. «منه».

[2] كسر السين قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة وعاصم والأعمش والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٧.

[3] س: بن.

[4] س: بن.

[5] س: بن.

[6] صحيح البخاري، ١٥١/٤ (٣٣٩٠).

﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أصله "يا أبي"، فعُوّض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة، فلذلك قُلبَت هاءً في الوقف على قراءة ابن[1] كثير وأبي عمرو ويعقوب.[2] وكسْرَتُها لأنّها عِوض حرفٍ يناسبها. وفَتَحها ابن عامر في كلّ القرآن؛[3] لأنّها حركة أصلِها، أو لأنّ الأصل "يا أبتا"، فحُذف الألف وبقي الفتحة. وإنّما لم يجز "يا أبتي" لأنّه جمع بين العوض والمعوَّض. وقُرئ بالضمّ[4] إجراءً لها مُجرى الألفاظ المؤنّثة بالتاء مِن غير اعتبار التعويض. وعدم تسكينِها كأصلها لأنّها حرف صحيح منزّل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ مِن الرؤيا، لا مِن الرؤية؛ لقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾،[5] ﴿هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ﴾.[6] ولأنّ الظاهر أنّ وقوع مثل هذه الأمور البديعة في عالم الشهادة لا يختصّ برؤيته[7] راءٍ دونَ راءٍ، فيكون طامّةً كبرى لا يخفى على أحد مِن الناس.

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ رُوي عن جابر رضي الله عنه: أنّ يهوديًّا جاء إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أخبرني يا محمّد عن النجوم التي رآهنّ يوسف عليه السلام»، فسكت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال عليه السلام: «إذا أخبرتك بذلك هل تُسلم؟» قال: «نعم»، قال عليه الصلاة والسلام:[8] «جَريانُ والطارق والذيّال وقابس وعمودان والفليق والمُصبِّح والضَّروحُ[9] والفَرغ ووَثّاب / وذو الكتفين [١٧٨و]
رآها يوسف، والشمس والقمر نزلن مِن السماء وسجدن له» فقال اليهوديّ: «إي واللهِ إنّها لأسماؤها».[10]

---

[1] س: بن.

[2] وكذا أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ١٣١/٢.

[3] وكذا أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

[5] في الآية التالية.

[6] يوسف، ١٠٠/١٢.

[7] ط س: برؤية.

[8] س: عليه السلام.

[9] ط س: والضّروج.

[10] جامع البيان للطبري، ١٣/١٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٨/٥. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٤٣٨/٤ (٨١٩٦)، بنحوه.

وقيل: الشمس والقمر أبواه. وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته. وإنّما أخّر الشمس والقمر عن الكواكب لإظهار مزيّتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها، كما في عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام.[1] وقد جُوّز أن تكون "الواو" بمعنى "مع"، أي: رأيت الكواكبَ مع الشمس والقمر. ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخّر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لإخوته.

وعن وَهب أن يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبعِ سنينَ أنّ إحدى عشرة عصًا طوالًا كانت مركوزةً في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصًا صغيرة تَثِبُ عليها حتّى اقْتَلَعَتْهَا وغلَبتها، فوصف ذلك لأبيه، فقال: إيّاك أن تذكر هذا لإخوتك. ثمّ رأى وهو ابن ثنتَي عشرة سنةً الشمسَ والقمرَ والكواكبَ تسجد له، فقصّها على أبيه، فقال: لا تَقُصّها عليهم فيَبغُوا لك الغوائل.[2]

وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصيرِ إخوته إليه أربعون سنةً. وقيل: ثمانون.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ استئناف ببيان حالهم التي رآهم عليها، كأنّ سائلًا سأل فقال: كيف رأيتَهم؟ فأجاب بذلك. وإنّما أُجريت مُجرى العقلاءِ في الضمير لوصفها بوصف العقلاء، أعني: السجود. وتقديم الجارّ والمجرور لإظهار العناية والاهتمام بما هو الأهمّ، مع ما في ضمنه مِن رعاية الفاصلة.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ﴾ صغّره للشفقة، أو لها ولِصغر السنّ. وهو أيضًا / استئناف مبنيّ على سؤال مَن قال: فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة؟ ولمّا عرف يعقوبُ عليه السلام مِن هذه الرؤيا أنّ يوسف[3] يُبلغه تعالى مبلغًا جليلًا مِن الحكمة ويصطفيه للنبوّة ويُنعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام [١٧٨ظ]

---

١ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ الآية [البقرة، ٢/٩٨].

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٨/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٢. | الغوائل: الدواهي. الصحاح للجوهري، «غيل».

٣ س + عليه السلام.

خاف عليه حسَد الإخوة وبغيَهم فقال صيانةً لهم مِن ذلك، وله مِن مُعاناة المشاقّ ومُقاساة الأحزان، وإن كان واثقًا بأنّ الله تعالى سيحقّق ذلك لا محالةَ، وطمعًا في حصوله بلا مشقّة: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ هي ما في المنام، كما أنّ الرؤية ما في اليقظة، فُرّق بينهما بحرفَي التأنيث، كما في القربى والقربة.

وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدِرة مِن أفق المتخيّلة إلى الحسّ المشترَك. والصادقة منها إنّما تكون باتّصال النفس بالملكوت لِما بينهما مِن التناسب عند فراغها مِن تدبير البدن أدنى فراغ، فَتَتصوَّرُ[١] بما فيها ممّا يليق مِن المعاني الحاصلةِ هناك، ثمّ إنّ المتخيّلة تُحاكيه بصورةٍ تُناسبه فترسلها إلى الحسّ المشترَك فتصير مشاهَدة، ثمّ إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلّا بالكلّيّة والجزئيّة استغنت الرؤيا عن التعبير، وإلّا احتاجت إليه.

﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ﴾ نصب بإضمار "أن"، أي: فيفعلوا ﴿لَكَ﴾ أي: لأجلك ولإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ متينًا راسخًا لا تَقدر على التفصّي عنه، أو خفيًّا عن فهمك لا تَتصدّى لمدافعته. وهذا أوفق بمقام التحذير، وإن كان يعقوب عليه السلام يعلم أنّهم ليسوا / بقادرين على تحويل ما دلّت الرؤيا على وقوعه. [١٧٩و]
وهذا الأسلوب آكد مِن أن يقال: فيكيدوك كيدًا، إذ ليس فيه دلالةٌ على كون نفس الفعل مقصودَ الإيقاع. وقد قيل: إنّما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدّي باللام ليفيد معنى المضمَّن، والمضمَّن فيه للتأكيد، أي: فيحتالوا لك ولإهلاكك حيلةً وكيدًا.

والمراد بإخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكائدهم مِن بني عَلّاته الأحد عشر، وهم: يهوذا، ورُوبين،[٢] وشَمعون، ولاوي، وزيلون،[٣] ويشسوخور،[٤] ودوان؛[٥] بنو يعقوب مِن ليّا بنت خالته. ودَانٌ، وتفثونا،[٦] وجادٌ، وآشَرَ؛ بنوه مِن سُرِّيَّتين

---

١ وفي هامش م: أي: يتشكّل. «منه».

٢ م: ورويبل [صُحّح في الهامش].

٣ م: وريالون [صُحّح في الهامش]. | وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/١٠٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/١٣٨: "زبولون" بالباء.

٤ م: ويشجر [صُحّح في الهامش].

٥ م: ودينة [صُحّح في الهامش].

٦ م: ويفثالى [صُحّح في الهامش].

زُلْفَة وبُلْهَة.[١] وهؤلاء هم المشار إليهم بالكواكب الأحدَ عشر. وأمّا بِنيامين الذي هو شقيق يوسف عليه السلام وأمّهما راحيل التي تزوّجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليًا، أو في حياتها إذ لم يكن جمعُ الأختين إذ ذاك محرّمًا، فليس بداخل تحت هذا النهي، إذ لا يُتوهّم مضرّته ولا يُخشى معرّته، ولم يكن معدودًا معهم في الرؤيا، إذ لم يكن معهم في السجود ليوسف. والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلًّا أو بعضًا.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فلا يألو جُهدًا في إغواء إخوتك وإضلالهم وحَملهم على ما لا خير فيه. وهو استئناف، كأنّ يوسف عليه السلام قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوّة؟ فقيل: إنّ الشيطان يحملهم على ذلك.

/ ولمّا نبّهه عليهما السلام على أنّ لرؤياه شأنًا عظيمًا يستتبع منافعَ وحذّره إشاعَتَهَا المؤدّيةَ إلى أن يحول إخوتُه بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أَوْ يُوَعِّرُوا سبيلَ وصولها شَرَعَ في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال: [١٧٩ظ]

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثارَه في عالم المثال مِن سجود تلك الأجرام العلويّة النيّرة لك وبحسبه وعلى وَفقه ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يختارك لجَناب كبريائه ويستنبئك -افتعال مِن "جَباه" إذا جمعه- ويصطفيك على أشراف الخلائق وسَرَاةِ الناس قاطبةً، ويُبرز مصداقَ تلك الرؤيا في عالم الشهادة حسبما عاينته مِن غير قصور.

---

[١] قال الشهاب الخفاجي: «الأسماء المذكورة منها ما هو معروف كـ"بِنيامين" بوزن إسرافيل، و"رُوبِين" بضمّ الراء وكسر الباء وياء ونون، وقال البيساني: الصحيح فيه "رُوبيل" باللام. ومنها ما هو غير معروف؛ لأنّها ليست بعربيّة، فلم يُقدَم على ضبطها مِن غير نقل». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢/٢٤٠.

والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحقّقة بين الصور المرئيّة في عالم المثال وبين ما وقعت هي صورًا وأشباحًا له مِن الكائنات الظاهرة بحسبها في عالم الشهادة، أي: كما سُخِّرت لك تلك الأجرام العظام يُسَخِّرُ لَكَ وجوهُ الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة، ومراده بيان إطاعة أبويه وإخوتِه له، لكنّه إنّما لم يصرّح به حذرًا مِن إذاعته.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه، أرادَ به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطينَ نفس يوسف عليه السلام بما أُخبر به على طريقة التعبير والتأويل، كأنّه قال: وهو يعلّمك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: ذلك الجنس مِن العلوم[١] أو طَرَفًا صالحًا منه[٢] فتطّلِع على حقّيّة ما أقول. ولا يخفى ما فيه مِن تأكيد ما سبق، والبعثِ على تلقّي ما سيأتي بالقبول.

والمراد بـ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تعبير الرؤى، إذ هي أحاديث المَلَك إن كانت صادقة، أو أحاديث النفس أو الشيطان إن لم يكن كذلك. و﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾ اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل، لا جمع "أُحدوثة". وقيل: كأنّهم جمعوا "حديثًا" على "أَحْدِثة"، ثمّ جمعوا الجمع على "أحاديث"، كقطيع وأقطعة وأقاطيع. وقيل: هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام. والأوّل هو الأظهر.[٣]

وتسمية التعبير تأويلًا لأنّه جعلُ المرئي آيِلًا إلى ما يذكره المعبِّر بصدَد التعبير ورَجْعُه إليه، فكأنّه عليه السلام أشار بذلك إلى ما سيقع مِن يوسف عليه السلام مِن تعبيره لرؤيا صاحبَي السجن ورؤيا الملِك، وكونِ ذلك ذريعةً إلى ما يبلّغه الله تعالى إليه مِن الرياسة العظمى التي عُبِّر عنها بإتمام النعمة. / وإنّما [١٨٠و] عرف يعقوب ذلك منه عليهما السلام مِن جهة الوحي.

أو أراد[٤] كونَ هذه الخصلة سببًا لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق، فيجوز حينئذ أن يكون معرفته عليه السلام بذلك بطريق الفراسة والاستدلال

---

١ وفي هامش م: على أن يكون ﴿مِن﴾ للبيان. «منه».

٢ وفي هامش م: على أن يكون للتبعيض. «منه».

٣ ط س – وقيل: هو تأويلُ غوامضِ كتب الله تعالى وسَنَن الأنبياء عليهم السلام، والأوّلُ هو الأظهر.

٤ وفي هامش م: معطوف على "أشار". «منه».

مِن الشواهد والدلائل والأمارات والمخائل بأنّ مَن وفّقه الله تعالى لمِثل هذه الرؤيا لا بدّ مِن توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها، وتمييزِ ما هو آفاقي منها ممّا هو أنفسي. كيف لا، وهي تدلّ على كمال تمكّن نفسه عليه السلام في عالم المِثال وقوّةِ تصرّفاتها فيه؟ فيكون أقبلَ لفيضان المعارفِ المتعلّقة بذلك العالَم، وبما يحاكيه مِن الأمور الواقعة بحسبها في عالَم الشهادة، وأقوى وقوفًا على النِسَب الواقعة بين الصور المعايَنة في أحد ذَينك العالَمَين وبين الكائنات الظاهرة على وَفقها في العالم الآخر، وأنّ هذا الشأن البديع لا بدّ أن يكون أُنمُوذَجًا لِظهور أمرِ مَن اتّصَف به ومدارًا لِجَريان أحكامه، فإنّ لكلّ نبيّ مِن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزةً بها يظهر آثاره ويجري أحكامه.

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بأن يضمّ إلى النبوّة المستفادة مِن الاجتباء المُلكَ ويجعلَه تتمّةً لها. وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه مِن لوازم النبوّة والاجتباء، ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي، ولِما أشرنا إليه مِن كون أثره وسيلةً إلى تمام النعمة. ويجوز أن يعدّ نفس الرؤيا مِن نِعَمِ الله تعالى عليه، فيكون جميع النِّعم الواصلة إليه بحسبها مصداقًا لها تمامًا لتلك النعمة.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ وهم أهله مِن بنيه وغيرهم، فإنّ رؤيةَ يوسف عليه السلام إخوتَه كواكبَ يُهتدى بأنوارها مِن نعم الله تعالى عليهم؛ لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوّة، فيقع كلّ ما يخرج / مِن القوّة إلى الفعل مِن [١٨٠ظ] كمالاتهم بحسب ذلك تمامًا لتلك النعمة لا محالةَ. وأمّا إذا أريدَ بتمام النعمة المُلك فكونه كذلك بالنسبة إليهم باعتبار أنّهم يغتنمون آثاره مِن العزّ والجاه والمال.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ﴾ نصبٌ على المصدريّة، أي: ويُتمّ نعمته عليك إتمامًا كائنًا كإتمام نعمته على أبويك، وهي نعمة الرسالة والنبوّة. وإتمامُها على إبراهيم عليه السلام باتّخاذه خليلًا وإنجائه مِن النار ومِن ذبح الولد. وعلى إسحاقَ بإنجائه مِن الذبح[١] وفدائه بذِبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط مِن صلبه.

---

[١] وفي هامش م: على إحدى الروايتين. «منه».

وكلّ ذلك نِعم جليلة وقعت تتمّةً لنعمة النبوّة. ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبَّه به مثلَ ما وقع في جانب المشبَّه مِن كلّ وجه.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هذا الوقت، أو مِن قبلك. ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لـ﴿أَبَوَيْكَ﴾. والتعبير عنهما بالأب مِن كونهما أبا جدّه وأبا أبيه للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام عليهم السلام، وتذكيرِ معنًى: "الولدُ سرّ أبيه"؛ ليطمئنّ قلبه بما أخبر به في ضِمن التعبير الإجمالي لرؤياه. والاقتصار في المشبَّه به على ذكر إتمام النعمة مِن غير تعرّض للاجتباء مِن باب الاكتفاء، فإنّ إتمام النعمة يقتضي سابقةَ النعمة المستدعية للاجتباءِ لا محالةَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة، أي: يفعل ما ذُكر لأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلّ شيء، فيعلم مَن يستحقّ الاجتباء وما يتفرّع عليه مِن التعليم المذكورِ وإتمام النعمة العامّة على الوجه المذكور. ﴿حَكِيمٌ﴾ فاعل لكلّ شيء حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة، فيفعل ما يفعل كما يفعل جريًا على سَنن علمه وحكمته. والتعرّضِ لعنوان الربوبيّة في الموضعين لتربيةِ تحقّق وقوع ما ذُكر مِن الأفاعيل.[١]

[١٨١و] / هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة: أي: وكما اجتباك لمِثل هذه الرؤيا الدالّة على شرفٍ وعزٍّ وكمالِ نفسٍ يجتبيك ربّك للنبوّة والمُلك، أو لأمور عِظام، ويتمّ نعمته عليك بالنبوّة، أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكًا، ونقلهم عنها إلى الدرجات العُلا في الجنّة، كما أتمّها على أبويك بالرسالة. فتأمّل، والله الهادي.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في قصّتهم. والمراد بهم ههنا إمّا جميعُهم، فإنّ لبِنيامين أيضًا حصّةً مِن القصّة، أو بنو عَلّاته المعدودون فيما سلف، إذ عليهم تَدور رَحَاها.

---

[١] وفي هامش م: وهي الاجتباء، وتعليم تأويل الأحاديث، وإتمام النعمة. «منه».

﴿ءَايَٰتٌ﴾ علامات عظيمة الشأن دالّة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمتِه الباهرة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لكلّ مَن سأل عن قصّتهم وعرفها، أو الطالبين للآيات المعتبِرين بها، فإنّهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون مَن عداهم ممّن اندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٥]. فالمراد بالقصّة نفس المقصوص.

أو على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم[١] لمَن سأله مِن المشركين أو اليهود عن قصّتهم فأخبرهم بذلك على ما هي عليه مِن غير سماع مِن أحدٍ ولا ممارسةِ شيء مِن الكتب، فالمراد بها اقتصاصُها، وجمع "الآيات" حينئذ للإشعار بأنّ اقتصاص كلّ طائفة مِن القصّة آيةٌ بيّنة كافية في الدلالة على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم على نحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧] على تقدير كونه عطف بيانٍ لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧]. لا لِما قيل مِن أنّه لتعدّد جهة الإعجاز لفظًا ومعنى.

وقرأ ابن كثير: "آيَةٌ"،[٢] وفي بعض المصاحف: "عِبْرَةٌ".[٣]

وقيل: إنّما قصّ الله تعالى على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خبر يوسف وبغْيَ إخوته عليه لِما رأى مِن بَغيِ قومه عليه ليأتسيَ به.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ / وَأَخُوهُ﴾ أي: شقيقه بِنيامين، وإنّما لم يُذكَر باسمه تلويحًا بأنّ مدار المحبّة أُخوّتُه لِيوسف مِن الطرفين، ألا يُرى إلى أنّهم كيف اكتفوا بإخراج يوسف مِن البَين مِن غير تعرّضٍ له حيث قالوا: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾... إلخ. [١٨١ظ]

﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وُحِّدَ الخبرُ مَع تعدّد المبتدأ؛ لأنّ "أفعلَ مِن كذا" لا يُفرَّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكّر والمؤنّث. نعم إذا عُرِّف وجب الفرق،

[١] السياق: دالّة على قدرة الله... أو على نبوّته صلّى الله عليه وسلّم...
[٢] انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.
[٣] الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٥. وعزاه أبو حيّان إلى مصحف أُبيّ رضي الله عنه. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٤١.

وإذا أضيف جاز الأمران. وفائدةُ لام الابتداء في ﴿لَيُوسُفُ﴾ تحقيق مضمون الجملة وتأكيده.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحال أنّا جماعة قادرون على الحلّ والعقد، أحقّاءُ بالمحبّة. و"العُصبَة" و"العِصابة": العشَرة مِن الرجال فصاعدًا، سُمُّوا بذلك لأنّ الأمور تُعصَب بهم. ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في ترجيحهما علينا في المحبّة مع فضلنا عليهما، وكونهما بمَعزِل مِن كفاية الأمور بالصِّغَر والقِلّة. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهابٍ عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كلّ منّا منزلته. ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرِ الحال.

رُوي أنّه كان أحبَّ إليه لِما يرى فيه مِن مخائل الخير، وكانت إخوته يحسدونه، فلمّا رأى الرؤيا ضاعف له المحبّةَ بحيث لم يصبر عنه، فتضاعف حسدُهم حتّى حملهم على مباشرة ما قُصّ عنهم.[١]

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مِن جملة ما حُكي بعد قوله: ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾.[٢] وقد قاله بعض منهم مخاطبًا للباقين بقضيّة الصيغة، فكأنّهم رضوا بذلك، كما يروى أنّ القائل شمعون أو دَانٌ، والباقون كانوا راضين إلّا مَن قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟﴾... إلخ،[٣] فجُعِلوا كأنّهم القائلون، وأُدرِجوا تحت القول المسنَد إلى الجميع. أو قاله كلّ واحدٍ منهم مخاطبًا للبقيّة، وهو أدلُّ على مسارعتهم إلى ذلك القول. وتنكير ﴿أَرْضًا﴾ وإخلاؤها مِن الوصف للإبهام، أي: أرضًا مِن كُورة مجهولة بعيدة مِن العمران، ولذلك / نُصبت نصبَ الظروف المبهمة. [١٨٢و]

﴿يَخْلُ﴾ بالجزم جواب للأمر، أي: يَخلُص ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيُقبِل عليكم بكلّيّته ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا يساهمكم في محبّته أحد. فذِكر "الوجه" لتصوير معنى إقباله عليهم. ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ بالجزم عطفًا على ﴿يَخْلُ﴾،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٥٦.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية التالية.

أو بالنصب على إضمار "أن"، أو "الواو" بمعنى "مع"، مثل قوله: ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [البقرة، ٢/٤٢]. وإيثار الخطاب في ﴿لَكُمْ﴾ وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإنّ اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامَه بتحصيل منافعه أتمّ وأكمل.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن بعد يوسف، أي: مِن بعد الفراغ مِن أمره، أو قتلِه، أو طرحِه.[1] ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عمّا جَنيتم، أو صالحين مع أبيكم بإصلاح ما بينكم وبينه بعذرٍ تمهّدونه، أو صالحين في أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلوّ وجه أبيكم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهوذا وكان أحسنَهم فيه رأيًا، وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾... إلخ [يوسف، ١٢/٨٠]. وقيل: رُوبيل. وهو استئناف مبنيّ على سؤال مَن سأل وقال: أَتّفقوا[2] على ما عُرض عليهم مِن خَصْلَتَي الضَبُعِ[3] أم خالفهم في ذلك أحد؟ فقيل: قال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، أظهره في مقام الإضمار استجلابًا لشفقتهم عليه أو استعظامًا لقتله وهو هو، فإنّه يُروى أنّه قال لهم: "القتل عظيم".[4]

ولم يصرّح بنهيهم عن الخَصلة الأخرى، وأحاله على أولويّة ما عرضه عليهم بقوله: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: في قَعره وغَوره. سُمّي بها لغيبته عن عين الناظر. و﴿ٱلْجُبِّ﴾: البئر التي لم تُطْوَ بَعْدُ؛ لأنّها أرض جُبَّت جَبًّا مِن غير أن يُزادَ على ذلك شيء.

---

[1] وفي هامش م: على أن يرجع الضمير إلى مصدر "اقتلوه أو اطرَحوه". «منه».

[2] في الأصول الخطيّة: "اِاتّفقوا". والصواب إسقاط همزة الوصل.

[3] وفي هامش م: يقال: "عرَض عليه خَصلتَي الضبُع" إذا خيّره بين خَصلتين مكروهتين. وأصله فيما يقال على ألسنة البهائم أنّ الضبع صادت ثعلبًا، فقال لها الثعلب: مُنّي عليّ أمَّ عامر، قالت: أُخيّرك بين خَصلتين فاختر أيتهما شئت، إمّا أن آكلك، وإمّا أن آكلك. مِن الخرائد. | فرائد الخرائد للخويي، ص ٣٥٥.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٥٦.

[١٨٢ظ] وقرأ نافعٌ: "فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ" في الموضعين،[١] كأنّ لتلك الجُبّ / غَيَاباتٍ، أو أراد بـ﴿ٱلْجُبِّ﴾ الجنس، أي: في بعض غَيابات الجُبّ، وقُرئ: "غَيَّابَاتِ"[٢] و"غَيْبَةِ".[٣]

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف، فإنّ الالتقاط أخذ شيء مشرِف على الضياع. ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض طائفة تسير في الأرض. و"اللام" في ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ كما في ﴿ٱلْجُبِّ﴾. وما فيهما وفي "البعض" مِن الإبهام لتحقيق ما يتوخّاه مِن ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تنائي يوسف عنهم بحيث لا يُدْرَى أثرُه ولا يُروَى خبرُه.

وقُرئ: "تَلْتَقِطْهُ" على التأنيث،[٤] لأنّ بعض السيّارة سيّارة، كقوله:

كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ مِن الدمِ[٥]

ومنه: قُطِعَتْ بعضُ أصابعه.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمَشورتي. لم يبتَّ القولَ عليهم؛ بل إنّما عرض عليهم ذلك تأليفًا لقلبهم وتوجيهًا لهم إلى رأيه، وحذَرًا مِن نسبتهم له إلى التحكّم والافتيات. أو ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما أزمعتم عليه مِن إزالته مِن عند أبيه لا محالةَ. ولمّا كان هذا مظِنّةً لسؤال سائل يقول: "فما فعلوا بعد ذلك؟ هل قبلوا ذلك منه أم لا؟" فأجيب بطريق الاستئناف على وجهٍ أُدرج في تضاعيفه قبولُهم له بما سيجيء مِن قوله: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾.[٦]

---

[١] وكذا أبو جعفر المدني. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني بغير نسبة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤١.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٢.

[٥] صدره:

وتَشرَقَ بالقولِ الذي قد أذعتَهُ

وهو للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٢٣. يخاطب عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان، من بني تَغلب. ومعنى "تَشرَقَ": ينقطع في حلقك. يريد: أنّه ينقطع كلامك حتّى لا تقدر على أن تتكلّم بما تسمعه من هجائي لك. "كما شَرِقَت صدر القناةِ"، يريد: أنّ الدمَ إذا وقع على صدر القناة وكثر عليها لم يتجاوز الصدر إلى غيره؛ لأنّه يجمد عليه. فأراد أنّ كلامه يقِف في حلقه كما يقِف الدم على صدر القناة فلا يذهب. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١/٤٢.

[٦] يوسف، ١٢/١٥.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾

فقيل: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا﴾ خاطَبوه بذلك تحريكًا لسلسلة النسب بينه وبينهم، وتذكيرًا لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسف؛ ليتسبّبوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحسّ منهم بأمارات الحسد والبغي، فكأنّهم قالوا: ﴿مَا لَكَ﴾ أي: أيّ شيء لك ﴿لَا تَأْمَ۫نَّا﴾ أي: لا تجعلنا أُمَناءَ ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنّك أبونا / ونحن بنوك وهو أخونا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ مريدون له الخيرَ [١٨٣و] ومشفقون عليه، ليس فينا ما يُخلّ بالنصيحة والمِقَةِ[١] قطّ. والقراءة المشهورة بالإدغام والإشمام، وعن نافع تركُ الإشمام.[٢] ومِن الشواذّ ترك الإدغام.[٣]

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ أي: يَتّسعْ في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرَّتْع هو الاتساع في الملاذّ. ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما ممّا يعدّ مِن باب التأهّب للغزو، وإنّما عَبّروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقًا لِمَا رَامُوهُ مِن استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام.

وقُرِئ: "نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ" بالنون.[٤] وقرأ ابن كثير: "نَرْتَعِ"[٥] مِن ارتعى. ونافع بالكسر والياء فيه وفي ﴿يَلْعَبْ﴾.[٦] وقُرِئ: "يُرْتِعْ"[٧] مِن أرتَع ماشيتَه، و"يَرْتَعِ"

---

[١] المِقَة: المحبّة. الصّحاح للجوهري، «ومق».

[٢] هي طريق شاذّة مرويّة عن قالون عنه، والجمهور على خلافه. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٠٤.

[٣] أي: ترك الإدغام من غير روم. أمّا مع روم الضمّة فوجه صحيح لجميع القرّاء غير أبي جعفر. قال ابن الجزري: «أجمَعوا على إدغامه، واختلفوا في اللفظ به؛ فقرأ أبو جعفر بإدغامه إدغامًا محضًا مِن غير إشارة؛ بل يلفظ بالنون مفتوحة مشدّدة. وقرأ الباقون بالإشارة، واختلفوا فيها؛ فبعضهم يجعلها رَومًا، فتكون حينئذ إخفاء، ولا يتمّ معها الإدغام الصحيح، وبعضهم يجعلها إشمامًا، فيُشير إلى ضمّ النون بعد الإدغام، فيصحّ معه حينئذ الإدغام». النشر لابن الجزري، ١/٣٠٣.

[٤] قرأ بها أبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

[٥] قرأ بها ابن كثير بخلف عن قنبل، والوجه الثاني له بإثبات ياء ساكنة بعد العين. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

[٦] وقرأ كذلك أبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٢٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٤٥.

بكسر العين "وَيَلْعَبُ" بالرفع على الابتداء.[١]

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن أن يناله مكروه. أكّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد مِن إيراد الجملة اسميّة، وتحليتها بـ"إنّ" و"اللام"، وإسناد الحفظ إلى كلّهم، وتقديم ﴿لَهُۥ﴾ على الخبر احتيالًا في تحصيل مقصدهم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن يقول: فماذا قال يعقوب عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ "اللام" للابتداء كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [النحل، ١٦/١٢٤].

﴿أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ لشدّة مفارقته عليّ وقلّة صبري عنه، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأنّ الأرض كانت مَذْأَبَةً.[٢] والحُزن: ألم القلب بفَوت المحبوب. والخوف: انزعاج النفس لنزول المكروه. / ولذلك أسند الأوّل إلى [١٨٣ظ] الذهاب به المفوِّت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف، والثاني إلى ما يتوقّع نزوله مِن أكل الذئب. وقيل: رأى في المنام أنّه قد شدّ عليه عليه السلام ذئب، وكان يحذره فقال ذلك، وقد[٣] لقّنهم العلّةَ، «إنّ البلاء موكّلٌ بالمنطقِ».[٤]

وقرأ ابن كثير ونافع في رواية اليزيدي[٥] بالهمز على الأصل.[٦] وأبو عمرو وقفًا.[٧]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن العلاء بن سيّابة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٤٨.

[٢] أرضٌ مَذْأَبَةٌ، أي: ذاتُ ذِئاب. **الصحاح** للجوهري، «ذأب».

[٣] س: ولقد.

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٤٨. | قوله: «إنّ البلاء موكّلٌ بالمنطقِ» أي: ربّما نطق الإنسان بما يكون فيه بلاء. **الأمثال** للهاشمي، ١/٩١. قال المفضّل: يقال: إنّ أوّل مَن قال ذلك أبو بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه فيما ذكره ابن عبّاس رضي الله عنهما. **مجمع الأمثال** للميداني، ١/١٧. وأخرجه القضاعي في **مسند الشهاب**، ١/١٦١ (٢٢٧)، مرفوعًا.

[٥] هو يحيى بن المبارك اليزيدي البصري، أبو محمّد (ت. ٢٠٢هـ/٨١٨م)، النحوي، المقرئ. عُرف باليزيدي لاتّصاله بيزيد بن منصور خال المهدي يؤدّب ولدَه. جوّد القرآن على أبي عمرو، وحدّث عنه وعن ابن جريج. وقرأ عليه الدوري والسوسي، وأحمد بن جبير الأنطاكي، وأبو أيّوب الخيّاط، وطائفة سواهم، وله اختيار كان يقرئ به أيضًا خالف فيه أبا عمرو في أماكن يسيرة، وكان ثقة علامة فصيحًا مفوّهًا، بارعًا في اللغات والآداب، أخذ عن الخليل وغيره، وله عدّة تصانيف، منها كتاب النوادر، وكتاب المقصور، وكتاب الشكل، وكتاب نوادر اللغة، «

وعاصم، وابنُ عامر.[٨] وحمزةُ درجًا.[٩] وقيل: اشتقاقه مِن "تذاءَبَت الريح" إذا هاجت مِن كلّ جانب. وقال الأصمعيّ: الأمر بالعكس، وهو أظهر لفظًا ومعنًى. ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتْع واللعب، أو لقِلّة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحال أنّا جماعة كثيرة جديرة بأن يُعصَب بنا الأمور العظام، وتُكْفَى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا. واللام الداخلة على الشرط موطِّئة للقسَم.

وقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جواب مُجْزِئٌ عن الجزاء، أي: لَهالِكون ضعفًا وخَوَرًا وَعَجْزًا، أو مستحقّون للهلاك، إذ لا غَناءَ عندنا ولا جدوى في حياتنا، أو مستحِقّون لِأن يُدعَى علينا بالخَسار والدَّمار، ويقالَ: خسّرهم الله ودمّرهم حيث أكل الذئبُ بعضَهم وهم حُضور. وقيل: إن لم نقدر على حفظه -وهو أعزّ شيء عندنا- فقد هلكَت مَواشينا إذن وخَسِرناها.

وإنّما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام مِن أكل الذئب لأنّه السبب القويّ في المنع دون الحزن لقِصر مدّته بناءً على أنّهم يأتون به عن قريب.

---

< وكتاب في النحو مختصر. انظر: معرفة القرّاء للذهبي، ص ٩٠؛ والأعلام للزركلي، ١٦٣/٨.

٦ في العبارة سهو، والعبارة كما هي عند البيضاوي: «وقد همزَها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية اليزيدي، وأبو عمرو وقفًا». أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٧/٣. ورواية اليزيدي عن نافع غير معروفة، ويحيى اليزيدي هو الراوي لقراءة أبي عمرو البصري. انظر: النشر لابن الجزري، ١٣٣/١. والهمز ثابت عن نافع من رواية قالون. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٩٤/١.

٧ لأبي عمرو وجهان صحيحان، الهمز والإبدال. وكلاهما في الوصل والوقف. وأمّا القول بأنّ الإبدال له في الوقف دون الوصل فلا يصحّ، قال الحافظ ابن الجزري: «ليس في ذلك نقل يُتّبع، ولا قياس يُستمع». انظر: النشر لابن الجزري، ٣٩٢/١.

٨ وكذا يعقوب قرأ بالهمز. وقرأ بإبدال الهمزة ياءً أبو جعفر والكسائي وخَلف ووَرش عن نافع، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٩٠/١-٣٩٤.

٩ قوله: "دَرَجًا" عائد إلى قراءة حمزة، دون قراءة عاصم وابن عامر. فإنّ حمزة الزيّات يقرأ بالهمز في الوصل، وبالإبدال في الوقف، وذلك بناءً على أصله في الهمز. انظر: النشر لابن الجزري، ٤٢٨/١.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ أي: أزمَعوا ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ مفعول لـ﴿أَجْمَعُوٓا۟﴾. يقال: أجمع الأمرَ، ومنه: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ [يونس، ٧١/١٠]. / ولا يستعمل ذلك إلّا في الأفعال التي قويت الدواعي إلى فعلها. [١٨٤و]

﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قيل: هي بئر بأرض الأردنّ. وقيل: بين مصر ومَدين. وقيل: على ثلاثة فراسخ مِن منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي مِن نواحي الأردنّ، كما أنّ مَدين كذلك. وأمّا ما يقال مِن أنّها بئر بيت المقدس[١] فيردّه التعليل بالتقاط السيّارة ومجيئُهم أباهم عِشاءَ ذلك اليوم، فإنّ بين منزل يعقوب[٢] وبين بيت المقدس مراحلَ. وجواب لمّا محذوف إيذانًا بظهوره، وإشعارًا بأنّ تفصيلَه ممّا لا يحويه فلَك العبارة، ومُجمله فعلوا به مِن الأذيّة ما فعلوا.

يُروى أنّهم لمّا برزوا إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتّى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال يهوذا: أما عاهدتُموني أن لا تقتلوه؟ فأتَوا به إلى البئر، فتعلّق بثيابهم، فنزعوها مِن يديه، فدَلَّوه فيها، فتعلّق بشَفيرها، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه لِما عزموا عليه مِن تلطيخه بالدم احتيالًا لأبيه، فقال: يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أَتوارى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحدَ عشر كوكبًا تُؤنِسْكَ. فدلَّوه فيها، فلمّا بلغ نصفها ألقَوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثمّ أوَى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، فنادَوه وظنّ أنّها رحمة أدركَتْهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضَخوه فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام كلّ يوم.[٣]

ويُروى أنّ إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار وجُرِّد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص مِن حرير الجنّة فألبسه إيّاه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاق،

---

[١] قاله قتادة. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٠/٥؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٦٠٢/٢.

[٢] ط س + عليه السلام.

[٣] جامع البيان للطبري، ٢٩/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٢/٥.

وإسحاقُ إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تَميمة، وعلّقها في عنق يوسف، / فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه مِن التميمة وألبسه[1] إيّاه.[2] [١٨٤ظ]

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عند ذلك تبشيرًا له بما يئُول إليه أمره وإزالةً لوَحشته وإيناسًا له. قيل: كان ذلك قبل إدراكه كما أُوحي إلى يحيى وعيسى. وقيل: كان إذ ذاك مدرِكًا. قال الحسَن: «كان له سبعَ عشرة سنةً».[3]

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لَتتخلَّصنّ ممّا أنت فيه مِن سوء الحال، وضيق المجال، ولتُحدِّثَنّ إخوتك بما فعلوا بك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنّك يوسف، لتَبايُن حالَيك؛ حالِك هذا وحالِك يومئذ؛ لعلوّ شأنك، وكبرياء سلطانك، وبُعد حالك مِن أوهامهم.

وقيل: لبعد العهد المبدِّل للهيئات المغيِّر للأشكال. والأوّل أدخل في التسلية. رُوي أنّهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرَفهم وهم له منكرون دعا بالصُّواع فوضعه على يده ثمّ نقَره فطَنّ، فقال: إنّه لَيُخبرني هذا الجامُ أنّه كان لكم أخٌ مِن أبيكم يقال له: يوسف، وكان يُدنيه دونكم، وأنّكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجبّ، وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبِعتموه بثمن بَخْس.[4]

ويجوز أن يتعلّق ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بالإيحاء على معنى: أنّا آنسناه بالوحي، وأزلنا عن قلبه الوحشة التي أورثوه وهم لا يشعرون بذلك، ويحسبون أنّه مُرهَق مستوحِش لا أنيس له.

وقُرئ: "لَنُنَبِّئَنَّهُمْ" بالنون[5] على أنّه وعيد لهم، فقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَوْحَيْنَا﴾ لا غير.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾

---

١ ط س: فألبسه.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٥٧.

٣ جامع البيان للطبري، ١٣/٣٦٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٥٩.

٤ جامع البيان للطبري، ١٣/٣٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٠١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن سلام. شواذّ القراءات للكرماني، ص٢٤٣.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾ آخرَ النهار. وقُرئ: "عُشِيًّا"،[١] وهو تصغير عشيّ، و"عُشًى" بالضمّ والقصر،[٢] جمع "أعشى"، أي: عُشَوا مِن البكاء.[٣] ﴿يَبۡكُونَ﴾ متباكين. رُوي أنّه لمّا سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال: «ما لكم يا بَنيّ؟ وأين يوسف؟»[٤]

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾

[١٨٥و] ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: متسابقين في العَدْو أو الرمي. / وقد يشترك الافتعال والتفاعل، كالانتضال والتناضل ونظائرهما. ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ما نتمتّع به مِن الثياب والأزواد وغيرهما. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ عقيب ذلك مِن غير مضيّ زمان يُعتاد فيه التفقّد والتعهّد.

وحيث لا يكاد يُطرح المتاع عادةً إلّا في مقام يؤمَن فيه الغوائل لم يُعدّ تركه عليه السلام عنده مِن باب الغفلة وترك الحفظ الملتزَم، لا سيّما إذا لم يَبرَحُوه ولم يَغيبوا عنه. فكأنّهم قالوا: إنّا لم نقصّر في محافظته، ولم نغفُل عن مراقبته؛ بل تركناه في مَأمَننا ومَجمعنا بمرأًى منّا؛ لأنّ ميدان السباق لا يكون عادةً إلّا بحيث يتراءى غايتاه، وما فارقناه إلّا ساعةً يسيرة، بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ بمصدّق لنا في هذه المقالة الدالّة على عدم تقصيرنا في أمره، ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ عندك وفي اعتقادك ﴿صَٰدِقِينَ﴾ موصوفين بالصدق والثقة؛ لشدّة محبّتك ليوسف، فكيف وأنت سيّء الظنّ بنا، غيرُ واثق بقولنا؟

وكلمةُ "لو" في أمثال هذه المواقع لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم الموجَب أو المنفي على كلّ حال مفروض مِن الأحوال المقارِنة له

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن كذلك. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٤٩.

[٣] العَشا: سوء البصر بالليل والنهار، وقد عَشِيَ يَعْشَى عَشًى، وهو عَشٍ وأَعْشَى، والأنثى عَشْواء، والعُشْوُ جمع الأَعْشَى. انظر: لسان العرب لابن منظور، «عشا».

[٤] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٠٢؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٦٠٣.

على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها منافاةً له؛ ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء متى تحقّق مع المُنافي القويّ فلأن يتحقّق مع غيره أولى، ولذلك لا يذكر معه شيء مِن سائر الأحوال، ويُكتفَى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابِلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدّدها.

وقد مرّ تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة، ١٧٠/٢]، وفي سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾ [الأعراف، ٨٨/٧].

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ محلُّه النصب على الظرفيّة مِن قوله: ﴿بِدَمٍ﴾ أي: جاءوا فوق قميصه بدم، كما يقول: جاء على جِماله بأحمال. أو على الحاليّة منه، والخلافُ في تقدّم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحالُ ظرفًا.

﴿كَذِبٍ﴾ مصدر وُصف به "الدم" مبالغة، أو مصدر بمعنى المفعول، أي: مكذوب فيه، أو بمعنى: ذي كذِب، أي: ملابِس للكذب. وقُرئ: "كَذِبًا"[1] على أنّه حال مِن الضمير، أي: جاءوا كاذبين، أو مفعول له. وقرأت عائشة رضي الله عنها بغير المعجمة،[2] أي: كدِرٍ. وقيل: طريّ. قال ابن جنّي: «أصله مِن الكَدَب؛ وهو الفُوف؛ البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنّه دم قد أثّر في قميصه».[3]

رُوي أنّهم ذبحوا سَخْلةً ولطّخوه / بدمها، وزلّ عنهم أن يمزّقوه، فلمّا سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال: «أين القميص؟» [١٨٥ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥٠/٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٣.

٢ أي: "كَدِبٍ" بالدال. قراءة شاذّة، ونسبها ابن جنّي إلى الحسَن، والكرماني إلى أبي السَّمّال. انظر: المحتسب لابن جنّي، ٣٣٥/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٣.

٣ المحتسب لابن جنّي، ٣٣٥/١.

فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتّى خضّب وجهه بدم القميص، وقال: «تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلمَ مِن هذا، أكَل ابني ولـم يمزّق عليه قميصه».[١]

وقيل: كان في قميص يوسف عليه السلام ثلاثُ آيات؛ كان دليلًا ليعقوب على كذِبهم، وألقاه على وجهه فارتدّ بصيرًا، ودليلًا على براءة يوسف[٢] حين قُدَّ مِن دُبرٍ.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال، فكأنّه قيل: ما قال يعقوب؟ هل صدّقهم فيما قالوا أو[٣] لا؟ فقيل: قال: لم يكن ذلك. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: زيّنت وسهّلت، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٤] والتسويل: تقدير شيء في النفس مع الطمَع في إتمامه. قال الأزهريّ: «كأنّ التسويل تَفعيل مِن سُول الإنسان؛ وهو أمنيّته[٥] التي يطلبها فتزيِّن لطالبها الباطلَ وغيرَه. وأصله مهموز».[٦] وقيل: مِن السَّوَل، وهو الاسترخاء.

﴿أَمْرًا﴾ مِن الأمور منكَرًا لا يوصَف ولا يعرف. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل أو أمثل. وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه»،[٧] أي: إلى الخَلق، وإلّا فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف، ٨٦/١٢].

وقيل: سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بعصابة، فقيل له: «ما هذا؟» قال: «طول الزمان وكثرة الأحزان»، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «يا يعقوبُ، أتشكوني؟» قال: «يا ربّ خطيئة فاغفرها لي».[٨]

وقرأ أُبيّ: "فَصَبْرًا جَمِيلًا".[٩]

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٢.

٢ ط س + عليه السلام.

٣ ط س: أم.

٤ اللباب لابن عادل، ٤٣/١١.

٥ س: أمنيّة.

٦ تهذيب اللغة للأزهري، باب السين واللام، «سَول».

٧ جامع البيان للطبري، ٤٠/١٣؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٢١١٢/٧.

٨ جامع البيان للطبري، ٤٢/١٣.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عنه رضي الله عنه، وعزاها الكرماني إلى الأشهب وأبي السَّمّال. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٣.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ أي: المطلوب منه العون، وهو إنشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرّة. / ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على إظهار حال ما تصفون، وبيانِ كونه كذبًا، وإظهارِ سلامته، فإنّه عَلَم في الكذب، قال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات، ١٨٠/٣٧]، وهو الأليق بما سيجيء مِن قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ [يوسف، ٨٣/١٢]. وتفسير "المستعان عليه" باحتمال ما يصفون مِن هلاك يوسف والصبرِ على الرُّزْءِ فيه[١] يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك، ولا يساعده الصيغة، فإنّها قد غلَبت في وصف الشيء بما ليس فيه كما أشيرَ إليه. [١٨٦و]

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾

﴿وَجَآءَتۡ﴾ شروع في بيان ما جرى على يوسف في الجُبّ بعد الفراغ عن ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه. والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة إلى مكانهم، فإنّ كنعان ليس بالجانب المِصري مِن مَدين؛ بل إلى مكان يوسف. وفي إيثاره على المرور أو الإتيان أو نحوهما إيماء إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزُّلفى عند مليك مقتدر.

والظاهر أنّ الجُبّ كان في الأَمَمِ المِيتاءِ،[٢] فإنّ المتبادر مِن إسناد المجيء إلى السيّارة مطلقًا في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ -أي: رُفْقة تسير مِن جهة مَدين إلى مِصر- وقوعُه باعتبار سيرهم المعتاد، وهو الذي يقتضيه قوله تعالى فيما سلف: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾.[٣] وقد قيل: إنّه كان في قَفرة بعيدة مِن العمران لم يكن إلّا للرعاة، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريبًا منه. وقيل: كان ماؤه مِلحًا فعَذُب حين ألقي فيه عليه السلام.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٢.

٢ الأَمَم -بالفتح-: القُرب، يقال: أخذت ذلك مِن أَمَم، أي: مِن قُرب. وداري أَمَم داره، أي: مقابلتها. والمِيتاء: الطريق العامِر المسلوك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «أمم»، «أتي». والمراد أنّ الجُبّ كان في طريق قريب عامِر يسلكه الناس عادة.

٣ يوسف، ١٠/١٢.

﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرِد الماء ويستقي لهم، وكان ذلك مالك بن ذُعرٍ الخزاعيّ.[1] وإنّما لم يُذكر منتهى الإرسال كما لم يُذكر منتهى المجيء -أعني الجُبّ- للإيذان بأنّ ذلك معهود لا يضرب عنه الذِّكر صفحًا.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسلها إلى الجُبّ -والحذف لِما عرفتَه- فتدلّى بها يوسف فخرج. / ﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال يقتضيه الحال. ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ كأنّه نادى البشرى، وقال: تعالَيْ، فهذا أوانكِ، حيث فاز بنعمة باردة -وأيّ نعمة؟- مكان ما يوجد مباحًا مِن الماء. وقيل: هو اسم صاحب له ناداه ليُعينه على إخراجه. [١٨٦ظ]

وقرأ غيرُ الكوفيّين: "يا بشرايَ".[2] وأمال فتحةَ الراء حمزةُ والكسائيُّ،[3] وقرأ وَرش بين اللفظين.[4] وقُرئ: "يا بُشْرَيَّ" بالإدغام،[5] وهي لغة، و"بشرايْ"[6] على قصد الوقف.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي: أخفاه الوارد وأصحابه عن بقيّة الرُّفْقة. وقيل: أخفَوا أمره ووِجدانَهم له في الجُبّ، وقالوا لهم: دفَعه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصر.

وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أنّ يهوذا كان يأتيه كلّ يوم بطعام، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته، فأتَوا الرُّفْقة وقالوا: هذا غلامنا أبَقَ منّا، فاشترَوه منهم، وسكتَ يوسف مخافة أن يقتلوه.[7] ولا يخفى ما فيه مِن البُعد.

---

[1] هو مالك بن ذعر بن ثويب بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. وقيل: مالك بن ذُعر بن حجر بن جزيلة بن لخم. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٦١/١٣؛ **والاشتقاق** لابن دريد، ص ٣٧٨؛ **وجمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ٤٢٤/١.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٣/٢.

[3] وكذا أمالها خلف البزّار، وهو أحد الوجهين عن ابن ذكوان وشعبة، وأحد الأوجه الثلاثة لأبي عمرو البصري. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٥/٢-٤٠-٤١.

[4] وهو أحد الأوجه الثلاثة لأبي عمرو البصري، وهي: الفتح والتقليل والإمالة. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٤٠/٢-٤١.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن إسحاق والجحدري وابن أبي عَبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٣.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ورش عن نافع. انظر: **الكامل** للهذلي، ص ٥٧٥؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٥٢/٦.

[7] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠٤/٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٥٨/٣.

﴿بِضَٰعَةٗۚ﴾ نصب على الحاليّة، أي: أخفَوه حال كونه بضاعةً، أي: متاعًا للتجارة، فإنّها قطعة مِن المال بُضعت عنه -أي: قُطعت- للتجارة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ وعيد لهم على ما صنعوا مِن جعلهم مثلَ يوسف -وهو هو- عرضةً للابتذال بالبيع والشِّرى، وما دبّروا في ذلك مِن الحِيَل.

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾

﴿وَشَرَوۡهُ﴾ أي: باعوه. والضمير للوارد وأصحابه. ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ زَيف ناقص العِيار ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل مِن ﴿ثَمَنِۭ﴾، أي: لا دنانير. ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ أي: غيرِ موزونة، فهو بيان لقلّته ونقصانه مقدارًا بعد بيان نقصانه في نفسه، إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العَدُّ دون الوزن، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّها كانت عشرين دِرهمًا.[١] وعن السدّي أنّها كانت اثنين وعشرين دِرهمًا.[٢]

/ ﴿وَكَانُواْ﴾ أي: البائعون ﴿فِيهِ﴾ في يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ مِن الذين لا يرغبون فيما بأيديهم، فلذلك باعوه بما ذُكر مِن الثمن البخس. وسبب ذلك أنّهم التقطوه، والملتقِط للشيء متهاون به، أو غيرُ واثق بأمره، يخاف أن يظهر له مستحِقّ فينتزعه منه، فيبيعه مِن أوّل مساوِم بأوكَسِ ثمن. [١٨٧و]

ويجوز أن يكون معنى ﴿شَرَوۡهُ﴾: اشتروه مِن إخوته -على ما حُكي- وهم غير راغبين في شِراه خشيةَ ذهاب مالهم لِما ظَنّ في أذنهم مِن الإباق. والعدول عن صيغة الافتعال المُنبئة عن الاتّخاذ لِما مرّ مِن أنّ أخذهم إنّما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء.

و﴿فِيهِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إن جعل "اللام" للتعريف، وبيان لِما زهدوا فيه إن جعلت موصولة، كأنّه قيل: في أيّ شيء زهِدوا؟ فقيل: زهِدوا فيه؛ لأنّ ما يتعلّق بالصِّلة لا يتقدّم على الموصول.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٥١/١١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧/١٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٥١/١١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧/١٣.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائنه، واسمه قِطفير أو إِطفير. وبيان كونه مِن مصر لتربية ما يتفرّع عليه مِن الأمور مع الإشعار بكونه غيرَ مَن اشتراه مِن الملتقطِين بما ذُكر مِن الثمن البَخس. وكان الملِك يومئذ الريّان بن الوليد العِمْلِيقي،[١] ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمَن به، فملَك بعده قابوس بن مصعب،[٢] فدعاه إلى الإسلام فأبى.

وقيل: كان الملِك في أيّامه فرعونَ موسى عليه السلام، عاش أربعمائة سنةٍ، لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر، ٣٤/٤٠]. وقيل: فرعون موسى مِن أولاد فرعون يوسف عليه السلام،[٣] والآية مِن قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء.

واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز؛ فقيل: بعشرين دينارًا وزوجَي نَعل وثوبين أبيضَين.[٤] وقيل: أدخلوه في السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتّى بلغ ثمنُه وزنَه مِسكًا، / ووزنَه ورِقًا، ووزنَه حريرًا، فاشتراه قطفير بذلك [١٨٧ظ]
المبلغ.[٥] وكان سِنّه إذ ذاك سبعَ عشرة سنةً، وأقام في منزله مع ما مرّ عليه مِن مدّة لبثه في السجن ثلاثَ عشرة سنةً، واستوزره الريّان وهو ابنُ ثلاثين سنةً، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابنُ ثلاث وثلاثين سنةً، وتُوفّي وهو ابنُ مائة وعشرين سنةً.[٦]

---

١ هو الريّان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن قاران بن عمرو بن عِملاق بن لاوِذ بن سام بن نوح عليه السلام. تاريخ الطبري، ٣٣٥/١.

٢ هو قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عِملاق بن لاوِذ بن سام بن نوح عليه السلام. تاريخ الطبري، ٣٣٦/١.

٣ م – عليه السلام.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٥/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٥/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٢.

٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٩/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥٤/٦.

﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل أو زليخا. وقيل: اسمها هو الأوّل، والثاني لقَبُها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿قَالَ﴾، لا بـ﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾. ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ اجعلي محلّ إقامته كريمًا مَرضيًا، والمعنى: أحسني تعهّده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضياعنا وأموالنا، ونستظهر به في مصالحنا، ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ أي: نتبنّاه. وكان ذلك لِما تفرّس فيه مِن مَخائل الرشد والنجابة، ولذلك قيل: أفرَس الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ [القصص، ٢٦/٢٨]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما.[1]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما يفهم مِن كلام العزيز، وما فيه مِن معنى البعد لتفخيمه، أي: مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: جعلنا له فيها مكانًا، يقال: مكّنه فيه، أي: أثبته فيه، ومكّن له فيه، أي: جعل له فيه مكانًا، ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كلّ منهما في محلّ الآخر، قال عزّ وجلّ: ﴿كَمۡ[2] أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام، ٦/٦]، أي: ما لم نمكّنكم فيها، أو مكّنّا لهم في الأرض... إلخ.

والمعنى: كما جعلنا له مثوًى كريمًا في منزل العزيز أو مكانًا عليًا في قلبه حتّى أمَر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه جعلنا له مكانةً رفيعةً في أرض مصر. ولعلّه عبارةٌ عن جعله وجيهًا فيما بين أهلها ومحبّبًا في قلوبهم كافّةً كما في قلب العزيز؛ لأنّه الذي يؤدّي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي: نوفّقه لتعبير بعض / المنامات التي عُمدتها [١٨٨و]
رؤيا الملك وصاحبَي السجن، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف، ٣٧/١٢]، سواء جعلناه معطوفًا على غاية مقدَّرة ينساق إليها الكلام ويستدعيها النظام، كأنّه قيل: ومثل ذلك التمكين مكّنّا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوب أهلها كافّةً محالَّ مَحبّته؛ ليترتّب عليه ما ترتّب ممّا جرى بينه وبين امرأة العزيز،

---

[1] المستدرك للحاكم، ٣٧٦/٢ (٣٣٢٠)؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٣٤/٧ (٣٧٠٥٨)، من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

[2] م ط س: وكم.

ولنعلّمه بعض تأويل الأحاديث، وهو تأويل الرؤى المذكورة، فيؤدّي ذلك إلى الرِّياسة العظمى. ولعلّ تركَ المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مرادًا بالذات. أو جعلناه علّةً[1] لمعلَّلٍ محذوف، كأنّه قيل: ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين، دون غيرها ممّا ليس له عاقبة حميدة.

هذا ولا يخفى عليك أنّ الذي عليه يدور هذه الأمور إنّما هو التمكين في جانب العزيز. وأمّا التمكين في جانب الناس كافّةً فتأديته إلى ذلك إنّما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين. فإذن الحقّ أن يكون ذلك إشارةً إلى مصدر قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ على أن يكون هو عبارة عن التمكين في قلب العزيز أو في منزله، وكون ذلك تمكينًا في الأرض بملابسة أنّه عزيز فيها، لا عن تمكين آخر يشبَّه هو[2] به، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢] مِن أنّ ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده، لا إلى جعلٍ آخر يُقصد تشبيه هذا الجَعل به. فالكاف مُقحَم للدلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحامًا لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها، ومن ذلك قولهم: مثلك لا يبخل.

وهكذا ينبغي أن يحقّق المقام، وأمّا التمكين بمعنى جعله ملِكًا يتصرّف في أرض مِصر بالأمر والنهي[3] فهو مِن آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرّعة عليه كما عرفته، لا مِن مباديه المؤدّية إليه، فلا سبيل إلى جعله غاية له، ولم يُعهَد منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العمل بموجَب المنامات المنبّهة على الحوادث قبل وقوعها عهدًا مصحِّحًا لجعله غايةً لولايته، وما وقع مِن التدارك في أمر السنين فإنّما هو عمل بموجَب الرؤيا السابقة المعهودة، اللّهمّ / إلّا أن [١٨٨ظ] يراد بتعليم تأويل الأحاديث ما سبق مِن تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سَنن الأنبياء عليهم السلام، فيكون المعنى حينئذٍ: مكّنّا له في أرض مصر لِيتصرّف فيها بالعدل، ولِنعلّمه معانيَ كتب الله تعالى وأحكامَها ودقائق سَنن الأنبياء، فيقضي بها فيما بين أهلها.

---

[1] السياق: سواء جعلناه معطوفًا... أو جعلناه علّةً...

[2] م ط س - هو ["صح" في هامش م].

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٥٤/٢.

والتعليم الإجمالي لتلك المعاني والأحكام وإن كان غيرَ متأخّر عن تمكينه بذلك المعنى إلّا أنّ تعليم كلّ معنى شخصي يتّفق في ضمن الحوادث والإرشادَ إلى الحقّ في كلّ نازلة مِن النوازل متأخّرٌ عن ذلك صالحٌ لِأن يكون غايةً له.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ لا يستعصي عليه أمر، ولا يمانعه شيء؛ بل إنّما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون، فيدخل في ذلك شئونه المتعلّقة بيوسف دخولًا أوّليًا. أو متولٍّ على أمر يوسف لا يَكِلُه إِلَى غيره، وقد أُريدَ به مِن الفتنة ما أُريدَ مرّةً غِبَّ مرّة، فلم يكن إلّا ما أراد الله له مِن العاقبة الحميدة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيأتون ويذرون زعمًا منهم أنّ لهم مِن الأمر شيئًا، وأنّى لهم ذلك، وإنّ الأمر كلّه لله عزّ وجلّ، أو لا يعلمون لطائف صُنعه وخفايا فضله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: منتهى اشتداد جسمه وقوّته، وهو سنّ الوقوف[1] ما بين الثلاثين إلى الأربعين. وقيل: سنّ الشباب ومبدأ بلوغ الحلُم. والأوّل هو الأظهر، لقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ حِكمةً؛ وهو العلم المؤيَّد بالعمل، أو حُكمًا بين الناس وفقهًا، أو نبوّةً، ﴿وَعِلۡمٗا﴾ أي: تفقّهًا في الدين. وتنكيرهما للتفخيم، أي: حُكمًا وعِلمًا لا يُكتَنه كُنهُهما، ولا يقادَر قدرهما، فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه، سواء كانا عبارة عن النبوّة والحُكم بين الناس أو غيرِهما. كيف لا، وقد جُعل إيتاؤهما جزاءً لعمله عليه السلام حيث قيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاءِ العجيب ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: كلَّ مَن يُحسن في عمله، فيجب أن يكون / ذلك [١٨٩و] بعد انقضاء أعماله الحسنة التي مِن جملتها معاناة الأحزان والشدائد.

وقد فُسّر العلم بعلم تأويلِ الأحاديث،[2] ولا صحّةَ له إلّا أن يُخصّ بعلم تأويل رؤيا الملِك، فإنّ ذلك حيث كان عند تناهي أيّام البلاء صحّ أن يُعَدّ إيتاؤه

---

١ يعني: الوقوف عن النموّ؛ لأنّ الإنسان ينمو جسمه في ابتداء أمره إلى تمام الشباب، وبعده يقف عن النموّ والانحطاط إلى زمان الشيخوخة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٥/٥.

٢ فسّره بذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٥٩/٣.

مِن جملة الجزاء. وأمّا رؤيا صاحبَي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرِها في السجن بِضع سنين.

وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلّيّة الإحسان له، وتنبيه على أنّه سبحانه إنّما آتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله متّقيًا في عُنفوان أمرِه، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن، ٦٠/٥٥].

**﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾**

**﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾** رجوع إلى شَرح ما جرى عليه في منزل العزيزِ بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾[١] إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجًا للقصّة؛ ليعلم السامع مِن أوّل الأمر أنّ ما لقيَه عليه السلام مِن الفتن التي ستُحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة، وأنّه عليه السلام مُحسن في جميع أعماله لم يصدر عنه في حالتي السرّاء والضرّاء ما يخلّ بنزاهته.

ولا يخفى أنّ مدار حسنِ التخلّص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنّما هو التمكين البالغ المفهوم مِن كلام العزيز، فإدراجُ الإنجاءِ السابق تحت الإشارة بذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا﴾[٢] كما فعله الجمهور ناءٍ مِن التقريب، فتأمّل.

والمراودة: المطالبة، مِن "راد يَرود" إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد لطالب الماء والكلأ. وهي مفاعلة مِن واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها ممّا يكون مِن أحد الجانبين الفعلُ، ومن الآخر سببُه، فإنّ هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لمّا كانت أسبابُها صادرة عن الجانب الآخر جُعلت كأنّها صادرة عنهما.

---

[١] يوسف، ٢١/١٢.

[٢] يوسف، ٢١/١٢.

وهذا باب لطيف المسلك مبنيّ على اعتبار دقيقٍ، / تحقيقه أنّ سبب [١٨٩ظ] الشيء يُقام مُقامه، ويطلق عليه اسمه، كما في قولهم: «كما تَدين تُدان»،[١] أي: كما تَجزي تُجزَى، فإنّ فعل البادئ وإن لم يكن جزاءً لكنّه لكونه سببًا للجزاء أطلق عليه اسمه، وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادة قراءة القرآنِ حيث كانتا سببًا للقيام والقراءة عبّر عنهما بهما فقيل: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، ٥/٦]، ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النحل، ١٦/٩٨]، وهذه قاعدة مطّردة مستمرّة.

ولمّا كانت أسباب الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرةً عن الجانب المقابل لجانب فاعلها، فإنّ مطالبةَ الدائن للمماطلة التي هي مِن جانب الغريم، وهي منه للمطالبة التي هي مِن جانب الدائنِ، وكذا مداواة الطبيب للمرض الذي هو مِن جانب المريض، وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام، نُزِّل صدورُها عن محالّها بمنزلة صدور مسبَّباتها التي هي تلك الأفعال، فبُني الصيغة على ذلك، وروعي جانب الحقيقة بأن أُسند الفعل إلى الفاعل، وأوقع على صاحب السبب، فتأمّل.

ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرّد المبالغة. وقيل: الصيغة على بابها، بمعنى: أنّها طلبت منه الفعل، وهو منها الترك. ويجوز أن يكون مِن الرُّويد، وهو الرفق والتمهّل.[٢]

وتعديتها بـ﴿عَن﴾ لتضمينها معنى المخادعة، فالمعنى: خادعته ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجه عن يده، وهو يحتال أن يأخذه منه، وهي عبارة عن التمحّل في مواقعته إيّاها.

والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السرّ، أو للاستهجان بذكره. وإيراد الموصول لتقرير المراودة، فإنّ كونَه في بيتها ممّا يدعو إلى ذلك -قيل لواحدة: ما حمَلكِ على ما أنتِ عليه ممّا لا خير فيه؟ قالت: قربُ الوِساد وطولُ السواد- ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام، فإنّ عدمَ مَيله إليها

---

١ انظر: مجمع الأمثال للميداني، ٢/١٥٥.

٢ ط س: والتحمّل.

مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي لكونه عليه السلام / في أعلى معارج العفّة والنزاهة. [١٩٠و]

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قيل: كانت سبعةً، ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الإفعال. وقيل: للمبالغة في الإيثاق والإحكام.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ قُرِئَ: بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء،[١] وبناؤه كبناء أَين وعِيطَ.[٢] و"هَيْتِ"[٣] كجَيرِ، و"هَيْتُ"[٤] كحَيث، اسم فعل معناه: أقبِل وبادِر، واللام للبيان، أي: لك أقول هذا كما في "هلمّ لك". وقُرئ: "هِئتُ" على صيغة الفعل[٥] بمعنى تهيّأت، يقال: هاء يهيء -كجاء يجيء- إذا تهيّأ. و"هُيِّئْتُ لَكَ"،[٦] و"اللام" صلة للفعل.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله معاذًا ممّا تَدعُوينَنِي[٧] إليه. وهذا اجتناب منه على أتمّ الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنّه منكَرٌ هائل يجب أن يُعاذ بالله تعالى للخلاص منه، وما ذاك إلّا لأنّه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى مِن البرهان النيّر على ما هو عليه في حدّ ذاته مِن غاية القبح ونهاية السوء.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجيّة ممّا عسى يكون مؤثّرًا عندها وداعيًا لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي[٨] لا تكاد تقبله لِما سوّلَتْه لها نفسُها.

---

١ قرأ "هَيْتَ" بفتح الهاء والتاء أبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ "هِيْتَ" بكسر الهاء وفتح التاء نافع وأبو جعفر وابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٢ عِيطَ، بالكسر مبنيّة: صوت الفتيان النزِقين إذا تصايحوا، أو كلمة يُنادى بها عند السُّكر أو عند الغلبة. القاموس المحيط للفيروزأبادي، «عيط».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسن البصري. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٤؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٩٤.

٤ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٤.

٥ بكسر التاء وضمّها قرأ هشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٤.

٧ كذا في الأصل، قال الجوهري: «تقول للمرأة: أنت تدعِين، وفيه لغة ثانية: أنت تَدعُوِين، وفيه لغة ثالثة: أنت تَدعُين بإشمام العين الضمّة». الصحاح للجوهري، «دعا». قال ابن برّي: «قوله في اللغة الثانية: أنت تَدعُوِين؛ لغة غير معروفة». لسان العرب لابن منظور، «دعا».

٨ س: الذاتي.

والضمير للشأن، ومدارُ وضعه موضعَه ادّعاءُ شهرته المُغنية عن ذكره. وفائدة تصدير الجملة به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع ما فيه مِن زيادة تقريره في الذهن، فإنّ الضمير لا يُفهم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهم له خطر، فيبقى الذهن مترقّبًا لِما يعقُبه، فيتمكّن عند وروده له فضل تمكّن، فكأنّه قيل: إنّ الشأن الخطير هذا، وهو ربّي -أي: سيّدي العزيز- أحسنَ مثواي، أي: أحسن تعهّدي حيث أمركِ بإكرامي، فكيف يمكن أن أُسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حقّ العزيز بألطف وجه.

/ وقيل: الضمير لله عزّ وجلّ، و﴿رَبِّيٓ﴾ خبر "إنّ"، و﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ خبر ثانٍ. أو هو الخبر والأوّل بدل مِن الضمير. والمعنى: أنّ الحال هذا، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة؟ وفيه تحذير لها مِن عقاب الله عزّ وجلّ. [١٩٠ظ]

وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذِكر هذه الحالة مِن غير تعرّض لاقتضائها الامتناعَ عمّا دعته إليه إيذانٌ بأنّ هذه المرتبة مِن البيان كافيةٌ في الدلالة على استحالته، وكونِه ممّا لا يدخل تحت الوقوع أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل للامتناع المذكورِ غِبَّ تعليل. والفلاح: الظفَر. وقيل: البقاءُ في الخير. ومعنى "أفلح": دخل فيه، كأصبح وأخواته. والمراد بـ"الظالمين": كلّ مَن ظلم كائنًا مَن كان، فيدخل في ذلك المُجازون للإحسان بالإساءة والعُصاة لأمر الله تعالى دخولًا أوّليًا. وقيل: الزُناة؛ لأنّهم ظالمون لأنفسهم وللمزني بأهله.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ بمخالطته، إذ الهَمّ لا يتعلّق بالأعيان، أي: قصدَتها وعزمَت عليها عزمًا جازمًا لا يلويها عنه صارف بعد ما باشَرت مباديَها، وفعلَت ما فعلَت مِن المراودة وتغليق الأبواب ودعوته عليه السلام إلى نفسها بقولها: هيتَ لك، ولعلّها تصدّت هنالك لأفعال أُخر مِن بسط يدها إليه وقصد المعانقة وغير ذلك

ممّا يضطّره عليه السلام إلى الهرب نحو الباب. والتأكيد لدفع ما عسى يتوهّم مِن احتمال إقلاعها عمّا كانت عليه بما في مقالته عليه السلام مِن الزواجر.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمخالطتها، أي: مال إليها بمقتضى الطبيعة البشريّة وشهوة الشباب وقَرَمه[1] ميلًا جِبلِّيًا لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنّه قصدها قصدًا اختياريًّا، ألا يُرى إلى ما سبق مِن استعصامه المنبئ عن كمال كراهته له ونفرته عنه وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلّا تسجيل باستحالة صدور الهمّ منه عليه السلام تسجيلًا مُحكمًا؟ وإنّما عبّر عنه بالهمّ لمجرّد وقوعه في صحبة همّها في الذكرِ بطريق المشاكلة، لا لشَبَهِهِ به كما قيل.[2] ولقد أشيرَ إلى تباينهما حيث لم يُلَزَّا[3] في قَرَن[4] واحد مِن التعبير بأن قيل: ولقد همّا بالمخالطة، أو همّ كلٌّ منهما بالآخَر. [١٩١و] / وصُدّر الأوّل بما يقرّر وجوده مِن التوكيد القَسمي، وعُقّب الثاني بما يعفو أَثَره مِن قوله تعالى:[5] ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حجّته الباهرة الدالّة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله.

والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، ومشاهدته لها مشاهدةً واصلةً إلى مرتبة عين اليقين الذي يتجلّى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقيّة، وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قولُه عليه السلام: «حُفَّت الجنّة بالمَكاره، وحُفَّت النار بالشهوات».[6] وكان عليه السلام قد شاهد الزنا بموجَب ذلك البرهان النيّر على ما هو عليه في حدّ ذاته أقبحَ ما يكون وأوجبَ ما يجب أن يُحذر منه، ولذلك فعَل ما فعل مِن الاستعصام والحُكم بعدم إفلاح مَن يرتكبه.

وجواب ﴿لولا﴾ محذوف يدلّ عليه الكلام، أي: لولا مشاهدته برهانَ ربّه في شأن الزنا لَجرى على موجَب ميلِه الجِبلّي، ولكنّه حيث كان مشاهِدًا له مِن قبلُ

---

[1] القرَم، محرّكة: شدّة شَهوة اللحم، وكثُر حتى قيل في الشّوق إلى الحبيب. القاموس المحيط للفيروزابادي، «قرم».

[2] انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٣٣.

[3] لزّه يلزّه لزًا، أي: شدّه وألصقه. الصحاح للجوهري، «لزز».

[4] القَرَن بالتحريك: الجُعبة. الصحاح للجوهري، «قرن».

[5] ط س: عزّ وجلّ.

[6] صحيح مسلم، ٤/٢١٧٤ (٢٨٢٢). وهو في صحيح البخاري، ٨/١٠٢ (٦٤٨٧)، بلفظ: "حُجِبت" بدل "حُفّت".

استمرّ على ما هو عليه مِن قضيّة البرهان. وفائدة هذه الشرطيّة بيانُ أنّ امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم المساعدة[١] مِن جهة الطبيعة؛ بل لمحض العفّة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخليّة وترتّب المقدّمات الخارجيّة الموجبة لظهور الأحكام الطبيعيّة.

هذا وقد نصّ أئمّة الصناعة على أنّ "لولا" في أمثال هذه المواقع جارٍ مِن حيث المعنى -لا مِن حيث الصيغةُ- مَجرى التقييدِ للحُكم المطلَق، كما في مثل قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان، ٤٢/٢٥]، فلا يتحقق هناك همٌّ أصلًا.

وقد جُوّز أن يكون ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جوابَ ﴿لولا﴾ جريًا على قاعدة الكوفيّين في جواز التقديم، فالهمّ حينئذ على معناه الحقيقي. فالمعنى: لولا أنّه قد شاهد برهان ربّه لهَمّ بها كما همّت به، ولكن حيث انتفى / عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرّع عليه انتفى الهمّ رأسًا. [١٩١ظ]

هذا وقد فُسِّر هَمُّه عليه السلام بأنّه عليه السلام[٢] حلّ الهِميان وجلس مَجلس الخِتان.[٣] وبأنّه حلّ تِكّة سراويلِه وقعد بين شُعَبها.[٤] ورؤيتُه للبرهان بأنّه سمع صوتًا: إيّاك وإيّاها، فلم يكترث، ثمّ وثمّ إلى أن تَمثّل له يعقوب عليه السلام عاضًا على أُنملته.[٥] وقيل: ضرب على صدره فخرجت شهوته مِن أنامله.[٦]

وقيل: بدَت كفّ فيما بينهما ليس فيها عضُد ولا مِعصم، مكتوب فيها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار، ٨٢/١٠-١١]، فلم ينصرف، ثمّ رأى فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء، ٣٢/١٧]، فلم ينتهِ، ثمّ رأى فيها: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٨١/٢]، فلم ينجع، فقال الله عزّ وجلّ لجبريل عليه السلام: «أدرك عبدي قبل أن يُصيب الخطيئة»،

---

١ ط س: مساعدة.
٢ ط س - عليه السلام.
٣ جامع البيان للطبري، ٨٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٩/٥.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٨٥/١٣.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٨٨/١٣.
٦ جامع البيان للطبري، ٩٠/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١١/٥.

فانحطّ جبريل عليه السلام وهو يقول: «يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟»[١] وقيل: رأى تمثال العزيز.[٢]

وقيلَ وقيل... إنْ كلّ ذلك إلّا خُرافات وأباطيل تَمُجُّها الآذان، وتَرُدّها العقول والأذهان، ويل لمن لَاكَها ولفّقها، أو سمعها وصدّقَها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوب المحلّ. و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإراءة المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مثل ذلك التبصير والتعريف عرّفناه برهاننا فيما قبلُ. أو إلى التثبيت اللازم له، أي: مثل ذلك التثبيت ثبّتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ على الإطلاق، فيدخل فيه خيانة السيّد دخولًا أوّليًا. ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ والزنا؛ لأنّه مفرط القبح، وفيه آية بيّنة وحجّة قاطعة على أنّه عليه السلام لم يقع منه همّ بالمعصية، ولا توجّه إليها قطّ، وإلّا لقيل: لنَصرفه عن السوء والفحشاء، وإنّما توجّه إليه ذلك مِن خارج، فصرفه تعالى عنه بما فيه مِن موجبات العفّة والعصمة، فتأمّل.

[١٩٢و] / وقرئ: "لِيَصْرِفَ"[٣] على إسناد الصرف إلى ضمير الربّ.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لِما سبق مِن مضمون الجملة بطريق التحقيق، والمخلصون: هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عمّا هو قادح فيها. وقُرئ على صيغة الفاعل،[٤] وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه، وعلى كلا المعنيين فهو منتظِم في سلكهم داخلٌ في زمرتهم مِن أوّل أمره بقضيّة الجملة الاسميّة، لا أنّ ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك، فانحسم مادّة احتمال صدور الهَمّ بالسوء منه عليه السلام بالكلّيّة.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٢/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٠٩/٢.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٤.

[٤] أي: "الْمُخْلِصِينَ" بكسر اللام. قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ متّصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.[١] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾... إلى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرًا لنزاهته عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام، ٦/٧٥].

والمعنى: لقد همّت به وأبى هو. ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾ أي: تسابقا إلى الباب البرّاني الذي هو المُخلّص، ولذلك وُحِّد بعد الجمع فيما سلف، وحُذف حرف الجرّ وأُوصل الفعل إلى المجرور، نحو: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين، ٨٣/٣]، أو ضُمِّنَ الاستباق معنى الابتدار. وإسناد السبق في ضِمن الاستباق إليها مع أنّ مرادها مجرّد منعِ يوسف، وذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب لأنّها لمّا رأته يسرع إلى الباب ليتخلّص منها أسرعت هي أيضًا لتسبقه إليه وتمنعه عن الفتح والخروج. أو عبّر عن إسراعها إثرَه بذلك مبالغة.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته مِن ورائه فانشقّ طولًا، وهو القَدّ؛ كما أنّ الشقّ عرضًا هو القطّ، وقد قيل في وصف عليّ كرّم الله تعالى[٢] وجهه: «إنّه كان إذا اعتلى قَدّ، وإذا اعترض قَطّ».[٣] وإسناد القدّ إليها خاصّةً مع أنّ لقوّة يوسف أيضًا دخلًا فيه إمّا لأنّها الجزء الأخير للعلّة التامّة، وإمّا للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفَوت المحبوب، أو لخوف الافتضاح.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: صادفا زوجها. وإذ لم يكن مِلكه ليوسف عليه السلام صحيحًا لم يقل: "سيّدَهما". قيل: ألفياه مُقبِلًا. / وقيل: كان جالسًا مع ابن عمّ للمرأة. ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: البرّاني كما مرّ. روى كعب: أنّه لمّا هرَب يوسف جعل فَراشُ القُفل[٤] يتناثر ويسقط حتّى خرج مِن الأبواب.[٥] [١٩٢ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ ط س – تعالى.

٣ مجمل اللغة لابن فارس، «بكر»، بإسناده.

٤ فَراشة القُفل: ما يَنشَب فيه، أي: يعلق فيه. انظر: الصحاح للجوهري، «فرش»، «نشب».

٥ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٥٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٥٩.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال سائل يقول: فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب؟ فقيل: قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ مِن الزنا ونحوِه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، أي: ليس جزاؤه إلّا السجن أو العذاب الأليم. قيل: المراد به الضرب بالسياط، أو استفهاميّة، أي: أيّ شيء جزاؤه غير ذاك أو ذلك؟

ولقد أتت في تلك الحالة التي تُدهش فيها الفَطِن حيث شاهدَها العزيز على تلك الهيئة المُريبة بحِيلةٍ جمعت فيها غرَضَيْها، وهما تبرئة ساحتها ممّا يلوح مِن ظاهر الحال، واستنزالُ يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدمِ مُواتاته على مرادها بإلقاء الرعب في قلبه مِن مَكْرها طمعًا في مواقعته لها كُرهًا عند يأسها عن ذلك اختيارًا، كما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف، ٣٢/١٢].

ثمّ إنّها جعلت صدورَ الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرًا محقَّقًا مفروغًا عنه غنيًّا عن الإخبار بوقوعه، وأنّ[١] ما هي عليه مِن الأفاعيل لأجل تحقيق جزائها، فهي تريد إيقاعه[٢] حسبما يقتضيه قانون الإيالة. وفي إبهام المريد تهويلٌ لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونًا مطّردًا في حقّ كلّ أحد كائنًا مَن كان، وفي ذكرِ نفسها بعنوان أهليّة العزيز إعظامٌ للخَطْب وإغراءٌ له على تحقيق ما تتوخّاه بحُكم الغضب والحميّة.

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وجواب عمّا يقال: فماذا قال يوسف حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ أي: طالبتني للمُواتاة، لا أنّي أردت بها سوءًا كما قالت. وإنّما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عمّا أسندَ إليه مِن الخيانة وعدمِ معرفة حقّ السيّد،

---

[١] وفي هامش م: عطفٌ على وقوعه. والمعنى: أنّها جعلت الإرادة المذكورة محقّقةً غنيّةً عن الإخبار بوقوعها، ويكون أفعالها -مِن سعيها خلفه عليه السلام وغيره- لأجل تحقيق جزائها. «منه».

[٢] وفي هامش م: أي: إيقاعَ جزائها. «منه».

ودفعِ ما عرّضته له مِن الأمْرَين الأمَرّين. / وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون [١٩٣و]
الخطاب أو اسم الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل:[١] هو ابن عمّها. وقيل: هو الذي كان جالسًا مع زوجها لَدَى الباب. وقيل: كان حكيمًا يرجع إليه الملِك ويستشيره. وقد جُوّز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها مِن حيث لا تشعر، فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحقّ. وإنّما ألقى الله سبحانه الشهادة إلى مَن هو مِن أهلها ليكون أدلَّ على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة.

وقيل: كان الشاهد ابنَ خال لها صبيًّا في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته، وهو الأظهر، فإنّه رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢] قال: «تكلّم أربعة وهم صِغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى عليه السلام»، رواه الحاكم[٣] عن أبي هريرة، وقال: صحيح على شرط الشيخين.[٤] وذِكر كونه مِن أهلها لبيان الواقع، إذ لا يختلف الحال في هذه الصورة بين كون الشاهد مِن أهلها أو مِن غيرهم.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: إن عُلم أنّه قُدَّ مِن قَبْلُ مِن قُبُلٍ. ونظيره: إن أحسنتَ إليّ فقد أحسنتُ إليك فيما قَبْلُ، فإنّ معناه: إن تعتدَّ بإحسانك إليّ فأعتدُّ بإحساني السابق إليك.

---

[١] س: وقيل.

[٢] م - وسلّم.

[٣] هو محمّد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبّي النيسابوري، الشهير بالحاكم، أبو عبد الله (ت. ٤٠٥هـ/١٠١٤م)، مِن أكابر حفّاظ الحديث، والمصنّفين فيه. مولده ووفاته في نيسابور. رحَل إلى العراق، وجالَ في بلاد خراسان وما وراء النهر، وأخذ عن نحو ألفَي شيخ. ووَلِي قضاء نيسابور، ثمّ قُلّد قضاء جرجان، فامتنع. وهو مِن أعلم الناس بصحيح الحديث وتمييزه عن سقيمه. صنّف كتبًا كثيرة، قال ابن عساكر: «وقع مِن تصانيفه المسموعة في أيدي الناس ما يبلغ ألفًا وخمسمائة جزء». منها: تاريخ نيسابور، قال فيه السبكي: «وهو عندي مِن أعود التواريخ على الفقهاء بفائدة، ومَن نظَره عرَف تفنُّن الرجل في العلوم جميعها»، والمستدرَك على الصحيحين، والإكليل، والمدخل في أصول الحديث، وتراجم الشيوخ، وفضائل الشافعي، وتسمية مَن أخرجهم البخاري ومسلم، ومعرفة أصول الحديث وعلومه وكتبه. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦٢/١٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٧/٦.

[٤] المستدرك للحاكم، ٦٥٠/٢ (٤١٦١).

﴿فَصَدَقَتْ﴾ بتقدير "قد"؛ لأنها تُقرِّب الماضي إلى الحال، أي: فقد صدقَت، وكذا الحال في قوله: ﴿فَكَذَبَتْ﴾.[1] وهي وإن لم تصرّح بأنّه عليه السلام أراد بها سوءًا إلّا أنّ كلامها حيث كان واضِحَ الدلالة عليه أُسند إليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار، فإنّهما كما يَعرضان للكلام باعتبار منطوقه يَعرضان له باعتبار ما يستلزمه، وبذلك الاعتبار يعتريان للإنشاءات.

[١٩٣ظ] ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذه الشرطيّة / -حيث لا ملازمة عقليّةً ولا عاديّةً بين مقدَّمها وتاليها- ليست مِن الشهادة في شيء، وإنّما ذُكرت توسيعًا للدائرة وإرخاءً للعَنان إلى جانب المرأة بإجراءِ ما عسى يحتمله الحال في الجملة -بأن يقع القَدّ مِن قُبُلٍ بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند إرادته المخالطة والتكشّف- مُجرى الظاهر الغالب الوقوعِ تقريبًا لِما هو المقصود بإقامة الشهادة -أعني: مضمون الشرطيّة الثانية التي هي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾- إلى التسليم والقبول عند السامع؛ لكونه أقربَ إلى الوقوع وأدلَّ على المطلوب، وإن لم يكن بين طرفَيها أيضًا ملازمة.

وحكاية الشرطيّة بعد فعل الشهادة لكونها مِن قبيل الأقوال، أو بتقدير القول، أي: شهد قائلًا... إلخ.

وتسميتها شهادة مع أنّه لا حكمَ فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤدّاها؛ بل لأنّها شهادة على الحقيقة، وحُكمٌ بصدقه وكذبها. أمّا على تقدير كون الشاهد هو الصبيّ فظاهر، إذ هو إخبار بهما مِن قِبَل علّام الغيوب، والتصويرُ بصورة الشرطيّة للإيذان بأنّ ذلك ظاهر مِن العلائم أيضًا. وأمّا على تقدير كونه غيرَه فلِأنّ الظاهر أنّ صورة الحال[2] معلومةٌ له على ما هي عليه، إمّا مشاهدةً أو إخبارًا، فهو مُتيقِّن بعدم مقدَّم الشرطيّة الأولى، وبوجودِ مقدَّم الشرطيّة الثانية، ومِن ضرورته الجزمُ بانتفاءِ تالي الأولى، وبوقوع تالي الثانية، فإذن هو إخبار بكذبها وصدقِه عليه السلام، لكنّه ساق شهادته مَساقًا مأمونًا مِن الجرح والطعن حيث صوّرها بصورة الشرطيّة المتردّدة ظاهرًا بين نفعها ونفعه.

---

[1] في الآية التالية.

[2] وفي هامش م: مِن قدِّ القميص مِن دُبر.

وإمّا حقيقةً،[1] فلا تردّد فيها قطعًا؛ لأنّ الشرطيّة / الأولى تعليق لصِدقها بما [١٩٤و]
يستحيل وجوده مِن قدِّ القميص مِن قُبُل، فيكون مُحالًا لا محالةَ، ومِن ضرورته تقرّر كذبها. والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقَّقِ الوجود، وهو القدّ مِن دُبُر، فيكون محقّقًا البتّة. وهذا كما قيل فيمَن قال لامرأة: "زوّجيني نفسَكِ"، فقالت: "لي زوج"، فكذّبها في ذلك، فقالت: "إن لم يكن لي زوج فقد زوّجتُكَ نفسي"، فقَبِل الرجل، فإذا لا زوجَ لها فهو نكاح،[2] إذ تعليق الشيء بأمرٍ مقرَّر تنجيز له.

وقُرئ: "مِن قُبُلُ" و"مِن دُبُرُ" بالضمّ؛[3] لأنهما قُطِعا عن الإضافة، كقَبلُ وبَعدُ. وبالفتح،[4] كأنّهما جُعلا علَمين للجهتين، فمُنعا الصرفَ للتأنيث والعلميّة. وقُرئ بسكون العين.[5]

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ كأنّه لم يكن رأى ذلك بعدُ، أو لم يتدبّره، فلمّا تنبّه له وعلِم حقيقة الحال ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: الأمر الذي وقع فيه التشاجر، وهو عبارة عن إرادة السوء التي أُسنِدَت إلى يوسف وتدبيرِ عقوبته بقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾... إلى آخره،[6] لكن لا مِن حيث صدور تلك الإرادة والإسناد عنها؛ بل مع قطع النظر عن ذلك؛ لئلّا يخلوَ قوله تعالى: ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ -أي: مِن جنس حِيلتكنّ ومَكركنّ أيّتها النساءُ، لا مِن غيركنّ- عن الإفادة.

---

[1] السياق: إمّا مشاهدةً أو إخبارًا... وإمّا حقيقةً...

[2] هذا على مذهب الإمام أبي حنيفة. انظر: البحر الرائق لابن نجيم، ٦/٢٠٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر والجارود بن أبي سبرة ونوح وابن أبي إسحاق. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٣٦.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٤.

[5] أي: بسكون الباء منهما. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بإسكان الباءين والتنوين، ورُويت عن أبي عمرو. ورُوي عن نوح القاري أنّه أسكن الباءين وضمّ الأواخر ولم ينوّن، ورواها عن ابن أبي إسحاق عن يحيى بن يعمر. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٣٦.

[6] يوسف، ١٢/٢٥.

وتدبير العقوبة وإن لم يكن تجريدُه عن الإضافة إليها إلّا أنّها لمّا صوّرَتْه بصورة الحقّ أفاد الحُكم بكونه مِن كيدهنّ إفادة ظاهرة، فتأمّل. وتعميم الخطاب للتنبيه على أنّ ذلك خُلقٌ لَهنّ عَرِيقٌ:

ولا تحسَبا هِندًا لَها الغدر وحدَها سجيّةَ نفسٍ، كلُّ غانيةٍ هندُ[١]

ورَجعُ الضمير إلى قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ فقط[٢] عدولٌ عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع مِن أنّ إرادة السوء ممّن هي إلى البحث عن شُعبة مِن شُعَبه. وجعلُه للسوء أو للأمر المعبَّر به عن طمعها في يوسف عليه السلام[٣] يأباه الخبر، فإنّ الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هَنَاتٌ[٤] أُخرُ مِن قِبَلها كما أشرنا إليه.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنّه ألطف وأعلَق بالقلب، وأشدّ تأثيرًا في النفس. وعن بعض العلماء: أنا أخاف مِن النساء ما لا أخاف مِن الشيطان، / فإنّه تعالى يقول: [١٩٤ظ] ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٤/٧٦]، وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولأنّ الشيطان يوسوس مسارقةً، وهنّ يواجِهن به الرجال.[٥]

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾

﴿يُوسُفُ﴾ حُذف عنه حرف النداءِ لقربه وكمال تفطّنِه للحديث. وفيه تقريب له وتلطيف لمحلّه. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن هذا الأمر وعن التحديث به واكتمه، فقد ظهر صدقك ونزاهتك. ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ أنتِ يا هذه ﴿لِذَنۢبِكِ﴾ الذي صدر عنكِ وثبَت عليكِ.

﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ مِن جملة القوم المتعمّدين للذنب، أو مِن جنسهم. يقال: خطِئ إذا أذنب عمدًا. وهو تعليل للأمر بالاستغفار. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكان العزيز رجلًا حليمًا فاكتفى بهذا القدر مِن مؤاخذتها. وقيل: كان قليل الغَيرة.

---

١ لأبي تمّام في ديوانه بشرح التبريزي، ص ٨١.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٦١.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٦١.

٤ هَنَات: جمع هَنْ على وزن أخ: كلمة كناية، ومعناه: شيء. انظر: الصحاح للجوهري، «هنو».

٥ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦١.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ أي: جماعة مِن النساء، وكنّ خمسًا: امرأة الساقي، وامرأة الخبّاز، وامرأة صاحب الدوابّ، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب.[1] والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي، كتأنيث اللُّمَةِ؛ وهي اسم لجماعة النساء، والثُّبَةِ؛ وهي اسم لجماعة الرجال، ولذلك لم يَلحق فعلَه تاءُ التأنيث.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ ظرف لـ﴿قَالَ﴾، أي: أشعنَ الأمر في مصر. أو صفة لـ﴿نِسْوَةٌ﴾.

﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ أي: الملِك، يُردن قطفيرَ. وإضافتهنّ لها إليه بذلك العنوان دون أن يُصرّحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة في إشاعة الخبر بحكم أنّ النفوس إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميَل كما قيل،[2] إذ ليس مرادهنّ تفضيح العزيز؛ بل هي لقصد الإشباع في لومها بقولهنّ: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ أي: تطالبه بمواقعته لها، وتتمحّل في ذلك وتخادعه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾. وقيل: تطلب منه الفاحشة.

وإيثارهنّ لصيغة المضارع / للدلالة على دوام المراودة. والفتى مِن الناس: [١٩٥و] الشابّ، وأصله: فَتَيٌ؛ لقولهم: فَتَيان، والفُتوّة شاذّة، وجمعه فِتْية وفِتْيان، ويستعار للمملوك، وهو المراد ههنا، وفي الحديث: «لا يقُل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي أو فتاتي».[3]

وتعبيرهنّ عن يوسف عليه السلام بذلك مضافًا إليها لا إلى العزيز الذي لا يستلزم الإضافةُ إليه الهوانَ؛ بل ربّما يُشعر بنوع عزّةٍ؛ لإبانة ما بينهما مِن التباين البيّن الناشئ عن المالكيّة والمملوكيّة. وكلّ ذلك لتربية ما مرّ مِن المبالغة والإشباع في اللَوم، فإنّ مَن لا زوج لها مِن النساء أو لها زوج دنيء قد تُعذَر في مراودة الأخدان، لا سيّما إذا كان فيهم علوّ الجناب، وأمّا التي لها زوج

---

[1] قاله مقاتل. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٦/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٦٢/٢.

[2] قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٢٦٦/٦.

[3] صحيح البخاري، ١٥٠/٣ (٢٥٥٢)؛ صحيح مسلم، ١٧٦٤/٤ (٢٢٤٩).

-وأيُّ زوجٍ؛ عزيزُ مصرَ- فمراودتها لغيره لا سيّما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلًا وتماديها في ذلك غايةُ الغيّ ونهاية الضلال.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: شقَّ حبُّه شِغافَ قلبها -وهو حجابُه، أو جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب- حتّى وصل إلى فؤادها.

وقُرئ: "شَعَفَهَا" بالعين،[١] مِن شعَفَ البعيرَ إذا هنَأَه[٢] فأحرقه بالقَطِران. وعن الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الشغَف: الحبّ القاتل، والشعَف: حبّ دون ذلك».[٣] وكان الشعبي يقول: «الشغَف: حبّ، والشعَف: جنون».[٤]

والجملة خبر ثانٍ، أو حال مِن فاعل ﴿تُرَاوِدُ﴾، أو مِن مفعوله. وأيًّا ما كان فهو تكرير للّوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبيّة كأحوالها القالَبيّة. وجعلُها تعليلًا لدوام المراودة[٥] مِن حيث الإنّيّة[٦] مصيرٌ إلى الاستدلال على الأجلى بالأخفى، ومِن حيث اللمّيّة ميل إلى تمهيد العذر مِن قِبلها، ولَسْنَ بذاك المقام. وانتصاب ﴿حُبًّا﴾ على التمييز لنقله عن الفاعليّة، إذ الأصل: قد شغفها حُبُّه، كما أشيرَ إليه.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي: نعلمها علمًا متاخِمًا للمشاهدة والعيان فيما صنعَتْ مِن المراودة والمحبّة المفرطة مستقرّةً ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ عن طريق الرشد والصواب أو سنن العقل ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح لا يخفى كونه ضلالًا على أحد، أو مُظهر لأمرها بين الناس. فالجملة مقرّرة لمضمون الجملتين السابقتين المَسوقتين للّوم والتشنيع، وتسجيلٌ عليها بأنّها في أمرها على خطأ عظيم. وإنّما لم يقلن: إنّها لفي ضلال مبين؛

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والزهري والأعرج والشافعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٥.

٢ هنَأت البعيرَ أهنُؤه، إذا طليتُه بالهِناء، وهو القَطِران. الصحاح للجوهري، «هنأ».

٣ تفسير ابن أبي حاتم، ٢١٣١/٧؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ٥٢٧/٤.

٤ تفسير ابن أبي حاتم، ٢١٣١/٧؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٣٨/٣.

٥ انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٦٦/٦.

٦ قال الخادمي: «اعلم أنّ البرهان إمّا لِمّي إن كان الاستدلال مِن العلّة إلى المعلول، وإمّا إنّي إن كان المعلول إلى العلّة. وإن شئت قلت: إن كان الوسط علّة في الذهن والخارج فلِمّي، وإن كان في الذهن دون الخارج فإنّي، كالاستدلال بالنار على الدخان في اللِّمّي، وبالدخان على النار في الإنّي، كالاستدلال بالأثر على المؤثر». بَريقة محموديّة للخادمي، ١٤٨/١.

إشعارًا بأنّ ذلك الحكم غير صادر عنهنّ مجازفةً؛ بل عن علم ورأي مع التلويح بأنّهنّ متنزِّهات عن أمثال ما هي عليه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنْهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهنّ وسُوء قالَتِهنّ وقولِهنّ: امرأة العزيز عشِقَت عبدَها الكنعاني، وهو مَقَتَها.[١] وتسميته "مكرًا" لكونه خُفيةً منها كمكر الماكر، وإن كان ظاهرًا لغيرها. / وقيل: استكْتَمَتْهنّ سرّها فأفْشَيْنه عَلَيْها. وقيل: إنّما قلن ذلك لِتُرِيَهُنَّ يوسفَ عليه السلام. [١٩٥ظ]

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنّ، قيل: دَعَتْ أربعين امرأة، منهنّ الخمس المذكورات، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: أحضرت وهيّأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: ما يتّكِئن عليه مِن النمارق والوسائد، أو رتّبت لهنّ مجلس طعام وشراب؛ لأنّهم كانوا يتّكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين، ولذلك نُهِي الرجلُ أن يأكل متّكِئًا.[٢] وقيل: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ طعامًا، مِن قولهم: اتّكأنا عند فلان، أي: طَعِمنا، قال جميل:[٣]

فظلِلْنا بنعمةٍ واتّكأنا وشرِبْنا الحلال مِن قُلَلِهْ[٤]

وعن مجاهد: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ طعامًا يُحزّ حزًّا، كأنّ المعنى يُعْتَمَدُ بالسكّين عند القطع؛ لأنّ القاطع يتّكِئ على المقطوع بالسكّين.

---

١ وفي هامش م: أبغضها بغضًا شديدًا.

٢ عن أبي جحيفة: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لا آكل متّكئًا». صحيح البخاري، ٧٢/٧ (٥٣٩٨).

٣ هو جميل بن عبد الله بن مَعمر العذري القضاعي، أبو عمرو (ت. ٨٢هـ/٧٠١م)، شاعر مِن عشّاق العرب. افتتَنَ ببثينة مِن فتيات قومه، أحبّها وهو صغير، فلمّا كبر خطبها فرُدّ عنها، فقال الشعر فيها، شعره يذوب رِقّة، أقلُّ ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر. وكانت منازل بني عُذرة في وادي القرى مِن أعمال المدينة، ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبيّة، فقصَد جميل مصر وافدًا على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه عبد العزيز وأمر له بمنزل، فأقام قليلًا ومات فيه. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٤٣٦/١؛ وتاريخ الإسلام للذهبي، ١٠٦٨/٢؛ والأعلام للزركلي، ١٣٨/٢.

٤ ديوان جميل بثينة، ص ١٨٨.

وقُرئ بغير همز.[١] وقُرئ بالمدّ بإشباع حركة الكاف،[٢] كمُنتَزاح في مُنتزَح، وينْباع في يَنبَع. وقُرئ: "مُتْكًا"،[٣] وهو الأُترُجّ، وأنشد:

وأهــــدَت مُـتْـكَـةً لـبـنـي أبـيـهـا تَـخُـبُّ بـهـا الـعَـثَـمْـثَـمَـةُ الـوَقـاحُ[٤]

أو ما يُقطع، مِن "مَتَكَ الشيءَ" إذا بتَكَه. و"مَتْكَأً"[٥] مِن تَكِئ إذا اتّكأ.

﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ لتَستعمِله في قطع ما يُعهَد قطعه ممّا قُدِّم بين أيديهنّ وقُرِّب إليهنّ مِن اللحوم والفواكه ونحوها وهنّ متّكئات، وغرضها مِن ذلك ما سيقع مِن تقطيع أيديهنّ.

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف وهنّ مشغولات بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما بأيديهنّ مِن الفواكه وأضرابها، والعطف بالواو ربّما يشير إلى أنّ قولها: ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ -أي: ابْرُزْ لهُنّ- لم يكن عقيب ترتيب أمورهنّ ليتمّ غرضها مِن استِغفالِهنّ.

[١٩٦و] ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ﴾ / عطف على مقدّر يستدعيه الأمر بالخروج، وينسحب عليه الكلام، أي: فخرج عليهنّ فرأينه، وإنّما حُذف تحقيقًا لمفاجأة رؤيتهنّ، كأنّها تفوت عند ذكر خروجه عليهنّ، كما حُذف لتحقيق السرعة في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ [النمل، ٤٠/٢٧]. وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام لأمرها فيما لا يشاهد مضرّته مِن الأفاعيل.

﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ عظّمنه وهِبْنَ حُسْنَه الفائقَ وجمالَه الرائع الرائق، فإنّ فضل جماله على جمال كلّ جميل كان كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب.

---

١ أي: "مُتّكًا". قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩٩/١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن عمر رضي الله عنهم ومجاهد وقتادة والضحّاك والجحدري والكلبي وإبان بن تَغلب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٦٨/٦.

٤ أنشده الزمخشري في الكشّاف، ٤٦٤/٢. قال: «وكانت أهدَت أُترُجّة على ناقة». و"العَثَمْثَمَةُ": الناقة الصلبة، و"الوَقاحُ": شديد الحافر. انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٣١٥/٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٦٤/٢.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر».[١] وقيل: كان يُرى تلألؤ وجهه على الجُدران كما يرى نور الشمس من الماءِ عليها،[٢] وقيل: معنى "أكبَرْن": حِضْنَ، والهاء للسكت، أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام، أي: حِضنَ له مِن شدّة الشبَق، كما قال المتنبّي:[٣]

خَفِ اللهَ واستُر ذا الجمالَ ببُرقُعٍ فإن لُحتَ حاضتْ في الخُدور العواتقُ[٤]

﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي: جرَحنها بما في أيديهنّ مِن السكاكين لفرط دهشتهنّ وخروج حركات جوارحهنّ عن منهاج الاختيار والاعتياد حتّى لم يعلمنَ ما فعلنَ. وفي التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى مِن الدلالة على كثرة جرحهنّ، ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به.

﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا له سبحانه عن صفات النقص والعجز، وتعجّبًا مِن قدرته على مثل ذاك الصنع البديع. وأصلُه: "حَاشَا" كما قرأه أبو عمرو في الدَّرْج،[٥] فحُذفت ألفه الأخيرة تخفيفًا. وهو حرف جرّ يفيد معنى / التنزيه في [١٩٦ظ] باب الاستثناء، فلا يستثنى به إلّا ما يكون موجِبًا للتنزيه، فوضع موضعه، فمعنى "حَاشَا اللهِ": تنزيهُ اللهِ وبراءةُ اللهِ، وهي[٦] قراءة ابن مسعود.[٧]

---

١ نحوه في جامع البيان للطبري، ٤٣٦/١٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢١٨/٥. وأخرجه كذلك الحاكم في المستدرك، ٦٢٣/٢.

٢ ط س - عليها.

٣ هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي الكوفي الكِندي، أبو الطيِّب المتنبّي (ت. ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب مَن يعدّه أشعرَ الإسلاميّين. وُلد بالكوفة في محلّة تسمّى "كِندة" وإليها نسبته. ونشأ بالشام، ثمّ تنقّل في البادية يطلب الأدبَ وعلم العربيّة وأيّام الناس. وقال الشعر صبيًّا. أمّا ديوان شعره فمشروح شروحًا وافية. وقد جمع الصاحب ابن عبّاد لفَخر الدولة نخبة مِن أمثال المتنبّي وحِكَمه. وتبارى الكتّاب قديمًا وحديثًا في الكتابة عنه، فألّف الجُرجاني الوساطة بين المتنبّي وخصومه، والثعالبي أبو الطيّب المتنبّي وما له وما عليه. انظر: يتيمة الدهر للثعالبي، ١٣٩/١؛ ونزهة الألبّاء للأنباري، ص ٢١٩؛ والأعلام للزركلي، ١١٥/١.

٤ ديوان المتنبّي، ص ٢٦٤، بلفظ: فإن لُحتَ ذابت... قال القاضي الجرجاني: «لمّا أُنكِر عليه "حاضت" غيّره فجعله "ذابت"». الوَساطة للجرجاني، ص ٩٠.

٥ قرأ أبو عمرو بألف بعد الشين وصلًا، وحذفها وقفًا. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

٦ وفي هامش م: أي: "حَاشَا اللهِ" بالإضافة.

٧ قراءة شاذّة، وهي مرويّة كذلك عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٥.

و"اللام" لبيان المنزَّه والمبرَّأ كما في "سُقيًا لك". والدليل على وضعه موضع المصدر قراءةُ أبي السَّمّال:[١] "حَاشًا" بالتنوين،[٢] وقراءةُ أبي عمرو بحذف الألف الأخيرة،[٣] وقراءةُ الأعمش بحذف الأولى،[٤] فإنّ التصرّف مِن خصائص الاسم، فيدلّ على تنزيله منزلته. وعدمُ التنوين لمراعاة أصلِه، كما في قولك: جلست مِن عن يمينه، وقوله:

غـــــدَت مِـــــن عَـــلَـــيْـــه[٥]

منقَلِبَ الألف إلى الياء مع الضمير. وقُرئ: "حَاشْ للهِ" بسكون الشين[٦] إتباعًا للفتحةِ الألفَ في الإسقاط. و"حَاشَ الإلَهِ".[٧]

وقيل: ﴿حَٰشَ﴾ "فاعَلَ" مِن "الحَشا" الذي هو الناحية، وفاعله ضمير يوسف، أي: صار في ناحيةٍ مِن أن يُقارف ما رمته به، ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لطاعته، أو لمكانه؛ أو جانَبَ المعصيةَ لأجل الله.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ على إعمال ﴿مَا﴾ بمعنى "ليس"، وهي لغة أهل الحجاز؛ لمشاركتهما في نفي الحال. وقُرئ: "بَشَرٌ"[٨] على لغة تميم، و"بِشِرًى"،[٩] أي: بعبد مَشْريّ لئيمٍ.

---

١ هو قَعنب بن أبي قَعنب أبو السَّمّال -بفتح "السين" وتشديد "الميم" وبـ"اللام"- العدوي البصري، له اختيار في القراءة شاذّ عن العامة رواه عنه أبو زيد سعيد بن أوس، وأسند الهُذلي قراءة أبي السَّمّال عن هشام البربري عن عبّاد بن راشد عن الحسن عن سمرة عن عمر. وهذا سند لا يصحّ. **غاية النهاية** لابن الجزري، ٢/٢٧.

٢ قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٥.

٣ أي: في حالة الوقف.

٤ قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٥.

٥ وفي هامش م: تمامه:

...بـعـــدَ مـا تـمّ ظـمْـؤهـا
تَـصِلُّ وعـن قَـيضٍ بِبيداءَ مَجهلِ

«منه». | وهو مِن قول مُزاحم العقيلي، يصف قَطاة في أشدّ أحوالها وحاجتها إلى الطيران مِن عطشها وحاجة فرخها إلى الريّ؛ لأنّها غدت في اليوم الخامس مِن شربها وجوفها يصوِّت مِن يبَسه وبُعد عهده عن الماء. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ٣/١٢٤٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٥.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٥.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٤٦٥.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي الحُويرث المدني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٤٦.

نَفَينَ عنه البشريّة لِما شاهدن فيه مِن الجمال العبقري الذي لم يُعهَد مثالُه في البشر، وقصَرنَه على الملَكيّة بقولهنّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بناءً على ما رُكِزَ في العقول مِن أن لا حيَّ أحسن مِن الملَك كما رُكّب فيها أن لا أقبحَ مِن الشيطان، ولذلك لا يزال يُشبَّهُ بهما كلُّ متَناهٍ في الحسن والقبح، وغرضُهنّ وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾ الفاء فصيحة. / والخطاب للنسوة. والإشارة إلى يوسف [١٩٧و] بالعنوان الذي وصَفْنَه به الآنَ مِن الخروج في الحسن والجمالِ عن المراتب البشريّة والاقتصار على الملَكيّة، فاسم الإشارة مبتدأ، والموصول خبره.

والمعنى: إن كان الأمر كما قلتنّ فذلكنّ الملَك الكريم النائي عن المراتب البشريّة هو ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: عَيّرتُنّني في الافتِتان به، حيث رَبَأْتُنّ بمحلّي بنسبتي إلى العزيز، ووضعتنّ قدره بكونه مِن المماليك.

أو بالعنوان[١] الذي وصفنه به فيما سبق بقولهنّ: امرأةُ العزيز عشقت عبدَها الكنعاني. فهو خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتنّ في أنفسكنّ وقلتُنّ فيه وفيّ ما قلتنّ، فالآن قد علِمتُنّ مَن هو وما قولكنّ فينا.

وأمّا ما يقال: تعني أنكنّ لم تصوّرنه بحقّ صورته، ولو صوّرتُنّه بما عاينتُنّ لعَذرتُنّني في الافتتان به؛[٢] فلا يلائم المقام، فإنّ مرادها بدعوتِهنّ وتمهيد ما مَهّدَتْهُ لهنّ تبكيتُهنّ وتنديمُهنّ على ما صدَر عنهنّ مِن اللّوم، وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه، وما ذُكر مِن المَقال فحقّ المُعتذر[٣] قبل ظهور معذرته.

---

[١] السياق: والإشارة إلى يوسف بالعنوان... أو بالعنوان...

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٦٧.

[٣] وفي هامش م: أو الذي يلقّنْهنّ العذر. «منه».

وقد قيل في تعليل الملَكيّة: أنّ الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعِصمة البالغة مِن الخواصّ الملَكيّة،[١] وهو أيضًا لا يلائم قولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ﴾، فإنّ عنوان العِصمة ممّا ينافي تمشيةَ مَرامها.

ثمّ بعد ما أقامت عليهنّ الحجّة وأوضحت لديهنّ عذرها وقد أصابَهُنّ مِن قِبَله عليه السلام ما أصابَها / بَاحَتْ لَهُنَّ ببَقِيّة سرِّها فقالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ حسبما قلتُنّ وسمعتُنّ ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ امتنع طالبًا للعصمة. وهو بناء مبالغة يدُلّ على الامتناع البليغ والتحفّظ الشديد، كأنّه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها، كما في استمسك واستجمع الرأيَ. وفيه برهان نيّر على أنّه لم يصدر عنه عليه السلام شيء مخلّ باستعصامه بقوله: ﴿معاذ الله﴾ مِن الهمّ وغيره. [١٩٧ظ]

اعترفَتْ لهنّ أوّلًا بما كنّ يسمَعنه مِن مراودتها له، وأكّدتْه إظهارًا لابتهاجها بذلك، ثمّ زادت على ذلك أنّه أعرض عنها على أبلغ ما يكون، ولم يمِل إليها قطّ، ثمّ زادت عليه أيضًا أنّها مستمرّة على ما كانت عليه غيرُ مُرْعَوِيةٍ عنه، لا بلوم العواذل، ولا بإعراضِ الحبيب، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: آمر به فيما سيأتي، كما لم يفعل فيما مضى. فحُذف الجارّ، وأُوصل الفِعلُ إلى الضمير، كما في "أمرتك الخيرَ"، فالضمير للموصول. أو أمري إيّاه،[٢] أي: موجَبَ أمري ومقتضاه، فـ﴿مَا﴾ مصدريّة، والضمير ليوسف، وعبّرت عن مراودتها بالأمر إظهارًا لِجريان حكومتها عليه، واقتضاءً للامتثال بأمرها.

﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ بالنون المثقّلة. آثرت بناءَ الفعل للمفعول جريًا على رَسْمِ الملوك، أو إيهامًا لسُرعة ترتّب ذلك على عدم امتثاله بأمرها،[٣] كأنّه لا يدخل بينهما فِعل فاعلٍ. ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالمخفّفة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الأذلّاء في السِجن.

وقد قُرئ الفعلان بالتثقيل،[٤] ولكنّ المشهورة أولى؛ لأنّ النون كتبت في المصحف أَلِفًا على حكم الوقف.

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٦٢.

[٢] وفي هامش م: يوسف.

[٣] س: لأمرها.

[٤] قراءة شاذّة، ذكرها الزجّاج بغير نسبة ونقلها الكرماني عنه. انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٣/١٠٨؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٦.

و"اللام" الداخلة على حرف الشرط موطِّئة للقسم، وجوابه سادّ مَسدّ الجوابين. ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوي على فنون التأكيد بمَحضر منهنّ ليعلم يوسف أنّها ليست في أمرها على خُفية ولا خِيفة مِن أحدٍ، فتَضِيقَ عليه الحِيلُ ويَعْيى بهِ العِلَلُ، وينصَحْنَ له ويُرشِدْنَه إلى مُوافَقَتِها.

ولمّا كان هذا الإبراقُ والإرْعَادُ منها مظِنّةً لِسؤال سائل يقول: فما صنَع يوسف حينئذ؟ قيل: ﴿قَالَ﴾ مناجيًا لربّه عزّ سلطانه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ الذي أَوْعدَتْني بالإلقاءِ فيه. وقرأ يعقوبُ بالفتح[١] على المصدر. ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي: آثَرُ عِندي؛ لِأنّه مشقّة قليلة نافذة، / إثرَها راحات جليلة أبديّة. ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [١٩٨و]
مِن مواتاتها التي تؤدّي إلى الشقاء والعذاب الأليم.

وهذا الكلام منه عليه السلام مبنيّ على ما مرّ مِن انكشاف الحقائق لديه وبروز كلّ منها بصورتها اللائقة بها، فصيغة التفضيل ليست على بابها، إذ ليس له شائبة محبّةٍ لِما دعته إليه، وإنّما هو والسجنُ شرّان أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجنُ.

والتعبير عن الإيثار بالمحبّة لحسم مادّة طمعها عن المساعدة خوفًا مِن الحبس. والاقتصار على ذكر السجن مِن حيث إنّ الصَّغار مِن فروعه ومستتبعاته. وإسناد الدعوة إليهنّ جميعًا لأنّ النسوة رَغَّبْنَهُ في مطاوعتها، وخوَّفْنه مِن مُخالفتها. وقيل: دعَونه إلى أنفسهنّ. وقيل: إنّما ابتُلِي عليه السلام بالسجن لقوله هذا، وكان الأَولى به أن يسأل الله تعالى العافيةَ، ولذلك ردّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مَن كان يسأل الصَبر.[٢]

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي: إن لم تصرف ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه لديّ بأن تُثبّتني على ما أنا عليه مِن العصمة والعفّة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمِل إلى إجابتهنّ أو إلى أنفسهنّ على قضيّة الطبيعة وحكم القوّة الشهويّة.

---

١ وفي هامش م: أي: فتح السين. | أي: "السَّجْنُ". انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

٢ عن معاذ بن جبل، قال: سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رجلًا يدعو يقول: اللّهمّ إنّي أسألك الصبر، فقال: «سألتَ الله البلاء فسَله العافية». سنن الترمذي، ٥/٥٤١ (٣٥٢٧).

وهذا فزَع منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جريًا على سَنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عزّ وجلّ، وسلبِ القوى والقُدَرِ عن أنفسهم، ومبالغةٌ في استدعاءِ لطفه في صرف كيدهنّ عنه[١] بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث: أَدركني وإلّا هلكتُ، لا أنّه يطلب الإجبار والإلجاءَ إلى العصمة والعفّة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهنّ.

والصبوة الميلُ إلى الهوى، ومنه الصَّبا؛ لأنّ النفوس تصبو إليها لطِيب نسيمها ورَوحها. وقُرئ: "أَصَبُّ إِلَيهِنَّ"[٢] مِن الصَّبابة؛ وهي رقّة الشوق.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ مَن لا جدوى لعِلمه / فهو والجاهل سواء، أو مِن السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه مِن القبائح؛ [١٩٨ظ]
لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ دعاءَه الذي تضمّنه قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾... إلخ،[٣] فإنّ فيه استدعاءً لصرف كيدهنّ على أبلغ وجه وألطفه كما مرّ. وفي إسناد الاستجابة إلى الربّ مضافًا إليه عليه السلام ما لا يخفى مِن إظهار اللطف.

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ حسب دعائه وثبّته على العِصمة والعفّة. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء المتضرّعين إليه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأصحابه المتصدّين للحلّ والعقد ريثما اكتفَوا بأمر يوسف بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الصارفةَ لهم عن ذلك البَداء، وهي الشواهد الدالّة على براءته عليه السلام. وفاعل ﴿بَدَا﴾ إمّا مصدرُه، أو الرأي المفهوم مِن السياق، أو المصدر المدلول عليه بقوله: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾.

---

١ ط س – عنه.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٦.

٣ في الآية السابقة.

والمعنى: بدا لهم بداء أو رأي أو سَجْنُه المحتومُ قائلين: واللهِ ليسجننّه. فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدَّر حالًا مِن ضميرهم، وما كان ذلك البَداء إلّا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه في الذِّروة والغارب،[1] وكان مِطواعة لها تقوده حيث شاءت.

قال السدّي: «إنّها قالت للعزيز: إنّ هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يخبرهم بأنّي راودته عن نفسه، فإمّا أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس، وإمّا أن تحبِسه، فحبَسه».[2]

ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قَرونته[3] لِما انصرمَتْ حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وبأعوانها.

/ وقُرئ: "لَتَسْجُنُنَّهُ"[4] على صيغة الخطاب، بأن خاطب بعضُهم العزيز ومَن يليه، أو العزيزَ وحده على وجه التعظيم، أو خاطب به العزيزُ ومَن عنده مِن أصحاب الرأي المباشرين للسجن والحبس. [١٩٩و]

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى حين انقطاع قالةِ الناسِ، وهذا بادي الرأي عند العزيز وذويه. وأمّا عندها فحتّى يذلّله السجن ويسخّره لها ويحسب الناس أنّه المجرم. وقُرئ: "عَتَّى حِينٍ"،[5] بلغة هذيل.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي: في صحبته ﴿ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ مِن فتيان الملِك ومماليكه، أحدهما شرابيّه، والآخر خبّازه.

---

[1] قولهم: «فتَل في الذِّروة والغارب» يقال ذلك للرجل لا يزال يخدع صاحبه حتى يظفر به. وذروة البعير: أعلاه، وكذلك ذروة كل شيء. والغارب: مقدّم السنام. جمهرة الأمثال للعسكري، ٢/٩٨.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٢٠؛ اللباب لابن عادل، ١١/٩٩.

[3] القَرون والقَرونة والقَرينة والقَرين: النفْس. لسان العرب لابن منظور، «قرن».

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦٨.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١/٣٤٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٦٨.

رُوي أنّ جماعة مِن أهل مصر ضمنوا لهما مالًا ليَسُمّا الملِك في طعامه وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثمّ إنّ الساقي نكَل عن ذلك، ومضى عليه الخبّاز فسمّ الخبز، فلمّا حضر الطعام قال الساقي: لا تأكل أيّها الملِك، فإنّ الخبز مسموم، وقال الخبّاز: لا تشرب أيّها الملِك، فإنّ الشراب مسموم. فقال الملِك للساقي: اشرَبه، فشرِبه فلم يضرّه، وقال للخبّاز: كُلْه، فأبى، فجرّب بدابّة، فهلكت، فأمر بحبسهما، فاتّفق أن أُدخِلاه[1] معه.

وتأخير الفاعل عن المفعول لِما مرّ غير مرّة مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر؛ ليتمكّن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكّن. ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات، ٥١/٢٨]. وتأخير السجن عن الظرف لإيهام العكس؛ أن يكون الظرف / خبرًا [١٩٩ظ] مقدَّمًا على المبتدأ، ويكونَ الجملة حالًا مِن فاعل ﴿دَخَلَ﴾، فتأمّل.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن يقول: ما صنَعا بعد ما دخلا معه السجن؟ فأجيب بأنّه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾[2] وهو الشرابيّ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: رأيتُني. والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية. ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرًاۖ﴾ أي: عنبًا. سمّاه بما يئول إليه لكونه المقصود مِن العصر. وقيل: الخمر بلغة عُمان اسم للعِنب. وفي قراءة ابن مسعود: "أَعْصِرُ عِنَبًا".[3]

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخبّاز ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾ تأخير المفعول عن الظرف لِما مرّ آنفًا. وقوله ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ أي: تنهَس منه، صفة للخبز، أو استئناف مبنيّ على السؤال. ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ بتأويل ما ذُكر مِن الرؤيَيين، أو ما رُئي، بإجراء الضمير مُجرى "ذلك" بطريق الاستعارة، فإنّ اسم الإشارة يشار به إلى متعدّد كما في قوله:

فيها خطوطٌ مِن سوادٍ وبلَقْ كأنّه في الجِلد تَوليعُ البَهقْ[4]

أي: كأنّ ذلك.

---

[1] وفي هامش م: أي: السجن. «منه».

[2] وفي هامش م: لكن لا عند دخولهما؛ بل بعد حينٍ كما سيأتي. «منه».

[3] انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

[4] لرؤبة بن العجّاج في ديوانه، ص ١٠٤. "فيها": يعني الأُتن، وجعل ما فيها مِن البياض بلَقًا. »

والسرّ في المصير إلى إجراء الضمير مُجرى اسم الإشارة -مع أنّه لا حاجة إليه بعد تأويل المَرجع بـ"ما ذُكِر" أو بـ"ما رُئِيَ"- أنّ الضمير إنّما يتعرّض لنفس المَرجع مِن حيث هو مِن غير تعرّض لحالٍ مِن أحواله، فلا يتسنّى تأويله بأحد الاعتبارين إلّا بإجرائه مُجرى اسم الإشارة الذي يدلّ على المشار إليه بالاعتبار الذي جرى عليه في الكلام، فتأمّل.

هذا إذا قالاه معًا، أو قاله أحدهما مِن جهتهما معًا، وأمّا إذا قاله كلّ منهما إثر ما قصّ ما رآه فالخطاب المذكور ليس عبارتَهما، ولا عبارةَ أحدهما مِن جهتهما؛ ليتعدّد المرجع؛ بل عبارةُ كلّ منهما: "نبّئني بتأويله" مستفسِرًا لِما رآه. وصيغة المتكلّم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، فإنّهم لم يخاطَبوا بذلك دفعةً؛ بل خوطب كلّ منهم في زمانه بصيغةٍ مفردةٍ خاصّة به.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها / منه عليه السلام ﴿مِنَ [٢٠٠و]
ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مِن الذين يجيدون عبارة الرؤيا؛ لِما رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيئوِّلها له تأويلا حسنًا، أو مِن العلماء لِما سَمِعاه يذكر للناس ما يدلّ على علمه وفضله.

أو مِن المحسنين إلى أهل السجن، أي: فأحسن إلينا بكشف غمّتنا إن كنت قادرًا على ذلك. رُوِي أنّه عليه السلام كان إذا مرض منهم رجل قام عليه، وإذا ضاق مكانُه أوسع له، وإذا احتاج جمَع له.[١]

وعن قتادة كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤُهم وطال حزنهم، فجعل يقول: «أبشروا واصبروا تؤجروا»، فقالوا: «بارك الله عليك، ما أحسنَ وجهك؟ وما أحسنَ خُلقك؟ لقد بُورك لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟» قال: «أنا يوسف ابنُ[٢] صفيّ الله يعقوبَ ابنِ ذبيح الله إسحاقَ ابن خليل الله إبراهيم»،

---

= والتوليع في البقر وغيرها: خطوط مِن بياض، يقال: بقر مولعة. و"البَهَق": نوع مِن البَرَص إلّا أنّه أخفُّ منه. وقوله: "كأنّه" وحّد الضمير بعد قوله: "فيها خطوط"، لأنّه حمله على الجنس. شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٤٨/٨.

١ جامع البيان للطبري، ١٥٦/١٣؛ تفسير ابن أبي حاتم، ١٥٦/١٣.

٢ ط س: بن.

فقال له عامل السجن: «لو استطعت خلّيتُ سبيلك، ولكنّي أُحسِنُ جوارَك، فكن في أيّ بيوت السجن شئتَ».[١]

وعن الشعبيّ: أنّهما تحالَما له ليمتحناه، فقال الشرابيّ: «أراني في بستان، فإذا بأصل حَبَلة[٢] عليها ثلاثةُ عناقيد مِن عنب، فقطعتُها وعصرتها في كأس الملِك وسقيته»، وقال الخبّاز: «إنّي أراني وفوق رأسي ثلاث سِلال فيها أنواع الأطعمة، وإذا سباع الطير تنهَس منها».[٣]

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧﴾

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في مقامكما هذا حسب عادتكما المطَّردة ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا يأتيكما طعام في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ما نبّأتكما به بأن بيّنت لكما ماهيّته وكيفيّته وسائرَ أحواله[٤] ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ وإطلاق التأويل عليه إمّا بطريق الاستعارة، فإنّ / ذلك بالنسبة إلى مطلَق الطعام المبهَم بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رُئي في المنام وشبيه له. وإمّا بطريق المشاكَلة حسبما وقع في عبارتهما مِن قولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾.[٥] [٢٠٠ظ]

ولا يَبعد أن يُراد بالتأويل الشيء الآيِل، لا المآلُ، فإنّه في الأصل: جعلُ شيء آيِلًا إلى شيء آخر. فكما يجوز أن يُراد به الثاني يجوز أن يُراد به الأوّل. فالمعنى: إلّا نبّأتكما بما يئول إليه مِن الكلام والخبرِ المطابق للواقع. وكان عليه السلام يقول لهما: اليوم يأتيكما طعام مِن صفته كَيت وكَيت، فيَجدانه كذلك.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٥٧/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٣/٥.

٢ الحَبَلة: شجرة العنب، جمعها حَبَل. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حبل».

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٩/٢. ونحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه في جامع البيان للطبري، ١٥٣/١٣.

٤ وفي هامش م: وحاصله إلّا حال كونه منبّأً بتأويله، فهو حال مِن ﴿طَعَامٌ﴾ لتخصّصه بالصفة، أعني: قوله: ﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾. «منه».

٥ في الآية السابقة.

ومراده عليه السلام بذلك بيان كلّ ما يهمّهما مِن الأمور المترقَّبة قبل وقوعها. وإنّما تخصيص الطعام بالذِّكر لكونه عريقًا في ذلك[١] بحسب الحال، مع ما فيه مِن مراعاة حسن التخلّص إليه ممّا استعبراه مِن الرؤيَيَين المتعلّقتَين بالشراب والطعام.

وقد جُعل الضمير لِما قصّا مِن الرؤيَيَين، على معنى: لا يأتيكما طعام ترزَقانه حسب عادتكما إلّا أخبرتكما بتأويل ما قَصصتما عليّ قبل أن يأتيَكما ذلك الطعام الموقّتُ مرادًا به الإخبار بالاستعجال في التنبئة.

وأنت خبير بأنّ النظم الكريم ظاهر في تعدّد إتيان الطعام والإخبارِ بالتأويل وتجدّدهما، وأنّ المقام مقام إظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولًا أوّليًا.

وإنّما لم يكتف عليه السلام بمجرّد تأويل رؤياهما مع أنّ فيه دلالة على فضله؛ لأنّهما لمّا نَعَتاهُ عليه السلام بالانتظام في سَمط المحسنين، وأنّهما قد علما ذلك حيث قالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢] توسّم عليه السلام فيهما خيرًا وتوجّها إلى قبول الحقّ، فأراد أن يَخرُجَ آثِرَ ذي أثِيرٍ عمّا في عُهدته مِن دعوة الخَلق إلى الحقّ، فمهّد قبلَ الخوض في ذلك مقدّمةً تزيدهما عِلمًا بعِظم شأنه وثقةً بأمره ووقوفًا على علوّ طبقته في بدائع العلوم توسّلًا بذلك إلى تحقيق ما يتوخّاه، وقد تخلّص إليها مِن كلامهما،[٣] فكأنّه قال: تأويل ما قَصَصْتُماه عَلَيّ في طَرَف الثُّمام،[٤] حيث رأيتما مِثاله في المنام، وإنّي أُبيّن لكما كلّ جليل ودقيق مِن الأمور المستقبَلة، وإن لم يكن هناك مقدّمة المنام، حتّى إنّ الطعام الموظّف الذي يأتيكما كلّ يوم أُبيّنه لكما قبل إتيانه.

---

١ وفي هامش م: أي: في الاهتمام به والترقّب. «منه».

٢ في الآية السابقة.

٣ وفي هامش م: كما أشرنا إليه. «منه».

٤ الثُّمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص، وربما حُشي به وسُدّ به خصاص البيوت، الواحدة ثُمامة. الصحاح للجوهري، «ثمم». والعرب تقول للشيء الذي لا يعسُر تناوله: هو على طرف الثُّمام، وذلك أن الثمام لا يطول فيشقّ تناوله. لسان العرب لابن منظور، «ثمم».

[٢٠١و] ثمّ أخبرهما بأنّ علمه ذلك ليس مِن قَبيل / علوم الكهَنة والعرّافين؛ بل هو فضل إلهي يؤتيه مَن يشاء ممّن يصطفيه للنبوّة، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيَّبات. ومعنى البعد في "ذلك" للإشارة إلى علوّ درجته وبُعد منزلته. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالوحي والإلهام، أي: بعض منه، أو مِن ذلك الجنس الذي لا يحوم حول إدراكه العقول، ولقد دلّهما بذلك على أنّ له علومًا جمّةً، ما سمعاه قطعةٌ مِن جملتها، وشعبة مِن دَوحتها.

ثـمّ بيّن أنّ نيل تلك الكرامة بسبب اتّباعه ملّة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهو استئناف وقَع جوابًا عن سؤال نشأ مِن قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، وتعليلًا له، لا للتعليم الواقع صلة للموصول؛ لتأديته إلى معنى أنّه ممّا علّمني ربّي لهذا السبب دون غيره، ولا لِمضمون الجملة الخبريّة؛ لأنّ ما ذُكر بصدد التعليل ليس بعلّة؛ لكون التأويل المذكور بعضًا ممّا علّمه ربّه، أو لكونه مِن جنسه؛ بل لنفس تعليم ما علّمه، فكأنّه قيل: لماذا علّمك ربّك تلك العلوم البديعة؟ فقيل: لأنّي تركت ملّة الكفرة، أي: دينَهم الذي اجتمعوا عليه مِن الشرك وعبادة الأوثان.

والمراد بتركها الامتناع عنها رأسًا كما يُفصح عنه قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾، لا تركها بعد ملابستها. وإنّما عبّر عنه بذلك لكونه أدخَل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام.

والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به للتنصيص على أنّ عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليس بإيمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود، ٤٦/١١].

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وما فيها مِن الجزاء ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ على الخصوص دون غيرهم؛ لإفراطهم في الكفر.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ يعني أنه إنّما حاز هذه الكمالاتِ

وفاز بتلك الكرامات بسبب أنّه اتّبع ملّة آبائه الكرام، ولم يتّبع ملّة قوم كفروا بالمَبدأ والمَعاد. وإنّما قاله عليه السلام ترغيبًا لصاحِبَيه في الإيمان والتوحيد، / وتنفيرًا لهما عمّا كانا عليه مِن الشرك والضلال. وقدّم ذِكر تركه لملّتهم على ذِكر اتّباعه لملّة آبائه لأنّ التّخلِية متقدّمة على التّحلِية. [٢٠١ظ]

﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صحّ وما استقام فضلًا عن الوقوع ﴿لَنَا﴾ معاشر الأنبياء؛ لقوّة نفوسنا ووُفور علومنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أيّ شيء كان مِن مَلَكٍ أو جنّي أو إنسي فضلًا عن الجماد البَحت. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد المدلول عليه بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: ناشيءٌ مِن تأييده لنا بالنبوّة، وترشيحِه إيّانا لِقِيادة الأُمّة وهدايتهم إلى الحقّ. وذلك -مع كونه مِن موجبات التوحيد ودواعيه- نعمةٌ جليلةٌ وفضلٌ عظيمٌ علينا بالذات ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافّةً بواسطتنا.

وحيث عُبّر عن ذلك بذلك العنوان عُبِّر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يوحّدون، فإنّ التوحيد مع كونه مِن آثار ما ذُكر مِن التأييد شكرٌ لله عزّ وجلّ على تلك النعمة. وإنّما وُضع الظاهر مَوضع الضمير الراجع إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لزيادة توضيحٍ وبيانٍ، ولِقطع توهّم رجوعه إلى المجموع[١] المُوهِم لعدم[٢] اختصاصِ غير الشاكر بالناس.

وقيل: ذلك التوحيد مِن فضل الله علينا حيث نصَب لنا أدلّةً ننظر فيها ونستدلّ بها على الحقّ. وقد نصَب مثل تلك الأدلّة لسائر الناس أيضًا، ولكنّ أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلّون بها اتّباعًا لأهوائهم فيبقَوْنَ كافرين غير شاكرين.

ولك أن تقول: ذلك التوحيد مِن فضل الله علينا حيث أعطانا عقولًا ومشاعرَ نستعملها في دلائل التوحيد التي مهّدها في الأنفس والآفاق، وقد أعطى سائرَ الناس أيضًا مثلَها، ولكنّ أكثرهم لا يشكرون، أي: لا يَصرِفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خُلِقَت هي له، ولا يستعملونها فيما ذُكر مِن أدلّة التوحيد الآفاقيّة والأنفسيّة، والعقليّة والنقليّة.

---

[١] وفي هامش م: أي: منهم ومِن الناس.

[٢] ط س: بعدم.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾

[٢٠٢و] ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي: يا صاحبيَّ في السجن، كما تقول: / يا سارقَ الليلةِ. ناداهما بعنوان الصحبة في مدارِ الأشجان ودارِ الأحزان التي تصفو فيها المودّة وتخلص النصيحة؛ ليُقْبِلا عليه ويَقْبَلا مَقالتَه. وقد ضَربَ لَهما مثلًا يتّضح به الحقّ عندهما حقَّ اتّضاحٍ فقال: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ لا ارتباط بينهم ولا اتّفاق، يَسْتَعْبِدكما[١] كلٌّ منهم حسبما أراد غير مراقب للآخَرين مع عدمِ استقلاله ﴿خَيۡرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ المعبود بالحقّ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتفرّد بالألوهيّة ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد.

وبعد ما نبّههما على فساد تعدّدِ الأرباب بيّن لهما سقوطَ آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسًا فضلًا عن الألوهيّة فقال معمِّمًا للخطاب لهما ولمَن على دينهما: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: مِن دون الله شيئًا ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ فارغةً لا مطابِقَ لها في الخارج؛ لأنّ ما ليس فيه مصداق إطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلًا، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط.

﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ جعلتموها أسماءً. وإنّما لم يذكر المسمَّيات تربيةً لِما يقتضيه المقام مِن إسقاطِها عن مرتبة الوجود، وإيذانًا بأنّ تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمًّى كعبادتهم حيث كانت بلا معبودٍ. ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمحض جهلكم وضلالتكم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بتلك التسميةِ المستتبعة للعبادة ﴿مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ مِن حجّة تدلّ على صحّتها.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في أمر العبادة المتفرّعة على تلك التسمية ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزّ سلطانه؛ لأنّه المستحِقّ لها بالذات، إذ هو الواجب بالذات، الموجِد للكلّ، والمالك لأمره. ﴿أَمَرَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ ناشئٍ مِن قوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فكأنّه قيل: فماذا حَكَم الله تعالى في هذا الشأن؟ فقيل: أَمَر على ألسنة

---

[١] س: يستعيدكما.

الأنبياء عليهم السلام ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي: بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ حسبما تقضي به قضيّة العقل أيضًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابت المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهين عقلًا ونقلًا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ذلك هو الدين القيّم لجهلهم بتلك البراهين. أو لا يعلمون شيئًا أصلًا، فيعبدون أسماءً سمَّوها مِن تلقاء أنفسهم مُعرِضين عن البرهان العقلي والسلطان النقلي.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

وبعد تحقيق الحقّ ودعوتهما إليه وبيانِه لهما مقدارَه الرفيعَ ومرتبةَ علمِه الواسع شرَع في تفسير ما استفسراه، ولكونه بحثًا مغايرًا لِما سبق فَصَلَه عنه بتكرير الخطاب، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الشرابي، وإنّما لم يعيّنه ثقةً بدلالة التعبير وتوسّلًا بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حِذارَ مشافهته بما يَسُوءهُ. ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ أي: سيّده ﴿خَمْرًا﴾. رُوي أنّه عليه السلام قال له: «ما رأيتَ مِن الكَرمة وحُسنها المَلِكُ وحُسنُ حالك عنده، وأمّا القُضبان الثلاثة فثلاثة أيّام تمضي في السجن، ثمّ تخرج وتَعُودُ إلى ما كنت عليه».[1] وقرأ عِكرمة: "فَيُسْقَى رَبُّهُ"[2] على البناء للمفعول، أي: يُسْقَى مَا يَرْوَى به.

﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الخبّاز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ رُوي أنّه عليه السلام قال له: ما رأيتَ مِن السِّلال الثلاث ثلاثةُ أيّام تمرّ ثمّ تَخرج فتُقتل.[3]

﴿قُضِىَ﴾ أي: أُتِمّ وأُحكِم ﴿ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وهو ما رأياه مِن الرُّؤيَيَين قطعًا، لا مَآلُه الذي هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه إسناد القضاء إليه، إذ الاستفتاء إنّما يكون في الحادثة لا في حكمها.

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٩/٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والجحدري. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٩/٦.

[٢٠٢ظ] يقال: استفتى الفقيهَ / في الحادثة، أي: طلب منه بيانَ حكمها، ولا يقال: استفتاه في حكمها. وكذا الإفتاء، فإنّه يقال: أفتى فلان في الواقعة الفلانيّة بكذا، ولا يقال: أفتى في حكمها أو جوابها بكذا. وممّا هو علَم في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾.[١]

ومعنى استفتائهما فيه: طلبُهما لِتأويله بقولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾.[٢] وإنّما عُبّر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلًا لأمره، وتفخيمًا لشأنه، إذ الاستفتاء إنّما يكون في النوازل المُشكِلة الحكمِ المُبهَمة الجوابِ.

وإيثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما في ذلك لِما أنّهما بصدده إلى أن يقضي عليه السلام مِن الجواب وطَرَه. وإسناد القضاء إليه مع أنّه مِن أحوال مآلِه لأنّه في الحقيقة عَيْنُ ذلك المآل، وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصورة.

وأمّا توحيده مع تعدّد رؤياهما فوارد على حسب ما وحّداه في قولهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾،[٣] لا لِأنّ الأمرَ ما اتُّهِمَا بهِ وسُجِنَا لِأجله مِن سَمّ الملِك، فإنّهما لم يستفتيا فيه، ولا فيما هو صورته؛ بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمّل. وإنّما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقًا لتعبيره وتأكيدًا له.

وقيل: لمّا عَبّر رؤياهما جحدا وقالا: ما رأينا شيئًا فأخبرهما أنّ ذلك كائن، صدّقتما أو كذّبتما. ولعلّ الجحودَ مِن الخبّاز؛ إذ لا داعي إلى جحود الشرابي إلّا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه.

**﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾**

﴿وَقَالَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ أوثِر على صيغة المضارع مبالغة في الدلالة على تحقّق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.[٤] وهو السرّ في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال:

---

[١] يوسف، ١٢/٤٣.
[٢] يوسف، ١٢/٣٦.
[٣] يوسف، ١٢/٣٦.
[٤] في الآية السابقة.

للذي ظنّه ناجيًا ﴿مِنْهُمَا﴾ مِن صاحبَيه. وإنّما ذُكر بوصف النجاة تمهيدًا لِمَناط التوصية بالذِّكر عند الملِك. وعنوان التقرّب المفهوم من التعبير المذكور وإن كان أدخل في ذلك وأدعَى إلى تحقيق ما وصّاه به لكنّه ليس بوصف فارِقٍ يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك.

والظانّ هو يوسف عليه السلام، لا صاحبه؛ لأنّ التوصية المذكورة لا تدور على ظنّ الناجي؛ بل على ظنّ يوسف، وهو بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة، ٢٠/٦٩]. فالتعبيرُ بالوحي[١] كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾... إلخ. وقيل: هو بمعناه، والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضًا اجتهادي.

﴿ٱذْكُرْنِي﴾ بما أنا عليه مِن الحال والصفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سيّدِك، وصِفْني له بصِفتي التي شاهدتها، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أَنْسَى الشَرابِيَّ بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالًا تَعُوقُه عن الذِّكر، وإلّا فالإنساء في الحقيقة لله عزّ وجلّ. والفاء للسببيّة، فإنّ توصيته عليه السلام المتضمّنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثةً لِما ذُكر مِن الإنساء. ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ذكر الشرابي له عليه السلام عند الملِك، والإضافة لأدنى ملابسة. أو ذِكرَ إخبار ربّه.

﴿فَلَبِثَ﴾ أي: يوسف بسبب ذلك الإنساءِ أو القولِ ﴿فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البِضع: ما بين الثلاث إلى التسع، مِن البَضع، وهو القَطع. وأكثر الأقاويل أنّه لبِث فيه سبع سنين. ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي يوسف لو لم يقل: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لَما لبِث في السِّجن سبعًا بعد الخمس».[٢]

---

١ وفي هامش م: "فالتعبير" مبتدأ، "بالوحي" خبره.

٢ وفي هامش م: وأكثر المفسّرين على أن "البِضع" في هذه الآية سبعُ سنين، وكان قد لبِثَ قبله خمس سنين، فجملته اثْنَتَا عشرة سنةً. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لمّا تضرّع يوسف عليه السلام لذلك الرجل كان قد قرب وقتُ خروجه، فلمّا ذكر ذلك لبث في السجن بعده سبع سنين». وفيه دلالة على أنّ رؤيا صاحبَيه عليه السلام لم تقع في أثناء دخولهما السجن معه عليه السلام؛ بل بعد بُرهةٍ مِن الدهر. «منه». | غرائب التفسير للكرماني، ٥٣٨/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٥/٣. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٧٣/١٣.

والاستعانة بالعباد وإن كانت مرخّصة لكن اللائق بمناصب الأنبياء عليهم السلام[١] الأخذ بالعزائم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ أي: الريّان ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ أي: رأيت. وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية. ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ جمع سَمين وسَمينة، ككرام في جمع كريم وكريمة، يقال: رجال كِرام، ونِسوة كرام. ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي: أكَلَهنّ. والعدول إلى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبًا. والجملة حال مِن "البقرات" أو صفة.

﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: سبع بقرات عِجاف، وهي جمع "عجفاء"، والقياس "عُجْفٌ"؛ لأنّ فَعلاء وأفعَل لا يجمع على فِعال، ولكن عُدل به عن القياس حملًا لأحد النقيضين على الآخر. وإنّما لم يقل: سَبعُ عجافٍ بالإضافة لأنّ التمييز موضوع لبيان الجنس، والصفةُ ليست بصالحة لذلك، فلا يقال: ثلاثةُ ضِخام، وأربعةُ غِلاظ. وأمّا قولك: ثلاثة فرسان، وخمسة رُكبان، فلِجريان الفارس، والراكب مجرى الأسماء.

رُوِي أنّه رأى سبع بقرات سِمانٍ خَرَجْن مِن نَهرٍ يابس، وخرج عَقيبَهنّ سبع بقرات عِجاف في غاية الهزال، فابتلعت العِجافُ السِّمانَ.[٢]

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حَبّها ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: وسبعًا أُخَرَ يابسَاتٍ قد أدركَتْ / والتَوتْ على الخُضر حتّى غَلَبْنَها على ما رُوي.[٣] ولعلّ [٢٠٣و]
عدمَ التعرّض لذِكره للاكتفاء بما ذُكر مِن حال البقرات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطاب للأشراف مِن العلماء والحكماء، ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ هذه، أي: عَبّروها وبيّنُوا حُكمَها وما تئول إليه مِن العاقبة. والتعبير عن التعبير بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه.

---

[١] س - عليهم السلام.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٣/٢.

[٣] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٦/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٣/٢.

﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ أي: تعلمون عِبارةَ جنس الرؤيا عِلمًا مستمرًّا؛ وهي الانتقال مِن الصور الخياليّة المشاهَدة في المنام إلى ما هي صور وأمثلة لها مِن الأمور الآفاقيّة أو الأنفُسيّة الواقعة في الخارج. مِن العبور؛ وهو المجاوزة، تقول: "عبَرتُ النهرَ" إذا قطعتَه وجاوزتَه. ونحوه: أوَّلتُها، أي: ذكرتُ مَآلَها. و"عَبَرْتُ الرؤيا عِبَارةً" أَثبَتُ مِن "عَبَّرتُها تعبيرًا".

والجمع بين الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشيرَ إليه. و"اللام" للبيان، أو لتقوية العامل المؤخَّر لرعاية الفواصل،[1] أو لتضمين ﴿تَعۡبُرُونَ﴾ معنى فعلٍ متعدٍّ باللام، كأنّه قيل: إن كنتم تَنتَدِبون لعِبارتها. ويجوز أن يكون ﴿لِلرُّءۡيَا﴾ خبرَ "كان"، كما يقال: فلان لهذا الأمر إذا كان مستقِلًّا به متمكِّنًا منه. و﴿تَعۡبُرُونَ﴾ خبر آخَر.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال الملأُ للملِك؟ فقيل: قالوا: هي ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ أي: تَخاليطها، جمع "ضِغْث"، وهو في الأصل ما جُمع مِن أخلاط النبات وحُزِم، ثمّ استُعير لِما تجمعه القوّة المتخيِّلة مِن أحاديث النفس ووَساوس الشيطان / وَتُريها[2] في المنام. و"الأَحلام" جمع "حُلم"، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقةَ لها. [٢٠٣ظ]

والإضافة بمعنى "مِن"، أي: هي أضغاثٌ مِن أحلام. أخرَجوها مِن جنس الرُّؤَى التي لها عاقبة تئول إليها ويُعْتَنَى بِأَمرِها وجَمعوها وهي رُؤيا واحدةٌ مبالغةً في وصفها بالبطلان، كما في قولهم: فلان يركب الخيل ويلبس العَمائم، لمَن لا يملك إلّا فرَسًا واحدًا وعمامة فَردة. أو لتضمّنها أشياء مختلفة مِن البقرات السبعِ السمان، والسبعِ العجاف، والسنابلِ السبع الخضر، والأُخَر اليابسات، فتأمّل حُسن مَوقع الأضغاث مع السنابل، فلله درُّ شأن التنزيل.

---

[1] وفي هامش م: متعلق بـ"المؤخّر".

[2] وفي هامش م: راجع إلى "ما" المبيِّن بالأحاديث والوساوس. «منه».

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ أي: المنامات الباطلة التي لا أصل لها ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ لا لأنّ لها تأويلًا ولكن لا نعلمه؛ بل لأنّه لا تأويل لها، وإنّما التأويل للمنامات الصادقة. ويجوز أن يكون ذلك اعترافًا منهم بقُصور عِلمهم، وأنّهم ليسوا بنَحارِيرَ في تأويل الأحلام مع أنّ لها تأويلًا كما يُشعِر به عُدولهم عمّا وَقع فِي كلامِ الملِك مِن العِبارة[١] المُعرِبة عن مجرّد الانتقال مِن الدالّ إلى المدلول -حيث لم يقولوا: بتعبير الأحلام، أو عِبارتِها- إلى التأويل المُنبِئ عن التصرّف والتكلّف في ذلك؛ لِما بين الآيِل والمآل مِن البعد، ويؤيّده قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.[٢]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: مِن صاحبَي يوسف، وهو الشرابي. ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بغير المعجمة، وهو الفصيح. وعن الحسَن بالمعجمة.[٣] أي: تذكّر يوسفَ عليه السلام[٤] وشئونَه التي شاهدها، ووصيّتَه بتقريب رُؤيا الملِك وإشكالِ تأويلِها على الملأ. ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدّة طويلة، وقُرئ: "إِمَّةٍ" بالكسر؛[٥] وهي النعمة، أي: بعد ما أُنعِم عليه بالنجاة، / و"أَمَةٍ"،[٦] أي: نسيانٍ. [٢٠٤و]

والجملة حال مِن الموصول، أو مِن ضميره في الصلة. وقيل: معطوفة على ﴿نَجَا﴾،[٧] وليس بذاك؛ لأنّ حقّ كلّ مِن الصفة والصلة أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلِّم، ولذلك قيل: إنّ الصفات قبل العِلم بها أخبارٌ، والأخبارَ بعد العِلم بها صفاتٌ. وأنت تدري

---

١ وفي هامش م س: أي في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف، ١٢/٤٣]. «منه».

٢ في الآية التالية.

٣ أي: "وَاذَّكَرَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والضحّاك وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

٤ م - عليه السلام.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب العقيلي. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٢٤٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٢٨٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبيدة وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

٧ ذكره في اللباب ابن عادل، ١١/١١٩.

أنّ تذكّره بعد أُمّة إنّما عُلِم بهذه الجملة، فلا مجال لنظمه مع نَجاته المعلومة قبلُ في سِلك الصلة.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أُخبِركم به بالتلقّي عمّن عنده عِلمه، لا مِن تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل: أنا أُفتِيكم فيها، وعقّبه بقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: إلى يوسف.

وإنّما لم يُذكَر ثقةً بما سبَق مِن التذكّر، وما لَحِق مِن قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: أُرسِل إليه، فأتاه فقال: يا يوسف. ووصفَه بالمبالغة في الصدق حَسبما شاهده وذاق أحوالَه وجرّبها لكونه بصدَد اغتنام آثاره، واقتباسِ أنواره، فهو مِن باب براعة الاستهلال.

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ[1] سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: في رؤيا ذلك. وإنّما لم يصرّح به لوضوح مَرامه بقرينة ما سبَق مِن معاملتهما، ولدلالة مضمون الحادثة عليه، حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادة. أي: بيِّنْ لَنا مآلَها وحكمَها. وحيث عاين علوَّ رتبته عليه السلام في الفضل عبّر عن ذلك بالإفتاءِ، ولم يَقل كما قال هو وصاحبه أوّلًا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.[2]

وفي قولِه: ﴿أَفْتِنَا﴾ -مع أنّه المستفتي وحده- إشعارٌ بأنّ الرؤيا ليست له؛ بل لغيره ممّن له ملابسة بأمور العامّة، وأنّه في ذلك معبّر وسَفير كما آذَنَ بذلك حيث قال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملِك ومَن عنده، أو إلى أهل البَلَدِ إن كان السجنُ في الخارجِ كما قيل، فأنبّئهم بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه، أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه مِن الحال / فتتخلّص منه. وإنّما لم يبتّ القول في ذلك مجاراةً معه على نهج الأدب، [٢٠٤ظ] واحترازًا عن المجازَفة، إذ لم يكن على يقين مِن الرجوع، فربّما اخترِم دونه.

لعلّ المنايا دون ما تعِداني[3]

ولا مِن علمهم بذلك، فربّما لم يعلموه.

---

[1] وفي هامش م: حال مِن ﴿سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ باعتبار كونها مرئيّة في المنام. «منه».

[2] يوسف، ١٢/٣٦.

[3] وفي هامش م: صدره:

ولا تعِداني أن أعيشَ إلى غدِ

«منه». | البيت لأبي جعفر الأعمى التليطلي في قلائد العقيان للفتح بن خاقان، ص ٢٧١.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال يوسف عليه السلام في التأويل؟ فقيل: قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ قُرئ بفتح الهمزة[١] وسكونِها،[٢] وكلاهما مصدر دَأَب في العمل إذا جدّ فيه وتعِبَ. وانتصابه على الحاليّة مِن فاعل ﴿تَزْرَعُونَ﴾، أي: دائبين، أو تدأبون[٣] دَأَبًا على أنّه مصدر مؤكِّد لفعلٍ هو الحال.

أوّلَ عليه السلام البقرات السِّمان والسنبلاتِ الخضرَ بسنين مَخَاصِيبَ، والعجافَ واليابساتِ بسنين مُجْدِبة، فأخبرهم بأنّهم يواظِبون سبعَ سنين على الزراعة، ويبالغون فيها، إذ بذلك يتحقّق الخِصب الذي هو مِصداق البقرات السِّمان وتأويلها. ودلّهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ أي: في كلّ سنةٍ ﴿فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ ولا تُذَرُّوهُ كَيلا يأكلَه السوس، كما هو شأن غِلالِ مِصر ونواحيها. ولعلّه عليه السلام استدلّ على ذلك بالسنبلات الخضر. وإنّما أمرهم بذلك -إذ لم يكن معتادًا فيما بينهم، وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها- وجعلَها أمرًا محقّق الوقوع وتأويلًا للرؤيا مصداقًا لِما فيها مِن البقرات السمان.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين. وفيه إرشاد منه عليه السلام لهم إلى التقليل في الأكل. والاقتصارُ على استثناء المأكول دون البَذْر لكون ذلك معلومًا مِن قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾.

وبعد إتمام ما أمرهم به شَرَع في بيان بَقيّة التأويل التي يظهر منها حِكمة الأمر المذكور فقال: ﴿ثُمَّ يَأْتِى﴾ وهو عطفٌ على ﴿تَزْرَعُونَ﴾، فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثًّا لهم على الجِدّ والمبالغة في الزراعة،[٤] على أنّه يحصل بالإخبار

---

١ قرأ بها حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.
٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.
٣ ط س: تأدبون.
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٦.

بذلك أيضًا. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد السنين السبع المذكورات. وإنّما لم يقل "مِن بعدهنّ" قصدًا إلى الإشارة إلى وصفهِنّ، فإنّ الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلّيّة.

﴿سَبۡعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سبع سنين صِعَاب على الناس ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ مِن الحبوب المتروكة / في سنابلها. وفيه تنبيه على أنّ أمره عليه السلام بذلك [٢٠٥و] كان لوقت الضرورة. وإسناد الأكل إليهنّ مع أنّه حال الناس فيهنّ مجازي، كما في "نهارُه صائم". وفيه تلويح بأنّه تأويل لأكل العِجافِ السِّمانَ. و"اللام" في ﴿لَهُنَّ﴾ ترشيح لذلك، فكأنّ ما ادُّخر في السنابل مِن الحبوب شيء قد هُيِّئ وقُدِّم لهنّ كالذي يقدَّم للنازل، وإلّا فهو في الحقيقة مقدَّم للناس فيهنّ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ تُحرِزُون لبذور الزراعة.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ۝٤٩﴾

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد السنين الموصوفة بما ذُكر مِن الشدّة وأكل الغِلال المدَّخرة ﴿عَامٌ﴾ لم يعبّر عنه بالسَّنة تَحاشِيًا عن المدلول الأصلي لها مِن عام القحط، وتنبيهًا مِن أوّل الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق. ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ مِن الغيث، أي: يُمطَرون، يقال: غِيثَت البلاد إذا مُطِرت في وقت الحاجة، أو من الغَوث، يقال: أغاثنا الله تعالى، أي: أمدّنا برفع المَكاره حين أظلّتْنا.

﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ أي: ما مِن شأنه أن يُعصَر مِن العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها مِن الفواكه لكثرتها. والتعرّض لذكر العَصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزِم له عادة كما اكتُفي به عن ذِكر تصرّفهم في الحبوب إمّا لأنّ استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب، إذ المذكورات يتوقّف صلاحها على مبادٍ أخرى غير المطر، وإمّا لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصّة به بِشارةً له، وهي التي يدور عليها حُسن موقع تغليبه على الناس في القراءة بالفوقانيّة.[١]

---

١ أي: "تَعۡصِرُونَ" بتاء الخطاب. قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

وقيل: معنى ﴿يَعۡصِرُونَ﴾ يحلبون الضُّروعَ. وتكريرُ ﴿فِيهِ﴾ إمّا لِلإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه مِن الغيث والعَصر زمانًا، وهو ظاهر، وعنوانًا، فإنّ الغيث والغوث مِن فضل الله تعالى، والعَصرَ مِن فعل الناس، وإمّا لأنّ المقام مقامُ تعداد منافع ذلك العام، / ولأجله قُدِّم في الموضعين على الفعلين، فإنّ المقصود الأصلي بيانُ أنّه يقع في ذلك العام هذا النفعُ وذاك النفعُ، لا بيانُ أنّهما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير. ويجوز أن يكون التقديم للقَصر على معنى أنّ غَيثهم وعَصرهم في سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة إلى عامِهم ذلك، وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاة الفواصل، وفي الأوّل لرعاية حاله. [٢٠٥ظ]

وقُرئ: "يُعْصَرُونَ"[١] على البناء للمفعول، مِن عصَره إذا أنجاه، وهو المناسب للإغاثة. ويجوز أن يكون المبنيّ للفاعل أيضًا منه، كأنّه قيل: فيه يغاث الناسُ وفيه يُغيثون، أي: يغيثُهم الله، ويُغيثُ بَعضُهم بعضًا. وقيل: معنى "يُعْصَرُونَ": يُمطَرُون، مِن أَعصَرتِ السحابة، إمّا بِتضمين "أعصَرَت" معنى "مَطَرت" وتعديتِه تعديتَه، وإمّا بحذف الجارّ وإيصال الفِعل، على أنّ الأصل أعصَرت عليهم.

وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبَطةً مِن رؤيا الملِك، وإنّما تلقّاها عليه السلام مِن جهة الوحي، فبشّرهم بها بعد ما أوّلَ الرؤيا بما أوّل، وأمرهم بالتدبير اللائق في شأنه إبانةً لعلوّ كَعبه ورسوخ قدَمه في الفضل، وأنّه محيط بما لم يخطر ببال أحدٍ، فضلًا عمّا يُرَى صورته في المنام، على نحو قوله لصاحبَيه عند استفتائهما في منامهما: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾،[٢] وإتمامًا للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العِلم بوقوعها أحد ولو برؤية ما يدلّ عليها في المنام.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ بعد ما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع مِن نقير وقطمير:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وابن الأعرج وجعفر بن محمد وأبي البرَهْسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

[٢] يوسف، ١٢/٣٧.

﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ لِما عَلم من علمه وفضله. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي: يوسفَ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ واستدعاه إلى الملِك ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيّدِك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ أي: فتّشه / عن شأنهنّ. وإنّما لم يقل: فاسأله أن يفتّش عن [٢٠٦و] ذلك؛ حثًّا للملِك على الجِدّ في التفتيش؛ ليتبيّن براءته، ويتّضح نزاهته، إذ السؤال ممّا يهيّج الإنسان على الاهتمام في البحث للتقصّي عمّا توجّه إليه، وأمّا الطلب فممّا قد يُتسامَح ويُتساهَل فيه ولا يُبالَى به.

وإنّما لم يتعرّض لامرأة العزيز مع ما لقي منها ما لقي مِن مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان محافظةً على مواجب الحقوق واحترازًا عن مَكْرِها، حيث اعتقدها مقيمةً في عُدوة العداوة.

وأمّا النسوة فقد كان يطمعُ في صدعهنّ بالحقّ وشهادتِهنّ بإقرارها بأنّها راودته عن نفسه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصفهنّ بتقطيع الأيدي، ولم يصرِّح بمراودتهنّ له وقولهنّ: أطِع مولاتك، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ مجامَلةً معهنّ، واحترازًا عن سوء قالَتهنّ عند الملِك، وانتصابِهنّ للخصومة مدافَعةً عن أنفسهنّ متى سمِعن بنسبته لهنّ إلى الفساد.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال الملِك إثر ما بلّغه الرسولُ الخبرَ وأحضرهنّ: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ أي: شأنكنّ، وهو الأمر الذي يحِقّ لعِظَمه أن يُخاطِب المرءُ فيه صاحِبَه. ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ وخادعتُنّه ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ورغّبتُنّه في إطاعة مولاته؛ هل وجدتنّ فيه شيئًا مِن سُوءٍ وريبة؟ ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا له وتعجّبًا مِن نزاهته وعِفّته، ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ بالَغنَ في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة ﴿مِن﴾.

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرة في المجلس. وقيل: أقبلَت النسوةُ عليها يقرّرنها. وقيل: خافت أن يشهدنَ عليها بما قالت لهنّ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ

[٢٠٦ظ] ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾،[١] فأقرّتْ / قائلةً: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ثبت واستقرّ، أو تبيّن وظهر بعد خفاءٍ، قاله الخليل.[٢] وقيل: هو مأخوذ مِن الحِصّة، وهي القطعة مِن الجملة، أي: تبيّن حِصّة الحقّ مِن حِصّة الباطل، كما تتبيّن حِصص الأراضي وغيرها. وقيل: بان وظهر، مِن "حَصّ شعرَه" إذا استأصله بحيث ظهرت بشَرةُ رأسه.

وقُرئ على البناء للمفعول،[٣] مِن "حَصحَص البعير مَبارِكَه"، أي: ألقاها في الأرض للإناخة، قال:

فحَصحَصَ في صُمّ الصفا ثَفِناتِه ونـاءَ بسَلمى نـوأةً ثـمّ صمّما[٤]

والمعنى: أُقِرّ الحقُّ في مقرّه، ووُضع في موضعه.

ولم تُرِدْ بذلك مجرّدَ ظهور ما ظهر بشهادتهنّ مِن مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهنّ مِن غير تعرّضٍ لنزاهته في سائر المواطن خصوصًا فيما وقع فيه التشاجر بمَحضر العزيز، ولا بحثٍ عن حال نفسها وما صنعَتْ في ذلك؛ بل أرادت ظهورَ ما هو متحقّق في نفس الأمر وثبوتَه مِن نزاهته عليه السلام في محلّ النزاع وخيانتها، فقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لا أنّه راودني عن نفسي ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في قوله حين افتريت عليه: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾.[٥]

وأرادت بـ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ زمانَ تكلّمها بهذا الكلام، لا زمان شهادتهنّ.

فتأمّل أيّها المنصف، هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهةً، حيث لم تتمالك الخُصماء مِن الشهادة بها، والفضلُ ما شهدت به الخُصماء؟ وإنّما تصدّى عليه السلام لتمهيد هذه المقدّمة قبل الخروج ليُظهر براءة ساحته عمّا قُرِف به لا سيّما عند العزيزِ قبل أن يُحَلّ ما عَقَده كما يُعرِب عنه قوله عليه السلام لمّا رجع إليه الرسولُ وأخبره بكلامهنّ.

---

١ يوسف، ١٢/٣٢.

٢ انظر: العين للخليل بن أحمد، ٣/١٤.

٣ أي: "حُصْحِصَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٨.

٤ لحُميد بن ثور في الصحاح للجوهري، «حصص». يقول: أثبتَ البعيرُ قوائمَه في الأرض ونَهَض بثقَلٍ لما عليه مِن ثِقَلِ الجارية ثمّ مضى في سَيْره. والمصمِّم مِن السيوف: الذي يَمضي في الضَّريبة. معجم ديوان الأدب للفارابي، ٣/١٧٣.

٥ يوسف، ١٢/٢٦.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك التثبّت المؤدّي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ أي: العزيزُ ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ في حرمته كما زعمه، لا علمًا مطلقًا، فإنّ ذلك / لا [٢٠٧و] يستدعي تقديم التفتيش على الخروج مِن السجن؛ بل قبل ما ذُكِر مِن نقض ما أبرمه، ولعلّه لمراعاة حقوق السيادة؛ لأنّ المباشرة للخروج مِن حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببًا له -وإن كان ذلك بأمر الملِك- ممّا يوهم الافتيات على رأيه. وأمّا أن يَكُون ذلك لئلّا يتمكّن مِن تقبيح أمره عند الملِك تمحّلًا لإمضاء ما قضاه،[1] فلا يليق بشأنه عليه السلام في الوثوق بأمره، والتوكّل على ربّه جلّ جلاله.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: بظهر الغيب. وهو حال مِن الفاعل أو المفعول، أي: لم أخنه وأنا غائب عنه، أو وهو غائب عنّي؛ أو ظرف، أي: بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. وأيًا ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة، وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وليعلم أنّه تعالى ﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أي: لا يُنفذه ولا يسدّده؛ بل يبطله ويزهقه. أو لا يهديهم في كيدهم إيقاعًا للفعل على الكيد مبالغةً، كما في قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة، ٣٠/٩]، أي: يضاهئونَهم في قولهم. وفيه تعريض بامرأته في خيانتها أمانتَه، وبه في خيانته أمانةَ الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام. ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته، وأنّه لو كان خائنًا لَما هدى الله عزّ وجلّ أمره وأحسن عاقبته.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ أي: لا أُنزّهها عن السوء. قاله عليه السلام هَضمًا لِنفسه الكريمة البريئة عن كلّ سوءٍ، ورَبأً بمكانها عن التزكية والإعجابِ بحالها

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٧٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٦/٣.

عند ظهور كمال نزاهتها، على أسلوب قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»،[١] أو تحديثًا بنعمة الله عزّ وجلّ عليه، وإبرازًا لِسرّه المكنون في شأن أفعال العباد، أي: لا أنزّهها عن السوء مِن حيث هي هيَ، ولا أُسنِدُ هذه الفضيلة إليها بمقتضى / طبعها مِن غير توفيق مِن الله عزّ وعلا. [٢٠٧ظ]

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ البشريّة التي مِن جملتها نفسي في حدّ ذاتها ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ مائلةٌ إلى الشهوات، مستعمِلةٌ للقوى والآلات في تحصيلها؛ بل إنّما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ مِن النفوس التي يعصمها مِن[٢] الوقوع في المَهالك، ومِن جملتها نفسي. أو هي أمّارة بالسوء في كلّ وقت إلّا وقتَ رحمة ربّي وعصمته لها. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن رحمة ربّي هي التي تصرف عنها السوء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ [يس، ٣٦/٤٣-٤٤].

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عظيم المغفرة لِما يعتري النفوسَ بموجَب طباعها، ومبالِغ في الرحمة لها بعِصمتها مِن الجريان بمقتضى ذلك. وإيثار الإظهار في مقام الإضمار مع التعرّض لعنوان الربوبيّة لتربية مبادي المغفرة والرحمة.

وقيل: إلى هنا مِن كلام امرأة العزيز، والمعنى: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام[٣] أنّي لم أخُنه، ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بما هو الحقّ الواقع، وما أبرّئ نفسي مع ذلك مِن الخيانة، حيث قلت في حقّه ما قلت، وفعلت به ما فعلت، إنّ كلّ نفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي، أي: إلّا نفسًا رحمها الله تعالى بالعصمة كنفس يوسف، إنّ ربّي غفورٌ لمَن استغفر لذنبه واعترف به، رحيمٌ له.

فعلى هذا يكون تأنّيه عليه السلام في الخروج عن السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملِك وأمرُه بين بين، ففعل ما فعل حتّى يتبيّن نزاهته،

---

١ سنن الترمذي، ٣٠٨/٥ (٣١٤٨). وهو في صحيح مسلم، ١٧٨٢/٤ (٢٢٧٨)، دون قوله: «ولا فخر».

٢ ط س: عن.

٣ م - عليه السلام.

وأنّه إنّما سُجن بظلم عظيم، مع ما له مِن الفضل ونباهة الشأن؛ ليتلقّاه الملِك بما يليق به مِن الإعظام والإجلال، وقد وقع.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أجعله خالِصًا ﴿لِنَفْسِى﴾ وخاصًّا بي. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: فأتَوا به. فحُذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأنّه لم يكن بين الأمر بإحضاره / والخطاب معه زمان أصلًا. والضمير المستكِنّ في ﴿كَلَّمَهُۥ﴾ [٢٠٨و] ليوسف، والبارز للملِك، أي: فلمّا كلّمه يوسف إثرَ ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانةٍ ومنزلةٍ رفيعة، ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمَن على كلّ شيء. و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ليس بمعيار لمدّة المكانة والأمانة؛ بل هو آن التكلّم، والمراد تحديد مبدئهما احترازًا عن احتمال كونهما بعد حين.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا جاءه الرسول خرَج مِن السجن، ودعا لأهله، واغتسل ولبس ثيابًا جددًا، فلمّا دخل على الملِك قال: «اللّٰهمّ إنّي أسألك بخيرك مِن خيره، وأعوذ بعزّتك وقدرتك مِن شرّه»، ثمّ سلّم عليه ودعا له بالعبرانيّة، فقال: «ما هذا اللسان؟» قال: «لسان آبائي». وكان الملِك يعرف سبعين لسانًا، فكلّمه بها، فأجابه بجميعها فتعجّب منه، فقال: أحبّ أن أسمعَ منك رؤياي. فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها، فأجلسه على السرير وفوّض إليه أمرَه.[1]

وقيل: توفّي قِطفير في تلك الليالي، فنصّبه منصبه، وزوّجه راعيل، فوجدها عذراء، وولدت له إفرائيم وميشا.[2] ولعلّ ذلك إنّما كان بعد تعيينه عليه السلام

---

[1] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٧/٣.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦٧/٣. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٢٠/١٣.

لِما عُيِّن له مِن أمر الخزائن، كما يُعرِب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مِصر، أي: ولِّني أمرها مِن الإيراد والصرف. ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ لها ممّن لا يستحقها، ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرّف فيها. وفيه دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممّن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان مِن يد الجائر أو الكافر. وعن مجاهد أنّه أسلم الملِك على يده عليه السلام.[١]

ولعلّ إيثارَه عليه السلام لتلك الولاية خاصّة إنّما كان للقيام بما هو أهمّ أمور السلطنة، إذ ذاك مِن تدبير أمر السنين حسبما فصّل في التأويل؛ لكونه مِن فروع تلك الولاية، لا لمجرّد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل.[٢]

وإنّما لم يُذكَر إجابة الملِك إلى ما سأله عليه السلام مِن جعله على خزائن الأرض إيذانًا بأنّ ذلك أمرٌ لا مردّ له، غنيّ عن التصريح به، لا سيّما بعد تقديم ما يندرج تحته أحكام السلطنة بحذافيرها مِن قوله: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وللتنبيه على أنّ كلّ ذلك مِن الله عزّ وجلّ وإنّما الملِك آلة في ذلك قيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: جعلنا له مكانًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر. رُوي أنّها كانت أربعين فرسخًا في أربعين.[٣]

وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الأرض مسنَدًا إلى ضميره عزّ سلطانه مِن تشريفه عليه السلام والمبالغةِ في كمال ولايته والإشارةِ إلى حصول ذلك مِن أوّل الأمر -لا أنّه حصل بعد السؤال- ما لا يخفى.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ ينزل مِن بلادها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ويتّخذه مَباءةً. وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرّف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه، فكأنّها منزله يتصرّف فيها كما يتصرّف الرجل في منزله. وقرأ ابن كثير بالنون.[٤]

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٢٢/١٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٣/٥.

[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٦٨/٣.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٤٨٣/٢. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٧٩٧/٣.

[٤] انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

/ رُوي أنّ الملِك تَوّجَهُ، وخَتَمَه بِخاتَمِه، ورَدّاهُ بسيفِهِ، ووضع له سَريرًا مِن ذهب مكلّلًا بالدُّرّ والياقوت، فقال عليه السلام: «أمّا السرير فأشدُّ به ملكَك، وأمّا الخاتم فأُدَبِّرُ به أمرَك، وأمّا التاج فليس مِن لبَاسي ولا لباسِ آبائي»، فقال: «قد وضعته إجلالًا لك، وإقرارًا بفضلك»، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوّض إليه الملِك أمرَه، وأقام العدلَ بمصر، وأحَبّتْه الرجال والنساء. وباع مِن أهل مصر في سني القحط الطعامَ في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي الثانية بالحليّ والجواهر، وفي الثالثة بالدوابّ، ثمّ بالضياع والعقار، ثمّ برقابهم حتّى استرقّهم جميعًا، فقالوا: «ما رأينا كاليوم ملِكًا أجلّ وأعظم منه». ثمّ أعتقهم وردّ إليهم أملاكهم. وكان لا يبيع مِن أحدٍ مِن الممتارين أكثرَ مِن حِمل بعير تَقْسِيطًا بين الناس.[1] [٢٠٨ظ]

﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا﴾ بعطائنا في الدنيا مِن المُلك والغنى وغيرهما مِن النعم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بل نوفّيه بكماله. وفيه إشعار بأنّ مدار المشيئة المذكورة إحسان مَن تصيبه الرحمة المرقومة، وأنّها أجر له.

ولدفع توهّم انحصار ثمرات الإحسان فيما ذُكر مِن الأجر العاجل قيل على سبيل التوكيد: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: أجرهم[2] في الآخرة، فالإضافة للملابسة، وهو النعيم المقيم الذي لا نَفادَ له. ﴿خَيۡرٞ﴾ لهم أي: للمحسنين المذكورين. وإنّما وضع موضعه الموصول فقيل: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ تنبيهًا على أنّ المراد بالإحسان إنّما هو الإيمان والثبات على التقوى المستفاد مِن جمع صيغتي الماضي والمستقبل.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ ممتارين لِما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب[3] مصر، وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعًا غير بنيامين. ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٣/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٢/٦. وأوّله في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٢/٥.

٢ وفي هامش م: أي: للمحسنين. «منه».

٣ س + أرض.

أي: على يوسف وهو في مجلس ولايته، ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوّة فهمه، وعدمِ مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ؛ لمفارقته إيّاهم وهم رجال، وتَشابهِ هيئاتهم / وزيّهم في الحالين، ولكون همّته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم، لا سيّما في زمن القحط. وعن الحسن: «ما عرفهم حتّى تعرّفوا له».[1] [٢٠٩و]

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: والحال أنّهم منكرون له لطول العهد وتباينِ ما بين حالَيه عليه السلام في نفسه ومنزلته وزيّه، ولاعتقادهم أنّه هلك. وحيث كان إنكارهم له أمرًا مستمرًّا في حالتَي المَحضَر والمَغيَب أخبر عنه بالجملة الاسميّة، بخلاف عِرفانه عليه السلام إيّاهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أصلحهم بعدّتهم مِن الزاد، وما يحتاج إليه المسافر، وأوقر ركائبهم بما جاءوا له مِن المِيرة.[2] وقُرئ بكسر الجيم.[3]

﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لم يقل: بأخيكم؛ مبالغةً في إظهار عدم معرفته لهم، ولعلّه عليه السلام إنّما قاله لِما قيل مِن أنّهم سألوه عليه السلام[4] حِملًا زائدًا على المعتاد لبِنْيامِين، فأعطاهم ذلك، وشرطهم أن يأتوا به.

لا لِما قيل[5] مِن أنّه لمّا رأوه وكلّموه بالعبريّة قال لهم: «مَن أنتم فإنّي أنكركم؟» فقالوا: «نحن قوم مِن أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نَمتار». فقال لهم: «لعلّكم جئتم عُيونًا؟» فقالوا: «معاذَ اللهِ، نحن إخوة بنو أبٍ واحدٍ، وهو شيخ كبير صدّيق نبيّ مِن الأنبياء[6] اسمه يعقوب». قال: «كم أنتم؟» قالوا:

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٢/٦.

[2] الميرة: الطعام يمتاره الإنسان. قال ابن سِيده: الميرة جلب الطعام، وفي التهذيب: جلب الطعام للبيع. لسان العرب لابن منظور، «مير».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

[4] س - عليه السلام.

[5] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٥/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٢.

[6] س: أنبياء الله.

«كنّا اثنَي عشر، فهلك منّا واحد». فقال: «كم أنتم ههنا؟» قالوا: «عشرة». قال: «فأين الحادي عشر؟» قالوا: «هو عند أبيه يتسلّى به مِن الهالك». قال: «فمَن يشهد لكم أنّكم لستم عيونًا، وأنّ ما تقولون حقّ؟» قالوا: «نحن ببلاد لا يعرِفنا فيها أحد فيشهدَ لنا». قال: «فدَعُوا بعضكم عندي رهينةً، وائتوني بأخيكم مِن أبيكم وهو يحمل رسالة مِن أبيكم حتّى أصدّقكم». فاقترعوا، فأصاب القرعة شمعون، فخلّفوه عنده، إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز، ولا الحثُّ عليه بإيفاء الكيل، ولا الإحسانُ في الإنزال، ولا الاقتصارُ على منع الكيل على تقدير عدم الإتيان به، ولا جعلُ بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعِهم، ولا عِدَتُهم بالإتيان به بطريق المراودة، ولا تعليلُهم عند أبيهم إرسالَ أخيهم بمنع الكيل مِن غير ذِكر الرسالة، على أنّ استبقاء / شمعون لو وقع لكان [٢٠٩ظ]
ذلك طامّةً يُنسى عندها كلّ قيل وقال.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أُتِمُّه لكم. وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أنّ ذلك عادة له مستمرّة. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ جملة حاليّة، أي: ألا ترَون أنّي أوفي الكيل لكم إيفاءً مستمرًّا، والحال أنّي في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وقد كان الأمر كذلك.

وتخصيص الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه. وأمّا الإحسان في الإنزال فقد كان مستمرًّا فيما سبَق ولحِق، ولذلك أُخبر عنه بالجملة الاسميّة. ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان؛ بل لحثّهم على تحقيق ما أمرهم به. والاقتصارُ في الكيل على ذكر الإيفاء لأنّ معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل. وأمّا الضيافةُ فليس للناس فيها حقّ فخصّهم في ذلك بما شاء.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ مِن بعدُ فضلًا عن إيفائه، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بدخول بلادي فضلًا عن الإحسان في الإنزال والضيافة. وهو إمّا نهي أو نفي

معطوف على محلّ الجزاء. وفيه دليل على أنّهم كانوا على نيّة الامتيار مرّة بعد أخرى، وأنّ ذلك كان معلومًا له عليه السلام.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١﴾

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنخادعه عنه، ونحتال في انتزاعه مِن يده، ونجتهد في ذلك. وفيه تنبيه على عزّة المطلب وصعوبة مناله. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك غير مفرّطين فيه ولا متوانين، أو لقادرون عليه لا نَتعايَى به.

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ غِلمانه الكيّالين. جمع "فتًى". وقُرئ: "لِفِتْيَتِهِ"،[1] وهي جمع قِلّة له.

﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ﴾ فإنّه وكّل بكلّ رَحْلٍ رَجُلًا يعبّئ فيه بضاعتهم التي شرَوا بها الطعام، وكانت نِعالًا وأدَمًا. وإنّما فعله عليه السلام تفضّلًا عليهم وخوفًا مِن أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرّة أخرى. وكلّ ذلك لتحقيق ما يتوخّاه مِن رجوعهم بأخيه كما يؤذِن به قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَا﴾ أي: يعرِفون حقّ ردّها والتكرّمَ في ذلك، أو لكي يعرفوها. وهو ظاهر التعلّق بقوله: ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ﴾ فإنّ معرفتهم لها مقيّدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعًا. وأمّا / معرفة حقّ التكرّم في ردّها فهي وإن كانت في ذاتها غيرَ مقيّدة بذلك لكن لمّا [٢١٠و]
كان ابتداؤها حينئذ قُيِّدت به.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ حسبما أمرتهم به، فإنّ التفضّل عليهم بإعطاء البدلَين ولا سيّما عند إعواز البِضاعة مِن أقوى الدواعي إلى الرجوع. وما قيل إنّما فعله عليه السلام لمّا لم يرَ مِن الكرم أن يأخذ مِن أبيه وإخوته ثمنًا[2] فكلامٌ حقّ في نفسه، ولكن يأباه التعليل المذكور.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٤٨٥.

وأمّا أنّ عليّة الجعل المذكور للرجوع مِن حيث إنّ ديانتهم تحملُهم على ردّ البضاعة لأنّهم لا يستحلّون إمساكها؛[١] فمدارُه حِسبانُهم أنّها بقيت في رحالهم نسيانًا، وظاهر أنّ ذلك ممّا لا يخطر ببال أحد أصلًا، فإنّ هيئة التعبية تنادي بأنّ ذلك بطريق التفضّل. ألا يُرى أنّهم كيف جزموا بذلك حين رأوها، وجعلوا ذلك دليلًا على التفضّلات السابقة كما ستحيط به خُبرًا؟

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ﴾ قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ أي: فيما بعدُ. وفيه ما لا يخفى مِن الدلالة على كون الامتيار مرّة بعد مرّة معهودًا فيما بينهم وبينه عليه السلام. ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر. وفيه إيذان بأنّ مدار المنع عدمُ كونه معهم. ﴿نَكۡتَلۡ﴾ بسببه مِن الطعام ما نشاء.

وقرأ حمزة والكسائي بالياء[٢] على إسناده إلى الأخ لكونه سببًا للاكتيال، أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن أن يُصيبه مكروه.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبۡلُ﴾ وقد قلتم في حقّه أيضًا ما قلتم، ثمّ فعلتم به ما فعلتم، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنّما أفوّض الأمر إلى الله. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ وقُرئ: "حِفظًا".[٣] وانتصابهما على التمييز. والحاليّة على القراءة الأولى توهم تقيّد الخيريّة بتلك الحالة.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٥.

٢ وكذا خَلف البزار. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتَين. وهذا كما ترى مَيل منه عليه السلام إلى الإذن والإرسالِ، لِما رأى فيه مِن المصلحة.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تفضّلًا، وقد علموا ذلك بما مرّ مِن دلالة الحال. وقُرئ بنقل حركة الدال المدغَمة إلى الراء،[١] كما قيل: قِيل وكِيل.

[٢١٠ظ] ﴿قَالُواْ﴾ استئناف / مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: ماذا قالوا حينئذ؟ فقيل: قالوا لأبيهم، ولعلّه كان حاضرًا عند الفتح: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ إذا فُسّر البغي بالطلب فـ﴿ما﴾ إمّا استفهاميّة منصوبةٌ به، فالمعنى: ماذا نبتغي وراء ما وصفنا لك مِن إحسان الملِك إلينا وكرمه الداعي إلى امتثال أمره والمراجعة إليه في الحوائج. وقد كانوا أخبروه بذلك، وقالوا له: إنّا قدِمنا على خير رجل، أَنْزَلَنا وأكرَمَنا كرامةً لو كان رجلًا مِن آل يعقوب ما أكرَمَنا كرامتَه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ جملة مستأنَفة موضّحةٌ لِما دلّ عليه الإنكار مِن بلوغ اللطف غايتَه، كأنّهم قالوا: كيف لا وهذه بضاعتنا ردّها إلينا تفضّلًا مِن حيث لا ندري بعد ما مَنّ علينا مِن المِنَن العظام، هل مِن مزيدٍ على هذا فنطلُبَه؟ ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقًا، والتقاعدَ عن طلب نظائرِه؛ بل أرادوا الاكتفاءَ به في استيجاب الامتثالِ لأمره، والالتجاءِ إليه في استجلاب المزيدِ كما أشرنا إليه.

وقوله تعالى: ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ حال مِن ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾، والعامل معنى الإشارة. وإيثار صيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاءِ المفهوم مِن كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله.

---

[١] أي: "رِدْتْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن علقمة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نجلب إليهم الطعامَ مِن عند الملِك، معطوف على مقدَّر ينسحب عليه ردُّ البضاعة، أي: فنستظهر بها، ونمير أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ مِن المكاره حسبما وُعِدنا، فما يصيبه مِن مكروه، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ أي: بواسطته. ولذلك وسّط الإخبار بحفظه بين الأصل والمزيد. ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: وَسق[١] بعير زائدًا على أوساق أباعرنا على قضيّة التقسيط.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما يحمله أباعرنا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: مكيل قليل لا يقوم بأَوَدِنا. فهو استئناف وقع تعليلًا لِما سبق، كأنّه قيل: أيّ حاجة إلى الازدياد؟ فقيل ما قيل. أو ذلك الكَيل الزائد شيء قليل لا يضايقنا فيه الملِك. أو سهل عليه لا يتعاظمه.

أو[٢] أيّ مطلب نطلب مِن مهمّاتنا. والجُمَل / الواقعة بعده توضيح وبيان لِما [٢١١و] يشعر به الإنكار مِن كونهم فائزين ببعض المطالب، أو متمكّنين مِن تحصيله، فكأنّهم قالوا: بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها، ونمير أهلَنا، ونحفظ أخانا، فما يصيبه شيء مِن المكاره، ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيلَ بعير، فأيّ شيء نبتغِي وراء هذه المباغي؟

وقُرئ: "مَا تَبْغِي"[٣] على خطاب يعقوب عليه السلام، أي:[٤] أيّ شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسَعَة ذات أيدينا؟ أو[٥] وَراءَ ما فعل بنا الملِك مِن الإحسان داعيًا إلى التوجّه إليه؟ والجملة الاستئنافيّة موضحة لذلك. أو أيّ شيء تبغي شاهدًا على صِدقنا فيما وصفنا لك مِن إحسانه؟ والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفَحوى الإنكار.

وإمّا[٦] نافية، فالمعنى: ما نبغي شيئًا غير ما رأينا مِن إحسان الملِك في وجوب المراجعة إليه، أو ما نبغي غير هذه المباغي. وقيل: ما نطلب منك بضاعةً أخرى. والجملة المستأنَفة تعليل له.

---

١ قال الخليل: الوَسْق: هو حِمْل البعير. والوِقْر: حِمل البغل أو الحمار. الصحاح للجوهري، «وسق».

٢ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "ماذا نبتَغي". «منه».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٤ وفي هامش م: على التفسير الأخير، وإنّما قدّمه على الأوّل لئلا يقع... [بياض].

٥ وفي هامش م: على التفسير الأوّل. «منه».

٦ وفي هامش م: معطوف على قوله: "إمّا استفهاميّة". «منه».

وأمّا[١] إذا فسِّر البغي بمجاوزة الحدّ فـ﴿مَا﴾ نافية فقط، والمعنى: ما نبغي في القول، وما نتزيّد فيما وصفنا لك مِن إحسان الملِك إلينا وكرَمه الموجِب لِما ذكر. والجملة المستأنَفة لبيان ما ادّعوا مِن عدم البغي، وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ عطفٌ على ﴿مَا نَبْغِي﴾، أي: ما نبغي فيما ذكرنا مِن إحسانه ونُحَصِّلُ أَمثالَه مِن مَيْر أهلنا وحفظ أخينا، فإنّ ذلك أهون شيء بواسطة إحسانه.

وقد جُوّز أن يكون كلامًا مبتدأً، أي: جملة اعتراضيّة تذييليّة، على معنى: وينبغي أن نمير أهلَنا، وشُبِّهَ ذلك بقولك: سعيت في حاجة فلان، ويجب أن أسعى. وأنت خبير بأنّ شأن الجملِ التذييليّة أن يكون مؤكّدة لمضمون الصدر، ومقرّرة له، كما في المثال المذكور وقولِك: فلان ينطق بالحقّ فالحقّ أبلَج، وأنّ قوله: ﴿وَنَمِيرُ﴾... إلخ -وإن ساعدنا في حَمْله على معنى: ينبغي أن نمير أهلنا- بمَعزِل مِن ذلك.

أو ما نبغي في الرأي، وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك مِن إرسال أخينا معنا. والجُمَل إلى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم وإصابة رأيهم، أي: بضاعتنا حاضرة نستظهر بها، ونمير أهلنا، ونصنع كيت وذيت،[٢] فتأمّل.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٦٦﴾

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ بعد ما عاينت منكم ما عاينت ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أتوثّق به مِن جهة الله عزّ وجلّ. وإنّما جعله مَوثقًا منه تعالى لأنّ توكيد العهود به مأذون فيه مِن جهته تعالى، فهو إذْنٌ منه عزّ وعلا.

﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ جواب القسم، إذ المعنى: حتّى تحلفوا بالله لتأتُنّني ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلّا أن تُغلَبوا فلا تطيقوا به، أو إلّا أن تهلَكوا. وأصله مِن أَحاطَه العدوّ، فإنّ مَن أحاط به العدوّ فقد هلك غالبًا. وهو استثناء مِن أعمّ الأحوال

---

[١] وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "إذا فسّر البغي". «منه».

[٢] قولهم: "كَيت وذَيت" هو كناية عن الحديث. المصباح المنير للفيّومي، ٢١٣/١.

أو أعمّ العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه، أي: لتأتُنّني به ولا تمتنعنّ منه في حال مِن الأحوال أو لعلّة مِن العلل إلّا حالَ الإحاطة بكم، أو لعلّة الإحاطة بكم.

ونظيره قولهم: أقسمت عليك لمّا فعلتَ، وإلّا فعلتَ، أي: ما أريد منك إلّا فعلَك. وقد جُوّز الأوّل بلا تأويل أيضًا، أي: لتأتُنّني به على كل حالٍ / إلّا حالَ الإحاطة بكم. وأنت تدري أنّه حيث لم يكن الإتيان به مِن الأفعال الممتدّة الشاملة للأحوال على سبيل المعيّة، كما في قولك: لألزمنّك إلّا أن تعطيَني حقّي. [٢١١ظ]

ولم يكن مراده عليه السلام مقارنتَه على سبيل البدل لِما عدا الحالَ المستثناة، كما إذا قلت: صَلِّ إلّا أن تكون مُحدِثًا؛ بل مجرّد تحقّقه ووقوعه مِن غير إخلال به، كما في قولك: لأَحُجَّنَّ العامَ إلّا أن أُحصَر، فإنّ مرادك إنّما هو الإخبار بعدم منع ما سوى حال الإحصار عن الحجّ، لا الإخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل، كما هو مرادك في مثال الصلاة. كأنّ اعتبار الأحوال معه مِن حيث عدمُ منعها منه، فآل المعنى إلى التأويل المذكور.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾ عهدهم مِن الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أي: على ما قلنا في أثناء طلب المَوثق وإيتائه مِن الجانبين. وإيثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدّي إلى تثبّتهم ومحافظتهم على تذكّره ومراقبته. ﴿وَكِيلٞ﴾ مطّلع رقيب. يريد به عرض ثقته بالله تعالى، وحثَّهم على مراعاة ميثاقهم.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

﴿وَقَالَ﴾ ناصحًا لهم لمّا أزمع على إرسالهم جميعًا: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ نهاهم عن ذلك حذارًا مِن إصابة العين، فإنّهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنةٍ. وقد كانوا تجمّلوا في هذه الكَرّة أكثرَ ممّا في المرّة الأولى، وقد اشتُهروا في مصر بالكرامة والزلفى لدى الملِك، بخلاف النوبة الأولى، فكانوا مَئِنّةً لِدُنوّ كلِّ ناظرٍ، وطُمُوح كلّ طامح.

وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست ممّا يُنكر، وقد ورد عنه عليه السلام: «إنّ العين حقّ».[١] وعنه عليه السلام: «إنّ العين لتُدخل الرجلَ القبر والجملَ القِدرَ».[٢] وقد كان صلّى الله عليه وسلّم يعوّذ الحَسنين رضي الله عنهما بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامّة، مِن كلّ شيطان وهامّة، ومِن كلّ عين لامّة»، وكان يقول: «كان أبوكما يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق عليهم السلام»، رواه البخاري في **صحيحه**،[٣] وقد شهدت بذلك التجارِب.

ولمّا لم يكن عدم الدخول مِن باب واحد مستلزمًا للدخول مِن أبواب متفرّقة وكان في دخولهم مِن بابين أو ثلاثة بعضُ ما في الدخول مِن باب واحدٍ مِن نوع اجتماع مصحِّح لوقوع المحذور قال: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ بيانًا لِما هو المراد بالنهي. وإنّما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزمًا له إظهارًا لِكمال العناية به، وإيذانًا بأنّه المراد بالأمر المذكور، لا تحقيقُ شيء آخر.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم﴾ أي: لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: شيئًا ممّا قضى عليكم، فإنّ الحذَر لا يمنع القدَر. ولم يُرِدْ به عليه السلام إلغاءَ الحذَر بالمرّة، كيف لا وقد قال عزّ قائلًا: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، وقال: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء، ٧١/٤]؟ بل أراد بيان أنّ ما وصّاهم به ليس ممّا يستوجب المراد لا محالةَ؛ بل هو تدبير في الجملة، وإنّما التأثير وترتّب المنفعة عليه مِن العزيز القدير، وأنّ ذلك ليس بمدافعة للقدَر؛ بل هو استعانة بالله تعالى، وهرَب منه إليه.

[٢١٢و] / ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ مطلقًا ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء. ﴿عَلَيۡهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ في كل ما آتي وأذَر. وفيه دلالة على أنّ ترتيب الأسباب غير مُخِلّ بالتوكّل.

---

١ **صحيح البخاري**، ١٣٢/٧ (٥٧٤٠)؛ **صحيح مسلم**، ١٧١٩/٤ (٢١٨٧).

٢ **حلية الأولياء** لأبي نعيم، ٩٠/٧. وقال: «غريب مِن حديث الثوري تفرّد به معاوية».

٣ **صحيح البخاري**، ١٤٧/٤ (٣٣٧١).

﴿وَعَلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص، مفيدًا بالواو عطفَ فعل غيره مِن تخصيص التوكّل بالله عزّ وجلّ على فعل نفسه، وبالفاء سببيّةَ فعله لكونه نبيًّا لفعل غيره مِن المقتدين به، فيدخل فيهم بَنوه دخولًا أوّليًّا. وفيه ما لا يخفى مِن حُسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكّل فيما هم بصدَده على الله عزّ وجلّ، غير مغترّين بما وصّاهم به مِن التدبير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ مِن الأبواب المتفرّقة مِن البلد. قيل: كانت له أربعة أبواب، فدخلوا منها. وإنّما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عمّا نهوا عنه. ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِي﴾ فيما سيأتي عند وقوع ما وقع ﴿عَنْهُم﴾ عن الداخلين؛ لأنّ المقصود به استدفاع الضرر عنهم.

والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب ﴿لَمَّا﴾ ومدخوله، فإنّ عدم الإغناء بالفعل إنّما يتحقّق عند نزول المحذور، لا وقت الدخول، وإنّما المتحقّق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور مِن عدم كون الدخول المذكور مُغنيًا فيما سيأتي، فتأمّل.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن جهته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا ممّا قضاه عليهم مع كونه مَظِنّة لذلك في بادي الرأي حيث وصّاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجَبه واثقين بجدواه مِن فضل الله تعالى.

فليس المرادُ بيانَ / سببيّة الدخول المذكور لعدم الإغناء، كما في قوله عزّ وعلا:[١] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر، ٤٢/٣٥]، فإنّ مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم؛ بل بيانَ عدم سببيّته للإغناء مع كونها متوقّعة في بادي الرأي، كما في قولك: حلَف أن يعطيني حقّي عند حلول الأجل، [٢١٢ظ]

---

١ ط س: تعالى.

فلمّا حلّ لـم يعطني شيئًا. فإنّ المراد بيان عدم سببيّة حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوّة بموجَب الحلِف، لا بيانُ سببيّته لعدم الإعطاء.

فالمآل بيانُ عدمِ ترتّب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجوّ الوجود، لا بيانُ ترتّب عدمه عليه. ويجوز أن يراد ذلك أيضًا بناءً على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيّته مِن أنّه لا يغني عنهم مِن الله شيئًا، فكأنّه قيل: ولمّا فعلوا ما وصّاهم به لم يُفِد ذلك شيئًا، ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام، فلقوا ما لقوا، فيكون مِن باب وقوع المتوقَّع، فتأمّل.

﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء منقطع، أي: ولكن حاجة وحزازة كائنة ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أي: أظهرها ووصّاهم بها دفعًا للخاطرة، غيرَ معتقد أنّ للتدبير تأثيرًا في تغيير التقدير. وقد جُعل ضمير الفاعل في ﴿قَضَاهَا﴾ للدخول على معنى أنّ ذلك الدخول قضى حاجةً في نفس يعقوب، وهي إرادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرّقة. فالمعنى: ما كان ذلك الدخول يُغني عنهم مِن جهة الله شيئًا، ولكن قضى حاجة حاصلةً في نفس يعقوب بوقوعه حسب إرادته، فالاستثناء منقطع أيضًا. وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة، وأمّا إصابة العين فإنّما لم تقع لكونها غير مقدّرة عليهم، لا لأنّها اندفعت بذلك مع كونها مقضيّة عليهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ جليلٍ ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ لتعليمنا إيّاه بالوحي ونصب الأدلّة، حيث لم يعتقد / أنّ الحذَر يدفع القدر وأنّ التدبير له حظّ مِن التأثير حتّى يتبيّن [٢١٣و]
الخلل في رأيه عند تخلّف الأثر. أو حيث بَتَّ القول بأنّه لا يغني عنهم مِن الله شيئًا، فكان الحال كما قال.

وفي تأكيد الجملة بـ"إنّ" و"اللام" وتنكيرِ العِلم وتعليلِه بالتعليم المسنَد إلى ذاته سبحانه مِن الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلوّ مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدَر، ويزعمون أنّه يُغني عنه الحذر. وأمّا ما يقال مِن أنّ المعنى: لا يعلمون إيجاب الحذر مع أنّه لا يغني شيئًا مِن القدَر؛ فيأباه مقامُ بيان تخلّف المطلوب عن المبادي.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين أي: ضمّه إليه في الطعام، أو في المنزل، أو فيهما.

رُوي أنّهم لمّا دخلوا عليه قالوا له: «هذا أخونا قد جئناك به». فقال لهم: «أحسنتم، وستجدون ذلك عندي». فأكرمهم ثمّ أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيدًا، فبكى وقال: «لو كان أخي يوسف حيًّا لأجلسني معه»، فقال يوسف: «بقي أخوكم فريدًا». وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله، ثمّ أنزل كلّ اثنين منهم بيتًا، فقال: «هذا لا ثاني معه فيكون معي»، فبات يوسف يضمّه إليه ويشمّ رائحته حتّى أصبح، وسأله عن ولَده فقال: «لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم مِن اسم أخٍ لي هلَك»، فقال له: «أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟» قال: «مَن يجد أخًا مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل.» فبكى يوسف، وقام إليه وعانقه، وتعرّف إليه،[1] وعند ذلك ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإنّ الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا بخيرٍ، ولا تُعلِمهم بما أَعلمتك. قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما.[2]

وعن وهب أنّه لم يتعرّف إليه؛ بل قال له: «أنا أخوك بدل أخيك / المفقود».[3] [٢١٣ظ]

ومعنى ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾: لا تحزن بما كنت تَلقى منهم[4] مِن الحسد والأذى فقد أَمِنتَهم.

ورُوي أنّه[5] قال له: «فأنا لا أفارقك»، قال: «قد علمت باغتمام والدي بي، فإذا حبستك يزداد غمّه، ولا سبيل إلى ذلك إلّا أن أنسِبَك إلى ما لا يجمل».

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٧/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٠١/٦.

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

٤ ط س: تلقاهم.

٥ وفي هامش م: على التفسير الأوّل.

قال: «لا أبالي، فافعل ما بدا لك»، قال: «أدسّ صاعي في رحلك، ثمّ أنادي عليك بأنّك سرقته ليتهيّأ لي ردّك بعد تسريحك معهم»، قال: «افعلْ».[١]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ أي: المشربة. قيل: كانت مشربة جُعلت صاعًا يُكال به. وقيل: كانت تُسقَى بها الدوابّ ويكال بها الحبوب، وكانت مِن فضّة. وقيل: مِن ذهب. وقيل: مِن فضّة مُموّهة بالذهب. وقيل: كانت إناءً مستطيلةً تشبه المكّوك[٢] الفارسي الذي يلتقي طرفاه يستعمله الأعاجم. وقيل: كانت مرصّعةً بالجواهر. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين. وقُرئ: "وَجَعَلَ"[٣] على حذف جواب ﴿لَمَّا﴾، تقديره: أمهَلَهم حتّى انطلَقوا.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى منادٍ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ وهي الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنّها تَعِير، أي: تذهب وتجيء. وقيل: هي قافلة الحمير، ثمّ كثر حتّى قيل لكلّ قافلةٍ: عيرٌ، كأنّها جمع "عَيْر"، وأصلها فُعُلٌ، مثل: سَقْف وسُقُف، ففُعِل به ما فُعِل ببِيضٍ وغِيدٍ. والمراد أصحابُها كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «يا خيل الله اركبي».[٤]

رُوي أنّهم ارتحلوا، وأمهَلَهم يوسف حتّى انطلقوا منزلًا.[٥] وقيل: خرجوا مِن العِمارة، ثمّ أمر بهم فأُدرِكوا ونُودوا:[٦] ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف فلعلّه أُريدَ بالسرقة أَخذُهم له مِن أبيه، ودخولُ بِنيامين فيه بطريق التغليب، وإلّا فهو مِن قِبَل المؤذّن بناء على زعمه. والأوّل هو الأظهر الأوفق للسياق. وقرأ اليماني: "سَارِقُونَ" بلا لام.[٧]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٩/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

٢ المكّوك: مكيال. الصحاح للجوهري، «مكك».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٢؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٤/٦.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٦٢/٨؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥٥/٤.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٩/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي؛ ٦٢٣/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٢.

٦ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٠/١١.

٧ انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: الإخوة ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ جملة حاليّة مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾ جِيء بها للدلالة على انزعاجهم ممّا سمعوه لمباينته لحالهم.[1] / ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي: تَعْدَمُون، تقول: "فَقَدْتُ الشيءَ" إذا عَدِمْتَه بأن ضلّ عنك لا بفعلك. والمآل: ماذا ضاعَ عنكم. وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة. [٢١٤و]

وقُرئ: "تُفْقِدُونَ"[2] مِن "أَفْقَدتُه" إذا وَجدتَه فقِيدًا، وعلى التقديرين فالعدول عمّا يقتضيه الظاهر مِن قولهم: ماذا سُرِق منكم؟ لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنّه لم يُسْرَقْ منهم شيء فضلًا أن يكونوا هم السارقين له، وإنّما الممكن أن[3] يضيع منهم شيء فيسألونهم أنّه ماذا؟ وفيه إرشاد لهم إلى مراعاة حُسنِ الأدب والاحتراز عن المجازَفة ونسبة البُرَآءِ إلى ما لا خير فيه، لا سيّما بطريق التوكيد، فلذلك غيَّرُوا كلامهم حيث ﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ ولم يقولوا سَرَقْتُمُوهُ أو سُرِق.

وقُرئ: "صَاعَ"[4] و"صُوعَ"[5] و"صَوغَ"[6] بفتح الصاد وضمّها، وبإهمال العين وإعجامها مِن الصياغة.

ثمّ قالوا تَربيةً لِما تلقّوه مِن قبلهم، وإراءةً لِاعتقادِ أنّه إنّما بقي في رحلهم اتّفاقًا: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ مِن عند نفسه مُظهِرًا له قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٖ﴾ مِن الطعام، جُعلًا له لا على نيّة تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط، وعزمهم على ما لا يخفى مِن أخذ مَن وُجد في رحله. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ كفيل أُؤَدّيه إليه. وهو قول المؤذّن.

---

١ وفي هامش م: أي: قالوا وقد أقبلوا إلى المؤذّن وأصحابه. «منه».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٣ س: لن.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة رضي الله عنه ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ الجمهور على أنّ التاء بدل مِن الواو، ولذلك لا تدخل إلّا على الجلالة المعظَّمة، أو الربِّ المضاف إلى الكعبة، أو الرحمنِ في قول ضعيف. ولو قلتَ: "تالرحيم" لم يجُز. وقيل: مِن الباء. وقيل: أصل بنفسها. وأيًّا ما كان ففيه تعجّب.

﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ علمًا جازمًا مطابقًا للواقع ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لنَسرِقَ، فإنّه مِن أعظم أنواع الإفساد. أو لنفسد فيها أيّ إفساد كان، ممّا عزّ أو هان، فضلًا عمّا نسبتمونا إليه مِن السرقة.

ونفي المَجيء للإفساد وإن لم يكن مستلزمًا لِما هو مقتضى المقام مِن نفي الإفساد مطلقًا لكنّهم جعلوا / المجيء الذي يترتّب عليه ذلك ولو بطريق [٢١٤ظ] الاتّفاق مجيئًا لغرض الإفساد مفعولًا لأجله ادّعاءً إظهارًا لكمال قبحه عندهم وتربيةً لاستحالة صدوره عنهم، كما قيل في قوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق، ٢٩/٥٠] الدالّ بظاهره على نفي المبالغة في الظلم، دون نفي الظلم في الجملة الذي هو مقتضى المقام مِن أنّ المعنى: إذا عذّبتُ مَن لا يَستحقّ التعذيب كنت ظلّامًا مُفرطًا في الظلم.

فكأنّهم قالوا: إن صدر عنّا إفساد كان مجيئنا لذلك، مريدين به تقبيحَ حاله وإظهارَ كمال نزاهتهم عنه. يعنون أنّه قد شاع بينكم في كرّتَي مجيئنا ما نحن عليه -وقد كانوا على غاية ما يكون مِن الديانة والصيانة فيما يأتون ويذَرون، حتّى رُوي أنّهم دخلوا مصر وأفواهُ رواحلهم مَعكومة[١] لئلّا تتناول زرعًا أو طعامًا لأحدٍ، وكانوا مثابرين على فنون الطاعات-[٢] وعلمتم بذلك أنّه لا يصدر عنّا إفسادٌ ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: ما كنّا نوصف بالسرقة قطّ.

وإنّما حكموا بعلمهم ذلك لأنّ العِلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العِلم بأحوالهم الغائبة. وإنّما لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين؛ بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزامًا للحجّة عليهم، وتحقيقًا للتعجّب المفهوم مِن تاء القَسَم.

---

[١] م: مَكعومة [صحح في الهامش]. وفي هامش م: «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «كعم» «عكم». يقال: كَعمت البعير وعكَمته، أي: شددتُ فاه.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٠.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: أصحابُ يوسف عليه السلام ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الضمير للصُّواع، على حذف المضاف، أي: فما جزاء سرقته عندكم وفي شريعتكم ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ لا في دعوى البراءة عن السرقة، فإنّهم صادقون فيها؛ بل فيما يستلزمه ذلك مِن نفي كون الصُّواع فيهم كما يؤذن به قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ أي: أَخذُ مَنْ وُجِد الصواعُ ﴿فِي رَحۡلِهِۦ﴾ حيث ذُكر بعنوان الوجدان في الرحل دون عنوان السرقة، وإن كان ذلك[1] مستلزمًا لها في اعتقادهم المبنيّ على قواعد العادة، ولذلك أجابوا بما أجابوا. فإنّ الأخذ والاسترقاق سنَةً إنّما هو جزاء السارق دون مَن وُجِدَ فِي يده مال غيره كيفما كان، فتأمّل، واحمِل كلام كلّ فريق على ما لا يزاحم رأيَهُ، / فإنّه أقرب إلى معنى الكيد وأبعد مِن الافتراء. [٢١٥و]

وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقرير لذلك الحكم، أي: فأخذه جزاؤه، كقولك: حقّ الضيف أَن يُكرَم فهو حقّه. ويجوز أن يكون ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأً، والجملة الشرطيّة كما هي خبرَه، على إقامة الظاهر مُقام المُضمَر. والأصل: جزاؤه مَن وُجد في رحله فهو، على أنّ الأوّل لـ﴿مَن﴾، والثاني للظاهر الذي وُضع مَوضعه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة. تأكيد للحكم المذكور غِبَّ تأكيدٍ، وبيانٌ لقبح السرقة، ولقد فعلوا ذلك ثقةً بكمال براءتهم عنها، وهم عمّا فُعِلَ بهم غافِلون.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف بعد ما رَجعُوا إليه للتفتيش ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ بأوعية الإخوة العشرة، أي: بتفتيشها ﴿قَبۡلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين لنفي التهمة. رُوي

[1] س - ذلك.

أنّه لمّا بلغت النوبة إلى وِعائه قال: «ما أظنّ هذا أخذ شيئًا»، فقالوا: «والله لا نتركه حتّى تنظر في رحله، فإنّه أطيب لنفسك وأنفسنا».[١]

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ أي: السقاية، أو الصواع، فإنّه يذكّر ويؤنّث. ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لم يُقَل: منه، على رجع الضمير إلى الوعاء، أو مِن وعائه، على رجعه إلى ﴿أخيه﴾؛ قصدًا إلى زيادة كشف وبيان. وقُرئ بضمّ الواو،[٢] وبقلبها همزة،[٣] كما في إِشاح في وِشاح.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة، والكاف مُقحَمة للدلالة على فخامة المشار إليه. وكذا ما في "ذلك" مِن معنى البُعد، أي: مثلَ ذلك الكَيد العجيب. وهو عبارة عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين مِن حيث لم يحتسبوا، فمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾: صنعنا له ودبّرنا لأجل تحصيل غرضه مِن المقدّمات التي رتّبها مِن دسّ الصواع وما يتلوه، فـ"اللام" ليست كما في قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ / كَيۡدًا﴾،[٤] فإنّها داخلة على المتضرِّر على ما هو [٢١٥ظ] الاستعمال الشائع.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ استئناف وتعليل لذلك الكَيد وصنعه، لا تفسير وبيان له كما قيل،[٥] كأنّه قيل: لماذا فُعِل ذلك؟ فقيل: لأنّه لم يكن ليأخذ أخاه[٦] بما فعله في دين الملِك في أمر السارق -أي: في سلطانه، قاله ابن عبّاس،[٧] أو في حكمه وقضائه، قاله قتادة-[٨] إلّا به؛ لأنّ جزاء السارق في دينه إنّما كان ضربَه وتغريمَه ضِعفَ ما أخذ، دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة

---

١ جامع البيان للطبري، ٢٦٠/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤١/٥.

٢ أي: "وُعَاءِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

٣ أي: "إِعَاءِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠.

٤ يوسف، ٥/١٢.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٢/٣.

٦ وفي هامش م: وإنّما خصّصنا عجزه عن أخذه بذلك؛ إذ لا علاقة بين عجزه المطلق وبين حكم الملِك في خصوص أمر السارق. «منه».

٧ جامع البيان للطبري، ٢٦٤/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٢/٥.

٨ جامع البيان للطبري، ٢٦٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٢/٥.

يعقوب عليه السلام، فلم يكن يتمكّن بما صنعه مِن أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلّا حالَ مشيئته التي هي عبارة عن إرادته لذلك الكيدِ، أو إلّا حالَ مشيئته[1] للأخذ بذلك الوجه.

ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مَباديه المؤدّية إليه جميعًا مِن إرشاد يوسف وقومه إلى ما صدر عنهم مِن الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتّبًا، لكن لا على أن يكون القصر المستفاد مِن تقديم المجرور مأخوذًا بالنسبة إلى غيره مطلقًا على معنى: مثل ذلك الكيدِ كدنا، لا كيدًا آخر، إذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه في دين الملِك في شأن السارق قطعًا، إذ لا علاقة بين مطلَق الكيد ودِين الملِك في أمر السارق أصلًا؛ بل بالنسبة إلى بعضه، على معنى: مثلَ ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحدّ كِدنا له، ولم نكتف ببعضٍ مِن ذلك؛ لأنّه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملِك به إلّا حالَ مشيئتنا له بإيجاد ما يجري مَجرى الجزء الصوري مِن العلّة التامّة -وهو إرشاد إخوته- إلى الإفتاء المذكور.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصر في تفسير مَن فسّر[2] قوله تعالى: ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ بقوله: علّمناه إيّاه وأوحينا به إليه. أي: مثلَ ذلك التعليم المستتبع لِما شُرح مرتّبًا علّمناه دون بعضٍ مِن ذلك فقط... إلخ.

وعلى كلّ حال فالاستثناء مِن أعمّ الأحوال كما أشيرَ إليه،[3] ويجوز أن يكون مِن أعمّ العلل والأسباب، أي: لم يكن يأخذ أخاه لعلّة مِن العلل أو بسببٍ من الأسباب إلّا لعلّة مشيئته تعالى، أو إلّا بسبب مشيئته تعالى. وأيًا ما كان فهو متّصل؛ / لأنّ أخذ السارق إذا كان ممّن يرى ذلك ويعتقده دينًا لا سيّما عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفًا لدِين الملِك. [٢١٦و]

---

١ وفي هامش م: قال ابن عطيّة: «والاستثناء حال، والتقدير: إلّا أن يشاء الله ما وقع مِن هذه الحيلة». لباب. «منه». | المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٦٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٧١/١١.

٢ وهو الزمخشري في الكشّاف، ٤٩١/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٧٢/٣.

٣ م ط س - كما أشيرَ إليه. ["صح" في هامش م].

وقد قيل: معنى الاستثناء: إلّا أن يشاءَ الله أن يجعل ذلك الحكمَ حكمَ الملِك.[١] وأنت تدري أنّ المراد بـ"دِينه" ما عليه حينئذ، فتغييره مخلّ بالاتّصال. وإرادةُ مطلق ما يتديّن به أعمّ منه وممّا يحدث تُفضي إلى كون الاستثناءِ مِن قبيل التعليق بالمحال؛ إذ المقصود بيانُ عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ، ولم يتعلّق المشيئة بالجعل المذكور إذ ذاك. وإرادة عجزه مطلقًا تؤدّي إلى خلاف المراد، فإنّ استثناءَ حال المشيئة المذكورة مِن أحوال عجزه عليه السلام ممّا يُشعر بعدم الحاجة إلى الكيد المذكور، فتدبّر.

وقد جُوّز الانقطاع، أي: لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه في دِين غير دِين الملِك.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: رُتَبًا كثيرةً عاليةً مِن العِلم. وانتصابها على المصدريّة، أو الظرفيّة، أو على نزع الخافض، أي: إلى درجات. والمفعول قولُه تعالى: ﴿مَّن نَّشَآءُۗ﴾ أي: نشاء رفعَه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف. وإيثارُ صيغة الاستقبال للإشعار بأنّ ذلك سنّة مستمرّة غير مختصّة بهذه المادّة. والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب.

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ﴾ مِن أولئك المرفوعين ﴿عَلِيمٞ﴾ لا ينالون شَأوَهُ.

واعلم أنّه إن جعل الكيد عبارة عن المعنيَين الأوّلَين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتُبِر فيه بالشرطيّة أو الشطريّة مِن إرشاده عليه السلام إلى دسّ الصواع في رحل أخيه وما يتفرّع عليه مِن المقدّمات المرتّبة لاستبقاء أخيه ممّا يتمّ مِن قبله.

والمعنى: أرشَدْنا إخوته إلى الإفتاء المذكور؛ لأنّه لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه بدونه، أو أرشَدْنا كلًّا منهم ومِن يوسف وأصحابه إلى ما صدَر عنهم، ولم نكتف بما تمّ مِن قبل يوسف فقط؛ لأنّه لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه بذلك، فقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلِيمٞ﴾ توضيح لذلك على معنى

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٧٢.

أنّ الرفع المذكور / لا يوجب تمام مرامه، إذ ليس ذلك بحيث لا يعزُب عن علمه شيء؛ بل إنّما نرفع كلّ مَن نرفع حسب استعداده، وفوق كلّ واحد منهم عليم لا يقادَر قدرُ علمه، ولا يُكتَنه كُنهُه، يرفع كلًّا منهم إلى ما يليق به مِن معارج العِلم ومدارجه، وقد رفع يوسف إلى ما يليق به مِن الدرجات العالية، وعلم أنّ ما حواه دائرة علمه لا يفي بمَرامه، فأرشد إخوته إلى الإفتاء المذكور، فكان ما كان. [٢١٦ظ]

وكأنّه عليه السلام لم يكن على يقين مِن صدور الإفتاء المذكور عن إخوته وإن كان على طمعٍ منه، فإنّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ وجودًا وعِلمًا.

والتعرّض لوصف العِلم لتعيين جهة الفوقيّة. وفي صيغة المبالغة مع التنكير والالتفاتِ إلى الغيبة مِن الدلالة على فخامة شأنه عزّ وعلا وجلالةِ مقدار علمه المحيط ما لا يخفى.

وأمّا إن جُعل عبارةً عن التعليم المستتبع للإفتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم. والإفتاءُ وإن لم يكن داخلًا تحت قدرته عليه السلام لكنّه كان داخلًا تحت علمه بواسطة الوحي والتعليم. والمعنى: مثل ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحدّ علّمناه، ولم نقتصر على تعليم ما عدا الإفتاء الذي سيصدر عن إخوته؛ إذ لم يكن متمكّنًا مِن أخذ أخيه إلّا بذلك.

فقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ توضيح لقوله: ﴿كِدْنَا﴾ وبيان؛ لأنّ ذلك مِن باب الرفع إلى الدرجات العالية مِن العِلم، ومدح ليوسف برفعه إليها. وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ تذييل له، أي: نرفع درجات عالية مِن العلم مَن نشاء رفعه، وفوق كلّ منهم عليم هو أعلى درجة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «فوقَ كلّ عالِمٍ عالِمٌ إلى أن ينتهي العِلم إلى الله تعالى».[٢] والمعنى: إنّ إخوة يوسف كانوا علماء إلّا أنّ يوسف أفضل منهم.

---

١ م - رضي الله عنهما.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٤٢؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٦٢٤. وهو في جامع البيان للطبري، ١٣/٢٧٠، مِن قول الحسن.

وقُرئ: "دَرَجَاتِ مَن نَّشَاءُ" بالإضافة.[١] والأوّل أنسب بالتذييل حيث نُسب فيه الرفع إلى مَن نُسب إليه الفوقيّة، لا إلى درجته. ويجوز كون "العليم" في هذا التفسير أيضًا عبارةً عن الله عزّ وجلّ، أي: وفوق كلّ مِن أولئك المرفوعين عليم، يرفع كلًّا منهم إلى درجته اللائقة به، / والله تعالى أعلم. [٢١٧و]

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه مِن جهة عمّته على ما قيل مِن أنّها كانت تحضنه، فلمّا شبّ أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها، وكانت لا تصبر عنه ساعةً. وكانت لها مِنطَقة وَرِثَتْها مِن أبيها إسحاق عليه السلام، فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمَدَتْ إلى المِنطَقة فحَزَمَتْها عليه مِن تحت ثيابه، ثمّ قالت: فُقِدت مِنطَقة إسحاق، فانظروا مَن أخذها، فوجدوها محزومةً على يوسف، فقالت: إنّه لي سَلَم أفعل به ما أشاءُ، فخلّاه يعقوب عندها حتّى ماتَتْ.[٢]

وقيل: كان أخذ في صباه صنمًا لأبي أمّه فكسره وألقاه في الجِيَف.[٣] وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالًا صغيرًا مِن ذهَب كانوا يعبدونه فدفنه.[٤]

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي: أكنّ الحزازة الحاصلة ممّا قالوا ﴿فِي نَفۡسِهِۦ﴾ لا أنّه أسرّها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح، ٩/٧١]. ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ لا قولًا ولا فعلًا صفحًا عنهم وحِلمًا. وهو تأكيد لِما سبق.

﴿قَالَ﴾ أي: في نفسه. وهو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الإخبار بالإسرار المذكور، كأنّه قيل: فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الإسرار؟ فقيل: قال: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: منزلةً حيث سرقتم أخاكم مِن أبيكم ثمّ طَفِقتم

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٢.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٢/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٢/٣.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٢/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٢/٣.

تفترون على البريء. وقيل: بدل مِن ﴿أَسَرَّهَا﴾، والضمير للمقالة المفسّرة بقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: عالم عِلمًا بالغًا إلى أقصى المراتب، فإنّ الأمر ليس كما تصفون مِن صدور السرقة منّا؛ بل إنّما هو افتراء علينا، فالصيغة لمجرّد المبالغة، لا لتفضيل علمه عزّ وجلّ على علمهم، كيف لا وليس لهم بذلك مِن علم؟

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ عندما شاهدوا مَخائل أخذ بنيامين مستعطِفين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا﴾ لم يريدوا بذلك الإخبار بأنّ له أبًا، فإنّ ذلك معلوم ممّا سبق،[1] وإنّما أرادوا الإخبار بأنّ له أبًا / ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السنّ لا يكاد يستطيع فِراقه، وهو عُلالةٌ به يتعلّل عن شقيقه الهالك، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ فلسنا عنده بمنزلته مِن المحبّة والشفَقة. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا، فأتمم إحسانَك بهذه التتمّة، أو المتعوّدين بالإحسان، فلا تُغيّرْ عادَتك. [٢١٧ظ]

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعوذ بالله مَعاذًا مِن ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ فحُذف الفعل، وأُقيم مُقامه المصدر مضافًا إلى المفعول به بعد حذف الجارّ. ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥ﴾ لأنّ أخذَنا له إنّما هو بقضيّة فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجَبها. وإيثار صيغة التكلّم مع الغير مع كون الخطاب مِن جانب إخوته على التوحيد مِن باب السلوك إلى سَنن الملوك، أو للإشعار بأنّ الأخذ والإعطاء ليس ممّا يستبدّ به؛ بل هو مَنوط بآراء أولي الحلّ والعقد.

وإيثار ﴿مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥ﴾ دون "مَن سرق متاعنا" لتحقيق الحقّ، والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام، فإنّهم لا يَحملون وِجدان الصواع في الرحل على مَحمل غير السرقة.

[1] وفي هامش: مِن قولهم: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف، ١٢/٦١]. «منه».

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إذا أخذنا غير مَن وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم وما لنا ذلك. وهذا المعنى هو الذي أريدَ بالكلام في أثناء الحِوار. وله معنى باطن؛ هو أنّ الله عزّ وجلّ إنّما أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالِحَ عَلِمَها الله في ذلك، فلو أخذتُ غيره كنت ظالمًا وعاملًا بخلاف الوحي.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يئسوا مِن يوسف وإجابتِه لهم أشدّ يأس، بدِلالة صيغة الاستفعال. وإنّما حصلت لهم هذه المرتبة مِن اليأس لِما شاهدوه مِن عوَذه بالله ممّا طلبوه الدالِّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنّه ممّا يجب أن يحترز عنه ويُعاذَ منه بالله عزّ وجلّ، ومِن تسميته ظلمًا بقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾.[1]

﴿خَلَصُوا۟﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ أي: ذَوِي نجوى، على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي، أو فوجًا نجيًا، على أن يكون بمعنى المناجي، كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمُسَامِر، / ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [٢١٨و]
[مريم، ٥٢/١٩]. ويجوز أن يقال: هم نَجيّ، كما يقال: هم صديق؛ لأنّه بزِنة المصادر مِن الزفير والزئير.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنّ، وهو روبيل، أو في العقل، وهو يهوذا؛ أو رئيسهم، وهو شمعون: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ كأنّهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملةً ولم يرضَ به، فقال منكِرًا عليهم: أَلَم تعلموا ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عهدًا يوثَق به، وهو حلفهم بالله تعالى. وكونه مِن الله لإذنه فيه وكونِ الحلف باسمه الكريم.

---
[1] في الآية السابقة.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قَبلِ هذا[1] ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قصّرتم في شأنه، ولم تحفظوا عهدَ أبيكم وقد قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾،[2] ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.[3] و﴿مَا﴾ مزيدة أو مصدريّة. ومحلّ المصدر النصب عطفًا على مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾، أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقًا وتفريطَكم السابقَ في شأن يوسف. ولا ضَيرَ في الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف.

وقد جوّز النصب عطفًا على اسم ﴿أَنَّ﴾، والخبر ﴿فِي يُوسُفَ﴾ أو ﴿مِن قَبْلُ﴾، على معنى: ألم تعلموا أنّ تفريطكم السابق وقع في شأن يوسف؟ أو أنّ تفريطكم الكائن أو كائنًا في شأن يوسف وقع مِن قبلُ؟ وفيه أنّ مقتضى المقام إنّما هو الإخبار بوقوع ذلك التفريط، لا بِكون تفريطهم السابق واقعًا في شأن يوسف كما هو مَفادُ الأوّل، ولا بكون تفريطهم الكائن في شأنه واقعًا مِن قبلُ كما هو مفادُ الثاني، على أنّ الظرف المقطوع عن الإضافة لا يقع خبرًا ولا صفةً ولا صِلة ولا حالًا عند البعض كما تقرّر في موضعه.

وقيل: محلّه الرفع على الابتداء، والخبرُ ﴿مِن قَبْلُ﴾، وفيه ما فيه. وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، ومحلّها النصب أو الرفع، والحقّ هو النصب عطفًا على مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾، أي: ما فرطّتموه بمعنى قدّمتموه في حقّه مِن الخيانة. وأمّا النصب عطفًا على اسم ﴿أَنَّ﴾ أو الرفع على الابتداء فقد عرفتَ حاله.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ متفرّع على ما ذكره وذكّره إيّاهم مِن ميثاق أبيه وقوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.[4] أي: فلن أفارق أرض مصر جريًا على قضيّة الميثاق ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في البَراح بالانصراف إليه. وكأنّ أَيمانَهم كانت معقودةً على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب عليه السلام. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها على وجه / لا يؤدّي إلى نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بسبب مِن الأسباب. [٢١٨ظ]

رُوي أنّهم كلّموا العزيز في إطلاقه، فقال رُوبيل: أيّها الملِك؛ لتردّنّ إلينا أخانا أو لَأَصِيحَنّ صَيحةً لا تبقى بمصر حامل إلّا ألقت ولدها، وقفّت كل شعرة

---

[1] وفي هامش م: إشارة إلى أخذ الميثاق. «منه».
[2] يوسف، ١١/١٢.
[3] يوسف، ٦٦/١٢.
[4] يوسف، ١٢/١٢.

في جسده فخرجت مِن ثيابه. وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون، خَلا أنّه إذا مسّ مَن غضب واحدٌ منهم سكن غضبه، فقال يوسف لابنه: قم إلى جنبه فَمَسَّه، فَمَسَّه، فقال روبيل: مَن هذا؟ إنّ في هذا البلد بَذْرًا مِنْ بَذْر يعقوبَ.[١]

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم إلّا بالحقّ والعدل.

﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿ٱرْجِعُوٓا۟﴾ أنتم ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ على ظاهر الحال. وقُرئ: "سُرِّقَ"،[٢] أي: نُسب إلى السرقة. ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وشاهدنا أنّ الصواع استخرج مِن وعائه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ أي: باطن الحال ﴿حَٰفِظِينَ﴾ فما ندري أنّ حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه. أو ما كنّا عالمين حين أعطيناك المَوثق أنّه سيسرق، أو أنّا نلاقي هذا الأمر، أو أنّك تُصاب به كما أُصبت بيوسف.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ أي: مصر، أو قرية بقربها لحِقهم المنادي عندها، أي: أرسل إلى أهلها، واسألهم عن القصّة. ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: أصحابَها، فإنّ القصّة معروفة فيما بينهم، وكانوا قومًا مِن كنعان مِن جيزان يعقوب. وقيل: مِن صنعاءَ. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيد في محلّ القسَم.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: يعقوب عليه السلام. وهو استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأَ ممّا سبق، فكأنّه قيل: فماذا كان عند قول المتوقّف لإخوته ما قال؟ فقيل:

---

١ جامع البيان للطبري، ٢٧٨/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٤/٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البرهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٠. وعزاها ابن عطيّة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبي رزين. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٧٠/٣.

قال يعقوب[١] عندما رجعوا إليه، فقالوا له ما قالوا، وإنّما حُذف للإيذان بأنّ مسارعتهم إلى قَبوله ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلّم غنيّ عن البيان، وإنّما المحتاج إليه جواب أبيهم.

﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زيّنت وسهّلت. وهو إضراب لا عن صريح كلامهم، فإنّهم صادقون في ذلك؛ بل عمّا يتضمّنه مِن ادّعاءِ البراءة / عن التسبّب فيما [٢١٩و] نزل به، وأنّه لم يصدر منهم ما يؤدّي إلى ذلك مِن قول أو فعل، كأنّه قيل: لم يكن الأمر كذلك؛ بل زيّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ مِن الأمور فأتيتموه. يريد بذلك فُتيَاهُم بأخذ السارق بسرقته.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وأخيه والمتوقّف بمصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لم يبتلِني إلّا لحكمةٍ بالغة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهة لِما سمع منهم ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الأسَف: أشدّ الحزن والحسرة. أَضافَه إلى نفسه -والألِف بدل مِن الياء- فناداه، أي: يا أسفي[٢] تعالَ، فهذا أوانك. وإنّما تأسّف على يوسف مع أنّ الحادث مصيبة أخويه لأنّ رُزأه كان قاعدةَ الأرْزَاءِ، غَضًّا عنده وإن تَقَادَم عهدُه، آخِذًا بمَجامع قلبه لا ينساه، ولأنّه كان واثقًا بحياتهما، عالِمًا بمكانهما، طامعًا في إيابهما. وأمّا يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرّك سلسلة رَجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله.

وفي الخبر: «لم تُعطَ أمّة مِن الأمم "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، إلّا أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[٣] ألا يُرى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع؛ بل قال ما قال.

---

١ س + عليه السلام.
٢ س: يا أسفا.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٧/٥. ونحوه في المعجم الكبير للطبراني، ٤٠/١٢ (١٢٤١١)؛ والدعاء للطبراني، ص ٣٧٠.

والتجانس بين لفظَي "الأسف" و"يوسف" ممّا يزيد النظم الكريم بهجةً، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام، ٢٦/٦]، وقوله: ﴿أَثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم﴾ [التوبة، ٣٨/٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل، ٦٩/١٦]، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل، ٢٢/٢٧]، ونظائرِها.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ الموجب للبكاء، فإنّ العَبْرة إذا كثرت مَحَقَتْ سواد العين / وقَلَبتْه إلى بياضٍ كَدِرٍ. قيل: قد عَمِي بَصَرُه.[١] وقيل: كان يُدرِك إدراكًا ضعيفًا. [٢١٩ظ]

رُوي أنّه ما جَفَّتْ عَيْنَا يعقوبَ مِن يوم فِراقِ يوسف إلى حين لقائه ثمانين عامًا وما عَلى وَجهِ الأرضِ أكرم على الله عزّ وجلّ مِن يعقوب عليه السلام.[٢]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنّه سأل جبريلَ عليه السلام: ما بلغ مِن وَجْد يعقوب على يوسف؟ قال: وَجْد سبعين ثكلى، قال: فما كان له مِن الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساءَ ظنّه بالله تعالى ساعةً قطّ».[٣]

وفيه دليل على جواز التأسّف والبكاء عند النوائب، فإنّ الكفّ عن ذلك ممّا لا يدخل تحت التكليف، فإنّه قلّ مَن يَملكُ نفسَه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ولده إبراهيم وقال: «القلب يحزَن، والعين تدمع، ولا نقول ما يُسْخِط الربَّ، وإنّا عليك يا إبراهيم لمَحزونون».[٤] وإنّما الذي لا يجوز ما يفعله الجهلة مِن الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشقّ الجيوب وتمزيق الثياب. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه، فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «ما نهيتكم عن البكاء، وإنّما نهيتكم عن صوتين أحمقين؛ صوتٍ عند الفرح، وصوتٍ عند الترح».[٥]

---

١ وفي هامش م: لقوله: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرٗا﴾ [يوسف، ٩٦/١٢].

٢ جامع البيان للطبري، ٣٦١/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢.

٣ جامع البيان للطبري، ٣٠٧/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢.

٤ صحيح البخاري، ٨٣/٢ (١٣٠٣)؛ صحيح مسلم، ١٨٠٧/٤ (٢٣١٥).

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٢. والصحيح أنّ هذا في موت إبراهيم ولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما أخرجه الترمذي في السنن، ٣١٩/٣ (١٠٠٥).

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء مِن الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه لا يظهره. فَعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم، ٤٨/٦٨]، مِن "كظَم السقاء" إذا شدّه على مِلئِه. أو بمعنى فاعل، كقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران، ١٣٤/٣]، مِن "كظَم الغيظ" إذا اجترعه، وأصله: كظَم البعيرُ جِرّتَه[١] إذا رَدّها في جوفه.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ٨٥﴾

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ أي: لا تفتؤ[٢] ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجّعًا عليه. فحُذف حرف النفي كما في قوله:

فَـقُـلْـتُ يَـمِـيـنُ الله أبـــرَحُ قـاعِـدًا[٣]

لعدم الالتباس بالإثبات، فإنّ القسَم إذا لم يكن معه علامة الإثبات يكون على النفي البتّة.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضًا مُشفيًا على الهلاك. وقيل: الحرَض مَن أذابه همّ أو مرض. وهو / في الأصل مصدر، ولذلك لا يؤنَّث ولا يثنّى ولا يُجمع، [٢٢٠و]
والنَعتُ منه بالكسر كَدَنِف، وقد قُرئ به،[٤] وبضمّتين،[٥] كجُنُب وغرب. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي: الميّتين.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٦﴾

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي﴾ البثّ أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثّه إلى الناس، أي: ينشره، فكأنّهم قالوا لَهُ مَا قالوا بطريق التسلية والإشكاءِ،

---

١ الجِرّة بالكسر: ما يخرجه البعير للاجترار. الصحاح للجوهري، «جرر».

٢ س: لا تفتأ.

٣ تمامه:

ولو قَطعوا رأسي لدَيك وأوصالي

وهو لامرئ القيس في ديوانه، ص ٣٢. رفعوا "يمينُ الله" بالابتداء وحذفوا خبره، وتقديره: يمينُ الله قسمي، وهو مثل: لعمرُ الله لأفعلنّ. والمعنى: أنّ هذه المرأة لمّا وصل إليها امرؤ القيس زجرته، وأرادت أن ينصرف، فحلف أنه لا يبرح حتى ينال حاجته ولو ضُرب رأسه وأوصاله. وأوصاله: أعضاؤه الواحد منها وِصَل. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ٢٠٤/٢.

٤ أي: "حَرِضًا". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذَكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٢.

٥ أي: "حُرُضًا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

فقال لهم: إنّي لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتّى تتصدّوا لتسليتي، وإنّما أشكو همّي ﴿وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ملتجِئًا إلى جنابه متضرِّعًا لدى بابه في دفعه. وقُرئ بفتحتين،[1] وضمّتين.[2]

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن لطفه ورحمته، فأرجو أن يرحمني، ويَلطُفَ بي، ولا يُخيِّب رجائي، أو أعلَم وَحيًا أو إلهامًا مِن جهته ما لا تعلمون مِن حياة يوسف. قيل: رأى ملَك الموت عليه السلام في المنام فسأله عنه، فقال: هو حيّ.[3] وقيل: علِم مِن رؤيا يوسف عليه السلام أنّه سيخرّ له أبواه وإخوته سجّدًا.[4]

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ أي: تعرّفوا. وهو تَفَعُّل مِن الحِسّ. وقُرئ بالجيم[5] مِن الجَسّ؛ وهو الطلب، أي: تطلّبوا ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: مِن خبرهما. ولم يذكر الثالث لأنّ غيبته اختياريّة لا يعسر إزالتها. ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ لا تقنَطوا مِن فرَجه وتنفيسه.

وقُرئ بضمّ الراء،[6] أي: مِن رحمته التي يُحيي بها العباد. وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.[7] ثمّ حذّرهم عن ترك العمل بموجَب نهيه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإنّ العارف لا يقنَط في حال مِن الأحوال.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٤/٣.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٤/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٩٣/١١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب والنخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة وعمر بن عبد العزيز. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥١

٧ في الآية السابقة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجَب أمر أبيهم. وإنّما لم يذكر ذلك إيذانًا بمسارعتهم إلى ما أُمِروا به، وإشعارًا بأنّ ذلك أمر محقَّق لا يفتقر إلى الذكر والبيان. ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الملك القادر المتمنّع، ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الهزال مِن شدّة الجوع، ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ مدفوعةٍ / يدفعها كلّ تاجر رغبةً عنها واحتقارًا لها، مِن "أزجَيتُه" إذا دفعتَه وطردتَه، والريح تُزجي السحاب. [٢٢٠ظ]

قيل: كانت بضاعتهم مِن متاع الأعراب صوفًا وسَمنًا. وقيل: الصنوبر وحبّة الخضراء. وقيل: سَوِيق المُقْل والأَقِط. وقيل: دراهم زيوفًا لا تؤخذ إلّا بوَضيعة. وإنّما قدّموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مَرامهم ببعثِ الشفَقة، وهزّ العطف والرأفة، وتحريك سلسلة المرحمة.

ثمّ قالوا: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتمِمه لنا ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ بردّ أخينا إلينا، قاله الضحّاك وابن جريج، وهو الأنسب بحالهم نظرًا إلى أمر أبيهم، أو بالإيفاء، أو بالمسامحة وقبول المُزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها تفضّلًا. وإنّما سمّوه تصدّقًا تواضعًا، أو أرادوا التصدّق فوق ما يعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم.

وإنّما لم يبدئوا بما أُمِروا به استجلابًا للرأفة والشفَقة ليبعثوا بما قدّموا مِن رقّةِ الحال رقّةَ القلب والحنوَّ، على أنّ ما ساقوه كلام ذو وَجهين، فإنّ قولهم: وتصدّق علينا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ يحتمل الحملَ على المَحملين، فلعلّه عليه السلام حمله على المَحمل الأوّل، ولذلك ﴿قَالَ﴾ مُجيبًا عمّا عرّضوا به وضمّنوه كلامهم مِن طلب ردّ أخيهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وكان الظاهر أن يتعرّض لِما فعلوا بأخيه فقط، وإنّما تعرّض لِما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما، فإنّ المراد بذلك إفرادهم له عن يوسف

وإذلاله بذلك حتّى كان لا يستطيع أن يكلّمهم إلّا بعجز وذلّة، أي: هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه؟ فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمُه.

﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ بقبحه، فلذلك أقدمتم على ذلك، أو جاهلون عاقبتَه. وإنّما قاله نُصحًا لهم وتحريضًا على التوبة وشفَقة عليهم لمّا رأى عجزهم وتمسكُنهم، لا معاتبةً وتثريبًا. ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام / منقطعًا عن كلامهم وتنبيهًا لهم على ما هو حقّهم ووظيفتهم مِن الإعراض [٢٢١و] عن جميع المطالب والتمحّض في طلب بنيامين؛ بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على وصيّة أبيه وإرساله إيّاهم للتحسّس منه ومِن أخيه، فلمّا رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال.

وقيل: أعطَوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كُتب فيه:[١] «مِن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله[٢] ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أمّا بعد، فإنّا أهل بيت موكّل بنا البلاء، أمّا جدّي فشُدَّت يَداه ورِجلاه فرُمي به في النار، فنجّاه الله تعالى، وجُعلت النار له بردًا وسلامًا. وأمّا أبي فوُضع السكّين على قفاه ليُقتل ففَداه الله. وأمّا أنا فكان لي ابن، وكان أحبَّ أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرّيّة، ثمّ أتوني بقميصه ملطّخًا بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي مِن بكائِي عليه، ثمّ كان لي ابن، وكان أخاه مِن أمّه، وكنت أتسلّى به، فذهبوا به، ثمّ رجعوا وقالوا: إنّه سَرق، وأنّك حبسته، وإنّا أهل بيت لا نسرِق ولا نلِد سارقًا، فإن رددتَه عليّ وإلّا دعوت عليك دعوة تدرك السابع مِن ولدك، والسلام». فلمّا قرأه لم يتمالك، وعِيل صبره، فقال لهم ما قال.[٣] وقيل: لمّا قرأه بكى، وكتب الجواب: «اصبِر كما صبروا تظفر كما ظفروا».[٤]

---

١ وفي هامش م: كتاب يعقوب عليه السلام.

٢ اختُلف في الذبيح مَن هو؟ إسحاق أم إسماعيل عليهما السلام، وهذا الكتاب أحد حجج القائلين بأنّه إسحاق عليه السلام، والأكثر على أنّه إسماعيل عليه السلام. وكان الزجّاج يقول: الله أعلم أيّهما الذبيح. انظر: تفسير الرازي، ٣٤٨/٢٦ (الصافات، ١٠٢/٣٧).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٢/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٢٧/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ استفهامُ تقرير، ولذلك أكَّدُوهُ بـ"إنّ" و"اللام". قالوه استغرابًا وتعجّبًا. وقُرئ: "إِنَّكَ" بالإيجاب.[1] قيل: عرفوه برُوائه[2] وشمائله حين كلّمهم به. وقيل: تبسّم فعرفوه بثناياه. وقيل: رفع التاج عن رأسه فرأوا علامةً بقَرنه تشبه الشامة البيضاء، وكان لسارة ويعقوب مثلها. وقُرئ: "أَإِنَّكَ أَوْ أَنتَ يُوسُفُ"[3] / على معنى: أئنّك يوسف أو أنت يوسف، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، وفيه زيادة استغراب. [٢٢١ظ]

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ جوابًا عن مسألتهم، وقد زاد عليه قوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾ أي: مِن أبويّ مبالغةً في تعريف نفسه، وتفخيمًا لشأن أخيه، وتكمِلةً لِما أفاده قوله: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾،[4] حسبما يفيده قوله: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ[5] عَلَيۡنَا﴾ فكأنّه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا مِن التفريق والإذلال؟ فأنا يوسف وهذا أخي، قد منّ الله علينا بالخلاص عمّا ابتُلِينا به، والاجتماعِ بعد الفرقة، والعزّة بعد الذّلة، والأُنس بعد الوَحشة، ولا يبعد أن يكون فيه إشارةٌ إلى الجواب عن طلبهم لردّ بنيامين بأنّه أخي لا أخوكم، فلا وجه لطلبكم.

ثمّ علّل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي: يفعل التقوى في جميع أحواله،[6] أو يَقِ نفسه عمّا يوجب سخطَ الله تعالى وعذابَه ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ على المِحَن، أو على مشقّة الطاعاتِ، أو عن المعاصي التي يستلذّها النفس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أجرَهم، وإنّما وُضع المُظهَر موضع المُضمَر تنبيهًا على أنّ المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.[7]

---

١ قرأ بها أبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ١/٣٧٢.

٢ الرُّواء، بالضمّ: حُسن المنظر في البهاء والجمال. لسان العرب لابن منظور، «رأى».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ م + تعالى.

٦ وفي هامش م: يخف الله وعقابه. «كشّاف». | الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٢.

٧ وفي هامش م: تنبيه على أنّ المحسن مَن جمع بين التقوى والصبر. «قاضي». | أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٧٥.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضّلك علينا بما ذكرت مِن النعوت الجليلة ﴿وَإِن كُنَّا﴾ وإنّ الشأن إنّا كنّا ﴿لَخَٰطِـِٔينَ﴾ لَمتعمّدين للذنب؛ إذ فعلنا بك ما فعلنا، ولذلك أعزّك وأذلّنا. وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار، ولذلك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي: لا عتَب ولا تأنيب ﴿عَلَيْكُمُ﴾ وهو تفعيل مِن الثَّرْب، وهو الشحم الغاشي للكَرِش، ومعناه: إزالته، كما أنّ التجليد إزالة الجِلد، والتقريع إزالة القَرَع؛ / لأنّه [٢٢٢و] إذا ذهب كان ذلك غايةَ الهُزال، فضُرب مثلًا للتقريع الذي يَذهب بماء الوجوه.

وقوله عزّ وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب بـ"التثريب"، أو بالمقدّر خبرًا لِـ﴿لَا﴾، أي: لا أثرّبكم، أو لا تثريب مستقرّ عليكم اليومَ الذي هو مظِنّة له، فما ظنّكم بسائر الأيّام، أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنّه حينئذ صَفَح عن جريمتهم، وعفَا عن جريرتهم بما فعلوا مِن التوبة.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضّل على التائب بالقبول.

ومِن كرمه عليه السلام أنّ إخوته أرسلوا إليه أنّك تدعونا إلى طعامك بُكرةً وعشيًّا، ونحن نستحيي منك بما فرَط مِنّا فيك، فقال عليه السلام: إنّ أهلَ مِصرَ وإن ملكتُ فيهم كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان مَن بلّغ عبدًا بِيع بعشرين درهمًا ما بلّغ، ولقد شرُفتُ بكم الآنَ، وعظُمتُ في العيون، حيث علِم الناس أنّكم إخوتي، وأنّي مِن حفَدة إبراهيم عليه السلام.[1]

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ قيل: هو الذي كان عليه حينئذ. وقيل: هو القميص المتوارَث الذي كان في التعويذ، أمره جبريل عليه السلام بإرساله إليه، وأوحى إليه أنّ فيح ريح الجنّة لا يقع على مبتلًى إلّا عُوفِيَ.[2]

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٣.

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ٦٣٢/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢.

﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يكن بصيرًا، أو يأتِ إليّ بصيرًا، وينصره قوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بأبي وغيره ممّن ينتظمه لفظ الأهل جميعًا مِن النساء والذراري. قيل: إنّما حمل القميصَ يَهوذا، وَقال: أنا أَحْزَنْتُه بحمل القميص مُلَطّخًا بالدم إليه فأُفَرّحُه كما أَحْزَنْتُه. وقيل: حمَله وهو حافٍ حاسِر مِن مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.[1]

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ خرجت مِن عريش مصر. يقال: "فصل مِن البلد فصولًا" إذا انفصل منه وجاوز حيطانَه. وقرأ ابن عبّاس: "انْفَصَلَ الْعِيرُ".[2]

/ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمَن عنده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله سبحانه ما عبِق بالقميص مِن ريح يوسف مِن ثمانين فرسخًا حين أقبل به يَهوذا. ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تنسبوني إلى الفَنَد؛ وهو الخرَف وإنكار العقل وفساد الرأي مِن هرَم، يقال: شيخ مفنّد، ولا يقال: عجوز مفنّدة؛ إذ لم تكن في شبيبتها ذاتَ رأي فتُفَنَّدَ في كبرها. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف، أي: لصدّقْتموني. [٢٢٢ظ]

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ أي: الحاضرون عنده: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قِدمًا في إفراط محبّتك ليوسف، ولَهَجك بذِكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنّه قد مات.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو يَهوذا ﴿أَلْقَاهُ﴾ أي: ألقى البشيرُ القميصَ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه، ﴿فَارْتَدَّ﴾ عاد ﴿بَصِيرًا﴾ لِما انتعش فيه مِن القوّة.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢.

[2] قراءة شاذّة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٢. وهي في مطبوع شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢: "انفصَلَتِ العِيرُ".

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يعني قولَه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾،[١] فالخطاب لمَن كان عنده بكنعان، أو قولَه: ﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾،[٢] فالخطاب لبنيه، وهو الأنسب بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإنّ مدار النهي المذكور إنّما هو العلم الذي أوتي يعقوب مِن جهة الله سبحانه. وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقولَ القول، أي: ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر، وأمرتكم بالتحسّس، ونهيتكم عن اليأس مِن رَوح الله تعالى: أعلم مِن الله ما لا تعلمون مِن حياة يوسف.

رُوي أنّه سأل البشيرَ: «كيف يوسف؟» فقال: «هو ملِك مصر،» قال: «ما أصنع بالملِك؟ على أيّ دين تركته؟» قال: «على دين الإسلام»، قال: «الآن تمّت النِّعمة».[٣]

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ ومِن حقّ مَن اعترف بذنبه أن يُصفَح عنه ويُستَغفَر له. / فكأنّهم كانوا على ثقةٍ مِن عفوه عليه السلام، ولذلك [٢٢٣و]
اقتصروا على استدعاء الاستغفار، أو أدرجوا ذلك في الاستغفار.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا مُشعِر بعفوه. قِيل: أخّر الاستغفار إلى وقت السحَر. وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتحرّى به وقت الإجابة.

وقيل: أخّره إلى أن يستحِلّ لهم مِن يوسف عليه السلام، أو يعلمَ أنّه قد عفا عنهم، فإنّ عفو المظلوم شرط المغفرة. ويعضُده أنّه رُوي عنه أنّه استقبل القِبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقاموا خلفهما أذلّةً خاشعين عشرين سنةً، حتّى إذا بلغ جهدهم وظنّوا أنّها الهلَكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إنّ الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد مواثيقهم بعدَك على النبوّة.[٤] فإن صحّ ثبت نبوّتهم، وأنّ ما صدر عنهم إنّما صدر قبل الاستنباء.

---

١ يوسف، ٩٤/١٢.

٢ يوسف، ٨٧/١٢.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٤/٦.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٦/٣.

وقيل: المراد الاستمرار على الدعاء. فقد رُوي أنّه كان يستغفر كلّ ليلة جمعة في نَيِّفٍ وعشرين سنةً.[١] وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحَر، فلمّا فرغ رفع يديه فقال: اللّٰهمّ اغفر لي جزَعي على يوسف، وقلّة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتَوا إلى أخيهم، فأوحى الله إليه أنّ الله قد غفَر لك ولهم أجمعين.[٢]

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ رُوي أنّه وجّه يوسف إلى أبيه جَهازًا ومِائتي راحلة؛ ليتجهّز إليه بمَن معه، فاستقبله يوسف والملِك في أربعة آلاف مِن الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقَّوْا يعقوبَ عليه السلام وهو يمشي متوكّئًا على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس، فقال: «يا يَهوذا، أَهَذا فرعون مصر؟»، قال: «لا بل ولَدك»، فلمّا لقِيه قال: «السلام عليك يا مُذهب الأحزان».[٣]

/ وقيل: قال له يوسف: «يا أبتِ بكيتَ عليّ حتّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟» فقال: «بلى، ولكنّي خشيتُ أن يُسلب دينك، فيُحالَ بيني وبينك».[٤] [٢٢٣ظ]

وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستّمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلًا سوى الذرّيّة والهرمى، وكانت الذرّيّة ألفَ ألفٍ ومائتي ألف.[٥]

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: أباه وخالتَه. وتنزيلُها منزلة الأمّ كتنزيل العمّ منزلة الأب في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة، ٢/١٣٣]،

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٥٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٥٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٤.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٦٣٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٥.

٤ عن سفيان الثوري في الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٥٧. وأخرجه الواحدي بإسناده في التفسير الوسيط، ٢/٦٣٤، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٦٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٥.

أو لأنّ يعقوبَ عليه السلام تزوّجها بعد أمّه. وقال الحسين[١] وابن إسحاق: كانت أمُّه في الحياة،[٢] فلا حاجة إلى التأويل.

ومعنى ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾: ضمّهما إليه واعتنقهما، وكأنّه عليه السلام ضرَب في الملتقى مضربًا، فنزل فيه، فدخلوا عليه، فآواهما إليه.[٣]

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ مِن الشدائد والمَكاره قاطبة. والمشيئة متعلّقة بالدخول على الأمن.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ على السرير تكرِمة لهما فوق ما فعله لإخوته. ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ أي: أبواه وإخوته ﴿سُجَّدٗا﴾ تحيّة له، فإنّه كان السجود عندهم جاريًا مَجرى التحيّة والتكرِمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مِن عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير.

وقيل: ما كان ذلك إلّا انحناءً دون تعفير الجِباه. ويأباه الخرور.

وقيل: خرّوا لأجله سجّدًا لله شكرًا.[٤] ويردّه قوله تعالى: / ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في زمن الصِّبا. ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ صدقًا واقعًا بعينه. [٢٢٤و]

---

[١] كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب "الحسن"، وهو الحسن البصري. انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٥١٥/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٦/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢١٢/١١.

[٢] س: بالحياة.

[٣] س – إليه.

[٤] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٧/٣. وفي البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٧/٦: قال الحسَن: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على الله، أي: خرّوا لله سجّدًا، شكرًا على ما أوزَعهم مِن هذه النعمة.

والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القِبلة، وجعلُ "اللام" كما في قوله:

أليس أوّلَ مَن صلّى لقِبلتكم[١]

تعسّف لا يخفى.

وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنصّ في ذلك؛ لأنّ الترتيب الذِّكري لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعي، فلعلّ تأخيرَه عنه ليَصل به ذِكرَ كونه تعبيرًا لرؤياه وما يتّصل به مِن قوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾.

المشهور استعمال الإحسان بـ"إلى"، وقد يستعمل بالباء أيضًا، كما في قوله عزّ اسمه: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [البقرة، ٢/٨٣]. وقيل: هذا بتضمين "لَطُفَ"، وهو الإحسان الخفيّ، كما يؤذِن به قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُ﴾. وفيه فائدة لا تخفى، أي: لطف بي محسنًا إليّ غيرَ هذا الإحسان، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ بعدما ابتُلِيتُ به.

ولم يصرِّح بقصّة الجُبّ حذارًا مِن تثريب إخوته؛ لأنّ الظاهر حضورهم؛ لوقوع الكلام عقيب خُرورهم سُجّدًا، واكتفاءً بما يتضمّنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أي: البادية ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أي: أفسد بيننا بالإغواء. وأصله مِن نخَس الرائض الدابّة وحمَله على الجري، يقال: "نزَغه ونسَغه" إذا نخسه، ولقد بالغ عليه السلام في الإحسان حيث أسند ذلك إلى الشيطان.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ / لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: لطيف التدبير لأجله، رفيق حتّى يجيء على وجه الحكمة والصواب، ما مِن صعب إلّا وهو بالنسبة إلى تدبيره سهل. [٢٢٤ظ]

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كلّ شيء على قضيّة الحكمة.

---

١ تمامه:

وأعرفَ الناس بالقرآن والسننِ

لحسّان بن ثابت في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧١/١ (البقرة، ٢/٣٤)؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٧/٦، ولم أجده في ديوانه. وهذا الاعتذار ذكره أبو حيّان في البحر المحيط، ٣٢٧/٦؛ وابن عادل في اللباب، ٢١٤/١١.

رُوي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما السلام، فطاف به في خزائنه، فأدخله في خزائن الوَرِق والذهَب، وخزائن الحُليّ، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، وغير ذلك، فلمّا أدخله خزائن القراطيس قال: «يا بنيّ ما أعقّك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثماني مراحل؟» قال: «أمرني جبريل»، قال: «أوَ ما تَسْألُه؟» قال: «أنتَ أبْسَطُ إليه منّي»، فسَألَه، قال جبريلُ: «الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾،[1] قال: فهلّا خِفْتني».[2]

ورُوي أنّ يعقوب أقام معه أربعًا وعشرين سنةً ثمّ مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فمضى بنفسه وَدَفَنَه ثمّة ثمّ عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنةً، فلمّا تمّ أمره وعلِم أنّه لا يدوم له تَاقَتْ نفسُه إلى المُلكِ الدائم الخالد فتمنّى الموت،[3] فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: بعضًا منه عظيمًا، وهو مُلك مصر. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعضًا مِن ذلك.

كذلك إن أريد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سَنن الأنبياء عليهم السلام فالترتيب ظاهر. وأمّا إن أريد به تعليم تعبيرِ الرُّؤى -كما هو الظاهر- فلعلّ تقديمَ "إيتاءِ المُلكِ" عليه في الذِكر لأنّه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه مِن الله سبحانه، والمُلك / أعرق في كونه نعمة مِن التعليم المذكور، وإن كان ذلك أيضًا نعمة جليلة في نفسه. [٢٢٥و]

ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبَق؛ لأنّ التعليم هنالك وارد على نهج العلّة الغائيّة للتمكين، فإن حُمِل على معنى التمليك لزم تأخّره عنه، وأمّا الواقع ههنا فمجرّد التأخير في الذِكر، والعطفُ بحرف الواو، ولا يستدعي ذلك الترتيبَ في الوجود.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعَهما وخالقَهما. نصب على أنّه صفة للمنادى، أو منادى آخر وَصَفه تعالى به بعد وصفه بالربوبيّة مبالغةً في ترتيب مبادي

[1] يوسف، ١٢/١٣.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/١٧٧.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦. وأوّله إلى عوده إلى مصر في الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٦٠.

ما يعقبه مِن قوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ مالك أموري ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أو الذي يتولّاني بالنعمة فيهما، وإذ قد أتممت عليّ نعمة الدنيا ﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن آبائي، أو بعامّة الصالحين في الرتبة والكرامة، فإنّما تتمّ النعمة بذلك.

قيل: لمّا دعا توفّاه الله عزّ وجلّ طيّبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر في دفنه، وتشاجّوا في ذلك حتّى همّوا بالقتال، فرأَوا أن يصنعوا له تابوتًا مِن مَرمَر فجعلوه فيه، ودفنوه في النيل؛ ليمرّ عليه ثمّ يصل إلى مصر ليَكونوا شرعًا واحدًا في التبرّك به. ووُلِد له أفراييم وميشا، ولأفراييم نون، ولنون يوشع فتى موسى عليه السلام. ولقد توارثت الفراعنة مِن العمالقة بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ / إشارة إلى ما سبق مِن نبأ يوسف. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ مرارًا مِن الدلالة على بُعد منزلته، أو كونه بالانقضاء في حكم البعيد. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم. وهو مبتدأ، خبره ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي لا يحوم حوله أحد. وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر، أو حال مِن الضمير في الخبر. ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمًا موصولًا، و﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ صلته، ويكون الخبر ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾. [٢٢٥ظ]

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ يريد إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ وهو جعلهم إيّاه في غيابة الجُبّ، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ويبغون له الغوائل حتّى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها، وتطّلعَ على سرائرهم طرًّا، وتحيط بما لديهم خُبرًا. وليس المراد مجرّد نفي حضوره عليه السلام في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط؛ بل في سائر المشاهد أيضًا، وإنّما تخصيصه بالذكر لكونه مطلعَ القصّة وأخفى أحوالها، كما يُنبئ عنه قوله: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

والخطاب وإن كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكنّ المراد إلزام المكذّبين، والمعنى: ذلك مِن أنباء الغيب نوحيه إليك؛ إذ لا سبيل إلى معرفتك إيّاه سوى ذلك، إذ عدم سماعك ذلك مِن الغير وعدمُ مطالعتك للكتب أمر لا يَشكّ فيه المكذّبون أيضًا، ولم تكُنْ بَيْن ظهرانِيهم عند وقوع الأمر حتّى تعرفَه كما هو فتبلغَه إليهم. وفيه تهكّم بالكفّار، فكأنّهم يشكّون في ذلك، / فيدفع شكّهم. [٢٢٦و]

وفيه أيضًا إيذان بأنّ ما ذُكر مِن النبأ هو الحقّ المطابق للواقع. وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه. يعني أنّ مثل هذا التحقيق بلا وَحي لا يتصوّر إلّا بالحضور والمشاهدة، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران، ٣/٤٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص، ٢٨/٤٤].

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يريد به العموم أو أهلَ مكّة ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ أي: على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالّة على صدقك ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد.

رُوي أنّ اليهود وقريشًا لمّا سألوا عن قصّة يوسف وَعَدُوا أن يُسلموا، فلمّا أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يُسلموا حَزِن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقيل له ذلك.[١]

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الإنباء، أو على القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن جُعْلٍ كما يفعله حَمَلَة الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظة مِن الله تعالى ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ كافّة، لا أنّ ذلك مختصّ بهم.

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٢/٢٣٧؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤/٢٨٢.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: كأيّ عددٍ شئتَ مِن الآيات والعلامات الدالّة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غيرَ هذه الآية التي جئتَ بها ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٍ فيهما مِن الأجرام الفلكيّة، وما فيها من النجوم وتغيّر أحوالها، ومن الجبال والبحار، وسائر ما في الأرض مِن العجائب الفائتة للحصر ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي: يشاهدونها / ولا يَعْبَئُون بها. [٢٢٦ظ]

وقُرئ برفع ﴿ٱلْأَرْضِ﴾[١] على الابتداء، و﴿يَمُرُّونَ﴾ خبره. وقُرئ بنصبها[٢] على معنى: ويطئون الأرض يمرّون عليها. وفي مصحف عبد الله: "وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا".[٣]

والمراد ما يرون فيها مِن آثار الأمم الهالكة وغيرِ ذلك مِن الآيات والعِبَر ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ غيرَ ناظرين إليها، ولا متفكّرين فيها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره، أو باتّخاذهم الأحْبار والرهبان أربابًا، أو بقولهم باتّخاذه تعالى ولدًا، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، أو بالنور والظلمة. وهي جملة حاليّة، أي: لا يؤمن أكثرهم إلّا في حال شركهم.

قيل: نزلت الآية في أهل مكّة. وقيل: في المنافقين. وقيل: في أهل الكتاب.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٠٧﴾

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأةً مِن غير سابقةِ علامة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدّين لها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وابن عمير وابن فايد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّدّي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٢.

٣ جامع البيان للطبري، ١٣/٣٧٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٨.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالإخلاص. وفسّرها بقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي:[١] بيانٍ وحجّةٍ واضحةٍ غير عمياء. أو هي[٢] حال مِن الضمير في ﴿سَبِيلِىٓ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة.

﴿أَنَا۠﴾ تأكيد للمستكنّ في ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ و﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ لأنّه حال منه، أو مبتدأ خبره
[٢٢٧و] ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. / ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾
مؤكِّد لِما سبق مِن الدعوة إلى الله.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ ردّ لقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٣/٢٤]. ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ كما أوحينا إليك. وقُرئ بالياء.[٣] ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنهم أعلَم وأحلَم. وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن المكذّبين بالرسل والآيات، فيحذروا تكذيبك. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لدار الحال أو[٤] الساعة، أو الحياة الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستعملوا عقولكم؛ لتعرفوا خيريّة دار الآخرة. وقُرئ بـ"الياء"[٥] على أنّه غير داخل تحت ﴿قُلْ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

---

١ ط س – أي.
٢ ط س: وهي.
٣ أي: "يُوحَى" مبنيًا للمفعول. قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٦.
٤ م ط س – لدار الحال أو ["صح" في هامش م].
٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٧.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف دلّ عليه السياق، أي: لا يغرّنّهم تماديهم فيما هم فيه مِن الدَّعة والرخاء، فإنّ مَن قبلهم قد أُمهلوا حتّى أيِس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو مِن إيمانهم لانهماكهم في الكفر، وتماديهم في الطغيان مِن غير وازع.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ كَذَّبَتْهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنّهم يُنصَرون عليهم، أو كذّبهم رجاؤهم، فإنّه يوصف بالصدق والكذب. والمعنى: أنّ مدّة التكذيب والعداوة مِن الكفّار وانتظار النصر مِن الله تعالى قد تطاولت وتمادَت حتّى استشعروا القُنوط، وتوهّموا أن لا نصر لهم في الدنيا.

﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ فجأة، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / «وظنّوا أنّهم قد أُخلِفوا ما وعدَهم الله مِن النصر».[1] فإن صحّ ذلك عنه فلعلّه أراد بالظنّ ما يخطر بالبال من شِبه الوسوسة وحديث النفس، وإنّما عبّر عنه بالظنّ تهويلًا للخطب. وأمّا الظنُّ الذي هو ترجّح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصوّر ذلك مِن آحاد الأمّة، فما ظنّك بالأنبياء عليهم السلام وهم هم، ومنزلتهم في معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم. [٢٢٧ظ]

وقيل: الضميران للمُرسَل إليهم. وقيل: الأوّل لهم، والثاني للرسل.

وقرئ بالتشديد،[2] أي: ظنّ الرسل أنّ القوم كذّبوهم فيما وعدوهم. وقُرئ بالتخفيف على بناء الفاعل،[3] على أنّ الضميرين للرسل، أي: ظنّوا أنّهم كذّبوا عند قومهم فيما حدّثوا به لمّا تراخى عنهم ولم يروا له أثرًا، أو على أنّ الأوّل لقومهم.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ هم الرسل والمؤمنون بهم. وقُرئ: "فَنُنْجِي" على لفظ المستقبل بالتخفيف[4] والتشديد.[5] وقُرئ: "فَنَجَا".[6] ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥١٠/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٩/٣.

٢ أي: "كُذِّبُوا". قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

٣ أي: "كَذَبُوا". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣.

٤ أي: "فَنُنْجِي". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

٥ أي: "فَنُنَجِّي". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني؛ ص ٢٥٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٧/٦.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن ومجاهد وابن السميفع. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٨٩/٣.

إذا نزل بهم. وفيه بيان لِمَن تعلّق بهم المشيئة.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء وأممهم، وينصره قراءة مَن قرأ بكسر القاف،[1] أو قصص يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول المبرّأة عن شوائب أحكام الحسّ.

﴿مَا كَانَ﴾ أي: القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتب السماويّة. وقُرئ بالرفع[2] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا يحتاج إليه في الدين؛ إذ ما مِن أمر ديني إلّا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط. ﴿وَهُدًى﴾ مِن الضلالة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدّقونه لأنّهم المنتفعون به، وأمّا مَن عداهم فلا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون بجَدواه.

[٢٢٨و] / عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «علّموا أرقّاءَكم سورة يوسف، فإنّه أيّما مسلم تلاها وعلّمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكَرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلمًا».[3]

والحمد لله وحده.[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن جَبر الأنطاكي عن الكسائي، والقصبي عن عبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وعمران بن عثمان. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٣.

[3] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٩٦/٥؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٩٩/٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[4] س: والحمد لله ربّ العالمين.

# سُورَةُ يُوسُفَ
## عليه السلام

مكيةٌ كلُّها على المعتمَد، وروي عن ابن عباس وقتادةَ أنهما قالا: إلَّا ثلاثَ آياتٍ من أوَّلها. واستثنى بعضُهم رابعةً، وهي قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ وكلٌّ ذلك واهٍ جدًّا لا يُلتفتُ إليه، وما اعتمدناه كغيرنا هو الثابتُ عن الحبر، وقد أخرجه النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عنه[1]، وأخرجه الأخير عن ابن الزبير[2]، وهو الذي يقتضيه ما أخرجه الحاكم وصحَّحه عن رفاعة بن رافع من حديثٍ طويل يحكي فيه قدومَ رافعٍ مكةَ وإسلامه وتعليم رسول الله ﷺ إياه هذه السورة، و(ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ)[3].

وآيها مئةٌ وإحدى عَشْرةَ آيةً بالإجماع على ما نُقل عن الداني وغيره.

وسببُ نزولها على ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه أنزل القرآن على رسول الله عليه الصلاة والسلام، فتلاه على أصحابه زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قَصَصْتَ علينا. فنزلت[4].

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٧٤، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه السيوطي في الدر ٤/ ٢.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢.

(٣) المستدرك ٤/ ١٤٩ من طريق يحيى بن محمد المدني الشجري، عن عبد بن يحيى، عن معاذ بن رفاعة بن رافع، عن أبيه، وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم بقوله: يحيى الشجري صاحب مناكير. اهـ.

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٩)، وأبو يعلى (٧٤٠)، والبزار (٣٢١٨)، والحاكم ٢/ ٣٤٥، وصححه.

وقيل: هو تسليةُ الرسول ﷺ عمَّا يفعلُه به قومُه بما فعلتْ إخوةُ يوسفَ عليه السلام به.

وقيل: إنَّ اليهود سألوه ﷺ أن يحدِّثهم بأمر يعقوب وولدِه، وشأنِ يوسفَ وما انتهى إليه، فنزلت.

وقيل: إنَّ كفار مكة أمرتهم اليهودُ أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحلّ بني إسرائيل بمصر، فسألوه فنزلت.

ويُبْعِدُ القولين الأخيرين فيما زعموا ما أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» من طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس أنَّ حبراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف، فقال: يا محمد مَن علَّمَكها؟ قال: «اللهُ علَّمنيها» فعَجِبَ الحبرُ لِمَا سمع منه، فرجع إلى اليهود فقال لهم: والله إنَّ محمداً ليقرأ القرآن كما أنزل في التوراة! فانْطَلَقَ بنفرٍ منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوَّة بين كتفيه، فجعلوا يستمعون إلى قراءة سورة يوسف، فتعجَّبوا وأسلموا عند ذلك[1]. وفي القلب من صحة الخبر ما فيه.

ووجهُ مناسبتها للتي قبلها اشتمالُها على شرح ما قاساه بعضُ الأنبياء عليهم السلام من الأقارب، وفي الأُولى ذِكْرُ ما لقُوا من الأجانب.

وأيضاً قد وقع فيما قبلُ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقوله سبحانه: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] ووقع هنا حالُ يعقوب مع أولاده وما صارت إليه عاقبةُ أمرهم مما هو أقوى شاهدٍ على الرحمة.

وقد جاء عن ابن عباس وجابر بن زيد أن «يونس» نزلت، ثم «هود» ثم «يوسف»، وعُدَّ هذا وجهاً آخر من وجوه المناسبة.

---

(١) دلائل النبوة ٦/ ٢٧٦، والكلبي قال عنه الجوزجاني وغيره: كذاب. وقال الدارقطني وجماعة: متروك. الميزان ٣/ ٥٥٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ الكلامُ فيه وفي نظائره شهيرٌ، وقد تقدَّم لك منه ما فيه إقناعٌ، والإشارةُ في قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إليه في قولٍ، وإلى آياتِ هذه السورة في آخر، وأُشيرَ إليها مع أنها لم تُذْكَر بعدُ لتنزيلها لكونها مترقَّبةً منزلةَ المتقدِّم، أو لجعل حضورها في الذهن بمنزلةِ الوجود الخارجيِّ. والإشارةُ بما يُشار به للبعيد: أمَّا على الثاني فلأنَّ ما أُشير إليه لَمَّا لم يكن محسوساً نزِّل منزلةَ البعيد لبُعْدِه عن حيِّز الإشارة أو لعظمِهِ[1] ويُعْدِ مرتبته، وعلى غيره لذلك أو لأنه لَمَّا وصل من المرسِل إلى المرسَلِ إليه صار كالمتباعد.

وزعم بعضهم أنَّ الإشارة إلى ما في اللوح، وهو بعيد، وأبعدُ من ذلك كونُ الإشارة إلى التوراة والإنجيل، أو الآيات التي ذُكرت في سورة هود.

والمرادُ بالكتاب إما هذه السورةُ أو القرآن. وقد تقدَّم لك في «يونس» ما يؤنِسُك تذكُّرُه هنا، فتذكَّرْ.

﴿ٱلْمُبِينِ ①﴾ من أبانَ بمعنى بان، أي: ظهر، فهو لازمٌ، أي: الظاهر أمرُه في كونه من عند الله تعالى وفي إعجازه، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا تَشْتَبِهُ عليهم حقائقُه، ولا تلتبِسُ عليهم دقائقُه، وكأنه على المعنيين حُذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مقامه فارتفع واستتر، ولا يُعدُّ هذا من حَذْفِ الفاعل المحظور، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ الإسناد مجازيٌّ فراراً منه. أو بمعنى بيَّن بمعنى أَظْهَرَ، فهو متعدٌّ والمفعولُ مقدَّرٌ، أي: المُظْهِر ما فيه هدًى ورشدٌ، أو ما سَألتْ عنه اليهود[2]، أو ما أَمَرَتْ أن تُسألَ عنه من السبب الذي أحلَّ بني إسرائيل بمصر، أو الأحكامَ والشرائعَ وخفايا الملك والملكوت وأسرارَ النشأتين، وغيرَ ذلك من الحِكَم والمعارف والقصص.

---

(١) في (م): العظمة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٥١، والكلام منه.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): وفي الكلام على هذا براعة استهلال فافهم. اهـ منه.

وعن ابن عباس ومجاهد الاقتصارُ على الحلال والحرام وما يُحتاج إليه في أمر الدين.

وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان عن معاذٍ ﷺ أنه قال في ذلك: بيَّن الله تعالى فيه الحروفَ التي سقطت عن أَلْسُنِ الأعاجم، وهي ستة أحرف: الطاء، والظاء، والصاد، والضاد، والعين، والحاء المهملتان. والمذكورُ في «الفرهنك» وغيره من الكتب المؤلَّفة في اللغة الفارسية أنَّ الأحرف الساقطة ثمانيةٌ، ونَظَم ذلك بعضُهم فقال:

هَشْتْ حَرْفَسْتْ آنكه أَنْدَرْ فارسي نايْدْهَمِي
تَانَيَاموزِي نَبَاشِي أَنْدَرِين مَعْنى معَافْ
بشنو أكنون تاكدَامَ اسْتْ آن حُرُوف ويَادْ كِيْرْ
ثا وحا وصاد ضاد وطا وظا وعين وقافْ

ومع هذا فالأمرُ مبنيٌّ على الشائع الغالب، وإلَّا فبعضُ هذه الأحرف موجودٌ في بعض كلماتهم كما لا يخفى على المتتبِّع.

ولعل الوصف على الأقوال الأُوَلِ أَمْدَحُ منه على القول الأخير، والظاهرُ أنَّ ذلك وصفٌ له باعتبار الشرف الذاتيِّ، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وصفٌ له باعتبار الشرف الإضافي، وضميرُ الغائب للكتاب السابق ذكرُه، فإنْ كان المراد به القرآنَ كلَّه كما هو الظاهر المناسبُ للحال فذاك، وإن كان المرادُ به هذه السورةَ، فتسميتُه قرآناً لأنه اسمُ جنسٍ يقع على الكثير والقليل، فكما يطلق على الكلِّ يطلق على البعض، نعم إنه غلب على الكلِّ عند الإطلاق معرَّفاً لتبادُرِه، وهل وصل بالغلبة إلى حدِّ العَلَمية أوْ لا؟ فيه خلافٌ، وإلى الأوَّل ذهب البيضاويُّ قدَّسَ سرُّه[1] فتلزمُه الألف واللام، ومع ذلك لم يُهْجَرِ المعنى الأول، ووقع في كتب الأصول أنه وضع تارةً للكلِّ خاصةً، وأخرى لِمَا يعمُّه والبعضَ، أعني الكلامَ المنقول في المصحف تواتراً. ونُظِرَ فيه بأنَّ الغلبة ليس لها وضعٌ ثانٍ، وإنما هي تخصيصٌ لبعض أفراد الموضوع له، ولذا لزمَتِ العَلَمَ بها اللامُ أو الإضافةُ، إلا أنْ

(١) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٥٢.

يُدَّعَى أنَّ فيها وضعاً تقديريًّا، كذا قيل، وممن صرَّح بأنَّ التعيين بالغلبة قسيمٌ للتعيين بالوضع العلَّامةُ الزرقانيُّ وغيره، لكنْ تَعقَّبه الحمصيُّ فقال: إنَّ دلالة الإعلام بالغلبة على تعيين مسمَّاها بالوضع وإن كان غيرَ الوضع الأول، فليتأمَّل.

وعن الزجَّاج وابنِ الأنباريِّ أنَّ الضمير لنبأ يوسف[1]، وإن لم يذكر في النظم الكريم.

وقيل: هو للإنزال المفهوم من الفعل، ونَصْبُه على أنه مفعولٌ مطلقٌ، و«قرآناً» هو المفعولُ به. والقولان ضعيفان كما لا يخفى.

ونصب «قرآناً» على أنه حالٌ وهو بقَطْعِ النظر عمَّا بعده وعن تأويله بالمشتقِّ حالٌ موطِّئةٌ للحال التي هي «عربيًّا»، وإن أوِّل بالمشتقِّ ـ أي: مقروءاً ـ فحالٌ غيرُ موطئة، و«عربيًّا» إما صفتُه على رأي مَن يجوِّز وصفَ الصفة، وإما حالٌ من الضمير المستتر فيه على رأي مَن يقول بتحمُّل المصدر الضميرَ إذا كان مؤوَّلاً باسم المفعول مثلاً.

وقيل: «قرآناً» بدلٌ من الضمير، و«عربيًّا» صفتُه، وظاهرُ صنيع أبي حيان يقتضي اختيارَه[2]. ومعنى كونه عربيًّا أنه منسوبٌ إلى العرب باعتبار أنه نزل بلغتهم، وهي لغةٌ قديمة؛ أخرج ابن عساكر في «التاريخ» عن ابن عباس: أنَّ آدم عليه السلام كان لغتُه في الجنة العربيةَ، فلمَّا أكل الشجرة سُلِبَها فتكلَّم بالسريانية، فلمَّا تاب ردَّها الله تعالى عليه[3].

وقال عبد الملك بن حبيب[4]: كان اللسانُ الأولُ الذي هبط به آدمُ عليه السلام من الجنة عربيًّا، إلى أنْ بَعُدَ وطال العهدُ حرِّف وصار سريانيًّا، وهو منسوبٌ إلى أرض سورية وهي أرضُ الجزيرة، وبها كان نوحٌ عليه السلام وقومُه قبل الغرق، وكان يشاكلُ اللسانَ العربيَّ إلا أنه محرَّفٌ، وكان أيضاً لسانَ جميع مَن في السفينة

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٧، وذكره عنه وعن ابن الأنباري أبو حيان في البحر ٥/ ٢٧٧.
(٢) النهر الماد من البحر ٥/ ٢٧٦، والبحر ٥/ ٢٧٧، ولعل قَصْد المصنف من قوله: وظاهر صنيع أبي حيان. . .، أن أبا حيان لم يذكر في النهر غير البدلية، وقد ذكر في البحر القولين: البدلية والحالية، دون اختيارٍ لأيٍّ منهما.
(٣) تاريخ ابن عساكر ٧/ ٤٠٦-٤٠٧.
(٤) كما في المزهر للسيوطي ١/ ٣٠-٣١، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

إلا رجلاً واحداً يقال له: جرهم، فإنه كان لسانُه العربيَّ الأولَ، فلمَّا خرجوا من السفينة تزوَّج إرمُ بنُ سام بعضَ بناته وصار اللسانُ العربيُّ في ولده عوص أبي عاد وعبيل، وجائر أبي ثمود وجديس، وسمِّيت عادٌ باسم جرهم لأنه كان جدَّهم من الأمِّ، وبقي اللسانُ السريانيُّ في ولد أرفخشد بن سام إلى أن وصل إلى [يشجب بن] قحطان من ذريته وكان باليمن، فنزل هناك بنو إسماعيل عليه السلام فتعلَّم منهم بنو قحطان اللسانَ العربيَّ.

وقال ابن دحيةَ[١]: العربُ أقسام: الأول عاربةٌ وعرباءُ وهم الخلَّص، وهم تسعُ قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح، وهي عاد، وثمود، وأميم، وعبيل، وطسم، وجديس، وعمليق، وجرهم، ووبار، ومنهم تعلَّم إسماعيلُ عليه السلام العربيةَ. والثاني المتعرِّبة؛ قال في «الصحاح»: وهم الذين ليسوا بخلَّصٍ[٢]، وهم بنو قحطان. والثالث المستعربةُ، وهم الذين ليسوا بخلَّصٍ أيضاً، وهم بنو إسماعيل، وهم ولدُ معد بنِ عدنان بن أدد. اهـ.

وقال ابن دريد في «الجمهرة»: العربُ العاربةُ سبعُ قبائلَ: عاد، وثمود، وعمليق، وطسم، وجديس، وأميم، وجاسم، وقد انقرض أكثرهم إلا بقايا متفرِّقين من القبائل، وأولُ مَن انْعدَلَ لسانُه عن السريانية إلى العربية يعرب بنُ قحطان[٣]. وهو مرادُ الجوهريِّ بقوله: إنه أولُ مَن تكلَّم بالعربية[٤].

واستدلَّ بعضُهم على أنه أولُ مَن تكلَّم بها بما أخرجه ابن عساكر في «التاريخ» بسندٍ رواه عن أنس بن مالك موقوفاً ـ ولا أراه يصحُّ ـ ذَكَر فيه تَبلْبُلَ الألسنة ببابل، وأنه أولُ مَن تكلَّم بالعربية[٥].

---

(١) مجد الدين، أبو الخطاب عمر بن حسن بن علي، وكان يذكر أنه من ولد دحية ﷺ، كان بصيراً بالحديث حسن الخط، معروفاً بالضبط، له حَظٌّ وَافٍ من اللغة ومشاركة في العربية، توفي سنة (٦٣٣هـ). سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٨٩. ونقل المصنف كلامه من المزهر ١/ ٣١.

(٢) الصحاح (عرب)، والكلام من المزهر ١/ ٣١.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ٢٦٦، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في المزهر ١/ ٣١-٣٢.

(٤) الصحاح (عرب)، والمزهر ١/ ٣٢.

(٥) تاريخ ابن عساكر ١/ ٣٥٤، والمزهر ١/ ٣٢.

وأخرج الحاكم في «المستدرك» وصححه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» من طريق سفيان الثوريِّ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ إلخ ثم قال: «أُلهم إسماعيل عليه السلام هذا اللسان العربيَّ إلهاماً»[1].

وقال الشيرازيُّ في كتاب «الألقاب»: أخبرنا أحمد بن إسماعيل المعداني[2]، أخبرنا محمد بن أحمد بن إسحاق الماشي، حدثنا محمد بن جابر، حدثنا أبو يوسف بن السكيت قال: حدثني الأثرم، عن أبي عبيدة، حدَّثنا مسمع بن عبد الملك، عن محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه رضي الله عنهم أجمعين، عن النبيِّ ﷺ قال: «أولُ مَن فُتق لسانه بالعربية المبينةِ إسماعيل عليه السلام، وهو ابن أربعَ عَشْرَةَ سنةً»[3]. ورُوي أيضاً عن ابن عباس أنَّ إسماعيل عليه السلام أولُ مَن تكلَّم بالعربية المحضة. وأُريدَ بذلك ـ على ما قاله بعضُ الحفَّاظ ـ عربيةُ قريش[4] التي نزل بها القرآن، وإلَّا فاللغةُ العربيةُ مطلقاً كانت قبل إسماعيل عليه السلام، وكانت لغةَ حمير وقحطان.

وقال محمد بن سلام: أخبرني يونس عن أبي عمرو بن العلاء قال: العربُ كلُّها ولدُ إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم، وقد جاوَرَهم وأَصْهَر إليهم[5].

وذكر ابنُ كثير[6] أنَّ من العرب مَن ليس من ذريته كعادٍ وثمودَ وطَسْمٍ وجَدِيسٍ

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٣٩، والشعب (١٦٢٠)، والمزهر ١/ ٣٣، والكلام منه. وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم بقوله: مدار الحديث على إبراهيم بن إسحاق العسيلي وكان ممن يسرق الحديث.

(٢) في الأصل و(م): المداني، والمثبت من المزهر ١/ ٣٤.

(٣) المزهر ١/ ٣٤، وعزاه السيوطي أيضاً في الجامع الصغير كما في فيض القدير ٢/ ٩٢ للشيرازي في الألقاب من حديث علي ﷺ، ورمز لحسنه، وأخرجه من حديث علي أيضاً الزبير بن بكار في النسب بإسناد حسن كما قال ابن حجر في الفتح ٣/ ٤٣. وعزاه المناوي للطبراني والديلمي من حديث ابن عباس ونقل عن ابن حجر قوله: وإسناده حسن.

(٤) جاء في هامش الأصل و(م): وصححوا أن العربية المحضة كانت بتوقيف منه تعالى لإسماعيل عليه السلام. اهـ منه.

(٥) طبقات فحول الشعراء ١/ ٩، والمزهر ١/ ٣٣.

(٦) في البداية والنهاية ٣/ ١٠٠-١٠٢، ونقله المصنف بواسطة السيوطي في المزهر ١/ ٣٣-٣٤.

وأُميمٍ وجُرْهمٍ والعماليق، وأممٍ غيرِهم لا يعلمهم إلا الله سبحانه كانوا قبل الخليل عليه السلام وفي زمانه، وكانَ عربُ الحجاز من ذريته[1]، وأمَّا عربُ اليمن - وهم حميرُ - فالمشهورُ كما قال ابن ماكولا: أنهم من قحطان واسمه مهرِّم[2]، وهو ابن هود، وقيل: أخوه، وقيل: من ذريته، وقيل: قحطان هو هود. وحكى ابن إسحاق[3] وغيرُه أنه من ذرية إسماعيل.

والجمهورُ على أنَّ العرب القحطانيةَ من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من ذريته عليه السلام[4]، وأنَّ اللغة العربية مطلقاً كانت قبله وهي إحدى اللغاتِ التي عُلِّمها آدم عليه السلام وكان يتكلَّم بها وبغيرها أيضاً، وكثُر تكلُّمه - فيما قيل - بالسريانية.

وادَّعى بعضُهم أنها أولُ اللغات، وأنَّ كلَّ لغةٍ سواها حدثت بعدها إمَّا توقيفاً أو اصطلاحاً، واستدلُّوا على أسبقيتها وجوداً بأنَّ القرآن كلامُ الله تعالى وهو عربيٌّ، وفيه ما فيه.

وهي أفضلُ اللغات، حتى حكى شيخُ الإسلام ابنُ تيمية عن الإمام أبي يوسفَ عليه الرحمةُ كراهةَ التكلُّم بغيرها لمن يُحْسِنُها من غير حاجةٍ[5].

وبعدها في الفضل على ما قيل: الفارسية الدرية[6] حتى روي[7] عن الإمام

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): وذكر بعضهم أنهم كانوا أربعة إخوة: قحطان وقاحط ومقحط وفالغ، وفي قحطان الخلاف. اهـ منه. وينظر المزهر ١/ ٣٤.

(٢) الإكمال لابن ماكولا ٧/ ٣٠٥، وفيه أن مهرِّم براء مشددة مكسورة هو اسم قحطان. وقوله: وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان، ليس من كلام ابن ماكولا كما توهم عبارة المصنف. وجاءت العبارة في البداية والنهاية والمزهر: وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان، واسمه مهرِّم، قاله ابن ماكولا. وتصحفت مهرم إلى مهزم بالزاي في كل من الأصل و(م)، ومطبوع البداية والنهاية والمزهر.

(٣) كما في سيرة ابن هشام ١/ ٧.

(٤) إلى هذا الموضع ينتهي كلام ابن كثير.

(٥) ذكر ذلك ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٦٤ عن بعض الصحابة والتابعين، وذكره أيضاً عن الشافعي، ولم نقف فيه على نقل عن أبي يوسف في هذه المسألة.

(٦) أي: الفصيحة. ينظر حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٣.

(٧) جاء عندها في هامش الأصل: وفي رواية عنه أنه لا فرق في ذلك بين الفارسية وغيرها من اللغات. اهـ منه. ووقع هذا في حاشية (م) عند قوله: الدرية.

أبي حنيفةَ ﷺ جوازُ قراءة القرآن بها، سواءٌ في ذلك ما كان ثناءً كالإخلاص وغيره، وسواءٌ كانت عن عَجْزٍ عن العربية أم لا، وروي عن صاحبيه جوازُ القراءة في الصلاة بغير العربية لمن لا يُحْسِنُها[١].

وفي «النهاية»[٢] و«الدراية»[٣] أنَّ أهل فارس كتبوا إلى سلمان الفارسيِّ أن يكتب لهم الفاتحةَ بالفارسية فكتب، فكانوا يقرؤون ما كتب في الصلاة حتى لانت ألسنتُهم، وقد عَرَضَ ذلك على النبيِّ عليه الصلاة والسلام ولم ينكِرْ عليه[٤]. نعم الصحيحُ أنَّ الإمام رجع عن ذلك[٥].

وفي «النفحة القدسية في أحكام قراءة القرآن وكتابته بالفارسية» للشرنبلالي ما ملخَّصُه: حرمةُ كتابةِ القرآن بالفارسية إلَّا أن يُكْتب[٦] بالعربية ويُكتَبَ تفسيرُ كلِّ حرفٍ وترجمتُه، وحرمةُ مسِّه لغيرِ الطاهر اتِّفاقاً كقراءته، وعدمُ صحة الصلاة بافتتاحها بالفارسية، وعدمُ صحتها بالقراءة بها إذا كانت ثناءً واقتصاره عليها مع القدرة على العربية، وعدمُ الفساد بما هو ذِكْرٌ وفسادُها بما ليس ذكراً بمجرَّد قراءته، ولا يخرج عن كونه أميًّا وهو يعلم الفارسية فقط، وتصحُّ الصلاة بدون قراءةٍ للعجز عن العربية على الصحيح عند الإمام وصاحبيه. وأطال الكلام في ذلك.

وفي «معراج الدراية»[٧]: مَن تعمَّد قراءةَ القرآن أو كتابتَه بالفارسية فهو مجنونٌ

---

(١) ينظر قول أبي حنيفة وقول صاحبيه في المبسوط ١/ ٣٧.

(٢) النهاية شرح الهداية لحسام الدين حسين بن علي الحنفي المتوفى سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٢.

(٣) الدراية شرح الهداية لأبي عبد الله محمد بن مباركشاه بن محمد الملقب بمعين الهروي. كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٨.

(٤) ذكره السرخسي في المبسوط ١/ ٣٧ دون قوله: وقد عرض ذلك على النبي ﷺ ولم ينكر عليه.

(٥) قال الحصكفي في الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٤: الأصح رجوعه إلى قولهما وعليه الفتوى. اهـ. وقال صاحب الهداية: وعليه الاعتماد. البناية في شرح الهداية ٢/ ١٢٩.

(٦) في (م): يكتبه.

(٧) معراج الدراية إلى شرح الهداية لقوام الدين محمد بن محمد البخاري الكاكي، المتوفى سنة (٧٤٩هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٣.

أو زنديقٌ، والمجنونُ يُدَاوَى والزنديقُ يقتل، وروي ذلك عن أبي بكر محمد بن الفضل البخاري، ومع هذا لا ينكَرُ فضلُ الفارسية، ففي الحديث: «لسانُ أهل الجنة العربيُّ والفارسيُّ الدرِّيُّ»(١)، وقد اشتهر ذلك لكن ذكر الذهبي في «تاريخه» عن سفيان أنه قال: بَلَغنا أنَّ الناس يتكلَّمون يومَ القيامة بالسريانية، فإذا دخلوا الجنةَ تكلَّموا بالعربية.

وأخرج الطبرانيُّ والحاكم والبيهقيُّ وآخرون عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحِبُّوا العربَ لثلاثٍ: لأنِّي عربيٌّ، والقرآنُ عربيٌّ، وكلامُ أهلِ الجنة عربيٌّ»(٢).

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة ما يعضده(٣).

ولا يخفى على الخبير بمزايا الكلام أنَّ في الكلام العربيِّ من لطائف المعاني ودقائق الأسرار ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ، ويليه في ذلك الكلامُ الفارسيُّ(٤)، فإنْ كان هذا مدارَ الفضل فلا ينبغي أن يتنازع اثنان في أفضلية العربيِّ ثم الفارسيِّ مما وصل إلينا من اللغات، وإن كان شيئاً آخَرَ فالظاهرُ وجودُه في العربيِّ الذي اختار سبحانه إنزال القرآن به لا غير.

وقد قُسِمَ لنبيِّنا ﷺ من هذا اللسان ما لم يُقْسَم لأحدٍ من فُصَحاءِ العرب، فقد أخرج ابنُ عساكر في «تاريخه» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، ما لَكَ أفصحُنا ولم تخرجْ من بين أظهرنا؟ قال: «كانت لغةُ إسماعيل قد دَرَسَتْ، فجاء بها جبريلُ عليه السلام فحفَّظنيها فحفِظْتُها»(٥).

---

(١) ذكره الحصكفي في الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ١/ ٤٨٣، وهو حديث موضوع كما في الأسرار المرفوعة للملا علي القاري ص٢٧٧.

(٢) المعجم الكبير (١١٤٤١)، والمستدرك ٤/ ٨٧، وشعب الإيمان (١٦١٠). قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ٣٧٥: هذا حديث كذب.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٩١٤٧) ولفظه: «أنا عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٥٣: فيه عبد العزيز بن عمران، وهو متروك.

(٤) جاء في هامش الأصل و(م): وكذا في العربي ثم الفارسي من الاتساع ما لا يخفى. اهـ منه.

(٥) تاريخ ابن عساكر ٤/ ٣-٤ من طريق حامد بن أبي حمزة، عن علي بن الحسين بن واقد، =

وأخرج البيهقيُّ من طريق موسى بن محمد[١] بن إبراهيم بن الحارث التيميِّ، عن أبيه من حديثٍ فيه طولٌ: قال رجل: يا رسول الله ما أَفْصَحَكَ، ما رأينا الذي هو أعربُ منك! قال: «حقَّ لي، فإنما أُنزل القرآن عليَّ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ»[٢].

هذا وجوِّز أن يكون العربيُّ منسوباً إلى عربة، وهي ناحيةُ دار إسماعيل عليه السلام؛ قال الشاعر:

وعَـرْبَـةُ أرضٌ مـا يُـحِـلُّ حـرامَـهـا    من الناس إلَّا اللَّوْذعيُّ الحلاحِلُ[٣]

والمراد لغةُ أهل هذه الناحية.

واستدلَّ جماعةٌ منهم الشافعيُّ ﷺ وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر بوصفِ القرآن بكونه عربيًّا على أنه لا معرَّبَ فيه[٤]، وشدَّد الشافعيُّ النكير على مَن زعم وقوعَ ذلك فيه، وكذا أبو عبيدةَ فإنه قال: مَن زعم أنَّ فيه غيرَ العربية فقد أَعْظَمَ القول[٥].

ووجَّه ابن جرير ما ورد عن ابن عباس وغيره في تفسير ألفاظ منه أنها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية كذا، بأنَّ ذلك مِمَّا اتَّفق فيه توارُدُ اللغات[٦].

---

= عن أبيه، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، عن عمر ﷺ أنه قال...، وهو بهذا الإسناد في معرفة علوم الحديث للحاكم ص١١٦، وجزء ابن الغطريف (٥١). وذكر الحاكم وابن عساكر أن لهذا الحديث علة عجيبة، وهي أن علي بن خشرم المروزي رواه عن علي بن الحسين بن واقد قال: بلغني أن عمر قال...، وذكره.

(١) في الأصل و(م): من طريق يونس عن محمد، وفي المزهر ١/ ٣٥ (والكلام منه): من طريق يونس بن محمد، والمثبت من شعب الإيمان (١٤٣١)، ومثله في العظمة (٧٢٠)، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٨. وينظر تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٠٤.

(٢) حديث ضعيف لإرساله، محمد بن إبراهيم التيمي تابعي، كما أن ابنه موسى منكر الحديث كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٣) البيت لأبي طالب كما في معجم البلدان ٤/ ٩٧.

(٤) الرسالة للشافعي ص٤١-٤٢، وتفسير الطبري ١/ ١٥، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٧، والتقريب للقاضي أبي بكر الباقلاني ١/ ٣٩٩، وذكره عنهم الزركشي في البرهان ١/ ٢٨٧، والسيوطي في الإتقان ١/ ٤٢٧، والكلام منه.

(٥) مجاز القرآن ١/ ١٧.

(٦) تفسير الطبري ١/ ١٥.

وقال غيره: بل كان للعرب التي نزل القرآن بلغتهم بعضُ مخالطةٍ لأهل سائر الألسنة في أسفارٍ لهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظٌ غيِّرت بعضَها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاورتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان، وعلى هذا الحدِّ نزل بها القرآن.

وقال آخرون: كلُّ تلك الألفاظ عربيةٌ صرفة، ولكن لغة العرب متسعةٌ جدًّا ولا يبعُدُ أن تَخفَى على الأكابر الأجلَّة، وقد خفي على ابن عباس معنى «فاطر» و«فاتح»[(١)]، ومن هنا قال الشافعيُّ في «الرسالة»: لا يحيطُ باللغة إلا نبيٌّ[(٢)].

وذهب جمعٌ إلى وقوع غير العربيِّ فيه، وأجابوا عن الآية بأنَّ الكلمات اليسيرةَ بغير العربيةِ لا تُخْرِجُه عن العربية، فالقصيدةُ الفارسيةُ لا تَخْرجُ عن كونها فارسيةً بلفظةٍ عربيةٍ.

وقال غير واحد: المراد أنه عربيُّ الأسلوب، واستدلُّوا باتِّفاق النحاة على أنَّ مَنْعَ صَرْفِ نَحْوِ إبراهيم للعَلَمية والعُجمة. ورُدَّ بأنَّ الأعلام ليست محلَّ خلافٍ وإنما الخلافُ في غيرها. وأجيب بأنه إذا اتُّفق على وقوع الأعلام فلا مانعَ من وقوع الأجناس، ونُظر فيه.

واختار الجلال السيوطيُّ القولَ بالوقوع، واستدلَّ عليه بما صحَّ عن أبي ميسرة التابعيِّ الجليل أنه قال: في القرآن من كلِّ لسانٍ. وروي مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبِّهٍ. وذكر أن حكمة وقوع تلك الألفاظ فيه أنه حوى علومَ الأوَّلين والآخِرين ونبأ كلِّ شيءٍ، فلا بد أن تقع فيه الإشارةُ إلى أنواع اللغات لتَتِمَّ إحاطتُه بكلِّ شيءٍ، فاختير له من كلِّ لغةٍ أعذبُها وأخفُّها وأكثرُها استعمالاً للعرب، وأيضاً لَمَّا كان النبيُّ ﷺ مرسَلاً إلى كلِّ أمةٍ ناسَبَ أن يكون في كتابه المبعوثِ به من لسان كلِّ قومٍ شيءٌ، وقد أشار إلى الوجه الأول ابنُ النقيب[(٣)].

---

(١) قال ابن عباس: ما كنت أدري ما «فاطر السماوات والأرض» حتى أتاني أعرابيان مختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يعني ابتدأتها. وقال: ما كنت أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهي تقول: تعال أفاتحك، أي: أقاضيك. البرهان ١/ ٢٩٣.

(٢) الرسالة ص٤٢.

(٣) الإتقان ١/ ٤١٠.

وقال أبو عبيد[١] القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنعِ عن أهل العربية: الصوابُ تصديقُ القولين جميعاً، وذلك أنَّ هذه الأحرفَ أصولَها عجميةٌ كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب فعرَّبتها بألسنتها، وحوَّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربيةً، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الأحرف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربيةٌ، فهو صادق، ومَن قال: إنها أعجمية فهو صادقٌ. ومال إلى هذا القول الجواليقيُّ وابن الجوزي[٢] وآخرون، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام ما يتعلق بهذا المبحث أيضاً فليتفطن وليتأمل.

واحتج الجبائيُّ[٣] بالآية على كون القرآن مخلوقاً من أربعة أوجُهٍ:

الأولُ: وَصْفُه بالإنزال، والقديم لا يجوزُ عليه ذلك.

الثاني: وَصْفُه بكونه عربيًّا، والقديم لا يكون عربيًّا ولا فارسيًّا.

الثالث: أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يدلُّ على أنه سبحانه قادرٌ على إنزاله غيرَ عربيٍّ، وهو ظاهرُ الدلالة على حدوثه.

الرابع: أن قوله عز شأنه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يدل على تركُّبه من الآيات والكلمات، وكلُّ ما كان مركَّبًا كان مُحْدَثاً، ضرورةَ أنَّ الجزء الثانيَ غيرُ موجودٍ حالَ وجود الجزء الأول.

وأجاب الأشاعرة عن ذلك كلِّه بأنَّ قصارى ما يلزمُ منه أنَّ المركَّب من الحروف والكلمات محدَثٌ، وذلك مما لا نزاع لنا فيه، والذي ندَّعي قدمَه شيءٌ آخرُ نسمِّيه الكلامَ النفسيَّ، وهو مما لا يتَّصفُ بالإنزال ولا بكونه عربيًّا ولا غيره؛ ولا بكونه مركَّبًا من الحروف ولا غيرِها.

وقد تقدَّم لك في المقدِّمات ما ينفعُكَ هنا[٤]، فلا تغفل.

---

(١) في الأصل و(م): أبو عبد الله، والمثبت من الإتقان ١/ ٤٣٠، وهو الصواب.

(٢) في الأصل و(م): وابن الجزري، والمثبت من الإتقان ١/ ٤٣٠، وينظر زاد المسير ٤/ ١٧٨.

(٣) كما في تفسير الرازي ١٨/ ٨٤.

(٤) ينظر ما سلف ١/ ١١٦ وما بعدها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ أي: لكي تفهموا معانِيَه وتحيطوا بما فيه من البدائع، أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أنه خارجٌ عن طوق البشر، مشتمِلٌ على ما يشهد له أنه منزَّلٌ من عند خلَّاق القوى والقُدَر، وهذا بيانٌ لحكمة إنزاله بتلك الصفة، وصرَّح غير واحدٍ أنَّ «لعل» مستعملةٌ بمعنى لام التعليل على طريق الاستعارة التبعية، ومراده من ذلك ظاهر، وجَعْلُها للرجاء من جانب المخاطبين وإن كان جائزاً لا يناسب المقام.

وزعم الجبائيُّ أنَّ المعنى: أنزله لتعقلوا معانيه في أمر الدِّين، فتعرفوا الأدلَّة الدالَّة على توحيده وما كلَّفكم به، وفيه دليلٌ على أنه تعالى أراد من الكلِّ الإيمانَ والعملَ الصالح، مَن حَصَلَ منه ذلك ومَن لم يحصلْ. وفيه أنه بمعزلٍ عن الاستدلال به على ما ذكر كما لا يخفى.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نُخبرك ونحدِّثك، من قَصَّ أثره: إذا اتَّبعه، كأنَّ المحدِّث يتَّبع ما حدَّثَ به وذَكَرَه شيئاً فشيئاً، ومثلُ ذلك: تَلَى.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي: أحسن الاقتصاص، فنَصْبُه على المصدرية إمَّا لإضافته إلى المصدر، أو لكونه في الأصل صفةَ مصدرٍ، أي: قَصَصاً أحسنَ القصص، وفيه مع بيان الواقع إيهامٌ لِمَا في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل، والمفعولُ به محذوفٌ، أي: مضمونَ هذا القرآن، والمراد به هذه السورة، وكذا في قوله عز وجل: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي: بسبب إيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ﴾ والتعرُّضُ لعنوان قرآنيتها لتحقيق أنَّ الاقتصاص ليس بطريق الإلهام أو الوحي غير المتلوِّ.

ولعل كلمة «هذا» للإيماء إلى تعظيم المشار إليه، وقيل: فيها إيماءٌ إلى مغايرة «هذا القرآن» لِمَا في قوله تعالى: (قُرْءَانًا عَرَبِيًّا) بأنْ يكون المراد بذلك المجموعَ، وفيه تأمل.

وأحسنيتُه لأنه قد قُصَّ على أبدع الطرائق الرائقة، وأعجبِ الأساليب الفائقة اللائقة، كما لا يكاد يخفى على مَن طالع القصة من كتب الأولين، وإن كان لا يميِّز الغثَّ من السمين، ولا يفرِّقُ بين الشمال واليمين.

وجوِّز أن يكون هذا المذكورُ مفعولَ «نقصُّ». وصرَّح غيرُ واحدٍ أنَّ الآية من

باب تنازُع الفعلين، والمذهبُ البصريُّ أولى هنا: أمَّا لفظاً فظاهرٌ، وأما معنًى فلأنَّ القرآن كما سمعتَ السورةُ، وإيقاعُ الإيحاء عليها أظهرُ من إيقاع «نقصُّ» باعتبار اشتمالها على القصة، وما هو أظهر أولى بإعمالِ صريحِ الفعل فيه، وفيه من تفخيم القرآن وإحضار ما فيه من الإعجاز وحُسْنِ البيان ما ليس في إعمال «نقصُّ» صريحاً.

وجوَّز تنزيلُ أحدِ الفعلين منزلةَ اللازم. ويجوز أن يكون «أحسن» مفعولاً به لـ «نقصُّ»، والقصصُ: إما فَعَلٌ بمعنى مفعول كالنبأ والخبر، أو مصدرٌ سمِّي به المفعول كالخلق والصيد، أي: نقصُّ عليك أحسنَ ما يُقَصُّ من الأنباء، وهي قصةُ آل يعقوبَ عليه السلام.

ووجهُ أحسنيتها: اشتمالُها على حاسدٍ ومحسود، ومالكٍ ومملوك، وشاهدٍ ومشهود، وعاشقٍ ومعشوق، وحَبْسٍ وإطلاق، وخِصْبٍ وجَدْبٍ، وذنبٍ وعفو، وفراقٍ ووصال، وسَقَم وصحة، وحلٍّ وارتحال، وذلٍّ وعزٍّ، وقد أفادت أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانعَ من قدره، وأنه سبحانه إذا قضى لإنسانٍ بخيرٍ ومَكْرُمةٍ فلو أنَّ أهل العالم اجتمعوا على دفع ذلك لم يقدروا، وأن الحسد سببُ الخذلان والنقصان، وأنَّ الصبر مفتاحُ الفَرَجِ، وأنَّ التدبير من العقل وبه يصلُح أمرُ المعاش، إلى غير ذلك مما يعجز عن بيانه بنانُ التحرير.

وقيل: إنما كانت «أحسن» لأنَّ غالب مَن ذكر فيها كان مآلُه إلى السعادة.

وقيل: المقصوصُ أخبارُ الأمم السالفة والقرونِ الماضية، لا قصةُ آل يعقوب فقط، والمرادُ بهذا القرآن ما اشتمل على ذلك، و«أحسن» ليس أفعل تفضيل بل هو بمعنى حَسَنٍ، كأنه قيل: حَسَنَ القصص، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: القَصَصَ الحَسَنَ، والمعوَّل[1] عليه عند الجمهور ما ذكرنا.

قيل: ولكونها بتلك المثابة من الحسن تتوفَّر الدواعي إلى نقلها، ولذا لم تتكرَّر كغيرها من القصص. وقيل: سببُ ذلك من افتتان امرأةٍ ونسوةٍ بأبدع الناس جمالاً، ويناسب ذلك عدم التكرار لِمَا فيه من الإغضاء والستر، وقد صحَّح الحاكم في

---

(١) في (م): والقول.

«مستدركه» حديثَ النهي عن تعليم النساء سورة يوسف[(١)].

وقال الأستاذ أبو إسحاق: إنما كرَّر الله تعالى قصص الأنبياء وساق هذه القصة مساقاً واحداً إشارةً إلى عجز العرب، كأن النبيَّ ﷺ قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي فافعلوا في قصة يوسف ما فعلتُ في سائر القصص[(٢)]. وهو وجهٌ حسن إلا أنه يبقى على أنَّ تخصيص سورة يوسف لذلك يحتاجُ إلى بيانٍ، فإنَّ سوق قصة آدم عليه السلام مثلاً مساقاً واحداً يتضمَّنُ الإشارة إلى ذلك أيضاً بعين ما ذكر.

وقال الجلال السيوطي: ظهر لي وجهٌ في سَوْقها كذلك، وهو أنها نزلتْ بسبب طلب الصحابة أن يقصَّ عليهم، فنزلت مبسوطةً تامةً ليحصل لهم مقصودُ القصص: من الاستيعاب، وترويحِ النفس بالإحاطة[(٣)].

ولا يَخْفَى ما فيه، وكأنه لذلك قال: وأقوى ما يُجاب به أنَّ قصص الأنبياء إنما كرِّرت لأنَّ المقصود بها إفادةُ إهلاك مَن كذَّبوا رسلَهم، والحاجةُ داعيةٌ إلى ذلك، كتكرير تكذيب الكفار للرسول ﷺ، فكلَّما كذَّبوا أُنزلت قصةٌ منذِرةٌ بحلول العذاب كما حلَّ بالمكذِّبين، ولهذا قال سبحانه في آيات: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦] وقصةُ يوسف لم يقصد منها ذلك. وبهذا أيضاً يَحْصلُ الجوابُ عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح.

ثم قال: فإن قلت: قد تكرَّرتْ قصةُ ولادة يحيى وولادةِ عيسى عليهما السلام مرتين، وليست من قبيل ما ذكَرْتَ.

قلت: الأُولى في سورة «كهيعص»، وهي مكيةٌ أنزلت خطاباً لأهل مكة، والثانية في سورة آل عمران وهي مدنية أنزلت خطاباً لليهود ولنصارى نجران حين قَدِموا، ولهذا اتَّصل بها[(٤)] ذكر المحاجَّة والمباهلة. اهـ.

---

(١) لم نقف عليه في المستدرك، وعزاه إليه الزركشي في البرهان ٣/ ٢٩، والسيوطي في الإتقان ٢/ ٨٥٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) الإتقان ٢/ ٨٥٤.

(٣) الإتقان ٢/ ٨٥٤-٨٥٥، وفيه: وترويح النفس بها والإحاطة بطرفيها.

(٤) في الأصل و(م): بهذا، والمثبت من الإتقان ٢٠/ ٨٥٥.

واعتُرِض بأنَّ قصة آدم عليه السلام كرِّرت مع أنه ليس المقصودُ بها إفادةَ إهلاكِ مَن كذَّبوا رسلهم.

وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أنَّ فيها من الزجر عن المعصية ما فيها، فهي أشبهُ قصةٍ بتلك القصص التي كرِّرت لذلك. فافهم.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: قبل إيحائنا إليك ذلك ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ عنه، لم يخطر ببالك ولم يَقْرَعْ سَمْعكَ، وهذا تعليلٌ لكونه موحًى كما ذكره بعض المحقِّقين، والأكثرُ في مثله تركُ الواو.

والتعبيرُ عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبيِّ ﷺ، وكذا العدولُ عن: لغافلاً، إلى ما في النظم الجليل عند بعضٍ. ويمكن أن يقال: إنَّ الشيء إذا كان بديعاً وفيه نوعُ غرابةٍ إذا وقف عليه قيل للمخاطب: كنت عن هذا غافلاً، فيجوز أن يقصد الإشارةُ إلى غرابة تلك القصة، فيكون كالتأكيد لِمَا تقدَّم، إلا أنَّ فيه ما لا يخفى.

و«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، واسمُها ضميرُ الشأن واللامُ فارِقةٌ، وجملةُ «كنتَ» إلخ خبرُ «إنْ».

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ نصبٌ بإضمار اذكر بناءً على تصرُّفها، وذِكْرُ الوقت كنايةٌ عن ذِكْرِ ما حَدَثَ فيه، والكلامُ شروعٌ في إنجاز ما وعد سبحانه.

وحكى مكِّي أنَّ العامل في «إذ»: «الغافلين»[١]. وقال ابن عطية: يجوز أن يكون العامل فيها «نقصُّ». وروي ذلك عن الزجَّاج، على معنى: نقصُّ عليك الحال إذ... إلخ[٢]، وهي للوقت المطلق المجرَّد عن اعتبار المضيِّ. وفي كِلَا الوجهين ما فيه.

واستظهر أبو حيان بقاءها على معناها الأصليِّ، وأن العامل فيها: «قال يا بني»، كما تقول: إذ قام زيد قام عمرو[٣]. ولا يخلو عن بُعْدٍ.

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ١/ ٣٧٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٨.
(٣) البحر ٥/ ٢٧٩.

وجوَّز الزمخشريُّ كونَها بدلاً من «أحسن القصص» على تقدير جَعْلِه مفعولاً به، وهو بدلُ اشتمال[١].

وأُورد: أنه إذا كان بدلاً من المفعول يكون الوقتُ مقصوصاً، ولا معنى له.

وأجيب: بأنَّ المراد لازمُه وهو اقتصاصُ قول يوسف عليه السلام، فإن اقتصاص وقتِ القول ملزومٌ لاقتصاص القول.

واعترض بأنه يكون بدلَ بعضٍ أو كلٍّ لا اشتمالٍ.

وأجيب بأنه إنما يلزمُ ما ذكر لو كان الوقتُ بمعنى القول وهو إما عينُ المقصوص أو بعضُه، أمَّا لو بقي على معناه وجُعل مقصوصاً باعتبار ما فيه فلا يَرِدُ الاعتراض.

هذا ولم يجوِّزوا البدليةَ على تقدير نصب «أحسنَ القصص» على المصدرية، وعلَّل ذلك بعدم صحة المعنى حينئذ، وبقيام المانع عربيةً، أما الأول فلأنَّ المقصوص في ذلك الوقتُ لا الاقتصاصُ. وأما الثاني فلأنَّ أحسن الاقتصاص مصدرٌ، فلو كان الظرف بدلاً وهو المقصود بالنسبة لكان مصدراً أيضاً، وهو غيرُ جائزٍ لعدم صحة تأويله بالفعل.

وأُورد على هذا أنَّ المصدر كما يكون ظرفاً، نحو: أتيتُكَ طلوعَ الشمس، يكونُ الظرفُ أيضاً مصدراً ومفعولاً مطلقاً لسدِّه مسدَّ المصدر، كما في قوله:

أَلـم تَـغْـتَـمِـضْ عـيـنـاك لـيـلـةَ أَرْمَـدَا[٢]

فإنهم صرَّحوا ـ كما في «التسهيل»[٣] وشروحه ـ أنَّ ليلةَ مفعولٌ مطلقٌ، أي: اغتماضَ ليلة، وما ذكر من حديث التأويل بالفعل فهو من الأوهام الفارغة، نعم إذا ناب عن المصدر ففي كونه بدلَ اشتمالٍ شبهةٌ، وهو شيءٌ آخَرُ غيرُ ما ذكر.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٠١.

(٢) وعجزه: وعادك ما عاد السليم المسهَّدا، والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٤٥، وصدره في حاشية الشهاب ٥/ ١٥٣ والكلام منه. ووقع في الأصل و(م): لم، بدل: ألم، والمثبت من الديوان وحاشية الشهاب.

(٣) ينظر التسهيل ص٨٧، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١٥٣.

وعلى الأول أنه و إن لم يشتمل الوقتُ على الاقتصاص فهو مشتملٌ على المقصوص، فلِمَ لَمْ تجز البدليةُ بهذه الملابسة؟ وردَّ بأنَّ مثل هذه الملابسة لا تصحِّحُ البدلية.

ونُقل عن الرضيِّ[١] أنَّ الاشتمال ليس كاشتمال الظرف على المظروف، بل كونه دالًّا عليه إجمالاً ومتقاضياً له بوجهٍ ما، بحيث تبقى النفس عند ذكر الأول متشوِّقةً إلى الثاني منتظرةً له، فيجيء الثاني مبيِّناً لِمَا أُجمل فيه، فإنْ لم يكن كذلك يكن بدلَ غلطٍ، وعلى هذا يقال في عدم صحة البدلية: إنَّ النفس إنما تتشوَّقُ لذكر وقتِ الشيء لا لذكر وقت لازمه، ووقتُ القول ليس وقتاً للاقتصاص.

و«يوسف» عَلَمٌ أعجميٌّ لا عربيٌّ مشتقٌّ من الأسف، وسمي به لأَسَفِ أبيه عليه، أو أسفِه على أبيه، أو أسفِ مَن يراه على مفارقته لمزيدِ حُسْنِه كما قيل، وإلا لانْصَرفَ لأنه ليس فيه غيرُ العَلَميةِ، ولا يُتَوَهَّمنَّ أنَّ فيه وزنَ الفعل أيضاً؛ إذ ليس لنا فعلٌ مضارعٌ مضمومُ الأول والثالث، وكذا يقال في يونس.

وقرئ بفتح السين وكسرها[٢] على ما هو الشائع في الأسماء الأعجمية من التغيير، لا على أنه مضارعٌ بني للمفعول أو للفاعل من آسَفَ؛ لأنَّ القراءة المشهورة شهدت بعَجَميته، ولا يجوز أن يكون أعجميًّا وغيرَ أعجميٍّ؛ قاله غيرُ واحدٍ، لكن في «الصحاح»: أنَّ يعفر والد الأسود الشاعر إذا قلتَه بفتح الياء لم تَصْرِفْه لأنه مثلُ يَقْتُل، وقال يونس: سمعتُ رؤبة يقول: أسود بن يُعفُر بضم الياء، وهذا ينصرفُ لأنه قد زال عنه شَبَهُ الفعل[٣]. اهـ.

وصرَّحوا بأنَّ هذا مذهبُ سيبويه، وأنَّ الأخفش خالفه فمنع صَرْفَه لعروض الضمِّ للإتْباع، وعلى هذا يحتمل أن يقال: إنه عربيٌّ ومُنع من الصرف على قراءة الفتح والكسر للعَلَمية ووزنِ الفعل، وكذا على قراءة الضمِّ بناءً على ما يقوله الأخفش، ويلتزم كونُ ضمِّ ثالثه إتْباعاً لضمِّ أوَّله.

---

(١) نقله الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥٣.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٢، والكشاف ٢/ ٣٠١.
(٣) الصحاح (عفر).

وأُجيبَ بأنه لو كان عربيًّا لوقع فيه الخلافُ كما وقع في يعفر، والظاهرُ أنَّ أعجميته متحقِّقةٌ عندهم، ولذا التزموا مَنْعَه من الصرف لها وللعَلَمية، ولا التفاتَ لذلك الاحتمال.

وقرأ طلحةُ بنُ مصرِّفٍ: «يؤسَف» بالهمز وفتح السين. وقد جاء فيه الضمُّ والكسر مع الهمز أيضاً، فيكون فيه ستُّ لغاتٍ[١].

﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاق بنِ إبراهيم»[٢]:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى نوراً ومن ضوء الصباح عمودا[٣]

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصلُه: يا أبي، فعوِّض عن الياء تاءُ التأنيث؛ لتناسُبِهما في كونِ كلٍّ منهما من حروف الزيادة ويضمُّ إلى الاسم في آخره، ولهذا قَلَبها هاءً في الوقف ابنُ كثير وابن عامر[٤]، وخالف الباقون فأبقَوْها تاءً في الوقف. وكُسِرتْ لأنها عوضٌ عن الياء التي هي أختُ الكسرة، فحرِّكت بحركةٍ تناسبُ أصلَها، لا لتدلَّ على الياء ليكون ذلك كالجمع بين عوضين أو بين العوض والمعوَّض. وجعل الزمخشريُّ هذه الكسرةَ كسرةَ الياء زُحلقت إلى التاء لَمَّا فُتح ما قبلها للزوم فَتْحِ ما قبل التأنيث[٥].

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج بفتحها[٦]؛ لأنَّ أصلها وهو الياء إذا حرِّك حرِّك بالفتح.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، وذكر النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠ عن طلحة أنه قرأ بالهمز مع كسر السين.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٩٠)، وهو عند أحمد (٥٧١٢).

(٣) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٤١٣.

(٤) التيسير ص٦٠ و ١٢٧.

(٥) الكشاف ٢/ ٣٠١.

(٦) التيسير ص١٢٧ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٢٩٣ عنه وعن أبي جعفر. وجاء في حاشية (م): المروي عن ابن عامر أنه قرأ به في كل القرآن. اهـ منه. قلنا: وكذا قرأ أبو جعفر بفتح التاء حيث جاء كما ذكر صاحب النشر.

وقيل: لأنَّ أصل «يا أبت»: يا أبتا، بأن قُلبت الياء ألفاً ثم حُذفت وأبقيتْ فتحتُها دليلاً عليها.

وتعقِّب بأنَّ يا أبتا ضعيفٌ[(١)] ك: يا أبتي، حتى قيل: إنه يختصُّ بالضرورة كقوله:

يـــا أبـــتـــا عـــلَّـــك أو عـــســـاكـــا[(٢)]

وقال الفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم: إنَّ الألف المحذوفةَ من يا أبتا للندبة[(٣)]. ورُدَّ بأنَّ الموضع ليس موضعَ ندبة.

وعن قطرب أنَّ الأصل يا أبةً بالتنوين، فحذف، والنداءُ بابُ حذفٍ. وردَّ بأن التنوينَ لا يُحذف من المنادى المنصوب، نحو: يا ضارباً رجلاً.

وقرئ بضمِّ التاء[(٤)] إجراءً لها مجرى الأسماء المؤنَّثة بالتاء من غير اعتبارِ التعويض، وأنت تعلم أنَّ ضم المنادى المضافِ شاذٌّ.

وإنما لم تسكَّن مع أن الياء التي وقعت هي عوضاً عنها تسكَّن؛ لأنها حرفٌ صحيحٌ منزَّلٌ منزلةَ الاسم فيجب تحريكُها ككاف الخطاب.

وزعم بعضهم أن الياء أُبدلت تاءً لأنها تدلُّ على المبالغة والتعظيم في نحو: علَّامة ونسَّابة، والأبُ والأمُّ مَظِنةُ التعظيم. فعلى هذا لا حذفَ ولا تعويضَ، والتاءُ حينئذٍ اسم، فقد صرَّحوا أنَّ الاسم إذا كان على حرفٍ واحد وأُبدل لا يخرج عن الاسمية.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): لما فيه من الجمع بين عوضين، وفي الثاني الجمع بين العوض والمعوض. اهـ منه.

(٢) الرجز في الكتاب ٢/ ٣٧٥، والخزانة ٥/ ٢٦٢، وعزاه سيبويه لرؤبة، وقال البغدادي: وقد ذكر جميع شراح الشواهد أن ما قبله: تقول بنتي قد أنى إناكا، ثم قال: والأكثرون على أن هذا الرجز لرؤبة بن العجاج لا للعجاج. اهـ. قلنا: هو في ملحقات ديوان رؤبة ص١٨١. وأنى: فعل ماض بمعنى قَرُبَ، والإنى: الوقت، وأنى إناك: حان حينُك، أي: حين ارتحالك إلى سفر تطلب رزقاً لعلك إن سافرت أصبت ما نحتاج إليه. الخزانة ٥/ ٣٦٦-٣٦٧.

(٣) ذكره عنهم النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١١، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٧٩، والكلام منه، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٢.

(٤) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٠١، وقال الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٢: ولو قرأ قارئٌ: يا أبتُ، لجاز ولم يقرأ به أحد نعلمه.

وقال الكوفيون: إنَّ التاء لمجرَّد التأنيث، وياءُ الإضافة مقدَّرةٌ. ويأباه عدمُ سماع يا أبتي في السعة، وكذا سماع فتحها على ما قيل. وتعقِّب بأن تاء «لات» للتأنيث عند الجمهور، وكذا تاءُ ربَّتَ وثمتَ وهي مفتوحةٌ.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ أي: في المنام، كما يقتضيه كلام ابن عباس وغيره، وكذا قولُه سبحانه: (لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ) و(هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ) فإنَّ مصدر رأى الحُلُمية الرؤيا، ومصدرُ البصرية الرؤية في المشهور، ولذا خطِّئ المتنبي في قوله:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض(١)

وذهب السهيليُّ وبعضُ اللغويين إلى أنَّ الرؤيا سُمِعتْ من العرب بمعنى الرؤية ليلاً ومطلقاً.

واستدلَّ بعضُهم لكون رأى حُلُميةً بأنَّ ذلك لو وقع يقظةً وهو أمرٌ خارقٌ للعادة لشاع وعُدَّ معجزةً ليعقوبَ عليه السلام، أو إرهاصاً ليوسف عليه السلام. وأجيب بأنه يجوز أن يكون في زمانٍ يسيرٍ من الليل والناسُ غافلون. والحقُّ أنها حُلُميةٌ، ومثلُ هذا الاحتمال مما لا يُلتفتُ إليه.

وقرأ أبو جعفر: «إنِّيَ» بفتح الياء(٢).

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وهي: جَرِيَّان، والطارق، والذيَّال، وقابسٍ، وعمودان، والفليق، والمُصْبِح، والفَرْغ، ووثَّاب، وذو الكَتِفَيْن، والضّروج(٣). فقد روي عن

---

(١) وصدره: مضى الليل والفضل الذي لك لا يمضي، وهو في ديوانه ٢/ ٣٢٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٢/ ٢٧٩.

(٣) نقلها المصنف عن الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥٥، وقال الشهاب: وتعيين هذه الكواكب وضبط أسمائها لم يتعرَّضوا له هنا، ولم أرَه في كلام مَن يوثق به، وجريان: بفتح الجيم وكسر الراء المهملة وتشديد الياء، والطارق معلوم: ما يطلع ليلاً، والذيال من ذوات الأذناب، وقابس: مقتبس النار، وعمودان تثنية عمود، والفليق: نجم منفرد، والمصبح: ما يطلع قبيل الفجر، والفرغ بفاء وراءٍ مهملة ساكنة وغين معجمة: نجم عند الدلو، ووثاب بالتشديد: سريع الحركة، وذو الكتفين تثنية كتف: نجم كبير. وهذه نجوم غير مرصودة خصت بالرؤيا. اهـ. ووقع في الأصل و(م): الفيلق، بدل: الفليق.

جابر أنَّ سناناً[(١)] اليهوديَّ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهنَّ يوسف فسكت فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك؟» قال: نعم. فعدَّ ﷺ ما ذُكر، فقال اليهوديُّ: إي واللهِ إنها لأسماؤها.

وأخرج السهيلي عن الحارث بن أبي أسامةَ نحوَ ذلك، إلا أنه ذكر النطح بدل المصبح[(٢)]، وأخرج الخبرَ الأوَّلَ جماعةٌ من المفسِّرين وأهلِ الأخبار، وصححه الحاكم، وقال: إنه على شرط مسلم، وقال أبو زرعة وابن الجوزيِّ: إنه منكر موضوع[(٣)].

---

(١) كذا نقل المصنف عن حاشية الشهاب ٥/ ١٥٤، وجاء في أكثر الكتب التي خرجت الحديث: بستاني، وقال الحافظ في الإصابة ١/ ٢٤٣: وبستاني أورده ابن فتحون في الذيل في الباء الموحدة، ورأيته في نسخة من تفسير ابن مردويه بضم الياء التحتانية بعدها سين مهملة ثم مثناة ثم ألف ثم نون مفتوحة بعد ياء تحتانية، ولعله أصوب. اهـ.

(٢) التعريف والإعلام ص٧٩، وفيه: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسنداً ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده قال: جاء بستاني. . . ، وذكر الحديث.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٩٦ من طريق أسباط بن نصر، عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر، به. وقد تفرد به الحاكم من هذه الطريق، فقد أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١١١ - تفسير)، والبزار (٢٢٢٠ - كشف)، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢٥٠-٢٥١، والطبري ١٣/ ١٠، والعقيلي في الضعفاء ١/ ٢٥٩، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٢٧٧، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٠) من طريق الحكم بن ظهير، عن السدي، به.

قال ابن حبان: هذا لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ، والحكم بن ظهير كان يشتم أصحاب محمد ﷺ، يروي عن الثقات الأشياء الموضوعات. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول ﷺ، وقال يحيى بن معين: الحكم بن ظهير ليس بشيء، وقال النسائي: متروك. اهـ. وقال الجوزجاني كما في التهذيب ١/ ٤٦٤: الحكم بن ظهير ساقط؛ لميله وأعاجيب حديثه، وهو صاحب حديث نجوم يوسف. اهـ. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: تفرد به الحكم بن ظهير، وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون. اهـ.

قلنا: وظاهر رواية الحاكم يدل على أن الحكم لم يتفرد به، وقد أشار لذلك السيوطي في اللآلي المصنوعة ١/ ٨٣، فقال: وللحكم متابع قوي أخرجه الحاكم في المستدرك، فزالت تهمة الحكم، والله أعلم. اهـ. وقد ردَّ ذلك الشيخ عبد الرحمن المعلِّمي في تعليقه على الفوائد المجموعة ص٤٦٤ فقال: قد جزم الجوزجاني ثم العقيلي بأن الحكم بن ظهير تفرد =

وقرأ الحسن وطلحة بن سليمان وغيرهما: «أَحَدَ عْشَرَ» بسكون العين[1]؛ لتوالي الحركات، وليظهر جَعْلُ الاسمين اسماً واحداً.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ عطف على ما قبلُ، وزعم بعضهم أنَّ الواو للمعية وليس بذاك. وتخصيصُهما بالذكر وعدم الاندراج في عموم الكواكب لاختصاصهما بالشرف، وتأخيرُهما لأنَّ سجودهما أبلغُ وأعلى كعباً، فهو من بابِ: لا يعرفه فلانٌ ولا أهلُ بلده.

وتقديمُ الشمس على القمر لِمَا جرت عليه عادة القرآن إذا جمع الشمس والقمر، وكأن ذلك إما لكونها أعظمَ جرماً وأسطعَ نوراً وأكثرَ نفعاً من القمر، وإما لكونها أعلى مكاناً منه وكونِ فلكها أبسطَ من فلكه على ما زعمه أهل الهيئة وكثيرٌ من غيرهم، وإمَّا لأنها مفيضةُ النور عليه كما ادَّعاه غيرُ واحد، واستأنس له بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وإنما أَوْرَدَ الكلامَ على هذا الأسلوب ولم يَطْوِ ذِكْرَ العدد لأنَّ المقصود الأصليَّ أن يتطابق المنامُ ومَن هو في شأنهم، وبترك العدد يفوتُ ذلك.

﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ استَظْهَر في «البحر»[2] أنَّ «رأيتهم» تأكيدٌ لِمَا تقدَّم تطرية للعهد[3]، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

واختار الزمخشريُّ التأسيسَ، وأنَّ الكلام جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّ يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: «رأيتُ أحدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمر»: كيف رأيتَها؟

---

= به عن السدي، ومن طريق الحكم ذكره المفسرون، مع أن تفسير أسباط عن السدي عندهم جميعاً، فكيف فاتهم منه هذا الخبر ووقع للحاكم بذاك السند؟! هذا يُشعر بأن بعض الرواة وهم، وقع له الخبر من طريق الحكم، ثم التبس عليه فظنه من طريق أسباط، كالجادّة، والله أعلم. وكلام أبي زرعة ذكره ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٤٠٢، فقال: قال أبو زرعة: هذا حديث منكر ليس بشيء.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، والبحر ٥/ ٢٧٩. وهي قراءة أبي جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٧٩.

(٢) ٥/ ٢٨٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥٥.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب: تطرية لطول العهد، وهو الأنسب بالسياق.

سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: «رأيتهم لي ساجدين»[١]. وكأنه لا يرى أنَّ رأى الحُلُمية تتعدَّى إلى مفعولين كالعِلْمية ليلتزم كونَ المفعول الثاني للفعل الأول محذوفاً، ويرى أنها تتعدَّى لواحدٍ كالبصرية فلا حذف، و«ساجدين» حالٌ عنده كما يشير إليه كلامُه، والمشهورُ عند الجمهور أنها تتعدَّى إلى مفعولين، ولا يُحذف ثانيهما اقتصاراً.

وجوَّز أن يكون مذهبه القولَ بالتعدِّي إلى ما ذكر، إلا أنه يقول بجواز ما منعوه من الحذف، وأنت تعلم أن ما استظهره في «البحر» سالم عن المخالفة، والتطريةُ[٢] أمرٌ معهودٌ في الكتاب الجليل[٣].

وإنما أُجْرِيَتْ هذه المتعاطفاتُ مجرى العقلاء في الضمير وجَمْعِ الصفةِ لوَصْفها بوصف العقلاء، أعني السجودَ سواءٌ كان المرادُ منه التواضعَ أو السجودَ الحقيقيَّ، وإعطاءُ الشيء الملابِسِ لآخَرَ من بعض الوجوه حُكْماً من أحكامه إظهاراً لأثرِ الملابَسةِ والمقارَبةِ شائعٌ في الكلام القديم والحديث، وفي الكلام ـ على ما قيل ـ استعارةٌ مكنيةٌ بتشبيه المذكورات بقومٍ عقلاء ساجدين، والضميرُ والسجودُ قرينةٌ، أو أحدُهما قرينةٌ تخييليةٌ والآخَرُ ترشيح.

وذهب جماعةٌ من الفلاسفة إلى أنَّ الكواكب أحياءٌ ناطقةٌ، واستُدلَّ لهم بهذه الآية ونظائرِها، وكثيرٌ من ظواهر الكتاب والسنَّة يشهد لهم، وليس في القول بذلك إنكارُ ما هو من ضروريات الدين.

وتقديمُ الجارِّ والمجرور لإظهار العناية والاهتمامِ، مع ما في ضمنه ـ على ما قيل ـ من رعاية الفواصل.

وكانت هذه الرؤيةُ ـ فيما قيل ـ ليلةَ الجمعة، وأخرج أبو الشيخ عن ابن منبِّهٍ أنها كانت ليلة القَدْرِ[٤]، ولعله لا منافاةَ؛ لظهور إمكانِ كون ليلةٍ واحدةٍ ليلةَ القَدْرِ

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٠٢.

(٢) في (م): والنظرية، وهو تصحيف.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): وزعم بعضهم أن أحد الفعلين من الرؤية، والآخر من الرؤيا، وهو كما ترى. اهـ منه.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٤.

وليلةَ الجمعة. واستشكل كونها في ليلة القدر بأنها من خواصِّ هذه الأمة، وأجيب بأنَّ ما هو من الخواصِّ تضعيفُ ثواب العمل فيها إلى ما قصَّ الله سبحانه.

وكان عمره عليه السلام حين رأى ذلك اثنتي عَشْرةَ سنةً فيما يُروى عن وهب. وقيل: سبع عشرة سنة[1]. وكان قد رأى قبلُ وهو ابنُ سبع سنين أنَّ إحدى عَشْرةَ عصاً طوالاً كانت مركوزةً في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصاً صغيرةٌ تَثِبُ عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، وتعبيرُ العصيِّ الإحدى[2] عَشْرةَ هو بعينه تعبيرُ الأحَدَ عَشَرَ كوكباً، فإنَّ كلًّا منهما إشارةٌ إلى إخوته، وليس في الرؤية الأولى ما يشير إلى ما يشير إليه الشمسُ والقمر في الرؤية الثانية، ولا ضرورة إلى التزام القول باتِّحاد المنامين بأنْ يقال: إنه عليه السلام رأى في كلٍّ أَحَدَ عشر شيئاً، إلا أنَّ ذلك في الأول عصيٌّ وفي الثاني كواكبُ، ويكون عطفُ الشمس والقمر على ما قبله من قبيل عطف جبريل وميكائيل عليهما السلام على الملائكة كما يوهِمُه كلامُ بعضهم.

وعبِّرت الشمسُ بأبيه والقمرُ بأمِّه، اعتباراً للمكان والمكانة، وروي ذلك عن قتادة. وعن السديِّ: أنَّ القمر خالتُه لأن أمه راحيل قد ماتت، والقولُ: بأنَّ الله تعالى أحياها بعدُ لتصديق رؤياه لا يخفى حالُه.

وعن ابن جُريجٍ: أنَّ الشمس أمُّه والقمر أبوه، وهو اعتبارٌ للتأنيث والتذكير، وقد تعبَّر الشمس بالملك وبالذهب وبالزوجة الجميلة، والقمرُ بالأمير، والكواكبُ بالرؤساء، وكذا بالعلماء أيضاً.

وعن جعفر الصادق ﷺ أنَّ رؤية القمر تؤوَّلُ على أَحَدٍ سَبْعةَ عَشَرَ وجهاً: ملكٍ، أو وزيرٍ، أو نديمِ الملك، أو رئيسٍ، أو شريفٍ، أو جاريةٍ، أو غلامٍ، أو أمرٍ باطلٍ، أو والٍ، أو عالمٍ مُفسدٍ، أو رجلٍ معظَّمٍ، أو والدٍ، أو والدةٍ، أو زوجةٍ، أو بعلٍ لها، أو ولدٍ، أو عَظمةٍ. ولعل ذلك مبنيٌّ على اختلاف الرائي وكيفيةِ الرؤية.

---

(١) جاء في هامش الأصل: وإليه ذهب اليهود، وهو مذكور في توراتهم.

(٢) في (م): لإحدى، وهو تصحيف.

وزعم بعضهم أنه عليه السلام لم يكن رأى الكواكبَ ولا الشمسَ والقمرَ، وإنما رأى إخوتَه وأبويه، إلا أنه عبَّر عنهم بذلك على طريقة الاستعارة التصريحية، وهو خلافُ الظاهر جدًّا، ويكاد يعدُّ من كلام النائم. ويؤيِّد الظاهرَ ما نقله كثير من المفسرين أنه عليه السلام رأى الكواكب والشمس والقمر قد نزلت فسجدت له، فقصَّ ذلك على أبيه.

﴿قَالَ يَبُنَيَّ﴾ صغَّره للشفقة، ويسمِّي النحاةُ مثلَ هذا: تصغيرَ التحبيب، وما أَلْطَفَ قولَ بعض المتأخِّرين:

قد صغّر الجوهر في ثغره لكنَّه تصغيرُ تحبيبِ[1]

ويحتملُ أن يكون لذلك ولصغر السنِّ، وفَتْحُ الياء قراءةُ حفص، وقرأ الباقون بكسرها[2]. والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ، كأنه قيل: فماذا قال الأبُ بعد سماع هذه الرؤيةِ العجيبةِ من ابنه؟ فقيل: ﴿قَالَ يَبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ أي: فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمةً لا تقدرُ على التَّفَصِّي عنها، أو خفيَّةً لا تتصدَّى لمدافعتها.

وإنما قال له ذلك لِمَا أنه عليه السلام عَرَفَ من رؤياه أنْ سيُبلِّغُه الله تعالى مبلغاً جليلاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوَّة، وينعمُ عليه بشرف الدارين، فخاف عليه حسدَ الإخوة وبَغْيَهم، فقال له ذلك صيانةً لهم من الوقوع فيما لا ينبغي في حقِّه، وله من معاناة المشاقِّ ومقاساةِ الأحزان، وإن كان واثقاً بأنهم لا يقدرون على تحويل ما دلَّت عليه الرؤيا، وأنه سبحانه سيحقِّقُ ذلك لا محالةَ، وطمعاً في حصوله بلا مشقَّةٍ، وليس ذلك من الغيبة المحظورة في شيءٍ.

والرؤيا مصدرُ رأى الحُلُمية الدالَّةِ على ما يقع في النوم سواءٌ كان مرئيًّا أم لا على ما هو المشهور، والرؤية مصدر رأى البَصَريَّةِ الدالَّةِ على إدراكٍ مخصوص، وفرِّق بين مصدر المعنيين بالتأنيثين، ونظيرُ ذلك القُرْبةُ للتقرُّب المعنويِّ بعبادةٍ ونحوها، والقُرْبَى للتقرُّب النَّسبي.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١٥٥.

(٢) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٨٩.

وحقيقتُها عند أهل السنة كما قال محي الدين النوويّ نقلاً عن المازري[١]: أنَّ الله سبحانه يخلق في قلب النائم اعتقاداتٍ كما يخلُقها في قلب اليقظان، وهو سبحانه يخلُق ما يشاءُ لا يمنعه نومٌ ولا يقظةٌ، وقد جعل سبحانه تلك الاعتقادات عَلَماً على أمورٍ أُخَرَ يخلقها في ثاني الحال، ثم إنَّ ما يكون عَلَماً على ما يَسرُّ يخلقه بغير حضرة الشيطان، وما يكون عَلَماً على ما يضرُّ يخلقه بحضرته. ويسمَّى الأولُ رؤيا، وتضافُ إليه تعالى إضافةَ تشريفٍ، والثاني حلماً وتضافُ إلى الشيطان كما هو الشائع من إضافة الشيء المكروه إليه، وإن كان الكلُّ منه تعالى، وعلى ذلك جاء قوله ﷺ: «الرؤيا من الله تعالى والحُلْم من الشيطان»[٢].

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبُّها فإنها من الله تعالى، فليَحْمَدِ الله تعالى وليحدِّث بها، وإذا رأى غيرَ ذلك مِمَّا يَكْرَهُ فإنَّما هي من الشيطان، فليَسْتَعِذْ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن شرِّها، ولا يَذْكُرْها لأحدٍ فإنها لن تضرَّه»[٣].

وصحَّ عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهُها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليَسْتَعِذْ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ولْيَتحوَّل عن جنبه الذي كان عليه»[٤].

ولا يَبْعُد جَعْلُ الله تعالى ما ذُكر سبباً للسلامة عن المكروه كما جَعَل الصدقةَ سبباً لدَفْعِ البلاء، وإنْ لم نَعْرِفْ وجهَ مدخليَّةِ البَصْقِ عن اليسار والتحوُّلِ عن الجنب الذي كان عليه مثلاً في السببية.

وقيل: هي أحاديثُ المَلَكِ الموكَّلِ بالأرواح إن كانت صادقةً، ووسوسةُ الشيطان والنفسِ إن كانت كاذبةً، ونُسِبَ هذا إلى المحدِّثين.

وقد يُجمع بين القولين بأنَّ مقصود القائل بأنها اعتقاداتٌ يخلقُها الله تعالى في

---

(١) في الأصل و(م): المازني، وهو خطأ.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/١٧، والمُعْلم بفوائد مسلم لأبي عبد الله محمد بن علي المازري ٣/١١٦. والحديث أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٧٠٤٥).

(٤) صحيح مسلم (٢٢٦٢).

قلب . .إلخ، أنها اعتقاداتٌ تُخْلَقُ كذلك بواسطة حديثِ الملك، أو بواسطة وسوسة الشيطان مثلاً، والمسبَّبات في المشهور عن الأشاعرة مخلوقةٌ له تعالى عند الأسباب لا بها، فتدبر.

وقال غيرُ واحدٍ من المتفلْسِفَةِ: هي انطباعُ الصورة المنحدرةِ من أفق المتخيّلةِ إلى الحسِّ المشترك، والصادقةُ منها إنما تكون باتِّصال النَّفْس بالملكوت ـ لِمَا بينهما من التناسُبِ ـ عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغٍ، فتتصوَّر بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلةِ هناك، ثم إنَّ المتخيلةَ تحاكيه بصورةٍ تناسبُها، فترسلها إلى الحسِّ المشترك فتصير مشاهَدةً، ثم إن كانت شديدةَ المناسبةِ لذلك المعنى بحيث لا يكونُ التفاوتُ إلا بالكلِّيةِ والجزئية استغنت عن التعبير، وإلا احتاجت إليه[1].

وذكر بعضُ أكابر الصوفية ما يَقْرُبُ من هذا، وهو: أنَّ الرؤيا من أحكام حضرة المثال المقيّد المسمَّى بالخيال، وهو قد يتأثَّر من العقول السماوية والنفوس الناطقة المدرِكةِ للمعاني الكلية والجزئية، فيَظْهَرُ فيه صورٌ مناسبةٌ لتلك المعاني، وقد يتأثَّر من القوى الوهمية[2] المدركةِ للمعاني الجزئية فقط، فيظهر فيه صورةٌ تناسبها، وهذا قد يكون بسبب سوء مزاج الدماغ، وقد يكون بسبب توجُّه النفس بالقوة الوهمية إلى إيجاد صورةٍ من الصور، كمن يتخيَّلُ صورةَ محبوبه الغائبِ عنه تخيُّلاً قويًّا، فتظهرُ صورتُه في خياله فيشاهدُه، وهي أول مبادي الوحي الإلهيِّ في أهل العناية؛ لأنَّ الوحي لا يكون إلا بنزول الملك، وأولُ نزوله في الحضرة الخيالية ثم الحسِّيةِ، وقد صحَّ عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: أولُ ما بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقةُ، فكان لا يَرَى رُؤْيا إلَّا جاءتْ مِثْلَ فَلَقِ الصبح[3].

والمرئيُّ ـ على ما قال بعضهم ـ سواءٌ كان على صورته الأصلية أو لا قد يكون بإرادة المرئي، وقد يكون بإرادة الرائي، وقد يكون بإرادتهما معاً، وقد يكون لا بإرادةٍ من شيءٍ منهما، فالأولُ كظهور الملك على نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام في صورةٍ من الصور، وظهورِ الكمَّلِ من الأناسيِّ على بعض الصالحين في صورٍ

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/١٥٦.
(٢) في الأصل: الموهمة.
(٣) صحيح البخاري (٣)، وصحيح مسلم (١٦٠).

غيرِ صورهم، والثاني كظهورِ روحٍ من الأرواح المَلَكيةِ أو الإنسانية باستنزالِ الكامل إياه إلى عالَمِه ليكشف معنًى ما مختصًا عِلْمُه به، والثالثُ كظهور جبريل عليه السلام للنبيِّ ﷺ باستنْزاله إياه وبَعْثِ الحقِّ سبحانه إياه إليه ﷺ، والرابع كرؤية زيدٍ مثلاً صورةَ عمرٍو في النوم من غيرِ قصدٍ وإرادةٍ منهما، وكانت رؤيا يوسف عليه السلام من هذا القسم؛ لظهور أنها لو كانت بإرادةِ الإخوة لعلموا فلمْ يكن للنهي عن الاقتصاص معنى، ويشيرُ إلى أنها لم تكن بقَصْدِه قوله بعدُ: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

هذا والمنقول عن المتكلمين أنها خيالاتٌ باطلةٌ، وهو من الغرابة بمكانٍ بعد شهادةِ الكتاب والسنَّةِ بصحتها. ووجَّهَ ذلك بعضُ المحققين بأنَّ مرادهم أنَّ كونَ ما يتخيَّلُه النائم إدراكاً بالبصر رؤيةً، وكونَ ما يتخيَّله إدراكاً بالسمع سمعاً باطلٌ، فلا ينافي حقيةَ ذلك بمعنى كونه أمارةً لبعض الأشياء، كذلك الشيء نفسِه أو ما يضاهيه ويحاكيه، وقد مرَّ الكلام في ذلك فتيقَّظْ(١).

والمشهور الذي تعاضدتْ فيه الرواياتُ أنَّ الرؤيا الصادقةَ جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوَّة(٢). ووجِّه ذلك عند جمعٍ أنه ﷺ بقي حسبما أشارت عائشةُ ﵂ ستةَ أشهر يرى الوحي مناماً، ثم جاء المَلَكُ يقظةً، وستةُ أشهرٍ بالنسبة إلى ثلاثٍ وعشرين سنةً جزءٌ من ستٍّ وأربعين جزءاً.

وذكر الحليميُّ أنَّ الوحي كان يأتيه عليه الصلاة والسلام على ستةٍ وأربعين نوعاً، مثل النفث في الروع، وتمثُّلِ المَلَكِ بصورةِ دِحْيةَ ﵁ مثلاً، وسماعِهِ مثلَ صلصلةِ الجرس، إلى غير ذلك، ولذا قال ﷺ ما قال(٣).

وذكر الحافظ العسقلاني أنَّ كون الرؤيا الصادقة جزءاً من كذا من النبوَّة إنما هو باعتبارِ صدقها لا غير، وإلا لساغَ لصاحبها أن يسمَّى نبيًّا، وليس كذلك(٤). وقد

---

(١) ينظر ما سلف ١٠/ ١٣٥ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس ومن حديث عبادة بن الصامت ومن حديث أبي هريرة ﵁، وقد سلف تخريجها ١٠/ ١٤١.

(٣) ينظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٢٣٩-٢٥٥.

(٤) فتح الباري ١/ ٢٠.

تقدَّم لك أنَّ في بعض الروايات ما فيه مخالفةٌ لِمَا في هذه الرواية من عدَّةِ الأجزاء[١]، ولعل المقصود من كلٍّ ذلك على ما قيل: مدحُ الرؤيا الصادقةِ والتنويهُ برفعةِ شأنها، لا خصوصيةُ العدد ولا حقيقةُ الجزئيّة.

وقال ابن الأثير في «جامع الأصول»: روى قليلٌ أنها جزءٌ من خمسةٍ وأربعين جزءاً، وله وجهُ مناسَبةٍ بأنَّ عمره ﷺ لم يستكمل ثلاثاً وستين بأنْ يكون توفِّي عليه الصلاة والسلام بأثناء السنة الثالثة والستين، وروايةُ أنها جزءٌ من أربعين جزءاً تكون محمولةً على كون عمره عليه الصلاة والسلام ستِّين، وهو روايةٌ لبعضهم، وروي أنها جزءٌ من سبعين جزءاً، ولا أعلم لذلك وجهاً[٢]. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ سبعين كثيراً ما يُستعمل في التكثير، فلعله هو الوجه، والغرضُ الإشارةُ إلى كثرة أجزاء النبوَّة، فتدبَّر.

والمراد بإِخْوَتِه هاهنا على ما قيل: الإخوةُ الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم من بني عَلَّاته الأَحَدَ عشر، وهم: يهوذا، وروبيل، وشمعون، ولاوي، وريالون، ويشجر، ودِينَه بنو يعقوب من ليا[٣] بنت ليان بن ناهر، وهي بنتُ خالته. ودان، ويفتالى، وجاد، وآشر بنوه عليه السلام من سُرِّيَّتين له: زلفة، وبلهة. وهم المشارُ إليهم بالكواكب.

وأما بنيامين الذي هو شقيقُ يوسفَ عليه السلام وأُمُّهما راحيل التي تزوَّجها يعقوبُ عليه السلام بعد وفاة أختها ليا[٤]، أو في حياتها[٥] إذ لم يكن جمع

---

(١) تقدم ذلك ١٠/ ١٤١-١٤٢.

(٢) جامع الأصول ٢/ ٢٥٥، ورواية أنها جزء من خمسة وأربعين أخرجها مسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلفت ١٠/ ١٤٢. ورواية الأربعين أخرجها أحمد (١٦١٨٣)، والترمذي (٢٢٧٨) من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ. ورواية السبعين أخرجها أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر ﷺ، وأخرجها أحمد (٢٨٩٤) من حديث ابن عباس ﷺ، وسلفت ١٠/ ١٤٢.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): سألت بعض اليهود عن ضبطها فقال: لياء، بهمزة بعد الياء، والله تعالى أعلم. اهـ منه.

(٤) جاء في هامش الأصل و(م): وادعى بعضهم أن السريتين كانتا أختين أيضاً، وقد جمع بينهما ولم يحل ذلك لأحد بعده. اهـ منه.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): وإلى هذا ذهب اليهود.

الأختين إذ ذاك محرَّماً، فليس بداخلٍ تحت هذا النهي، إذ لا تتوهَّمُ مضرَّته ولا تُخْشَى معرَّتُه، ولم يكن معهم في الرؤيا إذ لم يكن معهم في السجود.

وتعقِّب بأنَّ المشهور أنَّ بني علَّاته عليه السلام عشرة، وليس فيهم مَن اسمُه دِينَه. ومن الناس مَن ذكر ذلك في عِدَادِ أولاد يعقوب، إلا أنه قال: هي أختُ يوسف، وبناءُ الكلام عليه ظاهرُ الفساد، بل لا تكاد تدخل في الإخوة إلا باعتبار التغليب؛ لأنه جمعُ أخٍ فهو مخصوصٌ بالذكور.

فلعل المختار أنَّ المراد من الإخوة ما يشملُ الأعيان والعَلَّات، ويعدُّ بنيامين بَدَلَ دِينَه إتماماً لأحد عشر عدَّةِ الكواكب المرئية، والنهيُ عن الاقتصاص عليه ـ وإن لم يكن ممن تُخشى غوائلُه ـ من باب الاحتياط وسدِّ باب الاحتمال، ومما ذاع: كلُّ سرٍّ جاوز الاثنين شاع، ويُلتزمُ القول بوقوع السجود منه كسائر أهله، وإسنادِ الكيد إلى الإخوة باعتبارِ الغالب، فلا إشكالَ، كذا قيل.

وهو على عِلَّاته أولى مما قيل: إنَّ المراد بإخوته ما لا يدخل تحته بنيامين ودينه لأنهما لا تُخشى معرَّتُهما، ولا يُتوهَّم مضرَّتُهما، فهم حينئذٍ تسعة، وتكملُ العِدَّةُ بأبيه وأمِّه أو خالته، ويكون عطفُ الشمس والقمر من قبيل عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وفيه من تعظيم أمرهما ما فيه = لِمَا أنَّ في ذلك ما فيه.

ونصب «يكيدوا» بأنْ مُضْمَرةٍ في جواب النهي، وعدِّي باللام مع أنه مما يتعدَّى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: ٥٥] لتضمينه ما يتعدَّى بها، وهو الاحتيالُ كما أشرنا إليه، وذلك لتأكيد المعنى بإفادة معنيي الفعلين المتضمِّن والمضمَّنِ جميعاً. ولكون القَصْدِ إلى التأكيد والمقامُ مقامُه أكِّد الفعلُ بالمصدر وقرِّر بالتعليل بعدُ، وجَعْلُ اللام زائدةً كجَعْلِه مما يتعدَّى بنفسه وبالحرف خلافُ الظاهر.

وقيل: إنَّ الجارَّ والمجرورَ من متعلِّقات التأكيد، على معنى: فيَكيدوا كيداً لك، وليس بشيء.

وجَعَلَ بعضُهم اللام للتعليل على معنى: فيفعلوا لأَجْلِكَ وإهلاكِكَ كيداً راسخاً أو خفيًّا، وزعم أنَّ هذا الأسلوب آكَدُ من أن يقال: فيكيدوك كيداً، إذ

ليس فيه دلالةٌ على كون نفس الفعل مقصودَ الإيقاع، وفيه نوعُ مخالفةٍ للظاهر أيضاً، فافهم.

وقرأ الجمهور: «رؤياك» بالهمز من غير إمالةٍ، والكسائيُّ: «روياك» بالإمالة وبغيرِ همزٍ، وهي لغةُ أهل الحجاز[١].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ﴾ أي: لهذا النوع ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ ظاهرُ العداوة، فلا يألو جهداً في تسويل إخوتك وإثارةِ الحسد فيهم، حتى يحملَهم على ما لا خيرَ فيه وإن كانوا ناشئين في بيت النبوة.

والظاهرُ أنَّ القوم كانوا بحيث يمكنُ أن يكون للشيطان عليهم سبيلٌ، ويؤيِّد هذا أنهم لم يكونوا أنبياءَ، والمسألةُ خلافيةٌ، فالذي عليه الأكثرون سَلَفاً وخَلَفاً أنهم لم يكونوا أنبياءَ أصلاً، أمَّا السلفُ فلم ينقل عن الصحابة منهم أنه قال بنبوَّتهم، ولا يُحفظُ عن أحدٍ من التابعين أيضاً، وأما أتباعُ التابعين فنُقِلَ عن ابن زيد أنه قال بنبوَّتهم[٢]، وتابعه شرذمةٌ قليلة.

وأمَّا الخلفُ فالمفسِّرون فِرَق:

فمنهم مَن قال بقولِ ابنِ زيد كالبغوي[٣].

ومنهم مَن بالغ في ردِّه كالقرطبيِّ[٤] وابنِ كثير[٥].

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٠، وقراءة الإمالة عن الكسائي مذكورة في التيسير ص٤٩، والنشر ٢/ ٥٠ من رواية الدوري عنه، ولكن مع الهمز. وقرأ السوسي: «رُوْيَاك» بغير همز ولا إمالة، وأبو جعفر: «رُيَّاك» بإبدال الهمزة واواً مع قلبها ياءً وإدغامها في الياء بعدها.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٣.

(٣) في تفسيره ٢/ ٤١٠ و ٤١٢، ونقله المصنف عنه ـ وكذا ما سيأتي من أقوال الأئمة ـ بواسطة السيوطي في رسالته المسماة: دفع التعسف عن إخوة يوسف، وهي في الحاوي ١/ ٤٨٠.

(٤) في تفسيره ١١/ ٢٥٥، قال: ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يردُّه القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنياوي، وعن عقوق الآباء، وتعريضِ مؤمن للهلاك، والتآمرِ في قتله، ولا التفات لقول من قال: إنهم كانوا أنبياء. اهـ. ثم عاد ص٢٦٥ في الجزء نفسه فقال: وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله، وهذا أشبه.

(٥) عند تفسير الآية (٧) من هذه السورة، وردَّ أيضاً على القول بأنهم أوحي إليهم بعد ذلك، فقال: وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل. . . وينظر تتمة قوله هناك.

ومنهم مَن حَكَى القولين بلا ترجيحٍ كابن الجوزيِّ[(١)].

ومنهم مَن لم يتعرَّضْ للمسألة لكنْ ذَكَر ما يُشْعِرُ بعدم كونهم أنبياءَ، كتفسيره الأسباط بمن نبِّئ من بني إسرائيل، والمُنْزَلَ إليهم بالمنزلِ إلى أنبيائهم، كأبي الليث السمرقنديِّ والواحديِّ[(٢)].

ومنهم مَن لم يذكر شيئاً من ذلك ولكن فسَّر الأسباط بأولاد يعقوب، فحسِبَه ناسٌ قولاً بنبوَّتهم وليس نصًّا فيه؛ لاحتمالِ أن يريد بالأولاد ذرِّيته لا بَنيهِ لصُلْبِه.

وذكر الشيخ ابنُ تيمية في مؤلفٍ له خاصٍّ في هذه المسألة[(٣)] ما ملخَّصُه: الذي يدلُّ عليه القرآنُ واللغةُ والاعتبارُ أنَّ إخوةَ يوسفَ عليه السلام ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبيِّ ﷺ، بل ولا عن أحدٍ من أصحابه ﷺ خبرٌ بأنَّ الله تعالى نبَّأهم، وإنما احتجَّ مَن قال بأنهم نبِّئوا بقوله تعالى في آيتي «البقرة» و«النساء»: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وفسَّر ذلك بأولاد يعقوب، والصوابُ أنه ليس المرادُ بهم أولادَه لصُلْبِه بل ذرِّيته، كما يقال لهم: بنو إسرائيل، وكما يقال لسائر الناس: بنو آدم. وقولُه تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٥٩-١٦٠] صريحٌ في أنَّ الأسباط هم الأممُ من بني إسرائيل وكلُّ سبطٍ أمةٌ، وقد صرَّحوا بأنَّ الأسباط من بني إسرائيل كالقبائلِ من بني إسماعيل، وأصلُ السبط كما قال أبو سعيد الضرير: شجرةٌ واحدةٌ ملتفَّةٌ كثيرةُ الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر عنهم الأولاد، فتخصيصُ الأسباط في الآية ببنيه عليه السلام لصُلْبِه غلطٌ لا يدلُّ عليه اللفظُ ولا المعنى، ومَن ادَّعاه فقد أخطأ خطأً بيِّناً.

والصوابُ أيضاً أنهم إنَّما سمُّوا أسباطاً من عهد موسى عليه السلام، ومن حينئذٍ كانت فيهم النبوَّةُ، فإنه لم يُعرَفْ فيهم نبيٌّ قبله إلا يوسف، ومما يؤيِّدُ ذلك أنه سبحانه لَمَّا ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾

---

(١) في زاد المسير ٤/ ١٨٨.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ١٦١-١٦٢ و٤٠٤، والوسيط ١/ ٢٢٠ و٢/ ٦٠١. وينظر الحاوي ١/ ٤٨١.

(٣) كما في الحاوي ١/ ٤٨١-٤٨٣.

الآيات [الأنعام: ٨٤] فذكر يوسف ومَن معه ولم يذكر الأسباط، ولو كان إخوةُ يوسف قد نبِّئوا كما نبِّئ لذُكِروا كما ذُكر.

وأيضاً إنَّ الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناءِ ما يناسبُ النبوَّةَ وإن كان قبلها. وجاء في الحديث: «أكرم الناس يوسفُ بنُ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبيٌّ ابنُ نبيٍّ»(١) فلو كانت إخوتُه أنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم. وهو سبحانه لَمَّا قصَّ قصتهم وما فعلوا بأخيهم ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفارَ من أبيهم، ولم يذكر من فضلهم ما يناسبُ النبوَّة وإن كان قبلها، بل ولا ذكر عنهم توبةً باهرةً كما ذكر عمن ذنبُه دون ذنبهم، ولم يذكر سبحانه عن أحدٍ من الأنبياء قبل النبوَّة ولا بعدها أنه فعل مثل هذه الأمور العظيمة من عقوق الوالد، وقطيعة الرحم، وإرقاق المسلم وبيعِه إلى بلاد الكفر، والكذبِ البيِّن، إلى غير ذلك مما حكاه عنهم، بل لو لم يكن دليلٌ على عدم نبوَّتهم سوى صدور هذه العظائم منهم لكفى؛ لأنَّ الأنبياء معصومون عن صدور مثل ذلك قبل النبوة وبعدها عند الأكثرين، وهي أيضاً أمورٌ لا يطيقُها مَن هو دون البلوغ، فلا يصحُّ الاعتذارُ بأنها صدرت منهم قبله وهو لا يمنع الاستنباء بعدُ.

وأيضاً ذكر أهلُ السِّير أنَّ إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر، وهو أيضاً مات بها لكن أوصى بنقله إلى الشام، فنقله موسى عليه السلام، ولم يُذكر في القرآن أنَّ أهل مصر قد جاءهم نبيٌّ قبل موسى غير يوسف، ولو كان منهم نبيٌّ لذكر. وهذا دون ما قبله في الدلالة كما لا يخفى.

والحاصلُ أنَّ الغلط في دعوى نبوَّتهم إنما جاء مِن ظنِّ أنهم هم الأسباطُ(٢)، وليس كذلك، إنما الأسباطُ أمةٌ عظيمةٌ، ولو كان المراد بالأسباط أبناءَ يعقوب لقال سبحانه: ويعقوب وبنيه: فإنه أبيَنُ وأوجزُ، لكنه عبَّر سبحانه بذلك إشارةً إلى أنَّ النبوَّة حَصلَت فيهم من حينِ تقطيعهم أسباطاً من عهد موسى عليه السلام، فليحفظ.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى أنَّ منهم مَن استدل على نبوتهم بغير ذلك، وأن فيه ما فيه. اهـ منه.

هذا ولَمَّا نبَّهه عليه السلام على أنَّ لرؤياه شأناً عظيماً وحذَّره مما حذَّره، شَرَعَ في تعبيرها وتأويلِها على وجهٍ إجماليٍّ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيك ويختارُك للنبوَّة، كما روي عن الحسن. أو للسجود لك كما روي عن مقاتل. أو لأمورٍ عظامٍ كما قال الزمخشري[1]، فيشملُ ما تقدَّم، وكذا يشملُ إغناءَ أهله ودَفْعَ القَحْطِ عنهم ببركته، وغيرِ ذلك، ولعل خيرَ الأقوال أوسطُها[2].

وأصلُ الاجتباء من جَبَيْتُ الشيءَ: إذا حصَّلتَه لنفسك، وفسَّروه بالاختيار لأنه إنما يُجتبى ما يُختار.

وذكر بعضُهم أنَّ اجتباءَ اللهِ تعالى العبدَ تخصيصُه إياه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصَّلُ منه أنواعٌ من المَكْرُمات بلا سعيٍ من العبد، وذلك مختصٌّ بالأنبياء عليهم السلام ومَن يقاربُهم من الصدِّيقين والشهداءِ والصالحين.

والمشارُ إليه بـ «ذلك» إمَّا الاجتباءُ لمثل تلك الرؤيا، فالمشبَّهُ والمشبَّهُ به متغايران، وإمَّا لمصدرِ الفعل المذكورِ وهو المشبَّهُ والمشبَّهُ به، و«كذلك» في محلِّ نصبِ صفةٍ لمصدرٍ مقدَّرٍ، وقُدِّم تحقيقُ ذلك[3]. وقيل هنا: إنَّ الجارَّ والمجرورَ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمر كذلك. وليس الأمر كذلك.

ولا يخفى ما في ذِكْرِ الربِّ مضافاً إلى ضمير المخاطَب من اللطف. وإنما لم يصرِّح عليه السلام بتفاصيل ما تدلُّ عليه الرؤيا حَذَراً من إذاعته على ما قيل.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ ذهب جمعٌ إلى أنه كلامٌ مبتدأ غيرُ داخلٍ تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيدَ مقالته وتحقيقَها، وتوطينَ نفسِ يوسفَ عليه السلام بما أُخبر به على طريق التعبير والتأويل، أي: وهو يعلِّمك ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: ذلك الجنس من العلوم، أو طرفاً صالحاً منه، فتطَّلع على حقيقة ما أقول. ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق، والبعثِ على تلقِّي ما سيأتي بالقبول.

وعلَّل عدمُ دخوله تحت التشبيه بأنَّ الظاهر أنْ يشبَّه الاجتباءُ بالاجتباء، والتعليمُ

---

(١) في الكشاف ٢/ ٣٠٣.

(٢) في (م): وسطها.

(٣) عند تفسير الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

غير الاجتباءِ فلا يشبَّه به. ونُظِرَ فيه بأنَّ التعليم نوعٌ من الاجتباء، والنوعُ يشبَّهُ بالنوع.

وقيل: العلةُ في ذلك أنه يصير المعنى: ويعلِّمك تعليماً مثل الاجتباء بمثل هذه الرؤيا، ولا يخفى سماجتُه فإنَّ الاجتباء وجهُ الشَّبهِ بين المشبَّه والمشبَّه به، ولم يلاحَظْ في التعليم ذلك.

وقال بعض المحققين: لا مانعَ من جَعْله داخلاً تحت التشبيه، على أنَّ المعنيَّ بذلك الإكرامُ بتلك الرؤيا، أي: كما أكرمك بهذه المبشِّرات يكرمُك بالاجتباء والتعليم، ولا يُحتاج في ذلك إلى جَعْلِه تشبيهين وتقديرِ «كذلك». وأنت تعلم أنَّ المنساق إلى الفهم هو العطفُ، ولا بأس فيما قرَّره هذا المحقِّقُ لتوجيهه، نعم للاستئناف وجهٌ وجيهٌ وإن لم يكن المنساقَ إلى الفهم.

والظاهرُ أنَّ المراد من تأويل الأحاديث تعبيرُ الرؤيا؛ إذ هي إخباراتٌ غيبيةٌ يخلقُ الله تعالى بواسطتها اعتقاداتٍ في قلب النائم حسبما يشاؤه، ولا حَجْرَ عليه تعالى. أو أحاديث المَلَكِ إن كانت صادقة، أو النفس أو الشيطان إن لم تكن كذلك.

وذكر الراغب(١) أنَّ التأويل من الأَوْلِ وهو الرجوعُ، وذلك ردُّ الشيء إلى الغاية المرادةِ منه عِلْماً كان أو فِعلاً، فالأولُ كقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] والثاني كقوله:

وللنوى قبلَ يوم البَيْنِ تأويلُ(٢)

وجاء الأَوْلُ بمعنى السياسة التي يراعَى مآلُها، يقال: أُلْنا وإيلَ علينا(٣). اهـ.

وشاع التأويلُ في إخراج الشيء عن ظاهره.

و«الأحاديث» جمع تكسيرٍ لحديثٍ على غير قياس، كما قالوا: باطل وأباطيل،

---

(١) في مفرداته (أول).

(٢) وصدره: وللأحبة أيامٌ تَذكَّرُها، والبيت لعبدة بن الطبيب كما في المفضليات ص١٣٦.

(٣) أي: قد سُسْنا وساسنا غيرنا، وهذا المثل يروى أن زياد بن أبيه قاله في خطبته. كتاب الأمثال لأبي عبيد ص١٠٦.

وليس باسْمِ جمعٍ له لأنَّ النحاة قد شَرَطُوا في اسم الجمع أنْ لا يكون على وزنٍ يختصُّ بالجمع كمفاعيل، وممن صرح بأنه جمعٌ الزمخشريُّ في «المفصل»، وهو مرادُه من اسم الجمع في «الكشاف»[١] فإنه كغيره كثيراً ما يُطلِقُ اسمَ الجمع على الجمع المخالفِ للقياس، فلا مخالفةَ بين كلاميه.

وقيل: هو جمعُ أحدوثة. ورُدَّ بأنَّ الأحدوثةَ: الحديثُ المضحكُ كالخرافة، فلا يناسب هنا ولا في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون جمعَ أحدوثة، وقال ابن هشام: الأحدوثةُ من الحديث ما يُتحدَّثُ به، ولا تُستعمل إلا في الشر.

ولعل الأمر ليس كما ذكروا، وقد نصَّ المبرِّدُ على أنها تَرِدُ في الخير، وأنشد قول جميل[٢] وهو مما سار وغار:

وكنتُ إذا ما جئتُ سُعْدَى أزورُها ... أرى الأرض تُطْوَى لي ويَدْنُو بعيدُها

من الخَفِراتِ البيض ودَّ جليسُها ... إذا ما انقضتْ أحدوثةٌ لو تعيدُها[٣]

وقيل: إنهم جمعوا حديثاً على أحدوثة، ثم جمعوا الجمع على أحاديث، كقطيع وأقطعة وأقاطيع.

وكونُ المراد من تأويل الأحاديث تعبيرَ الرؤيا هو المرويُّ عن مجاهد والسدِّيِّ. وعن الحسن أنَّ المراد عواقب الأمور. وعن الزجَّاج أنَّ المراد بيانُ معاني أحاديث الأنبياء والأمم السالفة والكتب المنزلة[٤].

وقيل: المراد بالأحاديث: الأمورُ المحدَثةُ من الروحانيات والجسمانيات[٥]،

(١) ٢/ ٣٠٣.

(٢) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥٧، ولم نقف على من نسبه لجميل، وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) الكامل للمبرد ٢/ ٨٠٤، وحاشية الشهاب ٥/ ١٥٧، ولم ينسبهما المبرد، ونسبا لكثير عزة، وهما في ديوانه ص١٢٦، وينسبان أيضاً لنصيب بن رباح، وهما في ديوانه ص٨٢. وورد البيت الثاني في ديوان مجنون ليلى ص١٠٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٢، وأجاز الزجاج أيضاً أن يكون المراد بالأحاديث تأويل الرؤيا.

(٥) في الأصل: من روحانيات وجسمانيات.

وبتأويلها كيفيةُ الاستدلال بها على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته. والكلُّ خلافُ الظاهر فيما أرى.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بأنْ يَصِلَ نعمةَ الدنيا بنعمة الآخرة، أو بأنْ يضمَّ إلى النبوَّة المستفادة من الاجتباء المُلْكَ ويجعلَه تتمةً لها، أو بأن يضمَّ إلى التعليم الخلاصَ من المحن والشدائد.

وتوسيطُ ذكر التعليم لكونه من لوازم النبوَّة والاجتباء، ولرعاية ترتيب الوجود الخارجيِّ، ولأنَّ التعليم وسيلةٌ إلى إتمام النعمة، فإنَّ تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك صار ذريعةً إلى الخلاص من السجن والاتِّصال بالرياسة العظمى.

وفسَّر بعضهم الاجتباءَ بإعطاء الدرجات العالية كالمُلْكِ والجلالةِ في قلوب الخلق، وإتمامَ النعمة بالنبوَّة، وأيَّد بأنَّ إتمام النعمة عبارةٌ عمَّا تصير به النعمة تامةً كاملةً خاليةً عن جهات النقصان، وما ذاك في حقِّ البشر إلا النبوَّةُ، فإن جميع مناصب الخلق ناقصةٌ بالنسبة إليها.

وجوِّز أنْ تُعدَّ نفسُ الرؤيا من نعم الله تعالى عليه، فيكون جميع النعم الواصلة إليه بحسبها مصداقاً لها تماماً لتلك النعمة، ولا يخلو عن بُعْدٍ.

وقيل: المراد من الاجتباء إفاضةُ ما يستعد به لكلِّ خيرٍ ومَكْرُمةٍ، ومن تعليم تأويل الأحاديث تعليمُ تعبيرِ الرؤيا، ومن إتمام النعمة عليه تخليصُه من المحن على أتم وجهٍ، بحيث يكون مع خلاصه منها ممن يُخْضَعُ له، ويكون في تعليم التأويل إشارةٌ إلى استنبائه؛ لأن ذلك لا يكون إلا بالوحي.

وفيه أنَّ تفسير الاجتباء بما ذكر غيرُ ظاهر، وكونُ التعليم فيه إشارةً إلى الاستنباء في حيِّز المنع، وما ذكر من الدليل لا يثْبِتُه، فإنَّ الظاهر أنَّ إخوته كانوا يعلمون التأويل، وإلا لم ينهه أبوه عليه السلام عن اقتصاص رؤياه عليهم خوفَ الكيد، وكونُهم أنبياء إذ ذاك مما لم يذهب إليه ذاهبٌ ولا يكاد يذهبُ إليه أصلاً. نعم ذكروا أنه لا يَعْرِفُ التعبير كما لا ينبغي إلَّا من عرف المناسبات التي بين الصُّوَر ومعانيها، وعرف مراتبَ النفوس التي تظهر في حضرة خيالاتهم بحسبها، فإنَّ أحكام الصورة الواحدة تختلفُ بالنسبة إلى الأشخاص المختلفة المراتب، وهذا عزيزُ الوجود، وقد

ثبت الخطأ في التعبير من علماءَ أكابرَ، فقد روى أبو هريرة أنَّ رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ فقال: إنِّي رأيت ظُلَّةً[1] ينطفُ منها السَّمْنُ والعسل، وأرى الناس يتكفَّفون[2] في أيديهم، فالمستكثِرُ والمستقِلُّ، وأرى سبباً واصلاً من السماء إلى الأرض، فأراك يا رسول الله أخذتَ به فعلَوْتَ، ثم أخذ به رجلٌ آخَرُ فعَلَا، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعَلَا، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعَلَا، ثم أخذ به رجلٌ آخَرُ فانقطع به ثم وُصِلَ له فعَلَا. فقال أبو بكر ﷺ: أي رسول الله بأبي أنت وأمي والله لتَدَعنِّي فلأَعْبُرها. فقال عليه الصلاة والسلام: «عبِّرها»، فقال: أمَّا الظلَّةُ فظلَّةُ الإسلام، وأما ما ينطف من السمن والعسل فهو القرآن لينه وحلاوته، وأمَّا المستكثر والمستقلُّ فالمستكثر من القرآن والمستقلُّ منه، وأما السببُ الواصل من السماء إلى الأرض فهو الحقُّ الذي أنت عليه، تأخُذُ به فيُعْليك اللهُ تعالى، ثم يأخذ به رجلٌ بعدك فيعلو به، ثم آخَرُ بعده فيعلو به، ثم آخَرُ بعده فيعلو به، ثم آخَرُ فينقطع به ثم يوصَلُ له فيعلو به، أي رسول الله، لتحدثنِّي أصبتُ أم أخطأت؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً»، فقال: أقسمتُ بأبي وأمي لتحدثنِّي يا رسول الله ما الذي أخطأتُ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُقْسِمْ»[3]. اهـ. اللهمَّ إلا أنْ يُدَّعَى أنَّ المراد التعليم على الوجه الأكمل بحيث لا يخطئُ من يخطئ به، وهو يستدعي كونَ الرجل بحيث يعرف المناسبات ومراتبَ النفوس، ويُلتزم القولُ بأنَّ ذلك لا يكون إلا نبيًّا.

واختير أنَّ المراد بالاجتباء الاصطفاءُ للنبوة، وبتعليم التأويل ما هو الظاهرُ، وبإتمام النعمة تخليصُه من المكاره، ويكون قولُه عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ إشارةً إجماليةً منه إلى تعبير الرؤيا كما لا يخفى على مَن له ذوقٌ، وهو أيضاً متضمِّنٌ للبشارة، وهذا إردافٌ لها بما هو أجلُّ في نظر يوسف عليه السلام ووجْهُ توسيطِ التعليم عليه لا يخفى، وحاصل المعنى: كما أكرمك بهذه

---

(١) أي: سحابة لها ظلٌّ. فتح الباري ١٢/ ٤٣٤.

(٢) أي: يأخذون بأكُفِّهم. الفتح ١٢/ ٤٣٤.

(٣) أخرجه أحمد (٢١١٤)، والبخاري (٧٠٤٦)، ومسلم (٢٢٦٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه مسلم أيضاً (٢٢٦٩) من حديث ابن عباس أو أبي هريرة. وأخرجه أبو داود (٤٦٣٢)، والترمذي (٢٢٩٣) من حديث ابن عباس قال: كان أبو هريرة يحدث أن رجلاً... الحديث، وينظر فتح الباري ١٢/ ٤٣٣.

المبشِّرة الدالَّة على سجود إخوتك لك ورفعةِ شأنك عليهم يكرمُك بالنبوَّة والعلم الذي تعرفُ به تأويلَ أمثالِ ما رأيتَ، وإتمام نعمته عليك ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بالخلاص من المكاره، وهي في حقِّ يوسفَ عليه السلام مما لا يخفى، وفي حقِّ آل يعقوب[١]، والمراد بهم أهلُه من بنيه وغيرِهم، وأصله: أهل، وقيل: أَوْل، وقد حقَّقناه في غير ما كتاب[٢]، ولا يستعمل إلا فيمَن له خطرٌ مطلقاً، ولا يضافُ لِمَا لا يعقل ولو كان ذا خطرٍ بخلاف أهل، فلا يقال: آل الحجام، ولا: آل الحرم، ولكن: أهل الحجام، وأهل الحرم. نعم قد يضاف لِمَا نزِّلَ منزلةَ العاقل، كما في قول عبد المطلب:

وانـصُـرْ عـلـى آل الـصـلـيـب[٣]    وعـابـديـهِ الـيـومَ آلَـك[٤]

وفيه ردٌّ على أبي جعفر الزبيدي حيث زعم عَدَمَ جواز إضافته إلى الضمير لعدم سماعه مضافاً إليه. ويعقوبُ كابنه اسمٌ أعجميٌّ لا اشتقاقَ له، فما قيل من أنه إنما سمي بذلك لأنه خرج من بطن أمِّه عقب أخيه العيص، غيرُ مرضيٍّ عند الجلة = الفاقةُ والقَحْطُ وتفرُّق الشَّمْلِ، وغيرُ ذلك مما يعمُّ أو يخص.

ومنهم من فسَّر الآل بالبنين، وإتمامَ النعمة بالاستنباء، وجَعَل حاصل المعنى: يمنُّ عليك وعلى سائر أبناء يعقوب بالنبوة، واستدلَّ بذلك على أنهم صاروا بعدُ أنبياء.

وفي «إرشاد العقل السليم»[٥]: إنَّ رؤية يوسف عليه السلام إخوتَه كواكبَ يُهتَدَى بأنوارها من نِعَمِ الله تعالى عليهم؛ لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوَّة، فيقع كلُّ ما يخرجُ من القوة إلى الفعل من كمالاتهم بحسَبِ ذلك تماماً لتلك النعمة لا محالة.

---

(١) جاء في حاشية (م): قوله: في حق آل يعقوب إلخ، هو خبر مقدم، وقوله الآتي: الفاقة والقحط إلخ مبتدأ مؤخر. اهـ.

(٢) ينظر ما سلف ٢/ ١٦٠ عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): بناء على أن الصليب اسمٌ لما يعلقه النصارى في أعناقهم ويعبدونه. اهـ منه.

(٤) الروض الأنف ١/ ٧٠.

(٥) ٤/ ٢٥٤.

وأنت تعلم أنَّ ما ذكر لا يصلح دليلاً على أنهم صاروا أنبياءَ؛ لِمَا علمتَ من الاحتمالات، والدليلُ إذا طَرَقَه الاحتمالُ بطل به الاستدلال، ورؤيتُهم كواكبَ يُهْتَدَى بأنوارها بمعزلٍ عن أن تكون دليلاً على أنَّ مصيرهم إلى النبوة، وإنما تكون دليلاً على أنَّ مصيرهم إلى كونهم هادين للناس، وهو مما لا يلزمُه النبوَّةُ، فقد قال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتُم اهتديتم»[(١)] ونحن لا ننكِرُ أنَّ القوم صاروا هادين بعد أن منَّ الله تعالى عليهم بالتوبة، بل هم لعمري حينئذٍ من أجلَّةِ أصحاب نبيِّهم. وقد يقال أيضاً: إنه لو دلَّ رؤيتُهم كواكبَ على أنَّ مصيرهم إلى النبوَّة لكانت رؤيةُ أمِّه قمراً أدلَّ على ذلك، ولا قائل به.

وقال بعضهم: لا مانعَ من أن يراد بـ «آل يعقوب» سائرُ بنيه، وبإتمام النعمة إتمامُها بالنبوَّة، لكن لا يَثْبُتُ بذلك نبوَّتُهم بعدُ لجواز أن يراد: يتم نعمته عليك بالنبوَّة، وعلى آل يعقوب بشيءٍ آخَرَ كالخلاص من المكروه مثلاً، وهذا كقولك: أنعمتُ على زيد وعلى عمرو، وهو لا يقتضي أن يكون الإنعامُ عليهما من نوعٍ واحد؛ لصِدْقِ الكلام بأنْ تكونَ قد أنعمتَ على زيدٍ بمنصبٍ وعلى عمرو بإعطائه ألف دينار، أو بتخليصه من ظالمٍ مثلاً، وهو ظاهر.

ورجَّح بعضُهم حملَ الآل على ما يعمُّ الأبناء، بأنه لو كان المراد الأبناء لكان الأظهر الأخصر: وعلى إخوتك، بدلَ ما في النظم الجليل.

وقيل: إنما اختار ذلك عليه لأنه يتبادرُ من الإخوة الإخوةُ الذي نُهي عن الاقتصاص عليهم، فلا يدخل بنيامين، والمراد إدخالُه.

وقيل: المراد بـ «آل يعقوب» أتباعُه الذين على دينه[(٢)]. وقيل: يعقوب خاصةً، على أنَّ الآل بمعنى الشخص. ولا يخفى ما في القولين من البُعْدِ، وأبعدُهما الأخيرُ.

ومَن جَعَل إتمامَ النعمة إشارةً إلى المُلْكِ جَعَلَ العطفَ باعتبارِ أنهم يغتنمون آثاره من العزِّ والجاه والمال[(٣)].

---

(١) حديث موضوع، وينظر ما سلف ١/ ٢٠١.
(٢) جاء في هامش الأصل: وفي بعض الآثار: آلُ محمد كلُّ تقيٍّ، وفيه مقال. اهـ منه.
(٣) بعدها في الأصل و(م): هذا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٤، والكلام منه.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ أي: إتماماً كائناً كإتمام نعمتِه على أبويك من قبلِ هذا الوقتِ، أو من قبلك، والاسمان الكريمان عطفُ بيانٍ لـ «أبويك»، والتعبيرُ عنهما بالأب مع كونهما أبا جدِّه وأبا أبيه، للإشعار بكمال ارتباطِه بالأنبياء عليهم السلام، وتذكيرِ معنى: الولدُ سرُّ أبيه، ليطمئنَّ قلبه بما أخبر به.

وإتمامُ النعمةِ على إبراهيم عليه السلام إمَّا بالنبوَّة، وإما باتخاذه خليلاً، وإما بإنجائه من نار عدوِّه، وإما مِن ذَبْحِ ولده، وإمَّا بأكثر من واحدٍ من هذه. وعلى إسحاق إمَّا بالنبوة، أو بإخراج يعقوبَ من صُلْبه، أو بإنجائه من الذبح وفدائه بذبحٍ عظيم على روايةِ أنه الذبيح، وذهب إليه غيرُ واحد، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى تحقيقُه(١).

وأمرُ التشبيه على سائر الاحتمالات سهل؛ إذ لا يجبُ أن يكون من كلِّ وجهٍ، والاقتصارُ في المشبَّه به على ذِكْرِ إتمام النعمة من غير تعرُّضٍ للاجتباء من باب الاكتفاء كما قيل، فإنَّ إتمام النعمة يقتضي سابقةَ النعمة المستدعيةِ للاجتباء لا محالة.

ومعرفتُه عليه السلام لِمَا أَخْبَرَ به مما لم تدلَّ عليه الرؤيا إما بفراسةٍ، وكثيراً ما تصدُقُ فراسةُ الوالد بولده كيفما كان الوالد، فما ظنُّك بفراسته إذا كان نبيًّا؟ أو بوحيٍ، وقد يُدَّعَى أنه استدلَّ بالرؤيا على كلِّ ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ، فيعلمُ من يستحقُّ المذكورات ﴿حَكِيمٞ ۝٦﴾ فاعلٌ لكلِّ شيءٍ حسبما تقتضيه الحكمةُ، فيفعلُ ما يفعل جَرْياً على سَنَنِ عِلْمِه وحكمته، والجملةُ استئنافٌ لتحقيق الجمل المذكورة.

﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ﴾ أي: في قَصَصِهم. والظاهرُ أنَّ المراد بالإخوة هنا ما أُريدَ بالإخوة فيما مر، وذهب جمعٌ إلى أنهم هناك بنو عَلَّاته. وجوِّز أن يراد بهم هاهنا ما يشملُ من كان من الأعيان؛ لأنَّ لبنيامين أيضاً حصةٌ من القصة، ويُبْعِدُه على ما قيل: «قالوا» الآتي.

---

(١) إثر تفسير الآية [١١٣] من سورة الصافات.

﴿ءَايَٰتٌ﴾ علاماتٌ عظيمةُ الشأنِ دالَّةٌ على عظيم قُدرةِ الله تعالى القاهرةِ وحكمتِه الباهرة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ لكلِّ مَن سأل عن قصتهم وعَرَفَها، أو للطالبين للآيات المعتبِرين بها، فإنهم الواقفون عليها المنتفعون بها دون مَن عَدَاهم ممن اندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] فالمراد بالقصة نفسُ المقصوص.

أو على نبوَّته عليه الصلاة والسلام للذين سألوه عن قصتهم ـ حَسْبَما علمتَ في بيان سبب النزول ـ فأخبرهم ﷺ بذلك على ما هو عليه من غير سماعٍ من أحدٍ ولا قراءةِ كتاب، فالمرادُ بالقصة اقتصاصُها، وجمعُ «الآيات» حينئذٍ قيل: للإشعار بأنَّ اقتصاصَ كلِّ طائفةٍ من القصة آيةٌ بيِّنةٌ كافيةٌ في الدلالة على نبوَّته ﷺ، وقيل: لتعدُّدِ جهة الإعجاز لفظاً ومعنًى.

وزعم بعض الجلَّة أن الآية من باب الاكتفاء[١]، والمراد: آياتٌ للذين يَسألون والذين لا يَسألون، ونظيرُ ذلك قوله سبحانه: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] وحَسُنَ ذلك لقوة دلالة الكلام على المحذوف.

وقال ابن عطية: إنَّ المراد من «السائلين» الناسُ، إلا أنه عدل عنه تحضيضاً على تعلُّم مثل هذه القصة لِمَا فيها من مزيد العبر[٢]. وكِلَا القولين لا يخلو عن بعد.

وقرأ أهل مكة وابن كثير ومجاهد: «آية» على الإفراد[٣]. وفي مصحف أبيٍّ: «عبرةٌ للسائلين»[٤]. ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامينُ، وتخصيصُه بالإضافة لاختصاصه بالأخوَّة من جانبي الأمِّ والأب، وهي أقوى من الأخوة من أحدهما، ولم يذكروه باسمه إشعاراً بأنَّ محبة يعقوب عليه السلام له لأَجْلِ شقيقه يوسف عليه السلام، ولذا لم يتعرَّضوه بشيءٍ مما أُوْقِعَ بيوسف عليه السلام.

---

(١) هو أن يقتضي المقام شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة. الإتقان ٢/ ٨٣٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢١.

(٣) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن ابن كثير، والكلام من البحر ٥/ ٢٨٢.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢١، والبحر ٥/ ٢٨٢.

واللامُ للابتداء، و«يوسف» مبتدأ، و«أخوه» عطف عليه. وقولُه سبحانه: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ خبرٌ ومتعلِّقٌ به، وهو أفعلُ تفضيلٍ من المبني للمفعول شذوذاً، ولذا عدِّي بـ «إلى»، حَسْبَما ذكروا من أنَّ «أفعل» من الحبِّ والبغض يعدَّى إلى الفاعل معنًى بإلى، وإلى المفعول باللام وفي؛ تقول: زيدٌ أحبُّ إليَّ من بكر، إذا كنتَ تُكْثِرُ محبَّته، و«لي» و«فيَّ» إذا كان يحبُّك أكثر من غيره.

ولم يثنَّ مع أن المخبَرَ عنه به اثنان؛ لأنَّ «أفعل من كذا» لا يفرَّقُ فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكَّر وما يقابلُه، بخلافِ أخويه، فإنَّ الفرق واجبٌ في المحلَّى، جائزٌ في المضاف إذا أريد تفضيلُه على المضاف إليه، وإذا أريد تفضيلُه مطلقاً فالفرقُ لازمٌ.

وجيءَ بلام الابتداء لتحقيق مضمون الجملة وتأكيدِه، أي: كثرةُ حبِّه لهما أمرٌ ثابتٌ لا شبهةَ فيه ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: الحالُ أنَّا جماعةٌ قادرون على خدمته والجدِّ في منفعته دونهما.

والعُصْبةُ والعصابةُ على ما نقل عن الفرَّاء: العشرةُ فما زاد[1]، سُمُّوا بذلك لأنَّ الأمور تُعصب بهم، أي: تُشدُّ فتَقْوَى.

وعن ابن عباس أنَّ العصبة ما زاد على العشرة، وفي روايةٍ عنه أنها ما بين العشرة والأربعين. وعن مجاهد أنها من عشرةٍ إلى خمسةَ عَشَر. وعن مقاتل: هي عشرة. وعن ابن جبير: ستة أو سبعة. وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة. وقيل: إلى خمسة عشر.

وعن ابن زيد والزجَّاج وابنِ قتيبةَ: هي الجماعةُ مطلقاً[2]، ولا واحدَ لها من لفظها كالنَّفرِ والرَّهْطِ.

وقيل: الثلاثة نفرٌ، وإذا زادوا فهم رَهْطٌ إلى التسعة، فإذا زادوا فهم عصبةٌ؛ ولا يقال لأقلَّ من عشرةٍ: عصبة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٣، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢١٢.

وروى النزَّال بن سبرة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قرأ بنصب «عصبة»[(١)] فيكون الخبرُ محذوفاً، و«عصبةً» حالٌ من الضمير فيه، أي: نجتمع عصبةً، وقدِّر ذلك ليكون في الحال دلالةٌ على الخبر المحذوف؛ لما فيها من معنى الاجتماع.

وزعم ابن المنير أنَّ الكلام على طريقةِ:

أنـا أبـو الـنـجـم وشِـعْـري شِـعْـري[(٢)]

والتقديرُ: ونحنُ نحن عصبةً، وحُذف الخبر لمساواته المبتدأ وعدمِ زيادته عليه لفظاً، ففي حذفه خلاصٌ من تكرار اللفظ بعينه مع دلالة السياق على المحذوف، ولا غَرْوَ في وقوع الحال بعد «نحن» لأنه بالتقدير المذكور كلامٌ تامٌّ فيه من الفخامة ما فيه، وقدِّر في ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] على قراءة النصب مثلُ ذلك[(٣)]. وفيه أنَّ الفخامة إنما تجيءُ من التكرار فلا يجوزُ الحذفُ، على أنَّ الدلالة على المحذوف غيرُ بينة.

وعن ابن الأنباريِّ أنَّ ذلك كما تقول العرب: إنما العامريُّ عِمَّته، أي: يتعهَّدُ ذلك[(٤)]، والدالُّ على المحذوف فيه «عِمَّته» فإن الفِعْلَة للحالة التي يستمرُّ عليها الشخصُ، فيلزمُ لا محالةَ تعهُّدُه لها.

والأَوْلَى أن يُعتبر نظيرَ قول الفرزدق: يا لَهْذَمُ حُكْمُكَ مُسمَّطاً، فإنه أراد كما قال المبرِّدُ: حُكْمكَ لك مسمَّطاً، أي: مثبتٌ نافذٌ غيرُ مردودٍ[(٥)]. وقد شاع هذا فيما بينهم، لكنْ ذكروا أنَّ فيه شذوذاً من وجهين، والآيةُ على قراءة الأمير كرم الله تعالى وجهَه أكثرُ شذوذاً منه كما لا يخفى على المتدرِّب في علم العربية.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٨٣، والكشاف ٢/ ٣٠٥.

(٢) ديوان أبي النجم العجلي ص٩٩، وسلف ٢/ ٤١٧ و٧/ ٣١٠ و٤٧٥.

(٣) الانتصاف ٢/ ٣٠٤، والقراءة بالنصب في الآية المذكورة سلفت ص٣٨ من هذا الجزء.

(٤) سمعه من ابن الأنباري ابن خالويه كما ذكر في القراءات الشاذة ص٦٢. والعِمَّة بالكسر: الاعتمام. القاموس (عمم).

(٥) الكامل ٢/ ٦١٦-٦١٧، ولقول الفرزدق هذا قصة، وفيها أن لهذم هذا، وهو مكاتَبٌ لبني منقر ضَعُف عن حمل ما كوتب به، فأتى قبر غالب والد الفرزدق فاستجار به، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره وذكر له في ذلك شعراً، فقال له الفرزدق تلك الجملة، وينظر تتمة القصة في الكامل ٢/ ٦١٢.

﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ أي: في ترجيحهما علينا في المحبة مع فَضْلِنا عليهما وكونِهما بمعزلٍ عن كفاية الأمور ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: خطأ في الرأي، وذهابٍ عن طريق التعديل اللائق من تنزيل كلٍّ منَّا منزلتَه ﴿مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ ظاهر الحال. وجعل الضلال ظرفاً لتمكُّنه فيه، ووَصْفُه بالمبين إشارةٌ إلى أنَّ ذلك غيرُ مناسبٍ بزَعْمِهم، والتأكيدُ لمزيد الاعتناء.

يُروى أنه عليه السلام كان أحبَّ إليه لِمَا يرى فيه من[1] المخايل، وكانت إخوتُه يحسدونه، فلمَّا رأى الرؤيا تضاعَفَتْ له المحبةُ، فكان لا يصبر عنه ويضمُّه كلَّ ساعةٍ إلى صدره، ولعله أحسَّ قلبُه بالفراق، فتضاعف لذلك حسدُهم حتى حملهم على ما قصَّ الله تعالى عنهم.

وقال بعضهم[2]: إنَّ سبب زيادة حبِّه عليه السلام ليوسف وأخيه صغرُهما وموتُ أمهما، وحبُّ الصغير أمرٌ مركوزٌ في فطرة البشر، فقد قيل لابنة الحسن: أيُّ بنيك أحبُّ إليك؟ قالت: الصغيرُ حتى يَكْبُر، والغائبُ حتى يَقْدَمَ. والمريضُ حتى يَشْفَى.

وقد نظم بعضُ الشعراء في محبة الولد الصغير قديماً وحديثاً، ومن ذلك ما قاله الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري[3] من قصيدة بعث بها إلى أولاده وهو في السجن:

وصغيرُهم[4] عبدُ العزيز فإنَّني ... أطوي لفُرْقَته جوًى لم يَصْغُرِ

ذاك المقدَّمُ في الفؤاد وإنْ غدَا ... كفؤاً لكم في المنْتَمَى والعنصرِ

إنَّ البنان الخمسَ أَكْفاءٌ معاً ... والحلْيُ دون جميعها للخنصر

وإذا الفتى فَقَدَ الشبابَ سما له ... حبُّ البنينَ ولا كحبِّ الأصغر

وفيه أنَّ منشأ زيادة الحبِّ لو كانت ما ذكر لكان بنيامين أَوْفرَ حظًّا في ذلك؛ لأنه أصغرُ من يوسف عليه السلام كما يدلُّ عليه قولُهم: إنَّ أمهما ماتت في نفاسه،

(١) بعدها في (م): أن، وهو خطأ. ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٥٨.
(٢) هو قول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢١، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٨٢ والكلام منه.
(٣) الكاتب، أحد وزراء الدولة العامرية بالأندلس وكاتبها، كان عالماً أديباً شاعراً، مات قبل الأربع مئة بمدة. الوافي بالوفيات ١٩/ ١٥٣، وجذوة المقتبس ص٢٨٠.
(٤) في البحر: وصغيركم.

والآيةُ كما أشرنا إليه مشيرةٌ إلى أنَّ محبته لأجل شقيقه يوسف، فالذي ينبغي أن يعوَّل عليه أنه عليه السلام إنما أحبَّه أكثر منهم لَمَّا رأى فيه من مخايل الخير ما لم يَرَ فيهم، وزاد ذلك الحبَّ بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الأمارات عنده.

ولا لوم على الوالد في تفضيله بعضَ ولده على بعضٍ في المحبة لمثل ذلك، وقد صرَّح غيرُ واحدٍ أنَّ المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر، والمرءُ معذورٌ فيما لم يدخل تحته.

نعم ظنَّ أبناؤه أنَّ ما كان منه عليه السلام إنما كان عن اجتهادٍ، وأنه قد أخطأ في ذلك، والمجتهدُ يخطئُ ويصيب وإن كان نبيًّا، وبهذا ينحلُّ ما قيل: إنهم إن كانوا قد آمنوا بكون أبيهم رسولاً حقًّا من عند الله تعالى فكيف اعترضوا، وكيف زيَّفوا طريقته وطعنوا فيما هو عليه؟ وإن كانوا مكذِّبين بذلك فهو يوجبُ كفرَهم والعياذُ بالله تعالى، وهو مما لم يقل به أحدٌ، ووجهُ الانحلال ظاهر.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ الظاهرُ أنَّ هذا من جملة ما حُكي بعد قوله سبحانه: (إِذْ قَالُوا۟) وقد قاله بعضٌ منهم مخاطباً للباقين، وكانوا راضين بذلك إلَّا مَن قال: «لا تقتلوا» إلخ، ويحتمل أنه قاله كلٌّ منهم مخاطباً للبقية، والاستثناءُ هو الاستثناء. وزعم بعضهم أنَّ القائل رجلٌ غيرهم شاوروه في ذلك، وهو خلافُ الظاهر، ولا ثبتَ له.

والظاهرُ أنَّ القائل خيَّرهم بين الأمرين: القتلِ، والطرح. وجوِّز أن يكون المراد: قال بعضٌ: «اقتلوا يوسف» وبعضٌ: «اطرحوه».

والطرحُ رميُ الشيء وإلقاؤه، ويقال: طرحتُ الشيء: أبعدْته، ومنه قولُ عروة بن الورد:

ومَن يكُ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتِراً ... من المال يَطْرحْ نفسَه كلَّ مَطْرحِ[1]

ونُصِبَ «أرضاً» على إسقاط حرف الجر كما ذهب إليه الحوفيُّ وابن عطية[2]، أي: ألقُوه في أرضٍ بعيدة عن الأرض التي هو فيها.

---

(١) ديوان عروة ص٤٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٢.

وقيل: نُصِبَ على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «اطرحوه» لتضمُّنِه[1] معنى أَنْزِلوه، فهو كقوله تعالى: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وقيل: منصوبٌ على الظرفية. وردَّه ابنُ عطية وغيرُه بأنَّ ما ينتصبُ على الظرفية المكانية لا يكون إلا مبهماً، وحيث كان المراد: أرضاً بعيدةً عن أرضه لم يكن هناك إبهامٌ[2]. ودُفع بما لا يخلو عن نظر.

وحاصل المعنى: اقتلوه أو غرِّبوه فإنَّ التغريب كالقتل في حصول المقصود مع السلامة من إثمه، ولعمري لقد ذكروا أمرين مُرَّين، فإنَّ الغربة كربةٌ أيةُ كربةٍ، ولله تعالى درُّ مَن قال:

حسَّنوا القول وقالوا غربةٌ ... إنما الغربةُ للأحرار ذبحُ[3]

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ بالجزم جوابُ الأمر، والوجهُ: الجارحةُ المعروفة، وفي الكلام كنايةٌ تلويحيةٌ عن خلوص المحبة، ومن هنا قيل: أي: يُقْبِلُ عليكم إقبالةً واحدة لا يلتفتُ عنكم إلى غيركم، والمرادُ سلامةُ محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعُهم إياها. وقد فسِّر الوجهُ بالذات، والكنايةُ بحالها خلا أنَّ الانتقال إلى المقصود بمرتبتين على الأول وبمرتبة على هذا.

وقيل: الوجهُ بمعنى الذات، وفي الكلام كنايةٌ عن التوجُّه والتقيُّد بنظم أحوالهم وتدبيرِ أمورهم؛ لأنَّ خلوَّه لهم يدلُّ على فراغه من شغل يوسف عليه السلام، فيشتغل بهم وينظم أمورهم. ولعل الوجه الأَوْجَه هو الأول.

﴿وَتَكُونُوا﴾ بالجزم عطفاً على جواب الأمر، وبالنصب بعد الواو بإضمار «أنْ»[4]،

---

(١) في (م): لتضمينه.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٢.

(٣) البيت لفتح الله بن النحاس كما في نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبي ٢/ ٥٢٢.

(٤) جاء في حاشية (م): لا يخفى على المتأمل في هذا التفسير حلُّ ما استَشْكلَه بعض الناس على تقدير العطف على جواب الأمر من عدم استقامة: إن تقتلوا أو تطرحوا تكونوا من بعده قوماً صالحين. من حيث المعنى، وعندي أن ما أشير إليه من الجواب كالجواب عن نظير هذا الاستشكال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الآية [الفتح: ١] فتأمل ترشد. اهـ منه.

أي: يجتمع لكم خلوُّ وجهه والكونُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: بعد يوسف على معنى: بعد الفراغ من أمره، أو: من بعد قتله أو طرحه. فالضميرُ إمَّا ليوسف أو لأحد المصدرين المفهومين من الفعلين.

﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ بالتوبة والتنصُّل إلى الله تعالى عمَّا جئتُم به من الذنب كما روي عن الكلبي، وإليه ذهب الجمهور، فالمراد بالصلاح الصلاحُ الدينيُّ بينهم وبين الله تعالى. ويحتمل أن المراد ذلك لكن بينهم وبين أبيهم بالعذر، وهو وإن كان مخالفاً للدِّين لكونه كذباً، لكنه موافقٌ له من جهةٍ أنهم يرجون عفوَ أبيهم وصَفْحَه به ليخلصوا من العقوق على ما قيل. ويحتمل أن يراد الصلاحُ الدنيويُّ، أي: صالحين في أمر دنياكم، فإنه ينتظم لكم بعده بخلوِّ وجه أبيكم. وإيثار الخطاب في «لكم» وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامَه بتحصيل منافعه أتمُّ وأكمل.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ هو يهوذا، وكان رأيُه فيه أهونَ شرًّا من رأي غيره، وهو القائل: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إلخ [يوسف: ٨٠] قاله السدي.

وقال قتادة وابن إسحاق: هو روبيل. وعن مجاهد: أنه شمعون. وقيل: دان. وقال بعضهم: إنَّ أحد هذين هو القائل: «اقتلوا يوسف» إلخ، وأما القائل: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فغيرُه. ولعل الأصحَّ أنه يهوذا.

قيل: وإنما لم يُذكر أحدٌ منهم باسمه ستراً على المسيء، وكلٌّ منهم لم يَخْلُ عن الإساءة وإن تفاوتت مراتبها، والقول بأنه على هذا لا ينبغي لأحدٍ أن يعيِّن أحداً منهم باسمه تأسِّياً بالكتاب ليس بشيء؛ لأنَّ ذلك مقامُ تفسيرٍ، وهو فيه أمرٌ مطلوب.

والجملةُ مستأنفةٌ استئنافاً بيانيًّا، كأنَّ سائلاً سأل: اتَّفقوا على ما عُرِضَ عليهم من خصلتي الصنيع أم خالفهم في ذلك أحد؟ فقيل: قال قائلٌ منهم: «لا تقتلوا» إلخ. والإتيانُ بـ «يوسف» دون ضميره لاستجلاب شفقتهم عليه واستعظامِ قَتْلِه وهو هو؛ فإنه يُروى أنه قال لهم: القتلُ عظيمٌ، ولم يصرِّح بنهيهم عن الخصلة الأخرى، وأحاله على أولويةِ ما عَرَضَه عليهم بقوله: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ أي: في قَعْرِه

وغَوْرِه، سمِّي به لغيبته عن عين الناظر، ومنه قيل للقبر: غَيابة، قال المنخَّل السعدي[(١)]:

إذا أنا يوماً غيَّبتني غَيَابتي فسيروا بسَيْري في العشيرة والأهل

وقال الهرويُّ: الغيابةُ في الجبِّ شِبْهُ كهفٍ[(٢)] أو طاقٍ في البئر فوق الماء يغيِّبُ ما فيه عن العيون.

والجبُّ: الرَّكِيَّةُ التي لم تُطْوَ فإذا طُوِيَتْ فهي بئرٌ[(٣)]، قال الأعشى:

لئن كنتَ في جبٍّ ثمانين قامةً ورقِّيتَ أسبابَ السماء بسلَّم[(٤)]

ويجمع على جبب[(٥)] وجِبَاب وأجباب، وسمِّي جبًّا لأنه جُبَّ[(٦)] من الأرض، أي: قُطِعَ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى الكلامُ في تأنيثه وتذكيره.

وقرأ نافع: «في غيابات» في الموضعين[(٧)]، كأنَّ لتلك الجبِّ غياباتٍ، ففيه إشارةٌ إلى سعتها، أو أراد بالجب الجنس، أي: في بعض غيابات الجب.

وقرأ ابن هرمز: «غيَّابات» بتشديد الياء التحتية، وهو صيغةُ مبالغةٍ، ووزنُه على

---

(١) كذا نقل المصنف عن البحر ٥/ ٢٨٤، وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٠٢ عن المنخل بن سبيع العنبري، والعنبري والسعدي شاعران ذكرهما الآمدي في المؤتلف والمختلف ص٢٧١ و ٢٧٢، ولكنه ذكر السعدي فيمن اسمه المتنخل، وقال: لم يقع إلي من شعره شيء، ثم أورد له بيتاً استشهد به الكسائي والفراء كما قال. والبيت منسوب للمنخل في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٤، والكشاف ٢/ ٣٠٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٢، وزاد المسير ٤/ ١٨٥. وهو في معاني القرآن للزجاج برواية: غيبتني منيتي.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في تفسير القرطبي ١١/ ٢٦٣، والبحر ٥/ ٢٨٤، والدر المصون ٦/ ٤٤٦ نقلاً عن الهروي: شبه لَجَفٍ، واللَّجَفُ: حَفْرٌ في جانب البئر. القاموس (لجف).

(٣) الركية: البئر، وطَوَى الركيةَ: عرشها بالحجارة والآجر. اللسان (طوى).

(٤) ديوان الأعشى ص١٧٣.

(٥) كذا في الأصل و(م)، والذي في المعاجم: جِبَبَة كقِرَدة. ينظر العين ٦/ ٢٥، والصحاح واللسان والقاموس والتاج (جبب)، وذكروا أن جُبَب كقُبَب جمع الجبة التي بمعنى الثوب، أو من أسماء الدرع.

(٦) في الأصل: جبّب.

(٧) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٣، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

ما نقل صاحب «اللوامح» يجوز أن يكون فعَّالات كحمَّامات، ويجوز أن يكون فَيْعَالات، كشَيْطانات في جمع شيطانة[١].

وقرأ الحسن: «غَيَبَة» بفتحات على أنه في الأصل مصدر كالغَلَبة، ويحتمل أن يكون جمعَ غائبٍ كصانع وصَنَعة[٢].

وفي حرف أبيٍّ رضي الله عنه: «غَيْبة» بسكون الياء التحتية[٣] على أنه مصدرٌ أُرِيدَ به الغائب.

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ أي: يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف، فإنَّ الالتقاط أخذُ شيءٍ مُشْرِفٍ على الضياع، كذا قيل، وفي «مجمع البيان»: هو أن يجد الشيء ويأخذَه من غير أن يحسبه[٤]، ومنه قوله:

ومـنـهـلٍ وردتُـه الـتـقـاطـا[٥]

﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: بعضُ جماعةٍ تسير في الأرض و«أل» في «السيارة» كما في «الجب»، وما فيهما وفي البعض من الإبهام لتحقيق ما يتوخَّاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تَنَائي يوسفَ عليه السلام عنهم بحيث لا يُدْرَى أثرُه ولا يُرْوَى خبرُه.

وقرأ الحسن: «تلتقطه»[٦] على التأنيث باعتبار المعنى، كما في قوله:

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٤، والقراءة ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٣٣.

(٢) البحر ٥/ ٢٨٤، والقراءة ذكرها أيضاً في القراءات الشاذة ص٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٨٤، وهي في المحتسب ١/ ٣٣٣ عن الحسن.

(٤) مجمع البيان ١٢/ ١٥.

(٥) الرجز لنقَادةَ الأسدي كما في شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٢٠٠، واللسان (فرط) و(لقط)، والتاج (فرط) و(لغط) و(لقط)، وعزاه البكري في فصل المقال ١/ ٥٠٨ لأبي محمد الفقعسي، وهو دون نسبة في إصلاح المنطق ص٧٩ و ١٠٩، والأمثال لأبي عبيد ص٣٧٦، والصحاح (لقط)، والمستقصى ٢/ ٢٨٥، وبعده: لم ألق إذ وَرَدْتُه فُرَّاطا. قال البكري: أنشده اللغويون شاهداً على لقيته التقاطاً، إلى لقيته من غير طلبٍ ولا تعمُّدٍ، ولا قصدٍ للقائه.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٨٤.

إذا بعضُ السنينَ تعرَّقَتْنا كفى الأيتامَ فَقْدَ أبي اليتيم[1]

وجاء: قُطعَتْ بعضُ أصابعه، وجعلوا هذا من باب اكتساب المضافِ من المضاف إليه التأنيثَ، كقوله:

كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناة من الدَّم[2]

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠﴾ أي: إن كنتم عازمين مصرِّين على أن تفعلوا به ما يفرِّقُ بينه وبين أبيه، أو: إن كنتُم فاعلين بمشورتي ورأيي فألقوه إلخ، ولم يَبُتَّ القولَ لهم بل عَرَضَ عليهم ذلك تأليفاً لقلوبهم، وتوجيهاً لهم إلى رأيه، وحَذَراً من سوء ظنِّهم به.

ولما كان هذا مظنةً لسؤالٍ سائلٍ يقول: فما فعلوا بعد ذلك، هل قبلوا رأيه أم لا؟ فأجيبَ على سبيل الاستئناف على وجهٍ أُدْرِجَ في تضاعيفه قبولُهم له بما سيجيءُ إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥] فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ خاطبوه عليه السلام بذلك تحريكاً لسلسلة النسب، وتذكيراً لرابطة الأخوَّة؛ ليتسبَّبوا بذلك استنْزالَه عن رأيه في حِفْظِه منهم لما أحسَّ بحسدهم، فكأنهم قالوا: ﴿مَا لَكَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ لك ﴿لَا تَأْمَ۫نَّا﴾ لا تجعلنا أمناءَ ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ مُريدونَ له الخيرَ ومشفقون عليه، ليس فينا ما يُخِلُّ بذلك.

وجملةُ «لا تأمنَّا» في موضع الحال، وكذا جملةُ «وإنَّا له لناصحون». والاستفهامُ بـ «ما لَكَ» فيه معنى التعجُّب، والكلامُ ظاهرٌ في أنه تقدَّم منهم سؤالُ أنْ يَخْرُجَ عليه السلام معهم فلم يَرْضَ أبوهم بذلك.

وقرأ الجمهور: «لا تأمنا» بالإدغام والإشمام، وفُسِّر بضمِّ الشفتين مع انفراج

---

(١) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٢١٩، والكتاب ١/ ٥٢، والخزانة ٤/ ٢٢٠، وفيه: بعض: فاعل فعل محذوف يفسره تعرقتنا المذكور، يقال: تعرَّقْتُ العظمَ: إذا أكلتَ ما عليه من اللحم، يريد أنها أذهبت أموالنا ومواشينا. والسنة هنا: القحط والجدب. وكفى بمعنى أغنى يتعدَّى إلى مفعولين، أولهما الأيتام، وثانيهما فَقْدَ.

(٢) وصدره: وتَشْرقَ بالقول الذي قد أَذَعْتَه، والبيت للأعشى، وسلف ٤/ ٣٦٦، و٦/ ٣١.

بينهما إشارة[١] إلى الحركة مع الإدغام الصريح كما يكون في الوقف، وهو المعروفُ عندهم وفيه عسرٌ هنا، ويطلق على إشرابِ الكسرة شيئاً من الضمة، كما قالوا في «قيل»، وعلى إشمام أحد حرفين شيئاً من حرفٍ آخر، كما قالوا في الصراط.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنه وأبو جعفر والزهريُّ وعمرو بن عبيد بالإدغام من غير إشمام[٢]، وإرادةُ النفي ظاهرة.

وقرأ ابن هرمز بضم الميم مع الإدغام، وهذه الضمةُ منقولةٌ إلى الميم من النون الأولى بعد سَلْبِ حركتها[٣].

وقرأ أبيٌّ والحسن وطلحةُ بن مصرِّفٍ والأعمش: «لا تأمنُنا» بالإظهار وضمِّ النون على الأصل[٤]. وهو خلافُ خطِّ المصحف لأنه بنونٍ واحدة.

وقرأ ابن وثاب وأبو رزين: «لا تِيمَنَّا» بكسر حرف المضارعة على لغة تميم؛ وسهَّل الهمزة بعد الكسرة ابنُ وثاب[٥]، ولم يسهِّل أبو رزين.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عاصم أنه قرأ بذلك بمحضر عبيد بن نُضَيْلةَ فقال له: لَحنْتَ. فقال أبو رزين: ما لَحَنَ مَن قرأ بلغة قومه[٦].

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ نصبٌ على الظرفية الزمانية، وهو يطلقُ على اليوم الذي يلي يومَكَ، وعلى الزمن المستقبل مطلقاً، وأصلُه: غدو، فحذفت لامُه، وقد جاء تامًّا.

أي: ابعثه معنا غداً إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ أي: يتَّسع في أكل الفواكه ونحوِها. وأصلُ معنى الرَّتْع أنْ تأكُلَ وتشربَ ما تشاء في خصبٍ وسعة، ويقال: رَتَعَ: أقامَ

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قالوا: وهذه الإشارة بعد الإدغام أو قبله، وفي الثاني تأمُّلٌ. اهـ منه. والكلام مع الحاشية من حاشية الشهاب ٥/ ١٦٠.
(٢) النشر ١/ ٣٠٣، عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٥/ ٢٨٥.
(٣) أي: بعد سلب الميم حركتها. البحر ٥/ ٢٨٥، والدر المصون ٦/ ٤٤٨.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٨٥.
(٥) البحر ٥/ ٢٨٥.
(٦) الدر المنثور ٤/ ٩، وفيه: ... عن أبي قاسم قال: قرأ أبو رزين: «مالك لا تيمنَّا»، قال له عبيد بن نضلة: لحنت...، وتصحف نضيلة في (م): إلى فضلة، وفي الأصل والدر إلى: نضلة. والمثبت من تهذيب الكمال ١٩/ ٢٣٩، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤١.

في خصبٍ وتنعُّمٍ، ويسمَّى الخصبُ رتعةً بسكون التاء وفتحها. وذكر الراغب أنَّ الرتعَ حقيقةٌ في أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أُريدَ به الأكلُ الكثير، وعلى ذلك قولُه:

وإذا يــخــلــو لــه لــحــمــي رتــع[1]

﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والانتضال ونحوِهما مما يُتَدرَّب به لقتال العدو، وليس المراد لعبَ لهوٍ وإلَّا لم يقرَّهم عليه يعقوب عليه السلام، وإنما عبَّروا عن ذلك به لكونه على هيئته تحقيقاً لِمَا رامُوْه[2] من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورةِ ما يلائمُ حاله عليه السلام من صغر السن.

وقرأ الجمهور: «يَرْتَعْ ويَلْعَبْ» بالياء والجزم[3]، والابنان وأبو عمرو بالنون والجزم[4]. وكَسَر العينَ الحِرْميَّان[5]، واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحذفها[6].

ويُرْوَى عن ابن كثير: «نرتع» بالنون «ويلعب» بالياء، وهي قراءة جعفر بن محمد[7].

---

(١) مفردات الراغب (رتع)، والبيت لسويد بن أبي كاهل اليشكري كما في المفضليات ص١٩٨، وصدره: ويُحيِّيني إذا لاقيتُه.

(٢) في (م): رموه، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٧.

(٣) هي قراءة عاصم وحمزة والكسائي. التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣. وقرأ بها أيضاً يعقوب وخلف من العشرة.

(٤) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن أبي عمرو وابن عامر، والكلام من البحر ٥/ ٢٨٥، والابنان هما ابن كثير وابن عامر.

(٥) الحرميان هما نافع وابن كثير، فنافع قرأ بالياء وكسر العين في «يرتع» من غير ياء، ومثله قرأ أبو جعفر. وأما ابن كثير فرواية قنبل والبزي عنه بالنون، وكَسَر البزي العين من غير ياء، واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحذفها كما سيرد.

(٦) نُقل عنه ثبوت الياء بعد العين وصلاً ووقفاً، وحذفُها وصلاً ووقفاً، فيوافق البزي في أحد الوجهين عنه. النشر ٢/ ٢٩٣ و ٢٩٧، والدر المصون ٦/ ٤٤٩. وجاء في هامش الأصل و(م): روي عنه الإثبات وصلاً ووقفاً، وفي روايةٍ إثباتها في الوقف دون الوصل، وهو المروي عن البزي. اهـ منه.

(٧) البحر ٥/ ٢٨٥، والمشهور عن ابن كثير القراءة بالنون في الفعلين كما تقدم.

وقرأ العلاء بن سيابة: «يرتعِ» بالياء وكَسْرِ العين مجزوماً محذوفَ اللام «ويلعبُ» بالياء أيضاً وضمِّ الباء على أنه مستأنفٌ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: وهو يلعبُ(١).

وقرأ مجاهد وقتادة وابن محيصن: «نُرْتِعْ» بنونٍ مضمومةٍ وعينٍ ساكنةٍ من أَرْتَعْنا، «ونَلْعَبْ» بالنون أيضاً، وكذلك أبو رجاء إلا أنه بالياء التحتية فيهما، والقراءتان على حذف المفعول، أي: نُرْتِع المواشيَ أو غَيْرَها(٢). والفعلان في هذه القراءات كلِّها مبنيَّان للفاعل.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «يُرْتَعْ ويُلْعَبْ» بالياء والبناء للمفعول فيهما، وخرَّجَ ذلك على أنَّ نائب الفاعلِ ضميرُ «غداً»، والأصل: يَرْتَعْ فيه ويَلْعَبْ فيه، ثم حُذف الجارُّ واتُّسع فعدِّيَ الفعلُ للضمير، فصار: يَرْتَعْه ويَلْعَبْه، ثم بُني للمفعول فاستَتَر الضمير الذي كان منصوباً لكونه نائباً عن الفاعل(٣).

ومَن كَسَر العينَ من الفعلِ الأول فهو عنده من المراعاة على ما روي عن مجاهد، أي: يُراعي بعضُنا بعضاً ويحرسه.

وقال ابن زيد: مِن رَعْي الإبل، أي: نتدرَّب في الرعي وحِفْظِ المال. أو مِن رعي النبات والكلأ، والمراد: نَرْعَى مواشيَنا، إلا أنه أسند ذلك إليهم مجازاً، أو تجوّز عن أكلهم بالرعي.

وضعَّف ابنُ عطية القراءة بإثبات الياء، وقال: إنَّ إثباتها في مثل هذا الموضع لا يجوز إلا في الشعر، كقوله:

أَلَـمْ يـأتـيـكَ والأنـبـاءُ تَـنْـمِـي بِـمـا لاقَـتْ لَـبـونُ بـنـي زيـاد(٤)

وقيل: إنَّ تقدير حذف الحركة في الياء ونحوها للجازم لغةٌ، وليس من الضرورة في شيءٍ.

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٥، والقراءة في المحتسب ١/ ٣٣٣.
(٢) البحر ٥/ ٢٨٥، وقراءة أبي رجاء في المحتسب ١/ ٣٣٣.
(٣) البحر ٥/ ٢٨٥.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤، والبيت لقيس بن زهير كما في النوادر في اللغة لأبي زيد ص٢٠٣، والأغاني ١٧/ ١٩٨، وهو دون نسبة في الكتاب ٣/ ٣١٦، والمحتسب ١/ ٦٧، ورواية الأغاني: ألم يبلغك.

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل بن حيان أنه كان يقرأ «نلهو ونلعب»[1].

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ أي: مِن أن يناله مكروهٌ، والجملةُ في موضع الحال، والعاملُ فيها فِعْلُ الأمر أو الجواب، وليس ذلك من باب الإعمال كما قال أبو حيان؛ لأنَّ الحال لا تُضْمَرُ، وذلك الباب لا بدَّ فيه من الإضمار إذا أعمل الأول[2].

وقد أكَّدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من إيراد الجملة اسميةً، وتحليتِها بـ «أنَّ» واللام، وإسنادِ الحفظ إلى كلِّهم، وتقديمِ «له» على الخبر، احتيالاً في تحصيل مقصدهم.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ سائلاً يقول: فماذا قال أبوهم لهم؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ لشدَّة مفارقته عليَّ، وقلَّة صبري عنه. واللامُ الداخلةُ على خبر إنَّ إذا كان مضارعاً قيل: تَقْصُره على الحال، وهو ظاهرُ كلام سيبويه. وقيل: تكونُ له ولغيره، واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: ١٢٤].

وقيل: إنها للحال إن خلتْ عن قرينةٍ، ومعها تكونُ لغيره، وجعلوا من ذلك ما في الآية.

وبعضُهم جعلها هنا للحال، واستشكل بأنَّ الذهاب مستقبلٌ فيلزمُ تقدُّم الفعل على فاعله، وهو غيرُ جائز لأنه أثرُه ولا يُعقل تقدُّم الأثر على المؤثِّر.

وأجيب بأنَّ التقدير: قَصْدُ أو توقُّعُ أن تذهبوا به، فالكلامُ على تقدير المضاف وهو الفاعل، وليس ذاك أمراً مستقبلاً بل حال، ولا يمتنعُ في ذلك حذفُ الفاعل؛ لِمَا صرَّحوا به أنه إنما يمتنع إذا لم يسدَّ مسدَّه شيءٌ، وهنا قد سَدَّ، ولا يجب أن يكون السادُّ هو المضاف إليه كما ظُنَّ بل لو سدَّ غيرُه كان الحذف جائزاً أيضاً، ومن هنا كان تقديرُ: قَصْدُكم أن تذهبوا، صحيحاً، ويحتمل أن يكون ذلك تقديرَ معنًى لا تقديرَ إعراب.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٩.
(٢) البحر ٥/ ٢٨٥.

وقال بعضهم: إنه يمكن دفعُ الإشكال من غير حاجةٍ إلى تقدير المضاف بأن يقال: إنَّ الذهاب يَحْزُنُه باعتبار تصوُّرِه كما قيل نظيرُه في العلة الغائية.

وقال شهاب فلك التحقيق[1]: أظنُّ أنَّ ما قالوه في توجيه الإشكال مغلطةٌ لا أصل لها؛ فإنَّ لزومَ كون الفاعل موجوداً عند وجود الفعل إنما هو في الفاعل الحقيقيِّ لا النحويِّ واللغويِّ، فإنَّ الفعل قد يكون قبله سواءٌ كان حالاً ـ كما فيما نحن فيه ـ أو ماضياً، كما أنه يصح أن يكون الفاعلُ في مثله أمراً معدوماً كما في قوله:

ومَن سرَّه أنْ لا يرى ما يسوؤه فلا يتَّخِذْ شيئاً يخافُ له فَقْدا[2]

ولم يقل أحدٌ في مثله إنه محتاجٌ إلى التأويل؛ فإنَّ الحزن والغمَّ كالسرورِ والفرحِ يكون بالشيء قبل وقوعه كما صرَّح به ابنُ هلالٍ في «فروقه»[3]، ولا حاجةَ إلى تأويلٍ أو تقديرٍ أو تنزيلٍ للوجود الذهنيِّ منزلةَ الخارجيِّ على القول به، أو الاكتفاء به، فإنَّ مثله لا يعرفه أهل العربية أو اللسان[4]، فإنْ أبيت إلا اللجاج فيه فليكن من التجوُّز في النسبة إلى ما يستقبل لكونه سبباً للحزن الآن. اهـ.

وأنت تعلم أنهم صرَّحوا بأنَّ فِعْلَ الفاعل الإصلاحي إما قائم به أو واقعٌ منه، وقيامُ الشيء بما لم يوجد بعدُ أو وقوعُه[5] منه غيرُ معقولٍ، وحينئذٍ فالتأويلُ بما يصحِّح[6] القيامَ أو الوقوعَ في فاقد ذلك بحسب الظاهر واجبٌ، كذا قيل فتدبر.

---

(١) في (م): شهاب ذلك التحقيق، والمثبت من الأصل، وهو الصواب، والمقصود به الشهاب الخفاجي، وكلامه في حاشيته على البيضاوي ٥/ ١٦٠، وما قبله منه.

(٢) البيت لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما في ثمار القلوب ص٦٩٣، والتمثيل والمحاضرة ص١٠٤، والمستطرف ٢/ ١٠٨.

(٣) ينظر الفروق في اللغة لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري ص٤٧٤-٤٧٥.

(٤) في الحاشية: واللسان.

(٥) في (م): ووقوعه.

(٦) في (م): يصح.

وقرأ ابن هرمز وابن محيصن: «ليحزنّي» بالإدغام، وبذلك قرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما. وقرأ أيضاً: «تُذْهِبوا به» من أَذْهَبَ رباعيًا، ويخرَّج كما قال أبو حيان على زيادة الباء في «به» كما خرَّج بعضهم: «تُنْبِتُ بالدهن» في قراءةِ مَن ضمَّ التاء وكَسَرَ الباء الموحَّدة على ذلك، أي: ليَحْزُنّي أن تُذْهِبوه(١).

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ هو حيوانٌ معروفٌ، وخصَّه بالذِّكر لأنَّ الأرض ـ على ما قيل ـ كانت مَذْأبةً(٢). وقيل: لأنه سبعٌ ضعيفٌ حقيرٌ، فنبَّه عليه السلام بخوفه ـ عليه السلام ـ عليه منه على خوفه عليه مما هو أعظمُ منه افتراساً من بابِ أَوْلَى. ولحقارةِ الذئب خصَّه الربيعُ بن ضَبُعٍ الفزاريُّ في كونه يخشاه لَمَّا بلغ من السنِّ ما بلغ في قوله:

والذئبَ أخشاه إنْ مررتُ به وحدي وأخشى الرياحَ والمطرا(٣)

وقيل: لأنه عليه السلام رأى في المنام أنَّ ذئباً قد شدَّ عليه فكان يَحْذَرُه، ولعل هذا الحذر لأنَّ الأنبياء عليهم السلام لمناسبتهم التامة بعالم الملكوت تكون واقعاتُهم بعينها واقعةً، وإلَّا فالذئب في النوم يؤوَّلُ بالعدوّ.

وادَّعى بعضهم أنه عليه السلام ورَّى بالذئب عن واحدٍ منهم، فإنه عليه السلام أجلُّ قدراً من أنْ لا يعلم أنَّ رؤياه تلك من أيِّ أقسام الرؤيا هي، فإنَّ منها ما يحتاج إلى التعبير(٤) ومنها ما لا يحتاج إليه، والكاملُ يعرف ذلك.

وتعقِّب بأنه يحتمل أن يكون الأمر قد خفي عليه كما قد خفي مثلُ ذلك على جدِّه إبراهيمَ عليه السلام وهو هو(٥)، بناءً على ما ذكره شيخنا ابن العربي قدِّس سرُّه من أنَّ رؤياه عليه السلام ذبحَ ولده من الرؤيا المعبَّرةِ بذبح كبشٍ لكنه خفي عليه ذلك(٦)، ولا يَخْفَي ما فيه.

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٦، وعنه نقل المصنف ما أورده من قراءات.
(٢) بفتح الميم، أي: كثيرة الذئاب، ومَفْعَلة يصاغ لهذا المعنى كثيراً. حاشية الشهاب ٥/ ١٦١.
(٣) الكتاب ١/ ٩٠، والمحتسب ٢/ ٩٩، والخزانة ٧/ ٣٨٤، وسلف ٩/ ١٩٠.
(٤) في (م): للتعبير.
(٥) قوله: هو، ليس في (م).
(٦) الفتوحات المكية ٤/ ٢٤١.

والمذكورُ في بعض الروايات أنه عليه السلام رأى في منامه كأنه على ذروة جبل وكأنَّ يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرةٌ من الذئاب قد احْتَوَشَتْه تريد أكله، فدرأ عنه(١) واحدٌ ثم انشقَّتِ الأرضُ فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام.

وأنا لم أجد لرواية الرؤيا مطلقاً سنداً يعوَّلُ عليه، ولا حاجة بنا إلى اعتبارها؛ لتكلُّف الكلام فيها، وبالجملة ما وقع منه عليه السلام من هذا القول كان تلقيناً للجواب من غير قَصْدٍ، وهو على أسلوب قوله سبحانه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] والبلاءُ موكَّلٌ بالمنطق(٢).

وأخرج أبو الشيخ وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلقِّنوا الناس فيكذبوا، فإنَّ بني يعقوبَ لم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الناس فلمَّا لقَّنهم أبوهم كذبوا فقالوا: أكله الذئب»(٣).

والحزنُ ألمُ القلب لفوت المحبوب، والخوف انزعاجُ النفس لنزول المكروه، ولذلك أسند الأول إلى الذهاب به المفوِّت لاستمرار مصاحبته ومواصلتِه ليوسف عليه السلام، والثاني إلى ما يتوقَّعُ نزوله من أكل الذئب.

والذئبُ أصله الهمزة وهي لغةُ الحجاز، وبها قرأ غيرُ واحدٍ، وقرأ الكسائيُّ وخلف وأبو جعفر وورشٌ والأعشى وغيرُهم بإبدالها ياءً(٤)؛ لسكونها وانكسارِ ما قبلها، وهو القياسُ في مثل ذلك، وذكر بعضهم أنه قد هَمَزَه على الأصل ابنُ كثير، ونافعٌ في رواية قالون، وأبو عمرو وقفاً، وابن عامر وحمزة درجاً وأَبْدلا وقفاً(٥).

---

(١) في (م): عند، وهو تصحيف.

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٣٧٣) و(١٣٧٥) عن ابن مسعود وأبي الدرداء رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. اهـ. وقد ذكر السخاوي في المقاصد الحسنة ص١٤٧ طرقه، ثم قال: وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي الدرداء وابن مسعود، ولا يَحْسُنُ بمجموع ما ذكرناه الحكمُ عليه بالوضع.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١١، وهو في الفردوس للديلمي ٥/ ٢٠، وفي إسناده عبد الله بن عمر العمري، وهو ضعيف.

(٤) التيسير ص١٢٨، وجامع البيان في القراءات السبع ٢/ ٢١٥، والنشر ١/ ٣٩٠-٣٩٤.

(٥) وهذا هو المشهور عن حمزة، وأما نافع فالمشهور عنه الهمز درجاً ووقفاً. ينظر السبعة لابن مجاهد ص٣٤٦، والبدور الزاهرة ص١٦١.

ولعل ذلك لأنَّ التقاء الساكنين في الوقف وإن كان جائزاً إلا أنه إذا كان الأول حرفَ مدٍّ يكون أحسن.

وقال نصر[١]: سمعتُ أبا عمرو لا يهمزه، والظاهر أنه أراد مطلقاً، فيكون ما تقدَّم روايةً وهذه أخرى[٢].

ويجمع على أذؤب وذئاب وذؤبان، واشتقاقُه عند الزمخشريِّ من تَذَاءبتِ الريحُ: إذا هبَّتْ من كلِّ جهة[٣].

وقال الأصمعيُّ: إنَّ اشتقاق تَذَاءَبَتْ من الذئب؛ لأنَّ الذئب يفعله في عدوه؛ قيل: وهو أنسبُ، ولذا عدَّ تذاءبت الريح من المجاز في «الأساس»[٤]، لكنْ قيل عليه: إنَّ أَخْذَ الفعل من الأسماء الجامدة كأَبَلَ[٥] قليلٌ مخالفٌ للقياس.

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ لاشتغالكم بالرَّتْعِ واللَّعِب، أو لقلَّة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: والحالُ أنَّا جماعةٌ جديرةٌ بأنْ تُعْصَبَ بنا الأمور، وتُكْفَى بآرائنا وتدبيراتنا الخطوب، واللامُ الداخلة على الشرط موطِّئةٌ للقسم، وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ جوابٌ مجزِئٌ عن الجزاء.

والخسارُ إمَّا بمعنى الهلاك تجوُّزاً عن الضعف، أو عن[٦] استحقاقه، أو عن استحقاق الدعاء به، أي: لضعفاءُ عاجرون، أو مستحقُّون للهلاك لا غناءَ عندنا ولا نفعَ في حياتنا، أو: مستحقُّون لأنْ يُدْعَى علينا بالخسار والدمار، فيقال:

---

(١) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٥/ ٢٨٦، والصواب: نصر بن عليٍّ عن أبيه، كما في السبعة ص٣٤٦، وجامع البيان للداني ٢/ ٢١٥، وعلي هو ابن نصر بن علي بن صهبان، أبو الحسن الجهضمي البصري، روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء وغيره، وممن روى عنه القراءة ابنه نصر بن علي، توفي سنة (١٨٩هـ). طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٥٨٢.

(٢) ينظر تفصيل مذهب أبي عمرو في هذه المسألة في النشر ١/ ٣٩١-٣٩٤.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٠٦، وفيه: وقيل: اشتقاقه من تذاءبت...

(٤) مادة (ذأب).

(٥) كضَرَب: كثرت إبله.

(٦) قوله: عن، ليس في (م).

خسرهم الله تعالى ودمَّرهم إذ أكل الذئبُ أخاهم وهم معه. وجوِّز أن يكون بمعناه الحقيقيِّ، أي: إنْ لم نَقْدِرْ على حفظه وهو أعزُّ شيءٍ عندنا فقد هلكت مواشينا وخسرناها.

وإنما اقتصروا على جوابِ خوفِ أبيهم عليه السلام مِن أَكْلِ الذئب مع أنه ذَكَر في وجهِ عدمِ مفارقته أمرين: حزنَه لمفارقته، وخوفَه عليه من الذئب؛ لأنه السبب القويُّ في المنع دون الحزن لِقِصَرِ زمانه بناءً على سرعة عَوْدِهم به، أو لأنَّ حزنه بالذهاب به إنما هو للخوف عليه، فنفيُ الثاني يدلُّ على نفي الأول، أو لكراهتهم لذلك لأنه سببُ حسدهم له، فلذلك أعاروه أذناً صمَّاء.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا﴾ أي: عزموا عزماً مصمِّماً على ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قيل: هو بئر على ثلاث فراسخَ من مقام يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي من نواحي الأردن. وقيل: هو بين مصر ومَدْيَنَ. وقيل: بنفس أرض الأردن.

وزعم بعضُهم أنها بئرُ بيتِ المقدس، وتعقِّب بأنه يردُّه التعليلُ بالْتقاطِ بعض السيارة ومجيئهم عشاءً ذلك اليوم، فإنَّ بين منزل يعقوب عليه السلام وبيت المقدس مراحل.

وجوابُ «لَمَّا» محذوف إيذاناً بظهوره وإشعاراً بأنَّ تفصيله مما لا يحويه فلكُ العبارة، ومجملُه: فعلوا ما فعلوا. وقدَّره بعضهم: عَظُمت فتنتُهم، وهو أولى من تقديرِ: وضعوه فيها.

وقيل: لا حذفَ والجوابُ «أوحينا»، والواو زائدةٌ. وليس بشيءٍ.

وقال وهب وغيره من أهل السير والأخبار: إنَّ إخوة يوسف عليه السلام قالوا: أما تشتاقُ أن تخرجَ معنا إلى مواشينا فنتصيَّد ونَسْتَبِقَ؟ فقال عليه السلام: بلى قالوا: فسَلْ أباك أن يرسلك معنا. فقال عليه السلام: أَفْعَلُ. فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا: يا أبانا إنَّ يوسف قد أحبَّ أن يخرج معنا إلى مواشينا. فقال يعقوب: ما تقول يا بني؟ قال: نعم يا أبت، إنِّي أرى من إخوتي من اللِّين واللطف فأحِبُّ أن تأذن لي. وكان يعقوبُ يكره مفارقته ويحبُّ مرضاته، فأذن له وأرسله معهم، فلما خرجوا به جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر إليهم، فلما بَعُدوا

عنه وصاروا به إلى الصحراء ألقَوْه إلى الأرض، وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، وبسطوا له القول، وجعلوا يضربونه، فجعل كلما جاء إلى واحدٍ منهم واستغاث به ضربه، فلمَّا فَطِنَ لِمَا عزموا عليه جعل ينادي: يا أبتاه[1]، لو رأيتَ يوسف وما نزل به من إخوته لأحْزَنَك ذلك وأبكاك، يا أبتاه ما أسرع ما نَسُوا عهدك وضيَّعوا وصيتك. وجعل يبكي بكاءً شديداً، فأخذه روبيل فجلد به الأرض ثم جثم على صدره وأراد قتله، فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تقتلني. فقال له: يا ابن راحيل أنت صاحبُ الأحلام، قل لرؤياك تخلِّصك من أيدينا. ولوى عنقه فاستغاث بيهوذا وقال له: اتَّق الله تعالى فيَّ وحُلْ بيني وبين مَن يريد قتلي. فأدركته رحمةُ الأخوة ورقَّ له، فقال: يا إخوتاه، ما على هذا عاهدتموني، ألا أدلُّكم على ما هو أهونُ لكم وأرْفَقُ به؟ قالوا: وما هو؟ قال: تُلْقُونه في هذا الجبِّ فإما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة.

فانطلقوا به إلى بئرٍ هناك واسعِ الأسفل ضيق الرأس، فجعلوا يُدلونه فيها، فتعلَّق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه ردُّوا عليَّ قميصي لأستَتر به في الجبِّ. فلم يفعلوا ثم ألقوه فيها، فقال لهم: يا إخوتاه أتَدَعوني وحيداً؟ قالوا[2]: ادْعُ الشمس والقمر والكواكب تؤنسك.

وقيل: جعلوه في دلو ثم أدْلَوْه، فلمَّا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماءٌ فسقط فيه ثم قام على صخرة فيها.

وروي أنهم لَمَّا ألقوه في الجبِّ جعل يبكي، فنادوه فظنَّ أنها رحمةٌ أدركتهم فأجابهم، فأرادوا رضخه بصخرة ليقتلوه، فمنعهم يهوذا.

وكان عند يعقوب قميصُ إبراهيم عليه السلام الذي كساه الله تعالى إياه من الجنة حين ألقي في النار، وكان قد جعله في قصبةٍ من فضة وعلَّقه في عنق يوسف لَمَّا خرج مع إخوته، فلما صار في البئر أخرجه ملكٌ وألبسه إياه، فأضاء له الجب.

---

(١) في (م): يا أبتا.
(٢) في الأصل: فقالوا.

وعن الحسن أنه لَمَّا ألقي فيها عَذُبَ ماؤها وكان يُغنيه عن الطعام والشراب[١]، ونزل عليه جبريل عليه السلام يؤنسُه، فلما أمسى نهض ليذهب فقال له: إنِّي أستوحشُ إذا ذهبتَ. فقال: إذا رُمْتَ شيئاً فقل: يا صريخَ المستصرخين، ويا غوث المستغيثين، ويا مفرِّجَ كَرْبِ المكروبين، قد ترى مكاني وتعلمُ حالي ولا يخفى عليك شيءٌ من أمري. فلما قالها يوسف عليه السلام حفَّته الملائكة عليهم السلام واستأنس بهم.

وقال محمد بن مسلم الطائفيُّ[٢]: إنه عليه السلام لَمَّا أُلقي في الجب قال: يا شاهداً غيرَ غائبٍ، ويا قريباً غيرَ بعيدٍ، ويا غالباً غيرَ مغلوبٍ، اجْعَلْ لي فرجاً مما أنا فيه.

وقيل: كان يقول: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارْحَمْ ضَعْفي وقلَّةَ حيلتي وصغر سنِّي.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا ألقي يوسفُ في الجبِّ أتاه جبريل عليه السلام فقال: يا غلام مَن ألقاك في هذا الجب؟ قال: إخوتي. قال: ولِمَ؟ قال: لمودة أبي إياي حسدوني. قال: تريد الخروج من هاهنا؟ قال: ذاك إلى إله يعقوب. قال: قل: اللهم إني أسألك باسمك المكنونِ المخزونِ، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن تغفر لي وترحمني، وأن تجعل لي[٤] من أمري فَرَجاً ومخرجاً، وأن ترزقني من حيث أحتسُب ومن حيث لا أحتسبُ. فقالها فجعل الله تعالى له من أمره فرجاً ومخرجاً، ورزقه ملكَ مصر من حيث لا يَحْتَسِبُ» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «أَلِظُّوا بهؤلاء الكلمات فإنهنَّ دعاءُ المصطفَيْنَ الأخيار».

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): وسيأتي رواية أن يهوذا كان يأتيه بالطعام قريباً إن شاء الله تعالى. اهـ منه.

(٢) المكي، أبو عبد الله، روى عن عمرو بن دينار وابن طاوس وإبراهيم بن ميسرة وغيرهم، توفي سنة (١٧٧هـ). سير أعلام النبلاء ٨/ ١٧٦.

(٣) كما في الدر المنثور ٤/ ٩.

(٤) قوله: لي، ليس في (م)، والمثبت من الأصل والدر المنثور.

ورُوي غيرُ ذلك، والرواياتُ في كيفية إلقائه وما قال وما قيل له كثيرةٌ، وقد تضمَّنت ما يلينُ له الصخر، لكنْ ليس فيها ما له سندٌ يعوَّلُ عليه، والله تعالى أعلم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ الضميرُ ليوسف، أي: أعلمناه عند ذلك تبشيراً له بما يَؤُولُ إليه أمرُه، وإزالةً لوحشته وتسليةً له، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالإلهام. وقيل: بالإلقاء في مبشرات المنام. وقال الضحاك وقتادة: بإرسال جبريل عليه السلام إليه.

والموحَى ما تضمَّنه قولُه سبحانه: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو بشارةٌ له بالخلاص أيضاً، أي: لتخلصنَّ مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال، ولتخبرنَّ إخوتك بما فعلوا بك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ بأنك يوسفُ؛ لتبايُنِ حاليك: حالِكَ هذا، وحالك يومئذٍ بعلوِّ شأنك وكبرياءِ سلطانك، وبُعْدِ حالك من أوهامهم. وقيل: لبعد العهد المبدِّل للهيئات المغيِّر للأشكال. والأولُ أدْخَلُ في التسلية. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لَمَّا دخل إخوةُ يوسفَ على يوسف فعرفهم وهم له منكرون جيءَ بالصُّواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنَّ، فقال: إنه ليخبرني هذا الجامُ أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له يوسف يُدْنيه دونَكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتُموه في غيابةِ الجبِّ فأتيتم أباكم فقلتم: إنَّ الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدمٍ كذبٍ. فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الجامَ ليخبره بخبركم؛ ثم قال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية (لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ) إلخ نزلت إلَّا في ذلك[1].

وجوَّز أن يتعلق «وهم لا يشعرون» بالإيحاء، على معنى: أنَّا آنسناه بالوحي وأَزَلْنا عن قلبه الوحشة التي أَوْرَثوه إياها وهم لا يشعرون بذلك، ويحسبون أنه مستوحشٌ لا أنيسَ له. وروي ذلك عن قتادة.

وكان هذا الإيحاءُ وهو عليه السلام ابنُ ستٍّ عند الضحاك، واثنتي عَشْرةَ سنةً أو ثماني عَشْرَةَ سنةً عند الحسن، وسبعَ عَشْرةَ سنة عند ابن السائب، وهو الذي يزعمه اليهود. وقيل غيرُ ذلك.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٦٢.

ومَن نظر في الآيات ظهر له أنَّ الراجح كونُه عليه السلام لم يبلغ الحلم إذ ذاك، وعلى جميع الأقوال أنه عليه السلام لم يكن بالغاً الأربعين عند الإيحاء إليه، نعم أكثرُ الأنبياء عليهم السلام نبِّئوا في سنِّ الأربعين، وقد أوحي إلى بعضهم ـ كيحيى وعيسى عليهما السلام ـ قبل ذلك بكثير.

وزعم بعضهم أنَّ ضمير «إليه» يعود على يعقوب عليه السلام، وليس بشيء كما لا يخفى.

وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما: «لينبئنَّهم» بياء الغيبة، وكذا في [بعض] مصاحف البصرة[1].

وقرأ سلام بالنون على أنه وعيدٌ لهم[2]، فقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ متعلِّقٌ بـ «أوحينا» لا غير على ما قاله الزمخشريُّ[3] ومَن تبعه.

ونُظر فيه بأنه يجوز أن يتعلَّق أيضاً بقوله تعالى: «لننبئنهم» وأن يراد بإنباء الله تعالى إيصالُ [جزاء][4] فعلهم به عليه السلام وهم لا يشعرون بذلك.

ودُفع بأنه بناء على الظاهر، وأنه لا يجتمع إنباء الله تعالى مع عدم شعورهم بما أنبأهم به إلا بتأويلٍ، كتقديرِ: لنُعْلِمنَّهم بعظيمِ ما ارتكبوه قبلُ وهم لا يشعرون بما فيه.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي: في ذلك الوقت، وهو ـ كما قال الراغب ـ من صلاة المغرب إلى العتمة، والعِشاءان: المغربُ والعَتَمة[5].

وعن الحسن أنه قرأ: «عُشَيًّا» بضم العين وفتح الشين وتشديد الياء منوَّناً[6]، وهو تصغير عَشِيٍّ، وهو[7] من زوال الشمس إلى الصباح.

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٨، وما بين حاصرتين منه.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٢، والكشاف ٢/ ٣٠٧، والبحر ٥/ ٢٨٨.
(٣) في الكشاف ٢/ ٣٠٧.
(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ١٦٢، والكلام منه.
(٥) مفردات الراغب (عشا).
(٦) الكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية ٥/ ١٦٢.
(٧) أي: العَشِيُّ.

وعنه أنه قرأ: «عُشًى» بالضمِّ والقَصْرِ كدُجًى[1]، فنَصْبُه على الحال، وهو جمعُ أعشى عند بعضٍ، وعاشٍ عند آخرين، وأصلُه عُشَاة ـ كماشٍ ومُشَاة ـ فحذفت الهاء تخفيفاً.

وأورد عليهما بأنه لا جواز لمثل هذا الحذف، وأنه لا يجمع أَفْعَلُ فَعْلَاءَ على فُعَل بضم الفاء وفتح العين، بل فُعْل بسكون العين، ولذا قيل: كان أصلُه عُشواً، فنُقلت حركة الواو إلى ما قبلها لكونه حرفاً صحيحاً ساكناً، ثم حُذفت بعد قلبها ألفاً لالتقاء الساكنين. وأنَّ قَدْرَ ما بكوا به في ذلك اليوم لا يعشو منه الإنسان، وأجيبَ عن هذا بأنَّ المقصود المبالغةُ في شدة البكاء والنحيب لا حقيقته، أي: كاد يضعفُ بصرُهم لكثرة البكاء.

وقيل: هو جمع عشْوَةٍ مثلَّث العين، وهي ركوبُ أمرٍ على غير بصيرةٍ؛ يقال: أوطأه عشوةً، أي: أمراً ملتبساً يوقعُه في حيرةٍ وبليَّةٍ، فيكون تأكيداً لكذبهم، وهو تمييزٌ أو مفعولٌ له.

وجوِّز أن يكون جمعَ عُشوةٍ بالضم بمعنى شعلة النار، عبارةً عن سرعتهم لابتهاجهم بما فعلوا من العظيمة، وافتعلوا من العضيهة[2].

وجوِّز أن يكون «عِشَاءً» في قراءة الجمهور جمعَ عاشٍ، مثل: راعٍ ورعَاء، ويكون نصبُه على الحال، والظاهرُ الأول.

وإنما جاؤوا عشاءً، إمَّا لأنهم لم يَصِلُوا من مكانهم إلا في ذلك الوقت، وإمَّا ليكونوا أقدرَ على الاعتذار؛ لمكان الظلمة التي يرتفعُ فيها الحياء، ولذا قيل: لا تطلب الحاجةَ بالليل فإنَّ الحياء في العينين، ولا تعتذر في النهار من ذنبٍ فتتلجلج في الاعتذار.

وهل جاؤوا في عشاء اليوم الذي ذهبوا فيه أو في عشاءِ يومٍ آخر؟ ظاهرُ كلام بعضهم الأول، وذهب بعضُهم إلى الثاني بناءً على ما روي أنه عليه السلام مكث في الجبِّ ثلاثةَ أيامٍ، وكان إخوتُه يرعون حواليه، وكان يهوذا يأتيه بالطعام.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٢، والمحتسب ١/ ٣٣٥، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٦٢.
(٢) جاء في هامش الأصل و(م): البهتان. اهـ منه.

وفي الكلام ـ على ما في «البحر» ـ حذفٌ، والتقدير: وجاؤوا أباهم دون يوسف عشاءً[١].

﴿يَبْكُونَ ۝١٦﴾ أي: متباكين، أي: مُظْهِرينَ البكاءَ بتكلُّفٍ لأنه لم يكن عن حزنٍ لكنه يشبهُهُ، وكثيراً ما يفعل بعضُ الكذَّابين كذلك؛ أخرج ابن المنذر عن الشعبيِّ قال: جاءت امرأةٌ إلى شريحٍ تُخاصِمُ في شيءٍ، فجعلت تبكي فقالوا: يا أبا أميةَ، أما تراها تبكي؟! فقال: قد جاء إخوةُ يوسف أباهم عشاءً يبكون. وقال الأعمش: لا يصدَّقُ باكٍ بعد إخوة يوسف[٢].

وفي بعض الآثار أنَّ يعقوب عليه السلام لَمَّا سمع بكاءهم قال: ما بالُكم، أَجَرَى في الغنم شيءٌ؟ قالوا: لا. قال: فما أصابكم وأين يوسف؟[٣] ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: متسابقينَ في العَدْوِ على الأقدام على ما روي عن السدِّيِّ، أو في الرمي بالسهام كما قال الزجَّاج[٤]، أو في أعمالٍ نتوزَّعها من سقيٍ ورعيٍ واحتطابٍ، أو في الصيد وأَخْذِه كما قيل. ورُجِّحَ ما قاله الزجَّاجُ بقراءة عبد الله: «إنا ذهبنا ننتضل»[٥].

وأورد على الأول أنه كيف ساغ لهم الاستباقُ في العَدْوِ وهو من أفعال الصبيان التي لا ثمرةَ فيها؟ وأُجيب بالمنع، وثمرتُه التدرُّبُ في العَدْوِ لمحاربة العدوِّ ومدافعةِ الذئب مثلاً.

وبالجملة «نستبق» بمعنى نتسابق، وقد يشتركُ الافتعال والتفاعُلُ فيكونان بمعنًى كالانتضال والتناضُلِ ونظائرِهما.

﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ما يُتمتَّعُ به من الثياب والأزواد وغيرهما ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ عقيبَ ذلك من غير مضيِّ زمانٍ يُعتادُ فيه التفقُّدُ والتعهُّد، وحيث لا يكاد يُطْرَحُ المتاعُ عادةً إلا في مقامٍ يُؤْمَنُ فيه الغوائلُ لم يُعَدَّ تركُه عليه السلام

(١) البحر ٥/ ٢٨٨.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٩.
(٣) ذكره مطولاً أبو حيان في البحر ٥/ ٢٨٨.
(٤) في معاني القرآن ٣/ ٩٥.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٢٨١.

عنده من باب الغفلة وتَرْكِ الحفظ الملتزم، لاسيما إذا[1] لم يغيبوا عنه، فكأنهم قالوا: إنَّا لم نقصِّر في محافظته، ولم نَغْفَلْ عن مراقبته، بل تركناه في مأمننا ومجمعنا بمرأى منَّا، وما فارقناه إلا ساعةً يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان. قاله شيخُ الإسلام[2].

والظاهر أنهم لم يريدوا إلا أنَّ الذئب أكل يوسف، ولم يقصدوا بذلك تعريضاً، فما قيل: إنهم عرَّضوا وأرادوا: أَكَلَ الذئبُ المتاعَ، لا يَلتفتُ إليه لِمَا فيه من الخروج عن الجادَّة من غير موجب.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أي: ما أنت مصدِّقٌ لنا في هذه المقالة ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ عندك وفي اعتقادك ﴿صَٰدِقِينَ ⑰﴾ أي: موصوفين بالصدق والثقة، لفَرْطِ محبتك [ليوسف][3] فكيف وأنت سيِّئُ الظنِّ بنا غير واثقٍ بقولنا؟ قيل: ولا بدَّ من هذا التأويل؛ إذ لو كان المعنى: ولو كنَّا صادقين في نفس الأمر، لكان تقديره: فكيف إذا كنَّا كاذبين فيه، فيلزم اعترافُهم بكذبهم فيه، وقد تقدَّم[4] أنَّ المراد في مثل ذلك تحقيقُ الحكم السابق على كلِّ حال، فكأنه قيل هنا: وما أنت بمؤمنٍ لنا في حالٍ من الأحوال، فتذكَّرْ وتأمَّل.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ أي: ذي كَذِبٍ، أو وُصِفَ بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينُه، كما يقال للكذاب: هو الكذبُ بعينه والزورُ بذاته، ومِن ذلك ما في قوله:

أفيضوا على عزَّابكم من بناتكم ... فما في كتاب الله أن يُحْرَمَ الفضلُ
وفيهنَّ فضلٌ قد عرفنا مكانه ... فهنَّ به جودٌ وأنتم به بخلُ[5]

وبعضهم يؤوِّل «كذب» بمكذوب فيه، فإنَّ المصدر قد يؤوَّل بمثل ذلك.

---

(١) في الأصل و(م): إذ، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٩، والكلام منه.
(٢) في تفسيره ٤/ ٢٥٩.
(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٩، والكلام منه.
(٤) عند تفسير الآية (١٧٠) من سورة البقرة، والآية (٨٨) من سورة الأعراف.
(٥) ذكر الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٠٨ عجز البيت الثاني، والبيت الأول في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٨٤٥ برواية: أفيضوا على عزَّابكم بنساءكم. . .

وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «كذباً» بالنصب[(١)]، وخرِّج على أنه في موضع الحال من فاعل «جاؤوا» بتأويلِ: كاذبين. وقيل: من «دم» على تأويل: مكذوباً فيه، وفيه أنَّ الحال من النكرة على خلاف القياس. وجوِّز أن يكون مفعولاً من أجله، أي: جاؤوا بذلك لأَجْلِ الكذب.

وقرأت عائشة ﷺ والحسن: «كَدِبٍ» بالدال المهملة[(٢)]، وليس من قَلْبِ الذال دالاً بل هو لغةٌ أخرى بمعنى: كَدِرٍ، أو طريٍّ، أو يابسٍ، فهو من الأضداد. وقال صاحب «اللوامح»[(٣)]: المعنى: ذي كَدِبٍ، أي: أثر؛ لأن الكدب بياضٌ يخرج في أظافير الشبان ويؤثِّر فيها، فهو كالنقش، ويسمَّى ذلك [البياض]: الفوف.

ولم يعتبر بعض المحقِّقين تقديرَ المضاف، وجَعَلَ ذلك من التشبيه البليغ أو الاستعارة، فإنَّ الدم في القميص يُشْبِهُ الكذبَ من جهةِ مخالفةِ لونه لونَ ما هو فيه.

وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ـ على ما ذهب إليه أبو البقاء ـ حالٌ من «دم»[(٤)]، وفي جوازِ تقديمِ الحال على صاحبها المجرورِ بالحرف غير الزائد خلافٌ، والحقُّ ـ كما قال السفاقسيُّ ـ الجوازُ؛ لكثرة ذلك في كلامهم. وفي «اللباب»: ولا تتقدَّم على صاحبها المجرور على الأصح، نحو: مررتُ جالسةً بهندٍ، إلا أنْ يكون الحالُ ظرفاً[(٥)]. على أنَّ الحقَّ ما اختاره ابنُ مالك من جواز التقديم مطلقاً[(٦)].

وقال الزمخشريُّ ومَن تبعه: إنه في موضع النصب على الظرفية، أي: جاؤوا فوق قميصه، كما تقول: جاء على جماله بأحمالٍ[(٧)]. وأراد ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ «على» على حقيقة الاستعلاء، وهو ظرف لغو.

---

(١) البحر ٥/ ٢٨٩، وهي في الكشاف ٢/ ٣٠٨ دون نسبة.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٢-٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٥، والكشاف ٢/ ٣٠٨، والبحر ٥/ ٢٨٩.
(٣) كما في البحر ٥/ ٢٨٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٤) الإملاء ٣/ ٣٢٢.
(٥) اللباب في علم الإعراب لتاج الدين الإسفراييني ص١٠٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٦٣.
(٦) حاشية الشهاب ٥/ ١٦٣، وقول ابن مالك في التسهيل ص١١٠ هو: وتقديمه على صاحبه المجرور بحرفٍ ضعيف على الأصح، لا ممتنع.
(٧) الكشاف ٢/ ٣٠٨.

ومنع في «البحر»[1] كونَ العامل فيه المجيءَ؛ لأنه يقتضي أنَّ الفوقية ظرفٌ للجائين. وأجيبَ بأنَّ الظرفية ليست باعتبار الفاعل بل باعتبار المفعول.

وفي بعض الحواشي[2] أنَّ الأولى أن يقال: جاؤوا مستولين على قميصه، وقوله سبحانه: (بِدَمٍ) حالٌ من القميص، وجُعِلَ المعنى: استولوا على القميص ملتبساً بدمٍ جائين، وهو ـ على ما قيل ـ أولى من: جاؤوا مستولين، لِمَا تقرَّر في التضمين، والأمرُ في ذلك سهلٌ؛ فإنَّ جَعْلَ المضمَّن أصلاً والمذكورِ حالاً وبالعكس كلٌّ منهما جائزٌ، وإذا اقتضى المقامُ أحدَهما رجِّح.

واستُظْهِرَ كونُه ظرفاً للمجيءِ المتعدِّي، والمعنى: أتوا بدمٍ كذبٍ فوق قميصه، ولا يخفى استقامتُه.

هذا ثم إنَّ ذلك الدم كان دمَ سخلةٍ ذبحوها ولطَّخوا بدمها القميصَ، كما روي عن ابن عباس ومجاهد.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة أنهم أخذوا ظبياً فذبحوه فلطَّخوا بدمه القميصَ، ولَمَّا جاؤوا به جعل يقلِّبُه فيقول: ما أرى به أثرَ نابٍ ولا ظفرٍ، إنَّ هذا السبع رحيمٌ[3].

وفي روايةٍ أنه أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضَّب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيتُ كاليوم ذئباً أحلمَ من هذا، أكل ابني ولم يمزِّق عليه قميصه.

وجاء أنه بكى وصاح وخرَّ مغشيًّا عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادَوْه فلم يُجِبْ ووضع يهوذا يده على مخارج نَفَسه فلم يُحسَّ بنَفَسٍ ولا تحرَّك له عرقٌ، فقال: ويلٌ لنا من ديَّانٍ يومِ الدين، ضيَّعنا أخانا وقتلنا أبانا! فلم يُفِقْ إلَّا ببَرْدِ السَّحْر.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: زيَّنت وسهَّلت ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور منكراً

---

(١) ٥/ ٢٨٩.
(٢) كما ذكر الشهاب في الحاشية ٥/ ١٦٣، وعنه نقل المصنف.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١١١، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٤/ ١٠.

لا يوصفُ ولا يعرف. وأصلُ التسويل تقديرُ شيءٍ في النفس مع الطمع في إتمامه.

وقال الراغب: هو تزيينُ النفس لِمَا تحرص عليه، وتصويرُ القبيح بصورة الحسن[١].

وقال الأزهريُّ[٢]: كأنَّ التسويل تفعيلٌ من سُول[٣] الإنسان، وهو أمنيتُه التي يطلبها، فتزيِّن لطالبها الباطلَ وغيرَه، وأصلُه مهموز.

وقيل: من السَّوَل بفتحتين: وهو استرخاءٌ في العصب ونحوِه، كأنَّ المسوِّل لمزيد حرصه استرخى عصبُه.

وفي الكلام حذفٌ على ما في «البحر»، أي: لم يأكله الذئب بل سوَّلت إلخ[٤].

وعِلْمُه عليه السلام بكذبهم قيل: حَصَلَ من سلامة القميص عن التمزيق، وهي إحدى ثلاثِ آياتٍ في القميص، ثانيتُها عَوْدُ يعقوبَ بصيراً بإلقائه على وجهه، وثالثتُها قدُّه من دبرٍ، فإنه كان دليلاً على براءة يوسف، وينضمُّ إلى ذلك وثوقُه[٥] بالرؤيا الدالّة على بلوغه مرتبةً علياءَ تنحطُّ عنها الكواكب.

وقيل: من تناقُضِهم، فإنه يُرْوَى أنه عليه السلام لَمَّا قال ما تقدم عن قتادة، قال بعضهم: بل قتله اللصوصُ. فقال: كيف قتلوه وتركوا قميصَه، وهم إلى قميصه أحوجُ منهم إلى قتله؟! ولعله مع هذا العلم إنما حزن عليه السلام لِمَا خشي عليه من المكروه والشدائد غير الموت.

وقيل: إنه إنما حَزِنَ لفراقه، وفراقُ الأحبَّةِ مما لا يطاق، ولذلك قيل:

لولا مفارقةُ الأحباب ما وجدتْ لها المنايا إلى أرواحنا سبلا[٦]

ولا بأسَ بأن يقال: إنه أحزنه فراقُه وخوفُ أن يناله مكروه.

---

(١) مفردات الراغب (سول).

(٢) في تهذيب اللغة ١٣/ ٦٧.

(٣) في الأصل و(م): سوال، والمثبت من تهذيب اللغة، ومثله في اللسان والتاج (سول).

(٤) البحر ٥/ ٢٨٩.

(٥) في (م): وقوفه، وهو تصحيف.

(٦) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ٢٨٢.

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أي: فأمري صبرٌ جميلٌ، أو: فصبري صبرٌ جميل كما قال قطرب، أو: فالذي أفعلُه ذلك كما قال الخليل. أو: فهو صبرٌ إلخ كما قال الفرَّاء، و«صبر» في كلِّ ذلك خبرُ مبتدأ محذوفٍ. أو: فصبرٌ جميلٌ أمثلُ وأجملُ، على أنه مبتدأٌ خبرُه محذوف.

وهل الحذف في مثل ذلك واجبٌ أو جائز؟ فيه خلاف. وكذا اختلفوا فيما إذا صحَّ في كلامٍ واحدٍ اعتبارُ حذفِ المبتدأ وإبقاءِ الخبر واعتبارُ العكس، هل الاعتبارُ الأول أولى أَم الثاني؟.

وقرأ أبيٌّ والأشهبُ وعيسى بنُ عمر: «فصبراً جميلاً» بنصبهما، وكذا في مصحف أنس بن مالك[1]. وروي ذلك عن الكسائيِّ، وخرِّج على أنَّ التقدير: فأصبرُ صبراً، على أنَّ أصْبِر مضارعٌ مسندٌ لضمير المتكلِّم.

وتعقِّب بأنه لا يَحْسُنُ النصب في مثل ذلك إلا مع الأمر، والتَزَمَ بعضهم تقديرَه هنا بأنْ يكون عليه السلام قد رجع إلى مخاطبة نفسه فقال: صبراً جميلاً، على معنى: فاصبري يا نفس صبراً جميلاً.

والصبر الجميلُ على ما رَوَى الحسن عنه ﷺ: «ما لا شكوى فيه»[2] أي: إلى الخَلْقِ، وإلَّا فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وقيل: إنه عليه السلام سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعُهما بعصابة، فسئل عن سبب ذلك فقال: طولُ الزمان وكثرةُ الأحزان. فأَوْحَى الله تعالى إليه أَتَشْكوا إلى غيري. فقال: يا رب، خطيئة فاغفرها.

وقيل: المراد من قوله: «فصبرٌ جميلٌ»: أنِّي أتجمَّل لكم في صبري

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧، والبحر ٥/ ٢٨٩، وهي في القراءات الشاذة ص٦٣ عن عيسى بن عمر وحده.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٤/ ١٠ عن الحسن قوله، وعزاه لابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤١، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١١٢، عن حِبَّان بن أبي جبلة عن النبي ﷺ مرسلاً.

فلا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين، بل أبقى على ما كنتُ عليه معكم، وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: المطلوبُ منه العونُ، وهو إنشاءٌ منه عليه السلام للاستعانة المستمرَّة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ متعلِّقٌ بـ «المستعان»، والوصفُ ذِكْرُ الشيء بنعته، وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمرادُ به هنا الثاني كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] بل قيل: إنَّ الصيغة قد غلبت في ذلك.

ومعنى استعانتِه عليه السلام بالله تعالى على كذبهم طلبُه منه سبحانه إظهارَ كونه كذباً بسلامةِ يوسفَ عليه السلام والاجتماع معه، فيكون ذكرُ الاستعانة هنا نظيرَ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بَعْدَ قوله فيما بَعْدُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [الآية: ٨٣].

وفي بعض الآثار أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت يوم الإفك: والله لئن حلفتُ لا تصدِّقوني، ولئن اعتذرتُ لا تَعْذُروني، فمَثَلي ومَثَلُكم كمَثَل يعقوبَ وولدِه، واللهُ المستعانُ على ما تصفون. فأنزل الله تعالى في عُذرِها ما أنزل[1].

وقيل: المراد: واللهُ المستعانُ[2] على احتمال ما تصفونه من هلاك يوسف، كأنه عليه السلام بعد أن قال: صبرٌ جميلٌ، طلب الإعانة منه تعالى على الصبر، وذلك لأنَّ الدواعيَ النفسانيةَ تدعو إلى إظهار الجزع وهي قويةٌ، والدواعي الروحانيةُ الصبرُ الجميلُ، فكأنه وقعت المحاربةُ بين الصفتين، فما لم تحصل المعونةُ منه جلَّ وعلا لا تحصل الغلبةُ، فقوله: «فصبرٌ جميلٌ» يجري مجرى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، و«الله المستعان على ما تصفون» يجري مجرى (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). ولعل الأولَ أسلمُ من القال والقيل.

وللإمام الرازي عليه الرحمةُ في هذا المقام بحثٌ، وهو أنَّ الصبر على قضاء الله تعالى واجبٌ، وأمَّا الصبرُ على ظلم الظالمين ومكرِ الماكرين فغيرُ واجبٍ، بل الواجبُ إزالتُه لاسيما في الضرر العائد إلى الغير، فكان اللائقُ بيعقوب عليه السلام

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٤٣).

(٢) في (م): المراد أنه تعالى المستعان.

التفتيشَ والسعيَ في تخليص يوسف عليه السلام من البليَّة والشدَّة إن كان حيًّا، وفي إقامة القصاص إن صحَّ أنهم قتلوه، بل قد يقال: إنَّ الواجب المتعيِّن عليه السعيُ في طلبه وتخليصِه؛ لأنَّ الظاهر أنه كان عالماً بأنه حيٌّ سليم لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ فإنَّ الظاهر أنه إنما قاله عن وحي.

وأيضاً إنه عليه السلام كان عظيم القَدْرِ جليلَ الشأن معظَّماً في النفوس مشهوراً في الآفاق، فلو بالغ في الطلب والتفحُّص لظهر ذلك واشتهر، ولزال وجهُ التلبيس، فما السبب في تركه عليه السلام الفحصَ مع نهاية رغبته في حضور يوسف وغاية محبته له؟ وهل الصبرُ في هذا المقام إلا مذمومٌ عقلاً وشرعاً؟

ثم قال: والجوابُ أنْ نقول: لا جوابَ عن ذلك إلَّا أن يقال: إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة وتغليظاً للأمر.

وأيضاً لعله عرف بقرائن الأحوال أنَّ أولاده أقوياءُ، وأنهم لا يمكِّنونه من الطلب والتفحُّص، وأنه لو بالغ في البحث ربما أقدموا على إيذائه وقتله.

وأيضاً لعله عليه السلام علم أنَّ الله تعالى يصونُ يوسف عن البلاء والمحنة، وأن أمره سيَعْظُمُ بالآخرة، ثم لم يُرِدْ هَتْكَ سِتْرِ أولاده، وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس، وذلك لأنَّ أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأبُ في العذاب الشديد؛ لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبُه على الولد المظلوم، وإن انتقم يحترق على الولد الذي ينتقمُ منه، ونظيرُ ذلك ما أشار إليه الشاعر بقوله:

قومي هُمُ قتلوا أميم أخي ... فإذا رميتُ يُصيبني سهمي
ولئن عفوتُ لأعفون جللاً ... ولئن سطوتُ لموهنٌ عظمي

فلما وقع يعقوب عليه السلام في هذه البلية رأى أنَّ الأصوب الصبرُ والسكوتُ، وتفويضُ الأمر بالكلية إلى الله تعالى، لاسيما إنْ قلنا: إنه عليه السلام كان عالماً بأنَّ ما وقع لا يمكن تلافيه حتى يبلغ الكتابُ أَجَلَه[1].

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٠٣-١٠٤ دون ذكر البيتين، وهما للحارث بن وَعْلَةَ الذُّهْلي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٤، وفيه: لأوهنن، بدل: لموهن. و: فلئن، بدل: ولئن، وسلف الأول منهما ٤/ ١٣٦.

﴿وَجَآءَتۡ﴾ شروعٌ فيما جرى على يوسف عليه السلام في الجبِّ بعد الفراغ عن ذِكْرِ ما وقع بين إخوته وبين أبيه، أي: وجاءت إلى الجب ﴿سَيَّارَةٞ﴾ أي: رفقةٌ تسير من جهة مدينَ إلى مصر، وكان ذلك بعد ثلاثة أيام مضت من زمن إلقائه في قولٍ، وقيل: في اليوم الثاني.

والظاهرُ أنَّ الجبَّ كان في طريق سيرهم المعتاد. وقيل: إنه كان في قَفْرةٍ بعيدةٍ من العمران، فأخطؤوا الطريقَ فأصابوه.

﴿فَأَرۡسَلُواْ﴾ إليه ﴿وَارِدَهُمۡ﴾ الذي يَرِدُ الماء ويستقي لهم، وكان ذلك مالك بن دعر[1] الخزاعيَّ. وقال ابن عطية: الواردُ هنا يمكن أن يقع على الواحد وعلى الجماعة[2]. اهـ. والظاهرُ الأولُ.

والتأنيثُ في «جاءت» والتذكيرُ في «أرسلوا» و«واردهم» باعتبار اللفظ والمعنى. وفي التعبير بالمجيء إيماءٌ إلى كرامة يوسف عليه السلام عند ربِّه سبحانه، وحذف متعلِّقه وكذا متعلِّق الإرسال لظهوره، ولذا حذف المتعلِّق في قوله سبحانه: ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ أي: أرسلها إلى الجبِّ ليُخْرِجَ الماء، ويقال: دَلَا الدلوَ، إذا أخرجها ملأى، والدلوُ من المؤنَّثات السماعية، فتصغَّر على دُلَيَّة، وتجمعُ على أَدْلٍ ودِلَاءٍ ودليٍّ[3].

وقال ابن الشحنة: إنَّ الدلو التي يُستَقَى بها مؤنَّثةٌ وقد تذكَّر، وأما الدلوُ مصدر دَلَوْتُ وضربٌ من السير فمذكَّرٌ، ومثلُها في التذكير والتأنيث الجبُّ عند الفرَّاء على ما نقله عنه محمد بن الجهم، وعن بعضهم أنه مذكَّرٌ لا غير، وأما البئر فمؤنثةٌ فقط في المشهور، ويقال في تصغيرها: بُوَيْرة، وفي جمعها: آبار وأَبْآر وأَبْؤُر وبِئار.

وفي الكلام حذف، أي: فأدلى دلوه فتدلَّى بها يوسفُ فخرج ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ يقتضيه الحال ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ نادى البشرى بشارةً لنفسه أو

(١) في الأصل و(م): ذعر، بالذال، وذكر صاحب القاموس أنه تصحيف، وأنّ الصواب دعر بالدال المهملة، القاموس (دعر) و (ذعر).

(٢) نقل المصنف كلام ابن عطية عن البحر ٥/ ٢٩٠، وعبارة المحرر ٣/ ٢٢٩: والضمير في قوله: «وأسروه» ظاهر الآيات أنه لوارد الماء.

(٣) بضم الدال وكسرها، أي: دُليٌّ، ودِليٌّ. القاموس (دلو).

لقومه ورفقته، كأنه نزلَّها منزلةَ شخصٍ فناداه، فهو استعارةٌ مكنيةٌ وتخييلية، أي: يا بشرى تعالَيْ فهذا أوانُ حضورك.

وقيل: المنادى محذوفٌ كما في: يا ليت، أي: يا قوم[١] انظروا واسمعوا بشراي.

وقيل: إنَّ هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قَصْدٍ إلى النداء.

وزعم بعضهم أن «بشرى» اسمُ صاحبٍ له ناداه ليُعِينَه على إخراجه، ورُوي هذا عن السديِّ، وليس بذاك.

وقرأ غيرُ الكوفيين: «يا بشراي» بالإضافة[٢]، وأمال فتحةَ الراء حمزةُ والكسائيُّ، وقرأ ورشٌ بين اللفظين[٣].

وروي عن نافع أنه قرأ: «يا بشرايْ» بسكون ياء الإضافة[٤]، ويلزمُه التقاءُ الساكنين على غير حدِّه، واعتُذِرَ بأنه أَجْرَى الوصلَ مجرى الوقف، ونظائرُ ذلك كثيرةٌ في القرآن وغيرِه. وقيل: جاز ذلك لأنَّ الألف لمدِّها تقومُ مقام الحركة.

وقرأ أبو الطفيل والحسن وابن أبي إسحاق والجحدريُّ: «يا بُشْرَيَّ» بقَلْبِ الألف ياءً وإدغامِها في ياء الإضافة[٥]، وهي لغةٌ لهذيلٍ ولناسٍ غيرِهم، ومن ذلك قولُ أبي ذؤيب:

سَبَقوا هَوَيَّ وأَعْنَقوا لهواهم فتُخرِّموا ولكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[٦]

ويقولون: يا سيدي ومَوْلَيَّ.

والغلامُ كثيراً ما يطلق على ما بين الحولين إلى البلوغ، وقد يطلق على الرجل

---

(١) في (م): قومي.

(٢) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣. وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب.

(٣) التيسير ص١٢٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٢، والبحر ٥/ ٢٩٠.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٢، والمحتسب ١/ ٣٣٦، والبحر ٥/ ٢٩٠.

(٦) ديوان الهذليين ١/ ٢.

الكامل كما في قول ليلى الأخيلية في الحجاج بن يوسف الثقفي:

غـلامٌ إذا هـزَّ الـقـنـاة سـقـاهـا(١)

والظاهر أنَّ التنوين فيه للتفخيم، وحقَّ له ذلك فقد كان عليه السلام من أحسن الغلمان، وذكر البغويُّ عنه ﷺ أنه قال: «أعطي يوسفُ شَطْرَ الحُسْنِ»(٢).

وقال محمد بن إسحاق: ذهب يوسف وأمُّه بثلثي الحُسْنِ.

وحكى الثعلبيُّ عن كعبِ الأحبار أنه قال: كان يوسف حَسَنَ الوجه، جعدَ الشعر، ضخمَ العينين، مستويَ الخلق، أبيضَ اللون، غليظَ الساعدين والساقين، خميصَ البطن، صغير السرة، وكان إذا تبسَّم رأيتَ النورَ في ضواحكه، وإن تكلَّم رأيتَ شعاع النور من ثناياه، ولا يستطيع أحدٌ وصفَه، وكان حُسْنُه كضوء النهار عند الليل، وكان يُشْبِهُ آدم عليه السلام يومَ خَلْقِهِ قبل أن يصيب الخطيئة(٣).

ويُحكى أن جوانب الجبِّ بَكَتْ عليه حين خرج منها، ولعله من باب: بَكَتِ الدار لفَقْدِ فلانٍ.

والظاهرُ أنَّ قول الوارد: «يا بشرى هذا غلام» كان عند رؤيته. وقيل: إنه حين وروده على أصحابه صاح بذاك.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي: أخفاه الواردُ وأصحابُه عن بقية الرفقة حتى لا تراه فتطمع فيه. وقيل: أخفوا أمره وكونَه وُجد في البئر، وقالوا لسائر القافلة: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر.

وقيل: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن بعضهم رجع ليتحقَّق أمره فرآه عند السيارة، فأخبر إخوته فجاؤوا إليهم فقالوا: هذا غلامٌ أبقَ لنا فاشْتَرُوه منَّا فاشْتَرَوه، وسكت يوسف مخافةَ أن يقتلوه. وفي روايةٍ أنهم قالوا بالعبرانية: لا تُنْكِر العبودية نقتلك. فأقرَّ بها واشتروه منهم. وقيل: كان يهوذا يأتيه بالطعام، فأتاه يومَ أُخرج

---

(١) الأغاني ١١/ ٢٤٨، وأمالي القالي ١/ ٨٦، وزاد المسير ١/ ٣٨٥، وصدره: شفاها من الداء العضال الذي بها.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤١٥، وهو قطعة من حديث أنس ﷺ في الإسراء عند مسلم (١٦٢).

(٣) قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس لأبي إسحاق الثعلبي ص١١١.

فلم يجده في الجبِّ، ووجده عند الرفقة، فأخبر إخوتَه فأتوهم فقالوا ما قالوا.

ورُوِي كونُ الضمير للإخوة عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قيل: وهو المناسب لإفراد «قال» وجمع ضمير «أسرُّوا»، وللوعيد الآتي قريباً إن شاء الله تعالى، وليس فيه اختلالٌ في النظم، ولا يخفى أنَّ الظاهر ما أشير إليه أوَّلاً.

ونصب قوله سبحانه: ﴿بِضَٰعَةًۚ﴾ على الحال، أي: أخفوه حالَ كونه متاعاً للتجارة، وفي «الفرائد»(١) أنه ضمّن «أسرُّوه» معنى جعلوه، أي: جعلوه بضاعةً مسرِّين إياه، فهو مفعول به.

وقال ابن الحاجب: يحتمل أن يكون مفعولاً له، أي: لأجل التجارة، وليس شرطُه مفقوداً؛ لاتحادِ فاعله وفاعلِ الفعل المعلَّل به؛ إذ المعنى: كتموه لأجل تحصيل المال به، ولا يجوز أن يكون تمييزاً.

وهو من البَضْعِ بمعنى القَطْع، وكأنَّ البضاعة إنما سمِّيتْ بذلك لأنها تُقطع من المال وتُجعل للتجارة. ومِن ذلك البِضْعُ بالكسر لِمَا بين الثلاث إلى العشرة، أو لما فوق الخمس ودون العشرة، والبَضيعةُ للجزيرة المنقطعةِ عن البر. واعتبر الراغب في البضاعة كونَها قطعةً وافرة من المال تُقْتَنى للتجارة(٢). ولم يَعتبر الكثيرُ كونَها وافرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ لم يَخْفَ عليه سبحانه إسرارُهم، وصرَّح غير واحدٍ أن هذا وعيدٌ لإخوة يوسف عليه السلام على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم، وجَعْلِهم إياه وهو هو عرضةً للابتذال بالبيع والشراء.

﴿وَشَرَوۡهُ﴾ الضميرُ المرفوعُ إما للإخوة، فشَرَى بمعنى باع، وإمَّا للسيارة فهو بمعنى اشترى، كما في قوله:

وشَرَيْتُ بُرْداً ليتني ... مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هامَهْ(٣)

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٦٤، وهو كتاب فرائد التفسير لفصيح الدين محمد بن عمر.

(٢) مفردات الراغب (بضع).

(٣) البيت ليزيد بن مفرِّغ الحميري، وهو في ديوانه ص١٤٤، والهامة: من طيور الليل، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يُدرَك ثأره تصير هامة تقول عند قبره:
=

وقوله:

ولـو أنَّ هـذا الـمـوتَ يـقـبـلُ فـديـةً شـريـتُ أبـا زيـدٍ بـمـا مَـلَـكـتْ يـدي[١]

وجوَّز أن يكون على هذا الوجه بمعنى باع بناءً على أنهم باعوه لَمَّا التقطوه من بعضهم.

﴿بِثَمَنٍ بَخۡسٍ﴾ أي: نقصٍ، وهو مصدرٌ أريدَ به اسمُ المفعول، أي: منقوصٍ، وجوَّز الراغب[٢] أن يكون بمعنى باخسٍ، أي: ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً.

وقال مقاتل: زيفٍ ناقص العيار.

وقال قتادة: «بخس»: ظلم؛ لأنه ظلموه في بيعه.

وقال ابن عباس والضحاك في آخرين: البخسُ: الحرامُ، وكان ذلك حراماً لأنه ثمنُ الحرِّ، وسمِّي الحرام بخساً لأنه مبخوسُ البركة، أي: منقوصُها.

وقوله سبحانه: ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدلٌ من «ثمن»، أي: لا دنانير. ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ أي: قليلة، وكني بالعدِّ عن القلَّة لأنَّ الكثير يوزَنُ عندهم.

وكانت عدَّةُ هذه الدراهم في كثير من الروايات عشرين درهماً، وفي روايةٍ عن ابن عباس: اثنين وعشرين. وفي أخرى عنه: عشرين وحلَّةً ونعلين. وقيل: ثلاثين وحلَّةً ونعلين. وقيل: ثمانية عشر اشتروا بها أخفافاً ونعالاً. وقيل: عشرة.

وعن عكرمة: أنها كانت أربعين درهماً، ولا يأبى هذا ما ذكره غيرُ واحدٍ من أنَّ عادتهم أنهم لا يَزِنون إلا ما بلغ أوقيةً وهي أربعون درهماً؛ إذ ليس فيه نفيُ أنَّ الأربعين قد تعدُّ.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ﴾ أي: في يوسف كما هو الظاهر ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ أي:

---

= اسقوني اسقوني، فإن أدرِكَ ثأره طارت. الصحاح (هيم). وبرد: اسم غلام ندم على بيعه. المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠.

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩١.

(٢) في مفرداته (بخس).

الراغبين عنه. والضمير في «وكانوا» إن كان للإخوة فظاهرٌ، وإن كان للرفقة وكانوا بائعين، فزُهْدُهم فيه لأنهم التقطوه، والملتقطُ للشيء متهاونٌ به لا يبالي بما باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحقٌّ ينتزعُه من يده، فيبيعه من أول مساوِمٍ بأَوْكَسِ الثمن، وإن كان لهم وكانوا مبتاعين بأن اشتروه من بعضهم أو من الإخوة، فزهْدُهم لأنهم اعتقدوا فيه أنه آبقٌ، فخافوا أن يخاطروا بمالِهم فيه.

وقيل: ضمير «فيه» للثمن، وزهدُهم فيه لرداءته، أو لأنَّ مقصودهم ليس إلا إبعاد يوسف عليه السلام، وهذا ظاهرٌ على تقدير أن يكون ضمير «كانوا» للإخوة.

والجارُّ ـ على ما نُقل عن ابن مالك ـ متعلِّقٌ بمحذوف يدل عليه «الزاهدين»، أي: كانوا زاهدين فيه من الزاهدين، وذلك أنَّ اللام في «الزاهدين» اسمٌ موصولٌ، ولا يتقدَّمُ ما في صلة الموصول عليه، ولأنَّ[1] ما بعد الجارِّ لا يعمل فيما قبله.

وهل «من الزاهدين» حينئذٍ صفةٌ لزاهدين المحذوفِ مؤكِّدةٌ، كما تقول: عالمٌ من العلماء، أو صفةٌ مبيِّنةٌ أي: زاهدين بلغ بهم الزهدُ إلى أن يُعدُّوا في الزاهدين؛ لأنَّ الزاهد قد لا يكون عريقاً في الزاهدين حتى يُعدَّ فيهم إذا عُدُّوا. أو يكون خبراً ثانياً؟ كلُّ ذلك محتملٌ. وليس بدلاً من المحذوف لوجود «مِن» معه. وقدَّر بعضُهم المحذوفَ: أعني، وأنا فيه من الزاهدين[2].

وقال ابن الحاجب في «أماليه»: إنه متعلِّقٌ بالصلة، والمعنى عليه بلا شبهةٍ، وإنما فرُّوا منه لِمَا فهموا من أنَّ صلة الموصول لا تعمل فيما قبلَ الموصول مطلقاً، وبين صلة «أل» وغيرها فرقٌ، فإنَّ هذه على صورة الحرف المنزَّلِ منزلةَ الجزء من الكلمة، فلا يمتنعُ تقديم معمولها عليها، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ تعلُّقه بالمذكور إنما هو مذهب المازنيِّ الذي جعل «أل» في مثل ذلك حرفَ تعريف[3]. وكأنه لا يرى تقدُّمَ معمول المجرور ممتنعاً، وإلَّا لم يتمَّ بما ذكره ارتفاعُ المحذور.

---

(١) في الأصل: وأن.

(٢) قوله: وأنا فيه من الزاهدين، هو من كلام المصنف يقصد به تضعيف هذا القول، وكذلك ضعَّفه الشهاب في الحاشية ٥/ ١٦٥ بقوله: ليس بجيد.

(٣) نقل المصنف كلام ابن الحاجب عن حاشية الشهاب ٥/ ٢٦٥.

وزَعْمُ بعضِهم أنه يلزمُ بعدُ عَملُ اسم الفاعل من غير اعتمادٍ من الغفلة بمكان؛ لأنَّ محل الخلاف عملُه في الفاعل والمفعول به الصريح، لا في الجارِّ والمجرور الذي يكفيه رائحةُ الفعل.

وقال بعض المتأخِّرين: إنَّ الصفة هنا معتمِدةٌ على اسم «كانوا» وهو مبتدأ في الأصل، والاعتمادُ على ذلك معتبرٌ عندهم، ففي الرضيِّ عند قول ابن الحاجب: والاعتماد على صاحبه: ويعني بصاحبه المبتدأ؛ إما في الحال نحو: زيد ضاربٌ أخواه، أو في الأصل نحو: كان زيدٌ ضارباً أخواه، وظننتك ضارباً أخواك، وإنَّ زيداً ضاربٌ غلاماه. وعلى هذا لا يحتاج في الجواب إلى إخراج الجارِّ والمجرور عن حكم الفاعل والمفعول به الصريح وإن كان له وجهٌ وجيه، خلافاً لمن أنكره.

ومن الناس مَن يتمسَّكُ بعمومِ: يُتَوسَّعُ في الظرف والجارِّ والمجرور ما لا يُتَوسَّع في غيرهما، في دَفْع ما يورَدُ على تعلُّق الجارِّ هنا بالصفة المجرورة الواقعة صلةً لـ «أل» كائناً ما كان، فليفهم.

هذا والشائع أنَّ الباعةَ إخوتُه والزاهدين هم، وفي بعض الآثار أنهم حين باعوه قالوا للتاجر: إنه لصٌّ آبقٌ فقيِّدْه ووكِّل به عبداً أسود. فلما جاء وقتُ ارتحالهم بكى عليه السلام، فقال له التاجر: ما لك تبكي؟ فقال: أريد أن أَصِلَ إلى الذين باعوني لأودِّعهم وأسلِّمَ عليهم سلامَ مَن لا يرجعُ إليهم. فقال التاجر للعبد: خذه واذهب به إلى مواليه ليودِّعهم ثم ألحقه بالقافلة، فما رأيتُ غلاماً أبرَّ من هذا بمواليه، ولا قوماً أَجْفَى منهم.

فتقدَّم العبد به إلى إخوته، وكان واحدٌ منهم مستيقظاً يحرسُ الأغنام، فلمَّا وصل إليه يوسفُ وهو يعثر في قيده انكبَّ عليه وبكى، فقال له: لما جئت؟ فقال: جئتُ لأودِّعكم وأسلِّم عليكم. فصاح عليهم أخوهم: قوموا إلى مَن أتاكم يسلِّم عليكم سلامَ مَن لا يرجو أن يراكم أبداً، فويلٌ لكم من هذا الوداع. فقاموا فجعل يوسف ينكبُّ على كلِّ واحدٍ منهم ويقبِّله ويعانقه، ويقول: حَفِظَكم الله تعالى وإن ضيَّعتُموني، آواكم الله تعالى وإن طردتُموني، رحمكم الله تعالى وإن لم ترحموني، قيل: إنَّ الأغنام ألقتْ ما في بطونها من هول هذا التوديع.

ثم أخذه العبدُ وطلب القافلةَ، فبينما هو على الراحلة إذ مرَّ بقبر أمِّه راحيل في مقابر كنعان، فلمَّا أبصر القبر لم يتمالك أنْ رمى بنفسه عليه، فاعتنقه وجعل يبكي ويقول: يا أماه، ارفعي رأسك من التراب حتى تَرَيْ ولدك مقيَّداً، يا أماه إخوتي في الجبِّ طرحوني، ومن أبي فرَّقوني، وبأبخس الأثمان باعوني، ولم يَرِقُّوا لصغر سنِّي ولم يرحموني، فأنا أسألُ الله تعالى أن يجمع بيني وبين والدي في مستقرِّ رحمته إنه أرحمُ الراحمين. فالتفت العبد فلم يره، فرجع فرآه على القبر فقال: والله لقد صَدَقَ مواليك، إنك عبدٌ آبقٌ. ثم لطمه لطمةً شديدةً فغُشي عليه، ثم أفاق فقال له: لا تؤاخذني، هذا قبرُ أمِّي نزلتُ أسلِّم عليها، ولا أعودُ بعدُ لِمَا تكرهُه أبداً.

ثم رفع عينيه إلى السماء وقد تمرَّغ بالتراب والدموعُ في وجهه فقال: اللهم إن كانت لي خطيئةٌ أخلقتْ وجهي عندك فبحُرْمةِ آبائي الكرام إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تعفوَ عنِّي وترحمني يا أرحم الراحمين. فضجَّت الملائكة إلى الله تعالى عند ذلك، فقال تبارك وتعالى: يا ملائكتي هذا نبيِّي وابنُ أنبيائي، وقد استغاث بي وأنا مغيثُه ومغيثُ المستغيثين، يا جبريلُ أدركه. فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا صدِّيقَ الله، ربُّك يُقرِئُكَ السلام ويقول لك: مهلاً عليك فقد أبكيتَ ملائكة السماوات السبع، أتريد أن أطبق السماء على الأرض؟ فقال: لا، يا جبريلُ ارْفُقْ بِخَلْقِ ربِّي فإنه حليم لا يعجل. فضرب الأرض بجناحه فهبَّت ريحٌ حمراءُ، وكسفت الشمس، وأظلمت الغبراء، فلم ير أهلُ القافلة بعضهم بعضاً، فقال التاجر: انزلوا قبل أن تهلكوا، إنَّ لي سنين عديدةً أمرُّ بهذا الطريق فما رأيتُ كاليوم، فمن أصاب منكم ذنباً فليتُبْ منه، فما أصابنا هذا إلا بذنبٍ اقترفناه. فأخبره العبد بما فعل مع يوسف، وقال: يا سيدي، إني لَمَّا ضربتُه رفع عينه إلى السماء وحرَّك شفتيه. فقال له التاجر: ويحك أهلكْتَنا وأهلكْتَ نفسك. فتقدَّم إليه التاجر وقال: يا غلام إنَّا ظلمناك حين ضربناك، فإنْ شئتَ أن تقتصَّ منَّا فها نحن بين يديك. فقال يوسف: ما أنا من قوم إذا ظُلموا يقتصُّون، ولكنِّي من أهل بيتٍ إذ ظُلموا عَفَوْا وغفروا، ولقد عَفَوْتُ عنكم رجاءَ أن يعفو الله تعالى عنِّي. فانجلت الظلمةُ، وسكنت الريح، وأسفرت الشمس، وأضاءت مشارق الأرض ومغاربها، فساروا حتى دخلوا مصر آمنين، وكان هذا التاجرُ فيما قيل مالك بنَ دعر الذي أخرجه من الجب، وقيل: غيره.

وروي أنه حين ورد به مصر باعه بعشرين ديناراً، وزَوْجَيَ نعل، وثوبين أبيضين.

وقيل: أُدخل السوقَ للبيع فترافعوا في ثمنه حتى بلغ[1] وزنَه مسكاً، ووزنه وَرِقاً، ووزنه حريراً، فاشتراه بذلك العزيز[2] الذي كان على خزائن مصر عند ملكها. وقيل: كان خبازَ الملك، وصاحبَ شرابه ودوابِّه، وصاحبَ السجن، والمشهورُ المعوَّلُ عليه[3] هو الأول، واسمه: قطفير، أو إطفير، أو قنطور، والأول مرويٌّ عن ابن عباس، وهو المراد في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ فهذا الشراءُ غيرُ الشراء السابق الذي كان بثمنٍ بخس، وزَعْمُ اتِّحادِهما ضعيفٌ جدًّا، وإلَّا لا يبقى لقوله: «من مصر» كثيرُ جدوى.

وكان الملك يومئذٍ الريان بنُ الوليد العمليقي، ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به، فملك بعده قابوس بنُ مصعب، فدعاه إلى الإيمان فأبى.

وقيل: كان الملك في أيامه فرعونَ موسى عليه السلام عاش أربعَ مئة سنةٍ، بدليلِ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤].

وقيل: فرعونُ موسى عليه السلام من أولاد فرعون يوسف عليه السلام، والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء، وهو الصحيح.

وظاهرُ أمر العزيز أنه كان كافراً، واستدلَّ في «البحر»[4] على ذلك بكون الصنم في بيته حسبما يُذكر في بعض الروايات.

وقال مجاهد: كان مؤمناً. ولعل مراده أنه آمن بعد ذلك، وإلا فكونُه مؤمناً يومَ الاشتراء مما لا يكاد يسلَّم، نعم إنه اعتنى بأمر يوسف عليه السلام، ولذا قال

---

(١) أي: حتى بلغ ثمنه. الكشاف ٢/ ٣١٠.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): أخرج ابن إسحاق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أن مالك بن دعر لما باع يوسف من العزيز سأله: مَن أنت؟ فذكر له مَن هو، وابنُ مَن هو، وكان من مدين فعرفه فقال: لو أخبرتني لم أَبِعْكَ. ثم طلب منه الدعاء، فدعا له وقال: بارك الله لك في أهلك. فحملت امرأته اثني عشر بطناً في كلِّ بطنٍ غلامان. انتهى، وهذا إن صح يُبْعِدُ صحة القصة، فتأمَّل. اهـ منه.

(٣) في (م): وصاحب السجن المشهور، والمعول عليه.

(٤) ٥/ ٢٩٢.

﴿لِامْرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل[1] بنت رعاييل، وهو المرويُّ عن مجاهد. وقال السدي: زليخا[2] بنت تمليخا. وقيل: اسمها راعيل ولقبها زليخا. وقيل: بالعكس.

والجارُّ الأول ـ كما قال أبو البقاء[3] ـ متعلِّق بـ «اشتراه» كقولك: اشتريتُه من بغداد، أي: فيها أو بها، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من «الذي»، أو من الضمير في «اشترى»، أي: كائناً من أهل مصر.

والجارُّ الثاني متعلِّقٌ بـ «قال» كما أشرنا إليه لا بـ «اشتراه»، ومقولُ القول: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ أي: اجعلي محلَّ ثوائه وإقامته كريماً، أي: حسناً مرضيًّا، وهذا كنايةٌ عن إكرامه عليه السلام نفسِه على أبلغ وجهٍ وأتمِّه؛ لأنَّ مَن أَكْرَمَ المحلَّ بتنظيفه وفَرْشِه ونحوِ ذلك، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يُكرم به.

وقيل: المثوى مُقْحَمٌ كما[4] يقال: المجلس العالي، والمقام السامي، والمعنى: أحسني تعهُّدَه والنظرَ فيما يقتضيه إكرامُ الضيف ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في قضاء مصالحنا إذا تدرَّب في الأمور وعرف مجاريها ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبنَّاه ونقيمُه مقام الولد، وكان فيما يُروى عقيماً.

ولعل الانفصال لمنع الخلوِّ، وزعم بعضهم أنه لمنع الجمع، على معنى: عسى أن نبيعه فننتفع بثمنه، وليس بشيء.

وكان هذا القول من العزيز لِمَا تفرَّس فيه من مخايل الرشد والنجابة، ومن ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه فيما أخرجه سعيد بن منصور، والحاكم وصحَّحه، وجماعةٌ: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: العزيز حين تفرَّس في يوسف فقال لامرأته: (أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ) إلخ، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر[5].

---

(١) في هامش الأصل و(م): راعيل بوزن هابيل. اهـ منه.

(٢) بفتح الزاي وكسر اللام والخاء المعجمة وفي آخره ألف، وهو المشهور. وقيل: إنه بضم أوله على هيئة المصغَّر. حاشية الشهاب ٥/ ١٦٥.

(٣) في الإملاء ٣/ ٣٢٧.

(٤) قوله: كما، ليس في (م).

(٥) سنن سعيد بن منصور (١١٣ - تفسير)، والمستدرك ٢/ ٣٤٥، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٨/ ٥٧٥، والطبري ١٣/ ٦٤.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له فيها مكاناً، يقال: مكَّنه فيه، أي: أثبته فيه، ومكَّن له فيه، أي: جعل له مكاناً فيه، ولتقارُبهما وتلازُمهما يستعمل كلٌّ منهما في مقام الآخر، قال سبحانه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦] والمراد بالمكان هنا المكانةُ والمنزلة، لا البعدُ المجرَّد أو السطح الباطن من الحاوي المماسّ للسطح الظاهر من المحويّ، أو غيرِ ذلك مما ذهب إليه من ذهب من الفلاسفة إنْ حقًّا وإنْ باطلاً.

والإشارة إلى ما يفهم مما تقدَّم من الكلام، وما فيه من معنى البعد لتفخيمه، والكافُ نصبٌ على المصدرية، أي: كما جعلنا له مثوًى كريماً في منزل العزيز أو مكاناً عليًّا في قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه، جعلنا له مكانةً رفيعةً في أرض مصر.

وفسِّر الجعلُ المذكورُ بجَعْلِه وجيهاً فيما بين أهل مصر ومحبَّباً في قلوبهم، بناءً على أنه الذي يؤدِّي إلى الغاية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعض تعبير الرؤيا التي عُمْدتُها رؤيا الملك وصاحبي السجن، ورُوي هذا المعنى عن مجاهد، وهو الظاهر كما يُرْشِدُ إليه قوله عليه السلام: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [الآية: ٣٧] سواءٌ جُعِلَ معطوفاً على غايةٍ مقدَّرةٍ ينساقُ إليها الكلامُ ويستدعيها النظام، كأنه قيل: ومثلَ ذلك التمكين البديع مكَّنَّا ليوسف في الأرض وجعلنا قلوبَ أهلها كافةً محالَّ محبته، ليترتَّب على ذلك ما يترتَّبُ مما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ولنعلِّمه بعضَ تأويل الأحاديث فيؤدِّي ذلك إلى الرتبة العليا والرياسة العظمى، ولعل تركَ المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مراداً. أو جُعِلَ علَّةً لمحذوفٍ، كأنه قيل: ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين لا لشيءٍ غيرِها مما ليس له عاقبةٌ حميدة.

واختار بعض المحققين كونَ «ذلك» إشارةً إلى مصدر الفعل المذكور بعده، والكاف مقحمة للدلالة على تأكيد فخامة شأن المشار إليه، على ما ذكروا في ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والمرادُ به التمكينُ في قلب العزيز أو في منزله، وكونُ ذلك تمكيناً في الأرض بملابسةِ أنه عزيزٌ فيها؛ لِمَا أنَّ الذي عليه يدور تلك الأمور إنما هو التمكينُ في جانب العزيز، وأمَّا التمكينُ في جانب الناس كافةً فتأديتُه إليها إنما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين.

ولا يَخْفَى أنَّ حَمْلَ التمكين في الأرض على التمكين في قلب العزيز أو في منزله خلافُ الظاهر، وكذا حملُه على ما تقدَّم، ولعل الظاهر حملُه على جَعْلِه ملكاً يتصرَّفُ في أرض مصر بالأمر والنهي، إلا أنَّ في جَعْلِ التعليم المذكور غايةً له خفاءً؛ لأنَّ ذلك الجَعْلَ من آثاره ونتائجه المتفرِّعة عليه دون العكس، ولم يُعْهَدْ منه عليه السلام في تضاعيف قضاياه العملُ بموجب الرؤيا المنبِّهة على الحوادث قبل وقوعها عهداً مصحِّحاً لجعله غايةً لذلك، وما وقع من التدارُك في أمر السنين فإنما هو عملٌ بموجب الرؤيا السابقة المعهودةِ، وإرادةُ: ليظهر تعليمُنا له، كما ترى، وكأنَّ من ذهب إلى ذلك ـ لأنه الظاهرُ ـ أراد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيمَ غوامض أسرار الكتب الإلهية، ودقائقِ سننِ الأنبياء عليهم السلام، فيكون المعنى حينئذ: مكنَّا له في أرض مصر ليتصرَّف فيها بالعدل، ولنعلِّمه معانيَ كتب الله تعالى وأحكامَها، ودقائقَ سننِ الأنبياء عليهم السلام فيقضي بها بين أهلها، والتعليمُ الإجماليُّ لتلك الأحاديث وإن كان غيرَ متأخرٍ عن تمكينه بذلك المعنى إلا أنَّ تعليم كلِّ معنًى شخصيٍّ يتفقُ في ضمن الحوادث والإرشادَ إلى الحقِّ في كلِّ نازلة من النوازل متأخِّرٌ عن ذلك صالحٌ لأنْ يكون غايةً له، وأَدْرجَ بعضُهم الإنجاء تحت الإشارة بذلك، وفيه بحثٌ فتدبَّر.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يُمنع عمَّا يَشاءُ ولا يُنازَعُ فيما يريد، بل إنما أمرُه لشيءٍ إذا أراد أن يقول له كن فيكون، ويدخل في عموم المصدر المضاف شؤونه سبحانه المتعلِّقةُ بيوسف عليه السلام دخولاً أوَّليًّا، أو متولٍّ على أمرِ يوسف عليه السلام فيدبِّره ولا يَكِلُه إلى غيره.

وإلى رجوع ضمير «أمره» إلى الله تعالى ذهب ابن جبير، وإلى رجوعه إلى يوسف عليه السلام ذهب الطبريُّ[1]. وأيًّا ما كان فالكلام على ما في «الكشف» تذييلٌ، أما على الأول فلِجَرْيه مجرى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] من سابقه، لأنه لَمَّا كان غالباً على جميع أموره لا يزاحمه أحدٌ ولا يمتنعُ عليه مرادٌ كانت إرادتُه تمكينَ يوسف وكيت وكيت والوقوعَ رضيعي لبان، وأما على

(١) في الأصل و(م): القرطبي، وهو خطأ، والمثبت من البحر ٥/ ٢٩٢، والكلام منه، وكلام الطبري في تفسيره ١٣/ ٦٥.

الثاني فلأنَّ معناه أنه الغالب على أمره يتولَّاه بلطيفِ صُنْعِه وجزيل إحسانه، وإذا جاء نهرُ الله تعالى بطل نهر معقلٍ، فأين يقع كيدُ الإخوة وغيرِهم كامرأة العزيز موقعَه؟ فهو كقوله:

وعـــلامَ أركـــبُـــه إذا لـــم أنـــزلِ

من سابقه، أعني:

فـــدَعَـــوْا نَـــزَالِ فـــكـــنـــتُ أولَ نـــازلِ[١]

والآيةُ على الأول صريحةٌ في مذهب أهل السنة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أنَّ الأمر كذلك فيما يأتون ويذرون زعماً منهم أنَّ لهم من الأمر شيئاً، وأنَّى لهم ذلك؟! وأنَّ الأمر كلَّه لله عز وجل. أو: لا يعلمون لطائفَ صنعه وخفايا فضله.

والمراد بـ «أكثر الناس» قيل: الكفار، ونُقل ذلك عن ابن عطية[٢]. وقيل: أهلُ مصرَ. وقيل: أهلُ مكةَ. وقيل: الأكثرُ بمعنى الجميع، والمراد أنَّ جميع الناس لا يطَّلعون على غيبه تعالى.

والأولى أن يبقى على ما يتبادرُ منه، ولا يُقتَصَرَ في تفسيره على ما تضمَّنته الأقوال قبلُ، بل يراد به مَن نُفي عنه العلم بما تقدَّم كائناً ما كان، ولا يَبْعُدُ أن يندرجَ في عمومه أهلُ الاعتزال.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: بلغ زمانَ انتهاءِ اشتدادِ جسمه وقوَّته، وهو سنُّ الوقوف عن النموِّ المعتدّ به، أعني ما بين الثلاثين والأربعين، وسئل القاضي النحويُّ مهذَّب الدين محمد بن علي بن علي، أبو طالب الخيمي[٣] عنه، فقال: هو خمسٌ وثلاثون سنةً وتمامُه أربعون.

---

(١) البيت لربيعة بن مقروم الضبيِّ، كما في الأغاني ٢٢/ ١٠٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٦٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٩٢.

(٣) الحلِّي العراقي الأديب الشاعر المعمَّر، نزيل مصر، من مصنفاته: حروف القرآن، وأمثال القرآن، وكتاب إسطرلاب الشعر، وكتاب المطاول في الرد على المعري، وغيرها، توفي =

وقال الزجَّاج: هو سبعةَ عَشَرَ عاماً إلى نحو الأربعين[(١)].

وعن مجاهد وقتادة ـ ورواه ابنُ جبير عن ابن عباس ـ أنه ثلاثةٌ وثلاثون، أو ثلاثون، أو واحدٌ[(٢)] وعشرون.

وقال الضحاك: عشرون. وحَكَى ابنُ قتيبة أنه ثمان وثلاثون[(٣)].

وقال الحسن: أربعون، والمشهورُ أنَّ الإنسان يقف جسمُه عن النموِّ إذا بلغ ذلك، وإذا وقف الجسم وقفت القوى والشمائل والأخلاق، ولذا قيل:

إذا المرءُ وفَّى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يَهْوَى حياءٌ ولا سترُ
فدَعْهُ ولا تَنْفِسْ عليه الذي مضى ... وإنْ جرَّ أسباب الحياة له العمرُ[(٤)]

وقيل: أقصى الأشدِّ اثنان وستون. وإلى كون الأشدِّ منتهى الشباب والقوة قبل أن يؤخذ في النقصان ذهب أبو عبيدة[(٥)] وغيرُه من ثقات اللغويين، واستظهره بعضُ المحققين.

وهو عند سيبويه جمعٌ واحدُه شِدةٌ، كنعمةٍ وأنْعُم[(٦)]. وقال الكسائي والفراء: إنه جمع شَدٍّ، نحو صَكٍّ وأَصُكٍّ، وفلسٍ وأَفْلُسٍ[(٧)]، وهذا على ما ذكر أبو حاتم

= سنة (٦٤٢هـ). وفيات الأعيان ١/ ٣٠٩، والوافي بالوفيات ٤/ ١٨١، وهدية العارفين ٢/ ١٢١. ووقع في الأصل و(م) والبحر ٥/ ٢٩٢ (والكلام منه): ابن أبي طالب، بدل: أبو طالب، والمثبت من المصادر.

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٩.

(٢) في (م): أحد.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢١٥، والبحر ٥/ ٢٩٢.

(٤) البيتان ينسبان للأقيشر (واسمه المغيرة بن الأسود) ولأيمن بن خريم، كما في معجم البلدان ٢/ ١٢٠-١٢١، ونسبهما للأول ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٥٦٢، وللثاني ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧.

(٥) في مجاز القرآن ١/ ٣٠٥.

(٦) الكتاب ٣/ ٥٨١-٥٨٢، والكلام من البحر ٥/ ٢٩٢.

(٧) ذكره عن الكسائي النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢١، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٢، وعن الفراء ابن الأنباري في المذكر والمؤنث ٢/ ١٣.

يوجبُ أن يكون مؤنَّثاً؛ لأنَّ كلَّ جمعٍ على أَفْعُلٍ مؤنَّثٌ[1].

وعن أبي عبيدةَ[2] أنه لا واحدَ له مِن لَفْظِه عند العرب. وقال الفرَّاء[3]: أهلُ البصرة يزعمون أنه اسمُ واحدٍ، لكنه على بناءٍ ندر من المفردات، وقلَّما رأينا اسماً على أَفْعُلٍ إلَّا وهو جمعٌ.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي: حكمةً، وهي في لسان الشرع العلمُ النافعُ المؤيَّدُ بالعمل؛ لأنه بدونه لا يُعتدُّ به، والعملُ بخلافِ العلم سَفَهٌ. أو: حُكْماً بين الناس.

﴿وَعِلْمًا﴾ يعني علمَ تأويل الرؤيا، وخُصَّ بالذكر لأنه غيرُ داخلٍ فيما قبله، أو أُفرد بالذكر لأنه مما له شأنٌ وليوسفَ عليه السلامُ به اختصاصٌ تامٌّ، كذا قيل.

وفسَّر بعضهم الحكمةَ بالنبوَّة والعلمَ بالتفقُّه في الدين.

وقيل: الحكمةُ حبسُ النفس عن هواها وصونُها عما لا ينبغي، والعلمُ هو العلم النظري.

وقيل: أراد بالحكمة الحكمَ بين الناس، وبالعلم العلمَ بوجوه المصالح فإنَّ الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز أَمَرَه بأن يحكم بينهم لِمَا رأى من عقله وإصابته في الرأي.

وعن ابن عباس أنَّ الحكم النبوَّةُ، والعلمَ الشريعةُ.

وتنكيرُهما للتفخيم، أي: حُكماً وعلماً لا يُكْتَنَه كُنْهُهما، ولا يقادَرُ قَدْرُهما.

وتعقَّب كونُ المراد بالعلم العلمَ بتأويل الأحاديث بأنَّ قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: كلَّ مَن يُحْسِنُ في علمه، يأباه لأنَّ ذلك لا يصلحُ أن يكون جزاءً لأعماله الحسنة التي من جملتها معاناةُ الأحزان والشدائد، إلا أن يُخصَّ بعلم تأويل رؤيا الملك؛ فإنَّ ذلك حيث

---

(١) المذكر والمؤنث لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ص١٧١.

(٢) في (م): وزعم عن أبي عبيدة، وفي البحر ٥/٢٩٢: وزعم أبو عبيدة، وكلامه في مجاز القرآن ١/٣٠٥.

(٣) كما في المذكر والمؤنث لأبي بكر بن الأنباري ٢/١٢.

كان عند تَنَاهي أيام البلاء صحَّ أن يُعدَّ إيتاؤه من جملة الجزاء، وأمَّا رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضعَ سنين.

وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعارٌ بعلِّيَةِ الإحسان له، وتنبيهٌ على أنه تعالى إنما آتاه ما آتاه لكونه محسناً في أعماله، متقناً في عنفوان أمره، ومن هنا قال الحسن: مَن أحسن عبادةَ الله سبحانه في شبيبته آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

واستشكل ما أفاده تعليقُ الحكم بالمشتقِّ من العلِّيةِ على تقديرِ أن يراد من الحكمة العلمُ المؤيَّدُ بالعمل مثلاً؛ بأنَّ إحسان العمل لا يكون إلا بعد العلم به، فلو كان العلم المؤيَّد به مثلاً علةً للإحسان بذلك لزم الدور.

وأجيب بأنَّ إحسان العمل يمكن أن يكون بطريقٍ آخر كالتقليد والتوفيق الإلهي، فيكون سبباً للعلم به عن دليلٍ عقليٍّ أو سمعيٍّ، أو المراد الأعمال الغيرُ المتوقِّفةِ على السمع، فيكون ذلك السبب للعلم بما شرع له من الأعمال.

وقال بعض المحققين: الظاهرُ تغايُرُ العِلْمين كما في الأثر «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ يسَّر الله تعالى له عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ»[1]. وعن الضحاك تفسير «المحسنين» بالصابرين على النوائب.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ رجوعٌ إلى شرح ما جرى عليه عليه السلام في منزل العزيز بعد ما أَمَر امرأته بإكرام مثواه، وقولُه سبحانه: (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ) إلى هنا اعتراضٌ جيء به أنموذجاً للقصة ليعلم السامعُ من أول الأمر أنَّ ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستُحْكَى بتفاصيلها له غايةٌ جميلةٌ وعاقبةٌ حميدة، وأنه عليه السلام محسنٌ في أعماله لم يصدر عنه ما يُخِلُّ بنزاهته.

والمراودة: المطالبةُ برفقٍ، من راد يَرُود: إذا ذهب وجاء لطلب شيءٍ[2]، ومنه الرائدُ لطالب الكلأ والماء. وباعتبارِ الرفق قيل: رادت الإبلُ في مشيتها تَرُود رَوَداناً، ومنه بُني المِرْوَدُ، ويقال: أَرْوَدَ يُرْوِدُ إذا رفق، ومنه بني رُوَيْدَ. والإرادةُ منقولةٌ من راد يَرُودُ: إذا سعى في طلب شيءٍ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥، وسلف ١/ ١٠٦ و٣٠١. وينظر الكلام عليه ثمة.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): وزعم بعضهم أن ما هنا من الرويد، وهو الرفق والتحمل، فافهم. اهـ منه.

وهي مفاعَلةٌ من واحدٍ، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، وغيرِ ذلك مما يكون من أحد الجانبين الفعلُ ومن الآخر سببُه، فإنَّ هذه الأفعال وإن كانت صادرةً عن أحد الجانبين، لكنْ لَمَّا كانت أسبابُها صادرةً عن الجانب الآخر جُعلت كأنها صادرةٌ عنهما، قال شيخ الإسلام[1]: وهذا بابٌ لطيفُ المسلك مبنيٌّ على اعتبارٍ دقيق، تحقيقُه: أنَّ سبب الشيء يقوم مقامه ويُطلق عليه اسمُه، كما في قولهم: كما تدين تُدان[2]، أي: كما تَجْزي تُجْزَى، فإنَّ فِعْلَ البادئ وإن لم يكن جزاءً لكنَّه لكونه سبباً للجزاء أُطلق عليه اسمه، وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادةُ قراءة القرآن حيث كانتا سبباً للقيام والقراءةِ عبِّر عنهما بهما، فقيل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل: ٩٨] وهذه قاعدةٌ مطَّردةٌ مستمرةٌ، ولَمَّا كانت أسبابُ الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرةً عن الجانب المقابل لجانب فاعلها، فإنَّ مطالبة الدائن للمماطلة التي هي من جانب الغريم، وهي منه للمطالبة التي من جانب الدائن، وكذا مداواةُ الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض، وكذلك مراودتُها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالِّها بمنزلة صدور مسبِّباتها التي هي تلك الأفعال، فبنى الصيغة على ذلك وروعي جانبُ الحقيقة بأنْ أُسْنِدَ الفعلُ إلى الفاعل وأُوقع على صاحب السبب، فتأمل. اهـ، وكأنه أشار بالأمر بالتأمُّل إلى ما فيه مما لا يخفى على ذويه.

وفي «الكشف»: المراودةُ منازعةٌ في الرود، بأن يكون له مقصدٌ مجيئاً وذهاباً وللمُفاعِلِ مقصدٌ آخَرُ يقابله فيهما، ومعنى المفاعلة هاهنا إمَّا المبالغةُ في رودها، أو الدلالةُ على اختلافهما فيه، فإنها طلبت منه الفعلَ وهو طلب منها الترك، وهذا أبلغُ، ولما كان منازعةً جيء بـ «عن» في قوله تعالى: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ كما تقول: جاذبته عن كذا، دلالةً على الإبعاد وتحصيلِ الجذب البالغ، ولهذا قال في «الأساس»: ومن المجاز: راوَدَه عن نفسه: خادَعَه عنها[3].

---

(١) في تفسيره ٤/ ٢٦٤، وما قبله منه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٦٢) من طريق أبي قلابة عن النبي ﷺ مرسلاً، وسلف ١/ ١٨٣.

(٣) أساس البلاغة (رود).

وقال الزمخشريُّ هنا: أي: فعلتْ ما يفعلُ المخادع بصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يُخرِجه من يده[١]. ولا شكَّ أن هذا إنما يحصل من المنازعة في الرود، ولهذه النكتة جُعِلَ كنايةً عن التمحُّل لموافقته[٢] إياها.

والعدولُ عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر ما أمكن، أو للاستهجان بذكره. وإيرادُ الموصول دون امرأة العزيز ـ مع أنه أخصر وأظهرُ ـ لتقرير المراودة؛ فإنَّ كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك[٣]، ولإظهارِ كمالِ نزاهته عليه السلام، فإنَّ عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها، واستعصائه عليها مع كونه تحت يدها، ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفَّة.

وإضافةُ البيت إلى ضميرها لِمَا أنَّ العرب تضيفُ البيوت إلى النساء باعتبارِ أنَّهنَّ القائماتُ بمصالحه أو الملازماتُ له، وخرَّج على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وكثر في كلامهم: صاحبة البيت، وربَّةُ البيت، للمرأة، ومن ذلك:

يا ربَّةَ البيت قومي غيرَ صاغرةٍ[٤]

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ أي: أبواب البيت، وتشديدُ الفعل للتكثير في المفعول إن قلنا: إن الأبواب كانت سبعةً كما قيل، فإنْ لم نقل به فهو لتكثير الفعل فكأنه غلَّق مرةً بعد مرة، أو بمغلاقٍ بعد مغلاقٍ، وجمعُ «الأبواب» حينئذ إمَّا لجعل كلِّ جزءٍ منه كأنه بابٌ، أو لجعل تعدُّدِ إغلاقه بمنزلة تعدُّده، وزعم بعضُهم أنه لم يُغْلَقْ إلا بابان: بابُ الدار، وبابُ الحجرة التي هما فيها.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢١١.

(٢) في الأصل: لمواقعته.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): وقيل لواحدةٍ: ما حملكِ على ما أنتِ عليه مما لا خير فيه؟ قالت: قربُ الوساد. اهـ منه.

(٤) وعجزه: ضمّي إليك رحالَ القوم والقُرُبا، وهو لمرَّة بن محكان السعدي كما في معجم الشعراء للمرزباني ص٢٩٥، والمستقصى ١/ ٢٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٦٢، وفيه: خاطب امرأته وبَعَثها على القيام للاحتفاف بالنازلين من الأضياف، والقُرُب جمع قِراب، وهو جِرابٌ واسع يصان فيه السلاح والثياب.

وادَّعى بعضُ المتأخِّرين أنَّ التشديد للتعدية، وأن كونه للتكثير وهمٌ، معلِّلاً ذلك بأنَّ غَلَقتُ الأبوابَ غَلْقاً، لغةٌ رديئةٌ متروكةٌ حسبما ذكره الجوهري(١).

وردَّ بأنَّ إفادةَ التعدية لا تُنافي إفادةَ التكثير معها، فإنَّ مجرَّد التعدية يحصل بباب الإفعال، فاختيارُ التفعيل عليه لأحد الأمرين، ولذا قال الجوهريُّ أيضاً: و«غلَّقت الأبواب» شدِّد للتكثير(٢). اهـ.

وفي «الحواشي الشهابية»: أنه لم يتنبَّه الرادُّ لأنَّ ما نقله عليه لا له؛ لأنَّ الرديء الذي ذكره اللغويون إنما هو استعمالُ الثلاثي منه لا أنَّ له ثلاثيًّا لازماً حتى يتعيَّن كونُ التفعيل للتعدية، فتعدِّيه لازمٌ في الثلاثيِّ وغيره سواءٌ كان رديئاً أو فصيحاً، فتعيَّن أنه للتكثير، وقد قال بذلك غيرُ واحدٍ، فالواهم ابنُ أختِ خالةِ الموهم(٣)، فافهم.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: أسرع، فهي اسمُ فعلِ أمرٍ مبنيٌّ على الفتح كأينَ، وفسَّرها الكسائيُّ والفراء بتعالَ، وزعما أنها كلمةٌ حورانيةٌ وقعت إلى أهل الحجاز فتكلَّموا بها(٤).

وقال أبو زيد: هي عبرانيةٌ. وعن ابن عباس والحسن: هي سريانية. وقال السدي: هي قبطية. وقال مجاهدٌ وغيره: هي عربيةٌ تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمةُ حثٍّ وإقبال(٥).

واللامُ للتبيين كالتي في سقياً لك، فهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: إرادتي كائنةٌ لك، أو: أقول لك.

---

(١) في الصحاح (غلق).
(٢) المصدر السابق.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ١٦٧.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠، ونقله المصنف عنه وعن الكسائي بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٢٩٣.
(٥) جاء في هامش الأصل و(م): قال أبو حيان: ولا يبعد اتفاق اللغات في لفظة واحدة، وقد وجد ذلك في كلام العرب مع لغات غيرهن، وقال الجوهري: هوَّت وهيَّت به: صاح به ودعاه. ولا يبعد أن يكون مشتقًّا من اسم الفعل كما اشتقُّوا من الجُمل نحوَ: سبَّح وحمدل. اهـ منه. والكلام في البحر ٥/ ٢٩٣.

وجوِّز كونُها اسمَ فعلٍ خبريٍّ كهيهات، واللامُ متعلِّقةٌ بها، والمعنى: تهيَّأْتُ لك. وجَعَلها بعضُهم على هذا للتبيين متعلِّقةً بمحذوفٍ أيضاً، لأنَّ اسم الفعل لا يتعلَّق به الجارُّ.

والتاءُ مطلقاً من بنية الكلمة، وليس تفسيرُها بتهيَّأْتُ لكونِ الدالِّ على التكلُّم التاء ليَرِدَ أنها إذا كانت بمعنى تهيَّأْتُ لا تكون اسمَ فعلٍ بل تكون فعلاً مسنداً إلى ضمير المتكلِّم، بل لأنه لَمَّا بيَّنَتِ التهيُّؤَ بأنه له لزم كونُها هي المتهيِّأة، كما إذا قيل لك: قرِّبني منك، فقلتَ: هيهاتَ، فإنه يدلُّ على معنى بَعُدْتَ بالقرينة.

وقرأ ابن كثير وأهلُ مكة: «هَيْتُ» بفتح الهاء وسكونِ الياء وضمِّ التاء[1] تشبيهاً له بـ «حيث».

وقرأ أبو الأسود وابنُ أبي إسحاق وابنُ محيصنٍ وعيسى البصرةِ، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما: «هَيْتِ» بفَتْحِ الهاء وسكونِ الياء وكَسْرِ التاء[2] تشبيهاً له بـ «جَيْرِ»[3].

والكلام فيها على هاتين القراءتين كالكلام فيها على القراءة السابقة.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وابنُ ذكوانَ[4] والأعرجُ وشيبةُ وأبو جعفر: «هِيْتَ» بكسر الهاء بعدها ياءٌ ساكنةٌ وتاءٌ مفتوحةٌ[5]. وحكى الحلوانيُّ عن هشام أنه قرأ كذلك إلا أنه هَمَزَ.

وتعقَّب ذلك الداني تبعاً لأبي عليٍّ الفارسيِّ في «الحجة»[6]، وقد تبعه أيضاً جماعةٌ، بأنَّ فَتْحَ التاء فيما ذكر وهمٌ من الراوي لأنَّ الفعل حينئذٍ من التهيُّؤ، ويوسفُ عليه السلام لم يتهيَّأْ لها بدليلِ «وراودته» إلخ، فلا بدَّ من ضمِّ التاء.

---

(١) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٤.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٧، والنشر ٢/ ٢٩٤.
(٣) بكسر الراء، وقد ينوَّن، وكأيْنَ [أي: جَيْرَ]: يمين، أي: حقًّا، أو بمعنى: نعمْ أو أجل. القاموس (جير).
(٤) كذا في الأصل و(م)، والصواب: وابن عامر من رواية ابن ذكوان.
(٥) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن نافع وابن ذكوان وأبي جعفر.
(٦) جامع البيان للداني ٢/ ٢٦١، والحجة للفارسي ٤/ ٤٢٠.

وردَّ ذلك صاحب «النشر» بأنَّ المعنى على ذلك: تهيَّأ لي أمرُك، لأنها لم يتيسَّر لها الخلوةُ به قبلُ، أو: حَسُنَتْ هيئتُكَ، و«لك» على المعنيين للبيان، والروايةُ عن هشام صحيحةٌ جاءت من عدَّة طرق، ورُوي عنه أيضاً أنه قرأ بكسر الهاء والهمزةِ وضمِّ التاء[١]، وهي روايةٌ أيضاً عن ابن عباس وابن عامر وأبي عمرو أيضاً، وقرأ كذلك أبو رجاء وأبو وائل وعكرمة ومجاهد وقتادةُ وطلحةُ وآخرون[٢].

وقرأ زيد بن عليٍّ ﵄، وابنُ أبي إسحاق كذلك إلا أنهما سهَّلا الهمزة[٣].

وذكر النحاس[٤] أنه قرئ بكسر الهاء بعدها ياءٌ ساكنة وكسر التاء.

وقرئ أيضاً: «هيًّا» بكسر الهاء وفَتْحِها وتشديد الياء، وهي ـ على ما قال ابن هشام[٥] ـ لغةٌ في «هيت».

وقال بعضهم: إنَّ القراءات كلَّها لغاتٌ، وهي فيها اسم فعلٍ بمعنى هلم، وليست التاء ضميراً.

وقال آخر: إنها لغاتٌ والكلمةُ عليها اسمُ فعلٍ، إلا على قراءة ضمِّ التاء مع الهمز وتَرْكِه، فإنَّ الكلمة عليها تحتمل أن تكون فعلاً رافعاً لضمير المتكلِّم، من هاءَ الرجلُ يَهيءُ كجاء يجيءُ، إذا حَسُنَتْ هيئتُه، أو بمعنى تهيَّأْتُ، يقال: هِئْتُ وتهيَّأْتُ بمعنًى، وإذا كانت فعلاً تعلقت اللامُ بها.

ونقل عن ابن عباس أيضاً أنه قرأ: «هُيِّيْتُ» مثل حُيِّيْتُ[٦]، وهي في ذلك فعلٌ

---

(١) النشر ٢/ ٢٩٤، والقراءتان عن هشام ذكرهما أيضاً الداني في التيسير ص١٢٨. وجاء في هامش الأصل و(م): وانفرد الهذلي عنه برواية ترك الهمز. اهـ منه. يعني كقراءة ابن ذكوان كما ذكر صاحب النشر ٢/ ٢٩٤.

(٢) المحتسب ١/ ٣٣٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١، والبحر ٥/ ٢٩٤. وجاء في هامش الأصل و(م): منهم يحيى بن وثاب والمقري.

(٣) البحر ٥/ ٢٩٤، وذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢ عن يحيى بن وثاب.

(٤) كما في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٣، والبحر ٥/ ٢٩٤.

(٥) كذا ذكر المصنف، والصواب أنه من قول الشهاب في الحاشية ٥/ ١٦٨، وقد قاله إثر كلام لابن هشام، فذهب وهم المصنف إلى أن القائل هو ابن هشام.

(٦) في الأصل و(م): حبيت، والمثبت من البحر ٥/ ٢٩٤، والدر المصون ٦/ ٤٦٤.

مبنيٌّ للمفعول مسهَّلُ الهمزة، من هيَّأتُ الشيءَ، كأنَّ أحداً هيَّأها له عليه السلام.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، يقال: عُذْتُ عوذاً، وعِياذاً، وعِياذةً، ومَعاذاً، أي: أعوذ بالله عز وجل معاذاً مما تريدين مني، وهذا اجتنابٌ منه عليه السلام على أتم الوجوه، وإشارةٌ إلى التعليل بأنه منكرٌ هائلٌ يجب أن يعاذ بالله جل وعلا للخلاص منه، وما ذلك إلا لأنه قد علم بما أراه الله تعالى ما هو عليه في حدِّ ذاته من غاية القبح ونهاية السوء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ تعليلٌ ببعض الأسباب الخارجة مما عسى يكون مؤثِّراً عندها وداعياً لها إلى اعتباره، بعد التنبيه على سببه الذاتيِّ التي لا تكاد تَقْبلُه لِمَا سوَّلته لها نفسُها، والضميرُ للشأن، وفي تصدير الجملة به من الإيذان بفخامة مضمونها ما فيه مع زيادة تقريره في الذهن، أي: إنَّ الشأن الخطير هذا، أي: هو ربِّي، أي: سيدي العزيز، أَحْسنَ تعهُّدي حيث أمركِ بإكرامي على أكمل وجهٍ، فكيف يمكنُ أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه؟! وفيه إرشادٌ لها إلى رعاية حقِّ العزيز بألطف وجهٍ. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد والسدِّيُّ وابن أبي إسحاق.

وتعقِّب بأنَّ فيه إطلاقَ الربِّ على غيره تعالى، فإنْ أُريدَ به الربُّ بمعنى الخالق فهو باطلٌ؛ لأنه لا يمكن أن يُطلق نبيٌّ كريمٌ على مخلوقٍ ذلك، وإذا أريد به السيد فهو عليه السلام في الحقيقة ليس مملوكاً له[1]. ومن هنا ـ وإن كان فيما ذُكر نظرٌ ظاهر ـ اختار في «البحر»[2] أنَّ الضمير لله تعالى، و«ربِّي» خبر «إنَّ»، و«أَحْسنَ مثواي» خبرٌ ثانٍ، أو هو الخبر والأولُ بدلٌ من الضمير، أي: إنه تعالى خالقي أَحْسَنَ مثوايَ بعَطْفِ قلبِ مَن أَمَركِ بإكرامي عليَّ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة؟! وفيه تحذيرٌ لها من[3] عقاب الله تعالى.

وجوِّز على تقديرِ أن يكون الربُّ بمعنى الخالق كونُ الضمير للشأن أيضاً.

وأيًّا ما كان ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرُّضٍ لاقتضائها

---

(١) في (م): في الحقيقة مملوك له، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في البحر ٥/ ٢٩٤، والدر المصون ٦/ ٤٦٦.

(٢) ٥/ ٢٩٤.

(٣) في (م): عن.

الامتناعَ عمَّا دعته إليه إيذانٌ بأنَّ هذه المرتبة من البيان كافيةٌ في الدلالة على استحالته وكونِه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾ تعليلٌ غبَّ تعليلٍ للامتناع المذكور، والفلاحُ: الظَّفرُ وإدراكُ البُغْيةِ، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأخرويٌّ، فالأولُ الظَّفرُ بالسعادات التي تطيبُ بها حياة الدنيا، وهو البقاءُ والغنى والعز، والثاني أربعةُ أشياء: بقاءٌ بلا فناء، وغنًى بلا فقرٍ، وعزٌّ بلا ذلٍّ، وعلمٌ بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة.

ومعنى أَفْلَحَ: دخل في الفَلاح، كأصبح وأخواته، ولعل المراد هنا الفلاحُ الأخرويُّ، وبالظالمين كلُّ من ظلم كائناً من كان، فيدخلُ في ذلك المجازُونَ للإحسان بالإساءة والعصاةُ لأمر الله تعالى دخولاً أوَّليًا. وقيل: الزناةُ؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم وللمَزْنيِّ بأهله. وقيل: الخائنون؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم أيضاً ولمن خانوه.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ أي: بمخالطته، إذ الهمُّ ـ سواءٌ استُعْمِلَ بمعنى القَصْدِ والإرادة مطلقاً، أو بمعنى القَصْدِ الجازم والعقد الثابت كما هو المرادُ هاهنا ـ لا يتعلَّقُ بالأعيان.

والمعنى أنها قصدت المخالطةَ وعزمتْ عليها عزماً جازماً لا يلويها عنه صارفٌ، بعد ما باشرتْ مباديها وفَعَلَتْ ما فعلت مما قصَّ الله تعالى، ولعلها تصدَّت هنالك لأفعالٍ أُخَرَ، من بَسْطِ يدها إليه وقَصْدِ المعانقة وغيرِ ذلك، مما اضْطرَّه عليه السلام إلى الهرب نحو الباب. والتأكيدُ لدَفْعِ ما عسى يُتوهَّم من احتمالِ إقلاعها عمَّا كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: مالَ إلى مخالطتها بمقتضَى الطبيعة البشرية، كميلِ الصائم في اليوم الحارِّ إلى الماء البارد، ومثلُ ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنه عليه السلام قَصَدَها قصداً اختياريًا لأنَّ ذلك أمرٌ مذمومٌ تنادي الآياتُ على عدم اتِّصافه عليه السلام به، وإنما عبَّر عنه بالهمِّ لمجرَّدِ وقوعه في صحبة همِّها في الذكر بطريقِ المشاكلة، لا لشَبَهِهِ به كما قيل. وقد أشير إلى تغايرهما كما قال غير واحد، حيث

لم يُلَزَّا[1] في قرنٍ واحدٍ من التعبير بأنْ قيل: ولقد همَّا بالمخالطة، أو: همَّ كلٌّ منهما بالآخر، وأكّد الأول دون الثاني.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حجَّتَه الباهرةَ الدالَّةَ على كمال قبح الزنى وسوءِ سبيله، والمرادُ برؤيته لها كمالُ إيقانه بها، ومشاهدتُه لها مشاهدةً واصلةً إلى مرتبة عين اليقين.

وقيل: المرادُ برؤيةِ البرهان حصولُ الأخلاق، وتذكُّرُ الأحوال الرادعةِ عن الإقدام على المنكر.

وقيل: رؤيةُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] مكتوباً في السقف.

وجواب «لولا» محذوفٌ يدلُّ عليه الكلام، أي: لولا مشاهدتُه البرهانَ لجرى على موجب ميله الجبلِّي، لكنه حيث كان مشاهِداً له استمرَّ على ما هو عليه من قضية البرهان.

هذا ما ذهب إليه بعضُ المحققين في معنى الآية، وهو قولٌ بإثبات همٍّ له عليه السلام إلا أنه همٌّ غيرُ مذمومٍ.

وفي «البحر»: أنه لم يقع منه عليه السلام همٌّ بها البتةَ، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: قارفتَ الذنبَ لولا أنْ عَصمكَ الله تعالى، ولا نقول: إنَّ جواب «لولا» متقدِّمٌ عليها، وإنْ كان لا يقومُ دليلٌ على امتناع ذلك، بل صريحُ أدواتِ الشرط العاملة مختلفٌ في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى الجواز الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاريُّ وأبو العباس المبرد، بل نقول: إنَّ جواب «لولا» محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهورُ البصريين في قول العرب: أنت ظالمٌ إنْ فعلتَ كذا، فيقدِّرونه: إنْ فعلتَ فأنت ظالمٌ، ولا يدلُّ قولهم: أنت ظالم، على ثبوت الظلم، بل هو مثبَتٌ على تقدير وجود الفعل، وكذلك هاهنا التقديرُ: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه لهمَّ بها، فكان يوجد الهمُّ على تقديرِ انتفاءِ رؤيةِ البرهان، لكنه وَجدَ رؤيةَ البرهان فانتفى الهمُّ، والمراد بالبرهان

(١) اللَّزُّ: لزوم الشيء بالشيء وإلزامه به. القاموس (لزز).

ما عنده عليه السلام من العلم الدالِّ على تحريم ما همَّتْ به، وأنه لا يمكن الهمُّ فضلاً عن الوقوعِ فيه.

ولا التفاتَ إلى قول الزجَّاج: ولو كان الكلامُ: ولهمَّ بها، كان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟ لأنه توهَّم أنَّ قوله تعالى: «همَّ بها» هو جواب «لولا» ونحن لم نقل بذلك، وإنما قلنا: إنه دليلُ الجواب، على أنه على تقدير أن يكون نفسَ الجواب قد يقال: إنَّ اللام ليست بلازمةٍ، بل يجوز أن يأتي جواب «لولا» إذا كان بصيغة الماضي باللام وبدونها، فيقال: لولا زيدٌ لأكرمتُك، ولولا زيدٌ أكرمتُك، فَمَن ذهب إلى أنَّ المذكور هو نفسُ الجواب لم يبعد.

وكذا لا التفاتَ أيضاً لقول ابن عطية: إنَّ قول مَن قال: إنَّ الكلام قد تمَّ في قوله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ) وإن جواب «لولا» في قوله سبحانه: (وَهَمَّ بِهَا)، وإن المعنى: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه لهمَّ بها، فلم يَهُمَّ يوسف عليه السلام، يردُّه لسان العرب وأقوالُ السلف = لِمَا في قوله: يردُّه لسانُ العرب من البحث، وقد استدلَّ مَن ذهب إلى الجواز بوجوده في لسان العرب، فقد قال سبحانه: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] فقولُه سبحانه: (إِن كَادَتْ) إلخ إما أن يكون هو الجوابَ على ما ذهب إليه ذلك القائلُ، وإما أن يكون دليلَ الجواب على ما قرَّرناه، وأما أقوالُ السلف فالذي نعتقده أنه لم يصحَّ منها شيءٌ عنهم؛ لأنها أقوالٌ متكاذبةٌ يناقضُ بعضها بعضاً، مع كونها قادحةً في بعض فسَّاق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة، على أنَّ ما رُوي لا يساعدُ عليه كلامُ العرب؛ لأنه يقتضي كونَ الجواب محذوفاً لغير دليل؛ لأنهم لم يقدِّروا بناءً على ذلك: لهمَّ بها، وكلام العرب لا يدلُّ إلا على أن يكون المحذوفُ من معنَى ما قَبْلَ الشرطِ؛ لأنه الدليلُ عليه[1].

هذا وممن ذهب إلى تحقُّق الهمِّ القبيح منه عليه السلام الواحديُّ؛ فإنه قال في

---

(١) البحر ٥/ ٢٩٥، وكلام الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٠٢، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥، وقال أبو حيان أيضاً: وقد طهَّرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما يدل عليه لسان العرب ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين.

كتاب «البسيط»[1]: قال المفسرون الموثوقُ بعلمهم المرجوعُ إلى روايتهم، الآخذون للتأويل عمن شاهد التنزيل: همَّ يوسفُ عليه السلام أيضاً بهذه المرأة همًّا صحيحاً، وجلس منها مجلسَ الرجل من المرأة، فلمَّا رأى البرهانَ من ربِّه زال كلُّ شهوةٍ عنه. قال أبو جعفر الباقر رضي الله عنه بإسناده عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: طمعتْ فيه وطمع فيها، وكان طمعُه فيها أنْ همَّ أن يحلّ التكَّة. وعن ابن عباس: أنه حلَّ الهميان وجلس منها مجلس الخاتن. وعنه أيضاً أنها استَلْقَتْ له وقعد بين رجليها ينزع ثيابه.

ورووا في البرهان رواياتٍ شتَّى؛ منها ما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنها قامت إلى صنم مكلَّلٍ بالدرِّ والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوبٍ أبيضَ بينها وبينه، فقال عليه السلام: أيَّ شيءٍ تصنعين؟ فقالت: أستحي من إلهي أن يراني على هذه السوأة. فقال: تستحين من صنم لا يأكلُ ولا يشربُ ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كلِّ نفسٍ بما كسبت؟! ثم قال: لا تناليها منِّي أبداً. وهو البرهان الذي رأى[2].

ومنها ما أخرجه ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس أنه عليه السلام مَثَلَ له يعقوبُ عليه السلام فضرب بيده على صدره.

ومنها ما أخرجه عن قتادة أنه قال: ذُكِرَ لنا أنه مَثَلَ له يعقوب عاضًّا على إصبعيه وهو يقول: يا يوسفُ، أتهمُّ بعمل السفهاء وأنت مكتوبٌ من الأنبياء.

ومنها ما أخرجه عن القاسم بن أبي بزَّة قال: نودي: يا ابن يعقوب لا تكوننَّ كالطير له ريشٌ فإذا زنى قعد ليس له ريشٌ. فلم يَعْرِضْ للنداء وقعد فرفع رأسه فرأى وجه يعقوب عاضًّا على إصبعه، فقام مرعوباً استحياءً من أبيه[3]. إلى غير ذلك.

---

(١) البسيط في التفسير لأبي الحسن الواحدي، وله أيضاً الوسيط والوجيز، وكلامه في البسيط نقله عنه الرازي في تفسيره ١٨/ ١١٥، وابن عادل في اللباب ١١/ ٦٢. وللواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٧-٦٠٨ كلام شبيه بما قاله في البسيط.

(٢) الحلية ٣/ ١٨١، وأخرجه الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٣ عن علي بن الحسين، وكذا ذكره عنه البغوي في التفسير ٢/ ٤٢٠-٤٢١.

(٣) هذه الأخبار وغيرها أخرجها الطبري في تفسيره ١٣/ ٩٠-٩٥.

وتعقَّب الإمام الرازي[١] ما ذُكر بأنَّ هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف ـ وحاشاه ـ من أقبح المعاصي وأَنْكَرِها، ومثلُها لو نسب إلى أفسقِ خَلْقِ الله تعالى وأبعدِهم عن كلِّ خيرٍ لاستنكف منه، فكيف يجوزُ إسناده إلى هذا الصدِّيق الكريم؟!

وأيضاً إنَّ الله سبحانه شهد بكون ماهيةِ السوء وماهيةِ الفحشاء مصروفتين عنه، ومع هذه الشهادة كيف يُقبل القول بنسبة أعظم السوء والفحشاء إليه عليه السلام.

وأيضاً إنَّ هذا الهمَّ القبيح لو كان واقعاً منه عليه السلام كما زعموا، وكانت الآية متضمنةً له، لكان تعقيبُ ذلك بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ خارجاً عن الحكمة؛ لأنَّا لو سلَّمنا أنه لا يدلُّ على نفي المعصية فلا أقلَّ من أن يدلَّ على المدح العظيم، ومن المعلوم أنه لا يليقُ بحكمة الله تعالى أن يَحْكي إقدامه على معصيةٍ عظيمةٍ ثم إنه يمدحُه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية.

وأيضاً إنَّ الأكابر كالأنبياء[٢] متى صدرت عنهم زلةٌ أو هفوةٌ استعظموا ذلك وأَتْبعوه بإظهارِ الندامة والتوبة والتخضُّع والتنصُّل، فلو كان يوسف عليه السلام أقدم على هذه الفاحشة المنكَرةِ لكان من المحال أن لا يُتْبِعها بذلك، ولو كان قد أَتْبَعها لحُكي، وحيث لم يكن عَلِمْنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنبٌ أصلاً.

وأيضاً جميعُ مَن له تعلُّقٌ بهذه الواقعة قد أفصح ببراءة يوسف عليه السلام عن المعصية كما لا يخفى على مَن له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، ومَن نظر في قوله سبحانه: (إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) رآه أفصحَ شاهدٍ على براءته عليه السلام، ومَن ضمَّ إليه قولَ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] وجد إبليس مقرًّا بأنه لم يُغْوِه ولم يضلَّه عن سبيل الهدى، كيف وهو عليه السلام من عباد الله تعالى المخلصين بشهادة الله تعالى، وقد استثناهم من عمومِ «لأغوينهم أجمعين»؟

وعند هذا يقال للجهلة الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام تلك الفعلة الشنيعة: إن كانوا من أتباع الله سبحانه فليقبلوا شهادةَ الله تعالى على طهارته عليه السلام،

---

(١) في تفسيره ١٨/ ١١٥-١١٧.
(٢) في الأصل: والأنبياء.

وإن كانوا من أتباع إبليسَ فليقبلوا شهادته، ولعلهم يقولون كنَّا في أول الأمر من تلامذته إلى أن تخرَّجنا فزِدْنا عليه في السفاهة كما قال الحريريُّ[1]:

وكنت امرأً من جند إبليس فانتهى بي الحال حتى صار إبليسُ من جندي
فلو مات قبلي كنتُ أُحْسِنُ بعده طرائقَ فسقٍ ليس يُحسنها بعدي

ومَن أمعن النظر في الحجج وأنْصفَ جَزَمَ أنه لم يبق في يد الواحديِّ ومَن وافقه إلا مجرَّدُ التصلُّفِ وتعديدِ أسماء المفسرين، ولم يجد معهم شبهةً في دعواهم المخالِفةِ لِمَا شهد له الآياتُ البيناتُ سوى رواياتٍ واهياتٍ.

وقد ذكر الطيبيُّ طيَّب الله تعالى ثراه بعد أن نقل ما حكاه محيي السنة عن بعض أهل الحقائق من أنَّ الهمَّ همَّان: همٌّ ثابتٌ وهو ما كان معه عزمٌ وعقدٌ ورضاً مثل همِّ امرأة العزيز، وهمٌّ عارِضٌ وهو الخَطْرةُ وحديثُ النفس من غير اختيارٍ ولا عزمٍ مثل همِّ يوسف عليه السلام[2]، أنَّ هذا التفسير هو الذي يجبُ أن نذهب إليه ونتَّخذه مذهباً، وإنْ نَقَلَ المفسرون ما نقلوا؛ لأنَّ متابعة النصِّ القاطع، وبراءةَ المعصوم عن تلك الرذيلة، وإحالةَ التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه، على أنَّ أساطين النقلِ المتقنين لم يرووا في ذلك شيئاً مرفوعاً في كتبهم، وجلُّ تلك الروايات بل كلُّها مأخوذٌ من مسألة أهل الكتاب. اهـ.

نعم قد صحَّح الحاكم بعضاً من الروايات التي استند إليها مَن نسب تلك الشنيعةَ إليه عليه السلام[3]، لكنَّ تصحيح الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار عند ذوي الاعتبار.

وفي «إرشاد العقل السليم» بعد نَقْلِ نبذةٍ منها: إنْ كلُّ ذلك إلا خرافاتٌ وأباطيلُ تمجُّها الآذانُ وتردُّها العقول والأذهان، ويل لمن لاكها ولفَّقها أو سمعها وصدَّقها[4].

---

(١) في تفسير الرازي: الخوارزمي، والبيت ذكره دون نسبة الثعلبي في ثمار القلوب ص٦٩، والقزويني في الإيضاح في علوم البلاغة١/ ٥٢.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤١٩.

(٣) المستدرك ٢/ ٣٤٦ و ٤/ ٢٥٥.

(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٧.

ثم إنَّ الإمام عليه الرحمة ذكر في تفسير الآية الكريمة بعد أن منع دلالتها على الهمِّ ما حاصله: إنَّا سلّمنا أنَّ الهمَّ قد حصل، إلَّا أنَّا نقول: لا بدَّ من إضمار فعلٍ مخصوصٍ يُجعلُ متعلّق الهمِّ؛ إذ الذواتُ لا تصلُح له، ولا يتعيَّن ما زعموه من إيقاع الفاحشة بها، بل نُضْمِره شيئاً آخر يغاير ما أضمروه، فنقول: المراد: همَّ بدفعها عن نفسه ومَنْعِها عن ذلك القبيح؛ لأنه الذي يستدعيه حالُه عليه السلام، وقد جاء: هممتُ بفلانٍ، أي: قصدتُه ودفعتُه، ويُضْمَر في الأول المخالطةُ والتمتُّع ونحوُ ذلك؛ لأنه اللائقُ بحالها.

فإنْ قالوا: لا يبقى حينئذٍ لقوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدةٌ؟

قلنا: بل فيه أعظمُ الفوائد، وبيانُه من وجهين:

الأولُ: أنه تعالى أعلَمَ يوسف أنه لو همَّ بدَفْعِها لفعلتْ معه ما يوجبُ هلاكه، فكان في الامتناع عن ذلك صونُ النفس عن الهلاك.

الثاني: أنه لو اشتغل بدَفْعِها فلربَّما تعلَّقت به، فكان يتمزَّقُ ثوبُه من قدَّامٍ، وقد كان في علم الله تعالى أنَّ الشاهد يشهد بأنَّ ثوبه لو كان متمزِّقاً من قدامٍ لكان هو الجاني، ولو كان متمزِّقاً من خَلْفٍ لكانت هي الجانيةَ، فأعلمه هذا المعنى، فلا جَرَمَ لم يشتغل بدفعها، وفرَّ عنها حتى صارت الشهادةُ حجةً له على براءته عن المعصية(١).

وإلى تقدير الدفع(٢) ذهب بعضُ السادة الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارهم، ففي «الجواهر والدرر» للشعراني: سألتُ شيخنا عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ ما هذا الهمُّ الذي أُبْهِمَ، فقد تكلَّم الناس فيه بما لا يليق برتب الأنبياء عليهم السلام؟ فقال: لا أعلم. قلت: قد ذكر الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه أنَّ مطلق اللسان يدلُّ على أَحَديَّة المعنى، ولكنَّ ذلك أكثريٌّ لا كلِّيٌّ، فالحقُّ أنها همَّتْ به عليه السلام لتقهره على ما أرادته منه، وهمَّ هو بها ليقهرها في الدفع عما أرادته منه، فالاشتراكُ في طلب القهر منه ومنها والحكمُ مختلف، ولهذا قالت: «أنا راودته عن نفسه» وما جاء في السورة أصلاً أنه راودها عن نفسها. اهـ.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/١١٨.

(٢) جاء في حاشية (م): وجوَّزه من الإمامية السيد المرتضى في الدرر. اهـ منه.

وجوَّز الإمام أيضاً تفسير الهمِّ بالشهوة، وذكر أنه مستعملٌ في اللغة الشائعة، فإنه يقول القائل فيما لا يشتهيه: لا يهمُّني هذا، وفيما يشتهيه: هذا أهم الأشياء إليَّ[١]. وهو ما أشرنا إليه أولاً، إلا أنه عليه الرحمةُ حمل الهمَّ في الموضعين على ذلك فقال بعدُ: فمعنى الآية: ولقد اشتهته واشتهاها، ولولا أن رأى برهان ربِّه لفعل[٢]. وهو مما لا داعي إليه إذ لا محذورَ في نسبة الهمِّ المذموم إليها، والظاهرُ أنَّ الهمَّ بهذا المعنى مجازٌ كما نصَّ عليه السيد المرتضى في «درره»[٣]، لا حقيقةٌ كما يوهمُه ظاهرُ كلام الإمام، وقد ذهب إلى هذا التأويل أبو عليٍّ الجبائيُّ وغيرُه، وروي ذلك عن الحسن.

وبالجملة لا ينبغي التعويلُ على ما شاع في الأخبار والعدولُ عما ذهب إليه المحققون الأخيار، وإياك والهمَّ بنسبةِ تلك الشنيعة إلى ذلك الجناب بعد أن كشف الله سبحانه عن بصر بصيرتك فرأيتَ برهان ربِّك بلا حجاب.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ قيل: خيانة السيد ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنى، لأنه مفرطُ القبح. وقيل: «السوء» مقدماتُ الفحشاء من القبلة والنظر بشهوة. وقيل: هو الأمرُ السيِّئُ مطلقاً، فيدخل فيه الخيانةُ المذكورةُ وغيرها.

والكافُ على ما قيل: في محلِّ نصبٍ، والإشارةُ إلى التثبيت اللازم للإراءة المدلولِ عليها بقوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مثلَ ذلك التثبيت ثبَّتناه لنصرف.. إلخ.

وقال ابن عطية: إنَّ الكاف متعلِّقةٌ بمضمَرٍ تقديره: جرتْ أفعالُنا وأقدارُنا كذلك لنصرف[٤]. وقدَّر أبو البقاء: نُرَاعِيه كذلك[٥]. والحوفي[٦]: أريناه البراهين كذلك.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١١٨.
(٢) تفسير الرازي ١٨/ ١١٩.
(٣) غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى ١/ ٤٨١.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥.
(٥) الإملاء ٣/ ٣٢٨-٣٢٩.
(٦) كما في البحر ٥/ ٢٩٥.

وجوَّز الجميع كونَه في موضع رفع، فقيل: أي: الأمرُ أو عصمتُه مثلُ ذلك، لكنْ قال الحوفيُّ: إنَّ النصب أجودُ لمطالبة حروف الجرِّ للأفعال أو معانيها.

واختار في «البحر»[١] كونَ الإشارة إلى الرؤيا المفهومة من «رأى»، أو الرأي المفهوم، وقد جاء مصدراً لرأى كالرؤية، كما في قوله:

ورأيُ عينيَّ الفتى أباكا ‏ ‏ يعطي الجزيلَ فعليك ذاكا[٢]

والكاف في موضع نصبٍ بما دلَّ عليه قوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ إلخ، وهو أيضا متعلِّق ﴿لِنَصْرِفَ﴾ أي: مثلَ [تلك] الرؤية أو الرأي نُري براهيننا لنَصْرِفَ.. إلخ. وقيل غيرُ ذلك[٣].

ومما لا ينبغي أن يُلتفت إليه ما قيل: إنَّ الجارَّ والمجرورَ متعلِّقٌ ب «همَّ» وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديره: ولقد همَّتْ به وهمَّ بها كذلك لولا أنْ رأى برهان ربِّه لنصرف عنه.. إلخ.

ولا يخفى ما في التعبير بما في النظم الجليل دون: لنَصْرِفه عن السوء والفحشاء، من الدلالة على ردِّ مَن نَسب إليه ما نَسب والعياذُ بالله تعالى.

وقرأ الأعمش: «ليصرف» بياء الغيبة[٤]، وإسنادِ الصرف إلى ضمير الربِّ سبحانه.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ تعليلٌ لِمَا سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق، والمخلصون هم الذين أَخْلَصهم الله تعالى واختارهم لطاعته بأنْ عصمهم عمَّا هو قادحٌ فيها. والظاهرُ أنَّ المراد الحكمُ عليه بأنه مختارٌ لطاعته سبحانه، ويحتمل ـ على ما قيل ـ أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام، الذين قال فيهم جلَّ وعلا: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ [ص: ٤٦].

---

(١) ٥/ ٢٩٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ١٩١ لرؤبة، وهو في ملحقات ديوانه ص١٨١.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): ومما قيل: إن الكاف في موضع نصب، والإشارة إلى الإراءة المدلول عليها بما تقدم، أي: مثلَ ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قيل. اهـ منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥، والبحر ٥/ ٢٩٦.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «المخلصين» إذا كان فيه «أل» حيث وقع بكَسْرِ اللام(١)، وهم الذين أخلصوا دينهم لله تعالى.

ولا يخفى ما في التعبير بالجملة الاسمية من الدلالة على انتظامه عليه السلام في سلك أولئك العباد الذين هم هم من أول الأمر، لا أنه حدث له ذلك بعدَ أن لم يكن، وفي هذا عند ذوي الألباب ما ينقطعُ معه عُذْرُ أولئك المتشبِّثين بأذيال هاتيك الأخبار التي ما أنزل الله تعالى بها من كتاب.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ متصلٌ بقوله سبحانه: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا) إلخ، وقولُه تعالى: (كَذَٰلِكَ) إلخ اعتراضٌ جيءَ به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام، والمعنى: لقد همَّتْ به وأبى هو واستبقا، أي: تسابقا إلى الباب، على معنى: قَصَدَ كلٌّ من يوسف عليه السلام وامرأةِ العزيز سَبْقَ الآخر إليه، فهو ليخرج وهي لتمنعه من الخروج.

وقيل: المراد من السبق في جانبها الإسراعُ إثره، إلا أنه عبَّر بذلك للمبالغة.

ووحِّد البابُ هنا مع جَمْعِه أولاً لأنَّ المراد الباب البرَّانيُّ الذي هو المخلص. واستشكل بأنه كيف يستبقان إليه ودونه أبوابٌ جوَّانية، بناءً على ما ذكروا من أنَّ الأبواب كانت سبعة؟

وأجيب بأنه روي عن كعب أنَّ أقفال هاتيك الأبواب كانت تتناثر إذا قَرُبَ إليها يوسفُ عليه السلام وتنفتحُ(٢) له.

ويحتمل أنه لم تكن تلك الأبوابُ المغلقةُ على الترتيب باباً فباباً، بل كانت في جهاتٍ مختلفةٍ كلُّها منافذُ للمكان الذي كانا فيه، فاستبقا إلى بابٍ يخرج منه.

ونصب «الباب» على الاتساع، لأنَّ أصل اسْتَبَقَ أن يتعدَّى بإلى، لكنْ جاء كذلك على حدِّ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وقيل: إنه ضمِّن الاستباقُ معنى الابتداء فعدِّيَ تعديتَه.

---

(١) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥.

(٢) في (م): وتتفتح.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على «استبقا»، ويحتمل أن يكون في موضع الحال كما قال أبو حيان، أي: وقد قدَّت[(١)].

والقدُّ: القطعُ والشقُّ، وأكثر استعماله فيما كان طولاً، وهو المراد هنا بناءً على ما قيل: إنها جذبته من ورائه[(٢)] فانخرق القميص إلى أسفله، ويستعملُ القطُّ فيما كان عَرْضاً، وعلى هذا جاء ما قيل في وصف عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: إنه كان إذا اعْتَلَى قدَّ وإذا اعْتَرضَ قطَّ[(٣)].

وقيل القدُّ هنا مطلق الشقِّ، ويؤيِّده ما نقل عن ابن عطية أنه قرأت فرقة: «قُطَّ»[(٤)]. وقد وَجَدَ ذلك في مصحفِ المفضلُ بنُ حربٍ[(٥)]. وعن يعقوب تخصيصُ القدِّ بما كان في الجلد والثوب الصحيحين[(٦)].

والقميصُ معروفٌ، وجمعُه أَقْمِصَةٌ وقُمُصٌ وقُمْصانٌ، وإسنادُ القدِّ بأيِّ معنًى كان إليها خاصةً مع أنَّ لقوةِ يوسفَ عليه السلام أيضاً دخلاً فيه إمَّا لأنها الجزء الأخير للعلَّة التامة، وإما للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذلِ مجهودها في ذلك، لفَوْتِ المحبوب أو لخوف الافتضاح.

﴿وَأَلْفَيَا﴾ أي: وجدا، وبذلك قرأ عبد الله[(٧)] ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي: زوجها، وهو

---

(١) البحر ٥/ ٢٩٧.

(٢) في (م): وراء.

(٣) ويروى: وإذا توسَّط قطَّ، أي: إذا علا قِرْنَه بالسيف قدَّه بنصفين طولاً، وإذا أصاب وسطه قطعه عرضاً نصفين وأبانه. اللسان والتاج (قطط).

(٤) في الأصل و(م): وقط، والمثبت من البحر ٥/ ٢٩٧، والكلام منه، والذي في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦: وقرأت فرقة: «فلما رأى قميصه عُطَّ من دبر». ولعل هذا هو الصواب (أعني «عط»)، وينظر التعليق الآتي.

(٥) البحر ٥/ ٢٩٧، وفيه: وقال المفضل بن حرب: رأيت في مصحفٍ: «قطَّ من دُبر». وذكر ذلك أيضاً عن المفضل الزمخشري في أساس البلاغة (عطط)، والصغاني في العباب الزاخر (عطط)، والقرطبي في تفسيره ١١/ ٣١٩، إلا أنه عندهم: عط، بدل: قط.

(٦) البحر ٥/ ٢٩٧. وهو في تفسير القرطبي ١١/ ٣١٩ بلفظ: العط، بدل: القط. ويعقوب هو ابن السكيت.

(٧) أخرج ذلك عن ابن مسعود ﷺ ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٢٧.

فَيْعِل[١] من ساد يَسُود، وشاع إطلاقه على المالك وعلى الرئيس. وكانت المرأة إذ ذاك ـ على ما قيل ـ تقول لزوجها: سيدي، ولذا لم يقل: سيدهما.

وفي «البحر»: إنما لم يُضف إليهما لأنه لم يكن مالكاً ليوسف حقيقةً لحريته[٢].

﴿لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ أي: عند الباب البرَّانيِّ، قيل: وجداه يريد أن يدخل مع ابنِ عمٍّ لها.

﴿قَالَتْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ سائلٍ يقول: فماذا كان حين ألفيا السيد عند الباب؟ فقيل: قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ من الزنى ونحوه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥﴾ الظاهرُ أنَّ «ما» نافية، و«جزاء» مبتدأ، و«مَن» موصولة أو موصوفة مضاف إليه، والمصدر المؤوَّل خبر، و«أو» للتنويع خبر المبتدأ، وما بعدُ معطوفٌ على ذلك المصدر، أي: ليس جزاؤه إلا السَّجْنُ[٣] أو العذابُ الأليم، والمراد به على ما قيل: الضرب بالسوط، وعن ابن عباس: أنه القيد.

وجوَّز أن تكون «ما» استفهامية فـ«جزاء» مبتدأ أو خبر، أي: أيُّ شيءٍ جزاؤه غير ذلك أو ذلك.

ولقد أتت في تلك الحالة التي يدهشُ فيها الفَطِنُ اللوذعيُّ ـ حيث شاهدها زوجها على تلك الهيئة ـ بحيلةٍ جمعت فيها غرضيها، وهما تبرئةُ ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال، واستنزالُ يوسف عليه السلام عن رأيه في استعصائه عليها وعدمِ مواتاته لها على مرادها، بإلقاء الرعب في قلبه من مَكْرِها طمعاً في مواقعته لها مُكْرَهاً عند يأسها عن ذلك مختاراً، كما قالت: (وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ).

ثم إنها جعلت صدورَ الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمراً محقَّقاً مفروغاً عنه، غنيًّا عن الإخبار بوقوعه، وأنَّ ما هي عليه من الأفاعيل لأَجْلِ تحقيق جزائها.

---

(١) جاء في حاشية (م): وهذا البناء مختص بالفعل المعتل، وشذ في غيره. اهـ منه.

(٢) البحر ٥/ ٢٩٧.

(٣) بفتح السين، مصدر سجَنَه: إذا حَبَسه. حاشية الشهاب ٥/ ١٧٠.

ولم تصرِّح بالاسم بل أتت بلفظٍ عامٍّ تهويلاً للأمر، ومبالغةً في التخويف، كأنَّ ذلك قانونٌ مطَّردٌ في حقِّ كلِّ أحدٍ كائناً مَن كان. وذكَرتْ نفسها بعنوانِ أهلية العزيز إعظاماً للخَطْبِ، وإغراءً له على تحقيق ما يتوخَّاه بحكم الغضب والحميَّة، كذا قرَّره غيرُ واحد.

وذكر الإمام في تفسيره ما فيه نوعُ مخالفةٍ لذلك، حيث قال: إنَّ في الآية لطائفَ:

أحدها: أنَّ حبَّها الشديدَ ليوسف عليه السلام حملها على رعايةِ دقيقتين في هذا الموضع، وذلك لأنها بدأت بذكر السجن وأخَّرت ذِكْرَ العذاب؛ لأنَّ المحب لا يسعى في إيلام المحبوب.

وأيضاً إنها لم تذكر أنَّ يوسف عليه السلام يجب أن يقابَلَ بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكراً كلِّيًّا صوناً للمحبوب عن الذكر بالشرِّ والألم.

وأيضاً قالت: «إلَّا أنْ يُسجن» والمرادُ منه: أن يسجن يوماً أو أقلَّ على سبيل التخفيف، فأما الحبسُ الدائم فإنه لا يعبَّر عنه بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يُجعل من المسجونين، ألا ترى أنَّ فرعون كيف قال حين هدَّد موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وثانيها: أنها لَمَّا شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها مع أنه كان في عنفوان الشباب وكمال القوة ونهايةِ الشهوة عَظُم اعتقادها في طهارته ونزاهته فاستَحْيَتْ أن تقول: إنَّ يوسف قصدني بسوءٍ، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح، بل اكتفت بهذا التعريض، وليت الحشوية كانوا يكتفون بمثل ما اكتفتْ به، ولكنهم لم يفعلوا ووصفوه بعد قريبٍ من أربعة آلاف سنةٍ بما وصفوه من القبيح وحاشاه.

وثالثها: أنَّ يوسف عليه السلام أراد أن يضربها ويدفعها عن نفسه، وكان ذلك بالنسبة إليها جارياً مجرى السوء، فقولها «ما جزاء» إلخ جارٍ مجرى التعريضِ، فلعلها بقلبها كانت تريدُ إقدامه على دفعها ومنعها، وفي ظاهر الأمر كانت تُوهِمُ أنه قصدني بما لا ينبغي[1]. انتهى المراد منه، وفيه من الأنظار ما فيه.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٢٢.

وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «أو عذاباً أليماً» بالنصب على المصدرية كما قال الكسائي، : أي: أو يعذَّب عذاباً أليماً[(١)]، إلا أنه حذف ذلك لظهوره، وهذه القراءةُ أوفقُ بقوله تعالى: (أَن يُسْجَنَ) ولم يظهر لي في سرِّ اختلاف التعبير على القراءة المشهورة ما يعوَّلُ عليه، والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه، فتدبَّر.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ وجوابٌ عمَّا يقال: فماذا قال يوسف عليه السلام حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي: طالبتْني للمواتاة، لا أنِّي أردتُ بها سوءاً كما زعمت، وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عن التهمة ودَفْعِ الضرر عنها، لا لتفضيحها.

وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الإشارة مراعاةٌ لحسن الأدب، مع الإيماء إلى الإعراض عنها، كذا قالوا. وفي هذا الضمير ونحوه كلامٌ فقد ذكر ابن هشام في بعض حواشيه على قول ابن مالك في ألفيته: فما لذي غيبةٍ أو حضور[(٢)]... إلخ: لِيُنْظَرْ إلى نحو «هي راودتني» فإنَّ «هي» ضميرٌ باتِّفاقٍ، وليس هو للغائب بل لمن بالحضرة، وكذا ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦] وهذا في المتصل وذاك في المنفصل، وقول مَن يخاطب شخصاً في شأنِ آخر حاضرٍ معه: قلت له: اتق الله تعالى، وأمرتُه بفعل الخير، وقد يقال: إنه نزل الضمير فيهنَّ منزلةَ الغائب، وكذا في عكس ذلك يبلغك عن شخصٍ غائبٍ شيءٌ فتقول: ويحك يا فلان أتفعل كذا؟ تنزيلاً له منزلةَ مَن بالحضرة، وحينئذٍ يقال: الحدُّ المستفاد مما ذكر إنما هو للضمير باعتبار وضعه. اهـ.

وقال السراج البلقينيُّ في رسالته المسماة «نشر العبير لطي الضمير»: المفسِّر لضمير الغائب إما مصرَّحٌ به أو مستغنًى بحضورِ مدلوله حسًّا أو علماً، فالحسُّ نحوُ قوله تعالى: (هِىَ رَٰوَدَتْنِى) و﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦] كما ذكره ابن مالك، وتعقَّبه شيخنا أبو حيان بأنه ليس كما مثَّل به؛ لأنَّ هذين الضميرين عائدان على ما قبلهما، فضميرُ «هي راودتني» عائدٌ على الأهل في قولها: «ما جزاءُ مَن أراد بأهلك سوءاً» ولَمَّا كَنَتْ عن نفسها بذلك ولم تقل: بي، بدل «بأهلك» كَنَى هو عليه

(١) البحر ٥/ ٢٩٧.
(٢) وبعده: كانت وهو سَمِّ بالضمير. ألفية ابن مالك ١/ ٨٨ بشرح ابن عقيل.

السلام عنها بضمير الغيبة فقال: «هي راودتني» ولم يخاطبها بأنتِ راودتيني، ولا أشار إليها بهذه راودتني، وكلُّ هذا على سبيل الأدب في الألفاظ، والاستحياءِ في الخطاب الذي لا يليقُ بالأنبياء عليهم السلام، فأَبْرَزَ الاسمَ في صورة ضمير الغائب تأدُّباً مع العزيز وحياءً منه، وضمير «استأجره» عائدٌ على موسى، فمفسره مصرَّحٌ بلفظه، وكأنَّ ابن مالك تخيَّل أنَّ هذا موضعُ إشارةٍ لكون صاحب الضمير حاضراً عند المخاطب، فاعتقد أنَّ المفسر يُستغنَى عنه بحضور مدلوله حسًّا، فجرى الضمير مجرى اسم الإشارة، والتحقيقُ ما ذكرناه. هذا كلامُه[1]، وعندي أنَّ الذي قاله ابن مالك أرجحُ مما قاله الشيخ، وذلك أنَّ الاثنين إذا وقعت بينهما خصومةٌ عند حاكم فيقول المدَّعي للحاكم: لي على هذا كذا، فيقول المدَّعَى عليه: هو يعلم أنه لا حقَّ له عليَّ، فالضميرُ في «هو» إنما هو لحضور مدلوله حسًّا، لا لقوله: لي، كما هو المتبادرُ إلى الأفهام. وأيضاً يَرِدُ على ما ذكره في ضمير «استأجره» أنَّ موسى عليه السلام لم يسبق له ذكرٌ عند حضوره مع بنت شعيب عليه السلام، وقد قالت: «يا أبت استأجره» وقَصْدُها بالضمير الرجلُ الحاضر الذي بان لها من قوَّته وأمانته الأمرُ العظيم. ثم إنَّ مَن خاصم زوجته فقال للحاضرين من أهلها أو من غيرهم: هي طالقٌ، تطلق زوجتُه لوجود ما قرَّره ابن مالك، ولا يتمشَّى على ما قرَّره الشيخ كما لا يخفى. وبالجملة إنَّ التأويل الذي ذكره في الآيتين وإنْ سلِّم فيهما لكن لا يكاد يتمشَّى معه في غيرهما هذا، فلْيُفْهَم.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ذهب جمعٌ إلى أنه كان ابنَ خالها[2]، وكان طفلاً في المهد[3] أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام، فقد ورد عنه ﷺ: «تكلَّم أربعةٌ في المهد وهم صغارٌ: ابن ماشطة ابنةِ فرعون، وشاهدُ يوسفَ عليه السلام، وصاحبُ جريجٍ، وعيسى ابنُ مريم عليهما السلام»[4].

---

(١) أي: كلام أبي حيان.
(٢) جاء في هامش الأصل و(م): وفي بعض الآثار أنه ابن أختٍ لها، وكان عمره إذ ذاك ثلاثة أشهر. اهـ منه.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م): ولم يرتض ذلك الجبائي لوجوه ذكرها الإمام، ولا يخفى ما فيها. اهـ منه.
(٤) سيأتي تخريجه قريباً.

وتعقَّب ذلك الطيبيُّ بقوله: يردُّه دلالةُ الحصر في حديث الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريم، وصاحبُ جُرَيْج، وصبيٌّ كان يرضع من أمِّه فمرَّ راكبٌ حسنُ الهيئة، فقالت أمُّه: اللهمَّ اجعل ابني مثلَ هذا. فترك الصبيُّ الثديَ وقال: اللهمَّ لا تجعلني مثلَه»(١) اهـ.

وردَّه الجلال السيوطيُّ فقال: هذا منه على جاري عادته من عدم الاطِّلاع على طرق الأحاديث، والحديثُ المتقدِّمُ صحيحٌ أخرجه أحمد في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» وصحَّحه من حديث ابن عباس(٢). ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي هريرة، وقال: صحيحٌ على شرط الشيخين(٣)، وفي حديث الصحيحين المشارِ إليه آنفاً زيادةٌ على الأربعة: «الصبيُّ الذي كان يرضع من أمه فمرَّ راكب» إلخ فصاروا خمسةً، وهم أكثرُ من ذلك، ففي «صحيح مسلم» تكلّم الطفل في قصة أصحاب الأخدود(٤)، وقد جمعتُ مَن تكلَّم في المهد فبلغوا أحدَ عشر، ونظمتُها فقلت:

تكلَّم في المهد النبيُّ محمدٌ ... ويحيى وعيسى والخليلُ ومريمُ
ومُبْري جريجٍ ثم شاهدُ يوسف ... وطفلٌ لذي الأخدود يرويه مسلمُ
وطفلٌ عليه مُرَّ بالأَمَةِ التي ... يقال لها تزني ولا تتكلَّمُ
وماشطةٌ في عهد فرعونَ طفلُها ... وفي زمن الهادي المباركُ(٥) يختمُ

(١) صحيح البخاري (٣٤٣٦)، وصحيح مسلم (٢٥٥٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٠٧١).
(٢) مسند أحمد (٢٨٢٢)، والمستدرك ٢/ ٤٩٦-٤٩٧، وأخرجه أيضاً البزار (٥٤ - كشف)، والطبري ١٣/ ١٠٦. وهو في مسند أحمد (٢٨٢١)، وصحيح ابن حبان (٢٩٠٤) موقوف على ابن عباس.
(٣) المستدرك ٢/ ٥٩٥.
(٤) صحيح مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب ﷺ، وهو عند أحمد (٢٣٩٣١).
(٥) هو مبارك اليمامة، روى البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٥٩، باب: ما جاء في شهادة الرضيع والأبكم لنبينا ﷺ إن صحت فيه الرواية، عن معرض بن معيقيب اليماني أنه جاء به (أي: بمبارك اليمامة) رجل إلى النبي ﷺ يوم ولد، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، من أنا» فقال: أنت رسول الله. قال: «صدقت بارك الله فيك»، وذكر ذلك ابن حجر في فتح =

انتهى، وفيه أنه لَمْ يُرِدِ الطيبيُّ الطعنَ على الحديث الذي ذكر كما توهم، وإنما أراد أنَّ بين الحديث الدالِّ على الحصر وغيره تعارُضاً يحتاجُ إلى التوفيق.

وفي «الكشف» بعد ذِكْرِه حديثَ الأربعة وما تعقَّب به مما تقدَّم عن الطيبيِّ أنه نقل الزمخشري في سورة البروج خامساً[1]، فإنْ ثبتت هذه أيضاً فالوجهُ أن يجعل «في المهد» قيداً وتأكيداً لكونه في مبادي الصبا، وفي هذه الرواية يحمل على الإطلاق، أي: سواءٌ كان في المبادي أو بُعَيْدَها بحيث يكون تكلُّمه من الخوارق. ولا يخفى أنه توفيقٌ بعيد.

وقيل: كان ابنَ عمِّها الذي كان مع زوجها لدى الباب، وكان رجلاً ذا لحيةٍ، ولا ينافي هذا قول قتادة: إنه كان رجلاً حكيماً من أهلها ذا رأي يأخذ الملك برأيه ويستشيرُه.

وجوَّز أن يكون بعضَ أهلها، وكان معهما في الدار بحيث لم يشعرا به، فبصُر بما جرى بينهما، فأغضبه الله تعالى ليوسف فقال الحقَّ.

وعن مجاهدٍ أنَّ الشاهد هو القميص المقدود، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وجعل الله تعالى الشاهدَ من أهلها قيل: ليكون أدلَّ على نزاهته عليه السلام وأنْفَى للتهمة وأَلْزمَ لها، وخُصَّ هذا مما إذا لم يكن الشاهدُ الطفلَ الذي أنطقه الله تعالى الذي أنطق كلَّ شيء، وأما إذا كان ذلك فذِكْرُ كونِه من أهلها لبيان الواقع، فإنَّ شهادة الصبيِّ حجةٌ قاطعةٌ ولا فرقَ فيها بين الأقارب وغيرهم. وتعقِّب بأنَّ كونَ شهادة القريب مطلقاً أقوى مما لا ينبغي أن يشكَّ فيه.

وسمِّي شاهداً لأنه أدَّى تأديتَه في أنْ ثَبَتَ بكلامه قولُ يوسف وبَطَلَ قولُها. وقيل: سمي بذلك من حيث دلَّ على الشاهد وهو تخريقُ القميص.

---

= الباري ٦/ ٤٨٠ وقال: وزعم الضحاك في تفسيره أن يحيى تكلم في المهد، أخرجه الثعلبي، وذكر البغوي في تفسيره أن إبراهيم الخليل تكلم في المهد، وفي سير الواقدي أن النبي ﷺ تكلم أوائل ما ولد. اهـ. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٣٧) من سورة آل عمران.

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٨، وهو طفل قصة أصحاب الأخدود الوارد في حديث صهيب ﷺ عند مسلم، وقد سلف تخريجه قريباً.

وفسَّر مجاهدٌ ـ فيما أخرجه عنه ابنُ جرير[١] ـ الشهادةَ بالحكم، أي: وحَكَم حاكمٌ من أهلها.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: قدَّام يوسفَ عليه السلام، أو من قدَّام القميص، و«إنْ» شرطية، و«كان» فعلُ الشرط، وقولُه سبحانه: ﴿فَصَدَقَتْ﴾ جوابُ الشرط، وهو بتقدير «قد» وإلَّا فالفاءُ لا تدخل في مثله، وعن ابن خروف أنَّ مثلَ هذا على إضمار المبتدأ، والجملةُ جوابُ الشرط لا الماضي وحده.

وفي «الكشاف»: أنَّ الشرطية هنا نظير قولك: إنْ أحسنت إليَّ فقد أحسنتُ إليك من قبل، لمن يمتنُّ عليك بإحسانه، فإنه على معنى: إنْ تمتنَّ عليَّ أمتنُّ عليك، وكذا هنا المراد: إن يُعْلَمْ أنه كان قميصُه قدَّ ونحوه، وإلَّا فبَيْنَ «إنْ» الذي للاستقبال و«كان» تنافٍ[٢]. قيل: وهو مبنيٌّ على ما ذهب إليه البعض من أنَّ «كان» قويةٌ في الدلالة على الزمان، فحرفُ الشرط لا يقلب ماضيها مستقبلاً، وإلا فكلُّ ماضٍ دخل عليه الشرط قَلَبه مستقبلاً من غير حاجةٍ إلى التأويل.

وتعقِّب بأنه لا بدَّ من التأويل هاهنا، وجعل حدوثِ العلم ونحوِه جُزأي الشرطية، كأنْ يقال: إنْ يُعْلَمْ أو يَظْهَرْ كونُه كذلك فقد ظهر الصدق، ويقال نظيرُه في الشرطية الأخرى الآتية، وإن كانت «كان» مما يقلبُ حرفُ الشرط ماضِيَها مستقبلاً كسائر الأفعال الماضية؛ لأنَّ المعنى ليس على تعليق الصدق أو الكذب في المستقبل على كون القميص كذا أو كذا كذلك، بل على تعليق ظهور أحد الأمرين الصدقِ والكذبِ على حدوث العلم بكونه كذلك، وهو ظاهرٌ، وهل هذا التأويل من باب التقدير أو من غيره؟ فيه خلاف، والذي يشير إليه كلامُ بعض المدققين أنه ينزَّلُ في مثل ذلك العلمُ بالشيء منزلةَ استقباله؛ لِمَا بينهما من التلازُم، كما قيل: أيُّ شيء يخفى؟ فقيل: ما لا يكون، فليفهم.

ثم إنَّ متعلَّق الصدق ما دلَّ كلامُها عليه من أنَّ يوسف أراد سوءاً، وهو متعلَّق الكذب المسند إليها فيما بعد، وهما كما يتعلقان بالنسبة التي يتضمَّنها الكلامُ

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ١١٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٣١٤.

باعتبارِ منطوقه يتعلَّقان بالنسبة التي يتضمَّنها باعتبار ما يستلزمه، فكأنه قيل: إن كان قميصُه قدَّ من قُبُلٍ فصدقت في دعواها أنَّ يوسف أراد بها سوءاً ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ في دعواه أنها راودته عن نفسه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: من خلف يوسف عليه السلام، أو خلفِ القميص ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في دعواها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ في دعواه.

والشرطيتان محكيَّتان: إمَّا بقولٍ مضمَرٍ، أي: شهد قائلاً، أو فقال: إن كان.. إلخ، كما هو مذهبُ البصريين. وإما بـ «شَهِد» لأنَّ الشهادة قولٌ من الأقوال فجاز أن تعمل في الجمل، كما هو مذهبُ الكوفيين.

والإظهارُ في موضع الإضمار في الشرطية الثانية ليدلَّ على الاستقلال مع رعايةِ زيادةِ الإيضاح. وجملتا «وهو من الكاذبين» «وهو من الصادقين» مؤكِّدتان؛ لأنَّ مِن قوله: «فصدقت» يُعلم كذبه، ومن قوله: «فكذبت» يعلم صدقُه.

ووجهُ دلالة قدِّ القميصِ مِن دُبرٍ على كذبها أنها تبعته وجذبتْ ثوبه فقدَّته، وأما دلالةُ قدِّه من قُبُلٍ على صِدْقها فمن وجهين:

أحدهما: أنه إذا كان تابَعَها وهي دافعته عن نفسها[1]، قدَّتْ قميصَه من قدَّامٍ بالدفع.

وثانيهما: أنْ يُسرِعَ إليها ليلحقها فيتعثَّر في مقادم[2] قميصه فيشقَّه، كذا في «الكشاف»[3].

وتعقَّب ابنُ المنير[4] الوجهَ الأول بأنَّ ما قرِّر في اتِّباعه لها يحتملُ مثله في اتِّباعها له، فإنها إنما تقدُّ قميصه من قُبُلٍ بتقديرِ أن يكون عليه السلام اجتذبها[5] حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هي التابعة، بأن

---

(١) في (م): نفسه، وهو خطأ.
(٢) في الأصل و(م): مقام، والمثبت من الكشاف ٢/ ٣١٤، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧١.
(٣) ٢/ ٣١٤.
(٤) في الانتصاف ٢/ ٣١٤.
(٥) في الأصل و(م): أخذ بها، والمثبت من الانتصاف.

تكون اجْتَذَبته حتى صارا متقابلَيْنِ ثم جذبت قميصَه إليها من قُبلٍ، بل هذا[1] أظهرُ لأنَّ المُوْجِبَ لقدِّ القميص غالباً الجذبُ لا الدفعُ. والوجهَ الثاني بأنَّ ما ذكر بعينه محتملٌ لو كانت هي التابعة وهو فارٌّ منها، بأن ينقدَّ قميصه في إسراعه للفرار. اهـ.

وأجيب عمَّا ذكره أوّلاً بأنه غيرُ واردٍ؛ لأنَّ تلك الحالةَ السريعةَ لا تحتملُ إلا أيْسرَ ما يمكنُ وأَسْرعَه، وعلى تقديرِ اتِّباعها له تعيَّن القدُّ من دُبرٍ لأنه أهونُ الجذبين، ثم لا نَفْرِضُ كرَّ الفارِّ ليدفعها أو كما لحقت جذبت، فهذا الفرضُ لا وجهَ له هنالك، فإذا ثبت دلالتُه في الجملة على هذا القسم تعيَّنَتْ.

وعمَّا ذكره ثانياً بأنَّ الظاهر على تقدير أنْ تكون تابعةً أنه إذا تعثَّر الفارُّ يتعلَّقُ به التابع متشبِّثاً، وإذا كانا منفلتين بَعُدَ ذلك الاحتمال.

وذكر الفاضل المتعقِّب[2] أنَّ الحقَّ في هذا الفصل أن يقال: إنَّ الشاهد المذكور إنْ كان صبيًّا أنطقه الله تعالى في المهد كما ورد في بعض الأحاديث، فالآيةُ في مجرَّد كلامه قبلَ أوانه، حتى لو قال: صَدَقَ يوسف وكذبتْ، لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام، كما كان مجرَّدُ إخبارِ عيسى عليه السلام في المهد برهاناً على صدق مريم، فلا تنبغي المناسبةُ بين الأمارة المنصوبة وما رتِّب عليها؛ لأنَّ العمدة في الدلائل نَصْبُها لا مناسبتُها[3].

وإن كان قريباً لها قد بَصُرَ بها من حيث لا تشعرُ، فهذا ـ والله تعالى أعلم ـ كان من حقِّه أن يصرِّح بما رأى فيصدِّقَ يوسف عليه السلام ويكذِّبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضحَ لها، ووَثِقَ بأنَّ قدَّ قميصه إنما كان من دُبُرٍ، فنَصَبَه أمارةً لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسمَ الآخر وهو قدُّه من قُبُلٍ على عِلْمٍ بأنه لم ينقدَّ كذلك، حتى ينفيَ عن نفسه التهمةَ في الشهادة وقَصْدِ الفضيحة وينصفهما جميعاً، فلذا ذكر أمارةً على صدقها المعلومِ نفيُه كما ذكر أمارةً على صِدْقِهِ المعلوم وجودُه، وأخرجهما مخرجاً واحداً، وبَنَى «قدَّ» لِمَا لَمْ يسمَّ فاعلُه في الموضعين ستراً على

---

(١) في الانتصاف: هاهنا.

(٢) يعني ابن المنير.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): قيل: إن التصوير بصورة الشرطية على هذا الشق للإيذان بأن ذلك من العلائم أيضاً. اهـ منه.

مَن قدِّه، وقدَّم أمارةَ صدقها في الذكر إزاحةً للتهمة، ووثوقاً بأنَّ الأمارة الثانية هي الواقعةُ، فلا يضرُّه تأخيرُها.

والحاصل أنَّ عمدة هذا الشاهد الأمارةُ الأخيرة فقط، والمناسبةُ فيها محقَّقة، وأما الأمارةُ الأولى فليست مقصودةً وإنما هي كالغرض ذُكرت توطئةً للثانية، فلم يلتمس لها مناسَبةً مثلَ تلك المناسبة.

وأما إن كان الحكيمَ الذي كان الملك يرجع إلى رأيه، فلا بدَّ من التماسِ المناسبة في الطرفين لأنها عمدةُ الحكيم، وأقربُ وجهٍ في المناسبة أنَّ قدَّ القميص من دبرٍ دليلٌ على إدباره عنها، وقدَّه من قُبلٍ دليلٌ على إقباله عليها بوجهه[(١)].

ولا يَخفَى أنَّ مثل هذا الوجه لا يصلح أن يكون مطمحَ نظرِ الحكيم الذي لا يلتفتُ إلا لليقينيات، فالأَوْلَى أن يقال: يحتمل أنَّ ذلك الحكيم كان واقفاً على حقيقة الحال بطريقٍ من الطرق الممكنة، ويسهُل أمرُ ذلك إذا قلنا: إنه كان ابنَ عمٍّ لها، فهو متيقِّنٌ بعدم مقدم الشرطية الأولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية، ومن ضروريات ذلك الجزمُ بانتفاء تالي الأولى ووقوعِ تالي الثانية، فإذاً هو إخبارٌ بكذبها وصِدْقِه عليه السلام، لكنه ساق شهادته مساقاً مأموناً من الجرح والطعن، حيث صوَّرها بصورةِ الشرطية المتردِّدة ظاهراً بين نَفْعِها ونَفْعِه، وأما حقيقةً فلا تردُّد فيها قطعاً كما أشير إليه.

وإلى كون الشرطية الأولى غيرَ مقصودةٍ بالذات ذهب العلَّامة ابن الكمال معرِّضاً بغفلةِ القاضي البيضاوي، حيث قال: إنَّ قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ إلخ من قبيل المسامحةِ في أحد شقَّي الكلام لتعيُّنِ الآخرِ عند القائل تنزيلاً للمحتمِلِ منزلةَ الظاهر؛ لأنَّ الشقَّ بالجذب في هذا الشقِّ أيضاً محتملٌ، ومَن غفل عن هذا قال: لأنه يدلُّ على أنه قَصَدَها فدفعتْ عن نفسها، إلى آخر عبارة البيضاويِّ[(٢)].

---

(١) الانتصاف ٢/ ٣١٤-٣١٥.

(٢) وعبارته في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٧١ هي: لأنه يدل على أنها قدَّت قميصه من قدَّامه بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقدَّ جيبه.

وحاصلُ ذلك على ما قرَّره بعضُ مشايخنا عليهم الرحمةُ: أنَّ القائل يعلمُ يقيناً وقوعَ الشَّقِّ من دبرٍ، لكنه ذكر الشَّقَّ من القُبُل[1] مع أنه محتمِلٌ أنْ يكون بِجَذْبِها إياه إلى طرفها كما أنَّ كونه مِن دَفْعِها إياه من بعض محتملاته، تنزيلاً لهذا المحتمل منزلةَ الظاهر تأكيداً ومبالغةً لثبوت ما دلَّت عليه الشرطيةُ الثانية من صدقه وكذبها، يعني أنَّا نحكم بصِدْقها وكذبه بمجرَّد وقوع الشقِّ في القُبُل، وإنْ كان محتملاً لأسبابٍ أُخَرَ غيرِ دَفْعِها، لكنه ما وقع هذا الشَّقُّ أصلاً فلا صِدْقَ لها، وذلك كما إذا قيل لك: بلَّغتَ إلى زيد الكلامَ الفلانيَّ في هذا اليوم؟ فقلت: إنْ كنتُ تكلَّمْتُ في هذا اليوم مع زيدٍ فقولكم هذا صادقٌ، مع أنَّ تكلُّمك معه في هذا اليوم مطلقاً لا يدلُّ على صدق دعواهم؛ لاحتمالِ أنك تكلَّمتَ معه بكلامٍ غير ذلك الكلام، لكنك قلتَ ذلك تحقيقاً لعدم تبليغك ذلك الكلام إليه.

هذا وذكر شيخُ مشايخنا العلَّامةُ صبغةُ الله الحيدريُّ طيَّبَ الله تعالى ثراه: أنَّ الظاهر أنَّ دلالة كلٍّ من الشَّقَّين في الشَّقَّين على ما يدلُّ عليه من حيث موافقتُه لِمَا ادَّعاه صاحبُه، فإنها كانت تقول: هو طلبني مقبلاً عليَّ فخلَّصتُ نفسي عنه بالدفع أو الفرار. وهو كان يقول: هي الطالبةُ ففرَرْتُ منها وتبعتني واجْتَذَبَتْ ثوبي فقدَّته. فوقوعُ الشقِّ في شقِّ الدُّبر يدلُّ على كونه مُدْبِراً عنها لا مقبلاً عليها، وعكسُه على عكسه. ثم فرَّع على هذا أنَّ ما ذكره ابنُ الكمال غفلةٌ عن المخاصمة بالمقاوَلةِ.

وهو توجيهٌ لطيفٌ للآية الكريمة، بيد أن دعوى وقوعِ المخاصمة بالمقاوَلةِ على الطرز الذي ذكره رحمه الله تعالى مما لا شاهد لها، وعلى المدَّعي البيانُ، على أنه يَبْعدُ عقلاً أن تقول: هو طلبني مقبلاً فخلَّصْتُ نفسي منه فانقدَّ قميصه من قُبلٍ، وهو الذي تقتضيه دعواه أنَّ الظاهر أنَّ دلالة كلٍّ من الشقين.. إلخ، لظهورِ أنَّ ظهور كذبها حينئذٍ أسرعُ ما يكون.

وبالجملة قيل: إنَّ الاحتمالات المضعَّفةَ لهذه المشاهَدة كثيرةٌ؛ منها ما علمتَ ومنها ما تعلمُه بأدنى التفاتٍ، ومن هنا قالوا: إنَّ ذلك من بابِ اعتبارِ الأمارة، ولذلك احتَجَّ بالآية ـ كما قال ابن الفرس ـ مَن يرى الحُكْمَ من العلماء بالأمارات

(١) في الأصل: قبل.

والعلامات فيما لا تحضره البيناتُ، كاللقطة، والسرقة، والوديعة، ومعاقد الحيطان، والسقوف، وغير ذلك.

وذكر الإمام أنَّ علامات كذب المرأة كانت كثيرةً بالغةً مبلغَ اليقين، فضمُّوا إليها هذه العلامةَ الأخرى لا لأَجْلِ أن يعوِّلوا في الحكم عليها، بل لأَجْلِ أن يكون ذلك جارياً مجرى المقوِّيات والمرجِّحات، والله تعالى أعلم[(١)].

وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية: «من قُبْلٍ» و«من دُبْرٍ» بسكون الباء فيهما والتنوينِ وهي لغةُ الحجاز وأسد[(٢)].

وقرأ ابن يعمر[(٣)] وابن أبي إسحاق والعطارديُّ وأبو الزناد وآخرون: «من قُبُلُ» و«من دُبُرُ» بثلاث ضمات[(٤)].

وقرأ الأوَّلان والجارود في روايةٍ عنهم بإسكان الباء فيهما مع بنائهما على الضم[(٥)]، جعلوهما كـ «قَبْلُ» و«بَعْدُ» بعد حذف المضاف إليه ونيةِ معناه.

وتعقَّب ذلك أبو حاتم بأنَّ هذا رديءٌ في العربية، وإنما يقعُ بعد البناء في الظروف، وهذان اللفظان اسمان متمكِّنان وليسا بظرفين.

وعن ابن [أبي] إسحاق أنه قرأ: «من قُبُلَ» و«من دُبُرَ» بالفتح[(٦)]؛ قيل: كأنه جعلهما عَلَمينِ للجهتين فمنعهما الصرفَ للعَلَمية والتأنيث باعتبارِ الجهة[(٧)].

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ أي: السيد، وقيل: الشاهد، والفعلُ من الرؤية البصرية أو القلبية،

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٢٤.

(٢) البحر ٥/ ٢٩٨، والقراءة ذكرها عن الحسن ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢٣.

(٣) في الأصل و(م): أبو يعمر، وهو خطأ، والمثبت من المصادر على ما يأتي، وابن يعمر هو يحيى بن يعمر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥، والقراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٨، والبحر ٥/ ٢٩٨، والكلام منه.

(٥) البحر ٥/ ٢٩٨.

(٦) الكشاف ٢/ ٣١٤، والبحر ٥/ ٢٩٨، وما بين حاصرتين منهما.

(٧) جاء في هامش الأصل و(م): قيل: وكأنه علمُ جنس، وفيه نظر. اهـ منه. والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١٧٢.

أي: فلمَّا عَلِمَ ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القَدُّ والشَّقُّ كما قال الضحاك ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: ناشئٌ من احتيالِكُنَّ أيتها النساء ومَكْرِكُنَّ، ومسبَّبٌ عنه، وهذا تكذيبٌ لها وتصديقٌ له عليه السلام على ألطفِ وجهٍ، كأنه قيل: أنتِ التي راودتيه فلم يفعل وفرَّ، فاجتذبتيه فشقَقْتِ قميصَه، فهو الصادقُ في إسناد المراودة إليك، وأنتِ الكاذبةُ في نسبة السوء إليه.

وقيل: الضمير للأمر الذي وقع فيه التشاجُرُ[1]، وهو عبارةٌ عن إرادةِ السوء التي أُسْنِدَتْ إلى يوسفَ عليه السلام وتدبيرِ عقوبته بقولها: «ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً» إلخ، أي: إنَّ ذلك من جنس مَكْرِكُنَّ واحتيالِكُنَّ.

وقيل: هو للسوء، وهو نفسُه وإن لم يكن احتيالاً لكنه يلازمه. وقال الماورديُّ[2]: هو لهذا الأمر، وهو طمعُها في يوسف عليه السلام. وجَعْلُه من الحيلة مجازٌ أيضاً كما في الوجه الذي قبله.

وقال الزجَّاج: هو لقولها: «ما جزاء» إلخ فقط[3].

واختار العلَّامة أبو السعود القيلَ الأول[4]، وتَكلَّفَ له بما تَكلَّفَ، واعتَرَضَ على ما بعده من الأقوال بما اعْتَرَضَ، ولعل ما ذكرناه أقربُ للذوق وأقلُّ مؤنةً مما تكلَّف له.

وأيًّا ما كان فالخطابُ عامٌّ للنساء مطلقاً، وكونُه لها ولجواريها - كما قيل - ليس بذاك. وتعميمُ الخطاب للتنبيه على أنَّ الكيد خُلُقٌ لهنَّ عريقٌ:

ولا تحسبا هنداً لها الغدرُ وحدَها سجيةُ نفسٍ كلُّ غانيةٍ هندُ[5]

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): لَمْ يجعل هؤلاء «مِن» سببيةً كما أشرنا إليه، فافهم. اهـ منه.

(٢) كما في البحر ٥/ ٢٩٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٣.

(٤) وهو كونه للأمر الذي وقع فيه التشاجر. تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٩.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): هو لأبي تمام من قصيدة. اهـ منه. والبيت في ديوان أبي تمام ٢/ ٨١، وجاء في شرحه للخطيب التبريزي: «الغدر» مبتدأ، وخبره «سجيةُ نفسٍ»، وجملةُ المبتدأ والخبر في موضع المفعول الثاني. ويجوز أن يكون الغدر منصوباً على أنه بدل من قوله: «هنداً»، ويكون «سجية نفسٍ» مفعولاً ثانياً.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فإنه ألطفُ وأَعْلَقُ بالقلب، وأشدُّ تأثيراً في النفس، ولأنَّ ذلك قد يُوْرِثُ من العار ما لا يورثه كيدُ الرجال، ولربَّات القصور منهنَّ القِدْحُ المعلَّى من ذلك؛ لأنهنَّ أكثرُ تفرُّغاً من غيرهنَّ، مع كثرةِ اختلافِ الكيَّادات إليهن، فهنَّ جوامعُ كوامِلُ.

ولعظم كيد النساء اتخذهنَّ إبليس[١] عليه اللعنةُ وسائلَ لإغواء مَن صَعُبَ عليه إغواؤه، ففي الخبر: ما أَيِسَ الشيطانُ من أحدٍ إلا أتاه من جهة النساء[٢].

وحكي عن بعض العلماء أنه قال: أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان؛ فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولأنَّ الشيطان يوسوسُ مسارَقةً وهنَّ يواجِهْنَ به. ولا يخفى أنَّ استدلاله بالآيتين مبنيٌّ على ظاهر إطلاقهما، ومثلُه مما تنقبضُ له النفسُ وتنبسطُ يكفي فيه ذلك القَدْرُ، فلا يضرُّ كونُ ضَعْفِ كيدِ الشيطان إنما هو في مقابلةِ كيدِ الله تعالى، وعظمِ كيدهنَّ إنما هو بالنسبة إلى كيد الرجال.

وما قيل: إنَّ ما ذكر ـ لكونه محكيًّا عن قطفير ـ لا يصلحُ للاستدلال به بوجهٍ من الوجوه، ليس بشيءٍ؛ لأنه سبحانه قصَّه من غير نكيرٍ، فلا جُناحَ في الاستدلال به كما لا يخفى.

﴿يُوسُفُ﴾ حُذفَ منه حرفُ النداء لقُرْبه وكمالِ تفطُّنِه للحديث، وفي ندائه باسمه تقريبٌ له عليه السلام وتلطيفٌ.

وقرأ الأعمش: «يوسفَ» بالفتح[٣]، والأشبهُ على ما قال أبو البقاء[٤]: أن يكون أخرجه على أصل المنادى، كما جاء في الشعر:

يـا عـديًّـا لـقـد وَقَـتْـكَ الأواقـي[٥]

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): وهذا من كيده فافهم. اهـ منه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٦٦ عن سعيد بن المسيب قوله.

(٣) الإملاء ٣/ ٣٣٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٢، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٢.

(٤) في الإملاء ٣/ ٣٣٠.

(٥) البيت لمهلهل بن ربيعة كما في المقتضب ٤/ ٢١٤، والأغاني ٥/ ٥٤، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٨٨، وشرح المفصل ١٠/ ١٠. وصدره: ضربت صدرها إلي وقالت....، وفي

وقيل: لم تُضبط هذه القراءة عن الأعمش.

وقيل: إنه أجرَى الوقفَ مجرى الوصل، ونَقَلَ إلى الفاء حركةَ الهمزة من قوله تعالى: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ ـ أي: عن هذا الأمر واكتُمْه، ولا تتحدَّثْ به فقد ظهر صدقُك وطهارةُ ثوبك ـ وهذا كما حُكي: اللهَ أكبرَ اشهدَ ان لا إله إلا الله، بالوصل والفتح[1].

وقرئ: «أعْرَضَ» بصيغة الماضي[2]، فيوسف حينئذ مبتدأ والجملةُ بعده خبر، ولعل المراد الطلبُ على أتمِّ وجهٍ فيؤُولُ إلى معنى: «أَعْرَضَ» ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي﴾ أنتِ أيَّتها المرأة، وضعَّف أبو البقاء هذه القراءةَ بأنَّ الأشبه عليها أن يقال: فاستغفري.

﴿لِذَنۢبِكِۖ﴾ الذي صَدَرَ عنك وثبتَ عليك ﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ أي: من جملة القوم المتعمِّدين للذنب، أو من جنسهم، يقال: خَطِئَ يَخْطَأ خِطْئاً وخَطَأً إذا أذنب متعمِّداً، وأخطأ: إذا أَذْنَبَ من غير تعمُّدٍ.

وذكر الراغبُ[3] أنَّ الخطأ العدولُ عن الجهة، وهو أَضْرُبٌ:

الأول: أنْ يريدَ غيرَ ما تَحْسُنُ إرادتُه فيفعله، وهذا هو الخطأ التامُّ المأخوذُ به الإنسان.

والثاني: أنْ يريدَ ما يَحْسُنُ فعلُه ولكنْ يقعُ منه خلافُ ما يريد، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، ومن ذلك قولُه ﷺ: «مَن اجتهد فأخطأ فله أجر»[4].

---

رواية: رفعت رأسها إلي وقالت...
قال السمين: يريد (يعني أبا البقاء) بأصل المنادى أنه مفعول به فحقُّه النصب كالبيت الذي أنشده.

(١) قال السمين في الدر ٦/ ٤٧٤: يعني بالفتح في الجلالة، وفي «أكبر»، وفي «أشهد»، وذلك أنه قدَّر الوقف على كل كلمةٍ من هذه الكلم، وألقى حركة الهمزة من كلِّ كلمة من الكلم الثلاث على الساكن قبله وأجرى الوصل مجرى الوقف في ذلك، والذي حكاه الناسُ إنما هو في أكبر خاصةً؛ لأنها مظنة الوقف.

(٢) الإملاء ٣/ ٣٣٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٤، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٢.

(٣) في مفرداته (خطأ).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٧٧٤) و(١٧٨١٦)، والبخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص ﷺ بلفظ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».

والثالث: أن يريدَ ما لا يَحْسُنُ فعلُه، ويتفق منه خلافُه، فهذا مخطئٌ في الإرادة مصيبٌ في الفعل.

ولا يخفى أنَّ المعنى الذي ذكرناه راجعٌ إلى الضرب الأول من هذه الضُّروب. والجملةُ المؤكِّدة في موضع التعليل للأمر، والتذكيرُ لتغليب الذكور على الإناث. واحتمالُ أن يقال: المراد إنك من نسل الخاطئين، فمنهم سرى ذلك العرقُ الخبيثُ فيك، بعيدٌ جدًّا.

وهذا النداء قيل: من الشاهد الحكيم، وروي ذلك عن ابن عباس، وحُمِلَ الاستغفارُ على طلب المغفرة والصَّفح من الزوج، ويحتمل أن يكون المراد به طلبَ المغفرة من الله تعالى، ويقال: إنَّ أولئك القومَ وإن كانوا يعبدون الأوثان، إلا أنهم مع ذلك يُثْبتون الصانعَ ويعتقدون أنَّ للقبائح عاقبةَ سوءٍ من لدنه سبحانه إذا لم يغفرها، واستُدلَّ على أنهم يثبتون الصانعَ أيضاً بأنَّ يوسف عليه السلام قال لهم: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والظاهر أنَّ قائل ذلك هو العزيزُ، ولعله ـ كما قيل ـ كان رجلاً حليماً، وروي ذلك عن الحسن، ولذا اكْتَفَى بهذا القَدْرِ من مؤاخَذَتِها ورُوي أنه كان قليلَ الغيرة، وهو لطفٌ من الله تعالى بيوسف عليه السلام.

وفي «البحر»: أنَّ تربةَ إقليم قطفير[1] اقتضت ذلك، وأين هذا مما جرى لبعض ملوك المغرب، أنه كان مع نُدمائه المختصِّين به في مجلسِ أنسٍ وجاريةٌ تغنيهم من وراء سترٍ، فاستعاد بعضُ خلصائه بيتين من الجارية كانت قد غنَّت بهما، فما لبث أن جيء برأس الجارية مقطوعاً في طستٍ، وقال له الملك: اسْتَعِدِ البيتين من هذا الرأس. فسقط في يد المستعيد، ومَرِضَ مدةَ حياةِ الملك[2].

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ المشهورُ ـ وإليه ذهب أبو حيان[3] ـ أنه جمعُ تكسيرٍ للقلَّة، كصِبْيةٍ وغِلْمةٍ، وليس له واحدٌ من لفظه، بل من معناه وهو امرأة. وزعم ابن السرَّاج أنه اسمُ جمع.

---

(١) يعني مصر. حاشية الشهاب ٥/ ١٧٢.

(٢) البحر ٥/ ٢٩٨.

(٣) في البحر ٥/ ٢٩٩.

وعلى كلٍّ فتأنيثُه غيرُ حقيقيٍّ، ولا التفاتَ إلى كون ذلك المفرد مؤنَّثاً حقيقيًا؛ لأنه مع طروِّ ما عارض ذلك ليس كسائر المفردات، ولذا لم يؤنَّث فعله. وفي نونه لغتان: الكسر وهي المشهورة، والضمُّ وبه قرأ المفضَّل والأعمش والسلميُّ كما قال القرطبي[1]، فلا عبرةَ بمن أنكر ذلك، وهو إذ ذاك اسم جمع بلا خلاف. ويُكسَّر للكثرة على نساء ونسوان.

وكنَّ فيما روي عن مقاتل خمساً: امرأةُ الخباز، وامرأةُ الساقي، وامرأةُ البوَّاب، وامرأة السجَّان، وامرأةُ صاحب الدَّوَابِّ. وروَى الكلبيُّ أنهنَّ كنَّ أربعاً، بإسقاطِ امرأةِ البوَّاب.

﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أريدَ بها مصر، والجارُّ والمجرورُ في موضع الصفة لـ «نسوة» على ما استظهره بعضُهم، ووُصِفْنَ بذلك لأنَّ إغاظةَ كلامهنَّ بهذا الاعتبار لاتِّصافِهِنَّ بما يقوِّي جانبَ الصدق أكثر، فإنَّ كلام البدويات لبُعْدِهنَّ عن مظانِّ الاجتماع والاطِّلاع على حقيقة أحوال الحضريات القَصْريات لا يلتفت إلى كلامهنَّ، فلا يَغِيظُ تلك الإغاظةَ.

والكثير على اختيار تعلُّقه بـ «قال»، ومعنى كونِ قولهنَّ في المدينة: إشاعتُه وإفشاؤه فيها. وتعقِّب بأنَّ ذلك خلافُ الظاهر.

﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ هو في الأصل الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَر، كأنه مأخوذٌ من عزَّ، أي: حصل في عَزازٍ، وهي الأرضُ الصلبة التي يصعب وَطْؤُها، ويُطْلَقُ على الملك، ولعلهم كانوا يطلقونه إذ ذاك فيما بينهم على كلِّ مَن ولَّاه الملكُ على بعضٍ مخصوصٍ من الولايات التي لها شأنٌ، فكأن من خواصِّه ذوي القَدْرِ الرفيع والمحلِّ المنيع، وهو بهذا المعنى مرادٌ هنا؛ لأنه أريد به قطفير، وهو في المشهور كما علمتَ إنما كان على خزائن الملك، وكان الملك الريانَ بنَ الوليد.

وقيل: المراد به الملك، وكان قطفير ملكَ مصر وإسكندرية.

وإضافتهنَّ لها إليه بهذا العنوان دون أن يصرِّحْنَ باسمها أو باسمه[2] ليَظْهَر

---

(١) في تفسيره ١١/ ٣٢٥-٣٢٦، وذكرها العكبري في الإملاء ٣/ ٣٣٠ دون نسبة.

(٢) في (م): أو اسمه.

كونُها من ذوات الأخطار، فيكون عوناً على إشاعة الخبر بحكمِ أنَّ النفوس إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أَمْيَلُ.

وقيل ـ وهو الأَوْلَى ـ إنَّ ذاك لقَصْدِ المبالغة في لومها بقولهن: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: تطلب مُواقعتَه إياها وتتمحَّلُ في ذلك. وإيثارهنَّ صيغةَ المضارع للدلالة على دوام المراودة كأنها صارت سجيةً لها.

والفتى من الناس: الطريُّ من الشبان، وأصله فَتَيٌ بالياء لقولهم في التثنية ـ وهي تردُّ الأشياءَ إلى أصولها ـ: فَتَيَانِ، فالفتوَّةُ على هذا شاذٌّ، وجمعه فتيةٌ وفتيانٌ، وقيل: إنه يائيٌّ وواويٌّ ككَنَوْتُ وكَنَيْتُ، وله نظائرُ كثيرةٌ.

ويطلَقُ على المملوك والخادم لِمَا أنَّ جلَّ الخَدَمة شبَّانٌ، وفي الحديث: «لا يَقُلْ أحدُكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتايَ وفتاتي»[1]، وأُطلق على يوسف عليه السلام هنا لأنه كان يخدمها، وقيل: لأنَّ زوجها وهبه لها، فهو مملوكُها بزعم النسوة.

وتعبيرهنَّ عنه عليه السلام بذلك مضافاً إليها لا إلى العزيز؛ لإبانةِ ما بينهما من التباين البيِّن الناشئ عن الخادمية والمخدومية، أو المالكية والمملوكية، وكلُّ ذلك لتربيةِ ما مرَّ من المبالغة في اللوم، فإنَّ مَن لا زوجَ لها من النساء أو لها زوجٌ دنيءٌ قد تُعذَرُ في مراودة الأخدان، لاسيما إذا كان فيهم علوُّ الجناب، وأما التي لها زوجٌ وأيُّ زوجٍ، فمراودتُها لغيره لاسيما لمن لم يكن بينها وبينه كفاءةٌ لها وتَماديها في ذلك غايةُ الغيِّ ونهايةُ الضلال.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: شقَّ حبُّه شَغَافَ قلبها، وهو حجابُه ـ وقيل: هو جلدةٌ رقيقةٌ يقال لها: لسان القلب ـ حتى وصل إلى فؤادها، وبهذا يحصلُ المبالغةُ في وصفها بالحبِّ له.

وقيل: الشَّغَافُ سويداءُ القلب، فالمبالغةُ حينئذٍ ظاهرةٌ، وإلى هذا يرجع ما روي عن الحسن من أنَّ الشغاف باطنُ القلب، وما حكي عن أبي عليٍّ من أنه وسطُه.

والفعلُ مفتوحُ الغين المعجَمةِ عند الجمهور، وقرأ ثابتٌ البنانيُّ بكسرها، وهي

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٣٦٨)، والبخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لغةُ تميم[١]. وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وعليّ بنُ الحسين وابنُه محمد وابنُه جعفر ﷺ، والشعبيُّ وعوفٌ الأعرابيُّ: «شَعَفَها» بفتح العين المهملة، وهي روايةٌ عن قتادة وابن هرمز ومجاهد وحميد والزهري[٢]. وروي عن ثابت البنانيِّ أنه قرأ كذلك أيضاً إلا أنه كَسَر العين[٣]، وهو من شَعَفَ البعيرَ: إذا هَنَأه فأحْرَقَه بالقَطِران[٤]، فالمعنى: وصل حبُّه إلى قلبها فكاد يحترق، ومن هذا قولُ الأعشى:

تعصي الوشاةَ وكان الحبُّ آونةً ... مما يزيِّنُ للمشعوف ما صنعا[٥]

وذكر الراغب[٦] أنه من شَعَفةِ القلب، وهي رأسُه عند معلّق النياط، ويقال لأعلى الجبل شعفةٌ أيضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أنَّ الشَّغفَ الحبُّ القاتل، والشَّعفَ حبٌّ دون ذلك.

وأخرجا عن الشعبيِّ أنَّ الشغف الحبُّ، والشَّعفَ الجنون.

وأخرجا أيضاً عن ابن زيد أنَّ الشغف في الحب، والشعف في البغض[٧]. وهذا المعنى ممتنعُ الإرادة هنا على هذه القراءة.

وفي كتاب «أسرار البلاغة» في فصل ترتيب الحبِّ[٨]: أنَّ أول مراتب الحبِّ الهوى، ثم العَلَاقةُ وهي الحبُّ اللازمُ للقلب، ثم الكَلَفُ وهو شدَّةُ الحب، ثم العشقُ وهو اسمٌ لِمَا فَضَل عن المقدار المسمَّى بالحب، ثم الشَّغَفُ بالمهملة وهو

---

(١) البحر ٥/ ٣٠١.

(٢) المحتسب ١/ ٣٣٩، والبحر ٥/ ٣٠١.

(٣) البحر ٥/ ٣٠١، وجاء في هامش الأصل و(م): وروي ذلك عن أبي رجاء أيضاً. اهـ منه.

(٤) هنأه: طلاه بالقطران، ومعنى إحراقه أنه أثَّر في جلده. حاشية الشهاب ٥/ ١٧٣.

(٥) ديوان الأعشى ص١٥١، وهو فيه برواية: للمشغوف بالغين المعجمة، وكذا ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٩، والسمين في الدر ٦/ ٤٧٥-٤٧٦. وهو برواية المصنف في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٨.

(٦) في مفرداته (شعف).

(٧) الأخبار الثلاثة في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٣١٣١.

(٨) وورد ذلك أيضاً في الفصل نفسه من كتاب فقه اللغة للثعالبي ص١٦٧.

احتراقُ القلب مع لذةٍ يجدُها، وكذلك اللَّوعةُ واللَّاعج، ثم الشَّغَفُ بالمعجمة وهو أن يبلغ الحبُّ شَغَافَ القلب، ثم الجوى وهو الهوى الباطن، ثم التَّيْم وهو أن يستعبده الحب، ثم التَّبْلُ هو أن يُسقمه الحب، ثم التدلُّه وهو ذهابُ العقل من الحب، ثم الهُيُوم وهو أن يذهب الرجل على وجهه لغلبة الهوى عليه. اهـ.

ورتَّب بعضهم ذلك على طرزٍ آخر، واللهُ تعالى أعلم.

وأيًا ما كان فالجملةُ إما خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ من فاعلِ «تُراود» أو من مفعوله، والمقصودُ منها تكريرُ اللوم وتأكيدُ العذل ببيانِ اختلافِ أحوالها القَلْبيةِ كأحوالها القالبية.

وجوَّز أبو البقاء كونَها استئنافيةً[1]، فهي حينئذٍ ـ على ما قيل ـ في موضع التعليل لدوام المراودة، وليس بذاك لأنه إن اعتبر من حيث الإنية كان مصيره إلى الاستدلال بالأخفى على الأجْلَى، وإن اعتُبر من حديث اللِّمية كان فيه ميلٌ إلى تمهيد العذر من قِبَلها، وليس المقامُ له.

وانتصاب «حبًّا» على التمييز، هو محوَّلٌ عن الفاعل إذ الأصل قد شغفها حبُّه كما أُشيرَ إليه.

وأدغم النحويان وحمزة وهشام وابن محيصنٍ دالَ «قد» في شين «شغفها»[2].

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي: نعلمُها، فالرؤيةُ قلبيةٌ واستعمالُها بمعنى العلم حقيقةٌ كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر، وإذا أريدَ منها البصريةُ ثم تجوِّز بها عن العِلْمية كان أبلغَ في إفادة كونها فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرَّةً.

﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عظيم عن طريق الرشد والصواب، أو سَنَن العقل ﴿مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ واضحٍ لا يخفى كونُه ضلالاً على أحد، أو مُظْهِرٍ لأمرها بين الناس، فالتنوينُ للتفخيم، والجملةُ مقرِّرةٌ لمضمونِ الجملتين السابقتين المسوقتين للَّوم والتشنيع،

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٣١.

(٢) التيسير ص٤٢، والبحر ٥/ ٣٠١، والكلام منه، والنحويان هما أبو عمرو والكسائي.

وتسجيلٌ عليها بأنها في أمرها على خطأ عظيم، وإنما لم يقلن: إنها لفي ضلالٍ مبينٍ، إشعاراً ـ كما قيل ـ بأنَّ ذلك الحكمَ غيرُ صادرٍ منهنَّ مجازفةً، بل عن علمٍ ورأيٍ، مع التلويح بأنهنَّ متنزِّهاتٌ عن أمثال ما هي عليه، وصحَّ اللوم على الشغف، قيل: لأنه اختياريٌّ باعتبار مباديه كما يشير إليه قوله:

مـازَحْـتُـه فـعـشـقـتُـه والـعـشـقُ أوَّلُـه مـزاح

وإلا فما ليس باختياريٍّ لا ينبغي اللومُ عليه كما أشار إليه البوصيري بقوله:

يا لائمي في الهوى العذريِّ معذرةً مِنِّي إليك ولو أنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

وقيل: اللوم عليه باعتبارِ الاسترسال معه وتركِ علاجه، فإنهم صرَّحوا بأنَّ ذلك من جملة الأدواء، وذكروا له من المعالجة ما ذكروا، ومن أحسن ما ذكر له من ذلك تذكُّر مساوئ المحبوب، والتفكُّر في عواقبه، فقد قيل:

لـو فـكَّـر الـعـاشـق فـي مـنـتـهـى حُسْنِ الـذي يَسْبِيـه لـم يَسْبِهِ[1]

وتمامُ الكلام في هذا المقام يطلب في محله.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: باغتيابهنَّ وسوءِ مقالتهنَّ، وتسميةُ ذلك مكراً لشَبَهِه له في الإخفاء.

وقيل: كانت استكْتَمَتْهنَّ سرَّها فأفشينَه وأطلعنَ على أمرها.

وقيل: إنهنَّ قصدنَ بتلك المقالة إغضابها حتى تَعْرِضَ عليهنَّ يوسف لتبديَ عذرها فيفُزْنَ بمشاهدته. والمكرُ على هذين القولين حقيقة.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنَّ، قيل: دعت أربعين امرأةً، منهنَّ الخمسُ أو الأربعُ المذكورات، وروي ذلك عن وهب، والظاهرُ عودُ الضمير على تلك النسوة القائلةِ ما قلنَ عنها.

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: هيَّأَتْ ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: ما يتَّكِئْنَ عليه من النمارق والوسائد كما روي عن ابن عباس، وهو من الاتِّكاء: الميل إلى أحد الشقَّين، وأصله مُوْتكأً لأنه من تَوَكَّأْتُ، فأبدلت الواو تاءً وأدغمت في مثلها.

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٧.

وروي عن الحبر أيضاً أنَّ المتكأ مجلسُ الطعام؛ لأنهم كانوا يتَّكؤون كعادة المترفين المتكبِّرين، ولذلك نهي عنه، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن جابر ﷺ عن النبيِّ ﷺأنه نهى أن يأكل الرجل بشماله وأن يأكل متكئًا[١].

وقيل: أريد به نفسُ الطعام، قال القتبي[٢]: يقال: اتَّكأنا عند فلان، أي: أكلنا، ومن ذلك قولُ جميل:

فظَلِلْنا بنعمةٍ واتَّكأنا وشربنا الحلال من قُلَلِه[٣]

وهو على هذا اسمُ مفعول، أي: متكأ له، أو مصدر أي: اتكاءً، وعبَّر بالهيئة التي يكون عليها الآكل المترفُ عن ذلك مجازاً. وقيل: هو من باب الكناية.

وعن مجاهد: أنه الطعام يحزُّ حزًّا بالسكين. واختلفوا في تعيينه، فقيل: كان لحماً، وكانوا لا ينهشون اللحم وإنما يأكلونه حزًّا بالسكاكين.

وقيل: كان أُترجًّا[٤] وموزاً وبطيخاً. وقيل: الزُّماوَرْدُ، وهو الرقاقُ الملفوف باللحم وغيره[٥]، أو شيء شبيه بالأترجِّ، وكأنه إنما سمِّي ما يُقطع بالسكين بذلك لأنَّ عادةَ من يقطع شيئاً أن يعتمد عليه فيكون متكأً عليه.

وقرأ الزهريُّ وأبو جعفر وشيبةُ: «مُتَّكى» مشدَّد التاء من غير همزٍ بوزن متَّقى[٦]، وهو حينئذٍ: إما أن يكون من الاتِّكاء وفيه تخفيفُ الهمزة، كما قالوا في

---

(١) عزاه لابن أبي شيبة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٧٣، وذكره ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٩ دون عزو، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٩٤، باب في الأكل والشرب بالشمال، دون قوله: وأن يأكل متكئاً. وأخرج البخاري (٥٣٩٨) من حديث أبي جُحيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا آكل متكئاً».

(٢) في الأصل و(م): العتبي، وهو تصحيف، وكلام ابن قتيبة في تفسير الغريب ص٢١٦، وتأويل المشكل ص١٣٨، ونقله عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٣٠٢.

(٣) ديوان جميل بثينة ص١٨٩، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٢٥٧، والخزانة ١٠/ ٢١. قوله: الحلال، قيل: هو النبيذ، وسماه حلالاً على وجه الخلاعة، وقال البغدادي: ولا يخفى أن حمله على ظاهره أنسب، لأن قائله مؤمن، وكان في عرفة في موسم الحج.

(٤) من فصيلة الحمضيات، ويسمى بالشام الكُبَّاد، واحدته أترجَّة. معجم متن اللغة (ترج).

(٥) وفي اللسان (ورد): هو طعام من البيض واللحم، معرب.

(٦) المحتسب ١/ ٣٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٢، وقراءة أبي جعفر في النشر ١/ ٣٩٩.

توضَّأت: توضَّيْتُ. أو يكون مُفْتَعَلاً من أَوْكَيْتُ السقاء: إذا شَدَدْتَه بالوِكاء، والمعنى: أعتَدَتْ لهنَّ ما يُشْتَدُّ عليه بالاتِّكاء أو بالقطع بالسكين.

وقرأ الأعرج: «مَتْكأً» على وزن «مَفْعلاً»، من تكِئَ يَتْكأُ: إذا اتَّكأ(١).

وقرأ الحسن وابن هرمز: «مُتَّكاءً» بالمدِّ والهمز(٢)، وهو مُفْتَعَل من الاتِّكاء، إلا أنه أشبع الفتحة فتولَّدت منها الألفُ، وهو كثيرٌ في كلامهم، ومنه قوله:

وأنت من الغوائل حين ترمي ... وعن ذمِّ الرجال بمنتزاحِ(٣)

وقوله:

يَنْباعُ من ذِفْرَى غضوبٍ جَسْرةٍ ... زيَّافةٍ مثل الفَنيقِ المُكْدَمِ(٤)

وقرأ ابن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة وآخرون(٥): «مُتْكاً» بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف، وجاء ذلك عن ابن هرمز أيضاً(٦)، وهو الأترجُّ عند الأصمعيِّ وجماعةٍ، والواحدُ مُتْكَة، وأنشد:

فأهدتْ مُتْكةً لبني أبيها ... تَخُبُّ بها العَثَمْثَمَةُ الوَقاحُ(٧)

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٣، والبحر ٥/ ٣٠٢، وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٣.
(٢) القراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٢.
(٣) البيت لإبراهيم بن هرمة، وهو في ديوانه ص٩٢، والبحر ٥/ ٣٠٢ برواية: ومن ذمِّ الرجال... .
(٤) البيت من معلقة عنترة، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٢٤، وللتبريزي ص٢٣٠، وللمرزوقي ص١٤٤. وذكروا في شرحه: قوله: ينباع، أراد ينبع، فأشبع الفتحة لإقامة الوزن. والذِّفرى: ما خلف الأذن. والجسرة: الناقة الضخمة القوية، وقيل: الماضية في سيرها. والزيف: التبختر. والفنيق: الفحل من الإبل. والكدم: العض. يقول: ينبع هذا العرق من خلف أذن ناقةٍ غضوب موثَّقةِ الخلق شديدة التبختر في سيرها مثل فحل من الإبل قد كدمته الفحول، شبهها بالفحل في تبخترها ووثاقة خلقها وضخمها. وجاء في حاشية (م): ومنه قوله:

أعوذ بالله من العقراب
الشائلات عقد الأذناب

(٥) جاء في حاشية (م): منهم الضحاك والجحدري والكلبي.
(٦) المحتسب ١/ ٣٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٢.
(٧) الكشاف ٢/ ٣١٦، والبحر ٥/ ٢٩٩، والدر المصون ٦/ ٤٧٨. العَثَمْثَمة من النوق: الشديدة. الصحاح (عثم).

وقيل: هو اسم يعمُّ جميعَ ما يقطع بالسكين كالأترجِّ وغيرِه من الفواكه، وأنشد:

نشربُ الإثم بالصُّواع جِهاراً وتَرى المُتْكَ بيننا مستعارًا(١)

وهو من مَتَكَ الشيء بمعنى بَتَكه، أي: قطعه، وعن الخليل تفسيرُ المُتْكِ مضمومِ الميم بالعسل، وعن أبي عمرو تفسيرُه بالشراب الخالص، وحكى الكسائيُّ تثليثَ ميمه، وفسَّره بالفالوذج، وكذا حكى التثليثَ المفضَّلُ لكن فسره بالزُّماوَرْد، وذكر أنه بالضم المائدةُ أو الخمر في لغةِ كندة. وبالفتح قرأ عبدُ الله ومعاذٌ رضي الله عنهما(٢).

وفي الآية على سائر القراءات حذفٌ، أي: فجئن وجلسن ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾. وقال بعض المحققين: لا يبعد أن تسمَّى هذه الواو فصيحة.

وإنما أعطت كلَّ واحدةٍ ذلك لتستعمله في قطع ما يُعْهَدُ قَطْعُه مما قدِّم بين أيديهنَّ وقُرِّبَ إليهنَّ، وغرضُها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهنَّ لتبكِّتهنَّ بالحجة.

وقيل: غرضُها ذاك، والتهويلُ على يوسف عليه السلام من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعاتٍ في أيديهنَّ الخناجرُ توهمُه أنهنَّ يَثِبْنَ عليه، فيكون خائفاً من مكرها دائماً فلعله يجيبها إلى مرادها.

والسكين مذكَّرٌ عند السجستاني قال: وسألتُ أبا زيدٍ الأنصاريَّ والأصمعيَّ وغيرَهما ممن أدركناه فكلُّهم يذكِّره ويُنْكِرُ التأنيثَ فيه(٣). وعن الفرَّاء أنه يذكَّر ويؤنَّثُ(٤). وذلك حُكي عن اللِّحيانيِّ ويعقوب(٥). ومَنَعَ بعضُهم أن يقال: سكِّينة، وأُنشد عن الكسائي ما يخالف ذلك، وهو قولُه:

الذئبُ سكِّينتُه في شدقه ثم قِرَابا نَصْلِها في حَلْقِه(٦)

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ١٦١، وزاد المسير ٣/ ١٩١، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٣٠، والبحر ٥/ ٢٩٩.
(٢) البحر ٥/ ٣٠٢.
(٣) المذكر والمؤنث لأبي حاتم السجستاني ص١٤٦.
(٤) المذكر والمؤنث للفراء ص٢٧.
(٥) المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٨٩، وفيه: حدثنا عبد الله، قال: حدثنا يعقوب، وحدثني أبي عن محمد بن الحكم عن اللحياني قال: السكِّين تذكَّر وتؤنَّث.
(٦) المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٩١-٣٩٢، وفيه: أراد بِقِرَابيها: غلافها ونِصابَها.

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسفَ عليه السلام وهنَّ مشغولاتٌ بمعالجة السكاكين وإعمالِها فيما بأيديهنَّ. والعطفُ بالواو ربما يشير إلى أنَّ قوله: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ابرز لهنَّ، لم يكن عقيب ترتيب أمورهنَّ ليتم غرضُها بهنَّ(١).

والظاهر أنها لم تأمره بالخروج إلا لمجرَّد أن يَرَيْنَه فيحصل مرامُها. وقيل: أمَرتْه بالخروج عليهنَّ للخدمة أو للسلام، وقد أضْمَرتْ مع ذلك ما أضمَرتْ. يحكى أنها ألبسته ثياباً بيضاً في ذلك اليوم لأنَّ الجميل أحسنُ ما يكون في البياض.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه الكلامُ، أي: فخرج عليهنَّ فرأينه، وإنما حُذف على ما قيل: تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهنَّ، كأنها تَفُوتُ عند ذكر خروجه عليهنَّ(٢)، وفيه إيذانٌ بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهِدُ مضرَّتَه من الأفاعيل، ونظير هذا آتٍ كما مرَّ آنفاً(٣).

﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أَعْظَمْنَه ودهشنَ برؤية جماله الفائق الرائع الرائق، فإنَّ فَضْلَ جماله على جمال كلِّ جميلٍ كان كفَضْلِ القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «رأيتُ يوسفَ ليلةَ المعراج كالقمر ليلة البدر»(٤). وحُكي أنه عليه السلام كان إذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران كما يُرى نور الشمس. وجاء عن الحسن أنه أعطي ثلثَ الحسن. وفي رواية عن أنس مرفوعاً أنه عليه السلام أعطي هو وأمه

---

(١) في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧١ (والكلام منه): ليتم غرضها من استغفالهن.

(٢) جاء في حاشية (م): كما حذف لتحقيق السرعة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٤٠]. اهـ منه.

(٣) لعله يشير إلى الآية (٤٠) من سورة النمل كما ورد في حاشية (م)، وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٢.

(٤) لم نقف عليه عند الطبري، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٥٧١، والثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٩، وفي إسناده أبو هارون العبدي عمارة بن جُوَيْن، وهو متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

شطر الحسن(١). وتقدم خبرُ أنه عليه السلام كان يشبه آدم عليه السلام يوم خَلَقه ربُّه(٢).

وعن ابن عباس ﷺ أنَّ معنى أكبرن حضن، ومن ذلك قوله:

يأتي النساءَ على أطهارهنَّ ولا ... يأتي النساءَ إذا أَكْبَرْنَ إكبارَا(٣)

وكأنه إنما سمِّي الحيضُ إكباراً لكون البلوغ يُعرف به، فكأنه يُدخِلُ الصغارَ سنَّ الكبر، فيكون في الأصل كنايةً أو مجازاً، والهاء على هذا إما ضميرُ المصدر، فكأنه قيل: أكبرن إكباراً. وإما ضمير يوسف عليه السلام على إسقاط الجارِّ، أي: حِضْنَ لأجله من شدَّة شبقهنَّ، والمرأةُ كما زعم الواحديُّ إذا اشتدَّ شبقُها حاضت، ومن هنا أخذ المتنبي قوله:

خَفِ الله واسْتُرْ ذا الجمالَ ببُرْقُعٍ ... إذا لُحْتَ حاضَتْ في الخدور العواتِقُ(٤)

وقيل: إنَّ الهاء للسكت. ورُدَّ بأنها لا تحرَّك ولا تثبتُ في الوصل، وإجراءُ الوصل مجرى الوقف وتحريكُها تشبيهاً بالضمير كما في قوله:

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ(٥)

على تسليم صحته ضعيفٌ في العربية.

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٣٦، والحاكم ٢/ ٥٧٠ وصححه. وفي حديث الإسراء عند مسلم (١٦٢) عن أنس ﷺ: «... فإذا أنا بيوسف، إذا هو قد أعطي شطر الحسن...» وجاء في حاشية (م): قيل: إنه ورث الحسن عن جدته سارة. اهـ منه.

(٢) سلف من خبر كعب الأحبار ص٢٥١ من هذا الجزء.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٦، وتفسير الطبري ١٣/ ١٣٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩. وسيأتي ما قاله العلماء في هذا البيت من أنه مصنوع لا أصل له.

(٤) ديوان المتنبي ٣/ ٨٩، والكشاف ٢/ ٣١٧، ورواية الديوان: ذابت، بدل: حاضت. وهما روايتان كما نقل الشهاب في الحاشية ٥/ ١٧٤ عن الواحدي. وقال الشهاب في شرح البيت: العواتق جمع عاتق، وهي المرأة الشابة، و«ذا الجمال» بنصب «الجمال» نعت «ذا» اسم الإشارة، وجوَّز أن يكون «ذا» بمعنى صاحب و«الجمال» مجرور بالإضافة ومعناه الوجه، والأول أولى روايةً ودرايةً.

(٥) وعجزه: ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ، والبيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ٨٠.

واعترض في «الكشف» التخريجين الأوَّلين فقال: إنَّ نَزْعَ الخافض ضعيفٌ؛ لأنه إنما يجري في الظروف والصِّفات والصِّلات، وذلك لدلالة الفعل على مكان الحذف، وأما في مثل هذا فلا، والمصدرُ ليس من مجازه إذ ليس المقام للتأكيد، وزعم أنَّ الوجه هو الأخيرُ، وكلٌّ ما ذكره في حيِّز المنع كما لا يخفى.

وأنكر أبو عبيدة مجيءَ «أكبرْنَ» بمعنى حِضْنَ، وقال: لا نعرف ذلك في اللغة[١]. والبيتُ مصنوعٌ مختلقٌ لا يعرفه العلماء بالشعر، ونُقل مثلُ ذلك عن الطبريِّ[٢] وابنِ عطية[٣]، وغيرِ واحد من المحققين. وروايةُ ذلك عن ابن عباس إنَّما أخرجها ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد[٤]، وهو - وإن رَوَى ذلك عن أبيه عليٍّ عن أبيه ابن عباس - لا يعوَّلُ عليه، فقد قالوا: إنه عليه الرحمةُ ليس من رواة العلم.

وعن الكُمَيْتِ الشاعرِ تفسيرُ «أكبرن» بأَمْنَيْنَ[٥]، ولعل الكلام في ذلك كالكلام فيما تقدَّم تخريجاً وقبولاً، وأنا لا أرى الكميتَ من خيل هذا الميدان وفرسانِ ذلك الشان.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جَرحْنَها بما في أيديهنَّ من السكاكين لفَرْطِ دهشتهنَّ، وخروجِ حركاتِ جوارِحِهنَّ عن منهاج الاختيار حتى لم يَعْلَمنَ بما عَمِلْنَ، ولم يَشعُرْنَ بألم[٦] ما نالهنَّ، وهذا كما تقول: كنتُ أقطَعُ اللحم فقَطَعْتُ يدي. وهو معنًى حقيقيٌّ للتقطيع عند بعضٍ، وفي «الكشف» أنه معنًى مجازيٌّ على الأصح. والتضعيفُ للتكثير: إمَّا بالنسبة لكثرة القاطعات، وإما بالنسبة لكثرة القطع في يدِ كلِّ واحدةٍ منهنَّ.

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٠٩.
(٢) في تفسيره ١٣/ ١٣٢، قال: لا أحسب له أصلاً، لأنه ليس بالمعروف عند الرواة.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ١٣١، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٥ من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس. ولم يَرِد البيت في رواية الطبري.
(٥) أخرجه عن الكميت أبو الشيخ كما في الدر المنثور ٤/ ١٦.
(٦) في (م): بمألم.

وأخرج ابن المنذر وغيرُه عن مجاهد أنه فسَّر التقطيع بالإبانة[(١)]. والمعنى الأولُ أسرعُ تبادُراً إلى الذهن.

وحَمْلُ الأيدي على الجوارح المعلومةِ مما لا يكادُ يُفهم خلافه، ومن العجيب ما روي عن عكرمةَ من أنَّ المراد بها الأكمام، وأظنُّ أنَّ منشأ هذا محضُ استبعادِ وقوعِ التقطيع على الأيدي بالمعنى المتبادر؛ ولعمري لو عُرِضَ ما قاله على أدنى الأفهام لاستَبْعَدَتْه.

﴿وَقُلْنَ﴾ تنزيهاً لله سبحانه عن صفات التقصير والعجز، وتعجُّباً من قدرته جلَّ وعلا على مثل ذلك الصنع البديع ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أصلُه: حاشا لله، بالألف كما قرأ أبو عمرو في الدَّرْج[(٢)]، فحذفت ألفُه الأخيرةُ تخفيفاً، وهو على ما قيل: حرفٌ وُضِعَ للاستثناء والتنزيهِ معاً، ثم نُقِلَ وجُعِلَ اسماً بمعنى التنزيه وتجرَّد عن معنى الاستثناء، ولم ينوَّن مراعاةً لأصله المنقولِ عنه، وكثيراً ما يراعون ذلك، ألا تراهم قالوا: جلستُ من عن يمينه؟ فجعلوا «عن» اسماً ولم يُعْرِبوه، وقالوا: غدت مِن عليه، فلم يثبتوا ألف «على» مع المضمرَ كما أثبتوا ألفَ فتى في فتاه، كلُّ ذلك مراعاة للأصل، واللامُ للبيان فهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ.

وردَّ في «البحر» دعوى إفادتِه التنزيهَ في الاستثناء بأنَّ ذلك غيرُ معروفٍ عند النحاة، ولا فَرْقَ بين: قام القومُ إلا زيداً، وحاشا زيداً[(٣)].

وتعقِّب بأنَّ عدم ذكر النحاة ذلك لا يضرُّ؛ لأنه وظيفةُ اللغويين لا وظيفتهم.

واعترض بعضُهم حديث النقل بأنَّ الحرف لا يكون اسماً إلَّا إذا نُقل وسمِّي به وجُعِلَ عَلَماً، وحينئذٍ يجوز فيه الحكايةُ والإعرابُ، ولذا جعله ابن الحاجب اسمَ فعلٍ بمعنى: بَرِئَ اللهُ تعالى من السوء، ولعل دخول اللام كدخولها في ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، وكونُ المعنى على المصدرية لا يَرِدُ عليه؛ لأنه قيل: إنَّ أسماء الأفعال موضوعةٌ لمعاني المصادر، وهو المنقولُ عن الزجَّاج[(٤)].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٦.

(٢) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥.

(٣) البحر ٥/ ٣٠٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٧٤، وما سيأتي منه.

(٤) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٧٤، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٧.

نعم ذهب المبرد[١] وأبو عليٍّ[٢] وابنُ عطية[٣] وجماعةٌ إلى أنه فعلٌ ماضٍ بمعنى جانَبَ، وأصلُه من حاشية الشيء وحشيه، أي: جانبه وناحيته، وفيه ضميرُ يوسفَ، واللامُ للتعليل متعلِّقةٌ به، أي: جانَبَ يوسفُ ما قَرَفَ به الله تعالى، أي: لأَجْلِ خوفه ومراقبته، والمرادُ تنزيههُ وبُعْدُه كأنه صار في جانبٍ عمَّا اتُّهم به لِمَا رُؤي فيه من آثار العصمة وأبَّهةِ النبوَّة عليه الصلاة والسلام. ولا يَخْفَى أنه على هذا يفوتُ معنى التعجُّبِ.

واستُدِلَّ على اسميتها بقراءة أبي السمال: «حاشاً لله» بالتنوين[٤]. وهو في ذلك على حدِّ: سَقْياً لك، وجوِّز أن يكونَ اسمَ فعلٍ والتنوينُ كما في «صه»، وكذا بقراءة أبيٍّ وعبد الله رضي الله عنهما: «حاشا الله» بالإضافة[٥]، كسبحان الله، وزعم الفارسيُّ أنَّ «حاشا» في ذلك حرفُ جرٍّ مرادٌ[٦] به الاستثناء كما في قوله:

حاشا أبي ثوبانَ إنَّ أبا ثوبان ليس ببُكمةٍ فَدْمِ[٧]

ورُدَّ بأنه لم يتقدَّمه هنا ما يُستثنى منه.

وجاء في رواية عن الحسن أنَّه قرأ: «حاشْ لله»[٨] بسكون الشين وصلاً ووقفاً مع لام الجرِّ في الاسم الجليل على أنَّ الفتحةَ أُتبعت الألفَ في الإسقاط لأنَّها

(١) في المقتضب ٤/ ٣٩١.
(٢) في الحجة ٤/ ٤٢٢-٤٢٣.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٣، والبحر ٥/ ٣٠٣.
(٥) القراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٤١، والبحر ٥/ ٣٠٣، وجاء في حاشية (م): وروي عنهما أيضاً ـ كما قاله صاحب اللوامح ـ كقراءة أبي عمرو. اهـ منه. وهو منقول من البحر ٥/ ٣٠٣.
(٦) في (م): مراداً، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٧٤.
(٧) البيت للجميح الأسدي، وهو في الأصمعيات ص٢١٨، والحجة للفارسي ٤/ ٤٢٢، والمحتسب ١/ ٣٤١، والدر المصون ٦/ ٤٨٢. قوله: فَدْم، الفَدْم: العييُّ في الكلام في ثِقَل ورخاوة وقلة فهم. القاموس (فدم).
(٨) المحتسب ١/ ٣٤١، والبحر ٥/ ٣٠٣، وعزاها ابن خالويه في القراءات الشاذة للقطعي عن نافع.

كالعَرَض اللَّاحق لها. وضُعِّفت هذه القراءة بأنَّ فيها التقاءَ الساكنين على غير حدِّه. وفي رواية أخرى عنه أنه قرأ: «حاشَ الإله»[(١)].

وقرأ الأعمش: «حشا لله» بحذف الألف الأولى[(٢)].

هذا واستدلَّ المبرِّدُ وابن جنِّي والكوفيون على أن «حاش» قد تكون فعلاً بالتصرُّف فيها بالحذف كما علمت في هذه القراءات، وبأنَّه قد جاء المضارع منها كما في قول النابغة:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أُحاشي من الأقوام من أحد[(٣)]

ومقصودُهم الردُّ على سيبويه[(٤)] وأكثرِ البصريَّة حيث أنكروا فعليَّتها، وقالوا: إنها حرفٌ دائماً بمنزلة «إلَّا» لكنَّها تجرُّ المستثنى، وكأنَّه لم يبلغهم النصبُ بها كما في قوله:

حاشا قريشاً فإنَّ الله فضَّلهم[(٥)]

وربَّما يجيبون عن التصرُّف بالحذف بأنَّ الحذف قد يدخل الحرفَ كقولهم: أما والله، وأَمَ والله، نعم رُدَّ عليهم أيضاً بأنَّها تقع قبل حرف الجرِّ.

ويقابل هذا القولَ ما ذهب إليه الفرَّاء من أنَّها لا تكون حرفاً أصلاً، بل هي فعلٌ دائماً ولا فاعلَ لها، والجرُّ الواردُ بعدها كما في:

حاشاي إنِّي مسلم معذور[(٦)]

والبيتِ المارِّ آنفاً بلامٍ مقدرَّة.

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤١، والبحر ٥/ ٣٠٣.

(٢) البحر ٥/ ٣٠٣.

(٣) ديوان النابغة ص٣٣، والدر المصون ٦/ ٤٨٤. وينظر قول المبرد وابن جني وغيرهما في المقتضب ٤/ ٣٩١، والمحتسب ١/ ٣٤٢، والمغني لابن هشام ص١٦٤-١٦٥.

(٤) في الكتاب ٢/ ٣٤٩، قال: وأما حاشا فليس باسم، ولكنه حرف يجر مابعده كما تجر «حتى» ما بعدها، وفيه معنى الاستثناء.

(٥) وعجزه: على البرية بالإسلام والدين، وهو في شرح الألفية لابن عقيل ١/ ١٧٧.

(٦) وصدره: في فتية جعلوا الصليب إلاهَهم، والبيت للأقيشر كما في اللسان (حشا)، والدرر اللوامع ٣/ ١٧٧، ودون نسبة في الأضداد لابن الأنباري ص٣٢٢. قوله: معذور، أي: مختون.

والحقُّ أنها تكون فعلاً تارةً؛ فينصب ما بعدَها، ولها فاعلٌ وهو ضميرٌ مستكنٌّ فيها وجوباً يعود إمَّا على البعض المفهوم من الكلام، أو المصدر المفهوم من الفعل، ولذا لم يُثنَّ، ولم يُجمعْ، ولم يؤنَّثْ.

وحرفاً أخرى ويجرُّ ما بعدها، ولا تتعلَّق بشي كالحروف الزائدةِ عند ابن هشام، أو تتعلَّق بما قبلها من فعلٍ أو شبههِ عند بعض، ولا تدخلُ عليها «إلا» كما إذا كانت فعلاً، خلافاً للكسائي في زعمه جوازَ ذلك إذا جَرَّت، وأنها إذا وقعت قبل لام الجرِّ كانت اسمَ مصدر مرادفاً للتنزيه، وتمامُ الكلام في محله.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ نَفَيْنَ عنه البشريَّة لِمَا شاهدْنَ من جماله الذي لم يُعهَدْ مثالُه في النَّوع الإنساني، وقَصْرُهنَّ[1] على الملكيَّة بقولهنَّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ أي: شريفٌ كثيرُ المحاسن، بناء على ما رُكز في الطِّباع من أنه لا حيَّ أحسنُ من المَلَك كما رُكز فيها أنْ لا أقبح من الشيطان، ولذا لا يزالُ يشبَّه بهما كلُّ متناهٍ في الحُسْنِ والقُبْح وإن لم يَرَهما أحدٌ، وأنشدوا لبعض العرب:

فلستَ لإنْسيٍّ ولكنْ لِمِلأكٍ تنزَّل من جوِّ السماء يَصُوبُ[2]

وكثُر في شعر المُحْدَثين ما هو من هذا الباب، ومنه قوله:

تُرْكٌ إذا قُوبلوا كانوا ملائكةً حُسْناً وإن قُوتلوا كانوا عَفاريتا[3]

وغرضهنَّ من هذا وصفُه بأنَّه في أقصى مراتبِ الحُسن والكمال الملائم لطباعهنَّ.

ويُعلم ممَّا قرِّر أنَّ الآية لا تقومُ دليلاً على أنَّ المَلكَ أفضلُ من بني آدم كما ظنَّ

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٢ (والكلام منه): وقصرنه.

(٢) البيت لعلقمة بن عبدة كما في المفضليات ص٣٩٤، وتحصيل عين الذهب ص٥٩٠، وهو في زيادات ديوانه ص١١٨، ونسب في مجاز القرآن ١/ ٣٣، والصحاح (ملك) لجاهلي من عبد القيس يمدح بعض الملوك، وهو دون نسبة في الكتاب ٤/ ٣٨٠، والمنصف ٢/ ١٠٢، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١١٢، وتفسير الطبري ١/ ٣٥٠.

(٣) البيت لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان المعروف بالغزي، كما في خريدة القصر للعماد الأصفهاني ١/ ٩، والبحر ٥/ ٢٤١، وفيهما: قوم، بدل: ترك.

أبو علي الجبَّائي وأتباعه، وأيَّده الفَخْر ـ ولا فخر له ـ بما أيَّده[١].

وذهب غيرُ واحد إلى أنَّ الغرض تنزيهُه عليه السَّلام عمَّا رمي به على أكملِ وجه، وافتتحوا ذلك بـ «حاش لله» على ما هو الشائع في مثل ذلك، ففي «شرح التسهيل»: الاستعمال على أنَّهم إذا أرادوا تبرئةَ أحدٍ من سوءٍ ابتدؤوا تبرئةَ الله سبحانه من السُّوء، ثم يبرِّئون مَن أرادوا تبرئتَه، على معنى أنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن أنْ لا يطهِّرَه مما يضيمُه، فيكون آكَدُ وأَبْلَغ.

والمنصور ما أشير إليه أولاً، وهو الذي يقتضيه السِّياق والسباق، نعم هذا الاستعمالُ ظاهر فيما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله تعالى عن النِّسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

و«ما» عاملةٌ عمل «ليس» ـ وهي لغة الحجازيين ـ لمشابهتِها لها في نفي الحال على ما هو المشهورُ في «ليس» من أنَّها لذلك، أو في مطلَقِ النَّفي بناءً على ما قال الرضيُّ من أنها تَرِدُ لنفي الماضي والمستقبل، والغالبُ على لغتهم جرُّ الخبر بالباء، حتَّى إنَّ النحويين لم يجدوا شاهداً على النَّصب في أشعارهم غيرَ قوله:

وأنا النذيرُ بحرَّةٍ مُسْودَّةٍ ... تصلُ الجيوشُ إليكم أقوادَها
أبناؤها متكنِّفون أباهمُ ... حَنِقُو الصدورِ وما همُ أولادَها[٢]

والزمخشريُّ يسمِّي هذه اللغةَ: اللغةُ القُدْمى الحجازيَّة[٣]. ولغةُ بني تميم في مثل ذلك الرفعُ، وعلى هذا جاء قولُه:

ومُهَفْهَفِ الأعطافِ قلتُ له انتسبْ ... فأجاب ما قتلُ المحبِّ حرامُ[٤]

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٨/ ١٢٩.

(٢) الحماسة البصرية ١/ ٨٦، وشرح الألفية لابن عقيل ١/ ٣٠٢، والبحر ٥/ ٣٠٤، والدر المصون ١/ ١٢٣. ووقع في الأصل و(م): قوادها، بدل: أقوادها، والمثبت من المصادر. الحرة: أرض ذات حجارة سود نخرات كأنها أحرقت بالنار. وقوله: متكنفون، أي: محيطون، والكنف: ناحية الشيء. اللسان (حرر) و(كنف).

(٣) الكشاف ٢/ ٣١٧.

(٤) ذكره لسان الدين الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة ٢/ ٢١٩، والتلمساني في نفح الطيب ٥/ ٢٢٧.

وبلُغتهم قرأ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه[1]؛ وزعم ابنُ عطيَّةَ أنه لم يقرأ بها أحدٌ هنا[2].

وقرأ الحسن وأبو الحويرث الحنفي: «ما هذا بِشِرى» بالباء الجارَّة، وكَسْرِ الشين[3]، على أنَّ «شِرى» ـ كما قال صاحبُ «اللوامح» ـ مصدرٌ أُقيم مقامَ المفعول به[4]، أي: ما هذا بمَشْرِيٍّ، أي: ليس ممنْ[5] يُشترى، بمعنى أنَّه أعزُّ من أن يجري عليه ذلك.

ورَوَى هذه القراءة عبدُ الوارث عن أبي عمرو أيضاً إلَّا أنه رَوَى عنه أنَّه مع ذلك كَسَر اللام من «ملك»[6]، وروى الكسرَ ابنُ عطيَّة عن الحسن وأبي الحويرث أيضاً[7]. والمراد إدخالُه في حيِّز الملوك بعد نفي كونه مما يصلحُ للمملوكية، فبين الجملتين تناسبٌ ظاهر.

وكأنَّ بعضَهم لم يرَ أنَّ مَن قرأ بذلك قرأ أيضاً «مِلِك» بكسر اللام فقال لتحصيل التناسُب بينهما في تفسير ذلك: أي: ما هذا بعبدٍ مشترًى لئيم[8]. وعلى التقديرَيْن لا يقال: إنَّ هذه القراءةَ مخالِفةٌ لمقتضى المقام، نعم إنَّها مخالفةٌ لرسمِ المصحف؛ لأنَّه لم يكتبْ ذلك بالياء فيه.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾ الفاءُ فصيحة، والخطابُ للنسوة، والإشارة ـ حسبما يقتضيه الظاهر ـ إلى يوسفَ عليه السلام بالعنوان الذي وَصَفْنَه به الآن، من الخروج في الحُسْن والكمال عن المراتب البشريَّة والاقتصارِ على المَلَكيَّة. أو بعنوانِ ما ذكر مع الإكبار[9]

---

(١) البحر ٥/ ٣٠٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠.
(٣) المحتسب ١/ ٣٤٢، والبحر ٥/ ٣٠٤.
(٤) جاء في حاشية (م): وجوِّز إبقاؤه على المصدرية، أي: لم يحصل هذا بِشِرى. اهـ منه.
(٥) في الأصل: مما.
(٦) البحر ٥/ ٣٠٤.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠.
(٨) جاء في هامش الأصل و(م): والأولى أن يقال: أي: ما هذا عبد لئيم يملك، بل سيد كريم مالك، فتدبر. اهـ منه. وقوله: ما هذا بعبد مشترى لئيم، هو قول الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣١٧، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٧٥.
(٩) في (م): الإخبار، وهو تصحيف.

وتقطيعِ الأيدي بسببه أيضاً، فاسم الإشارة مبتدأ والموصولُ خبرُه، والمعنى: إنْ كان الأمرُ كما قلتنَّ فذلكنَّ الملَكُ الكريم الخارجُ في الحُسْن عن المراتب البشريَّة، أو الذي قطعتنَّ أيديكنَّ بسببه وأَكْبَرْتُنَّه ووصفتُنَّه بما وصفتنَّه هو ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: عيَّرتُنَّني في الافتتان فيه.

أو بالعنوانِ الذي وَصَفْنَه به فيما سبق بقولهنَّ: امرأةُ العزيز عشقتْ عبدَها الكنعاني، فاسمُ الإشارة خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ دخلتِ الفاءُ عليه بعد حذْفِه، والموصولُ صفةُ اسمِ الإشارة، أي: فهو ذلكنَّ العبدُ الكنعانيُّ الذي صورتنَّ في أنفسكنَّ وقلتنَّ فيه وفيَّ ما قلتنَّ، فالآن قد علمتُنَّ مَن هو وما قولكنَّ فينا.

وقيل: أرادت: هذا ذلك العبد الكنعانيُّ الذي صورتُنَّ في أنفسكنَّ ثمَّ لمتنَّني فيه، على معنى أنكنَّ لم تصوِّرنه بحقِّ صورته، ولو صوَّرتنَّه بما عاينتُنَّ لعذرتُنَّني في الافتتان به[1].

والإشارةُ بما يُشار به إلى البعيد مع قُرْب المشارِ إليه وحضورِه قيل: رفعاً لمنزلته في الحُسْن واستبعاداً لمحلِّه فيه، وإشارةً إلى أنَّه لغرابته بعيدٌ أنْ يوجَدَ مثله. وقيل: إنَّ يوسف عليه السلام كان في وقتِ اللَّوم غيرَ حاضر وهو عندَ هذا الكلام كان حاضراً، فإنْ جُعلت الإشارةُ إليه باعتبار الزمان الأوَّل كانتْ على أصلها، وإن لوحظ الثاني كان قريباً، وكانت الإشارة بما ذُكر لتنزيلِه ـ لعلوِّ منزلته ـ منزلةَ البعيد.

واحتمالُ أنه عليه السلام أُبْعِدَ عنهنَّ وقت هذا الكلام لئلَّا يزددْنَ دهشةً وفتنة، ولذا أُشير إليه بـ «ذلك» بعيدٌ.

وجوَّز ابنُ عطية كونَ الإشارة إلى حبِّ يوسفَ عليه السلام، وضميرُ «فيه» عائدٌ إليه، وجعلَ الإشارة على هذا إلى غائبٍ على بابها[2]. ويبعدُه على ما فيه: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهو إباحةٌ منها ببقيةِ سرِّها بعد أنْ أقامتْ عليهنَّ الحجَّة،

---

(١) في هامش الأصل و(م): تعقبه المولى أبو السعود بأنه لا يناسب المقام، وبيَّن ذلك بما فيه تأمل. اهـ. وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤١.

وأوضحت لديهنَّ عُذرَها، وقد أصابهنَّ من قِبَله ما أصابَها[١]، أي: والله لقد راودتُه حسبما قلتنَّ وسمعتنَّ.

﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ قال ابن عطية: أي طلبَ العصمةَ وتمسَّك بها وعصاني[٢]. وفي «الكشاف»: أنَّ الاستعصامَ بناءُ مبالغةٍ يدلُّ على الامتناع البليغ والتحفُّظ الشديد، كأنَّه في عصمةٍ وهو مجتهدٌ في الاستزادة منها، ونحوُه: استمسَكَ، واستَوْسَعَ الفتقُ، واستَجْمَعَ الرأي، واستَفْحَلَ الخَطْبُ[٣]. اهـ. وفي «البحر»: والذي ذكره الصَّرفيُّون في «استعصم» أنه موافقٌ لاعتصم، وأمَّا استمْسَك واستوسَع واستجْمَع، فاستفعل فيه أيضاً موافَقةٌ لافتعل، والمعنى: امْتسك واتَّسع واجتمع، وأمَّا استفحل، فاستفعل فيه موافقةٌ لتفعَّل، أي: تفحَّل، نحو استكبر وتكبَّر[٤]. فالمعنى: فامتنع عمَّا أرادتْ منه، وبالامتناع فسِّرت العصمة على إرادةِ الطلب؛ لأنه هو معناها لغةً، قيل: وعنتْ بذلك فرارَه عليه السلام منها، فإنه امتنع منها أوَّلاً بالمقال، ثمَّ لمَّا لم يُفِدْه طلب ما يمنعُه منها بالفَرار، وليس المراد بالعصمة ما أودَعه الله تعالى في بعضِ أنبيائه عليهم السَّلام ممَّا يمنعُ عن الميل للمعاصي، فإنه معنًى عُرفيٌّ لم يكنْ قبلُ، بل لو كان لم يكن مراداً كما لا يخفى.

وتأكيدُ الجملة بالقسم ـ مع أنَّ مضمونها من مراودتِها له عن نفسه مما تحدَّث به النسوة ـ لإظهار ابتهاجها بذلك.

وقيل: إنه باعتبار المعطوف وهو الاستعصام، كأنَّها نَظمته لقوَّةِ الداعي إلى خلافه من كونه عليه السلام في عنفوانِ الشباب ومزيد اختلاطه معها ومراودتها إيَّاه مع ارتفاع الموانع فيما تظنُّ في سلك ما ينكر ويكذِّب المخبِر به، فأكَّدته لذلك. وهو كما ترى.

وفي الآية دليلٌ على أنه عليه السلام لم يصدرْ منه ما سوَّد به القُصَّاص وجوهَ

---

(١) في حاشية (م): وكأنها عملت بما قيل:

لا تُخفِ ما صنعت بك الأشواق ... واشرح هواك فكلنا عشاق

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤١.

(٣) الكشاف ٢/ ٣١٨.

(٤) البحر ٥/ ٣٠٦.

الطُّروس[1]، وليت السُّدِّيَّ لو كان قد سدَّ فاه عن قوله: فاستعصم بعد حلِّ سراويله.

ثمَّ إنها بعد أن اعترفتْ لهنَّ بما سمعْنَه وتحدَّثْنَ[2] به، وأظهرتْ من إعراضِه عنها واستعصامِه ما أظهرتْ، ذكرت أنها مستمرَّة على ما كانت عليه، لا يَلْويها عنه[3] لومٌ ولا إعراض، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: الذي آمرُ به فيما سيأتي كما لم يفعل فيما مضى، فـ «ما» موصولة، والجملةُ بعدَها صلةٌ، والعائدُ الهاء، وقد حذف حرفُ الجرِّ منه فاتصل بالفعل، وهذا أمر شائع مع «أمر»، كقوله:

أمرتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرْتَ به[4]

ومفعول «أمر» الأوَّلُ إمَّا متروكٌ لأنَّ مقصودَها لزومُ امتثال ما أمرتْ به مطلقاً كما قيل، وإمَّا محذوفٌ لدلالة «يفعل» عليه وهو ضميرٌ يعودُ على يوسف، أي: ما آمره به. وجوِّز أن يكون الضميرُ الموجود هو العائدَ على يوسف، والعائدُ على الموصول محذوفٌ، أي: به، ويعتبر الحذفُ تدريجيًّا لاشتراطهم في حذف العائد المجرور بالحرف كونَه مجروراً بِمثْلِ ما جُرَّ به الموصول لفظاً ومعنًى ومتعلَّقاً، وإذا اعتبر التدريج في الحذف يكون المحذوف منصوباً، وكذا يقال في أمثال ذلك.

وقال ابن المنيِّر في «تفسيره»[5]: إنَّ هذا الجارَّ مما أُنس حذفُه، فلا يقدَّر العائد إلا منصوباً مفصولاً، كأنه قيل: آمر يوسف إيَّاه، لتعذُّر اتصال ضميرين من جنسٍ واحد.

ويجوز أن تكون «ما» مصدريَّةً، فالضمير المذكورُ ليوسف، أي: لئن لم يفعل أمري إيَّاه، ومعنى فِعْلِ الأمر فِعْلُ موجبه ومقتضاه، فهو إمَّا على الإسناد المجازيِّ،

---

(١) جمع الطِّرس، وهي الصحيفة. اللسان (طرس).
(٢) في (م): وتحدثهن، وهو تصحيف.
(٣) في (م): عنها.
(٤) وعجزه: فقد تركتك ذا مال وذا نَشَب، وسلف ٧/ ٤٩٩.
(٥) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٧٥، واسم هذا التفسير كما في الديباج المذهب ١/ ٢٤٥: البحر الكبير في نخب التفسير.

أو تقدير المضاف، وعبَّرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه واقتضاءً للامتثال لأمرِها.

﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنُّون الثقيلة، آثرت بناءَ الفعل للمفعول جرياً على رسم الملوك. وجوِّز أن يكون إيهاماً لسرعةِ ترتُّب ذلك على عدم امتثاله لأمرِها كأنه لا يدخلُ بينهما فعلُ فاعلٍ.

﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالمخفَّفة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ أي: الأذلَّاء المهانين، وهو من صَغِر كفَرِحَ، ومصدرُه: صَغَرٌ بفتحتين، وصُغْرٌ بضمٍّ فسكون، وصَغَارٌ بالفتح، وهذا في القَدْر، وأمَّا في الجثَّة والجِرْم فالفِعْل صغُر ككَرُمَ، ومصدرُه صِغَرٌ كعِنَب، وجعل بعضُهم الصَّغار مصدراً لهذا أيضاً، وكذا الصَّغَر بالتحريك، والمشهورُ الأوَّل.

وأكَّدت السَّجْنَ بالنون الثقيلة؛ قيل: لتحقُّقه، وما بعدَه بالنُّون الخفيفة لأنَّه غيرُ متحقِّق، وقيل: لأنَّ ذلك الكون من توابع السِّجن ولوازمه، فاكتفت في تأكيده بالنُّون الخفيفة بعد أن أكَّدت الأوَّلَ بالثقيلة.

وقرأت فرقةٌ بالتثقيل فيهما[1]، وهو مخالفٌ لرسم المصحف؛ لأنَّ النونَ رُسمت فيه بالألف كـ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ [العلق: ١٥] على حكم الوَقْف، وهي يُوقف عليها بالألف كما في قول الأعشى:

ولا تـعـبـدِ الـشـيـطـانَ واللهَ فـاعـبـدا[2]

وذلك في الحقيقة لشبهها بالتنوين لفظاً؛ لكونها نوناً ساكنة مفردةً تلحقُ الآخِر.

واللامُ الدَّاخلة على حرف الشرط موطِّئةٌ للقسم، وجوابُه سادٌّ مسدَّ الجوابين. ولا يخفى شدَّةُ ما توعَّدتْ به، كيف وإنَّ للذلِّ تأثيراً عظيماً في نفوس الأحرار، وقد يقدِّمون الموتَ عليه وعلى ما يجرُّ إليه.

قيل: ولم تذكر العذابَ الأليم الذي ذكرتْه في (مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا) إلخ لأنَّها إذ ذاك كانت في طراوةِ غَيظِها ومتنصِّلةً من أنَّها هي التي

---

(١) الكشاف ٢/٣١٨، والبحر ٥/٣٠٦.

(٢) وصدره: وذا النُّصُب المنصوب لا تَنْسُكنَّه، وهو في ديوان الأعشى ص١٨٧.

راودته، فناسَبَ هناك التغليظَ بالعقوبة، وأما هنا فإنها في طماعيةٍ ورجاء، وأقامت[1] عُذرها عند النسوة، فرقَّتْ عليه فتوعَّدته بالسَّجن وما هو من فروعِه ومستتبعاته.

وقيل: إنَّ قولها: «ليكوناً من الصاغرين» إنَّما أتت به بدلَ قولها هناك: «عذاب أليم» وأرادت[2] ذلَّه بالقيد، أو بالضرب، أو بغير ذلك. لكن يحتمل أنَّها أرادت بالذُّلِّ والعذاب الأليم ما يكونُ بالضرب بالسِّياط فقط، أو ما يكون به أو بغيره، أو أرادت بالذلِّ ما يكون بالضرب، وبالعذاب الأليم ما يكون به أو بغيره، أو بالعكس.

وكيفما كان الأمر فما طلبتْه هنا أعظمُ مما لوَّحت بطلبه هناك؛ لمكان الواو هنا و«أو» هناك، ولعلَّها إنما بالغتْ في ذلك بمحضرٍ من تلك النِّسوة لمزيد غيظِها بظهورِ كذبها وصدقِه، وإصرارِه على عدم بلِّ غليلِها، ولتُعلمَ يوسفَ عليه السَّلام أنها ليست في أمرها على خِيْفَةٍ ولا خفيةٍ من أحدٍ، فتَضِيقُ عليه الحيل وتَعْيَى به العِلل، وينصحنَ له ويرشدْنَه إلى موافقتها، فتدبَّر.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ سائلاً يقول: فماذا صنع يوسفُ عليه السلام حينئذٍ؟ فقيل: قال مناجياً لربِّه عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ الذي وَعَدْتني بالإلقاء فيه، وهو اسم للمَحْبس[3].

وقرأ عثمان ومولاه طارق، وزيدُ بن علي، والزهريُّ، وابنُ أبي إسحاق، وابنُ هرمز، ويعقوبُ: «السَّجْن» بفتح السِّين[4] على أنَّه مصدر سَجَنه، أي: حَبَسه، وهو في القراءتين مبتدأ خبرُه ما بعده.

وقرئ: «ربُّ» بالضمِّ، و«السِّجنِ» بكسر السين والجرِّ على الإضافة، ف «ربُّ»

---

(١) في الأصل و(م): وإقامة، والمثبت من البحر ٥/ ٣٠٦، والكلام منه. وطارق مولى عثمان رضي الله عنه هو ابن عمرو المكي مولاهم القاضي، سمع من جابر بن عبد الله، ولاه عبد الملك على المدينة ثم عزله وولّى الحجاج. التهذيب ٢/ ٢٣٣.
(٢) قوله: وأرادت، ساقط من (م).
(٣) في الأصل: للحبس.
(٤) النشر ٢/ ٢٩٥ عن يعقوب، والكلام من البحر ٥/ ٣٠٦.

حينئذٍ مبتدأ والخبرُ هو الخبر، والمعنى على ما قيل: لقاءُ صاحب السِّجن، أو: مقاساةُ أمرِه[1].

﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي: آثَرُ عندي؛ لأنَّ فيه مشقَّةً قليلةً نافذةً، إثْرَها راحاتٌ كثيرةٌ أبديَّةٌ ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ من مواتاتها التي تؤدِّي إلى الشَّقاوة والعذاب الأليم، وصيغةُ التفضيل ليست على بابها؛ إذ ليس له عليه السلام شائبةُ محبَّةٍ لِمَا يَدْعونه إليه، وإنَّما هو والسِّجن شرَّان أهونُهما وأقربهما إلى الإيثار السجن.

والتعبيرُ عن الإيثار بالمحبَّة لحسمِ مادَّة طمعها عن المساعدةِ لها على مطلوبها خوفاً من الحبس. والاقتصارُ على السّجن لكون الصَّغار من مستتبعاته على ما قيل.

وقيل: اكتفى عليه السَّلام بذكرِ السّجن عن ذكره لوفائِه بالغرض، وهو قطعُ طَمَعِها عن المساعدة خوفاً مما توعَّدته به؛ لأنَّها تظنُّ أنَّ السجنَ أشدُّ عليه من الصَّغار، بناءً على زعمِها أنه فتاها حقيقةً، وأنَّ الفتيان لا يشقُّ عليهم ذلك مشقَّةَ السجن، ومتى كان الأشدُّ أحبَّ إليه مما يدعونه إليه كان غيرُ الأشدِّ أحبَّ إليه من باب أولى، وفيه منعٌ ظاهر.

وإسنادُ الدعوة إليهنَّ لأنهنَّ خوَّفْنه عن مخالفتها، وزيَّنَّ له مطاوعتَها، فقد روي أنهنَّ قلنَ له: أطعْ مولاتَك واقضِ حاجاتها لتأمنَ من عقوبتها، فإنَّها المظلومةُ وأنتَ الظالم.

وروي أنَّ كلًّا منهنَّ طلبت الخلوةَ لنصيحته، فلما خلتْ به دعته إلى نفسها. وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنَّ كلَّ واحدة منهنَّ أرسلت إليه سرًّا تسألُه الزيارةَ. فإسنادُ ذلك إليهنَّ لأنهنَّ أيضاً دعونه إلى أنفسهنَّ صريحاً أو إشارةً.

وفي أثرٍ ذكره القرطبيُّ أنه عليه السلام لما قال: «ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ» إلخ أوحى الله تعالى إليه: يا يوسف أنتَ جنيتَ على نفسك، ولو قلت: العافيةُ أحبُّ إليَّ، عُوفيتَ[2]. ولذلك ردَّ رسول الله ﷺ على مَن كان يسأل الصَّبر، فقد رَوَى

(١) الإملاء ٣/ ٣٣٥، والدر المصون ٦/ ٤٩٣.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٣٣٩، وذكره أيضاً ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٧٩.

الترمذيُّ عن معاذ بن جبل عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: أنه سمع رجلاً وهو يقول: اللهمَّ إني أسألك الصَّبر. فقال ﷺ: «سألتَ الله تعالى البلاءَ فاسأله العافيةَ»[١].

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي: وإنْ لم تدفع ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليَّ وتحسينِه لديَّ، بأنْ تثبِّتني على ما أنا عليه من العِصمة والعِفَّة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمِلْ على قضيَّة الطبيعة وحُكم القوَّة الشهويَّة إلى إجابتهنَّ بمواتاتها. أو: إلى أنفسهنَّ، وهو كنايةٌ عن مواتاتهنَّ.

وهذا فزعٌ منه عليه السَّلام إلى ألطاف الله تعالى جرياً على سَنَنِ الأنبياء عليهم السلام والصَّالحين في قَصْرِ نيلِ الخيرات والنَّجاةِ عن الشُّرور على جناب الله تعالى، وسلبِ القوى والقُدَرِ عن أنفسهم، ومبالغةٌ في استدعاء لطفِه سبحانه في صرفِ كيدهنَّ بإظهار أنَّه لا طاقةَ له بالمدافعة، كقول المستغيث: أدركني وإلا هلَكْتُ، لا أنَّه عليه السلام يطلبُ الإجبار والإلجاء إلى العصمةِ والعفَّة وفي نفسه داعيةٌ تدعوه إلى السُّوء، كذا قرَّرة المولى أبو السُّعود[٢]. وهو معنًى لطيفٌ، وقد أخذه من كلام الزمخشريِّ[٣].

لكنْ قال القطب وغيرُه: إنَّه فرارٌ إلى الاعتزال، وإشارةٌ إلى جواب استدلالِ الأشاعرة بهذه الآية على أنَّ العبدَ لا ينصرفُ عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى، وقد قرَّر ذلك الإمام[٤] بما قرَّره، فليُراجَعْ وليُتأمَّل.

وأصل «إلَّا»: «إنْ لا» فهي مركَّبةٌ من «إنْ» الشرطية و«لا» النافية كما أشرنا إليه، وقد أدغمت فيه النُّون باللام. و«أَصْبُ» من صَبَا يَصْبو صَبْواً وصَبْوةً: إذا مال إلى الهوى، ومنه الصَّبا للريح المخصوصة؛ لأنَّ النفوس تميلُ إليها لطيب نسيمِها ورَوْحها. مضارعٌ مجزوم على أنَّه جواب الشرط. والجملةُ الشرطية عطفٌ على قوله: «السجن أحبُّ»، وجيء بالأولى اسميَّةً دون الثانية لأنَّ أَحَبِّيَّته السجنَ مما يدعونه إليه كانت ثابتةً مستمرَّةً، ولا كذلك الصَّرفُ المطلوب.

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٢٧)، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) في تفسيره ٤/ ٢٧٤.

(٣) في الكشاف ٢/ ٣١٩.

(٤) في تفسيره ١٨/ ١٣١-١٣٢.

وقرئ: «أَصَبُّ[1]» من صَبِبْتُ صبابةً: إذا عشقْت، وفي «البحر»: الصبابةُ إفراطُ الشَّوق، كأنَّ صاحبها ينصبُّ فيما يهوى[2]. والفعل مضمَّنٌ معنى الميلِ أيضاً ولذا عدِّي بإلى، أي: أصبُّ مائلاً إليهنَّ.

﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنَّ مَن لا جدْوى لعِلْمه فهو ومَنْ لايعلم سواءٌ، أو من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه من القبائح؛ لأنَّ الحكيمَ لا يفعلِ القبيح، فالجهلُ بمعنى السفاهة ضدّ الحكمة لا بمعنى عدمِ العلم، ومن ذلك قولُه:

أَلَا لا يَجْهلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا[3]

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أجاب له على أبلغِ وجهِ دعاءَه الذي تضمَّنه قولُه: «وإلَّا تصرف عنِّي كيدهنَّ» إلخ، فإنه في قوَّة قوله: اصرفْه عني، بل أقوى منه في استدعاء الصَّرف على ما علمتَ، وفي إسناد الاستجابة إلى الربِّ مضافاً إلى ضميره عليه السَّلام ما لا يخفى من إظهارِ اللُّطف، وزاد حُسنَ موقعِ ذلك افتتاحُ كلامه عليه السلام بندائِه تعالى بعنوان الرُّبوبيَّة.

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ حسبَ دعائِه بأنْ ثبَّته على العِصْمة والعِفَّة، وحالَ بينه وبين المعصية.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء المتضرِّعين إليه ﴿الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بأحوالهم وما انطوتْ عليه نيَّاتهم وبما يصلحُهم، لا غيرُه سبحانه.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأصحابه المتصدِّين للحلِّ والعقد ريثما[4] اكتفَوا بأمر يوسفَ عليه السَّلام بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ الصَّارفة لهم عن ذلك البداء، وهي الشواهدُ الدَّالَّة على براءته عليه السلام وطهارتِه؛ من قدِّ القميص وقطعِ النِّساء أيديهنَّ. وعليهما اقتصر قتادةُ فيما أخرجه

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٤، والبحر ٥/ ٣٠٧.

(٢) البحر ٥/ ٣٠٧.

(٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وهو في ديوانه ص١١٧، وسلف ٥/ ٣٧٩.

(٤) في (م): ربما، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٤، والكلام منه.

عنه ابنُ جرير(١)، وفيه إطلاقُ الجمع على اثنين، والأمرُ فيه هيِّن.

وعن مجاهدٍ الاقتصارُ على القدِّ فقط؛ لأنَّ القطعَ ليس من الشواهد الدَّالَّة على البراءة في شيءٍ(٢)، ويحملُ الجمعُ حينئذٍ على التعظيم، أو «أل» على الجنسيَّة وهي تبطلُ معنى الجمعيَّة، كذا قيل، وهو كما ترى.

ووجَّه بعضهم عدَّ القطع من الشواهد بأنَّ حُسْنَه عليه الصلاة والسلام الفاتنَ للنساء في مجلسٍ واحد، وفي أوَّل نظرةٍ، يدلُّ على فتنتِها بالطريق الأولى، وأنَّ الطلبَ منها لا منه.

وعدَّ بعضُهم استعصامَه عليه السلام عن النِّسوة إذ دعونه إلى أنفسهنَّ؛ فإنَّ العزيز وأصحابَه قد سمعوه وتيقَّنوه(٣) حتى صار كالمشاهَد لهم، ودلالةُ ذلك على البراءة ظاهرة. وأخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمةَ قال: سألت ابنَ عباس رضي الله عنهما: عن الآيات، فقال: ما سألني عنها أحدٌ قبلَك، من الآيات: قدُّ القميص، وأثرُها في جسده، وأثرُ السِّكين(٤). فعَدَّ رضي الله عنه الأثرَ من الآيات ولم يذكرْ فيما سبق. ومن هنا قيل: يجوز أن يكونَ هناك آياتٌ غير ما ذُكر تُرك ذكرُها كما تُرك ذكرُ كثير من معجزات الأنبياء عليهم السَّلام.

وفاعلُ «بدا» ضميرٌ يعود إمَّا للبداء مصدر الفعل المذكور، أو بمعنى الرأي كما في قوله:

لعلَّك والموعودُ حقٌّ لقاؤُه ... بدا لك في تلك القَلوص بَداءُ(٥)

وإمَّا للسَّجن بالفتح المفهوم من قوله سبحانه: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾.

---

(١) في تفسيره ١٣/ ١٤٨.

(٢) بعدها في (م): حينئذ للتعظيم.

(٣) في (م): وتيقنوا به.

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٩ دون قوله: وأثرها في جسده.

(٥) البيت لمحمد بن بشير الخارجي كما في الأغاني ١٦/ ١٢٣، ونسبه صاحب اللسان (بدا) للشماخ، وهو في ملحقات ديوانه ص٤٢٧، وذكره ابن الشجري في الأمالي ٢/ ٣٧، وأبو حيان في البحر ٥/ ٣٠٧ دون نسبة. قوله: والموعود، أي: والأمر الموعود، أو يكون الموعود مثل الوعد.

وجملةُ القسم وجوابُه إمَّا مفعولٌ لقولٍ مضمرٍ وقع حالاً من ضمير «هم»، وإلى ذلك ذهب المبرِّد، وإما مفسِّرةٌ للضميرِ المستتر في «بدا» فلا موضعَ لها.

وقيل: إنَّ جملةَ «ليسجننه» جوابٌ لـ «بدا» لأنَّه من أفعال القلوب، والعربُ تُجريها مجرى القَسَم وتتلقَّاها بما يتلقَّى به.

وزعم بعضُهم أنَّ مضمون الجملة هو فاعل «بدا»، كما قالوا في قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [طه: ١٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]: إنَّ الفاعلَ مضمون الجملة، أي: كثرةُ إهلاكنا، وكيفيَّةُ فِعْلِنا.

وظاهرُ كلام ابن مالك في «شرح التسهيل» أنَّ الفاعلَ في ذلك الجملةُ لتأويلها بالمفرد، حيث قال: وجاز الإسناد في هذا الباب باعتبار التأويل كما جاز في باب المبتدأ، نحو: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] وجمهورُ النُّحاة لا يجوِّزون ذلك كما حُقِّق في موضعه.

واختار المازنيُّ في الفاعل الوجهَ الأول، قيل: وحَسُنَ: بدا لهم بداء، وإن لم يحسنْ: ظهر لهم ظهورٌ؛ لأنَّ البداء قد استُعمل في غير المصدريَّة كما علمت.

واختار أبو حيَّان(١) الوجهَ الأخيرَ وكونَه ضميرَ السَّجن السابق على قراءةِ مَن فتح السين، والأولى كونُه ضميرَ السَّجن المفهوم من الجملةِ، أي: بدا لهم سَجْنُه المحتومُ قائلين: والله ليسجننه.

وكان ذلك البداءُ باستنزالِ المرأة لزوجِها، ومطاوعتِه لها، وحبِّه إيَّاها، وجعلِه زمامَ أمرِه بيدها؛ روي أنه عليه السلام لمَّا استعصَم عنها ويئستْ منه، قالت للعزيز: إنَّ هذا الغلامَ العبرانيَّ قد فضحني في الناس، يخبرهم بأنِّي راودتُه عن نفسه فأبى، ويصفُ الأمرَ حسبما يختار، وأنا محبوسةٌ محجوبةٌ، فإمَّا أن تأذنَ لي فأخرجَ فأعتذر إلى الناس وأكذِّبه، وإمَّا أن تحبسَه كما أني محبوسة. فحُبِس.

---

(١) في البحر ٥/٣٠٧.

قال ابن عباس: إنَّه أُمر به عليه السلام فحُمِل على حمارٍ وضُرب معه الطبلُ، ونودي عليه في أسواق مصرَ أنَّ يوسفَ العبرانيَّ راود سيِّدتَه، فهذا جزاؤه. وكان ابنُ عباس ﷺ ـ كما قال أبو صالح ـ كلَّما ذكر هذا بكى.

وأرادتْ بذلك تحقيقَ وعيدِها، لتلين به عريكتُه، وتنقادَ لها قَرونتُه[1]، لمَّا انصرمتْ حبالُ رجائها عن استتباعه بعرضِ الجمال بنفسِها وبأعوانها.

وقرأ الحسنُ: «لَتَسْجُنُنَّه» على صيغة الخطاب[2]، بأنْ خاطبَ بعضُهم العزيزَ ومَن يليه، أو العزيزَ وحدَه على وجه التعظيم، أو خاطبَ به العزيزَ ومَن عندَه مِن أصحاب الرأي المباشرين للسّجن والحبس.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ قال ابن عباس: إلى انقطاع المقالِ وما شاع في المدينة من الفاحشة، وهذا بادي الرأي عند العزيز، وأما عندَها فحتى يذلِّلَه السّجنُ ويسخِّره لها، ويحسب الناسُ أنَّه المجرم.

وقيل: الحين هاهنا خمسُ سنين. وقيل: بل سبع. وقال مقاتل: إنَّه عليه السلام حُبس اثنتي عشرةَ سنة.

والأَولى أن لا يُجزمَ بمقدار، وإنما يجزم بالمدَّة الطويلة، والحين عند الأكثرين وقتٌ من الزمان غيرُ محدودٍ يقعُ على القصير منه والطويل، وقد استعمل في غير ذلك كما ذكرناه في «شرح القادرية»[3]. وقرأ ابن مسعود: «عتى» بإبدال حاء «حتى» عيناً، وهي لغة هُذيل، وقد أقرأ ﷺ بذلك إلى أن كتبَ إليه عمرُ ﷺ أن يُقرئ بلغةِ قريش «حتى» بالحاء[4].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ غلامان كانا للملك الأكبر الريَّان بن الوليد؛

---

(١) أي: نَفْسُه. اللسان (قرن).

(٢) القراءات الشاذة ص٦٣، والبحر ٥/ ٣٠٧.

(٣) هو: الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب، والقصيدة لعبد الباقي العمري في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد أشرنا إلى هذا الكتاب ضمن كتب المصنف في المقدمة.

(٤) المحتسب ١/ ٣٤٣، والبحر ٥/ ٣٠٧، وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٣.

أحدُهما خبَّازُه وصاحبُ طعامه، والآخرُ ساقيه وصاحبُ شرابه، وكان قد غضب عليهما الملكُ بسبب أنَّ جماعةً من أشراف مصرَ أرادوا المكرَ بالملك واغتيالَه، فضمنوا لهما مالاً على أن يَسُمَّاه في طعامه وشرابه، فأجابا إلى ذلك، ثم إنَّ الساقيَ ندم فرجع عن ذلك، وقبل الخبَّازُ الرشوة وسمَّ الطعام، فلما حضر بين يدي الملك قال الساقي: لا تأكل أيها الملكُ فإنَّ الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشربْ فإنَّ الشراب مسموم، فقال للساقي: اشربه فشربه فلم يضرَّه، وقال للخباز: كُلْ من طعامك فأبى، فأطعم من ذلك لدابَّة فهلكت، فأمر الملكُ بحبسهما، فاتَّفق أن أُدخلا معه السِّجن.

ولعلَّه إنما عبَّر بـ «دخل» الظاهرِ في كون الدُّخول بالاختيار مع أنَّه لم يكن كذلك، للإشارة - على ما قيل - إلى أنَّهما لمَّا رأيا يوسف هان عليهما أمرُ السِّجن[1]؛ لِمَا وقع في قلوبهما من محبَّتِه، و:

هوى كلِّ نفسٍ حيث حلَّ حبيبُها[2]

فقد أخرج غيرُ واحد عن ابنِ إسحاق أنَّهما لمَّا رأياه قالا له: يا فتى، لقد والله أحببناكَ حين رأيناك. فقال لهما عليه السَّلام: أنشدكما اللهَ تعالى أنْ لا تحبَّاني، فوالله ما أحبَّني أحدٌ قطُّ إلا دخل عَليَّ من حبِّه بلاء، لقد أحبتني عمَّتي فدخل عليَّ من حبِّها بلاء، ثمَّ أحبَّني أبي فدخل عليَّ من حبِّه بلاء، ثم أحبَّتني زوجةُ صاحبي هذا فدخل عليَّ بحبِّها إياي بلاء، فلا تحبَّاني بارك الله تعالى فيكما. فأبيا إلا حبَّه وإلفَه حيث كان[3].

وقيل: عبّر بذلك لِمَا أنَّ ذكر «معه» يفيد اتِّصافه عليه السلام بما يُنسب إليهما، والمناسبُ في حقِّه نسبةُ الدخول، لمكان قوله عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ لا الإدخالِ المفيدِ لسلب الاختيار، ولو عبَّر بـ «أدخل» لأفادَ ذلك

(١) في الأصل: كان عليهما أمر السجن سهلاً.

(٢) وصدره: هوًى تذرفُ العينان منه وإنما، والبيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٦٩٥.

(٣) في الأصل و(م): إلا حبه والله حيث كان، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ١٥٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٢، والخبر فيهما من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد.

نسبةَ الإدخال إليه، فلم يكن بدٌّ من التعبير بالدُّخول ترجيحاً لجانبه عليه السلام.

والظاهر أنَّ «مع» تدلُّ على الصُّحبة والمقارَنةِ لفاعل الفعل في ابتداء تلبُّسه بالفعل، فتفيد أنَّ دخولَهما مصاحبَيْن له، وأنَّهم سجنوا الثلاثة في ساعةٍ واحدة.

وتُعقِّب بأنَّ هذا منتقضٌ بقوله سبحانه: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَنَ﴾ [النمل: ٤٤] حكايةً عن بلقيس، إذ ليس إسلامها مقارناً لابتداء إسلامِ سليمان عليه السلام.

وأُجيب بأنَّ الحملَ على المجاز هنالك للصارف، ولا صارفَ فيما نحن فيه، فيُحمل على الحقيقة. ويشهد لذلك ما ذكره الزمخشريُّ في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠٢] من أنَّه بيانٌ متعلِّقٌ بمحذوفٍ لتعذُّر التعلُّق بـ «بلغ» أو «السعي» معنًى أو لفظاً[١].

وقال صاحبُ «الكشف»: إنه لا يتعيَّن المحكيُّ عنها لمعيَّة الفاعل، فجاز أن يُراد: أسلمتُ لله ولرسوله مثلاً، وتقديمُ «مع» للإشعار بأنها كانت تظنُّ أنَّها على دينٍ قبلُ، وأنَّها كانت مسلمةً فيما كانت تعبدُ من الشمس، فدلَّ على أنه إسلام يعتدُّ به من أثر متابعةِ نبيِّه، لا إسلامٌ كالأوَّل فاسدٌ، وهذا معنًى صحيحٌ، حَمْلُ الآية عليه أَوْلى، وإنْ حُمِلَ على معيَّة الفاعل لم يكن بدٌّ من محذوفٍ، نحو: مع بلوغِ دعوته وإظهارِ معجزته؛ لأنَّ فرقَ ما بين المعيَّة ومطلَقِ الجمع معلومٌ بالضرورة. اهـ.

وفرَّق بعضُهم بين الفعل الممتدِّ كالإسلام، وغيرِه كالدُّخول، بأنَّ الأوَّل لا يقتضي مقارنتهما في ابتدائه بخلافِ الثاني، وهو ـ على ما قيل ـ راجعٌ إلى الجمع وليس من المعيَّة في شيءٍ، على أنَّه حينئذٍ لا يحتاج إلى تأويلٍ في آية (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ) واختير أن المقارنة هي الأصلُ ولا يعدلُ عنها ما أمكنت. فتأمَّل.

وتأخيرُ الفاعل عن المفعول لِمَا مرَّ غيرَ مرَّةٍ من الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر؛ ليتمكَّن عند النفس حين وروده فضلَ تمكُّنٍ، ولعلَّ تقديم الظرف على «السِّجن» لأنَّ الاهتمام بأمر المعيَّة أشدُّ من الاهتمام بأمره؛ لِمَا أنَّها المنشأُ لِمَا كان.

---

(١) الكشاف ٣/٣٤٧، وفيه: لا يصح تعلق «معه» بـ «بلغ» لاقتضائه بلوغهما معاً حد السعي، ولا بـ «السعي» لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنه لما قال: فلما بلغ السعي، أي: الحد الذي يقدر فيه على السعي، قيل: مع مَن؟ فقال: مع أبيه.

وقيل: إنما قدِّم لأنَّ تأخيرَه يُوهم أن يكون خبراً مقدَّماً على المبتدأ، وتكون الجملة حالاً من فاعل «دخل».

وتُعقِّب بأنَّ حاصلَ التركيب الأوَّل مصاحبةُ الفتيَيْن له عند دخولهما، وحاصل الثاني مصاحبةُ الفَتَيَيْنِ له عند دخوله، ويؤولُ الأمران إلى دخولهما ودخولِه متصاحبين. فافهم.

والجملة على ما قيل: معطوفة على محذوفٍ ينساق إليه الذِّهن، كأنه قيل: فلما بدا لهم ذلك سجنوه ودخل معه... إلخ.

وقرئ: «السَّجن» بفتح السين على معنى موضع السجن[1].

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالِ مَن يقول: ما صنعا بعد ما دخلا؟ فأُجيب بأنَّه «قال» ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ وهو الشرابي واسمه نبو ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: رأيتُني في المنام، والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الصورة[2] الماضية ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنباً، روي أنه قال: رأيتُ حَبَلَةً[3] من كَرْم حسنة لها ثلاثةُ أغصان فيها عناقيدُ عنب، فكنتُ أعصرها وأسقي الملك.

وسمَّاه بما يَؤُولُ إليه لأنَّ الخمرَ ممَّا لا يُعصَر؛ إذ عَصْرُ الشيءِ إخراجُ ما فيه من المائع بقوَّة، وكونُ العنب يؤولُ إلى الخمر ظاهر[4]، وكون الذي يؤولُ إليه ماؤه لا جرمُه لا يضرُّ؛ لأنه المقصودُ منه فما عَدَاه غيرُ منظور إليه، فليس فيه تجوُّزان بالنَّظر إلى المتعارَفِ فيه.

وقيل: الخمر بلغةِ غسَّان اسمٌ للعنب. وقيل: في لغة أزد عمان[5].

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) في(م): الصور، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٥.

(٣) الحبلة: القضيب من الكرم. الصحاح (حبل).

(٤) قوله: ظاهر، ليس في (م).

(٥) في (م): أذرعان، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٣، والبحر ٥/ ٣٠٨. وجاء في هامش الأصل و(م): قال المعتمر: لقيت أعرابيًّا يحمل عنباً في وعاء، فقلت: ما تحمل؟ قال: خمراً. أراد العنب. اهـ منه.

وقرأ أبيٌّ وعبدُ الله: «أعصر عنباً»[١] قال في «البحر»: وينبغي أن يُحملَ ذلك على التفسير لمخالفتِه لسوادِ المصحف، والثابتُ عنهما بالتواتر قراءتُهما: «أعصر خمراً»[٢]. انتهى.

وقد أخرج القراءةَ كذلك عن الثاني البخاريُّ في «تاريخه» وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرقٍ. وذكروا أنَّه قال: والله لقد أخذتُها من رسولِ الله ﷺ هكذا[٣]، فافهم.

وقال ابنُ عطية: يجوز أن يكونَ وصف الخمر بأنَّها معصورةٌ؛ لأنَّ العصرَ من أجلها[٤]. فليس ذلك من مجازِ الأوْلِ، والمشهورُ أنه منه.

والخمر كما قال الفرَّاء: مؤنثة وربما ذكِّرت[٥]. وعن السجستاني أنه سمع التذكير ممَّن يُوثق به من الفصحاء[٦].

ورأى الحُلميَّة جرت مجرى أفعالِ القلوب في جواز كونِ فاعلها ومفعولها ضميرَيْن متَّحدي المعنى، ولا يجوز ذلك في غير ما ذكر، فلا يقال: أَضْرِبُني، ولا أُكْرِمُني، وحاصلُه: أرى نفسي أعصرُ خمراً.

﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ﴾ وهو الخبَّاز واسمه مجلث[٧] ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ وفي مصحف ابنِ مسعود: «ثريداً» ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وهذا كما قيل أيضاً: تفسيرٌ لا قراءة[٨].

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٣، والبحر ٥/ ٣٠٨.
(٢) البحر ٥/ ٣٠٨.
(٣) التاريخ الكبير ١/ ٢٧٤-٢٧٥، وتفسير الطبري ١٣/ ١٥٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٢، والكلام من الدر المنثور ٤/ ١٩.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٤.
(٥) المذكر والمؤنث للفراء ص١٨، وقوله: والخمر، ساقط من (م).
(٦) المذكر والمؤنث لأبي حاتم السجستاني ص١٦٥.
(٧) في هامش الأصل و(م): وقيل: اسم الفتيين راشان ومرطش، وقيل: سرهم وشرهم. اهـ منه. وينظر التعريف والإعلام للسهيلي ص٨١، وتفسير الطبري ١٣/ ١٥١-١٥٢، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٤٥-٣٤٦.
(٨) البحر ٥/ ٣٠٨.

روي أنه قال: رأيتُ أنّي أخرج من مطبخةِ الملك وعلى رأسي ثلاثُ سلالٍ فيها خبزٌ والطير تأكلُ من أعلاه.

والخبز معروف، وجمعُه أخباز، وهو مفعول «أحمل»، والظرفُ متعلّق بـ «أحمل»، وتأخيرُه عنه لِمَا مرَّ، وقيل: متعلّق بمحذوف وقع حالاً منه. وجملة «تأكل» إلخ صفةٌ له، أو استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال.

﴿نَبِّئْنَا﴾ أي: أَخبرنا ﴿بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ بتعبيرِه وما يؤولُ إليه أمرُه، والضمير للرؤيتَيْن بتأويل: ما ذُكر، أو: ما رُئِيَ، وقد أُجْرِي الضميرُ مجرى «ذلك» بطريقِ الاستعارة، فإنَّ اسمَ الإشارة يُشار به إلى متعدِّدٍ[1] كما مرَّت الإشارة إليه غيرَ مرة، هذا إذا قالاه معاً، أو قاله أحدُهما من جهتهما معاً، وأمَّا إذا قاله كلٌّ منهما إثرَ ما قصَّ ما رآه، فالمرجعُ غيرُ متعدِّد، ولا يمنع من هذا الاحتمال صيغةُ المتكلِّم مع الغير؛ لاحتمالِ أن تكون واقعةً في الحكاية دون المحكيِّ، على طريقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] فإنهم لم يخاطبوا دفعةً، بل خُوطب كلٌّ منهم في زمانه[2] بصيغةٍ مفردةٍ خاصَّة به.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾ تعليلٌ لعرضِ رؤياهما عليه واستفسارِهما منه عليه السَّلام، أي: إنَّا نعتقدُك ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ أي: من الذين يُحسنون تأويلَ الرُّؤيا، لمَّا رأياه يقصُّ عليه بعضُ أهل السجن رؤياه فيؤوِّلها لهم تأويلاً حسناً، وكان عليه السلام حين دخلَ السجن قد قال: إنِّي أُعَبِّرُ الرؤيا وأُجيدُ.

أو: من العلماء، كما في قول عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه: قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يحسنُه. وذلك لمَّا سمعاه يذكرُ للنَّاس ما يدلُّ على علمِه وفضْلِه؛ أخرج ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن قتادة قال: لمَّا انتهى يوسفُ إلى السِّجن، وجد فيه قوماً قد

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): والسر في المصير إلى هذا الإجراء بعد التأويل أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو، من غير تعرُّضٍ لحالٍ من أحواله، فلا ينبغي تأويله بأحد الاعتبارين إلا بإجرائه مجرى اسم الإشارة الذي يدل على المشار إليه بالاعتبار الذي جرى عليه الكلام فتأمل، قاله أبو السعود. اهـ منه. والكلام في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٥، وفيه: فلا يتسنى تأويله، بدل: فلا ينبغي تأويله.

(٢) في (م): زمان، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٦.

انقطع رجاؤُهم، واشتدَّ بلاؤهم، وطال حزنُهم، فجعل يقول: أبشروا واصبروا تُؤجروا إنَّ لهذا لأجراً. فقالوا: يا فتى، بارك الله تعالى فيكَ، ما أحسن وجهَك وأحسنَ خَلْقك وخُلُقَك! لقد بُورك لنا في جوارك، ما نحبُّ أنَّا كنَّا في غير هذا منذ حُبِسْنا[1] لِمَا تخبرنا من الأجر والكفَّارة والطَّهارة، فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسفُ بن صفيِّ الله تعالى يعقوبَ بنِ ذبيح الله تعالى إسحاق بنِ خليل الله تعالى إبراهيم. فقال له عاملُ السِّجن: يا فتى، لو استطعتُ خلَّيتُ سبيلكَ، ولكن سأُحْسِنُ جِوارَك، فكن في أيِّ بيوت السِّجن شئت[2].

أو: من المحسنين إلى أهل السِّجن، أي: فأَحْسِنْ إلينا بكشفِ غمَّتِنا إنْ كنت قادراً على ذلك. وإلى هذا ذهب الضَّحاك؛ أخرج سعيدُ بنُ منصور والبيهقيُّ وغيرهما عنه أنَّه سُئِل: ما كان إحسانُ يوسف؟ فقال: كان إذا مرضَ إنسانٌ في السِّجن قام عليه، وإذا ضاق عليه مكانٌ أَوْسَعَ له، وإذا احتاج جَمَعَ له[3].

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في الحبس حَسبَ عادتكما المطَّردة ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ استثناءٌ مفرَّغ من أعمِّ الأحوال، أي: لا يأتيكما طعام في حالٍ من الأحوال إلا حال ما نبَّأتكما به بأنْ بيَّنتُ لكما ماهيته وكيفيَّته وسائرَ أحواله ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ وحاصلُه: لا يأتيكما طعامٌ إلا أخبرتُكما قبل إتيانه إياكما بأنَّه يأتيكما طعامٌ من صفتِه كيت وكيت، وإطلاقُ التأويل على ذلك ـ مع أنَّ حقيقتَه في المشهور تفسير الألفاظ المراد منها خلافُ الظاهر ببيان المرادِ ـ بطريق الاستعارة، فإنَّ ذلك يشبه تفسيرَ المشكل، أو أنه بالنِّسبة إلى الطعام المبهم بمنزلةِ التأويل بالتأويل والنِّسبة إلى ما رُئيَ[4] في المنام وشبيه له. ويحسِّنُ هذه الاستعارةَ ما في ذلك من المشاكلة لِمَا وقع في عبارتِهما من قولهما: «نبِّئْنا بتأويله».

---

(١) في الأصل و(م): جئتنا، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ في تفسير ابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ١٣/١٥٧-١٥٨، وعزاه السيوطي في الدر ٤/١٩ للطبري وأبي الشيخ. والمشهور أن الذبيح على الصحيح هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام.
(٣) سنن سعيد بن منصور (١١٢٤ - تفسير)، وشعب الإيمان (٩٥٧٩).
(٤) جاءت هذه العبارة في تفسير أبي السعود بلفظ: ... بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رُئيَ...

وكونُ المراد بالتأويل الأمرَ الآيلَ لا المآل، بناءً على أنَّه في الأصل جَعْلُ شيءٍ آيلاً إلى شيءٍ آخر، وكما يجوز أن يُراد به الثاني يجوز أنْ يراد به الأوَّل، ويكون المعنى: إلَّا نبَّأتُكما بما يؤولُ إليه من الكلام والخبرِ المطابق للواقع = في غاية البُعد، بل لا يكاد يلتفتُ إليه كما لا يخفى على المنْصِف.

وكأنَّه عليه السلام أراد أن يَعرضَ عليهما التوحيدَ ويزيِّنَه لهما، ويقبِّحَ لهما الشِّركَ بالله تعالى قبل أن يجيبهما عمَّا سألاه من تعبير رؤياهما، ثمَّ يجيبهما عن ذلك. وهذه طريقةٌ على كلِّ ذي عقلٍ أن يسلكَها مع الجَهَلة والفَسَقة إذا استفتاه واحدٌ منهم، أن يقدِّم الإرشادَ والنَّصيحة أوَّلاً ويدعوه إلى ما هو أَولى به وأوجبُ[1] عليه مما استفتى فيه، ثمَّ يُفتيه. ولعلَّ ذلك كان مفترضاً عليه عليه السَّلام، فوصف نفسه أوَّلاً بما هو فوق عِلْم العلماء، وهو الإخبار بالمغيَّبات، وجعلَه تخلُّصاً لِمَا أراد، كالتخلُّصات المعروفة عندهم، فإنَّ الإخبارَ بالغَيب يناسبُ ما سألاه من تأويل رؤياهما، وأنَّ مَن كان هكذا لا محالةَ يكون بغيره[2] صادقاً، ويقوِّي أمرَ المناسبة تخصيصُ الطعام بالذِّكر من بين سائر المغيَّبات كما لا يخفى، ويناسب ما أراده من الدَّعوة إلى التوحيد؛ لأنَّه ثبت صدقُه ونبوَّته وكونُه من المرتَضيْن عند الله تعالى الصَّادقين في أقوالهم وأفعالهم، وفي حكايةِ اللهِ تعالى ذلك إرشادٌ لمن كان له قلب. وقد أدمج فيه أنَّ وصفَ العالم نفسَه ليُنْتفع به لا يحرُم، ولا يعدُّ ذلك من التَّزكية المحظورة.

وإلى ما ذكرنا من حَمْلِ الإتيان على الإتيان في اليقظة ذهب غيرُ واحد من الأجلَّة، ورُوي عن ابن جريج. وحَمَله بعضُهم على الإتيان مناماً؛ قال السُّدِّي وابنُ إسحاق: إنَّه عليه السَّلام لمَّا علم من رؤية الخبَّاز أنه يُقتل أخذ في حديث آخرَ تنسيةً لهما أمر المنام، وطماعيةً في إيمانهما ليأخذَ المقتول بحظِّه من الإيمان وتسلمَ له آخرتُه، فقال بعظيم عِلْمه بالتعبير: إنَّه لا يجيئكما طعامٌ في نومكما تريان أنَّكما تُرزقانه إلا أعلمتُكما بما يؤُولُ إليه أمرُه في اليقظة قبل أن يظهرَ ذلك. ولا يخفى أنَّ حديث الطَّماعيةِ المذكورةِ مما لا بأس، إلا أنَّ حديث التَّنسية لا يخلو عن منع.

---

(١) في (م): وأوجبه، والمثبت من الأصل والكشاف ٢/ ٣٢٠.

(٢) في الأصل: تعبيره.

وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن جُرَيج أخرجها ابنُ جَرِيرٍ وابن المنذر وغيرُهما عنه ما يَقْرُبُ من هذا الحديث من وجهٍ، فإنَّه قال: إنه عليه السلام كره العبارةَ لهما، فأجابهما بأنَّ له علماً بما يأتيهما من الطعام، ولم يصرِّح بما تدلُّ عليه رؤياهما شفقةً على الهالك منهما، وكان الملك إذا أراد قَتْلَ إنسان صنع له طعاماً معلوماً فأرسل به إليه، فلمَّا لم يكتفيا بذلك وطلبا منه التعبيرَ أيضاً دعاهما إلى التوحيد كراهةً للعبارة أيضاً، فلمَّا لم يكتفيا عبَّر لهما وأوضحَ ما تدلُّ عليه رؤياهما(١). وهو كما ترى.

وأيًّا ما كان فالضميرُ في «تأويله» يعود على الطعام، وجوِّز عودُه على ما قصَّاه عليه من الرؤيتَيْن على معنى: لا يأتيكما طعامٌ تُرزقانه حسبَ عادتكما إلَّا أخبرتُكما بتأويل ما قصَصْتما عليَّ قبل أن يأتيكما ذلك الطعامُ المؤقَّت، والمرادُ الإخبارُ بالاستعجال بالتَّنبئة(٢). وفيه أنَّه خلافُ الظاهر مع أنَّ الإخبار بالاستعجال مما ليس فيه كثيرُ مناسَبةٍ لمَا هو بصَدَدِه.

وقد يقال: يجوز عودُ الضمير إلى ما قصَّاه، ويكون المرادُ من الطَّعام المرزوقِ ما رأياه في المنام. ولا يخفى ما فيه أيضاً، لكنَّ التأويل على هذين الوجهين لا يحتاجُ إلى التأويل بل يُراد منه ما أريد من تأويله في كلامهما.

وكذا الضمير المستتر في «يأتيكما» يعود على الطعام، وعودُه على التأويل وإن كان أقربَ بعيدٌ.

ثمَّ إنه عليه السلام أخبرهما بأنَّ عِلْمَه ذلك ليس من علوم الكَهَنة والمنجِّمين، بل هو فضلٌ إلهيٌّ يؤتيه مَنْ يشاء فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ ويُروى أنَّهما قالا له: من أين لك ما تدَّعيه من العِلْم، وأنَّك لستَ بكاهِنٍ ولا منجِّم؟! وقيل: قالا: إنَّ هذا كهانةٌ أو تنجيمٌ. فقال: [«ذلكما»](٣) أي: ذلك التأويلُ والكشفُ عن المغيَّبات، ومعنى

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ١٦١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ١٩.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): قال في إرشاد العقل السليم في الاعتراض عليه: وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر في تعدُّد إتيان الطعام والإخبارِ بالتأويل وتجدُّدِهما، وأن المقام مقام إظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك رؤياهما دخولاً أوَّليًّا. اهـ فافهم. اهـ منه. والكلام في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٦.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٧.

البعدِ في «ذلك» للإشارة إلى بُعد منزلته وعلوّ درجته ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ بالوحي، أو بنحو ذلك ممَّا يحصل به العلم كما يكون للأولياء أهلِ الكشف ﵃، واقتصر بعضُهم على الأوّل وادَّعى أنَّ الآية دليلٌ على أنَّه عليه السلام كان إذ ذاك نبيًّا، وأيًّا ما كان فالمرادُ: إنَّ ذلك بعضٌ مما علَّمنيه اللهُ تعالى، أو من ذلك الجنس الذي لا يناله إلا الأصفياءُ، ولقد دلَّهما بذلك على أنَّ له علوماً جمَّةً، ما سمعاه قطرةٌ من تيارِها وزهرةٌ من أزهارها.

وقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ ممَّا تقدَّم وتعليلاً له، كأنَّه قيل: لماذا علَّمك ربُّك تلك العلوم الجليلةَ الشَّان؟ فقال: لأنِّي تركتُ دينَ الكفرة(١) الذي اجتمعوا عليه من الشِّرك وعبادةِ الأوثان.

وقيل: تعليلٌ للتعليم الواقع صلةً. وهو يؤدِّي إلى معنى أنَّه مما علَّمني ربِّي لهذا السبب دونَ غيره، وليس بمراد.

وقيل: لمضمونِ الجملة الخبريَّة. وفيه أنَّ ما ذكر ليس بعلَّةٍ لكون التأويل المذكور بعضاً مما علَّمه ربُّه، أو لكونِه من جنسه، بل لنفسِ التعليم.

والمراد بالتَّرك الامتناعُ فإنَّه لم يتلوَّث بتلك قطُّ كما يُفصح عنه ما يأتي من كلامِه عليه السلام قريباً إن شاء الله تعالى، لكن عبَّر به عن ذلك استجلاباً لهما لأنْ يتركا تلك الملَّة التي هم عليها على أحسنِ وجه.

والتعبيرُ عن كفرهم بالله تعالى بسلبِ الإيمان به سبحانه للتنصيص على أنَّ عبادتَهم له تعالى مع عبادةِ الأوثان ليس بإيمانٍ به تعالى كما يزعمونه. وأراد بأولئك القوم المتَّصفين بعنوان الصِّلة حيث كانوا، وقيل: أهلَ مصرَ فإنَّهم كانوا عَبَدةً إذ ذاك.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾ وما فيها من الجزاء ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: على الخصوص دونَ غيرِهم من الكنعانيين الذين هم على ملَّة إبراهيمَ عليه السلام، على ما يفيده توسيطُ ضمير الفَصْلِ هنا عند البعض، وذكر أنَّ تقديم الضميرِ للتخصيص وتكريرَه للتأكيد، ولعلَّه إنما أكَّد إنكارَهم للمعاد لأنَّه كان أشدَّ من إنكارهم للمبدأ، فتأمل.

---

(١) في (م): الكفر.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ داخلٌ في حيِّز التعليل، كأنَّه قال: إنما فزت بما فزتُ بسبب أنِّي لم أتَّبعْ ملَّة قومٍ كفروا بالمبدأ والمعاد، واتَّبعتُ ملَّة آبائي الكرامِ المؤمنين بذلك. وإنَّما قاله عليه السلام ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيد، وتنفيراً لهما عمَّا كانا عليه من الشِّرك والضَّلال، وقدَّم ذكْرَ تركه لملَّتِهم على ذِكْرِ اتِّباعه لملَّة آبائه عليهم السلام؛ لأنَّ التخلية مقدَّمةٌ على التحلية.

وجوَّز بعضُهم أن لا يكون هناك تعليلٌ، وإنَّما الجملة الأولى مستأنفةٌ ذُكرت تمهيداً للدَّعوة، والثانيةُ إظهاراً لأنَّه من بيتِ النبوَّة لتَقْوَى الرغبةُ فيه، وفي كلام أبي حيَّان(١) ما يقتضي أنَّه الظاهر، وليس بذاك.

وقرأ الأشهبُ العقيليُّ والكوفيون: «آبائي» بإسكان الياء(٢)، وهي مرويَّةٌ عن أبي عمرو(٣).

﴿مَا كَانَ﴾ ما صحَّ وما استقام، فضلاً عن الوقوع ﴿لَنَآ﴾ معاشرَ(٤) الأنبياء لقوَّة نفوسنا. وقيل: أي: أهل هذا البيتِ لوفور عناية الله تعالى بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً أيَّ شيءٍ كان، من مَلَكٍ، أو جنِّي، أو إنسيٍّ، فضلاً عن الصَّنم الذي لا يسمع ولا يُبصر. فـ«من» زائدةٌ في المفعول به لتأكيدِ العموم. ويجوز أن يكونَ المعنى: شيئاً من الإشراك قليلاً كان أو كثيراً، فيُراد من «شيء» المصدرُ وأمرُ العموم بحاله، ويلزم من عموم ذلك عمومُ المتعلقات.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيدُ المدلولُ عليه بنفي صحَّة الإشراك(٥) ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: ناشئٌ من تأييده لنا بالنبوَّة والوحي بأقسامه، والمرادُ أنه فَضْلٌ علينا بالذَّات ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بواسطتنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي:

---

(١) في البحر ٥/٣٠٩.

(٢) التيسير ص١٣١، والنشر ٢/٢٩٧ عن الكوفيين، وهم عاصم وحمزة والكسائي وخلف، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٣) البحر ٥/٣٠٩، وهي خلاف المشهور عنه، فقد قرأ هو وباقي العشرة بفتح الياء.

(٤) في هامش الأصل و(م): قيل: يراد معاشر الأنبياء، ويعتبر التغليب بناءً على عدم نبوته عليه السلام إذ ذاك. وهو كما ترى. اهـ منه.

(٥) في (م): الشرك.

لا يوحِّدون، وحيث عبَّر عن ذلك بذلك العنوان عبَّر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر؛ لأنَّه مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكرٌ لله عزَّ وجلَّ.

ووُضع الظاهرُ موضعَ الضمير الراجع إلى «الناس» لزيادةِ التَّوضيح والبيان، ولقطعِ توهُّم رجوعه إلى مجموع الناس وما كنَى عنه بـ «نا» الموهمِ لعدمِ اختصاص غيرِ الشَّاكر بالناس، وفيه من الفساد ما فيه.

وجوَّز أن يكون المعنى: ذلك التوحيد ناشئٌ من فضْل الله تعالى علينا، حيثُ نصب لنا أدلَّةً ننظر فيها ونستدلُّ بها على الحق، وقد نصب مثلَ تلك الأدلَّة لسائر الناس أيضاً من غير تفاوتٍ، ولكنَّ أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلُّون بها اتِّباعاً لأهوائهم، فيبقَون كافرين غيرَ شاكرين. والفضلُ على هذا عقليٌّ، وعلى الأوَّل سمعيٌّ.

وجوَّز المولى أبو السُّعود أن يقال: المعنى: ذلك التوحيدُ من فضل الله تعالى علينا، حيث أعطانا عقولاً ومشاعرَ نستعملها في دلائل التوحيد التي مهدها في الأنْفُس والآفاق، وقد أعطى سائر الناس أيضاً مثلها، ولكنَّ أكثرَهم لا يشكرون، أي: لا يصرفون تلك القوى والمشاعرَ إلى ما خُلقت هي له، ولا يستعملونها فيما ذُكر من أدلَّة التوحيد الآفاقية والأنفسيَّة والعقليَّة والنقليَّة[1]. انتهى.

ولك أن تقول: يجوز أنْ تكون الإشارةُ إلى ما أشير إليه بـ «ذلكما»، ويراد منه ما يُفهم مما قبلُ من عِلْمه بتأويل الرؤيا، و«مِنْ» في قوله «من فضل الله» تبعيضيَّة، ويكون قد أخبرَ عنه أوَّلاً بأنه مما علَّمه إياه ربُّه، وثانياً بأنه بعضُ فضلِ الله تعالى عليه وعلى آبائه بالذَّات، وعلى الناس بواسطتهم؛ لأنهم يَعْبُرون لهم رؤياهم فيكشِفون لهم ما أُبهم عليهم، ويُزايلون عنهم ما أَشغل أذهانَهم، مع ما في ذلك من النفع الذي لا يُنكره إلا نائم أو مُتناوم. ومَن وقف على ما ترتَّب على تعبير رؤيا الملك من النَّفع الخاصِّ والعامِّ لم يشكَّ في أنَّ علم التعبير من فَضْل الله تعالى على الناس ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون فَضْل الله تعالى مطلقاً، أو فَضْلَه عليهم بوجودِ مَن يرجعون إليه في تعبير رؤياهم. ويكون ذلك نظيرَ قولك لمن سألك عن زيد:

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٨.

ذلك أخي ذلك حبيبي، لكنَّه وسَّط هاهنا ما وسَّط وتفنَّن في التعبير، فأتى باسم الإشارة أوَّلاً مقروناً بخطابهما ولم يأت به ثانياً كذلك، وأتى بالربِّ مضافاً إلى ضميره أوَّلاً وبالاسم الجليل ثانياً.

ويجوز أن يكون المشارُ إليه في الموضعين الإخبارَ بالمغيَّبات مطلقاً، والكلامُ في سائر الآية عليه لا أظنُّه مشكلاً.

وعلى الوجهين لا ينافي تعليلُ نيلِ تلك الكرامة بتركه ملَّةَ الكَفَرة واتِّباعِه ملَّةَ آبائه الكرام الإخبارَ بأنَّ ذلك من فَضْل الله تعالى عليه وعلى مَنْ معه كما لا يخفى. نعم إنَّ حملَ الإشارة على ما ذُكر، وتوجيهَ الآية عليه بما وُجِّهت لا يخلو عن بُعْد.

ومن الناس مَن جَعَل الإشارةَ إلى النبوَّة، وفيه ما فيه أيضاً.

هذا وأوجب الإمامُ[1] كونَ المراد في قوله: «لا يشكرون»: لا يشكرون الله تعالى على نعمةِ الإيمان، ثم قال: وحُكي أنَّ واحداً من أهل السُّنَّة دخل على بشرِ بن المعتمرِ[2]، فقال: هل تشكرُ الله تعالى على الإيمان أم لا؟ فإن قلت: لا، فقد خالفتَ الإجماع، وإن شكرتَه فكيف تشكره على ما ليس فعلاً له؟! فقال بشرٌ: إنَّا نشكره على أنْ أعطانا القُدرةَ والعقل والآلة، وأما أن نشكرَه على الإيمان مع أنه ليس فعلاً له فذلك باطل! وصَعُب الكلام على بشرٍ، فدخل عليهم ثمامةُ بن الأشرس[3]، فقال: إنا لا نشكرُ الله تعالى على الإيمان، بل الله تعالى يشكره علينا[4] كما قال سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. فقال

---

(١) في تفسيره ١٨/١٣٨-١٣٩.

(٢) هو شيخ المعتزلة، أبو سهل الكوفي ثم البغدادي، كان أخباريًّا شاعراً متكلماً، له: تأويل المتشابه، والرد على الجهَّال، والعدل، وأشياء لم نرها والحمد لله، مات سنة (٢١٠هـ). السير ١٠/٢٠٣.

(٣) أبو معن النميري البصري المتكلم، من رؤوس المتعزلة، كان نديماً ظريفاً صاحب مِلَح اتصل بالرشيد ثم بالمأمون، وروى عنه تلميذه الجاحظ، من ضلالاته قوله بأن المقلِّدين من أهل الكتاب وعبدة الأوثان لا يدخلون النار، وأن أطفال المؤمنين لايدخلون الجنة، بل يصير الجميع تراباً. السير ١٠/٢٠٣.

(٤) كذا في الأصل و(م)، والذي في تفسير الرازي: يشكرنا عليه، ومثله في اللباب لابن عادل ١١/١٠٤ نقلاً عن الرازي.

بشر: لما صُعب الكلامُ سَهُل. وتعقَّب ذلك عليه الرَّحمة بأنَّ الذي التزمه ثمامةُ باطلٌ وهو على طَرفِ الثُّمام بنصِّ هذه الآية؛ لأنَّه سبحانه بيَّن فيها أنَّ عدمَ الإشراك من فَضْل الله تعالى، ثم بيَّن أنَّ أكثر الناس لا يشكرون هذه النِّعمة، وقد ذكر سبحانه ذلك على سبيلِ الذَّمِّ، فدلَّ على أنه يجب على كلٍّ[1] مؤمن أن يشكرَ الله تعالى على الإيمان لئلَّا يدخل في الذَّمِّ، وحينئذٍ تَقْوى الحجَّةُ وتكمُل الدلالة. اهـ. ولعلَّ الوجه في الآية ما تقدَّم، فليفهم.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي: يا صاحبيَّ فيه، إلَّا أنه أضيف إلى الظَّرف توسُّعاً كما في قولهم: يا سارقَ اللَّيلةِ أهلَ الدَّار. ولعلَّه إنَّما ناداهما بعنوان الصُّحبة في مدار الأشْجان ودارِ الأحْزان التي تصفو فيها المودَّة وتتمحَّض النَّصيحة ليُقبِلا عليه ويَقبَلا مقالتَه.

ويجوز أن يُراد بالصُّحبة السُّكنى، كما يقال: أصحابُ النار وأصحابُ الجنَّة لملازمتهم لهما، والإضافةُ من باب إضافة الشيءِ إلى شبه المفعول عند أبي حيَّان[2] وإلى المفعول عند غيرِه، ولا اتِّساع في ذلك.

وقيل: بل هناك اتِّساع أيضاً، وأنَّه أضافهما إلى السِّجن دونَه لكونهما كافرَيْن. وفيه نظر.

ولعل في ندائهما بذلك على هذا الوجه حثًّا لهما على الإقرار بالحقِّ، كأنه قال لهما: يا ساكني هذا المكان الشَّاقِّ والمحلِّ الضَّنْك إنِّي ذاكرٌ لكم أمراً، فقولوا الحقَّ فيه ولا تزيغوا عن ذلك؛ فأنتم تحت شدَّةٍ ولا ينبغي لمن كان كذلك أن يزيغَ عن الحقِّ. وإنَّما حُمِلَ الصَّاحبُ على ما سمعتَ لأنَّ صاحبَ السِّجن في الاستعمال المشهور السجَّان أو المَلِك.

والنداء بـ «يا» بناء على الشائع من أنَّها للبعيد[3]؛ للإشارة إلى غَفْلتهما وهَيَمَانهما في أودية الضَّلال. وقد تلطَّف عليه السلام بهما في ردِّهما إلى

---

(١) قوله: كل، ساقط من (م).

(٢) البحر ٥/ ٣١٠.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): والحق أنها للنداء مطلقاً بعيداً كان المنادى أو قريباً. اهـ منه.

الحقِّ وإرشادِهما إلى الهُدى، حيثُ أبرزَ لهما ما يدلُّ على بطلان ما هما عليه بصورةِ الاستفهام حتَّى لا تنفرَ طباعُهما من المفاجأة بإبطال ما أَلِفاه دهراً طويلاً، ومضتْ عليه أسلافهما جيلاً فجيلاً، فقال:

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ متعدِّدون متكثِّرون يَسْتَعبِدُكما منهم هذا وهذا، والكلامُ على ما صرَّح به أبو حيَّان[1] على حذفِ مضافٍ، أي: أعبادةُ أربابٍ متفرِّقين ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ اللَّهُ﴾ أي: أم عبادةُ الله سبحانه ﴿الْوَاحِدُ﴾ المنفرِدُ بالألوهية ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالبُ الذي لا يغالبه أحدٌ جلَّ وعلا، وهو أولى مما قاله الخطَّابيُّ من أنَّه الذي قهر الجبابرةَ بالعقوبة، والخلقَ بالموت.

وذكر الزمخشريُّ أنَّ هذا مثلٌ ضُرِبَ لعبادة الله تعالى وحدَه ولعبادة الأصنام[2].

واعترضه القُطبُ بأنَّ ذلك إنَّما يصحُّ لو نُسبا تارةً إلى أربابٍ شتَّى وأخرى إلى ربٍّ واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ الآية [الزمر: ٢٩]، لكنَّهما نُسبا إلى «أرباب» وإلى «الله» تعالى، فكيف يكون مَثَلاً؟ وأجاب بأنَّه يفسَّر «الله» بربٍّ واحد؛ لأنَّه في مقابلة «أرباب»، وإنما عبر عن ربٍّ واحدٍ بالله تعالى لانحصارِه فيه جلَّ جلالُه.

وقال الطِّيبيُّ أيضاً: إنَّ في ذلك إشكالاً؛ لأنَّ الظاهر من الآية نفيُ استواء الأصنام وعبادتِها بالله تعالى وعبادتِه، فأين المثل؟ ثم قال: لكن التقدير: أساداتٌ شتَّى تَستعبِدُ مملوكاً واحداً خيرٌ من سيِّدٍ واحدٍ قهَّارٍ، فوَضَعَ موضعَ الربِّ والسِّيد «الله» لكونه مقابلاً لقوله: «أأرباب» فيكون كقوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ) الآية.

وقرَّر في «الكشف» ما ادَّعى معه ظهورَ كونه مَثَلاً ظهوراً لا إشكالَ فيه.

والحقُّ أنَّه ظاهرٌ في نفي الاستواء، وأنَّ جَعْلَه مثلاً يحتاج إلى تأويل حسبما سمعتَ عن الطِّيبي، إلا أنَّه لا يخلو عن لُطفٍ، ولعلَّه الأَوْلى وإنْ أَحْوَجَ إلى ما أَحْوَجَ.

(١) في البحر ٥/ ٣١٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٢١.

وحملُ التفرُّق على التفرُّق في العدد والتكاثُرِ ممَّا ذهب إليه غيرُ واحد، وحملَه بعضُهم على الاختلاف في الكِبَر والصِّغَر والشَّكْل، ونحوِ ذلك مما يحصل لها بواسطة تأثيرِ الغير فيها، وجَعَلَه إشارةً إلى كونِها مقهورةً عاجزة. وأمَّا التعدُّدُ فيُشير إليه جمعُ «أرباب» باعتبارِ أنه جمعٌ، فيكون ذكرُ «الواحد» على هذا في مقابلة ما أُشير إليه من التعدُّد، «والقهَّار» في مقابلةِ ما أُشير إليه من المقهوريَّة والعجز، والمعنى: أمتعدِّدون سمَّيتموهم أرباباً عُجَّزٌ مقهورون متأثِّرون من غيرهم خيرٌ «أم الله»، أي: صاحبُ هذا الاسم الجليل «الواحدُ» الذي يستحيل عليه التكثُّر بوجهٍ من الوجوه «القهَّار» الذي لا موجودَ إلا وهو مسخَّر تحت قَهْرِه وقدرتِه، عاجزٌ في قبضته.

وقيل: المراد من «متفرِّقون»: مختلفو الأجناس والطبائع، كالمَلَكِ والجنِّ والجماد مثلاً، ويجوز أن يُرادَ منه مَن لا ارتباطَ بينهم ولا اتِّفاق، وكثيراً ما يُكنى بذلك عن العجز واختلالِ الحال.

وقد استنبط الإمام[1] من الآية غيرَ ما حُجَّةٍ على بطلان عبادةِ الأصنام، وظاهرُ كلامه أنَّه لم يعتبرْها مثلاً. فليتأمل.

ثم إنَّه عليه السلام زاد في الإرشاد ببيانِ سقوطِ آلهتهما عن درجة الاعتبار رأساً، فضلاً عن الألوهية، وأخرج ذلك على أتمِّ وجهٍ فقال معمِّماً للخطاب لهما ولمن على دِينهما من أهلِ مصرَ كما هو الظاهر، وقيل: مطلَقاً، وقيل: مَنْ معهما من أهل السِّجن:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله تعالى شيئاً ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ أي: ألفاظاً فارغةً لا مُطابِقَ لها في الخارج؛ لأن ما ليس فيه مصداقُ إطلاقِ الاسم عليه لا وجودَ له أصلاً، فكانت عبادتُهم لتلك الألفاظ فقط ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ جعلتموها[2] أسماء ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمحضِ الجهل والضَّلالة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بتلك التَّسمية المستتبعةِ للعبادة ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حُجَّةٍ تدلُّ على صحَّتها.

---

(١) في تفسيره ١٨/ ١٤٠-١٤١.

(٢) في (م): جعلوها.

وقيل: كانوا يُطلقون على معبوداتِهم الباطلةِ اسمَ الآلهة، ويزعمون الدَّليل على ذلك، فرُدُّوا بأنَّكم سمَّيتم مالم يدلَّ على استحقاقه هذا الاسمَ عقلٌ ولا نقلٌ، ثم أخذتُم تعبدون ذلك باعتبار ما تطلقونه عليه.

وإنما لم يذكر المسمَّيات تربيةً لِمَا يقتضيه المقامُ من إسقاطها عن مرتبة الوجودِ، وإيذاناً بأنَّ تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمًّى كعبادتهم حيثُ كانت بلا معبود.

ويُلحقُ بهؤلاء الذين يزعمون أنَّهم يعبدون الله تعالى وهم يتخيَّلونه سبحانه جسماً عظيماً جالساً فوقَ العرش، أو نحوَ ذلك مما ينزِّهه العقلُ والنَّقلُ عنه تعالى، تعالى اللهُ عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً؛ لأنَّ ما وُضع له الاسمُ الجليل في نفس الأمر ليس هو الذي تخيَّلوه، بل هو أمرٌ وراءَ ذلك، وهو المستحقُّ للعبادة، وما وضعوه هم له ليس بإله في نفس الأمر ولا مستحقٌّ للعبادة وهو الذي عبدوه، فما عبدوا في الحقيقة إلا اسماً لا مطابقَ له في الخارج، لأنَّ ما في الخارج أمرٌ وما وضعوا الاسمَ له أمرٌ آخر.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكم في شأن العبادة المتفرِّعة على تلك التَّسمية وفي صحتها ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزَّ سلطانُه؛ لأنَّه المستحقُّ لها بالذَّات؛ إذ هو الواجبُ بالذَّات الموجِدُ للكلِّ والمالكُ لأمره.

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي: بأنْ لا تعبدوا أحداً ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ حسبما تقضي[1] به قضيةُ العقل أيضاً. والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ناشئٍ من الجملة السَّابقة، كأنه قيل: فماذا حكم الله سبحانه في هذا الشأن؟ فقيل: «أمر» إلخ.

وقيل: في موضع التعليل لمحذوفٍ، كأنه قيل: حيث لم يكن الحكم في أمر العبادة إلا له، فلا تكونُ العبادةُ إلا له سبحانه، أو لمن يأمرُ بعبادته، وهو لا يأمرُ بذلك ولا يجعلُه لغيره؛ لأنه سبحانه أمر أنْ لا تعبدوا إلا إياه. وهو خلافُ الظاهر.

وجوِّز أن يكون سردُ هذه الجمل على هذا الطرْز لسدِّ الطُّرق في توجيه صحَّة عبادة الأصنام عليهم أحكمَ سدٍّ؛ فإنَّهم إن قالوا: إنَّ الله تعالى قد أنزل حجَّة في

---

(١) في (م): يقتضي.

ذلك، رُدُّوا بقوله: «ما أنزل الله بها من سلطان» وإن قالوا: حَكَمَ لنا بذلك كبراؤُنا، رُدُّوا بقوله: «إن الحكمُ إلا لله» وإن قالوا: حيث لم يُنزل حُجَّةً في ذلك، ولم يكن حُكْمٌ لغيره، بقي الأمر موقوفاً إذ عدمُ إنزالِ حجَّةٍ تدلُّ على الصِّحة لا يستلزمُ إنزالَ حجَّة على البطلان، رُدُّوا بقوله: «أمر أنْ لا تعبدوا إلا إيَّاه».

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تخصيصُه تعالى بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الثابتُ الذي دلَّت عليه البراهين العقليَّة والنقليَّة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أنَّ ذلك هو الدِّين القَيِّم لجهلهم تلك البراهين، أو لا يعلمون شيئاً أصلاً فيعبدون أسماءً سمَّوها من عند أنفسهم مُعرضِين عمَّا يقتضيه العقلُ ويسوقُ إليه سائقُ النَّقل، ومنشأ هذا الإعراضِ الوقوفُ عند المألوفات والتقيُّدُ بالحسِّيات، وهو مركوزٌ في أكثر الطِّباع، ومن ذلك جاء التشبيهُ والتجسيم، ونسبةُ الحوادث الكونيَّة إلى الشمس والقمر وسائرِ الكواكب، ونحو ذلك.

ثمَّ إنه عليه السلام بعد تحقيق الحقِّ وبيانِه لهما مقدارَ علمه الواسعِ شَرَعَ في إنبائهما عمَّا استنبأاه عنه، ولكونه بحثاً مغايراً لِمَا سبق فصَلَه عنه بتكريرِ الخطاب فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ أراد به الشرابيَّ، وإنما لم يعيِّنْه عليه السلام ثقةً بدلالة التعبير، مع ما فيه من رعايةِ حُسْن الصُّحبة ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ أي: سيِّدَه ﴿خَمْرًا﴾.

روي أنه عليه السلام قال له: ما رأيتَ من الكرمة وحسنِها هو الملكُ وحسنُ حالك عنده، وأمَّا القضبانُ الثلاثة فإنها ثلاثةُ أيام تمضي في السِّجن ثم تخرجُ وتعود إلى ما كنتَ عليه.

وقرئ: «فيُسقي» بضمِّ الياء والبناء للفاعل من أَسْقَى؛ قال صاحب «اللوامح»: يقال: سَقَى وأسقى بمعنًى[1]. وقرئ في السبعة: «نَسقيكم» و: «نُسقيكم» بالفتح والضمِّ[2]. والمعروفُ أنَّ سقاه: ناوله ليشربَ، وأسقاه: جعلَ له سُقْيَا. ونُسب

(١) البحر ٥/ ٣١١.

(٢) قرأ بالفتح نافع وابن عامر وعاصم في رواية شعبة ويعقوب، والباقون بالضم، وذلك في قوله تعالى ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦]. التيسير ص١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤.

ضمُّ الياء لعكرمة والجحدري[1].

وذكر بعضُهم أنَّ عكرمةَ قرأ: «فيُسقَى» بالبناء للمفعول، و«رِيَّه» بالياء المثناة والراء المكسورة، والمرادُ به: ما يُروَى به[2]، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «يُسْقَى»، والمفعولُ الأوّل الضميرُ النائب عن الفاعل العائدُ على «أحد»، ونصب «خمراً» حينئذٍ على التمييز.

﴿وَأَمَّا ٱلْآخَرُ﴾ وهو الخبَّاز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ روي أنه عليه السلام قال له: ما رأيتَ من السلال الثلاثِ ثلاثةُ أيام تمرُّ ثم تُخْرَجُ فتُصلب.

﴿قُضِىَ﴾ أُتِمَّ وأُحْكِم ﴿ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۝٤١﴾ وهو ما يؤولُ إليه حالُكما وتدلُّ عليه رؤياكما من نجاةِ أحدكما وهلاكِ الآخر، ومعنى استفتائهما فيه سؤالُهما عنه، أخرج جماعةٌ منهم الحاكم وصحَّحه عن ابنِ مسعود ﷺ قال: ما رأى صاحبا يوسفَ شيئاً، وإنَّما تحالَما ليجرِّبا عِلْمَه، فلمَّا أوَّل رؤياهما قالا: إنَّما كنَّا نلعبُ ولم نرَ شيئاً. فقال عليه السلام: «قضي الأمر» إلخ، يقول: وقعت العبارة[3]. اهـ.

وقيل: المرادُ بالأمر ما اتُّهما به، والكلام حينئذٍ على حذف مضافٍ، أي: عاقبةُ ذلك.

وذهب بعضُ المحقِّقين[4] إلى أنَّ المراد به ما رأياه من الرُّؤيتين، ونفى أن يكون المرادُ ما يؤولُ إليه أمرهما، قال: لأنَّ الاستفتاءَ إنما يكون في الحادثة لا في حُكْمِها؛ يقال: استفْتَى الفقيهَ في الحادثة، أي: طَلبَ منه بيانَ حُكْمِها. ولا يقال: استفتاه في حُكْمِها. وكذا الإفتاءُ، يقال: أَفتَى في الواقعة الفلانية بكذا، ولا يقال: أَفتَى في حُكْمِها بكذا. ومما هو عَلَمٌ في ذلك قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ ومعنى استفتائهما فيه طلبُهما لتأويله بقولهما: «نبِّئْنا بتأويله» وعبَّر عن ذلك بالأمر وعن طلبِ تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفخيماً لشأنه؛ إذ الاستفتاءُ إنما يكون في النوازل المشكلةِ الحكمِ المبهمةِ الجوابِ. وإيثارُ صيغة المضارع لمَا أنَّهما بصدد

(١) البحر ٥/٣١١. وفي المحتسب عنهما أنهما قرأا: «فيُسْقَى ربُّه خمراً».
(٢) الكشاف ٢/٣٢١.
(٣) المستدرك ٤/٣٩٥-٣٩٦.
(٤) هو أبو السعود في تفسيره ٤/٢٧٩.

الاستفتاء إلى أن يقضي عليه السلام من الجواب وطرَه، وإسنادُ القضاء إليه مع أنَّه من أحوال مآله لأنَّه في الحقيقة عينُ ذلك المآل، وقد ظهر في عالم المثالِ بتلك الصُّورة، وأما توحيده مع تعدُّد رؤياهما فواردٌ على حسب ما وحَّداه في قولهما: «نبِّئْنا بتأويله»، لا لأنَّ الأمر ما اتُّهِما به وسُجنا لأجله من سَمِّ الملك، فإنَّهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته، بل فيما هو صورةٌ لمآله وعاقبتِه، فتأمل. اهـ.

وتُعقِّب بأنه لا مانعَ من أنْ يُراد بالأمر المآلُ كما يقتضيه ظاهرُ إسنادِ القضاء إليه، وإليه ذهب الكثيرُ، وتُجعل «في» للسببية مثلها في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنَّ امرأةً دخلت النَّار في هرَّة»[1]، ويكون معنى الاستفتاء فيه: الاستفتاءَ بسببه، أي: طلبَ بيانِ حكم الرؤيتَيْن لأجله، وهما إنَّما طلبا ذلك لتعرُّفِ حالِهما ومآلِ أمرهما.

وإن أبيتَ ذلك فأيُّ مانعٍ من أن يكون الاستفتاء في الأمر مع أنَّ الاستفتاء إنما يكون في الحادثة ـ وهي هنا الرؤيتان ـ لِمَا أنَّ بين الأمر وتلك الحادثة اتِّحاداً كما ادَّعاه هو، ووجَّه به إسنادَ القضاء إلى الأمر بالمعنى الذي حمله عليه مع أنه من أحوال مآله، وليس له أن يقول بصحَّة اعتبار العينية في إسناد القضاء وعدمِ صحَّة اعتبارها في تعلُّق الاستفتاء؛ إذ بعد اعتبار العينيَّة بين شيئين يكون صحَّةُ نسبةِ ما هو من أحوالِ أحدهما إلى الآخر دونَ صحَّةِ نسبة ما هو من أحوالِ ذلك الآخَر إليه ترجيحاً بلا مرجِّحٍ، ومنعُ ذلك مكابرةٌ.

ويرجِّح ما ذهب إليه الكثير أنَّ فيه سلامةً من نزعِ الخفِّ قبل الوصول إلى الماء، كما لا يخفى على مَن تيمَّم كعبةَ الإنصاف، وبأنَّ ما ذكره في تعليل عدم صحَّة تفسير الأمر بما اتُّهما به وسُجنا لأجله لا يخلو عن دغدغةٍ، على أنَّ ذلك كان تعريضاً بصاحب «الكشاف»[2]، وهو على ما قال الطِّيبي: ما عنى بالأمر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ٣/ ١٠٥.

(٢) ٢/ ٣٢٢، وفيه: المراد بالأمر ما اتُّهما به من سَمِّ الملك، وما سُجنا من أجله، وظنَّا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما: أعاقبته نجاةٌ أم هلاك؟ فقال لهما: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، أي: ما يجر إليه من العاقبة، وهو نجاة أحدهما وهلاك الآخر.

إلا العاقبةَ، نعم صدرُ كلامه ظاهرٌ فيما ذكر والأمرُ فيه سهلٌ. ولعلَّ وجه الأمر بالتأمُّل في كلام هذا المحقِّق مجموعُ ما ذكرناه، فتأمَّل.

ثمَّ إنَّ هذا الإخبار كما يحتمل أن يكون للردِّ عليهما حسبما ورد في الأثر، يحتملُ أن يكون تحقيقاً لتعبيره وتأكيداً له، ولا يُشكل على الأوَّل أنه لا داعيَ لجحود الشَّرابي؛ لأنَّا نقول على تقدير كذبهما في ذلك: يحتمل أن يكونَ لمراعاة جانبِ صاحبه الخبَّاز. وجاء في بعض الآثار أنَّ الذي جحد هو الخبَّاز، فحينئذٍ الأمرُ واضحٌ. واستُدلَّ بذلك على ما هو المشهور من أنَّ الرؤيا تقعُ كما تعبَّر، ولذا قيل: المنامُ على جناحِ طائر إذا قُصَّ وقع[1].

﴿وَقَالَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ أُوثر على صيغةِ المضارع مبالغةً في الدلالة على تحقُّقِ[2] النَّجاة حَسْبَما يفيدُه قوله: «قُضي الأمرُ» إلخ، وهو السِّرُّ في إيثار ما عليه النَّظْم الكريم على أنْ يقال: للذي ظنَّه ناجياً. ﴿مِّنْهُمَا﴾ أي: من صاحبيه.

وإنَّما ذكر بوصفِ النَّجاة تمهيداً لمناطِ التَّوصية بالذِّكر[3] بما يدور عليه الامتيازُ بينه وبين صاحبه المذكور بوصفِ الهلاك.

والظانُّ هو يوسفُ عليه السلام لا صاحبُه، وإن ذهب إليه بعضُ السَّلف؛ لأنَّ التوصيةَ لا تدور على ظنِّ الناجي، بل على ظنِّ يوسفَ عليه السلام، وهو بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] ونظائرِه، ولعلَّ التعبير به من باب إرخاءِ العِنان والتأدُّبِ مع الله تعالى، فالتعبيرُ على هذا بالوحي كما ينبئ عنه قولُه: «قضي الأمر» إلخ، وقيل: هو بمعناه، والتعبيرُ بالاجتهاد والحُكم بقضاء الأمر أيضاً اجتهاديٌّ، واستدلَّ به مَن قال: إنَّ تعبير الرؤيا ظنِّي لا قطعيٌّ.

---

(١) ورد في هذا المعنى حديث صحيح كما سيرد عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.

(٢) في (م): تحقيق، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٠.

(٣) في هامش الأصل و(م): ولذا لم يذكره بعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور، وإن كان أدخلَ وأدْعَى إلى تحقيق ما وصاه به. اهـ منه. وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٠.

والجارُّ والمجرورُ إمَّا في موضع الصِّفة لـ «ناج»، أو الحالِ من الموصول، ولا يجوز أن يكون متعلِّقاً بـ «ناج» لأنَّه ليس المعنى عليه.

﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ بما أنا عليه من الحال والصِّفة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سيِّدِك، رُوي أنَّه لمَّا انتهى بالناجي في اليوم الثالث إلى باب السِّجن، قال له: أوصني بحاجتك، فقال عليه السلام: حاجتي أن تذكرَني عند ربِّك وتَصِفَني بصفتي التي شاهدْتَها.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: أَنْسى ذلك الناجي بوسوسته وإلقائِه في قلبه أشغالاً حتى يذهلَ عن الذِّكر، وإلا فالإنساءُ حقيقةً لله تعالى، والفاء للسببيَّة، فإنَّ توصيتَه عليه السلام المتضمِّنةَ للاستعانة بغيره سبحانه وتعالى كانت باعثةً لِمَا ذكر من إنسائه.

﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ذِكْرَ يوسفَ عليه السَّلام عند المَلِك، والإضافةُ لأدنى ملابسةٍ، ويجوز أن تكونَ من إضافة المصدر إلى المفعول بتقديرِ مضاف، أي: ذِكْرَ إخبارِ ربِّه.

﴿فَلَبِثَ﴾ أي: فمكث يوسفُ عليه السَّلام بسبب ذلك القَول أو الإنساءِ ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ البِضعُ ما بين الثلاث إلى التِّسع كما روي عن قتادة. وعن مجاهد أنَّه من الثلاث إلى السَّبع. وقال أبو عبيدةَ: من الواحد إلى العشرة[1]. ولا يُذكَر ـ على ما قال الفرَّاء ـ إلَّا مع العشراتِ دون المئة والألف. وهو مأخوذٌ من البَضْع بمعنى القَطْع.

والمرادُ به هنا في أكثر الأقاويل سبعُ سنين، وهي مدَّةُ لبثِه كلها فيما صحَّحه البعضُ، وسنتان منها كانت مدَّةَ لبثه بعد ذلك القَوْل، ولا يأبى ذلك فاءُ السببية؛ لأنَّ لبثَ هذا المجموع مسبَّبٌ عمَّا ذُكر.

وقيل: إنَّ هذه السبعَ مدَّةُ لبثه بعد ذلك القول، وقد لبث قبلَها خمساً، فجميعُ المدَّة اثنتا عشرة سنة، ويدل عليه خبرُ: «رحم الله تعالى أخي يوسف لو لم يقل:

(١) ذكره عن أبي عبيدة أبو حيان في البحر ٥/ ٣٠٠ بلفظ: البضع لا يبلغ العقد ولا نصف العقد، وإنما هو من الواحد إلى العشرة. اهـ. كذا ذكر: إلى العشرة، وقال الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ٤٨٨: قال أبو عبيدة: البضع مالم يبلغ العقد ولا نصفه. يريد ما بين الواحد إلى أربعة. ومثله في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧، وزاد المسير ٤/ ٢٢٨، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٥٧.

(أَذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) لمَا لبث في السِّجن سبعاً بعد خمس»(١). وتعُقِّب بأنَّ الخبرَ لم يثبت بهذا اللفظ، وإنَّما الثابتُ في عدَّة رواياتٍ: «ما لبث في السِّجن طولَ ما لبث»(٢) وهو لا يدلُّ على المدَّعَى.

وروى ابنُ أَبِي حاتم عن طاوس والضحَّاك تفسيرَ البِضْع ها هنا بأربعَ عَشْرةَ سنةً(٣). وهو خلافُ المعروف في تفسيره، والأَوْلى أنْ لا يُجزم بمقدارٍ معيَّن كما قدَّمنا.

وكونُ هذا اللبث مسبَّباً عن القول هو الذي تضافرت عليه الأخبارُ، كالخبر السَّابق، والخبرِ الذي رُوي عن أنس قال: أَوْحَى الله تعالى إلى يوسفَ عليه السلام: مَن استنقذكَ من القتل حين همَّ إخوتُك أن يقتلوك؟ قال: أنت يارب. قال: فمن استنقذكَ من الجبِّ إذ أَلْقَوْك فيه؟ قال: أنت يارب. قال: فمن استنقذك من المرأة إذ همَّتْ بك؟ قال: أنت يارب. قال: فما بالك نسيتني وذكرت آدميًّا؟ قال: يارب، كلمةٌ تكلَّم بها لساني. قال: وعزَّتي لأُخْلِدَنَّك في السِّجن بضعَ سنين(٤). وغير ذلك من الأخبار.

---

(١) ذكره البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٨٠، وأبو السعود ٤/ ٢٨٠، ولم نقف عليه مسنداً.

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٦٠)، والطبري ١٣/ ١٧٣، والطبراني في الكبير (١١٦٤٠) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٢٣ بإسناد آخر من طريق عكرمة عن النبي ﷺ مرسلاً. وسيأتي باقي الحديث ص٣٦٩ من هذا الجزء. وإسناد المتصل ضعيف جدًّا كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وإبراهيم بن يزيد (وهو الخوزي) متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.
وقد ورد نحو هذه العبارة في حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه ابن حبان (٦٢٠٥) من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ. وتعقبه ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٧٨ بسبب إدراج هذا الحديث في صحيحه، وقال: إنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٠.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٩-٢١٥٠. ووقع في (م): لأدخلنك، بدل: لأخلدنك، وهو تصحيف.

ولا يُشْكِلُ على هذا أنَّ الاستعانة بالعباد في كشف الشَّدائد مما لا بأس به، فقد قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] فكيف عُوتب عليه السلام في ذلك؟ لأنَّ ذلك مما يختلف باختلاف الأشخاص، واللائق بمناصب الأنبياء عليهم السَّلام تركُ ذلك والأخذُ بالعزائم.

واختار أبو حيَّان أنَّ يوسف عليه السلام إنما قال للشرابي ما قال ليتوصَّل بذلك إلى هداية المَلِك وإيمانِه بالله تعالى كما توصَّل إلى إيضاح الحقِّ لصاحبيه[1]، وأنَّ ذلك ليس من باب الاستعانة بغير الله تعالى في تفريج كَرْبه وخلاصِه من السِّجن. ولا يخفى أنَّ ذلك خلافُ الظاهر، وموجبٌ للطعن في غيرِ ما خبرٍ، نعم إنَّه اللائقُ بمنصبه عليه الصَّلاة والسَّلام.

وجوَّز بعضُهم كونَ ضمير «أنساه» و«ربّه» عائدَيْن على يوسف عليه السلام، وإنساءُ الشيطان ليس من الإغواء في شيء، بل هو تَرْكُ الأَوْلى بالنِّسبة لمقام الخواصِّ الرافعين للأسباب من البَيْن. وأنت تعلم أنَّ الأوَّل هو المناسبُ؛ لمكانِ الفاء، ولقوله تعالى الآتي: (وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ وهو الريَّان بن الوليد[2] وكان كافراً، ففي إطلاق ذلك عليه دلالةٌ ـ على ما قيل ـ على جواز تسميةِ الكافر مَلِكاً.

ومَنَعَه بعضُهم، وكذا مَنَعَ أنْ يقال له أمير؛ احتجاجاً بأنَّه ﷺ كتب إلى هرقل: «عظيم الروم»[3]، ولم يكتب: مَلِك الروم أو أميرهم، لِمَا فيه من إيهامِ كونِه على الحقِّ، وجَعَل هذا حكايةَ اسمٍ مَضَى حُكْمُه وتَصَرَّمَ وقتُه، ومثلُه لا يضرُّ.

أي: قال لمن عنده: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ أي: رأيتُ، وإيثارُ صيغة المضارع لحكايةِ الحال الماضية ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ ممتلئاتٍ لحماً وشحماً، من سَمِنَ كسمع سَمانةً بالفتح، وسِمَناً كعِنَباً، فهو سامن وسمين. وذُكر أنَّ سميناً وسمينةً تُجمع على سِمَان، فهو ككِرَام جمعُ كريم وكريمة؛ يقال: رجالٌ كِرام ونسوةٌ كِرام.

---

(١) البحر ٥/٣١١.

(٢) قوله: ابن الوليد، ليس في (م).

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي: أَكَلَهنَّ، والعدولُ إلى المضارع لاستحضارِ الصورة تعجيباً، والجملة حالٌ من البقرات أو صفةٌ لها.

﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: سبعُ بقراتٍ مهزولاتٍ جدًّا، ومن قولهم: نَصْلٌ أَعْجفُ، أي: دقيق، وهو جمعُ عَجْفاء على خلافِ القياس، والقياسُ عُجْفٌ، كحمراء وحُمْر، فإنَّ فعلاء وأَفْعَل لا يُجمع على فِعَال، لكنَّهم بنَوْه على «سِمَان» وهم قد يَبْنون الشيءَ على ضدِّه، كقولهم: عدوَّةٌ بالهاء لمكان صديقة. وفَعولٌ بمعنى فاعل لا تدخله الهاءُ.

وأُجري «سِمَان» على المميَّز فجُرَّ على أنه وصفٌ له، ولم يُنصَبْ على أن يكونَ صفةً للعدد المميِّز؛ لأنَّ وصفَ تمييزه وصفٌ له معنًى، وقد ذكروا أنَّه إذا وُصف التمييزُ كان التمييزُ بالنوع، وإذا وُصف المميَّز كان التمييزُ بالجنس، ولا شكَّ أنَّ الأوَّل أَوْلى وأبلغُ لاشتمال النَّوع على الجنس، فهو أزيدُ في رفع الإبهام المقصود من التمييز، فلهذا رجِّح ما في النَّظْم الكريم على غيرِه.

ولم يقل: سبعُ عجافٍ، بالإضافة وجَعْلِه صفةً للتمييز المقدَّر على قياسِ ما قبله؛ لأنَّ التمييز لبيان الجنسِ والحقيقة، الوصفُ لا يدلُّ عليه بل على شيءٍ مَّا لَه حالٌ وصفة، فلذا ذكروا أنَّ التمييز يكون باسم الجنسِ الجامدِ ولا يكون بالوصف المشتقِّ في فصيحِ الكلام، فتقول: عندي ثلاثةٌ قرشيُّون. ولا تقول: قرشيين بالإضافة، وأمَّا قولُك: ثلاثةُ فرسانٍ، وخمسةُ ركبانٍ، فلِجَرَيان الفارسِ والراكب مجرى الأسماءِ؛ لاستعمالها في الأغلب من غيرِ موصوف.

واعترض صاحب «الفرائد» بأنَّ الأصلَ في العدد التمييزُ بالإضافة، فإذا وُصف السَّبْعُ بالعِجاف فلا بدَّ من تقدير المضاف إليه، وكلُّ واحدٍ من الوصف وتقديرِ المضاف إليه خلافُ الأصل، أمَّا إذا أضيف كانت الصِّفة قائمةً مقامَ الموصوف، فقولنا: سبع عِجافٍ، في قوَّة قولنا: سبع بقراتٍ عجافٍ، فالتمييزُ المطلوبُ بالإضافة حاصلٌ بالإضافة إلى الصِّفة لقيامها مَقام الموصوف، فكما يجوز: سبعُ بقراتٍ عجافٍ، يجوز: سبعُ عجافٍ، وإنما لم يضُف لأنَّه قائمٌ مقام البقراتِ وهي موصوفةٌ بعجافٍ، فكانت من قبيلِ إضافة الموصوف إلى الصِّفة، وهي غيرُ جائزة إلا بتأويل.

وتعقَّب ذلك القطبُ بأنَّه هبْ أنَّ الأصل في العدد التمييزُ بالإضافة، لكنْ لمَّا سبق ذكرُ «سبع بقرات سمان» تبيَّن أنَّ السبعَ العجافَ بقراتٌ، فهذا السَّبْع مميَّز بما تقدَّم، فقد حصل التمييزُ بالإضافة، فلو أضيف إلى العِجاف لكان العِجافُ قائماً مَقام البقرات في التمييز، فيكون التمييزُ بالوصف وهو خلافُ الأصل، وأمَّا أنَّ السَّبْع قائم مقامَ البقرات فإنما يكون إذا وُصف بالعِجَاف، أما إذا أُضيف بكون العِجاف قائمةً مقام البقرات، فلا يلزم إضافةُ الموصوف إلى الصِّفة. اهـ. وفيه تأمُّل.

وذكر العلَّامة الطِّيبي في هذا المقام أنَّه يمكن أن يقال: إنَّ المميز إذا وُصف ثمَّ رُفع به الإبهامُ والإجمال من العدد آذَنَ بأنَّهما مقصودان في الذِّكر، بخلافه إذا ميّز ثم وُصف، بل الوصفُ أدعى لأنَّ المميز إنما استُجلب للوصف، ومن ثَمَّ تُرك التمييز في القرائن الثلاث، والمقامُ يقتضي ذلك لأنَّ المقصود بيانُ الابتلاء بالشدَّة بعد الرخاء، وبيانُ الكميَّة بالعدد والكيفيَّة بالبقرات تابعٌ، فليفهم.

ويُعلم من ذلك وجهُ العُدُول إلى ما في النظم الكريم عن أنْ يقال: إنِّي أرى سبعَ بقراتٍ عجافٍ يأكلْنَ سبعاً سماناً، الأخصرُ منه. وقيل: إنَّ التعبير بذلك لأنَّه[1] أوَّل ما رأى السِّمان، فقد رُوي أنه رأى سبعَ بقراتٍ سمانٍ خرجْنَ من نهرٍ يابس، ثمَّ خرج عقيبهنَّ سبعُ بقراتٍ عجافٍ فابتلعت السِّمانَ، ولم يتبيَّن عليها منهنَّ شيء.

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حَبُّها ﴿وَأُخَرَ﴾ أي: وسبعاً أُخر ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ قد أدركتْ والْتَوَتْ على الخضر، حتى غلبتْها ولم يبق من خُضرتها شيءٌ على ما روي، ولعلَّ عدم التعرُّض لذِكر العدد للاكتفاء بما ذُكر من حال البقرات.

ولا يجوز عطفُ «أُخر» على «سنبلات» لأنَّ العطف على المميز يقتضي أن يكون المعطوف والمعطوفُ عليه بياناً للمعدود، سواءٌ قيل بالانسحاب أو بتكرير العامل؛ لأنَّ المعنى على القولين لا يختلف، وإنما الاختلافُ في التقدير اللفظي، وحينئذ يلزمُ التدافُع في الآية لأنَّ العطف يقتضي أن تكونَ السُّنبلات خضرُها ويابسُها سبعاً، ولفظ «أخر» يقتضي أن يكون غيرَ السبع، وذلك لأنَّ تباينَها في

---

(١) في (م): بأنه.

الوصف أعني الخضرةَ واليبسَ منطوقٌ واشتراكهما في السنبليَّة، فيكون مقتضى لفظ «أخر» تغايرَهما في العدد ولزم التدافعُ. وعلى هذا يصحُّ أن تقول: عندي سبعةُ رجالٍ قيامٍ وقعودٍ، بالجرِّ؛ لأنَّك ميَّزت سبعةَ رجال موصوفين بالقيام والقعود على أنَّ بعضَهم كذا وبعضَهم كذا، ولا يصحُّ: سبعةُ رجالٍ قيامٍ وآخرين قعودٍ لِمَا علمت. فالآيةُ والمثال في هذا المبحث على وزانٍ واحد كما يقتضيه كلامُ «الكشاف»[1].

ونظر في ذلك صاحب «الفرائد» فقال: إنَّ الصحيح أنَّ العطفَ في حكم تكرير العامل، لا الانسحاب، فلو عطفَ «آخرين» على «رجالٍ قيامٍ» لكان «سبعة» مكرَّرةً في المعطوف، أي: وسبعة آخرين، أي: رجالٍ آخرين قعودٍ، ويفسد المعنى لأنَّ المفروض أنَّ الرجال سبعة، وأما الآية فلو كرر فيها وقيل: وسبع أخر، أي: وسبع سنبلاتٍ أُخر، استقام لأنَّ الخُضْر سبعٌ واليابساتِ سبعٌ، نعم لو خرِّج ذلك على المرجوح وهو الانسحابُ أدَّى إلى أنَّ السَّبْعَ المذكورة مميَّزة بسنبلاتٍ خُضْر وسنبلات أُخَر يابسات، وفسد، إذ المراد أنَّ كلًّا منهما سبعة لا أنها[2] سبعة، فالمثالُ والآية ليسا على وزانٍ؛ إذ هو على تكريرِ العامل يفسد وعلى الانسحاب يصحُّ، والآية بالعكس.

ثم بنى على ما زَعَمه ـ من أنَّ الصحيح قولُ التكرير ـ جوازَ العطف، وادَّعى أنَّ الأَولى أن يكون العطفُ على «خُضر» لا على «يابسات» ليدلَّ على موصوف آخر وهو «سنبلات»، ولا يقدَّر موصوفُها بقرينة السياق.

ولا يخفى أنَّ الكلام إنما هو على تقديرِ أن يكون مميزُ السَّبْع ما علمتَ، وعلى ذلك يلزم التَّدافُع، ولا يُبنى على فرض أنَّهم سبعةٌ أو أربعة عشر فيصحُّ في الآية ولا يصحُّ في المثال، فإنَّه وَهْم، ومن ذلك يظهر أنَّه لا مدخل للتَّكرير والانسحاب في هذا الفَرَض.

ثم إنَّ المختار قولُ الانسحاب على ما نصَّ عليه الشيخ ابنُ الحاجب وحقَّقه في

(١) ٢/ ٣٢٣.
(٢) في الأصل: أنهما.

غيرِ موضع، وأما الاستدلالُ بالآية على الانسحاب لا التقديرِ وإلا لكان لفظُ «أخر» تطويلاً يُصان كلامُ الله تعالى المعجِزُ عنه، فغيرُ سديدٍ على ما في «الكشف»؛ لأنَّ القائل بالتقدير يدَّعي الظهورَ في الاستقلال، وكذلك القائل بالانسحاب يدَّعي الظهورَ في المقابل على ما نصَّ عليه أئمةُ العربية، فلا يكون التأكيد بـ «أُخر» لإرادة النُّصوص تطويلاً، بل إطناباً يكون واقعاً في حاقِّ[1] موقعِه هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ خطابٌ للأشراف ممن يُظنُّ به العلم، يُروى أنَّه جمع السَّحرة والكَهَنة والمعبِّرين فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ هذه، أي: عبِّروها وبيِّنوا حكْمَها، وما تؤولُ إليه من العاقبة.

وقيل: هو خطابٌ لجلسائه وأهلِ مشورته، والتعبيرُ عن التعبير بالإفتاء لتشريفِهم وتفخيمِ أمرِ رؤياه.

﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: تعلمون عبارةَ جنس الرؤيا[2] عِلْماً مستمرًّا، وهي الانتقالُ من الصورةِ المشاهَدةِ في المنام إلى ما هي صورةٌ ومثالٌ لها من الأمور الآفاقيَّة والأنفسيَّة الواقعة في الخارج، من العُبُور: وهو المجاوزة، تقول: عَبَرْتُ النهرَ إذا قطعتَه وجاوَزْتَه، ونحوه: أوَّلتها، أي: ذكرتُ ما تَؤُول إليه، وعَبَرت الرؤيا ـ بالتخفيف ـ عبارةً، أقوى وأعرفُ عند أهل اللغة من عبَّرت بالتشديد تعبيراً، حتَّى إنَّ بعضهم أنكر التشديدَ، ويَرِدُ عليه ما أنشده المبرِّد في «الكامل» لبعض الأعراب وهو:

رأيتُ رؤيا ثمَّ عبَّرتها وكنتُ للأحلام عبَّارا[3]

والجمعُ بين الماضي والمستقبل للدلالةِ على الاستمرار كما أشيرَ إليه.

واللامُ قيل: متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، والمقصودُ بذاك البيانُ، كأنَّه لمَّا قيل: «تعبرون»، قيل: لأيِّ شيء؟ فقيل: للرؤيا، فهي للبيان كما في: سَقْياً له، إلَّا أنَّ تقديم البيان على المبيَّن لا يخلو عن شيء.

---

(١) حاقُّ كل شيء: وسطه. معجم متن اللغة (حقق).
(٢) جاء في حاشية (م): ذكر بعض المحققين أن الرؤيا تكون جمعاً فلا تغفل. اهـ منه.
(٣) الكامل ٢/ ٥٦٣.

وقيل - واختاره أبو حيَّان(١) -: إنَّها لتقوية الفعل المذكور؛ لأنَّه ضعُف بالتأخير، ويقال لها: لامُ التقوية، وتدخل في الفصيح على المعمول إذا تقدَّم على عامله مطلقاً، وعلى معمول غيرِ الفعل إذا تأخَّر، ك: زيدٌ ضاربٌ لعمرو.

وفي كونها زائدةً أو لا خلافٌ. وقيل: إنَّه جيء بها لتضمين الفعل المتعدِّي معنَى فعلٍ قاصرٍ يتعدَّى باللام، أي: إن كنتم تَنْتَدِبون(٢) لعبارتها.

وجوِّز أن يكون «للرؤيا» خبرَ كان، كما تقول: كان فلانٌ لهذا الأمر، إذا كان مستقلًّا(٣) به متمكِّناً منه، وجملةُ «تعبرون» خبرٌ آخرُ أو حالٌ. ولا يخفى ما في ذلك من التكلُّف، وكذا فيما قبله.

وقرأ أبو جعفر بالإدغام في «الرؤيا» وبابِه بعد قَلْب الهمزةِ واواً، ثمَّ قلبِ الواو ياءً لسَبْقها إيَّاها ساكنة(٤)، ونصُّوا على شذوذِ ذلك؛ لأنَّ الواو بدلٌ غيرُ لازم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قال الملأ للمَلِك إذ قال لهم ذلك؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ أي: هي أضغاث... إلخ، وهي جمع ضِغْث وهو أقلُّ من الحُزْمة وأكثرُ من القَبضة من أخلاط النبات، وقد يُطلق على ما كان من جنسٍ واحد كما في قوله:

خَـودٌ كـأنَّ فِـراشَـهـا وُضِـعـتْ بـه ... أضـغـاثُ رَيْـحـانٍ غَـداةَ شـمـالِ(٥)

وجُعل من ذلك ما في قوله تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ [ص: ٤٤] فقد رُوي أنَّ أيوبَ عليه السلام أخذ عثكالاً(٦) من النَّخْل فضرب به.

---

(١) في البحر ٥/ ٣١٢.
(٢) الانتداب افتعال من ندبه للأمر: إذا دعاه فانتدب له، أي: أجاب، فهو مطاوع له. حاشية الشهاب ٥/ ١٨١.
(٣) في (م): مستقبلاً، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٣٢٣، والدر المصون ٦/ ٥٠٤، وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٨١.
(٤) النشر ١/ ٣٩١، والبحر ٥/ ٣١٢.
(٥) البيت لتميم بن أبيّ بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٦٠. قوله: خود، الخود: الفتاة الحسنة الخَلْق. اللسان (خود).
(٦) هو في النخل بمنزلة العنقود من الكرم. اللسان (عثكل).

وفي «الكشاف»[١]: أنَّ أضغاث الأحلام تخليطُها وأباطيلُها، وما يكون منها من حديثِ نفسٍ أو وسوسةِ شيطان، وقد استُعيرت لذلك، وأصلُها ما جُمع من أخلاطِ النبات وحُزمٍ[٢]، وإضافتُها على معنى «من»، أي: أضغاثٌ من أحلام.

وأُورد عليه أنَّ الأضغاث إذا استُعيرت للأحلام الباطلة والأحلامُ مذكورة، ولفظ «هي» المقدَّر عبارةٌ عن رؤيا مخصوصةٍ، فقد ذُكِر المستعار والمستعارُ له، وذلك مانع من الاستعارة على الصحيح عندهم.

وقد أجاب الكثيرُ عن ذلك بما لا يخلو عن بحث، وذكر بعضُ المحقِّقين[٣] في تقرير ذاك وجهين:

الأوَّل: أنَّه يريد أنَّ حقيقةَ الأضغاث أخلاطُ النبات، فشُبِّه به التخاليطُ والأباطيلُ مطلقاً سواءٌ كانت أحلاماً أم غيرَها، ويشهد له قول «الصحاح» و«الأساس»: ضَغَثَ الحديثَ: خَلَطَه[٤]. ثمَّ أريد هنا بواسطة الإضافة أباطيلُ مخصوصةٌ، فطرفا الاستعارة أخلاطُ النبات والأباطيل الملفَّقات، فالأحلام ورؤيا المَلِك خارجان عنهما، فلا يضرُّ ذكرهما، كما إذا قلت: رأيتُ أسدَ قريشٍ، فهو قرينةٌ أو تجريد، وقوله: تخاليطُها، تفسير له بعد التخصيص، وقوله: وقد استُعيرت لذلك، إشارةٌ إلى التخاليط.

الثاني: أن الأضغاثَ استُعيرت للتخاليط الواقعة في الرؤيا الواحدة، فهي أجزاؤها لا عينُها، فالمستعارُ منه حزم النبات والمستعارُ له أجزاء الرؤيا، وهذا كما إذا استعرتَ الوَرْد للخدِّ، ثم قلت: شممتُ وردَ هندٍ مثلاً، فإنه لا يقال: إنَّه ذكر فيه الطَّرفان. اهـ، ولا يخفى ما فيه من التكلُّف وارتكابِ غير الظاهر.

واستظهر بعضُهم كونَ «أضغاث أحلام» من قبيل: لُجين الماء، ولا يخفى أنَّه

---

(١) ٢/ ٣٢٤.

(٢) في (م): وحزمة، وليست في الأصل، والمثبت من الكشاف، ومثله في حاشية الشهاب ٥/ ١٨١ نقلاً عن الكشاف.

(٣) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ١٨١.

(٤) الصحاح والأساس (ضغث).

سالم عمَّا أُورد على الزمخشري، إلا أن صاحب «الأساس» قد صرَّح بأنَّ ذلك من المجاز(١)، والمتبادر منه المجاز المتعارَفُ الذي لا يُطلق على ما ذكر(٢)، ولعلَّ الأمر في ذلك سهل.

والأحلام جمع حُلم بضمةٍ وبضمتين: المناماتُ الباطلةُ، على ما نصَّ عليه جمع. وقال بعضُهم: الرؤيا والحُلم عبارةٌ عمَّا يراه النائم مطلقاً، لكنْ غُلِّبت الرؤيا على ما يراه من الخيرِ والشيءِ الحَسَن، وغُلِّب الحُلُم على خلافه، وفي الحديث: «الرؤيا من الله تعالى والحُلم من الشيطان»(٣).

وقال التوربشتي(٤): الحُلم عند العرب يُستعمل استعمالَ الرُّؤيا، والتفريقُ من الاصطلاحات التي سنَّها الشارع ﷺ للفَصْل بين الحقِّ والباطل، كأنَّه كره أن يسمَّى ما كان من الله تعالى وما كان من الشيطان باسمٍ واحدٍ، فجعل الرؤيا عبارةً عن القِسْم الصالح لِمَا فيها من الدّلالة على مشاهدة الشيءِ بالبصر والبصيرة، وجعل الحُلمَ عبارةً عمَّا كان من الشيطان؛ لأنَّ أصل الكلمة لم تُستعمل إلا فيما يخيَّل للحالم في منامه من قضاءِ الشهوة بما لا حقيقةَ له. اهـ وهو كلامٌ حسنٌ، وممَّا يشهد له في دعوى كونِ الحُلم يُستعمل عند العرب استعمالَ الرؤيا البيتُ السَّابق الذي أنشده المبرِّد كما لا يخفى.

وإنما قالوا: «أضغاث أحلام» بالجمع مع أنَّ الرؤيا ما كانت إلَّا واحدةً للمبالغة في وصف ذلك بالبُطلان، وهذا كما يقال: فلانٌ يركب الخَيل ويلبس عمائمَ الخزِّ، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامةٌ فَرْدةٌ.

وفي «الفرائد»: لمَّا كانت «أضغاث أحلام» مستعارةٌ لِمَا ذُكر وهي تخاليطُها

---

(١) وهو قوله: ومن المجاز: هذه أضغاث أحلام، وهي ما التبس منها، وضَغَثَ الحديثَ: خلطه. أساس البلاغة (ضغث)، وحاشية الشهاب ٥/ ١٨٢، والكلام منه.

(٢) جاء في حاشية (م): لا يخفى أن صاحب «الأساس» قد يطلق المجاز على غير ما هو المتعارف. اهـ منه. والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١٨٢.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة ﷺ، وسلف ص٢٠١ من هذا الجزء.

(٤) فضل الله بن حسن، شهاب الدين أبو عبد الله الفقيه الحنفي، المتوفى سنة (٦٦١هـ). هدية العارفين ١/ ٨٢١، وذكر كلامه الشهاب في الحاشية ٥/ ١٨٢-١٨٣.

وأباطيلُها، وهي متحقِّقة في رؤيا واحدةٍ بحسب أنَّها مركَّبةٌ[1] من أشياءَ كلٌّ منها حُلم فكانت أحلاماً.

قال الشِّهاب[2]: وهو واهٍ وإن استحسنه العلَّامة الطِّيبي، نعم ليس هذا من إطلاقِ الجمع على الواحد لوجود ذلك في هذا الجنس؛ إذ الإضافة على معنى في[3].

ثمَّ نَقَلَ عن الرضيِّ أنه قال في «شرح الشافية»: إنَّ جمعَ القِلَّة ليس بأصلٍ في الجمع؛ لأنَّه لا يذكر إلا حيث يُراد بيانُ القِلَّة، فلا يُستعمل لمجرَّد الجمعيَّة والجنسيَّة كما يُستعمل له جمعُ الكثرة، يقال: فلانٌ حسنُ الثياب، في معنى: حَسَنُ الثَّوب، ولا يَحْسُنُ: حَسَنُ الأثواب[4]. و: كم عندك من الثَّوب أو من الثياب، ولا يحسُنُ: من الأثواب[5]. اهـ.

ثم قال: وقد ذكره الشريفُ في «شرح المفتاح» وهو مخالفٌ لما ذكروه هنا. فتأمَّله.

ولعلَّ ما ذُكر بعد تسليمه إنَّما هو في جمع القِلَّة الذي معه جمعُ كثرة كما ذكره في المثال، لا في ذلك وجَمْعِ القِلَّة الذي ليس معه جمعُ كثرة كما هنا، فإنَّا لم نجدْ في كتب اللغة جمعاً لمفردِ هذا الجمعِ غيرَ هذا الجمع، وقد ذكر غيرُ واحد أنَّ جمع القِلَّة إذا لم يُوجَد معه جمعُ كثرة يستعملُ استعمالَ جمع الكثرة.

ثمَّ لا يخفى حُسْنُ موقع الأضغاث مع السَّنابل، فيالله درُّ شأن التنزيل ما أبدعَ رياضَ بلاغتِه!

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ أي: المناماتِ الباطلة ﴿بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لأنَّها لا تأويلَ لها وإنما التأويلُ للمنامات الصادقة، وهذا إمَّا لشيوع الأحلام في أباطيلِها، وإما لكون اللَّام للعَهْد والمعهودُ الأضغاث منها، والكلام وارد على أسلوب:

---

(١) في (م): متركبة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٨٢، وفيه: إذا كانت مركبة، بدل: بحسب أنها مركبة.
(٢) في الحاشية ٥/ ١٨٢.
(٣) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب: على معنى من.
(٤) في (م): الثوب، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب وشرح الشافية ٢/ ٩٢.
(٥) شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الأستراباذي ٢/ ٩٢.

عــلــى لاحــبٍ لا يَــهــتــدي بــمــنــارِه(١)

وهو إشارةٌ إلى كبرى قياسٍ ساقوه للعُذر عن جَهْلهم، كأنَّهم قالوا: هذه رؤيا باطلة، وكلُّ رؤيا كذلك لا نعلم تأويلَها، أي: لا تأويلَ لها حتَّى نعلمَه، ينتج: هذه رؤيا لا تأويل لها.

وجوِّز أن يكون المرادُ من الأحلام الرُّؤى(٢) مطلقاً، و«أل» فيه للجنس، والكلامُ اعترافٌ منهم بقصور عِلْمهم وأنَّهم ليسوا بنحارير في تأويلِ الرُّؤى مع أنَّ لها تأويلاً.

واختاره ابن المنيِّر، وادَّعى أنَّه الظاهر(٣)، وأنَّ قولَ المَلِك لهم أوَّلاً: «إن كنتم للرؤيا تعبرون» دليلٌ على أنَّهم لم يكونوا في عِلْمه عالمين بها؛ لأنَّه أتى بكلمة الشكِّ، فجاء اعترافُهم بالقُصور مطابقاً لشكِّ المَلِك الذي أخرجه مخرجَ استفهامِهم عن كونهم عالمين، وأنَّ قول الفتى: «أنا أنبِّئكم بتأويله» إلى قوله: «لعلِّي أرجعُ إلى الناس لعلَّهم يعلمون» دليلٌ على ذلك أيضاً(٤).

وذكر بعضُ المحقِّقين أنه يُشعر به عُدُولهم عمَّا وقع في كلام الملك من العبارة المُعْرِبة(٥) عن مجرَّد الانتقال من الدَّالِّ إلى المدلول، حيثُ لم يقولوا: بتعبير الأحلام، أو: عبارتها، إلى التأويل المنبئ عن التصرُّف والتكلُّف في ذلك؛ لما بين الآيلِ والمآل من البُعد.

واعتُرض بأنَّه على هذا يبقى قولُهم: «أضغاث أحلام» ضائعاً؛ إذ لا دخلَ له في العذر.

وأجيب بأنَّه يمكن أن يكون المقصودُ منه إزالةَ خوف الملك من تلك الرؤيا، فلا يبقى ضائعاً.

---

(١) وعجزه: إذا سافه العَودُ النباطيُّ جرجرا، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ٢/ ٢٤١.

(٢) في حاشية (م): هي جمع رؤيا.

(٣) في حاشية (م): وكذا ادعى أبو حيان في البحر. اهـ منه.

(٤) الانتصاف ٢/ ٣٢٤.

(٥) في (م): المعبرة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢١٨، والكلام منه، وهو المقصود بقول المصنف: بعض المحققين.

وقال صاحب «الكشف»: إنَّ وجه ذلك أن يجعل الأول جواباً مستقِلًا، والثاني كذلك، أي: هاهنا أمران: أحدهما من جانب الرائي، والثاني من جانب المعبِّر، ووجهُ تقديم الظَّرف على عامله: أنَّا أصحابُ الآراء والتدابير، وعِلْمُنا بذلك رصينٌ لا بتأويل الرُّؤى، ووَجْهُه على الأوَّل ظاهرٌ، وادَّعى أنَّ المقامَ يطابقه، وورودُه على ذلك الأسلوب مقوٌّ له لا مُوهِنٌ، خلافاً لما في «الانتصاف»، ويَقْوى عند اختيار الوجه الثاني إذا كان الخطاب لجلسائِه وأهلِ مشورته من أهل الحلِّ والعَقْد؛ لأنَّ الأغلبَ على أمثالهم الجهلُ بمثل هذا العلم الذي لا يعلمُه إلا أفرادٌ من الناس.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: صاحبي يوسفَ عليه السلام، وهو الشرابيُّ ﴿وَادَّكَرَ﴾ بالدَّال غيرِ المعجمة عند الجمهور، وأصلُه: اذتكر؛ أُبدلت التاءُ دالاً وأُدغمت الدَّال فيها.

وقرأ الحسن: «اذَّكر»، بإبدال التاء ذالاً معجمة وإدغام الذال المعجمة فيها[1]، والقراءة الأُولى أفصحُ.

والمعنى على كليهما: تَذكَّرَ ما سبق له مع يوسفَ عليه السَّلام ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: طائفةٍ من الزمان ومدَّةٍ طويلة.

وقرأ الأشهب العقيلي: «إمَّة» بكسرِ الهمزة وتشديدِ الميم[2]، أي: نعمةٍ عليهِ بعدَ نعمة، والمراد بذلك خلاصُه من القتل والسِّجن وإنعامُ مَلِكه عليه، وعلى هذا جاء قولُه:

ألا لا أَرى ذا إمَّـةٍ أصـبَـحَـت بـه ... فـتـتـرُكُـه الأيـامُ وهـي كـمـا هـيـا[3]

وقال ابن عطيَّة: المراد بعد نعمةٍ أنعم اللهُ تعالى بها على يوسفَ عليه السلام، وهي تقريبُ إطلاقه[4]. ولا يخفى بُعْدُه.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٤، والبحر ٥/ ٣١٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٤، والبحر ٥/ ٣١٤.

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٢٨٨. قال ثعلب شارح الديوان: يقول: مَن أصبحت به نعمة لم تتركه الأيام حتى تغيرها. وجاء في حاشية (م): وقوله: ثم بعد الفلاح والملك والإمَّة وارتهم هناك قبور. اهـ منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٩.

وقرأ ابنُ عباس وزيدُ بنُ علي رضي الله عنهم، وأمةٌ[1]: «أَمَهٍ» بفتح الهمزة والميم المخفَّفة وهاءٍ منوَّنةٍ[2]، من أَمِه يأمَه أمَهاً: إذا نسي. وجاء في المصدر: «أَمْه» بسكون الميم أيضاً، فقد رُوي عن مجاهد وعكرمة وشُبيل بن عَزْرة الضبعي أنهم قرؤوا بذلك[3]، ولا عبرةَ بمن أنكر.

والجملةُ اعتراضٌ بين القول والمقول. وجوِّز أن تكون حالاً من الموصول أو من ضميرِه في الصِّلة، ويحتاج ذلك إلى تقديرِ «قد» على المشهور.

وقيل: معطوفةٌ على «نجا». وليس بشيء ـ كما قال بعضُ المحققين ـ لأنَّ حقَّ كلٍّ من الصِّلة والصِّفة أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصول والموصوف عند المخاطب كما عند المتكلِّم، ومن هنا قيل: الأوصافُ قبل العِلم بها أخبارٌ، والأخبارُ بعد العلم بها أوصاف، وأنت تعلم أن تذكُّره بعد أمَّة إنَّما عُلم بهذه الجملة، فلا معنى لنظمِه مع نجاته المعلومة من قبلُ في سلك الصِّلة.

﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أُخبركم بتأويل ذلك الذي خَفِيَ أمرُه بالتلقِّي ممن عندَه علمُه لا من تلقاء نفسي، ولذلك لم يَقُل: أفتيكم في ذلك، وعقَّبه بقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥﴾ إلى مَن عندَه عِلمُه، وأراد به يوسفَ عليه السلام، وإنما لم يصرِّح به حرصاً على أن يكون هو المرسَلَ إليه، فإنه لو ذكَره فلربَّما أرسلوا غيرَه.

وضميرُ الجمع إمَّا لأنه أراد الملك ومَن معه، أو لأنه[4] أراد الملك وحدَه لكنْ خاطبَه بذلك على سبيل التَّعظيم كما هو المعروفُ في خطاب الملوك، ويؤيِّده ما روي أنه لما سمع مقالةَ القوم جثى بين يدَي الملك وقال: إنَّ في السِّجن رجلاً عالماً يعبرُ الرؤيا، فابعثوني إليه. فبعثوه.

---

(١) في حاشية (م): أي: جماعة من التابعين. اهـ منه. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) البحر ٥/ ٣١٤ عن ابن عباس وزيد بن عليٍّ والضحاك وقتادة وأبو رجاء وشبيل بن عزرة الضبعي وربيعة بن عمرو. وقد أخرجها الطبري ١٣/ ١٨٤-١٨٦ عن ابن عباس وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد.

(٣) البحر ٥/ ٣١٤، وشبيل بن عزرة الضبعي، أبو عمرو البصري النحوي، هو ختن قتادة، وكان من أفاضل أهل البصرة وقرائهم. التهذيب ٢/ ١٥٢. وأخرج هذه القراءة عن مجاهد الطبري ١٣/ ١٨٦.

(٤) قوله: أراد الملك ومن معه أو لأنه، ساقط من (م).

وكان السجن ـ على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ في غير مدينة الملك. وقيل: كان فيها. قال أبو حيَّان ويرسمُ الناس اليوم سجنَ يوسف عليه السلام في موضعٍ على النيل بينه وبين الفُسطاط ثمانيةُ أميال[1]. والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وأخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه كان يقرأ: «أنا آتيكم» مضارعُ أتى من الإتيان، فقيل له: إنما هو: «أنا أنبِّئكم» فقال: أهو كان ينبِّئهم[2]؟!. وأخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن أبيٍّ أنه قرأ أيضاً كذلك[3]. وفي «البحر» أنه كذا في الإمام أيضاً[4].

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فأرسَلوه، فأتاه فقال: يا يوسفُ، ووَصَفَه بالمبالغة في الصِّدق حسبما عَلِمه وجرَّب أحواله في مدَّة إقامته معه في السِّجن؛ لكونهِ بصددِ اغتنام آثارِه واقتباسِ أنواره، فهو من باب براعةِ الاستهلال، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي للمستفتي أن يعظِّم المفتي.

واستُدلَّ بذلك على أنَّهما لم يكذبا على يوسفَ في منامهما، وأنَّهما كذبا في قولهما: كذبْنا، إنْ ثبت.

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي: في رؤيا ذلك، وإنَّما لم يصرِّح به لوضوح مرامِه بقرينةِ ما سبق من معاملتِهما، ولدلالةِ مضمون الحادثةِ عليه، حيث إنَّ مثله لا يقعُ في عالم الشهادة. والمعنى: بيِّن لنا مآلَ ذلك وحُكمَه.

وعبَّر عن ذلك بالإفتاء، ولم يقل كما قال هو وصاحبُه أوّلاً: «نبِّئنا بتأويله»، تفخيماً لشأنه عليه السَّلام حيثُ عاين رتبتَه في الفَضْل. ولم يقل: أفتني، مع أنَّه المستفتي وحدَه، إشعاراً بأنَّ الرؤيا ليست له بل لغيرِه ممَّن له ملابسةٌ بأمور العامَّة،

---

(١) البحر ٥/ ٣١٥.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٢، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٢. والقراءة عن الحسن في القراءات الشاذة ص٦٤، والبحر ٥/ ٣١٤. وجاء في حاشية (م): لعله لم يُرِدْ إلا مجرد ترجيح قراءته، فافهم. اهـ منه.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٢، وذكرها عن أبيٍّ أبو حيان في البحر ٥/ ٣١٤.

(٤) البحر ٥/ ٣١٤.

وأنه في ذلك معبرٌ وسفير، ولذا لم يغيِّر لفظَ الملك[١]، ويُؤذنُ بهذا قولُه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملك ومَنْ عنده، أو إلى أهل البلد، فأنبِّئُهم بما أفتيتَ.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه، أو: يعلمون فضلَك ومكانَك مع ما أنتَ فيه من الحال فتتخلَّص منه. والجملةُ عند أبي حيَّان على الأوَّل كالتعليل للرجوع، وعلى الثاني كالتعليل لـ «أفتنا»[٢].

وإنَّما لم يبتَّ القولَ بل قال: «لعلِّي» و«لعلَّهم» مجاراةً معه عليه السلام على نهجِ الأدب، واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقينٍ من الرجوع:

فبينما المرءُ في الأحياء مُغتبطٌ إذا هو الرمسُ تعفوه الأعاصيرُ[٣]

ولا مِن عِلْمِهم بذلك، فربَّما لم يعلموه: إمَّا لعدم فهمهم، أو لعدمِ اعتمادهم.

﴿قَالَ﴾ مستأنفٌ على قياس ما مرَّ غيرَ مرَّة: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ قرأ حفصٌ بفتح الهمز، والجمهورُ بإسكانها[٤]. وقرئ: «داباً» بألفٍ من غير همزٍ على التخفيف[٥]. وهو في كلٍّ ذلك مصدرٌ لـ «دأب»، وأصلُ معناه التَّعب، ويُكنى به عن العادة المستمرَّة لأنها تنشأ من مداومة العَمَل اللازم له التَّعبُ.

وانتصابُه على الحال من ضميرِ «تزرعون»، أي: دائبين، أو: ذوي دَأَبٍ، وأُفرد لأنَّ المصدر الأصلُ فيه الإفراد. أو على أنَّه مفعولٌ مطلَقٌ لفعلٍ محذوف، أي: تدأبون دأباً، والجملةُ حالية أيضاً. وعند المبرِّد مفعولٌ مطلق لـ «تزرعون»، وذلك عنده نظيرُ: قعد القرفصاءَ. وليس بشيء.

وقد أوَّل عليه السلام البقراتِ السِّمانَ والسنبلاتِ الخضرَ بسنين مخاصيب، والعجافَ واليابساتِ بسنين مُجْدِبةٍ، فأخبرهم بأنَّهم يواظبون على الزِّراعة سبعَ سنين

---

(١) في حاشية (م): قيل: لم يغير لفظ الملك لأن التعبير يكون على وفقه، فافهم. اهـ منه.
(٢) البحر ٥/ ٣١٥.
(٣) البيت لجبلة العذري كما في الحماسة البصرية ٢/ ٦٥، أو لحريث بن جبلة العذري كما في عيون الأخبار ٢/ ٣٠٥، واللسان (دهر)، أو لعِثْير بن لبيد العذري كما في اللسان (دهر).
(٤) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٥.
(٥) هي قراءة السوسي وأبي جعفر، ووقفاً حمزة. البدور الزاهرة ص١٦٤.

ويبالغون فيها؛ إذ بذلك يتحقَّق الخصبُ الذي هو مصداقُ البقرات السِّمان وتأويلُها.

وقيل: المراد الأمرُ بالزِّراعة كذلك، فالجملةُ خبرٌ لفظاً أمرٌ معنًى، وأُخرج على صورة الخبر مبالغةً في إيجاب إيجادِه حتَّى كأنه وقع وأخبر عنه، وأُيِّد بأنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ أي: في كلِّ سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ ـ ولا تذوره كيلا يأكله السُّوس كما هو شأنُ غِلالِ مصرَ ونواحيها إذا مضى عليها نحوُ عامين، ولعلَّه استدلَّ على ذلك بالسُّنبلات الخضر ـ يناسبُ كونَه أمراً مثله؛ قيل: لأنَّه لو لم يؤوَّل ذلك بالأمر، لزم عطفُ الإنشاء الخبر؛ لأن «ما» إما شرطيةٌ أو موصولةٌ متضمِّنة معنى الشرط، وعلى كلِّ حالٍ فلكون الجزاء إنشاءً تكونُ إنشائيَّةً معطوفة على خبريَّة.

وأُجيب بأنَّا لا نسلِّم أنَّ الجملة الشرطية التي جوابُها إنشائيٌّ إنشائية، ولو سلِّم فلا نسلِّم العطفَ، بل الجملةُ مستأنفة لنُصحِهم وإرشادهم إلى ما ينبغي أن يفعلوه، حيثُ لم يكن معتاداً لهم كما كان الزَّرعُ كذلك، أو هي جوابُ شرط مقدَّر، أي: إنْ زرعتم فما حَصَدْتم.. إلخ.

وأيضاً يحتمل الأمرُ عكسَ ما ذكروه، بأنْ يكون «ذروه» بمعنى: تَذَروه، وأُبرز في صورة الأمر لأنه بإرشاده، فكأنَّه(١) أَمَرهم به.

والتحقيقُ ما في «الكشف» من أنَّ الأظهرَ أنَّ «تزرعون» على أصله؛ لأنَّه تأويلُ المنام بدليلِ قوله الآتي: «ثم يأتي»، وقولُه: «فما حصدتُم فذروه» اعتراضٌ اهتماماً منه عليه السلام بشأنهم قبلَ تتميم التأويل، وفيه ما يؤكِّد أمر السَّابق واللاحق كأنَّه قد كان، فهو يأمرهم بما فيه صلاحُهم، وهذا هو النَّظم المعجِز. انتهى.

وذكر بعضُهم أنَّ «ما حصدتم» إلخ ـ على تقديرِ كون «تزرعون» بمعنى ازرعوا ـ داخلٌ في العبارة، فإنَّ أكْلَ السَّبعِ العِجاف السبعَ السِّمان، وغلبةَ السنبلات اليابساتِ الخضرَ، دالٌّ على أنَّهم يأكلون في السِّنين المجدبة ما حصل في السنين المخصبة، وطريقُ بقائه تعلَّموه من يوسف عليه السلام فبقي لهم في تلك المدَّة. وقيل: إنَّ

---

(١) في الأصل و(م): فكأنهم، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ١٨٤، والكلام منه.

«تزرعون» على هذا التقدير، وكذا ما بعدَه، خارجٌ عن العبارة. والكلُّ كما ترى.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: اتركوا ذلك في السُّنبل إلَّا ما لا غنى عنه من القليل الذي تأكلونه في تلك السنين، وفيه إرشادٌ[١] إلى التقليل في الأكل.

وقرأ السُّلمي: «مما يأكلون» بالياء على الغيبة، أي: يأكلُ الناس[٢].

والاقتصارُ على الاستثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوماً من قوله عليه السلام: «تزرعون سبع سنين».

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد السِّنين السبعِ المذكورات. وإنَّما لم يقل: من بعدهنَّ، قَصْداً إلى تفخيم شأنهنَّ[٣]. ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سبعُ سنين صعابٌ على الناس، وحذف التمييز لدلالة الأوَّل عليه.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: ما ادَّخرتُم في تلك السنين من الحبوب المتروكة في سَنابلها لأجلهنَّ، وإسنادُ الأكل إليهنَّ مع أنه حالُ الناس فيهنَّ مجازيٌّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧] واللَّام في «لهن» ترشيحٌ لذلك، وكان الدَّاعي إليه التطبيقَ بين المعبَّر والمعبَّرِ به، ويجوز أن يكون التعبيرُ بذلك للمشاكلة لِمَا وقع في الواقعة. وفسَّر بعضُهم الأكلَ بالإفناء كما في قولهم: أَكَلَ السَّير لحمَ الناقة، أي: أفناه وذهب به.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: تُحْرِزونه وتخبِّئونه لبزورِ الزِّراعة[٤]، مأخوذٌ من الحِصْن وهو الحِرْز والملجأ.

---

(١) في الأصل: إشارة، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٢.

(٢) البحر ٥/ ٣١٥.

(٣) في حاشية (م): وفي إرشاد العقل السليم: لم يقل ذلك قصداً إلى الإشارة إلى وصفهن فإن الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية. اهـ فتدبر. اهـ منه. والكلام في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٣.

(٤) في حاشية (م): البذر والبزر بمعنًى كما في «العين»، وهو الحب الذي يجعل في الأرض لينبت، وقال ابن دريد على ما في «المجمل»: البذر بالذال في البقول، والبزر بالزاي خلافه. اهـ منه. والكلام في حاشية الشهاب ٥/ ١٨٤.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: السنينَ الموصوفة بما ذُكر من الشِّدَّة وأكْلِ المدَّخر من الحبوب ﴿عَامٌ﴾ هو كالسَّنة لكنْ كثيراً ما يُستعمل فيما فيه الرخاءُ والخصبُ، والسَّنة فيما فيه الشِّدةُ والجَدْب، ولهذا يعبَّر عن الجدب بالسنة، وكأنَّه تحاشياً عن ذلك وتنبيهاً من أوَّل الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السَّوابق عبَّر به دون السَّنة.

﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يصيبهم غيث، أي: مطر كما قال ابن عباس ومجاهد والجمهور. فهو من غاث الثلاثيِّ اليائي، ومنه قولُ الأعرابية: غِثْنا ما شِئنا[1]، وقولُ بعضهم: أذى البراغيثِ إذا البَرَى غِيث[2].

وقيل: هو من الغَوث، أي: الفرج، يقال: أغاثنا الله تعالى: إذا أمدَّنا برفع المكارِه حين أظلَّتنا، فهو رباعيٌّ واوي.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ من العصْر المعروف، أي: يعصرون ما من شأنه أن يُعصر: من العِنَب، والقَصَب، والزيتون، والسِّمْسِم، ونحوها من الفواكه لكثرتِها، والتعرُّض لذِكْره كما قال بعضُ المحقِّقين[3] مع جواز الاكتفاء عنه بذِكْر الغَيث المستلزمِ له عادةً كما اكتفى به عن ذِكر تصرُّفهم في الحبوب، إمَّا لأنَّ استلزام الغَيث له ليس كاستلزامه للحبوب؛ إذ المذكورات يتوقَّف صلاحُها على أمورٍ أخرى غيرِ المطر، وإمَّا لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصَّة به بشارةً له، وهي التي يدور عليها حسنُ موقع تغليبه على «الناس» في قراءة حمزةَ والكسائي بالفوقانية[4].

وعن ابن عباس تفسيرُ ذلك بـ «يحلبون»، وكأنَّه مأخوذٌ من العَصْر المعروف؛ لأنَّ في الحلب عصرُ الضرع ليخرجَ الدَّرُّ.

---

(١) أي: مُطِرنا ما أردنا. ووقع في الأصل و(م): ما شيتنا، بدل: ما شئنا، وهو تصحيف، والمثبت من الكشاف ٢/ ٣٢٥، واللسان (غيث)، والدر المصون ٦/ ٥١٠، وحاشية الشهاب ٥/ ١٨٤.

(٢) نسب هذه العبارة صاحب الوافي بالوفيات ٣/ ١٠١ لابن شرف القيرواني محمد بن أبي سعيد، أبي عبد الله الجذامي، والمقصود بالبرى: التراب.

(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٨٣.

(٤) التيسير ص١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥، وهي قراءة خلف من العشرة.

وتكرير «فيه» إمَّا ـ كما قيل ـ للإشعار باختلاف ما يقع فيه زماناً وعنواناً[(١)]، وإمَّا لأنَّ المقام مقامُ تعداد منافعِ ذلك العامِ، ولأجله قدِّم في الموضعين على العامل، فإنَّ المقامَ بيانُ أنَّه يقع في ذلك العامَ هذا وذاك، لا بيانُ أنهما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير.

وجوِّز أن يكون التقديمُ للقصر، على معنى أنَّ غيثَهم [وعصرهم[(٢)]] في تلك السنين كالعدم بالنِّسبة إلى عامهم ذلك، وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاةِ الفواصل، وفي الأوَّل لرعاية حاله.

وقرأ جعفرُ بن محمد ، والأعرج، وعيسى البصرة: «يُعْصَرون» على البناء للمفعول[(٣)].

وعن عيسى: «تُعصَرون» بالفوقانية مبنيًّا للمفعول أيضاً[(٤)]، من عَصرهُ الله تعالى: إذا أنجاه، أي: يُنجيهم الله سبحانه ممَّا هم فيه من الشدَّة، وهو مناسبٌ لقوله: «يُغاث الناس». وعن أبي عبيدة وغيره: أخذ المبني للفاعل من العصر بمعنى النَّجاة أيضاً[(٥)].

وفي «البحر» تفسير العَصَر والعُصْرة ـ بالضمِّ ـ بالمنجا، وأنشد قولَ أبي زُبيد في عثمان :

صادياً يستغيثُ غيرَ مُغاثٍ ولقد كان عُصْرةَ المَنْجودِ[(٦)]

---

(١) أي: للإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زماناً وهو ظاهر، وعنواناً فإن الغيث والغوث من فضل الله تعالى، والعصر من فعل الناس. تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٣.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٣، وعنه نقل المصنف.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٤، والبحر ٥/ ٣١٦.

(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٣٧٠، والبحر ٥/ ٣١٦.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣١٣.

(٦) البحر ٥/ ٣١٥، وأبو زبيد هو حرملة بن منذر الطائي، ويقال: المنذر بن حرملة. كان نصرانيًّا واختلف في إسلامه، وهو أحد المعمَّرين، يقال: عاش مئة وخمسين سنة. الإصابة ١١/ ١٥٤. والبيت ليس في رثاء عثمان كما ذكر أبو حيان وقبله ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥١، وإنما هو من قصيدة في رثاء ابن أخت أبي زبيد كما ذكر البكري في اللآلي ١/ ١١٩، واليزيدي في أماليه ص٨، وتنظر قصيدته بتمامها في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٧٣١.

وقال ابن المستنير[١]: معناه يُمطَرون، من أَعْصَرَتِ السَّحابةُ عليهم، أي: حان وقتُ عصرِ الرياح لها لتمطرَ، فـ «على» صلةُ الفعل، كما في: عصرتُ الليمونَ على الطعام. فحُذفت وأُوصل الفعل بنفسِه. أو تضمَّن «أعصرتْ» معنى مطرتْ فتعدَّى تعديتَه. وفي «الصحاح» عصِر القومُ، أي: أُمطروا، ومنه قراءة بعضهم: «وفيه يُعصَرون»[٢]. وظاهرُه أنَّ اللفظ موضعٌ لذلك فلا يحتاجُ إلى التضمين عليه.

وحكى النقَّاش أنه قرئ: «يُعصِّرون» بضمِّ الياء وكسرِ الصَّاد وتشديدِها من عصَّر مشدَّداً للتكثير، وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما: «وفيه تِعِصِّرون» بكسر التاء والعين والصَّاد وتشديدِها[٣]، وأصلُه: تعتصرون، فأدغم التاءَ في الصَّاد ونقل حركتَها[٤] إلى العين، وأتبع حركةَ التاء لحركةِ العين، واحتمل أن يكون من: اعتصرَ العنب ونحوه، أو من اعتصر بمعنى نجا، ومن ذلك قوله:

لو بغيرِ الماء حَلقي شَرِقٌ كنتُ كالغصَّان بالماء اعتصاري[٥]

ثم إنَّ أحكامَ هذا العام المبارك - كما أخرج ابنُ جرير[٦] وغيرُه عن قتادة - عِلْمٌ آتاه الله تعالى علمه لم يكنْ فيما سُئل عنه، وروي مثلُ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعَنَيا أنَّ ذلك بالوحي، وهو الظاهر.

ولقد أتى عليه السلام بما يدلُّ على فضله في آخر فتواه على عكسِ ما فعل أوَّلاً عند الجواب عن رؤيا صاحبَيْه، حيث أتى بذلك في أوَّلها، ووجهُ ذلك ظاهر.

وقيل: إنَّ هذه البشارةَ منه عليه السَّلام لم تكنْ عن وحي بل لأنَّ العادة جاريةٌ بأنَّ انتهاءَ الجدب الخصبُ، أو لأنَّ السنَّة الإلهية على أن يوسِّعَ على عباده سبحانه

---

(١) في الأصل و(م): المنير، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٢٥١، والبحر ٥/ ٣١٦. وابن المستنير هو قطرب. ينظر الدر المصون ٦/ ٥١١.

(٢) الصحاح (عصر) دون قوله: ومنه قراءة...، والقراءة سلفت قريباً عن جعفر بن محمد والأعرج وعيسى.

(٣) القراءتان في البحر ٥/ ٣١٦.

(٤) أي: حركة الصاد.

(٥) البيت لعدي بن زيد، وهو في الشعر والشعراء ١/ ٢٢٩، والعقد الفريد ١/ ٣٣، والصحاح (شرق).

(٦) في تفسيره ١٣/ ١٩٣.

بعد ما ضيِّق عليهم. وفيه أنَّه لو كان كذلك لأُجملَ في البشارة، وأنَّ حصرَ الجدب يقتضي تغييرَه بخصبٍ مَّا لا على ما ذكره، خصوصاً على ما تقتضيه بعضُ القراءات من إغاثةِ بعضِهم بعضاً، فإنَّها لا تُعلم إلا بالوحي.

ثمَّ إنه عليه السلام بعد أن أفتاهم وأرشدَهم وبشَّرهم كان يتوقَّع وقوعَ ما أخبر به، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أنه عليه السَّلام كان بعد ذلك يصنعُ لرجلٍ طعامَ اثنين فيقرِّبه إلى الرجل فيأكلُ نصفَه ويدعُ نصفه، حتى إذا كان يومٌ قرَّبه له فأكله كلَّه، فقال عليه السلام: هذا أوَّلُ يومٍ من الشِّداد[1].

واستدل البلخيُّ بتأويله لذلك على بطلانِ قولِ من يقول: إنَّ الرؤيا على ما عبِّرت أوَّلاً، فإنهم كانوا قد قالوا: «أضغاث أحلام»، فلو كان ما قالوه مؤثِّراً شيئاً لأعرض عليه السلام عن تأويلِها.

وفيه بحث، فقد روى أبو داود وابنُ ماجه عن أبي رزين: «الرؤيا على جناحِ طائرٍ ما لم تُعبَّر فإذا عُبِّرت وقعتْ، ولا تقصَّها إلا على وادٍّ وذي رأي»[2]. ولعلَّه إذا صحَّ هذا يلزم القول بأنَّ الحكم على الرؤيا بأنها «أضغاث أحلام» وأنَّها لا تأويل[3] لها ليس من التَّعبير في شيء، وإلا فالجمعُ بين ما هنا وبين الخبر مُشكل.

وقال ابن العربي[4]: إنَّه ينبغي أن يُخصَّ ذلك بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً، فيعبَّر بأحدِها فيقع عليه.

واستدلُّوا بذلك أيضاً على صحَّة رؤيا الكافر، وهو ظاهر.

وقد ذكروا للاستفتاء عن الرؤيا آداباً: منها أن لا يكونَ ذلك عند طلوع الشمس أو عند غروبها أو في الليل، وقالوا: إنَّ تعبيرَها مناماً هو تعبيرُها في نفس الأمر،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٤.
(٢) سنن أبي داود (٥٠٢٠)، وسنن ابن ماجه (٣٩١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦١٨٣)، والترمذي (٢٢٧٨) وقال: حسن صحيح. وجاء عندهم: . . . على رجلِ طائر. . .
(٣) في (م): لا ذيل.
(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٧-١٠٧٨.

فلا تحتاج إلى تعبير بعدُ. وأكثروا القولَ فيما يتعلَّق بها، وأكثرُ ما قيل ممَّا لا يظهرُ لي سرُّه ولا أرى بعضَ ذلك إلا أضغاث[1] أحلام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ بعد ما جاء السَّفير المعبِّر بالتعبير، وسمع منه ما سمع من نقيرٍ وقِطمير: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ لِمَا رأى من علمِه وفضْلِه وإخباره عمَّا لا يعلمه إلا اللطيفُ الخبير.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ وهو صاحبه الذي استفتاه، وقال له: إنَّ المَلِكَ يريد أن تخرجَ إليه. ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيِّدك وهو الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: فتِّشه عن شأنهنَّ وحالهنَّ، وإنما لم يقل: فاسأله أنْ يفتِّش عن ذلك، حثًّا للملك على الجدِّ في التفتيش لتتبينَّ براءتُه وتتَّضح نزاهتُه، فإنَّ السؤالَ عن شيء مما يهيِّج الإنسانَ ويحرِّكه للبحث؛ لأنه يأنفُ من الجهل، ولو قال: سَلْه أن يفتِّش، لكان تهييجاً له عن الفحص عن ذلك، وفيه جراءةٌ عليه، فربَّما امتنع منه ولم يلتفت إليه.

وإنما لم يتعرَّض عليه السلام لامرأة العزيز مع أنَّها الأصلُ الأصيل لِمَا لاقاه تأدُّباً وتكرُّماً، ولذا حمَلَها ذلك على الاعتراف بنزاهتِه وبراءةِ ساحته.

وقيل: احترازاً عن مكرِها حيثُ اعتقدها باقيةً في ضلالها القديم، وأما النِّسوة فقد كان يطمع في صدعهنَّ بالحقِّ، وشهادتهنَّ بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصفهنَّ بتقطيع الأيدي ولم يصرِّح بمراودتهنَّ له، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ مجاملةً معهن، واحترازاً عن سوء مقالتهنَّ، وانتصابهنَّ عند رفعهنَّ إلى الملك للخصومة عن أنفسهنَّ متى سمعنَ بنسبته لهنَّ إلى الفساد.

وفي «الكشاف» أنه عليه السلام أراد بهذا أنَّه كيدٌ عظيم لا يعلمه إلا الله تعالى، أو استشهد بعلم الله تعالى على أنهنَّ كِدْنَه وأنه بريءٌ ممَّا قُرف به، أو أراد الوعيدَ لهنَّ، أي: عليم بكيدهنَّ فمجازيهنَّ عليه[2]. انتهى.

---

(١) في (م): كأضغاث.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٦.

وكأنَّ الحصرَ على الأوّل مِن قُربه مِن: زيد يعلم، وصُلوحِه لإفادته عندَه[(١)]، أو من اقتضاء المقام لأنَّه إذا حملَه على السؤال ثمَّ أضاف عِلْمه إلى الله تعالى دلَّ به على عظمته، وأنَّ الكُنْه غيرُ مأمولِ الوصول، لكنْ ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك كلُّه، وهذا هو الوجه، وفيه زيادةُ تشويق وبعثٌ إلى تعرُّف الأمر، فالجملة عليه تتميمٌ لقوله: «فاسأله» إلخ، والكيدُ اسمٌ لمَا كِدْنَه به.

وعلى الوجه الثاني تكون تذييلاً[(٢)]، كأنَّه قيل: احملْه على التعرُّف يتبيَّنْ له براءةُ ساحتي، فإنَّ الله سبحانه يعلم أنَّ ذلك كان كيداً منهنَّ، وإذا كان كيداً يكونُ لا محالةَ بريئاً، والكيد هو الحدث.

وعلى الثالث تحتملها، والمعنى بَعْثُ الملك على الغَضب له والانتقامِ منهنَّ، وإلَّا لم يتلاءم الكلامُ.

ولا يطابقُ كرمَ يوسف عليه السلام الذي عجب منه نبيُّنا عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج غيرُ واحد عن ابن عباسٍ وابنِ مسعود عنه ﷺ أنَّه قال: «لقد عجبتُ من يوسفَ وكرمِه وصبرِه، والله تعالى يغفر له، حين سُئل عن البقرات العِجاف والسِّمان، ولو كنتُ مكانه ما أَجَبْتُهم حتى اشترطتُ أن يخرجوني، ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسولُ فقال: «ارجع إلى ربك» ولو كنتُ مكانه ولبثتُ في السِّجن مالبث، لأسرعتُ الإجابة وبادرتُهم الباب ولما ابتغيتُ العذرَ، إنْ كان لحليماً ذا أناة»[(٣)].

---

(١) في حاشية (م): أي صاحب الكشاف. اهـ منه. وقوله: لإفادته، أي: لإفادة الحصر.

(٢) جاء في حاشية (م): وقال الطيبي: كأنه قال: والله تعالى شاهدي، وشهادة الله تعالى تلك الأمارات الدالة على براءته، اهـ ولا يحتاج إلى هذا، ففي الكيد غنية على أنه حسن. اهـ منه.

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٦٠)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٠)، وإسناده ضعيف جدًّا، وقد سلف الكلام عليه ص٣٤٧ من هذا الجزء، وليس فيه: «إن كان لحليماً ذا أناة» وهذه العبارة أخرجها الطبري ١٣/ ٢٠٠ من حديث أبي هريرة ﷺ.
ولم نقف عليه من حديث ابن مسعود ﷺ، ويشهد لبعضه حديث أبي هريرة ﷺ في صحيح البخاري (٤٦٩٤)، وصحيح مسلم (١٥١)، وفيه: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي». ولفظه عند أحمد (٨٥٥٤): «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر».

ودعاؤه له ﷺ قيل: إشارةٌ إلى ترك العزيمة بالرُّخصة؛ وهي تقديم حقِّ الله تعالى بتبليغ التوحيد والرِّسالة على براءة نفسه. وجعله العلامةُ الطيبي من قبيل قولك لمن تعظِّمه: رضي الله تعالى عنك ما جوابُك عن كلامي؟

وقيل: يمكن أن يقال: إنَّ في براءة النفس من حقِّ الله تعالى ما فيها، فإنَّها إذا تحقَّقت عندهم وقع ما تلاها موقعَ القبول، وقد ذكر أنَّ الاجتهاد في نفي التُّهم واجبٌ وجوبَ اتِّقاء الوقوف في مواقفها[1]، فقد قال ﷺ: «مَن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنَّ مواقفَ التُّهم»[2].

وأخرج مسلمٌ من رواية أنس أنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام كان مع إحدى نسائِه فمرَّ به رجلٌ، فدعاه وقال: «هذه زوجتي» فقال: يا رسولَ الله، مَن كنتُ أظنُّ به فلم أكنْ أظنُّ بك. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشيطان يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدَّم»[3].

وكأنَّه لهذا كان الزمخشري وكان ساقط الرِّجل قد أَثبت على القُضاة أنَّ رِجلَه لم تُقطع في جناية ولا فسادٍ، بل سقطتْ من ثلجٍ أصابها في بعض الأسفار، وكان يُظهر مكتوبَ القضاة في كلِّ بلدٍ دخله خوفاً من تُهمة السُّوء.

فلعلَّه عليه السلام خشي إن خرجَ[4] ساكتاً عن أمر ذنبه، غيرَ متَّضحةٍ براءةُ ساحته عمَّا سُجِن فيه وقُرف به، من أن يتسلَّق به الحاسدون إلى تقبيحِ أمره، ويجعلوه سُلَّماً إلى حطِّ قَدْره ونَظرِ الناس إليه بعين الاحتقار، فلا يَعلقُ كلامُه في قلوبهم، ولا يترتَّب على دعوته قبولُهم، وفي ذلك مِن تعرِّي التبليغ عن الثمرة ما فيه.

وما ذكره ﷺ: «ولو كنتُ مكانه» إلخ كانَ تواضعاً منه عليه الصلاة والسلام لا أنه لو كان مكانَه بادر وعجل، وإلا فحِلمُه ﷺ وتحمُّله واهتمامُه بما يترتَّب عليه قبول الخَلْق أوامرَ الحقِّ سبحانه وتعالى أمرٌ معلوم لدى الخواصِّ والعموم.

---

(١) جاء في حاشية (م): وزعم بعضهم أن الآية تدل على ذلك، وفيه نظر. اهـ منه.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٢٥ و ٣/ ٢٧٣.
(٣) صحيح مسلم (٢١٧٤).
(٤) في (م): أن يخرج.

وزعم ابن عطيَّةَ أنه يحتمل أنْ يكون عليه السلام أراد بالرَّبِّ العزيزَ كما قيل في قوله: «إنَّه ربي أحسن مثواي»، ففي ذلك استشهادٌ به وتقريعٌ له[١]. وليس بشيء، ومثله ما قيل: إنَّ ضمير «كيدهنَّ» ليس عائداً على النِّسوة المذكورات بل عائدٌ على الجنس فافهم.

وقرأ أبو حيوةَ وأبو بكر عن عاصم في رواية: «النُّسوة» بضم النون، وقرأت فرقة: «اللاي» بالياء[٢]، وهو كاللاء جمع التي.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال كما سبق، كأنه قيل: فما كان بعد ذلك؟ فقيل: قال الملك إثرَ ما بلَّغه الرسولُ الخبرَ وأحضرهنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: شأنكنَّ، وأصلُه: الأمر العظيم الذي يحقُّ لعظمته أن يكثرَ فيه التخاطبُ ويُخطب له ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ وخادعتُنَّه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ورغَّبتُنَّه في طاعة مولاته، هل وجدتنَّ فيه ميلاً إليكن؟

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له، وتعجيباً من نزاهته عليه السلام وعفَّتِه ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ بالغْنَ في نفي جنس السُّوء عنه بالتنكير وزيادةِ «من».

وفي «الكشف» في توجيه كون السؤال المقدَّر في نظم الكلام عن وجدانهنَّ فيه الميل، وذلك لأنَّه سؤالٌ عن شأنهنَّ معه عند المراودة، وأوَّله الميلُ ثمَّ ما يترتَّب عليه: وحَمَله[٣] على السؤال مدَّعَى النزاهة الكلِّية، فيكون سؤالُ الملك منزَّلاً عليه؛ إذ لا يمكن ما بعدَه إلا إذا سلِّم الميل، وجوابهنَّ عليه ينطبق لتعجبهنَّ عن نزاهته بسبب التعجُّب من قدرة الله تعالى على خَلْقِ عفيفٍ مثلِه، ليكون التعجُّب منها على سبيلِ الكناية، فيكون أبلغَ وأبلغَ، ثم نفيهنَّ العلمَ[٤] مطلقاً وطرفاً، أي: طرفَ وهمٍ من سوءٍ أيِّ سوءٍ، فضلاً عن شهود الميل معهنَّ. اهـ، وهو من الحُسْن بمكان.

وما ذكره ابنُ عطية[٥] من أنَّ النسوة قد أجبنَ بجوابٍ جيِّد تَظْهرُ منه براءةُ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢.

(٢) القراءتان في البحر ٥/ ٣١٧. والمشهور عن عاصم القراءة بكسر النون في «النسوة».

(٣) في حاشية (م): أي يوسف عليه السلام. اهـ منه.

(٤) في حاشية (م): قد صرح غير واحد أن المراد بالعلم هنا الإدراك. اهـ منه.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

أنفسهنَّ جملةً، وأعطينَ يوسفَ عليه السلام بعضَ براءةٍ؛ وذلك أنَّ الملك لمَّا قرَّرهنَّ أنهنَّ راودْنه، قلنَ جواباً عن ذلك وتنزيهاً لأنفسهنَّ: «حاش لله»، و[قد] يحتمل [على بُعدٍ] أن يكون في جهته عليه السلام، وقولُهنَّ: «ما علمنا» إلخ ليس بإبراءٍ تامٍّ، وإنما هو[1] شرحُ القصَّة على وجهها حتَّى يتقرَّر الخطأُ في جهتهنَّ = ناشئٌ عن الغفلة عمَّا قرَّره المولى صاحب «الكشف».

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرةَ المجلس، قيل: أقبلت النِّسوة عليها يقرِّرْنها. وقيل: خافتْ أن يشهدْن عليها بما قالتْ يوم قطَّعنَ أيديهنَّ، فأقرَّت قائلةً:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبيَّن بعد خفاء؛ قاله الخليل. وهو مأخوذٌ من الحصَّة وهي القطعةُ من الجملة، أي: تبيَّنتْ حصَّة الحقِّ من حصَّة الباطل، والمراد تميُّز هذا عن هذا، وإلى ذلك ذهب الزجَّاج أيضاً[2].

وقيل: هو مِن حصَّ شعرَه: إذا استأصله بحيث ظهرتْ بشرةُ رأسه، وعلى ذلك قوله:

قد حصَّت البيضةُ رأسي فما ... أطعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ[3]

ويرجع هذا إلى الظُّهور أيضاً.

وقيل: هو من حصحصَ البعيرُ: إذا ألقى مَبارِكَه ليناخ؛ قال حميدُ بن ثور الهلاليُّ يصف بعيراً:

فحصْحَصَ في صُمِّ الصَّفا ثَفِناتِه ... وناء بسَلْمى نوءةً ثمَّ صمَّما[4]

(١) أي: الإبراء التام، كما في المحرر الوجيز.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ١١٥.
(٣) البيت لأبي قيس بن الأسلت الأوسي، وهو في المفضليات ص٢٨٤، والكامل ١/ ٢٣٥، والصحاح (حصص)، والخزانة ٣/ ٤١١. والتَّهجاع: النومة الخفيفة. الصحاح (هجع).
(٤) ديوان حميد بن ثور ص١٩، والصحاح (صمم)، والمخصص ١٢/ ١٠٩، والكشاف ٢/ ٣٢٦، واللسان (صمم)، وفيه: صمَّم في السير وغيره، أي: مضى. والثفنات جمع ثفنة: وهي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ. والصفا: الحجارة. والصم جمع أصم، وهو الصلب من الحجارة. حاشية الشهاب ٥/ ١٨٦.

والمعنى: الآن ثبت الحقُّ واستقرَّ، وذكر الراغبُ وغيرُه أن حصَّ وحصحص ككَفَّ وكَفْكف، وكبَّ وكبكب[١].

وقرئ بالبناء للمفعول[٢]، على معنى: أُقرَّ الحقُّ في مقرِّه ووُضع في موضعه.

و«الآن» من الظروف المبنيَّة في المشهور[٣]، وهو اسمٌ للوقت الحاضرِ جميعُه كوقتِ فعل الإنشاء حالَ النُّطق به، أو الحاضِر بعضُه كما في هذه الآية، وقولِه سبحانه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال:٦٦] وقد يَخْرُجُ عند ابن مالك عن الظرفيَّة كخبر «فهو يهوي في النار، الآنَ حينَ انتهى إلى قعْرها»[٤] فإنَّ «الآن» فيه في موضع رفعٍ على الابتداء، و«حين» خبرُه، وهو مبنيٌّ لإضافته إلى جملةٍ صدرُها ماضٍ.

وألِفُه منقلبةٌ عن واو؛ لقولهم في معناه: الأوان. وقيل: عن ياء؛ لأنَّه من آن يئين، إذا قرُب.

وقيل: أصلُه: أوان، قُلبت الواو ألفاً ثم حُذفت لالتقاءِ الساكنين. ورُدَّ بأنَّ الواو قبل الألف لا تُقلب، كالجواد والسَّواد.

وقيل: حُذفت الألف وغيِّرت الواوُ إليها كما في راحٍ ورَوَاح، استعملوه مرَّة على فَعَلٍ وأخرى على فَعَال، كزَمَنٍ وزَمان.

واختلفوا في علَّة بنائه؛ فقال الزَّجَّاج: بني لتضمُّنه معنى الإشارة؛ لأنَّ معناه: هذا الوقت[٥]. ورُدَّ بأنَّ المتضمِّن معنى الإشارة بمنزلة اسم الإشارة وهو لا تدخلُه «أل».

---

(١) مفردات الراغب (حصص).

(٢) القراءات الشاذة ص٦٤، والبحر ٥/ ٣١٧.

(٣) في حاشية (م): ودليل اسميتها دخول «أل» وحرف الجر. اهـ منه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، والآجري في الشريعة (٩٣٠) عن أبي هريرة ﷺ، والكلام من همع الهوامع للسيوطي ٢/ ١٨٤. ورواية مسلم: حتى، بدل: حين. ووقع في (م): مقرها، بدل: قعرها، وهو تصحيف.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤-٢٥، ونقله المصنف عنه ـ وكذا ما سيأتي من أقوال ـ بواسطة السيوطي في همع الهوامع ٢/ ١٨٥-١٨٦.

وقال أبو علي: لتضمُّنه معنى لام التَّعريف؛ لأنه استُعمل معرفةً وليس عَلَماً، و«أل» فيه زائدة. وضعِّف[١] بأنَّ تضمُّن اسم معنى حرفٍ اختصاراً ينافي زيادةَ ما لا يعتدُّ به، هذا مع كون المزيد غيرَ المضمَّن معناه، فكيف إذا كان إيَّاه؟

وقال المبرِّد وابن السَّرَّاج: لأنه خالف نظائرَه إذ هو نكرةٌ في الأصل استُعمل من أوَّل وضعِه باللَّام، وبابُها أن تدخلَ على النَّكرة. وإليه ذهب الزمخشري.

وردَّه ابن مالك بلزوم بناءِ الجَّماء الغَفير[٢] ونحوه ممَّا وقع في أوَّل وضعه باللام، وبأنَّه لو كانت مخالفةُ الاسم لسائر الأسماء موجبةً لشَبَهِ الحرف واستحقاقِ البناء، لوجبَ بناءُ كلِّ اسم خالفَ الأسماء بوزنٍ أو غيرِه، وهو باطل بإجماع. واختار[٣] أنَّه بني لشبه الحرف في ملازمةِ لفظٍ واحدٍ، لأنه لا يثنَّى ولا يُجمع ولا يصغَّر بخلافِ حين، ووقت، وزمان، ومدَّة. وردَّه أبو حيَّان بما ردَّ هو به على مَن تقدَّم[٤].

وقال الفرَّاء[٥]: إنما بني لأنَّه نُقل من فعلٍ ماض وهو «آنَ» بمعنى حانَ، فبقي على بنائه استصحاباً، على حدِّ: أنهاكم عن قيلَ وقالَ.

ورُدَّ بأنَّه لو كان كذلك لم تدخل عليه «ألْ» كما لا تدخل على ما ذُكر، وجاز فيه الإعراب كما جاز فيه[٦].

وذهب بعضُهم إلى أنَّه مُعرَبٌ منصوبٌ على الظرفية، واستَدَلَّ بقوله:

كأنَّهما مِلْآنِ لم يتغيَّرا[٧]

---

(١) جاء في حاشية (م): هو ابن مالك. اهـ منه. والكلام من همع الهوامع ٢/ ١٨٥.
(٢) الجماء: بيضة الرأس، سميت بذلك لأنها جماء، أي: ملساء، ووصفت بالغفير لأنها تغفر، أي: تغطي الرأس. اللسان (جمم).
(٣) في التسهيل ص٩٥، والكلام من همع الهوامع ٢/ ١٨٥.
(٤) وقول أبي حيان كما في همع الهوامع: وهو مردود بما رد به هو (يعني ابن مالك) على الزمخشري.
(٥) في معاني القرآن ١/ ٤٦٨، والكلام من همع الهوامع ٢/ ١٨٦.
(٦) أي: في قيل وقال. وكذا قوله: على ما ذكر، أي: على قيل وقال. همع الهوامع ٢/ ١٨٦.
(٧) وعجزه: وقد مرَّ للدارين من بعدنا عصرُ، والبيت لأبي صخر الهذلي، وسلف ٢/ ٢٤٣.

بكسر النون، أي: من الآن، فحُذفت النُّون والهمزةُ وجُرَّ، فدلَّ على أنَّه مُعرَبٌ.

وضعِّف(١) باحتمال أن تكون الكسرةُ كسرةَ بناء، ويكون في بناء «الآن» لغتان: الفتح والكسرُ، كما في «شتَّان» إلَّا أنَّ الفتحَ أكثرُ وأشهر.

وفي «شرح الألفية» لابن الصَّائغ: أنَّ الذي قال: إنَّ أصلَه «أوان»، يقول بإعرابه كما أن أواناً مُعْرَبٌ. واختار الجلال السيوطيُّ(٢) القولَ بإعرابه؛ لأنَّه لم يثبتْ لبنائه علَّة معتبرةٌ، فهو عنده منصوبٌ على الظرفية، وإن دخلت «من» جُرَّ، وخروجُه عن الظرفية غيرُ ثابت، وفي الاستدلال بالحديث السابق مقالٌ.

وأيًّا ما كان فهو هنا متعلِّق بـ «حصحص»، أي: حصحص الحقُّ في هذا الوقت.

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لا أنَّه راودني عن نفسي، وإنَّما قالت ذلك بعدَ اعترافها تأكيداً لنزاهتِه عليه السلام، وكذا قولُها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي: في قوله حين افتريتُ عليه: «هي راودتني عن نفسي».

قيل: إنَّ الذي دعاها لذلك كلِّه التوخِّي لمقابلة الاعتراف ـ حيث لا يُجدي الإنكار ـ بالعفو.

وقيل: إنَّها لما تناهتْ في حُبِّه لم تُبالِ بانتهاك ستْرِها وظهورِ سرِّها.

وفي «إرشاد العقل السليم»(٣) أنَّها لم تُرِدْ بقولها: «الآن» إلخ مجرَّدَ ظهورِ ما ظهر بشهادة النِّسوة من مُطلَق نزاهتِه عليه السلام فيما أحاط به علمهنَّ، من غير تعرُّضٍ لنزاهته في سائر المواطن خصوصاً فيما وقع فيه التَّشاجُر بمحضرِ العزيز، ولا بَحْثٍ عن حال نفسِها وما صنعتْ في ذلك، بل أرادتْ ظهورَ ما هو متحقِّقٌ في نفس الأمر وثبوتَه، من نزاهته عليه السلام في محلِّ النزاع وخيانتها، ولهذا قالت: «أنا راودته» إلخ، وأرادت بـ «الآن» زمانَ تكلُّمها بهذا الكلام لا زمانَ شهادتهنَّ،

(١) في حاشية (م): المضعِّف هو ابن مالك. اهـ منه.
(٢) في همع الهوامع ٢/ ١٨٧.
(٣) ٤/ ٢٨٥.

فتأمل أيها المنصف(١)، هل ترى فوقَ هذه المرتبة نزاهةً، حيث لم يتمالك الخُصَماءُ من الشَّهادة بها على أتمِّ وجه، والفضلُ ما شهدت به الخُصَماءُ؟

وليت مَن نَسَبَ إليه السُّوء ـ وحاشاه ـ كان عنده عُشرُ مِعشارِ ما كان عند أولئك النِّسوة الشاهداتِ من الإنصاف.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ الذي ذهب إليه غيرُ واحد أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى التثبُّت مع ما تلاه من القصَّة أجمعُ، فهو من كلام يوسفَ عليه السلام(٢)، جَعَله فذلكةً منه لِمَا نهض له أوَّلاً من التشمُّر لطهارة ذيلِه وبراءة ساحتِه.

وقد حكى الله تعالى ما وقع من ذلك طبقَ الوجودِ مع رعاية ما عليه دأبُ القرآن من الإيجاز، كحذفِ: فرجع إلى ربِّه، فأنهاهُ مقالةَ يوسف، فأحضرهنَّ سائلاً قال: «ما خطبكن» إلخ. وكذلك ـ كما قيل ـ في «قالت امرأة العزيز» إلخ.

وكذلك هذا أيضاً؛ لأنَّ المعنى: فرجع إليه الرسولُ قائلاً: فتَّش الملكُ عن كُنْه الأمر، وبان له جليَّةُ الحقِّ من عصمتك وأنَّك لم ترجعْ في ذلك المقام الدَّحضِ بمسِّ مُلام، فعند ذلك قال عليه السلام: «ذلك ليعلم» العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في حُرمته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: بظهر الغيب.

وقيل: ضمير «يَعلم» للمَلِك، وضميرُ «أخنْه» للعزيز، وقيل: للمَلِك أيضاً لأنَّ خيانةَ وزيرِه خيانةٌ له. والباءُ إمَّا للمُلابسة أو للظرفيَّة، وعلى الأوَّل هو حالٌ من فاعلِ «أخُنْه»، أي: تركتُ خيانتَه وأنا غائبٌ عنه، أو من مفعولِه، أي: وهو غائب عنِّي. وهما متلازمان. وجوِّز أن يكون حالاً منهما، وليس بشيء، وعلى الثاني فهو ظرفٌ لغوٌ لما عندَه، أي: «لم أخنْه» بمكان الغَيب وراءَ الأستار والأبواب المغلَّقة، ويَحتمل الحاليَّةَ أيضاً.

---

(١) في الأصل و(م): انتهى فافهم وتأمل، بدل: فتأمل أيها المنصف، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٢) في حاشية (م): وفي الكشاف: صح ذلك لدلالة المعنى عليه، ونحوُه قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠]. وفيه دغدغة فتأمل. اهـ منه. وهو في الكشاف ٢/٣٢٨.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وليعلم أنَّ الله تعالى ﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ أي: لا يُنفذُه ولا يسدِّدُه، بل يبطلُه ويزهقه، فهداية الكيد مجازٌ عن تنفيذه.

ويجوز أن يكون المرادُ: لا يهدي الخائنين بسبب كيدِهم[1]، فأَوْقعَ الهدايةَ المنفيَّةَ على الكيد ـ وهي واقعةٌ عليهم ـ تجوُّزاً للمبالغة؛ لأنَّه إذا لم يهدِ السبب عُلم منه عدمُ هداية مسبِّبه بالطريقِ الأَولى.

وفيه تعريضٌ بامرأة العزيز في خيانتها أمانتَه، وبه في خيانته أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسِه بعد ما رأَوا الآياتِ الدَّالَّةَ على نزاهته عليه السلام.

ويجوز أن يكونَ مع ذلك تأكيداً لأمانته عليه السلام، على معنى: لو كنتُ خائناً لما هدى الله تعالى كيدي ولا سدَّده.

وتُوهِمُ عبارةُ بعضهم عدمَ اجتماع التأكيد والتعريض، والحقُّ أنه لا مانعَ من ذلك، وأراد بكيدِه تشمُّرَه وثباتَه ذلك، وتسميتُه كيداً على فرضِ الخيانة على بابها حقيقةٌ كما لا يخفى، فما في «الكشف» من أنه سمَّاه كيداً استعارةً أو مشاكلةً ليس بشيء.

وقيل: إنَّ ضمير «يَعلم» و«لم أخنْه» لله تعالى، أي: ذلك ليعلم الله تعالى أنِّي لم أَعْصِه، أي: ليُظْهِرَ أنِّي غيرُ عاصٍ ويُكرمَني به ويصير سببَ رفع منزلتي، وليظهرَ أنَّ كيد الخائن لا ينفُذُ، وأنَّ العاقبة للمطيع لا للعاصي، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ [البقرة: ١٤٣] وله نظائرُ أُخَر في القرآن كثيرةٌ.

إلا أنَّ الله تعالى أخبر عن نفسِه بذلك، وأمَّا غيره فلم يَرِدْ في الكتاب العزيز، وفيه نوعُ إيهامِ التحاشي عنه أحسنُ، على أنَّ المقام لِمَا تقدَّم أَدْعَى.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أي: لا أنزِّهها عن السُّوء، قال ذلك عليه السلام هضماً لنفسه البريَّة عن كلِّ سوء، وتواضُعاً لله تعالى، وتحاشياً عن التزكية والإعجاب

---

(١) جاء في حاشية (م): في عبارة بعضهم: بكيدهم، فالباء إما متعلقة بالفعل (يعني بـ «يهدي»)، أو متعلقة بـ «الخائنين»، وفيه تنبيه على أنه تعالى يهدي كيد من لم يقصد الخيانة بكيده، كيوسف على السلام في كيده إخوتَه، كذا قيل: فتدبر. اهـ منه. والبعض المذكور هو البيضاوي، والشرح للشهاب في الحاشية ٥/ ١٨٦.

بحالها، على أسلوب قوله ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدمَ ولا فَخْر»[١].

أو تحديثاً بنعمة الله تعالى، وإبرازاً لسِرِّه المكنون في شأن أفعال العباد، أي: لا أنزِّهها من حيثُ هي هي، ولا أُسند هذه الفضيلةَ إليها بمقتضى طبعِها من غير توفيقٍ من الله سبحانه، بل إنَّما ذلك بتوفيقه جلَّ شأنُه ورحمتِه.

وقيل: إنه أشار بذلك إلى أنَّ عدم التعرُّض لم يكن لعدم الميل الطبيعي، بل لخوفِ الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ البشريَّة التي من جملتها نفسي في حدِّ ذاتها ﴿لَأَمَّارَةٌۢ﴾ لكثيرةُ الأمر ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بجنسه، والمراد أنَّها كثيرةُ الميل إلى الشهوات مستعملةً في تحصيلها القوى والآلات.

وفي كثير من التفاسير أنَّه عليه السلام حين قال: «لِيَعْلَمَ أنِّي لم أَخُنْه بالغيب» قال له جبريلُ عليه السلام: ولا حينَ هممتَ؟ فقال: «وما أبرِّىء نفسي» إلخ، وقد أخرجه الحاكم في «تاريخه» وابنُ مردويه بلفظٍ قريب من هذا عن أنس مرفوعاً[٢]، وروي ذلك عن ابن عباس وحكيمِ بن جابر والحسنِ وغيرهم. وهو إنَّ صحَّ يُحمل الهمُّ فيه على الميل الصَّادر عن طريق الشَّهوة البشرية لا عن طريقِ العَزْم والقصد.

وقيل: لا مانعَ من أن يُحمل على الثاني، ويقالَ: إنَّه صغيرة، وهي تجوزُ على الأنبياء عليهم السلام قبلَ النبوَّة، ويُلتزم أنَّه عليه السلام لم يكنْ إذ ذاك نبياً.

والزمخشريُّ جعل ذلك وما أشبَهه من تلفيقِ المبطلةِ وبهتِهم على الله تعالى ورسولِه[٣]. وارتضاه ـ وهو الحريُّ بذلك ـ ابن المنيِّر، وعرَّضَ بالمعتزلة بقوله: وذلك شأنُ المبطلة من كلِّ طائفة[٤].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه ابن حبان (٦٢٤٢) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ. وورد أيضاً ضمن حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (١٠٩٧٢)، والبخاري (٤٧١٢)، ومسلم (٢٢٧٨) دون قوله: «ولا فخر».

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٣.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٢٨.

(٤) الانتصاف مع الكشاف ٢/ ٣٢٨.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ قال ابنُ عطية[1]: الجمهورُ على أنَّ الاستثناءَ منقطعٌ، و«ما» مصدريَّة، أي: لكن رحمةُ ربِّي هي التي تصرفُ عنها السوء، على حدِّ ما جوِّز في قوله سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [يس: ٤٣-٤٤].

وجوِّز أن يكون استثناءً من أعمِّ الأوقات، و«ما» مصدرية ظرفية زمانيَّة، أي: هي أمَّارةٌ بالسوء في كلِّ وقتٍ إلا في وقتِ رحمة ربِّي وعصمتِه، والنَّصبُ على الظرفية لا على الاستثناء كما تُوهِّم، لكنْ فيه التفريغُ في الإثبات، والجمهورُ على أنه لا يجوز إلا بعدَ النفي أو شبهه، نعم أجازه بعضُهم في الإثبات إن استقام المعنى، كـ: قرأت إلا يومَ الجمعة.

وأُورد على هذا بأنَّه يلزم عليه كونُ نفس يوسفَ وغيرِه من الأنبياء عليهم السلام مائلةً إلى الشهوات في أكثر الأوقات، إلا أنْ يُحمل ذلك على ما قبل النبوَّة بناءً على جواز ما ذُكر قبلها، أو يُرادَ جنسُ النَّفس لا كلُّ واحدة.

وتُعقِّب بأنَّ الأخير غيرُ ظاهر؛ لأنَّ الاستثناء معيارُ العموم، ولا يَردُ ما ذكر رأساً؛ لأنَّ المراد هضمُ النوع البشريِّ اعترافاً بالعجز لولا العصمةُ، على أنَّ وقتَ الرحمة قد يعمُّ العمرَ كلَّه لبعضهم. اهـ، ولعلَّ الأولى الاقتصارُ على ما في حيِّز العلاوة، فتأمَّل.

وأن يكون استثناءً من «النفس»، أو من الضميرِ المستتر في «أمَّارة» الراجع إليها، أي: كلُّ نفس أمَّارةٌ بالسُّوء إلا التي رحمها الله تعالى وعصَمَها عن ذلك كنفسي، أو من مفعول «أمَّارة» المحذوفِ، أي: أمارةٌ صاحبَها إلَّا ما رحمه الله تعالى، وفيه وقوعُ «ما» على مَنْ يعقل، وهو خلافُ الظاهر. ولْينظر الفرقُ في ذلك بينه وبينَ انقطاع الاستثناء.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ عظيمُ المغفرة فيغفر ما يعتري النفوس بمقتضى طباعها، ومبالغٌ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجبِ ذلك. والإظهارُ في مقام الإضمار مع التعرُّض لعنوان الربوبية لتربية مبادي المغفرة والرحمة، ولعلَّ تقديمَ ما يُفيد الأولى على ما يفيد الثانية لأنَّ التخليةَ مقدَّمة على التحلية.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٤.

وذهب الجبَّائيُّ ـ واستظهره أبو حيَّان[١] ـ إلى أنَّ «ذلك ليعلم» إلى هنا من كلامِ امرأة العزيز، والمعنى: ذلك الإقرارُ والاعترافُ بالحقِّ ليعلم يوسفُ أنِّي لم أَخُنْهُ ولم أكذبْ عليه في حالِ غيبته، وما أبرِّئ نفسي مع ذلك من الخيانة حيثُ قلتُ ما قلتُ وفعلتُ به ما فعلتُ، إنَّ كلَّ نفس أمَّارةٌ بالسوء إلا نفساً رَحِمها الله تعالى بالعِصمة كنفس يوسفَ عليه السلام، إنَّ ربي غفورٌ لمن استغفر لذَنبه واعترفَ به، رحيمٌ له.

وتَعقَّب ذلك صاحبُ «الكشف» بأنَّه ليس مُوْجِبهُ إلا ما تُوهِّم من الاتِّصال الصُّوري، وليس بذاك، ومن أين لها أن تقول: «وما أبرِّئ نفسي» بعد ما وضح ـ ولا كَشِيَةِ الأَبْلَق[٢] ـ أنها أمُّها يرجع إليها طِمُّها ورِمُّها[٣]؟

ومن الناس مَن انتصر له بأنَّ أمر التعليل ظاهرٌ عليه، وهو على تقدير جعْلِه من كلامه عليه السلام غيرُ ظاهر؛ لأنَّ عِلْمَ العزيز بأنَّه لم يكن منه ما قُرف[٤] به إنَّما يستدعي التفتيشَ مطلقاً، لا خصوصَ تقديمه على الخروج حين طلبه الملك، والظاهرُ على ذلك التقدير جعلُه له.

وأجيب بأنَّ المراد: ليظهرَ علمُه على أتمِّ وجهٍ، وهو يستدعي الخصوصَ، ويساعدُ على إرادة ظهور العلم أنَّ أصلَ العلم كان حاصلاً للعزيز قبلُ حين شهد شاهدٌ من أهلها، وفيه نظر.

ويمكن أن يقال: إنَّ في التثبُّت وتقديمِ التفتيش على الخروج من مراعاة حقوقِ العزيز ما فيه، حيثُ لم يخرج من حبسه قبلَ ظهور بطلان ما جعله سبباً له مع أنَّ الملك دعاه إليه، ويترتَّب على ذلك علمُه بأنه لم يخنْه في شيءٍ من الأشياء أصلاً فضلاً عن خيانته في أهله؛ لظهورِ أنَّه عليه السلام إذا لم يُقْدِمْ على ما عسى أن يُتوهَّم أنه نقضٌ لِمَا أبرمه مع قوَّة الدَّاعي وتوفُّرِ الدواعي، فهو بعدم

---

(١) في البحر ٥/ ٣١٧.

(٢) البَلَق: ارتفاع التحجيل إلى الفخذين، ويقال للدابَّة: أَبْلق وبَلْقاء. والشِّيَة: كلُّ لون يخالف معظمَ لون الفرس وغيره. اللسان (بلق) و(وشي).

(٣) الطِّمّ: الرطب، والرِّمّ: اليابس. اللسان (رمم).

(٤) قَرَفَ فلانٌ فلاناً: وقع فيه. تهذيب اللغة ٩/ ١٠٢ (قرف).

الإقدام على غيره أجدرُ وأحرى، فالعِلَّة للتثبُّت مع ما تلاه من القصَّة هي قصدُ حصول العلم بأنَّه عليه السلام لم يكنْ منه ما يخوَّن به، كائناً ما كان مع ما عطف عليه، وذلك العلم إنَّما يترتَّب على ما ذُكر لا على التفتيش ولو بعد الخروج كما لا يخفى.

أو يقال: إنَّ المراد: ليجريَ على موجب العلم بما ذُكر، بناءً على التزامِ أنَّه كان قبل ذلك عالماً به لكنَّه لم يجرِ على موجب عِلْمِه، وإلا لَمَا حبسه عليه السلام، فيتلافى تقصيرَه بالإعراض عن تقبيح أمرِه، أو بالثناء عليه ليحظى عند الملك ويعظِّمَه الناس، فتَيْنَع من دعوته أشجارُها، وتجري في أودية القلوب أنهارُها، ولا شكَّ أنَّ هذا ممَّا يترتَّب على تقديمِ التفتيش كما فعل.

وليس ذلك ممَّا لا يليق بشأنه عليه السلام، بل الأنبياءُ عليهم السلام كثيراً ما يفعلون مثلَ ذلك في مبادي أمرهم، وقد كان نبيُّنا ﷺ يُعطي الكافرَ إذا كان سيِّد قومِه ما يُعطيه ترويجاً لأمره. وإذا حُمل قولُه عليه السلام لصاحبه الناجي: «اذكرني عند ربك» على مِثْلِ هذا ـ كما فعل أبو حيَّان[1] ـ تناسَبَ طرفا الكلامِ أشدَّ تناسُبٍ، وكذا لو حُمل ذاك على ما اقتضاه ظاهرُ الكلام وتضافرت عليه الأخبار.

وقيل هنا: إنَّ ذلك لئلَّا يقبِّحَ العزيزُ أمرَه عند الملك تمحُّلاً لإمضاء ما قضاه، ويكون ذلك من قبيل السَّعي في تحقيق المقتضي لخلاصِه، وهذا من قبيل التَّشمير لرفع المانع، لكنَّه ممَّا لا يليقُ بجلالة شأنِه عليه السلام، ولعلَّ الدُّعاء بالمغفرة في الخبر السَّالف على هذا إشارةٌ إلى ما ذكر.

ويقال: إنَّه عليه السلام إنَّما لم يُعاتَب عليه كما عُوتب على الأوَّل لكونه دونَه، مع أنَّه قد بلغَ السيلُ الزُّبى. ولا يخفى أنَّ عودَه عليه السلام لِمَا يستدعي أدنى عتابٍ بالنِّسبة إلى منصبه بعدَ أن جرى ما جرى في غاية البُعد، ومن هنا قيل:

---

(١) في البحر ٥/٣١١، قال: والذي أختاره أن يوسف إنما قال للساقي: «اذكرني عند ربك» ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقي ورفيقه، والضمير في «فأنساه» عائد على الساقي، ومعنى «ذكر ربه»: ذكر يوسف لربِّه، والإضافة تكون بأدنى ملابسة.

الأَولى أن يجعلَ ما تقدَّم كما تقدَّم، ويُحملَ هذا على أنَّه عليه السلام أراد به تمهيدَ أمر الدَّعوة إلى الله تعالى جَبْراً لِمَا فعل قبلُ، واتِّباعاً لخلافِ الأَوْلى بالنَّظر إلى مقامه بالأولى.

وقيل في وجه التعليل غيرُ ذلك، وأخرج ابنُ جرير عن ابنِ جُريج أنَّ هذا من تقديمِ القرآن وتأخيرِه[1]. وذهب إلى أنه متَّصل بقوله: «فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن»إلخ. ويَرِدُ على ظاهره ما لا يخفى، فتأمَّل جميعَ ما ذكرناه لتكونَ على بصيرة من أمرك.

وفي رواية البزِّي عن ابن كثير، وقالون عن نافع أنهما قرأا: «بالسُّوِّ» على قلب الهمزة واواً والإدغام[2].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أجعلْه خالصاً ﴿لِنَفْسِى﴾ وخاصّاً بي.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ في الكلام إيجازٌ، أي: فأَتَوْا به فلمَّا. . .إلخ، وحُذف ذلك للإيذان بسرعة الإتيان، فكأنَّه لم يكن بينه وبينَ الأمر بإحضاره عليه السلام والخطابِ معه زمانٌ أصلاً، ولم يكن حاضراً مع النِّسوة في المجلس كما زعمه بعضٌ، وجَعَل المراد من هذا الأمر: قرِّبوه إلي.

والضميرُ المستكنُّ في «كلَّمه» ليوسفَ عليه السلام، والبارزُ للملك، أي: فلما كلَّم يوسفُ عليه السلام الملكَ إثرَ ما أتاه فاستنطقَه ورأى حُسْنَ مَنطقِه بما صدَّق الخُبْرُ الخَبَرَ[3].

واستَظْهَر في «البحر» كونَ الضمير الأوَّل للملك والثاني ليوسف، أي: فلما كلَّمه الملكُ ورأى حُسنَ جوابه ومحاورته[4] ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانةٍ ومنزلةٍ رفيعة ﴿أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ مؤتمنٌ على كلِّ شيء، وقيل: آمِنٌ من كلِّ مكروه، والوصفُ بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥١.
(٢) التيسير ص ١٢٩، والنشر ١/ ٣٨٣.
(٣) الخُبْر: العلم بالشيء، والخَبَر محرَّكةً: النبأ. القاموس (خبر).
(٤) البحر ٥/ ٣١٩.

و«اليوم» ليس بمعيارٍ للمكانة والأمانة بل هو آنُ التكلُّم، والمراد تحديدُ مبدئهما احترازاً عن كونهما بعدَ حين. وفي اختيار «لَدَى» على «عند» ما لا يخفى من الاعتناء بشأنِه عليه السلام، وكذا في اسميَّةِ الجملة وتأكيدِها.

روي أنَّ الرسول جاءَه فقال له: أجبِ الملكَ الآن بلا معاودة، وألْقِ عنك ثيابَ السِّجن، واغتسلْ والبَسْ ثياباً جُدُداً. ففعل، فلما قام ليخرجَ دعا لأهل السِّجن: اللهمَّ عطِّف عليهم قلوبَ الأخيار، ولا تُعَمِّ عليهم الأخبار. فهم أعلمُ الناس بالأخبار في كلِّ بلد. ثم خرج فكتبَ على الباب: هذه منازلُ البلوى، وقبورُ الأحياء، وشماتةُ الأعداء، وتجربةُ الأصدقاء. فلمَّا وصل إلى باب الملك قال: حسبي ربِّي من دنياي، وحسبي ربِّي من خَلْقه، عزَّ جارُك وجلَّ ثناؤك ولا إله غيرُك. فلمَّا دخل على الملك قال: اللهمَّ إنِّي أسألكَ بخيرِكَ من خيرِه، وأعوذُ بكَ من شرِّه وشرِّ غيرِه. ثم سلَّم عليه بالعربية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟! فقال: لسانُ عمِّي إسماعيل، ثمَّ دعا له بالعبرانية، فقال له: وما هذا اللسان أيضاً؟! فقال: هذا لسانُ آبائي، وكان الملك يعرفُ سبعين لساناً، فكلَّمه بها فأجابه بجميعِها، فتعجَّب منه وقال: أيُّها الصِّدِّيق إنِّي أحبُّ أن أسمعَ رؤياي منكَ. فحكاها عليه السلام له طبقَ ما رأى لم يخرمْ منها حرفاً، فقال الملك: أَعْجَبُ من تأويلك إيَّاها معرفتُكَ لها! فأجلسه معه على السرير وفوَّض إليه أمرَه[1]. وقيل: إنه أجلسه قبلَ أن يقصَّ الرؤيا.

وأخرج ابنُ جرير عن ابن إسحاق قال: ذَكَروا أنَّ قطفيرَ هَلَكَ في تلك الليالي[2]، وأنَّ الملك زوَّج يوسفَ امرأتَه راعيل[3]، فقال لها حين أُدخلت عليه: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فقالت: أيُّها الصِّدِّيق لا تلُمْني، فإني كنت امرأةً كما ترى حسناءَ جملاءَ ناعمةً في مُلْكٍ ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النِّساء، وكنتَ

---

(١) أخرجه الثعلبي في عرائس المجالس ص ١٢٩ مطولاً من طريق إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٩٠: هذا إسناد ساقط.

(٢) في حاشية (م): وجاء في رواية أن الملك عزله ونصَّب يوسف عليه السلام منصبه. اهـ منه.

(٣) في هامش (م): وكان ذلك على الفور بناء على أنه لم تكن العدة من دينهم. اهـ منه.

كما جعلكَ الله تعالى في حُسنك وهيئتِك، فغلَبتْني نفسي على ما رأيت. فيزعمون أنَّه وجدَها عذراءَ، فأصابها فولدتْ له رجلين: إفرائيم وميشا[1].

وأخرج الحكيم الترمذيُّ عن وهب قال: أصابت امرأةَ العزيز حاجةٌ، فقيل لها: لو أتيتِ يوسفَ بنَ يعقوب فسألتيه. فاستشارت الناسَ في ذلك، فقالوا: لا تفعلي؛ فإنَّا نخافُه عليك. قالت: كلَّا إنِّي لا أخاف ممَّن يخاف الله تعالى. فأُدخلت عليه فرأته في ملكِه فقالت: الحمدُ لله الذي جعلَ العبيد ملوكاً بطاعته، ثمَّ نظرت إلى نفسِها فقالت: الحمد لله الذي جعلَ الملوك عبيداً بمعصيته. فقضى لها جميعَ حوائجها، ثمَّ تزوَّجَها فوجدها بِكْراً، الخبر[2].

وفي رواية: أنَّها تعرَّضتْ له في الطريق فقالت ما قالت، فعرفها فتزوَّجها فوجدها بِكْراً، وكان زوجُها عنِّيناً.

وشاع عند القُصَّاص أنَّها عادت شابَّة بِكْراً؛ إكراماً له عليه السلام بعد ما كانت ثيِّباً غيرَ شابة، وهذا ممَّا لا أصل له. وخبرُ تزوُّجها أيضاً ممَّا لا يعوَّل عليه عند المحدِّثين، وعلى فرضِ ثبوت التزوُّج فظاهرُ خبر الحكيم أنَّه إنَّما كان بعدَ تعيينه عليه السلام لِمَا عُيِّن له من أمر الخزائن.

قيل: ويُعرب عنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ، وفي معناه قولُ بعضهم: أي: أرضكَ التي تحت تصرُّفك، وقيل: أراد بالأرض الجنسَ، وبخزائِنها الطعامَ الذي يخرج منها. و«على» متعلِّقة ـ على ما قيل ـ بـ «مستول» مقدَّرٍ، والمعنى: ولِّني على أمرِها من الإيراد والصَّرف.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها ممَّن لا يستحقُّها ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ بوجوه التصرُّف فيها، وقيل: بوقتِ الجوع. وقيل: حفيظٌ للحساب عليمٌ بالألسُن.

وفيه دليلٌ على جواز مدحِ الإنسانِ نفسَه بالحقِّ إذا جُهل أمرُه، وجوازِ طلبِ الولاية إذا كان الطالبُ ممَّن يقدرُ على إقامة العَدْل وإجراءِ أحكام الشريعة وإن كان من يدِ الجائر أو الكافر، وربَّما يجب عليه الطَّلبُ إذا توَّقف على ولايته إقامةُ

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٢٠-٢٢١، دون ذكر الاسمين.

(٢) نوادر الأصول ٢/ ١٨١-١٨٢.

واجبٍ مثلاً وكان متعيِّناً لذلك، وما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارةَ؛ فإنك إنْ أُوتيتَها عن مسألةٍ وُكِلْتَ إليها، وإن أُعطيتَها من غيرِ مسألة أُعِنْتَ عليها»(١) = واردٌ في غير ما ذُكر.

وعن مجاهد: أنَّه أسلم الملكُ على يدِه عليه السلام، ولعل إيثارَه عليه السلامُ لتلكَ الولاية خاصَّةً إنما كان للقيام بما هو أهمُّ أمور السَّلطنة إذ ذاك من تدبيرِ أمر السِّنين؛ لكونه من فروع تلكِ الولاية، لا لمجرَّدِ عمومِ الفائدة كما قيل.

وجاء في روايةٍ أنَّ الملك لمَّا كلَّمه عليه السلام وقصَّ رؤياه وعبَّرها له، قال: ما ترى أيها الصِّدِّيق؟ قال: تزرعُ في سنيِّ الخصب زرعاً كثيراً، فإنك لو زرعتَ فيها على حجرٍ نبَت، وتبني الخزائنَ وتجمعُ فيها الطعامَ بقصبه وسُنبله فإنه أبقى له، ويكون القَصَبُ علفاً للدوابِّ، فإذا جاءت السّنون بعتَ ذلك فيحصل لك مالٌ عظيم. فقال الملك: ومَن لي بهذا، ومَن يجمعُه ويبيعُه لي ويكفيني العملَ فيه؟ فقال: «اجعلني على خزائن الأرض» إلخ(٢).

والظاهر أنه أجابه لذلك حينَ سأله، وإنما لم يذكر إجابتَه له عليه السلام إيذاناً بأنَّ ذلك أمرٌ لا مردَّ له غنيٌّ عن التصريح به، لاسيما بعدَ تقديم ما تندرجُ تحته أحكامُ السلطنة جميعها.

وأخرج الثعلبيُّ عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يرحمُ الله تعالى أخي يوسف؛لو لم يقل: «اجعلني على خزائن الأرض» لاستعمله من ساعته، ولكنَّه أخَّر ذلك سنةً»(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٢٢)، وصحيح مسلم (١٦٥٢)، وهو عند أحمد (٢٠٦١٨).

(٢) كان يجدر بالمصنف رحمه الله وغيره من المفسرين عدم ذكر هذه الروايات وأمثالها؛ لِما فيها من الإساءة إلى نبي الله يوسف، وإيهام أن ما فعله عليه السلام إنما كان من أجل الملك وزيادة ماله، وليس هذا من أخلاق الدعاة ولا من أفعالهم، فكيف ينسب مثله إلى نبي من أنبياء الله تعالى؟!.

(٣) عرائس المجالس ص ١٢٩-١٣٠، وإسناده ساقط كما قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٩٠.

ثمَّ إنه ـ كما روي عن ابن عباس وغيره ـ توَّجه، وختمه بخاتمِه، وردَّاه بسيفِه، ووضع له سريراً من ذهبٍ مكلَّلاً بالدُّرِّ والياقوت، طولُه ثلاثون ذراعاً، وعرضُه عشرةُ أذرع، ووضع عليه الفُرش، وضرب عليه حُلَّة من استبرق، فقال عليه السلام: أمَّا السريرُ فأشدُّ به ملكَكَ، وأمَّا الخاتم فأدبِّر به أمرَكَ، وأمَّا التاجُ فليس من لباسي ولا لباسِ آبائي. فقال: قد وضعتُه إجلالاً لك وإقراراً بفضلك. فجلس على السرير، ودانتْ له الملوكُ، وفوَّض إليه الملكُ أمرَه، وأقام العدلَ بمصر، وأحبَّتْه الرِّجال والنساء، وباع من أهل مصرَ في سنيِّ القَحْط الطعام في السنة الأولى بالدَّراهم والدنانير حتى لم يبقَ منها شيء، وفي الثانية بالحَلْي والجواهر، وفي الثالثة بالدَّوابِّ والمواشي، وفي الرابعة بالعبيد والجواري، وفي الخامسة بالضِّياع والعَقار، وفي السادسة بالأولاد، وفي السابعة بالرِّقاب، حتى استرقَّهم جميعاً، وكان ذلك ممَّا يصحُّ في شرعهم. فقالوا: ما رأينا كاليوم ملكاً أجلَّ وأعظمَ منه. فقال للملك: كيف رأيتَ صنع الله تعالى فيما خوَّلني، فما ترى في هؤلاء؟ فقال الملك: الرأيُ رأيُك ونحنُ لك تبَع. فقال: إني أُشهد الله تعالى وأُشهدك أني قد أعتقتهُم ورددتُ إليهم أملاكهم.

ولعلَّ الحكمةَ في ذلك إظهارُ قدرته وكرمِه، وانقيادُهم بعد ذلك لأمره حتى يخلُصَ إيمانُهم ويتَّبعوه فيما يأمرهم به، فلا يقال: ما الفائدةُ في تحصيل ذلك المال العظيم ثمَّ إضاعتِه؟

وكان عليه السلام في تلك المدَّة فيما يُروى لا يشبعُ من الطعام، فقيل له: أتجوعُ وخزائنُ الأرض بيدك؟ فقال: أخافُ إن شبعتُ [أن][1] أنسى الجائعَ. وأمر عليه السلام طبَّاخِي الملك أن يجعلوا غداءَه نصفَ النَّهار، وأراد بذلك أن يذوقَ طعمَ الجوع فلا ينسى الجياع، قيل: ومن ثمَّ جعل الملوكُ غداءَهم نصف النهار.

وقد أشار سبحانه إلى ما آتاه من المُلك العظيم بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك[2] التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي: جعلنا له مكاناً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصر، روي أنَّها كانت أربعين فرسخاً في أربعين.

---

(١) ما بين حاصرتين من عرائس المجالس ص ١٣١، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٤، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٨٩.

(٢) قوله: ذلك، ساقط من (م).

وفي التعبير عن الجَعْل المذكور بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميرِه تعالى من تشريفِه عليه السلام، والمبالغةِ في كمال ولايتِه، والإشارة إلى حصول ذلك من أوَّل الأمر لا أنَّه حصل بعدَ السؤال = ما لا يخفى.

واللام في «ليوسف» ـ على ما زعم أبو البقاء ـ يجوز أن تكون زائدةً، أي: مكَّنَّا يوسف. وأن لا تكون كذلك، والمفعول محذوف، أي: مكَّنَّا له الأمور[1]. وقد مرَّ لك ما يتَّضح منه الحقُّ.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ ينزل من قطعِها وبلادِها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ظرفٌ لـ «يتبوأ»، وجوِّز أن يكون مفعولاً به كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

و«منها» متعلِّق بما عنده. وقيل: بمحذوفٍ وقع حالاً من «حيث». وتُعقِّب بأنَّ «حيث» لا يتمُّ إلا بالمضاف إليه، وتقديمُ الحال على المضاف إليه لا يجوز.

والجملة في موضع الحال من «يوسف»، وضمير «يشاء» له، وجوِّز أن يكون لله تعالى، ففيه التفات، ويؤيِّده أنه قرأ ابنُ كثير والحسنُ، وبخلاف عنهم أبو جعفر وشيبةُ ونافع: «نشاء» بالنُّون[2]، فإنَّ الضمير على ذلك لله تعالى قطعاً.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بنعمتِنا وعطائِنا في الدنيا من المُلْك والغنى وغيرهما من النِّعم. وقيل: المراد بالرحمة النبوَّةُ، وليس بذاك ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ بمقتضى الحكمة الدَّاعية للمشيئة.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ بل نوفِّي لهم أجورَهم في الدنيا لإحسانهم، والمرادُ به ـ على ما قيل ـ الإيمانُ والثَّباتُ على التقوى؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ قد وُضع فيه الموصولُ موضعَ ضمير «المحسنين»، وجُمع بين صيغتي الماضي والمستقبل تنبيهاً على ذلك، والمعنى: ولأجرُهم في الآخرة خيرٌ، والإضافة فيه للملابسة.

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٤١.

(٢) التيسير ص ٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥ عن ابن كثير، والكلام من البحر ٥/ ٣٢٠.

وجُعل في تعقيب الجملة المثبتة بالجملةِ المنفيَّة إشعارٌ بأنَّ مدارَ المشيئة المذكورة إحسانُ مَن تصيبه الرَّحمة المذكورة، وفي ذكر الجملةِ الثالثة المؤكّدةِ بعدُ دفعُ توهُّم انحصار ثمراتِ الإحسان فيما ذُكر من الأجر العاجل، ويُفهم من ذلك أن المراد من «مَن نشاء»: مَنْ نشاء أن نُصيبَه بالرَّحمة من عبادنا الذين آمنوا واستمرُّوا على التقوى. وتُعقّب بأنّه خلافُ الظاهر.

ولعلَّ الظاهر حملُ «مَن» على ما هو أعمُّ مما ذُكر، وحينئذٍ لا يبعدُ أن يُراد بالرَّحمة النِّعمةُ التي لا تكون في مقابلة شيءٍ من الأعمال، وبالأجر ما كان في مقابلة شيءٍ من ذلك، ويبقى أمرُ وضع الموصولِ موضعَ الضمير على حاله، كأنه قيل: نتفضَّل على مَن نشاءُ من عبادنا كيف كانوا، ونُنعِم عليهم بالمُلك والغِنى وغيرِهما لا في مقابلة شيءٍ، ونوفِّي أجورَ المؤمنين المستمرِّين على التقوى منهم، ونُعطيهم في الدنيا ما نعطيهم في مقابلةِ إيمانهم واستمرارِهم على التَّقوى، وما نعطيهم في مقابلة ذلك في الآخرة من النعيم العظيم المقيمِ خيرٌ لهم ممَّا نعطيهم في الدنيا لِعِظَمه ودوامه.

واعتُرض بأنَّ فيه إطلاقَ الرحمة على ما يُصيب الكافرَ من نحو المُلك والغِنى، مع أنَّه ليس برحمةٍ كما يُشعر به كثيرٌ من الآيات، ويقتضيه قولُهم: ليس لله تعالى نعمةٌ على كافر.

وأُجيب بأنَّ قولَهم في «الرحمن» إنَّه الذي يرحم المؤمنَ والكافر في الدنيا. ظاهرٌ في صحة إطلاق الرحمة على ما يُصيب الكافرَ من ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ظاهرٌ في صحة القول بكون الكافر مرحوماً في الجُملة، وأمرُ الإشعار سهل.

وقولهم: ليس لله تعالى نعمةٌ على كافر، إنَّما قاله البعضُ بناءً على أَخْذِ: «يُحمَدُ عاقبتُها» في تعريفها، وإن أبيتَ ـ ولا أظنُّ ـ فلمَ لا يجوزُ أن يقال: إنَّه عبَّر عما ذُكر بالرحمة رعايةً لجانبِ مَن اندرج في عمومِ «مَنْ» من المؤمنين؟

نعم يَرِدُ على تفسيرِ الرحمة هنا بالنِّعمة التي لا تكون في مقابلة شيءٍ من الأعمال، والأجرِ بما كان، ما روي عن سفيان بنِ عيينة أنَّه قال: المؤمنُ يُثاب

على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجرُ يُعجَّلُ له الخيرُ في الدنيا، وما له في الآخرة من خَلَاقٍ. وتلا الآيةَ. فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ ما يُصيبُ الكافر ممَّا تقدَّم في مقابلةِ عملٍ له، وأنَّ في الآية ما يدلُّ على ذلك، وليس هو إلا «نصيب برحمتنا من نشاء».

وقد يجاب بأنَّه لعلَّه حمل «المحسنين» على ما يشمل الكفَّار الفاعلين لِمَا يَحْسُنُ، كصِلة الرَّحِم، ونُصرةِ المظلوم، وإطعامِ الفقير، ونحوِ ذلك، فحصرُ الدلالة فيما ذُكر ممنوعٌ، نعم إنَّ هذا الأثر يعكِّرُ على التفسير السَّابق عكراً بيِّناً؛ إذ الآية عليه لا تعرُّض فيها للكافر أصلاً، فلا معنى لتلاوتها إثرَ ذلك الكلام.

وعمَّم بعضهم الأوقات في «نُصيب» و«لا نُضِيعُ» فقال: نُصيب في الدنيا والآخرة، ولا نُضيع أجرَ المحسنين بل نوفِّي أجورَهم عاجلاً وآجلاً. وأيَّد بأنه لا مُوْجِبَ للتخصيص، وأنَّ خبر سفيان يدلُّ على العموم.

وتُعقِّب بأنَّ مَن خصَّ ذلك بالدنيا إنما[1] خصَّه ليكون ما بعدَه تأسيساً، وبأنَّه لا دلالة للخبر على ذلك؛ لأنَّه مأخوذٌ من مجموعِ الآية، وفيه ما فيه.

وعن ابن عباس تفسيرُ «المحسنين» بالصابرين، ولعلَّه ﷺ على تقدير صحة الرواية رأى ذلك أوفقَ بالمقام.

وأيّاً ما كان، ففي[2] الآية إشارة إلى أنَّ ما أعدَّ الله تعالى ليوسف عليه السلام من الأجر والثواب في الآخرة أفضلُ ممَّا أعطاه في الدنيا من المُلْك.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ممتارين[3]، لمَّا أصاب أرض كنعان وبلاد الشَّام ما أصاب مصر، وقد كان حلَّ بآل يعقوبَ عليه السلام ما حلَّ بأهلها، فدعا أبناءه ما عدا بنيامين، فقال لهم: يا بَنيَّ بلغني أنَّ بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعامَ فتجهَّزوا إليه واقصدوه تشتروا منه ما تحتاجون إليه. فخرجوا حتَّى قدموا مصر ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ عليه السلام وهو في مجلسِ ولايته ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوَّة فهمِه، وعدمِ مباينةِ

---

(١) في (م): فإنما.

(٢) في (م): في.

(٣) من المِيْرَة، وهي جلب الطعام. القاموس (مير).

أحوالهم السَّابقةِ أحوالَهم يومئذٍ[١]؛ لمفارقته إيَّاهم وهم رجالٌ، وتشابُهِ هيآتهم وزيِّهم في الحالين، ولكون همَّتِه معقودةً بهم وبمعرفةِ أحوالهم لا سيما في زمن القحط. ولعلَّه عليه السلام كان مترقِّباً مجيئَهم إليه لِمَا يعلم من تأويل رؤياه.

وروي أنهم انتسبوا في الاستئذان عليه فعرفهم وأمر بإنزالهم، ولذلك قال الحسن: ما عرفهم حتى تعرَّفوا إليه[٢].

وتعقَّب ذلك في «الانتصاف» بأنَّ توسيط الفاء بين دخولهم عليه ومعرفتِه لهم يأبى كلامَ الحسن، ويدلُّ على أنَّ مجرَّد دخولهم عليه استعقبه المعرفةُ بلا مهلةٍ[٣]، وفيه تأمل.

﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: والحالُ أنَّهم منكرون له؛ لنسيانهم له بطولِ العَهد وتبايُنِ ما بين حاليه في نفسه ومنزلتِه وزيِّه، ولاعتقادهم أنَّه هلك.

وقيل: إنَّما لم يعرفوه لأنَّه عليه السلام أوقفهم موقفَ ذوي الحاجات بعيداً منه وكلَّمهم بالواسطة.

وقيل: إنَّ ذلك لمحضِ أنه سبحانه لم يخلقِ العرفانَ في قلوبهم تحقيقاً لِمَا أخبر أنَّه سينبِّئهم بأمرِهم وهم لا يشعرون، فكان ذلك معجزةً له عليه السلام.

وقابَل المعرفة بالإنكار على ما هو الاستعمالُ الشائع، فعن الراغب: المعرفةُ والعرفان: معرفةُ الشيء بتفكُّرٍ في أثره، فهو أخصُّ من العلم، وأصلُه من عرفتُ، أي: أصبتُ عَرْفَه، أي: رائحتَه، ويضادُّ المعرفةَ الإنكارُ، والعلمَ الجهلُ[٤].

وحيث كان إنكارُهم له عليه السلام أمراً مستمرًّا في حالتي المحضرِ والمَغيبِ أخبر عنه بالجملة الاسميَّة، بخلافِ عِرفانه عليه السلام إيَّاهم.

---

(١) في الأصل و(م): يوم المفارقة، بدل: يومئذ، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٨، والكلام منه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٦٣، وذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٢٩-٣٣٠، وأبو حيان في البحر ٥/ ٣٢١، وأبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٨٨ بلفظ: . . . حتى تعرفوا له.

(٣) الانتصاف ٢/ ٣٣٠، وفيه: استعقبته، بدل: استعقبه.

(٤) مفردات الراغب (عرف).

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدَّتهم وأوقرَ رَكائبهم بما جاؤوا لأجله، ولعلَّه عليه السلام إنَّما باع كلَّ واحدٍ منهم حِمْلَ بعيرٍ؛ لِمَا رُوي أنه عليه السلام كان لا يبيعُ أحداً من الممتارين أكثرَ من ذلك تقسيطاً بين الناس، وفيما يأتي إن شاء الله تعالى من قولهم: «ونزداد كيل بعير» ما يؤيِّده.

وأصلُ الجَهاز ما يحتاجُ إليه المسافر من زادٍ ومتاع، وجِهَاز العروس: ما تُزفُّ به إلى زوجها، والميتِ: ما يُحتاج إليه في دفنِه. وقرئ بكسر الجيم(١).

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ولم يقلْ: بأخيكم، مبالغةً في إظهار عدمِ معرفته لهم، كأنَّه لا يدري مَن هو، ولو أضافه اقتضَى معرفتَه لإشعارِ الإضافة به، ومن هنا قالوا في: أَرْسِلْ غلاماً لك: الغلامُ غيرُ معروف. وفي: أرسل غلامَك: معروفٌ بينك وبين مخاطبك عهدٌ فيه.

ولعلَّه عليه السلام إنَّما قال ذلك لِمَا قيل من أنَّهم سألوه حملاً زائداً على المعتاد لبنيامين، فأعطاهم ذلك وشَرَطَ عليهم أن يأتوه به مُظهِراً لهم أنَّه يريد أن يعلَم صدقَهم.

وقيل: إنهم لمَّا رأَوه فكلَّموه بالعبرية قال لهم: مَن أنتم فإني أُنكِرُكم؟ فقالوا: نحن قومٌ من أهل الشام رعاةٌ أصابنا الجهدُ فجئْنا نمتارُ. فقال: لعلَّكم جئتم عيوناً تنظرون عورةَ بلادي. قالوا: معاذ الله، نحنُ إخوةٌ بنو أبٍ واحدٍ، وهو شيخٌ صدِّيقٌ نبيٌّ من الأنبياء اسمُه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنَّا اثني عشر فهلك منَّا واحد. فقال: كم أنتم ها هنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلَّى به عن الهالك. قال: فمن يشهدُ لكم أنكم لستُم عيوناً وأنَّ ما تقولون حقٌّ؟ قالوا: نحن ببلادٍ لا يعرفنا فيها أحدٌ فيشهدَ لنا. قال: فدَعُوا بعضَكم عندي رهينةً وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحملُ رسالةً من أبيكم حتَّى أصدِّقكم. فاقترعوا فأصابَ القرعةُ شمعون، وقيل: إنَّه عليه السلام هو الذي اختاره؛ لأنَّه كان أحسنهم رأياً فيه، والمشهورُ أنَّ الأحسن يهوذا، فخلَّفوه عنده(٢)، ومن هذا يُعلم سبب هذا القول.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٦٤، والبحر المحيط ٥/ ٣٢١.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٣٠، وأخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٢٢٣ عن السدي.

وتُعقِّب بأنَّه لا يساعده ورودُ الأمر بالإتيان به عند التجهيز، ولا الحثُّ عليه بإيفاء الكَيْل، ولا الإحسانُ في الإنزال، ولا الاقتصارُ على منع الكيل من غيرِ ذكر الرسالة، على أنَّ استبقاءَ شمعون لو وقع لكان ذلك طامَّةً ينسى عندَها كلُّ قيل.

وقال بعضهم: إنَّه يضعِّف الخبرَ اشتمالُه على بَهتِ إخوتهِ بجعلهم جواسيسَ، إلَّا أن يقال: إنَّ ذلك كان عن وحي.

وقال ابن المنيِّر[١]: إنَّ ذلك غيرُ صحيح، لأنه إذا ظنَّهم جواسيسَ، كيف يطلبُ منهم واحداً من إخوتهم؟ وما في النَّظم الكريم يخالفُه. وأطال في ذلك.

وتعقِّب بأنه ليس بشيءٍ؛ لأنهم لمَّا قالوا له: إنهم أولاد يعقوب عليه السلام، طَلَب أخاهم، وبه يتَّضح الحال.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس أنَّهم لمَّا دخلوا عليه عليه السلام فعرفهم وهم له منكرون، جاء بصُواع الملك الذي كان يشربُ فيه، فوضعه على يدِه فجعل ينقرُه ويطنُّ وينقرُه ويطنُّ، فقال: إنَّ هذا الجامَ[٢] ليخبرني خبراً؛ هل كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له: يوسف، وكان أبوه يحبُّه دونَكم، وإنَّكم انطلقتم به فألقيتموه في الجُبِّ، وأخبرتم أباكم أنَّ الذِّئب أكله، وجئتم على قميصِه بدمٍ كذب؟ قال: فجعل بعضُهم ينظر إلى بعض، ويَعْجَبون أنَّ الجامَ يخبرُ بذلك[٣]. وفيه مخالفةٌ للخبر السابق، وفي الباب أخبارٌ أُخَرُ كلُّها[٤] مضطربة، فلْيُقتصَر على ما حكاه الله تعالى ممَّا قالوا ليوسف عليه السلام.

وقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أتمُّه لكم، وإيثارُ صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادةٌ مستمرَّة ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾ جملةٌ حالية، أي: ألا ترون أنِّي أوفِ الكيلَ لكم إيفاءً مستمراً، والحالُ أنِّي في غايةِ الإحسان في إنزالكم وضيافتِكم، وكان الأمر كذلك. ويُفهم من كلام بعضِهم التعميمُ في الجملتين بحيث يندرجُ حينئذٍ في ذلك المخاطبون.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ١٨٨.

(٢) الجام: إناء من فضة. القاموس (جوم).

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٣٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٦٢.

(٤) في (م): وكلها.

وتخصيصُ الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه، وأمَّا الإحسان في الإنزال فقد كان مستمراً فيما سبق ولَحِق، ولذلك أُخبر عنه بالجملة الاسميَّة. ولم يقلْ ذلك عليه السلام بطريقِ الامتنان، بل لحثِّهم على تحقيق ما أمرهم به.

والاقتصارُ في الكيل على ذكر الإيفاء؛ لأنَّ معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العَدْل، وأما الضيافةُ فليس للناس فيها حقٌّ، فخصَّهم في ذلك بما يشاء. قاله شيخ الإسلام(1).

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ إيعادٌ لهم على عدم الإتيان به، والمرادُ: لا كيلَ لكم في المرَّة الأخرى، فضلاً عن إيفائه.

﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لا تقربوني بدخولِ بلادي، فضلاً عن الإحسان في الإنزال والضيافةِ، وهو إمَّا نهيٌ أو نفيٌ، معطوفٌ ـ على التقديرين ـ على الجزاء.

وقيل: هو على الأوَّل استئنافٌ؛ لئلَّا يلزم عطفُ الإنشاء على الخبر. وأُجيب بأنَّ العطفَ مغتفرٌ فيه؛ لأنَّ النهي يقع جزاءً.

وفيه دليلٌ على أنهم كانوا على نيةِ الامتيارِ مرَّة بعد أخرى، وأنَّ ذلك كان معلوماً له عليه السلام، والظاهرُ أنَّ ما فعله معهم كان بوحيٍ، وإلا فالبرُّ يقتضي أن يبادرَ إلى أبيه ويستدعيَه، لكنَّ الله سبحانه أراد تكميلَ أجرِ يعقوب في محنته، وهو الفعَّال لِمَا يريدُ في خليقته.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنخادعه ونستميلُه برفقٍ، ونجتهدُ في ذلك، وفيه تنبيهٌ على عزَّة المَطْلب(2) وصعوبةِ مناله.

﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: إنَّا لقادرون على ذلك لا نتعايا به، أو: إنَّا لفاعلون ذلك لا محالةَ ولا نفرِّط فيه ولا نتوانا. والجملةُ على الأوَّل تذييلٌ يؤكِّد مضمونَ الجملة الأُولى ويحقِّق حصولَ الموعود من إطلاق المسبَّب ـ أعني الفعل ـ على السبب أعني القدرة، وعلى الثاني هي تحقيقٌ للوفاء بالوعد، وليس فيه ما يدلُّ على أنَّ الموعود يحصل أوْ لا.

---

(1) في تفسيره ٤/ ٢٨٨.

(2) في الأصل: الطلب، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ٩، والكلام منه.

﴿وَقَالَ﴾ يوسفُ عليه السلام ﴿لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيَّالين، كما قال قتادةُ وغيره، أو لأعوانه الموظَّفين لخدمته كما قيل. وهو جمعُ فتى، أو اسمُ جمعٍ له على قولٍ، وليس بشيءٍ.

وقرأ أكثرُ السبعة: «الفتيته»[1]، وهو جمعُ قِلَّة له. ورجِّحت القراءة الأولى بأنَّها أوفقُ بقوله: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ فإنَّ الرِّحال فيه جمعُ كثرة، ومقابلةُ الجمع بالجمع تقتضي انقسامَ الآحاد على الآحاد، فينبغي أن يكون في مقابله صيغةُ جمع الكثرة، وعلى القراءة الأخرى يُستعار أحدُ الجمعين للآخر؛ روي أنه عليه السلام وكَّلَ بكلِّ رَحْلٍ رجلاً يُعبِّىءُ فيه بضاعتهم التي اشتروا بها الطعامَ، وكانت نعالاً وأدماً[2]. وأصلُ البضاعة: قطعةٌ وافرة من المال تُقتنى للتجارة، والمراد بها هنا ثمنُ ما اشتروه.

والرَّحْل ما على ظَهْر المركوب من متاعِ الراكب وغيره، كما في «البحر»[3]. وقال الراغب: هو ما يُوضَع على البعير للركوب، ثمَّ يعبَّر به تارةً عن البعيرِ، وأخرى عمَّا يُجلس عليه في المنزل[4]. ويُجمع في القِلَّة على أَرْحِلَة.

والظاهرُ أنَّ هذا الأمر كان بعد تجهيزهم. وقيل: قبلَه، ففيه تقديمٌ وتأخير، ولا حاجةَ إليه.

وإنَّما فعل عليه السلام ذلك تفضُّلاً عليهم، وخوفاً أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرَّةً أخرى، وكلُّ ذلك لتحقيق ما يتوخَّاه من رجوعهم بأخيهم كما يُؤْذن به قولُه:

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي: يعرفون حقَّ ردِّها والتكرُّم بذلك، فـ «لعل» على ظاهرها، وفي الكلام مضافٌ مقدَّر. ويحتمل أن يكون المعنى: لكي يعرفوها، فلا يحتاج إلى تقديرٍ، وهو ظاهرُ التعلُّق بقوله: ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ أي: رجعوا ﴿إِلَىٰٓ

(١) التيسير ص ١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر ونافع وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب.
(٢) بضم الهمزة وفتحها، جمع أَدَم، وهو الجلد المدبوغ. حاشية الشهاب ٥/ ١٨٩.
(٣) ٥/ ٣١٤.
(٤) مفردات الراغب (رحل).

﴿أَهْلِهِمْ﴾ فإنَّ معرفتهم لها مقيَّدةٌ بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعاً، وأمَّا معرفةُ حقِّ التكرُّم في ردِّها وإن كانت في ذاتها غيرَ مقيَّدة بذلك لكنْ لمَّا كان ابتداؤُها حينئذٍ قُيِّدت به.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ حسبما طلبتُ منهم، فإنَّ التفضُّل بإعطاء البدلَيْن ولاسِيما عند إعواز البضاعة من أقوى الدَّواعي إلى الرجوع.

وقيل: إنَّما فعله عليه السلام لِمَا أنه لم يرَ من الكرم أن يأخذَ من أبيه وإخوته ثمناً وهو الكريمُ ابنُ الكريم، وهو كلامٌ حقٌّ في نفسه، ولكنْ يأباه التعليلُ المذكور.

ومثله في هذا ما زعمه ابنُ عطيَّة من وجوبِ صلتهم وجبرِهم عليه ـ عليه السلام ـ في تلك الشدَّة، إذ هو ملكٌ عادلٌ وهم أهلُ إيمانٍ ونبوَّة(١).

وأغربُ منه ما قيل: إنه عليه السلام فعل ذلك توطئةً لجَعْلِ السِّقاية في رَحْلِ أخيه بعد ذلك؛ ليتبيَّن أنه لم يسرقْ لمن يتأمل القصَّة.

ووجَّه بعضُهم عِلِّيَّة الجعل المذكور للرجوع بأنَّ ديانتهم تحملهم على ردِّ البضاعة؛ لاحتمال أنَّه لم يقع ذلك قصداً، أو قصداً للتجربة، فـ «يرجعون» على هذا إما لازمٌ، وإما متعدٍّ والمعنى: يرْجِعونها، أي: يردُّونها.

وفيه أنَّ هيئة التَّعْبِية تنادي بأنَّ ذلك بطريق التفضُّل، فاحتمالُ غيره في غاية البُعد، ألا ترى أنَّهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلاً على التفضُّلات السابقة كما ستحيط به خُبراً إن شاء الله تعالى.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي: حُكِمَ بمنعه بعدَ اليوم إنْ لم نذهب بأخينا بنيامين، حيثُ قال لنا الملك: «إن لم تأتوني به فلا كيلَ لكم عندي» والتعبيرُ بذلك عمَّا ذُكر(٢) مجازٌ، والدَّاعي لارتكابه أنَّه لم يقع منعٌ ماض، وفيه دليلٌ على كون الامتيارِ مرَّة بعد أخرى كان معهوداً بينهم وبينه عليه السلام.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٩.
(٢) أي: تأويل «مُنع» بـ «حُكِمَ». حاشية الشهاب ٥/ ١٨٩.

وقيل: إنَّ الفعل على حقيقته، والمرادُ: منع أن يكال لأخيهم الغائب حِمْلاً آخر، ورُدَّ بعيرُه غيرَ محمَّلٍ، بناءً على روايةٍ أنه عليه السلام لم يُعْطِ له وسقاً.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر، وفيه إيذانٌ بأنَّ مدار المنع على عدم كونه معهم.

﴿نَكْتَلْ﴾ أي: من الطعام ما نحتاج إليه، وهو جوابُ الطلب؛ قيل: والأصل: يُرفعِ المانعُ ونَكْتَلْ، فالجواب هو «يرفع» إلَّا أنه رُفع ووُضع موضعه «نكتل»؛ لأنَّه لمَّا علَّق المنعُ من الكيل بعدم إتيان أخيهم، كان إرسالُه رفعاً لذلك المانع، ووضع موضعه ذلك لأنَّه المقصود.

وقيل: إنه جيء بآخر الجزأين ترتُّباً دلالةً على أوَّلهما مبالغةً.

وأصل هذا الفعل: نَكْتَيِلُ على وزن نفتعل، قُلبت الياءُ ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها، ثمَّ حُذفت لالتقاء الساكنَيْن.

ومن الغريب أنَّه نقل السجاوندي أنه سأل المازنيُّ ابنَ السِّكِّيت عند الواثق عن وزنِ «نكتل» فقال: نفعل. فقال المازنيُّ: فإذاً ماضيه «كتل» فخطَّأه على أبلغ وجه[١].

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «يكتل» بياء الغيبة[٢] على إسناده للأخ مجازاً؛ لأنَّه سببٌ للاكتيال، أو: يكتل أخونا فينضمّ اكتيالُه إلى اكتيالنا، وقوَّى أبو حيَّان بهذه القراءة القولَ ببقاء «مُنِعَ» على حقيقته، ومثلُه الإمام[٣].

---

(١) اختلف في القصة؛ فروى بعضهم أنها كانت بحضرة الواثق، كما نقل المصنف عن السجاوندي، وبعضهم ذكر أنها كانت بين يدي المتوكل، وقال آخرون: إن ذلك كان عند محمد بن عبد الملك الزيات الوزير. ينظر معجم الأدباء ٧/ ١١٧، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٩٧، والدر المصون ٦/ ٥١٧. إلا أن السمين ذكر أن ابن السكيت أجاب عن سؤال المازني بأن وزن «نكتل» هو: نفتل، وقال: هكذا رأيت في بعض الكتب، وهذا ليس بخطأ؛ لأن التصريفيين نصُّوا على أنه إذا كان في الكلمة حذف أو قلب حذفت في الزنة وقلبت، فنقول: وزن بعت وقمت: فِعْتُ وفُعتُ، ووزن عِد: عِل. ثم قال: ورأيت في بعض الكتب أنه قال: نفعل، بالعين، وهو خطأ محض... إلى آخر ما قاله.

(٢) التيسير ص ١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥. وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) البحر ٥/ ٣٢٢، وتفسير الرازي ١٨/ ١٧٣.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ من أن يصيبَه مكروهٌ، وهذا سدٌّ لباب الاعتذار، وقد بالغوا في ذلك كما لا يخفى، وفي بعض الأخبار ـ ولا يخفى حالُه ـ أنَّهم لمَّا دخلوا على أبيهم عليه السلام سلَّموا عليه سلاماً ضعيفاً، فقال لهم: يا بَنيَّ ما لكم تسلِّمون عليَّ سلاماً ضعيفاً؟ وما لي لا أسمع فيكم صوتَ شمعون؟ فقالوا: يا أبانا جئناك من عند أعظمِ الناس مُلْكاً، ولم يُر مثله علماً وحكماً وخشوعاً وسكينةً ووقاراً، ولئن كان لكَ شبهٌ فإنه يشبهك، ولكنَّا أهلُ بيت خُلقنا للبلاء، إنه اتَّهمنا وزعم أنه لا يصدِّقنا حتى ترسلَ معنا بنيامين برسالةٍ منك تخبره عن حزنك وما الذي أحزنك، وعن سرعةِ الشَّيب إليك وذهابِ بصرك، وقد مَنَعَ منَّا الكيل فيما يُستقبل إن لم نأتِه بأخينا، فأرسلْه معنا نَكْتَلْ وإنَّا له لحافظون حتَّى نأتيَك به.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، و«آمَنُكم» بالمدِّ وفتحِ الميم ورفعِ النون مضارعٌ من بابِ عَلِمَ، وأَمِنَه وائتمنه. بمعنى، أي: ما أأتمنكم[1] عليه ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ﴾ أي: إلا ائتماناً مثلَ ائتماني إيَّاكم ﴿عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم أيضاً في حقِّه ما قلتم، ثم فعلتم به ما فعلتم، فلا أثقُ بكم ولا بحفظِكم وإنَّما أفوِّض أمري إلى الله تعالى ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمعَ عليَّ مصيبتين.

وهذا كما ترى ميلٌ منه عليه السلام إلى الإذن والإرسال لِمَا رأى فيه من المصلحة، وفيه أيضاً من التوكُّل على الله تعالى ما لا يخفَى، ولذا روي أنَّ الله تعالى قال: وعزَّتي وجلالي لَأردُّهما عليك إذ توكَّلتَ عليَّ.

ونصب «حافظاً» على التمييز، نحو: لله دَرُّه فارساً. وجوَّز غير واحد أنْ يكون على الحالية، وتعقَّبه أبو حيَّان بأنه ليس بجيِّد، لمَا فيه من تقييد الخيريَّة بهذه الحالة[2]. ورُدَّ بأنها حالٌ لازمةٌ مؤكِّدةٌ لا مبيِّنةٌ، ومثلُها كثيرٌ، مع أنه قولٌ بالمفهوم وهو غيرُ معتبر، ولو اعتُبر ورَدَ على التمييز، وفيه نظر.

---

(١) في الأصل و(م): ائتمنكم، والصواب ما أثبتناه.
(٢) البحر ٥/٣٢٢.

وقرأ أكثر السبعة: «حِفظاً»[١] ونصبُه على ما قال أبو البقاء على التمييز لا غير[٢].

وقرأ الأعمش: «خيرُ حافظٍ» على الإضافة وإفرادِ «حافظ»[٣]. وقرأ أبو هريرة: «خير الحافظين» على الإضافة والجمع[٤]. ونقل ابنُ عطية عن ابن مسعود ﷺ أنَّه قرأ: «فالله خيرٌ حافظاً وهو خيرُ الحافظين»[٥] قال أبو حيَّان: وينبغي أن تُجعل جملة «وهو خير» إلخ تفسيراً للجملة التي قبلها لا أنَّها قرآن[٦]. وقد مرَّ تعليلُ ذلك.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ قال الراغب: المتاعُ: كلُّ ما يُنتفع به على وجهٍ، وهو في الآية الطَّعام، وقيل: الوعاء. وكلاهما متاعٌ، وهما متلازمان فإنَّ الطعام كان في الوعاء[٧]. والمعنى على أنَّهم لمَّا فتحوا أوعية طعامهم ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي كانوا أعطَوها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تفضُّلاً، وقد علموا ذلك بما مرَّ من دلالةِ الحال.

وقرأ علقمة ويحيى بنُ وثاب والأعمش: «رِدَّت» بكسر الراء[٨]، وذلك أنَّه نقلت حركةُ الدَّال المدغمة إلى الراء بعد توهُّم خلوِّها من الضمَّة، وهي لغةٌ لبني ضبَّة كما نقلت العرب في قيل وبيع، وحكى قُطرب النقلَ في الحرف الصحيح غيرِ المدغَم نحو: ضِرب زيد[٩].

---

(١) هي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو ونافع. التيسير ص ١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥. وقرأ بها من العشرة أبو جعفر ويعقوب.
(٢) الإملاء ٣/ ٣٤١.
(٣) القراءات الشاذة ص ٦٤، والبحر ٥/ ٣٢٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٣١، والبحر ٥/ ٣٢٣، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٤ عن ابن مسعود ﷺ.
(٥) نقله المصنف عن ابن عطية بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٣٢٣، والذي في مطبوع المحرر نقلاً عن أبي عمرو الداني: «فالله خير حافظٍ وهو خير الحافظين».
(٦) البحر ٥/ ٣٢٣.
(٧) مفردات الراغب (متع).
(٨) القراءات الشاذة ص ٦٤، والمحتسب ١/ ٣٤٥، والبحر ٥/ ٣٢٣.
(٩) بمعنى: ضُرِبَ زيدٌ. الدر المصون ٦/ ٥١٩.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: ماذا قالوا حينئذٍ؟ فقيل: قالوا لأبيهم، ولعلَّه كان حاضراً عند الفتح: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ إذا فسِّر البغيُ بمعنى الطلب ـ كما ذهب إليه جماعةٌ ـ فـ «ما» يحتمل أن تكون استفهاميَّة منصوبةَ المحلِّ على أنَّها مفعولٌ مقدَّمٌ لـ «نبغي»، فالمعنى: ماذا نطلب وراء ما وَصَفْنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمِه الدَّاعي إلى امتثال أمره والمراجعةِ إليه في الحوائج، وقد كانوا أخبروه بذلك على ما روي أنَّهم قالوا له عليه السلام: إنَّا قَدِمنا على خيرِ رجلٍ وأنزلَنا وأكرمَنا كرامةً لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمَنا كرامتَه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ موضحةٌ لِمَا دلَّ عليه الإنكارُ من بلوغ اللُّطف غايتَه، كأنهم قالوا: كيف لا، وهذه بضاعتُنا ردَّها إلينا تفضُّلاً من حيث لا ندري، بعد ما منَّ علينا بما يُثقلُ الكواهلَ من المنن العِظام، وهل من مزيد على هذا فنطلبَه؟ ومرادُهم به أن ذلك كافٍ في استيجاب الامتثال لأمره، والالتجاء إليه في استجلاب المزيد، ولم يريدوا أنَّه كافٍ مطلقاً فينبغي التقاعُدُ عن طلبِ نظائره، وهو ظاهر.

وجملة «ردَّت» في موضع الحال من «بضاعتنا» بتقدير «قد» عند مَن يرى وجوبَها في أمثال ذلك، والعامل معنى الإشارة. وجَعْلُها خبرَ «هذه» و«بضاعتنا» بياناً له، ليس بشيء. وإيثارُ صيغة البناء للمفعول قيل: للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاء المفهومِ من كمالِ غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعلِه. وقيل: للإيذان بتعيُّن الفاعل، وفيه من مدحه أيضاً ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ أي: نجلب لهم المِيرة، وهي بكسر الميم وسكون الياء: طعامٌ يمتارُه الإنسان، أي: يجلبه من بلدٍ إلى بلد، وحاصلُه: نجلبُ لهم الطعامَ من عند الملك، معطوفٌ على مقدَّرٍ ينسحب عليه ردُّ البضاعة، أي: فنستظهرُ بها ونميرُ أهلنا.

﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ من المكاره حَسْبَما وعدنا، وتفرُّعه على ما تقدَّم باعتبارِ دلالتِه على إحسان الملك، فإنه ممَّا يُعِينُ على الحفظ ﴿وَنَزۡدَادُ﴾ أي: بواسطته، ولذلك وسِّط الإخبار به بين الأصل والمزيد ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ أي: وسقَ بعيرٍ زائداً على أوساق أباعرنا، على قضيَّة التقسيط المعهود من الملك.

والبعير في المشهور مقابلُ الناقة، وقد يُطلق عليها، وتكسرُ في لغةٍ باؤه، ويُجمع على أبعرةٍ وبعران[١] وأباعِر. وعن مجاهد تفسيرُه هنا بالحمار، وذَكَر أنَّ بعض العرب يقول للحمار: بعير[٢]. وهو شاذّ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ﴾ أي: مَكيلٌ ﴿يَسِيرٌ ۝٦٥﴾ أي: قليلٌ لا يقوم بأَوَدنا، يحتملُ أن يكون إشارةً إلى ما كِيل لهم أوّلاً، والجملةُ استئنافٌ جيء بها للجواب عمَّا عسى أن يقال لهم: قد صَدَقْتُم فيما قلتم، ولكنْ ما الحاجةُ إلى التزام ذلك قد جئتم بالطَّعام؟ فكأنَّهم قالوا: إنَّ ما جئنا به غيرُ كافٍ لنا، فلابدَّ من الرجوع مرَّةً أخرى وأخذِ مثلِ ذلك مع زيادةٍ، ولا يكون ذلك بدون استصحابِ أخينا.

ويحتمل أن يكون إشارةً إلى ما تحمله أباعرُهم، والجملةُ استئنافٌ وقع تعليلاً لِمَا سبق من الازدياد، كأنَّه قيل: أيُّ حاجة إلى الازدياد؟ فقيل: إنَّ ما تحمله أباعرُنا قليلٌ لا يكفينا.

وقيل: المعنى: إنَّ ذلك الكيلَ الزائد قليلٌ لا يضايقنا فيه الملك، أو سهلٌ عليه لا يتعاظمه، وكأنَّ الجملة على هذا استئنافٌ جيء به لدفع ما يقال: لعلَّ الملك لا يُعطيكم فوقَ العشرة شيئاً، ويرى ذلك كثيراً أو صعباً عليه. وهو كما ترى.

وجوَّز أن يكون «ذلك» إشارةً إلى الكيل الذي هم بصدده وتضمَّنه كلامهم، وهو المنضمُّ إليه كيلُ البعير الحاصلُ بسبب أخيهم المتعهِّد بحفظه، كأنَّهم لمَّا ذكروا ما ذكروا، صرَّحوا بما يُفهم منه مبالغةً في استنزال أبيهم، فقالوا: ذلك الذي نحن بصدده كيلٌ سهلٌ لا مشقَّةَ فيه ولا محنةَ تتبعه. وقد يبقى الكيلُ على معناه المصدري، والكلام على هذا الطرز إلا يسيراً.

وجوَّز بعضُهم كونَ ذلك من كلام يعقوب عليه السلام، والإشارة إلى كيلِ البعير، أي: كيلُ بعيرٍ واحدٍ شيءٌ قليلٌ لا يخاطَرُ لمثله بالولد. وكان الظاهر على هذا ذكرَه مع كلامه السَّابق أو اللاحق.

---

(١) بفتح الباء وكسرها، كما في القاموس (بعر).
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٧٤.

وقيل: معنى «ما نبغي»: أيَّ مطلبٍ نطلبُ من مهماتنا، والجُمَلُ الواقعة بعدَه توضيحٌ وبيانٌ لِمَا يُشْعِرُ به الإنكارُ من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكِّنين من تحصيله، فكأنَّهم قالوا: هذه بضاعتُنا حاضرةٌ، فنستظهر بها ونميرُ أهلنا ونحفظ أخانا من المكروه، ونزدادُ بسببه غيرَ ما نكتالُه لأنفسنا كيلَ بعيرٍ، فأيَّ شيءٍ نبغي وراءَ هذه المباغي. وما ذكرنا من العطف على المقدَّر هو المشهور.

وفي «الكشف»: لك أن تقول: إنَّ «نمير» وما تلاه معطوفٌ على مجموع «ما نبغي» والمعنى اجتماعُ هذين القولين منهم في الوجود، ولا يحتاجُ إلى جامعٍ وراءَ ذلك لكونهما محكيَّيْن قولاً لهم على أنَّه حاصلٌ لاشتراك الكلِّ في كونه لاستنزال يعقوب عليه السلام عن رأيه، وأنَّ الملك إذا كان محسناً كان الحفظُ أهونَ شيء، والاستفهامُ لرجوعه إلى النفي لا يمنعُ العطفَ. ووافقه في ذلك بعضُهم.

وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة: «ما تبغي» بتاء الخطاب. وروت عائشةُ رضي الله عنها ذلك عن النبي ﷺ[1]. والخطاب ليعقوب عليه السلام، والمعنى: أيَّ شيء [تبغي][2] وراءَ هذه المباغي المشتملة على سلامةِ أخينا وسعةِ ذات أيدينا، أو وراء ما فعل معنا الملكُ من الإحسان داعياً إلى التوجُّه إليه، والجملة المستأنفة موضِّحة أيضاً لذلك.

أو أيَّ شيء تبغي شاهداً على صِدْقنا فيما وصفنا لك من إحسانه، والجملةُ المذكورة عبارةٌ عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الإنكار.

ويحتمل أن تكون «ما» نافيةً، ومفعولُ «نبغي» محذوفٌ، أي: ما نبغي شيئاً غير ما رأيناه من إحسان الملك في وجوب المراجعة إليه، أو: ما نبغي غيرَ هذه المباغي. والقولُ بأنَّ المعنى: ما نبغي منك بضاعةً أخرى نشتري بها، ضعيف. والجملة المستأنفة على كلِّ تقدير تعليلٌ للنفي.

وأمَّا إذا فسِّر البغيُ بمجاوزة الحدِّ، فـ «ما» نافية فقط، والمعنى: ما نبغي في القول ولا نكذبُ فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمِه الموجِب لِمَا ذُكر،

---

(١) القراءات الشاذة ص ٦٤، والبحر ٥/ ٣٢٤.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩١، والكلام منه.

والجملةُ المستأنفة لبيانِ ما ادَّعوا من عدم البغي، وقوله: «ونمير» إلخ عطفٌ على «ما نبغي»، أي: لا نبغي فيما نقولُ ونميرُ ونفعلُ كيت وكيت، فاجتمع أسبابُ الإذن في الإرسال، والأوَّل كالتمهيد والمقدِّمة للبواقي، والتناسب من هذا الوجه لأنَّ الكلَّ متشاركة في أنَّ المطلوب يتوقَّف عليها بوجهٍ ما، على أنه لو لم يكن غير الاجتماع في المقولية لكفى على ما مرَّ آنفاً عن «الكشف».

وجوِّز[1] كونُه كلاماً مبتدأ، أي: جملةً تذييليَّةً اعتراضيَّةً، كقولك: فلانٌ ينطقُ بالحقِّ، والحقُّ أبلجُ. كأنه قيل: وينبغي أنْ نميرَ، ووجه التأكيد الذي يقتضيه التذييلُ أنَّ المعنى: إنَّ الملك محسنٌ ونحن محتاجون، ففيمَ التوقُّف في الإرسال وقد تأكَّد موجباه؟ وقال العلَّامة الطِّيبي: إنَّما صحَّ التأكيدُ والتذييلُ لأنَّ الكلام في الامتيار وكلٌّ من الجمل بمعناه.

أو المعنى: ما نبغي في الرأي وما نعدلُ عن الصَّواب فيما نُشير به عليك من إرسال أخينا معنا، والجمل كلُّها للبيان أيضاً، إلا أنَّ ثَمَّ محذوفاً ينساقُ إليه الكلامُ، أي: بضاعتُنا حاضرةٌ نستظهر بها ونميرُ أهلنا ونصنعُ كيت وذيت. وهو - على ما قيل - وجهٌ واضحٌ حَسَنٌ يلائمُ ما كانوا فيه مع أبيهم، فتأمل.

هذا وقرأت عائشةُ وأبو عبد الرحمن السُّلمي: «ونُمير» بضمِّ النون[2]، وقد جاء: مار عيالَه وأمارَهم بمعنىً كما في «القاموس»[3].

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ بعد أن عاينتُ منكم ما أَجْرَى المدامع ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى تُعطوني ما أَتوثَّق به من جهته تعالى، فالمَوْثِقُ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى المفعول، وأراد عليه السلام أن يحلفوا له بالله تعالى. وإنَّما جعل الحلف به سبحانه موثقاً منه لأنَّه مما تؤكَّد العهودُ به وتشدَّد، وقد أَذِنَ الله تعالى بذلك، فهو إذن منه تعالى شأنه.

---

(١) في هامش الأصل و(م): فيه ردٌّ على صاحب الفرائد حيث غفل عن ذلك، فقَال رادّاً على هذا التجويز: إن الواو لا تصلح في الابتداء. والتزم العطف.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠، والبحر ٥/ ٣٢٤، والدر المصون ٦/ ٥٢٠.

(٣) مادة (مير).

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ جوابُ قسمٍ مضمرٍ؛ إذ المعنى: حتى تحلفوا بالله وتقولوا: واللهِ لنأتينَّك به.

وفي «مجمع البيان» نقلاً عن ابن عباس أنَّه عليه السلام طلب منهم أن يحلفوا بمحمَّد ﷺ خاتمِ النبيِّين وسيِّد المرسلين(١). والظاهرُ عدمُ صحَّة الخبر.

وذكر العماديُّ أنه عليه السلام قال لهم: قولوا: بالله ربِّ محمَّد ﷺ لنأتينَّك به.

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تُغلبوا فلا تطيقوا ذلك، أو: إلا أن تهلكوا جميعاً، وكلاهما مرويٌّ عن مجاهد، وأصلُه من إحاطة العدوِّ، واستعمالُه في الهلاك لأنَّ مَن أحاط به العدوُّ فقد هلك غالباً.

والاستثناء قيل: مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، والتقدير: لتأتُنَّني به على كلِّ حال إلا حالَ الإحاطةِ بكم. ورُدَّ بأنَّ المصدر من «أنْ» والفعلِ لا يقع موقعَ الحال كالمصدر الصريح، فيجوز: جئتكَ ركضاً، أي: راكضاً، دون: جئتكَ أن أركض، وإنْ كان في تأويله؛ لِمَا أنَّ الحالَ عندهم نكرةٌ، و«أنْ» مع ما في حيِّزها معرفةٌ في رتبة الضمير.

وأجيب بأنَّه ليس المرادُ بالحال الحالَ المصطلَحَ عليها بل الحالَ اللغوية، ويؤول ذلك إلى نصب المصدر المؤوَّل على الظرفية، وفيه نظر.

وفي «البحر» أنه لو قدِّر كونُ «أن» والفعلِ في موقع المصدر الواقع ظرفَ زمان، أي: لتأتُنَّني به في كلِّ وقتٍ إلا إحاطةً بكم، أي: إلا وقتَ إحاطةٍ بكم، ولم يجز عند ابن الأنباريِّ؛ لأنَّه يَمنع وقوعَ المصدر المؤوَّل ظرفاً، ويشترط المصدرَ الصريحَ، فيجوز: خرجنا صياحَ الدِّيك، دون: خرجنا أنْ يصيح الدِّيك، أو: ما يصيحُ الديك، وجاز عند ابن جنِّي المجوِّز لذاك كما في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وتــالله مــا إنْ شــهــلــةٌ أُمُّ واحــدٍ ... بــأوجدَ مـنـي أن يُـهـان صـغـيرُهـا(٢)

---

(١) مجمع البيان ١٣/ ٨٧.

(٢) البحر ٥/ ٣٢٥، والبيت لساعدة بن جؤية وليس لأبي ذؤيب كما ذكر أبو حيان، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٢١٤.

وقيل: من أعمِّ العِلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه، أي: لتأتُنَّني ولا تمتنعُنَّ من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، كقولهم: أقسمتُ عليك إلا فعلت[1]، أي: ما أطلب إلا فِعْلَكَ.

والظاهرُ اعتبارُ التأويل على الوجه الأول أيضاً، فإنَّ الاستثناء فيه مفرَّغٌ كما علمت، وهو لا يكون في الإثبات إلا إذا صحَّ وظهر إرادةُ العموم فيه، نحو: قرأت إلا يومَ الجمعة، لإمكان القراءة في كلِّ يومٍ غيرِ الجمعة، وهنا غيرُ صحيح؛ لأنَّه لا يمكن لإخوة يوسف عليه السلام أنْ يأتوا بأخيهم في كلِّ وقت وعلى كلِّ حالٍ سوى وقتِ الإحاطة بهم؛ لظهورِ أنَّهم لا يأتون به له وهو في الطريق أو في مصر، اللهم إلَّا أن يقال: إنَّه من ذلك القبيل، وإنَّ العموم والاستغراقَ فيه عرفيٌّ، أي: في كلِّ حال يُتصوَّر الإتيان به[2] فيها.

وتعقَّب المولى أبو السُّعود[3] تجويزَ الأول بلا تأويل بقوله: وأنت تدري أنه حيث لم يكن الإتيانُ [به] من الأفعال الممتدَّة الشاملة للأحوال على سبيل المعيَّة كما في قولك: لألزمنَّك إلا أن تقضيني حقِّي، ولم يكن مرادُه عليه السلام مقارنتَه على سبيل البدل لِمَا عدا الحال المستثناة كما إذا قلت: صلِّ إلا أن تكون مُحدِثاً، بل مجرَّد تحقُّقِه ووقوعِه من غيرِ إخلال به، كما في قولك: لأحجَّن العامَ إلا أنْ أُحصر، فإنَّ مرادك إنَّما هو الإخبارِ بعدم منع ما سوى حالِ الإحصار عن الحجِّ، لا الإخبارُ بمقارنتِه لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادُكَ في مثال الصَّلاة = كان اعتبارُ الأحوال معه من حيثُ عدمُ منعها منه، فآلَ المعنى إلى التَّأويل المذكور. اهـ.

وبَحَثَ فيه واحدٌ من الفُضَلاء بثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّل: أنه لو كان المرادُ من قوله: «لتأتنني به» الإخبارَ بمجرَّد تحقُّق الإتيان ووقوعِه من غير إخلالٍ به لم يحتجْ إلى التأويل المذكور ـ أعني التأويلَ بالنَّفي ـ كما لا يخفى على المتأمِّل، فكلامُه يفيد خلافَ مراده.

---

(١) بعدها في الأصل: كذا.
(٢) قوله: به، ليس في (م).
(٣) في تفسيره ٤/ ٢٩١، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

الثاني: أنَّا سلَّمنا أن ليس مرادُ القائلِ من قوله: لأحجَّنَّ.. إلخ الإخبارَ بمقارنة الحجِّ لِمَا عدا حال الإحصار على سبيلِ البدل، لكن لا نسلِّم أن ليس مرادُه منه إلا الإخبارَ بعدم منع ما سوى حالِ الإحصار عنه، غايتُه أنَّ بينهما ملازمةً، وذاك لا يستلزم الاحتياجَ إلى التأويل بالنَّفي.

الثالث: أنَّه إن أراد من قوله: كان اعتبار الأحوال.. إلخ، أنَّ الإتيان به لم يكن معه اعتبارُ الأحوال كما هو الظاهر، فممنوع، وإن أراد أنَّ اعتبار الأحوال معه يستلزم حيثيَّة عدم منعها منه فمسلَّم، لكن لا يلزم منه الاحتياجُ إلى التأويل المذكور أيضاً، وليس المدَّعى إلا ذاك. اهـ، وهو كما ترى فتبصَّر.

ثم إنَّهم أجابوه عليه السلام إلى ما أراد ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾ عَهْدَهم من الله تعالى حسبما أراد عليه السلام ﴿قَالَ﴾ عَرْضاً لثقته بالله تعالى، وحثّاً لهم على مراعاة حَلِفهم به عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ في أثناء طلب الموثِق وإيتائه من الجانبين. وإيثارُ صيغة الاستقبال لاستحضارِ الصُّورة المؤدِّي إلى تثبُّتِهم ومحافظتهم على تذكُّره ومراقبته ﴿وَكِيلٌ ۝٦٦﴾ أي: مطَّلعٌ رقيبٌ، فإنَّ الموكلَ بالأمر يراقبه ويحفظُه، قيل: والمراد أنه سبحانه مُجازٍ على ذلك.

﴿وَقَالَ﴾ ناصحاً لهم لمَّا عزم على إرسالهم جميعاً: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ﴾ مصرَ ﴿مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ نهاهم عليه السلام عن ذلك حَذَراً من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي جمالٍ وشارةٍ حسنة، وقد اشتهروا بين أهلِ مصرَ بالزُّلفى والكرامةِ التي لم تكنْ لغيرهم عند الملك، فكانوا مظنَّةً لأنْ يُعانوا إذا دخلوا كوكبةً واحدة، وحيث كانوا مجهولين مغمورين بين الناس لم يوصِهم بالتفرُّق في المرَّة الأولى.

وجوِّز أن يكون خوفُه عليه السلام عليهم من العين في هذه الكرَّة بسبب أنَّ فيهم محبوبَه وهو بنيامين الذي يتسلَّى به عن شقيقِه يوسفَ عليه السلام، ولم يكن فيهم في المرَّة الأولى، فأهمل أمرَهم ولم يحتفلْ بهم لسوءِ صنيعهم في يوسف.

والقولُ أنَّه عليه السلام نهاهم عن ذلك [خشيةَ][1] أن يُستراب بهم لتقدُّم قول:

---

(١) ما بين حاصرتين من البحر ٥/ ٣٢٥، وعنه نقل المصنف هذا القولَ والقولَ الذي بعده.

أنتم جواسيس. ليس بشيء أصلاً، ومثله ما قيل: إنَّ ذلك كان طمعاً أن يتسمَّعوا خبرَ يوسف عليه السلام.

و«العينُ حقٌّ» كما صحَّ عن رسول الله ﷺ[(١)]، وصحَّ أيضاً بزيادة: «ولو كان شيءٌ سابق القدر سَبَقَتْه العينُ، وإذا استُغْسِلتُم فاغسلوا»[(٢)].

وقد وَرَدَ أيضاً: «إنَّ العين لتُدخِلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ»[(٣)].

وقد كان ﷺ يعوِّذ الحسنين ﵄ بقوله: «أعوذ بكلماتِ الله تعالى التامَّة من كلِّ شيطانٍ وهامَّة ومن كلِّ عينٍ لامَّة» وكان يقول: «كان أبوكما يعوِّذ بها إسماعيلَ وإسحاق عليهم السلام»[(٤)].

ولبعضهم في هذا المقام كلامٌ مفصَّل مبسوطٌ لابأس باطلاعك عليه، وهو أنَّ تأثيرَ شيءٍ في آخَرَ إمَّا نفسانيٌّ أو جسماني، وكلٌّ منهما إمَّا في نفسانيٍّ أو جسمانيٍّ، فالأنواعُ أربعةٌ يندرج تحتَها ضروب الوحي والمعجزات والكرامات والإلهامات والمنامات وأنواع السحر والأعين والنَّيْرَنْجات[(٥)] ونحو ذلك.

أما النوعُ الأوَّل ـ أعني تأثيرَ النفساني في مثله ـ فكتأثير المبادي العالية في النفوس الإنسانية بإفاضة العلوم والمعارف، ويندرج في ذلك صنفان:

أحدهما: ما يتعلَّق بالعلم الحقيقيِّ، بأن يُلقى إلى النفس[(٦)] المستعدَّة لذلك

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٤٠)، وصحيح مسلم (٢١٨٧)، وأخرجه أحمد (٨٢٤٥)، وهو من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس ﵄. ووقع في (م): فاغتسلوا. قوله: «ولو كان شيء...» أي: لو فُرِض أن شيئاً له قوة بحيث يسبق القدر لكان العين، لكنها لا تسبق. وقوله: «وإذا استغسلتم...» أي: إذا أُمر العائن بالاغتسال عنه طلب المعيون منه ذلك. فتح الباري ١٠/ ٢٠٤. وسيأتي قريباً الكلام في كيفية الاغتسال.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٩٠، والقضاعي في الشهاب (١٠٥٧)، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٢٤٤ من حديث جابر ﵁.

(٤) أخرجه أحمد (٢١١٢)، والبخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس ﵄. الهامة: كل ذات سمٍّ يقتل. النهاية (همم). واللامَّة: العين التي تصيب الإنسان. اللسان (لمم).

(٥) النَّيْرَنج: أَخْذٌ كالسحر ليست بحقيقيَّةٍ، وإنما هي تشبيه وتلبيس. معجم متن اللغة (نرج).

(٦) في الأصل: النفوس.

كمالُ العلم من غير واسطةِ تعليم وتعلُّم، حتى تحيطَ بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشريَّة، كما ألقي إلى نبيِّنا ﷺ علومُ الأوَّلين والآخرين مع أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يتلو من قبلُ كتاباً ولا يخطُّه بيمينه.

وثانيهما: ما يتعلَّق بالتخيُّل القويِّ، بأنْ يُلقى إلى مَن يكون مستعدّاً له ما يَقوى به على تخيُّلات الأمور الماضية، والاطِّلاع على المغيَّبات المستقبلة، والمناماتُ والإلهاماتُ داخلةٌ أيضاً تحت هذا النوع.

وقد يدخل تحتَه نوعٌ من السحر وهو تأثيرُ النفوس البشريةِ القويةِ فيها قوَّتا التخيُّلِ والوهمِ في نفوسٍ بشريَّة أخرى ضعيفةٍ فيها هاتان القوَّتان، كنفوس البُلْه والصبيان والعوامِّ الذين لم تَقْوَ قوَّتُهم العقليةُ فتتخيَّل ما ليس بموجودٍ في الخارج موجوداً فيه، وما هو موجودٌ فيه على ضدِّ الحال الذي هو عليها، وقد يستعان في هذا القسم من السِّحر بأفعالٍ وحركات يعرض منها للحسِّ حيرةٌ وللخيال دهشةٌ، ومن ذلك الاستهتارُ في الكلام والتخليطُ فيه.

وأما النوع الثاني ـ أعني تأثيرَ النفساني في الجسماني ـ فكتأثير النفوس الإنسانية في الأبدان، من تغذيتها وإنمائها، وقيامها وقعودِها، إلى غير ذلك.

ومن هذا القبيل صنفٌ من المعجزات، وهو ما يتعلَّق بالقوَّة المحرِّكة للنفس بأنْ تبلغَ قوَّتُها إلى حيث تتمكَّن من التصرُّف في العالم تمكُّنَها من التصرُّف في بدنِها، كتدمير قوم بريحِ عاصفةٍ أو صاعقة أو زلزلةٍ أو طوفان، وربَّما يُستعان فيه بالتضرُّع والابتهال إلى المبادي العالية، كأن يستسقي للناس فيُسقون، أو يدعو عليهم فيهلكون، ولهم فينجُون.

ويندرجُ في هذا صنفٌ من السِّحر أيضاً، كما في بعض النفوس الخبيثة التي تَقْوَى فيها القوَّةُ الوهمية بسببٍ من الأسباب كالرياضة والمجاهدة مثلاً، فيسلِّطها صاحبُها على التأثير فيمَن أرادَه بتوجُّهٍ تامٍّ وعزيمة صادقةٍ، إلى أن يحصلَ المطلوبُ الذي هو تأثُّره بنحوِ مَرَضٍ وذبولِ جسمٍ، ويصل ذلك إلى الهلاك.

وأما النوع الثالث ـ وهو تأثير الجسماني في الجسماني ـ فكتأثير الأدوية

والسُّموم في الأبدان، ويدخلُ فيه أنواع النِّيرَنْجات والطِّلَّسْمات[١]؛ فإنَّها بتاثير بعضِ المركَّبات الطبيعيَّة في بعضٍ بسببِ خواصَّ فيها، كجذبِ المغناطيس للحديد، واختطافِ الكهرباء التبنَ. وقد يُستعان في ذلك بتحصين المناسبات بالأجرام العلويَّة المؤثِّرة في عالم الكون والفَساد، كما يُشاهد في صورِ أشكالٍ موضوعةٍ في أوقاتٍ مخصوصةٍ على أوضاعٍ معلومةٍ في مقابلةٍ بعض الجهاتِ ومُسامتةٍ بعض الكواكب، يُستدفعُ بها كثيرٌ من أذيَة الحيوانات.

وأما النوعُ الرابع - وهو تأثيرُ الجسمانيِّ في النفساني - فكتأثير الصُّور المستحسنةِ أو المستقبَحَة في النفوس الإنسانية، من استمالتِها إليها وتنفيرِها عنها، وعُدَّ من ذلك تأثير أصنافِ الأغاني والرقص والملاهي في بعض النفوس، وتأثيرُ البيان فيمَن له ذوقٌ كما يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ من البيان لسحراً»[٢].

إذا تمهَّد هذا فاعلم أنَّهم اختلفوا في إصابة العين، فأبو عليٍّ الجبَّائيُّ[٣] أنكرها إنكاراً بليغاً، ولم يذكر لذلك شبهةً فضلاً عن حجَّة، وأثبتها غيرُه من أهل السُّنة والمعتزلةِ وغيرهم، إلا أنَّهم اختلفوا في كيفيَّة ذلك:

فقال الجاحظ: إنَّه يمتدُّ من العين أجزاءٌ، فتصلُ بالشخص المستَحْسَنِ، فتؤثِّر فيه تأثيرَ السُّمِّ في الأبدان. فالتأثيرُ عنده من تأثير الجسماني في الجسماني.

وضعَّف ذلك القاضي[٤] بأنَّه لو كان الأمرُ كما قال، لوجب أن تؤثِّر العينُ في الشخص الذي لا يُسْتَحْسَنُ كتأثيرِها فيما يستحسن.

وتعقَّبه الإمامُ بأنه تضعيفٌ ضعيفٌ، وذلك لأنَّه إذا استحسن العائنُ شيئاً فإمَّا أن يحبَّ بقاءَه كما إذا استحسن ولدَه مثلاً، وإمَّا أن يكرهَ ذلك؛ كما إذا أحسَّ بذلك المستحسَنِ عند عدوِّه الحاسدِ هو له، فإنْ كان الأوَّلَ فإنه يحصل عند ذلك

(١) هي نقوش تنقش على أجساد خاصة في ساعات مناسبة بكيفيات ملائمة لحوائج معلومة، واحدها: طِلَّسْم. معجم متن اللغة (طلسم).

(٢) أخرجه أحمد (٤٦٥١)، والبخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وسلف ٢/ ٣٤٩.

(٣) كما في تفسير الرازي ١٨/ ١٧٣، وعنه نقل المصنف هذا القول وما بعده من أقوال.

(٤) هو القاضي عبد الجبار المعتزلي.

الاستحسانِ خوفٌ شديدٌ من زواله، وهو يوجبُ انحصارَ الروح في داخل القلب، فحينئذٍ يسخنُ القلبُ والروح جدّاً، ويحصلُ في الروح الباصرة كيفيَّةٌ قويَّةٌ مسخّنةٌ، وإن كان الثاني فإنه يحصل عند ذلك الاستحسان همٌّ شديدٌ وحزنٌ عظيم بسببِ حصول ذلك المستحسَن لعدوِّه، وذلك أيضاً يوجب انحصارَ الروح وحصولَ الكيفية القويَّة المسخّنة، وفي الصورتين يسخنُ شعاعُ العين فيؤثّر، ولا كذلك في عدم الاستحسان، فبان الفرق، ولذلك السبب أمر رسولُ الله ﷺ العائنَ بالوضوء، ومن أُصيب بالاغتسالِ[1]. اهـ.

وما أشار إليه من أنَّ العائن قد يُصيب ولدَه مثلاً ممَّا شهدت له التجربة، لكن أخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة ـ وقال الهيثمي: رجالُه رجالُ الصحيح ـ أنه ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، يَحْضُرها الشيطانُ وحَسَدُ ابن آدم»[2] وظاهرُه يقتضي خلافَ ذلك.

وأمَّا ما ذكره من الأمر بالوضوء والاغتسال، فقد جاء في بعض الروايات، وكيفيةُ ذلك: أن يغسل العائنُ وجهَه ويديه ومِرْفَقَيْه وركبتيه وأطرافَ رجليه وداخلَ إزارِه[3]، أي: ما يلي جسدَه من الإزار، وقيل: وَرِكَيْه، وقيل: مذاكيره، ويصبُّ الغسالة على رأس المعين.

وقد مرَّ: «إذا استُغْسِلتُم فاغسلوا» وهو خطابٌ للعائنين، أي: إذا طُلب منكم ما اعْتِيدَ من الغسل فافعلوا، والأمرُ للندب عند بعضٍ، وقال المازري[4] تبعاً لجماعة: للوجوب، فيجبُ على العائن أن يغسل ثمَّ يعطي الغسالةَ للمَعين؛ لأنه الذي يقتضيه ظاهرُ الأمر، ولأنَّه قد جرِّب ذلك وعلم البرء به، ففيه تخليصٌ من

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٧٣، وسيأتي تخريج الحديث قريباً.

(٢) مسند أحمد (٩٦٦٨)، ومن طريق أحمد أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤٥٩) و(٣٤٦٦)، ورواية المسند: «ويحضر بها». وكلام الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١٠٧. والحديث من طريق مكحول عن أبي هريرة ﷺ، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٩، وأحمد (١٥٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٧٥٧٢) من حديث سهل بن حنيف ﷺ.

(٤) في الأصل و(م): الماوردي، والمثبت هو الصواب، وقد نقله عن المازري ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢٠٤، والسيوطي في الديباج على صحيح مسلم ٥/ ٢٠٥، والمناوي في فيض القدير ٤/ ٣٩٧، والشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٢، وهو في كتابه المُعْلِم بفوائد مسلم ٣/ ٩٢.

الهلاك كإطعام المضطر، وذكر أنَّ ذلك أمرٌ تعبُّدي، وهو مخالفٌ لما أشار إليه الإمام من كونِ الحكمة فيه تبريدُ تلك السخونة، وهو مأخوذٌ من كلام ابنِ القيِّم حيث قال في تعليل ذلك: لأنَّه كما يؤخذ ترياقٌ لسمِّ الحيَّة من لحمها يُؤخذ علاجُ هذا الأمر من أثرِ الشخصِ العائن، وأثرُ تلك العين كشُعلةِ نار أصابت الجسدَ، ففي الاغتسال إطفاءٌ لتلك الشعلة(١). وهو على علَّاته(٢) أوْفَى من كلام الإمام.

ويَرِدُ على ما قرَّره في الانتصار للجاحظ أنَّه لا يسدُّ عنه بابَ الاعتراض على ما ذكره في كيفية إصابة العين، إذ يَرِدُ عليه ما ثبت من أنَّ بعض العائنين قد يُصيب ما يُوصَفُ له ويمثَّل، ولو كان بينه وبينه فراسخُ، والتزامُ امتداد تلك الأجزاء إلى حيثُ المصاب ممَّا لا يكاد يُقبل، كما لا يخفى على ذي عين.

وقال الحكماءُ ـ واختاره بعضُ المحقِّقين من أهل السنة ـ: إنَّ ذلك من تأثير النفساني بالجسماني، وبنَوه على أنه ليس من شرطِ المؤثِّر أن يكون تأثيرُه بحسب هذه الكيفيات المحسوسة ـ أعني الحرارةَ والبرودة والرطوبة واليبوسة ـ بل قد يكون التأثيرُ نفسيّاً محضاً، كما يدل عليه أنَّ اللوح الذي يكون قليلَ عرضٍ إذا كان موضوعاً على الأرض يقدر كلُّ إنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً بين جدارين مرتفعين لم يقدر كلُّ أحد على المشي عليه، وما ذاك إلا لأنَّ الخوف من السقوط منه يوجبُ السُّقوط.

وأيضاً إنَّ الإنسان إذا تصور أنَّ فلاناً مؤذياً له حصل في قلبه غضبٌ وتسخن مزاجُه، فمبدأ ذلك ليس إلا التصوُّر النفساني، بل مبدأ الحركات البدنية مطلقاً ليس إلا التصوُّرات النفسانية، ومتى ثبت أنَّ تصوُّر النفس يوجب تغيُّر بدنه الخاصِّ، لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدَّى تأثيراتُها إلى سائر الأبدان.

وأيضاً جواهرُ النفوس مختلفة، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث تؤثِّر في تغيُّر بدنِ حيوانٍ آخرَ بشرطِ أن تراه، أو ترى مثالَه ـ على ما نقل ـ وتتعجَّب منه.

---

(١) بنحوه في زاد المعاد ٤/ ١٧١، وينظر فيض القدير ٤/ ٢٩٧.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): فيه إشارة إلى أن فيه ما فيه أيضاً، فقد ذكر ابن القيم نفسه أن ذلك لا ينتفع به من أنكره. ولا يخفى أنه لو كان الأمر كما ذكر لم يكن فرقٌ بين المنكِر والمعتقِد في الانتفاع، فتأمل. اهـ منه. وكلام ابن القيم في زاد المعاد ٤/ ١٧١.

ومتى ثبت أنَّ ذلك غيرُ ممتنع وكانت التجارب شاهدةً بوقوعه، وَجَب القولُ به من غير تلعثُم، ولأنَّ وقوع ذلك أكثريٌّ عند إعمال العين والنظرِ بها إلى الشيء نُسب التأثير إلى العين، وإلا فالمؤثِّر إنما هو النفس، ونسبة التأثير إليها كنسبة الإحراق إلى النار، والريِّ إلى الماء، ونحوِ ذلك.

والفاعل للآثار في الحقيقة هو الله عزَّ سلطانُه بالإجماع، لكن جرتْ عادتُه تعالى على خلقها بالأسباب ـ من غير توقُّفٍ عقليٍّ عليها كما يظنُّ جهلة الفلاسفة ـ على ما نقل عن السلف، أو عند الأسباب من غير مدخليَّةٍ لها بوجهٍ من الوجوه، على ما شاع عن الأشعريِّ.

فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «العين حقٌّ» أنَّ إصابة النفس بواسطتها أمرٌ كائن مقضيٌّ به في الوضع الإلهي لا شبهةَ في تحقُّقه، وهو كسائر الآثار المشاهدةِ لنحو النار والماء والأدوية مثلاً. وأنت تعلم أنَّ مدار كلِّ شيء المشيئةُ الإلهية، فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأْ لم يكن.

وحكمةُ خَلْقِ اللهِ تعالى التأثيرَ في مسألة العين أمرٌ مجهولٌ لنا، وزعم أبو هاشم وأبو القاسم البلخيُّ[1] أنَّ ذلك ممَّا يرجع إلى مصلحة التَّكليف، قالا: لا يمتنع أن تكون العينُ حقاً، على معنى: أنَّ صاحبَ العين إذا شاهد الشيءَ وأُعجب به استحساناً كان المصلحةُ له في تكليفه أن يغيِّر اللهُ تعالى ذلك الشيء، حتى لا يبقى قلبُ ذلك المكلَّف متعلِّقاً به. ثم لا يبعُدُ أيضاً أنه لو ذَكَر ربَّه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربَّه سبحانه بقاءَ ذلك، تتغيَّر المصلحة فيبقيه اللهُ تعالى ولا يُفنيه. وهو كما ترى.

ثمَّ إن ما أشار إليه من نَفْعِ ذكر الله تعالى والالتجاء إليه سبحانه حقٌّ، فقد صرَّحوا بأن الأدعية والرُّقى من جملة الأسباب لدَفع أذى العين، بل إنَّ من ذلك ما يكون سبباً لردِّ سهمِ العائن إليه؛ فقد أخرج ابنُ عساكر أنَّ سعيداً النَّباجي[2] قيل

---

(١) كما في تفسير الرازي ١٨/ ١٧٣.

(٢) في الأصل و(م): أن سعيد الساحي، وفي الحلية: الساجي، وهو خطأ. والنِّباجي هو: سعيد بن بُريد الصوفي، أبو عبد الله، له كلام شريف ومواعظ، وله ترجمة طويلة في الحلية ٩/ ٣١٠ وفيه: ابن يزيد، وهو تصحيف كذلك، وينظر سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٨٦.

له: احفظ ناقتَك من فلانٍ العائن. فقال: لا سبيلَ له إليها. فعانها فسقطت تضطربُ، فأخبر النَّباجي[١] فوقف عليها فقال: حَبْس حابِس، وشهاب قابس، رَدَدْتُ عينَ العائن عليه، وعلى أحبِّ الناسِ إليه، وعلى كبدِهِ وكليتيه رشيق وفي ماله يليق ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ الآية [الملك:٣] فخرجت حدقتا العائنِ وسَلِمَتِ الناقة[٢].

ويدلُّ على نفع الرقية من العين مشروعيَّتُها كما تدلُّ عليه الآثار، وقد جاء في بعضها أنه ﷺ قال: «لا رقيةَ إلا من عينٍ أو حُمَةٍ»[٣] والمراد منه أنه لا رقيةَ أولى وأنفعُ من رقيةِ العين والحمة، وإلا فقد رَقَى ﷺ بعضَ أصحابه من غيرهما[٤].

وينبغي لمن علم من نفسه أنه ذو عينٍ أن لا ينظر إلى شيءٍ نظرَ إعجاب، وأن يذكر الله تعالى عند رؤية ما يستحسن[٥]، فقد ذكر غيرُ واحد من المجرِّبين أنه إذا فعل ذلك لا يؤثِّر، ونقل الأجهوري أنه يندب أنه يعوِّذ المَعِينَ فيقول: اللهم بارك فيه ولا تضرَّه، ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله.

وفي «تحفة المحتاج» أنَّ من أدويتها ـ أي: العين ـ المجرَّبة التي أمر النبيُّ ﷺ بها أن يتوضَّأ العائنُ.. إلى آخر ما ذكرناه آنفاً، وأن يدعو للمَعين، وأن يقول المعينُ: ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله، حصَّنتُ نفسي بالحيِّ القيوم الذي لا يموت

---

(١) تحرف في الأصل و(م) إلى: الساحي.
(٢) تاريخ ابن عساكر ٢١/٢١، والحلية ٩/٣١٦-٣١٧، ونقله المصنف بواسطة المناوي في فيض القدير ٤/٣٩٧، وجاء في تاريخ ابن عساكر والحلية: في كليتيه رشيق، بدل: وعلى كبده وكليتيه رشيق.
(٣) أخرجه أحمد (١٩٩٠٨)، وأبو داود (٣٨٨٤)، والترمذي (٢٠٥٧) من حديث عمران بن حصين ﷺ مرفوعاً. وأخرجه البخاري (٥٧٠٥) عن عمران ﷺ موقوفاً، ومسلم (٢٢٠) عن بريدة ﷺ موقوفاً أيضاً. وإسناد المرفوع صحيح، والحُمَة: اسم العقرب كما قال ثعلب، وقال ابن سيده: هي الإبرة التي تضرب بها العقرب والزنبور. وقال الخطابي: هي كل هامة ذات سمٍّ من حية أو عقرب. الفتح ١٠/١٥٦.
(٤) من ذلك ما أخرجه مسلم (٢١٩٤) من حديث عائشة ﷺ.
(٥) وقد ورد ذلك في حديث سهل بن حنيف الذي سلف تخريجه ص٤٠٩ من هذا الجزء، وهو حديث صحيح، وفيه أن رسول الله ﷺ قال للعائن: «ألا برَّكت»، والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه، كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ٦/٢٤١.

أبداً، ودفعتُ عنها السوءَ بألفِ لا حولَ ولا قوة إلا بالله. ويُسنُّ عند القاضي[١] لمن رأى نفسه سليمةً وأحواله معتدلةً أن يقول ذلك.

وفي «شرح مسلم»[٢] عن العلماء: أنَّه على السلطان منعُ مَن عُرف بذلك من مخالطةِ الناس، ويرزقُه من بيت المال إن كان فقيراً؛ فإنَّ ضررَه أشدُّ من ضرر المجذوم الذي منعه عمر رضي الله عنه من مخالطةِ الناس.

ورأيتُ لبعض أصحابنا أيضاً القولَ بنَدْبِ ذلك، وأنه لا كفارةَ على عائن، قيل: لأنَّ العين لا تعدُّ مهلكاً عادةً، على أنَّ التأثير يقع عندها لا بها حتَّى بالنظر للظاهر، وهذا بخلافِ الساحر فإنهم صرَّحوا بأنه يُقتل إذا أَقرَّ أن سحرَه يَقْتُل غالباً. ونُقل عن المالكيَّة أنه لا فرقَ بين الساحر والعائن، فيُقتلان إذا قَتَلا.

ثمَّ إنَّ العين على ما نُقل عن الرازي لا تؤثِّر ممَّن له نفسٌ شريفة؛ لِمَا في ذلك من الاستعظام للشيء. وفيما أخرجه الإمام أحمدُ في «مسنده» ما يؤيِّد المدَّعى[٣].

واعتُرض بما رواه القاضي[٤] أنَّ نبيّاً استكثر قومَه، فمات منهم في ليلةٍ مئةُ ألف، فشكا ذلك إلى الله تعالى، فقال له سبحانه وتعالى: إنك استكثرتهم فعِنْتَهم، هلَّا حصَّنتهم إذا استكثرتهم، فقال: يا ربِّ، كيف أحصِّنُهم؟ قال: تقول: حصَّنتكم بالحيِّ القيوم. إلى آخر ما تقدَّم.

وقد يُجاب بأنَّ ما ذكر الرازي هو الأغلب، بل يتعيَّن تأويل هذا ـ إنْ صحَّ ـ بأنَّ ذلك النبيَّ عليه السلام لمَّا غفل عن الذِّكر عند الاستكثار، عُوقب فيهم ليَسْأَلَ فيعلم، فهو كالإصابة بالعين، لا أنَّه عانَ حقيقةً هذا، والله تعالى أعلم.

ثم إنه عليه السلام لم يكتفِ بالنهي عن الدخول من بابٍ واحدٍ، بل ضمَّ إليه قولَه: ﴿وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ بياناً للمراد به، وذلك؛ لأنَّ عدم الدخول من بابٍ

(١) هو حسين بن محمد بن أحمد، أبو عليٍّ القاضي المَرْوَرُّوذي، صاحب التعليقة المشهورة، من كبار أئمة الشافعية، وكان فقيه خراسان، توفي سنة (٤٦٢هـ). طبقات الشافعية ٣/ ٣٥٦.

(٢) للنووي ٣/ ١٧٣.

(٣) لعله قوله عليه الصلاة والسلام: «العين حق يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم» وقد سلف ص٤٠٩ من هذا الجزء.

(٤) هو القاضي حسين، وقد سلفت ترجمته قريباً.

واحدٍ غيرُ مستلزمٍ للدخول من أبوابٍ متفرقة، وفي دخولهم من بابين أو ثلاثةٍ بعضُ ما في الدُّخول من بابٍ واحدٍ من نوعِ اجتماعٍ مصححٍ لوقوعِ المحذور، وإنما لم يكتفِ بهذا الأمر مع كونه مستلزماً للنهي السابق؛ إظهاراً لكمال العناية به، وإيذاناً بأنه المرادُ بالأمر المذكور لا تحقيق شيء آخر.

﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم﴾ أي: لا أنفعُكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من قضائه تعالى عليكم شيئاً، فإنه لا يغني حذرٌ من قَدَر، ولم يُرِدْ بهذا عليه السلام ـ كما قيل ـ إلغاءَ الحذر بالمرَّة، كيف وقد قال سبحانه: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، بل أراد بيانَ أنَّ ما وصَّاهم به ليس ممَّا يستوجب المراد لا محالة، بل هو تدبيرٌ وتشبُّثٌ بالأسباب العادية التي لا تؤثِّر إلا بإذنه تعالى، وأنَّ ذلك ليس بمدافعةٍ للقدر، بل هو استعانةٌ بالله تعالى، وهربٌ منه إليه.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: ما الحكمُ مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحدٌ ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه دونَ غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في كلِّ ما آتي به وأَذَر، وفيه دلالةٌ على أنَّ ترتيب الأسباب غيرُ مخلٍّ بالتوكُّل، وفي الخبر: «اعقِلْها وتوكَّل»[1].

﴿وَعَلَيْهِ﴾ عزَّ سلطانُه دونَ غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾ أي: المريدون للتوكُّل. قيل: جَمَعَ بين الواو والفاء في عطف الجملة على الجملة مع تقديمِ الصِّلة للاختصاص؛ ليفيد بالواو عطفَ فِعْلِ غيرِه من تخصيصِ التوكُّل بالله تعالى شأنه على فِعْلِ نفسه، وبالفاء سببيَّةَ فِعْلِه لكونه نبيّاً لفِعْلِ غيرِه من المقتدين به.

وهي على ما صرَّح به بعضُهم زائدةٌ، حيث قال: ولا بدَّ من القول بزيادةِ الفاء وإفادتِها السببيَّةَ، ويلتزم أنَّ الزائد قد يدلُّ على معنًى غيرِ التوكيد، وذكر أنَّه لو اكتُفِيَ بالفاء وحدَها، وقيل: فعليه فليتوكل.. إلخ، أفاد تسبُّبَ الاختصاص لا أصلَ التوكُّل وهو المقصود، وكلُّ ذلك لا يخلو عن بحث.

واختار بعضُهم أنه جيء بالفاء إفادةً للتأكيد فقط، كما هو الأمرُ الشائع في الحروف الزائدة، فتدبَّر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس، وابن حبان (٧٣١) عن عمرو بن أمية ﵁، وسلف ٥/ ٩٨.

وأيّاً ما كان فيدخل بنوه عليه السلام في عموم الأمر دخولاً أوليًا، وفي الأسلوب ما لا يخفى من حُسن هدايتهم وإرشادِهم إلى التوكُّل ـ فيما هم بصدده ـ على الله تعالى شأنه، غيرَ معتمدين على ما وصَّاهم به من التدبير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من الأبواب المتفرِّقة من البلد، قيل: كانت له أربعةُ أبواب فدخلوا منها، وإنَّما اكتفى بذكرِه؛ لاستلزامه الانتهاءَ عمَّا نُهوا عنه، وحاصلُه: لمَّا دخلوا متفرِّقين ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من جهته سبحانه ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً ممَّا قضاه عليهم جلَّ شأنه.

والجملة قيل: جوابُ «لمَّا»، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقُّق المقارَنةِ الواجبة بين جواب «لمَّا» ومدخولِها، فإنَّ عدم الإغناء بالفعل إنما يتحقَّق عند نزول المحذور لا وقتَ الدخول، وإنما المتحقِّق حينئذٍ ما أفاده الجمعُ المذكور من عدم كون الدخول مغنياً فيما سيأتي.

وليس المراد بيانَ سببيَّةِ الدُّخول المذكورِ لعدمِ الإغناء كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] فإنَّ مجيء النذير هناك سببٌ لزيادة نفورهم، بل بيان عدم سببيَّته للإغناء مع كونها متوقَّعةً في بادىء الرَّأي، حيث إنه وقع حسبما وصَّاهم به عليه السلام، وهو نظير قولك: حلف أن يعطيني حقِّي عند حلول الأجل، فلمَّا حلَّ لم يعطِني شيئاً، فإنَّ المراد بيانُ عدم سببيَّة حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوَّةً بموجب الحلف، لا بيانُ سببيَّته لعدم الإعطاء، فالمآل بيانُ عدم ترتُّب الغرض المقصود على التَّدبير المعهود مع كونه مرجوَّ الوجود، لا بيانُ ترتُّب عدمه عليه.

ويجوز أن يُراد ذلك أيضاً بناءً على ما ذكره عليه السلام في تضاعيف وصيَّته من أنه لا يغني عنهم تدبيرُه من الله تعالى شيئاً، فكأنه قيل: ولمَّا فعلوا ما وصَّاهم به لم يُفدْهم ذلك شيئاً، ووقع الأمرُ حسبما قال عليه السلام، فلقُوا ما لقُوا، فيكون من بابِ وقوعِ المتوقَّع(١). اهـ.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٣.

وإلى كون الجواب ما ذُكر ذهب أبو حيَّان وقال: إنَّ فيه حجَّةً لمن زعم أنَّ «لمَّا» حرفُ وجوبٍ لوجوب لا ظرفُ زمانٍ بمعنى حين، إذ لو كان كذلك ما جاز أن يكون معمولاً لِمَا بعدَ «ما» النافية[1]. ولعل مَن يذهبُ إلى ظرفيَّتها يجوِّز ذلك بناءً على أنَّ الظرف يُتوسَّع فيه ما لا يُتوسَّع في غيره.

وقال أبو البقاء: في جواب «لمَّا» وجهان:

أحدهما: أنه «آوى»، وهو جواب «لمَّا» الأولى والثانية، كقولك: لمَّا جئتكَ وكلَّمتك أجبتني، وحَسَّن ذلك أنَّ دخولَهم على يوسف عليه السلام تعقَّب دخولَهم من الأبواب.

والثاني: أنَّه محذوف، أي: امتثلُوا أو قضَوا حاجةَ أبيهم[2].

وإلى الوجه الأخير ذهب ابنُ عطية أيضاً[3]، ولا يخفى أنَّه عليه وعلى ما قبلَه ترتفع غائلةُ توجيه أمر الترتُّب.

وما أشار إليه صاحبُ القيل في ثاني وجهيه هو الذي يقتضيه ظاهرُ كلام كثيرٍ من المفسِّرين، حيث ذكروا أنَّ هذا منه تعالى تصديقٌ لِمَا أشار إليه يعقوبُ عليه السلام في قوله: ولا أغني عنكم من الله شيئاً[4].

واعتُرض القول بعدم ترتُّب الغرض على التدبير، بأنَّ الغرضَ ليس إلا دفعُ إصابة العين لهم، وقد تحقَّق بدخولهم متفرِّقين، وهو واردٌ أيضاً على ما ذُكر في الوجه الأخير كما لا يخفى.

وأُجيب بأنَّ المراد بدفع العين أنْ لا يمسَّهم سوءٌ ما، وإنَّما خُصَّت إصابةُ العين لظهورها.

وقيل: إنَّ ما أصابهم من العين أيضاً، فلم يترتَّب الغرضُ على التدبير، بل تخلَّف ما أراده عليه السلام عن تدبيره. وتُعقِّب بأنَّه تكلُّف.

---

(١) البحر ٥/ ٣٢٥.

(٢) الإملاء ٣/ ٣٤٢-٣٤٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٢.

(٤) كذا ذكر، والذي في الآية: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

واستُظْهِرَ أنَّ المراد أنه عليه السلام خشي عليهم شرَّ العين فأصابهم شرٌّ آخرُ لم يخطر بباله، فلم يُفِدْ دفعُ ما خافه شيئاً، وحينئذٍ يُدَّعَى أنَّ دخولهم من حيث أمرهم أبوهم كان مفيداً لهم من حيثُ إنه دَفَعَ العينَ عنهم، إلا أنَّه لمَّا أصابهم ما أصابهم من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك مع أخيهم بوجدان الصُّواع في رَحْلِه، وتضاعُفِ المصيبة على أبيهم، لم يعد ذلك فائدةً، فكأنَّ دخولهم لم يُفدْهم شيئاً.

واعتُرِض أيضاً ما ذكر في توجيه الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل بأنَّ المشهور أنَّ الغرض منه إفادةُ الاستمرار كما مرَّت الإشارةُ إليه غير مرَّة، وظاهرُ ذلك لا يدلُّ عليه، قيل: وإذا كان الغرضُ هنا ذاك احتمل الكلامُ وجهين: نفيَ استمرار الإغناء، واستمرارَ نفيه. وفيه تأمُّلٌ، فتأمَّلْ جدّاً.

هذا وما أشرنا إليه من زيادة «مِن» في المنصوب هو أحدُ وجهين ذكرهما الرازيُّ في الآية، ثانيهما جوازُ كونها زائدةً في المرفوع[(١)]. وحينئذٍ ليس في الكلام ضميرُ الدُّخول كما لا يخفى. قيل: ولو اعتُبر على هذا الوجه كونُ مرفوع «كان» ضميرَ الشأن، لم يَبْعُدْ، أي: ما كان الشأنُ يغني عنهم من الله تعالى شيءٌ.

﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ منقطع، أي: ولكنْ حاجة ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي: أظهرها ووصَّاهم بها؛ دفعاً للخاطرة[(٢)]، غير معتقدٍ أنَّ للتدبير تأثيراً في تغيير التقدير.

والمرادُ بالحاجة: شفقتُه عليه السلام وحَرَازتُه[(٣)] من أن يُعانوا. وذكر الراغب أنَّ الحاجةَ إلى الشيء الفقرُ إليه مع محبَّته، وجمعُه: حاجٌ وحاجات وحوائجُ، وحاجَ يَحُوج: احتاج، ثمَّ ذكر الآية[(٤)]. وأنكر بعضُهم مجيء الحوائج جمعاً لها، وهو محجوجٌ بوروده في الفصيح.

وفي التصريح باسمه عليه السلام إشعارٌ بالتعطُّف والشفقة والترحُّم؛ لأنَّه عليه السلام قد اشتهر بالحُزن والرِّقَّة.

---

(١) والتقدير: ما كان يغني عنهم من الله شيءٌ مع قضائه. تفسير الرازي ١٨/ ١٧٦.
(٢) في (م): للخطرة، والمثبت موافق لما في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٣، والكلام منه.
(٣) الحرازة بفتح الحاء: الاحتراز. حاشية الشهاب ٥/ ١٩٣.
(٤) مفردات الراغب (حاج).

وجوِّز أن يكون ضميرُ «قضاها» للدخول، على معنى أنَّ ذلك الدخول قضى حاجةً في نفس يعقوب عليه السلام، وهي إرادتُه أن يكون دخولُهم من أبوابٍ متفرِّقةٍ، فالمعنى: ما كان ذلك الدُّخول يُغني عنهم من جهةِ الله تعالى شيئاً، لكن قضى حاجةً حاصلةً في نفس يعقوبَ؛ لوقوعه حَسْبَ إرادته. والاستثناءُ منقطع أيضاً.

وجملة «قضاها» صفة «حاجة»، وجوِّز أن يكون خبرَ «إلا» لأنَّها بمعنى «لكن» وهي يكون لها اسمٌ وخبر، فإذا أوِّلت بها فقد يقدَّر خبرُها وقد يصرَّح به كما نقله القُطب وغيرُه عن ابن الحاجب. وفيه أنَّ عَمَلَ «إلا» بمعنى «لكن» عَمَلَها[1] ممَّا لم يقل به أحدٌ من أهل العربية.

وجوَّز الطِّيبي كونَ الاستثناء متَّصلاً على أنه من بابِ:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم[2]

فالمعنى: ما أَغْنَى عنهم ما وصَّاهم به أبوهم شيئاً إلَّا شفَقَته التي في نفسه، ومن الضرورة أنَّ شفقة الأب مع قَدَر الله تعالى كالهباء، فإذنْ ما أغنى عنهم شيئاً أصلاً.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ جليلٍ ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إيَّاه بالوحي ونصبِ الأدلَّة، حيث لم يعتقد أنَّ الحذر يدفعُ القَدَر حتى يتبيَّن الخلل في رأيه عند تخلُّف الأثر، أو حيث بتَّ القولَ بأنه لا يغني عنهم من الله تعالى شيئاً، فكانت الحالُ كما قال. فاللام للتعليل، و«ما» مصدرية، والضميرُ المنصوبُ ليعقوب عليه السلام.

وجوِّز كونُ «ما» موصولاً اسميّاً، والضمير لها، واللام صلة «عِلْمٍ»، والمرادُ به الحفظ، أي: إنه لذو حِفْظٍ ومراقبةٍ للذي علَّمناه إيَّاه.

وقيل: المعنى: إنَّه لذو علم لفوائدِ الذي علَّمناه وحُسْنِ آثاره، وهو إشارةٌ إلى كونه عليه السلام عاملاً بما عَلِمه.

وما أشير إليه أوَّلاً هو الأولى، ويؤيِّد التعليلَ قراءةُ الأعمش: «مما علَّمناه»[3].

---

(١) أي: عَمَلَ «لكن».

(٢) وعجزه: بهن فلول من قراع الكتائب، والبيت للنابغة الذبياني، وسلف ٥/٤٠٧.

(٣) البحر ٥/٣٢٦.

وفي تأكيد الجملة بـ «إنَّ» واللام، وتنكيرِ «عِلْمٍ» وتعليلِه بالتعليم المسنَد إلى ضميرِ العظمة، من الدّلالة على جلالة شأن يعقوبَ عليه السلام وعلوِّ مرتبة عِلْمه وفخامتِه ما لا يخفى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ سرَّ القَدَر، ويزعمون أنَّه يُغني عنه الحَذَر.

وقيل: المراد: لا يعلمون إيجابَ الحَذَر مع أنه لا يغني شيئاً من القدر. وتُعقِّب بأنَّه يأباه مقامُ بيانِ تخلُّف المطلوب عن المبادي.

وقيل: المراد: لا يعلمون أن يعقوبَ عليه السلام بهذه المثابة من العلم، ويُراد بـ «أكثر الناس» حينئذٍ المشركون؛ فإنَّهم لا يعلمون أنَّ الله تعالى أرشد[1] أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة. وفيه أنَّه بمعزلٍ عمَّا نحن فيه.

وجَعْلُ المفعول سرَّ القَدَر هو الذي ذهب إليه غيرُ واحد من المحقِّقين، وقد سعى في بيان المراد منه وتحقيقِ إلغاء الحَذَر بعضُ أفاضل المتأخِّرين المتشبِّثين بأذيال الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارَهم، فقال: إنَّ لنا قضاءً وقَدَراً وسرَّ قَدَرٍ وسرَّ سرِّه، وبيانُه أنَّ الممكناتِ الموجودةَ وإن كانت حادثةً باعتبارِ وجودها العيني، لكنَّها قديمةٌ باعتبارِ وجودها العِلْمي، وتسمَّى بهذا الاعتبار مهيِّئات الأشياء والحروف العالية والأعيان الثابتة.

ثم إنَّ تلك الأعيانَ الثابتة صورٌ نسبيَّة وظِلالُ شُؤُوناتٍ ذاتيةٍ لحضرةِ الواجب تعالى، فكما أنَّ الواجب تعالى والشُّؤونَ الذاتية له سبحانه مقدَّسةٌ عن قبولِ التغيُّر أزلاً وأبداً، كذلك الأعيانُ الثابتة التي هي ظلالُها وصورُها يمتنع عليها أنْ تتغيَّر عن الأحكام التي هي عليها في حدِّ نفسها.

فالقضاءُ: هو الحكمُ الكلِّيُّ على أعين الموجودات بأحوالٍ جاريةٍ وأحكامٍ طارئةٍ عليها من الأزل إلى الأبد.

والقَدَرُ: تفصيلُ هذا الحكم الكلِّي بتخصيصِ إيجادِ الأعيان وإظهارِها بأوقاتٍ وأزمانٍ يقتضي استعدادُها الوقوعَ فيها، وتعليقِ كلِّ حال من أحوالها بزمانٍ معيَّنٍ وسببٍ مخصوص.

---

(١) في (م): كيف أرشد.

وسرُّ القَدَر: هو أن يمتنع أن يظهرَ عينٌ من الأعيان إلَّا على حَسَبِ ما يقتضيه استعدادُه.

وسرُّ سرِّ القَدَر: هو أنَّ تلك الاستعداداتِ أزليةٌ غيرُ مجعولةٍ بجَعْلِ الجاعل؛ لكون تلك الأعيان ظلالَ شؤوناتٍ ذاتيةٍ مقدَّسةٍ عن الجعل والانفعال.

ولا شكَّ أن الحكم الكلِّيَّ على الموجودات تابعٌ لعلمه تعالى بأعيانها الثابتة، وعلمُه سبحانه بتلك الأعيان تابعٌ لنفس تلك الأعيان؛ إذ لا أثرَ للعلم الأزلي في المعلوم بإثبات أمرٍ له لا يكون ثابتاً، أو بنفي أمر عنه يكون ثابتاً، بل عِلْمُه تعالى بأمرٍ ما إنَّما يكون على وجهٍ يكون هو في حدِّ ذاته على ذلك الوجه، وأمَّا الأعيان فقد عرفتَ أنَّها ظلالٌ لأمورٍ أزليَّةٍ مقدَّسةٍ عن شوائب التغيُّر، فكانت أزلاً، فالله تعالى عَلِم بها كما كانت، وقَضَى وحَكَم كما عَلِم، وقدَّر وأَوْجَدَ كما قضى وحَكَم، فالقَدَر تابعٌ للقضاء التابعِ للعلم التابعِ للمعلوم التابعِ لِمَا هو ظلٌّ له.

فإليه سبحانه يرجع الأمرُ كلُّه، فيمتنع أن يظهرَ خلافُ ما عَلِمَ، فلذا يلغو الحَذَر، لكن أمر به؛ رعايةً للأسباب فإنَّ تعطيلَها ممَّا يفوِّت انتظامَ أمر هذه النَّشأة، ولذا ورد أنَّ نبيّاً من الأنبياء عليهم السلام ترك تعاطي أسباب تحصيل الغذاء وقال: لا أسعى في طلب شيء بعد أن كان الله تعالى هو المتكفِّل برزقي، ولا آكلُ ولا أشربُ ما لم يكن سبحانه هو الذي يطعمني ويسقيني، فبقي أيَّاماً على ذلك حتى كادت تغيظُ نفسه مما كابده، فأوحى إليه سبحانه: يا فلان، لو بقيتَ كذلك إلى يوم القيامة ولم تتعاطَ سبباً ما رزقتك، أتريد أن تعطِّل أسبابي؟!

وقال بعض المحقِّقين: إنَّ سبب إيجاب الحَذَر أنَّ كثيراً من الأمور قُضي معلَّقاً، ونِيطَ تحصيلُه بالأفعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفعِ موانعه، فيمكن أن يكون الحفظُ عن المكروه من جملة ما نِيط بفعلٍ اختياري وهو الحَذَر، وهو لا يأبى ما قلناه كما لا يخفى.

هذا وذكر الشيخُ الأكبر[1] قُدِّس سرُّه أنَّ القَدَر مرتبةٌ بين الذات والمَظاهر، ومَن عَلِمَ اللهَ تعالى عَلِمَه، ومَن جَهِلَه سبحانه جَهِلَه، واللهُ تعالى شأنُه لا يُعْلَم، فالقَدَر

---

(١) في الفتوحات المكية ٢/ ٦٤-٦٥.

أيضاً لا يُعْلَم، وإنَّما طُويَ عِلْمُه حتى لا يُشارَكَ الحقُّ في عِلْمِ حقائق الأشياء من طريق الإحاطة بها، إذ لو عُلم أيُّ معلومٍ كان بطريقِ الإحاطة من جميع وجوهِه كما يعلمه الحقُّ، لَمَا تميَّز عِلْمُ الحقِّ عن عِلْمِ العبد بذلك الشيء، ولا يلزمنا على هذا الاستواءُ فيما عُلِمَ منه، فإنَّ الكلام فيما عُلم كذلك[١]، فإن العبد جاهلٌ بكيفية تعلُّق العلم مطلقاً بمعلومه، فلا يصحُّ أن يقع الاشتراكُ مع الحقِّ في العلم بمعلومٍ ما، ومن المعلومات العِلْمُ بالعلم، وما من وجهٍ من المعلومات إلا وللقَدَر فيه حكمٌ لا يعلمه إلا هو سبحانه، فلو عُلم القَدَر عُلمتْ أحكامُه، ولو عُلِمت أحكامُه لاستقلَّ العبدُ في العلم بكلِّ شيء، وما احتاج إليه سبحانه في شيء، وكان له الغنى على الإطلاق. وسِرُّ القَدَر عينُ تحكُّمه في الخلائق، وأنه لا ينكشفُ لهم هذا السرُّ حتى يكون الحقُّ بصَرهم.

وقد ورد النهي عن طلب علم القَدَر، وفي بعض الآثار أنَّ عُزيراً عليه السلام كان كثيرَ السؤال عنه إلى أن قال الحقُّ سبحانه له: يا عزيرُ، لئن سألتَ عنه لأمحونَّ اسمَك من ديوان النبوَّة.

ويَقْرُبُ من ذلك السؤالُ عن علل الأشياء في تكويناتها[٢]، فإنَّ أفعالَ الحقِّ لا ينبغي أن تعلَّل، فإنَّ ما ثَمَّ علَّةٌ موجبةٌ لتكوين شيءٍ إلا عينُ وجود الذَّات، وقبول عين الممكن لظهورِ الوجود، والأزلُ لا يقبل السؤال عن العِلل، والسؤال عن ذلك لا يصدر إلا عن جاهلٍ بالله تعالى، فافهم ذاك، والله سبحانه يتولَّى هداك.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ﴾ أي: ضمَّ ﴿إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين، قال المفسِّرون: إنَّهم لمَّا دخلوا عليه ـ عليه السلام ـ قالوا: أيُّها الملك هذا أخونا الذي أمرْتنا أنْ نأتيك به قد جئناك به. فقال لهم: أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي. وبلَّغوه رسالةَ أبيهم، فإنه عليه السلام لمَّا ودَّعوه قال لهم: بلِّغوا ملكَ مصرَ سلامي، وقولوا له: إنَّ أبانا يصلِّي عليك ويدعو لك ويشكر صنيعكَ معنا.

---

(١) في الفتوحات: فإن الكلام فيما عُلم منه على ذلك.

(٢) في (م): مكوناتها، والمثبت من الأصل والفتوحات.

وقال أبو منصور المهراني[1]: إنَّه عليه السلام خاطبه بذلك في كتاب، فلمَّا قرأه يوسفُ عليه السلام بكى.

ثمَّ إنه أكرمهم وأنزلهم وأحسنَ نُزُلَهم، ثمَّ أضافهم وأجلس كلَّ اثنين منهم على مائدةٍ، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه. فقال يوسف عليه السلام: بقي أخوكم وحدَه. فقالوا له: كان له أخٌ فهلك. قال: فأنا أُجلسه معي. فأخذه وأجلسه معه على مائدةٍ وجعل يؤاكله. فلما كان الليلُ أمرهم بمثل ذلك، وقال: ينام كلُّ اثنين منكم على فراش، فبقي بنيامين وحدَه، فقال: هذا ينام عندي على فراشي. فنام مع يوسف عليه السلام على فراشه، فجعل يوسفُ عليه السلام يضمُّه إليه ويشمُّ ريحه حتى أصبح، وسأله عن ولده، فقال: لي عشرةُ بنين اشتققتُ أسماءهم من اسم أخٍ لي هلك. فقال له: أتحبُّ أن أكون أخاك بدلَ أخيك الهالك؟ قال: مَن يجدُ أخاً مثلك أيُّها الملك؟ ولكن لم يلدْكَ يعقوبُ ولا راحيل. فبكى يوسفُ عليه السلام وقام إليه وعانقه وتعرَّف إليه.

عند ذلك ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بنا فيما مضى، فإنَّ الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تُعْلِمْهم بما أَعْلَمتُك.

والقولُ بأنه عليه السلام تعرَّف إليه وأَعْلَمه بأنَّه أخوه حقيقةً هو الظاهر، وروي عن ابن عبَّاس وابن إسحاق وغيرهما، إلا أنَّ ابن إسحاق قال: إنَّه عليه السلام قال له بعدَ أن تعرَّف إليه: لا تُبالِ بكلِّ ما تراه من المكروه في تحيُّلي في أخذك منهم. قال ابنُ عطية: وعلى هذا التأويل يحتملُ أن يشير بـ «ما كانوا يعملون» إلى ما يعمله فتيانُه عليه السلام من أمر السِّقاية ونحو ذلك[2]. وهو لَعمري ممَّا لا يكادُ يقول به مَن له أدنى معرفةٍ بأساليب الكلام.

---

(١) نصر بن بكر بن أحمد الواعظ، سمع من جدِّه أحمد بن الحسين بن مهران إمام القراء ومصنفهم في وقته، وروى عنه كتاب الغاية من تصنيفه، وسمع من أبي سعيد الرازي الصوفي وطبقته، توفي سنة (٤٤٧هـ). المنتخب من السياق من تاريخ نيسابور ص ٧٠٩. وقوله في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٢، والبحر ٥/ ٣٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٥/ ٣٢٨.

وقال وهب: إنَّما أَخْبَر عليه السلام أنَّه قائمٌ مقامَ أخيه الذاهب في الودِّ ولم يكشف إليه الأمرَ.

ومعنى «لا تبتئس» إلخ: لا تحزن بما كنتَ تلقاه منهم من الحسد والأذى فقد أَمِنْتَهم. وروي أنه قال ليوسف عليه السلام: أنا لا أفارقك. قال: قد علمتَ اغتمام والدي، فإذا حبستُك ازداد غمُّه، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يَجْمُلُ، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك. قال: فإنِّي أدسُّ صاعي في رحلك، ثمَّ أنادي عليك بأنَّك سرقته ليتهيَّأ لي ردُّك بعد تسريحك معهم. قال: افعل.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ ووفَّى لهم الكيلَ وزاد كلًّا منهم ـ على ما روي ـ حملَ بعير ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ هي إناءٌ يشرب به الملكُ، وبه كان يُكال الطعامُ للناس، وقيل: كانت تُسقى بها الدوابُّ ويُكال بها الحبوب.

وكانت من فضَّةٍ مرصَّعةٍ بالجواهر على ما روي عن عكرمةَ، أو بدون ذلك كما روي عن ابن عبَّاس والحسن. وعن ابن زيد أنَّها من ذهب. وقيل: من فضَّةٍ مموَّهة بالذهب. وقيل: كانت إناءً مستطيلةً تشبهُ المكوك الفارسيَّ الذي يلتقي طرفاه يستعمله الأعاجم، يُروى أنَّه كان للعباس مثلُه يَشْرَبُ به في الجاهلية.

ولعزَّة الطعام في تلك الأعوام قَصَر كيله على ذلك، والظاهر أنَّ الجاعل هو يوسفُ عليه السلام نفسُه، ويظهرُ من حيث كونُه ملكاً أنه عليه السلام لم يباشر الجعلَ بنفسه بل أمر أحداً فجعلها ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين من حيثُ يشعر أو لا يشعر.

قرىء: «وجَعَل» بواو[1]. وفي ذلك احتمالان:

الأول: أن تكون الواوُ زائدةً على مذهب الكوفيين، وما بعدها هو جوابُ «لمَّا».

والثاني: أن تكون عاطفةً على محذوفٍ وهو الجوابُ، أي: فلمَّا جهَّزهم أمهلهم حتى انطلقوا وجعل.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٤، والبحر ٥/ ٣٢٩ عن ابن مسعود ﷺ.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مُسْمِعٌ كما في «مجمع البيان»(١). وفي «الكشاف» وغيرِه: نادى منادٍ(٢).

وأُورد عليه أنَّ النحاة قالوا: لا يقال: قام قائمٌ؛ لأنه لا فائدةَ فيه. وأُجيب بأنَّهم أرادوا أنَّ ذلك المنادي من شأنِه الإعلامُ بما نادى به، بمعنى أنَّه موصوفٌ بصفةٍ مقدَّرةٍ تتمُّ بها الفائدةُ، أي: أذَّن رجلٌ معيَّنٌ للأذان: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾.

وقد يقال: قياسُ ما في النَّظم الجليل على المثال المذكور ليس في محلِّه، وكثيراً ما تتمُّ الفائدةُ بما ليس من أجزاء الجملة، ومنه قولُه ﷺ: «لا يزني الزاني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ وهو مؤمن»(٣).

والعير: الإبل التي عليها الأحمالُ، سمِّيت بذلك لأنَّها تَعِيرُ، أي: تذهب وتَجيء، وهو اسم جمع لذلك لا واحدَ له، والمراد هنا أصحابُ العير، كما في قوله ﷺ: «يا خيل الله اركبي»(٤) وذلك إمَّا من باب المجاز أو الإضمارِ، إلا أنَّه نظر إلى المعنى في الآية(٥)، ولم ينظر إليه في الحديث(٦).

وقيل: العير قافلةُ الحمير، ثمَّ توسِّع فيها حتى قيلت لكلِّ قافلةٍ(٧)، كأنَّها جمع عَيْر بفتح العين وسكون الياء: وهو الحمار، وأصلُها: عُيُر بضمِّ العين والياء، استُثقِلت الضمَّةُ على الياء فحُذفت، ثمَّ كُسرت العين لثِقَل الياء بعد الضمَّة، كما فُعل في بِيْضٍ جمع أَبْيَض، وغِيْدٍ جمع أَغْيَد. وحملُ العير هنا على قافلة الإبل هو المرويُّ عن الأكثرين، وعن مجاهد أنها كانت قافلةَ حمير.

---

(١) ١٣/ ٩٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٣٤.
(٣) أخرجه أحمد (١٠٢١٦)، والبخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/ ٣٦٣ عن سعيد بن جبير مرفوعاً، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٦٦ من حديث علي رضي الله عنه. وهو عند البيهقي في الدلائل ٤/ ١٨٧ من طريق ابن إسحاق، وفيه: ارْكَبُوا. بدل: ارْكَبِي. وقال في النهاية ٢/ ٩٤: هذا على حذف المضاف، أراد: يا فرسان خيل الله اركبي. وهذا من أحسن المجازات وألطفها.
(٥) في هامش الأصل و(م): فقيل: «إنكم لسارقون». اهـ منه.
(٦) في هامش الأصل و(م): فقيل: اركبي، دون: اركبوا.
(٧) في هامش الأصل و(م): وقيل: تُجوِّز بها لقافلة الحمير، فتأمل. اهـ منه.

والخطاب بـ «إنكم لسارقون» إن كان بأمرِ يوسفَ عليه السلام، فلعلَّه أُريد بالسرقة أخْذُهم له من أبيه على وجه الخيانة كالسُّرَّاق، ودخولُ بنيامين فيه بطريق التغليب، أو أريد سرقةُ السقاية[١]، ولا يضرُّ لزومُ الكذب؛ لأنَّه إذا تضمَّن مصلحةً رخِّص فيه، وأمَّا كونُه برضا أخيه فلا يدفعُ ارتكاب الكذب وإنما يدفع تأذِّيَ الأخ منه. أو يكون المعنى على الاستفهام، أي: أئنكم لسارقون؟ ولا يخفى ما فيه من البُعد. وإلا فهو من قِبَل المؤذِّن بناءً على زعمه. قيل: والأول هو الأظهر الأوفق للسياق.

وفي «البحر»: الذي يظهر أنَّ هذا التحيُّل، ورميَ البُرآء بالسرقة، وإدخالَ الهمِّ على يعقوب عليه السلام، بوحيٍ من الله تعالى لِمَا علم سبحانه في ذلك من الصَّلاح ولِمَا أراد من محنتِهم بذلك، ويؤيِّده قولُه سبحانه: (كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ)[٢].

وقرأ اليماني: «إنكم سارقون» بلا لام[٣].

﴿قَالُوا﴾ أي: الإخوةُ ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ أي: على طالبي السِّقاية، المفهوم من الكلام، أو على المؤذِّن إن كان أُريد منه جمعٌ، كأنه عليه السلام جعلَ مؤذِّنينَ ينادون بذلك على ما في «البحر»[٤].

والجملة في موضع الحال من ضمير «قالوا»، جيء بها للدلالة على انزعاجهم ممَّا سمعوه لمباينته لحالهم، أي: قالوا مُقْبِلينَ عليهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي: أيَّ شيءٍ تفقدون، أو: ما الذي تفقدونه؟

والفقدُ كما قال الراغبُ: عدمُ الشيء بعدَ وجوده، فهو أخصُّ من العدم؛ فإنه يقال له ولِمَا لم يوجد أصلاً[٥]. وقيل: هو عدمُ الشيء، بأن يضلَّ عنك لا بفعلِك. وحاصلُ المعنى: ما ضاع منكم؟ وصيغةُ المستقبل لاستحضار الصورة.

(١) في هامش الأصل و(م): والكلام من قبيل: بنو فلان قتلوا فلاناً، فتدبر. اهـ منه.
(٢) البحر ٥/ ٣٢٩.
(٣) ذكرها أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٩٤.
(٤) ٥/ ٣٢٩.
(٥) مفردات الراغب (فقد).

وقرأ السُّلمي: «تُفْقِدون» بضمِّ التاء[1]، من أفقدتُه: إذا وجدتَه فقيداً، نحو أحمدتُه: إذا وجدتَه محموداً. وضعَّف أبو حاتم[2] هذه القراءة، ووَجْهُها ما ذُكر.

وعلى القراءتين فالعدولُ عمَّا يقتضيه الظاهر من قولهم: ماذا سُرق منكم ـ على ما قيل ـ لبيانِ كمالِ نزاهتهم بإظهارِ أنَّه لم يُسرق منهم شيءٌ فضلاً عن أن يكونوا هم السارقين له، وإنَّما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم: ماذا..؟

وفيه إرشادٌ لهم إلى مراعاة حُسن الأدب والاحترازِ عن المجازفة ونسبةِ البُرآء إلى ما لا خيرَ فيه، لاسيما بطريق التأكيد، فلذلك غيَّروا كلامهم حيث قالوا في جوابهم: ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ ولم يقولوا: سرقتموه، أو: سُرق.

وقيل: كان الظاهر أن يبادروا بالإنكار ونفيِ أن يكونوا سارقين، ولكنهم قالوا ذلك طلباً لإكمال الدعوى؛ إذ يجوز أن يكون فيها ما تبطلُ به فلا تحتاج إلى خصام، وعدلوا عن: ماذا سُرق منكم؟ إلى ما في النَّظم الجليل لِمَا ذكر آنفاً.

والصُّواع بوزن غُراب: المكيال، وهو السقاية، ولم يعبَّر بها مبالغةً في الإفهام والإفصاح؛ ولذا أعادوا[3] الفعل. وصيغةُ المستقبل لِمَا تقدَّم أو للمشاكلة.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وابنُ جبير فيما نقل ابن عطيَّة كما قرأ الجمهور إلا أنَّهم كسروا الصاد[4].

وقرأ أبو هريرة ومجاهد: «صاعَ» بغيرِ واوٍ على وزن فَعَل، فالألف فيه بدلٌ من الواو المفتوحة. وقرأ أبو رجاء: «صَوْعَ» بوزن قوس. وقرأ عبد الله بن عون بن أَرْطَبان: «صُوع» بضمِّ الصاد[5]. وكلُّها لغات في الصاع، وهو مما يذكَّر ويؤنَّث،

(١) القراءات الشاذة ص٦٤، والكشاف ٢/ ٣٣٤، والبحر ٥/ ٣٣٠.

(٢) كما في البحر ٥/ ٣٣٠.

(٣) في (م): أعاد.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٤، والبحر ٥/ ٣٣٠، وعنه نقل المصنِّف.

(٥) ذكر هذه القراءات ابن خالويه ص ٦٤، والمحتسب ١/٣٤٦، والبحر ٥/ ٣٣٠. وعبد الله بن عون هو أبو عون المزني مولاهم البصري الحافظ، كان يقال له سيد القراء في زمانه، وقال عنه ابن معين: هو في كلِّ شيء ثقة، توفي سنة (١٥٠هـ). السير ٦/ ٣٦٤.

وأبو عبيدة لم يَحفظ التأنيث[١].

وقرأ الحسن وابنُ جبير فيما نَقل عنهما صاحبُ «اللوامح»[٢]: «صُواغ» بالغين المعجمة على وزن غراب أيضاً. وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنَّه حذف الألفَ وسكَّن الواو. وقرأ زيد بن علي: «صَوْغ» على أنه مصدرٌ من صاغ يصوغ، أُريد به المفعول. وكذا يراد من «صُواغ» و«صُوغ» في القراءتين، أي: نفقدَ مصوغَ الملك[٣].

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ أي: أتى به مطلقاً ولو من عند نفسه. وقيل: مَن دلَّ على سارقه وفَضَحه ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: من الطعام جُعْلاً له، والحمل على ما في «مجمع البيان» بالكسر لِمَا انفصل، وبالفتح لما اتَّصل[٤]، وكأنَّه أشار إلى ما ذكره الراغبُ من أنَّ الحمل بالفتح يقال في الأثقال المحمولة في الباطن، كالولد في البطن، والماء في السَّحاب، والثمرةِ في الشجرة[٥].

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: كفيلٌ أؤدِّيه إليه، وهو قولُ المؤذِّن، واستُدلَّ بذلك كما في «الهداية» وشروحِها[٦] على جواز تعليق الكفالة بالشُّروط؛ لأنَّ مُناديَه علَّق الالتزام بالكفالة بسبب وجوب المال وهو المجيءُ بصواع الملك، ونداؤه[٧] بأمرِ يوسف عليه السلام، وشَرْعُ مَنْ قبلنا شرعٌ لنا إذا مضى منِ غير إنكار.

وأُورد عليه أمران:

الأول: ما قاله بعضُ الشافعية من أنَّ هذه الآيةَ محمولةٌ على الجعالة لمن يأتي[٨] به، لا لبيان الكفالةِ، فهي كقول مَنْ أبق عبدُه: مَن جاء به فله عشرةُ

(١) ينظر مجاز القرآن ١/ ٣١٥.
(٢) كما في البحر ٥/ ٣٣٠، والكلام منه.
(٣) البحر ٥/ ٣٣٠، وذكر هذه القراءات أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٤.
(٤) مجمع البيان ١٣/ ٩٣.
(٥) مفردات الراغب (جمل).
(٦) ينظر فتح القدير لابن الهمام ٥/ ٣٩٧، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١٩٥.
(٧) في الأصل و(م): ونداثه، والمثبت من حاشية الشهاب.
(٨) في الأصل: لما يؤتى، وفي (م): لما يأتي، والمثبت من حاشية الشهاب.

دراهم، وهو ليس بكفالة؛ لأنها إنَّما تكون إذا التَزَم عن غيرِه، وهنا قد التزم عن نفسه.

الثاني: أنَّ الآية متروكةُ الظاهر؛ لأنَّ فيها جهالةَ المكفول له، وهي تُبطل الكفالة.

وأجيب عن الأول: بأنَّ الزعم حقيقةٌ في الكفالة، والعملُ بها مهما أمكن واجبٌ، فكأنَّ معناه قولُ المنادي للغير: إنَّ الملك قال: لمن جاء به حملُ بعير وأنا به زعيم، فيكون ضامناً عن الملك لا عن نفسه، فتتحقَّق حقيقةُ الكفالة.

وعن الثاني: بأنَّ في الآية ذكرَ أمرين: الكفالة مع الجهالة[1] للمكفول له، وإضافتها إلى سبب الوجوب. وعدمُ جواز أحدهما بدليلٍ لا يستلزم عدمَ جواز الآخر.

وفي كتاب «الأحكام»[2] أنه رُوي عن عطاء الخراساني: «زعيم» بمعنى كفيل، فظنَّ بعضُ الناس أنَّ ذلك كفالة إنسان[3]، وليس كذلك؛ لأنَّ قائلَه جَعَل حملَ بعيرٍ أجرةً لمن جاء بالصَّاع، وأكَّده بقوله: «وأنا به زعيم» أي: ضامن، فألزم نفسَه ضمانَ الأجرة لردِّ الصَّاع، وهذا أصلٌ في جواز قول القائل: مَن حمل هذا المتاعَ لموضعِ كذا فله درهم، وأنَّه إجارةٌ جائزة وإنْ لم يشارِط رجلاً بعينه، وكذا قال محمدُ بن الحسن في «السير الكبير».

ولعل حملَ البعير كان قَدْراً معلوماً، فلا يقال: إنَّ الإجارة لا تصحُّ إلا بأجرٍ معلوم، كذا ذكره بعضُ المحقِّقين[4].

وقال الإمام[5]: إنَّ الآيَةَ تدلُّ على أنَّ الكفالةَ كانت صحيحةً في شرعهم، وقد

(١) في الأصل و(م): الحمالة، والمثبت من حاشية الشهاب، ومثله في فتح القدير لابن الهمام ٥/ ٣٩٧.

(٢) هو أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٥.

(٣) في الأحكام: عن إنسان.

(٤) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٥.

(٥) هو الرازي في تفسيره ١٨/ ١٨٠.

حكم بها رسولُ الله ﷺ في قوله: «الزعيمُ غارمٌ»[1] وليست كفالةً بشيءٍ مجهول؛ لأنَّ حملَ بعيرٍ من الطعام كان معلوماً عندهم، فصحَّت الكفالةُ به، إلا أنَّ هذه كفالةُ مالٍ لردِّ السرقة، وهي كفالةٌ لِمَا لم يَجبْ؛ لأنَّه لا يحلُّ للسارق أن يأخذ شيئاً على ردِّ السرقة. ولعلَّ مثل هذه الكفالة كانت تصحُّ عندهم.

وتعقِّب بأنَّه لا دليل على أنَّ الرادَّ هو مَن عُلم أنه الذي سَرق، ليُحتاج إلى التزامِ القول بصحَّة ذلك في دينهم، وتمامُ البحث في محلِّه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ أكثر النحويين على أنَّ التاءَ بدلٌ من الواو، كما أُبدلت في «تراث» و«توراة» عند البصريين. وقيل: هي بدلٌ من الباء. وقال السُّهيلي: إنها أصل برأسها.

وقال الزجَّاج[2]: إنَّها لا يقسَمُ بها إلا في «الله» خاصة. وتعقِّب بالمنع؛ لدخولها على الربِّ مطلقاً أو مضافاً للكعبة، وعلى الرحمن[3]، وقالوا: تَحَيَاتِكَ أيضاً.

وأيًّا ما كان ففي القسم بها معنى التعجُّب؛ كأنَّهم تعجَّبوا من رَمْيهم بما ذُكر مع ما شاهدوه من حالهم، فقد روي أنهم كانوا يعكمون أفواهَ إبلهم[4] لئلا تنالَ من زروع الناس وطعامِهم شيئاً، واشتهر أمرهم في مصر بالعفَّة والصَّلاح والمثابرة على فنونِ الطاعات، ولذا قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ علماً جازماً مطابقاً للواقع ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لنسرقَ، فإن السرقة من أعظم أنواع الإفساد، أو: لنفسد فيها أيَّ إفسادٍ كان فضلاً عمَّا نسبتمونا إليه من السرقة.

ونفي المجيء للإفساد وإن لم يكن مستلزماً لِمَا هو مقتضى المقام من نفي الإفساد مطلقاً، لكنَّهم جعلوا المجيء الذي يترتب عليه ذلك ولو بطريقِ الاتِّفاق

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٩٤)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والترمذي (٢١٢٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٢٠.

(٣) في هامش (م): قيل: على ضعف. اهـ منه.

(٤) أي: يشدُّونها بالعِكْم، وهو الحبل الذي يُعكَم به. وجاء في حاشية (م): وليتهم قد كانوا عكموا فم ذئبهم عن أكل يوسف عليه السلام. اهـ منه.

مجيئاً لغرضِ الإفساد مفعولاً لأجله ادِّعاءً، إظهاراً لكمال قُبحه عندهم، وتربيةً لاستحالةِ صدوره عنهم، فكأنهم قالوا: إنْ صدر عنَّا إفسادٌ كان مجيئُنا لذلك، مريدين به تقبيحَ حاله وإظهارَ كمال نزاهتهم عنه. كذا قيل(١).

وقيل: إنَّهم أرادوا نفيَ لازم المجيء للإفساد في الجملة وهو تصوُّر الإفساد مبالغةً في نزاهتهم عن ذلك، فكأنهم قالوا: ما مرَّ لنا الإفساد ببالٍ ولا تعلَّق بخيالٍ فضلاً عن وقوعه منَّا، ولا يخفى بُعدُه.

﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝﴾ أي: ما كنَّا نوصَفُ بالسرقة قطّ، والظاهر دخولُ هذا في حيِّز العلم كالأول، ووجهُه أنَّ العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلمَ بأحوالهم الغائبة(٢).

والحلف في الحقيقة على الأمرين اللذين في حيِّز العلم، لا على علم المخاطبين بذلك، إلَّا أنهم ذكروه للاستشهاد وتأكيدِ الكلام، ولذا أجرت العربُ العلم مجرى القسم كما في قوله:

ولقد علمتُ لَتَأتِينَ منيَّتي ... إنَّ المنايا لا تَطيشُ سهامُها(٣)

وفي ذلك من إلزام الحجَّة عليهم وتحقيقِ أمر التعجُّب المفهوم من تاء القَسم من كلامهم ما(٤) فيه.

وذكر بعضُهم أنه يجوز أن يكون «ما جئنا» إلخ متعلَّق العلم، وأن يكون جوابَ القسم، أو جوابَ العلم لتضمُّنه معناه، وهو لا يأبى ما تقدَّم.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: أصحابُ يوسف عليه السلام: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: الصواع،

---

(١) هو قول أبي السعود في تفسيره ٤/ ٢٩٥.
(٢) في (م): أن العلم بأحوالهم المشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الفائتة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٥، والكلام منه.
(٣) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ١١٠ للبيد، والذي في معلقته إنما هو عجزه، وصدره: صادَفْن منها غِرَّةً فأصَبْنها، كما في شرح ديوان لبيد ص ٣٠٨، وشرح القصائد لابن النحاس ١/ ٣٩٩، وللتبريزي ص ١٧٩. وينظر: الخزانة ٩/ ١٦١.
(٤) في (م): كما، وهو تصحيف.

والكلام على حذف مضاف، أي: ما جزاء سرقته، وقيل: الضميرُ للسَّرق[1] أو للسارق، والجزاءُ يضاف إلى الجناية حقيقةً وإلى صاحبها مجازاً، وقد يقال بحذف المضاف، فافهم.

والمراد: فما جزاءُ ذلك عندكم وفي شريعتكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: في ادِّعاء البَراءة كما هو الظاهر، وفي التعبير بـ «إنْ» مراعاةٌ لجانبهم.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الإخوة: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ﴾ أي: أَخْذُ مَن وُجِد الصُّواع ﴿فِى رَحْلِهِۦ﴾ واسترقاقُه، وقدِّر المضاف لأنَّ المصدر لا يكون خبراً عن الذَّات، ولأنَّ نفس ذاتِ مَن وُجد في رحله ليستْ جزاءً في الحقيقة.

واختاروا عنوانَ الوجدان في الرَّحل دون السرقة مع أنَّه المراد ـ لأنَّ كونَ الأخذ والاسترقاق سنَّةً عندهم ومن شريعة أبيهم عليه السلام إنَّما هو بالنِّسبة إلى السارق دون مَن وُجِد عندَه مالُ غيره كيفما كان ـ إشارةً إلى كمال نزاهتهم، حتَّى كأنَّ أنفسَهم لا تطاوعهم وألسنتُهم لا تساعدهم على التلفُّظ به مثبتاً لأحدهم بأيِّ وجهٍ كان، وكأنَّهم تأكيداً لتلك الإشارة عدلوا عن: مَن وُجد عندَه، إلى: «مَن وُجد في رحله».

﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: فأَخْذُه جزاؤه، وهو تقديرٌ للحكم السابق بإعادته، كما في قولك: حقُّ الضيف أن يُكرَم، فهو حقُّه. وليس مجرَّدَ تأكيد، فالغرض من الأول إفادةُ الحكم، ومن الثاني إفادةُ حقِّيَّته والاحتفاظ بشأنه، كأنه قيل: فهذا ما تلخَّص وتحقَّق للناظر في المسألة لا مريةَ فيه.

قيل: وذكر الفاء في ذلك لتفرُّعه على ما قبله ادِّعاء، وإلَّا فكان الظاهرُ تركَها لمكان التأكيد، ومنه يُعلم أنَّ الجملةَ المؤكِّدة قد تُعطف لنكتةٍ وإن لم يذكره أهل المعاني.

وجوِّز كونُ «مَن» موصولةً مبتدأً، وهذه الجملة خبرُه، والفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط، وجملةُ المبتدأ وخبرِه خبرُ «جزاؤه». وأن تكون «مَن» شرطيةً مبتدأً، و«وُجد في رَحْلِه» فعل الشرط، وجزاؤُه «فهو جزاؤه» والفاء رابطة، والشرطُ وجزاؤه خبرٌ أيضاً كما في احتمال الموصولة.

---

(١) في (م): لسرق.

واعتُرِض على ذلك بأنَّه يلزم خلوُّ الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ عن عائد إليه؛ لأنَّ الضمير المذكور لـ «مَن» لا له.

وأُجيب بأنَّه جَعل الاسمَ الظاهر وهو الجزاء الثاني قائماً مقام الضمير، والربطُ كما يكون بالضمير يكونُ بالظاهر، والأصلُ: جزاؤه مَن وُجد في رحله فهو هو، أي: فهو الجزاء، وفي العدول ما عُلم من التقرير السابق وإزالة اللَّبس والتفخيم، لاسيما في مثل هذا الموضع فهو كاللازم.

وقد صرَّح الزجَّاج بأنَّ الإظهار هنا أحسنُ من الإضمار، وعلَّله ببعضِ ما ذكر، وأنشد:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ      نغَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا[1]

وبذلك يندفع ما في «البحر» اعتراضاً على هذا الجعل من أنَّ وضع الظاهر موضعَ الضمير للربط إنَّما يَفْصُحُ إذا كان المقامُ مقامَ تعظيم كما قال سيبويه، فلا ينبغي حملُ النظم الجليل على ذلك[2].

وأن يكون «جزاؤه» خبر مبتدأ محذوف، تقديرُه: المسؤول عنه جزاؤه، فهو حكايةُ قولِ السائل، ويكون «مَن وُجد» إلخ بياناً وشروعاً في الفتوى، وهذا على ما قيل كما يقول مَن يُسْتفتَى في جزاء صيدِ المُحْرِم: جزاءُ صيدِ المحرم، ثم يقول: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥][3] فإنَّ قول المفتي: جزاء صيد الحرم، بتقديرِ: ما استفتيتَ فيه أو سألتَ عنه ذلك، وما بعده بيانٌ للحكم وشرحٌ للجواب، وليس التقدير: ما أذكره جزاء صيد الحرم؛ لأنَّ مقام الجواب والسؤال نابٍ عنه. نعم إذا ابتدأ العالِمُ بإلقاءِ مسألةٍ فهنالك يناسب هذا التقدير.

وتعقب ذلك أبو حيَّان بأنَّه ليس في الإخبار عن المسؤول عنه بذلك كثيرُ فائدة؛ إذ قد عُلم أنَّ المسؤول عنه ذلك من قولهم: (فَمَا جَزَآؤُهُۥ)، وكذا يقال في المثال[4].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢١-١٢٢، والبيت سلف صدره ٢/ ٣٣٦.
(٢) البحر ٥/ ٣٣١بنحوه، وكلام سيبويه في الكتاب ١/ ٦٢.
(٣) ذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٣٤-٣٣٥.
(٤) البحر ٥/ ٣٣١.

وأُجيب بأنَّه يمكن أن يقال: إنَّ فائدة ذلك إعلامُ المفتي المستفتيَ أنَّه قد أحاط خُبراً بسؤاله؛ ليأخذَ فتواه بالقبول، ولا يتوقَّفَ في ذلك لظنِّ الغفلة فيها عن تحقيق المسؤول، وهي فائدة جليلة.

وزعم بعضُهم أنَّ الجملة من الخبر والمبتدأ المحذوف على معنى الاستفهام الإنكاريِّ، كأنَّ المسؤول ينكر أن يكونَ المسؤول عنه ذلك لظهورِ جوابه، ثمَّ يعود فيجيبُ، وهو كما ترى.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الأوْفى ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ بالسرقة، والظاهر أن هذا من تتمَّة كلام الإخوة، فهو تأكيدٌ للحكم المذكور غِبَّ تأكيد، وبيانٌ لقبح السرقة، وقد فعلوا ذلك ثقةً بكمال براءتهم عنها، وهم عمَّا فُعل بهم غافلون.

وقيل: هو من كلام أصحاب يوسفَ عليه السلام. وقيل: كلامُه نفسه، أي: مثلَ الجزاء الذي ذكرتُموه نجزي السارقين.

﴿فَبَدَأَ﴾ قيل: المؤذِّن، ورُجِّح بقُرْبِ سَبْقِ ذِكْرِه. وقيل: يوسفُ عليه السلام؛ فقد روي أنَّ إخوتَه لـمَّا قالوا ما قالوا، قال لهم أصحابُه: لابدَّ من تفتيش رحالكم، فردُّوهم بعد أن ساروا منزلاً - أو بعد أن خرجوا من العمارة - إليه عليه السلام، فبدأ ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ أي: بتفتيش أوعية الإخوة العشرة، ورُجِّح ذلك بمقاولة يوسف عليه السلام، فإنَّها تقتضي ظاهراً وقوعَ ما ذكر بعد ردِّهم إليه. ولا يخفَى أنَّ الظاهر أنَّ إسناد التفتيش إليه عليه السلام مجازيٌّ، والمفتِّشُ حقيقةً أصحابُه بأمْرِه بذلك.

﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين لنفي التُّهمة؛ رُوي أنَّه لـمَّا بلغت النَّوبة إلى وعائه، قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً. فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظرَ في رحله فإنَّه أطيبُ لنفسك وأنفسنا. ففعل.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقايةَ أو الصُّواعَ؛ لأنَّه كما علمتَ ممَّا يؤنَّث ويذكَّر عند الحفَّاظ. وقيل: الضميرُ للسرقة المفهومة من الكلام، أي: ثمَّ استخرج السرقة.

﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لم يقل: منه، على رَجْع الضمير إلى الوعاء، أو: من وعائه، على رَجْعِه إلى أخيه؛ قصداً إلى زيادة كشفٍ وبيان.

والوعاء: الظرفُ الذي يُحفظ فيه الشيء، وكأنَّ المراد به هنا ما يشمل الرَّحل وغيرَه؛ لأنه الأنسبُ بمقام التفتيش، ولذا لم يعبّر بالرحال على ما قيل، وعليه يكون عليه السلام قد فتَّش كلَّ ما يمكن أن يُحفظ الصواعُ فيه ممَّا كان معهم من رحلٍ وغيره.

وقولهم: مقابلةُ الجمع بالجمع تقتضي انقسامَ الآحاد على الآحاد ـ كما قال المدقِّق أبو القاسم السمرقنديُّ ـ لا يقتضي أنْ يلزم في كلِّ مقابلةٍ مقارنةُ الواحد للواحد؛ لأنَّ انقسام الآحاد على الآحاد كما يجوز أن يكونَ على السَّواء، كما في: ركب القومُ دوابَّهم. يجوز أن يكون على التفاوُتِ، كما في: باع القومُ دوابَّهم، فإنه يُفهم منه[1] أنَّ كلًّا منهم باع ما له من دابة، وقد مرَّ التنبيه على هذا فيما سبق، وحينئذٍ يحتمل أن يرادَ من وعاء أخيه الواحدُ والمتعدِّد.

وقرأ الحسن: «وُعاء» بضمِّ الواو، وجاء كذلك عن نافع. وقرأ ابنُ جبير: «إعاء» بإبدال الواو المكسورة همزةً[2]، كما قالوا في وشاح: إشاح. وفي وسادة: إسادة. وقلبُ الواو المكسورة في أوَّل الكلمة همزةً مطَّردٌ في لغة هذيل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الكيد العجيب، وهو إرشادُ الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم، وحَمْلِهم عليه بواسطة المستفتين من حيثُ لم يحتسبوا ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: صنعنا ودبَّرنا لأجلِ تحصيل غرضه من المقدِّمات التي رتَّبها من دسِّ السقاية وما يتلوه، فالكيدُ مجازٌ لغويٌّ في ذلك، وإلا فحقيقتُه ـ وهي أنْ تُوهِمَ غيرَك خلافَ ما تُخفيه وتريده على ما قالوا ـ محالٌ عليه تعالى. وقيل: إنَّ ذلك محمولٌ على التمثيل.

وقيل: إنَّ في الكيد إسنادين: بالفحوى إلى يوسف عليه السلام، وبالتَّصريح إليه سبحانه، والأولُ حقيقيٌّ والثاني مجازيٌّ، والمعنى: فعلنا كيدَ يوسف. وليس بذاك.

وفي «درر» المرتضى أنَّ «كِدْنا» بمعنى أَرَدْنا، وأنشد:

---

(١) في (م): عنه.
(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص ٦٥، والمحتسب ١/٣٤٨، والبحر ٥/٣٣٢.

كادتْ وكِدْتُ وتلكَ خيرُ إرادةٍ لو عاد من لهو الصَّبابة ما مضى[1]

واللام للنفع، لا كاللام في قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ﴾ [يوسف: ٥] فإنها للضَّرر على ما هو الاستعمال الشائع.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: في سلطانه على ما روي عن ابن عباس، أو: في حكمه وقضائه كما روي عن قتادة. والكلامُ استئنافٌ وتعليلٌ لذلك الكيد، كأنه قيل: لماذا فعل ذلك؟ فقيل: لأنه لم يكن ليأخذَ أخاه جزاءَ وجودِ الصُّواع عندَه في دين الملك في أمر السارق إلَّا بذلك الكيد؛ لأنَّ جزاء السارق في دينه على ما روي عن الكلبي وغيره أنْ يضاعفَ عليه الغُرم ـ وفي رواية: ويضربَ ـ دونَ أن يؤخذَ ويسترقَّ كما هو شريعةُ يعقوب عليه السلام. فلم يكن يتمكَّن بما صنعه من أخذ أخيه بما نُسب إليه من السرقة بحالٍ من الأحوال ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا حالَ مشيئتِه تعالى التي هي عبارةٌ عن ذلك الكيد، أو: إلا حال مشيئتِه تعالى للأخذ بذلك الوجه.

وجوِّز أن يكون المرادُ من ذلك الكيد الإرشادَ المذكورَ ومبَاديَه المؤدِّيةَ إليه جميعاً؛ من إرشاد يوسفَ عليه السلام وقومِه إلى ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شُرح مرتَّباً، وأمرُ التعليل كما هو، بَيْد أنَّ المعنى على هذا الاحتمال: مثلَ ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحدِّ كدنا ليوسف عليه السلام، ولم نكتفِ ببعضٍ من ذلك؛ لأنَّه لم يكن يأخذُ أخاه في دين الملك به إلا حالَ مشيئتنا له بإيجاد ما يجري مجرى الجزاء الصُّوريِّ من العِلَّة التامة، وهو إرشادُ إخوته إلى الإفتاء المذكور، فالقصرُ المستفاد من تقديم المجرور مأخوذٌ بالنسبة إلى البعض.

وكذا يقال في تفسير مَن فسَّر «كدنا ليوسف» بقوله: علَّمناه إياه وأوحينا به إليه، أي: مثلَ ذلك التعليم المستتبعِ لِمَا شُرح علَّمناه دونَ بعضٍ من ذلك فقط. .إلخ.

والاستثناء على كلِّ حالٍ من أعمِّ الأحوال، وجوِّز أن يكون من أعمِّ العِلَل والأسباب، أي: لم يكن ليأخذَ أخاه في دين الملك لعِلَّةٍ من العِلَل وسببٍ من الأسباب، إلَّا لعلَّةِ مشيئته تعالى. وأيّاً ما كان فهو متَّصل؛ لأن أخْذَ السارق إذا

---

(١) أمالي المرتضى ١/ ٣٣١، والبيت ذكره أيضاً الجوهري في الصحاح (كيد).

كان ممَّن يرى ذلك ويعتقدُه ديناً لاسيما عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفاً لدين الملك، فلذلك لم ينازعه الملكُ وأصحابُه في مخالفة دينهم، بل لم يَعُدُّوه مخالفةً.

وقيل: إنَّ جملة «ما كان» إلخ في موضع البيان والتفسير للكيد، وإنَّ معنى الاستثناء: إلَّا أن يشاء الله تعالى أن يجعلَ ذلك الحكمَ حُكمَ الملك، وفيه بحث.

وجوَّزَ أن يكون الاستثناء منقطعاً، أي: لكن أخذه بمشيئة الله سبحانه وإذنِه في دينٍ غيرِ دين الملك.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: رُتباً كثيرةً عاليةً من العلم، وانتصابُها على ما نُقل عن أبي البقاء على الظرفية، أو على نزعِ الخافض، أي: إلى درجات[1]. وجوَّز غيرُ واحد النصبَ على المصدريَّة[2]. وأيّاً ما كان فالمفعولُ به قولُه تعالى: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: نشاء رفْعَه حسبما تقتضيه الحكمةُ وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسفَ عليه السلام، وإيثارُ صيغة الاستقبال للإشعار بأنَّ ذلك سنَّةٌ مستمرَّةٌ غيرُ مختصَّةٍ بهذه المادة. والجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾ من أولئك المرفوعين ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ لا ينالون شأْوَه.

قال المولى المحقِّق شيخُ الإسلام قدِّس سرُّه[3] في بيان ربطِ الآية بما قبلُ: إنَّه إنْ جُعِلَ الكيدُ عبارةً عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء وحَمْلِهم عليه، أو عبارةً عن ذلك مع مباديه المؤدِّية إليه، فالمرادُ برفع يوسفَ عليه السلام ما اعتُبر فيه بالشرطيَّة أو الشطريَّة من إرشادِه عليه السلام إلى ما يتمُّ من قبله من المبادي المفضيةِ إلى استقباء أخيه، والمعنى: أَرْشَدْنا إخوتَه إلى الإفتاء لأنَّه لم يكن

---

(١) الإملاء ٢/ ٥٨٤، عند تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الآية: ٨٣].

(٢) ذكر ذلك أبو البقاء أيضاً في الإملاء ١/ ٤٩٧، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] حيث قال: وقيل: انتصابه على المصدر لأن الدرجة بمعنى الرفعة، فكأنه قال: ورفعنا بعضهم رفعات. وأشار عند الآية نفسها أيضاً إلى النصب بنزع الخافض بقوله: وقيل: التقدير: على درجات، أو: في درجات، أو: إلى درجات، فلما حذف حرف الجر وصل الفعل بنفسه.

(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ٢٩٧-٢٩٨.

متمكِّناً من غرضه بدونه، أو: أرشدنا كلًّا منهم ومن يوسفَ وأصحابِه إلى ما صدر عنهم، ولم نكتفِ بما تمَّ من قِبَلِ يوسفَ لأنَّه لم يكن متمكِّناً من غرضِه بمجرَّد ذلك. وحينئذٍ يكون قولُه تعالى: «نرفع» إلى «عليم» توضيحاً لذلك، على معنى أنَّ الرفعَ المذكور لا يوجبُ تمامَ مرامِه؛ إذ ليس ذلك بحيث لا يغيبُ[1] عن عِلمه شيء، بل إنما نرفعُ كلَّ مَن نرفعُ حسب استعداده، وفوقَ كلِّ واحد منهم عليمٌ لا يقادَر قدرُه، يرفعُ كلًّا منهم إلى ما يليق به من معارج العِلْم، وقد رَفَعَ يوسفَ إلى ذلك وعَلِمَ أن ما حواه دائرةُ عِلْمِه لا يفي بمرامه، فأرشد إخوتَه إلى الإفتاء المذكور، فكان ما كان، وكأنَّه عليه السلام لم يكن على يقينٍ من صدور ذلك منهم وإن كان على طمعٍ منه، فإنَّ ذلك إلى الله تعالى شأنُه وجوداً وعدماً، والتعرُّض لوصف العلم لتعيين جهةِ الفوقيَّة. وفي صيغة المبالغة مع التنكيرِ والالتفاتِ إلى الغَيبةِ من الدّلالة على فخامة شأنه عزَّ شأنُه وجلالةِ مقدار علمه المحيطِ جلَّ جلالُه ما لا يخفى.

وإن جُعِلَ عبارةً عن التعليم المستتبِعِ للإفتاء، فالرفعُ عبارةٌ عن ذلك التعليم، والإفتاءُ وإن كان لم يكن داخلاً تحت قدرتِه عليه السلام لكنَّه كان داخلاً تحت عِلْمه بواسطة الوحي والتعليم، والمعنى: مثلَ ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحدِّ علَّمناه ولم نقتصرْ على تعليمِ ماعدا الإفتاء الذي سيصدرُ عن إخوته إذ لم يكن متمكِّناً من غرضِه في أخيه إلا بذلك، وحينئذٍ يكون قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ توضيحاً لقوله سبحانه: ﴿كِدْنَا﴾ وبياناً؛ لأنَّ ذلك من باب الرفع إلى الدَّرجات العالية من العلم، ومدحاً ليوسف عليه السلام برفعه إليها، و«فوق» إلخ تذييلاً له، أي: نرفع درجاتٍ عاليةً مَنْ نشاء رفْعَه، وفوق كلٍّ منهم عليمٌ هو أعلى درجة. قال ابن عباس ﵄: فوق كلِّ عالمٍ عالمٌ إلى أن ينتهي العِلْم إلى الله تعالى، والمعنى أنَّ إخوةَ يوسف كانوا علماءَ، إلا أنَّ يوسف أفضلُ منهم. اهـ.

والذي اختاره الزمخشريُّ ـ على ما قيل ـ حديثُ التذييل، إلا أنَّه أوجز في كلامه حتى خفي مغزاه، وعدَّ ذلك من المداحض حيث قال: «وفوقَ كلِّ ذي علم

---

(١) في تفسير أبي السعود: يعزب.

عليمٌ» فوقه أرفعُ درجةً منه في علمه، أو فوقَ العلماء كلِّهم عليمٌ هم دونَه في العلم وهو الله عزَّ وعلا[1].

وبيانُ ذلك على ما في «الكشف»: أنَّ غرضَه أنْ يبيِّن وجهَ التذييل بهذه الجملة، فأفاد أنَّه إمَّا على وجهِ التأكيد لرفع درجةِ يوسفَ عليه السلام على إخوته في العلم، أي: فَاقَهُم علماً؛ لأنَّ «فوقَ كلِّ ذي علم عليم» أرفع درجةً منه، وفيه مدحٌ له بأنَّ الذين فَاقَهُم علماءُ أيضاً.

وإمَّا على تحقيقِ أنَّ الله تعالى رفعه درجاتٍ، وهو[2] إليه لا منازعَ له فيه، فقال: وفوق العلماء كلِّهم عليمٌ هم دونَه يرفع مَن يشاء ويقرِّبه إليه بالعلم كما رفع يوسفَ عليه السلام.

وذكر أنَّ ما يقال من أنَّ الكلَّ على الثاني مجموعيٌّ؛ وعلى الأوَّل بمعنى: كلّ واحدٍ، كلامٌ غيرُ محصّل؛ لأنَّ الداخل على النَّكرة لا يكون مجموعيًّا.

وأصلُ النُّكتة في الترديد أنَّه لو نظر إلى العلم ولا تَناهيهِ كان الأوَّل، فيرتقي إلى ما لا نهايةَ لعلمه، بلْ جلَّ عن النهاية من كلِّ الوجوه، ولابدَّ من تخصيصٍ في لفظ «كلّ»، والمعنى: وفوقَ كلِّ واحدٍ من العلماء عالمٌ، وهكذا إلى أنْ ينتهي. ولو نظر إلى العالِم وإفادتِه إيَّاه كان الثاني، والمعنى: وفوقَ كلِّ واحدٍ واحدٍ عالمٌ واحدٌ، فأولى أن يكون فوقَ كلِّهم؛ لأنَّ الثاني معلولُ الأوَّل، ولظهور المعنى عليه قدَّر: وفوقَ العلماء كلِّهم. وكلَا الوجهين يناسب المقام. اهـ.

ولعلَّ اعتبارَ كونِ الجملة الأولى مدحاً ليوسف عليه السلام وتعظيماً لشأن الكيد، وكونِ الثانية تذييلاً، هو الأظهر، فتأمل.

وقد استدلَّ بالآية مَن ذهب إلى أنه تعالى شأنُه عالمٌ بذاته لا بصفةِ علمٍ زائدةٍ على ذلك، وحاصلُ استدلالهم: أنَّه لو كان له سبحانه صفةُ علمٍ زائدةٌ على ذاته كان ذا علمٍ لاتِّصافه به، وكلُّ ذي علم فوقَه عليمٌ؛ للآية، فيلزم أن يكون فوقَه وأعلمَ منه جلَّ وعلا عليمٌ آخرُ، وهو من البطلان بمكان.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٥.

(٢) أي: العلم.

وأجيب: بأنَّ المراد بكلِّ ذي علمِ المخلوقاتُ ذوو العِلم؛ لأنَّ الكلام في الخلق، ولأنَّ العليم صيغةُ مبالغةٍ، معناه: أعلمُ من كلِّ ذي علمٍ، فيتعيَّن أن يكون المراد به الله تعالى، فما يقابله يلزمُ كونه من الخلائق لئلَّا يدخلَ فيما يقابله.

وكونُ المرادِ من العليم ذلك هو إحدى روايتين عن الحبر، فقد أخرج عبدُ الرزاق وجماعةٌ عن سعيد بن جبير قال: كنَّا عند ابن عباس رضي الله عنهما فحدَّث بحديثٍ، فقال رجل عنده: «وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم»، فقال ابن عباس: بئسما قلتَ، الله العليم، وهو فوقَ كلِّ عالم(١).

وإلى ذلك ذهب الضحَّاك؛ فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنَّه قال بعد أن تلا الآية: يعني اللهُ تعالى بذلك نفسَه(٢).

على أنَّه لو صحَّ ما ذكره المستدلُّ لم يكن الله تعالى عالماً بناءً على أنَّ الظاهر اتِّفاقه معنا في صحَّة قولنا: فوقَ كلِّ العلماء عليمٌ، وذلك أنَّه يلزم على تسليم دليله إذا كان الله تعالى عالماً أن يكون فوقَه مَن هو أعلمُ منه، فإن أجابَ بالتخصيص في المثال فالآيةُ مثله.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة: «درجاتِ مَن نشاء» بالإضافة(٣). قيل: والقراءة الأُولى أنسبُ بالتذييل، حيث نُسب فيها الرفع إلى مَن نُسب إليه الفوقية لا إلى درجتِه، والأمرُ في ذلك هيِّن.

وقرأ يعقوب بالياء في «يرفع» و«يشاء»(٤).

وقرأ عيسى البصرة: «نرفع» بالنون، و«درجاتٍ» منوَّناً، و«مَن يشاء» بالياء(٥)؛ قال صاحب «اللوامح»: وهذه قراءةٌ مرغوبٌ عنها، ولا يمكن إنكارها.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٢٦-٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٢٦٨.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) التيسير ص ١٠٤، والنشر ٢/ ٢٦٠. وقرأ بها من السبعة: ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو ونافع.

(٤) النشر ٢/ ٢٩٦.

(٥) البحر ٥/ ٣٣٢، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من كلام صاحب اللوامح.

وقرأ عبد الله[1]: «وفوق كلِّ ذي عالم عليم» فخرِّجت كما في «البحر» على زيادةِ «ذي»، أو على أنَّ «عالم» مصدرٌ بمعنى عِلْم كالباطل، أو على أنَّ التقدير: كلّ ذي شخصٍ عالم[2]. والذي في «الدر المنثور» أنه ﷺ قرأ: «وفوق كلِّ عالم عليم»[3] بدون «ذي»، ولعلَّه الأثبت، والله تعالى العليم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الإخوةُ ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ يعنُون بنيامين ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يريدون به يوسفَ عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمَّته، فقد أخرج ابنُ إسحاق وابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن مجاهد قال: كان أوَّل ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أنَّ عمَّته كانت تحضنُه، وكانت أكبرَ ولدِ إسحاق عليه السلام، وكانت إليها مِنْطَقةُ[4] أبيها، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكانت لا تحبُّ أحداً كحبِّها إيَّاه، حتى إذا ترعرع وقعتْ نفسُ يعقوب إليه، فأتاها فقال: يا أختاه، سلِّمي إليَّ يوسف، فواللهِ ما أقدرُ على أن يغيبَ عنِّي ساعة. فقالت: والله ما أنا بتاركتِه، فدَعْه عندي أيَّاماً أنظر إليه لعلَّ ذلك يسلِّيني. فلمَّا خرج يعقوب عليه السلام من عندها عمدتْ إلى تلك المِنْطقةِ فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثمَّ قالت: فقدتُ منطقةَ أبي إسحاق فانظروا مَن أخذها. فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهلَ البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسفَ عليه السلام، فقالت: والله إنَّه لسَلَمٌ لي أصنع فيه ما شئتُ. فأتاها يعقوب فأخبرته الخبرَ، فقال لها: أنتِ وذاك إن كان فعل. فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت[5].

وأخرج ابنُ مردويه عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في الآية: «سرق يوسفُ عليه السلام صنماً لجدِّه أبي أمِّه من ذهبٍ وفضَّةٍ، فكسَّره وألقاه على

---

(١) هو ابن مسعود ﷺ كما في القراءات الشاذة ص ٦٥، والمحتسب ١/ ٣٤٦. ووقع في (م): وقرأ عبد الله الحبر.

(٢) البحر ٥/ ٣٣٣.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٨، وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٢٧١.

(٤) المنطقة بكسر الميم: ما يُشد به الوسط. حاشية الشهاب ٥/ ١٩٧.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٧٨ من طريق ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد.

الطريق، فعيَّره إخوتُه بذلك»[١].

وأخرج غيرُ واحد عن زيد بن أسلم قال: كان يوسفُ عليه السلام غلاماً صغيراً مع أمِّه عند خالٍ له، وهو يلعب مع الغلمان، فدخل كنيسةً لهم فوجد تمثالاً صغيراً من ذهبٍ فأخذه، وذلك الذي عَنَوه بسرقته[٢].

وقال مجاهد: إنَّ سائلاً جاءه يوماً، فأخذ بيضةً فناولها إياه. وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجةً فأعطاها السائل. وقال وهب: كان عليه السلام يَخبِّىء الطعامَ من المائدة للفقراء. وقيل وقيل.

وعن ابن المنيِّر: أنَّ ذلك تصلُّفٌ[٣] لا يسوغ نسبةُ مثله إلى بيت النبوَّة، بل ولا إلى أحدٍ من الأشراف، فالواجب تركُه. وإليه ذهب مكِّي[٤].

وقال بعضهم: المعنى: إنْ يسرق فقد سرق مثلُه من بني آدم، وذكر له نظائر في الحديث، قيل[٥]: وهو كلامٌ حقيقٌ بالقبول.

وأنت تعلم أنَّ في عدِّ كلِّ ما قيل في بيان المراد من سرقةِ الأخ تصلُّفاً تصلُّفٌ؛ فإنَّ فيه ما لابأس في نسبته إلى بيت النبوَّة. وإن ادُّعي أنَّ دعوى نسبتهم السرقةَ إلى يوسف عليه السلام ممَّا لا يليق نسبةُ مثله إليهم؛ لأنَّ ذلك كذبٌ إذ لا سرقةَ في الحقيقة وهم أهلُ بيت النبوَّة الذين لا يكذبون = جاء حديث «أكَلَه الذئب»، وهم غير معصومين أوَّلاً وآخِراً.

وما قاله البعض ـ وقيل: إنه كلام حقيقٌ بالقبول ـ ممَّا يأباه ما بعدُ كما لا يخفى على مَن له ذوقٌ، على أنَّ ذلك في نفسه بعيدٌ ذوقاً.

وأتوا بكلمة «إنْ» لعدم جَزْمهم بسرقته بمجرَّد خروج السِّقاية من رَحْلِه، فقد

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨، وهو في الفردوس للديلمي ١/ ٢٤١. وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٧٢-٢٧٣، عن سعيد بن جبير وقتادة قولهما.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٧٨.

(٣) في حاشية الشهاب ٥/ ١٩٧ (والكلام منه): تكلف.

(٤) في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٧.

(٥) القائل هو الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٧.

وجدوا من قبلُ بضاعتَهم في رحالهم ولم يكونوا سارقين، وفي بعض الروايات أنَّهم لمَّا رأوا إخراج السقاية من رحلِه خجلوا فقالوا: يا ابنَ راحيل، كيف سرقتَ هذه السقاية؟ فرفع يده إلى السماء فقال: والله ما فعلت. فقالوا: فمن وضعها في رحلك؟ قال: الذي وضع البضاعةَ في رحالكم. فإن كان قولهم: «إن يسرق» إلخ بعدَ هذه المقاولة، فالظاهرُ أنَّها هي التي دعتهم لـ «إنْ»، وأمَّا قولهم: «إنَّ ابنَك سرق» فبناءً على الظاهر ومدَّعى القوم، وكذا عِلْمُهم مبنيٌّ على ذلك.

وقيل: إنَّهم جزموا بذلك، و«إنْ» لمجرَّد الشرط، ولعلَّه الأولى؛ لظاهر ما يأتي إن شاء الله تعالى تحقيقُه.

و«يسرق» لحكاية الحال الماضية، والمعنى: إن كان سرقَ فليس ببِدْعٍ لسَبْقِ مثلِه من أخيه، وكأنَّهم أرادوا بذلك دفعَ المعرَّة عنهم واختصاصَها بالشقيقين. وتنكيرُ «أخ» لأنَّ الحاضرين لا عِلْمَ لهم به.

وقرأ أحمد بن جبير الأنطاكي وابن أبي سريج عن الكسائي، والوليدُ بن حسان، وغيرُهم: «فقد سُرِّق» بالتشديد مبنيّاً للمفعول[1]، أي: نُسب إلى السرقة.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ الضمير لِمَا يُفهم من الكلام والمقام، أي: أضمر الحزازةَ التي حصلت له عليه السلام ممَّا قالوا. وقيل: أضمر مقالتهم، أو نسبةَ السرقة إليه فلم يجبهم عنها ﴿فِي نَفْسِهِۦ﴾ لا أنَّه أسرَّها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩] ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ أي: يظهرْها ﴿لَهُمْ﴾ لا قولاً ولا فعلاً؛ صفحاً لهم وحلماً، وهو تأكيدٌ لِمَا سبق.

﴿قَالَ﴾ أي: في نفسه، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من الإخبار بالإسرار المذكور، كأنه قيل: فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك؟ فقيل: قال:

---

(١) البحر ٥/٣٣٣. وأحمد بن جبير هو أبو جعفر الكوفي المقرئ نزيل أنطاكية، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، وسمع بعض حروف عاصم من أبي بكر بن عياش، توفي سنة (٢٥٨هـ).
وابن أبي سريج هو أحمد بن أبي سريج الرازي، أبو جعفر المقرئ، واسم أبيه الصَّبَّاح، قرأ على الكسائي، وروى عنه البخاري وأبو داود والنسائي في كتبهم، توفي بعد الأربعين ومئتين. طبقات القراء الكبار ١/٤١٦ و٤٣٣.

﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: منزلةً في السَّرق، وحاصله: أنَّكم أثبتُ في الاتِّصاف بهذا الوصف وأقوى فيه، حيثُ سرقتُم أخاكم من أبيكم، ثمَّ طَفِقْتُم تفترون على البريء.

وقال الزجَّاج[1]: إنَّ الإضمار هنا على شريطةِ التفسير[2]؛ لأنَّ «قال أنتم» إلخ بدلٌ من الضمير، والمعنى: فأسرَّ يوسفُ في نفسه قولَه: «أنتم شرٌّ مكاناً»، والتأنيثُ باعتبارِ أنَّه جملةٌ أو كلمة.

وتعقَّب ذلك أبو عليٍّ بأنَّ الإضمارَ على شريطة التفسير على ضربين: أحدُهما: أن يفسَّر بمفرد، نحو: نِعْمَ رجلاً زيدٌ، ورُبَّه رجلاً. وثانيهما: أن يفسَّر بجملةٍ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وأصل هذا أن يقع في الابتداء ثمَّ يدخل عليه النواسخ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الحج: ٤٦].

وليس منها شفاءُ النَّفس مبذولُ[3].

وغير ذلك، وتفسير المضمَر في كِلَا الموضعين متَّصلٌ بالجملة التي قبلها المتضمِّنةِ لذلك المضمَر ومتعلِّقٌ بها، ولا يكون منقطعاً عنها، والذي ذكره الزجَّاج منقطعٌ، فلا يكون من الإضمار على شريطة التفسير.

وفي «أنوار التنزيل» أنَّ المفسَّر بالجملة لا يكون إلا ضميرَ الشأن[4]. واعتُرض عليه بالمنع.

وفي «الكشف»: إنَّ هذا ليس من التفسير بالجُمل في شيء حتى يعترض بأنَّه من

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ١٢٣.

(٢) أي: لم يرجع الضمير في «فأسرَّها» على ما سبقه، وإنما فسَّره ما بعده.

(٣) وصدره: هي الشفاء لدائي لو ظَفِرْتُ بها. والبيت عزاه سيبويه في الكتاب ١/ ٧١ لهشام أخي ذي الرُّمَّة، وقال ابن السِّيد في الحلل ص ٦٧: يروى لكعب بن زهير، ويروى لهشام. وهو في المغني ص ٣٨٩ دون نسبة. والشاهد فيه أنه جعل في «ليس» ضمير الشأن وجعل الجملة التي بعدها تفسيراً للمضمر في موضع الخبر. وقوله: منها متعلق بمبذول. ينظر تحصيل عين الذهب ص ٩٥، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٥/ ٢٠٩.

(٤) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٩٨.

خواصّ ضميرِ الشأن الواجب التصدير، وإنما هو نظيرُ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ﴾ إلخ [البقرة: ١٣٢].

وتُعقِّب بأنَّ في تلك الآية تفسيرَ جملةٍ بجملةٍ، وهذا فيها تفسيرُ ضميرٍ بجملة.

وفي «الكشاف» جَعَلَ «أنتم شرٌّ مكاناً» هو المفسِّر[1]، وفيه خفاء؛ لأنَّ ذلك مقولُ القول.

واستَدلَّ بعضهم بالآية على إثبات الكلام النفسيِّ بجَعْل «قال» إلخ بدلاً من «أسرَّ»، ولعلَّ الأمرَ لا يتوقَّف على ذلك؛ لِمَا أشرنا إليه من أنَّ المراد: قال في نفسه. نعم قال أبو حيَّان: إنَّ الظاهرَ أنه عليه السلام خاطبهم وواجههم به بعدَ أنْ أسرَّ كراهيةَ مقالتهم في نفسه، وغرضُه توبيخُهم وتكذيبُهم، ويقوِّيه أنَّهم تركوا أن يشفعوا بأنفسهم، وعدلوا إلى الشفاعة له بأبيه[2]. وفيه نظر.

وقرأ عبد الله، وابنُ أبي عبلة: «فأسرَّه» بتذكير الضمير[3].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾ أي: عالـمٌ علماً بالغاً إلى أقصى المراتب بأنَّ الأمر ليس كما تصفون من صدور السَّرقة منَّا، فصيغةُ أفعل لمجرَّد المبالغة لا لتفضيلِ علمه تعالى على علمهم، كيف لا وليس لهم بذلك من عِلْم؟ قاله غير واحد.

وقال أبو حيَّان: إنَّ المعنى: أعلمُ بما تصفون به منكم؛ لأنه سبحانه عالـمٌ بحقائقِ الأمور، وكيف كانت سرقةُ أخيه الذي أحَلْتم سرقته عليه[4]. فأفعل حينئذٍ على ظاهره.

واعتُرض بأنَّه لم يكن فيهم عِلْم، والتفضيلُ يقتضي الشركة.

وأُجيب بأنَّه تكفي الشركةُ بحسب زَعْمِهم؛ فإنَّهم كانوا يدَّعون العِلْمَ لأنفسهم، ألا ترى قولَهم: «فقد سَرق أخٌ له من قبل» جزماً؟

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٦.
(٢) البحر ٥/ ٣٣٤.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٣٦، والبحر ٥/ ٣٣٣.
(٤) البحر ٥/ ٣٣٤.

﴿قَالُوا﴾ عندما شاهدوا مخايلَ أَخْذِ بنيامين مستعطِفين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ طاعناً في السنِّ لا يكاد يستطيع فراقَه، وهو عُلالةٌ به يتعلَّل عن شقيقِه الهالك. وقيل: أرادوا مسنّاً كبيراً في القَدْر. والوصفُ على القولين محطُّ الفائدة، وإلا فالإخبارُ بأنَّ له أباً معلومٌ ممَّا سبق.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدله، فلسنا عنده بمنزلته من المحبَّة والشفقة.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾ إلينا، فأَتِمَّ إحسانك، فما الإنعامُ إلا بالإتمام، أو: مِن عادتِك الإحسان مطلقاً، فاجْرِ على عادتك ولا تغيِّرها معنا فنحن أحقُّ الناس بذلك، فالإحسانُ على الأوَّل خاصٌّ، وعلى الثاني عامٌّ.

والجملة على الوجهين اعتراضٌ تذييليٌّ على ما ذهب إليه بعضُ المدقِّقين، وذهب بعضٌ آخرُ إلى أنَّه إذا أريد بالإحسان الإحسانُ إليهم تكونُ مستأنفةً لبيان ما قبلُ؛ إذ أَخْذُ البدل إحسانٌ إليهم، وإذا أريد أنَّ عمومَ ذلك من دأبك وعادتكَ تكونُ مؤكِّدة لِمَا قبلُ، وذكرُ أمرٍ عامٍّ على سبيلِ التذييل أنسبُ بذلك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعوذُ بالله تعالى معاذاً من ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ فحذِفَ الفعلُ وأُقيم المصدرُ مقامه مضافاً إلى المفعول به، وحُذف حرف الجرِّ كما في أمثاله. ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لأنَّ أَخْذَنا له إنَّما هو بقضيَّةِ فَتْواكم، فليس لنا الإخلالُ بموجبها. ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إذا أخذنا غيرَ مَن وَجَدْنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾ في مذهبكم وشَرْعِكم، وما لنا ذلك.

وإيثارُ صيغة التكلُّم(١) مع الغير ـ مع كون الخطاب من جهة إخوته على التوحيد ـ من باب السلوك إلى سَنَنِ الملوك، وللإشعار(٢) بأنَّ الأخذَ والإعطاء ليس مما يستبدُّ به، بل هو منوطٌ بآراء أهل الحلِّ والعَقْد.

وإيثارُ «من وجدنا متاعنا عنده» على: مَن سَرَقَ متاعَنا ـ الأخصر ـ لأنَّه أوفقُ بما وقع في الاستفتاء والفتوى، أو لتحقيقِ الحقِّ والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرامِ، فإنهم لا يحملون وجدانَ الصُّواع عندَه على محملٍ غيرِ السرقة.

---

(١) في (م): المتكلم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ٢٩٩.

(٢) في تفسير أبي السعود: أو للإشعار.

والمتاعُ: اسم لما يُنتفع به، وأريد به الصُّواع، وما ألطفَ استعمالَه مع الأخذ المرادِ به الاسترقاقُ والاستخدام، وكأنَّه لهذا أوثر على الصُّواع. والظاهرُ أنَّ الأخذ في كلامهم محمولٌ على هذا المعنى أيضاً حقيقةً، وجوَّز ابن عطية[1] أن يكون ذلك مجازاً؛ لأنَّهم يعلمون أنَّه لا يجوز استرقاقُ حرٍّ غيرِ سارق بدلَ مَن قد أحكمت السُّنَّةُ رقَّه، فقولهم ذلك كما تقول لمن تكره فعلَه: اقتلني ولا تفعل كذا. وأنت لا تريد أن يقتلك ولكنَّك تبالغُ في استنزاله. ثم قال: وعلى هذا يتَّجه قولُ يوسفَ عليه السلام: «معاذ الله»؛ لأنَّه تعوَّذ من غيرِ جائزٍ، ويحتمل أن لا يريدوا هذا المعنى[2]، وبعيدٌ عليهم وهم أنبياءُ أن يريدوا استرقاق حرٍّ، فلم يَبْقَ إلا أن يريدوا بذلك الحمالةَ، أي: خُذ أحدنا وأبْقِه عندك حتى ينصرفَ إليك صاحبُك، ومقصدُهم بذلك أن يصلَ بنيامين إلى أبيه فيعرِّفه جليَّة الحال. اهـ، وهو كلامٌ لا يُعوَّل عليه أصلاً كما لا يخفى.

ولجواب يوسف عليه السلام معنًى باطنٌ هو: أنَّ الله عزَّ وجلَّ إنما أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح عَلِمَها سبحانه في ذلك، فلو أخذتُ غيرَه كنت ظالماً لنفسي وعاملاً بخلاف الوحي.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يئسوا من يوسف عليه السلام وإجابتِه لهم إلى مرادهم، فاستفعل بمعنى فَعِلَ، نحو: سَخِرَ واسْتَسْخَر، وعَجِبَ واستعجب، على ما في «البحر»[3].

وقال غيرُ واحدٍ: إنَّ السين والتاء زائدتان للمبالغة، أي: يئسوا يأساً كاملاً؛ لأنَّ المطلوبَ المرغوبَ مبالغٌ في تحصيله، ولعلَّ حصول هذه المرتبة من اليأس لهم لِمَا شاهدوه من عوذِه بالله تعالى ممَّا طلبوه، الدالِّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنَّه ممَّا يجب أن يُحترز عنه ويُعاذَ بالله تعالى منه، ومن تسميته ذلك ظلماً بقوله: «إنا إذاً لظالمون».

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٨.
(٢) أي: أن يكون قولهم: «فخذ أحدنا مكانه» حقيقةً، كما في المحرر الوجيز.
(٣) ٥/ ٣٣٥.

وفي بعض الآثار أنَّهم لمَّا رأوا خروجَ الصُّواع من رحله وكانوا قد أفتَوا بما أفتَوا، تذكَّروا عهدَهم مع أبيهم، استشاط من بينهم روبيل[١] غضباً، وكان لا يقوم لغضبه شيء، ووقف شعرُه حتى خرج من ثيابه، فقال: أيُّها الملك لتتركَنَّ أخانا أو لأصيحنَّ صيحةً لا يبقينَّ بها في مصر حاملٌ إلا وضعت. فقال يوسف عليه السلام لولدٍ له صغير: قم إلى هذا فمُسَّه أو خُذْ بيده. وكان إذا مسَّه أحدٌ من ولد يعقوب عليه السلام يسكنُ غضبه، فلما فعل الولدُ سكن غضبه، فقال لإخوته: مَن مسَّني منكم؟ فقالوا: ما مسَّك أحدٌ منا. فقال: لقد مسَّني ولدٌ من آل يعقوب. ثم قال لإخوته: كم عددُ الأسواق بمصر؟ قالوا: عشرة. قال: اكفوني أنتم الأسواقَ وأنا أكفيكم الملكَ. أو: اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواقَ. فلما أحسَّ يوسف عليه السلام بذلك قام إليه وأخذ بتلابيبه وصرعه، وقال: أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون أنْ لا أحد أشدُّ منكم قوَّةً. فعند ذلك خضعوا وقالوا: «يا أيُّها العزيز» إلخ. ويمكن على هذا أن يكون حصولُ اليأس الكامل لهم من مجموعِ الأمرين.

وجوَّز بعضهم كونَ ضمير «منه» لبنيامين، وتعقَّب بأنَّهم لم ييأسوا منه، بدليلِ تخلُّف كبيرهم لأَجْلِه.

وروى أبو ربيعة عن البزِّي عن ابن كثير أنَّه قرأ: «استايَسُوا»[٢] من «أيس» مقلوبِ يئس[٣]، ودليلُ القلب على ما في «البحر» عدمُ انقلاب ياءِ «أيس» ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها[٤].

وحاصلُ المعنى[٥]: لمَّا انقطع طمعهم بالكلِّية ﴿خَلَصُواْ﴾ أي: انفردوا عن غيرِهم واعتزلوا الناس. وقول الزجَّاج[٦]: انفرد بعضُهم عن بعضٍ. فيه نظر.

---

(١) في هامش الأصل و(م): وقيل: شمعون، وروي عن وهب. اهـ منه.

(٢) بالألف وفتح الياء من غير همز، وهي في رواية البزي بخلف عنه، والوجه الثاني للبزي كقراءة الجماعة. التيسير ص١٢٩، والنشر ١/ ٤٠٥-٤٠٦.

(٣) في حاشية (م): في مجمع البيان أن أيس ويئس كلٌّ منهما لغة. اهـ منه.

(٤) البحر ٥/ ٣٣٥.

(٥) في هامش الأصل و(م): على تقدير كون الزيادة للمبالغة. اهـ منه.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٢٤.

﴿نَجِيًّا﴾ أي: متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم عليه السلام، وإنَّما وحَّده ـ وكان الظاهرُ جمعَه؛ لأنه حالٌ من ضمير الجمع ـ لأنَّه مصدرٌ بحسب الأصل ـ كالتناجي ـ أطلق على المتناجين مبالغةً أو لتأويله بالمشتقِّ، والمصدرُ ولو بحسب الأصل يشملُ القليلَ والكثيرَ. أو لكونه على زنة المصدر؛ لأن فعيلاً من أبنية المصادر، وهو[1] فعيل بمعنى مفاعل، كجليس بمعنى مجالس، وكعشير بمعنى مُعاشر[2]، أي: مناجٍ بعضُهم بعضاً فيكونون متناجين، وجمعُه أنجية؛ قال لبيد:

وشهدتُ أنجيةَ الخلافة عالياً كَعْبي وأردافُ الملوكِ شهودُ[3]

وأنشد الجوهري:

إنـي إذا مـا القومُ كـانوا أَنْجِيَهْ
واضطربوا مثلَ اضطرابِ الأرشيه
هناكِ أوصيني ولا تُوْصِي بِيَهْ[4]

وهو على خلاف القياسِ؛ إذ قياسُه في الوصف أفعلاء، كمغني وأغنياء.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ أي: رئيسُهم وهو شمعون؛ قاله مجاهد. أو كبيرُهم في السنِّ وهو روبيل؛ قاله قتادة. أو كبيرُهم في العقل وهو يهوذا؛ قاله وهب والكلبي. وعن محمد بن إسحاق أنَّه لاوى.

(١) في الأصل و(م): هو، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ١٩٩، والكلام منه.
(٢) في هامش الأصل و(م): وخليط بمعنى مخالط، وسمير بمعنى مسامر، وغير ذلك. اهـ منه.
(٣) ديوان لبيد ص ٣٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٩، والبحر ٥/ ٣٣٥، والدر المصون ٦/ ٥٣٩. وجاء في هذه المصادر بدل الخلافة: الأفاقة، وهي موضع بعينه. وردف الملك: الذي معه لا يفارقه. وجاء في هامش الأصل و(م): وهو يقوِّي كونه جامداً كرغيف وأرغفة. اهـ منه. يعني أن جمعه كذلك يقوي كونه جامداً. الدر المصون ٦/ ٥٣٩.
(٤) الصحاح (نجا)، وهذا الرجز نسبه في اللسان (نجا) إلى سحيم بن وثيل اليربوعي، وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٤ دون نسبة. والبيت الثاني في الصحاح واللسان برواية: واضطرب القوم اضطراب. . .، وعند الزجاج: واختلف القول اختلاف. . .، وذكر صاحب اللسان أن «هناك» بكسر الكاف بخط علي بن حمزة، وبخطه أيضاً: أوصيني ولا توصي، بإثبات الياء لأنه يخاطب مؤنثاً. والأرشية جمع رشاء: وهو الحبل. وقيل في معنى الرجز: إنه ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم. وقيل غيرُ ذلك.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ كأنَّهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملةً ولم يرضَ به، فقال مُنْكِراً عليهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عهداً يوثَقُ به، وهو حَلِفُهم بالله تعالى، وكونُه منه تعالى لأنه بإذنه، فكأنَّه صَدَر منه تعالى. أو هو من جهته سبحانه، ف «من» ابتدائية.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي: قصَّرتُم في شأنه ولم تحفظوا عهدَ أبيكم فيه وقد قُلتم ما قلتم. و«ما» مزيدةٌ، والجملةُ حاليَّة، وهذا ـ على ما قيل ـ أحسنُ الوجوه في الآية وأسلمُها.

وجوِّز أن تكون «ما» مصدريةً، ومحلُّ المصدر النصبُ عطفاً على مفعول «تعلموا»، أي: ألم تعلموا أَخْذَ أبيكم موثقاً عليكم وتفريطَكم السَّابقَ في شأن يوسف عليه السلام.

وأُورد عليه أمران: الفصلُ بين حرف العطف والمعطوفِ بالظرْف، وتقديمُ معمول صِلة الموصول الحرفي عليه، وفي جوازهما خلافٌ للنُّحاة، والصحيح الجوازُ خصوصاً بالظرف المتوسَّعِ فيه.

وقيل بجواز العطف على اسم «أنَّ» ويحتاج حينئذٍ إلى خبر؛ لأنَّ الخبر الأوَّل لا يصحُّ أن يكون خبراً له، فهو «في يوسف»، أو «من قبل»، على معنى: ألم تعلموا أنَّ تفريطَكم السابقَ وقع في شأن يوسف عليه السلام، أو: أنَّ تفريطكم الكائنَ أو كائناً في شأن يوسف عليه السلام وقع من قبلُ.

واعتُرض بأنَّ مقتضى المقام إنَّما هو الإخبارُ بوقوع ذلك التفريط، لا بكون تفريطِهم السابقِ واقعاً في شأن يوسف عليه السلام كما هو مفادُ الأول، ولا بكون تفريطهم الكائن في شأنه واقعاً من قبل كما هو مفاد الثاني.

وفيه أيضاً ما ذكره أبو البقاء وتبعه أبو حيَّان من أنَّ الغايات لا تقع[1] خبراً ولا صلةً ولا صفةً ولا حالاً، وقد صرَّح بذلك سيبويه سواءٌ جُرَّت أم لم تُجرَّ،

---

(١) أي: الظروف التي هي غايات، إذا بنيت ـ أي: إذا كانت مقطوعة ـ لا تقع...، ينظر الدر المصون ٦/ ٥٤٠.

فتقول: يومُ السبت يومٌ مبارك والسفرُ بعدَه، ولا تقول: والسفرُ بعدُ[1].

وأجاب عنه في «الدرِّ المصون» بأنه إنَّما امتنع ذلك لعدم الفائدة، [وعدمُ الفائدة] لعدمِ العلم بالمضاف إليه المحذوفِ، فينبغي الجواز إذا كان المضاف إليه معلوماً مدلولاً عليه كما في الآية الكريمة[2].

ورُدَّ بأنَّ جوازَ حذف المضاف إليه في الغايات مشروطٌ بقيام القرينة على تعيين ذلك المحذوف على ما صرَّح به الرضي، فدلَّ على أن الامتناعَ ليس معلَّلاً بما ذكر.

وقال الشهاب[3]: إنَّ ما ذكروه ليس متَّفقاً عليه؛ فقد قال الإمام المرزوقي في «شرح الحماسة»: إنها تقع صفاتٍ وأخباراً وصلاتٍ وأحوالاً، ونقل هذا الإعراب المذكور هنا عن الرمَّاني وغيرِه، واستشهد له بما يثبتُه من كلام العرب. ثم إنَّ في تعرُّفها بالإضافة باعتبارِ تقدير المضافِ إليه معرفةً يعيِّنه الكلام السَّابق عليها اختلافاً، والمشهور أنَّها معارف[4]، وقال بعضهم: نكرات، وإنَّ التقدير: من قبلِ شيءٍ، كما في «شرح التسهيل». والفاضلُ صاحب «الدر» سلك مسلكاً حسناً، وهو أنَّ المضاف إليه إذا كان معلوماً مدلولاً عليه بأن يكون مخصوصاً معيَّناً، صحَّ الإخبار لحصول الفائدة، فإنْ لم يتعيَّن بأنْ قامت قرينةُ العموم دونَ الخصوص وقدِّر: من قبل شيء، لم يصحَّ الإخبار ونحوُه؛ إذ ما [من] شيءٍ إلا وهو قبلَ شيءٍ ما، فلا فائدةَ في الإخبار، فحينئذ يكون معرفةً ونكرة، ولا مخالفةَ بين كلامه وكلامِ

(١) الإملاء ٣/ ٣٥٥، والبحر ٥/ ٣٣٦، ونقله المصنف عنهما بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٩. وجاء في هامش الأصل و(م) عند قوله: ولا صلة: أُوْرِد على أنها لا تكون صلة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ودُفع بأن الصلة قوله سبحانه: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ و«من قبل» ظرفٌ لغوٌ متعلِّقٌ بخبرِ «كان»، لا مستقرٌّ صلة. اهـ منه.

(٢) الدر المصون ٦/ ٥٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٩٩، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) في الحاشية ٥/ ١٩٩-٢٠٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه. وجاء في هامش الأصل و(م): وذَكَر بأنه تحقيقٌ حقيقٌ بأن يرسم في دفاتر الأذهان، ويعلَّق في حقائب الحفظ والجنان. اهـ منه. وهو في الحاشية ٥/ ٢٠٠.

(٤) في هامش الأصل و(م): وذكر السيرافي في شرح الكتاب ما يقتضى أن الغايات معارف لا يقدر ما حذف بعدها إلا معرفة، فتأمل. اهـ منه.

الرضي، مع أنَّ كلام الرضي غيرُ متفق عليه. انتهى، وهو كما قال: تحقيقٌ نفيس.

وقيل: محلُّ المصدر الرفعُ على الابتداء، والخبرُ «من قبل». وفيه البحثُ السابق.

وقيل: «ما» موصولة، ومحلُّها من الإعراب ما تقدَّم من الرفع أو النصب، وجملةُ «فرَّطتم» صلتُها، والعائد محذوفٌ، والتفريط بمعنى التقديم من الفَرْط لا بمعنى التقصير، أي: ما قدَّمتموه من الجناية.

وأُورد عليه أنه يكون قوله تعالى: «من قبل» تكراراً؛ فإنْ جُعل خبراً يكون الكلام غيرَ مفيد، وإن جُعل متعلِّقاً بالصِّلة يلزم مع التكرار تقديمُ متعلَّق الصِّلة على الموصول، وهو غيرُ جائز.

وقيل: «ما» نكرةٌ موصوفةٌ ومحلُّها ما تقدَّم. وفيه ما فيه.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ مفرَّعٌ على ما ذكره وذكَّر به، و«بَرِحَ» تامَّة، وتستعمل إذا كانت كذلك بمعنى ذهب، وبمعنى ظهر كما في قولهم: بَرِحَ الخفاءُ[1]، وقد ضمِّنت هنا معنى فارَقَ فنصبت «الأرض» على المفعولية. ولا يجوز أن تكون ناقصةً؛ لأنَّ الأرض لا يصحُّ أن تكون خبراً عن المتكلِّم هنا، وليست منصوبةً على الظرفية ولا بنزع الخافض، وعنى بها أرض مصرَ، أي: فلن أفارقَ أرض مصر جرياً على قضيَّة الميثاق.

﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في البراح بالانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروج منها على وجهٍ لا يؤدِّي إلى نقض الميثاق، أو بخلاصِ أخي بسببٍ من الأسباب.

قال في «البحر»: إنَّه غيَّا ذلك بغايتين: خاصَّةٍ وهي إذنُ أبيه، وعامَّةٍ وهي حكمُ الله تعالى له، وكأنه بعد أن غيَّا بالأولى رجع وفوَّض الأمرَ إلى مَن له الحكمُ حقيقةً جلَّ شأنه، وأراد حكمَه سبحانه بما يكون عذراً له ولو الموت[2].

والظاهر أن أحبَّ الغايتين إليه الأولى، فلذا قدَّم «لي» وأخَّره في الثانية، فليفهم.

---

(١) أي: وَضَح الأمر. القاموس (برح).
(٢) البحر ٥/٣٣٦.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ إذ لا يحكم سبحانه إلا بالحقِّ والعدل.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ﴾ له: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ الظاهرُ أنَّ هذا القول من تتمَّة كلام كبيرهم. وقيل: هو من كلام يوسفَ عليه السلام، وفيه بعدٌ. كما أنَّ الظاهر أنَّهم أرادوا أنه سرق في نفس الأمر.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته وتيقَّنَّاه، حيثُ استُخرج صواعُ الملك من رَحْله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاقَ، أو: ما علمنا أنَّك ستصاب به كما أُصبت بيوسف.

وقرأ الضحاك: «سارق» باسم الفاعل[1].

وقرأ ابنُ عباس وأبو رزين والكسائيُّ في رواية: «سُرِّق» بتشديد الراء مبنيّاً للمفعول[2]، أي: نُسب إلى السرقة، فمعنى «وما شهدنا» إلخ: وما شهدنا إلا بقَدْرِ ما عَلِمْنا من التسريق، وما كنَّا للأمر الخفيِّ بحافظين: أَسَرق بالصحَّة، أم دُسَّ الصُّواع في رحله ولم يشعر؟ واستُحسنت هذه القراءةُ؛ لِمَا فيها من التنزيه، كذا قالوا.

والظاهرُ أنَّ القول باستفادة اليقين من استخراج الصُّواع من رَحْلِه مما لا يصحُّ، فكيف يوجبُ اليقين؟ واحتمالُ أنه دُسَّ فيه من غير شعورٍ قائمٌ، جُعِلَ مجرَّدُ وجودِ الشيء في يد المدَّعَى عليه بعد إنكاره مُوْجِباً للسَّرق في شرعهم أوْ لا. قيل: فالوجهُ أن الظنَّ البيِّنَ قائمٌ مقام العلم، ألا ترى أنَّ الشهادة تجوز بناءً على الاستصحاب[3] ويسمَّى علماً، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وإنما جزموا بذلك لبُعد الاحتمالات المعارِضةِ عندهم، وإذا جُعل الحكم بالسرقة وكذا علمُهم أيضاً مبنيّاً على ما شاهدوا من ظاهرِ الأمر اتَّحدت القراءتان، ويفسَّر «وما كنا» إلخ بما فسِّر به على القراءة الأخيرة.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٠، والبحر ٥/ ٣٣٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٣، والبحر ٥/ ٣٣٧.

(٣) هو الحكم على الشيء بالحال التي كان عليها من قبل، حتى يقوم دليل على تغير تلك الحال. أو هو جَعْلُ الحكم الذي كان ثابتاً في الماضي باقياً في الحال حتى يقوم دليل على تغييره. علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص ٩١.

وقيل: معنى «وما شهدنا» إلخ: ما كانت شهادتُنا في عمرنا على شيء إلَّا بما عَلِمْنا، وليست هذه شهادةً منَّا إنَّما هي خبرٌ عن صنيع ابنك بزعمِهم، «وما كنا» إلخ كما هو. وهو ذهابٌ أيضاً إلى أنَّهم غيرُ جازمين.

وفي «الكشف»: الذي يشهد له الذوقُ أنهم كانوا جازمين، وقولُهم: «إن يسرق فقد سرق» تمهيدٌ بيِّنٌ، وادِّعاءُ العلم لا يُلْزِمُ العلم، فإن كان لبُعْدِ الاحتمالات المعارِضة فلا يكون كذباً محرَّماً، وإلا فغايتُه الكذبُ في دعوى العِلم، وليس بأوَّل كذباتهم، وكان قبل أن تنبؤوا ولهذا خوَّنهم الأب في هذه أيضاً، على أنَّ قولهم: «جزاؤه مَن وُجد في رحله» مؤكَّداً ذلك التأكيدَ يدلُّ على أنَّهم جعلوا الوجدان في الرحل قاطعاً، وإلَّا كان عليهم أن يقولوا: جزاؤه مَن وُجد في رحله متعدِّياً، أو سارقاً، ونحوه. فإن يُحتمَلْ عنهم الجزمُ هنالك فلِمَ لا يُحتمل ها هنا؟ اهـ، وفيه مخالفةٌ لبعض ما نحن عليه، وكذا لِمَا ذكرناه في تفسير «جزاؤه» إلخ، ولعلَّ الأمر في هذا هيِّن.

ومن غريب التفسير أنَّ معنى قولهم: «للغيب»: للَّيل، وهو بهذا المعنى في لغة حِمْير، وكأنَّهم قالوا: وما شهدنا إلا بما علمنا من ظاهر حاله، وما كنَّا للَّيل حافظين، أي: لا ندري ما يقع فيه، فلعلَّه سرق فيه أو دُلِّس عليه. وأنا لا أدري ما الداعي إلى هذا التفسير المظلم مع تبلُّج صبح المعنى المشهور. وأيّاً ما كان فلامُ «للغيب» للتقوية، والمرادُ: حافظين الغيب.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ يعنُون كما روي عن ابن عباس وقتادة والحسن مصرَ. وقيل: قريةً بقربها لحقهم المنادي بها[1]. والأوَّل ظاهرٌ على القول بأنَّ المفتِّش لهم يوسفُ عليه السلام، والثاني ظاهرٌ[2] على القول بأنَّه المؤذِّن.

وسؤالُ القرية عبارةٌ عن سؤال أهلها: إمَّا مجازاً في «القرية» لإطلاقها عليها[3] بعلاقةِ الحالِّيّة والمحليّة أو في النِّسبة، أو يقدَّر فيه مضافٌ، وهو مجازٌ أيضاً عند

(١) في الأصل: لها، وفي تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٠: فيها، وفي تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠١: عندها.

(٢) في (م): الظاهر.

(٣) أي: على أهلها. حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٠.

سيبويه[1] وجماعةٍ. وفي «المحصول» وغيره: أنَّ الإضمار والمجازَ متباينان ليس أحدُهما قسماً من الآخر[2]. والأكثرون على المقابلة بينهما.

وأيّاً ما كان فالمسؤول عنه محذوفٌ للعلم به، وحاصل المعنى: أرسلْ مَن تثقُ به إلى أهل القرية واسألهم عن القصَّة.

﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: أصحابَها الذين توجَّهنا فيهم وكنَّا معهم، فإن القصَّة معروفةٌ فيما بينهم. وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوبَ عليه السلام. وقيل: من أهل صنعاءَ، والكلام هنا في التجوُّز والإضمار كالكلام سابقاً.

وقيل: لا تجوُّزَ ولا إضمارَ في الموضعين، والمقصود إحالةُ تحقيق الحال والاطِّلاع على كُنْه القصَّة على السؤال من الجمادات والبهائم أنفسِها، بناءً على أنه عليه السلام نبيٌّ فلا يبعدُ أن تنطقَ و تخبرَه بذلك على خرقِ العادة.

وتُعقِّب بأنَّه مما لا ينبغي أن يكون مراداً ولا يقتضيه المقام؛ لأنَّه ليس بصدد إظهار المعجزة.

وقال بعض الأجلَّة: الأولى إبقاءُ «القرية» و«العير» على ظاهرهما وعدمُ إضمار مضافٍ إليهما، ويكونُ الكلام مبنيّاً على دعوى ظهورِ الأمر بحيث إن الجمادات والبهائم قد علمت به. وقد شاع مثلُ ذلك في الكلام قديماً وحديثاً، ومنه قول ابن الدُّمَيْنَة:

سلِ القاعةَ الوعسا من الأجرعِ الذي ... به البانُ هل حيَّيتُ أطلال دارِكِ[3]

وقوله:

(١) في الكتاب ٣/ ٢٤٧.

(٢) نقله المصنف عن البحر ٥/ ٣٣٧، وفيه: وفي المحصول لأبي عبد الله محمد الرازي وفي مختصراته أن الإضمار. . . ، وينظر المحصول ١/ ٣٥٩.

(٣) ديوان ابن الدمينة ص ١٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٠٧، والحماسة البصرية ٢/ ١٠٧، واختلفت الرواية في صدر البيت في المصادر. وقوله: الأجرع، قال المرزوقي: الأجرع من الأماكن: السهل المختلط بالرمل. اهـ. والوعساء: رابية من رمل لينةٌ. والوعساء موضع معروف بين الثعلبية والخزيمية على جادة الحاجِّ، وهي شقائق رمل متصلة. التاج (وعس).

سلوا مضجعي عنِّي وعنها فإنَّنا رضينا بما يُخبِرْنَ عنَّا المَضاجِعُ(١)

وقوله:

واسأل نجومَ الليل هلْ زار الكَرَى جَفْني وكيف يزورُ مَن لم يَعْرِفِ(٢)

ولا يخفى أنَّ مثلَ هذا لا يخلو عن ارتكاب مجازٍ. نعم هو معنًى لطيفٌ بَيْد أن الجمهورَ على خلافه، وأكثرُهم على اعتبار مجازِ الحذف.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾ فيما أخبرناك به، وليس المرادُ إثباتَ صدقهم بما ذكر حتى يكون مصادرة(٣)، بل تأكيدَ صدقهم بما يفيد ذلك من الاسميَّة و«إنَّ» واللام، وهو مرادُ مَن قال: إنه تأكيدٌ في محلِّ القسم. ويحتمل ـ على ما قيل ـ أن يريد أنَّ هنا قَسَماً مقدَّراً.

وقيل: المرادُ الإثباتُ ولا مصادرةَ، على معنى: إنَّا قومٌ عادتُنا الصِّدق، فلا يكون ما أخبرناك به كذباً، ولا نظنُّك في مريةٍ من عدمِ قبوله.

﴿قَالَ﴾ أي: أبوهم عليه السلام، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ ممَّا سبق، فكأنه قيل: فماذا كان عند قولِ ذلك القائل للإخوة ما قال؟ فقيل: قال أبوهم عندما رجعوا إليه فقالوا له ما قالوا: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وإنما حذف للإيذان بأنَّ مسارعتهم إلى قبول كلام ذلك القائل ورجوعَهم به إلى أبيهم أمرٌ مسلَّم غنيٌّ عن البيان، وإنما المحتاج إليه جوابُه.

يروى أنَّهم لمَّا عزموا على الرجوع إلى أبيهم، قال لهم يوسفُ عليه السلام: إذا أتيتم أباكم فاقرؤوا عليه السلام، وقولوا له: إن ملك مصرَ يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ولدكَ يوسف؛ ليعلم أنَّ في أرض مصرَ صدِّيقين مثله. فساروا حتى وصلوا إليه فأخبروه بجميع ما كان، فبكى وقال ما قال.

و«بل» للإضراب، وهو ـ على ما قيل ـ إضرابٌ لا عن صريح كلامهم فإنَّهم صادقون فيه، بل عمَّا يتضمَّنه من ادِّعاء البراءة عن التسبُّب فيما نزل به، وأنه لم

---

(١) البيت للشريف الرضي، وهو في ديوانه ١/ ٦٥٨.
(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٥١.
(٣) في حاشية الشهاب ٥/ ٢٠١ (والكلام منه): حتى يكون مصادرة لإثبات الشيء بنفسه.

يصدر عنهم ما أدَّى إلى ذلك من قولٍ أو فعلٍ، ك : إنَّه لم يكن الأمرُ كذلك، بل زيَّنت وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً من الأمور فأتيتموه، يريد بذلك فُتياهم بأخذِ السَّارق بسرقته، وليس ذلك من دين الملك.

وقال أبو حيَّان: إنَّ هنا كلاماً محذوفاً وقع الإضراب عنه، والتقدير: ليس [الأمر] حقيقةً كما أخبرتم، بل سوَّلت إلخ[1]. وهو عند ابن عطية ـ وادَّعَى أنَّه الظاهر، على حدِّ ما قال في قصة يوسف عليه السلام ـ ظنُّ سوءٍ بهم، خلا أنه عليه السلام صدقَ ظنُّه هناك ولم يتحقَّق هنا[2].

وذكر ابن المنيِّر[3] في توجيه هذا القول ها هنا مع أنَّهم لم يتعمَّدوا في حقِّ بنيامين سوءاً، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليَّته، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه: إنهم كانوا عند أبيهم عليه السلام حينئذٍ متَّهمين، وهم قُمُنٌ باتِّهامه لِمَا أسلفوه في حقِّ يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينةٌ تؤكِّد التهمةَ وتقوِّيها، وهي أخذُ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلَّا من دينه، لا من دينه ولا من دينِ غيرهِ من الناس[4]، فظنَّ أنهم الذين أفتَوه بذلك بعد ظهور السرقة التي ذكروها تعمُّداً ليتخلَّف دونهم، واتهامُ مَنْ هو بحيث يتطرَّق إليه التهمة لا جرحَ فيه، لاسيما فيما يرجع إلى الوالد مع الولد.

ثم قال: ويحتمل أن يكون الوجهُ الذي سوَّغ له هذا القولَ في حقِّهم أنَّهم جعلوا مجرَّد وجود الصُّواع في رحل مَنْ يوجد في رحله سرقةً، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجهٍ معلوم، وهذا في شرعنا لا يُثْبِتُ السرقة على مَن ادُّعيت عليه، فإن كان في شرعهم أيضاً كذلك ففي عدم تحرير الفتوى إشعارٌ بأنَّهم كانوا حِراصاً على أخْذه، وهو من التسويل وإن اقتضى ذلك في شرعهم، فالعُمدة على الجواب الأول.

(١) البحر ٥/ ٣٣٧، وما بين حاصرتين منه.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧١.
(٣) في الانتصاف ٢/ ٣٣٨.
(٤) العبارة في الانتصاف: ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب لا من دين غيره من الناس ولا من عادتهم. . .

هذا والتنوينُ في «أمراً» للتعظيم، أي: أمراً عظيماً. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري ذلك، أو: فصبرٌ جميلٌ أجملُ، وقد تقدَّم تمامُ الكلام فيه فتذكَّر.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسفَ وأخيه بنيامين والمتوقِّفِ بمصر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالِهم ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ الذي يبتلي ويرفع البلاءَ حسب الحِكمة البالغة.

قيل: إنما ترجَّى عليه السلام للرؤيا التي رآها يوسفُ عليه السلام، فكان ينتظرها ويُحسنُ ظنَّه بالله تعالى، لاسيما بعد أن بلغَ الشِّظاظ الوركين، وجاوز الحزامُ الطِّبْيَيْنِ(١)، فإنَّه قد جرتْ سنَّته تعالى أنَّ الشِّدة إذا تناهت يَجْعَلُ وراءَها فرجاً عظيماً، وانضمَّ إلى ذلك ما أُخبر به عن ملك مصر أنَّه يدعو له أن لا يموت حتَّى يرى ولدَه.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهةً لِمَا جاؤوا به ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الأسفُ: أشدُّ الحزن على ما فات، والظاهر أنه عليه السلام أضافه إلى نفسه، والألفُ بدلٌ من ياء المتكلِّم للتخفيف، والمعنى: يا أسفي تعالَ فهذا أوانك.

وقيل: الألف ألفُ النُّدبة والهاءُ محذوفةٌ. والمعوَّل عليه الأوَّل.

وإنَّما تأسَّف على يوسف مع أنَّ الحادثَ مصيبةُ أخويه؛ لأنَّ رزأه كان قاعدةَ الأرزاء عنده وإن تقادَم عهدُه آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولا يزولُ عن فكره أبداً:

وَلَمْ تُنْسِني أَوْفَى المصيباتُ بَعْدَه ... ولكنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أوجعُ(٢)

---

(١) هذان مثلان يضربان فيما جاوز الحد، وهما كقولهم: بلغ السيل الزبى، ينظر مجمع الأمثال ١/ ١٦٦ و٢/ ١٢٤. والشظاظ: عُوَيد محدَّدُ الطَّرَف، يُدْخَل في عروة الجُوَالقين فيَجمع بينهما عند حملهما على البعير. والجُوَالق معرب جوال: وعاء من أوعية الطعام. والطِّبْيُ: حلمات الضرع التي فيها اللبن من ذي خفٍّ أو ظلف أو حافر أو سبع، جمعها أَطْباء، وقولهم عند اشتداد الأمر: بلغ الحزام الطِّبيين؛ لأن الحزام إذا انتهى إلى الطبيين فقد انتهى إلى أبعد غاية، فكيف إذا جاوز؟ معجم متن اللغة (شظظ) و(جولق) و(طبا).

(٢) البيت ينسب لهشام أخي ذي الرُّمَّة كما في الكامل للمبرد ١/ ٣٤٠، وعيون الأخبار ٣/ ٦٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧٩٣، وللتبريزي ٢/ ١٤٧. ونسب لأخيه مسعود في الأغاني ١٨/ ٣، وطبقات الفحول ٢/ ٥٦٦، والشعر والشعراء ١/ ٥٢٨. وأوفى: هو اسم أخيهم.

ولا يَرِدُ أنَّ هذا منافٍ لمنصب النبوَّة؛ إذ يقتضي ذلك معرفةَ الله تعالى، ومَن عرفه سبحانه أحبَّه، ومَن أحبَّه لم يتفرَّغ قلبُه لحبِّ ما سواه = لما قيل: إنَّ هذه محبَّةٌ طبيعيَّةٌ، ولا تأبى الاجتماع مع حبِّه تعالى.

وقال الإمام: إنَّ مثل هذه المحبَّة الشديدة تزيلُ عن القلب الخواطرَ، ويكون صاحبُها كثيرَ الرجوع إليه تعالى، كثيرَ الدعاء والتضرُّع، فيصير ذلك سبباً لكمال الاستغراق[1]. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للصوفية قدَّس الله تعالى أسرارهم في هذا المقام في باب الإشارة.

وقيل: لأنَّه عليه السلام كان واثقاً بحياتهما، عالماً بمكانهما، طامعاً بإيابهما، وأمَّا يوسفُ فلم يكن في شأنه ما يحرِّك سلسلةَ رجائه سوى رحمةِ الله تعالى وفضله. وفيه بحث.

وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن سعيد بن جبير: لم تُعْطَ أمةٌ من الأمم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] إلا أمَّةُ محمد ﷺ[2]. أي: لم يَعْلَموه ولم يوفَّقوا له عند نزول المصيبة بهم، ألا يُرى إلى يعقوب عليه السلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال ما قال؟

وفي «أسفا» و«يوسف» تجنيسٌ نفيسٌ من غير تكلُّفٍ، وهو مما يزيد الكلامَ الجليل بهجةً.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي: بسببه، وهو في الحقيقة سببٌ للبكاء، والبكاءُ سببٌ لابيِضَاض عينه، فإنَّ العَبْرَةَ إذا كثُرتْ محقتْ سوادَ العين وقَلَبتْه إلى بياضٍ كدرٍ، فأقيم سببُ السبب مقامَه؛ لظهوره.

والابيضاضُ قيل: إنه كناية عن العمى، فيكون قد ذهب بصرُه عليه السلام

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٠.

(٢) شعب الإيمان (٩٦٩١). وهو في المعجم الكبير (١٢٤١١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وإسناده ضعيف، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٣٠: فيه محمد بن خالد الطحان، وهو ضعيف. اهـ. وقال البيهقي: رفعه بعض الضعفاء إلى ابن عباس ثم إلى النبي ﷺ.

بالكلِّيَّة، واستظهره أبو حيَّان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ [يوسف: ٩٦] وهو يقابل بالأعمى[1].

وقيل: ليس كنايةً عن ذلك، والمرادُ من الآية أنه عليه السلام صارت في عينيه غشاوةٌ بيَّضَتْهما، وكان عليه السلام يدركُ إدراكاً ضعيفاً. وقد تقدَّم الكلامُ في حكم العَمى بالنسبة إلى الأنبياء عليهم السلام[2].

وكان الحسن ممَّن يرى جوازه؛ فقد أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائده» وابنُ جرير وأبو الشيخ عنه قال: كان منذ خرج يوسفُ من عند يعقوبَ عليهما السلام إلى يوم رجع ثمانون سنةً لم يفارق الحزنُ قلبَه، ودموعُه تجري على خدَّيه، ولم يزلْ يبكي حتى ذهب بصرُه، وما على الأرض يومئذٍ واللهِ أكرمُ على الله تعالى منه[3].

والظاهر أنه عليه السلام لم يحدث له هذا الأمرُ عند الحادث الأخير، ويدلُّ عليه ما أخرجه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم: أنَّ جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فعرفه، فقال له: أيُّها المَلَكُ الكريم على ربِّه هل لك علمٌ بيعقوب؟ قال: نعم. قال: ما فَعَل؟ قال: ابيضَّتْ عيناه من الحُزن عليك. قال: فما بلغ من الحزن؟ قال: حُزْنَ سبعين مُثْكَلةً. قال: هل له على ذلك من أجرٍ؟ قال: نعم، أجرُ مئةِ شهيد[4].

وقرأ ابنُ عباس ومجاهد: «من الحَزَن» بفتح الحاء والزاي. وقرأ قتادةُ بضمِّهما[5].

واستُدلَّ بالآية على جواز التأسُّف والبكاءِ عند النوائب، ولعلَّ الكفَّ عن أمثال ذلك لا يدخلُ تحت التكليف، فإنه قلَّ مَن يملك نفسَه عند الشدائد.

وقد روى الشيخان من حديث أنس أنه ﷺ بكى على ولدِه إبراهيم، وقال: «إنَّ

---

(١) البحر ٥/ ٣٣٨.

(٢) ص٧٢-٧٣ من هذا الجزء.

(٣) الزهد لأحمد ص ١٠٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٣١٣، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٤/ ٣٠.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٠٩-٣١٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٦.

(٥) القراءتان في البحر ٥/ ٣٣٨.

العين تدمعُ، والقلبَ يخشع، ولا نقولُ إلا ما يُرضي ربَّنا، وإنا لفراقك يا إبراهيمُ لمحزونون»(١).

وإنَّما المنهيُّ عنه ما يفعله الجهلةُ من النِّياحة ولطمِ الخدود والصدور، وشقِّ الجيوب، وتمزيقِ الثياب.

ورَوَيا أيضاً من حديث أسامة أنَّه ﷺ رُفع إليه صبيٌّ لبعض بناتِه يجودُ بنفسه، فأقعدَه في حِجْره ونفسُه تتقعقع كأنَّها في شنٍّ، ففاضتْ عيناه عليه الصلاة والسلام، فقال سعد: يا رسولَ الله، ما هذا؟ فقال: «هذهِ رحمةٌ جعلها الله تعالى فيمَن شاء من عباده، وإنَّما يرحم الله تعالى من عباده الرُّحماء»(٢).

وفي «الكشاف» أنه قيل له عليه الصلاة والسلام: تبكي وقد نَهيْتَنا عن البكاء؟ قال: «ما نهيتكم عن البكاء، وإنَّما نهيتكم عن صوتين أحمقين؛ صوتٍ عند الفرح وصوتٍ عند التَرَح»(٣).

وعن الحسن أنَّه بكى على ولدٍ أو غيرِه، فقيل له في ذلك، فقال: ما رأيتُ الله تعالى جعلَ الحزنَ عاراً على يعقوب عليه السلام.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤﴾ أي: مملوءٌ من الغيظ على أولادِه، ممسكٌ له في قلبه لا يُظْهِره. وقيل: مملوء من الحزن ممسكٌ له لا يبديه. وهو من كَظَم السِّقاء: إذا شدَّه بعد مَلْئه. ففعيل بمعنى مفعول، أي: مكظوم. فهو كما جاء في يونس عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

ويجوز أن يكون بمعنى فاعِل كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] من كظَمَ الغيظَ: إذا تجرَّعه، أي: شديدُ التجرُّع للغيظ أو الحزن؛ لأنه لم يشكُه إلى أحدٍ قطُّ. وأصله من كَظَم البعيرُ جرَّته: إذا ردَّها في جوفه، فكأنه عليه السلام يردُّ

---

(١) صحيح البخاري (١٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٣١٥)، وهو عند أحمد (١٣٠١٤).

(٢) صحيح البخاري (١٢٨٤)، وصحيح مسلم (٩٢٣)، وهو عند أحمد (٢١٧٧٦).

(٣) الكشاف ٢/ ٣٣٩، وأخرج نحوه عبد بن حميد (١٠٠٦)، والترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر ﷺ، وفيه: «... ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة؛ لهوٍ ولعبٍ ومزامير شيطان. وصوت عند مصيبة: خمش وجوهٍ وشقِّ جيوبٍ ورنة شيطان...» قال الترمذي: حديث حسن.

ذلك في جوفه مرَّةً بعدَ أخرى من غيرِ أن يُطْلِعَ أحداً عليه.

وفي الكلام من الاستعارة على الوجهين ما لا يخفى، ورجِّح الأخير منهما بأنَّ فعيلاً بمعنى فاعل مطَّردٌ، ولا كذلك فعيلاً بمعنى مفعول.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الإخوة. وقيل: غيرُهم من أتباعه عليه السلام: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟﴾ أي: لا تفتأ ولاتزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجُّعاً عليه، فحُذف حرفُ النفي كما في قوله:

فـقـلـتُ يـمـيـنَ الله أبـرحُ قـاعـداً ولو قطعُوا رأسي لديكِ وأوصالي[(١)]

لأنَّ القَسَم إذا لم يكن معه علامةُ الإثبات كان على النفي، وعلامةُ الإثبات هي اللام ونونُ التوكيد، وهما يلزمان جوابَ القسم المُثْبت، فإذا لم يُذكرا دلَّ على أنه منفيٌّ لأنَّ المنفي لا يقارنهما. ولو كان المقصود ها هنا الإثباتَ لقيل: لتفتأَنَّ، ولزومُ اللام والنون مذهبُ البصريين، وقال الكوفيون والفارسيُّ: يجوز الاقتصارُ على أحدهما. وجاء الحذفُ فيما إذا كان الفعل حالاً كقراءة ابنِ كثير: ﴿لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(٢)] وقوله:

[يـمـيـنـاً] لأبـغـض كـلَّ امـرئٍ يـزخـرفُ قـولاً ولا يـفـعـل[(٣)]

ويتفرَّع على هذا مسألةٌ فقهية، وهي أنَّه إذا قال: والله أقوم. يحنث إذا قام، وإن لم يقم لا، ولا فرقَ بين كون القائل عالماً بالعربية أَوْ لا، على ما أفتى به خيرُ الدِّين الرملي[(٤)]، وذكر أنَّ الحلف بالطَّلاق كذلك، فلو قال: عليَّ الطلاق بالثلاث تقومين الآن. تَطْلُقُ إن قامت، ولا تطلقُ إن لم تقم.

وهذه المسألة مهمةٌ لابأسَ بتحقيق الحقِّ فيها وإن أدَّى إلى الخروج عمَّا نحن بصدده، فنقول: قال غيرُ واحد: إنَّ العوامَّ لو أسقطوا اللامَ والنون في جواب

---

(١) البيت لامرىء القيس، وهو في ديوانه ص ٣٢.

(٢) ينظر ما سيأتي عند تفسير أول سورة القيامة.

(٣) البحر ٣/ ١٣٦، والدر المصون ٣/ ٥٢٤، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٤) هو: خير الدين بن أحمد بن علي الأيوبي، الفاروقي، من أهل الرملة بفلسطين، أشهر كتبه: الفتاوى الخيرية، وله حاشية على البحر الرائق في فقه الحنفية، وحاشية على شرح الكنز للعيني، توفي سنة (١٠٨١هـ). خلاصة الأثر ٢/ ١٣٤، والأعلام ٢/ ٣٢٧.

القَسَم المثبَت المستقبَل، فقال أحدُهم: والله أقومُ ـ مثلاً ـ لا يحنثُ بعدم القيام، فلا كفَّارةَ عليه.

وتعقَّبه المقدسيُّ(١) بأنه ينبغي أن تلزَمَهم الكفارةُ؛ لتعارُفهم الحَلِف كذلك، ويؤيِّده ما في «الظهيرية» أنَّه لو سكَّن الهاء، أو نصبَ في «بالله» يكون يميناً، مع أنَّ العرب ما نطقتْ بغيرِ الجرِّ.

وقال أيضاً: إنه ينبغي أن يكون ذلك يميناً وإن خلا من اللام والنُّون، ويدلُّ عليه قولُه في «الولوالجية»(٢): سبحان الله أفعل، لا إله إلا الله أفعل كذا، ليس بيمينٍ إلا أن ينويَه.

واعترضه الخيرُ الرمليُّ بأن ما نقله لا يدلُّ لمدَّعاه:

أمَّا الأوَّل: فلأنه تغييرُ إعرابٍ لا يمنع المعنى الموضوعَ، فلا يضرُّ التسكينُ والرفعُ والنصبُ؛ لِمَا تقرَّر من أنَّ اللَّحنَ لا يمنع الانعقاد.

وأما الثاني: فلأنه ليس من المتنازَع فيه؛ إذ هو الإثباتُ والنفي لا أنه يمين، وقد نُقِل ما ذكرناه عن المذهب والنَّقل يجب اتِّباعه.

ونُظر فيه: أما أوَّلاً: فبأن اللحنَ كما في «المصباح» وغيرِه: الخطأ في العربية(٣).

وأمَّا ثانياً: فبأنَّ ما في «الولوالجية» من المتنازع فيه، فإنه أتى بالفعل المضارع مجرَّداً من اللام والنُّون، وجعلَه يميناً مع النِّيَّة، ولو كان على النفي لوجب أن يقال: إنَّه مع النية يمينٌ على عدم الفعل كما لا يخفى. وإنَّما اشترط في ذلك النِّيَّة لكونه غيرَ متعارف.

---

(١) هو: ابن غانم المقدسي، علي بن محمد بن علي، نور الدين، أحد أكابر الحنفية في عصره، له: الرمز في شرح نظم الكنز، شرح به نظم الكنز في فقه الحنفية لابن فصيح، وحاشية على القاموس، وغير ذلك، توفي سنة (١٠٠٤هـ). خلاصة الأثر ٣/ ١٨٠، والأعلام ٥/ ١٢.

(٢) هي فتاوى الولوالجي، وهو ظهير الدين أبو المكارم، إسحاق بن أبي بكر الحنفي، توفي سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٣٠.

(٣) المصباح المنير (لحن).

وقال الفاضل الجلبي: إنَّ بحثَ المقدسيِّ وجيهٌ، والقول بأنَّه يصادمُ المنقولَ يُجاب عنه: بأنَّ المنقولَ في المذهب كان على عُرفِ صدرِ الإسلام قبلَ أن تتغيَّر اللغة، وأمَّا الآن فلا يأتون باللام والنون في مثبَت القَسَم أصلاً، ويفرِّقون بين الإثبات والنفي بوجودِ «لا» ولا وجودِها، وما اصطلاحُهم على هذا إلا كاصطلاح الفرس ونحوهم في أيمانهم وغيرها. اهـ.

ويؤيِّد هذا ما ذكره العلامة قاسم(١) وغيرُه من أنَّه يُحمَل كلامُ كلِّ عاقدٍ وحالفٍ وواقفٍ على عُرفِه وعادته، سواءٌ وافَق كلامَ العرب أم لا. ومثله في «الفتح»(٢)، وقد فرَّق النحاةُ بين «بلى» و«نعم» في الجواب؛ أنَّ «بلى» لإيجاب ما بعد النفي، و«نعم» للتصديق، فإذا قيل: ما قام زيد، فإن قلتَ: بلى، كان المعنى: قد قام. وإن: نعم، كان: ما قام. ونقل في «شرح المنار»(٣) عن «التحقيق»(٤) أنَّ المعتبرَ في أحكام الشرع العرفُ، حتى يقام كلُّ واحدٍ منهما مقامَ الآخر، ومثله في «التلويح».

وقول «المحيط»: والحلفُ بالعربية أن يقول في الإثبات: والله لأفعلنَّ، إلى آخر ما قال، بيانٌ للحكم على قواعد العربية وعُرفِ العرب وعادتهم الخاليةِ عن اللحن، وكلامُ الناس اليومَ إلا ما ندر خارجٌ عن هاتيك القواعد، فهو لغةٌ اصطلاحيَّةٌ لهم كسائر اللغاتِ الأعجمية التي تَصَرَّفَ فيها أهلُها بما تصرَّفوا، فلا يعامَلون بغير لغتهم وقصدِهم إلا مَن التزم منهم الإعرابَ أو قَصَدَ المعنى،

---

(١) هو أبو عدل قاسم بن قطلوبغا زين الدين السودوني، عالم بفقه الحنفية والحديث، مؤرخ باحث، له: تاج التراجم، في تراجم علماء الحنفية، وغريب القرآن، وشرح مختصر المنار في الأصول، وشرح النخبة لابن حجر، وتخريج أحاديث عوارف المعارف. توفي (٨٧٩هـ). البدر الطالع ٢/ ٤٥، الضوء اللامع ٦/ ١٨٤، الأعلام ٥/ ١٨٠.

(٢) فتح القدير لابن الهمام ١/ ١٠، و٥/ ٧٠.

(٣) هو منار الأنوار في أصول الفقه الحنفي للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، المتوفى سنة (٧١٠هـ). ومن شروحه: شرح لعبد اللطيف بن عبد العزيز ابن فرشتا الحنفي، وشرح لعلاء الدين محمد بن علي الحصكفي المتوفى (١٠٨٨هـ) صاحب الدر المختار. خلاصة الأثر ٤/ ٦٣، وكشف الظنون ٢/ ١٨٢٣-١٨٢٤.

(٤) لعله شرح لكتاب المنتخب في أصول المذهب لحسام الدين محمد بن محمد الأحسيكثي الحنفي المتوفى سنة (٦٤٤هـ)، شَرَحه عبد العزيز بن أحمد البخاري، وسمَّاه: التحقيق، توفي سنة (٧٣٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٨٤٩.

فينبغي أن يديَّن، ومن هنا قال السائحاني: إنَّ أيمانَنا الآنَ لا تتوقَّف على تأكيد، فقد وضعناها نحن وضعاً جديداً، واصطلحنا عليها اصطلاحاً حادثاً، وتعارفْناها تعارُفاً مشهوراً، فيجب معاملتُنا على قَدْرِ عقولِنا ونيَّاتِنا كما أوقع المتأخِّرون الطلاقَ بـ: عليَّ الطلاقُ، ومَن لم يَدْرِ بعُرف أهل زمانه فهو جاهلٌ. اهـ.

ونظير هذا ما قالوه من أنه لو أُسقِطت الفاءُ الرابطةُ لجواب الشرط فهو تنجيزٌ لا تعليقٌ، حتى لو قال: إنْ دخلت الدارَ أنتِ طالقٌ. تَطلُق في الحال، وهو مبنيٌّ على قواعد العربية أيضاً، وهو خلافُ المتعارَف الآن، فينبغي بناؤُه على العُرف فيكون تعليقاً، وهو المرويُّ عن أبي يوسف.

وفي «البحر»: إنَّ الخلافَ مبنيٌّ على جوازِ حذفها اختياراً وعدمه، فأجازه أهلُ الكوفة وعليه فرَّع أبو يوسف، ومنعه أهلُ البصرة وعليه تفرَّع المذهب[1].

وفي «شرح نظم الكنز»[2] للمقدسي: إنَّه ينبغي ترجيحُ قول أبي يوسف؛ لكثرة حذف الفاء في الفصيح، ولقولهم: العوامُّ لا يُعتبَر منهم اللحنُ في قولهم: أنتِ واحدةً؛ بالنصب، الذي لم يقل به أحد. اهـ.

هذا، ثم إنَّ ما ذكرنا إنَّما هو في القَسَم بخلاف التعليق، وهو وإن سمِّي عند الفقهاء حَلِفاً ويميناً لكنه لا يسمَّى قَسَماً، فإن القَسَمَ خاصٌّ باليمين بالله تعالى كما صرَّح به القهستاني[3]، فلا يَجري فيه اشتراطُ اللام والنونِ في المثبت منه لا عند الفقهاء ولا عند اللغويين، ومنه: الحرام يلزمني، و: عليَّ الطلاقُ لا أفعل كذا، فإنه يراد به في العرف: إن فعلت كذا فهي طالق، فيجب إمضاؤه عليهم كما صرَّح به في «الفتح»[4] وغيره؛ قال الحلبي: وبهذا يندفع ما توهَّمه بعضُ الأفاضل من أنَّ في قول القائل: عليَّ الطلاق أجيء اليوم، إن جاء في اليوم وقع

(١) البحر الرائق ٤/ ١٣.

(٢) وهو ما أشرنا إليه قريباً في ترجمة المقدسي.

(٣) هو شمس الدين محمد الخراساني ثم القهستاني، نزيل بخارى، ومرجع الفتوى فيها في جميع ما وراء النهر، توفي في حدود (٩٦٢هـ)، شَرَح النقاية مختصر الوقاية لصدر الشريعة عبيد الله بن مسعود الحنفي المتوفى (٧٤٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٩٧١. والكلام من حاشية ابن عابدين ٣/ ٧٢٤.

(٤) فتح القدير لابن الهمام ٤/ ٢٦.

الطلاق، وإلا فلا لعدم اللام والنون. وأنت خبيرٌ بأنَّ النحاةَ إنما اشترطوا ذلك في جواب القَسَم المثبَت، لا في جواب الشرط؛ وكيف يسوغ لعاقلٍ فضلاً عن فاضلٍ أن يقول: إنَّ: إن قام زيدٌ أقم، على معنى: إن قام زيدٌ لم أقم، على أنَّ «أجيء» ليس جوابَ الشرط، بل هو فعلُ الشرط؛ لأنَّ المعنى: إن لم أَجِئِ اليومَ فأنتِ طالق، وقد وقع هذا الوهمُ لكثيرٍ من المفتين كالخير الرمليِّ وغيرِهِ.

وقال السيد أحمد الحموي[1] في «تذكرته الكبرى»: رُفع إليَّ سؤالٌ صورتُه: رجلٌ اغتاظ من ولد زوجته، فقال: عليَّ الطلاق بالثلاث إني أُصبح أشتكيك من النقيب، فلمَّا أصبح تركه ولم يشتكه ومكث مدةً، فهل ـ والحالة هذه ـ يقع عليه الطلاقُ أم لا؟ الجواب[2]: إذا ترك شكايته ومضت مدَّةٌ بعد حلفه، لا يقع عليه الطلاق؛ لأنَّ الفعل[3] المذكور وقع في جواب اليمين وهو مثبَتٌ، فيقدَّر النفيُ حيث لم يؤكَّد.

ثم قال: فأجبتُ أنا بعد الحمد لله تعالى: ما أفتى به هذا المجيب من عدم وقوع الطلاق معلِّلاً بما ذكر، فمُنبِيء عن فرطِ جهلِه وحمقه وكثرةِ مجازفته في الدين وخرقِه، إذ ذاك في الفعل إذا وقع جواباً للقسم بالله تعالى نحو: «تفتأ»، لا في جواب اليمين بمعنى التعليق بما يشقُّ من طلاقٍ وعتاق ونحوهما، وحينئذٍ إذا أصبح الحالفُ ولم يشتكه وقع عليه الطلاقُ الثلاث، وبانت زوجته منه بينونة كبرى. اهـ.

ولنعم ما قال، ولله تعالى درُّ القائل:

من الدين كشفُ الستر عن كلِّ كاذبٍ ... وعن كلِّ بدعيٍّ أتى بالعَجَائب
فلولا رجالٌ مُؤمِنُون لهُدِّمَت ... صَوامِعُ دينِ الله من كلِّ جانِب[4]

---

(١) هو شهاب الدين أحمد بن محمد مكي الحموي الحسيني الحنفي، المدرس بمصر، توفي سنة (١٠٩٨هـ)، له إتحاف الأذكياء بتحقيق عصمة الأنبياء، وغيره. إيضاح المكنون ١/ ١٤. وكلامه في حاشية ابن عابدين ٣/ ٧٢٤.

(٢) ورد في هامش (م) أن المجيب عبد المنعم النَّبْتِيْتي. وهو أبو محمد عبد المنعم النبتيتي إمام المشرق الحسيني ومدرِّسُه في النبتيت قريةٍ بمصر، مات سنة (١٠٨٤هـ). تاج العروس (نبت).

(٣) في (م): الحلف، والمثبت من (م) وحاشية ابن عابدين.

(٤) ذكر البيتين ابن عابدين في حاشيته ٣/ ٧٢٥ دون نسبة.

و«فتئ» هذه من أخوات «كان» الناقصة كما أشرنا إليه، ويقال فيها: «فَتَأَ» كضَرَب، و: أَفْتَأَ كأكرم، وزعم ابن مالك أنَّها تكون بمعنى: سَكَن وفَتَر، فتكون تامَّةً[1]، وعلى ذلك جاءَ تفسيرُ مجاهد لـ «لا تفتأ» بـ: لا تفتُر عن حبِّه، وأوَّله الزمخشريُّ[2] بأنَّه عليه الرحمة جعلَ الفتوء والفتور أخوين. أي: متلازمين، لا أنَّه بمعناه، فإنَّ الذي بمعنى: فَتَر وسكن هو «فثأ» بالمثلثة، كما في «الصحاح» من فَثَأْتُ القِدْرَ: إذا سَكَّنت غليانَها، والرجلَ: إذا سكَّنت[3] غضبَه.

ومن هنا خطَّأ أبو حيان ابنَ مالك فيما زعمه، وادَّعى أنه من التصحيف[4].

وتعقِّب بأنَّ الأمر ليس كما قاله، فإنَّ ابن مالك نقله عن الفراء، وقد صرَّح به السَّرقُسطيُّ[5]، ولا يمتنع اتفاقُ مادَّتين في معنًى، وهو كثيرٌ، وقد جمع ذلك ابنُ مالك في كتاب سمَّاه: «ما اختلف إعجامُه واتفق إفهامه» ونقله عنه صاحب «القاموس»[6].

واستُدِلَّ بالآية على جواز الحلف بغلبة الظنِّ، وقيل: إنَّهم علموا ذلك منه ولكنَّهم نزَّلوه منزلة المنكر، فلذا أكَّدوه بالقَسَم، أي: نقسم بالله تعالى لا تزال ذاكرَ يوسف متفجِّعاً عليه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مُشفياً على الهلاك. وقيل: الحَرَض: مَن أذابَه همٌّ أو مرضٌ وجعله مهزولاً نحيفاً، وهو في الأصل مصدرُ «حَرِضَ» فهو حَرِضٌ بكسر الراء، وجاء: أَحْرَضَني كما في قول:

إني امرُؤٌ لجَّ بي حبٌّ فأحْرَضَني حتى بُليتُ وحتى شَفَّني السقَمُ[7]

---

(١) التسهيل ص ٥٣بنحوه.
(٢) في الكشاف ٢/ ٣٣٩.
(٣) في الأصل و(م): سكن، والمثبت من الصحاح (فثأ)، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٢، والكلام منه.
(٤) البحر ٥/ ٣٢٧.
(٥) هو أبو القاسم ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف، السرقسطي الأندلسي، صاحب كتاب الدلائل، كان عالماً مفتياً، بصيراً بالحديث والنحو واللغة، توفي (٣١٣هـ)، وقيل: (٣١٤هـ). السير ١٤/ ٥٦٢.
(٦) مادة (فتأ)، وفيه أن اسمَ كتاب ابن مالك: جمع اللغات المشكلة.
(٧) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣١٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٠١، وتفسير القرطبي

ولكونه كذلك في الأصل لا يؤنَّث ولا يثنَّى ولا يُجمَع؛ لأنَّ المصدر يطلَقُ على القليل والكثير، وقال ابن إسحاق: الحرَضُ: الفاسد الذي لا عقلَ له.

وقرىء: «حَرِضاً» بفتح الحاء وكسر الراء[1].

وقرأ الحسن البصريُّ: «حُرُضاً» بضمَّتين[2]. ونحوُه من الصفات: رجلٌ جُنُب وغُرُب[3].

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾ أي: الميِّتين، و«أو» قيل: يحتمل أن تكون بمعنى «بل»، أو بمعنى «إلى»، فلا يَرِد عليه أنَّ حقَّ هذا التقديمُ على «حتى تكون حرضاً»، فإن كانت للترديد فهي لمنع الخلوِّ، والتقديمُ على ترتيب الوجود، كما قيل في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. أو لأنه أكثر وقوعاً.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى﴾ البثُّ في الأصل: إثارة الشيء وتفريقُه، كبثِّ الريح الترابَ، واستُعمِل في الغمِّ الذي لا يُطيق صاحبُه الصبرَ عليه، كأنَّه ثقُل عليه فلا يُطيق حملَه وحدَه فيفرِّقُه على مَن يُعينه، فهو مصدرٌ بمعنى المفعول، وفيه استعارةٌ تصريحيةٌ.

وجوِّز أن يكون بمعنى الفاعل، أي: الغمّ الذي بثَّ الفكرَ وفرَّقه، وأيًّا ما كان فالظاهرُ أنَّ القومَ قالوا ما قالوا بطريق التسلية والإشكاء، فقال في جوابهم: إنِّي لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدَّوا لِتَسليتي، وإنما أشكو غمِّي ﴿وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ملتجئاً إلى جنابه متضرِّعاً في دفعه لدى بابه، فإنَّه القادرُ على ذلك.

وفي الخبر عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كنوز البرِّ إخفاءُ الصدقة وكتمانُ المصائب والأمراضِ، ومَن بثَّ لم يصبر»[4].

---

= ١١/ ٤٣٤ للعرجي، وهو عبد الله بن عمر بن عبد الله. وهو غير منسوب في المحرر الوجيز ٢/ ٢٧٣، وزاد المسير ٤/ ٢٧٣، والبحر ٥/ ٣٢٧.

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٩.

(٢) القراءات الشاذة ص ٦٥، والكشاف ٢/ ٣٣٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٢٧٣.

(٣) ورد هنا في هامش الأصل و(م): في الصحاح: هو غريب وغُرُب أيضاً بضمِّ الغين والراء. اهـ منه. وينظر الصحاح (غرب).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٩٧، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٥٠).

وقرأ الحسن وعيسى: «حَزَني» بفتحتين. وقرأ قتادة بضمَّتين[١].

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من لطفه ورحمته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾، فأرجو أن يرحمني ويلطُفَ بي ولا يخيِّبَ رجائي، فالكلام على حذف مضاف، و«من» بيانيَّة قدِّمت على المبيَّن، وقد جوَّزه النحاة.

وجوِّز أن تكونَ ابتدائيةً، أي: أعلم وحياً أو إلهاماً، أو: بسببٍ من أسباب العلم من جهته تعالى ما لا تعلمون من حياة يوسف.

قيل: إنَّه عليه السلام علم ذلك من الرؤيا حسبما تقدَّم. وقيل: إنَّه رأى ملَكَ الموت في المنام فأخبره أنَّ يوسف حيٌّ. ذكره غيره واحد، ولم يذكروا له سنداً[٢]. والمرويُّ عن ابن أبي حاتم[٣] عن النضر أنه قال: بلغني أنَّ يعقوب عليه السلام مكث أربعةً وعشرين عاماً لا يدري أيوسف عليه السلام حيٌّ أم ميِّتٌ، حتى تمثَّل له ملَكُ الموت عليه السلام، فقال له: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت. فقال: أنشدك بإلهِ يعقوب هل قبضتَ روحَ يوسف؟ قال: لا. فعند ذلك قال عليه السلام:

﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ أي: فتعرَّفوا، وهو تَفَعَّل من الحسِّ، وهو في الأصل: الإدراكُ بالحاسَّة، وكذا أصل التحسُّسِ: طلبُ الإحساس، واستعماله في التعرُّفِ استعمالٌ له في لازم معناه، وقريبٌ منه التجسُّس بالجيم، وقيل: إنَّه به في الشرِّ، وبالحاء في الخير. ورُدَّ بأنه قرئ هنا: «فتَجَسَّسُوا» بالجيم[٤] أيضاً. وقال الراغب: أصلُ الجسِّ: مسُّ العِرْق وتعرُّفُ نَبضِه للحكم به على الصحَّة والمرض، وهو أخصُّ من الحسِّ فإنَّه تعرُّفُ ما يُدرِكه الحِسُّ، والجَسَّ تعرُّفُ حالٍ مّا من ذلك[٥].

﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: من خبرهما، ولم يذكر الثالثَ لأنَّ غيبته اختياريةٌ لا يعسرُ إزالتُها، وعلى فرضِ ذلك الداعيةُ فيهم للتحسُّسِ منه لكونه أخاهم قويَّةٌ

---

(١) القراءات الشاذة ص ٦٥، والبحر ٥/ ٣٣٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٧٢، والكشاف ٢/ ٣٤٠، والبحر ٥/ ٣٣٩.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٩-٢١٩٠.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٥، وهي قراءة النخعي.

(٥) مفردات الراغب (جس).

فلا حاجةَ لأمرهم بذلك، والجارُّ متعلِّقٌ بما عنده، وهو بمعنى «عن» بناءً على ما نُقِل عن ابن الأنباري أنَّه لا يقال: تحسَّسْتُ من فلان، وإنما يقال: تحسَّستُ عنه. وجوّز أن تكون للتبعيض على معنى: تحسَّسوا خبراً من أخبار يوسف وأخيه.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: لا تقنطوا من فَرَجه سبحانه وتنفيسه، وأصلُ معنى الرَّوح بالفتح ـ كما قال الراغب[1] ـ التنفُّس، يقال: أراح الإنسان: إذا تنفَّس، ثم استعير للفرج، كما قيل له تنفيس، من النَّفَس.

وقرأ عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة: «رُوح» بالضَّمِّ[2].

وفسِّر بالرحمة، على أنَّه استعارةٌ من معناها المعروف؛ لأنَّ الرحمة سببُ الحياة كالرُّوح، وإضافتها إلى الله تعالى لأنَّها منه سبحانه، وقال ابن عطية[3]: كأنَّ معنى هذه القراءة: لا تيأسوا من حيٍّ معه روحُ الله الذي وهبه، فإنَّ كلَّ مَن بقيت روحُه يُرجى، ومن هذا قوله:

وفي غيرِ مَن قد وَارَتِ الأرضُ فاطْمَعِ[4]

وقول عبيد بنِ الأبرص:

وكلُّ ذي غَيبةٍ يَؤُوبُ وغائبُ الموتِ لا يَؤُوبُ[5]

وقرأ أبيٌّ: «مِن رَحمةِ الله». وعبدُ الله: «من فضل الله»[6]. وكلاهما عند أبي حيان تفسيرٌ لا قراءة[7].

وقرِىء: «تأْيَسُوا»[8].

---

(١) في المفردات (روح).
(٢) المحتسب ١/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٤، والبحر ٥/ ٣٣٩.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٤.
(٤) البيت لأرطاة بن سُهَيَّة كما في الأغاني ١٣/ ٣٩، وصدره: عن الدهر فاصفح إنه غير مُعْتِبٍ.
(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٦.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٥، والبحر ٥/ ٣٣٩.
(٧) البحر ٥/ ٣٣٩.
(٨) وهي قراءة البزي عن ابن كثير كما في التيسير ص ١٢٩. وينظر الحجة ٤/ ٤٣٢-٤٣٣.

وقرأ الأعرج: «تِيئَسُوا» بكسر التاء[1].

والأمر والنهيُ على ما قيل إرشادٌ لهم إلى بعضِ ما أبهم في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم إنَّه عليه السلام حذَّرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته، فإنَّ العارفَ لا يقنَطُ في حالٍ من الأحوال. أو تأكيدٌ[2] لِمَا يعلمونه من ذلك، قال ابن عباس: إنَّ المؤمن مِن الله تعالى على خيرٍ؛ يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء.

وذكر الإمام أنَّ اليأسَ لا يحصُل إلا إذا اعتقد الإنسانُ أنَّ الإله غيرُ قادرٍ على الكمال، أو غيرُ عالمٍ بجميع المعلومات، أو ليس بكريم، واعتقادُ كلٍّ من هذه الثلاث يُوجِب الكفرَ، فإذا كان اليأسُ لا يحصل إلا عند حصول أحدها ـ وكلٌّ منها كفرٌ ـ ثبت أنَّ اليأسَ لا يحصل إلا لمن كان كافراً[3].

واستَدلَّ بعضُ أصحابنا بالآية على أنَّ اليأسَ من رحمة الله تعالى كفرٌ، وادَّعى أنها ظاهرةٌ في ذلك. وقال الشهاب: ليس فيها دليلٌ على ذلك، بل هو ثابتٌ بدليل آخر[4].

وجمهورُ الفقهاء على أنَّ اليأسَ كبيرةٌ، ومفادُ الآية أنه من صفات الكفار، لا أنَّ مَن ارتكبه كان كافراً بارتكابه، وكونُه لا يحصُل إلا عند حصول أحدِ المكفِّرات التي ذكرها الإمام، مع كونه في حيِّز المنع؛ لجوازِ أن ييأسَ من رحمة الله تعالى إياه مع إيمانه بعموم قدرته تعالى وشمولِ علمه وعِظَمِ كرمه جلَّ وعلا؛ لمجرَّد استعظام ذنبه مثلاً واعتقادِه عدمَ أهليته لرحمة الله تعالى من غير أن يخطُر له أدنى ذرَّةٍ من تلك الاعتقادات السيئة الموجِبة للكفر = لا يستدعي أكثرَ من اقتضائه سابقيَّة الكفر دون كون ارتكابه نفسه كفراً. كذا قيل.

---

(١) البحر ٥/ ٣٣٩.
(٢) في (م): تأكيداً.
(٣) التفسير الكبير ١٨/ ١٩٩.
(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٣.

وقيل: الأولى التزامُ القولِ بأنَّ اليأسَ قد يُجامِع الإيمانَ، وأنَّ القولَ بأنه لا يحصل إلا بأحَد الاعتقادات المذكورة غيرُ بَيِّنٍ ولا مبينٍ.

نعم كونه كبيرةً مما لا شكَّ فيه، بل جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه أكبر الكبائر[١]، وكذا القنوطُ وسوءُ الظنِّ، وفرَّقوا بينها بأنَّ اليأسَ عدمُ أملٍ وقوع شيءٍ من أنواع الرحمة له، والقنوطُ هو ذاك مع انضمام حالةٍ هي أشدُّ منه في التصميم على عدم الوقوع، وسوءُ الظن هو ذاك مع انضمام أنه مع عدم رحمته له يشدد له العذاب كالكفار.

وذكر ابن نجيم في بعض رسائله[٢] ما به يرجع الخلافُ بين مَن قال: إن اليأسَ كفرٌ. ومن قال: إنه كبيرةٌ = لفظيّاً، فقال: قد ذكر الفقهاءُ من الكبائر الأمنَ من مكر الله تعالى واليأسَ من رحمته. وفي «العقائد»: واليأسُ من رحمة الله تعالى كفرٌ [والأمن من مكر الله تعالى كفر] فيحتاج إلى التوفيق.

والجوابُ أنَّ المرادَ باليأس إنكارُ سعة الرحمة للذنوب، ومن الأمن الاعتقادُ أنْ لا مكر، ومرادُ الفقهاء من اليأس اليأسُ لاستعظام ذنوبه واستبعادِ العفوِ عنها، ومن الأمن الأمنُ لغلبة الرجاء عليه بحيث دخل في حدِّ الأمن. ثم قال: والأوفق بالسنَّة طريقُ الفقهاء؛ لحديث الدارقطنيِّ عن ابن عباس مرفوعاً، حيث عدَّها من الكبائر وعَطَفها على الإشراك بالله تعالى[٣]. اهـ، وهو تحقيقٌ نفيسٌ، فليفهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف عليه السلام بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب أمرِ أبيهم، وإنَّما لم يُذكر؛ إيذاناً بمسارعتهم إلى ما أُمِروا به، وإشعاراً بأنَّ ذلك أمرٌ محقَّقٌ لا يفتقر إلى الذكر والبيان.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/٦٤٨.

(٢) المسماة: رسالة في بيان الكبائر والصغائر من الذنوب ص٢٥٩ من مجموع رسائله، وما سيرد بين حاصرتين منها.

(٣) رسائل ابن نجيم ص٢٥٩، وفيه: عدهما... وعطفهما...، وحديث ابن عباس لم نقف عليه عند الدارقطني، وقد ذكره في العلل ٥/٣٤٢ من حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً، وقال عن الموقوف: وهو الصواب.
وحديث ابن عباس أخرجه البزار (١٠٦-كشف)، وابن أبي حاتم ٣/٩٣١ بسند حسن كما قال السيوطي في الدر ٢/١٤٧.

وأنكر اليهود رجوعَهم بعد أخذ بنيامين إلى أبيهم ثم عودَهم إلى مصر، وزعموا أنَّهم لمَّا جاؤوا أولاً للميرة اتَّهمهم بأنهم جواسيس، فاعتذروا وذكروا أنهم أولادُ نبيِّ الله تعالى يعقوب، وأنهم كانوا اثني عشر ولداً، هلك واحدٌ منهم وتخلَّف أخوه عند أبيهم يتسلَّى به عن الهالك حيث إنَّه كان يحبُّه كثيراً. فقال: ائتوني به لأتحقَّق صدقَكم. وحبس شمعون عنده حتى يجيئوا، فلمَّا أتوا به ووقع ما وقع من أمر السرقة أظهروا الخضوعَ والانكسارَ، فلم يملك عليه السلام نفسَه حتى تعرَّف إليهم، ثم أمرهم بالعود إلى أبيهم ليخبروه الخبرَ ويأتوا به. وهو الذي تضمَّنته توراتُهم اليومَ[1]، وما بعد الحقِّ إلا الضلال.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ خاطبوه بذلك تعظيماً له على حدِّ خطابهم السابق به على ما هو الظاهر، وهل كانوا يعرفون اسمَه أم لا؟ لم أَرَ مَن تعرَّض لذلك، فإن كانوا يعرفونه ازداد أمرُ جهالتهم غرابةً.

والمراد على ما قال الإمام[2] وغيره: يا أيها الملكُ القادرُ المنيع ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الهزال من شدَّة الجوع، والمراد بالأهل ما يشمل الزوجةَ وغيرَها ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ مدفوعةٍ يدفعها كلُّ تاجرٍ رغبةً عنها واحتقاراً، من: أَزْجَيْتُه: إذا دَفَعْتَه وطرَدْتَه، والريحُ تُزجي السحابَ، وأنشدوا لحاتم:

لِيَبْكِ على مِلحانَ ضيفٌ مدفَّعٌ وأرمَلَةٌ تُزجي مع الليل أرمَلا[3]

وكنَى بها عن القليل أو الرديء؛ لأنَّه لعدم الاعتناء يُرمى ويُطرح، قيل: كانت بضاعتُهم من متاع الأعراب صوفاً وسمناً، وقيل: الصنوبر وحبَّة الخضراء[4]. ورُوي ذلك عن أبي صالح وزيد بن أسلم. وقيل: سويق المُقْل[5] والأقِط. وقيل:

(١) ينظر العهد القديم، سفر التكوين ص١٣٤.
(٢) في التفسير الكبير ١٨/ ٢.
(٣) الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٩١، وتفسير الطبري ١٣/ ٣١٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٥، والبحر ٥/ ٣٤٠.
(٤) ورد في هامش الأصل و(م): معروفة. وليست الفستق كما ظنه أبو حيان. اهـ منه. وهي ثمرة البُطم، من فصيلة الفستق. المعجم الوسيط (بطم). وقول أبي حيان في البحر ٥/ ٣٤٠.
(٥) المُقْل: ثمر الدَّوْم. الصحاح (مقل).

قديدٌ وحَشٌّ. وقيل: حبالاً وأعدالاً وأحقاباً[١].

وقيل: كانت دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢]. والمروي عن الحسن تفسيرُها بقليلةٍ لا غير[٣]. وعلى كلٍّ فـ «مزجاة» صفةٌ حقيقيَّةٌ للبضاعة.

وقال الزجَّاج: هي من قولهم: فلان يُزجي العيشَ، أي: يدفع الزمانَ بالقليل، والمعنى: إنَّا جئنا ببضاعةٍ يدفع بها الزمانُ، وليسَتْ مما ينتفع به[٤]. والتقديرُ على هذا: ببضاعةٍ مزجاةٍ بها الأيامُ، أي: تُدْفَعُ بها ويُصْبَرُ عليها حتى تنقضي، كما قيل:

دَرِّجِ الأيامَ تَندَرِجِ وبيوتَ الهمِّ لا تَلِجِ[٥]

وما ذُكِر أوَّلاً هو الأولى.

وعن الكلبيِّ أنَّ «مزجاة» من لغة العجم. وقيل: من لغة القبط[٦].

وتعقَّب ذلك ابنُ الأنباريِّ بأنَّه لا ينبغي أن يجعل لفظٌ معروفُ الاشتقاقِ والتصريفِ منسوباً إلى غيرِ لغة العرب[٧]، فالنسبة إلى ذلك: مزجاة.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «مزجية» بالإمالة[٨]، لأنَّ أصلها الياء.

والظاهرُ أنَّهم إنَّما قدَّموا هذا الكلامَ ليكون ذريعةً إلى إسعافِ مرامِهم ببعثِ الشفقة وهزِّ العطف والرأفة وتحريكِ سلسلة الرحمة، ثم قالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾

---

(١) جمع حَقَب، وهو الحزام الذي يلي حَقْوَ البعير، وحبل تشدُّ به الحقيبة. المعجم الوسيط (حقب).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٢٣.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٣٢١.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٧.

(٥) ذكره الميكالي في كتاب المنتخل ٢/ ٦٩٢ دون نسبة، ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٣.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٧٣.

(٧) نقله المصنف من التفسير الكبير ١٨/ ٢٠٠.

(٨) التيسير ص ٤٩، والنشر ص٨٣.

أي: أتممه لنا ولا تَنْقُصْه؛ لقلَّة بضاعتنا أو رداءتها، واستُدِلَّ بهذا على أنَّ الكيل على البائع، ولا دليلَ فيه.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ ظاهرُه بالإيفاء، أو بالمسامحة وقبولِ المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها.

وقال الضحاك وابن جريج: إنَّهم أرادوا: تصدَّق علينا بردِّ أخينا بنيامين على أبيه(١). قيل: وهو الأنسب بحالهم بالنسبة إلى أمر أبيهم، وكأنهم أرادوا: تَفَضَّلْ علينا بذلك. لأنَّ ردَّ الأخ ليس بصدقةٍ حقيقةً، وقد جاءت الصدقة بمعنى التفضُّل كما قيل، ومنه: تصدَّق اللهُ تعالى على فلانٍ بكذا.

وأما قول الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدَّق عليَّ: إنَّ الله تعالى لا يتصدَّقُ، إنما يتصدَّقُ من يبغي الثوابَ، قل: اللهمَّ أعطني، أو: تفضَّل عليَّ، أو: ارحمني(٢). فقد رُدَّ بقوله ﷺ: «صدقة تصدَّقَ اللهُ تعالى بها عليكم، فاقْبَلُوا صدقتَه»(٣). وأجيب عنه [بأنَّه](٤) مجاز أو مشاكلةٌ، وإنما ردَّ الحسن على القائل؛ لأنه لم يكن بليغاً كما في قصة المتوفَّى(٥).

وادعى بعضهم تعيُّنَ الحمل على المجاز أيضاً إذا كان المرادُ طلبَ الزيادة على ما يُعطى بالثمن، بناءً على أنَّ حرمة أخذ الصدقة ليست خاصَّة بنبينا ﷺ كما ذهب إليه سفيان بن عيينة(٦)، بل هي عامَّةٌ له عليه الصلاة والسلام ولمن قبله من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وآلِهم كما ذهب إليه البعض، والسائلون من إحدى الطائفتين لا محالةَ.

وتعقِّب بأنَّا لو سلَّمنا العمومَ لا نسلِّم أنَّ المحرَّمَ أخذُ الصدقة مطلقاً، بل المحرَّمُ إنما هو أخذُ الصدقة المفروضة، وما هنا ليس منها.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٢٦.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٤٠.
(٣) أخرجه أحمد (١٧٤)، ومسلم (٦٨٦) من حديث عمر ﷺ.
(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٣، والكلام منه.
(٥) لم نقف على القصة.
(٦) أخرجه قوله الطبري في تفسيره ١٣/ ٣٦١.

والظاهر ـ كما قال الزمخشريُّ(١) ـ أنَّهم تمسكنوا له عليه السلام بقولهم: (مَسَّنَا) إلخ، وطلبوا إليه أن يتصدَّق عليهم بقولهم: (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ)، فلو لم يحمل على الظاهر لما طابقه ذلك التمهيدُ ولا هذا التوطيدُ، أعني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ بذكر الله تعالى وجزائه الحاملَيْنِ على ذلك، وأنَّ فاعلَه منه تعالى بمكان.

قال النَّقَّاش: وفي العدول عن: إنَّ الله تعالى يجزيك بصدقتك، إلى ما في النظم الكريم مندوحةٌ عن الكذب، فهو من المعاريض، فإنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً، ورُوي مثلُه عن الضحاك.

ووُجِّه عدمُ بدءهم بما أمروا به على القول بخلاف الظاهر في متعلَّق التصدُّق بأنَّ فيما سلكوه استجلاباً للشفقة والرحمة، فكأنهم أرادوا أن يملؤوا حياضَ قلبه من نَميرها ليسقوا به أشجارَ تحسُّسِهم لتُثمِرَ لهم غرضَ أبيهم.

ووجَّهه بعضُهم(٢) بمثل هذا، ثم قال: على أنَّ قولَهم «وتصدَّق» إلخ، كلامٌ ذو وجهين، فإنه يحتمل الحملَ على المحملين، فلعلَّه عليه السلام حَمَله على طلب الردِّ ولذلك ﴿قَالَ﴾ مجيباً عمَّا عرَّضوا به وضمَّنوه كلامَهم من ذلك: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وكان الظاهرُ على هذا الاقتصارَ على التعرُّضِ بما فُعِل مع الأخ، إلا أنه عليه السلام تعرَّض لمَا فُعِل به أيضاً لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما، فإنَّ المرادَ بذلك إفرادُهم له عنه(٣) وإذلالُه بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلِّمهم إلا بعجزٍ وذلَّةٍ.

والاستفهام ليس عن العلم بنفسِ ما فعلوه؛ لأنَّ الفعل الإراديَّ مسبوقٌ بالشعور لا محالةَ، بل هو عمَّا فيه من القبح بدليل قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: هل علمتم قبحَ ما فعلتموه(٤) زمانَ جهلكم قبحَه، وزال ذلك الجهلُ أم لا؟ وفيه من

---

(١) في الكشاف ٢/ ٣٤٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٣.
(٣) أي: يوسف.
(٤) ورد هنا في هامش الأصل و(م) ما نصه: قيل: الكلام على حذف مضاف. وقيل: هو كناية عما ذكر. فافهم. اهـ منه.

إبداءِ عذرهم وتلقينِهم إياه ما فيه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

والظاهر لهذا أنَّ ذلك لم يكن تشفِّياً بل حثٌّ على الإقلاع ونصحٌ لهم لمَّا رأى من عجزهم وتمسكنهم ما رأى مع خفيٍّ معاتبةٍ على وجود الجهل، وأنه حقيقُ الانتفاء في مثلهم، فلله تعالى هذا الخُلُق الكريم كيف ترك حظَّه من التشفِّي إلى حقِّ الله تعالى على وجهٍ يتضمَّن حقَّ الأخوَّتين أيضاً، والتلطُّفَ في إسماعه مع التنبيه على أنَّ هذا الضرَّ أولى بالكشف.

قيل: ويجوز أن يكونَ هذا الكلامُ منه عليه السلام منقطعاً عن كلامهم وتنبيهاً لهم عمَّا هو حقُّهم ووظيفتهم من الإعراض عن جميع المطالب والتمحُّض لطلب بنيامين، بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الإلهام على وصية أبيه عليه السلام وإرساله إيَّاهم للتحسُّس منه ومن أخيه، فلمَّا رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال.

والظاهر أنه عليه السلام لمَّا رأى ما رأى منهم وهو من أرقِّ خَلْق الله تعالى قلباً، وكان قد بلغ الكتابُ أجلَه، شرع في كشف أمره فقال ما قال.

روي عن ابن إسحاق أنهم لمَّا استعطفوه رقَّ لهم ورحمهم حتى إنه ارفضَّ دمعُه باكياً ولم يملك نفسَه، فشرع في التعرُّف لهم، وأراد بما فعلوه به جميعَ ما جرى، وبما فعلوه بأخيه أذاهم له وجفاءهم إياه وسوءَ معاملتهم له وإفرادَهم له كما سمعت. ولم يذكر لهم ما آذوا به أباهم ـ على ما قيل ـ تعظيماً لقَدْرِه وتفخيماً لشأنه أن يذكره مع نفسه وأخيه، مع أنَّ ذلك من فروع ما ذكر.

وقيل: إنهم أدَّوا إليه كتاباً من أبيهم، وصورتُه كما في «الكشاف»[1]: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد، فإنَّا أهل بيت موكَّلٌ بنا البلاء، أما جدِّي فشُدَّت يداه ورجلاه، ورُمي به في النار ليحرق، فنجَّاه الله تعالى وجُعلت النارُ عليه بَرْداً وسلاماً، وأما أبي فوُضِع على قفاه السكينُ ليُقتَل، ففداه الله تعالى، وأما أنا فكان لي ابنٌ وكان أحبَّ الأولاد إليَّ، فذهب به إخوتُه إلى البَرِّيَّة، ثم أتوني بقميصه ملطَّخاً بالدم وقالوا: قد أكله

(١) ٢/ ٣٤١.

الذئب. فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابنٌ كان أخاه من أمه، وكنتُ أتسلّى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سَرَقَ، وإنَّك حبستَه لذلك، وإنَّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددتَه عليَّ، وإلا دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابعَ من ولدك، والسلام. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي روق نحوه[1].

فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبرُه، فقال لهم ذلك.

ورُوي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجوابَ: اصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا.

هذا، وما أشرنا إليه من كون المراد إثباتَ الجهل لهم حقيقةً هو الظاهر، وقيل: لم يُرد نفْيَ العلم عنهم؛ لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لمَّا لم يفعلوا ما يقتضيه العلم، وتركُ مقتضى العلم من صنيع الجهَّال، سمَّاهم جاهلين.

وقيل: المرادُ: جاهلون بما يؤول إليه الأمر.

وعن ابن عباس والحسن: «جاهلون»: صبيان قبلَ أن تبلغوا أوانَ الحُلم والرزانة. وتعقِّب بأنه ليس بالوجه؛ لأنه لا يطابق الوجودَ، وينافي: «ونحن عصبة»، فالظاهرُ عدم صحة الإسناد.

وزعم في «التحرير» أنَّ قولَ الجمهور: إنَّ الاستفهام للتقرير والتوبيخ، ومرادُه عليه السلام تعظيمُ الواقعة، أي: ما أعظمَ ما ارتكبتم في يوسف وأخيه، كما يقال: هل تدري مَن عصيتَ؟.

وقيل: «هل» بمعنى «قد» كما في: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] والمقصود هو التوبيخ أيضاً.

وكلا القولين لا يعوَّل عليه، والصحيحُ ما تقدَّم.

ومن الغريب الذي لا يصحُّ ألبتة ما حكاه الثعلبيُّ أنه عليه السلام حين قالوا له ما قالوا غضب عليهم فأمر بقتلهم، فبكوا وجزعوا، فرقَّ لهم وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ إلخ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٥.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ استفهامُ تقريرٍ، ولذلك أكِّد بـ «إنَّ» واللام؛ لأنَّ التأكيدَ يقتضي التحقُّقَ المنافي للاستفهام الحقيقيِّ، ولعلهم قالوه استغراباً وتعجُّباً.

وقرأ ابن كثير وقتادة وابن محيصن: «إنَّكَ» بغير همزة استفهام[١]، قال في «البحر»: والظاهر أنها مرادة، ويَبْعُدُ حَمْلُه على الخبر المحض، وقد قاله بعضهم لتعارُضِ الاستفهام والخبر إن اتَّحد القائلون، وهو الظاهر، فإن قدِّر أنَّ بعضاً استفهم وبعضاً أَخبَر، ونُسب كلٌّ إلى المجموع أمكن، وهو مع ذلك بعيدٌ[٢].

و«أنت» في القراءتين مبتدأ، و«يوسف» خبرُه، والجملة في موضع الرفع خبرُ «إنَّ»، ولا يجوز أن يكون «أنت» تأكيداً للضمير الذي هو اسم «إنَّ»؛ لحيلولة اللام.

وقرأ أُبيٌّ: «أئنَّكَ أو أنتَ يوسف». وخرَّج ذلك ابن جني في كتاب «المحتسب» على حذف خبر «إنَّ»، وقدَّره: أئنك لغير يوسف أو أنت يوسف[٣]. وكذا الزمخشريُّ إلا أنه قدَّره: أئنَّكَ يوسف، أو أنت يوسف. ثم قال: وهذا كلامُ متعجِّب مستغربٍ لِمَا يسمع فهو يكرِّر الاستثبات[٤].

قال في «الكشف»: وما قدَّره أولى؛ لقلَّة الإضمار وقوَّة الدلالة على المحذوف، وإن كان الأولُ أجرى على قانون الاستفهام. ولعلَّ الأنسب أن يقدَّر: أئنَّكَ أنت أو أنت يوسف، تجهيلاً لنفسه أن يكون مخاطَبُه يوسف، أي: أئنك المعروفُ عزيزُ مصر أو أنت يوسف، استبعدوا أن يكون العزيزُ يوسفَ، أو يوسفُ عزيزاً، وفيه قلَّة الإضمار أيضاً مع تغايُر المعطوفِ والمعطوف عليه، وقوَّة الدلالة على المحذوفِ، والجري على قانون الاستفهام مع زيادة الفائدة من إيهام البعد بين الحالتين.

---

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ١/ ٣٧٢، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة، والكلام من البحر المحيط ٥/ ٣٤٢.

(٢) البحر ٥/ ٣٤٢.

(٣) المحتسب ١/ ٣٤٩.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٤١. وجاء في الأصل: الاشتياق. وفي (م): الاستيثاق. والمثبت من المصدر.

فإن قيل: ذاك أوفق للمشهور لقوَّة الدلالة على أنه هو.

يجاب بأنه يكفي في الدلالة على الأوجُهِ كلِّها أنَّ الاستفهامَ غيرُ جارٍ على الحقيقة، على أنَّ عدمَ التنافي بين كونه مخاطبَهم المعروفَ وكونِه يوسفَ شديدُ الدلالة أيضاً مع زيادة إفادةِ ذكرِ موجبِ استبعادِهم. وهو كلامٌ يلوح عليه مخايلُ التحقيق.

واختلفوا في تعيينِ سببِ معرفتهم إياه عليه السلام فقيل: عرفوه بروائه[1] وشمائله، وكان قد أدناهم إليه ولم يُدنِهم من قَبْلُ. وقيل: كان يكلِّمهم من وراء حجابٍ، فلمَّا أراد التعرُّفَ إليهم رفعه فعرفوه.

وقيل: تبسَّم فعرفوه بثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وكان يُضيء ما حواليه من نورِ تبسُّمه.

وقيل: إنَّه عليه السلام رفع التاجَ عن رأسه فنظروا إلى علامةٍ بقرنه كان ليعقوب وإسحاق وسارة مثلُها تُشبه الشامةَ البيضاء، فعرفوه بذلك.

وينضمُّ إلى كلِّ ذلك علمُهم أنَّ ما خاطبهم به لا يصدُر مثلُه إلا عن حنيفٍ مسلمٍ من سِنخ[2] إبراهيم، لا عن بعض أعزَّاء مصر.

وزعم بعضهم أنهم إنما قالوا ذلك على التوهُّم، ولم يعرفوه حتى أخبر عن نفسه: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ والمعوَّل عليه ما تقدَّم، وهذا جوابٌ عن مساءلتهم، وزاد عليه قولَه: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ أي: من أبويَّ، مبالغةً في تعريف نفسه، قال بعضُ المدقِّقين: إنَّهم سألوه متعجِّبين عن كونه يوسف محقِّقين لذلك، مخيِّلين لشدَّة التعجُّب أنه ليس إياه، فأجابهم بما يحقِّق ذلك مؤكِّداً، ولهذا لم يقل عليه السلام: بلى، أو: أنا هو، فأعاد صريحَ الاسم، و«هذا أخي» بمنزلة: أنا يوسف، لا شبهة فيه، على أنَّ فيه ما يبنيه عليه من قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾.

وجوَّز الطيبيُّ أن يكون ذلك جارياً على أسلوب الحكيم، كأنهم لمَّا سألوه متعجِّبين: أنت يوسف؟ أجاب: لا تسألوا عن ذلك، فإنَّه ظاهرٌ، ولكن اسألوا:

(١) أي: برؤية منظره. حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٤.
(٢) السِّنْخ: الأصل، جمعه: سنوخ. اللسان (سنخ).

ما فعل الله تعالى بك من الامتنان والإعزاز وكذلك بأخي. وليس من ذاك في شيء كما لا يخفى.

وفي «إرشاد العقل السليم»: إن في زيادة الجواب مبالغةً وتفخيماً لشأن الأخ وتكملةً لمَا أفاده قولُه: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه» حسبما يفيده «قد مَنَّ» إلخ، فكأنه قال: هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال، فأنا يوسف وهذا أخي، قد منَّ الله تعالى علينا بالخلاص عمَّا ابتُلينا به، والاجتماعِ بعد الفرقة، والعزَّة بعد الذلَّة، والأنس بعد الوحشة. ولا يبعُد أن يكونَ فيه إشارةٌ إلى الجواب عن طلبهم لردِّ بنيامين بأنه أخي لا أخوكم، فلا وجه لطلبكم[1]. انتهى، وفيه ما فيه.

وجملة «قد مَنَّ» إلخ عند أبي البقاء مستأنفةٌ[2]. وقيل: حالٌ من «يوسف» و«أخي». وتعقِّب بأنَّ فيه بُعْداً؛ لعدم العامل في الحال حينئذٍ، ولا يصحُّ أن يكون «هذا»، لأنه إشارة إلى واحدٍ، و«علينا» راجعٌ إليهما جميعاً.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿مَن يَتَّقِ﴾ أي: يفعل التقوى في جميع أحواله، أو: يَقِ نفسَه عما يُوجِب سخطَ الله تعالى وعذابَه، ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البلايا والمحَنِ، أو على مشقَّة الطاعات، أو عن المعاصي التي تستلذُّها النفس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ أي: أجرهم، وإنما وُضع المظهر موضعَ المضمر؛ تنبيهاً على أنَّ المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان، والجملة في موضع العلَّة للمَنِّ.

واختار أبو حيَّان عدمَ التخصيص في التقوى والصبر[3]. وقال مجاهد: المراد: من يتَّقِ في ترك المعصية ويصبر في السجن. والنخعي: من يتَّقِ الزنا ويصبر على العزوبة[4]. وقيل: مَن يتَّقِ المعاصي ويصبر على أذى الناس.

وقال الزمخشري: المراد: مَن يَخَفِ الله تعالى ويصبر عن المعاصي وعلى الطاعات[5].

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٤.
(٢) الإملاء ٣/ ٣٥٨.
(٣) البحر ٥/ ٣٤٢.
(٤) قول مجاهد في تفسير الطبري ١٣/ ٣٢٨-٣٢٩، وقول النخعي في النكت والعيون ٣/ ٧٤.
(٥) الكشاف ٢/ ٣٤٢.

وتعقَّبه صاحب «الفرائد» بأنَّ فيه حمل «مَن يتَّقِ» على المجاز، ولا مانعَ من الحمل على الحقيقة، والعدولُ عن ذلك إلى المجاز من غير ضرورة غيرُ جائز، فالوجه أن يقال: «مَن يتَّقِ»: مَن يحترز عن تركِ ما أُمر به وارتكابِ ما نهي عنه و«يَصبر» في المكارهِ، وذلك باختياره وهذا بغير اختياره، فهو محسنٌ. وذكر الصبر بعد التقوى من ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ، ويجوز أن يكون ذلك لإرادة الثبات على التقوى، كأنه قيل: مَن يتَّقِ ويثبُت على التقوى. انتهى.

والوجه الأول ميلٌ لِمَا ذكره أبو حيان. وتعقَّب ذلك الطيبيُّ بأنَّ هذه الجملَة تعليلٌ لِمَا تقدَّم وتعريضٌ بإخوته بأنَّهم لم يخافوا عقابه تعالى ولم يصبروا على طاعته عزَّ وجلَّ وطاعةِ أبيهم، وعن المعصية إذ فعلوا ما فعلوا، فيكون المرادُ بالاتقاء الخوف، وبالصبر الصبر على الطاعة وعن المعصية.

ورُدَّ بأنَّ التعريضَ حاصلٌ في التفسير الآخر، فكأنه فسَّره به لئلا يتكرَّر مع الصبر. وفيه نظر.

وقرأ قنبل: «مَن يتَّقِي» بإثبات الياء[(١)]. فقيل: هو مجزومٌ بحذف الياء التي هي لامُ الكلمة، وهذه ياء إشباع. وقيل: جَزمُه بحذف الحركة المقدَّرة، وقد حكوا ذلك لغةً. وقيل: هو مرفوعٌ، و«مَن» موصولٌ، وعطفُ المجزوم عليه على التوهُّم، كأنه توهَّم أنَّ «من» شرطيَّةٌ و«يتَّقي» مجزومٌ. وقيل: إنَّ «يصبر» مرفوعٌ كـ «يتَّقي» إلا أنَّه سُكِّنت الراءُ لتوالي الحركات وإن كان ذلك في كلمتين، كما سُكِّنت في ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ [البقرة:٦٧] و﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩][(٢)] ونحوِهما، أو للوقف، وأُجري الوصلُ مُجرى الوقف.

والأحسن من هذه الأقوال كما في «البحر»[(٣)] أن يكون «يتَّقِي» مجزوماً على لغةٍ وإن كانت قليلةً. وقولُ أبي علي: إنَّه لا يُحمَل على ذلك؛ لأنه إنما يجيء في الشعر[(٤)]. لا يُلتفَت إليه؛ لأنَّ غيرَه من رؤساءِ النحويين حكوه لغةً نظماً ونثراً.

---

(١) التيسير ص ١٣١، والنشر ٢/ ٢٩٧.

(٢) وهما قراءتان لأبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٣) ٥/ ٣٤٣.

(٤) الحجة ٤/ ٤٤٨.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: اختارك وفضَّلك علينا بالتقوى والصبر. وقيل: بالملك. وقيل: بالصبر والعلم، ورُويا عن ابن عباس[١]. وقيل: بالحلم والصفح، ذكره [أبو] سليمان الدمشقي[٢].

وقال صاحب «الغنيان»: بحسن الخَلْق والخُلُق والعِلم والحِلم والإحسان والملك والسلطانِ والصبرِ على أذانا. والأول أولى.

﴿وَإِن﴾ أي: والحال إن الشأن ﴿كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: لمتعمِّدين للذنب إذ فعلنا ما فعلنا، ولذلك أعزَّك وأذلَّنا، فالواو حاليَّة، و«إن» مخفَّفة، اسمها ضمير الشأن، واللام التي في خبر كان هي المزحلقة، و«خاطئين» من خَطِىءَ: إذا تعمَّد، وأمَّا أخطأ: فقصَدَ الصوابَ ولم يوفَّق له.

وفي قولهم هذا من الاستنزالِ لإحسانه عليه السلام والاعترافِ بما صدَرَ منهم في حقِّه مع الإشعار بالتوبة ما لا يخفى، ولذلك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي: لا تأنيبَ ولا لومَ ﴿عَلَيْكُمُ﴾، وأصلُه من الثَّرْب: وهو الشحْمُ الرقيقُ في الجوف وعلى الكَرِش، وصيغةُ التفعيل للسلب، أي: إزالةِ الثَّرْبِ، كالتجليد والتقريع بمعنى إزالة الجلد والقرع، واستعير للَّوم الذي يمزِّق الأعراضَ ويُذهب بهاءَ الوجه؛ لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزالُ وما لا يُرضى، كما أنه باللوم تظهر العيوبُ، فالجامعُ بينهما طريانُ النقص بعد الكمال، وإزالةُ ما به الكمالُ والجمالُ، وهو اسم «لا»، و«عليكم» متعلِّقٌ بمقدَّر وقع خبراً، وقولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ متعلِّقٌ بذلك الخبرِ المقدَّر أو بالظرف، أي: لا تثريبَ مستقِرٌّ عليكم اليومَ، وليس التقييدُ به لإفادة وقوعِ التثريب في غيره، فإنَّه عليه السلام إذا لم يثرِّب أوَّلَ لقائه واشتعالِ ناره فبَعْدَه بطريقِ الأولى.

وقال المرتضى: إنَّ «اليوم» موضوعٌ موضعَ الزمان كلِّه كقوله:

اليومَ يرحَمُنا من كان يَغْبِطُنا ... واليومَ نتبَعُ مَن كانُوا لنا تَبَعَا[٣]

كأنَّه أُرِيد: بعدَ اليوم.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٨٢.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٨٢، والبحر المحيط ٥/ ٣٤٣، وما بين حاصرتين منهما.
(٣) أمالي المرتضى ١/ ٤٥٢-٤٥٣، والبيت فيه وفي البيان والتبيين ٣/ ١٧٧، أنشدته عجوز يوم مات الحجاج، كما ذكر الجاحظ.

وجوَّز الزمخشريُّ تعلُّقَه بـ «تثريب»[1]. وتعقَّبه أبو حيان قائلاً: لا يجوز ذلك؛ لأنَّ التثريبَ مصدرٌ، وقد فُصِل بينه وبينَ معموله بـ «عليكم»، وهو إما خبرٌ أو صفةٌ، ولا يجوز الفصلُ بينهما بنحوِ ذلك؛ لأنَّ معمولَ المصدر من تمامه، وأيضاً لو كان متعلِّقاً به لم يَجُز بناؤُه؛ لأنه حينئذٍ من قبيل المشبَّه بالمضاف، وهو الذي يسمَّى المطوَّل والممطول فيجب أن يكونَ مُعرَباً منوَّناً[2].

ولو قيل: الخبرُ محذوفٌ و «عليكم» متعلِّقٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه «تثريب»، وذلك المحذوفُ هو العامل في «اليوم»، والتقدير: لا تثريبَ يثرَّبُ عليكم اليومَ. كما قدَّروا في ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا عاصمَ يعصِمُ اليومَ = لكان وجهاً قويّاً؛ لأنَّ خبرَ «لا» إذا عُلِم كثرُ حذفُه عند أهل الحجاز، ولم يلفظ به بنو تميم.

وكذا منع ذلك[3] أبو البقاء، وعلَّله بلزوم الإعراب والتنوينِ أيضاً[4].

واعترِض بأنَّ المصرَّح به في متون النحو بأنَّ شبيهَ المضاف سُمِع فيه عدمُ التنوين، نحو: لا طالعَ جبلاً. ووقع في الحديث: «لا مانِعَ لِمَا أعطَيْتَ ولا مُعْطِيَ لِمَا منَعْتَ»[5] باتفاقِ الرواة فيه، وإنما الخلافُ فيه هل هو مبنيٌّ، أو معربٌ تُرِكَ تنوينُه، وفي «التصريح» نقلاً عن «المغني» أنَّ نصبَ الشبيه بالمضاف وتنوينَه هو مذهبُ البصريين، وأجاز البغداديون: لا طالعَ جبلاً. بلا تنوينٍ، أجروه في ذلك مُجرى المضاف، كما أجروه مُجراه في الإعراب، وعليه يتخرَّج الحديثُ «لا مانع» إلخ[6].

فيمكن أن يكون مبنَى ما قاله أبو حيان وغيرُه مذهبَ البصريين، والحديثُ المذكور لا يتعيَّن ـ كما قال الدنوشري أخذاً من كلام «المغني» في الجهة الثانية من

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٤٢.
(٢) البحر ٥/ ٣٤٣.
(٣) أي: تعلُّق «اليوم» بـ «تثريب».
(٤) الإملاء ٣/ ٣٦٠.
(٥) أخرجه البخاري (٨٤٤) عن المغيرة بن شعبة، ومسلم (٤٧٧): (٢٠٥) عن أبي سعيد ﷺ.
(٦) مغني اللبيب ص ٥١٥.

باب الخامس ـ حَمْلُهُ على ما ذُكر؛ لجوازِ كونِ اسم «لا» فيه مفرداً، واللامُ متعلِّقةً بالخبر، والتقديرُ: لا مانعَ مانعٌ لِمَا أعطيت، وكذا فيما بعده.

وذكر الرضي أنَّ الظرفَ بعد النفي لا يتعلَّق بالمنفيِّ بل بمحذوفٍ وهو خبرٌ، وأنَّ «اليوم» في الآية معمولُ «عليكم»، ويجوزُ العكس.

واعتُرِض أيضاً حديثُ الفصل بين المصدر ومعمولِه بما فيه ما فيه.

وقيل: «عليكم» بيانٌ كـ «لك» في: سقياً لك، فيتعلَّق بمحذوفٍ، و«اليوم» خبرٌ.

وجوِّز أيضاً كونُ الخبر ذاك، و«اليوم» متعلِّقاً بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. ونُقِل عن المرتضى أنه قال في «الدرر»: قد ضَعَّف هذا قومٌ من جهةِ أنَّ الدعاءَ لا ينصِبُ ما قبله(١). ولم يشتهر ذلك.

وقال ابن المنيِّر: لو كان متعلِّقاً به لقطعوا بالمغفرة بإخبار الصِّدِّيق، ولم يكن كذلك لقولهم: (يَتَأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ)(٢).

وتعقِّب بأنَّه لا طائلَ تحتَه؛ لأنَّ المغفرة وهي سترُ الذنب يومَ القيامة حتى لا يؤاخَذوا به ولا يُقرَّعوا، إنما يكون ذلك الوقت، وأما قبله فالحاصلُ هو الإعلام به، والعلم بتحقُّقِ وقوعه بخبر الصادق لا يمنع الطلبَ؛ لأنَّ الممتنع طلبُ الحاصل لا طلبُ ما يُعلَم حصولُه، على أنه يجوز أن يكون هضماً للنفس، واعتُبِر باستغفار الأنبياء عليهم السلام، ولا فرقَ بين الدعاء والإخبار هنا(٣). انتهى.

وقد يقال أيضاً: إنَّ الذي طلبوه من أبيهم مغفرةُ ما يتعلَّق به ويرجع إلى حقِّه، ولم يكن عندهم علمٌ بتحقُّقِ ذلك، على أنه يجوز أن يقال: إنَّهم لم يعتقدوا إذ ذاك نبوتَه وظنُّوه مثلهم غيرَ نبيٍّ، فإنَّه لم يمضِ وقتٌ بعدَ معرفةِ أنَّه يوسفُ يسع معرفة أنَّه نبيٌّ أيضاً، وما جرى من المفاوَضة لا يدلُّ على ذلك. فافهم.

وإلى حمل الكلام على الدعاء ذهب غيرُ واحدٍ وذهب جمعٌ أيضاً إلى كونه خبراً، والحكم بذلك مع أنه غيبٌ ـ قيل ـ لأنَّه عليه السلام صفح عن جريمتهم

(١) أمالي المرتضى ١/ ٤٥٣، ونقله عنه أيضاً الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٠٥.
(٢) الإنصاف ٢/ ٣٤٢.
(٣) نقله المصنف من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٥.

حينئذٍ، وهم قد اعترفوا بها أيضاً فلا محالةَ أنه سبحانه يغفر لهم ما يتعلَّق به تعالى وما يتعلَّق به عليه السلام بمقتضى وعدِه جلَّ شأنه بقبول توبة العباد. وقيل: لأنه عليه السلام قد أوحي إليه بذلك.

وأنت تعلم أنَّ أكثر القرَّاء على الوقف على «اليوم»، وهو ظاهرٌ في عدم تعلُّقه بـ «يغفر»، وهو اختيار الطبريِّ وابن إسحاق وغيرهم، واختاروا كونَ الجملة بعدُ دعائيَّة[1]، وهو الذي يميل إليه الذوقُ. والله تعالى أعلم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾ فإنَّ كلَّ مَن يرحم سواه جلَّ وعلا فإنَّما يرحم برحمته سبحانه، مع كونِ ذلك مبنيّاً على جلب نفع أو دفع ضرٍّ، ولا أقلَّ مَن دفع ما يجده في نفسه من التألُّم الروحانيِّ مما يجده في المرحوم. وقيل: لأنه تعالى يغفر الصغائرَ والكبائرَ التي لا يغفرها غيرُه سبحانه، ويتفضَّل على التائب بالقبول.

والجملة إما بيانٌ للوثوق بإجابة الدعاء، أو تحقيقٌ لحصول المغفرة؛ لأنَّه عفا عنهم، فالله تعالى أولى بالعفو والرحمة لهم.

هذا، ومن كرم يوسف عليه السلام ما روي أنَّ إخوته أرسلوا إليه: إنَّك تدعونا على طعامك بكرةً وعشيةً ونحن نستحي منك بما فرط منَّا فيك. فقال عليه السلام: إنَّ أهلَ مصر وإن ملكتُ فيهم كانوا ينظرون إليَّ بالعين الأولى ويقولون: سبحانَ مَن بلَّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلَّغ، ولقد شرُفتُ بكم الآن وعظمتُ في العيون حيث علم الناسُ أنَّكم إخوتي وأنِّي من حَفَدَةِ إبراهيم عليه السلام[2].

والظاهرُ أنَّه عليه السلام حصَّل بذلك من العلم للناس ما لم يحصِّل قبلُ، فإنه عليه السلام على ما دلَّ عليه بعض الآيات السابقة والأخبار قد أخبرهم أنه ابنُ مَن وممَّن.

وكذا ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال الملِك يوماً ليوسف عليه السلام: إني أحبُّ أن تخالِطني في كلِّ شيء، إلَّا في أهلي، وأنا آنَفُ أن تأكل معي. فغضِب يوسف عليه السلام

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٨، والبحر ٥/ ٣٤٣، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٣١.
(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٤٢ من دون نسبة.

فقال: أنا أحقُّ أن آنفَ، أنا ابنُ إبراهيم خليل الله، وأنا ابن إسحاق ذبيح الله، وأنا ابن يعقوب نبيِّ الله. لكن لم يشتهر ذلك أو لم يفد الناسَ علماً(١).

وفي «التوراة» التي بأيدي اليهود اليومَ أنه عليه السلام لمَّا رأى من إخوته مزيدَ الخجَل أدناهم إليه وقال لهم: لا يشقّ عليكم أن بعتموني وإلى هذا المكان أوصلتموني، فإنَّ الله تعالى قد علم ما يقع من القحط والجدب وما ينزل بكم من ذلك، ففعل ما أوصلني به على هذا المكان والمكانة؛ ليُزيل عنكم بي ما ينزل بكم، ويكون ذلك سبباً لبقائكم في الأرض وانتشارِ ذراريكم فيها، وقد مضت من سِني الجدب سنتان، وبقي خمسُ سنين، وأنا اليوم قد صيَّرني الله تعالى مرجعاً لفرعون وسيِّداً لأهله وسلطاناً على جميع أهل مصر، فلا يضق عليكم أمركم(٢).

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ هو القميصُ الذي كان عليه حينئذٍ كما هو الظاهر. وعن ابن عباس وغيرِه أنَّه القميصُ الذي كساه الله تعالى إبراهيمَ عليه السلام حين أُلقِي في النار وكان من قُمُص الجنة، جعله يعقوبُ حين وصل إليه في قصبةِ فضَّةٍ وعلَّقه في عنق يوسف، وكان لا يقع على عاهةٍ من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله تعالى(٣).

وضُعِّف هذا بأنَّ قوله: (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) يدلُّ على أنَّه عليه السلام كان لابساً له في تعويذته كما تشهد به الإضافة إلى ضميره. وهو تضعيفٌ ضعيفٌ كما لا يخفى.

---

(١) سنن سعيد بن منصور(٧٢١١ - تفسير)، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٩، وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٤. والرواية في سنن سعيد عن عبد الله بن أبي هذيل، وأخرجه عنه أيضاً الطبري في تفسيره ١٣/ ٢١٦ و٢١٧. وقوله: وأنا ابن إسحاق ذبيح الله، فيه نظر، لأن الصحيح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. وسيأتي هذا البحث في سورة الصافات.
وورد في هامش الأصل: وفي رواية أنَّ امرأتَه قالت له: قل ليوسف: يأكل مع غلمان. فقال له. فقال: ترغب أن تأكل معي، أنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله... إلخ. اهـ. وهي في تفسير الطبري ١٣/ ٢١٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٩ عن أبي ميسرة.

(٢) العهد القديم، سفر التكوين ص١٣٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٩٦ عن المطلب بن عبد الله بن حنطب. وهو في تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨ عن مجاهد.

وقيل: هو القميصُ الذي قدَّ من دُبُر، وأرسله ليعلم يعقوبُ أنه عُصِم من الفاحشة. ولا يخفى بُعْدُه.

وأيًّاما كان فالباء إمَّا للمصاحبة أو للملابسة، أي: اذهبوا مصحوبين أو ملتبسين به، أو للتعديَة كما قيل[1]، أي: أذهبوا قميصي هذا ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يَصِر بصيراً، ويشهد له ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] أو: يأتِ إليَّ وهو بصير، وينصرُه قولُه: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾ من النساء والذراري وغيرِهم مما ينتظِمه لفظ الأهل، كذا قالوا.

وحاصل الوجهين ـ كما قال بعض المدقِّقين ـ إنَّ الإتيان في الأول مجازٌ عن الصيرورة ولم يَذكُر إتيان الأب إليه لا لكونه داخلاً في الأهل، فإنه يجلُّ عن التابعية، بل تفادياً عن أمر الإخوة بالإتيان؛ لأنه نوعُ إجبارٍ على مَن يُؤتى به، فهو إلى اختياره.

وفي الثاني على الحقيقة، وفيه التفادي المذكور، والجزمُ بأنه من الآتِين لا محالة وثوقاً بمحبته، وأن فائدةَ الإلقاء إتيانُه على ما أحبَّ من كونه مُعافًى سليمَ البصر، وفيه أنَّ صيرورتَه بصيراً أمرٌ مفروغٌ عنه مقطوعٌ، إنَّما الكلام في تسبُّب الإلقاء لإتيانه كذلك، فهذا الوجه أرجحُ وإن كان الأولُ من الخلافة بالقبول بمنزلٍ.

وفيه دلالةٌ على أنه عليه السلام قد ذهب بصرُه، وعلم يوسف عليه السلام بذلك يحتمل أن يكون بإعلامهم، ويحتمل أن يكون بالوحي، وكذا علمه بما يترتَّب على الإلقاء يحتمل أن يكونَ عن وحي أيضاً، أو عن وقوفٍ من قبلُ على خواصِّ ذلك القميص بالتجربة أو نحوها إن كان المراد بالقميص الذي كان في التعويذة، ويتعيَّن الاحتمالُ الأول إن كان المرادُ غيرَه على ما هو الظاهر.

وقال الإمام: يمكن أن يقال: لعلَّ يوسفَ عليه السلام عَلم أنَّ أباه ما عرا بصرَه ما عراه إلا من كثرة البكاء وضيق القلب، فإذا ألقي عليه قميصُه فلابدَّ وأن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرَحُ الشديدُ، وذلك يقوِّي الروحَ ويُزيل الضَّعفَ

(١) في (م): على ما قيل.

عن القُوَى، فحينئذٍ يقوَى بصرُه ويزول عنه ذلك النقصانُ، فهذا القدر مما يمكن معرفتُه بالعقل، فإن القوانين الطبيَّة تدلُّ على صحته[١]. وأنا لا أرى ذلك.

قال الكلبي: وكان أولئك الأهل نحواً من سبعين إنساناً[٢]. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنَّهم اثنان وسبعون من ولده وولد ولده[٣]. وقيل: ثمانون. وقيل: تسعون. وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن مسعود أنَّهم ثلاثة وتسعون[٤]. وقيل: ستٌّ وتسعون.

وقد نموا في مصر فخرجوا منها مع موسى عليه السلام وهم ستُّ مئة ألفٍ وخمس مئة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرية ألفَ ألفٍ ومئتي ألفٍ، على ما قيل.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ خرجت من عريش مصر قاصدةً مكانَ يعقوب عليه السلام وكان قريباً من بيت المقدس، والقولُ بأنه كان بالجزيرة لا يعوَّل عليه.

يقال: فَصَل من البلد يفصِل فصولاً: إذا انفصل منه وجاوز حيطانَه، وهو لازمٌ، وفَصَلَ الشيءَ فصلاً: إذا فرَّقه، وهو متعدٍّ.

وقرأ ابن عباس: «ولما انفصل العير»[٥].

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي: لأشَمُّ، فهو وجودُ حاسَّة الشَّمِّ، أشَمَّه الله تعالى ما عبِق بالقميص من ريح يوسف عليه السلام من مسيرة ثمانية أيام، على ما رُوي عن ابن عباس. وقال الحسن وابن جريج: من ثمانين فرسخاً.

وفي رواية أخرى عن الحسن: من مسيرة ثلاثين يوماً. وفي أخرى عنه: من مسيرة عشر ليال.

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٦.
(٢) جاء في هامش (م): وفي التوراة: أنَّ مَن دخل مصر مِن بني إسرائيل سبعون. اهـ منه.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠١.
(٤) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٣٥، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٩٦.
(٥) القراءات الشاذة ص ٦٥، والبحر ٥/ ٣٤٥.

وقد استأذنت الريحُ على ما روي عن أبي أيوب الهرويِّ[1] في إيصال عَرْفِ يوسفَ عليه السلام فأذن الله تعالى لها. وقال مجاهد: صَفَقت الريحُ القميصَ، فراحت روائحُ الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوبَ عليه السلام، فوجد ريحَ الجنة، فعُلِم أنه ليس في الدنيا من ريحها إلا ما كان من ذلك القميص، فقال ما قال. ويُبْعِدُ ذلك الإضافةُ فإنها حينئذٍ لأدنى ملابسةٍ، وهي فيما قبل وإن كانت كذلك أيضاً إلا أنَّها أقوى بكثير منها على هذا، كما لا يخفى.

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ أي: تنسبوني إلى الفَنَد بفتحتين، ويستعمل بمعنى الفساد[2] كما في قوله:

إلا سليمانَ إذْ قالَ الإلهُ له ... قُم في البرِيَّة فاحْدُدْها عن الفَنَدِ[3]

وبمعنى ضَعفِ الرأي والعقل، من الهَرَم وكِبَرِ السنِّ، ويقال: فَنَّد الرجلَ: إذا نسبه إلى الفَنَد، وهو على ما قيل مأخوذٌ من الفَنَد، وهو الحَجَرُ، كأنه جُعِل حَجَراً؛ لقلَّة فهمِهِ، كما قيل:

إذا أنتَ لم تعشَقْ ولم تَدرِ مَا الهوَى ... فكُن حَجَراً من يابِسِ الصَخْر جَلْمَدَا[4]

ثم اتُّسِع فيه، فقيل: فنَّده: إذا ضعَّف رأيَه ولامَه على مَا فَعَل، قال الشاعر:

يا عاذلَيَّ دَعَا لَومي وتَفنيدي ... فليس ما قلتُ من أمرٍ بمردود[5]

وجاء: أفنَدَ الدهرُ فلاناً: أفسده، قال ابن مقبل:

دَع الدهرَ يَفعَلْ ما أراد فإنَّه ... إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناسِ أَفْنَدَا[6]

---

(١) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٣٣٢، وفيه: الهوزني، بدل: الهروي. ولم نقف على ترجمته.

(٢) في هامش (م): وجاء بمعنى الكذب، كما في «الصحاح». اهـ منه. ينظر الصحاح (فند).

(٣) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص ٣٣، والخزانة ٣/ ٤٠٥، قال البغدادي: قوله: فاحدُدْها، أي: امنع البَرِيَّة، والحد: المنع.

(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة. وهو في ملحقات ديوانه ص ٤٨٩.

(٥) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ١/ ٥٤٣، ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣١٨ لهانئ بن شكيم العدوي، وهو دون نسبة في تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٦، والنكت والعيون ٣/ ٧٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩، والبحر ٥/ ٣٤٠.

(٦) البيت بهذه الرواية في تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٦، وتفسير القرطبي ١١/ ٤٥٠، والبحر ٥/ ٣٤٠، =

ويقال: شيخٌ مفنَّدٌ: إذا فسد رأيه، ولا يقال: عجوزٌ مفنَّدةٌ، لأنَّها لا رأيَ لها في شبيبتها حتى يضعَّف. قاله الجوهريُّ وغيرُه من أهل اللغة(١). وذكره الزمخشريُّ في «الكشاف» وغيره(٢)، واستغربه السمينُ(٣)، ولعلَّ وجهَه أنَّ لها عقلاً وإن كان ناقصاً، يشتدُّ نقصُه بكبر السنِّ. فتأمل.

وجواب «لولا» محذوفٌ، أي: لولا تفنيدُكم أيايَ لصدَّقْتُموني. أو: لقلتُ: إنَّ يوسفَ قريبٌ مكانُه، أو لقاؤه، أو نحو ذلك. والمخاطَبُ قيل: مَن بقي من ولده غير الذين ذهبوا يمتارون، وهم كثير(٤). وقيل: ولدُ ولدِه ومَن كان بحضرته من ذَوي قرابته. وهو المشهور.

﴿قَالُوا﴾ أي: أولئك المخاطبون: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي: لفي ذهابِك عن الصواب قِدْماً بالإفراط في محبة يوسف والإكثار من ذكره والتوقُّع للقائه، وجَعَلَه فيه لتمكُّنه ودوامِه عليه. وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنَّ الضلالَ هنا بمعنى الحبِّ(٥).

وقال مقاتل: هو الشقاء والعناء.

وقيل: الهلاك والذهاب، من قولهم: ضلَّ الماء في اللبن، أي: ذهب فيه وهلك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير تفسيرَه بالجنون(٦). وهو مما لا يليق، وكأنه لتفسيرٍ بمثل ذلك قال قتادة: لقد قالوا كلمةً غليظةً لا ينبغي أن يقولها مثلُهم لمثلِه عليه السلام، ولعلَّهم إنما قالوا ذلك لظنِّهم أنَّه مات.

---

= وهو في ديوان ابن مقبل ص٦٠ برواية: إذا كلِّفَ الإفساد بالناس أفسدا. ووقع في الأصل و(م): ابن مقتل، بالتاء. وهو تصحيف. وابن مقبل هو تميم بن أبيّ القيسي، كان أعور، أدرك الجاهلية والإسلام، بلغ مئة وعشرين سنة. الخزانة ١/ ٢٣١.

(١) ينظر الصحاح، والقاموس (فند).

(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٣، وأساس البلاغة (فند).

(٣) في الدر المصون ٦/ ٥٥٧.

(٤) جملة: وهم كثير. ليست في الأصل.

(٥) نقله المصنف من الدر المنثور ٤/ ٣٥، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٣٤٢ و٣٤٣ عن قتادة وسفيان وابن جريج.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٨.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ قال مجاهد: هو يهوذا[(١)]. رُوي أنه قال لإخوته: قد علمتم أني ذهبتُ إلى أبي بقميصِ التَّرحَة، فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرحة. فتركوه. وفي روايةٍ عن ابن عباس أنه مالك بن ذعر. والرواية الشهيرةُ عنه ما تقدَّم، و«أن» صلةٌ وقد اطردت زيادتُها بعد «لمَّا».

وقرأ ابن مسعود ـ وعُدَّ ذلك قراءةَ تفسيرٍ ـ: «وجاء البشير من بين يَدَي العير»[(٢)].

﴿أَلْقَىٰهُ﴾ أي: ألقى البشيرُ القميصَ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: وجهِ يعقوب عليه السلام. وقيل: فاعلُ «ألقى» ضميرُ يعقوب عليه السلام أيضاً. والأولُ أوفق بقوله: «فألقُوه على وَجْهِ أَبي» وهو يُبعد كونَ البشير مالكاً كما لا يخفى. والثاني قيل: هو الأنسبُ بالأدب. ونُسب ذلك إلى فرقد، قال: إنه عليه السلام أخذه فشمَّه ثم وضعه على بصره ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

والظاهر انَّه أريد بالوجه كلِّه، وقد جرت العادةُ أنه متى وَجد الإنسانُ شيئاً يعتقد فيه البركةَ مسح به وجهَه. وقيل: عبَّر بالوجه عن العينين؛ لأنَّهما فيه. وقيل: عبر بالكلِّ عن البعض.

و«ارتَدَّ» عند بعضهم من أخوات كان، وهي بمعنى صار، ف «بصيراً» خبرُها. وصحَّح أبو حيان[(٣)] أنها ليست من أخواتها، ف «بصيراً» حالٌ، والمعنى أنَّه رجع إلى حالته الأولى من سلامة البصر.

وزعم بعضهم أنَّ في الكلام ما يُشعِر بأنَّ بصَره صار أقوى مما كان عليه؛ لأنَّ «فعيلاً» من صِيَغ المبالغة، وما عُدل من «مُفْعِلٍ»[(٤)] إليه إلا لهذا المعنى. وتعقِّب بأنَّ «فعيلاً» هنا ليس للمبالغة، إذ ما يكون لها هو المعدولُ عن «فاعِلٍ»، وأما «بصير» هنا فهو اسم فاعل من بَصُر بالشيء، فهو جارٍ على قياس «فَعُل» نحو: ظَرُف، فهو ظريف، ولو كان كما زعم بمعنى مُبصِر لم يكن للمبالغة أيضاً؛ لأنَّ «فعيلاً» بمعنى «مُفعِل» ليس للمبالغة نحو «أليم» و«سميع».

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤٤.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٩.
(٣) في البحر ٥/ ٣٤٦.
(٤) في الأصل و(م): يفعل. وهو تحريف. والمثبت من البحر ٥/ ٣٤٦، والكلام منه.

وأيّاما كان فالظاهر أنَّ عودَه عليه السلام بصيراً بإلقاء القميص على وجهه ليس إلا من باب خرق العادة، وليس الخارقُ بِدعاً في هذه القصة.

وقيل: إنَّ ذاك لمَا أنَّه عليه السلام انتعش حتى قَوِي قلبُه وحرارتُه الغريزية فأوصل نورَه إلى الدماغ وأدّاه إلى البصر، ومن هذا الباب استشفاءُ العشّاق بما يهُبُّ عليهم من جهة أرض المعشوق كما قال:

وإني لأستَشْفِي بكلِّ غمامةٍ يهُبُّ بها من نحوِ أرضكِ ريحُ[1]

وقال آخر:

ألا يا نسيمَ الصُّبح ما لك كُلَّما تقرَّبتَ منَّا فاحَ نشرُك طِيبَا
كأنَّ سُلَيمى نُبِّئَت بسَقامِنا فأعطَتْك رَيَّاها فجئت طَبِيبَا[2]

إلى غير ذلك مما لا يُحصى، وهو قريبٌ مما سمعتَه آنفاً عن الإمام[3].

هذا وجاء في بعض الأخبار أنَّه عليه السلام سأل البشيرَ: كيف يوسف؟ قال: ملك مصر. فقال: ما أصنع بالملك، على أيِّ دينٍ تركتَه؟ قال: على الإسلام. قال: الآن تمَّتِ النعمة[4].

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: لمَّا جاء البشير إليه عليه السلام قال: ما وجدتَ عندنا شيئاً، وما اختبزنا منذ سبعة أيام، ولكنْ هوَّن اللهُ تعالى عليك سكراتِ الموت[5]. وجاء في رواية أنه قال له: ما أدري ما أثيبك اليومَ، ثم دعا له بذلك.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمن كان عنده من قبل، أي: ألم أقل لكم: أني لأجِدُ ريحَ يوسف. ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين، أي: ألم

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٣٤٥ دون نسبة.
(٢) البيتان في المدهش لابن الجوزي ص٤٦٨ باختلاف يسير.
(٣) سلف كلامه ص٤٨٧-٤٨٨ من هذا الجزء.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٩ عن الحسن.
(٥) عزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٤/ ٣٥، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ١٩٩، عن لقمان الحنفي.

أقل لكم: لا تيأسوا من رحمة الله. وهو الأنسب بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فإنَّ مدارَ النهي العلمُ الذي أُوتيَه عليه السلام من جهة الله سبحانه.

والجملة على الاحتمالين مستأنفةٌ، وعلى الأخير يجوز أن تكون مقولَ القول، أي: ألم أقل لكم حين أرسلتُكم إلى مصرَ وأمرتُكم بالتحسُّس، ونهيتُكم عن اليأس من رَوحِ الله تعالى: إني أعلَم من الله مَا لا تعلمون من حياةِ يوسف عليه السلام. واستظهر في «البحر»[1] كونَها مقولَ القول، وهو كذلك. ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ طلبوا منه عليه السلام الاستغفار، ونادوه بعنوان الأبوَّة؛ تحريكاً للعطف والشفقةِ، وعلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ أي: ومن حقِّ المعترف بذنبه أن يُصفَح عنه ويُستغفَر له، وكأنَّهم كانوا على ثقةٍ من عفوه، ولذلك اقتصروا على طلب الاستغفار وأدرَجوا ذلك في الاستغفار.

وقيل: حيث نادوه بذلك أرادوا: ومن حقِّ شفقتِك علينا أن تَستغفِرَ لنا، فإنَّه لولا ذلك لكنَّا هالكين لتعمُّدِ الإثم، فمن ذا يرحمنا إذا لم ترحَمْنا. وليس بذاك.

﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ روي عن ابن عباس مرفوعاً أنَّه عليه السلام أخَّر الاستغفارَ لهم إلى السحر؛ لأنَّ الدعاءَ فيه مستجابٌ[2].

ورُوي عنه أيضاً كذلك أنه أخَّره إلى ليلة الجمعة[3]، وجاء ذلك في حديثٍ طويلٍ رواه الترمذيُّ وحسَّنه[4].

وقيل: سوَّفهم إلى قيام الليل.

وقال ابن جبير وفرقة: إلى الليالي البيض، فإنَّ الدعاءَ فيها يُستجاب[5]. وقال الشعبي: أخَّره حتى يسأل يوسفَ عليه السلام، فإن عفا عنهم استغفرَ لهم[6].

---

(١) ٥/ ٣٤٦.
(٢) عزاه السيوطي في الدر ٤/ ٣٦ لأبي الشيخ وابن مردويه.
(٣) ورد في هامش (م): وفي رواية: إلى سحرها. اهـ منه.
(٤) سنن الترمذي (٣٥٧٠)، وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ١/ ٣١٦-٣١٧، وصححه.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠.
(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩.

وقيل: أخَّر ليعلم حالَهم في صدق التوبة.

وتعقَّب بعضُهم بعض هذه الأقوال بأنّ «سوف» تأبى ذلك؛ لأنها أبلغُ من السين في التنفيس، فكان حقُّه على ذلك السينَ. ورُدَّ بما في «المغني»(١) من أنَّ ما ذكر مذهب البصريين، وغيرُهم يسوِّي بينهما.

وقال بعضُ المحقِّقين(٢): هذا غيرُ واردٍ حتى يحتاج إلى الدفع؛ لأنَّ التنفيسَ التأخيرُ مطلقاً ولو أقلَّ من ساعةٍ، فتأخيرُه إلى السحر مثلاً ومضيُّ ذلك اليوم محلٌّ للتنفيس بـ«سوف».

وقيل: أراد عليه السلام الدوامَ على الاستغفار لهم. وهو مبنيٌّ على أنَّ السين وسوف يدلَّان على الاستمرار في المستقبل، وفيه كلامٌ للنحويين. نعم جاء في بعض الأخبار ما يدلُّ على أنه عليه السلام استمرَّ برهة من الزمان يستغفر لهم؛ أخرج ابن جرير عن أنس بن مالك قال: إنَّ الله تعالى لمَّا جمع شملَه بِبَنِيْه وأقرَّ عينَه خلا ولده نجيًّا، فقال بعضُهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخُ وما لقي منكم يوسفُ؟ قالوا: بلى. قال: فيغرُّكم عفوُهما عنكم، فكيف لكم بربِّكم؟ واستقام أمرُهم على أن أتوا الشيخَ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنبه، فقالوا: يا أبانا، أتيناك في أمرٍ لم نأتك في مثله قطُّ، ونزل بنا أمرٌ لم ينزل بنا مثلُه. حتى حرَّكوه والأنبياء عليهم السلام أرحمُ البرية، فقال: ما لكم يا بَنيّ؟ قالوا: ألستَ قد علمتَ ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قالا: بلى. قالوا: أفلستما قد عفوتما؟ قالا: بلى. قالوا: فإنَّ عفوَكما لا يُغني عنا شيئاً إن كان الله تعالى لم يعفُ عنا. قال: فما تريدون يا بنيَّ؟ قالوا: نريد أن تدعو الله سبحانه، فإذا جاءك الوحيُ من عند الله تعالى بأنَّه قد عفا عما صنعنا قرَّت أعينُنا واطمأنت قلوبُنا، وإلا فلا قُرَّةَ عينٍ في الدنيا لنا أبداً. قال: فقام الشيخُ فاستقبلَ القبلةَ وقامَ يوسفُ عليه السلام خلفَه، وقاموا خلفهما أذلَّةً خاشعين، فدعا وأمَّن يوسف، فلم يُجَب فيهم عشرين سنةً حتى إذا كان رأسُ العشرين نزل جبريلُ على يعقوب عليهما السلام فقال: إنَّ الله تعالى بعثني أبشِّرك بأنَّه قد أجاب دعوتَك في ولدك،

---

(١) ص١٨٤، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٦.

(٢) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٢٠٦.

وأنَّه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد عقد مواثيقَهم من بعدك على النبوة[١].

قيل: وهذا ـ إن صحَّ ـ دليلٌ على نبوَّتهم، وأنَّ ما صدر منهم كان قبل استنبائهم. والحقُّ عدم الصحة، وقد مرَّ تحقيقُ المقام بما فيه كفاية. فتذكَّر[٢].

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عائشة قال: ما تِيبَ على ولدِ يعقوب إلا بعد عشرين سنة، وكان أبوهم بين يدَيهم، فما تيب عليهم حتى نزل جبريل عليه السلام فعلَّمه هذا الدعاءَ: يا رجاءَ المؤمنين لا تقطع رجاءَنا، يا غياثَ المؤمنين أغثنا، يا معينَ المؤمنين أعنَّا، يا محبَّ التوَّابين تُبْ علينا. فأخَّره إلى السحر، فدعا به، فتيب عليهم[٣].

وأخرج أبو عبيد وغيره عن ابن جريج أنَّ ما سيأتي ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الآية: ٩٩] متعلِّقٌ بهذا، وهو من تقديم القرآن وتأخيره، والأصل: سوف أستغفِرُ لكم ربِّي إن شاء الله[٤]. وأنت تعلم أن هذا مما لا ينبغي الالتفاتُ إليه، فإنَّ ذاك من كلام يوسف عليه السلام بلا مرية، ولا أدري ما الداعي إلى ارتكابه، ولعلَّه محضُ الجهل.

واعلم أنَّه ذَكَر بعضُ المتأخرين في الكلام على هذه الآية أنَّ الصحيحَ أنَّ «اسْتَغْفَرَ» متعدٍّ إلى مفعولين، يقال: استغفرتُ اللهَ الذنبَ، وقد نصَّ على ذلك ابنُ هشام[٥]، وقد حُذِف من «استَغْفِر لنا» أولُهما، وذُكِر ثانيهما، وعُكِسَ الأمرُ في

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٦٧-٣٦٨، وهو من طريق صالح المري عن يزيد الرقاشي، عن أنس. قال ابن كثير عند تفسير الآية (١٠١) من هذه السورة: هذا الأثر موقوف على أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جدًّا.

(٢) ينظر ص٢٠٦ وما بعد من هذا الجزء.

(٣) عزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٣٧، وورد في هامش الأصل ما نصه: وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنَّ يوسفَ عليه السلام حدَّث أباه بما صنعوا، فَغُشِي عليه، فلمَّا أفاق قال: يا بنيَّ، أما لكم موقفٌ بين يدي الله تعالى تخافون أن يسألكم عمّا صنعتم؟ قالوا: قد كان ذلك فاستغفر لنا... إلخ. وفيه أيضاً أنَّه غُفِر لهم بعد عشرين سنةً. اهـ منه. وعزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٣٧.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٧، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٣٥١.

(٥) في شرح شذور الذهب ص ٤٧٨-٤٧٩.

«سوف أستَغْفِرُ»، ولعلَّ السرَّ ـ والله سبحانه أعلم ـ أنَّ حذفَ الأوَّلِ من الأول لإرادة التعميم، أي: استَغْفِر لنا كلَّ مَن أذنَبْنا في حقِّه. ليشملَه سبحانه وتعالى، ويشملُ يوسفَ وبنيامين وغيرَهما، ولم يُحذَف الثاني أيضاً تسجيلاً على أنفسهم باقتراف الذنوب؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الاعتراف بالخطأ والاستعطافِ لمَا سلف، فالمناسبُ هو التصريحُ.

وأما إثباتُه في الثاني فلأنَّه الأصلُ، مع التنبيه على أنَّ الأهمَّ الذي ينبغي أن يُصرَف إليه الهمُّ ويُمحَض له الوجهُ هو استغفارُ الربِّ واستجلاب رضاه، فإنَّه سبحانه إذا رضي أرْضَى، على أنَّ يوسف وأخاه قد ظهرت منهما مخايلُ العفو وأدركتهما رقَّةُ الأُخوَّة. وأما حذف الثاني منه فللإيجاز لكونه معلوماً من الأول مع قُرب العهد بذكره. اهـ.

ولعلَّ التسويفَ على هذا ليزدادَ انقطاعُهم إلى الله تعالى فيكونُ ذلك أرجى لحصول المقصود، فتأمل.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ رُوي أنه عليه السلام جهَّز إلى أبيه جهازاً ومئتي راحلةٍ ليتجهَّز إليه بمن معه. وفي التوراة أنه عليه السلام أعطى لكلٍّ من إخوته خلعةً، وأعطى بنيامين ثلاث مئة درهم وخمسَ خلع، وبعث لأبيه بعشرة حمير موقَّرة بالتُّحَف، وبعشرة أخرى موقَّرة بُرّاً وطعاماً[1].

وجاء في بعض الأخبار أنه عليه السلام خرج هو والملك[2] في أربعة آلافٍ من الجند والعظماء وأهل مصرَ بأجمعِهم لاستقباله، فتلقَّوه عليه السلام وهو يمشي يتوكَّأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، أهذا فرعونُ مصر؟ قال: لا يا أبتِ، ولكن هذا ابنُك يوسف، قيل له: إنك قادمٌ. فتلقَّاك بما ترى. فلمَّا لقيه ذهب يوسف عليه السلام ليبدأه بالسلام، فمَنَع ذلك ليعلم أنَّ يعقوبَ أكرمُ على الله تعالى منه، فاعتنقه وقبَّله وقال: السلام عليك أيها الذاهبُ بالأحزان عني.

---

(١) العهد القديم، سفر التكوين ص ١٣٩.

(٢) ورد في هامش (م): قيل: يقتضي أنَّه عليه السلام لم يكن ملكاً، وإنما كان على خزائنه كالعزيز. والرواية مختلفةٌ فيه، فإنه قيل: إنه تَسَلْطَنَ. وهو المشهور. اهـ منه.

وجاء أنه عليه السلام قال لأبيه: يا أبتِ، بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرُك، ألم تعلم أنَّ القيامة يجمعنا؟ قال: بلى، ولكن خشيتُ أن تُسلَب دينَك فيحال بيني وبينك(١).

وفي الكلام إيجازٌ، والتقديرُ: فرحل يعقوبُ عليه السلام بأهله وساروا حتى أتوا يوسفَ، فلمَّا دخلوا عليه وكان ذلك ـ فيما قيل ـ يوم عاشوراء ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: ضمَّهما إليه واعتنقهما، والمرادُ بهما أبوه وخالته: ليا(٢). وقيل: راحيل. وليس بذاك، والخالة تنزَّل منزلة الأمِّ؛ لشفقتها، كما ينزَّل العمُّ منزلةَ الأب، ومن ذلك قوله: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقيل: إنه لما تزوَّجها بعد أمِّه صارت رابَّةً ليوسف عليه السلام، فنزلت منزلة الأمِّ لكونها مثلَها في زوجية الأب وقيامِها مقامَها، والرابَّة تُدعى أمًّا وإن لم تكن خالةً. ورُوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما(٣).

وقال بعضهم: المراد أبوه وجدَّته أمُّ أمِّه. حكاه الزهراويُّ(٤).

وقال الحسن وابن إسحاق: إنَّ أمَّه عليه السلام كانت بالحياة(٥). فلا حاجةَ إلى التأويل لكن المشهور أنها ماتت في نفاس بنيامين.

وعن الحسن وابن إسحاق القولُ بذلك أيضاً إلا أنهما قالا: إنَّ الله تعالى أحياها له ليصدِّقَ رؤياه(٦). والظاهر أنه لم يثبت، ولو ثبت مثلُه لاشتهر.

وفي مصحف عبد الله: «آوَى إليه أبَوَيه وَإِخْوَتَه»(٧).

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ وكأنه عليه السلام ضَرب في الملتقى خارجَ البلد مضرباً فنزل فيه، فدخلوا عليه فيه، فآواهما إليه ثم طلب منهم الدخولَ في البلدة، فهناك دخولان: أحدُهما دخولٌ عليه خارجَ البلدة. والثاني دخولٌ في البلدة.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩-٤٥٠، وتفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٦.
(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٤٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٢، والنكت والعيون ٣/ ٨٢، وزاد المسير ٤/ ٢٨٨.
(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠ دون نسبة. وتفسير القرطبي ١١/ ٤٥٤.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨١، والبحر ٥/ ٣٤٧.

وقيل: إنَّهم إنما دخلوا عليه عليه السلام في مصر، وأراد بقوله: «ادخُلُوا مِصْرَ»: تمكَّنوا منها واستقرُّوا فيها.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: من القحط وسائرِ المكاره، والاستثناء على ما في «التيسير» داخلٌ في الأمن، لا في الأمر بالدخول؛ لأنَّه إنَّما يدخل في الوعد لا في الأمر[1].

وفي «الكشاف» أنَّ المشيئةَ تعلَّقت بالدخول المكيَّف بالأمن؛ لأنَّ القصدَ إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل: اسْلَمُوا وأَمَنوا في دخولكم إن شاء الله والتقدير: ادخلوا مصرَ آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين. فحُذِف الجزاء لدلالة الكلام، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال[2]. اهـ.

وكأنه أشار بقوله: فكأنه قيل... إلخ إلى أنَّ في التركيب معنى الدعاء، وإلى هذا ذهب العلامة الطيبيُّ. وقال في «الكشف»: إنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الكيفيةَ مقصودةٌ بالأمر، كما إذا قلت: ادخل ساجداً. كنتَ آمراً بهما، وليس فيه إشارةٌ إلى أنَّ في التركيب معنى الدعاء، فليس المعنى على ذلك. والحقُّ مع العلَّامة كما لا يخفى.

وزعم صاحب «الفرائد» أنَّ التقديرَ: ادخُلوا مِصرَ إن شاء الله دخلتم آمنين. فـ «آمنين» متعلِّقٌ بالجزاء المحذوفِ، وحينئذٍ لا يفتقر إلى التقديم والتأخير وإلى أن يجعل الجزائيةَ معترضةً.

وتعقِّب بأنه لا ارتيابَ في أنَّ هذا الاستثناءَ في أثناء الكلام كالتسمية في الشروع فيه للتيمُّنِ والتبرُّكِ واستعماله مع الجزاء كالشريعة المنسوخة، فحسن موقعه في الكلام أن يكونَ معترضاً. فافهم.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على السرير، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما[3]، تكرمةً لهما فوقَ ما فعله بالإخوة ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ أي:

(١) نقله المصنف من حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٤.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٣-٣٥٤، وهو قول السدي والضحاك أيضاً.

أبواه وإخوَتُه. وقيل: الضميرُ للإخوة فقط. وليس بذاك، فإن الرؤيا تقتضي أن يكونَ الأبوان والإخوة خَرُّوا له.

﴿سُجَّدًا﴾ أي: على الجباه، كما هو الظاهر، وهو كما قال أبو البقاء حالٌ مقدَّرة؛ لأنَّ السجودَ يكون بعد الخرور(١).

وكان ذلك جائزاً عندهم، وهو جارٍ مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير، قال قتادة: كان السجودُ تحيةَ الملوك عندهم، وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلامَ، تحيةَ أهل الجنة؛ كرامةً منه تعالى عجَّلها لهم(٢).

وقيل: ما كان ذلك إلا إيماءً بالرأس.

وقيل: كان كالركوع البالغ دون وضع الجبهة على الأرض. وقيل: المراد به التواضُع، ويراد بالخرور المرورُ كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] فقد قيل: المراد: لم يمرُّوا عليها كذلك. وأنتَ تعلم أنَّ اللفظَ ظاهرٌ في السقوط.

وقيل ـ ونسب لابن عباس ـ: إنَّ المعنى: خرُّوا لأجل يوسف، سُجَّداً لله شكراً على ما أوزَعَهم من النعمة.

وتعقِّب بأنه يردُّه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ إذ فيها ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. ودُفع بأنَّ القائلَ به يجعل اللامَ للتعليل فيهما.

وقيل: اللام فيهما بمعنى «إلى» كما في: صلَّى للكعبة؛ قال حسان:

ما كنتُ أعرِفُ أنَّ الدهرَ منصرفٌ ... عن هاشِمٍ ثُمَّ منها عن أبي حَسَنِ
أليس أوَّلَ مَن صلَّى لقبلَتِكُم ... وأعرفَ الناسِ بالأشياءِ والسُّنَنِ(٣)

وذكر الإمام(٤) أنَّ القولَ بأنَّ السجودَ كان لله تعالى لا ليوسف عليه السلام،

---

(١) الإملاء ٣/ ٣٦١.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٥٥، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٢.

(٣) البيتان في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٢، والبحر ٥/ ٣٤٨، ولم نقف عليه في ديوان حسان.

(٤) في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٢.

حسنٌ، والدليل عليه أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ مُشعِرٌ بأنهم صعدوا ثم سجدوا، ولو كان السجودُ ليوسف عليه السلام كان قبلَ الصعود والجلوس؛ لأنَّه أدخلُ في التواضع، بخلافِ سجودِ الشكرِ لله تعالى. ومخالفةُ ظاهرِ الترتيب ظاهرُ المخالفة للظاهر، ودَفْع ما يَرِدُ عليه مما علمتَ بما علمتَ، ثم قال: وهو متعيِّنٌ عندي؛ لأنَّه يَبعُد من عقل يوسف عليه السلام ودينِه أن يرضى بأن يسجُدَ له أبوه، مع سابقته في حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدينِ وكمالِ النبوة[1].

وأجيب بأنَّ تأخيرَ الخرور عن الرفع ليس بنصٍّ في المقصود؛ لأنَّ الترتيبَ الذكريَّ لا يجب كونُه على وفق الترتيب الوقوعيِّ، فلعلَّ تأخيرَه عنه ليتصلَ به ذكرُ كونه تعبيراً لرؤياه وما يتصل به. وبأنَّه يحتمل أن يكونَ اللهُ تعالى قد أمر يعقوبَ بذلك لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو، وكان يوسفُ عليه السلام عالماً بالأمر فلم يسعه إلا السكوتُ والتسليم، وكأنَّ في قوله: «يا أبتِ» إلخ إشارةً إلى ذلك، كأنه يقول: يا أبتِ، لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك، إلَّا أنَّ هذا أمرٌ أُمِرتَ به وتكليفٌ كُلِّفْتَ به، فإنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ كما أنَّ رؤيا إبراهيم ذبحَ ولده صار سبباً لوجوب الذبح في اليقظة، ولذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه عليه السلام لمَّا رأى سجودَ أبويه وإخوتَه له، هَالَه ذلك واقشعرَّ جلدُه منه[2].

ولا يبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب عليه السلام، كأنه قيل له: أنت كنتَ دائمَ الرغبة في وصاله والحزن على فراقه، فإذا وجدتَه فاسجد له.

ويحتمل أيضاً أنه عليه السلام إنما فعله مع عظم قدْرِه لتَتْبَعَه الإخوةُ فيه؛ لأنَّ الأنفة ربما حملتهم على الأنفة منه، فيجُرُّ إلى ثوران الأحقاد القديمة وعدمِ عفْوِ يوسف عليه السلام.

ولا يخفى أنَّ الجواب عن الأوَّل لا يفيد لِمَا علمت أنَّ مبناه موافقةُ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٤٨.

الظاهر، والاحتمالاتُ المذكورة في الجواب عن الثاني قد ذكرها أيضاً الإمام[1]. وهي كما ترى، وأحسنُها احتمالُ أنَّ الله تعالى قد أمره بذلك لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو.

ومن الناس من ذهب إلى أنَّ ذلك السجودَ لم يكن إلا من الإخوة، فراراً من نسبته إلى يعقوب عليه السلام لمَا علمتَ، وقد رُدَّ بما أشرنا إليه أولاً من أنَّ الرؤيا تستدعي العمومَ، وقد أجاب عن ذلك الإمامُ بأنَّ تعبير الرؤيا لا يجب أن يكونَ مطابقاً للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كلِّ الوجوه، فسجود الكواكب والشمس والقمر يعبَّر بتعظيم الأكابر من الناس له عليه السلام، ولا شكَّ أنَّ ذهابَ يعقوبَ وأولادِه من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له، فكفى هذا القدرُ في صحة الرؤيا، فأما أن يكونَ التعبيرُ كالأصل حذو القذَّة بالقذَّة، فلم يُوجبه أحدٌ من العقلاء[2]. اهـ.

والحقُّ أنَّ السجود بأيِّ معنًى كان وقع من الأبوين والإخوة جميعاً، والقلبُ يميل إلى أنه كان انحناءً كتحية الأعاجم وكثيرٍ من الناس اليومَ، ولا يبعُد أن يكونَ ذلك الخرور، ولا بأس في أن يكونَ من الأبوين وهما على سرير ملكه، ولا يأبى ذلك رؤياه عليه السلام.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل سجودكم هذا، أو: من قبل هذه الحوادث، والظرفُ متعلِّقٌ بـ «رؤياي»، وجوّز تعلُّقُها بـ «تأويل»؛ لأنها أُوِّلت بهذا قبلَ وقوعها. وجوَّز أبو البقاء[3] كونَه متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً من «رؤياي». وصحَّةُ وقوع الغايات حالاً تقدَّم الكلامُ فيها.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صِدقاً، والرؤيا تُوصَف بذلك ولو مجازاً، وأعربه جمعٌ على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل» وهي بمعنى «صيَّر». وجوّز أن يكون حالاً، أي: وضَعها صحيحةً. وأن يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ، أي: جَعْلاً حقّاً. وأن يكونَ مصدراً من غير لفظ الفعل، بل من معناه؛ لأنَّ «جعلها» في معنى: حقَّقها،

---

(١) في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٢.

(٢) التفسير الكبير ١٨/ ٢١٣.

(٣) في الإملاء ٣/ ٣٦١.

و«حقاً» في معنى تحقيق، والجملة على ما قال أبو البقاء حالٌ مقدَّرةٌ أو مقارِنة[١].

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ الأصل كما في «البحر» أن يتعدَّى الإحسانُ بـ «إلى» أو اللام كقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] وقد يتعدَّى بالباء كقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وكقول كثيِّر عزَّة:

أسيئي بنَا أو أحْسِني لا ملُومةً لَدينا ولا مَقْليةً إن تقَلَّتِ[٢]

وحمله بعضُهم على تضمين «أَحْسَنَ» معنى لَطَف، ولا يخفى ما فيه من اللطف، إلا أنَّ بعضَهم أنكر تعديةَ «لطَفَ» بالباء، وزعم أنَّه لا يتعدَّى إلا باللام، فيقال: لَطَفَ اللهُ تعالى له، أي: أوصل إليه مرادَه بلُطفٍ، وهذا ما في «القاموس»[٣] لكنَّ المعروفَ في الاستعمال تعدِّيه بالباء، وبه صرح في «الأساس»[٤] وعليه المعوَّل.

وقيل: الباء بمعنى «إلى».

وقيل: المفعولُ محذوفٌ، أي: أحسَنَ صُنْعَه بي، فالباءُ متعلِّقةٌ بالمفعول المحذوف، وفيه حذفُ المصدر وإبقاءُ معموله، وهو ممنوعٌ عند البصريين.

وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ منصوبٌ بـ «أَحْسَنَ»، أو بالمصدر المحذوفِ عند من يرى جوازَ ذلك، وإذا كانت تعليليةً فالإحسانُ هو الإخراجُ من السجن بعد أن ابتُلِي به وما عطف عليه، وإذا كانت ظرفيةً فهو غيرهما.

ولم يصرِّح عليه السلام بقصة الجُبِّ حذَراً من تثريب إخوته وتناسياً لِمَا جرى منهم؛ لأنَّ الظاهرَ حضورُهم لوقوع الكلام عقيبَ خرورهم سُجَّداً، ولأنَّ الإحسانَ إنَّما تمَّ بعد خروجه من السجن لوصوله للملك وخلوصه من الرقِّ والتهمة، واكتفاءً بما يتضمَّنُه قولُه: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: البادية، وأصلُه[٥]: البسيطُ من الأرض، وإنما سمِّي بذلك لأنَّ ما فيه يبدو للناظر لعدم ما يواريه؛ ثم أُطلِق على البَرِّيَّة مطلقاً.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ديوان كثير عزة ص٨٠، وسلف ١٠/ ٣٧٠.

(٣) مادة (لطف).

(٤) مادة (لطف).

(٥) في هامش الأصل و(م): وأصل البدو مصدر بدا يبدو، ثم سمِّي به. اهـ منه.

وكان منزلهم ـ على ما قيل ـ بأطرافِ الشام ببادية فلسطين، وكانوا أصحاب إبلٍ وغنم.

وقال الزمخشريُّ: كانوا أهلَ عمدٍ وأصحابَ مواشٍ، ينتقلون في المياه والمناجع[١].

وزعم بعضُهم أنَّ يعقوب عليه السلام إنما تحوَّل إلى البادية بعد النبوة لأنَّ الله تعالى لم يبعث نبيّاً من البادية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان يعقوب عليه السلام قد تحوَّل إلى «بدا» وسكَنها، ومنها قَدِم على يوسف، وله بها مسجدٌ تحت جبلها[٢]. قال ابن الأنباري: إنَّ «بدا» اسمُ موضعٍ معروفٍ، يقال: هو بين شعبٍ وبدا، وهما موضعان ذكرهما جميل[٣] بقوله:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَعباً إلى بدا    إليَّ وأوطاني بلادٌ سِوَاهُما[٤]

فالبدْوُ على هذا قَصْدُ هذا الموضع يقال: بدا القومُ بَدْواً: إذا أتوا بدا؛ كما يقال: أغاروا غَوْراً: إذا أتوا الغورَ، فالمعنى: أتى بكم مِن قَصْدِ بدا، فهم حينئذٍ حضريُّون[٥]، كذا قاله الواحدي في «البسيط». وذكره القشيريُّ[٦]، وهو خلافُ الظاهر جِدّاً.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٤٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٨٤، والتفسير الكبير ١٨/ ٢١٥.

(٣) في هامش الأصل و(م): قيل: لكثير عزة. اهـ منه. وقول ابن الأنباري في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٥.

(٤) البيت في ديوان المعاني ١/ ٢٦٠، وتفسير القرطبي ١١/ ٤٦٠، والبحر ٥/ ٣٤٩ لجميل، وهو في ديوانه ص٢٠٠، وقد نسب لكثير عزة، كما في معجم ما استعجم للبكري ١/ ٢٣٠، ومعجم البلدان ٣/ ٣٥١، وتاج العروس (شغب)، وهو في ديوانه ص ٣٢٤. وقوله: شَغْباً. جاء في المصادر بالغين المعجمة، ولكن جاء في بعضها: شَغْباً بالتنوين، وفي البعض الآخر: شَغْبَى بالقصر. والأول هو ما اعتمده البكري، والثاني اعتمده ياقوت.

(٥) في هامش الأصل و(م): وفي الحديث: «من يُرِدِ اللهُ به خيراً يَنقُلْه من البادية إلى الحاضرة». اهـ منه. ولم نقف عليه مسنداً، وذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٣٤٩، والبقاعي في نظم الدرر ١٠/ ٢١٨.

(٦) كما في التفسير الكبير ١٨/ ٢١٥، والبحر ٥/ ٣٤٩.

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أي: أفسد وحرَّش، وأصله من: نَزَغَ الرابضُ الدابَّةَ: إذا نَخَسَها وحَمَلها على الجَرْي، وأسنَدَ ذلك إلى الشيطان مجازاً؛ لأنَّه بوسوسته وإلقائه، وفيه تفادٍ عن تثريبهم أيضاً، وذكره تعظيماً لأمر الإحسان؛ لأنَّ النعمة بعد البلاء أحسنُ موقعاً. واستدلَّ الجبائيُّ والكعبي والقاضي بالآية على بطلان الجبر(١)، وفيه نظر.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي: لطيفُ التدبير له، إذ ما من صعبٍ إلا وتنفُذُ فيه مشيئتُه تعالى ويتسهَّلُ دونها.

كذا قاله غير واحد، وحاصلُه أنَّ اللطيفَ هنا بمعنى العالِم بخفايا الأمور المدبِّر لها والمسهِّل لِصعابها، ولنفوذِ مشيئته سبحانه فإذا أراد شيئاً سهَّل أسبابَه أُطلق عليه جلَّ شأنُه اللطيفُ؛ لأنَّ ما يلطُف يسهُل نفوذُه، وإلى هذا يشير كلام الراغب حيث قال(٢): اللطيف: ضدُّ الكثيف، ويعبَّر باللطف عن الحركة الخفيفة وتعاطي الأمور الدقيقة، فوَصْف الله تعالى به؛ لعلمه بدقائق الأمور ورِفْقه بالعباد.

فاللام متعلِّقةٌ بـ «لطيف»؛ لأنَّ المرادَ: مدبِّرٌ لما يشاء، على ما قاله غير واحد، وقال بعضهم: إنَّ المعنى: لأجل ما يشاء، وهو على الأول متعدٍّ باللام، وعلى الثاني غيرُ متعدٍّ بها، وقد تقدَّم آنفاً ما في مثل ذلك.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ الذي يفعل كلَّ شيء على وجهِ الحكمة لا غيرُه. رُوي أنَّ يوسف طاف بأبيه عليهما السلام في خزائنه، فلمَّا أدخله خزينةَ القرطاس قال: يا بنيَّ، ما أعقَّك! عندك هذه القراطيس وما كتبتَ إليَّ على ثمانِ مراحل؟! قال: أمرني جبريل. قال: أو ما تسأله؟ قال أنتَ أبسطُ منِّي إليه. فسأله، قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣] قال: فهلَّا خِفتَني(٣)؟!

وهذا عذرٌ واضحٌ ليوسف عليه السلام في عدم إعلام أبيه بسلامته. وقد صَّرح

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٢١٥، والقاضي هو عبد الجبار المعتزلي.
(٢) في المفردات (لطف).
(٣) الكشاف ٢/ ٣٤٥، وتفسير أبي السعود ٤/٣٠٧ دون نسبة.

غيرُ واحدٍ بأنَّه عليه السلام أُوحي إليه بإخفاء الأمر على أبيه إلى أن يبلغَ الكتابُ أجلَه، ولكن يبقى السؤالُ بأنَّ يعقوب عليه السلام كان من أكابر الأنبياء نفساً وأباً وجدًّا، وكان مشهوراً في أكناف الأرض، ومن كان كذلك ثم وقعت له واقعةٌ هائلةٌ في أعزِّ أولاده عليه لم تبق تلك الواقعةُ خفيةً، بل لا بدَّ وأن تبلغ في الشهرة إلى حيث يعرفها كلُّ أحدٍ، لا سيما وقد انقضت المدةُ الطويلةُ فيها وهو في ذلك الحزن الذي تُضرَب فيه الأمثال، ويوسف عليه السلام ليس بمكانٍ بعيدٍ عن مكانه، ولا متوطِّناً زوايا الخفاء ولا خاملَ الذكر، بل كان مرجعَ العامِّ والخاصِّ، وداعياً إلى الله تعالى في السرِّ والعلن وأوقات السرور والمحن، فكيف غُمَّ أمرُه ولم يصل إلى أبيه خبرُه؟!

وأجيب عن ذلك بأنَّه ليس إلا من باب خرق العادة.

واختلفوا في مقدار المدَّة بين الرؤيا وظهورِ تأويلها، فقيل: ثماني عشرة سنة. وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»(١) عن الحسن أنَّ المدة ثمانون سنة. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أنها سبعٌ وسبعون(٢) سنة.

وعن حذيفة أنها سبعون سنة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنها خمسٌ وثلاثون سنة(٣).

وأخرج جماعةٌ عن سلمان الفارسيِّ أنَّها أربعون سنة(٤). وهو قول الأكثرين. قال ابن شدَّاد: وإلى ذلك ينتهي تأويلُ الرؤيا. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: بعضاً عظيماً منه، فـ «من» للتبعيض، ويبعد القولُ بزيادتها أو جعلِها لبيان الجنس، والتعظيمُ من مقتضيات المقام، وبعضُهم قدَّر: عظيماً، وفي النظم الجليل على أنه مفعولٌ به، كما نقل أبو البقاء(٥)، وليس بشيء.

---

(١) ص ١٠٧.
(٢) جاء في الأصل و(م): سبع وتسعون، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٥، والدر المنثور ٤/ ٣٨.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٢.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٢، والمستدرك ٤/ ٣٩٦.
(٥) في الإملاء ٣/ ٣٦٢.

والظاهر أنَّه أراد من ذلك البعض مُلكَ مصر، ومن «الملك» ما يعمُّ مصر وغيرَها، ويُفهَم من كلام بعضهم جوازُ أن يرادَ من «الملك» مصرَ ومن البعض شيءٌ منها، وزعم أنه لا ينافي قولَه تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦] لأنه لم يكن مستقِلًّا فيه وإن كان ممكَّناً فيه. وفيه تأمُّلٌ.

وقيل: أراد ملكَ نفسه من إنقاذ شهوته.

وقال عطاء: مُلك حُسَّادِه بالطاعة ونيل الأماني. وليس بذاك.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: بعضاً من ذلك كذلك، والمراد بتأويل الأحاديث إما تعليمُ تعبير الرؤيا وهو الظاهرُ، وإمَّا تفهيمُ غوامض أسرار الكتب الإلهيَّة ودقائق سُنَن الأنبياء، وعلى التقديرين لم يؤتَ عليه السلام جميعَ ذلك، والترتيبُ على غير الظاهر ظاهرٌ، وأما على الظاهر فلعلَّ تقديمَ إيتاء الملك على ذلك في الذكر لأنَّه بمقام تعداد النِّعَم الفائضة عليه من الله سبحانه، والملكُ أعرقُ في كونه نعمةً من التعليم المذكور، وإن كان ذلك أيضاً نعمةٌ جليلةٌ في نفسه، فتذكَّر وتأمَّلْ(١).

وقرأ عبد الله وابن ذرٍّ: «آتيْتَنِ وعَلَّمْتَنِ» بحذف الياء فيهما؛ اكتفاء بالكسرة(٢)، وحَكى ابنُ عطية عن الأخير «آتيتني» بغير «قد»(٣).

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُبدِعهما وخالقهما، ونصبُه على أنه نعت لـ «ربِّ» أو بدلٌ أو بيانٌ، أو منصوب بـ «أعني»، أو منادى ثانٍ، ووصفُه تعالى به بعد وصفِهِ بالربوبية مبالغةٌ في ترتيب مبادي ما يعقبه من قوله:

---

(١) ورد في هامش الأصل و(م): إشارة إلى ما قيل: إنَّه لا يمكن تمشيةُ هذا الاعتذار فيما سبق؛ لأنَّ التعليمَ هناك واردٌ على نهج العلَّة الغائية للتمكين، فإن حُمل على معنى التمليك لزم تأخُّره عنه، وأما الواقع ها هنا فمجرَّد التأخير في الذكر، والعطفُ بالواو لا يستدعي ذلك الترتيب في الوجود، فافهم. اهـ منه.

(٢) المحتسب ١/ ٣٤٩، والبحر ٥/ ٣٤٩. وابن ذرٍّ هو عمر بن ذَرِّ بن عبد الله بن زرارة الهمداني المُرهِبِي، ثقة، روى عن أبيه وسعيد بن جبير، مات سنة (١٥٣هـ). تقريب التهذيب. ووقع في مطبوع البحر: عمرو بن ذرّ.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٣، والبحر ٥/ ٣٤٩.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ متولِّي أموري ومتكفِّلٌ بها، أو مُوالٍ لي وناصرٌ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، فالولي إما من الولاية، أو الموالاة، وجُوِّز أن يكونَ بمعنى المُولي كالمُعطي لفظاً ومعنًى، أي: الذي يُعطيني نِعَمَ الدنيا والآخرة.

﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ من آبائي، على ما روي عن ابن عباس، أو بعامَّة الصالحين في الرتبة والكرامة كما قيل، واعتُرِض بأنَّ يوسف عليه السلام من كبار الأنبياء عليهم السلام، والصلاحُ أوَّلُ درجات المؤمنين، فكيف يليق به أن يطلب اللحاقَ بمن هو في البداية؟ وأجيب بأنه عليه السلام طلبه هضماً لنفسه، فسبيله سبيلُ استغفار الأنبياء عليهم السلام. ولا سؤالَ ولا جوابَ إذا أريد من الصالحين آباؤه الكرام يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

وقال الإمام هاهنا: وها هنا مقامٌ آخَرُ في الآية على لسان أصحاب المكاشَفات، وهو أنَّ النفوسَ المفارقة إذا أشرقَت بالأنوار الإلهية واللوامع القدسية، فإذا كانت متناسبةً متشاكلةً انعكس النورُ الذي في كلِّ واحدٍ منها إلى الأخرى بسبب تلك الملائمَة والمجانَسَة، فعظُمت تلك الأنوارُ وتقوَّت هاتيك الأضواء، ومثال ذلك المرايا الصقيلةُ الصافيةُ إذا وُصِفت وصفاً متى أشرقت الشمسُ عليها انعكس الضوءُ من كلِّ واحد منها إلى الأخرى، فهناك يقوى الضوءُ ويكمل النورُ، وينتهي في الإشراق والبريق إلى حدٍّ لا تطيقه الأبصارُ الضعيفة، فكذلك ها هنا[١]. انتهى، وهو كما ترى.

والحقُّ أن يقال: إنَّ الصلاحَ مقولٌ بالتشكيك متفاوتٌ قوةً وضعفاً، والمقامُ يقتضي أنه عليه السلام أراد بالصالحين المتصفين بالمرتبة المعتَنى بها من مراتب الصلاح، وقد قدَّمْنا ما عند أهل المكاشفات في الصلاح[٢]. فارجع إليه.

بقي أنَّ المفسرين اختلفوا في أنَّ هذا هل هو منه عليه السلام تَمَنٍّ للموت وطلبٌ منه، أم لا؟ فالكثيرُ منهم على أنه طلبٌ وتمنٍّ لذلك، قال الإمام: ولا يبعُد من الرجل العاقل إذا كمُل عقله أن يتمنَّى الموتَ وتعظُم رغبتُه فيه؛ لأنَّه حينئذٍ

---

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٢٢١-٢٢٢.

(٢) ينظر ما سلف ٦/ ١٣١.

يحسُّ بنقصانه مع شغفه بزواله وعِلْمه بأنَّ الكمالَ المطلقَ ليس إلا لله تعالى، فيبقى في قلقٍ لا يُزيله إلا الموتُ، فيتمنَّاه، وأيضاً يرى أنَّ السعادة الدنيويةَ سريعةُ الزوال مشرفةٌ على الفناء، والألمُ الحاصل عند زوالها أشدُّ من اللذَّة الحاصلةِ عند وجدانها، مع أنَّه ليس هناك لذَّةٌ إلّا وهي ممزوجةٌ بما ينغِّصها، بل لو حقَّقتَ لا ترى لذَّةً حقيقيةً في هذه اللذائذ الجسمانية وإنَّما حاصلُها دفعُ الآلام، فلذَّة الأكل عبارةٌ عن دفع ألم الجوع، ولذَّة النكاح عبارةٌ عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولِّدة من حصول المنيِّ في أوعيته، وكذا الإمارة والرياسة يُدفع بها الألم الحاصلُ بسبب شهوة الانتقام ونحو ذلك، والكلُّ لذلك خسيسٌ، وبالموت التخلُّصُ عن الاحتياج إليه.

على أنَّ عمدةَ الملاذِّ الدنيوية الأكلُ والجماعُ والرياسةُ، والكُلُّ في نفسه خسيسٌ معيبٌ، فإنَّ الأكل عبارةٌ عن ترطيب الطعام بالبزاق المجتمع في الفم، ولا شكَّ أنه مستقذَرٌ في نفسه؛ ثم حينما يصل إلى المعدة يظهر فيه الاستحالةُ والتعفُّنُ، ومع ذا يشارك الإنسانُ فيه الحيواناتِ الخسيسةَ، فيلتذُّ الجُعلُ بالروث التذاذَ الإنسان باللَّوزِينَج[1]، وقد قال العقلاء: من كان هِمَّته ما يدخُل في بطنه فقيمتُه ما يخرج من بطنه.

والجماع نهايةُ ما يقال فيه: إنه إخراجُ فضلةٍ متولِّدةٍ من الطعام بمعونة جلدةٍ مدبوغةٍ بالبول ودم الحيضِ والنفاسِ مع حركات لو رأيتَها من غيرك لأضحكَتْك، وفيه أيضاً تلك المشاركةُ، وغايةُ ما يُرجَى من ذلك تحصيلُ الولد الذي يجرُّ إلى شغل البال والتحيُّلِ لجمع المال ونحوِ ذلك.

والرياسةُ إذا لم يكن فيها سوى أنَّها على شَرَفِ الزوال في كلِّ آنٍ لكثرةِ مَن ينازعُ فيها ويطمحُ نظرُه إليها، فصاحبُها لم يزل خائفاً وَجِلاً من ذلك = لكفاها عيباً.

وقد يقال أيضاً: إنَّ النفسَ خُلقت مجبولةً على طلب اللذَّات والعشقِ الشديدِ لها والرغبة التامَّةِ في الوصول إليها، فما دام في هذه الحياة الجسمانية يكون طالباً لها،

(١) اللَّوزِينَج: من الحلواء شبه القطائف، يُؤدم بدهن اللوز. تعريب «لوزينة». معجم الألفاظ الفارسية المعرَّبة: باب اللام.

وما دام كذلك فهو في عين الآفات ولُجَّة الحسرات، وهذا اللازمُ مكروهٌ والملزوم مثلُه؛ فلهذا يتمنَّى العاقلُ زوالَ هذه الحياة الجسمانية ليستريح من ذلك النصَبِ[١].

ولله تعالى قولُ مَن قال:

ضَجعةُ الموت رَقْدةٌ يَستريح الـ ... ـجِسْمُ فيها والعيشُ مثلُ السُّهادِ

وقال:

تعَبٌ كُلُّها الحياةُ فما أعْـ ... ـجَبُ إلَّا مِن راغب في ازدِيَادِ

إنَّ حُزناً في ساعة الفَوتِ أضعا ... فُ سرُورٍ في ساعةِ الميْلَادِ[٢]

وقد ذكر غيرُ واحدٍ أنَّ تمنِّي الموت حبًّا للقاء الله تعالى مما لا بأس به، وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: «من أحبَّ لقاء الله تعالى أحبَّ الله تعالى لقاءه»[٣] الحديث. نعم تمنِّي الموت عند نزول البلاء منهيٌّ عنه، ففي الخبر: «لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لضرٍّ نزل به»[٤].

وقال قوم: إنَّه عليه السلام لم يتمنَّ الموتَ، وإنَّما عدَّد نِعَمَ الله تعالى عليه، ثم دعا بأنَّ تدومَ تلك النِّعَمُ في باقي عمره، حتى إذا حان أجلُه قبضه على الإسلام وألحقه بالصالحين.

والحاصل أنَّه عليه السلام إنَّما طلب الموافاةَ على الإسلام لا الوفاةَ.

ولا يَرِدُ على القولين أنَّه من المعلوم أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يموتون إلا مسلمين، إمَّا لأنَّ الإسلام هنا بمعنى الاستسلام لكلِّ ما قضاه الله تعالى، أو لأنَّ ذلك بيانٌ؛ لأنَّه وإن لم يتخلَّف ليس إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته[٥]، والذاهبون إلى الأول قالوا: إنَّه عليه السلام لم يأتِ عليه أسبوعٌ حتى توفَّاه الله تعالى. وكان

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٢١٩-٢٢٠.

(٢) الأبيات لأبي العلاء المعرِّي، وهي في شروح سقط الزند ٣/ ٩٧٧-٩٧٩.

(٣) صحيح البخاري (٦٥٠٧)، وصحيح مسلم (٢٦٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠) عن أنس رضي الله عنه، وقد سلف ٢/ ٣٢٢.

(٥) ورد في هامش الأصل و(م): والآية دليل لأهل السنة في أن الإيمان من الله تعالى، كما قرَّره الإمام، فليراجع. اهـ منه. وكلام الإمام الرازي في تفسيره ١٨/ ٢٢١.

الحسن يذهب إلى القول الثاني ويقول: إنَّه عليه السلام عاش بعد هذا القول سنين كثيرة[١].

وروى المؤرِّخون أنَّ يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، ثم تُوفِّي وأوصى أن يُدفَن بالشام إلى جنب أبيه، فذَهَب به ودَفَنه ثمَّة، وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة. وقيل: أكثر، ثم تاقت نفسُه إلى الملك المخلَّد فتمنَّى الموتَ، فتوفَّاه الله تعالى طيِّباً طاهراً، فتخاصم أهلُ مصر في مدفنه حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمرُّ عليه الماءُ ثم يصل إلى مصر ليكونوا شَرَعاً فيه[٢]، ففعلوا. ثم أراد موسى عليه السلام نقلَه إلى مدفن آبائه، فأخرجه بعد أربع مئة سنة ـ على ما قيل ـ من صندوق المرمر لثقله، وجعله في تابوت من خشب ونقله إلى ذلك.

وكان عمره مئةً وعشرين سنة. وقيل: مائة وسبع سنين.

وقد وُلد له من امرأة العزيز: إفرائيم وهو جدُّ يوشع عليه السلام، وميشا، ورحمة زوجةُ أيوب عليه السلام.

ولقد توارثت الفراعنةُ من العمالقة بعدَه مصرَ ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دِين يوسف وآبائه عليهم السلام إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام فكان ما كان.

وفي «التوراة» أنَّ يوسفَ عليه السلام أسكن أباه وإخوتَه في مكانٍ يقال له: عين شمس[٣]، من أرض السدير، وبقي هناك سبع عشرة سنةً، وكان عمره حين دخل مصر مئةً وثلاثين سنةً، ولمَّا قرب أجلُه دعا يوسفَ عليه السلام، فجاء ومعه ولداه منشا[٤] وهو بِكْره وأفرايم، فقدَّمهما إليه، ودعا لهما ووضع يدَه اليمنى على رأس الأصغر واليسرى على رأس الأكبر، وكان يوسف يحبُّ عكسَ ذلك، فكلَّم أباه

---

(١) في تفسير الطبري ١٣/ ٣٦٠ عن الحسن أنَّه عليه السلام عاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة.

(٢) بفتحات، بمعنى: سواء، كقوله: مجدي أخيراً ومجدي أولاً شَرَع. حاشية الشهاب ٥/ ٢٠٩.

(٣) جاء في التوراة روايتان في ذلك، الأولى: أنه أسكنهم في جاسان، والثانية: رَعَمْسيس. ينظر العهد القديم، سفر التكوين ص ١٤١-١٤٢.

(٤) ورد في هامش (م): بالنون في التوراة، وأفرايم بالياء بعد الألف، والمضبوط عندنا غير ذلك، والأمر سهل. اهـ منه. وفي العهد القديم سفر التكوين ص ١٤٣: مَنَسَّى وأفرائيم.

فيه، فقال: يا بنيَّ إنِّي لأعلم أنَّ ما يتناسل من هذا الأصغر أكثرُ مما يتناسَلُ من هذا الأكبر. ودعا ليوسف وبارك عليه وقال: يا بنيَّ إنِّي ميِّتٌ، كان الله تعالى معكم وردَّكم إلى بلد أبيكم، يا بنيَّ إذا أنا متُّ فلا تدفنِّي في مصر، وادفِنِّي في مقبرة آبائي. فقال: نعم يا أبتِ، وحلف له، ثم دعا سائر بنيه وأخبَرَهم بما ينالهم في أيامهم، ثم أوصاهم بالدفن عند آبائه في الأرض التي اشتراها إبراهيمُ عليه السلام من عفرونَ الخِتِّي[1] في أرض الشام وجَعَلَها مقبرةً. وبعد أن فرغَ من وصيته عليه السلام توفِّي، فانكبَّ يوسف عليه السلام عليه يقبِّلُه ويبكي، وأقام له حزناً عظيماً، وحزن عليه أهلُ مصر كثيراً، ثم ذهب به يوسفُ وإخوتُه وسائرُ آله سوى الأطفال، ومعهم قوَّادُ الملكِ ومشايخُ أهل مصر، ودفنوه في المكان الذي أراد، ثم رجعوا.

وقد توهَّم إخوةُ يوسف منه عليه السلام أن يسيءَ المعاملةَ معهم بعد موت أبيهم عليه السلام، فلمَّا علم ذلك منهم قال لهم: لا تخافوا، إني أخاف الله تعالى. ثم عزَّاهم وجبر قلوبَهم، ثم أقام هو وآل أبيه بمصر وعاش مئةً وعشر سنين حتى رأى لأفرايم ثلاثةَ بنين، وولد بنو ماخير[2] بن منشا في حجره أيضا، ثم لمَّا أحسَّ بقُرب أجله قال لإخوته: إني ميِّتٌ، والله سبحانه سيذكركم ويردُّكم إلى البلد الذي أقسم أن يملكه إبراهيمُ وإسحاق ويعقوب، فإذا ذكركم سبحانه وردَّكم إلى ذلك البلد فاحملوا عظامي معكم. ثم توفِّي عليه السلام فحنَّطوه وصيَّروه في تابوت بمصر[3]، وبقي إلى زمن موسى عليه السلام، فلمَّا خرج، حَمَلَه حسبما أوصى عليه السلام[4].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من أنباء يوسف عليه السلام، وما فيه من معنى البعد

---

(١) في العهد القديم سفر التكوين ص ١٤٧: الحِثِّي. بالحاء المهملة والثاء المثلثة.
(٢) في العهد القديم: ماكير بن مَنَسَّى.
(٣) سفر التكوين ص ١٤٨.
(٤) ورد في هامش الأصل و(م): وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز أنه عليه السلام لم يعرِفْ موضعَه ولم يجد أحداً يخبره إلا امرأةً يقال لها: تارخ بنت شير بن يعقوب. فاشترطت عليه أن تصير شابَّةً كلَّما كبرت، وأن تكون منه عليه السلام في درجته يوم القيامة، ففعل بعد أن امتنع من الطلبة الثانية حتى أمر بإمضائها، فدلَّته، فأخرجه، فعادت بنتَ ثلاثين وعمرت ألفاً وستَّ مئة أو أربع مئة سنة حتى أدركت سليمان عليه السلام فتزوَّجها. اهـ منه. والخبر في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٥، واسم المرأة فيه: شارح.

لما مرَّ مراراً، والخطابُ للرسول ﷺ وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي لا يحوم حولَه أحدٌ = خبرُه، وقولُه سبحانه: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ، أو حالٌ من الضمير في الخبر، وجوّز أن يكونَ «ذلك» اسماً موصولاً مبتدأً، و«من أنباءِ الغَيْبِ» صلتُه، و«نُوحِيه إليك» خبرُه، وهو مبنيٌّ على مذهبٍ مرجوحٍ مِن جَعْلِ سائر أسماء الإشارة موصولاتٍ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ يريد إخوةَ يوسف عليه السلام ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ وهو جعلُهم إيَّاه في غَيَابة الجُبِّ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ به ويبغون له الغوائلَ، والجملة - قيل - كالدليل على كونِ ذلك من أنباء الغيب ومُوحًى إليه عليه الصلاة والسلام، والمعنى: إنَّ هذا النبأ غيبٌ لم تعرفه إلا بالوحي لأنَّك لم تحضُر إخوةَ يوسف عليه السلام حين عزموا على ما همُّوا به من أن يجعلوه في غيابة الجُبِّ وهم يمكرون به، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مُكذِّبيك أنَّك ما لقيتَ أحداً سمع ذلك فتعلَّمتَه منه.

وهذا من المذهب الكلاميِّ على ما نصَّ عليه غيرُ واحد، وإنما حُذف الشقُّ الأخير مع أنَّ الدالَّ على ما ذكر مجموعُ الأمرين لعلمِه من آيةٍ أخرى كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾ [هود: ٤٩].

وقال بعض المحقِّقين: إن هذا تهكُّمٌ بمن كذَّبه، وذلك من حيث إنَّه تعالى جَعَل المشكوكَ فيه كونَه عليه السلام حاضراً بين يدَي أولادِ يعقوبَ عليه السلام ماكرين، فنفاه بقوله: «وما كنت لديهم»، وإنَّما الذي يمكن أن يرتابَ فيه المرتابُ قبلَ التعرُّفِ هو تلقِّيه من أصحاب هذه القصة، وكان ظاهرُ الكلام أن ينفي ذلك، فلمَّا جُعل المشكوكُ ما لا ريب فيه؛ لأنَّ كونه عليه الصلاة والسلام لم يلقَ أحداً ولا سمع كان عندهم كفَلَق الفجر، جاء التهكُّم البالغُ، وصار حاصلُ المعنى: قد علمتم يا مُكابِرة، أنَّه لم يكن مُشاهِداً لمن مضى من القرون الخالية، وإنكارُكم لِمَا أخبر به يُفضي إلى أن تُكابِروا بأنَّه شاهَدَ مَن مضى منهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومنه يظهر فائدةُ العدول عن أسلوب: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩] إلى هذا الأسلوب، وهو أبلغُ مما ذُكر أولاً، وذُكِر لترك ذلك نكتةٌ أخرى أيضاً وهي

أنَّ المذكورَ مكرُهم وما دبَّروه وهو مما أخفَوه حتى لا يعلمه غيرُهم، فلا يمكن تعلُّمه من الغير، ولا يخلو عن حُسن.

وأيًّاما كان ففي الآية إيذانٌ بأنَّ ما ذكر من النبأ هو الحقُّ المطابِقُ للواقع، وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ الظاهرُ العموم، وقال ابن عباس: إنَّهم أهلُ مكة. ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ أي: على إيمانهم وبالغتَ في إظهار الآيات القاطعة الدالَّة على صدقك عليهم ﴿بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارِهم على العناد حسبما اقتضاه استعدادُهم، و«حَرَص» من باب ضَرَب وعَلِم، وكلاهما لغةٌ فصيحةٌ، وجوابُ «لو» محذوفٌ؛ للعلم به، والجملةُ معترضةٌ بين المبتدأ والخبر.

قال ابن الأنباري[1]: سألت قريشٌ واليهودُ رسولَ الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام، فنزلت مشروحةً شرحاً وافياً، فأمل عليه الصلاة والسلام أن يكون ذلك سببَ إسلامهم.

وقيل: إنَّهم وعدوه أن يُسلِموا، فلمَّا لم يفعلوا عزَّاه الله تعالى بذلك.

وقيل: إنَّها نزلت في المنافقين، وقيل: في النصارى، وقيل: في المشركين فقط. وقيل: في أهل الكتاب فقط. وقيل: في الثَّنَوية.

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: هذا الإنباء، أو جنسه، أو القرآن، وأيًّاما كان فالضمير عائدٌ على ما يُفهَم مما قبله[2]، والمعنى: ما تطلب منهم على تبليغه ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي: جُعلٍ ما، كما يفعله حَمَلَةُ الأخبار.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أي: ما هو إلا تذكيرٌ وعظةٌ من الله تعالى ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ كافَّةً، والجملةُ كالتعليل لما قبلها[3]؛ لأنَّ الوعظ العامَّ ينافي أخذ الأجرة من البعض؛ لأنَّه لا يختصُّ بهم.

---

(١) كما في زاد المسير ٤/ ٢٩٣. والبحر ٥/ ٣٥١.

(٢) في هامش (م): وقيل: الضمير لدين الله تعالى. اهـ منه.

(٣) في هامش الأصل و(م): ومَن تأمَّل ظهر له أنَّ كونه عظةً للعالمين عامَّة، فيه ما ينافي أن يسأل الأجر من غير وجه، فما ألطَفَ التعليل بذلك، فتأمَّل. اهـ منه.

وقيل: أريد: إنَّه ليس إلا عظةً من الله سبحانه أُمِرتُ أن أبلِّغَها فوجب عليَّ ذلك، فكيف أسأل أجراً على أداء الواجب. وهو خلافُ الظاهر، وعليه تكونُ الآية دليلاً على حرمة أخذ الأجرة على أداء الواجبات.

وقرأ مبشر بن عبيد: «وما نسألهم» بالنون[(١)].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: وكم من آيةٍ، قال الجلال السيوطيُّ[(٢)]: إنَّ «كأيٍّ» اسمٌ كـ «كم» التكثيرية الخبرية في المعنى، مركَّبٌ من كاف التشبيه و«أيٍّ» الاستفهامية المنوَّنة وحُكِيَت، ولهذا جاز الوقفُ عليها بالنون؛ لأنَّ التنوينَ لما دخل في التركيب أشبه النونَ الأصليةَ، ولذا رُسم في المصحف نوناً، ومَن وقف عليها بحذفه اعتبر حكمَه في الأصل.

وقيل: الكاف فيها هي الزائدة، قال ابن عصفور: ألا ترى أنك لا تريد بها معنى التشبيه، وهي مع ذا لازمةٌ وغيرُ متعلِّقةٍ بشيء، و«أيٍّ» مجرورها.

وقيل: هي اسمٌ بسيطٌ، واختاره أبو حيان، قال: ويدلُّ على ذلك تلاعُبُ العرب بها في اللغات[(٣)].

وإفادتها للاستفهام نادرٌ حتى أنكره الجمهور، ومنه قولُ أبيٍّ لابن مسعود: كأيِّن تقرأ سورةَ الأحزاب آية؟ فقال: ثلاثاً وسبعين. والغالب وقوعُها خبريَّةً، ويلزمها الصدرُ فلا تجرُّ خلافاً لابن قتيبة وابن عصفور. ولا يحتاج إلى سماع، والقياس على «كم» يقتضي أن يضافَ إليها ولا يحفظ، ولا يُخبَر عنها إلا بجملةٍ فعليةٍ مصدَّرة بماضٍ أو مضارعٍ كما هنا، قال أبو حيان: والقياسُ أن تكونَ في موضع نصبٍ على المصدر أو الظَّرف أو خبر «كان»، كما كان ذلك في «كم»، وفي «البسيط» أنَّها تكون مبتدأً وخبراً ومفعولاً.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥، والبحر ٥/ ٣٥١، وتحرَّف «مبشر» فيه إلى: بشر. وهو مبشر بن عبيد أبو حفص القرشي، روى عن زيد بن أسلم وعطية العوفي وقتادة. قال أحمد: شغله القرآن عن الحديث، أحاديثه بواطيل. تهذيب الكمال ٢٧/ ١٩٤.

(٢) في همع الهوامع ٢/ ٦٠٤.

(٣) البحر ٥/ ٣٥١، ونقله المصنف عنه ـ وكذا ما سيأتي من أقوال ـ بواسطة السيوطي في همع الهوامع.

ويقال فيها: كَائِنْ، بالمدِّ بوزن اسم الفاعل من «كان» ساكنة النون، وبذلك قرأ ابنُ كثير[١]، و«كَإٍ» بالقصر بوزن «عَمٍ»، و«كَأْيٍ» بوزن رَمْيٍ، وبه قرأ ابن محيصن[٢]، و«كَيْءٍ» بتقديم الياء على الهمزة[٣].

وذكر صاحب اللوامح أنَّ الحسن قرأ: «وكَيٍ» بياء مكسورةٍ من غير همز ولا ألفٍ ولا تشديد[٤].

و«آيةٍ» في موضع التمييز، و«من» زائدة، وجرُّ تمييزِ «كأين» بها دائميٌّ أو أكثريٌّ. وقيل: هي مبينةٌ للتميز المقدَّر.

والمراد من الآية الدليلُ الدالُّ على وجودِ الصانع ووحدتِه وكمال علمه وقدرته، وهي وإن كانت مفردةً لفظاً لكنَّها في معنى الجمع، أي: آياتٍ؛ لمكان «كأين»، والمعنى: وكأيٍّ عددٍ شئتَ من الآيات الدالَّة على صدق ما جئتَ به غيرَ هذه الآية.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٍ فيهما من الأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغيُّرِ أحوالها، ومن الجبال والبحار وسائر ما في الأرض من العجائب الفائتة للحصر:

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تدُلُّ على أنَّه واحدُ[٥]

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ غيرُ متفكِّرين فيها ولا معتبرين بها، وفي هذا من تأكيد تعزِّيه ﷺ وذمِّ القوم ما فيه. والظاهرُ أنَّ «في السمواتِ والأرض» في موضع الصفة لـ «آية»، وجملةُ «يَمرُّونَ» خبرُ «كأين» كما أشرنا إليه سابقاً، وجُوِّز العكس.

وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد: «والأرضُ» بالرفع[٦]، على أنَّ «في السَّماوَاتِ»

(١) التيسير ص٩٠، والنشر ٢/٢٤٢، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.
(٢) البحر ٣/٧٢.
(٣) همع الهوامع ٢/٦٠٤-٦٠٥.
(٤) البحر ٥/٣٥١.
(٥) سلف ١/٢٧١.
(٦) المحتسب ١/٣٤٩، والبحر ٥/٣٥١.

هو الخبرُ لـ «كأيِّنْ»، و«الأرضُ» مبتدأ، خبرُه الجملةُ بعده، ويكون ضميرُ «عليها» للأرض لا للآيات كما في القراءة المشهورة.

وقرأ السديُّ «والأرضَ» بالنصب[١]، على أنه مفعولٌ بفعل محذوفٍ يفسِّره «يمرون»، وهو من الاشتغال المفسَّر بما يوافقه في المعنى، وضميرُ «عليها» كما هو فيما قبلُ، أي: ويَطَؤُون الأرضَ يمرُّون عليها، وجُوِّز أن يقدَّر: يَطَؤون، ناصباً للأرض، وجملةُ «يمرُّون» حالٌ منها أو من ضميرِ عاملها.

وقرأ عبد الله: «والأرضُ» بالرفع، و«يمشون» بدلَ «يمرُّون»[٢].

والمعنى على القراءات الثلاث: إنَّهم يجيئون ويذهبون في الأرض ويرون آثارَ الأمَم الهالكة وما فيها من الآيات والعبر ولا يتفكَّرون في ذلك.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم[٣] بوجوده تعالى وخالقيته ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ به سبحانه، والجملةُ في موضع الحال من الأكثر، أي: ما يؤمن أكثرُهم إلا في حالِ إشراكهم.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هم أهلُ مكة، آمنوا وأشركوا، كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تَملِكُه وما ملك[٤]. ومن هنا كان ﷺ إذا سمع أحدَهم يقول: لبيك لا شريك لك. يقول له: «قط قط»[٥]، أي: يكفيك ذلك، ولا تَزِدْ: إلا شريكاً.. إلخ.

وقيل: هم أولئك آمنوا لمَّا غَشِيهم الدخانُ في سني القحط وعادوا إلى الشرك بعد كشفه.

وعن ابن زيد وعكرمة وقتادة ومجاهد أيضاً أنَّ هؤلاء كفارُ العرب مطلقاً أقرُّوا

(١) المحتسب ١/ ٣٤٩، والكشاف ٢/ ٣٤٦، والبحر ٥/ ٣٥١.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٦، والبحر ٥/ ٣٥١، وينظر المحتسب ١/ ٣٥٠.
(٣) ورد في هامش الأصل و(م): إشارةٌ إلى أنَّه إيمانٌ لسانيٌّ، إذْ لا اعتقادَ به مع الشرك. اهـ منه.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٢، والبحر ٥/ ٣٥١.
(٥) المصادر السابقة، ولم نقف عليه مسنداً.

بالخالق الرازق المميت وأشركوا بعبادة الأوثان والأصنام[١]. وقيل: أشركوا بقولهم: الملائكة بنات الله سبحانه.

وعن ابن عباس أيضاً أنَّهم أهلُ الكتاب، أقرُّوا بالله تعالى وأشركوا به من حيث كفروا بنبيِّه ﷺ، أو من حيث عبدوا عزيراً والمسيحَ عليهما السلام. وقيل: أشركوا بالتبنِّي واتخاذِهم أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً.

وقيل: هم الكفار الذين يُخلِصون في الدعاء عند الشدَّة ويشركون إذا نجوا منها، وروي ذلك عن عطاء.

وقيل: هم الثنوية، قالوا بالنور والظلمة.

وقيل: هم المنافقون، جهروا بالإيمان وأخفوا الكفر. ونُسب ذلك للبلخي.

وعن الحبر أنهم المُشبِّهة، آمنوا مجمَلاً وكفروا مفصَّلاً.

وعن الحسن أنهم المراؤون بأعمالهم، والرياء شركٌ خفيٌّ.

وقيل: هم الناظرون[٢] إلى الأسباب المعتمدون عليها.

وقيل: هم الذين يُطيعون الخلقَ بمعصية الخالق.

وقد يقال نظراً إلى مفهوم الآية: إنَّهم مَن يندرج فيهم كلُّ مَن أقرَّ بالله تعالى وخالقيته مثلاً وكان مرتكباً ما يُعَدُّ شركاً كيفما كان، ومن أولئك عَبَدَةُ القبور الناذرون لها المعتقدون للنفع والضرِّ ممن الله تعالى أعلم بحاله فيها، وهم اليوم أكثر من الدود.

واحتجت الكرَّاميَّة بالآية على أنَّ الإيمان مجرَّدُ الإقرار باللسان. وفيه نظر.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة تغشاهم وتشملهم، والاستفهام إنكارٌ فيه معنى التوبيخ والتهديد كما في «البحر»[٣]، والكلامُ في العطف

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥. وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٣-٣٧٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٧.

(٢) في (م): المناظرون.

(٣) ٥/ ٣٥١.

ومحلُّ الاستفهام في الحقيقة مشهورٌ، وقد مرَّ غيرَ مرَّة، والمراد بهذه العقوبة ما يعمُّ الدنيويةَ والأخرويةَ على ما قيل. وفي «البحر»[1] ما هو صريحٌ في الدنيوية؛ للمقابلة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأةً من غير سابقةِ علامةٍ، وهو الظاهرُ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ بإتيانها غير مستعدِّين لها.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي: هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، كذا قالوا، والظاهرُ أنَّهم أخذوا الدعوةَ إلى الإيمان من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] لإفادة أنَّه يدعوهم إلى الإيمان بجدٍّ وحرصٍ وإن لم ينفع فيهم، والدعوةَ إلى التوحيد من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ [يوسف: ١٠٦] لدلالته على أنَّ كونَه ذكراً لهم لاشتماله على التوحيد؛ لكنَّهم لا يرفعون له رأساً كسائر آيات الآفاق والأنفس الدالَّة على توحُّدِه تعالى ذاتاً وصفاتٍ، وفسَّر ذلك بقوله تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أدعو الناسَ إلى معرفته سبحانه بصفاتِ كماله ونعوتِ جلاله، ومن جملتها التوحيدُ، فالجملةُ لا محلَّ لها من الإعراب.

وقيل: إنَّ الجملةَ في موضع الحال من الياء، والعاملُ فيها معنى الإشارة. وتعقِّب بأنَّ الحالَ في مثله من المضاف إليه مخالِفةٌ للقواعد ظاهراً، وليس ذلك مثلُ: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]. واعترِض أيضاً بأنَّ فيه تقييدَ الشيء بنفسه. وليس ذاك.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: بيانٍ وحجَّةٍ واضحةٍ غير عمياء، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال من ضمير «أدعو». وزعم أبو حيان[2] أنَّ الظاهرَ تعلُّقَه بـ «أدعو»، وقولُه تعالى: ﴿أَنَا۠﴾ تأكيدٌ لذلك الضمير أو للضمير الذي في الحال.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطفٌ على ذي الحال، ونسبةُ «أدعو» إليه من باب التغليب كما قُرِّر في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ومنهم من قدَّر في مثله فعلاً عاملاً في المعطوف، ولم يعوِّل عليه المحقِّقون.

---

(١) ٥/ ٣٥١-٣٥٢.

(٢) في البحر ٥/ ٣٥٣.

ومُنِع عطفُه على «أنا» لكونه تأكيداً، ولا يصحُّ في المعطوف كونُه تأكيداً كما في المعطوف عليه. واعتُرِض بأنَّ ذلك غيرُ لازمٍ كما يقتضيه كلام المحقِّقين.

وجوِّز كونُ «من» مبتدأً، خبرُه محذوفٌ، أي: ومَن اتبعني كذلك، أي: داعٍ. وأن يكونَ «على بصيرة» خبراً مقدَّماً، و«أنا» مبتدأً، و«من» عطف عليه.

وقولُه تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأُنزِّهه سبحانه وتعالى تنزيهاً من الشركاء، وهو داخلٌ تحتَ القول، وكذا: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ في وقتٍ من الأوقات، والكلامُ مؤكِّدٌ لما سبق من الدعوة إلى الله تعالى.

وقرأ عبد الله: «قل هذا سبيلي» على التذكير[١]، والسبيل تؤنَّث وقد تذكَّر.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] نفيٌ له، وقيل: المرادُ نفيُ استنباء النساء، ونسب ذلك إلى ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

وزعم بعضُهم أنَّ الآيةَ نزلت في سَجَاح بنت المنذر المتنبِّئة[٣] التي يقول فيها الشاعر:

أمست نبيَّتُنا أنثى نَطوفُ بها ولم تزل أنبياءُ الله ذُكرانا
فلعنةُ اللهِ والأقوامِ كُلِّهم على سَجَاح ومَن بالأفكِ أَغْرَانا
أَعْنِي مُسَيْلِمةَ الكذَّابِ لا سُقِيَت أصداؤه ماءَ مُزنٍ أينما كانا[٤]

وهو مما لا صحَّةَ له؛ لأنَّ ادعاءَها النبوةَ كان بعد النبيِّ ﷺ، وكونه إخباراً بالغيب لا قرينةَ عليه.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥، والبحر ٥/ ٣٥٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٦، والبحر ٥/ ٣٥٣.
(٣) ورد في هامش الأصل و(م): وهي تميميةٌ ادَّعت النبوَّةَ، ثم أسلمت وحَسُن إسلامها، وقصتها معروفة في التواريخ. اهـ منه. وينظر تاريخ الطبري ٣/ ٢٦٧.
(٤) الأبيات في الأوائل للعسكري ٢/ ١٧٥-١٧٦ لعطارد بن حاجب بن زرارة، وفي ثمار القلوب ص٣١٥، وغرر الخصائص ص٢٢٢ لقيس بن عاصم، وهي في البحر ٥/ ٣٥٣ غير منسوبة، وفيه وفي الأوائل وثمار القلوب: نُطِيفُ، بدل: نطوف، وفي الغرر: يطاف.

﴿نُّوحِىٓ إِلَيۡهِم﴾ كما أوحينا إليك.

وقرأ أكثرُ السبعة: «يُوحَى» بالياء وفتح الحاء مبنيّاً للمفعول[١]، وقراءةُ النون ـ وهي قراءةُ حفص وطلحة وأبي عبد الرحمن[٢] ـ موافقةٌ لـ «أرسلنا».

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ لأنَّ أهلَها ـ كما قال ابن زيد وغيره، وهو مما لا شبهة فيه ـ أعلمُ وأحلمُ من أهل البادية، ولذا يقال لأهل البادية: أهلُ الجفاء، وذكروا أنَّ التبدِّي مكروه إلا في الفتن، وفي الحديث: «مَن بَدَا جَفَا»[٣].

قال قتادة: ما نعلم أنَّ الله تعالى أرسل رسولاً قطُّ إلا من أهل القرى. ونُقِل عن الحسن أنه قال: لم يُبعَث رسولٌ من أهل البادية ولا من النساء ولا من الجنِّ. وقولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ [يوسف: ١٠٠] قد مرَّ الكلامُ فيه آنفاً.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ من المكذِّبين بالرسُل والآيات من قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح وسائرِ مَن عذَّبه الله تعالى فيَحْذَروا تكذيبَك. ورُوي هذا عن الحسن[٤].

وجوَّز أن يكون المراد: عاقبةُ الذين من قبلهم من المشغوفين بالدنيا المتهالِكين عليها، فيقلعُوا ويكُفُّوا عن حُبِّها. وكأنه لاحَظَ المجوِّزُ مَا سيُذكَر.

والاستفهام على ما في «البحر»[٥] للتقريع والتوبيخ.

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف عند الكوفية، أي: وللدَّارُ الآخرة. وقدَّر البصريُّ موصوفاً، أي: ولدارُ الحالِ أو الساعةِ أو الحياةِ الآخرة. وهو المختارُ عند الكثير في مثل ذلك.

---

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٩٦.
(٢) المصدران السابقان، والبحر ٥/ ٣٥٣.
(٣) أخرجه أحمد (٨٨٣٦)، والبزار (١٦١٨ - كشف الأستار)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٠١ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، وفي سنده اضطراب، وأخرجه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦) عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ «من سكن البادية جفا». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢١٠.
(٥) ٥/ ٣٥٣.

﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ الشركَ والمعاصي، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ فتستعملوا عقولَكم لتعرفوا خيريةَ دارِ الآخرة فتتوسَّلوا إليها بالاتقاء.

قيل: إن هذا من مقول: «قُلْ»[١]، أي: قُلْ لهم مخاطِباً: «أفلا تعقلون». فالخطابُ على ظاهره، وقولُه سبحانه: (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ) إلى (مِن قَبْلِهِمْ) أو (ٱتَّقَوْاْ) اعتراضٌ بين مقول القول. واستظهر بعضُهم كونَ هذا التفاتاً.

وقرأ جماعةٌ: «يَعقِلُون» بالياء[٢]، رَعْياً لقوله سبحانه: (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غايةٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه السياقُ[٣]، والتقديرُ عند بعضهم: لا يغرَّنَّهم تماديهم فيما هم فيه من الدَّعَة والرخاء، فإنَّ مَن قبلهم قد أُمهِلوا حتى يئس الرسُلُ من النصر عليهم في الدنيا، أو من إيمانهم لانهماكِهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازعٍ.

وقال أبو الفرج ابن الجوزي[٤]: التقدير: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فدَعَوا قومَهم فكذَّبوهم، وصبروا، وطال دعاؤهم وتكذيبُ قومهم، حتى إذا استيأس.. إلخ.

وقال القرطبيُّ[٥]: التقدير: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، ثم لم نُعاقِب أممهم حتى إذا استيأس... إلخ.

وقال الزمخشريُّ[٦]: التقدير: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فتراخى النصر حتى إذا... إلخ.

ولعلَّ الأولَ أولى وإن كان فيه كثرةُ حذفٍ، والاستفعال بمعنى المجرَّد كما أشرنا إليه، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك.

---

(١) أي: في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(٢) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي من السبعة كما في التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٥٧، وقرأ بها خلف من العشرة.

(٣) في (م): السباق.

(٤) في زاد المسير ٤/ ٢٩٦.

(٥) في تفسيره ١١/ ٤٧١.

(٦) في الكشاف ٢/ ٣٤٧.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف والبناءِ للمفعول، وهي قراءةُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وأبيٍّ وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطلحة والأعمش والكوفيين[١]، واختُلِف في توجيه الآية على ذلك فقيل: الضمائرُ الثلاثة للرسل، والظنُّ بمعنى التوهُّم لا بمعناه الأصليِّ ولا بمعناه المجازيِّ، أعني: اليقينَ، وفاعلُ «كُذبوا» المقدَّر إما أنفسُهم أو رجاؤُهم، فإنَّه يُوصَف بالصدق والكَذِب، أي: كَذَبَتْهم أنفسُهم حين حدَّثتهم بأنهم يُنصَرون، أو كذَبهم رجاؤُهم النصرَ، والمعنى أنَّ مدَّةَ التكذيبِ والعداوةِ من الكفار وانتظارِ النصر من الله تعالى قد تطاوَلت وتمادَّت حتى استشعروا القنوطَ وتوهَّموا أن لا نصرَ لهم في الدنيا ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فجأةً.

وقيل: الضمائرُ كلُّها للرسل، والظنُّ بمعناه، وفاعلُ «كُذِبوا» المقدَّرُ مَن أخبرهم عن الله تعالى، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد أخرج الطبرانيُّ وغيرُه عن عبد الله بن أبي مُلَيكة قال: إنَّ ابنَ عباس قرأ: (قَدْ كُذِبُواْ) مخفَّفة، ثم قال: يقول: أُخلِفوا، وكانوا بَشَراً. وتلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] قال ابن أبي مليكة: فذهب ابن عباس إلى أنهم يئسُوا وضَعُفوا فظنُّوا أنَّهم قد أُخْلِفُوا[٢]. وروى ذلك عنه البخاريُّ في «الصحيح»[٣].

واستشكل هذا بأنَّ فيه ما لا يليق نسبتُه إلى الأنبياء عليهم السلام بل إلى صالحي الأمة، ولذا نُقِل عن عائشة رضي الله عنها ذلك؛ فقد أخرج البخاريُّ والنسائيُّ وغيرهما من طريق عروة أنه سألَ عائشةَ رضي الله عنها عن هذه الآية قال: قلتُ: أَكُذِبُوا أم كُذِّبُوا؟ فقالت عائشة: بل كُذِّبوا. يعني بالتشديد، قلتُ: والله لقد استيقنوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم، فما هو بالظَّنِّ. قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت: لعله «وظنُّوا أنهم قد كُذبوا» مخفَّفة قالت: معاذَ الله، لم تكن الرُّسلُ لتظُنَّ ذلك بربِّها. قلتُ: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباعُ الرسُل الذين آمنوا بربِّهم وصدَّقوهم

---

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٩٦ عن الكوفيين وهم حمزة والكسائي وعاصم وخلف، وهي قراءة أبي جعفر أيضاً، والكلام من البحر ٥/ ٣٥٤.

(٢) المعجم الكبير (١١٢٤٥) بنحوه.

(٣) صحيح البخاري (٤٥٢٤)، وينظر الجمع بين الصحيحين للحميدي ٢/ ٧٧، وفتح الباري ٨/ ٣٦٨.

وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصرُ، حتى إذا استيأس الرسُل ممن كذَّبهم من قومهم وظنَّت الرسُلُ أنَّ أتباعَهم قد كَذَّبوهم جاء نصر الله عندَ ذلك[1].

وأجاب بعضُهم بأنَّه يمكن أن يكونَ أراد ﷺ بالظَّنِّ ما يخطُر بالبال ويَهجِس بالقلب من شُبَه الوسوسة وحديثِ النفس على ما عليه البشريةُ.

وذهب المجدُ ابن تيمية[2] إلى رجوع الضمائر جميعها أيضاً إلى الرسل، مائلاً إلى ما رُوي عن ابن عباس، مدَّعياً أنَّه الظاهرُ وأنَّ الآية على حدِّ قولِه تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] فإنَّ الإلقاءَ في قلبه وفي لسانه وفي عمله من بابٍ واحدٍ والله تعالى ينسَخُ ما يُلقي الشيطانُ.

ثم قال: والظنُّ لا يُراد به في الكتابِ والسنةِ الاعتقادُ الراجحُ كما هو في اصطلاح طائفةٍ من أهل العلم، ويسمُّون الاعتقادَ المرجوحَ: وهْماً؛ فقد قال ﷺ: «إياكم والظَّنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث»[3]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦] فالاعتقاد المرجوحُ هو ظنٌّ وهو وهمٌ، وهذا قد يكون ذنباً يُضعِف الإيمانَ ولا يُزيله، وقد يكون حديثَ النفس المعفوَّ عنه كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى تجاوَزَ لأمتي عما حَدَّثت به أنفسها ما لم تتكلَّم أو تعمل»[4]. وقد يكون من باب الوسوسة التي هي صريحُ الإيمان؛ كما ثبت في الصحيح أنَّ الصحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رسول الله، إنَّ أحدَنا ليجد في نفسه ما أن يُحرَقَ حتى يصيرَ حمماً أو يخرَّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلَّم به. قال ﷺ: «أوَقد وجدتموه»؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان»[5].

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٩٥)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٢).

(٢) كذا ذكر، والصواب أنه تقي الدين ابن تيمية حفيد المجد ابن تيمية، وكلامه في مجموع الفتاوى ١٣/ ١٧٦-١٨٠.

(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد سلف ٣/ ٥٠٥.

(٥) أخرجه أحمد (٩١٦٥)، ومسلم (١٣٢) (٢٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي حديثٍ آخر: إنَّ أحدَنا ليجد ما يتعاظمُ أن يتكلَّمَ به. قال: «الحمد لله الذي ردَّ كَيدَه إلى الوَسْوَسَة»(١). ونظيرُ هذا ما صحَّ من قوله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ عليه السلام إذ قال له ربُّه: أو لم تُؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئنَّ قَلْبي»(٢).

فسمَّى النبيُّ ﷺ التفاوُتَ بينَ الإيمان والاطمئنان شكّاً بإحياء الموتى، وعلى هذا يقال: الوعد بالنصر في الدنيا لشخص قد يكون الشخصُ مؤمناً بإنجازه ولكن قد يَضطَرِب قلبُه فيه فلا يطمئنُّ، فيكون فواتُ الاطمئنان ظنّاً أنَّه كَذِبٌ، فالشكُّ وظنُّ أنه كَذِبٌ من بابٍ واحدٍ، وهذه الأمورُ لا تقدَح في الإيمان الواجب وإن كان فيها ما هو ذَنْبٌ، فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك كما في أفعالهم؛ على ما عُرِف من أصول السنة والحديث، وفي قَصِّ مثلِ ذلك عبرةٌ للمؤمنين بهم عليهم السلام، فإنَّهم لابدَّ أن يُبتَلُوا بما هو أكثر من ذلك فلا ييأسوا إذا ابتُلُوا، ويعلمون أنه قد ابتُلي مَن هو خيرٌ منهم، وكانت العاقبةُ إلى خيرٍ فيتيقَّن المرتابُ ويتوب المذنبُ ويقوى إيمانُ المؤمن، وبذلك يصحُّ الاتِّساءُ بالأنبياء، ومن هنا قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١].

ولو كان المتبوعُ معصوماً مطلَقاً لا يتأتَّى الاتِّساءُ؛ فإنَّه يقول التابعُ: أنا لستُ من جنسه، فإنَّه لا يُذكَر بذنبٍ، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتداءِ لِمَا أتى به من الذنب الذي يُفسِد المتابعةَ على القول بالعصمة، بخلاف ما إذا علم أنَّه قد وقع شيءٌ وجُبِر بالتوبة، فإنَّه يصحُّ حينئذٍ أمرُ المتابعة، كما قيل: أولُ مَن أذنب وأجرم، ثم تابَ ونَدِم أبو البشر آدم:

ومــن يُــشــابِــه أبَــه فــمــا ظــلــم(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩٧)، وأبو داود (٥١١٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٤٣٤) عن ابن عباس ﵄ بلفظ: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي أحدِّث نفسي بالشيء لأن أَخِرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّمَ به. قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسة». واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة ﵁، وسلف ٣/ ٤٣١.

(٣) الرجز لرؤبة بن العجاج، وقبله: بأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ في الكَرَمْ. وهو في ديوانه ص١٤٨.

ولا يلزم الاقتداءُ بهم فيما نُهوا عنه ووقع منهم ثم تابوا عنه؛ لتحقُّقِ الأمر بالاقتداء بهم فيما أُقِرُّوا عليه ولم يُنهوا عنه ووقع منهم ولم يتوبوا منه، وما ذُكِر ليس بدون المنسوخ من أفعالهم، وإذا كان ما أُمِروا به وأُبِيح لهم ثم نُسِخ تنقطع فيه المتابعةُ، فما لم يُؤمَروا به ووَقَع منهم وتابوا عنه أحرى وأولى بانقطاع المتابعة فيه(١). اهـ.

ولا يخفى أنَّ ما ذكره مستلزمٌ لجوازِ وقوع الكبائر من الأنبياء عليهم السلام ـ وحَاشَاهم ـ من غيرِ أن يُقَرُّوا على ذلك، والقولُ به جهلٌ عظيمٌ، ولا يقدمُ عليه ذو قلبٍ سليم، على أنَّ في كلامه بعدُ ما فيه، وليته اكتفى بجعل الضمائر للرسل وتفسير الظنِّ بالتوهُّم كما فعل غيرُه، فإنَّه مما لا بأسَ به، وكذا لا بأسَ في حملِ كلامِ ابن عباس على أنَّه أراد بالظنِّ فيه ما هو على طريق الوسوسة، ومثالها من حديث النفس؛ فإنَّ ذلك غيرُ الوسوسة المنزَّهِ عنها الأنبياءُ عليهم السلام، أو على أنَّه أراد بذلك المبالغةَ في التراخي وطول المدَّةِ على طريق الاستعارة التمثيلية بأن شبه المبالغة في التراخي بظنِّ الكَذِب باعتبار استلزامِ كلٍّ منهما لعدم ترتُّب المطلوب، فاستعمل ما لأحدهما في الآخر.

وقيل: إنَّ الضمائرَ الثلاثةَ للمرسَل إليهم؛ لأنَّ ذكر الرسل متقاضٍ ذاك، ونظيرُ ذلك قوله:

أَمِنْكَ البَرْقُ أَرْقُبُه فَهاجَا ... وبتُّ إخالُه دُهْماً خِلَاجَا(٢)

فإنَّ ضميرَ «إخالُه» للرعد ولم يصرِّح به بل اكتفى بوميض البرق عنه.

وإن شئتَ قلت: إنَّ ذكرَهم قد جرى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيكون الضميرُ للذين من قبلهم ممن كَذَّبَ الرسُلَ عليهم السلام، والمعنى: ظَنَّ المرسَلُ إليهم أنَّ الرسُلَ قد كَذَبُوهم فيما ادَّعوه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ١٧٦-١٨٠.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٦٤، وفيه: فَبتُّ. وفي شرح أشعار الهذليين ١/ ١٧٦ برواية: «أوْمَض ثم هاجا» بدل: «أرقُبُه فهاجَا». وقوله: أمنك. أي: أمن شِقِّك هذا البرق. دُهْماً: سُوداً. خِلَاجاً: جمع خَلُوج، وهي من الإبل: التي اختُلِجَت أولادها عنها، إما بموتٍ أو بذبحٍ، فهي تحِنُّ إلى أولادها.

من النبوَّة وفيما وَعَدوا به مَن لم يُؤمِن من العقاب. ورُوي ذلك عن ابن عباس أيضاً؛ فقد أخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور والنسائيُّ وابنُ جرير وغيرُهم من طُرقٍ عنه ﷺ أنه كان يقرأ: (كُذِبُوا) مخفَّفةً ويقول: حتى إذا يئس الرسلُ من قومهم أن يستجيبوا لهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرسُلَ قَد كَذَبوهم فيما جاؤوا به، جاء الرسُلَ نصرُنا[1].

وروي ذلك أيضاً عن سعيد بن جبير؛ أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ربيعة بن كلثوم قال: حدَّثني أبي أنَّ مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير فقال: يا أبا عبد الله، آيةٌ قد بلغت مني كلَّ مبلغ: (حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ)، فإنَّ الموتَ أنْ تظُنَّ الرسلُ أنَّهم قد كُذِّبوا ـ مثقَّلةً ـ أو تَظنَّ أنَّهم قُد كُذِبوا مخفَّفة. فقال سعيد: حتى إذا استيأس الرسلُ من قومهم أن يَستجيبوا لهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرسُلَ كذَبَتْهم، جاءهم نصرُنا. فقام مسلم إليه فاعتنقه وقال: فرَّج الله تعالى عنك كما فرَّجْتَ عني[2].

ورُوي أنَّه قال ذلك بمحضر من الضحاك، فقال له: لو رحلتَ في هذه إلى اليمن لكان قليلاً[3].

وقيل: ضميرُ «ظَنُّوا» للمرسَل إليهم، وضميرُ «أنَّهم» و«كُذِبوا» للرسل عليهم السلام، أي: وظنُّوا أنَّ الرسلَ عليهم السلام أخلَفوا فيما وُعِد لهم من النصر وخُلِط الأمرُ عليهم.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وأبو رجاء وابن أبي مليكة والأعرج وعائشة في المشهور: «كُذِّبوا» بالتشديد والبناء للمفعول[4]،

---

(١) سنن سعيد بن منصور (١١٤٧ و١١٤٩ - تفسير)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٣)، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٨٥ و٣٨٦، وعزاه السيوطي في الدر ٤/ ٤١ لأبي عبيد وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢١٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٨، وعزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٤١.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٤) قرأ بها من السبعة ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو عمرو كما في التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٩٦، وهي قراءة يعقوب من العشرة، والكلام من البحر ٥/ ٣٥٤.

والضمائر على هذا للرسل عليهم السلام، أي: ظنَّ الرسل أنَّ أمَمَهم كَذَّبوهم فيما جاؤوا به لطول البلاء عليهم فجاءهم نصرُ الله تعالى عند ذلك. وهو تفسيرُ عائشة رضي الله عنها الذي رواه البخاري[1] عليه الرحمة. والظنُّ بمعناه، أو بمعنى اليقين، أو التوهُّم.

وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك أنَّهم قرؤوا: «كَذَبُوا» مخفَّفاً مبنيّاً للفاعل[2]، فضمير «ظَنُّوا» للأُمم، وضميرُ «أنَّهم قد كَذَبوا» للرسل، أي: ظنَّ المرسَلُ إليهم أنَّ الرسُلَ قد كَذَبوا فيما وعدوهم به من النصر أو العقابِ.

وجوَّز أن يكون ضميرُ «ظنوا» للرسل، وضمير «أنَّهم قد كَذَبوا» للمرسَل إليهم، أي: ظنَّ الرسلُ عليهم السلام أنَّ الأمَمَ كذبتهم فيما وعدوهم به من أنَّهم يُؤمِنون، والظنُّ الظاهرُ - كما قيل - أنَّه بمعنى اليقين.

وقرئ كما قال أبو البقاء: «كذَّبُوا» بالتشديد والبناءِ للفاعل، وأوَّلَ ذلك بأنَّ الرسلَ عليهم السلام ظَنُّوا أنَّ الأمم قد كذَّبوهم في وعدهم هذا[3].

والمشهور استشكالُ الآية من جهة أنَّها متضمِّنةٌ ظاهراً على القراءة الأولى، نسبةَ مَا لا يليق من الظنِّ إلى الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، واستشكل بعضُهم نسبةَ الاستيئاسِ إليهم عليهم السلام أيضاً، بناءً على أنَّ الظاهرَ أنَّهم استيأسوا مما وُعِدوا به وأُخْبِروا بكونه، فإنَّ ذلك أيضاً مما لا يليق نسبتُه إليهم.

وأجيب بأنَّه لا يُراد ذلك، وإنَّما يراد أنَّهم استيأسوا من إيمانِ قومهم.

واعترض بأنَّه يُبعِده عطفُ «وظَنُّوا أنَّهم قد كُذِبوا» الظاهرُ في أنَّهم ظَنُّوا كونَهم مكذوبين فيما وعدوا به عليه.

وذكر المجدُ[4] في هذا المقام تحقيقاً غيرَ ما ذكره أولاً، وهو أنَّ الاستيئاسَ

---

(١) في صحيحه (٤٦٩٥). وقد سلف ص٥٢٣ من هذا الجزء.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٥، والمحتسب ١/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧، والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٣) الإملاء ٣/ ٣٦٣.

(٤) كذا ذكر، والصواب أنه تقي الدين ابن تيمية حفيد المجد، ينظر الفتاوى ١٥/ ١٨٢ وما بعدها.

وظنَّ أنَّهم مكذوبين كِلَيهما متعلِّقان بما ضُمَّ للموعود به اجتهاداً، وذلك أنَّ الخبرَ عن استيئاسهم مطلَقٌ وليس في الآية ما يدلُّ على تقييده بما وُعِدوا به وأُخبروا بكونه، وإذا كان كذلك فمن المعلوم أنَّ الله تعالى إذا وَعَد الرسُلَ بنصرٍ مطلقٍ كما هو غالبُ إخباراته لم يعيِّن زمانَه ولا مكانَه ولا صفتَه، فكثيراً ما يعتقد الناسُ في الموعود به صفاتٍ أخرى لم يدُلَّ عليها خطابُ الحقِّ تعالى، بل اعتقدوها بأسبابٍ أخرى، كما اعتقد طائفةٌ من الصحابة ﷺ إخبارَ النبيِّ ﷺ لهم أنَّهم يدخلون المسجدَ الحرامَ ويطوفون به أنَّ ذلك يكون عامَ الحديبية، لأنَّ النبيَّ ﷺ خرج معتمراً ورجا أن يدخلَ مكةَ ذلك العام ويطوفَ ويسعى.

فلمَّا استيأسوا من ذلك ذلك العامَ لمَّا صدَّهم المشركون حتى قاضاهم عليه الصلاة والسلام على الصلح المشهور، بقي في قلبِ بعضِهم شيءٌ حتى قال عمرُ ﷺ مع أنَّه كان من المحدَّثين: ألم تُخبِرنا يا رسول الله، أنَّا ندخُل البيتَ ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتُك أنَّك تدخله هذا العام؟» قال: لا. قال: «إنَّك داخلُه ومُطوِّفٌ به»، وكذلك قال له أبو بكر ﷺ[1]، فبيَّن له أنَّ الوعدَ منه عليه الصلاة والسلام كان مطلَقاً غيرَ مقيَّدٍ بوقتٍ. وكونُه ﷺ سعى في ذلك العام إلى مكة وقصدَها لا يُوجِب تخصيصاً لوعده تعالى بالدخول في تلك السنة.

ولعله عليه الصلاة والسلام إنما سعى بناء على ظَنَّ أن يكونَ الأمرُ كذلك، فلم يكن، ولا محذورَ في ذلك، فليس من شرط النبيِّ ﷺ أن يكونَ كلُّ ما قصده، بل من تمام نعمة الله تعالى عليه أن يأخذَ به عما يقصده إلى أمرٍ آخَرَ هو أنفعُ مما قصده إن كان؛ كما كان في عام الحديبية.

ولا يضُرُّ أيضاً خروجُ الأمر على خلافِ ما يظنُّه عليه الصلاة والسلام، فقد رَوى مسلم في صحيحه[2] أنَّه عليه الصلاة والسلام قال في تأبير النخل: «إنما ظننتُ ظنّاً فلا تؤاخذوني بالظنِّ، ولكن إذا حدَّثْتُكم عن الله تعالى شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذبَ على الله تعالى».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) عن المسور بن مخرمة ﷺ.

(٢) برقم (٢٣٦١).

ومن ذلك قوله ﷺ في حديث ذي اليدين: «ما قُصِرت الصلاةُ ولا نسيت»[(١)]، ثم تبيَّن النسيان. وفي قصة الوليد بن عقبة النازل فيها ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية [الحجرات: ٦][(٢)]، وقصة بني أُبيرِق النازل فيها ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥][(٣)] ما فيه كفايةٌ في العلم بأنه ﷺ قد يظُنُّ الشيءَ فيُبَيِّنه الله تعالى على وجهٍ آخر. وإذا كان رسول الله ﷺ وهو هو هكذا فما ظنُّك بغيره من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام؟

ومما يزيد هذا قوةً أنَّ جمهورَ المحدِّثين والفقهاءِ على أنَّه يجوز للأنبياء عليهم السلام الاجتهادُ في الأحكام الشرعية، ويجوز عليهم الخطأُ في ذلك، لكن لا يُقرُّون عليه، فإنَّه لا شكَّ أنَّ هذا دون الخطأ في ظنٍّ ما ليس من الأحكام الشرعية في شيء.

وإذا تحقَّق ذلك فلا يبعُد أن يقال: إنَّ أولئك الرسل عليهم السلام أُخبِروا بعذابِ قومهم ولم يتعيَّن لهم وقتٌ له، فاجتهدوا وعيَّنُوا لذلك وقتاً حسبما ظهر لهم، كما عيَّن أصحابُ رسول الله ﷺ عامَ الحديبية لدخولِ مكة، فلمَّا طالت المدَّةُ استيأسوا وظنُّوا كَذِبَ أنفسهم وغلطَ اجتهادهم، وليس في ذلك ظنٌّ بكذبِ وعده تعالى ولا مستلزماً له أصلاً، فلا محذورَ.

وأنت تعلم أنَّ الأوفقَ بتعظيم الرسل عليهم السلام والأبعدَ عن الحوم حولَ حمى مَا لا يليق بهم القولُ بنسبة الظنِّ إلى غيرهم صلى الله تعالى عليهم وسلم. والله تعالى أعلم.

والظاهر أنَّ ضميرَ «جاءهم» على سائر القراءاتِ والوجوهِ للرسول. وقيل: إنَّه راجعٌ إليهم وإلى المؤمنين، أي: جاء الرسلَ ومن آمن بهم نصرُنا.

﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ إنجاءَه، وهم الرسلُ والمؤمنون بهم، وإنما لم يعيِّن للإشارة إلى أنَّهم الذين يستأهِلُون أن يشاءَ نجاتَهم، ولا يشاركهم فيه غيرُهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣) (٩٩).

(٢) كما سيرد عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) سلف عند تفسير الآية المذكورة.

وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب: (فَنُجِّيَ) بنون واحدة وجيم مشدَّدة وياء مفتوحة، على أنَّه ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، و(مَن) نائب الفاعل[١].

وقرأ مجاهد والحسن والجحدريُّ وطلحة وابن هرمز كذلك إلا أنهم سكَّنوا الياءَ[٢]، وخُرِّجت على أنَّ الفعلَ ماضٍ أيضاً كما في القراءة التي قبلها، إلا أنه سُكِّنت الياءُ على لغةِ مَن يستثقل الحركةَ على الياء مطلقاً، ومنه قراءة من قرأ: «ما تطعمون أهاليكم»[٣] بسكون الياء.

وقيل: الأصل: «نُنَجِّي» بنونين، فأُدغم النونُ في الجيم. وردَّه أبو حيان[٤] بأنها لا تُدغَم فيها، وتعقِّب بأنَّ بعضَهم قد ذهب إلى جواز إدغامها. ورُوِيت هذه القراءة عن الكسائيِّ ونافع[٥].

وقرأت فرقة كما قرأ باقي السبعة بنونين، مضارع «أَنْجَى»، إلا أنَّهم فتحوا الياءَ، ورواها هبيرة عن حفص عن عاصم، وزعم ابن عطية[٦] أنَّ ذلك غلطٌ من هبيرة إذ لا وجهَ للفتح.

وفيه أنَّ الوجه ظاهر، فقد ذكروا أنَّ الشرط والجزاءَ يجوز أن يأتي بعدهما المضارعُ منصوباً بإضمار «أن» بعد الفاء؛ كقراءةِ مَن قرأ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] بنصبِ «يَغْفِرَ»[٧]، ولا فرقَ في ذلك بين أن تكون أداةُ الشرط جازمةً أو غيرَ جازمةٍ.

وقرأ نصر بن عاصم وأبو حيوة وابن السميفع وعيسى[٨] البصرة وابن محيصن،

---

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/ ٢٩٦.
(٢) البحر ٥/ ٣٥٥.
(٣) وهي قراءة جعفر بن محمد الصادق كما في المحتسب ١/ ٢١٧، والبحر ٤/ ١٠، وقد تحرَّف في (م) إلى: أهليكم. والمثبت من الأصل والبحر ٥/ ٣٥٥.
(٤) في البحر ٥/ ٣٥٥.
(٥) ذكرها عنهما أبو حيان في البحر ٥/ ٣٥٥، والمشهور عنهما «فننجي» بنونين مضارع أنجى كما قرأ باقي السبعة.
(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩.
(٧) وهي قراءة ابن عباس والأعرج وأبي حيوة كما في البحر ٢/ ٣٦٠.
(٨) بعدها في (م): «وأهل».

وكذا الحسن ومجاهد في رواية: «فَنَجا» ماضياً مخفَّفاً، و«مَن» فاعلُه[١].

ورُوي عن ابن محيصن أنه قرأ كذلك إلا أنه شدَّد الجيمَ[٢]، والفاعلُ حينئذٍ ضميرُ النصر، و«مَن» مفعولُه.

وقد رجِّحت قراءةُ عاصم ومَن معه بأنَّ المصاحفَ اتفقت على رسمها بنون واحدة. وقال مكي: أكثرُ المصاحف عليه[٣]. فأشعَرَ بوقوع خلافٍ في الرسم، وحكاية الاتفاق نُقلت عن الجعبري وابن الجزري[٤] وغيرهما، وعن الجعبري أنَّ قراءةَ من قرأ بنونين توافِق الرسمَ تقديراً؛ لأنَّ النون الثانية ساكنةٌ مُخفَاة عند الجيم كما هي مُخفَاة عند الصاد والظاء في «ننصر» و«ننظر»، والإخفاءُ لكونه ستراً يشبه الإدغامَ لكونه تغييباً، فكما يُحذَف عند الإدغام يُحذَف عند الإخفاء، بل هو عنده أولى لمكان الاتصال.

وعن أبي حيوة أنه قرأ: «فنُجِّيَ مَن يشَاء» بياء الغيبة، أي: مَن يشاءُ الله تعالى نجاتَه[٥].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابُنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ إذا نزل بهم، وفيه بيانٌ لمن تعلَّق بهم المشيئةُ؛ لأنَّه يُعلم من المقابلة أنَّهم مَن ليسوا بمجرمين. وقرأ الحسن: «بَأسُهُ» بضمير الغائب[٦]، أي: بأسُ الله تعالى. ولا يخفى ما في الجملة من التهديد والوعيد لمعاصري النبيِّ ﷺ.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: قصصِ الأنبياء عليهم السلام وأُمَمِهم، وقيل: قصص يوسفَ وأبيه وإخوته عليهم السلام، ورُوي ذلك عن مجاهد، وقيل: قصص أولئك وهؤلاء، والقَصَصُ مصدرٌ بمعنى المفعول، ورجَّح الزمخشريُّ[٧] الأولَ

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٧.

(٤) في النشر ٢/ ٢٩٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، والبحر ٥/ ٣٥٥.

(٦) المصدران السابقان.

(٧) في الكشاف ٢/ ٣٤٨.

بقراءة أحمد بن جبير الأنطاكيِّ عن الكسائيِّ وعبد الوارث عن أبي عمرو: «قِصَصِهم» بكسر القاف[١]، جمع قِصَّة. ورُدَّ بأنَّ قصةَ يوسف وأبيه وإخوته مشتملةٌ على قصصٍ وأخبار مختلفةٍ، على أنه قد يُطلَق الجمعُ على الواحد، وفيه أنَّه كما قيل، إلا أنَّه خلافُ المتبادر المعتاد فإنَّه يقال في مثله: قِصَّة، لا قِصَص، واقتصر ابنُ عطية[٢] على القول الثالثِ، وهو ظاهرٌ في اختياره.

﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لذَوي العقول المبرَّأة عن الأوهام الناشئة عن الإلْفِ والحسِّ. وأصلُ اللُّبِّ: الخالصُ من الشيء، ثم أُطلِق على ما زكا من العقل، فكلُّ لُبٍّ عقلٌ، وليس كلُّ عقلٍ لُبًّا.

وقال غيرُ واحد: إنَّ اللُّبَّ هو العقلُ مطلَقاً، وسمِّي بذلك لكونه خالصَ مَا في الإنسان مِن قُواه، ولم يَرِد في القرآن إلا جمعاً.

والعِبْرة ـ كما قال الراغب ـ الحالة التي يُتوَصَّلُ بها من معرفة المشاهَد إلى ما ليس بمشاهَدٍ[٣].

وفي «البحر» أنَّها الدلالة التي يُعبَر بها إلى العلم[٤].

﴿مَا كَانَ﴾ أي: القرآنُ المدلولُ عليه بما سبق دلالةً واضحة، واستظهر أبو حيان عودَ الضمير إلى القصص فيما قبل[٥].

واختار بعضُهم الأولَ؛ لأنَّه يجري على القراءتين، بخلاف عودِه على المتقدِّم فإنَّه لا يجري على قراءة القِصَص ـ بكسر القاف ـ لأنَّه كان يلزم تأنيثُ الضمير.

وجوَّزَ بعضُهم عودَه إلى القَصَص ـ بالفتح ـ في القراءة به، وإليه في ضمن المكسور في القراءة به، وكذا إلى المكسورِ نفسه، والتذكير باعتبار الخبر. وهو كما ترى.

---

(١) البحر ٥/ ٣٥٦.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩.
(٣) المفردات (عبر).
(٤) البحر ٥/ ٣٥٦.
(٥) المصدر السابق.

﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: يُختلَق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ أي: تبيينَ ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ قيل: أي: مما يُحتاج إليه في الدين، إذ ما من أمرٍ دينيٍّ إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بواسطةٍ(١).

وقال ابن الكمال: إنَّ «كُلّ» للتكثير والتفخيم، لا للإحاطة والتعميم كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ومَن لم يتنبه لهذا احتاجَ إلى تخصيص الشيء بالذي يتعلَّق بالدين، ثم تكلَّف في بيانه فقال: إذ ما من أمرٍ إلخ، ولم يَدْرِ أنَّ عبارةَ التفصيل لا تتحمَّل هذا التأويلَ.

ورُدَّ بأنَّه متى أمكن حَمْل كلمةِ «كُلّ» على الاستغراق الحقيقيِّ لا يُحمَل على غيره، والتخصيصُ مما لا بأسَ به على أنَّه نفسه قد ارتَكَبَ ذلك في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] وكونُ عبارةِ التفصيل لا تتحمَّل ذلك التأويلَ في حَيِّز المنع.

ومن الناس مَن حمل «كُلّ» على الاستغراق من غير تخصيصٍ، ذاهباً إلى أنَّ في القرآن تبيينَ كلِّ شيءٍ من أمور الدين والدنيا وغير ذلك مما شاء الله تعالى، ولكنَّ مراتبَ التبيين متفاوتةٌ حسب تفاوُتِ ذَوي العلم، وليس ذلك بالبعيد عندَ مَن له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد.

وقيل: المرادُ: تفصيلُ كلِّ شيءٍ واقعٍ ليوسفَ وأبيه وإخوته عليهم السلام مما يُهْتَمُّ به. وهو مبنيٌّ على أنَّ الضمير في «كان» لـ «قصصهم».

﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خيرُ الدارَين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ يُصدِّقون تصديقاً معتدّاً به، وخُصُّوا بالذكر؛ لأنَّهم المنتفعون بذلك. ونصب «تَصْدِيقَ» على أنَّه خبرُ «كان» محذوفاً، أي: ولكن كان تصديق، والإخبارُ بالمصدر لا يخفى أمرُه.

وقرأ حُمران بن أعين(٢) وعيسى الكوفة فيما ذكر صاحب «اللوامح» وعيسى

---

(١) تحرف في (م) إلى: بوسط.

(٢) حُمران بن أعْيَن من كبار قراء الكوفة، عرض عليه حمزة الزيات. توفي سنة بضع وعشرين ومئة. معرفة القراء الكبار ١/ ١٧١.

الثقفيُّ فيما ذكر ابن عطية: «تصديقُ» بالرفع، وكذا برفعِ ما عُطِف عليه، على تقدير: ولكنْ هو تصديقُ إلخ[١]، وقد سُمِع من العرب في مثل ذلك الرفعُ والنصبُ، ومنه قولُ ذي الرمَّة:

وما كان مالي من تُراثٍ ورثتُه ... ولا ديةٍ كانت ولا كسبِ مَأثَم

ولكنْ عطاءُ الله من كلِّ رحلةٍ ... إلى كلِّ محجوبِ السُّرَادِقِ خِضْرِمِ[٢]

فإنه رُوي بنصب «عطاء» ورفعِه.

هذا والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

ومن باب الإشارة في هذه السورة: قال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وهو اقتصاصُ ما جرى ليوسف عليه السلام وأبيه وإخوته عليهم السلام، وإنما كان ذلك أحسنَ القَصَص لتضمُّنِه ذكرَ العاشق والمعشوق وذلك مما ترتاح له النفوسُ، أو لِمَا فيه من بيان حقائق محبة المحبِّين، وصفاءِ سرِّ العارفين، والتنبيهِ على حُسن عواقب الصادقين، والحثِّ على سلوك سبيل المتوكِّلين، والاقتداء بزهد الزاهدين، والدلالةِ على الانقطاع إلى الله تعالى، والاعتمادِ عليه عند نزول الشدائد، والكشفِ عن أحوال الخائنين وقُبحِ طرائق الكاذبين، وابتلاءِ الخَوَاصِّ بأنواع المِحَنِ، وتبديلِها بأنواع الألطاف والمنن، مع ذكر ما يدلُّ على سياسة الملوك وحالهم مع رعيتهم، إلى غير ذلك.

وقيل: لخُلوِّ ذلك من الأوامر والنواهي التي يشغل سماعُها القلبَ.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ هذه أوَّلُ مبادي الكشوفِ، فقد ذكروا أنَّ أحوالَ المكاشِفين أوائلُها المناماتُ، فإذا قَوِي الحالُ تصير الرؤيا كشفاً. قيل: إنَّه عليه السلام قد سُلِك به

---

(١) البحر ٥/ ٣٥٦، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩.

(٢) ديوان ذي الرمة ٢/ ١١٨٣، والعقد الفريد ١/ ٢٧٦، والعمدة ص ٨٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، والبحر ٥/ ٣٥٦، وجاء صدر البيت الأول في الديوان برواية: نَجائبَ ليست من مُهُور أَشَابة. والخِضْرِم: الكثير الخير. وأَشَابة: أخلاط، يريد به النساء.

نحواً مما سُلِك برسول الله ﷺ، وذلك أنَّه بُدِئَ بالرؤيا الصادقة كما بُدِئَ رسولُ الله ﷺ بها، فكان لا يرى رؤيا إلا كانت مثلَ فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاءُ على ما يُشير إليه قولُه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ كما حُبِّب ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان يتحنَّثُ في غار حراء الليالي ذواتِ العدد(١). وفيه أنَّ حديثَ السجن بعد إيتاءِ النبوَّة، فتدبَّر.

وذكر بعضُ الكبار أنَّ يوسفَ عليه السلام كان آدمَ الثاني، لما كان عليه من كسوة الربوبية ما كان على آدم عليه السلام، وهو مُجلَّى الحقِّ للخلق لو يعلمون، فلمَّا رأت الملائكةُ ما رأت من آدم سجدوا له، وها هنا سجد ليوسف مَن سجد وهم الشمسُ والقمرُ والكواكبُ المعدودةُ المشارُ بهم إلى أبوَيه وإخوته، الذين هم على القولِ بنبوَّتهم خيرٌ من الملائكة عليهم السلام، ولا بدْعَ إذ سجدوا لمن يَتَلألأ من وجهه الأنوارُ القدسيةُ والأشِعَّة السبُّوحِية:

لو يسمعون كما سمعتُ حديثَها خرُّوا لعزَّةَ ركَّعاً وسُجُودَا(٢)

وقد يقال: إنَّ إبراهيم عليه السلام لمَّا رأى في وجنة الكواكبِ ونقطة خالِ القمر وأَسِرَّةِ جبين الشمس أماراتِ الحَدَثَان، وصَرَفَ وجهَه عنها متوجِّهاً إلى ساحة القِدم المنزَّهة عن التغيُّر المصونةِ عما يُوجِب النقصَ قائلاً: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، أَسْجَدَ اللهُ تعالى الشمسَ القمرَ، وأَسْجَدَ بدلَ الكواكب كواكبَ لبعض بَنِيْه؛ إعظاماً لأمره ومبالغةً في تنزيه جلال الكبرياء، وحيث تأخَّرت البراءةُ إلى الثالثِ تأخَّرَ أمرُ الإسجاد إلى ثالث البنين، وليس المقصودُ من هذا إلا بيانَ بعضٍ من أسرار تخصيصِ المذكور بالإراءَةِ مع احتمالِ أن يكونَ هناك ما يصلُحُ أن يكونَ رؤياه ساجداً معبَّراً بسجودِ أبويه وإخوته له عليهم السلام في عالم الحسِّ، فتدبَّره.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ فيه إشارةٌ إلى بعض آداب المريدين؛ فقد قالوا: إنَّه لا ينبغي لهم أن يُفشُوا أسرارَ المكاشفةِ إلا لشُيُوخهم، وإلَّا يقعوا في ورطةٍ، ويكونوا مُرتَهنين بعيون الغيرة:

(١) أخرجه البخاري (٤) من حديث عائشة ﵂.
(٢) البيت لكثير عزة، وهو في ديوانه ص١١٣، وسلف ٩/ ٤٦٣.

بالسرِّ إن باحوا تباحُ دماؤُهم وكذا دماءُ البائحين تُباحُ[1]

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ هذا من الإلهامات المجمَلة وهي إنذاراتٌ وبشاراتٌ، ويجوز أن يكونَ عَلِم عليه السلام ذلك من الرؤيا؛ قال بعضُهم: إنَّ يعقوبَ دبَّر ليوسف عليهما السلام في ذلك الوقت خوفاً عليه، فوُكِلَ إلى تدبيره فوقع به ما وقع، ولو ترك التدبيرَ ورجع إلى التسليم لحُفِظ.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وذلك كسَوَاطعِ نورِ الحقِّ من وجهه، وظُهورِ علم الغيب من قلبه، ومزيدِ الكَرَم من أفعاله، وحُسن عُقبى الصبرِ من عاقبته، وكسوءِ حالِ الحاسد وعَدَمِ نقضِ ما أبرمه الله تعالى وغيرِ ذلك. وقال بعضُهم: إنَّ من الآيات في يوسفَ عليه السلام أنَّه حجَّةٌ على كلِّ مَن حَسَّن اللهُ تعالى خَلْقَه أن لا يشوِّهَه بمعصيته، ومَن لم يُراعِ نعمةَ الله تعالى فعصى كان أشبه شيء بالكنيف المبيَّض والروث المفضَّض.

وقال ابن عطاء: من الآيات أن لا يسمعَ هذه القصةَ محزونٌ مؤمنٌ بها إلا استروَحَ وتَسرَّى عنه ما فيه.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ قيل: إنَّ ذلك كان بكاءَ فرحٍ بظفرِهم بمقصودهم، لكنَّهم أظهروا أنَّه بكاءُ حُزنٍ على فقدِ يوسف عليه السلام.

وقيل: لم يكن بكاءً حقيقةً وإنما هو تباكٍ من غير عَبْرةٍ؛ وجاؤوا عشاءً ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار، أو ليدلِّسوا على أبيهم ويُوهِموه أنَّ ذلك بكاءٌ حقيقةً لا تباكٍ، فإنَّهم لو جاؤوا ضحًى لافتضحوا:

إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ تبيَّن مَن بكى مِمَّن تباكى[2]

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهو السكونُ إلى موارد القضاءِ سرًّا وعَلَناً.

وقال يحيى بن معاذ: الصبر الجميل أن يتلقَّى البلاءَ بقلبٍ رحيبٍ ووجهٍ مستبشر.

---

(١) البيت لشهاب الدين السهروردي يحيى بن حَبَش، وهو في معجم الأدباء ١٩/ ٣١٧، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٧١.

(٢) البيت للمتنبي، وهو في شرح ديوانه ٣/ ١٣٢، وفيه: إذا اشتَجَعَتْ، بدل: إذا اشتبكت.

وقال الترمذي: هو أن يُلقي العبدُ عنانَه إلى مولاه ويسلِّم إليه نفسَه مع حقيقة المعرفة، فإذا جاء حكمٌ مِن أحكامه ثبت له مسلِّماً ولا يُظهِر لوروده جزعاً، ولا يرى لذلك مُغتمّاً. وأنشد الشبلي في حقيقةِ الصبر:

عَبَراتٌ خَطَطْنَ في الخدِّ سَطْرَا فقراه مَن لم يَكُن قطُّ يَقْرَا
صَابرَ الصبرَ فاستغاث به الصبرُ فصَاح المُحِبُّ بالصَّبْرِ صَبْرَا[1]

﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ﴾ قال جعفر: كان لله تعالى في يوسف عليه السلام سرٌّ فغطَّى عليهم موضعَ سرِّه، ولو كشف للسيَّارة عن حقيقةِ ما أُودِع في ذلك البدر الطالع من بُرج دَلْوِهم لَمَا اكتفى قائلُهم بذلك، ولَمَا اتخذوه بضاعةً، ولهذا لمَّا كُشِف للنسوة بعضُ الأمر قلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ولجهلهم أيضاً بما أُودِع فيه من خزائن الغيب باعوه بثمنٍ بخسٍ وهو معنى قولِه سبحانه: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾.

قال الجنيد قدِّس سرُّه: كلُّ مَا وقع تحت العدِّ والإحصاء فهو بخسٌ ولو كان جميعَ ما في الكونين، فلا يكن حظُّك البخسَ من ربِّك فتميلَ إليه وترضى به دون ربِّك جلَّ جلالُه.

وقال ابن عطاء: ليس ما باع إخوةُ يوسف من نفسٍ لا يقع عليها البيعُ بأعجبَ مِن بَيْعِ نفسِك بأدنى شهوةٍ بعد أن بِعتَها من ربِّك بأوفر الثمن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١١] فبيعُ ما تقدَّم بيعُه باطلٌ. وإنَّما باع يوسفَ أعداؤُه وأنت تبيع نفسَك من أعدائك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ قيل: أي: لا تنظُري إليه نظرَ الشهوة، فإنَّ وجهَه مرآةُ تَجلِّي الحقِّ في العالم. أو: لا تَنظُري إليه بنظرِ العبودية ولكن انظري إليه بنظر المعرفة لتري فيه أنوارَ الربوبية. أو: اجعلي محبتَه في قلبكِ لا في نفسك، فإنَّ القلبَ موضعُ المعرفة والطاعةِ، والنفسَ موضعُ الفتنة والشهوة.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ قيل: أي: بأن يُعرِّفَنا منازلَ الصدِّيقين ومراتبَ الروحانيِّين ويبلِّغنا ببركة صحبته إلى مشاهدة ربِّ العالمين.

---

(١) البيتان في تاريخ مدينة دمشق ٥٦/ ٤٣٣، وفيه أنها كانت مكتوبة في عُكَّازة مالك بن دينار. والبيت الثاني في لطائف الإشارات ٢/ ٥١٥ دون نسبة.

وقيل: أراد: حَسِّني صحبتَه في الدنيا لعلَّه أن يشفَعَ لنا في العقبى.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ حيثُ غلب عليها العشقُ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قَطَعت الأسبابَ وجَمَعت الهمةَ إليه، أو: غلَّقت أبوابَ الدار غيرةَ أن يرى أحدٌ أسرارَهما.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ قال ابن عطاء: هَمَّ شهوةٍ. ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ همَّ زَجْرٍ عما هَمَّت به بضربٍ أو نحوِه.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وهو الواعظُ الإلهيُّ في قلبه ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الخواطرَ الرديئةَ ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الأفعالَ القبيحة.

وقيل: البرهانُ هو أنَّه لم يُشاهِد في ذلك الوقت إلا الحقَّ سبحانه وتعالى.

وقيل: هو مشاهدةُ أبيه يعقوبَ عليه السلام عاضًّا على سبَّابته، وجَعَل ذلك بعضُ أجلَّة مشايخنا أحدَ الأدلَّة على أنَّ للرابطة المشهورة عند ساداتنا النقشبندية أصلاً أصيلاً. وهو على فرض صحَّته بمراحلَ عن ذلك.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ فراراً من محلِّ الخطر. قيل: لو فرَّ إلى الله تعالى لكفاه ولَمَا ناله بعدُ ما عناه.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ نفت عن نفسِها الذنبَ؛ لأنَّها عَلِمت إذ ذاك أنَّها لو بيَّنت الحقَّ لقُتِلَت وحُرِمَت من حلاوة محبَّة يوسفَ والنظر إلى وجهه:

نِـحُـبِّـك أحـبَـبْـتُ الـبـقـاءَ لـمُـهْـجَـتـي      فـلا طـال إن أعـرضـتَ عـنـي بـقـائِـيَـا

وإنَّما عرَّضَت بنسبة الذنبِ إليه لعِلْمِها بأنَّه عليه السلام لم يبقَ في البؤس، ولا يقدِرُ أحدٌ على أن يؤذيَه لِمَا أنَّ وجهَه سالبُ القلوب وجالبُ الأرواح:

لـه فـي طَـرْفـه لَـحَـظـاتُ سـحـرٍ      يُـمـيـت بـهـا ويُـحْـيِـي مَـن يُـريـدُ
ويَـسْـبـي الـعـالـمـيـن بـمُـقْـلَـتـيـه      كـأنَّ الـعـالـمـيـنَ لـه عَـبِـيـدُ[1]

---

(١) البيتان في المحاسن والأضداد ص١٥٦ دون نسبة، وفيه: فكُلٌّ. بدلَ: كأنَّ. وهي في تاريخ مدينة دمشق ٦٦/ ٦٣، وطبقات الصوفية للسلمي ص٣٤٧ ونسبت لأبي بكر الشبلي. ورواية الجميع بصيغة التأنيث في البيتين. أي: لها في طَرْفها لَحَظات سحرٍ... إلخ.

وقال ابن عطاء: إنَّها إذ ذاك لم تستغرق في محبَّته بعدُ، فلذا لم تُخبِر بالصدق وآثرت نفسَها عليه، ولهذا لمَّا استغرقت في المحبة آثرت نفسَه على نفسها فقالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية.

ثم إنَّه عليه السلام لم يَسَعْه بعد تهمتها له إلا الذبَّ عن ساحة النبوَّة التي هي أمانةُ الله تعالى العُظمى، فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وإلا فاللائقُ بمقام الكرم السكوتُ عن جوابها لئلا يفضَحَهَا.

وقيل: إنَّها لمَّا ادَّعت محبةَ يوسف وتبرَّأت منها عندَ نزول البلاء أراد يوسفُ عليه السلام أن يُلزِمها ملامةَ المحبة، فإنَّ الملامةَ شعارُ المحبِّين، ومَن لم يكن ملوماً في العشق لم يكن متحقِّقاً فيه.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ عَظُم كيدُهن؛ لأنَّهن إذا ابتُلِين بالحبِّ أظهرن مما يجلِبُ القلبَ ما يعجَزُ عنه إبليسُ، مع مساعدةِ الطبيعة إلى الميل إليهنَّ وقوَّةِ المناسبة بين الرجال وبينهنَّ، كما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] فما في العالم فتنةٌ أضرُّ على الرجال من النساء.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قال الجنيد قدِّس سرُّه: الشغَفُ أن لا يرى المحبُّ جفاء[١] له جفاءً، بل يراه عدْلاً منه ووفاءً:

وتـعـذيـبُـكـم عَـذْبٌ لـديَّ وجَـوْرُكُـم ... عليَّ بما يَقْضِي الهوَى لَكُمُ عَدْلُ[٢]

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال ابن عطاء: في عشقٍ مُزعِجٍ.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ عظَّمْنَه لِمَا رأين في وجهه نورَ الهيبة ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ لاستغراقِهن في عظمتِه وجلالِه. ولعلَّه كَشَفَ لهنَّ مالم يَكْشِف لزليخا. قال ابن عطاء: دُهِشْن في يوسف وتحيَّرْنَ حتى قطَّعْنَ أيديَهُنَّ، ولم يشعُرن بالألم، وهذه غلبةُ مشاهَدةِ مخلوقٍ لمخلوقٍ، فكيف بمَن يحظى بمشاهدةٍ مِن الحقِّ، فينبغي أن لا يُنكَر عليه إن تغيَّر وصَدَر عنه ما صَدَر.

---

(١) كذا، ولعل المعنى: جفاء المحبوب.
(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص١٣٥.

وأعظَمُ مِن يوسف عليه السلام في هذا الباب عندَ ذَوي الأبصار السليمةِ النورُ المحمديُّ المنقَدِحُ من النور الإلهيِّ، والمتشَعْشِعُ في مشكاة خاتَم الرسل عليه الصلاة والسلام، فإنَّه لعَمْرِي أبو الأنوار، وما نورُ يوسفَ بالنسبة إلى نوره عليه الصلاة والسلام إلا النجمُ وشمسُ النهار:

لـواحـي زلـيـخـا لـو رَأَيـن جـبـيـنَـه لآثَرْنَ بالقطع القلوبَ على الأيْدي[(١)]

وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قُلن ذلك إعظاماً له عليه السلام من أن يكونَ من النوع الإنسانيِّ. قال محمد بن عليٍّ رضي الله عنهما: أردن: ما هذا بأهلٍ أن يُدْعى إلى المباشرة، بل مثلُه مَن يُكرَّم ويُنزَّه عن مواضع الشُّبَه. والأول أوفق بقولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أرادت: إنَّ لَوْمكُنَّ لم يقع في محزّه، وكيف يُلام مَن هذا محبوبُه، وكأنَّها أشارت إلى أنَّها مجبورةٌ في ذلك الوَلَه، معذورةٌ في مزيدِ حبِّها له:

خـلـيـلَـيَّ إنِّـي قـلـتُ بـالـعَـذْلِ مـرةً ومُـنْـذُ علاني الـحُـبُّ مذهبي الـجَـبْرُ

وفي ذلك إشارةٌ أيضاً إلى أنَّ اللومَ لا يصدرُ إلا عن خَليٍّ، ولذا لم تُعاتِبْهن حتى رأت ما صنع الهوى بهنَّ. وما أحسن ما قيل:

وكـنـتُ إذا مـا حـدَّثَ الـنـاسُ بـالـهـوى ضـحـكـتُ وهـم يَـبْـكُـون في حَـسَـرَاتِ
فـصـرتُ إذا مـا قـيـل هـذا مـتـيَّـمٌ تـلـقَّـيـتُـهـم بـالـنـوح والـعَـبَـرات

وقال سلطان العاشقين:

دَعْ عَـنْـك تـعـنـيـفي وذُقْ طَـعْـمَ الـهـوى فـإذا عَـشِـقْـتَ فَـبـعْـدَ ذلـك عَـنِّـفِ[(٢)]

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ قيل: لأنَّ السجنَ مقامُ الأنس والخلوةِ والمناجاةِ والمشاهداتِ والمواصلات، وفيما يدعونه إليه ما يُوجِب البعدَ عن الحضرةِ والحجابَ عن مشاهدةِ القربة.

---

(١) البيت في ديوان العشاري حسين بن علي البغدادي ص٤٨٨ منسوب للسيدة عائشة رضي الله عنها. وقوله: لواحي، أي: لوائم، من لحى فلاناً: إذا عذله ولامه. ينظر معجم متن اللغة (لحي).

(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٥٣.

وقيل: طلب السجن ليحتجب عن زليخا، فيكون ذلك سبباً لازديادِ عشقها وانقلابه روحانياً قدسيّاً كعشق أبيه له.

وقال ابن عطاء: ما أراد عليه السلام بطلبِ ذلك إلا الخلاصَ من الزنى، ولعلَّه لو ترك الاختيار لعُصِم من غير امتحانٍ كما عُصِم في وقت المراودة.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال أبو علي: أحسنُ الناس حالاً مَن رأى نفسَه تحت ظلِّ الفضل والمنة، لا تحتَ ظلِّ العمل والسعي.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ دعاءٌ إلى التوحيد على أتمِّ وجهٍ، وحُكي أَنَّ رجلاً قال للفضيل: عظني، فقرأ له هذه الآية.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ كان ذلك ـ على ما قيل ـ غفلةً منه عليه السلام عما يقتضيه مقامُه ويُشير إليه كلامه، ولهذا أدَّبه ربُّه باللبث في السجن ليبلغَ أقصى درجات الكمال، والأنبياءُ مؤاخَذون بمثاقيل الذرِّ لمكانتهم عند ربِّهم. وقد يُحمَل كلامُه هذا على مَا لا يُوجِب العتابَ، كما ذهب إليه بعضُ ذوي الألباب.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ قال أبو حفص: الصدِّيق مَن لا يتغيَّر عليه باطنُ أمره من ظاهره.

وقيل: الذي لا يخالفُ قالُه حالَه. وقيل: الذي يبذُل الكونَيْن في رضا محبوبه.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النفسَ بطبعها كثيرةُ الميل إلى الشهوات. وقال أبو حفص: النفس ظلمةٌ كلُّها، وسراجُها التوفيقُ، فمن لم يصحبه التوفيقُ كان في ظلمةٍ، وقد تخفى دسائسُ النفس إلى حيث تأمر بخيرٍ وتضمرُ فيه شرّاً، ولا يفطن لدسائسها إلا لَوْذَعِيٌّ:

فخالِفِ النَّفْسَ والشَّيطانَ واعْصِهمَا وإنْ هُما محَّضَاكَ النُّصحَ فاتَّهِمِ[1]

وذكر بعضُ السادة أنَّ النفسَ تترقَّى بواسطةِ المجاهَدِة والرياضةِ من مرتبةِ كونها أَمَّارَةً إلى مرتبةٍ أخرى من كونها لوَّامةً وراضيةً ومرضيةً ومطمئنةً وغيرَ ذلك، وجعلوا

(١) البيت من قصيدة البردة للبوصيري.

لها في كلِّ مرتبةٍ ذكراً مخصوصاً وأطنبوا في ذلك، فليرجع إليه.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ قيل: خزائنُ الأرض رجالُها، أي: اجعلني عليهم أميناً فإني حفيظٌ لِمَا يُظهِرونه، عليمٌ بما يُضمِرونه.

وقيل: أراد الظاهرَ، إلا أنَّه أشار إلى أنَّه متمكِّنٌ من التصرُّفِ مع عدم الغفلة، أي: حفيظٌ للأنفاس بالذكر والخواطرِ بالفكر، عليمٌ بسواكِنِ الغيوب وخفايا الأسرار.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ قال بعضهم: لمَّا جفَوه صار جفاؤُهم حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه، وكذلك المعاصي تكون حجاباً على وجه معرفة الله تعالى.

﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ كأنه عليه السلام أمر بذلك ليكمُل لأبيه عليه السلام مقامُ الحزن الذي هو - كما قال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه - من أعلى المقامات.

وقال بعضُهم: إنَّ علاقة المحبة كانت بين يوسف ويعقوب عليهما السلام من الجانبين، فتعلُّق أحدِهما بالآخر كتعلُّق الآخرِ به، كما يُرَى ذلك في بعض العشَّاق مع مَن يعشقونه، وأنشدوا:

لم يكن المجنونُ في حَالةٍ إلا وقد كُنْتُ كما كانا
لكنَّه باح بسرِّ الهوى وإنني قد ذُبْتُ كِتْمانا[1]

فغار عليه السلام أن ينظرَ أبوه إلى أخيه نظرَه إليه، فيكونا شَريكين في ذلك، والمحبُّ غَيُورٌ، فطلب أن يأتوه به لذلك، والحقُّ أنَّ الأمرَ كان عن وحيٍ لحكمةٍ غير هذه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ إشارةٌ إلى العلم اللدُنِّيِّ، وهو على نوعين:

ظاهرُ الغيب، وهو علمُ دقائق المعاملات والمقامات والحالات والكرامات والفِراسات.

---

(١) البيتان نسبا لليلى العامرية كما في ثمار القلوب ص١١١، والمستطرف ٢/٣٤٨.

وباطنُ الغيب، وهو علمُ بطون الأفعال ويسمَّى: حكمةَ المعرفة، وعلمُ الصفات ويسمَّى: المعرفة الخاصَّة، وعلمُ الذات ويسمَّى: التوحيدَ والتفريدَ والتجريدَ، وعلمُ أسرارِ القِدَم ويسمَّى: علم الفناء والبقاء، وفي الأوَّلينِ للروح مجالٌ، وفي الثالث للسِّرِّ، والرابع لسِرِّ السرِّ، وفي المقام تفصيلٌ وبسطٌ يُطلَب من محلِّه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ كأنه عليه السلام إنما فعل ذلك ليعرِّفه الحالَ بالتدريج حتى يتحمَّل أثقالَ السرور، إذ المفاجأةُ في مثل ذلك ربما تكون سببَ الهلاك، ومن هنا كان كشفُ سُجُف الجمالِ للسالكين على سبيل التدريج.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيل: إنَّ الله تعالى أمره بذلك ليكون شريكاً لإخوته في الإيذاء بحسب الظاهر، فلا يخجلوا بين يديه إذا كُشِف الأمر، وحيث طاب قلبُ بنيامين برؤية يوسف احتملَ الملامةَ، وكيف لا يحتمل ذلك وبلاءُ العالَم محمولٌ بلمحة رؤيةِ المعشوق، والعاشقُ الصادق يُؤثِر الملامةَ ممن كانت في هوى محبوبه:

أَجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حُبّاً لذكركِ فليَلُمْني اللُّوَّمُ[1]

وفي الآية ـ على ما قيل ـ إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ مَن اصطفاه الله تعالى في الأزل لمحبته ومشاهدته وُضِع في رحله صاعُ ملامةِ الثقلَين، ألا ترى إلى ما فَعَل بآدمَ عليه السلام صفيّه؟! كيف اصطفاه ثم عرض عليه الأمانةَ التي لم يحمِلْها السماواتُ والأرضُ والجبالُ وأشفقن منها، فحملها، ثم هيَّج شهوتَه إلى حبةِ حنطةٍ ثم نادى عليه بلسان الأزل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وذلك لغاية حبِّه له حتى صرفه عن الكون وما فيه ومن فيه إليه، ولولا أنْ كشفَ جماله له لم يتحمَّل بلاءَ الملامة، وهذا كما فعل يوسفُ عليه السلام بأخيه؛ آواه إليه وكشف جمالَه له وخاطبه بما خاطبه، ثم جعلَ السقاية في رحله ثم نادى عليه بالسرِقة ليُبقِيه معه.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: نرفع درجاتهم في

(١) البيت لأبي الشيص الخزاعي، وهو في ديوان الحماسة مع شرح التبريزي ٣/ ١٧٤، وقد سلف ٧/ ٢٦٢.

العلم، فلا يزال السالكون يترقَّون في العلم، وتَشرَب أطيارُ أرواحهم القدسية من بحار علومه تعالى على مقادير حَواصلها، وتنتهي الدرجاتُ بعلم الله تعالى، فإنَّ علومَ الخلق محدودةٌ وعلمُه تعالى غيرُ محدود، وإلى الله تعالى تصيرُ الأمور.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ قال بعضُ السادات: لمَّا كان بنيامين بريئاً مما رُمِي به من السرقة أنطقهم الله تعالى حتى رَمَوا يوسف عليه السلام بالسرقة وهو بريءٌ منها، فكان ذلك من قبيل: واحدةٌ بواحدةٍ، ليعلم العاملون أنَّ الجزاءَ واجبٌ.

وقال بعضُ العارفين: إنَّهم صَدَقُوا بنسبة السرقة إلى يوسف عليه السلام، ولكنَّها سرقةُ ألباب العاشقين وأفئدةِ المحبين بما أودع فيه من محاسن الأزل.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ الإشارةُ في ذلك من الحقِّ عزَّ وجلَّ أن لا نُفشِي أسرارَنا ونُدني إلى حضرتنا إلا من كان في قلبه استعدادُ قبول معرفتنا. أو لا نختارُ لكشف جمالنا إلا مَن كان في قلبه شوقٌ إلى وصالنا.

وقال بعض الخراسانيين: الإشارةُ فيه أنَّا لا نأخذُ من عِبادِنا أشدَّ أخذٍ إلا مَن ادَّعى فينا، أو أخبَرَ عنا ما لم يكن له الإخبارُ عنه والادعاءُ فيه. وقال بعضُهم: إلا مَن مدَّ يدَه إلى ما لَنا وادعاه لنفسه.

وقال أبو عثمان: الإشارة أنَّا لا نتخذ من عِبادِنا وليّاً إلا من ائتمنَّاه على ودائعنا فحفظها ولم يخن فيها. ولطيفةُ الواقعة أنه عليه السلام لم يرضَ أن يأخذ بدلَ حبيبه، إذ ليس للحبيب بديلٌ في شرع المحبة:

أبى القلبُ إلّا حُبَّ ليلى فبُغِّضَتْ إليَّ نساءٌ ما لَهُنَّ ذُنوبُ(١)

﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ قال بعضُهم: إنَّهم صدقوا بذلك، لكنَّه سرق أسرارَ يوسف عليه السلام حين سمع منه في الخلوة ما سَمِع ولم يُبدِه لهم.

---

(١) البيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص ٦٣، وأخبار النساء ص١٥. ورواية الديوان: لقد شغفتني أم بكر وبُغِّضت... إلخ، وورد في سمط النجوم العوالي ٣/ ٤٠ دون نسبة، وفيه: سعدى. بدلَ: ليلى.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كأنه عليه السلام لمَّا رأى اشتدادَ البلاء قَوِي رجاؤُه بالفرج فقال ما قال:

اشتدِّي أزمةُ تنفرجي قد آذَنَ ليلُكِ بالبَلَجِ(١)

وكأن لسانَ حالِه يقول:

دَنَا وِصَالُ الحَبِيْب واقْتربَا واطَرَباً للوِصَالِ واطرابَا

﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال بعض العارفين: إنَّ تأسُّفَه على رؤية جمال الله تعالى من مرآة وجه يوسف عليه السلام، وقد تمتَّع بذلك بُرهةً من الزمان حتى حالت بينَه وبينَه طوارقُ الحَدَثَان، فتأسَّفَ عليه السلام لذلك واشتاقت نفسُه لما هنالك:

سقى اللهُ أياماً لَنَا ولَيالِيَا مَضَتْ فَجَرَتْ مِن ذِكْرِهِنَّ دُمُوعُ

فيا هَلْ لَهَا يوماً من الدهْرِ أوبةٌ وهَلْ لي إلى أرضِ الحَبِيبِ رُجُوعُ

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ حيثُ بكى حتى أضرَّ بعَيْنَيه، وكان ذلك حتى لا يرى غيرَ حبيبِه:

لَمَّا تيقَّنْتُ أني لستُ أُبصِرُكُم غَمَضْتُ عيني فَلَم أنظُرْ إلى أحَدِ(٢)

قال بعضُ العارفين: الحكمةُ في ذهابِ بصرِ يعقوبَ وبقاءِ بصرِ آدمَ وداودَ عليهما السلام مع أنَّهما بَكَيا دهراً طويلاً؛ أنَّ بكاءَ يعقوبَ كان بكاءَ حُزنٍ معجونٍ بألمِ الفراقِ، حيث فَقَدَ تَجلِّي جمالِ الحقِّ من مرآةِ وجهِ يوسف، ولا كذلك بكاءُ آدم وداودَ، فإنَّه كان بكاءَ الندمِ والتوبةِ، وأين ذلك المقامُ من مقام العشق.

وقال أبو سعيد القرشيُّ: إنما لم يذهب بصرُهما؛ لأنَّ بكاءَهما كان من خوف الله تعالى فحُفِظا، وبُكاءُ يعقوب كان لفقد لذَّة فعُوتِب.

---

(١) البيت هو مطلع القصيدة المنفرجة، ونسبها في طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٥٦ لمحمد بن أحمد الأندلسي، ثم ذكر في ٨/ ٦٠ أنها نسبت لأبي الفضل يوسف بن محمد النحوي.

(٢) البيت في تاريخ مدينة دمشق ٣٢/ ٣٩٢، والتبصرة ٢/ ١١٧ لأبي بكر الشبلي برواية: لا أعاينكم. بدل: لستُ أبصركم.

وقيل: يمكن أن يكونَ ذهابُ بصره عليه السلام من غيرة الله تعالى عليه حين بكى لغيره، وإن كان واسطةً بينَه وبينَه، ولهذا جاء أنَّ الله تعالى أوحى إليه: يا يعقوب، أتتأسَّفُ على غيري؟ وعزَّتي، لآخُذَنَّ عينيك، ولا أرُدُّهما عليك حتى تنساه.

واختار بعضُ العارفين أنَّ ذلك الأسفَ والبكاءَ ليسا إلا لفواتِ ما انكشف له عليه السلام من تجلِّي الله تعالى في مرآة وجه يوسف عليه السلام، ولعمري إنَّه لو كان شاهَدَ تجلِّيَه تعالى في أول التَّعيُّنات وعينِ أعيانِ الموجودات ﷺ لنَسِيَ ما رَأى، ولما عراه ماعرا، ولله تعالى دَرُّ سيدي ابن الفارض حيثُ يقول:

لـو أسـمَـعُـوا يـعـقُـوبَ بـعـضَ مَـلاحـةٍ ... في وجهِه نَسي الجمالَ اليُوسُفِي[1]

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ هذا من الجهل بأحوال العشق وما عليه العاشقون، فإنَّ العاشقَ يتغذَّى بذكر معشوقه:

فإنْ تـمـنَـعُـوا لـيـلـى وحُـسْـنَ حَـدِيـثـهـا ... فلَنْ تَمْنَعُوا مِنِّي البُكَا والقَوَافِيَا[2]

وإذا لم يستطع ذكره بلسانه كان مستغرِقاً بذكره إياه بجنانه:

غــابَ وفــي قــلــبــي لــه شــاهــدٌ ... يُــولِــعُ إضــمــاري بــذكــراهُ

مــثَّــلَــتِ الــفِــكْــرةُ لــي شَــخْــصَــه ... حــتــى كــأنِّــي أتــراآهُ

وكيف يُخوَّف العاشقُ بالهلاك في عشقِ محبوبه، وهلاكُه عينُ حياته كما قيل:

ولـكـن لـديَّ الـمـوتُ فـيـه صـبـابـةً ... حياةٌ لمن أهوى عليَّ بها الفَضْلُ

ومَن لم يمت في حبه لم يَعِش به ... ودونَ اجتناء النحل ما جَنَتِ النَّحْلُ[3]

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أنا لا أشكو إلى غيره، فإنِّي أعلم غيرتَه سبحانه وتعالى على أحبابه، وأنتم لا تعلمون

---

(١) ديوان ابن الفارض ص١٥٣.

(٢) البيت لتوبة بن الحمير، وهو في ديوانه ص ٥١، والمنتظم ٦/ ١٦٨، وتاريخ الإسلام ٢/ ٧٩٦. وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣١٢ دون نسبة.

(٣) البيتان لابن الفارض وهما في ديوانه ص١٣٤.

ذلك. وأيضاً: مَن انقطع إليه تعالى كفاه، ومَن أناخ ببابه أعطاه، وأنشد ذو النون:

إذا ارتحلَ الكِرامُ إليك يوماً ليلتمِسُوكَ حالاً بعدَ حالِ
فإنَّ رِحالَنا حطَّت رضاءً بحكمك عن حُلولٍ وارتحالِ
فَسُسْنا كيف شئتَ ولا تَكِلْنا إلى تدبيرِنا يا ذَا المَعَالي

وعلى هذا دَرَجَ العاشقون، إذا اشتدَّ بهم الحالُ فزعوا إلى الملك المتعال، ومن ذلك:

إلى الله أشكو ما لقيتُ من الهَجْرِ ومِن كَثْرَةِ البَلْوَى ومِن أَلَمِ الصَّبْرِ
ومن حَرَقٍ بينَ الجَوَانِح والحَشَا كجَمْرِ الغَضَا لا بَلْ أحرّ مِن الجمرِ

وقد يقال: إنَّه عليه الصلاة والسلام إنما رفع قصَّةَ شكواه إلى عالم سرِّه ونجواه استرواحاً مما يَجده بتلك المناجاة كما قيل:

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً تمنيتُ أن أشكُو إليه فيَسْمَعُ[1]

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ كأنَّه عليه السلام تنسَّم نسائمَ الفَرَج، بعد أن رَفَعَ الأمرَ إلى مولاه عزَّ وجلَّ فقال ذلك.

﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ من رحمته بإرجاعِهما إليَّ، أو من رحمته تعالى بتوفيقِ يوسف عليه السلام برفع خَجَالتكم إذا وجدتموه.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أرادوا ضُرَّ المجاعة، ولو أنَّهم علموا وأنصفُوا لقصدوا: ضُرَّ فراقِك، فإنَّه قد أضَرَّ بأبيهم وبهم وبأهلهم لو يعلمون:

كفى حَزَناً بالوَالِهِ الصبِّ أن يرى منازلَ مَن يهوى معطَّلَةً قَفْرا[2]

واعلم أنَّ فيما قاله إخوةُ يوسف له عليه السلام من هنا إلى ﴿ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾

---

(١) لم نقف عليه، وقريب منه قول مجنون ليلى في ديوانه ص٣٠٨:
إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً تمنيتُ أن ألقاكِ يا ليلَ خالياً

(٢) البيت في المدهش لابن الجوزي ص٣٩٥ دون نسبة، وهو في طبقات الأولياء ص ٢٠٦ لأبي بكر الشبلي.

تعليمُ آداب الدعاء والرجوع إلى الأكابر، ومخاطبةِ السادات، فَمَنْ لَم يرجعْ إلى بابِ سيِّده بالذلَّةِ والافتقار وتذليلِ النفس وتصغيرِ ما يبدو منها، ويَرَ أنَّ ما من سيده إليه على طريق الصدقة والفضل لا على طريق الاستحقاق، كان مُبْعَداً مطروداً، وينبغي لعشَّاق جمال القِدَم إذا دخلوا الحضرةَ أن يقولوا: يا أيها العزيز مسَّنا وأهلَنا من ضرٍّ فراقك والبعدِ عن ساحة وصالِك ما لا يحتمله الصمُّ الصِّلاب:

خليليَّ ما ألقاه في الحبِّ إن يَدُم على صخرةٍ صماءَ يَنْفَلِقِ الصَّخْرُ

ويقولوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ من أعمالٍ معلولةٍ وأفعالٍ مغشوشةٍ ومعرفةٍ قليلةٍ لم تُحِطْ بذرَّةٍ من أنوار عظمتك، وكلُّ ذلك لا يليق بكمالِ عزَّتك وجلالِ صمديَّتك، ﴿فَأَوْفِ لَنَا﴾ كيلَ قُربك من بَيادِر جُودِك وفضلِك ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بنِعَم مشاهدتِك؛ فإنَّه إذا عُومِل المخلوقُ بما عُومِل فمعاملةُ الخالق بذلك أولى.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ خاطبوه بعدَ المعرفة بخطابِ المودة لا بخطاب التكلُّف، وفيه من حسن الظنِّ فيه عليه السلام ما فيه:

إذا صَفَتِ المودَّةُ بينَ قومٍ ودَامَ ولاؤُهم سَمُجَ الثناءُ(١)

ويمكن أن يقال: إنَّهم لمَّا عرفوه سقطت عنهم الهيبةُ وهاجت الحميةُ فلم يكلِّموه على النمط الأول. وقوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ جوابٌ لهم، لكنَّ زيادةَ ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ قيل: لتهوين حالِ بداهة الخجل، وقيل: للإشارة إلى أنَّ أخوَّتَهم لا تُعَدُّ أخوَّةً؛ لأنَّ الأُخُوَّة الصحيحةَ ما لم يكن فيها جفاءٌ.

ثم إنه عليه السلام لمَّا رأى اعترافَهم واعتذارَهم قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وهذا من شرائط الكرم، فالكريمُ إذا قَدَرَ عفا:

والعذر عند كرام الناس مقبول(٢)

---

(١) قائله حيدر الخُجُندي، كما في يتيمة الدهر ٥/ ٣١٤، والوافي بالوفيات ١٣/ ٢٣٠، وفيهما: ودام إخاؤُهم.

(٢) عجز بيت صدره: وقد أتيتُ رسولَ الله معتذراً. وهو من قصيدة البردة لكعب بن زهير.

وقال شاه الكرماني[١]: مَن نظر إلى الخلق بعين الحقِّ لم يَعْبأ بمخالفتهم، ومن نَظر إليهم بعينه أفنى أيامه بمخاصمتهم. ألا ترى يوسفَ عليه السلام لمَّا عَلِم مجاري القضاء كيف عذَرَ إخوتَه.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لمَّا عَلِم عليه السلام أنَّ أباه عليه السلام لا يتحمّل الوصالَ الكليَّ بالبداهة جعل وصالَه بالتدريج، فأرسل إليه بقميصه، ولمَّا كان مبدأ الهمِّ الذي أصابه من القميص الذي جاؤوا عليه بدمٍ كذبٍ عيَّنَ هذا القميص مبدأً للسرور دونَ غيره من آثاره عليه السلام ليدخُلَ عليه السرورُ من الجهة التي دخل عليه الهمُّ منها.

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان كرمُ يوسف عليه السلام يقتضي أن يسيرَ بنفسه إلى أبيه ولعلَّه إنما لم يفعل لعلمه أنَّ ذلك يشقُّ على أبيه لكثرة مَن يسير معه، ولا يمكن أن يسيرَ إليه بدون ذلك، أو لأنّ في ذلك تعطُّلَ أمر العامَّة وليس هناك مَن يقوم به غيره، ويحتمل أن يكونَ أُوحِي إليه بذلك لحكمةٍ أخرى.

وقيل: إنَّ المعشوقيةَ اقتضت ذلك، ومَن رأى معشوقاً رحيماً بعاشقه؟! وفيه ما لا يخفى.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ يقال: إنَّ ريحَ الصبا سألت الله تعالى فقالت: يا ربِّ، خُصَّني أن أبشِّرَ يعقوبَ عليه السلام بابنه، فأَذِن لها بذلك، فحَمَلت نشرَه إلى مشامِّه عليه السلام، وكان ساجداً فرفع رأسه وقال ذلك، وكان لسانُ حاله يقول:

أيا جَبَلَي نَعمانَ بالله خَلِّيا ... نسيمَ الصبا يَخْلُصْ إليَّ نسيمُها
أَجِدْ بَردَها أو تَشْفِ مني حرارةً ... على كبدٍ لم يبقَ إلا صميمُها
فإنَّ الصبا ريحٌ إذا ما تنسَّمَت ... على نفسِ مهمومٍ تجلَّت همومُها[٢]

---

(١) هو أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني، الزاهد، كان من أولاد الملوك فتزهَّد، وصحب أبا تراب النخشبي وغيره. له رسالات، وكتاب سماه «مرآة الحكماء»، توفي قبل الثلاث مئة. طبقات الصوفية ص١٩٢، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٣٧، وتاريخ الإسلام ٦/ ٩٥١.

(٢) الأبيات لمجنون ليلى، وهي في ديوانه ص٢٥٢، وفيه محزون. بدل: مهموم.

وهكذا عشَّاقُ الحضرة، لا يزالون يتعرَّضون لنفحاتِ ريح وصال الأزل، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ لربِّكم في أيامِ دهركم نفحاتٌ، ألا فتعرَّضوا لنفحاتِ الرحمن»(١).

ويقال: المؤمن المتحقِّقُ يجد نسيمَ الإيمان في قلبه، وروحَ المعرفة السابقة له من الله تعالى في سرِّه، وإنَّما وجد عليه السلام هذا الرِيحَ حيث بلغ الكتابُ أجَلَه، ودَنَت أيامُ الوصال، وحان تصرُّمُ أيام الهَجر والبَلْبَال، وإلَّا فلِمَ لَمْ يجدْه عليه السلام لمَّا كان يوسفُ في الجبِّ ليس بينَه وبينَه إلا سويعةٌ من نَهارٍ، وما ذلك إلا لأنَّ الأمورَ مرهونةٌ بأوقاتها. وعلى هذا كشوفاتُ الأولياء فإنهم آونةً يُكشَفُ لهم ـ على ما قيل ـ اللوحُ المحفوظ، وأخرى لا يعرفون ما تحت أقدامهم.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ العاشقَ الهائمَ المنتظِرَ لقاءَ الحقِّ سبحانه إذا ذهبت عيناه من طول البكاء يجيء إليه بشيرُ تجلِّيه، فيلقي عليه قميصَ أُنسِه في حضراتِ قُدسِه، فيَرْتَدُّ بصيراً بشمِّ ذلك، فهنالك يرى الحقَّ بالحقِّ وينجلي الغينُ عن العين.

ويقال: إنَّه عليه السلام إنما ارتدَّ بصيراً حين وُضِع القميصُ على وجهه لأنَّه وجَدَ لذَّةَ نفحةِ الحقِّ تعالى منه، حيث كان يوسفُ عليه السلام محلَّ تجليه جلَّ جلالُه، وكان القميصُ معبَّقاً بريح جِنانِ قُدسه، فعاد لذلك نورُ بصره عليه السلام إلى مجاريه فأبْصَر.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٩/(٥١٩)، والأوسط (٢٨٧٧) من حديث محمد بن مسلمة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣١: فيه من لم أعرفه، ومن أعرفه ثقات.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٢٠)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٦٢، والبيهقي في الشعب (١١٢١)، وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٣٣٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ١٢٣ من طريق عمرو بن الربيع، عن يحيى بن أيوب، عن عيسى بن موسى بن إياس بن البكير، عن صفوان بن سليم عن أنس ﷺ بلفظ: «. . . وتعرضوا لنفحات رحمة الله تعالى، فإن لله نفحاتٍ من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده». قال أبو نعيم: غريب من حديث صفوان، تفرد به عمرو بن الربيع عن يحيى بن أيوب. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣١: وإسناد رجاله رجال الصحيح، غير عيسى بن موسى بن إياس بن البكير، وهو ثقة.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وَعَدَهم إلى أن يتعرَّفَ منهم صدقَ التوبة، أو حتى يستأذِنَ ربَّه تعالى في الاستغفار لهم فيأذَنَ سبحانه، لئلا يكونَ مردوداً فيه كما رُدَّ نوحٌ عليه السلام في ولده بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

وقال بعضهم: وعدهم الاستغفارَ لأنَّه لم يفرغ بعدُ من استبشاره إلى استغفاره.

وقيل: إنَّما أسرع يوسفُ بالاستغفار لهم ووَعَدَ يعقوب عليهما السلام لأنَّ يعقوبَ كان أشدَّ حباً لهم فعاتبهم بالتأخير، ويوسفُ لم يرهم أهلاً للعتاب فتجاوز عنهم من أوَّلِ وهلةٍ، أو اكتفى بما أصابهم من الخَجَل، وكان خَجَلُهم منه أقوى من خجلهم من أبيهم، وفي المثل: كفى للمقصرِّ حياءً يومُ اللقاء.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ لأنَّهما ذاقا طعمَ مَرارة الفراق فخصَّهما من بينهم بمزيد الدنوِّ يومَ التلاق، ومن هنا يتبيَّن أين منازلُ العاشقين يومَ الوصال.

﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ حيث بَانَ لهم أنوارُ[١] جلال الله تعالى في مرآة وجهه عليه السلام، وعايَنوا ما عاينت الملائكةُ عليهم السلام من آدم عليه السلام حين وقعوا له ساجدين، وما هو إذ ذاك إلا كعبةُ الله تعالى التي فيها آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيم.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ مفوِّضاً إليك شأني كلَّه بحيث لا يكون لي رجوعٌ إلى نفسي، ولا إلى سببٍ من الأسبابِ بحالٍ من الأحوال.

﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بمن أصلَحْتَهم لحضرتك، وأسقَطْتَ عنهم سماتِ الخَلْق، وأزلْتَ عنهم رُعُوناتِ الطبع.

ولا يخفى ما في تقديمه عليه السلام الثناءَ على الدعاءِ من الأدب، وهو الذي يقتضيه المقام.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال غيرُ واحدٍ من الصوفية: مَن

(١) تحرف في (م) إلى: أنواع.

التَفَتَ إلى غير الله تعالى فهو مُشرِكٌ، وقال قائلهم:

ولو خَطَرتْ لي في سواكَ إرادةٌ  على خَاطِري سهواً حَكَمْتُ بردَّتي[1]

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بيانٌ من الله تعالى وعلمٌ لا معارضةَ للنفس والشيطان فيه ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، وذكر بعضُ العارفين أنَّ البصيرةَ أعلى من النور؛ لأنَّها لا تصحُّ لأحدٍ، وهو رقيقُ الميل إلى السِّوَى.

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكونَ عارفاً بطريق الإيصال إليه سبحانه، عالماً بما يجب له تعالى وما يجوز وما يمتنع عليه جل شأنه، والدعاةُ إلى الله تعالى اليومَ من هؤلاء الذين نَصَبُوا أنفسَهم إلى الإرشاد بزعمهم أجهلُ من حمارِ الحكيم توما[2]، وهم لعمري في ضلالةٍ مُدْلَهِمَّةٍ ومَهَامِهَ يَحَارُ فيها الخِرِّيتُ، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، ولبئس ما كانوا يصنعون.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم ذَوُو الأحوال من العارفين والعاشقين والصابرين والصادقين وغيرِهم، وفيها أيضاً عبرةٌ للملوك في بسط العدل كما فعل يوسف عليه السلام، ولأهل التقوى في ترك ما تُراوِدهم النفسُ الشهوانية عليه، وللمماليك في حفظ حَرَم السادة، ولا أحدٌ أغْيَرُ من الله تعالى، ولذلك حَرَّم الفواحش، وللقادرين في العفو عمن أساء إليهم، ولغيرهم في غير ذلك، ولكن أين المعتبرون؟ أشباحٌ ولا أرواح، وديارٌ ولا دَيَّار، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا، وقد أوَّل بعضُ الصوفية قدس الله تعالى أسرارَهم يوسفَ بالقلب المستعدِّ الذي هو في غاية الحسن، ويعقوبَ بالعقل، والإخوةَ بني العلَّات بالحواسِّ الخمس الظاهرة والخمس الباطنة والقوَّة الشهوانية، وبنيامينَ بالقوة العاقلة العملية،

---

(١) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص٥٢، وقد سلف ١/ ٣٤١.

(٢) قال الحافظ في الدرر الكامنة ٢/ ٧٥: توما بن إبراهيم الطبيب، كان عارفاً بالطب، وله اختصار مسائل حنين. وكأنه الذي عناه من قال: قال حمار الحكيم توما...، وقال التنوخي في الفرج بعد الشدة ١/ ٤٢٤: ومن مشهوري الحمير حمار الحكيم توما، الذي قيل فيه:

قال حِمارُ الحكيم توما  لو أنصفَ الدهرُ كنتُ أركَبْ

لأنَّني جاهِلٌ بَسيطٌ  وصاحِبِي جاهلٌ مركَّبْ

وراحيلَ أمَّ يوسف بالنفس اللوَّامة، وليا بالنفس الأمَّارة، والجُبَّ بقعر الطبيعة البدنية، والقميصَ الذي أُلبِسَه يوسفُ في الجبِّ بصفة الاستعداد الأصليِّ والنورِ الفطريِّ، والذئبَ بالقوة الغضبية، والدمَ الكذبَ بأثرها، وابيضاضَ عينِ يعقوب بكَلَال البصيرة وفقدانِ نورِ العقل، وشراؤُه من عزيز مصرَ بثمنٍ بخس بتسليم الطبيعة له إلى عزيز الروح الذي في مصرِ مدينة القدس بما يحصل للقوة الفكرية من المعاني الفائضةِ عليها من الروح. وامرأة العزيز بالنفس اللوَّامة، وقدَّ القميص من دُبُرٍ بخرقها لباسَ الصفة النورية التي هي من قِبَل الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة، ووجدانَ السيِّدِ بالباب بظهور نورِ الروح عند إقبال القلب إليه بواسطة تَذَكُّرِ البرهانِ العقليِّ ووُرُودِ الوارد القُدْسيِّ عليه، والشاهدَ بالفكر الذي هو ابن عم امرأة العزيز، أو بالطبيعة الجسمانيَّة الذي هو ابن خالتها، والصاحبَيْنِ بقوة المحبَّة الروحية وبهوى النفس، والخمرَ بخمر العشق، والخُبزَ باللَّذَّات، والطيرَ بطَيْرِ القُوى الجسمانية، والمَلِكَ بالعقل الفعَّال، والبقراتِ بمراتب النفس، والسقاية بقوة الإدراك، والمؤذِّن بالوهم إلى غير ذلك، وطبَّقَ القصَّةَ على ما ذُكِر وتكَلَّفَ له أشدَّ تكلُّفٍ، وما أغناه عن ذلك!

والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل، لا ربَّ غيرُه ولا يُرجَى إلا خيرُه.